جماعة الصادعون بالحق

تعريف بكتاب

شروح

معالم في الطريق

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

تعريف بكتاب شروح "معالم في الطريق"

من أعظم الأحداث المأساوية، وأسوأ النكسات في التاريخ الإسلامي كله هي سقوط الخلافة الإسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية أو إسقاطها بتعبير أدق عبر مؤامرات على مدى قرنين من الزمان.

ولقد عبر عن هذه المأساة صاحب كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) بقوله:

"لم يكن انحطاط المسلمين أولاً، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً، حادثاً من نوعٍ ما وقع وتكرر في التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم، وانقراض الحكومات والدول، وانكسار الملوك والفاتحين، وانهزام الغزاة المنتصرين، وتقلص ظل المدنيات والجزر السياسي بعد المد. فما أكثر ما وقع مثل هذا في تاريخ كل أمة. وما أكثر أمثاله في تاريخ الإنسان العام! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له في التاريخ...

ولكن ذلك لم يتم في يوم، وإنما وقع تدريجياً في عقود من السنين، والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث، ولم يقدره قدره، وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه."

هذا الحدث المؤلم أذكى قلوب بعض المسلمين الذين رأوا خطورة هذا الحدث، وحفزهم على التحمس للسعي إلى إقامة خلافة إسلامية من جديد، فظهرت حركات إسلامية تدعو إلى العودة إلى تحكيم كتاب الله وتطبيق الشريعة الإسلامية.

ولكن الحركات الإسلامية التي جاءت بعد سقوط الخلافة لم تتمكن من تشخيص الواقع بصورة صحيحة لقصور في التصور والمنهج، وبالتالي فإن المنهج الذي ترتب على ذلك كان به قصور أيضا.

ويمكن القول بأن الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- هو الذي وفقه الله تعالى لهذا التشخيص الدقيق للواقع؛ ومن ثم إدراك التصور الصحيح والمنهج المكافئ لعلاج هذا الواقع، فالأستاذ سيد الذي بدأ حياته الحركية بانضمامه إلى الإخوان المسلمين شرع يدرس حقائق الإسلام من القرآن الكريم رأسا، وأخذ يزن الواقع الذي بين يديه بهذا الميزان الذي لا يخطئ أبدا. وهذا من توفيق الله العظيم؛ لأن الحقيقة التي اهتدى إليها لا يهتدي إليها إلا من جعل القرآن ميزانه ومصدره للتلقي ولم يخلطه بالمصادر الأخرى؛ وهذا هو السبب الذي سبق به سيد قطب غيره من العلماء الذين لم يستطيعوا تشخيص الواقع في العالم الإسلامي على حقيقته، ومن ثم لم يهتدوا إلى المنهج الصحيح، وكان من المتوقع من هؤلاء العلماء أن يكونوا أول من يرحب بهذا المنهج الذي عرضه الأستاذ سيد باعتبار أنه المنهج الملائم لمثل هذا الواقع.

إن منهج الدعوة الذي عرضه الأستاذ سيد كان نابعا عن يقينه بأن انحراف الأمة ليس انحرافا جزئيا بسيطا يحتاج إلى ترقيعات وإصلاحات جزئية، ولذلك صرح للناس بأن المشكلة تكمن في ارتداد البشرية إلى الجاهلية التي أخرجها الإسلام منها بما في ذلك الذين يعيشون فى العالم الذي كان إسلاميا.

"لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله. فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: «لا إله إلا الله» دون أن يدرك مدلولها، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية «الحاكمية» التي يدعيها العباد لأنفسهم -وهي مرادفة للألوهية- سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو كشعوب. فالأفراد، كالتشكيلات، كالشعوب، ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية.. إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدت عن لا إله إلا الله. فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية. ولم تعد توحد الله، وتخلص له الولاء..

البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: «لا إله إلا الله» بلا مدلول ولا واقع.. وهؤلاء أكثر إثماً وأشد عذاباً يوم القيامة، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد -من بعد ما تبين لهم الهدى- ومن بعد أن كانوا في دين الله!"[١]

ويقينه أيضا أن نقطة البدء هي الوعي الصحيح لجاهلية هذه المجتمعات وأن المجتمع المسلم الحقيقي غاب عن الوجود:

"فإن العصبة المسلمة التي تجاهد لإعادة نشأة هذا الدين في الأرض في عالم الواقع يجب أن تستيقن هذه الحقيقة بوضوح وعمق ويجب ألا تتلجلج فيها أي تلجلج ويجب أن تعرّف الناس بها تعريفا صريحا واضحا جازما.. فهذه هي نقطة البدء والانطلاق.. فإذا انحرفت الحركة عنها -منذ البدء- أدنى انحراف ضلت طريقها كله وبنت على غير أساس مهما توافر لها من الإخلاص بعد ذلك والصبر والتصميم على المضي في الطريق!"[٢]

ومن ثم يقينه أن نقطة البدء هي دعوة الناس من جديد إلى لا إله إلا الله:

"كذلك ينبغي أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة -حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون!- يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو -أولا- إقرار عقيدة لا اله إلا الله -بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم- إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم..."[٣]

واستيقن أن الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى المجتمع الإسلامي هو تأسيس التجمع الإسلامي العضوي من جديد.

يقول الأستاذ سيد في كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة):

"... توجد نقطة البدء، نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب، أو في عدة قلوب -قلوب العصبة المؤمنة- ثم تمضي القافلة في الطريق، في الطريق الطويل، الشائك، الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى أول مرة -فيما عدا بعض الاستثناءات- ثم تصل القافلة في نهاية الطريق الطويل الشائك كما وصلت القافلة الأولى."[٤]

---

١ في ظلال القرآن، الجزء ٢، ص ١٠٥٧.

٢ في ظلال القرآن، الجزء ٣، ص ١٤٩٣.

٣ معالم في الطريق، فصل جيل قرآني فريد، ص٣٥.

٤ الإسلام ومشكلات الحضارة، فصل طريق الخلاص، ص ١٣٤.

"إن البشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع. إنما تستجيب لمنهج حي متحرك، مجسم، ممثل في حياة جماعة من البشر، مترجم إلى واقع تراه العين وتلمسه اليد، وتلاحظ آثاره العقول.

إنها تستجيب للمنهج الإسلامي في صورة مجتمع إسلامي."

إن سيد قطب رحمه الله أعلن للناس عامة وللإخوان خاصة فكرته هذه وكتبها في كتبه المختلفة وخاصة في ظلال القرآن ومعالم في الطريق.

وزيادة على هذه الكتابات فإن سيد قطب التقى بأعضاء من الإخوان في السجن وشرح لهم دعوة القرآن وأن العالم أصبح جاهليا ولا بد من الدعوة إلى إنشاء المجتمع الإسلامي من جديد؛ لأنه هو الطريق الوحيد لإنشاء دولة الإسلام التي تضم المسلمين وتمكنهم من تطبيق دينهم الذي ارتضاه الله لهم كما قال تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥].

وكما نعلم، هناك فرق كبير بين قراءة رسالة من شيخك أو مربيك وبين العيش مع الشيخ تتلقى منه التربية مباشرة، وتتفاعل مع كلماته، مع الاقتداء به وسؤاله عما يشكل عليك. فإذا رأينا تأثير كلمات الأستاذ سيد على معظم العاملين في ساحة الحركة الإسلامية المعاصرة؛ ومن ثم كثرة محبيه والمعجبين بكتاباته المتميزة، فكيف بتلاميذه الذين التقى بهم وشرح لهم الإسلام وتربوا على يديه؟

من أولئك الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة الشيخ مصطفى كامل محمد أمير جماعة "الصادعون بالحق" وهو شارح كتاب "معالم في الطريق".

لقد تحدث الشيخ مصطفى كامل عن حياته في الإخوان وعن لقائه مع الأستاذ سيد في مذكراته التي نشرها بعنوان (قصتي مع سيد قطب) بما أغنى عن ذكر ذلك هنا.

فالشيخ مصطفى فهم دعوة القرآن، وأدرك بعمق داء البشرية اليوم، وأيقن أن دواءها الوحيد هو الرجوع إلى ربها. واستيقن أيضا أنه ينبغي للحركة الإسلامية أن تتبنى هذه الفكرة وأنه لا يمكن لمسلم اهتدى لهذا الحق أن يتقاعس عن فريضة الدعوة إلى الإسلام من جديد.

وهذا ما دفعه إلى القيام بكتابة شروح لكتاب "معالم في الطريق". هذا الكتاب الذي وضع أسس "خطة العمل لحركة البعث الإسلامي" في هذا العصر. ولقد أدرك أعداء الإسلام هذه السمة المميزة لكتاب المعالم فسموه بـ (مانفستو الحركات الإسلامية).

إن كتاب شروح المعالم الذي بين أيدينا ليس كشروح الكتب المعروفة. إنه فريد في نوعه. وليس هذا من المبالغات بل هي الحقيقة التي يدركها كل من يقرأه ويدرسه.

وإليك بعضا من العوامل التي هيأته لهذا التميز:

الأولى: إن الشارح هو تلميذ مؤلف الكتاب الذي يقوم بشرحه، التلميذ الذي يشعر أن معلمه وأستاذه قدم له أعظم هدية في الحياة، وهل هناك نعمة وعطية أعظم من المساعدة على إدراك الفهم الصحيح لدين الله والإيمان به والاستعداد لبذل كل ما يملك لهذا الدين الذي اختاره الله للبشرية ..

هذه المعايشة الحقيقية بين الأستاذ وتلميذه، والتلقي المباشر منه كل حقائق هذا الدين، واستفساره واستشارته لأستاذه في كل ما يتوقعه من عقبات في طريق الدعوة...كل هذه الميزات تجعل هذا التلميذ أقدر على إدراك مرامي كلماته وتعبيراته في كتاباته المختلفة، فهو أجدر من يعبر بدقة عن حقيقة دعوة الأستاذ وأهدافه؛ لذا فإن قيام هذا التلميذ بكتابة شروح لكتاب المعالم لا شك يجعله شرحا مميزا.

الثانية: كوَّن الشارح جماعة تسعى لإعادة الأمة الإسلامية التي هي أول خطوة في طريق إعادة الخلافة الإسلامية مسترشدا بالمعالم. وهذا فتح له آفاقا لم تكن لتتفتح له لو أنه قعد بالعلم الذي تلقاه من شيخه. فجاء هذا الشرح بعد تجربة طويلة حيث كوَّن صاحبها تلك الجماعة وغذاها بروحه وعقله وكيانه كله.

الثالثة: أن الشارح ربَّى هذه الجماعة تربية شاملة، لم تترك مجالا من مجالات التربية إلا وطرقتها سواء كانت عقلية و فكرية، أو روحية ووجدانية، أو علمية وثقافية، أو اجتماعية وتفاعلية مع الغير، أو أخلاقية وسلوكية، أو حركية ودعوية. ولا شك أن تربية المرء لغيره هي تربية لنفسه كما يدركها كل من عاش لفكرة ودعا الناس إليها وحاول تربية المستجيبين لهذه الدعوة.

الرابعة: إن تربية هذه الجماعة استغرقت أكثر من أربعة عقود من الزمن، وهو زمن طويل أتاح للشارح فرصة التعرف على النفس البشرية والتواءاتها ونتوءاتها، وعوامل صعودها وارتفاعها إلى الآفاق العليا. فأنت عندما تطالع هذه الشروح تجد نفسك أمام عالم رباني متخصص في تربية النفس البشرية وعلاج أمراضها، ويهتم كثيرا بتطهير هذه النفس ظاهرا وباطنا...

ظاهرا حتى يكون مظهر الداعية مساهما في جذب أنظار المدعوين إلى جماليات الإسلام (إن الله جميل يحب الجمال) (الطهور شطر الإيمان)، فترى الشارح يفيض في شرح قضايا الهندام والأناقة وأهمية ذلك بالنسبة للداعية المسلم..

وباطنا حتى يكون الداعية نقي السريرة، طاهر الباطن، متخلصا من أمراض القلوب، ممتلئ القلب بالمشاعر الإنسانية الراقية، محب الخير للبشرية جمعاء، ومخلص الحب في الله لإخوانه المؤمنين...

فهذه المعاناة الدائبة في محاولة تربية النفوس خلال تلك الفترة المديدة وتلك الهمة العالية التي لا تقنع إلا بمحاولة رفع النفس البشرية إلى كمالها المقدر.. جعلت لهذه الشروح طعما لذيذا ونكهة خاصة قلما تجدها في غيرها.

الخامسة: اهتم الشيخ بتربية الجماعة على الفهم الواعي لطبيعة المعركة بين الحق والباطل؛ فالمطالع لهذه الشروح لا تخطئ عينه مدى الجهد الذي بذله الشارح في توعية أفراد الجماعة لفهم ما يدور حولها، وما يقوم به الأعداء من مخططات مدروسة بعناية لاجتثاث حقيقة الإسلام من حياة الناس مع إبقاء بعض مظاهره لخداع الجماهير بأن إسلامهم ما زال بخير!!!

وفي نفس الوقت قيام الأعداء بسعي حثيث لا ينقطع لمحاولة ترويض بعض الحركات الإسلامية لتقبل أنصاف الحلول والالتقاء مع الجاهلية في استخدام بعض أساليبها لبلوغ أهدافها، في ذات الوقت الذي تعاملت فيه الجاهلية مع من تلاحظ منه صدق التوجه إلى المفاهيم الإسلامية الصحيحة، والالتزام بالمنهج الإسلامي لإعادة المجتمع الإسلامي الحقيقي والدولة الإسلامية التي تمثله.. تعاملت معه معاملة

وحشية حتى يخاف الناس على أنفسهم فأصبح العلماء بين ساكت يعتذر بأنه في حالة "أضعف الإيمان" ومداهن يعتذر "بأهون البليتين" تارة، و"الترجيح بين المصلحة والمفسدة" تارة أخرى.

والجدير بالذكر هنا أنه من الوسائل التي استخدمها الشيخ لتربية الجماعة وتوعيتها شرح كتاب المعالم، فقد كانت هذه الشروح في الأصل عبارة عن محاضرات ألقاها الشيخ على بعض مجموعات الجماعة التي كان يلتقي معها، وتم تسجيلها ثم تفريغها.

من هنا نستطيع أن نقرر بأن عناصر هذه الشروح تكونت من خلال معاناة طويلة في فترات زمنية مختلفة الأجواء والطعوم، بداية من التلقي من أستاذ سيد، ثم محاولة تربية الجماعة على القضايا التي طرحت في هذه الشروح في سنوات طويلة، ثم تسجيل هذه التجربة التي لا تعدو أن تكون نقل ما في القلب من مشاعر، وما في العقل من آراء وأفكار وما ترسب في النفس من خلال المعايشة الطويلة مع القرآن ومع حقيقة الألوهية، وما تراكم من تجربة المعاناة الناشئة من دعوة تقوم على الاصطفاء ومن تربية لأناس مختلفين كلٌ يحتاج إلى مراعاة وفهم لنفسياته مع محاولة رفعه إلى الآفاق العليا...

وأخيرا.. تفريغ هذه التسجيلات وتحويلها إلى مادة مكتوبة يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها...

وقبل أن نختم هذه المقدمة أحببنا أن نثبت هنا أمثلة توضح طبيعة هذه الشروح وأسلوب الشارح لتناول القضايا التي عرضها الأستاذ سيد في متن "المعالم"، ومن خلال هذه الأمثلة يتأكد لدينا ما قررناه في بداية المقدمة من أن الشارح (التلميذ) هو أجدر من يستطيع شرح وبيان ما أجمله المؤلف (الأستاذ)، ذلك التلميذ الذي درس هذه (المعالم) وهي مخطوطة وتلقى من أستاذه مباشرة كيفية تطبيق هذه (الخطة الحركية) التي عرض الأستاذ (معالمها) وحاول بنفسه إعداد وتربية الرعيل الأول الذي يكون نواة لـ"طلائع البعث الإسلامي ورواده" التي كتب لها هذه "المعالم" لتكون على بينة من "طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها.."

تأمل بعمق معاني هذه الكلمات القلائل التي سجلها الأستاذ سيد في مقدمة المعالم:

"ولا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من "معالم في الطريق"، معالم تعرف منها طبيعة دورها، وحقيقة وظيفتها، وصلب غايتها. ونقطة البدء في الرحلة الطويلة.. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعًا.. أين تلتقي مع الناس وأين تفترق؟ ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها؟ ثم تعرف من أين تتلقى -في هذا كله- وكيف تتلقى؟

هذه المعالم لا بد أن تقام من المصدر الأول لهذه العقيدة.. القرآن.. ومن توجيهاته الأساسية، ومن التصور الذي أنشأه في نفوس الصفوة المختارة، التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع، والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير."

تم تأمل كذلك كيف وفق الله الشارح (التلميذ) إلى توضيح وتفصيل ما أجمله (أستاذه):

"لا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من "معالم في الطريق". معالم تعرف منها طبيعة دورها.."

أول معلم يجب أن تعرفه هذه الطليعة هو **(طبيعة دورها)**؛ وهي **القيادة:** قيادة البشرية إلى الله، وقيادتها إلى الهدى، وتدرك أنها مناطة بعمل ضخم وخطير، فلا تستقل أو تقلل من شأنها أو من شأن نفسها...

والمعلم الثاني هو **(حقيقة وظيفتها)**؛ وهي **البلاغ عن رب العالمين**، ومحاولة هداية البشرية إلى هذا الحق. هذه هي الوظيفة؛ وهذه أعظم وظيفة يؤديها إنسان. وهي وظيفة الأنبياء...

والمعلم الثالث أن تعرف **(صلب غايتها)**؛ وهي **العبودية لله عز وجل.**

والمعلم الرابع أن تعرف **(نقطة البدء في الرحلة الطويلة)**؛ وهي **العقيدة** بطبيعة الحال. أن يكون البدء دائماً بقضية العقيدة وقضية لا إله إلا الله.

والمعلم الخامس أن تعرف **(طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً)**؛ وهو التميز عن هذه الجاهلية، وتحديد موقفها من خلال المفاصلة والتميز عن هذه الجاهلية.

والمعلم السادس أن تعرف أيضاً **(أين تلتقي مع الناس وأين تفترق)**؛ وهي قضية الولاء والبراء. أن تعرف كيف تتعامل وكيف تحب، وما هي نقاط الالتقاء وما هي نقاط الافتراق. وكل هذا يتحدد على أساسه الولاء والبراء مع هذه الجاهلية.

والمعلم السابع أن تعرف أيضاً **(ما خصائصها هي، وما هي خصائص الجاهلية من حولها)**؛ وهو ما نعبر عنه بمعرفة الواقع. فلا بد لهذه الطليعة أن تعرف الواقع جيداً؛ تعرف خصائصها، ثم تعرف خصائص الجاهلية من حولها. وتحدد المسافة بينها وبين الجاهلية، وتحدد نقطة البداية التي ستتعامل بها أو منها مع الجاهلية.

والمعلم الثامن أن تعرف **(كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام؟ وفيم تخاطبها؟)**؛ وهو المنهج. لا بد أن نعرف كيف نخاطب هذه الجاهلية. فليس كل خطاب صالح، وليست كل بداية صحيحة، وليست كل طريقة تؤدي إلى أن تدرك الجاهلية كل ما ندعو إليه. وهذا ما يفرق بين كثير من التيارات الإسلامية.

ثم **المعلم التاسع (أن تعرف من أين نتلقى في هذا كله، وكيف نتلقى). تحديد المصدر وتحديد منهج التلقي** وهو -أيضاً- أمر مهم جداً.

وأخيراً **المعلم العاشر** أن تعرف **(كيف أنشأ الإسلام في نفوس الصفوة المختارة** -من الصحابة- **كل هذا الذي صنع، والتي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير).**

والصحابة هم النموذج الذي نطبق عليه حقائق الإسلام، لنرى كيف ظهرت؟ وكيف قامت في عالم الواقع؟

نرى كيف تحول عمر -رضي الله عنه- من عمر القاسي العنيف الدموي المستكبر إلى ذلك الرجل العالم الملهم الرحيم القائد الإداري.. كيف؟

كيف تحول خالد بن الوليد من عدو للإسلام إلى سيف الله المسلول؟ وهكذا..

هل اتضحت لديك طبيعة هذه "الشروح"؟ وهل تعرفت على أسلوب الشارح في تفصيل القضايا التي أجملها المؤلف؟

خذ مثالا آخر يوضح أكثر كيفية تناول الشارح في تفصيله لما أجمله أستاذه.

يقول الأستاذ سيد وهو يتحدث عن قضية "المرحلية" في منهج الدعوة في فصل "الجهاد في سبيل الله":

"السمة الثانية في منهج هذا الدين هي الواقعية الحركية. فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائلها المكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهي لا تقابل الواقع بنظريات مجردة، كما أنها لا تقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة.."

فقد قام الشارح بتوضيح مرامي هذه الكلمات المركزة التي تتناول قضية من أهم القضايا التي على الحركة الإسلامية المعاصرة أن تحدد موقفها منها عندما تحاول وضع خطتها الحركية لبلوغ أهدافها، وهي قضية "المرحلية".

تأمل هذه المقتطفات التي انتزعناها من سياقها في شرح واف أورده الشارح "التلميذ" لبيان مقاصد أستاذه من هذه العبارة الموجزة.

يقول الشارح:

"هذا هو المقصود بأنه منهج ذو مراحل؛ أنه وهو ينطلق من السفح إلى القمة، أو من نقطة البداية إلى نقطة النهاية يمر بمراحل متعددة، وكل مرحلة لها مقتضياتها الخاصة، ولها أحكامها التي تتفق معها، وتستجيب لحاجات هذه المرحلة.. ولذلك لا بد من أن يكون للجماعة المسلمة فقهها الحركي الذي يمشي متواكباً مع طبيعة المرحلة وأهدافها وحاجاتها، وأيضاً مع عقبات المرحلة، وكل ما تستلزمه هذه المرحلة من إدراك وفقه، لكي تستخرج من شريعة الله الأحكام التي تتفق مع هذه المرحلة، وتستجيب لها."

"هذا هو المقصود بقضية المرحلية التي نحن بصددها."

"ولا شك أن التجربة المتكاملة والتي بقيت محفوظة لتكون دليلاً للناس أمامهم إلى يوم القيامة هي التجربة الأخيرة التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره خاتم الأنبياء، فأمضى الله على يديه حقيقة هذا الدين متكاملة؛ تصوراً ومنهجاً وحركةً وسلوكاً وأخلاقاً .. فأصبحت هذه هي التجربة الرائعة الوحيدة التي ينبغي على المسلمين أن يحذوا حذوها، وأن يرتبطوا بها ارتباطاً كاملاً، ويخطوا خطواتها التي خطتها. فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ من نقطة الصفر حتى وصل إلى نقطة النهاية، فكذلك أي حركة تقوم الآن لا بد أن تبدأ نفس البداية لتصل إلى نفس النهاية إذا شاء الله، مارة بكل المراحل التي مر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لذلك أحوج الناس إلى أن يدركوا مفهوم المرحلية كما طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن بدأ يدعو الناس سراً في مكة إلى أن فتح مكة وتحقق النصر الإسلامي في النهاية، وبعد أن مد الله عز وجل الإسلام إلى أقاصي المعمورة التي كانت معروفة في وقتها."

"فالمرحلية هنا تعني؛ كيف نتعرف على مراحل الإسلام وحركة الإسلام، وكيف طبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم."

وأخيرا نختم هذه الأمثلة بهذا التحليل الرائع الذي قدمه الشارح لبيان إيحاءات عنوان أول فصل من فصول الكتاب الذي يقوم بشرحه، فصل "جيل قرآني فريد".

يقول الشارح:

"نتحدث عن الفصل الأول في كتاب المعالم، وهو فصل (جيل قرآني فريد)، وكما تعودنا أن نسير مع الفصل، وأن نتلقى إيحاءات أي كلمة أو أي تعبير أو أي حقيقة، فنحاول أن نعيش وأن نستمد منها معالم توضح لنا تصورنا عن الحقيقة التي يتكلم عنها، والتصور الذي يتكلم عنه مؤلف المعالم.

ولا شك أن العنوان؛ "جيل قرآني فريد" له إيقاع خاص، وله أيضاً مشاعر وإيحاءات وإيقاعات فريدة ومشوقة للناس الذين يريدون أن يستعيدوا وأن يستأنفوا مرةً أخرى تلك التجربة الرائعة والفريدة التي حدثت يوماً ما على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين.

فتعبير "جيل قرآني فريد" لا شك أنه تعبير موح ومؤثر ومشوق ورائع جداً، يبدأ به هذه المعالم. لأن الحقيقة التي سنكتشفها أن هذا الفصل في نظرنا هو أهم فصل في الكتاب، رغم أنه قد تبدو أن الحقائق التي يتناولها ليس بضخامة الحقائق الأخرى التي تناولتها فصول الكتاب الأخرى، ولكنه في الحقيقة يعتبر الأساس الذي تقوم عليه تلك الحقائق الأخرى، لأن هذا الفصل يتكلم عن الكتاب الذي انبثقت منه تلك الحقائق كلها، والذي شرح وبيّن ووضّح الحقائق التي تكلم عنها الكتاب بعد ذلك.

ثم إنه حينما تحدث عن الجيل القرآني إنما تحدث عن ذلك القرآن ممثلاً في جيل من الناس. وهذا أيضاً أمر كبيرٌ وخطير، ويعتبر فعلاً أهم ما في الكتاب، لأن همّ وهدف كل طائفة من المؤمنين الذين يريدون الله ورسوله أن يكونوا جيلاً قرآنياً.

لذلك.. فهذا الفصل؛ إذا أدركناه إدراكاً صحيحاً، وإذا فهمناه فهماً دقيقاً، وإذا استطعنا أن نعيش معه في حياتنا بطريقة سليمة، فإننا نكون قد انتهينا من نصف الطريق، وتخطينا نصف العقبات.. وتأتي كل الحقائق الأخرى بعد ذلك تثبيتاً وتأكيداً لما أدركناه في هذا الفصل العجيب والفريد أيضاً."

والآن - بعد هذه اللمحات من سمات هذه الشروح - ندعوك إلى متابعة هذا العرض الشيق من خلال فصول هذا الكتاب...

جماعة الصادعون بالحق

شروح

كتاب

معالم في الطريق

المقدمة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

البشرية على حافة الهاوية ١
دور رسل الله في إنقاذ البشرية على مدار التاريخ ٢
نظرة للجاهلية المعاصرة ٣
القيم وأهميتها في حياة الإنسان.. ٥
نمط التفكير الأوروبي ودور اليهود في قيادة البشرية نحو الهاوية ٦
إفلاس الحضارة المادية الغربية وحاجة البشرية لقيادة جديدة................ ٨
الإسلام الصحيح بقيمه ومنهجه هو وحده المؤهل لهذا الدور ٩
كيف يقوم الإسلام بهذا الدور المنوط به؟ ١٠
مسار الانحراف في تاريخ العالم "الإسلامي"................................ ١١
الخطوة الأولى لإنقاذ البشرية من الهاوية: بعث إسلامي جديد.............. ١٣
مؤهلات هذه الأمة لقيادة البشرية ١٣
ما هي مهمة البعث الإسلامي الأولى؟ وما الذي يميزه؟......................... ١٥
لماذا تبدأ عملية البعث في الرقعة الإسلامية؟ وكيف تبدأ؟..................... ١٦
معالم في طريق البعث الإسلامي ١٧

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين. أما بعد،

فحين نستعرض مقدمة كتاب "معالم في الطريق" نجد أن الكاتب -جزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء- يحدثنا عن حقائق كبيرة، وموضوعات متباينة، ليبين لنا أهمية هذه المعالم وضرورتها.

ويقابلنا في البداية ذلك التعبير الأول الذي يبدأ به الكتاب وتبدأ به المقدمة، ليذكر حقيقة من أهم الحقائق الواقعية التي تعيشها البشرية، والتي يصفها بالوصف الدقيق لها، ويبين أسبابها، كما يبين أيضاً نتائجها، ويحدد صور العلاج، كما يحدد أيضاً مؤهلات ذلك العلاج وأشكاله ومتطلباته.

وهو في أثناء عرضه لهذه النقاط يحدد بثقة واستعلاء ويقين كل ما يعرض، ويؤكد مدى اليقين الذي كان عليه حينما كان يخاطب ليس الرواد فحسب، ولكن من وراءهم -أيضا- كان يخاطب الأرض كلها، والجاهلية كلها، وكان يخاطبها بهذا الاستعلاء الذي كان يتميز به أنبياء الله حينما كانوا يخاطبون أقوامهم مستعلين بالحق غير مستعلين بذواتهم على الخلق، فيعرضون الحق من منطلق اليقين ومن منطلق العلو بهذا الحق، بحيث لا يدع لهم فرصة أن يتصوروا -ولو للحظة واحدة- أنه يعرض عليهم شيئاً يشك فيه، أو لا يمتلئ يقينا به، وإنما يدعوهم إلى ما قد تيقن منه يقيناً كاملاً، فهو يعرضه عليهم ليأخذوه أو يدعوه ، كل ذلك يزينه الرفق وتشع من خلاله الرحمة بمن تنكبوا الطريق المستقيم.. طريق الله العلي العظيم.

فالمقدمة تعطي إيحاء رائعاً جداً، لما تحمله من الثقة المتناهية واليقين المتناهي. وهي تتميز أيضاً بقوة التحدي لهذه البشرية مجتمعة بكل قواها وبكل أنماطها وأشكالها، بحيث يُلقي -من اللحظة الأولى- في حس القارئ أنه مقبل على معالم ليس له إلا أن يحدد موقفاً منها ولا بد...

قلنا ونقول دائماً إن ميزة هذا الكتاب أنه لا يدع قارئه دون أن يحدد موقفاً من هذا الكتاب، سلباً أو إيجاباً؛ يستفزه فيجعله يراجع نفسه، ويجعله يحدد موقفاً، لكي يُقبل أو يُدبر عن اختيار واعٍ وعن دقة واعية. لهذا يبدأ الكتاب بمصادمة الجاهلية منذ اللحظة الأولى، يبدأ بحقيقة مريرة تصف واقع هذه البشرية البائسة بهذا التعبير المليء بالتحدي والسخرية، مع أنه حقيقة في ذات الوقت.

البشرية على حافة الهاوية

"تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية.. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها.. فهذا عَرَضٌ للمرض وليس هو المرض.." ولا شك أننا نحتاج أن نقف عند حقيقة هذه الهاوية، وعند حقيقة حافة الهاوية، لأنه بقدر ما ندرك عمق هذه الهاوية وخطورتها بقدر ما تتحدد لنا معالم كثيرة في حياتنا؛

أولها: الرغبة في النجاة من هذه الهاوية.

وثانيها: الإحساس بالمسؤولية الضخمة في إخراج الناس من هذه الهاوية.

وثالثها: صعوبة المحاولة حينما نحتاج أن نخرج الناس من هاوية سحيقة إلى السطح مرة أخرى.

ولا شك أنه أمر كبير وضخم، لا تكفي فيه الكلمات ولا المواعظ، وإنما يحتاج جهداً كبيراً للتعرف على هذه الهاوية وأنواعها وألوانها ومراحلها ونتائجها في حياة البشرية التي نحن جزء منها، نعيش معها في جاهليتها، بل في أعماق هذه الجاهلية. فنحن محتاجون أن ندرك خطورتها، ونعرف كل هذه المعالم المحيطة بها، ونعرف أيضاً دورنا في إخراج الناس من هذه الهاوية.

دور رسل الله في إنقاذ البشرية على مدار التاريخ

والدارس لتاريخ البشرية يرى أنها حينما تبعد عن الله وتستغرقها الجاهلية يأتي رسول يبعثه الله سبحانه وتعالى لكي يأخذ بيدها إلى الهدى، ويقيم عليها الحجة، ويعين من أراد النجاة على النجاة، ويقيم الحجة على من رفض.

يأتي الرسل دائماً وقومهم على حافة الهاوية -هاوية الجحيم الأبدي- فيقولون لهم كلمتهم الأخيرة، ويلقون إليهم طوق النجاة قبل أن يسقطوا في أعماق الهاوية.

والرسول ﷺ في حديث له يقول (...إِنّ اللّهَ نَظَرَ إِلَىَ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...)[1]. فقبل مبعث النبي ﷺ نظر الله إلى أهل الأرض جميعاً فكان المقت هو الحكم الإلهي عليهم، لأنهم خرجوا من دين الله، وعاثوا في الأرض فساداً، وادّعوا الربوبية، وحالوا بين الناس وبين الهدى، وأفسدوا الأرض بكل ما استطاعوا، فمقتهم الله جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب. ولا شك أن كل جاهلية تكون في هذا الموقع بالضبط حينما يأتيها رسول، يكونون قد ذهبوا بعيداً عن نقطة الصواب، وضاعوا في تيه الضلال. نرى نوحا -عليه السلام- -وهو أول نبي- قد جاء بعد أن عاشت البشرية فترات طويلة في حضن الهدى وفي كنف الحق، ثم بدأت تنحرف. نرى أن الواقع الذي واجهه نوح -عليه السلام- والمؤمنون معه هو نفسه الذي يواجه الدعاة اليوم: اللجاج والعناد، والرغبة في الكفر، والسخرية من المؤمنين، والاعتزاز بالباطل وبالآلهة المزيفة وبالأصنام، والتحدي، وطلب الدليل وطلب العذاب... كل هذا هو صورة مكرورة، تتكرر كلما جاء رسول إلى البشرية، وكلما وقفت البشرية على حافة الهاوية، وأراد الله أن يقيم عليها الحجة، وينقذ من يستحق الإنقاذ.

ولا شك أن الرسول ﷺ جاء والبشرية تموج بكل ألوان العفن في كل مجالات الحياة، فكانت تقف على حافة الهاوية، سواء هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والأوثان، أم أولئك الذين كانوا من أصل أهل الكتاب. فكلهم جميعاً كانوا قد بعدوا عن الحق وضلوا عن الهدى، حتى أن سلمان الفارسي -رضي الله عنه- يحكي أن الرجل الأخير الذي كان عنده من صالحي أهل الكتاب قال له: والله لا أعرف أحداً على هذا الدين غيري[2]، وشرح له كيفية الوصول إلى المدينة لأن آخر الأنبياء سيكون هناك. فكأن الدنيا قبل بعثة النبي ﷺ كانت قد جفت فيها كل منابع الهدى، وأظلمت فيها كل منارات الإيمان، ولم يعد إلا الانتظار لبعثة النبي ﷺ وانبثاق النور على البشرية من جديد...

١ أخرجه مسلم.

٢ سيرة ابن اسحاق ج ١، ص ٨٩.

نظرة للجاهلية المعاصرة

فإذا نظرت إلى جاهليتنا المعاصرة وإلى واقع البشرية الآن، فلا شك أن البشرية لم تكن يوماً ما مهددة بمقت الله كما هي اليوم. ولا شك أن كل جاهليات التاريخ تستحق المقت، ولكن الجاهلية المعاصرة تستحق مقتاً أكثر وغضباً من الله أكبر، لأنها تملك كل مقومات الرجوع وكل أسباب النجاة. فالله عز وجل قد ترك فيها المنارة الثابتة القائمة الدائمة لمن يريد أن يهتدي بها، ولعل الأقوام الآخرين السابقين لم يكن عندهم منارات، فكانوا ضُلّالاً، وكانوا لا يجدون ما يهتدون به، وكانت الكتب محرفة، ورجال الدين قد اخترعوا ديناً من عندهم؛ سواء كانوا يهوداً أو نصارى أو بقية أجناس العالم بأديانهم الوثنية، دون أن يكون عندهم كتاب يطمئنون أنه من عند الله.

ولكن البشرية اليوم عندها كتاب حفظه الله لها ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وعندها تاريخ مليء بالنور يحكي حقيقة تلك الطائفة التي قامت بهذا الدين وعاشت به وطبّقته، وخرجت به من ظلمات التيه ومنحنياته وسراديبه المظلمة إلى قمة النور، واستطاع عتاة العرب وجهلاؤهم أن يصبحوا أساتذة العالم في فترة قياسية من عمر التاريخ، وتعرف كيف أن هؤلاء العرب الضعاف المساكين استطاعوا أن يهزموا أكبر امبراطوريتين في التاريخ في ظرف ربع قرن، وكادوا أن يأخذوا الأرض جميعاً. وعند البشرية اليوم أيضا رصيد الفطرة في قلوب الناس، بجانب الضنك الذي تعيشه البشرية اليوم؛ هذا الضنك الذي يعبر عنه قول الله عز وجل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. فلا شك أن البشرية تعيش اليوم لحظات ضنك قاتلة، ولكنها سادرة في غيها، ومستكبرة ومصرة على التحدي.

نُشر منذ أيام مقالة عن صناعة الغيبوبة، تحدث فيها كاتبها عن واقع العالم اليوم، فقال إن العالم يعيش اليوم في غيبوبة، وأنه لا يعرف طريقه إلى الراحة وإلى السعادة، واستعرض كثيراً من أنواع الشقاء وأنواع الغيبوبة.. وقال: إن صناعة الغيبوبة تُغيّب الناس عن الحق وتُغيّب الناس عن النور لكي يظلوا في تيه الظلمات، وأن الجاهلية أصبحت متخصصة في إضلال الناس وإبعادهم عن الحق، وجعلهم يعيشون دائماً في نصف وعي أو ربع وعي، أو في غيبوبة كاملة فلا يرون أنفسهم.

ولا شك أن الناظر في حياة الجاهلية يتعجب جداً؛ أليس في القوم عقلاء؟ حتى هؤلاء العقلاء!! حينما يتحدثون تجدهم يبحثون عن أساليب للنجاة بعيدة كل البعد عن تحقيق النجاة، لأنهم دائماً يبعدون عن الحق، لأنهم لا يريدونه حقيقة، ولأنهم يريدون النجاة من أجل الاستمرار في الحياة التي يعيشونها، لكنهم يعرفون أن طريق الهدى وطريق الحق الذي هو السبيل الوحيد للنجاة سيكلفهم ما لا يريدون وما يكرهون. فلذلك حتى عقلاء القوم لا يبحثون عن الحق، وليسوا مستعدين للالتزام بالحق.

فالبشرية إذن تقف على حافة الهاوية. والقرآن تحدث وخاطب المؤمنين الأوائل بهذا الأمر ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ويقول عز وجل ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٩]. فحافة الهاوية حقيقة تعيش فيها البشرية كلما حادت عن دين الله وعن دين الأنبياء جميعاً. فنحن بحاجة أن نعرف حقيقة الهاوية، وأن نعرف خطرها.

والقرآن يعبر أيضا عن هذه الهاوية فيقول ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].. فهو قد وصل إلى عمق الهاوية لأنه أشرك وأصر على الضياع. والرسل يأتون ليأخذوا بأيدي الناس بعيداً عن النار وبعيداً عن الهاوية. فمن شاء أن يؤمن فليؤمن، ومن شاء أن يكفر فليكفر.

وحينما نخاطب البشرية فنحن نخاطبها بخطاب المستيقن والمستغني والمستعلي والمتحدي في ذات الوقت، وهذا يحتاج منا أن نكون قد امتلأنا بهذه الحقيقة، وأصبحنا على يقين بها، وعندنا من الاعتزاز والإصرار والفرح بحيث نستطيع أن نواجه الأرض جميعاً. ونكون أيضاً من القوة وعدم الخوف وعدم التردد بحيث نعرف أننا حينما نواجه الجاهلية نعرف أنهم جميعاً على حافة الهاوية، وأنهم سيرموننا عن قوس واحدة، وأنهم لن يهادنونا أبداً.

ونحن نرى الآن على صفحات الصحف أن أكثر شيء يضيقون به من الجماعات الإسلامية أنها أحادية الفكر؛ يتهمونها أنها أحادية الفكر.. خطأ وصواب، إيمان وكفر، حق وباطل.. فهم لا يعطون الجاهلية فرصة لكي تجادل أو تعتذر أو تبرر.. وهذا يذل كبرياء الجاهلية.. فأكثر شيء يضيقون به هو إصرار المسلمين على النظر إليهم على أنهم الطرف الخاسر الممقوت، فهم يستجْدون الحوار... حاورونا... اعترفوا بالرأي الآخر أعطونا فرصة لنتفاهم، ليس بالضرورة أن تكونوا على صواب مطلق.. استجداء المنهزم، الذي يُلبسونه ثوب المهاجم كي يبدوا أنهم هم الأقوياء. وهذا ما يجب أن نفهمه من خلال ما يقولونه كثيرا في كل وسائل الإعلام؛ عن دعاة الحق من أنهم جهلة لا يعرفون الإسلام، ولذلك فهم يحكمون على بقية الناس بالكفر. فهذه المسألة تضايقهم جداً.. ولكن هذه هي الحقيقة ومادامت حقيقة فيجب أن تعلن صريحة مدوية.. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].. هكذا بهذا المنطق الواضح ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].

الجاهلية على حافة الهاوية، وكما يقول؛ ليس بسبب التهديد بالفناء.. فالفناء نتيجة طبيعية لما تفعله الجاهلية، وما تعصي به الله، وما تنحرف به عن طريق الله.. فلا بد أن تنهار الحضارة، أي حضارة في التاريخ مهما علت لا بد أن تسقط إذا بدأ الناس يعيثون في الأرض فساداً. حتى الحضارات المادية تظل قوية طالما أبناؤها يأخذون بأسباب القوة ويتكاتفون، ويتعاونون، ويقومون بواجباتهم، ويحرصون على مواعيدهم، ويحسنون إتقان العمل. هذه قيم رفيعة، رغم أنها قيم مادية، لكنها قيم ضرورية لإقامة الحضارة.

ولكن حينما ينزع الناس إلى الشهوات، ويصلون إلى درجة من الترف، ودرجة من التعالي والغرور، تبدأ هذه الحضارة المادية في التفكك والانهيار.. لأنهم يصبحون لا يتقنون عملا، لأنهم يريدون أن يعيشوا في الترف وفي الشهوات، ولا يحرصون على مواعيدهم، ويظلم بعضهم بعضاً.. فتنتهي الحضارة، وهذا أمر لا بد أن تصير إليه كل جاهلية.

فالفناء معلق على رأس البشرية بسبب استغراقها في البعد عن الله. ولهذا يقول الأستاذ سيد؛ أن هذا ليس هو المرض، ولكنه عرض للمرض.. فالفناء عرض. كالمريض الذي يموت.. الموت ليس هو المرض.. ولحظة النهاية ليست هي المرض.. ولكن ما كان يعانيه من نقص وعطب في أجهزته هو المرض. فالبشرية تعاني، وكيانها كله مريض وكله منحرف، وكله مشوه.. وهذا هو الذي يهددها بالفناء. وهذا الفناء هو عرض ونتاج وليس هو المرض ذاته. ولكن إفلاسها في عالم القيم هو حقيقة المرض.

القيم وأهميتها في حياة الإنسان

ونجد أن الأستاذ سيد قد استعمل هنا كلمة القيم ليعبر بها عن كل ما هو عظيم في حياة الإنسان، وكل ما هو جميل في حياة الإنسان، وكل ما هو حق في حياة الإنسان؛ سواء كانت قيمة العقيدة، أو قيمة الخلق، أو قيمة السلوك، أو قيمة التطور، أو أي قيمة أخرى من القيم. فهي كلها قيم. والإنسان يكون إنساناً بهذه القيم. وبدون هذه القيم لا يكون إنسانا.

وبالمصاحبة التاريخية لنشأة البشرية، نجد أنها نشأت حينما أحس الإنسان بالقيم، حينما نفُخت الروح في الطين المسجى على الأرض بدأ آدم يصبح إنساناً. فقبل أن تُنفخ فيه الروح كان طيناً لا حراك له، وكان الملائكة يمرون عليه لا يعرفون ما هو هذا المخلوق، أو ما هو هذا الشيء. فلما نفخت فيه الروح وجدوه شيئا آخر.. كيانا جديدا، كيانا لا مثيل له في المخلوقات، كيانا متفردا. ولم تسجد الملائكة ولم يؤمروا بالسجود له إلا حينما نفخت فيه الروح ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].. فالروح هي التي أعطت الإنسان وأعطت هذا الطين قيمته، فإذا استعلت الروح وقادت الكيان الإنساني صار إنساناً. وإذا حدث العكس وقاد الطين الكيان الإنساني، أو كانت قبضة الطين هي التي تقود الإنسان فإنها لا تقف به فقط عند نقطة الحيوان ولا عند نقطة الجماد ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. والقرآن يعرض لنا هذه الصور من خلال بُعد الناس، ومن خلال بُعد بعض النماذج عن الأمانة التي اؤتمنوا عليها وعن الحق الذي أكرمهم الله به ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] فالحمار لا يحس بتلك الأسفار القيمة التي يحملها، وهو لا يعي منها شيئاً، ولا يستفيد منها. فالإنسان الذي يعرف الحق ولا يقوم بحقه كالحمار، بل هو أقل وأدنى من الحمار، لأن الحمار معذور، لأنه لا يعلم. لكن عندما يكون الحمار في صورة آدمي، عنده عقل يستطيع أن يفكر، حينذاك يكون أضل.

ويقول الله تعالي ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]. ولا شك أن الإنسان الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها واتبع هواه وأخلد إلى الأرض، لا شك أنه كانت لديه فرصٌ ضخمة جداً؛ كان عنده علم وكانت عنده إرادة، وكان يستطيع أن يرتفع بهما، لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب. ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]، فالله سبحانه وتعالى ينفي عنهم العقل، وينفي عنهم السمع، ويعتبرهم أضل من الأنعام ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٥].

فلا شك أن الإنسان حينما يستغرق في طين الأرض، وحينما تعتم عكارة الطين أنوار الحق فيه، يصبح أدنى من الحيوان وأضل. وحينما يخاطبنا القرآن بهذا المعنى يستجيش في نفوسنا الغيرة على أنفسنا، ويستجيش في البشرية ألا ترضى لنفسها أن تنزل إلى مستوى أضل من الحيوان. فلو أن للبشرية عقلاً وإدراكاً لأبت أن تنحدر إلى هذا المصير؛ مصير الحيوان الذي هددها الله به، ثم الخلود في النار بعد ذلك ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

نمط التفكير الأوروبي ودور اليهود في قيادة البشرية نحو الهاوية

ولكن الجاهلية في كثير من أحيانها تصر على الحيوانية، بل تستمتع أن تكون حيواناً، وتكون نادمة على أنها إنسان. ونهضة أوروبا المعاصرة كلها قامت على أساس حيوانية الإنسان، والحيوانية مطلب للغربيين.. مطلب فكري عند المفكرين ومطلب جماهيري عند الجماهير؛ هم يريدون أن يكونوا حيوانات، ولا يريدون أن يكونوا بشراً، بل هم مصرون على هذه الحيوانية. والله عز وجل يقول ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠] ويقول عز وجل ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن الناس لا يريدون ذلك، لا يريدون أن يكونوا خلفاء، ولا يريدون أن يكونوا آدميين، يريدون أن يكونوا حيوانات. فالنهضة المعاصرة قامت على أساس حيوانية الإنسان. ونظرية دارون التي تعتبر في التاريخ الأوروبي هي أم النظريات، والتي يعتبرونها المخرج الذي جاء ليخرجهم من طغيان الكنيسة ومن طغيان الدين ومن كبت الرهبانية ومن كبت التطهر.. جاءت لتعطيهم المخرج، فتمسكوا بها، جاء دارون ليتحدث عن مظاهر التنوع في الأحياء في سلم متصاعد. لم يكن يتحدث عن الفكر، ولا عن تاريخ البشرية الفكري والثقافي والاجتماعي والديني. وإنما كان يتحدث عن الجانب البيولوجي في تطور الأحياء.

لكن اليهود جاءوا واستغلوا هذه النظرية ليستخرجوا منها إيحاءات قاتلة للحياة الإنسانية، ويبرروا بها لأوروبا كلها التمرد على الكنيسة، بل التمرد على الدين ذاته، لأن اليهود أرادوا أن يخرج المسيحيون من الدين عموماً، ولا يهتدون إلى دين أفضل، أو أن يصححوا أوضاعهم الدينية، لأن اليهود كان لهم مكسب في ذلك؛ فهم كانوا يريدون إزالة الحواجز الدينية لأنهم كانوا يُضطهدون باسم الدين، وكان الأوروبي حتى وهو يقترض مالاً من اليهودي يعامله كالكلب، يقول له ضع المال على المنضدة ولا تلمسني بيدك. كان اليهود يشعرون بالاضطهاد العنيف، فلما بدأت بوادر الثورة على الكنيسة وتنادوا أن اشنقوا آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس، حرص اليهود أن يبعدوهم تماماً عن الدين. كانت هناك ثورة على الكنيسة ولكن لم يكن هناك ثورة على الدين. فجاء اليهود ليقلبوها لتكون ثورة على الدين وثورة على الله وثورة على كل القيم. واستغلوا نظرية دارون، وجعلوها قاعدة الانقلاب الذي حدث في أوروبا.

لم يكن دارون أول من جاء بنظرية التطور، إنما سبقه إليها رجل فرنسي اسمه لامارك، جاء بنفس النظرية، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يستغلوها ويوظفوها في ذلك الوقت، لأن الكنيسة حينذاك كانت قوية. ولكن عندما ضعفت الكنيسة، وبدأ الناس يتململون، وبدأت الثورة ضد الكنيسة، استطاعوا أن يستغلوا نظرية دارون وإيحاءات نظرية دارون لينحرفوا بأوروبا ويحرموها والبشرية من ورائها من كل أمل في أن تعود إلى الله سبحانه وتعالى، لأن أول إيحاء في نظرية دارون هو إنكار الخالق. يقول دارون "إن افتراض قوة عاقلة أو قاصدة في عملية خلق الحياة هو إدخال عنصر غير طبيعي في عملية ميكانيكية بحتة". فأخذوا تعبيرات دارون ليؤكدوا أنه -علمياً- ليس هناك خالق، وأن الحياة نشأت من وضع ميكانيكي بحت، ومن مصادفة بحتة، ولم يكن هناك داع لافتراض أن هناك قصداً أو إرادة وراء عملية الخلق. وهم حين ينكرون الخالق سبحانه فإنهم يسحبون البساط من تحت أقدام الكنيسة التي كانت تستطيل عليهم باسم الرب. فليسقط هذا الرب لتسقط الكنيسة، لأن الكنيسة كانت تقول إن يسوع الرب قال لها: إني وهبت سلطاني لكنيستي، وأن ما تربطه الكنيسة في الأرض يربطه الله في السماء، وما تحله في الأرض يحله الله في السماء. فالكنيسة كانت قد أصبحت إلهاً. فلكي يبطلوا هذه الحجة استغلوا

نظرية دارون في إنكار الخالق. وأصبح إنكار الخالق صيحة علمية، من ينكرها يصبح متخلفاً علمياً، لأن النظرية الجديدة أثبتت أنه ليس هناك خالق.

والإيحاء الثاني لنظرية دارون هو: حيوانية الإنسان: فالأديان تحيط الإنسان بهالة من العظمة، فهو خليفة الله، خلقه الله بيديه، وفضله على جميع خلقه، وميزه عن جميع الخلق بالعقل.. فالإنسان إذن له هالة كبيرة تمنعه من حرية الهبوط. وهم كانوا قد ضاقوا بالكنيسة، وضاقوا بتعاليم الكنيسة، وضاقوا برهبانية الكنيسة، وبتحريم الكنيسة لأشياء كثيرة، ويريدون أن يعودوا إلى همجيتهم التي كانوا عليها حينما كانوا يوناناً ورومانا. فجاءت فكرة حيوانية الإنسان سليل القردة العليا، والقردة العليا سليلة القردة الدنيا، والقردة الدنيا سليلة الثدييات الأولى.. وهكذا الإنسان إذن، حلقة من سلسلة طويلة لا قيمة لها، وليس له ميزة خاصة يتعالى بها عن هذا الطابور الأحيائي، فهو شيء من هذا الطابور.. هو حيوان.. ومنذ قريب كان قرداً، وكان وكان وكان..

وبما أن الإنسان حيوان، إذن لا داعي أن يكون له أخلاق، ولا داعي أن يكون له دين، ولا داعي أن يكون له قيم.. فليكن حيواناً، وأي محاولة لرفعه عن مرتبة الحيوان هي -ابتداءً- جهل علمي، فضلاً عن أنها ظلم للحقيقة، فضلاً عن أنها تعذيب للإنسان. إذن لا بد أن يتحرر الإنسان من إنسانيته، ويصر على حيوانيته. فأصبحت فكرة حيوانية الإنسان هي قاعدة كل مفكري أوروبا بعد دارون، كلهم ينطلقون من نقطة ثابتة ألا وهي أن الإنسان حيوان.. ثم يختلفون في شكل الحيوان، لكنه حيوان.. فرويد يقول إنه حيوان جنسي، المدرسة السلوكية تقول إنه حيوان بلا إرادة وبلا تفكير وبلا اختيار، فهو إنسان يتحرك بأفعال شرطية عكسية، فهو ليس مسئولاً عن عمله، ولا يمكن أن يكون مسئولاً عن عمله.

وتأتي الوجودية لتجعل الإنسان حراً في تحقيق وجوده بالطريقة التي يريدها، وأن الجحيم هم الآخرون كما يقول جان بول سارتر.

فحيوانية الإنسان إيحاء خطير جداً أحل الإنسان من كل قيد. فبما أن الحيوان لا يستحيي أن يأتي أنثاه في الطريق فلماذا يستحيي الإنسان أن يفعل ذلك. لقد نجحوا فعلاً أن يجعلوا الإنسان في أوروبا وأمريكا لا يستحيي أن يأتي الأنثى في الطريق، ويصبح الاعتراض على هذا نوعاً من الرجعية ونوعاً من التخلف ونوعاً من التدخل في شؤون الآخرين بطريقة همجية لا تصح، ويصبح السلوك الحضاري من وجهة النظر الجديدة أنك عندما ترى هذا الأمر فإن عليك أن تعده أمراً لا يهمك، وأمراً لا يضايقك، كأنك رأيت إنساناً يأكل ويشرب، فهل ستضيق؟ فهو رجل يمارس إحدى رغباته الفطرية، كما يجوع فيأكل، وكما يعطش فيشرب، فهو يشتهي الجنس فيمارس الجنس في الطريق، في الحافلة، في الحديقة، في أي مكان.. لماذا تنظر إليه هذه النظرة، أنت إذن متخلف، ومن حقه أن يرفع عليك قضية لأنك تنظر له نظرة تحرمه من حق طبيعي له. وهكذا نجحوا في أن يجعلوا الإنسان حيواناً.. حيوانا -كما يراه فرويد- جنسيا، لا يحركه إلا الجنس. وفرويد كان يرى أن كل قيد على الحرية الجنسية هو قيد على سعادة الإنسان. ويعتبر الأخلاق في صورتها الطبيعية شذوذاً، ويعتبر التسامي شذوذاً، ويعتبر أن الحضارة قامت على حساب سعادة الإنسان لأنها استغلت جزءاً من طاقته الحيوية في العلم والابتكار والبناء والترقي، فهي صنعت له حضارة، لكنها أتعسته، لأنها لم تتركه يعيش كالحيوان الحر الطليق السعيد الذي يعيش في الغابة. والحيوان لم يفكر أن يصنع له حضارة، فلماذا يسعى الإنسان إلى ذلك ويحرم نفسه، ويقيد نفسه باسم الحضارة والتسامي والقيم؟!

والمقصود من هذا الاستطراد أن نتعمق في الأمور، ونرى نمط التفكير الأوروبي، ونظرته إلى الحقائق العظمى بهذا المنظار المقلوب، لكي ندرك حقيقة الموقف.. فليس الموقف هو مجرد كفر بالله، أو تشكك في وجود الله، القضية هي قضية انفلات الفطرة من كل قيد، والإصرار على البعد عن كل ما يُكرّم الإنسان.

فحيوانية الإنسان أصبحت مطلباً جماهيرياً، والإنسان الذي لا يريد أن ينزل إلى مستوى الحيوان يصبح إنساناً لا مكان له في الحضارة الأوروبية. ولذلك هم يريدون أن ينشروا هذا الأمر بعنف في كل مكان من الأرض من خلال مؤتمرات السكان، ومؤتمرات المرأة، والمؤتمرات المختلفة، ومن خلال الدعارة المعلنة الدائمة في أمريكا وأوروبا وغيرهما، فعندما تكون في بلد غربي فإنك تجد على محطات الأوتوبيس ومحطات مترو الأنفاق صوراً ومجلات بذيئة جداً جداً، معروضة تعلن عن الفاحشة، وعن عناوين بائعات الهوى واللذة المحرمة.. وفي لاهاي وأمستردام شوارع مخصوصة لعرض النماذج البشرية في الفترينات لطلاب المتعة، تعرض المرأة عارية تماماً كما ولدتها أمها؛ نموذج يعرض بالسعر والساعة.. وأولاد معروضون أيضاً في الفترينات، مثلما تشتري حذاء أو بدلة أو فستانا.. تختار الرقم وتدخل وتؤجر البضاعة. هذا الأمر لم تفعله أي جاهلية في التاريخ بهذا الإصرار وبهذا التبجح الذي هو موجود في الجاهلية المعاصرة. وهذا يدفعنا إلى الإصرار على تطهير هذه الجاهلية أو الموت دون ذلك، ورفض أي نوع من المساومات، أو أي نوع من المهادنة. فهذه أمور لا يقبلها أي إنسان نظيف، فضلاً أن يكون مؤمناً برسالة الأنبياء. إن تحرر البشرية من عالم القيم الأصيل هو الذي أدى بها إلى هذا الانحطاط وإلى هذا الضياع؛ سواء في المعسكر الشرقي، أو المعسكر الغربي. وقد يقال إن المعسكر الشرقي قد سقط.. نعم، هو سقط نظاماً، ولكن ما زال للفكر الشيوعي جذوره في هذه الكتلة الشرقية، وفي كثير من الأحزاب الشيوعية في العالم، هو سقط كنظام؛ لأنه كان يحمل موته في طيات وجوده، فما كان ليمكن أن يعيش وهو يضاد الفطرة. وقد تظافرت قوى من داخل النظام الشيوعي وخارجه لإسقاطه؛ لأنهم صاروا يخافون أن يتمرد المقهورون بنير هذا النظام ويأخذون في التطلع والبحث عمن يخلصهم من هذا الظلم والشقاء ، وساعتها لن يجدوا من يُعتق رقابهم وضمائرهم من قيد العبودية... لن يجدوا ذلك إلا في الدين الحق دين الإسلام، وخاصة أن الجهاد الأفغاني كان قد تسرب تأثيره إلى الأقاليم السوفيتية ذات الأصل الإسلامي، وبدأ الناس يأملون وينتعشون، ويتخيلون أنهم لو فعلوا مثل أفغانستان فمن الممكن أن يتحرروا، فأدرك المخططون أن هذا خطر كبير، فعجّلوا بإسقاط الاتحاد السوفيتي بسرعة مذهلة ومضحكة وغير متوقعة، لا لأنفسهم، ولا للمخططين. سقط بسرعة جداً لكي ينجرف الشرق هذا في أحضان الغرب فيعطيه بدائل ويغذيه بالحرية والترف، فيهدأون ولا يبحثون عن الدين. وسواء كان الشرق أو الغرب فكلاهما بعيد عن القيم، وبعيد أيضاً عن الله، وبعيد عن الخالق، وبعيد أيضا عن المُقوِّم الرئيسي، وهو الأسرة. فكل الأفكار الأوروبية تحطم الأسرة، لأن الأسرة هي منبع الخير ومنبع القيم في حياة الناس، فلا بد أن يحطموها، فتتحطم الوحدة الأساسية الموجودة في البشرية التي هي محضن القيم الرفيعة.

إفلاس الحضارة المادية الغربية وحاجة البشرية لقيادة جديدة

ونتيجةً للإفلاس في القيم أصبحت أوروبا لا تصلح للقيادة. ولا بد من قيادة جديدة.. **"إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال.. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست مادياً أو ضعفت من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية.."** وهذا واضح أمامنا.. فهي ليست ضعيفة مادياً، وليست ضعيفة عسكرياً، وأمريكا تعتبر نفسها -الآن- سيدة العالم، تؤدب من تشاء وتفعل كل شيء من الناحية العسكرية ومن الناحية المادية والاقتصادية. ومعاهدة الجات وكل الأحداث الجارية تدل أنها ماضية في مزيد من القوة الاقتصادية،

ومزيد من القوة العسكرية.. **"ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيداً من "القيم" يسمح له بالقيادة."** فسيؤتَى هذا النظام من تفلته من القيم وانهيار القواعد الأساسية التي تقيم إنسانية الإنسان، وتقيم كيان الإنسان. فإذا سقطت هذه الأعمدة الأساسية لم ينفعه الاقتصاد المتقدم ولا القوة العسكرية..

"لا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدَّة كاملة -بالقياس إلى ما عرفته البشرية- وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي في الوقت ذاته." وعندما يتحدث عن القيم الجديدة لا يقصد الإسلام النظري، فليست العبرة بوجود المرجع والنظرية، ولكن العبرة بممارسته في عالم الواقع. فالبشرية لا تمارس اليوم القيم الإسلامية؛ لا في العالم الذي كان إسلامياً، ولا في العالم الجاهلي. ولذلك فالقيم التي يأتي بها الإسلام قيم جديدة جدة كاملة، رغم وجودها بين دفتي الكتب، وفي التاريخ الإسلامي، ولكنها بالنسبة للواقع البشري المعاصر هي قيم جديدة جدة كاملة.

ونحن نرى التناقض حتى في أوساط بلادنا.. تجد البنت محجبة ولكنها تتزين بكل أنواع المساحيق وتلبس الثياب الفاقعة الألوان، وهذا له دلالة واحدة.. أن الإسلام ليس مفهوما، وكذلك الغرض الأساسي من الحجاب ليس مفهوما. ترى نساء يؤدين العمرة ويطفن بالبيت الحرام بثياب حمراء وبألوان مثيرة، مما يدل على أن معنى الفتنة غير مفهوم، ومعنى الستر غير مفهوم، ومعنى العفة غير مفهوم، ومعنى عدم إثارة الرجال بفتنة المرأة غير مفهوم. إذن الحجاب ليس له قيمة. فالعبرة ليست بتغطية الجسد. العبرة أن هذا الجسد يوحي بالعفة والحشمة والنظافة حتى لا يطمع فيه الرجال، ولا يستثير فيهم أي نوع من الإثارة.

الإسلام الصحيح بقيمه ومنهجه هو وحده المؤهل لهذا الدور

الإسلام إذن يقدم قيما جديدةً جدة كاملة، وفي نفس الوقت يحافظ على نتاج العبقرية الأوروبية في عالم المادة. لأن الإسلام لا يرفض المادة، ولا يرفض الطيبات، ولا يرفض الدنيا النظيفة. بل يعتبر أن عمارة الأرض جزء من وظيفة الإنسان في الحياة تحت شروط خاصة. إذن ليس هناك خوف من قيادة الإسلام للبشرية، لأن من مهامه أن يحافظ على هذا الإنجاز الحضاري ولكن بعد ترشيده.

"والإسلام -وحده- هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج.

لقد أدت النهضة العلمية دورها.. هذا الدور الذي بدأت مطالعه مع عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي، ووصلت إلى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.. ولم تعد تملك رصيداً جديداً.

كذلك أدَّت "الوطنية" و "القومية" التي برزت في تلك الفترة، والتجمعات الإقليمية عامة دورها خلال هذه القرون.. ولم تعد تملك هي الأخرى رصيداً جديداً.

ثم فشلت الأنظمة الفردية والأنظمة الجماعية في نهاية المطاف.

ولقد جاء دور "الإسلام". ودور "الأمة" في أشد الساعات حرجاً وحيرةً واضطراباً.."

ولا شك أن البشرية الآن وخاصة العالم الإسلامي الذي يتخبط بصورة غير منطقية أكثر من أي منطقة أخرى في العالم. لأن المسيحيين والوثنيين والشيوعيين، كلٌ يعرف ما يريد. الرأسمالي منطقي مع الرأسمالية، والشيوعي منطقي مع الشيوعية، والوثني متفاهم مع الوثنية، منحط ومنطقي مع الانحطاط.

لكن العالم الإسلامي يرفع قيماً عالية جداً، ويتكلم في قضايا الإسلام بنصاعة شديدة. وحينما تسمع محطات القرآن الكريم وتسمع المتحدثين فيها وهم يتكلمون عن الإسلام، وعن الأخلاق في الإسلام، وعن الأسرة في الإسلام، وعن التعاون، وعن النظافة، وعن التطهر.. الخ.. تسمع كلاما رائعا جدا، وقيما رائعة جداً، ويُضطر الحكام أيضاً أن يقولوا مثل هذا الكلام في مؤتمراتهم. لكن الواقع غير ذلك، فليست هناك منطقة تعيش في حالة من الانفصام والحيرة والاضطراب كما تعيش هذه الأمة التي كانت يوماً ما إسلامية.

فدور الإسلام جاء والأمة في أشد أوقاتها حيرة واضطراباً. ولا بد أن يكون هناك أسلوب معين يتمشى مع واقع هذه الأمة. كيف نوصل لها الإسلام ومن ورائها البشرية كلها؟ لا بد أن يكون هناك شيء مبتكر، شيء يحقق هذه المهمة.

"جاء دور الإسلام الذي لا يتنكَّر للإبداع المادي في الأرض، لأنه يعدُّه من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن عهد الله إليه بالخلافة في الأرض، ويعتبره -تحت شروط خاصة- عبادة لله، وتحقيقاً لغاية الوجود الإنساني."

كيف يقوم الإسلام بهذا الدور المنوط به؟

لكن الإسلام لكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور لا يقوم وحده، ولا يتحقق إلا من خلال وسط حي، من خلال تجمع بشري، من خلال أمة تمثله. لا بد من أمة تغير ما بنفسها ليغير الله حالها من السقوط إلى الرفعة ومن المهانة إلى العزة ومن الضعف إلى القوة ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف إلى الأمن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

"ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي دوره إلا أن يتمثل في مجتمع، أي أن يتمثل في أمة.. فالبشرية لا تستمع -وبخاصة في هذا الزمان- إلى عقيدة مجردة.."

البشرية تريد أن ترى عملاً. وكل شيء له وجود واقعي أثقل عند الناس من أجمل النظريات المرفرفة في الخيال. فالإسلام لا بد أن يتحقق في تجمع يجسد مبادئ الأمة المسلمة في تصوره للحياة، وفي منهجه، وفي أخلاقه، وفي سلوكه، وفي علاقاته. لا بد من قيام هذا المجتمع. لأن العالم الإسلامي الآن يتشدق بالإسلام، ولا يقيم الإسلام في الواقع. وبالتالي سيظل أكذوبة كبيرة يؤكدها تناقض الناطقين بالإسلام مع ما يزعمونه، يستوي في ذلك أكثر الدول التزاماً بالإسلام -بزعمها- وأكثرها خروجاً عنه فكلهم لا يقيمون الإسلام. والجاهلية تعرف ذلك رغم الشكل الظاهري، ورغم تلك الغلالة التي تخفي ورائها أشد أنواع الانحراف.

فما الذي يقنع الناس إذن الآن بالإسلام؟ لا بد أن يكون هناك تجمع يقوم على الإسلام. لأن الأمة المسلمة كما يقول الأستاذ سيد... **"ليست "أرضاً" كان يعيش فيها الإسلام. وليست "قوما" كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي.."** وهذا هو الواقع الآن. العالم الإسلامي كله يتشدق بأمجاده السابقة وبماضيه. لكنه في الواقع لا يفعل شيئاً. والعجيب أن علماء الأمة أو من يدعون أنهم علماء لا يدركون هذا الأمر.

"ولا بد من "إعادة وجود" هذه "الأمة".."

هذه الأمة المسلمة التي يصفها -بحسب تعبيره- "بأنها ليست تاريخا، وليست مجرد مكان. وإنما الأمة المسلمة جماعة من البشر، تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي".

هذه الأمة بهذه المواصفات قد انقطع وجودها بانقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً. ولا شك أن هذا التعريف ليس جديداً. فهذا هو الحق. والحقيقة عندما تكون حقيقة تكون بسيطة جداً. لكن مع بساطتها تبدو غريبة جداً على أهل الباطل.

ومع ظهور هذه الحقيقة ساطعة كالشمس في رابعة النهار فإننا وجدنا علماء الأزهر يُخرجون بياناً من داخل أروقة الأزهر يقولون فيه: {وحكومتنا لا ترد لله حكماً}؟! فإنا لله وإنا إليه راجعون. فالأمة التي تكون بكل هذا الترهل وكل هذا الضياع يقال عن حكومتها أنها حكومة مسلمة لا ترد لله حكماً!! إن هذا يؤكد حقيقة طالما تحدثنا فيها ألا وهي أن العلم ليس هو كم المعلومات التي حُشي بها الدماغ، وأن العلماء ليسوا أولئك الذين يحفظون الكتب والمراجع ويلوكون قضايا الفقه والأصول دون أن يعيشوا الإسلام عقيدة في الضمير، وواقعا في السلوك. ليس هؤلاء علماء، ولكنهم جهلاء في حقيقة الأمر.. بل هم خونة ومضلون. فالذي يشهد هذه الشهادة بهذا الوضوح للطاغوت إنما هو خائن وجاهل ومضلل، ويحسبون بعد ذلك أنهم مهتدون. الحقيقة بسيطة، لكنهم لا يريدون أن يعرفوها.

لا بد من إعادة هذه الأمة لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى. فالإسلام -كما نقول- لا يقوم وحده. لا يقوم إلا من خلال جماعة مسلمة. لا بد من إعادة الأمة. وإعادة الأمة لها طريقها، ولها أسلوبها. لا بد من بعث لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات وركام الأوضاع وركام الأنظمة لا بد من بعث لتلك الأمة.. التي لا صلة لها بالإسلام، ولا بنظامه، وإن كانت لاتزال تزعم لنفسها أنها قائمة فيما يقال العالم الإسلامي وهي مقولة أشد ما تكون بعداً عن الحقيقة، وما هذا العالم الذي يوصف اليوم زوراً وبهتاناً ب "الإسلامي" إلا نتاج ركام طويل. ركام من التصورات وركام من الأوضاع وركام من الأنظمة. ركام هائل جداً. ليس نتاج سنين قليلة، وإنما هو ركام بدأ مبكراً جداً. منذ أن سقطت الخلافة الراشدة بدأ الركام. وككل ركام يبدأ بذرات قليلة من التراب، ولكن بعد قليل يتجمع، فتجده أصبح أكواماً هائلة من الأتربة والنفايات التي تغطي الأفق.

مسار الانحراف في تاريخ العالم "الإسلامي"

لا شك أن كل ركام له بداية. ولا شك أن بداية الركام قد حدثت في حياة الأمة المسلمة وبصورة أثرت على تاريخ الإسلام كله والمسلمين حينما تحولت الخلافة من خلافة راشدة ومن بيعة حرة ومن عقد بين الأمة وبين من تختاره للخلافة إلى أن تصبح ولاية عهد محصورة في أسرة. ورغم أن العلماء أجازوا ولاية العهد للمتغلب كأمر واقع واتقاء للفتن، لكن لا شك أن هذه المسألة أثرت تأثيراً كبيراً في نمو العالم الإسلامي. لأن أي مجتمع يحتاج قيادة واعية، متفتحة العقل والبصيرة، تقية، غيورة على ما تدعو إليه وما هي مسئولة عنه. وولاية العهد جاءت على مدار التاريخ بحكام كثيرين، لم يكونوا غيورين على الإسلام، ولا ملتزمين به، ولا حريصين عليه. وهذا يفسر كل الركام الذي حدث في التاريخ الإسلامي، ممثلاً في السلوك الخطأ، وممثلاً في الفرق الكثيرة التي جاءت، وممثلاً في الانقسام والتشرذم الذي بدأ أيضاً مبكراً في التاريخ الإسلامي. لو أن هناك حكاماً كعُمر الذي كان يحمي الأمة، ويتابعها، ويعمل من أجلها، حتى لينشغل ببغلة عثرت في العراق فيخشى أن يُسأل عنها لمَ لمْ يسوِ لها الطريق؟ لو أن الحكام كانوا على مثل هذا الوعي لما نشأت هذه الفرق.

كيف تنشأ فرق كالمعتزلة وإخوان الصفا والفلاسفة والجهمية والقدرية وغيرها؟

كيف نشأت؟ وأصبح لها وجود وأتباع، وأصبحت لها قوة، حتى أنهم يستطيعون أن ينزعوا الحجر الأسود من مكانه ويأخذوه ويهربوا به.. كيف يحدث هذا؟ إلا أن تكون هذه الأمة قد دخلت في حالة من الغيبوبة، وحالة من الانهيار المادي والمعنوي.

فلا شك أن ولاية العهد كانت تأتي بخلفاء يندر فيهم من يستحق الخلافة. فالمعتصم -مثلا- كان قائدا جبارا، وحاكما قويا، أذلَّ الرومان. لكنه اشترك في فتنة أحمد بن حنبل التي أجبر الناس فيها على أن ينشغلوا بمسألة خلق القرآن. وقبله كان المأمون، وهو من أقوى خلفاء بني العباس، ثم جاء بعده المعتصم والواثق. وكل هؤلاء كانوا أقوياء، ولكنهم كانوا متأثرين بالثقافة والفلسفة الرومانية واليونانية، وبالفكر المعتزلي العقلاني. لكننا نرى -مثلاً- عمر بن عبد العزيز عندما جاء بعد مجموعة من الحكام الذين سبقوه، رغم أن كثيراً منهم كان حاكماً محترماً.. مثل عبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك. فقد كانا من الفقهاء، لكنهم لم يكونوا على إخلاص عمر، ولا على قوة عمر في دينه وورعه. أقول: عندما جاء عمر بن عبد العزيز غيَّر في خلال سنتين تاريخ الدولة التي كانت قد بدأت تترهل في حياتها. فقبل عمر بن عبد العزيز كان الرجل يقابل الرجل فيسأله: كم بنيت من البيوت والقصور؟ وكم اشتريت من الجواري؟ وكم كسبت من المال؟ فلما جاء عمر بن عبد العزيز كان الرجل يلقى الرجل فيسأله كم قمت من الليل؟ وكم حفظت من كتاب الله؟ خلال سنتين فقط.

ولم يفعل عمر ذلك بالسلاح ولا بقوة القهر، وإنما بالقدوة والورع.. وحينما يبعث له واليه في أفريقيا يقول له: لقد زادت الصدقات، ويسأله: ماذا يفعل بها؟ فيقول له: حرر العبيد. فيفعل، ثم يبعث له مرة أخرى، فيقول له: أسقط الجزية عن ضعفاء أهل الكتاب، ويظل المال وفيرا. كيف حدث هذا؟ وحينما يبعث عمر بن عبد العزيز خطاباً إلى والي مصر لكي يذهب إلى امرأة فقيرة شكت له تهدم بيت دجاجها، فيرسل إلى واليه أن ابن لها عش دجاجها.. امرأة من عامة المسلمين تبعث له بهذه الشكوى، وتقول له: يا عمر لقد استرعاك الله علينا ونمت. لم يستعمل قوة السلاح، ولا البطش، إنما استقام فاستقامت الأمة. ورغم استقامة عمر كان ابنه عبد الملك يتهمه بالتقصير. فالقضية ليست قضية كلام، وإنما هي قضية عمل. وقد قيل إن عمر مات مسموماً لأن الوليد بن عبد الملك وأخاه هشام بن عبد الملك وجَمْعَاً من بني أمية كانوا قد ضاقوا به لأنه أخذ كل أموال بني أمية وردها إلى بيت المال، فدسوا له السم. ثم توالت الكوارث بعد ذلك. ورأينا كيف كان الأمراء في عهد بني العباس، وخاصة في المرحلة الثانية -مرحلة الاستضعاف- كان الأمر هزليا، ينصب الطفل وسنه سبع سنين خليفة، تتلاعب به الحاشية من كافة الأجناس.

لذلك نقول إن الركام بدأ مبكراً. بدأت بذور الجاهلية من قديم، وكان من الممكن أن يرجع الناس عن ذلك. فما فعله معاوية -رضي الله عنه- ليس بالضروري أن يكون قانوناً، فهو قد اجتهد لقربه من الفتنة، ولخوفه على الناس، وقد يكون له ما يفسر عمله، وقد يغفر الله له هذا، أو يأجره على ذلك. لكن لماذا استمرت ولاية العهد حتى يومنا هذا كسبيل وحيد لمجيء الحكام؟

حينما حدث هذا حدث انفصام بين جسد الأمة وبين رأسها. ولم يعد الناس يهتمون باختيار الحاكم، لأنهم لم يعد لهم دخل فيه. فحدثت فجوات، أخذت تزداد كل يوم مع فساد الحكام، ومع فساد الذمم، ومع وجود علماء السلطة. وهكذا فسد الناس، وفسدت الحياة الدنيا.

فلا شك أن ركام الأجيال متعاظم جداً، هائل جداً، خاصةً أن الجاهلية المعاصرة استطاعت أن تستفيد من كل سلبيات الماضي، لكي تستغلها وتوظفها لمحاربة الإسلام.

الخطوة الأولى لإنقاذ البشرية من الهاوية: بعث إسلامي جديد

"لا بد من "بعث" لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة، التي لا صلة لها بالإسلام، ولا بالمنهج الإسلامي.. وإن كانت ما تزال تزعم أنها قائمة فيما يسمى "العالم الإسلامي"!!!

وأنا أعرف أن المسافة بين محاولة "البعث" وبين تَسّلم "القيادة" مسافة شاسعة.. فقد غابت الأمة المسلمة عن "الوجود" وعن "الشهود" دهرًا طويلاً. وقد تولت قيادة البشرية أفكار أخرى وأمم أخرى، وتصورات أخرى وأوضاع أخرى فترة طويلة. وقد أبدعت العبقرية الأوروبية في هذه الفترة رصيدًا ضخمًا من "العلم" و "الثقافة" و "الأنظمة" و "الإنتاج المادي".. وهو رصيد ضخم تقف البشرية على قمته، ولا تفرِّط فيه ولا فيمن يُمثّله بسهولة! وبخاصة أن ما يسمى "العالم الإسلامي" يكاد يكون عاطلاً من كل هذه الزينة!

ولكن لا بد -مع هذه الاعتبارات كلها- من "البعث الإسلامي" مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث وبين تَسّلم القيادة. فمحاولة البعث الإسلامي هي الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها.!"

ليس هناك حل غير هذا الحل؛ أن يقوم بعث إسلامي. والجاهلية -كما نراها- لا تفرط ولن تفرط بسهولة فيما أنتجته، وستحارب بكل عنف كل من تسول له نفسه أن يحطم هذا النتاج الفكري والثقافي والمادي الذي عندها. فيجب أن نعرف طبيعة المعركة، وأن نعرف أننا رغم ضعفنا وقلتنا سنواجه أمماً، بل سنواجه بشرية بأكملها، عندها رصيد، وعندها قوة، وعندها إصرار، وعندها اقتصاد.. كل هذا في مواجهة فئة قليلة من البشر لا يملكون غير إيمانهم. لكن ليس هناك بد من هذا.

الخطوة الأولى هي إقامة هذا البعث. ونحن رأينا في تاريخ البشرية أن الأفكار العظيمة نشأت في قلب رجل. ثم بالإصرار أنشأت حضارات وأمماً. وأن المد الإسلامي يبدأ من قلب المؤمن. من قلب واحد يشع في باقي القلوب. فالخطوة الأولى هي محاولة إقامة هذا البعث، لأنه ليس هناك خطوة قبلها، وليس هناك خطوة بديلة عنها.

مؤهلات هذه الأمة لقيادة البشرية

"ولكي نكون على بيِّنة من الأمر، ينبغي أن ندرك -على وجه التحديد- مؤهلات هذه الأمة للقيادة البشرية، كي لا نخطئ عناصرها في محاولة البعث الأولى.

إن هذه الأمة لا تملك الآن -وليس مطلوبًا منها- أن تقدم للبشرية تفوقاً خارقاً في الإبداع المادي، يحني لها الرقاب، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية.. فالعبقرية الأوروبية قد سبقته في هذا المضمار سبقًا واسعًا. وليس من المنتظر -خلال عدة قرون على الأقل- التفوق المادي عليها!"

فنحن لن نتقدم بهذا المؤهل، رغم أن المؤهل في ذاته مطلباً إسلامياً، ورغم حرصنا على وجوده، وحرصنا على محاولة التقدم المادي، ولكننا لا نملكه الآن، وليس من المنتظر -وقد سبقتنا أوروبا بقرون- أن يكون هذا هو المؤهل الذي نتقدم به.

فإذن لا بد أن نبحث عن مؤهل آخر لكي نقدمه للبشرية **"فلا بد إذن من مؤهل آخر! المؤهل الذي تفتقده هذه الحضارة!"**

"لا بد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية -غير الإبداع المادي- ولن يكون هذا المؤهل سوى "العقيدة" و "المنهج" الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية، تحت إشراف تصور آخر يلبِّي حاجة الفطرة كما يلبيِّها الإبداع المادي، وأن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع إنساني. أي في مجتمع مسلم."

والتجمع الإنساني هو التجمع المسلم، ولا يكون هناك تجمع إنساني أبداً إلا أن يكون مسلما حقا..

وأي تجمع إما أن يكون إنسانياً وإما أن يكون أدنى من الحيوان. فحينما يكون المجتمع مسلماً فإنه يكون تجمعاً إنسانياً. ولا يوصف المجتمع الجاهلي أبدا بأنه تجمع إنساني. وهذا ما يغيظ الجاهلية؛ أن نتعامل معها على أنها شيء آخر غير إنساني.. فهم أي شيء آخر، وحتى لا نُحقّر الحيوان لا نقول إنهم مجتمع حيواني، لأن هذا افتراء على الحيوان. فالحيوان يقوم بمهمته، أي أنه كائن محترم يؤدي مهمته. فالنبات يؤدي مهمته، والحيوان يؤدي مهمته. أما أهل الجاهلية فهم لم يرتفعوا إلى هذا المستوى، فهم مجتمعات مشوهة، ليس لها اسم سوى أنها مجتمعات لا إنسانية.

فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع الإنساني الوحيد.

"إن العالم يعيش اليوم.." فهو لم يستثن أحداً، **"إنَّ العالم يعيش اليوم كله في "جاهلية"..."** وبالتأكيد لو أن الأستاذ سيد كان يرى بقعة من الأرض لا تعيش في جاهلية لاستثناها، وهو يدرك ما يقول.

"إنَّ العالم يعيش اليوم كله في "جاهلية" من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها شيئًا هذه التيسيرات المادية الهائلة، وهذا الإبداع المادي الفائق!

هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله..."

فالعالم الآن كله يعيش في جاهلية. ومن طبيعة الجاهلية إنكار الكرامة التي قدرها الله للإنسان، لأنها حينما تعتدي على سلطان الله؛ أي حين تُعبّد الناس لغير الله سبحانه وتعالى، فإنها تحط من كرامة الإنسان.

ومن هنا يتميز الإسلام بأنه المنهج الوحيد الذي يكرّم الإنسان ويفرده بهذه الكرامة ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فإحساس المسلم أنه يملك هذا المنهج الذي يحافظ على كرامة الإنسان إحساس لا بد أن يجعله قوياً ومعتزاً ومطمئناً وواثقاً. ولا نقول إنه يكون مستكبراً ولا متعالياً. هناك فرق بين الاستعلاء والتعالي، وفرق بين الثقة والكِبر. لا بد أن نعرف أننا على الحق، ولكن لا نستطيل على الناس بهذا الحق كما فعلت الكنيسة. ولا نستكبر على الناس لأننا نشعر بالتفرد والتميز والثقة. وهذا هو مفترق الطريق بين الإسلام وبين مناهج الجاهلية. إن الإسلام يحرر الإنسان من العبودية لغير الله، بينما الجاهلية تُعبّد الإنسان لكل شيء غير الله، فتجعله عبداً لآلهة مزيفة، ونحن نعرف في تاريخ البشرية وحتى الآن أناسا يعبدون البشر، وأناسا يعبدون الحيوان، وأناسا يعبدون البقر.

فالإسلام يحرر الإنسان من العبودية لأي شيء إلا الله، بينما الجاهلية تُعبّد الإنسان لكل شيء من دون الله. وهذا مفرق طريق مهم جداً لا بد أن نفهمه، ولا نقبل أبدا أنصاف الحقائق ولا أنصاف الحلول. نعم هناك ناس يقولون: نحن نعبد الله ونصلي ونصوم، ونذهب للكنيسة، ونؤم المسجد ونرتاد المعبد.. ولكن ماذا عن باقي النشاط الإنساني؟ إنهم يتجهون بعد ذلك ليتلقوا شرائعهم من البشر، ويستمدون قيمهم من البشر، ويحددون علاقاتهم من خلال قوانين يضعها البشر، أي أنهم يقسمون السلطة بين الله وبين البشر، فلا تعود الألوهية لله

وحده، وإنما هي شركة بينه -سبحانه- وبين البشر، وهذا في المفهوم الإسلامي يعني الشرك الأكبر الذي لا يقبل الله معه عملا آخر.. والله يقول (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري فهو للذي أشرك وأنا منه برئ)[٣].. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨].. فالذي يشرك بالله يطرده الله عز وجل من رحمته، ولا يكون عبداً لله، لأنه يكون مشركاً، وعندما يكون مشركاً لا يكون عبداً لله حتى وإن كان يعترف بالله، حتى إن كان يقدم له بعض الشعائر ويرجع إليه في بعض القوانين كالأحوال الشخصية. فالله لا يقبلها منه، ويطرده من رحمته. لأنه أشرك معه إلهاً آخر.

ما هي مهمة البعث الإسلامي الأولى؟ وما الذي يميزه؟

ومن ثم نستطيع أن ندرك أن المهمة الوحيدة التي ينبغي أن يقوم بها المسلمون، أو البعث الإسلامي هي مهمة متخصصة؛ ألا وهي إبلاغ البشر بالدين الحق. وهذه هي الوظيفة الوحيدة، بحيث لا نطمح معها إلى وظيفة أخرى. لا نريد أن نكون متخصصين في الفقه، ولا نريد أن نكون نحاة مثل (سيبويه)، ولا أننا متخصصين في الأصول وقواعده، ولا الكيمياء ولا الطبيعة. ليس هذا تخصصنا. يجوز أن نعرف من كل شيء شيئاً، ولكن ليس هذا تخصصنا. وحتى لو تصورنا أنهم يمكن أن يتخصصوا في كل هذه المجالات، فالمتخصصون كثير. وحتى لو افترضنا أننا جميعاً حاصلون على شهادات دكتوراه في الفقه وفي الأصول وفي التفسير وفي النحو، فسوف نجد آلافا مؤلفة من الأزهريين مثلنا. فما الذي نتميز به عنهم؟ ولو أننا أصبحنا جميعاً أساطين في الكيمياء والطبيعة والطب فسوف نجد أمامنا آلافا من الغرب والشرق يحملون نفس الشهادات، بل نحن عالة عليهم في هذا.. إذن ليس هذا هو مؤهلنا، وليس هذا هو تخصصنا. إنما تخصصنا ومؤهلنا أننا عرفنا حقيقة هذا الدين وحقيقة دعوة الأنبياء، فنحن ندعو الناس إلى هذه الحقيقة. هذا هو تخصصنا ومؤهلنا. فلا ندخل أبداً في أي محاولة تبعدنا عن هذه الخصوصية وهذا التخصص. فإذا جاءوا في أي وقت يحاوروننا فيسألوننا في النحو أو في الفقه أو في الأصول أو في الحساب أو في الكيمياء.. نقول لهم: من قال لكم أننا ندعي أننا علماء في هذا؟ نحن ندعوكم إلى شيء واحد.. أن الله هو الله الواحد الأحد، صاحب السلطان على كل شيء، ونريدكم أن تدخلوا في سلطان الله وتخرجوا من سلطان العباد. القضية بسيطة وبديهية وسهلة.. فإما أن ترفضوها وينتهي الأمر، وإما أن تقبلوها وتقروننا عليها. فلماذا إذن تحاربوننا؟ ولماذا تعذبوننا؟ ولماذا تحبسوننا؟

فإذا أدركنا طبيعة هذا الدور، وأدركنا طبيعة القضية، فإننا نكون ساعتها أعزاء أقوياء، فلا يستدرجوننا إلى الأزقة الضيقة و"الحواري" المسدودة، ولكن نكون دائماً في الفضاء الرحب، ونحن الأعلى. وقد يكون رد الفعل على ذلك أن يقتلونا.. وساعتها نقول مرحبا بالشهادة، وتصبح تلك الصيحة التي صاحها ذلك الصحابي عندما أصابه سهم الغدر: فزت ورب الكعبة. ففاز وكان من بشائر فوزه أن أسلم قاتله إذ ظلت كلمة (فزت ورب الكعبة) يتردد صداها في أذن القاتل المشرك حتى ساقته للإسلام. فالقضية عندنا هي هكذا بديهية وواضحة بهذا الشكل.

ثم يقول الأستاذ سيد في تعبير يمثل قمة الثقة والاستعلاء واليقين، يقول **"إننا -دون شك- نملك شيئاً جديداً جدّة كاملة. شيئاً لا تعرفه البشرية. ولا تملك هي أن "تنتجه"!.."** هذا اليقين وهذه الثقة هي ما ينبغي أن يملأ قلوبنا. فالمسلم أو الداعية لا بد أن

٣ رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

يكون مفعم القلب باليقين والطمأنينة أنه على الحق، لذا فهو لا يتردد حين يعرضه ولا يتلجلج، ولا يكون في معرض المساومة أبداً فهو لا يداخله شك في أنه يملك شيئا جديدا جدة كاملة، شيئا لا تعرفه البشرية الآن، ولا تملك أن تنتجه.

إن هذه الفقرة قمة فعلاً في تصور نفسية الداعية المسلم. قمة العلم، واليقين بهذا العلم، والفرح بهذا العلم، والثقة به، ثم القوة الهائلة في التحدي لهذه الجاهلية. ويذكرنا هذا بموقف نوح -عليه السلام- الذي يورده القرآن ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].. قمة التحدي وقمة الثقة وقمة الطمأنينة. هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه الدعاة.. طمأنينة لا يخالجها شك، فنحن لسنا محتاجين إلى نقاش، ولا نحن محتاجون إلى علماء السلطة لكي يعلمونا الإسلام. وإذا جاءوا وقالوا ذلك نقول لهم: لستم أنتم الذين تعلموننا الإسلام.. أنتم تجهلون حقيقة الإسلام.. أنتم درستم أبواب النجاسة والطهارة بعمق ولكنكم لم تعنوا قط بالعلم بمعنى كلمة التوحيد وتوسعتم وتعمقتم في معرفة نواقض الوضوء لكنكم لم تشغلوا أنفسكم بالعلم بنواقض "لا إله إلا الله". أنتم بمعزل عن هذا الفقه الأكبر.. رضيتم بهذا أم لم ترضوا.. شئتم أم أبيتم. ونغلق الحوار. فلا تستخفنا استفزازاتهم، ولا رميهم لنا بالجهل أو السفاهة. إننا قرأنا كتاب الله وقرأنا سيرة رسول الله ﷺ، ورأينا كيف تحرك الأنبياء جميعاً بهذا الدين.. نحن عندنا علم هائل في هذه القضية، ودليلنا واضح، وكتابنا منير. بهذا اليقين نقابل الجاهلية.

لماذا تبدأ عملية البعث في الرقعة الإسلامية؟ وكيف تبدأ؟

"إننا -دون شك- نملك شيئاً جديداً جدة كاملة. شيئاً لا تعرفه البشرية. ولا تملك هي أن "تنتجه"!

ولكن هذا الجديد، لا بد أن يتمثل -كما قلنا- في واقع عملي. لا بد أن تعيش به أمة.. وهذا يقتضي عملية "بعث" في الرقعة الإسلامية.." لماذا في الرقعة الإسلامية؟ لأن هناك مازال في الرقعة الإسلامية بعض مشتركات من الممكن أن تكون محطات للتفاهم.. هم يؤمنون معنا بأن القرآن كتاب الله، ويؤمنون معنا بأن محمد ﷺ خاتم الرسل، ويؤمنون معنا بأن الله واحد، وأن الله هو الخالق والرازق والنافع والضار.. هذه قاعدة مشتركة من الممكن أن نبني عليها معهم بداية الحوار وبداية الدعوة.

وليس معنى هذا أن بقية الشعوب لا تُدعى. ولكن لا شك أن الرقعة الإسلامية بتاريخها وبأمجادها القديمة، وبعلمها وباتفاقها معنا على الإيمان بهذه الأمور -بصورة أو بأخرى- من الممكن أن تكون منطلقات جيدة لكي نقيم ذلك البعث الإسلامي.

كيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟

"فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي؟ إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق.."

فأي فكرة لا بد أن تتمثل في إنسان. وهذا الإنسان يدعو إليها، ويتحمس لها، ويخلص في سبيلها، ويتمثلها تماماً. فلا بد من طليعة تعزم. والعزم هو أقصى ما يفعله الإنسان حينما يقدم على عمل. فالعزم يسبقه خاطرة، ويسبقه همّ. ويسبقه شعور ووجدان، ويسبقه انفعال وحماس، ثم بعد ذلك تأتي العزيمة. ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].. فصورة العزم هي آخر خطوات العمل التي تسبق التنفيذ.

"إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة، وتمضي في الطريق. تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا. تمضي وهي تزاول نوعاً من العزلة من جانب، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة.."

حينما تبدأ هذه الطليعة في الإيمان بهذا الحق، وتبدأ خطواتها الأولى في مواجهة هذا الخضم الهائل من الجاهلية، تتحقق عندها تلك العزلة تلقائياً. وهذه العزلة ليست شيئا متكلفاً أو مصنوعاً. بل هو شيء يفرض نفسه فرضاً طبيعياً فنحن من خلال إدراكنا لهذا الحق وإسقاطه على الواقع نجد أننا على دين وقومنا على دين. حينذاك يحدث الانفصال الشعوري نتيجة أننا لم نعد من هذه الأمة، ولم نعد من نسيج هذه الأمة.. لم تعد أفكارنا ولا آمالنا ولا وسائلنا ولا مشاعرنا ولا وسائل تسليتنا ولا لهونا ولا جدّنا ولا أي شيء يماثل هؤلاء. انقطعت بيننا وبينهم الوسائل والوسائط، وأصبحنا شيئاً آخر غيرهم.

فالعزلة أمر نحن لا نصطنعه اصطناعاً، ولا نولده في نفوسنا وإنما هو النتيجة الحتمية لمعرفتنا بالحق والتزامنا به. والذي لا يشعر بهذه العزلة عندما يعرف الحق فعليه أن يوقن أنه لم يعرف الحق بعد. ولم يدخل هذا الحق إلى قلبه. لكن حينما يدخل هذا الحق مدخله الطبيعي، ويمتزج بدمائنا ومشاعرنا وقناعتنا، تحدث تلقائياً هذه العزلة الشعورية. وهي عزلة شعورية لأننا لم نقرر بعد العزلة العملية. ولذلك تكون هناك عزلة من جانب، ونوع من الاتصال مع الجاهلية من الجانب الآخر. نحن نعيش داخل الجاهلية. نأخذ ونعطي في عالم التجارة وعالم العلاقات وعالم الجوار وعالم الاجتماع وعالم التعليم. مازلنا نعيش وسط الجاهلية. وما زلنا نتعامل مع هذه الجاهلية. ولذلك لا بد أن يكون هناك جسور بيننا وبينها، وخاصة أن هذه الجاهلية هي المقصودة بالدعوة.. فلا بد أن يكون بيننا وبينها جسور. فلا نعتزل شعورياً وعملياً ونذهب إلى الكهوف ونذهب إلى الصحاري لكي نعيش فيها. فلم يفعل رسول الله ﷺ هذا. وإنما ظل يعيش وسط الجاهلية، يدعو أهلها، ويقيم لهم ولائم، ويرتبط بصداقات وعلاقات، ويأتمنونه على أماناتهم، ويتاجر معهم. كل ذلك كان يحدث رغم أنه ﷺ كان يحمل الحق في قلبه ويصر عليه.

حينما تمضي هذه الطليعة في الطريق، وتعزم العزمة، وتتحقق لها العزلة الشعورية.. بينما هي في عالم الواقع تتعامل مع الجاهلية، ستحتاج هذه الطليعة لمعالم في الطريق. وسنشرح فيما بعد كيف تتعامل هذه الطليعة مع الجاهلية، وما هي ميادين التعامل، وما هي القوانين التي تحكم هذا التعامل، والقيم والأهداف والوسائل، وكيف تحقق هي في نفسها العزلة الشعورية، وهذا سيكون مدار الشرح في بقية الكتاب.

معالم في طريق البعث الإسلامي

"لا بد لهذه الطليعة التي تعزم هذه العزمة من "معالم في الطريق". معالم تعرف منها طبيعة دورها.."

أول معلم يجب أن تعرفه هذه الطليعة هو **"طبيعة دورها"**؛ وهي القيادة: قيادة البشرية إلى الله، وقيادتها إلى الهدى، وتدرك أنه منوط بها عمل ضخم وخطير، فلا تستقل أو تقلل من شأنها أو من شأن نفسها. ستكون ممتلئة ثقة ويقينا بضخامة الوظيفة وضخامة العمل ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].. ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].. فلا بد أن يمتلئ الإنسان يقينا بأنه مكلف بالدور الضخم. فقد يرى الإنسان نفسه قليلاً. وقد يرى الإنسان نفسه بسيطاً. وقد يرى الإنسان نفسه صغيراً. لكن بما أن الله قد وظفه فليرتفع إلى مستوى الوظيفة، وليقبل عطية الله له باختياره من وسط هذه الجاهلية ليقول له اعمل على

طريق الأنبياء.. ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولينهض وليتحمل التبعة وليسأل الله العون والمدد فما قلّ من انتصر به ولا هان من لاذ بحماه.

والمعلم الثاني هو **"حقيقة وظيفتها"**؛ وهي البلاغ عن رب العالمين، ومحاولة هداية البشرية إلى هذا الحق. هذه هي الوظيفة؛ وهذه أعظم وظيفة يؤديها إنسان. وهي وظيفة الأنبياء. وهذه هي وظيفتنا؛ أن ندعو الناس إلى الحق. والعلماء ورثة الأنبياء. ولا بد أن نعرف أن هذه الوظيفة هي أعظم من أي شيء آخر. وهذا يعني أننا ينبغي أن نبذل من أجل هذه الوظيفة أضعاف أضعاف الذي نبذله في وظائفنا الأخرى. فعلينا أن نعمل بكل قوتنا لتحقيق متطلبات هذه الوظيفة. وليس من المروءة، وليس من الحق أن نعطي لهذه الوظيفة فضلة أوقاتنا، وفتات قوّتنا، وفتات أعمالنا وجهودنا. ليس هذا من العدل وليس هذا من المروءة ولا من الرجولة. لا بد أن نعطيها أغلى أوقاتنا وأغلى جهودنا.

والمعلم الثالث أن تعرف **"صلب غايتها"** وهي العبودية لله عز وجل. فلسنا طلاب حكم، ولسنا طلاب مال، ولسنا طلاب جاه، ولسنا طلاب مناصب.. لسنا شيئاً من ذلك. نحن قد نعيش ونموت لا يسمع عنا أحد. ولكننا فقط نريد أن نكون عبيداً لله رب العالمين، ومعنى أن نكون عبيداً لله رب العالمين ألا يكون هوانا مع شيء لا يريده الله رب العالمين إذ الإيمان لا يتحقق إلا بذلك فقد قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[٤]. هذه هي قمة العبودية، وهذا مرتقى عالٍ جداً، يحتاج منا لكي نتسلقه أن نتعب كثيراً من أجل أن نصل إلى أن يكون هوانا تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ، وهو الحق. كيف نصل إلى قمة هذا الجبل العالي الشامخ؟ إن هذا يحتاج منا جهودا. لا ينفع معه نوم ولا عبث ولا لعب. إنما ينبغي أن نعرف أن هذه الغاية من العظمة بحيث تحتاج منا إلى كل هذ الجهد. فالمعلم الثالث هو معرفة صلب غايتها وهي العبودية، وكل ما تقتضيه هذه العبودية من أوصاف وخصائص.

والمعلم الرابع أن تعرف **"نقطة البدء في الرحلة الطويلة"** وهي العقيدة بطبيعة الحال. أن يكون البدء دائماً بقضية العقيدة وقضية لا إله إلا الله.

والمعلم الخامس أن تعرف **"طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً"**، وهو التميز عن هذه الجاهلية، وتحديد موقفها من خلال المفاصلة والتميز عن هذه الجاهلية.

والمعلم السادس أن تعرف أيضاً **"أين تلتقي مع الناس وأين تفترق؟"** وهي قضية الولاء والبراء. أن تعرف كيف تتعامل وكيف تحب، وما هي نقاط الالتقاء وما هي نقاط الافتراق. وكل هذا يتحدد على أساسه الولاء والبراء مع هذه الجاهلية.

كما تعرف أيضاً -وهو المعلم السابع- **"ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها؟"** وهو ما نعبر عنه بمعرفة الواقع. فلا بد للطليعة هذه أن تعرف الواقع جيداً؛ تعرف خصائصها، ثم تعرف خصائص الجاهلية من حولها. وتحدد المسافة بينها وبين الجاهلية، وتحدد نقطة البداية التي سنتعامل بها أو منها مع الجاهلية.

---

٤ أخرجه الحسن بن سفيان وقال ابن حجر: رجاله ثقات، وصححه النووي في الأربعين النووية.

والمعلم الثامن أن تعرف **"كيف تُخاطِب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيم تخاطبها؟"**، وهو المنهج. لا بد أن نعرف كيف نخاطب هذه الجاهلية. فليس كل خطاب صالحاً، وليست كل بداية صحيحة، وليست كل طريقة تؤدي إلى أن تدرك الجاهلية كل ما ندعو إليه. وهذا ما يفرق بين كثير من التيارات الإسلامية.

ثم المعلم التاسع **"أن تعرف من أين تتلقى -في هذا كله- وكيف تتلقى؟"**. تحديد المصدر وتحديد منهج التلقي وهو -أيضاً- أمر مهم جداً.

وأخيراً المعلم العاشر أن تعرف **"التصور الذي أَنشأه في نفوس الصفوة المختارة، التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع، والتي حولت خط سير التاريخ مرة إلى حيث شاء الله أن يسير."**

والصحابة هم النموذج الذي نطبق عليه حقائق الإسلام، لنرى كيف ظهرت؟ وكيف قامت في عالم الواقع؟

نرى كيف تحول عمر -رضي الله عنه- من عمر القاسي العنيف الدموي المستكبر إلى ذلك الرجل العالم الملهم الرحيم القائد الإداري.. كيف؟

كيف تحول خالد بن الوليد من عدو للإسلام إلى سيف الله المسلول؟

كيف تحول المغيرة بن شعبة من قاطع طريق، ليكون بعد ذلك نجماً من نجوم المجتمع الإسلامي؟

كيف ظهر الإسلام في نماذج حية.. لكي نقتدي بهم في حياتنا.

حينما كنا في الإخوان كانوا يقولون لنا: ليبحث كل واحد منا عن نظيره في الصحابة ويحاول أن يتخذه نموذجاً عملياً.. فمثلاً: الإنسان الذي يرى نفسه هادئ الطبع محباً للتعبد والتنسك يبحث عن الصحابي الذي يتميز بهذه المواصفات، ويحاول أن يرى كيف خاض معركته مع نفسه ومع الشيطان. والإنسان العصبي الهائج المائج يبحث عن واحد مثل عمر -رضي الله عنه- مثلاً، ليرى كيف استطاع عمر أن يتحول من ذلك الإنسان المتجبر العنيف إلى أن يكون رحمة للمسلمين؟ وكانت هذه فكرة لطيفة، نستطيع نحن أن نقتبسها. فيبحث كل واحد منا في الصحابة عن نظير له، يتأسى به، ويتطابق معه، باعتبار أن نماذج الصحابة بشر مثلنا. فيصعب علينا أن نتخيل أن نصل إلى أفق الرسول ﷺ لأنه نبي معصوم. لكن نستطيع أن نأمل؛ لماذا لا أكون مثل عمر؟ لماذا لا أكون مثل عبد الرحمن بن عوف؟ لماذا لا أكون مثل علي؟ لماذا لا أكون مثل محمد بن مسلمة؟ لماذا لا أكون مثل أبي سعيد الخدري؟ ويحاول أن يفهم كيف تعاملوا مع نفوسهم ليخرجوا منها هذه القمم الرفيعة العالية.

هذه المعالم العشرة هي محاور الكتاب بعد ذلك.. سنبحث -ونحن ندرس الكتاب- عن مؤهلات القيادة ومواصفاتها. ونبحث عن صور البلاغ وطريقته. كما نبحث عن معنى العبودية ومقتضياتها. كما سنتعلم العقيدة؛ كيف نبدأ بها، وكيف نشرحها. كما نعرف معنى التميز، وكيف يكون. ونعرف الواقع الذي حولنا. كما نتعرف على المنهج الذي نقدم به هذا الدين وتتحرك به بهذا الدين. ثم نعرف المصدر الذي نتلقى منه ومنهج التلقي. ثم ما هي علاقة الولاء والبراء بهذه الجاهلية. ثم النموذج والقدوة الذي ينبغي أن نتأسى به في حياتنا الواقعية، ونحققه في حياتنا العملية.

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الأول

شروح

كتاب

معالم في الطريق

جيل قرآني فريد

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
ظاهرة تاريخية ١
أعداء الإسلام يقرون بتميز هذا الجيل ٢
الأمل في الصعود إلى القمة ٣
جيل خرج من بين دفتي كتاب الله ٤
هل العبرة بالكم الذي نحصله من المعلومات عن القرآن أو السنة؟ ٥
نماذج من تميز الجيل الأول ٦
لنحاول أن نعبر الفجوة الهائلة، ولا نكتفي بمجرد الإعجاب بهم ١٠
تنزل الوحي غضا وأثره في تعميق صلة الصحابة بالله ١١
عوامل نشأة الجيل الأول ١٤
العامل الأول: القرآن الكريم ١٤
العامل الثاني: السنة النبوية ٢٣
العامل الثالث: ظاهرتا الوحي والمفسر الواحد ٢٥
العامل الرابع: جدة الرسالة وغربة الإسلام ٢٧
وجود هذه العوامل في حياتنا ٢٩
هل الحياة الإسلامية متوقفة على وجود الرسول ﷺ ٢٩
الفارق بين جيل الصحابة والأجيال التي جاءت بعده ٣١
الاختلاف الأول: النبع الصافي ٣١
الاختلاف الثاني: منهج التلقي للتنفيذ ٣٤
الاختلاف الثالث: الانخلاع الكامل من الجاهلية والولاء الكامل للإسلام ٣٩
ختام الفصل: جاهلية الواقع المعاصر وواجب الحركة الإسلامية ٤٢
واجب الحركة الإسلامية المعاصرة ٤٥
التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي ٤٧
مهمتنا تغيير الواقع الجاهلي وليس الاصطلاح معه ٤٧
الحرص على المنهج وليس النتائج ٥٠
سنة الابتلاء ٥٠

جيل قرآني فريد

مقدمة

نتحدث الآن عن الفصل الأول من كتاب المعالم، وهو فصل **(جيل قرآني فريد)**، ونسير مع هذا الفصل، نتلقى إيحاءات أي كلمة أو أي تعبير أو أي حقيقة فيه، محاولين أن نعيش في رحابها وأن نستمد منها معالم توضح لنا التصور والمنهج كما بينهما صاحب المعالم ببصمة كلماته المتميزة المتوهجة بحرارة الإيمان وصدق اليقين.

ولا شك أن العنوان؛ **(جيل قرآني فريد)** له إيقاع خاص، وله أيضاً مشاعر وإيحاءات وإيقاعات فريدة ومشوّقة للناس الذين يريدون أن يستعيدوا وأن يستأنفوا مرةً أخرى تلك التجربة الرائعة والفريدة التي حدثت يوماً ما على يد رسول الله ﷺ، خاتم النبيين، وأشرف المرسلين.

وهذا الجيل القرآني الفريد هو نتاج تربية الله سبحانه وتعالى لهذه الفئة المؤمنة التي حظيت بهذا اللقاء الكريم بينها وبين وحي الله، وبينها وبين رسول الله ﷺ. وبتعبيرنا المعاصر أو العامي هو جيل "محظوظ"... وكلمة "محظوظ" تعني أن له حظاً كبيراً، وعظيماً، فلا شك أن أهل ذلك الجيل قد كتب لهم منذ الأزل الخير، وسبقت لهم من ربهم الحسنى، فاستحقوا أن يوجدوا في تلك الفترة العجيبة التي التقت فيها الأرض بالسماء من خلال الوحي، فعاشوا فترة من الزمن تحيطهم وتحوطهم مشاعر وأحاسيس قلما تتكرر في تاريخ البشرية مرة أخرى...

فتعبير **(جيل قرآني فريد)** لا شك أنه تعبير موح ومؤثر ومشوق ورائع جداً، يبدأ به الأستاذ سيد -رحمه الله- هذه المعالم. وسنكتشف أن هذا الفصل هو أهم فصل في الكتاب، رغم ما قد يبدو من أن الحقائق التي تناولها ليست بضخامة الحقائق الأخرى التي تناولتها فصول الكتاب الأخرى، لكن هذا الفصل يعتبر في الحقيقة الأساس الذي تقوم عليه تلك الحقائق الأخرى، لأن هذا الفصل يتكلم عن الكتاب الذي انبثقت منه تلك الحقائق كلها، والذي شرح وبيّن ووضّح الحقائق التي تكلم عنها الكتاب بعد ذلك.

ثم إنه حينما تحدث عن الجيل القرآني إنما تحدث عن ذلك القرآن ممثلاً في جيل من الناس. وهذا أيضاً أمرٌ كبيرٌ وخطير، ويُعد فعلاً أهم ما في الكتاب، لأنه ما من طائفة من المؤمنين الصادقين إلا وغايتهم أن يكونوا جيلاً قرآنياً.

لذلك.. فهذا الفصل؛ إذا أدركناه إدراكاً صحيحاً، وإذا فهمناه فهماً دقيقاً، وإذا استطعنا أن نعيش معه في حياتنا بطريقة سليمة، فإننا نكون قد انتهينا من نصف الطريق، وتخطينا نصف العقبات.. وتأتي كل الحقائق الأخرى بعد ذلك تثبيتاً وتأكيداً لما أدركناه في هذا الفصل العجيب والفريد أيضاً.

ظاهرة تاريخية

يقول الأستاذ سيد -رحمه الله- في مستهل الفصل **"هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان. وأن يقفوا أمامها طويلاً. ذلك أنها ذات أثر حاسمٍ في منهج الدعوة واتجاهها."**

وكما تعودنا من كتابات الأستاذ سيد وطريقته في التعبير أن كلماته تحوي في طياتها ذلك اليقين، وذلك الاستعلاء بما يَستَقِينهُ، وبالحقائق التي يعيشها. وتعبيراته دائماً -كما سبق أن قلت- تجبر الإنسان أن يحدد موقفاً مما يسمع... لا تتركه هملاً، ولا تتركه متميعاً، ولا تدعه يمر مروراً عابراً على الحقيقة التي يتكلم عنها.. وإنما دائماً تدفعه دفعاً إلى أن يقرر قراراً ويتخذ موقفاً.

ولا شك أن التعبير الذي استهل به، أو الحقيقة التي استهل بها هذا الفصل هي من هذه الحقائق التي يفرضها فرضاً على قارئه؛ فإما أن يوافق وإما أن يخالف، ف **"هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي..."** فكلمة "ينبغي" توحي بأنه على يقين مما يريد أن يقوله، ومما يريد أن يعرضه، **"ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان، وأن يقفوا أمامها طويلاً.."**، ولا شك أن هذا الاستهلال يعطينا توجها إلى التريث الطويل لإدراك ومحاولة التعرف على هذه الظاهرة التي يريد أن يتحدث عنها، هذه الظاهرة التاريخية التي ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل زمان وفي كل مكان.

يقول **"لقد خَرَّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس -جيل الصحابة رضوان الله عليهم- جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه. ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى.."** لقد خرجت هذه الدعوة جيلاً من الناس؛ لم يكونوا ملائكة، ولم يكونوا كائنات آتية من السماء، أو خارجة من كهف، أو نازلة من كوكبٍ بعيد؛ بل هم جيلٌ من الناس، كمثل كل الناس في كل وقت وفي كل زمان وفي كل مكان، فليسوا عجباً ولا عجيبةً في التاريخ، وإنما هم جيلٌ من الناس، استطاعوا بفضلٍ من الله، وبمعونة من رسوله ﷺ، وبأسبابٍ سنتحدث عنها بعد قليل، استطاعوا واستحقوا أن يكونوا جيلاً مميزاً، وأن يكونوا جيلاً متفوقاً، وأن يكونوا جيلاً أثنى الله سبحانه وتعالى عليه، وأثنى عليه رسوله ﷺ أيضاً: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[١].

لكن لماذا كان ذلك الجيل في تلك المنزلة العظيمة متربعاً على تلك القمة السامقة؟!!... هذا هو السؤال الكبير الذي ينبغي أن يقف عنده أصحاب الدعوة في كل زمان وفي كل مكان، ليسألوا أنفسهم، وليبحثوا عن ذلكم السر أو ذلك السبب الذي جعل ذلك الجيل بهذه الصورة التي تحدثنا عنها. إن تلك الصورة المبهرة، تجعل الإنسان الصادق مَشُوقاً إلى أن يعيش مثلما عاش هذا الجيل، ويتمنى لو أنه كان فرداً منه أو أن ينجح في أن يحقق بعضاً ما حققه ذلك الجيل.. وليس كل ما حققه. لأن ما حققه ذلك الجيل كان شيئاً عجيباً... وشيئاً ضخماً جداً، وصورة لم تحدث في تاريخ البشرية من قبل، ولن تتكرر من بعد.

أعداء الإسلام يقرون بتميز هذا الجيل

وأعداء الإسلام قبل أتباعه، يرون في ذلك الجيل جيلاً عظيماً وجيلاً رائعاً، والمستشرقون وأعداء الإسلام مهما حاولوا الكيد للإسلام، ومهما حاولوا الحديث عن بعض ما يتصورونه ثغرات في تاريخ الإسلام، يجدون أنفسهم منبهرين بجيل الصحابة معترفين بفضل ذلك الجيل وعظمته. وكل ما استطاعوا أن يقولوه إن هؤلاء الصحابة ارتفعوا إلى هذا الأفق الضخم العظيم جداً بعبقرية محمد وبشخصية محمد، وأنهم عاشوا فترةً غير طبيعية تحت سيطرة هذه الشخصية وعظمتها. ولكنهم حينما ذهب محمد لم يلبثوا في خلال ربع قرن أن عادوا مرةً أخرى إلى جاهليتهم الأولى. فالإسلام في ذاته لم يصنع شيئاً، وإنما الذي صنع هؤلاء هي تلك العبقرية التي اتسم بها محمد، ذلك الشخص الذي عندما يؤلفون عن عظماء العالم في تاريخ البشرية، يضعونه أول العظماء وأعظم العباقرة. فهم يريدون أن يجعلوا عظمة

١ متفق عليه من حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه-.

الصحابة؛ ليست ناتجة من عظمة الإسلام ولا من تفرد الإسلام ولا من دين الإسلام، وإنما يريدون أن يرجعوها إلى أسبابٍ أرضية، وأسباب إنسانية، وأسباب شخصية هي تلك التي تميز بها محمد ﷺ، محاولين بذلك أن ينزلوا مكانته ﷺ من أن يكون نبياً إلى أن يكون مجرد رجل عبقري وعظيم كغيره من العظماء، وكغيره من العباقرة، غير أنه كان أعظمهم عبقريةً وأشدهم تأثيراً، مما جعله يستطيع أن يؤثر في ذلك الجيل.

ذلك الجيل الذي يقولون عنه أيضاً أنه كان جيلاً أمياً متخلفاً، لم يطلع على أسباب الحياة، وبالتالي كانوا طوع يدي محمد ﷺ، فقد تأثروا به تأثراً ضخماً، لأنه كان يفوقهم بصورةٍ ضخمة جداً. ولكن لو أن محمداً ظهر في بلاد الفرس أو في بلاد الروم أو في مصر لعله لم يكن ليؤثر ذلك التأثير نفسه، لأن هؤلاء كانوا قوما متحضرين، وكانوا أصحاب ثقافة وأصحاب حضارة، فلعل محمدا ما كان يستطيع أن يصنع ذلك الصنيع في تلك الحضارات، أو في تلك البلدان.

ولا شك أن هذا أعظم ما استطاعوا أن يقولوه، لكنهم لم يستطيعوا أن يقولوا إن ذلك الجيل لم يكن جيلاً فريداً، ولم يستطيعوا أن يقولوا إن ذلك الجيل لم يكن جيلاً متميزاً، وأنه خط في تاريخ البشرية خطوطاً لن يستطيع أحد أن يمحوها أو أن يزيلها.

لكنهم يقولون إنه بعد مرور خمسة وعشرين عاماً بدأوا يرجعون إلى جاهليتهم، فتحاربوا، وانقلبوا على بعضهم، وحدث في تاريخ الإسلام السياسي خلافات دموية على السلطة، استُغِلت فيها كل الأساليب البشرية التي يسلكها كل الناس في كل زمان وفي كل مكان. فأعداء الإسلام يركزون على فترات الخلافات، ويقولون إن تاريخ الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية على مدى ثلاثة عشر أو أربعة عشر قرناً كان كذلك، فبالتالي ليس هناك ميزة لهذه الأمة.

وهكذا يحاولون الكيد والتشكيك وهم في أثناء ذلك يهملون بقية الحقائق وبقية الخصائص التي ميزت الإسلام، والتي تفرد بها على مدى تاريخ البشرية، والتي يضطر بعض المنصفين منهم أن يعترفوا بها.

الأمل في الصعود إلى القمة

هذه الظاهرة التاريخية -ظاهرة جيل الصحابة المتميز- هي في الحقيقة ظاهرة جيل من الناس... وهذه الحقيقة تهمنا جداً عندما نقول إنه جيلٌ من الناس، لأنه يعني أننا مطالبون بأن نقتفى آثارهم، وألا نشعر أن الوصول إلى هذا الأفق أمر مستحيل.

صحيح، هناك حقيقة أخرى يردفها بعد قوله السابق حيث يقول: **"ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى"** وهي بقدر ماهي حقيقة إلا أنها تبعث الأسى في نفوس الأجيال التي أتت بعد ذلك الجيل، لأنها تخبره أنه لن يستطيع جيلٌ من الأجيال أن يلحق بذلك الجيل العظيم.

يقول **"نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ. ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم، في مكان واحد، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة"**، فالذي يبدو مستحيلاً هو أن يتحقق جيلٌ بأكمله بهذا العدد الكبير الضخم في وقت واحد على ذلك المستوى، ولكن ذلك لا يمنع أن يصل بعض الأفراد -أفرادٌ من الناس، أو عشرات من الناس- إلى ذلك المستوى الفريد، وهذا يعطي أملاً لأصحاب الهمم العالية ولأصحاب النفوس الكبيرة أن تحاول أن تقتفي ذلك الأثر وتلك الخطوات لعلهم يستطيعون أن يصلوا إلى أن يكونوا أفراداً من ذلك الجيل السابق ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] إذن، هناك السابقون من المهاجرين ومن الأنصار، وهناك الذين اتبعوهم بإحسان. ففي الإمكان إذن أن يأتي بعدهم أفرادٌ وأفذاذٌ من الناس يستطيعون أن يصلوا إلى ما وصل إليه هؤلاء السابقون من المهاجرين والأنصار، وبذلك لا يقفل باب الأمل، ولا يقفل باب التنافس، ولا يقفل باب السعي للوصول إلى تحقيق ذلك الأفق إذا كانت لنا همة عالية، وكانت لنا إرادة غالبة، وكان لنا حرص على بلوغ ذلك الأفق الرائع الذي وصل إليه أولئك الصحابة الكرام.

ثم يقول **"هذه ظاهرةٌ واضحةٌ واقعة.."** ليست خيالاً ولا خرافة، ولكنها حقيقة واقعة حدثت في التاريخ ذات يوم، وما زالت أثارها في البشرية باقية حتى هذا الوقت الذي نعيشه اليوم. فلا شك أن كثيرا من الخير الموجود في البشرية الآن؛ في شرقٍ وغرب، وفي شمالٍ وجنوب، هو من أثار هذه النخبة المتميزة من البشر، والتي تركت بصماتها على تاريخ البشرية من بعدها وحتى اليوم في كل مجالات الحياة، في مجالات العقيدة، ومجالات الأخلاق، ومجالات السلوك، ومجالات العلم والإبداع المادي... في كل هذا لها بصماتها التي انطبعت على تاريخ البشرية كله. وهذه حقيقة عجيبة وواقعة، وليست خيالاً ولا خرافة، ومن ثم فيمكن أن تتحقق مرة أخرى، ويكون هذا أيضا مصداقا لنبوءة رسول الله ﷺ التي قال فيها (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)[٢].

جيل خرج من بين دفتي كتاب الله

"هذه ظاهرة واضحةٌ واقعة، ذات مدلولٍ ينبغي الوقوف أمامه طويلاً لعلنا نهتدي إلى سرِّه.

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا، وحديث رسول الله ﷺ وهديه العملي وسيرته الكريمة، كلها بين أيدينا كذلك، كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الأول، الذي لم يتكرر في التاريخ.. ولم يغب إلا شخص رسول الله ﷺ، فهل هذا هو السر؟

لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتمياً لقيام هذه الدعوة، وإيتائها ثمراتها، ما جعلها الله دعوة للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، وما وكَّل إليها أمر الناس في هذه الأرض. إلى آخر الزمان.."

ونحن نريد أن نحاول معرفة السر الذي جعل هؤلاء الصحابة يحققون هذا المستوى الذي لم يتكرر في تاريخ البشرية. ولا شك أن القرآن هو العامل الأول الذي أثر في ذلك الجيل.. بل نستطيع أن نقول إنه العامل الوحيد. إذا كنا ندرك أن رسول الله ﷺ ذاته هو نتاج لهذا القرآن، وأن شخصيته ﷺ إنما هي انعكاس لهذا القرآن.. فحينما سُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت (كان خلقه القرآن)[٣] يرضى برضاه ويسخط بسخطه. والسنة النبوية أيضاً إنما هي نتاج لهذا القرآن. فلا شك أننا من خلال هذه الحقيقة نستطيع أن نؤكد أن القرآن هو الذي صنع ذلك الجيل، وأن ذلك الجيل قد خرج من بين دفتي ذلك الكتاب. ولعل هذه الأمة بالذات هي الأمة الوحيدة التي خرجت من بين دفتي كتابٍ، وظلت تعيش وتستمد منه طوال حياتها. فأجيال البشرية قبل ذلك لم تكن على نفس النمط ولا على نفس المستوى. ولم يُحفظ كتاب لأمة فيما سبق ليكون مدداً لها ونبراساً كما حفظ الله قرآن هذا الدين، ليظل ذكرا ومنارة ومثابة للناس إلى يوم الدين.

---

٢ رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

٣ أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها.

هل العبرة بالكم الذي نحصله من المعلومات عن القرآن أو السنة؟

ولكن كما نقول، إن القرآن بين أيدينا كما كان بين أيدي ذلك الجيل، بل لعلنا نستطيع أن ندرك أشياء عن هذا القرآن لم يكن يعرفها كل الصحابة.. فبعض الصحابة كان لا يعرف -مثلاً- بعض أسباب التنزيل لبعض الآيات أو بعض السور لأنه لم يحضر المجلس الذي قال فيه رسول الله ﷺ ذلك.. وبعضهم لم يكن يعرف بعض تفسيرات رسول الله ﷺ لبعض الآيات أو لبعض السور.. ولكننا الآن بعد أن جمع لنا علماؤنا الصالحون كل ذلك -جزاهم الله عن هذه الأمة خيراً- أصبح بين أيدينا كل المعلومات عن القرآن، وكل ما كان في أدمغة الصحابة جميعهم. فيستطيع كل واحد منا أن يعرف كل ما كان يعلمه الصحابة إذا استعرض تلك الكتب التي كتبها سلفنا الصالح، بينما كان الصحابي يكاد لا يعرف إلا ما سمعه بأذنه من رسول الله ﷺ أو ما وصل إليه من الصحابة القريبين منه ممن كان يحتك بهم، ولكن ظل بعض الصحابة لا يعرفون كل ما صدر عن رسول الله ﷺ، حتى أن أبا بكر وعمر كانا في بعض الأحيان يسألان الصحابة: هل عندكم علم في مسألة كذا؟ فيقولون: نعم سمعنا رسول الله ﷺ يقول كذا، فيأخذ الواحد منهم ما يقولون... فالقرآن الآن بين أيدينا كما كان بين أيدي الصحابة، بل إن معلوماتنا عن القرآن لعلها تكون أكثر من معلومات أي صحابي عن القرآن أو عن الحديث، ولكن هل العبرة بالكم الذي نستطيع أن نحصِّله من المعلومات عن القرآن، أو من المعلومات عن حديث الرسول ﷺ؟...!!

الحقيقة أنها ليست كذلك، فكما يقول الرسول ﷺ منوهاً بفضل أصحابه -رضي الله عنهم-: (لو أنفق أحدكم مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)[٤] فكما أن نوعية الإنفاق ومشاعر المنفق تصنع ذلك التفاوت العجيب، فإن نوعية العلم ونوعية المعرفة عند جيل الصحابة كانت ذات تركيز وكثافة معينة تجعلها على قلتها تفوق الجبال المتراكبة من العلوم عند غيرهم من الناس...

ولا شك أن الأمر يحتاج منا وقتا وجهدا كي ندرك لماذا؟! لماذا كان ما عند الصحابة على قلة كميته ذا أثر فعال في قيمته وفي نوعيته وفي كثافته وفي عمله في نفوسهم؟ ...

إنه لا بد لنا إذا أردنا أن نحاول تلك المحاولة الفذة أن نرتفع إلى مستوى الصحابة، وأن نتعرف على ذلك السر الذي عاشه الصحابة وأدركوه وتمرسوا به وتذوقوه... وهو ليس أمرا يسيرا، لأن الأمور الشعورية دائماً هي أصعب الأمور وضوحاً، وأصعبها في التعبير عنها وفي توصيفها؛ لأنها تُتَذوق وتُستشعر، أكثر مما توصف..

٤ أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

نماذج من تميز الجيل الأول

وكما جاء عن أبي بكر -رضي الله عنه- (ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام أو صلاة ولكنه فضلكم بسر وقر في قلبه)[٥]... ما هو ذلك السر الذي وقر في قلب أبي بكر حتى أنه أصبح أفضل من جميع الصحابة، وأصبح إيمانه لو وُزن بإيمان الأمة لرجحها[٦]..!!، فما بالك حينما يُقارن بإيمان أحدنا في هذا الجيل الذي نعيشه.. لا شك أن الأمر يحتاج بحثاً.

وإذا كان ذلك بالنسبة لأبي بكر، فهو أيضاً كذلك بالنسبة لبقية الصحابة. فلا شك أن ما ينفقه أحدهم مهما كان قليلاً، وما يعمله أحدهم مهما كان صغيراً نجده يزن في ميزان الله أمثال الجبال مما نفعله نحن.. فلا بد أن هناك سراً يحتاج منا تعباً وجهداً لكي نتعرف عليه ونتفهمه.

وإدراك هذا السر ليس سهلاً، ولكننا سنحاول... سنحاول أن نتعرف على هذا السر من خلال سلوك الصحابة، ومن خلال مشاعرهم، ومن خلال تصرفاتهم التي توحي بشيء من ذلك السر، وليس كل السر.

حينما يقول رسول الله ﷺ عن عمر -رضي الله عنه- (لو كان نبي بعدي لكان عمر)[٧]. عندما نقف أمام هذه الحقيقة التي يقولها رسول الله ﷺ عن عمر -رضي الله عنه- "أنه يستحق أن يكون نبياً"... لا بد أن يكون عمر -رضي الله عنه- قد امتلك في قلبه من اليقين ومن الإيمان ومن النقاء ومن السخاء ما جعله يستحق هذا التكريم العجيب، وأن يقال عنه: لو كان نبي بعدي لكان عمر... والأمر الأعجب: كيف احتمل عمر أن يتلقى هذه الكلمات وهذا التقييم النبوي الذي لا يمكن أن يقوله رسول الله ﷺ من عند نفسه، وإنما كما نعلم أنه ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣-٤] كيف احتملت أعصاب عمر أن تقال له هذه الحقيقة، وما الذي فعله عمر لكي يستحق هذه المنزلة؟ وما الذي نتج عنها؟ ويقول له رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غيره)[٨].. هذا الإنسان الذي ظل ست سنوات بعد مبعث رسول الله ﷺ يشرب الخمر، ويعبث كما يعبث الجهلاء، ويعذب المؤمنين والمؤمنات بصورة بشعة ولا يتعب، وعندما يترك المُعذَّبين هؤلاء، يتركهم مللاً، وليس رأفةً ولا إنسانيةً.. يقول لجاريتين من بني المؤمل كان يعذبهما "والله ما تركتكما إلا ملالة"[٩].. فهو لم يترك تعذيبهما شفقة، ولا تأنيباً لضمير، ولا استكثاراً لتعذيبهما ولا استجابةً لآهاتهما... لم يتحرك ذلك القلب الصلد في تلك الفترة ولم يتركهما إلا مللاً.. كيف يتحول ذلك القلب إلى أن يكون قلباً يقال عنه

٥ (ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه) ذكره في الاحياء وقال مخرجه الحافظ العراقي: لم أجده مرفوعا وهو عند الحكيم الترمذي وأبو يعلى عن عائشة وأحمد بن منيع عن أبي بكر كلاهما مرفوعا وقال في النوادر أنه من قول بكر بن عبد الله المزني.

٦ (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الناس لرجح إيمان أبي بكر) رواه اسحاق بن راهويه والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن عمر من قوله، وأخرجه ابن عدي والديلمي كلاهما عن ابن عمر مرفوعا بلفظ (لو وضع إيمان أبي بكر على إيمان هذه الأمة لرجح بها) وفي سنده عيسى بن عبدالله، وهو ضعيف لكن يقويه ما أخرجه ابن عدي أيضا من طريق أخرى بلفظ (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم) وله شاهد أيضا في السنن عن أبي بكرة مرفوعا أن رجلا قال يا رسول الله كأن ميزانا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت ثم وزن أبو بكر بمن بقي فرجح..) الحديث.

٧ أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وابن حبان من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه- وأخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد -رضي الله عنه-.

٨ أخرجه الشيخان من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه-.

٩ السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٣١٩.

(لو كان هناك نبيٌ بعدي لكان عمر)، (ولو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً غيره)؟!!... لا بد أنه كان لعمر صلة خاصة بالله وأن قلبه قد امتلأ صدقاً وامتلأ يقيناً وامتلأ طهارةً وامتلأ قوةً في الحق واقتداراً على الحق مما لم يكن عند أحدٍ سواه..

حينما يقول رسول الله ﷺ لخديجة (يا خديجة جاءني جبريل يبلغك السلام من ربي ويبشرك بقصرٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[١٠].. امرأة يأتيها ملَك، بل أفضل الملائكة وحامل الوحي، يأتي لكي يقول لها: إن الله يبلغك السلام.. لماذا؟! ما الذي صنعته خديجة؟! لا بد أنها كانت أيضاً على درجة من الرقي واليقين وعظمة الإيمان والحب لله عز وجل، ومن النظافة والطهارة ما يجعلها جديرةً أن يأتيها أفضل الملائكة ورسول القرآن من قبل الله عز وجل، من فوق سبع سماوات، ليقول لها: إن الله يبلغك السلام... وكيف استطاعت خديجة لولا أن قلبها مليء باليقين وبالصمود أن تحتمل هذا النبأ وهذه البشرى وهذا الكلام الذي يأتيها من ربها... كيف لم تذب حباً وشوقاً وخجلاً وفرحاً حينما تلقت هذا الخبر العجيب.... لا شك أن الإيمان الذي كان في قلوب هؤلاء؛ والذي لا يعلمه إلا الله، كان من الضخامة ومن الفخامة أيضاً بحيث استحقوا أن يكونوا كذلك، ولا شك أن هذا كان بارزا جداً في خديجة منذ اللحظة الأولى للبعثة، بل من قبل اللحظة الأولى التي نُبئ فيها رسول الله ﷺ. لأن خديجة قبل ذلك ما دفعها إلى الزواج من رسول الله ﷺ إلا أنها كانت تتوقع أن يكون هو نبي تلك الأمة التي أظل زمان نبيها، وإذا كان ذلك فلن يكون إلا محمدا، بعد أن سمعت عنه، وبعد أن جاءها عبدها ميسرة يحكي لها كيف كانت رحلته مع رسول الله ﷺ، وكيف كان يرى في ملامحه من النور، وفي حياته من العظمة والنقاء والطهر -كما كان يراه كفار قريش كلهم- فاستطاعت بإدراكها البعيد وحسها الدقيق أن تتنبأ بذلك ولذا لم تجد حرجاً أن تعرض نفسها عليه ليتزوجها.

وحينما جاءها مرتجفاً مرتعباً من ذلك اللقاء الأول مع الوحي؛ لم ترتجف هي.. بل كانت صامدةً وثابتةً، وقالت له "كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق"[١١]، بل إنها كما جاء في السيرة أجرت اختبارا لذلك الملك؛ فعن خديجة أنها قالت لرسول الله فيما يُثَبِّتُه فيما أكرمه الله به من نبوته "يا بن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك" قال (نعم) قالت "فإذا جاءك فأخبرني به"، فجاءه جبريل -عليه السلام- كما كان يأتيه، فقال رسول الله ﷺ لخديجة (يا خديجة هذا جبريل قد جاءني) فقالت "نعم فقم يا بن عم فاجلس على فخذي اليسرى" فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها، قالت "هل تراه؟" قال (نعم) قالت "فتحول فاقعد على فخذي اليمنى"، فتحول رسول الله ﷺ فجلس عليها، فقالت "هل تراه؟" قال (نعم)، قالت "فتحول فاجلس في حجري"، فتحول فجلس في حجرها، قالت "هل تراه؟" قال (نعم)، فتحسرت فألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، ثم قالت "هل تراه؟ " قال (لا)، فقالت "يا بن عم اثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هو بشيطان"[١٢]..

من أجل هذا استحقت أن تكون أول من يؤمن برسول الله ﷺ، وأول من يقف بجانبه، وأول من يحتويه بقلبها وبعواطفها وبمشاعرها؛ لتمهد له أن يقوم بمهمته على الصورة التي قام بها.. من أجل هذا استحقت أن يبلغها ربها ذلك السلام من فوق سبع سماوات.

١٠ الحديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال ثم أتى جبريل النبي ﷺ فقال " يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب".

١١ أخرجه البخاري.

١٢ السيرة النبوية لابن هشام ج١. ص٢٣٩.

"حينما يقول الرسول ﷺ لأبي بكر -رضي الله عنه- (يا أبا بكر، جاءني جبريل ليقول لي: ربك يسأل أبا بكر، هل هو راضٍ عنه) هل أنت راضٍ عن ربك؟؟!! حينما يأتي لأبي بكر عن طريق رسول الله ﷺ عن طريق جبريل عن الله عز وجل، ليسأله "هل أنت راضٍ عن ربك".. هذا أمر عجيب.. لا يستطيع الإنسان أن يتخيله ولا أن يتصوره ولا أن يحتمله، رغم أنه ليس له هو.. ولكنه يرتجف لمجرد أن هذا حدث لبشر في يوم من الأيام أن يقال له هل أنت راضٍ عن ربك!! ولذلك يقول سيدنا أبو بكر -رضي الله عنه- "أنا؟ أنا؟!!"... لكنه استحق أن يقال له ذلك، لأنه هو أيضاً الذي لم يُكذِّب رسول الله ﷺ قط، ولم يتردد في إيمانه قط، ولم يرتكب ما يخجل منه قط حتى في الجاهلية، ناهيك عن الإسلام."

حينما تحكي لنا السيرة أيضاً ويحكي لنا تاريخ الصحابة مواقف من عامة الصحابة، ليس من أبي بكر ولا من عمر ولا من خديجة، هؤلاء العمالقة العظام... بل من عوام الصحابة: تلك المرأة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ لتشكو زوجها... ويتنزل قرآن من رب العالمين ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ [المجادلة: ١] ينزل قرآن ليحل مشكلة هذه المرأة بتشريعٍ يظل على مدى الزمان، ليهدئ من روع هذه المرأة، وليرد لها حقها، وليحدد لها حلاً لمشكلتها، ويقول الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١] لم يقل لرسول الله ﷺ قل لهذه المرأة التي جاءتك كذا وكذا، ولكنه يسند الأمر إلى نفسه سبحانه، لكي تستشعر المرأة مدى قرب الله منها ومدى قربها من الله، ومدى اهتمام الله بها وهي امرأة من عامة المسلمات "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله"، كان معكما.. كان يسمع كما تسمعان، واهتم بالأمر أكثر مما اهتممتم به، وأنزل قرآناً من فوق سبع سماوات ليحل مشكلة هذه المرأة الضعيفة التي تعنت معها زوجها بعد أن كبر سنها وبعد أن نثرت له بطنها.. ثم بعد ذلك استغنى عنها، وقال لها "أنت علي كظهر أمي"، فجاءت تشكو إلى رسول الله ﷺ هذا العنت، ليحل الله سبحانه وتعالى لهذه المرأة مشكلتها.

كيف كان إحساس المرأة بالأمر؟! كيف كانت تستشعر الطمأنينة، وكيف استشعرت تلك العلاقة الخاصة بالله... لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من القدرة على التعبير والبيان أن يصف شعور تلك المرأة حين ذاك، لأن الإنسان لو وضع نفسه مكانها وحاول أن يتخيل بكل ما أوتيه من قوة الخيال لما استطاع ذلك وقد نزل قرآن ليحل لها مشكلتها، وقد رأت كيف يهتم بها ربها وخالقها الجليل العظيم الذي ليس كمثله شيء، يهتم بمشكلتها هي بينما زوجها يتعنت معها.. ونظل نردد كيف كانت شعور تلك المرأة ساعتها، وكيف احتملت ذلك الأمر وتلك المشاعر التي تنوء بحملها الجبال الرواسي الشامخات.

"حينما تقول امرأة لزوجها؛ ذلك الصحابي الذي كان يصلي في الصف الأول دائماً مع رسول الله ﷺ ويجلس ليسمع رسول الله ﷺ، ثم احتُبس فجأة لأمر ما، ولم يعد يراه رسول الله ﷺ في الصف الأول كما كان، فسأل عنه، فقال له الصحابة إنه يأتي الآن في آخر لحظة من الإقامة ويصلي في آخر الصف، ثم ينطلق راجعاً إلى بيته، وغمزه بعض الصحابة في إيمانه. فيستدعيه رسول الله ﷺ ويسأله، فيجيب بأنه ليس له وزوجه إلا ثوبا واحدا، فهو يأتي ليصلي به، ثم يسرع العودة لبيته كي تدرك زوجه الصلاة. فيعطيه رسول الله ﷺ ثوبا آخر، فيرجع الرجل فرحاً بهذا العطاء ليعود مرةً أخرى إلى الصف الأول ولكيْ لا يظن به شراً.. فبماذا قابلته امرأته حينما جاء بهذا الأمر؟! قالت له: "أتشكو ربك لنبيه؟!" هذه امرأة من عامة الصحابيات، تعيش حياةً خاصة مع الله عز وجل، وتوقن يقيناً كاملاً أن الله هو الذي بيده كل شيء، فهي ترضى بقضاء الله.. وتوقن أنه لا يجوز -في عرفها، وفي درجتها الإيمانية- أن تسأل أحداً من الناس حتى ولو كان نبياً.. "أتشكو ربك لنبيه؟"، هي واعية جداً أن هذا هو الله وهذا نبيه، نبي الله نعم.. ولكنها كانت تحب ألا يطلع على حالهم أحد،

وأن يرضيا بما رضيه الله لهما، وألا يشكوا لأحدٍ من الناس حتى ولو كان رسول الله ﷺ.. فتقول لزوجها "أتشكو ربك لنبيه؟".. هو لم يشكُ في الحقيقة، ولكنه سُئِل، فكان ينبغي أن يجيب، وكان الذي يسأل هو النبي ﷺ... لكن الوقفة هنا في تلك المشاعر التي تعيشها تلك المرأة، كانت تعيش مع الله عيشةً غنيةً راضيةً رغم ذلك البلاء الصعب الذي كانت تعيشه هي وزوجها، ولم تكن تريد أن يعرف أحد ما أصابهما من فاقة، فاعتبرت هذا شكوى لا تليق بهؤلاء السابقين والمؤمنين المحسنين.. تلك المشاعر التي تشعرها المرأة وأمثالها في تاريخ الإسلام هي التي تجعلنا نرى طرفاً من ذلك السر الذي جعل هؤلاء الصحابة في ذلك المقام العظيم: ﴿ كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس ﴾."

وحينما نسمع قصة أم سُليْم التي مرض ولدها، ثم مات، ثم جاء زوجها من الخارج يسألها عن ابنه، فقالت له: هو أسكن ما يكون.. لم تشأ أن تزعجه، فقالت له: أسكن ما يكون.. وتزينت له حتى قضى منها حاجته، ثم قالت له: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ فُلانٍ اسْتَعَارُوا عَارِيَةً فَتَمَتَّعُوا بِهَا فَلَمَّا طُلِبَتْ كَأَنَّهُمْ كَرِهُوا ذَاكَ، قَالَ: مَا أَنْصَفُوا، قَالَتْ: فَإِنَّ ابْنَكَ كَانَ عَارِيَةً مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِنَّ اللَّهَ قَبَضَهُ.. فغضب أبو طلحة لأنها لم تخبره وجعلته يأتيها وهو في هذه الحالة. لكن، لماذا فعلت أم سليْم ذلك؟! وأم سليْم لها في التاريخ الإسلامي مواقف عظيمة دائماً، ولكنها لو حللها علماء النفس المعاصرون بمناهجهم الجاهلية القاصرة لقالوا عنها ما قاله مالك في الخمر؛ لقالوا عنها إنها امرأة شهوانية، وإنها امرأة لا حس لها ولا إنسانية.. ولا ولا ولا.. والحقيقة أن ما يمكن أن يقال في هؤلاء ممن يسمون أنفسهم علماء.. إنهم لم يستطيعوا أن يرتقوا إلى ذلك الأفق الذي ارتقت إليه تلك المرأة... تلك المرأة التي وقفت عند عبوديتها الكاملة لله عز وجل؛ أن الله رضِيَ أمراً وقضى قضاءً، وأن قضاء الله أحب إلى نفسها من ولدها، وإنه ليس لها أن تختار ولا أن تضيق من قدرٍ أو من حُكمٍ حَكمَ به الله عز وجل، فهي تعلم أنها أمَة الله، وأنها لا ينبغي أن تعترض أو تضيق من أمر يريده الله عز وجل، فأرادت أن ترتفع إلى هذا المستوى، وأن ترفع زوجها إلى ذلك الأفق، بأن تمارس حياتها كما لو كانت في عرس وليست في مأتم..

هذه المشاعر التي ارتقت إليها تلك المرأة لا شك أنها مشاعر ما كان لها أن تبلغها إلا بعد أن جاهدت نفسها وعاشت مع القرآن ومع هذا الدين ومع علاقتها بالله، بحيث وصلت إلى تلك القمة العجيبة التي استطاعت أن ترتفع فيها على بشريتها، وأن تنجح في أن تصاغ تلك الصياغة الربانية العجيبة، ولذلك قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لزوجها الذي جاء يشكوا من فعلتها: (فَبِتُّمَا عَرُوسَيْنِ وَهُوَ إِلَى جَنْبِكُمَا) قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا)[١٣]... وتحققت دعوة رسول الله ﷺ فوُلد لها سبعة من الأولاد، كلهم كانوا يحفظون كتاب الله عز وجل، ببركة هذه الليلة، التي ارتفعت فيها تلك المرأة إلى ذلك المستوى السامق من الرضى والإيمان واليقين بما قدره الله سبحانه وتعالى، ولم تجد في نفسها حقاً في أن تضيق أو حتى تتألم لمصيبة قد أصابتهم، لأنه قد استقر في أعماق نفسها أن خيرة الله خير لهما من خيرتهما لنفسيهما.

حينما نرى أيضاً ذلك الصحابي عمير بن الحمام الذي يسمع رسول الله ﷺ في غزوة بدر وهو يقول: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، وكان في يديه بعض تمرات يأكل منها بعد أن استبد به الجوع وحتى يقوى على مواصلة القتال فيلقيها ويقول: "بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ

١٣ أخرجه مسلم وأحمد من حديث أنس -رضي الله عنه-.

سيفه فقاتل القوم حتى قُتل"[14] فيذهب إلى الجنة.. هذا هو الصدق وهذه هي المنطقية مع الإيمان؛ فمادام أنه قد آمن أن هذا رسول الله ﷺ، وأن ما يقوله حق، وأنه يبشره بأنه إذا قُتل سيدخل الجنة، فهذا الصدق والتصديق يجعلانه ينطلق في نفس اللحظة.. إذا كان صادقاً يريد الجنة حقاً فها هو باب الجنة مفتوح، ينتظر فقط أن يقاتل فيُقتل، فكيف ينتظر أن يأكل بضع تمرات؟ إنها إذن لحياة طويلة.. عجيب أمر هؤلاء الرجال؛ كيف كانوا يعيشون وكيف كانوا يتلقون حقائق القرآن وكلمات رسول الله ﷺ لتصبح حياةً يعيشونها، وتصبح حقائق يمارسونها، تغير من صميم حياتهم فينقلبون من أولئك الأعراب القاسية قلوبهم إلى هؤلاء الذين تشف قلوبهم إلى هذه الدرجة من الإيمان والرقيّ والاستسلام لله سبحانه وتعالى.. عمر ذلك الذي أصبح بهذه الصورة التي نعرفها هو ذلك الذي قال عنه أحد الصحابة وهم ذاهبون في هجرتهم إلى الحبشة، وقد التقى عمر بزوجة ذلك الرجل وهي تنتظره، فقال لها: إلى أين؟ قالت: نهاجر لأنكم تفعلون بنا كذا وكذا وكذا، فكأنما رق لها عمر وقال لها: صحبتكم السلامة يا أم فلان، فلما رجع زوجها وحكت له ما كان من عمر ورقته عليهم، قال لها: أطمعتِ في إسلامه؟! والله لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب[15].. هكذا كانت نظرة الصحابة إلى عمر في جاهليته حينما كان يفعل ما يفعل بالصحابة، ويعارض رسول الله ﷺ، بل يسعى يوماً ما إلى أن يقتله ضيقاً وعبثاً إذ ذهب إلى الخمار ليشرب الخمر فلم يجده، فبحث عن عملٍ آخر يعمله، قال: أذهب إذن لأقتل محمدا.. ذلك الذي فرق جماعتنا وسب آلهتنا.. فيكون في هذا التوجه الخير الكبير له، إذ يلقاه أحد الصحابة الذين أسلموا ولم يعرف إسلامهم، فيقول له: إلى أين يا عمر، فيقول له: أذهب لأقتل محمدا، لا يخشى ولا يلتوي، بل يقول ما عنده بصراحة، فيقول له: ويحك عمر، لقد غرتك نفسك، اذهب إلى ختنك وإلى أختك فإنهما قد صبئا واتبعا محمداً.. فيوجهه الصحابي ليغير طريقه عن رسول الله ﷺ إلى هؤلاء، ويفدي رسول الله ﷺ بأخت عمر وزوجها، فيذهب عمر، وكلنا يعرف بقية القصة؛ كيف أسلم وانشرح صدره للإسلام، فيقول لهما: ماذا يفعل من أراد أن يدخل في هذا الدين، فيقولان له: تغتسل وتشهد شهادة الحق، ففعل وذهب إلى رسول الله[16] ﷺ.. هذا عمر في جاهليته، ثم إذا به حينما يؤمن يصبح في هذا الموقف العظيم وفي هذا المكان الكبير حتى قال عنه رسول الله ﷺ: "لو كان نبي بعدي لكان عمر.."

لعلنا نستطيع من هذه المواقف أن نستشف لماذا استحق الصحابة ذلك المكان الرفيع وتلك الحظوة العظيمة حتى يقال لهم أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم خير الأجيال على الإطلاق..

لنحاول أن نعبر الفجوة الهائلة، ولا نكتفي بمجرد الإعجاب بهم

الحقيقة التي نهتدي إليها هي أنهم كانوا يعيشون مع الله بكل قلوبهم وفي كل جنبات حياتهم، ويستشرفون ذلك الملأ الأعلى، فيعيشون مشتاقين إليه، وكانوا من الصدق والنقاء والرفعة والإرادة والقوة بحيث أنهم كانوا يتحولون بكلمة. وكانوا يعيشون مع الله ليلهم ونهارهم يتغيرون ويبدلون من حياتهم ومن مشاعرهم لتتوافق توافقاً كاملاً مع ما يريده الله وما يريده الرسول ﷺ، وما يريده منهم هذا الدين.. لم يكونوا يقفون موقف المتفرج، أو موقف الإعجاب حينما يعرفون تلك الحقائق.. كان الأمر في حسهم أعمق من هذا وأروع وأصدق، كانوا يتغيرون، وكانوا يتحولون من موقف إلى موقف مع ما يسمعونه من قرآن، ومن كلمات ومن أفعالٍ يرونها من خلال شخص رسول الله ﷺ.

١٤ السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٦٢٧.

١٥ المصدر السابق ج١ ص٣٤٣.

١٦ المصدر السابق ج١ ص٣٤٣-٣٤٤.

فموقف الإعجاب والنظر هذا لا يكفي.. نعم.. هذا بداية الأمر؛ أن يُعجب المرء بالحق، وأن يحب الحق، وأن يستشعر عظمة الحق، ولكن عندما يقف عند هذه النقطة فقط فهذا منتهى الخسران، لأن الإنسان لا يكون صادقاً ولا منطقياً مع نفسه إذا أُعجب بشيء واعتقد أنه حق وأنه عظيم ثم لا يتغير مع مقتضيات ذلك الحق ولا مقتضيات ذلك الإعجاب..

ذلك هو الفارق بين جيل الصحابة وبين من جاء بعدهم من الأجيال.. كان الصحابي يقول للتابعي: إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات[١٧].. هذه فجوة ضخمة جداً بين موقف الصحابي وموقف التابعي، مع ما بينهما من فروقٍ بسيطة لا نكاد نراها.. فنحن حينما نتصفح التاريخ ونقرأ تاريخ التابعين: الحسن البصري والنخعي والشعبي وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.. نراهم قمما ضخمة جداً، فلا نحس بفارق بينهم وبين الصحابة.. ولكن كان الصحابة يرون هذا الفارق هائلاً، لأنهم يعملون أعمالاً هي في أعينهم أدق من الشعر كان الصحابة يرونها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.. كيف كان الفارق إذن بين الصحابة وبين تابعي التابعين؟! وبينهم وبين تابعي تابعي التابعين؟! وبينهم وبين الجيل العاشر.. أو الجيل الذي نعيشه الآن؟ !

الفجوة إذن من الضخامة بحيث تضعنا في أسفل السلم..

لا شك أن الأمر يحتاج منا أن نستعيد وعينا، ونستعيد إدراكنا، ونحاول أن نتعرف لماذا كان الصحابة كذلك، ولماذا نحن كذلك؟ فالأمر أخطر مما نتصور..

وإذا كنا نريد أن نكون جيلاً على قدم الصحابة، وإذا كنا نريد أن نكون نحن الجيل الذي يعيش غربة الإسلام الثانية، ويعيد الإسلام مرةً أخرى؛ فإنه لا بد أن نتحسس ذلك السر، وأن نعيشه، وأن نحاول أن نرتفع إلى ذلك المستوى. لا أن نقف عند نقطة الإعجاب وعند نقطة التملي لهذا المنظر الجميل، ثم نقف مكتوفي الأيدي لا نحاول أن نعبر عباب ذلك البحر الهائل لكي نكون كالصحابة.. الأمر يحتاج منا جهداً هائلاً، ومجاهدةً كبيرة، ومنطقاً أشد صدقاً، ونفوساً أشد نظافةً وطهارة، ويقيناً أشد عمقاً، وقوةً أكبر مما نحن فيه.. فالأمر كبير جداً..

تنزل الوحي غضا وأثره في تعميق صلة الصحابة بالله

نريد أن نقرأ تاريخ الصحابة مرة أخرى.. نريد أن نعرف كيف كان كلٌ منهم يصرِّف حياته.. لقد استفادوا من القرآن، وعاشوا مرحلةً لم تعشها البشرية بعد ذلك.. كانوا يعيشون مع الله من خلال وحيه الذي ظل يتنزل عليهم قرابة ثلاثة وعشرين عاماً.. كانوا يعيشون انفتاحاً مع السماء.. "كان هناك خط ساخن" بين السماء والأرض.. كان يبيت أحدهم وينتظر بفارغ الصبر أن يأتي الصباح ليعرف ما الذي نزل في تلك الليلة من السماء.. كانوا يرون رسول الله ﷺ وقد تلبسه الوحي وينتظرون ما سيأتي به ذلك الوحي، وترتجف قلوبهم: ماذا عساه أن يقول لهم ربهم؟ ما الذي سيتنزل في هذه اللحظة من تشريعٍ أو توجيه أو تأنيب أو ثناء؟ فكانوا ينتظرون هذه اللحظة وهم مرتجفو القلوب، خائفون مما يأتي به الوحي، أو متشوفون لما سيأتي به.. كانوا يعيشون بقلوبٍ كقلوب الطير من الخفة والخوف والشوق أيضاً لما

---

١٧ عن أنس -رضي الله عنه- قال: (إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها علي عهد رسول الله ﷺ من الموبقات) رواه البخاري \ ٩ \ ٢٨١ ومسلم (٢٧٦١).

يأتيهم من الله.. كان هناك لقاءات يومية بينهم وبين الله.. كان هناك خط ساخن بينهم وبين السماء، ينتظرون كل يوم ما سيأتي به الملك على قلب رسول الله ﷺ ليخبر هؤلاء العباد ماذا يريد منهم ربهم..

هذه المشاعر التي كانت تصاحبهم، وكانوا يعيشونها ليل نهار على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هيَ التي صنعت ذلك الجيل، وصنعت منهم تلك القلوب المرهفة، وملأت قلوبهم بذلك الإيمان واليقين.. فإذا كنا نريد أن نكون على قدم هؤلاء الصحابة لا بد أن يراجع كلٌ منا نفسه، ويقف الليالي يتفكر كيف يستطيع أن يرتفع إلى ذلك المستوى، أو قريب من ذلك المستوى الذي كان فيه الصحابة.. لا أن نقيس أنفسنا بما بيننا وبين هذه الجاهلية التي نعيشها.

إذا قسنا أنفسنا بذلك المستنقع الذي تعيشه الجاهلية سوف نُخدع خداعاً كبيراً، وسوف نرى أننا من أطهر الناس وأعظم الناس. ولكن إذا قسنا أنفسنا بذلك الجيل فسوف نكتشف حقيقتنا، وسوف نكتشف أننا في السفح بالنسبة لتلك القمم السامقة التي كان يتربع عليها الصحابة..

سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- الذي عميَ في آخر أيامه؛ يقف بين الناس يأتونه ليدعو لهم لأنه كان مُجاب الدعوة، وقد دعا له رسول الله ﷺ (اللهم سدد رميته وأجب دعوته)[١٨].. كان لا يرمي بسهم إلا ويصيب، وكان لا يدعو بدعوة إلا ويستجاب له.. فكان الناس يأتونه ليسألوه ويدعو لهم فيستجاب له. قال عبد الله بن السائب: "فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفني، فقلت: يا عم! أنت تدعو للناس فيشفون، فلو دعوت لنفسك لردّ الله عليك بصرك" فتبسّم سعدٌ ثم قال: "يا بنيَّ! قضاء الله أحبّ إليَّ من بصري"[١٩].. هذه القمة التي يعيشها سعد -رضي الله عنه- لو أن أحدنا له دعوة واحدة مستجابة وقد فقد بصره لدعا بهذه الدعوة "اللهم رد إليّ بصري"، ولكن سعدا يدعو لكل الناس ويرضى ويقنع ويفرح ويسعد بأن يقف عند قضاء الله، فمادام الله قد اختار له اختياراً فلا يجوز أن يرد اختيار الله عز وجل؛ حتى ولو كان هذ الاختيار مؤلماً وبلاءً في ظاهره.

وكان عمران بن الحصين -رضي الله عنه- أيضاً مجاب الدعوة؛ فمرض بمرض الاستسقاء؛ وكانت بطنه منتفخة ويدخل الناس ويسلمون عليه فيجدونه سعيداً راضياً مشرقاً فيتعجبون. "دخل عليه مطرف وأخوه العلاء، فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة. قال: لا تبك فإن أحبه إلى الله تعالى، أحبه إلي. ثم قال: أحدثك حديثاً لعل الله أن ينفع به، واكتم علي حتى أموت، إن الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم علي فأسمع تسليمها، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة، فمن يشاهد هذا في بلائه، كيف لا يكون راضياً به؟!"[٢٠].. فيبلغ هذا الرجل هذا المبلغ من اليقين والرضا والطمأنينة، فيستحق أن يزول ذلك الحجاب بينه وبين الملائكة، فيدخلون يسلمون عليه، لماذا؟ هل لمجرد أنه كان يحفظ القرآن؟ لمجرد أن كان يحفظ أحاديث رسول الله ﷺ؟ لمجرد أنه كان يصلي الصلوات المكتوبة؟ الأمر أكبر من ذلك بكثير..

في حادثةٍ أخرى، حينما كان رسول الله ﷺ يجلس مع أصحابه؛ فقال لهم "يخرج عليكم رجلٌ من أهل الجنة"، فيخرج رجل من عامة المسلمين، من عامة الصحابة، رجلٌ رث الثياب، يقطر ماء الوضوء من لحيته، ويمسك خُفّيه بيديه. ويأتي اليوم التالي، فيقول لهم رسول

---

١٨ أخرجه الحاكم من حديث سعد -رضي الله عنه- وقال صحيح على شرط مسلم.

١٩ مدارج السالكين. ج٢. ص٢٢٧.

٢٠ إحياء علوم الدين. ج٤. ص٣٤٩.

الله ﷺ "يخرج عليكم رجل من أهل الجنة"، فإذا بنفس الرجل وبنفس الهيئة يخرج عليهم.. ويأتي اليوم الثالث، ليقول لهم رسول الله ﷺ نفس الكلام ويخرج نفس الرجل.. فيتعجبون، فيذهب عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان ما زال صغيراً، يذهب إلى ذلك الرجل فيقول له "يا عم، لقد لاحيت أبي -أي خاصمت أبي- فأردت أن أبيت عندك ثلاثة أيام"، فيبيت عنده ثلاثة أيام، فلا يجد الرجل يفعل شيئا ذا بال.. يصلي العشاء ويأوي إلى النوم، حتى إذا أذن الفجر قام.. ورآه يكرر نفس العمل كل يوم.. فتعجب! لماذا يدخل هذا الجنة، أو ما الذي فاقهم فيه -وعبد الله بن عمرو بن العاص كان من أكثر المسلمين قياماً ومن أكثر المسلمين عبادةً وتنسكاً وصوماً- فسأله "يا عم، لم يكن بيني وبين أبي ملاحاة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول على مدى ثلاثة أيام كذا وكذا وكذا، فما الذي بلّغك هذه المنزلة؟"، فقال "لا شيء إلا ما رأيت"، فمضى عبدالله، فناداه الرجل وقال له "ما عندي غير ما قلت لك غير أني أبيت وليس في قلبي غش على مسلم ولا أحسد أحداً من المسلمين على خير ساقه الله إليه"، فقال عبد الله "تلك التي بلغت بك ما بلغت، وتلك التي نعجز عنها"[٢١].

فالأمر إذن ليس كثرة صلاة ولا صيام ولا عمل، بقدر ما يكون القلب أولاً نظيفاً. فالعبرة إذن هي في القلب وليس في ظاهر العمل.. ليس في الكم ولكن في الكيف. فنريد أن نبحث عن قلوبنا، ما الذي يسكن فيها من الإيمان ومن النقاء ومن الخلوص ومن اليقين؟

هذا هو الذي جعل الصحابة يستحقون تلك الصفات وذلك المقام وذلك الثناء وذلك القرب من رب العالمين، وجعل كل واحدٍ منهم بهذا الوزن الثقيل بالنسبة لمن جاء بعدهم من الأجيال. فليست العبرة إذن بكم نقرأ أو نحفظ من القرآن، ولا كم نصلي من الركعات. كل هذا حسن، ولكن ليست العبرة به. العبرة بما يسكن قلوبنا.. ما هو مقدار اليقين، وما هو قدر صفاء هذا اليقين، وخلوص هذا اليقين، وعمق هذا اليقين في قلوبنا، كيف نعيش مع الله، كيف نحس بالله، كيف نستشعر ألوهية الله، كيف نستشعر نظر الله عز وجل... هذا هو الذي ينبغي أن نبحث عنه. نبحث عن ذلك الشعور في قلوبنا، والذي يكون منبعه ذلك اليقين وذلك الإحساس العميق بالله وتلك المصاحبة لله، هذا هو الشعور الذي نريد أن نصل إليه ونتذوقه. ولن نتذوقه إلا من خلال المجاهدة ومن خلال المعايشة مع كتاب الله الكريم، ومن خلال الحياة مع الله، ومن خلال المراقبة الدائمة لله، ومن خلال الإحساس والعيش مع نظر الله في كل لحظة.. ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].. ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۞ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ ﴾ [يونس: ٦١-٦٤].. فهذا هو الذي نريد.. نريد أن نعرف أن الله قريب: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].. فهذا هو المعني الذي نريد أن نقف عنده... ونعلم من خلاله السر الذي جعل ذلك الجيل بهذا الشكل، ونعرف ما الذي فعله فيهم القرآن. ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦].. هذا القرآن الذي عاش مع الصحابة ذلك الوقت الطويل يتنزل عليهم منجّما مفرّقاً، فعاشوا معه لحظة بلحظة ونَفَساً بنفس، تتغير قلوبهم ومشاعرهم وخلاياهم وعقولهم وكيانهم مع إيقاعات القرآن ومع تنزلات القرآن.. وبذلك استحالوا كيانات جديدة تماماً لا صلة لها بذلك الكيان الذي كان قبل أن يتلقوا ذلك القرآن ويتنزل عليهم.

٢١ أخرجه عبد الرزاق حديث رقم ٢٠٥٥٩ عن معمر عن الزهري عن أنس وعنه الإمام أحمد حديث رقم ١٢٦٩٧ وهذا سند صحيح على شرط الشيخين.

عوامل نشأة الجيل الأول

نريد الآن بعد أن حاولنا أن نتلمس أطرافاً من ذلك السر الذي عاش به الصحابة وتعاملوا فيه مع القرآن، والتي أنتجت أيضا مشاعر خاصة بالله سبحانه وتعالى، وتصرفات وسلوكيات تتألق مع تألق الإيمان وتوهج اليقين، والتي استحقوا بسببها ذلك الثناء العطر من الله ورسوله، ومن الملأ الأعلى، ومن الناس أجمعين. نريد أن نقف مع القرآن وقفات لنحاول أن نتلمس المجالات القرآنية التي عاشها الصحابة، كما نتلمس بقية العوامل التي أثرت في نشأة الجيل الأول.

فبجانب القرآن الذي يعتبر أهم مصدر وأهم عامل من عوامل النشأة، كانت هناك سنة النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريراته. وكانت لشخصية رسول الله ﷺ ووجودها بين الصحابة وحركتها بينهم ورؤيتهم لها أثر كبير أيضاً في رفع هؤلاء الصحابة إلى تلك القمم العالية من الحياة مع الله سبحانه وتعالى.

كما كان لعامل الغربة -غربتهم بالإسلام وجدة هذه الرسالة في حياتهم- أيضاً أثرٌ في أن يكون الإيمان متوهجاً ونضراً وغضاً وفعالاً في حياة ذلك الجيل.

ونحن حينما نحاول أن نتعرف على هذه العوامل؛ فإنما هي محاولة أيضاً لنسأل أنفسنا: هل هذه العوامل مازالت قادرة على أن تفعل ما فعلت أول مرة؟ وما هي أسباب هذا التأثير الذي أنشأته هذه العوامل في نفوس الصحابة؟

العامل الأول: القرآن الكريم

الذي هو كلام الله القديم المتنزل على قلب رسول الله ﷺ بواسطة جبريل -عليه السلام-، المبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس، والمُتحدَّى به، والذي يعتبر معجزة الرسول الأولى بالنسبة لقومه وللبشرية جميعاً، وهو الكتاب الذي خلده الله وحفظه من التحريف والتبديل والتغيير؛ فالله عز وجل يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولا شك أن كون هذا الكتاب كلام الله، ينبغي أن يجعل الإنسان ذا الشعور المرهف والإيمان المتوهج يحس بثقل وبحرمة وبجلال هذه الكلمات. ولا شك أن الصحابة -رضي الله عنهم- عاشوا هذه المعاني بأعمق ما يكون، وكانوا يتعاملون مع القرآن ومع كلمات الله فيه بهذه الحساسية الشديدة الإرهاف والشديدة الشفافية.

ولعل الإلف والعادة التي تلقينا نحن بها القرآن دون أن تصاحبه تلك المشاعر التي تجل القرآن وتستشعر عظمته، هي التي تسببت في أن يكون هذا القرآن بلا تأثير وبلا بصمات في حياتنا كما كانت في حياة الصحابة، فالصحابة كانوا يعيشون مع القرآن وهو يتنزل لحظة بلحظة... يعيشون ميلاد القرآن في حياتهم.. ويسيرون معه خطوة خطوة.. وينتظرون ويترصدون الآيات المنزلة لكي يحوروا حياتهم وفق مدلولاتها، فكانت تلك الحياة الحية -التي تماثل نمو الجنين ونمو الإنسان في مراحله المختلفة- تستمد من القرآن حياتها، وتستمد منه عوامل نموها وعوامل تشكيلها كذلك.

الموضوعات التي عني القرآن بمعالجتها

الموضوع الأول: قضية الألوهية

ولا شك أن أولى القضايا والموضوعات التي اهتم بها القرآن وعرضها على مساحةٍ واسعة تكاد تشمل القرآن جميعه هي **قضية الألوهية الواحدة**؛ قضية الإيمان بالله الواحد الذي يتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال. ولا شك أن كل موضوعات القرآن تخدم هذه القضية؛ سواء كان حديثاً مباشراً عن خلق السماوات والأرض والكون، أو عن تفاصيل هذا الخلق من نبات وحيوان وجمادٍ وإنسانٍ وغيره، أو الحديث عن سلطان الله في تصريف هذا الوجود وهذا الكون، أو علم الله الشامل الذي يحيط بكل نأمةٍ وبكل صغيرةٍ وكبيرة في هذا الوجود.

وكذلك كان الحوار الذي يعرضه القرآن لما دار بين الأنبياء وبين أقوامهم، حديثا أيضاً عن ألوهية الله سبحانه وتعالى.

وكذلك كان استعراض أحوال اليوم الآخر والجنة والنار أيضاً تذكيرا بألوهية الله الديَّان الذي سيقف العباد بين يديه ليحكم بينهم ويقرر في شأنهم ما يشاء على ضوء ما فعلوه في حياتهم الدنيا.

وكذلك كل ما ورد في كتاب الله من تشريعات وأحكام وتوجيهات إنما هي تقرير لألوهية الله الواحدة والحاكمة والمهيمنة. فالقرآن كله في الحقيقة يتحدث عن ألوهية الله. وكان الصحابة يعيشون هذه الألوهية بكل أبعادها وبكل تنويع التعبير عنها في كل سورة على حدة، وفي القرآن كله بمجمله، فيغترفون من معين هذه الآيات ليتعرفوا على ربهم، ويعيشون معه بصفاته، ومن خلال أفعاله سبحانه وتعالى، ويتربون من خلال هذه الآيات، لترتبط قلوبهم وأعصابهم ومشاعرهم وغاياتهم، وتتشكل وسائل حياتهم كما يريدها القرآن.

فلا شك أن قضية الإيمان بالله وتوحيده وتفرده -سبحانه- بصفاته الجليلة كان لها أبلغ الأثر في حياة الصحابة. فكانوا يعيشون في ولاية الله، مرتبطين وملتصقين التصاقاً شديداً بألوهية الله سبحانه وتعالى، ويعرفون أن سندهم هو الله، وأن مولاهم هو الله، وأن سيدهم هو الله، وأن حاكمهم هو الله، وأنه النافع والضار، والمعطي والمانع، والمحيي والمميت، وإليه المصير. هكذا كانوا يعيشون تلك الحقيقة بأبعادها الحقيقية العملية في حياتهم، ويتشكلون بها.

هذا التعامل مع القرآن، بهذه الحيوية وبهذا الصدق وبهذا اليقين هو الذي صنع الجيل الأول. وحيث إن قضية الألوهية وقضية لا إله إلا الله كانت تملأ آفاق حياتهم كلها، فلا يكادون يرون في الحياة إلا "لا إله إلا الله"، وإلا حقيقة الألوهية الواحدة، ويكادون ينسون بقية الأشياء بجانب النور المبهر لله عز وجل ولألوهية الله. فلا شك أن موضوع الألوهية الواحدة، وموضوع الإيمان بالله كان يملأ حياة الصحابة بذلك النور الذي كانوا يعيشون فيه. وكما يقول الله عز وجل ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] فلا شك كانوا يعيشون مع هذا النور، ويتلقون حياتهم منه، ويستضيئون به في حياتهم، وفي ممشاهم، وفي نومهم، وفي يقظتهم، فيعيشون بنور الله. بينما الذين لا يعرفون الله ليس لهم نور ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

هكذا كانوا يعيشون؛ يلتصقون بالقرآن، ويعيشون حياتهم من خلال القرآن، ويتلقفون آيات الله المنزَّلة يومياً، أو في كل لحظة، أو بين كل حينٍ وآخر. كانوا يعيشون مع القرآن، ويتداولون أمره وأخباره، لأنه حديث الساعة في حياتهم باستمرار. واستمر ذلك حتى توفي رسول الله

ﷺ وانتقل إلى الرفيق الأعلى. ولقد حزنوا كثيراً على فراقهم لرسول الله ﷺ، وحزنوا أكثر على حرمانهم من الوحي. بكوْا بكاء شديداً لفقدانهم الرسول ﷺ ولفقدانهم هذا الوحي، لأن صلة السماء بالأرض -أو انفتاح السماء على الأرض- قد انقطع بموت رسول الله ﷺ.

الموضوع الثاني: اليوم الآخر

الموضوع الثاني الذي تحدث عنه القرآن والذي كان له أثر كبير في حياة الصحابة؛ هو **الحديث الطويل عن اليوم الآخر**. فقد تحدث القرآن كثيراً عن اليوم الآخر. وربط دائماً -سلباً وإيجاباً- بينه وبين الإيمان بالله؛ فتجد الحديث عن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، والذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر يُعَدُّ -حقيقة- هو الضابط والمحقق الحقيقي لقضية الإيمان بالله، لأنه ما لم يكن هناك إيمانٌ باليوم الآخر ويقينٌ به، يصبح الإيمان بالله أمراً عبثياً لا يترتب عليه شيءٌ، وبالتالي لن يعبأ به الناس. فالناس مهما علت هممهم وآمنوا بالله حقاً، لن يصمدوا طويلاً على تكاليف الألوهية لو لم يكن وراء هذا التكليف جزاء ومكافأة، أو عقاب وعذاب. فإذا كان الناس سيتساوون في النهاية، الكافر منهم والمؤمن، والمحسن والمسيء، فيرتدون جميعهم إلى التراب؛ فلا شك أن أعظم الناس إيماناً بالله لن يصبر طويلاً على أن يحرم نفسه أو يقيد نفسه بالتكاليف التي تحرم وتحلل، بينما -في النهاية- سيتساوى المتحللون من التكاليف والمتمسكون بها.

لذلك كان وجود اليوم الآخر، وكان الإيمان باليوم الآخر أمراً لا بد منه، لأنه هو الذي يعطي لقضية الإيمان الجدية الحقيقية والصدق، ويجعل الناس يأخذونها مأخذاً جاداً وكبيراً. لذلك يقول الله عز وجل ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧]. فالله سبحانه وتعالى يقول إنه يتعالى -سبحانه وتعالى- أن تكون الحياة عبثاً، فبدون اليوم الآخر وبدون الحساب يصبح الإيمان عبثاً، ويصبح خلق الإنسان عبثاً ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

فالإيمان باليوم الآخر من أهم العقائد والحقائق التي لا يمكن أن يكون للإيمان معنى بدونها، فهذا الإيمان باليوم الآخر هو الذي يعطي للحياة الدنيا معنى، ويعطي للإيمان بالله معنى، ويعطي لحياة الإنسان قيمة. فالإنسان لو لم يُخْلَق ليَعبد الله، ولو لم توجد الآخرة لكي يُجازى فيها، فإن الحياة الدنيا ستكون من الكلاحة والعبث والظلم والشقاء بحيث يصبح خلق الإنسان شيئاً معيباً.

فلذلك كان الصحابة -عليهم رضوان الله- يعيشون حقيقة اليوم الآخر كأنهم يرونها رأي العين، وكما قال الصحابي حينما سأله رسول الله ﷺ (كيف أصبحت يا حارثة) قال: أصبحتُ مؤمناً حقاً، فقال النبي ﷺ (انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟) قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال (يا حارثة عرفت فالزم)[٢٢]. هكذا كانوا يعيشون...

٢٢ رواه الطبراني في الكبير عن الحارث بن مالك الأنصاري قال الهيتمي في مجمع الزوائد: وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: حديث حارثة المشهور قد روي من وجوه مرسلة وروي متصلا والمرسل أصح.

فلا شك أن هذا الفارق في وعي الحقيقة والعيش بها هو الذي ميز الصحابة في تعاملهم وفي حياتهم كلها. كانوا شديدي الوعي وشديدي اليقظة وشديدي الاستمرارية في تعاملهم مع الحقائق. لم يكونوا يعرفون الحقيقة نظرياً في لحظة من اللحظات ثم يضعونها على الرف بعد ذلك ويستغرقون في الدنيا كأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر.

حينما ترى الناس، بل حينما ترى حياة كثير منا، تراه وكأنه يشعر أنه مخلد في الأرض.. وكأن الموت ليس متربصاً به في كل انعطافة وفي كل لحظة... (الموت أقرب إلى أحدكم من شراك نعله)[٢٣]. لكنها حقيقة ينساها الناس، فيجرون وراء الشهوات، ويستغرقهم البحث عن الرزق، وتشغلهم تفاهات الحياة، ويدخلون في معارك حول ذواتهم وحول أمزجتهم، وينسون أنهم يمكن أن يجدوا أنفسهم في اللحظة التالية بين يدي الله، وقد أفضوا إلى ما قدموا.

لم يكن الأمر كذلك عند الصحابة.. كان الصحابة يعيشون كأنهم يرَوْنَ الله دائماً، وكأنهم يرون الآخرة ويرون الجنة ويرون النار، ويشكِّل ذلك مذاقاتهم في الحياة، ويشكل ذلك أحاسيسهم تماماً، ويجعلهم لا يفعلون شيئاً ولا يقولون قولاً ولا حتى يفكرون ولا يخطر ببالهم شيئاً إلا إذا كان ممزوجاً بالاتجاه المطلوب الذي كان يعيشونه، ولذلك عاشوا بالقرآن، وعاشت حياتهم مزدهرة بالقرآن، وبحقيقة القرآن، وحينما كانوا يغفلون لحظات كانوا يبكون على ذلك، ويحسبون أنهم قد نافقوا، كما قال حنظلة لأبي بكر "هلك حنظلة"، وذهبا إلى رسول الله ﷺ يقولان ذلك. لماذا؟ لأنه -وقد وافقه أبو بكر في قوله- كان يحس أنه عندما يكون مع رسول الله ﷺ يكون في حال، وحينما ينقلب إلى أهله يكون في حالٍ آخر، مع ما كانا عليه من المشاعر ومن الحياة مع القرآن، لكنهم كانوا يحسون أن مجرد معافستهم لأزواجهم وحياتهم مع أولادهم وأكلهم وشربهم يبعدهم قليلاً عن ذلك الأفق الرفيع الوضيء الذي كانوا يحسونه وهم في حضرة النبي ﷺ، فيقولون "نافقوا" فيقول الرسول ﷺ (لو كنتم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم إنما هي ساعةٌ وساعة)[٢٤]. فهم كانوا، حينما يكونون مع رسول الله ﷺ، يرتفعون فوق مستوى الأرض، ويعيشون في أفقٍ مخصوصٍ لا يمكن أن يصبروا عليه، ولا يمكن أن تُعَمَّر الأرض به أيضاً، لأنه -في الأرض- لا بد أن يعيش الإنسان مع نفسه، مع أكله وشربه، مع متعته وغرائزه، مع غفلاته ونسيانه، مع ذنوبه الصغيرة أو الكبيرة.. لا بد للإنسان في الأرض أن يعيش هكذا.. لكن أن يعيش كما كانوا يعيشون حينما كانوا يدرسون بين يدي رسول الله ﷺ، فهذا أمرٌ تمتنع الحياة معه وتتوقف.. لكنهم كانوا يستشعرون هذا الفرق، وكانوا يحزنون، لأنهم يريدون أن يعيشوا هكذا ولا يتركون هذا الأفق أبداً، حتى أبو بكر -رضي الله عنه-... فهكذا كان الصحابة يعيشون اليوم الآخر بهذا التألق وبهذا التفاعل وبهذه الحيوية التي ينبغي أن يعيشها كل من كان يريد أن يلحق بهم، أو أن يكون على منوالهم، أو حتى أن يقترب من أفقهم ودرجاتهم.

٢٣ قلت: هذا القول من كلام أبي بكر -رضي الله عنه- عندما كانت تأخذه الحمى بعد قدومهم المدينة بعد الهجرة، أخرجه البخاري وأحمد وابن حبان، وقد ورد في الحديث (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك) أخرجه البخاري وأحمد وغيرهم.

٢٤ الحديث أخرجه مسلم وأحمد وابن حبان وغيرهم من حديث حنظلة الأسيدي وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال: ثم لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة قال قلت نافق حنظلة قال سبحان الله ما تقول قال قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا قال أبو بكر فوالله إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت نافق حنظلة يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ (وما ذاك) قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا فقال رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) ثلاث مرات.

ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر -فوق عمله الهائل في العقيدة وفي القلب- إلا أنه له آثار ضخمة جداً في حياة الإنسان وفي اجتماعيات الإنسان.. فلا شك أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي ينتج القدرة على احتمال شقاء الأرض ومتاعبها؛ فالإنسان خلق ليكدح ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] والإنسان -في حركته كلها في الأرض- إنما يسير ضد الجاذبية، بمعنى أنه يتعب كلما تحرك، وكلما رفع رجلاً ليضع أخرى، فهو دائماً في كد.. فما الذي يجعله يصبر على هذا الكد؟ على مدافعة الناس بعضهم بعضا، وأذى الناس بعضهم بعضا، وظلم الظالمين، وما يعانيه الناس من أمراضٍ ومن فقرٍ ومن وحشةٍ....

ما الذي يجعل الإنسان يستطيع أن يلتزم بأوامر الله ويؤجل كثيراً من رغباته إلى ما بعد، لو لم يكن اليوم الآخر لما احتمل الناس متاعب الأرض، ولما استطاعوا أن يطبقوا شرع الله، ولا أن يتحملوا الحرمان ولا الصمود أمام إغراءات الشهوة وإغراءات الغريزة... لكن حينما يؤمنون باليوم الآخر فإنهم يستطيعون أن يؤجلوا هذه الأمور، لأنهم مستيقنون أنهم سيجدون أضعاف أضعاف ما زهدوا فيه في الأرض، أو حرَّمه الله عليهم، أو ما لم يتح لهم في الأرض إذا ابتلاهم الله بفقرٍ أو مرضٍ أو تعبٍ أو مصائب.. ولولا ذلك لكفروا بالله ولسخطوا على الله ولتعدُّوا على القدر؛ لكن إيمانهم باليوم الآخر يجعلهم يرضون بالمصيبة؛ بل يفرحون بها كما كان يفرح الصحابة، ويعتقدون أنها ذخر لهم في الآخرة... فلا شك أن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يثبت المؤمن على متاعب الأرض وعلى مشاغل الأرض، وعلى كل شهوات وإغراءات وإغواءات الأرض، فيؤجل كثيراً من الأمور إلى اليوم الآخر، لأنه مستيقن من وعد الله، ومطمئن إلى أن ما قاله الله لا بد أن يكون. فإنه إن زهد في شيء أو ترك شيئاً ابتغاء وجه الله، من نظرةٍ أو مالٍ حرام أو.. أو.. أو.. فسوف يجد أضعاف أضعافه نعيماً له يوم القيامة. فهذا يجعله يحتمل؛ كما يحتمل الطالب أن يدرس خمس عشرة سنة أو عشرين سنة ليأخذ شهادة ويكون في منصب كبير، وكما يحتمل الموظف كد شهر بكامله ليستلم راتبه آخر الشهر، فكذلك الإنسان يستطيع أن يتحمل متاعب الأرض وخشونتها، لأنه يعلم أنه سيقبض الثمن في الآخرة.. وإذا كانت أجور الدنيا ضئيلة وحقيرة فإن أجر الآخرة عظيم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

فلا شك أن الإيمان باليوم الآخر من الأمور التي تُعين الإنسان على الصمود أمام مشاغل الأرض ومتاعبها وشهواتها وإغراءاتها، بل تجعل الإنسان يعيش بمشاعر وردية حينما يحلم بالآخرة ويحلم بالجنة، فيغمض عينيه لكي يتصور أنه سينتقل غداً إلى جنة عرضها السماوات والأرض.. إلى مرافقة الأنبياء والصالحين.. إلى الحور العين.. إلى تلك النعم الكثيرة التي لا يعرف قدرها إلا حينما يصل إلى هناك... حينما يتذكر أن الجنة بناءها لبنة من ذهب ولبنة من فضة.. حينما يتذكر أنه سيلقى الله يوما، ويُستضاف عند الله عز جل، ويخاطبه الله خطاباً مستقلاً به يوم القيامة.. حينما يغمض عينيه ويتذكر هذا ويتخيل أنه انتقل إلى ذلك المصير، فإن الأرض كلها تهون عليه بكل ما فيها من تعبٍ ومصائب وعذابات، وكل ما فيها من شهواتٍ ورغباتٍ وغرائز وإغراءات.. فلا شك أن الصحابة كانوا يعيشون اليوم الآخر هكذا، حتى أن الصحابي يستثقل ويستطول أن يأكل تمراتٍ لأنها ستعطله عن ورود الجنة والذهاب إليها.. وكان الصحابة يقولون لرسول الله ﷺ كما قال له المقداد بن عمرو فقال: "يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"[٢٥].. هكذا كانوا يفعلون.. وكما

٢٥ أخرجه البخاري في كتاب المغازي وفي التفسير.

قال له سعد بن معاذ "فوالّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ"[٢٦].. وهكذا كان الصحابة يعيشون الحياة الآخرة ويتسابقون إلى الموت، ليس لأنهم شجعان فقط، ولكن لأنهم كانوا مؤمنين بأن الذي بينهم وبين الجنة ضربة سيف.. ولذلك حينما تردد عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة خاطب نفسه لائماً لها على هذا التردد، ودعاها إلى الخوض السريع قائلاً:

يـــا نفـــس إن لـــم تقتلـــي تمـــوتي	هـــذا حمـــام المـــوت قـــد صُـــليتي
ومـــا تـــمنيتي فقـــد أُعطيتـــي	إن تفعلـــي فعلهمـــا هديـــت

يريد صاحبيه زيداً وجعفر، ثم نزل فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق -أي بعظم عليه لحم- فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة في ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل[٢٧].

لأن وعد الله مكتوب.. هكذا كان الصحابة يعيشون؛ ما كانوا يرتجفون من بلاء ولا خوف؛ إنما كانوا يسعوْن إلى الموت وهم واثقون من نتائج المعركة، لأنهم سيجدون أنفسهم في جنة عرضها السماوات والأرض..

ولا شك أيضاً أن الإيمان باليوم الآخر يوجد ذلك التوازن في حياة الأمة المسلمة وفي حياة البشرية.. ولا شك أن الإنسان حينما يؤمن باليوم الآخر فإنه يسخو بماله على الناس إن كان غنياً. فبالتالي لن توجد في حياة البشرية تلك الأحقاد والصراعات التي توجد حينما يخلو الناس من الإيمان باليوم الآخر وينقلبون إلى أنانيين؛ كل منهم يريد أن يحظى بأكبر قدر من المتاع يستأثر به وحده ويحرم منه الآخرين. ولكن حينما يكون الغني مؤمنا باليوم الآخر فإنه يتصدق ويعطي للفقير، فيفرح الفقير بغنى الأغنياء، ويدعو للأغنياء أن يزدادوا غنى لأنهم كلما ازدادوا غنى يرتد عليه خيرٌ كثير من ورائهم. فلا توجد أحقاد بين الأغنياء والفقراء. هكذا كان الأغنياء في الحياة المسلمة في كل وقت.. هذا عثمان يتصدق بقافلةٍ كاملة على المسلمين؛ ويأتي تجار المدينة جميعاً يسألونه البيع، فيقول "قد أُعطيت أكثر مما تقولون"، فيتعجبون "ها نحن جميعاً كل تجار المدينة، فمن ذا الذي أعطاك هذا المقابل"، فيقول لهم "أعطاني الله الربح عشرة أضعاف فهل عندكم مزيد؟". ونرى هذا على مدار التاريخ الإسلامي كله، حتى وجدنا من يوقف وقفاً للحمير الضالة، ومن يوقف وقفاً ليستبدل الأطفال والخدم "بسلطانيات" الزبادي الفخار التي تُكسر منهم "سلطانيات" جديدة كي لا يضربهم أهلوهم.. هذه الرحمة وهذه المشاعر لا يمكن أن توجد إلا في قلوبٍ مؤمنة. ولا يمكن أن تصدر إلا من نفوسٍ مؤمنة. فالإيمان باليوم الآخر يوجد الحب ويوجد التعاطف، ولا يوجد الصراع ولا الحقد كما يقول ماركس (أن تاريخ البشرية هو صراعٌ بين الأغنياء وبين الفقراء، وأن الحياة البشرية هي سلسلة من الأحقاد والكراهية والأنانية).. ليس هذا صحيحاً.. هذا صحيحٌ تماماً حينما يكون الناس في دائرة الكفر والجاهلية. أما حينما يكونون مسلمين فلا يكون ذلك الصراع موجودا أبدا؛ إنما يكون هناك الحب والتآلف والتكافل. ونحن نعرف أن الأسرة أو العائلة أو أهل الحي أو "العاقلة" كما يسمونهم في الفقه مسؤولون عن حمالة الذي يحمل حمالة لا يستطيع أن يدفعها؛ يحملها عنه قومه أو أهله أو أسرته.. فدية القتل الخطأ لا يتحملها القاتل الذي قتل خطأ؛ وإنما تتحملها عشيرته.. فالأمة المسلمة متكافلة.. والإنسان المسلم يعيش في مأمن من

---

٢٦ السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٧٩.

٢٧ السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٦١٥.

الخوف ومن الضياع. وحينما تبعث امرأة فقيرة في زقاق من أزقة مصر إلى عمر بن عبد العزيز وهو حاكم المسلمين وخليفتهم؛ تقول له "ما بالك نائمٌ عن رعيتك وغافلٌ عنها! لقد هُدم جدار بيت للدجاج عندي، فضاعت فراخي وأنت مسئول عن ذلك". فيبعث عمر بن عبد العزيز إلى واليه على مصر، أن أبحث عن هذه المرأة واذهب إليها، وابن لفراخها بيتاً حتى لا تضيع فراخها.. أين هذا من طواغيت الجاهلية وحكام الجاهلية الذين يسرقون أقوات الناس ويدَعُون الناس في فقر وذلٍ دائمين. وذلك عمر الذي يقول "لو عثرت بغلة في العراق لسُئل عنها عمر لِمَ لَمْ يمهد لها الطريق"!!!، وذلك عمر الذي يحمل على ظهره الطعام والشراب ليذهب مع امرأته إلى امرأةٍ فقيرة تعاني آلام الولادة فتدخل امرأته لتعينها في أمر الولادة ويغفو عمر في الخارج وهو خليفة المسلمين التي ترتعد فرائص أباطرة الفرس والرومان من اسمه. هكذا كان الإيمان يصنع جيلاً مميزاً لم تعرفه البشرية من قبل، ولن تعرفه من بعد، إلا حينما تعود إلى ذلك الإيمان مرةً أخرى، وإلى التعامل مع الحقائق الإيمانية بصورتها الحقيقية.

وهكذا نجد أن الإيمان باليوم الآخر؛ وهو العامل الثاني من العوامل التي صنعت الجيل الفريد، كان يكسو حياة المسلمين بهذه الصورة الرائعة العجيبة.

الموضوع الثالث: الإنسان وتكريم الله له

ومن موضوعات القرآن أيضاً التي تحدث عنها كثيراً؛ الإنسان. فقد حظي الإنسان باهتمام وافر من الله في كتابه العزيز. فنجد الله سبحانه يخاطب هذا الإنسان ويكرمه، ويعرض عليه أموره. ويُعلمه منذ أن خُلق ومن قبل أن يُخلق: كيف سيكون وكيف يعيش وإلى أين يسير. ويعرض نماذج حياة الإنسان جميعها: في فقره وغناه، في مرضه وصحته، في وحدته أو في جماعته، في صراعه مع أشكال الحياة كلها. فالإنسان حظي من الله باهتمامٍ كبير جداً، ولقد فقِهَ الصحابة هذا، وعلموا أنهم كرماء جداً على الله، وأن لهم رباً يحبهم ويهتم بهم، ويعرف آلامهم، ويرفع درجاتهم. وكما نعلم أن الله قد بشر وأخبر الملائكة بأنه سيخلق ﴿ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] فاستكثر الملائكة على هذا الإنسان أن يكون خليفةً في الأرض ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، واستكبر إبليس، فلم يرض أن يخضع أو أن يسجد أو أن يعترف لآدم بهذه الخلافة؛ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].. فقِهَ الصحابة هذا الاصطفاء من الله لهذا المخلوق المتميز على أنه حبٌ وتكريمٌ من الله..

ويذكر الله كثيراً في كتابه تلك الآيات التي يقول فيها ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة: ٨] هكذا يتعامل الله مع هذا الإنسان؛ فيرفعه إلى أن يكون خليفةً في الأرض، وأن يكون حبيباً إلى الله، ويكون ممن يفرح الله بتوبتهم ويفرح لفرحهم، ولا يحب أن يؤذيَهم ولا أن يتعبهم.. يقول الله عز جل: (إذا تقرب عبدي مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا جاءني يمشي جئته هرولة)[٢٨]. هذه الكلمات العجيبة التي يسمعها الإنسان فترتعش جوانحه حينما يتخيل للحظة واحدة أن يقول الله لعبده "إذا جاءني يمشي جئته هرولة"...! هذا الإنسان يستكثر على نفسه أن يقول له والده ذلك، أو من هو أكبر منه سناً، وقد يكون هذا الوالد ليس أعظم منه كثيراً، فما بالك حينما يقال له ذلك من رب العالمين.. استشعر الصحابة هذه المعاني، وعاشوها عيشة حقيقية.. عاشوا الحب كله لله، وعاشوا التقدير والإجلال كله لله، وعاشوا الشوق كله لله، وعاشوا أيضاً الخوف والارتجاف

٢٨ أخرجه مسلم وأحمد وابن حبان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

والحذر من غضب الله ومن مكر الله أيضاً. فكان هذا التفاعل هو الذي أنشأ ذلك الجيل.. جيل الإنسان المُكرَّم.. الإنسان المحترم عند نفسه.. الإنسان الذي يأبى أن يتنزل إلى آفاق الحيوان أو حتى إلى آفاق العوام.. فارتضوا لأنفسهم آفاقاً تتألق فيها الكرامة الإنسانية، لكي يصبح الإنسان جديراً باختيار الله له.

ولكن أن يختاره الله هذا الاختيار، ويكرمه على كل خلائقه، ثم يتسفل هو، ويرضى لنفسه ذلك المصير البائس فذلك هو الخسران المبين كما وصفه الله العليم الخبير! لم يكن الصحابة هكذا، وإنما كانوا يرتفعون ويرتقون، ويجاهدون ويتعبون، فكان أحدهم يتحرى اليوم الشديد الحر فيصومه، وكانوا يتحرزون من الشبهات، ويعملون من أجل تلك الرفعة في الآخرة، ولا تهمهم الدنيا. إن جاءت كان بها، وإن لم تأت فلا بأس.. والحمد لله الذي عافانا منها. وكان الصحابة بعد موت الرسول ﷺ، وبعد دخولهم إلى آفاق الدنيا الواسعة بعد الفتوحات؛ كانوا يقولون "لقد أكرم الله إخواننا الذين ماتوا قبل أن تفتح علينا الدنيا، أما نحن فلا نأمن الفتنة". فعاشوا بقيمة الإنسان، وعرفوا أن قيمتهم الحقيقية أن يكونوا عبيداً لله. وكانوا يعرفون أن الإيمان هو الذي يجعلهم أعز الناس وأعظم الناس. ولذلك نجد في الخبر (من أعطاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر أعظم النعم)[٢٩]. فكانت عدتهم من عدة القرآن، وكان غناهم بالقرآن وبالإسلام. وكانوا يعلمون صدق كلمات الله ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]. هكذا كان الصحابة يعرفون معنى العزة، ومعنى أن الله عز وجل يرفع صنفاً معيناً واحداً من الناس، أما بقية الأصناف فلا قيمة لها عنده.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]. فالقرآن تحدث كثيراً عن الإنسان، والصحابة تعايشوا مع آيات القرآن التي تذكرهم بأحوالهم من خلال شعورهم باختيار الله لهم، وتكريمه للإنسان.

الموضوع الرابع: الأخلاق وارتباطها بالعقيدة

ومن الموضوعات التي أخذت مساحةً كبيرة وأهمية عظمى في القرآن موضوع الأخلاق.

كل شيء في حياة الإنسان المسلم يقوم على قاعدة الأخلاق. ولذلك نجد التوجيهات الأخلاقية مرتبطة بالعقيدة كالإيمان باليوم الآخر. فالله عز وجل يقول ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١-٣] فالذي يأتي تلك الأخلاق الذميمة إنما هو مكذب بيوم الدين يوم الجزاء والحساب. وهنا نسأل: ما الذي يدفع الناس إلى الأخلاق إذا لم يكونوا يخشون الله في السر والعلن، ويعرفون أن الله يراهم في خفائهم وفي ليلهم وفي ظلامهم وفي نهارهم؟؟ وأنه سيجازيهم. بينما الأخلاق النفعية أو الأخلاق التجارية أو الأخلاق القانونية إنما تكون في حياة الناس ما داموا يخشون الوقوع تحت طائلة العقاب والقانون، أما إذا لم يخشوا ذلك فإنهم لا يصبرون على الالتزام بكل المُثُل التي يتحدثون بها. لكن المؤمن يخشى الله وحده، ويعلم أن الله يراه في

٢٩ حكم عليه ابن عبد البر بالضعف في الاستيعاب. ج٢. ص٧٥.

السر والعلن ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] فإذا كان يتعامل مع الله فإنه لن يخون في علانيته ولا في سره، ولا في وحدته ولا في جمعه، فالأخلاق مهمة جداً في حياة الإنسان المسلم.

والجاهلية -على العكس تماماً- تنفي الأخلاق والقيم عن كل شيء في الحياة؛ الاقتصاد ما دخله بالأخلاق؟! الاقتصاد عملية تجارية بحتة لا صلة لها بالأخلاق بينما الحقيقة أن الاقتصاد كله لا يقوم إلا على الأخلاق؛ الاقتصاد كي ينجح لا بد أن يكون هناك إتقان في العمل، والإتقان من الأخلاق. بحيث أن العامل أو الصانع يعمل ويتقن خشية من الله وليس خشية من الناس. الاقتصاد لا ينفع مع الغش (من غشنا فليس منا)[٣٠]. الاقتصاد لا يستقيم مع الاحتكار، فالمحتكر ملعون في الإسلام لأنه يستغل حاجة الناس. الاكتناز يعطل دورة الاقتصاد ولذلك يحرمه الإسلام. الإسلام يحرم الربا لأنه جريمة أخلاقية في حياة الناس. (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى)[٣١]. فالأخلاق أمر مهم جداً في التعامل بين الناس. والإسلام يجعل العملية الاقتصادية عملية أخلاقية في صميمها، وليست عملية مالية ولا تجارية. وهكذا السياسة.. وهكذا كل شيء في الحياة، ولكن الجاهلية تريد أن تنزع الأخلاق عن السياسة؛ "الغاية تبرر الوسيلة"، وتنزع الأخلاق حتى عن العلاقات الجنسية، "ما دخل الجنس بالأخلاق؟ الجنس عملية بيولوجية مثل الأكل والشرب، وكما لا نستحي من الأكل والشرب لماذا نستحي من الجنس؟"... فهم يريدون أن يعرّوا الإنسان من كل ما يكرمه لكي يستحيل شيطاناً أو أداةً سهلة يعبثون بها، فيحطمونه ويحطمون دين الله.

فالأخلاق أخذت هذه المساحة الهائلة من القرآن لأنها أساس من أساسيات هذا الدين. وصدق الله إذ يقول لرسوله ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ويقول الرسول ﷺ (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[٣٢]، ويقول ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).[٣٣]

ومن الموضوعات التي عني بها القرآن: **آيات التشريع**.

ولا شك أن الصحابة حينما تلقوا التشريع تلقوه على أنه هدية من الله، وأنه نعمة من الله، وأنه تكريمٌ من الله، وأنه تيسير من الله أن يحمل عنهم أمر التفكير والتعب في رؤية الخير والشر، والصواب والخطأ، والنفع والضر، فرحمهم الله من هذا، وخاصة أنهم لم يرتفعوا لمستوى العلم بالإنسان وبظروفه، فالله عز وجل تكرم وأنزل إليهم تشريعاً ينظم حياتهم، ويريحهم وييسر أمورهم، ويحفظ وحدتهم، ويحفظ رقيهم بهذه الآيات التشريعية وبهذه التشريعات العظيمة. فلم يروا في تشريعات الله قيوداً، ولم يروا فيها تكاليف تكبلهم، وإنما رأوا فيها رحمةً وسماحةً وتيسيرا وتكريماً، وهديةً من الله. ولذلك أحبوا أحكام الله وعاشوا بها، لم يروا فيها قيودا ومتاعب يبحثون من أجلها عن الحيل وعن الرخص وعن المخالفات لكي يهربوا من التشريع. لم يكن الصحابة كذلك، بل كانوا يفرحون بآيات الله التي تحدد لهم الخطأ من الصواب، والتي تريحهم من أن يقعوا في الخطأ، ولذلك كثر في القرآن "يسألونك"، "ويستفتونك"..، لأنهم كانوا قد اطمأنوا أن لهم

٣٠ أخرجه مسلم وابن حبان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

٣١ أخرجه البخاري من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

٣٢ قال ابن عساكر: إسناده ضعيف، وقال السخاوي ضعيف، قال العجلوني في " كشف الخفاء " قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت لكن قال في الدرر صححه أبو الفضل بن ناصر وقال الزركشي: معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح وذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهية فقال لا يصح ففي إسناده ضعفاء.

٣٣ أخرجه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ومالك في الموطأ، والبخاري في الأدب، والحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- وقال السيوطي: صحيح.

مصدراً عليماً خبيراً يستطيع أن يفتيهم فلا يحتاجون إلى جهد. ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٦].. يفتيهم الله فينتهي الأمر.

فالصحابة عاشوا التشريع، بشعور الفَرِحِ الراضي الذي يفرح بكل ما شرعه الله له، لأنه يعلم أن فيه الرحمة والتكريم الذي أكرمهم به سيدهم، فضلاً أن هذا مقتضى ألوهيته وحقه الطبيعي أن يخلقهم ويحكمهم في نفس الوقت.

هذه الموضوعات الأساسية التي عرضها القرآن، والتي مارسها الصحابة. وعاشوها الصحابة بصورةٍ خاصة جعلتهم أعظم جيل وأرقى جيل. فإذا كنا نريد أن نكون على طريقتهم فلا بد أن نعيش مع القرآن ومع موضوعات القرآن بنفس المنهج وبنفس الطريقة التي عاشوا بها وماتوا عليها. فاستحقوا هذا الثناء.

العامل الثاني: السنة النبوية

وإذا كان القرآن هو العامل الأول؛ فالسنة هي العامل الثاني. والسنة -كما نعلم- هي أفعال وأقوال وتقريرات الرسول ﷺ. ولا شك أيضاً أنها من وحي الله عز وجل. لأن الرسول ﷺ يقول (أوتيت القرآن ومثله معه)[٣٤]. والله سبحانه وتعالي يقول ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣-٤]. ونستطيع أن نقول إن الرسول ﷺ أيضاً تعرض لنفس الموضوعات التي تعرض لها القرآن، وشرحها وبين تفصيلاتها، سواء في قضايا الألوهية، أو قضايا اليوم الآخر، أو قضية الإنسان، أو قضايا الأخلاق، أو قضية التشريع. فلا شك أن رسول الله ﷺ كان له دورٌ ضخمٌ في رسم الصورة النهائية للإسلام؛ عقيدةً وشعائر وشرائع وأخلاقيات، لأنه هو ﷺ الذي بعثه الله ليبين للناس ما نزل إليهم ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]. فكانت مهمة الرسول ﷺ ذلك البيان القولي والفعلي. فهو ﷺ بأقواله يبلغنا ما أمرنا الله به، وما يريده الله منا. وبسلوكياته كان يترجم ذلك إلى الواقع؛ ولذلك أرسله الله عز وجل ليكون قدوة وأسوة للناس.

والسنة قد حققها لنا علماؤنا الكرام، وبينوا لنا صحيحها. ولا شك أنهم أسدوا إلينا وإلى البشرية جميعاً ما لا يستطيع الإنسان أن يجازيهم عليه إلا بالدعاء لهم أن يجزيهم الله من فضله العظيم الكريم.

نعمة وجود شخص الرسول وأثرها الضخم في واقع الحياة

لا شك أن عامل وجود شخص رسول الله ﷺ من أخطر العوامل التي كان لها فضل كبير جداً في رفع مستوى الصحابة، وفي وصول الحقيقة إلى قلوبهم حارة وفاعلة ومؤثرة. ولا شك أن ترجمة هذا الحق في شخص رسول الله ﷺ ووجوده بينهم حياً يتحرك ويتكلم، ويرونه في كل أحواله وينعمون برفقته وشخصيته وبآثار هذه الشخصية، لا شك أنه كان ذا أثر ضخم جداً؛ لا يعرفه إلا من ذاقه. ولا شك أن أي إنسان صادق منا لو صاحَب داعية مؤثرا ناجحاً صادقاً، أو عالماً ملتزماً تقياً، لا شك سيشعر أن وجوده مع هذا الإنسان كان له أثر كبير في نقل خطواته إلى الحق، وفي تشكيل نفسيته، وفي إعانته على الالتزام وعلى الانفعال بالحقيقة التي يقولها. وذلك غير أن تسمع نفس

---

٣٤ أخرجه أحمد في المسند والحديث صحيح، صححه العجلوني في كشف الخفاء، والشوكاني في نيل الأوطار، والمباركفوري في تحفة الأحوذي.

الحقيقة من شخص عادي لا يكون على نفس درجة الصدق والتقوى، وغير أن تقرأها في كتاب بمشاعرك أنت وبطريقتك أنت ومن نقطتك أنت... الفارق لا شك كبير.

والذي يكتب هذا الكلام قد شعر به فعلاً... أحسست أنني حينما كنت برفقة الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- ولمدة قصيرة لم تتجاوز ثلاثة أشهر -وليس ثلاثة وعشرين عاماً كما عاش الصحابة- أحسست أن تلك الأشهر الثلاثة كأنها ليست من عمر الأرض ولا من عمري أنا على الأرض. كنت أحس أنني فوق السحاب، وأنني شخص آخر.. طاقاتي ومشاعري وإدراكي و ... حتى أنني كنت لا أنام في هذه الثلاثة أشهر أكثر من ثلاث ساعات في اليوم؛ ثم أجد نفسي نشيطاً جداً، ومنفعلاً جداً، وواعياً جداً، وسعيداً جداً أيضا.. وظللت بعدها ولمدة ليست قصيرة؛ من يسمعني يتعجب أنني أكاد أنقل نفس الكلمات وأقف نفس الوقفات وأعبر نفس التعبيرات، حدث نوع من التلبس بالشخصية وبالظروف، ثم ذهبت هذه المسألة مع الزمن.. فهذه التجربة الشعورية قربت إلى نفسي التصور عن كيف كان صحابة رسول الله ﷺ مع رسول الله ﷺ. وبقدر الفارق الذي كان بين سيد قطب وبين رسول الله ﷺ سيكون الفارق بين هذه المشاعر وعمقها وأثرها ممن يصاحبون سيد وممن قد صاحبوا رسول الله ﷺ. ولا شك أن الأمر يختلف اختلافاً جذرياً؛ وكما أنكم لن تستطيعوا أن تتصوروا ما كنت عليه مع الأستاذ سيد، أو ما خلَّفه هذا اللقاء معه؛ فإنه -أيضاً- لن نستطيع نحن الآن مهما استخدمنا طاقة خيالنا أن نتخيل كيف كان حال الصحابة مع النبي الكريم ﷺ، وكيف عاشوا معه، وكيف تأثروا به.

فوجود شخص رسول الله ﷺ لا شك أنه كان له -لا نقول له أثر السحر فالأمر أكبر أيضاً من السحر- وإنما هو أثر النبوة ونور النبوة وربانية المصدر وربانية الحقيقة. فلا شك أنه كان عليه الصلاة والسلام يمثل الإسلام حياً ويترجمه ترجمةً واقعية، وكان يمثل قمة البشرية وقمة الإنسانية في كل مجالاتها، فهي قمم متعانقة، وليست قمة واحدة.. وكل إنسان كان يعيش معه، بل كل إنسان يقرأ سيرته بعد ذلك يستطيع أن يجد فيه الأسوة له هو شخصياً بصرف النظر عن موقعه وبصرف النظر عن مجال نشاطه وتركيبته النفسية. وهذه معجزة أيضاً. معجزة ربانية أن يتحول الرسول ﷺ إلى قدوة مؤثرة في كل المجالات، ولكل الأعمار، ولكل الأزمان أيضاً.. فلا شك أن وجود شخص رسول الله ﷺ بين الصحابة كان له أثر هائل جداً، وحرك فيهم كل ما يمكن أن يفعله المؤثر القوي إذا استطعنا أن نمثله بقوة المغناطيس التي ترتب برادة الحديد ترتيباً خاصاً. فبرادة الحديد لو قدمت لها أي معدن آخر غير المغناطيس لن يؤثر فيها ولن تتحرك. فإذا جئت بالمغناطيس فإنك تستطيع أن تتلاعب بهذه البرادة وتشكلها كيف شئت من خلال هذه القوة غير المفهومة. ولا شك أن شخصية رسول الله ﷺ وقوة تأثيره كانتا شيئاً آخر غير تلك القوة المادية الموجودة في المغناطيس، لكن الذي نريد أن نقوله هو أنه ﷺ كان قوة روحية مستمدة صنعها الله على عينه، فشكلت أشخاص الصحابة بذلك المستوى الذي كلما قرأنا تاريخ الصحابة وكلما قرأنا مواقفهم وكلما استطلعنا طريقة شعورهم بالأشياء، نظل في إحساس بالعجز عن فهم كيف حدث ذلك..

وأنا أقرأ في هذه الأيام لأعيش مع هذا الجيل؛ قرأت أكثر من كتاب يتحدث عن جيل الصحابة: كتاب صفة الصفوة؛ كل ما يخص الصحابة ومن بعدهم من أجلّة التابعين، ثم كتاب رأفت الباشا عن الصحابة: صور من حياة الصحابة، مجمعة في كتاب. ثم كتاب الإمام أحمد في فضائل الصحابة. عشت مع هذه الكتب في الفترة الماضية لأعيش مع الصحابة في هذا الأمر؛ لم أستطع حتى الآن أن أدرك كيف حدث هذا التحول في نفوسهم بهذه الصورة العجيبة التي أنتجت شيئاً غريباً جداً على البشرية، ورائعاً إلى درجة الإعجاز، وإلى درجة تجعلك تخجل من واقعك حينما تقارنه بذلك الواقع؛ ليس الواقع المادي، ولكن ذلك الواقع النفسي. شعور الصحابة بالأمور والأشياء أمر غير مفهوم عندنا، وسيظل صعباً علينا، إلا أن نرتفع نحن في درجة المشاهدة وفي درجة التأثر وفي الحياة مع القرآن والحياة مع السنة

إلى الدرجة التي نخطو بها إلى ذلك الأفق الذي خاضوه. فعند ذلك قد نستشرف ذلك الأفق ونتذوقه ونعيش معه.. وذلك يحتاج قوة هائلة، وصدقا من نوعٍ خاص.. وإن مما يثير هذا العجب أن يقول رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد الذي يعد من أجلة الصحابة -غير أنه لم يؤمن إلا في السنة الثامنة من الهجرة- حينما حدث بينه وبين عبدالرحمن بن عوف عراك فتسابا، فشكا عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ، فاستدعى خالدا وحذره؛ قال له: (هل أنتم تاركوا لي أصحابي والله يا خالد لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما بلغت مد أحدهم ولا نصيفه)[٣٥]. هذا الفارق بين خالد وعبد الرحمن في جيل واحد من الصحابة، وهذا الرجل الذي قال عنه رسول الله ﷺ أنه سيف الله المسلول، وكان من أجلة الصحابة بعد ذلك؛ لكنه بالنسبة لعبد الرحمن بن عوف كان شيئاً آخر.. والفارق بينهما عشرين عاماً تقريباً... فما بالك حينما يكون الفارق خمسة عشر قرناً.. فإذا كان هذا هو الفارق بين جيلين من الصحابة فما هو الأمر بالنسبة لمن بعدهم ثم من بعدهم ثم من بعدهم.. ومن خلال هذا نفهم قول الصحابي للتابعي "إنكم تعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات"[٣٦].. ربما بذلك نستطيع أن نقترب من إدراك المعنى ومن إدراك التذوق الذي وراء هذا الكلام أو هذا الشعور الذي كان يملأ حياة الصحابة.. ولا شك أن الإنسان -مهما حاول أن يدرك كيف تحول الصحابة- سيظل في عماية من هذا الأمر حتى يخوض بحر المجاهدة وبكل ما أوتي من طاقة وما أوتي من قوة.

العامل الثالث: ظاهرتا الوحي والمفسر الواحد

هناك ظاهرتان صاحبتا وجود رسول الله ﷺ، وهاتان الظاهرتان لم تتكررا في تاريخ أي جيل من الأجيال ولن تتكررا حتى نلقى الله عز وجل..

ظاهرة الوحي

الظاهرة الأولى تحدثنا عنها قبل ذلك وهي ظاهرة الوحي.. وقد انقطع الوحي بموت رسول الله ﷺ.

وهذا الوحي كان له -ولا شك- أثر خطير جداً في حياة الصحابة -رضي الله عنهم- ليس مع رسول الله ﷺ فقط، وإنما مع الملأ الأعلى... كان الصحابة يعيشون من خلال الوحي مع الله.. وكانوا يتعاملون معه مباشرةً.. وكانوا يترقبون نزول الوحي الذي يوصلهم، ويأتي لهم بخبر السماء، وبكلام الله، ويأتي لهم بتوجيهات الله، ويأتي لهم بأخبارهم عند الله عز وجل، خيراً كانت أو شراً، فكانوا يعيشون بهذه المشاعر المترقبة المتوترة المتشوفة والمتشوقة، لينتظروا ماذا سيقوله الله لهم، وماذا سيحكم الله لهم، أو عليهم، وماذا سينزل لهم من الأحكام، وكيف يدير شئونهم، وكيف.. وكيف.. هذا الشعور الحي المترقب لا شك كان له تأثير في تشكيل هؤلاء الناس تشكيلاً خاصاً قلما يتحقق ويتكرر مرةً أخرى في حياة البشرية وفي حياة الإنسان، منذ أن وُجد وحتى الآن، ولآخر الزمان..

٣٥ أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

٣٦ أخرجه البخاري في صحيحه. ج٨. ص١٠٣.

ظاهرة المفسر الواحد

الظاهرة الثانية؛ وهي ظاهرة كان لها تأثير كبير من حيث أنها ركزت جهد الصحابة في اتجاه واحد.. هذه الظاهرة هي ظاهرة المفسَّر الواحد.. كان الرسول ﷺ هو المفسر الواحد لهذا الدين؛ فأي معضلة.. وأي مشكلة.. وأي موقف.. وأي حكم.. وأي خلاف كان يحدث في حياة الصحابة، كانوا يرجعون فيه وبسرعة إلى رسول الله ﷺ فيأتيهم الجواب الشافي الذي ليس من حقهم أن يراجعوه أو يناقشوه أو يترددوا في قبوله، أو يتشككوا في صحته، فهو الحق يقيناً ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] ، ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣-٤] ، ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]. فكانت حياة الصحابة مركزة في اتجاه واحد؛ وهو أمانة التنفيذ ودقة التنفيذ لما يسمعونه.. لم يكونوا مشتتين في البحث عن الحقيقة أو البحث عن الحكم الصحيح.

أما في الأجيال التي جاءت بعدهم فقد كثر المفسرون، وكلما بعد العهد عن عصر النبوة كلما ازداد المفسرون وازدادت فرص الخطأ وعدم الدقة.. فأي إنسان -بعد وفاة رسول الله ﷺ- يحتاج وقتاً ليصل إلى الحكم الصحيح، وحتى إذا وصل إلى ما يرجحه يظل غير مستيقن أن ما وصل إليه هو الحق اليقيني، فقد اختلف الصحابة في أمور، فأيهم كان على الحق المجرد... اختلف التابعون وتابعو التابعين.. وهكذا على مدار التاريخ.. كان هناك خلاف حول الأمور والقضايا، وفي بعض الأحيان كان في المسألة الواحدة أكثر من رأي.. تكاد تكون في بعض الأحيان على طرفي المعادلة تماماً.. بين الحل والحرمة.. بين الكراهة والندب.. ويجتهد المجتهدون، ويحار الناس أي المفسرين على الحق وعلى الصواب.. وأي الأحكام هذه صحيحة أو خاطئة.. لا شك أن هذا التشتت والتوتر، والإحساس بعدم الطمأنينة الكاملة إلى ما وصلت إليه من نتاج يجعل في نفسك نوعاً من عدم الطمأنينة الكاملة.. بينما كان الصحابي مطمئنا دائما، فإذا تحيَّر في أمر ذهب إلى رسول الله ﷺ فأخبره؛ إما عن طريق الوحي أو عن طريق السنة فينقضي الموضوع، ويطمئن أن هذا هو الحق الذي لا مراء فيه. ويحضرني في هذا قصة خزيمة الذي كانت شهادته بشهادة رجلين، لماذا؟ "عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ، أَنَّ عَمَّهُ، حَدَّثَهُ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ، فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْتَاعَهُ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسِ وَإِلَّا بِعْتُهُ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: «أَوْ لَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟» فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلَى، قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ» فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ، يَقُولُ هَلُمَّ شَهِيدًا، فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: «بِمَ تَشْهَدُ؟»، فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ"[٣٧].. فمن أجل هذا تحقق لخزيمة أن تكون شهادته برجلين.. والفقهاء يقولون إن شهادته برجلين لأنه جمع إلى شهادته شهادة رسول الله ﷺ. ما يهمنا هو الشعور الذي نبت عند خزيمة -رضي الله عنه- وبسرعة لم تسعف بديهة الصحابة الآخرين أن يقولوا مثلما قال خزيمة، وقفوا عند الشكل ولم يدخلوا إلى المضمون الروحي.. هذا يقرب إلينا كيف كان الصحابة يتعاملون في حياتهم مع رسول الله ﷺ، وكيف كانوا يعيشون..

٣٧ سنن أبي داود. ج٣. ص٣٠٨.

قضية المفسر الواحد لا شك أنها أراحت الصحابة كثيراً، وأبعدت عنهم الجهد الذي نبذله نحن في أقل المسائل، وفي أكبرها.. كيف نصل إلى الحكم الصحيح وإلى الرؤية الصحيحة للأمور.. هاتان الظاهرتان لم تتكررا في تاريخ البشرية بعد ذلك، فالوحي قد انقطع، والمفسر الواحد قد ذهب إلى ربه، وبقي المجتهدون يجتهدون ويُؤْجَرون إذا أصابوا وإذا أخطأوا، ولكن يظل الإحساس بالحيرة والإحساس بعدم اليقين يشوب حياتنا من خلال الاجتهاد المستمر..

فلا شك أن حضور شخصية الرسول ﷺ بين الصحابة كان لها ذلك الأثر الكبير؛ سواء تأثير شخصه هو ﷺ ووجوده، أو ما صاحبه من ظواهر كظاهرة الوحي أو ظاهرة المفسر الواحد، فكان لهذا العامل أثر ضخم جداً في نشأة الجيل الأول، وفي تميُّز ذلك الجيل.

العامل الرابع: جدة الرسالة وغربة الإسلام

قديماً قالوا -وقد صدقوا- إن لكل جديدٍ بهجة، ولكل جديد دفعة في نفس الإنسان تبعث فيه نوعا من التوهج لا يصنعه الشيء المعتاد، أو الذي أصبح قديماً.. حتى الصحابة -رضي الله عنهم- كانوا يشعرون أن الذي يسلم جديداً تكون مشاعره أشد حرارة وأكثر نداوة من الذين سبقوه؛ فنجد أبا بكر -رضي الله عنه- حينما قدم أهل اليمن فسمعوا القرآن وجعلوا يبكون قال "هكذا كنا ثم قست منا القلوب"[٣٨]، مع أن أبا بكر -رضي الله عنه- كان بكّاءً، ومعروف عنه رقة حسه وعمق إيمانه. لكن الإلف بطبيعته إن لم يقتل الدهشة فهو على الأقل يقللها كثيراً..

فلا شك أن جدة الإسلام، أو جدة هذا الدين الذي تلقاه هؤلاء العرب الذين كانوا في عماية من أمرهم، وكانوا في سفح الإنسانية وفي عمق الضلالة، فحينما جاءهم هذا الحق، وأخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ضحالة الفكر إلى نصاعة العلم، ومن وضاعة الأخلاق إلى عظمة هذا الدين، لا شك أنهم أحسوا بالانتقالة. وكان حرصهم على الإسلام بسبب ذلك حرصاً كبيراً جداً، وانفعالهم بالإسلام كان انفعالاً ناتجا من الشرارة الضخمة التي صنعها الفارق بين واقع وواقع، أو بين درجة ودرجة. هذا الفارق هو الذي صعد بالصحابة، وقفز بهم إلى ذلك الأفق الذي لم يستطع أن يصل إليه التابعون الذي قيل لهم "أنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعرة كنا نعدها في عهد رسول الله ﷺ من الموبقات". هذا الفارق الضخم هو الذي يفسر لنا لماذا كان الصحابة متأثرين بالإسلام هذا التأثر.. ذلك لأنهم عاشوا الجاهلية وعاشوا الإسلام.. عاشوا الانحطاط وعاشوا الارتفاع والرقي، وأحسوا بمذاق الظلمة ومذاق النور، وبالتالي كان الأثر ضخماً في نفوسهم، وكانت غيرتهم وحرصهم على الإسلام شديداً بسبب هذا الفارق الهائل الذي عاشوه... فلا شك أن الصحابي كان يعيش مع هذا الدين على أنه ميلاد جديد له وللبشرية، وكان حينما يرى ما كان عليه ويرى ما أصبح فيه، كان يشعر -حقيقة- بتلك النقلة الهائلة جداً التي انتقلها بسبب الانتقال إلى هذا الدين.

وقد تبين لنا ذلك من خلال واقع الصحابة الذين أصبحوا بعد الإسلام أساتذة وعباقرة العالم، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، هذا الرجل الذي أصبح بالإسلام عظيماً. وقد كان قبل ذلك رجلاً عادياً، يعبد الأصنام ويشرب الخمر ويعذب المسلمين، فلا يتركهم إلا ملالةً، وليس إنسانيةً. هذا الرجل ينتقل -بعد أن يسلم- انتقالة مفاجئة... يذهب متوشحاً سيفه ليقتل رسول الله ﷺ؛ ذلك الرجل الذي جاء فشتت شملهم وكفَّر أباءهم وأجدادهم وشتم أصنامهم.. فيحوله مسلم في الطريق كان يخفي إسلامه من أن يذهب إلى

٣٨ مصنف ابن أبي شيبة. ج٧. ص٢٢٤.

قتل الرسول ﷺ، إلى أخته فاطمة بنت الخطاب.. فيذهب إلى أخته، ليسلم بعد لحظات، ويحدث ذلك التغيير الهائل في نفسه.. كيف حدث هذا الانتقال وكيف حدث هذا التغير؟ هذه لمسات ربانية استجابة لدعوة الرسول ﷺ عندما دعا (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام)[٣٩].. فكلاهما كان في وزن الرجولة والقوة والعظمة واحداً، لكن واحداً سبقت له من الله الحسنى والآخر سبقت له من الله الخسرى...

عمير بن وهب الذي ذهب ليقتل رسول الله ﷺ لأنه أسر ابنه وهب بن عمير بن وهب في بدر وكان من أشر رجالات قريش.. ففي لقاء مع صفوان بن أمية تحادثا في الأمر، فقال له "والله لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ لذهبت وقتلت محمداً وأرحت الناس منه" فيقول له صفوان "أما دَيْنُك فعليّ، وأما عيالك فأضمهم إلى عيالي مدى الدهر، فاذهب" فقال له "أكتم عني هذا الأمر حتى يأتيك خبر محمد"، فذهب، وظل صفوان ينتظر الحدث الضخم، وقال للمقربين إليه "ستسمعون خبراً يُحدث ضجة هائلة..". ذهب عمير بن وهب ودخل المدينة ليسأل عن ابنه وكان بعض المشركين يذهبون ليفدوا أسارى بدر، فلم يكن دخولهم المدينة مستغرباً، فرآه عمر -رضي الله عنه- فلببه بثوبه وقاده إلى رسول الله ﷺ وهو يقول "هذا كلب من كلاب قريش"، وقد سمم عمير سيفه ليقتل به رسول الله ﷺ، فيوقفه بين يدي رسول الله ﷺ، ويقول الرسول ﷺ لعمر (دعه يا عمر)، فأفلته عمر، فقال ﷺ (ما الذي جاء بك يا عمير؟)، قال "جئت لأمر الأسرى" قال ﷺ (وما بال ذلك السيف؟) قال: "وما أغنت عنا سيوفنا يوم بدر" قال (لا، بل قعدت مع صفوان بن أمية وقلت له كذا وقال لك كذا وكذا..؟)، فبُهتَّ الرجل، ثم قال "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، ما علم ذلك إلا صفوان وأنا" فآمن عمير[٤٠].

فهذه الانتقالة العجيبة التي تحدث لا شك أنها كان بتأثير رسول الله ﷺ ولهزيمة هؤلاء الكفار قبل أن يأتوا إليه، لأنهم كانوا يعرفون أنه على الحق وهم على الباطل.. وهم كانوا لا يكذّبونه ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].. وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم هم الظالمون والكاذبون، لكنهم يقولون "كاذب ربيعة خيرٌ لنا من صادق مضر" ويتبعونه، ويموتون معه في سبيل هذه الضلالة وهذا الباطل في عصبية جاهلية، لأنهم يريدون أن تكون العظمة والسلطان في ربيعة وليس في مضر... هكذا كانوا مهزومين، وكانوا يعرفون أنهم على الباطل، فلذلك كانوا عندما يفاجئهم الحق ينقلبون انقلاباً سريعاً جداً لا تدري كيف حدث، إلا أنه لمسة ربانية تريد الهدى لهؤلاء الناس.. وهذه الصور كثيرة جداً في أحوال الصحابة..

وكلما قرأت تاريخ صحابي من الصحابة تتعجب.. كيف كان يفكر هذا الرجل؟

عمرو بن الجموح الذي كان يهتم بصنمه ويطيبه كل يوم ويلبسه أفخر الثياب. ويأتي أولاده الثلاثة الذين آمنوا خالد ومعوذ ومعاذ، ومعهم معاذ بن جبل، كانوا شبابا صغارا في السن قد أسلموا، فكانوا يأخذون صنمه ويرمونه في مزابل القوم، فيبحث عنه ويأتي به وينظفه، ويقول له "لو أعلم من يفعل بك ذلك..." فلما تكررت المسألة، وضع في عنقه سيفاً، وقال "هذا سيف فدافع عن نفسك"، فجاء ووجده والسيف في المزبلة مربوطا مع كلب ميت، فقال "إله، ثم لا تستطيع أن تدافع عن نفسك...؟!" فشهد شهادة الحق[٤١].. أين كان هذا الرجل بعقله وبحكمته وبزعامته قبل أن يسلم؟ لكننا نعرف كيف تكون آثار البيئة وسطوة البيئة وسطوة التقاليد التي تعطل العقل الإنساني.

---

٣٩ أخرجه الحاكم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-.

٤٠ السيرة النبوية لابن هشام. ج١. ص٦٦١-٦٦٢.

٤١ السيرة النبوية لابن هشام. ج٢. ص٤٥٢-٤٥٣.

وهكذا الإنسان حينما يسلم نفسه للبيئة وللمجتمع ويعيش بوراثاته، فيلغي عقله، ويأخذ كل ما ورثه على أنه بدهيات مسلم بها، فيتقبل المستحيل ويرفض البدهي، ويظن أنه على صواب. حتى أنهم كانوا يقولون -كما يحكي عنهم القرآن- ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ويعتبرون هذا فوزا عظيماً؛ أنهم نجحوا في مواجهة الفتنة؛ فتنة التضليل التي جاء بها محمد ﴿ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ [الفرقان: ٤٢]...

فلا شك أن جدة الإسلام كان لها أثر كبير جداً في حياة الصحابة، نقلتهم نقلة هائلة، لأنهم عاشوا الضلالة، فلما تفتحت عيونهم وأبصارهم وعقولهم على ذلك النور كان شعورهم بالإسلام شعوراً من العمق ومن الحب بحيث استطاع أن يغير ويزيح كل العقبات التي كانت في نفوسهم، وطهر الإسلام كل جوانب السوء والضحالة في قلوبهم.. فلا شك أن ذلك العامل، عامل جدة الرسالة وغربة الإسلام، كان عاملاً مؤثراً تأثيراً كبيراً جداً في حياة الصحابة..

وجود هذه العوامل في حياتنا

هذه العوامل الأربعة جلها موجود في حياتنا[٤٢]...

عامل القرآن موجود، بل أننا نعلم عن القرآن "كمعلومات" أكثر مما كان يعلمه بعض الصحابة. فبعضهم كان لا يعلم من القرآن إلا ما سمعه من الرسول ﷺ، أو ما وصله من المقربين إليه من الصحابة. لكننا نحن قد جُمع لنا كل ما قاله الصحابة ووعوه عن القرآن. فنحن نعرف علم الصحابة كله عن القرآن، وعلم الصحابة كله عن السنة. فلا شك أن الصحابي كان يجهل كثيراً مما قاله الرسول ﷺ. وكان عمر وأبو بكر يسألان الصحابة عن بعض الأحكام والقضايا المعضلة التي كانت تقابلهما، "من سمع عن رسول الله ﷺ كذا وكذا"، وربما كان أحدهما لا يجد إلا صحابيا واحدا عنده خبر عن رسول الله ﷺ فيمضيه.

أما نحن فقد جمع الله لنا السنة كلها؛ وآلاف الأحاديث بين أيدينا محققة. والقرآن كلام الله محفوظ كما كان في عهد الصحابة، وسنة رسول الله ﷺ بين أيدينا كما كانت بين أيدي الصحابة.

هل الحياة الإسلامية متوقفة على وجود الرسول ﷺ

والعامل الذي اختفى هو شخص رسول الله ﷺ، ولو علم الله أن استئناف الحياة الإسلامية متوقف عليه لما كلفنا بالإسلام، أو كان قد أطال في عمر الرسول ﷺ مدى الأجيال كلها.. ولكن الله لم يفعل ذلك، فهذا العامل ليس عاملاً أساسياً في استئناف الحياة الإسلامية، وإن كان عاملاً ضرورياً في تأسيس الحياة الإسلامية أول مرة.. فالصحابة كانوا يأسسون ديناً، وكانوا يواجهون العالم كله بعقيدة جديدة، وكانوا يحتاجون لينتقلوا من تلك الوهدة السحيقة لتلك القمة السامقة إلى رافعة قوية جداً ترفعهم، وهذه القوة كانت ممثلة في رسول الله ﷺ. أما الذين جاءوا من بعدهم فقد وجدوا الأمر يسيراً سهلاً؛ لقد انتشر الإسلام، وجاء التابعون وقد تطهرت الجزيرة كلها من الكفر، ثم مع وجود الصحابة في خلال خمس وعشرين عاما انتهت أعظم إمبراطوريتين في التاريخ وخضعتا للإسلام.. فالتابعون قد وجدوا الإسلام

٤٢ يراجع ما كتبه الأستاذ محمد قطب عن هذه العوامل في كتاب "منهج التربية الإسلامية" الجزء الثاني.

بين أيديهم سهلاً مُيسراً، وأكثرهم لم يعش الفترتين: فترة الجاهلية وفترة الإسلام، وإذا كان عاشهما فقد وجد الإسلام ميسراً، لم يُعذب من أجله، ولم يتعب من أجله، إنما حينما قرر أن يسلم قُدِّم له الإسلام في طبق من فضة أو من ذهب.

والذين جاءوا من بعدهم؛ وهم تابعوا التابعين ومن وراءهم، وجدوا الإسلام هو القوة العظمى في الأرض كلها، تخضع له ممالك العالم وتسترضي خليفة المسلمين في كل مكان، فلم تعد القوة مطلوبة لرفعهم من واقعهم، لأن واقعهم كان واقعا إسلاميا.. فالصحابة كانوا يحتاجون جهد الرسول ﷺ ليرفعهم أولاً، ولكي يُطَبق الإسلام أمامهم تطبيقاً سليماً، ليظل هذا النموذج الأصلي للإسلام موجودا، فلا يترك لاجتهاد البشر. وإنما يُترك لنا الرسول ﷺ صورةً واضحة وتطبيقية عن الإسلام، وترجمةً عمليةً له، تصبح حجةً وعوناً للبشرية ولمن جاء بعد ذلك.. فكان وجود الرسول ﷺ ضرورياً للجيل الأول. أما الأجيال التي جاءت بعده فلم يعد وجود الرسول ﷺ ضرورياً لها كالسابق.

من أجل هذا لم يصبح هذا العامل مؤثراً في استئناف أي تجربة جديدة، وخاصةً أن هناك ما يعوض فقداننا رسول الله ﷺ، عندنا التاريخ الإسلامي كله بكل عظمته وضخامته، والذي عاش ثلاثة عشر قرناً على الأقل، ومازال مؤثراً في حياة البشرية حتى الآن، فالتاريخ -رصيد التجربة- موجود. وهذا ما يؤثر على الناس، فالإسلام قد طُبق في الواقع مرة، فإذن يمكن أن يُطبق مرةً أخرى. وهذا غير الصحابة الذين لم يكن أمامهم مثل يقتدون به أو يستروحونه.

وعندنا أيضاً رصيد الفطرة موجود، مما يعيننا على استئناف الحياة الإسلامية بسهولة.

وعندنا سيرة الرسول ﷺ، وكتب الشمائل كلها، وهي -ولا شك- توصل إلينا نسمات السيرة ونسمات تلك الشخصية المؤثرة. فإذا عشنا مع سيرة الرسول ﷺ، وعشنا مع شمائله، وعشنا مع بصماته على صحابته، فسوف نعيش قريباً من الجو الذي كان يعيشه الصحابة مع الرسول ﷺ بالقدر الذي نحتاجه نحن في تجربتنا، والذي يتناسب مع حاجاتنا التي نحتاجها الآن.

والعامل الأخير وهو غربة الإسلام موجود عندنا تماماً في جيلنا المعاصر كما كان في الجيل الأول، فكما أخبر الرسول ﷺ (أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)[٤٣]. فهذا العامل فعال جداً في حياتنا؛ وإن لم يكن فعالاً في عهد التابعين وتابعي التابعين ومن ورائهم الذين عاشوا تحت حكم الإسلام وتحت سلطان الإسلام، فلم يدفعهم ذلك إلى المجاهدة وإلى الارتفاع، بل ربما دفعهم وجود الإسلام وقوة الإسلام إلى الرخاوة وإلى الركون إلى الدنيا.

وهذا العامل في حياتنا عامل مؤثر جداً، ويمكن أن يكون فعالاً كما كان فعالا مع صحابة الرسول ﷺ ؛ حينما نشعر نحن أننا غرباء، وأن الإسلام جديد، وأننا عانينا وعشنا الجاهلية بكل ظلماتها وبكل انحطاطها، ثم أنقذنا الله عز وجل بالإسلام ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. فهذا الشعور نشعره نحن، وكل واحد فينا مر بالجاهلية وعاشها بشكل من الأشكال، ثم منَّ الله علينا بالإسلام.. فلا شك أننا نحس الفارق كبيراً، ونحس أن الله قد أنقذنا من مصيبة، كنا على شفا حفرةٍ من النار فأنقذنا الله منها.

---

٤٣ أخرجه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

الفارق بين جيل الصحابة والأجيال التي جاءت بعده

فإذا كانت العوامل التي أنشأت الجيل الأول كلها موجودة، فلماذا لا تفعل فعلها كما فعلت في الجيل الأول...؟ !

هذا الذي نستكمله مع كلمات الأستاذ سيد في هذا الفصل: **"لو كان وجود شخص رسول الله ﷺ حتمياً لقيام هذه الدعوة، وإيتائها ثمراتها، ما جعلها الله دعوةً للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، وما وكَّل إليها أمر الناس في هذه الأرض، إلى آخر الزمان..**

ولكن الله سبحانه تكفل بحفظ الذكر، وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله ﷺ، ويمكن أن تؤتي ثمارها. فاختاره إلى جواره بعد ثلاثةٍ وعشرين عاماً من الرسالة، وأبقى هذا الدِّين من بعده إلى آخر الزمان.. وإذن فإن غيبة شخص رسول الله ﷺ لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها.

فلنبحث إذن عن سببٍ آخر. لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الأول، فلعل شيئاً قد تغير فيه، ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه، فلعل شيئاً قد تغير فيه كذلك.

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن. القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثراً من آثار ذلك النبع.. فعندما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت (كان خلقه القرآن)

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذي يستقون منه، ويتكيفون به، ويتخرجون عليه، ولم يكن ذلك لأنه لم يكن للبشرية يومها حضارة، ولا ثقافة، ولا علم، ولا مؤلفات، ولا دراسات.. كلا! فقد كانت هناك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوربا تعيش عليه، أو على امتداده. وكانت هناك مخلفات الحضارة الإغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها، وهو ما يزال ينبوع التفكير الغربي حتى اليوم. وكانت هناك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك. وحضارات أخرى قاصية ودانية: حضارة الهند وحضارة الصين.. إلخ. وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالها وجنوبها، كما كانت اليهودية والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة.. فلم يكن إذن عن فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده.. في فترة تكونه.. وإنما كان ذلك عن "تصميم" مرسوم، ونهج مقصود.. يدل على هذا القصد غضب رسول الله ﷺ وقد رأى في يد عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- صحيفة من التوراة. وقوله (إنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني)[٤٤]."

الاختلاف الأول: النبع الصافي

فكان إذن قصد رسول الله ﷺ هو قصر ذلك الجيل الأول على القرآن ليستقي من ذلك النبع النقي وحده، وتخلص نفوسهم في فترة التكوين الأولى، ويستقيم عودهم على منهج القرآن وحده، وذلك كان السبب في غضبه ﷺ حينما رأى في يد عمر شيئاً آخر بعيداً عن

٤٤ رواه أحمد في مسنده. ج٣. ص٣٨٧. وحسنه الألباني في إرواء الغليل.

القرآن.. لذلك قصر رسول الله ﷺ الصحابة على القرآن. وحينما نقول "قصرهم على القرآن" نعني به السنة أيضاً، لأن السنة هي شارحة القرآن ومفسرة القرآن..

"كان رسول الله ﷺ يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي، الذي يتضمنه القرآن الكريم."

فهذه النقطة فارق كبير بين جيل الصحابة وبين كل الأجيال التي جاءت بعده. فجيل الصحابة استقى من النبع الوحيد النقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. بينما بقية الأجيال قد اختلطت فيها الينابيع، ودخل مع القرآن ثقافات المجتمعات الأخرى وتاريخ المجتمعات الأخرى وكل آثار المجتمعات الأخرى، وصُب في مجرى الثقافة الإسلامية روافد أخرى غير الرافد الإسلامي وحده، ومن ثم اختلطت الينابيع.

تلويث الفكر الإسلامي بالينابيع الأخرى

دخلت إسرائيليات أهل الكتاب، وثقافات الرومان وفلسفة اليونان، وأساطير الفرس، وخزعبلات المصريين، وغيرهم وغيرهم، وأثَّر ذلك بصورة أو بأخرى في تلك الأجيال. وكلما بَعُد الجيل الجديد عن الجيل الأول النقي، كلما ازدادت الرواسب، وكلما عُكِّرت الثقافة، وكلما دخل في مجرى الثقافة الإسلامية ملوثات جديدة لوثت الفكر الإسلامي...

والذي يدرس التاريخ الفكري في المجتمعات الإسلامية يرى كيف أن كثيرا من هذه الثقافات المنحرفة دخلت مبكراً في مجرى الثقافة الإسلامي منذ أن فُتحت الشام وفتحت الفرس وفتحت مصر، ودخل كثيرٌ من الناس في الإسلام خوفاً أو طمعاً، أو دخلوا وهم يحملون كثيراً من أفكارهم القديمة وتصوراتهم القديمة، أو دخلوا حقداً على الإسلام لكي يحطموه من داخله، فادَّعوا الإسلام، ولكنهم حملوا معهم سمومهم إلى حياة وفكر المسلمين....

حدثت أفكار عبد الله بن سبأ اليهودي التي بكَّرت منذ عهد عثمان لكي يؤلهوا علياً ويتعصبوا لأهل البيت، ويوجدوا ذلك التيار البشع الذي مازال يعيش معنا حتى الآن، وهو تيار التشيع لأهل البيت، والذي أدى إلى تكفير الصحابة جميعاً ماعدا سبعة عشر صحابياً هم الذين اعتبروهم أولياء لعليّ، أما بقية الصحابة من أول أبي بكر إلى آخرهم فقد كفروا جميعاً.. ثم رفعوا درجة الولي عن درجة النبي، وقالوا إن الولاية أشد أهمية في حياة البشر من النبوة، فالنبوة مؤقتة والولاية دائمة، وحاجة البشرية إلى الولاية أكثر من حاجتها إلى النبوة، ولذا اعتبروا درجة الولي أكبر من درجة النبي، وأعطوا للأولياء وللأئمة الاثني عشر كل أحكام وعصمة الأنبياء وعلم الأنبياء، بل قالوا إن الأولياء يعلمون أكثر مما يعلمه الأنبياء.

فدخل هذا التيار في تاريخ الحياة الإسلامية الفكري بهذه الصورة العجيبة، لكي يُفسد على المسلمين دينهم، ويشتتهم. ويوجد ما نسمعه حينما نقرأ التاريخ الإسلامي من الأفكار الغريبة على عقيدة التوحيد وعلى فكر النبوة.

حينما نقرأ رسائل إخوان الصفا؛ هذه الرسائل المليئة بالكفر والمليئة بالشطحات المقصودة، وكانوا جمعية سرية ثقافية، وكانوا ينزعون إلى من يجدون فيهم الذكاء والفطنة لكي يفسدوا أفكارهم بهذه الأفكار العجيبة.

فضلاً عمن سُموا بالفلاسفة من أول ابن سينا والفارابي والكندي وغيرهم؛ كيف حاولوا أن يصبغوا الفكر الفلسفي اليوناني بصبغة إسلامية؛ فنقلوا كل وثنيات اليونان إلى قلب العقيدة الإسلامية، وحدث تغيير وتلويث شنيع لعقيدة التوحيد في حياة المسلمين.

ثم حينما ندرس تاريخ الفرِق الكبيرة جداً على عرض التاريخ الإسلامي؛ من قدرية ومرجئة وخوارج وشيعة وغيرهم. وكل فرقة من هؤلاء تتمزق فرقاً كثيرة وهكذا..

لا شك أن هذا كله كان له أثر كبير جداً في عقيدة المجتمعات الإسلامية، في صراعهم مع أهل السنة الذين لم يستطيعوا أن يضبطوا إيقاع العالم الإسلامي على التصور الصحيح، وخاصةً أن بعض الخلفاء أسهم إسهاماً فعالاً في تحريف التصور الإسلامي والعقيدة الإسلامية، كما حدث من المأمون والواثق والمعتصم، وحدثت فتنة خلق القرآن، وحاولوا نشر فكر المعتزلة.. فلا شك أن أشياء كثيرة قد حدثت من الخلفاء -كما حدث في الخلافة الفاطمية وغيرها- حدثت أشياء أفسدت نقاء النبع الذي استقى منه الجيل الأول. فالجيل الأول استقى من النبع الصافي، بينما اختلطت الينابيع فيما بعد، ودخلت كل رواسب الحضارات والثقافات إلى العالم الإسلامي، واختلط كل ذلك بتفسير القرآن، ووُجد علم الكلام، هذا العلم الذي يراه علماء أهل السنة المخلصون دخيلاً على الفكر الإسلامي ولا يجوز للمسلم الحق أن يتلقى عقيدته من علماء الكلام، لأن علم الكلام قائم على المنطق الأرسطي وعلى أساليب الفلسفة وغيرها. وحدث أن اختلطت المنابع الإسلامية بنزعات بعيدة عن نقاوة الإسلام وعن إدراك الحق، وما من شك أن اختلاط النبع الأول كان عاملاً أساسياً من عوامل ذلك الاختلاف البيِّن بين الأجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد.

ونحن إذا أردنا أن نحاكم التاريخ الإسلامي، ومن ورائه نحاكم خلفاء المسلمين وعلماء المسلمين. وتساءلنا كيف حدث هذا في المجتمع المسلم، وكيف سُمح لهذه الأفكار أن تتسلل وأن تنتشر، وأن يكون لها قوة ووجود داخل المجتمع الإسلامي؟ لانتهينا إلى أن الأمر لا يمكن أن يكون قد حدث دون فقدان للوعي عند خلفاء المسلمين وعند علماء المسلمين.

صحيح أن هناك ما يفسر بعض المصاعب؛ وهو دخول مجتمعات كبيرة جداً إلى العالم الإسلامي ودخولها في الإسلام؛ لكن هذا لا يبرر أن تُترك هذه الجموع التي دخلت في عقيدة الإسلام وفي المجتمع المسلم، أن تُترك بلا تربية، وأن تُترك بلا تعليم، وأن تترك بلا متابعة. لكن يبدو أن سعة المجال وكثرة الأعداد وانشغال المسلمين بالفتوحات أدى إلى أن تضعف قبضتهم على مجرى الأمور، وبالتالي تسلل إلى صلب العالم الإسلامي وإلى روحه وإلى قلبه تلك الأفكار والمعتقدات. لكني لا أعتقد أن هذا يبرئ الخلفاء والعلماء من تهمة الإخلال وعدم الوعي الكامل بالمسؤولية.

كان من الممكن أن يحدث ضبط وأن يحدث إصرار على أن تسود عقيدة التوحيد بنقائها، ويصر على ذلك الخلفاء والعلماء. ولا شك أنهم لو بذلوا جهداً كبيراً لأعانهم الله في ذلك. ولكن الخلفاء -إلا من رحم الله- غرتهم السلطة، وغرهم الملك، وغرتهم الدنيا، ثم تبعهم الناس وانشغلوا بالدنيا، ولم يعد الإسلام أو التصور الإسلامي هو الذي يحكم الحياة بقوة كما كان في عهد الخلافة الراشدة.. وإذا كان الخلفاء يتحملون عبئاً كبيراً، فالعلماء أيضاً يتحملون عبئاً آخر، وإن كانت هناك توازنات كانت تجبر بعض العلماء على تفويت بعض المواقف. لكن -كما قلنا- أنه في النهاية فإن الخلفاء والعلماء وبقية الرعية كانوا جميعاً شركاء في وجود هذه التيارات المتبجحة التي وصلت إلى حد أن يأخذوا الحجر الأسود من مكانه ويهربوا به لسنوات عديدة... وقد فعلها القرامطة حينما دخلوا إلى المسجد الحرام وسفكوا دماء الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود وأخذوه.. كيف حدث هذا؟؟ كيف يمكن أن تكون سلطة الإسلام قوية ويحدث هذا؟؟ فضلاً أن

يكون هناك أصحاب فكر منحرف بهذا الشكل يصلون إلى الأماكن المقدسة ويكون لهم شوكة ويكون لهم قوة بهذا الشكل.. كيف حدث ذلك؟؟

لا شك أنه كان هناك تقصير في الإدارة، إدارة العالم الإسلامي، ممثلة في الحكام وممثلة في العلماء الذين لم يبذلوا الجهد المطلوب في وقاية العالم الإسلامي وفي المحافظة عليه وفي صيانته من كل تيار دخيل..

فإذا كان رسول الله ﷺ قد نجح في أن يقصر الجيل الأول على النبع الصافي؛ فإن بقية من جاءوا بعد ذلك لم يتمكنوا من أن يُبْقوا ذلك النبع الصافي مصدر العلم ومصدر التربية ومصدر الإدراك..

وهذا الاختلاف بين قصر الجيل الأول على القرآن وبين الأجيال الأخرى التي اختلطت فيها الينابيع؛ أدى إلى ذلك الاختلاف النوعي بين الأجيال وبين الجيل الأول، وما ترتب على ذلك من انحدار الخط من القمة إلى السفح حتى ارتدت الأمة في يوم من الأيام إلى الجاهلية مرة أخرى كما نعيش نحن الآن..

ولا شك أن الصحابة حينما تعاملوا مع القرآن كانوا يتعاملون معه -كما قلنا- بروح خاصة وبمشاعر خاصة نلخصها فيما يلي:

أولاً: أنهم كانوا يمجّدون الله سبحانه تمجيداً يليق به، ويوقرونه توقيراً يليق بألوهيته، وهذا كان يجعلهم يتلقون كتاب الله ويتلقون دين الله وكلمات الله بهذا التمجيد وهذا التوقير وهذا الإنصات العميق لكل ما يأتيهم من عند الله...

ثانيا: أنهم كانوا على يقين من معية الله لهم، ونظره إليهم، وأن الله قد منّ عليهم بنعمة الهداية، ونعمة النبوة، ونعمة القرآن، وأن ذلك كله هدية ربانية، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عتامة الجهل إلى وضاءة العلم، ومن شقاء الجاهلية والهوى إلى نعيم الإيمان والإسلام.. كل هذا كان له آثار عميقة في حياتهم، وكانوا يرون رسول الله ﷺ وهو يمثل قمة العبودية والاستسلام لرب العالمين، الأمر الذي جعلهم يعيشون وقد ملأهم الإحساس بمعية الله ورقابة الله ورعاية الله.

ثالثا: أنهم كانوا حينما يأتون إلى القرآن كانوا يأتونه متخلصين من كل ما كانوا عليه، أو من كل المقررات السابقة كما سنشرح بعد قليل.

رابعاً: أنهم كانوا زاهدين تماماً في أي مصدر آخر غير القرآن وغير الرسول ﷺ.

خامساً: أنهم ترجموا القرآن إلى حياة حقيقية معيشة، فلم يكونوا يأخذونه كمعلومات أو كفلسفة.

الاختلاف الثاني: منهج التلقي للتنفيذ

وهذا هو العامل الثاني، أو الاختلاف الثاني بعد اختلاف طبيعة النبع والينابيع التي استقت منها الأجيال التي جاءت بعد الجيل الأول..

الاختلاف الثاني: هو منهج التلقي لهذا القرآن.. **"إنهم -في الجيل الأول- لم يكونوا يقرأون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع.. لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته.. إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة**

التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقى الجندي في الميدان "الأمر اليومي" ليعمل به فور تلقيه!.."

وهذا طبعاً اختلاف كبير جداً. حينما يسمع الإنسان الآن محطات إذاعة القرآن الكريم على كافة محطات العالم الإسلامي، يقف مدهوشاً من كمية العلم التي ترد في هذه المحطات؛ سواء عن عقيدة التوحيد الخالصة أو في ضرورة اتباع الرسول ﷺ أو في الرؤية العميقة لاختلاف المنهج الإسلامي عن بقية المناهج وفي عظمة المنهج الإسلامي، وفي عظمة وحكمة التشريعات الإسلامية، وفي عظمة الصحابة، وفي خسارة الأجيال التي تنكبت الطريق، ومعرفة السبب فيما نحن الآن عليه من ضحالة وضنك.. كل هذا واضح وضوح الشمس في هذه المحطات..

ولكن أين هو واقع الذين يقولون هذا الكلام؟ إن الذين يتكلمون في محطات الإذاعة هذه هم الذين يسندون النظم الجاهلية، وهم الذين يفتون للطواغيت ليعطوهم شرعية الوجود، ويعطون لأوامرهم شرعية السمع والطاعة.. فهؤلاء الذين يُسمون علماء إنما هم جامعو معلومات.. يأخذون الإسلام للثقافة وللاطلاع.. وحينما تسمع في برنامج بلاغة القرآن، وبلاغة السنة، تقف مدهوشاً... من دقة الإدراك: لماذا استعمل الرسول ﷺ تعبير "إن" أو "من"، أو هذا الفعل المضارع.. تجد دقة في إدراك حكمة الكلام ومراميه وأثره وكذا وكذا.. ثم أين هؤلاء؟! ماذا يفعلون في هذا المجتمع؟ إنهم إن لم يكونوا جنوداً مخلصين للطواغيت فهم يُعتبرون هملاً لا يؤثر في حياة الناس.. أحسنهم من لا يؤثر في حياة الناس.. وهذا وحده جريمة، لأنه مطلوب من العلماء ألا يكتموا ما عندهم من العلم.. فما بالك بهؤلاء الذين يعطون صكوك الطاعة وصكوك الغفران إلى كل ما يحدث في واقعنا المعاصر؟ !!

فلا شك أن الأجيال التي جاءت بعد الجيل الأول أخذوا القرآن للدراسة وللثقافة، وأخذوه للتذوق والمتاع.. يتذوقون بلاغته وأدبه وما فيه من إعجاز بياني وغيره.. كما أنهم أيضاً يستكثرون منه كزاد للدراسة يأخذون به شهادات الدكتوراه وشهادات العالمية.. ثم يترقّون بها في أعين الناس ليأخذوا من ورائها مكسباً مادياً.. وإذا كان التابعون وتابعو التابعين وأجيال المسلمين الأوائل لم يكونوا يأخذون القرآن بنفس الصورة التي أخذها الصحابة، لكنهم كانوا يحاولون... يحاولون أن يعيشوا القرآن بقدر ما يستطيعون، وإن كانت الدراسة قد أخذت قسطاً كبيراً من حياتهم.. اهتموا كثيراً بعدد آيات القرآن وعدد حروف القرآن.. وهذا لم يشغل الصحابة يوماً ما..

لكن جاء من المسلمين ومن أجيال المسلمين من اهتموا كثيراً أن يقولوا لك "عند هذه الكلمة يوجد نصف القرآن أو ربع القرآن، وكذا.." صحيح أن الاهتمام بالقرآن وبكل ما حول القرآن شيء عظيم في ذاته؛ ولكن إذا كان هذا سيسحب قوة التفاعل مع القرآن لحساب هذه الشكليات فلا شك أنه يكون خسارة كبيرة..

فالأجيال التي جاءت بعد الجيل الأول درسوا القرآن للدراسة وللتذوق والمتاع، أو للتبرك ولمنع الحسد، ولمنع المصائب... بينما عند الجيل الأول كانت هذه الأمور موجودة؛ كانوا يتبركون بالقرآن وكانوا يتذوقون القرآن؛ ولكن هدفهم الأول كان هو الطاعة للقرآن والحياة مع القرآن.. وهم حينما كانوا يعيشون مع القرآن كما يعيش الجندي في الميدان -ينفذ الأمر فور تلقيه- تحقق لهم في نفس الوقت العلم والمتاع والتذوق بكل أبعادها وبكل أعماقها..

فالفارق بين الجيل الأول وغيره أن الجيل الأول تلقى للتنفيذ، بينما الأجيال الأخرى كانت تتلقى للدراسة والمتاع.. التلقي للتنفيذ كان هو سمة المجتمع الأول؛ وظلوا كذلك يعيشون مع القرآن وينفذونه حتى بعد وفاة رسول الله ﷺ.

فكانت حياتهم مع الرسول ﷺ وما بعد الرسول ﷺ أمراً عجيباً... كانت كلمة من القرآن، أو كلمة من رسول الله ﷺ كافية لتحويل مسار الأمة أو لتحويل مسار الأفراد.. وكما رأينا في تحريم الخمر؛ انتهى المسلمون عن شرب الخمر حينما سمعوا منادياً يسير في طرقات المدينة ويقول "ألا إن الخمر قد حُرمت".. انتهى الأمر في لحظة حينما نزل قول الله ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] قالوا: انتهينا يا رب.. لم يحتج الأمر لا إلى شرطة ولا جيش ولا محاكم ولا أحكام بالقتل كما حدث عندما حاولت أمريكا أن تفعل، ولم تنجح وأرجعت الخمر مرةً أخرى بعد أن فعلت كل ما استطاعت من سجن وإعدام، لكن لأن الأمر لم يكن ديناً ولم يكن التلقي بقلوب مؤمنة من ربهم وسيدهم لم يخضع الأمريكان واضطرت الحكومة الأمريكية إلى إباحة الخمر بعد ذلك..

ورأينا كيف تلقت المسلمات أمر الحجاب؛ وكيف ذهبن إلى رسول الله ﷺ وهن معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان.. مع أنه كان يمكن أن يذهبن أولاً إلى رسول الله ﷺ ويسمعن آيات الحجاب ويساومن في تفاصيل الأمر بطريقة النساء المعلومة وحرصهن على الزينة وكراهيتهن لإخفاء شعورهن، كان يمكن ذلك، وخاصةً أن النساء في الجاهلية كن يفعلن ما تفعله الجاهليات الآن من المسافحة بصدورهن وضرب الخلخال وإثارة الفتنة والخضوع في الكلام... لكن الصحابيات رضوان الله عليهن ما أن سمعن أن آيات الحجاب نزلت حتى تمنطقن بمناطقهن وقسموها واحتجبن بها وذهبن إلى رسول الله ﷺ معتجرات.. "كأن على رؤوسهن الغربان"[٤٥].. وهذا تعبير السيدة أم سلمة وهو تعبير فني ودقيق جداً، يوحي بأن ما يهمهن هو التنفيذ الفوري، لا الشكل والأناقة التي تحاول المرأة أن تبدو بها... ليسمعن من رسول الله ﷺ الآيات التي نزلت في الحجاب.. لكننا نرى الآن المرأة التي تتحجب، لا تغفل عن الزينة في الحجاب الذي تلبسه، أو خصلة الشعر التي تحرص على إبدائها، أو الماكياج الذي تضعه وهي مرتدية للخمار!!! ليس هناك أي إدراك لمعنى الحجاب.. معنى الحجاب هو وقاية المرأة من الفتنة ووقاية الرجل من الفتنة أيضاً ووقاية الشارع الإسلامي من الفتنة.. لكن اللاتي يتحجبن اليوم كثير منهن يحرصن على الأناقة والزينة.

لكن الصحابة والصحابيات كانوا يتلقون الأمر للتنفيذ؛ التنفيذ الأمين جداً، بل قمة التنفيذ..

حينما تحولت القبلة؛ تحول المسلمون وهم ركوع للقبلة الجديدة، ولا أعرف كيف حدث هذا.. لأن الذين كانوا في المدينة كانوا يتوجهون لبيت المقدس، والاتجاه الجديد عكسي تماماً للاتجاه القديم.. فكيف تحولوا وهم ركوع إلى القبلة الجديدة؛ وأين موقع الإمام؟ لكنهم كانوا ينفذون الأمر تنفيذاً دقيقاً.. كانوا يصلون فجاءهم رجل وقف على باب المسجد "ألا إن القبلة قد حولت إلى الكعبة" فتحولوا وهم ركوع.. وهذا على مستوى المجموع، ولم يكن على مستوى أفراد.. كانت هذه الروح موجودة على مستوى المجموع وليس على مستوى الأفراد.. أما على مستوى الأفراد فحدث ولا حرج.. كانت هناك صور عجيبة في حياة الصحابة كأفراد في تلقيهم من الله وتلقيهم من رسول الله ﷺ.

سيدنا علي في غزوة خيبر؛ حينما قال الرسول ﷺ (غداً أعطي الراية رجلا يحب الله وسوله ويحبه الله ورسوله)، فبات الصحابة جميعاً يشرئب كل واحد منهم أن يكون ذلك الرجل. ويقول عمر "لم أشتهِ الإمارة يوماً إلا ذلك اليوم".. ثم أعطى الرسول ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وكان في عينه رمد فطيبها الرسول ﷺ وقال له (امض ولا تلتفت..) فبعد أن خطا عليٌ بعض خطوات، خطر له أن يسأل رسول الله ﷺ "علام أقاتل الناس؟" فوقف ولم يلتفت ونادى بأعلى صوته سائلا ذلك السؤال.. تصرف عجيب، تصرف نعتبره

٤٥ سنن أبي داود. ج٤. ص٦١.

نحن بتفكيرنا تصرفا غير مفهوم.. نحن نتصور أن من الأدب ألا نعطي ظهرنا للرسول ﷺ ونحن نكلمه.. ونتفلسف... الصحابة لم يكونوا يشغلون عقولهم كثيرا في قضية السمع والطاعة.. قال له الرسول ﷺ "ولا تلتفت" إذن لا يلتفت، ويسأل وظهره لرسول الله ﷺ، ويسمع الإجابة ويمضي ولم يلتفت.. تصرف لا يفعله إلا الصحابة.. لكننا اليوم ندخل عقولنا دائماً وذواتنا وفلسفتنا.. لأن المزاج يتدخل والتقدير السيىء يتدخل، ولأن الالتزام ليس هو الهدف الأول الممتزج بالروح والممتزج بالقلب والعقل والكيان كله...

هكذا كان الصحابة يفعلون.. واقرأوا تاريخ الصحابة لتروا نماذج عجيبة في هذا الأمر؛ تروا أنهم كانوا يتلقون كل شيء لينفذوه تنفيذاً حرفياً، كي يضمنوا صدق العبودية لله عز وجل..

فالتلقي للتنفيذ كان هو سمة وصفة المسلمين الأوائل من الجيل الأول، بينما الدراسة والمتاع كانا سمة الأجيال التي جاءت بعدهم. ولذلك وجدنا التفريط يأتي في سلوكيات المسلمين بعد الجيل الأول.. ودخلت الترخصات، ودخلت الكثير من الأمور في حياة المسلمين، وظلوا ينحدرون حتى وصلوا إلى ما وصلنا إليه، فأصبح الإسلام لعبة ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ٥١]. هذا هو سمت من يسمون بالمسلمين في الأجيال الأخيرة؛ إنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً... يعلنون عن السحور في كازينوهات الهرم؛ سحور على الموسيقى...! على أنغام راقصة!! تتفنن بيوت الأزياء في ابتكار أزياء للمحجبات، وتقيم عروضا لأزياء المحجبات.. أصبح الإسلام لهواً ولعباً، ولم يعد ديناً.. فلا شك أن الاختلاف بين الجيل الأول الذي تعامل مع الحقائق الإيمانية بهذه الروح العجيبة، وبين الأجيال الأخرى كان هو الفارق الذي أحدث الاختلاف في النوعية..

"هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ.. كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من المعرفة، لم تكن لتُفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع.. وكان ييسر لهم العمل، ويخفف عنهم ثقل التكاليف، ويخلط القرآن بذواتهم، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف، إنما تتحول آثاراً وأحداثاً تحوِّل خط سير الحياة."

فلا شك أن العيش مع القرآن بروح العبودية، وبروح التلقي للتنفيذ، وبروح الخلوص من الذات ومن الفكر الإنساني ومن الاجتهاد الإنساني يُحدث من البركة في حياة المجتمع المسلم، ويُحدث من الفرقان والنور ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩] يحدث من ذلك ما شاء الله أن يكون.. نعم إن العيش مع القرآن بروح العبودية وروح التلقي للتنفيذ يحدث للإنسان نورا يرى به الأشياء، ويُحدث من السكينة في قلب الإنسان وقلب المجتمع ما لا تقدر على وصفه الكلمات وذلك إنما يكون حينما يعيشون عبيداً لا يناقشون ولا يجادلون ولا يستحدثون ولا يغيرون مما وُجِّهوا إليه وما أُمروا به.. فضلاً أنه يُحدث من الطمأنينة والاقتناع بما يرد عليهم ما يجعل حياتهم تسير سهلة مُيسرة.. ففرقٌ كبير بين أن تتلقى الأمر وفي نفسك منه شيء، أو أنك تحتاج إلى مناقشته وإلى إدراك حكمته، وبين أن تتلقاه وأنت على يقين منه واطمئنان وثقة.. الفرق كبير في الأداء، وفي تيسير التكاليف.. فالصحابة كانوا يتلقون الأمر للتنفيذ، بينما كانت الأجيال التي جاءت بعدهم تتلقاه بغير ذلك التصور وبغير هذه الروح..

"إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يُقبل عليه بهذه الروح. روح المعرفة المُنشئة للعمل. إنه لم يجيء ليكون كتاب متاعٍ عقلي، ولا كتاب أدبٍ وفن، ولا كتاب قصةٍ وتاريخ -وإن كان هذا كله من محتوياته- إنما جاء ليكون منهاج حياة. منهاجاً

إلهياً خالصاً. وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء ١٠٦]."

وكما قلنا قبل ذلك؛ إن عدم نزول القرآن جملةً واحدة كان له أثر كبير في التعايش مع القرآن زمناً طويلاً، ومع آيات القرآن زمناً طويلاً. وتحولت آيات القرآن إلى أحداث وإلى مواقف وإلى انفعالات أحدثت في قلوب وحياة الجيل الأول ذلك الذي نراه في حياة الصحابة.. فكما قلنا: كان الصحابي يبيت وهو يتوقع في الصباح أن ينزل فيه قرآن؛ أو أن يعاتبه الله في أمر، أو أن يُنزل الله حكماً ليحل مشكلة له، أو يأمر أمراً جديداً يترتب عليه تحولاً في حياته وفي سيره.. هذا الشعور المتوتر المترقب المتشوف المتشوق كان يصنع في قلوب الصحابة روحاً من الحيوية الدائمة، وعدم الغفلة وعدم الاستنامة وعدم الاسترخاء وعدم النمطية التي عاشتها الأجيال التي جاءت بعد ذلك الجيل.

أما الأجيال التالية فكانوا يعيشون والقرآن كله بين أيديهم، يقرؤونه حين يريدون، ويضعونه على الرف حينما يريدون، ولا يختلط القرآن بحياتهم الواقعية اليومية كما اختلط بحياة الصحابة في حياتهم الأولى.. فلا شك أن هذا القرآن الذي نزل مُفرقاً، ومكث طويلاً في حياة المسلمين كان له أثر كبير في أن يتحول إلى مفاعل يفعل في نفوس المسلمين حياةً وحيويةً وتغييراً مستمراً في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم وحياتهم..

"لم ينـزل هذا القرآن جملةً، إنما نزل وفق الحاجات المتجددة، ووفق النمو المطَّرد في الأفكار والتصورات، والنمو المطَّرد في المجتمع والحياة، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية.. وكانت الآية أو الآيات تنـزل في الحالة الخاصة، والحادثة المعينة، تُحدِّث الناس عما في نفوسهم، وتُصوِّر لهم ما هم فيه من الأمر، وترسم لهم منهج العمل في الموقف، وتصحح لهم أخطاء الشعور والسلوك، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم، وتعرِّفَه لهم بصفاته المؤثرة في الكون، فيحسون حينئذ أنهم يعيشون مع الملأ الأعلى، تحت عين الله، في رحاب القدرة، ومن ثمَّ يتكيفون في واقع حياتهم، وفق ذلك المنهج الإلهي القويم."

وحدث هذا مع الصحابة في المدينة كثيراً.. ونذكر قصة الجلاّس بن سويد[٤٦] -وكان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك- عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَتْ أُمُّ عُمَيْرِ بْنِ سَعِيدٍ عِنْدَ الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْدٍ فَقَالَ الْجُلَاسُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، فَسَمِعَهَا عُمَيْرٌ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَى إِنْ لَمْ أَرْفَعْهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ فِيهِ، وَأَنْ أُخْلَطَ بِخَطِيئَتِهِ، وَلَنِعْمَ الْأَبُ هُوَ لِي، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَا الْجُلَاسَ فَعَرَفَهُ وَهُمْ يَتَرَحَّلُونَ فَتَحَالَفَا، فَجَاءَ الْوَحْيُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَكَتُوا فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ كَانُوا يَفْعَلُونَ لَا يَتَحَرَّكُونَ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ، فَرُفِعَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤]، ويجثو

---

٤٦ مصنف عبد الرزاق. ج١٠. ص٤٥.

الجلاس على ركبتيه، فيقول "بل أتوب يا رسول الله، بل أتوب، صدق عُمير وكذبت يا رسول الله"، ويظل يترجى حتى يتوب الله عليه، ويحسن إسلامه بعد هذا، ويقول "جزى الله عميرا عني خيراً، فقد نجاني من الكفر".. موقف عجيب بلا شك.. فنزول الوحي بهذا الشكل على الصحابة ليقرر الواقع بهذا الشكل أمر لا شك كان يحرك نفوس الصحابة، ويجعلهم يسيرون وهم خائفون على أنفسهم أن يسمعوا شيئاً يُغضب الله، أو يُغضب رسول الله ﷺ في الخفاء، فينزل عليهم بسبب ذلك قرآن يُتلى إلى يوم القيامة..

فلا شك أن حياة الصحابة مع القرآن جعلهم يتلقونه للتنفيذ، ويعيشون معه بهذه الروح التي عاشوها..

"إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول.. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه، وما من شكٍ أن هذا العامل الثاني كان عاملاً أساسياً كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المُمَيَّز الفريد."

هل من الممكن أن يتكرر هذا الأمر في أي جيلٍ من الأجيال؟؟ كيف نستطيع أن نوجد هذه الروح المترقبة القلقة المتوترة المتشوفة التي كان يحياها أفراد الجيل الأول حينما كان الوحي يتنزل مفرقاً، وحينما كان "الخط الساخن" مفتوحاً بين السماء والأرض، وحينما كان جبريل يتنقل بين الأرض والسماء يحمل أوامر الله، كيف تتكرر هذه المسألة؟ بالتأكيد أنها لا يمكن أن تتكرر، وأن هذه الظروف كانت وقفاً على التنزيل الأول وعلى الوحي الأول وعلى الفترة الأولى، وبالتالي فإن هذا القلق وهذا التوتر ليسا ممكنين بالصورة التي كانت في الجيل الأول، ولكن هل هذا ممتنع امتناعاً كاملاً، أم أننا نستطيع أن نجعل قلوبنا في تعاملها مع الله الذي يراها في كل لحظة، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]..

حينما نعيش بهذه الروح يمكن أن نعيش مع الله، وأن تمتلئ قلوبنا بمشاعر الخوف والتوتر ما يجعلنا نخاف أن يكشفنا الله عز وجل ويفضحنا، وأن يُعلم إخواننا بما في قلوبنا، وأن كل إنسانٍ مهما خفي على الناس أمره فإنه لا بد أن يفتضح يوماً ما إذا أصر على الاعوجاج وعلى الانحراف.

وكم ستر الله عز وجل على الصحابة. ولكن أيضاً كم كشف من الأمور في عهد الصحابة...! فكذلك كم يستر الله علينا، ولكن أيضاً كم يفضح من الناس ولو بعد حين.. فلو أننا استشعرنا رقابة الله علينا لتعاملنا مع الله بنفس التوجه وبنفس الخوف وبنفس التوتر وبنفس التشوف والتشوق الذي كان للصحابة منه نصيبٌ كبير.

إنه من الممكن أن نستحدث في حياتنا شيئاً مما كان يجده الصحابة في أنفسهم وذلك حينما نحس أن القرآن مازال يخاطبنا الآن بشخوصنا وبأوضاعنا وبواقعنا كما كان يخاطب الجيل الأول، وأن الله عز وجل حي لا يموت، وباقٍ لا يزول، وبالتالي فإن الله الذي كان يرى الصحابة هو الذي يرانا، والله الذي كان يُنزِّل القرآن ليثني أو ليفضح هو الذي يستطيع الآن أن يلهم القلوب الرضى عنا، أو أن يفضحنا ولو في عقر دارنا.. فإذا عشنا مع الله بإحساس أنه قادر أن يفعل ذلك كما فعل قبل ذلك، فإننا نستحدث هذا الشعور في قلوبنا، ونعيش قريباً من مشاعر الصحابة يوم أن تنزل عليهم القرآن فهل نحن فاعلون؟

الاختلاف الثالث: الانخلاع الكامل من الجاهلية والولاء الكامل للإسلام

ثم يقول الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- **"هناك عامل ثالثٌ جدير بالانتباه والتسجيل.**

لقد كان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديدًا، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاكّ الحذر المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام! وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد، فإذا غلبته نفسه مرة، وإذا اجتذبته عاداته مرة، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة.. شعر في الحال بالإثم والخطيئة، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني."

"كان الرجل حينما يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية.." ولعل هذا الذي يفسر كلمة الصحابة حينما كانوا يقولون "أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن"[٤٧]. كان الواحد منهم حينما يتحول إلى الإسلام، يسعى إليه وقد امتلأ قلبه بالإيمان. فإذا تلقى القرآن فعل في نفسه ما نسمع عنه.. لم يكونوا يقرأون القرآن أولاً ليؤمنوا به؛ وإنما كانت تستحوذ عليهم الحقيقة الكبرى وحقيقة الإيمان، وتستحوذ عليهم الدعوة، وكان يستحوذ عليهم التصور الجديد. ثم يسمعون القرآن فيعيشون به من خلال وضاءة الإيمان ونور الإيمان الذي كان ينير جنبات نفوسهم وقلوبهم.

فكان الرجل إذا دخل الإسلام ترك على عتبته كل ما كان عليه في الجاهلية، ونظر إليه نظرة المستريب الشاك. فكانوا يعرفون أنهم كانوا على ضلالة، وانتقلوا إلى الهدى، وأنهم كانوا في ظلام وانتقلوا إلى النور، وكانوا في انحطاط وارتقوا إلى الأفق الأعلى. كان هذا الشعور الذي يعيشونه يجعلهم يتركون كل شيء كانوا عليه في الجاهلية، بل ينظرون إليه نظرة الحذر الخائف الشاك، ولذلك كثرت تساؤلاتهم في القرآن عن كل شيء يواجهونه، حتى نُهوا عن ذلك، لأنهم كانوا قد ضاقوا بكل ما كانوا عليه، وكانوا يشعرون أنهم أمام قيادة جديدة وتصور جديد وفهم جديد وحياة جديدة ينبغي أن يستفتوها في كل صغيرة وكبيرة.

هذا التحرج من كل ما كانوا فيه من الجاهلية أمام واقعهم الجديد هو الذي صنع الجيل الأول. كانوا يخافون أن يُقدِموا على شيء قبل أن يستفتوا، لأن الدين الذي اعتنقوه كان يصنع في نفوسهم تحرجاً وتخوفاً يجعلهم دائماً يقفون موقف الجندي، وموقف الخائف من أن يخطو خطوةً خاطئة واحدة بعد أن منَّ الله عليه بالإسلام. ولعل هذا أيضاً هو الذي يفسر معنى الولاء الجديد الذي امتلأت به قلوب العصبة المؤمنة حينما آمنت بهذا الإسلام.. أصبح ولاؤها لهذا الدين، ولقيادة هذا الدين، ولتصورات هذا الدين، ولقيم هذا الدين، ولتوجيهات هذا الدين. ونفضوا أيديهم تماماً من كل القيادات القديمة؛ شيخ القبيلة وعصبية القبيلة وقيم الجاهلية وعادات الجاهلية وأخلاق الجاهلية. تركوا هذا كله وداسوه بأقدامهم، ودخلوا بروحٍ جديدة إلى الإسلام، بتصور جديد وبولاء جديد.

فالولاء الصافي لهذا الحق كان سمة الذين يدخلون الإسلام أول مرة.. لم يدخلوه وقد جَرُّوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وولاءهم القديم.. لم يأتوا ليساوموا على الإسلام، وليقولوا "نعبد إلهك يوماً وتعبد آلهتنا يوماً" أو "خفف عنا من التكاليف...!" أو غير ذلك.. لم يفعلوا ذلك، وإنما أسقطوا كل شيء قديم وتحرجوا منه، ونظروا إليه نظرة مستهينة مستقذرة، وانطلقوا إلى النور الجديد والأفق الجديد والطُهر الجديد ليتلقوا منه..

---

٤٧ السنن الكبرى للبيهقي. ج٣. ص١٧٠.

العزلة الشعورية والعزلة العملية

"كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنه عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية، فهو قد انفصل نهائياً من بيئته الجاهلية واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية. حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي. فالعزلة الشعورية شيءٌ والتعامل اليومي شيءٌ آخر."

وهذه القضية من أهم القضايا التي تَخفى على كثير ممن يتلقون الإسلام في هذا العصر؛ إنهم لا يعرفون ولا يفرقون بين العزلة الشعورية وبين العزلة العملية. فالعزلة الشعورية شيء، والانسلاخ من الواقع شيء آخر؛ فمطلوب من المسلم أن يتحدد ولاؤه للدين الجديد، وأن تتحدد عقيدته بنور التوحيد وبصور التوحيد الجديد، وأن يتنقى قلبه من كل ما كان عليه من عقائد الشرك قبل ذلك. أما في عالم التعامل فالأمر يحتاج فقهاً متحركاً مع الواقع ومع المراحل ومع الأوضاع. ويحكم كل ذلك القواعد الشرعية والأصول الشرعية. ويحتاج المسلم وتحتاج الجماعة المسلمة في هذا الوقت إلى الفقه الحركي، وليس إلى فقه الأوراق. الفقه الحركي الذي يجعل المسلم يتحرك من خلال قياساتٍ دقيقة لاحتياجات المرحلة واحتياجات الجماعة، وليس احتياجات اللحظة ولا احتياجات الفرد، وبالتالي تُنَظِّم حياته مجموعة من التصورات الدقيقة التي تحكم تعاملاته مع الجاهلية..

"وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية، وعُرْفها وتصورها، وعاداتها وروابطها، ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود. وينشأ من الانضمام إلى التجمع الإسلامي الجديد، بقيادته الجديدة، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته.

وكان هذا مفرق الطريق. وكان بدء السير في الطريق الجديد، السير الطليق مع التخفف من كل ضغط للتقاليد التي يتواضع عليها المجتمع الجاهلي، ومن كل التصورات والقيم السائدة فيه. ولم يكن هناك إلا ما يلقاه المسلم من أذى وفتنة، ولكنه هو في ذات نفسه قد عزم وانتهى، ولم يعد لضغط التصور الجاهلي، ولا لتقاليد المجتمع الجاهلي عليه من سبيل."

ولا شك أن الإنسان منا حينما يتلقى الإسلام تلقياً صحيحاً، ويفهم عقيدة التوحيد فهماً سليماً، ويقيس المجتمع الذي حوله قياساً دقيقاً؛ فإنه يجد نفسه قادراً على الانخلاع من هذا المجتمع.. لا يجد أثقالاً تشده، بل يجد جواذب ترفعه ليهرب من ذلك المجتمع، فلا يشعر بأنه مضطر أن ينافق ذلك المجتمع، ولا أن يعيش معه.. بل يجد نفسه كارهاً أن يعيش في هذا المجتمع.

ويعمل المنهج الإسلامي في عكس ذلك الاتجاه؛ بأن يثقل خطوات المسلم في عملية الانطلاق غير المحسوب من العزلة الشعورية إلى الانطلاق والانسلاخ العملي.. فيثقل خطواته، ويطالبه أن يتريث كثيراً في تعامله مع الجاهلية؛ فهو الآن ليس في مُكْنَتِه -وهو مستضعف، وهو قليل- أن ينسلخ انسلاخاً كاملاً من الواقع الجاهلي ويقف أمام المفاصلة العملية والمجابهة العملية، فهو غير قادر على ذلك.. وإنما يطالبه المنهج الإسلامي أن يتريث كثيراً، وأن يتحرك حركةً مدروسةً محسوبةً، ويُنَقِّل خطواته تنقلات دقيقة تتمشى مع نموه الحركي ونموه العقدي، وتتمشى أيضاً مع قدراته وإمكانياته، بحيث إنه بقدر نموه الحركي ونموه العددي ونموه العملي يكون قادراً على أن يتخفف من أثقال الجاهلية ويُنمي تقاليده وعاداته الإسلامية، حتى يصل إلى اللحظة النهائية، حيث ينسلخ انسلاخاً عملياً من الواقع الجاهلي، ويواجهه

مواجهةً عملية؛ يقاتله ويصنع مجتمعه الصافي الخالص لعقيدة التوحيد، ويكون السلطان كله للإسلام في ذلك المجتمع، ويواجه المجتمع الجاهلي مواجهةً صريحة، ويتحقق قول الرسول ﷺ (لا يتراءى ناراهما)[٤٨] فلا يجتمع في وقتٍ واحد المشرك والمؤمن على الإطلاق.

ولكن قبل ذلك هناك خطوات طويلة جداً يحتاجها المسلم بعد أن يشهد شهادة الحق، حتى يصل إلى نقطة الانفصال الكامل والانسلاخ الكامل من ذلك المجتمع. لكن العزلة الشعورية ينبغي أن تبدأ منذ اللحظة الأولى، وتُنَقِّل خطواته من خلال دراسة واعية ومحسوبة لما يغذيه به المنهج الإسلامي من قواعد وأحكام تتمشى مع المرحلة التي يمر بها، ومع خطوات هذه المرحلة أيضاً في داخل كل مرحلة.. ولكن المسلم في أي مرحلة كان متخفف تماماً من شعور الخضوع النفسي أو التثاقل النفسي أو الهزيمة النفسية داخل المجتمع الجاهلي.. فهو متحرر ومستعلٍ دائماً. لكنه في الوقت ذاته يحسب خطواته بدقة، وينقل خطواته بدقة، حسب مقتضيات المنهج وعبوديته لله، وليس من خلال رغباته أو هواه، أو تشدداته وتسرعه، أو هزيمته وتفريطه. فهو محكوم بمنهج يوجهه كيف يعمل وكيف يتعامل وكيف يتحرك وماذا يأخذ وماذا يدع في هذا المجتمع، حتى يأتي الوقت المناسب الذي ينخلع فيه انخلاعاً كاملاً من المجتمع الجاهلي ليُكَوّن مجتمعه الخالص المؤمن تماماً في الوقت الذي يشاؤه الله له عز وجل..

ختام الفصل: جاهلية الواقع المعاصر وواجب الحركة الإسلامية

"نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم. حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيرًا إسلاميًا.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية.!!"

هذه الفقرة تتحدث عن جاهلية الواقع المعاصر.. ولن نتحدث الآن عن قضية الجاهلية ولا عن مفهوم الجاهلية، فسيأتي دورها بعد ذلك إن شاء الله.. لكننا نعيش مع التعبيرات التي جاءت في هذه الفقرة: إن هذه الجاهلية **"كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم.."** لا شك أنها أظلم في جوانب كثيرة.. لا شك أنها أشد ظلاماً، وأشد تعقيداً، وأشد استهتاراً، وأشد خواءً من القيم والأخلاق، وأشد انحرافاً عن طبيعة الفطرة، وأشد زخرفةً وتضليلاً؛ حيث أنها صنعت لكل انحراف نظريات وواقعاً ووسائل ضاغطة على المجتمع.. فهي لا شك -من هذا الجانب- أظلم كثيراً من الجاهلية الأولى التي كانت تتميز إلى حد كبير بالبساطة والسذاجة، وخلوها من الإمكانيات المؤثرة والمزخرفة، والتي كان عندها بعض القيم الفطرية والأخلاقيات الإنسانية التي منعت كثيرا من طواغيت الجاهلية من التعامل السيء مع المسلمين. بل كانت هناك بعض التقاليد في الجاهلية العربية كانت عوناً للمسلمين؛ مثل الجوار وصدق الوعد وعدم النكوص عن العهد والكرم والمروءة.. كل هذا كان من المعينات التي خففت وطأة الجاهلية على الجيل الأول.. لكن الجاهلية المعاصرة خلت من كل القيم الأخلاقية والقيم الإنسانية، بل تحمل في أعماقها كراهية عميقة لكل ما جاء به الإسلام من قيم وأخلاقيات وآداب.. وبجانب هذا.. هناك ضخامة الإمكانيات، والتمرس والخبرة في محاربة الإسلام ومحاربة انتشار واتساع الإسلام..

---

٤٨ أخرجه أبو داود والترمذي من حديث قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله قال (أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين) ثم قال (لا يتراءى ناراهما)، قال الشوكاني في نيل الأوطار: حديث جرير أخرجه أيضا ابن ماجة ورجال إسناده ثقات ولكن صحح البخاري وأبو حاتم وأبو داود والترمذي والدارقطني إرساله إلى قيس بن أبي حازم ورواه الطبراني أيضا موصولا.

فمن هنا كانت الجاهلية المعاصرة أشد وأظلم من كل الجاهليات السابقة التي عاصرها المسلمون في أجيالهم المختلفة، وفي مراحلهم المختلفة..

"تصورات الناس وعقائدهم.." هذا واضح من خلال الواقع. عاداتهم وتقاليدهم أيضاً جاهلية.

"موارد ثقافتهم"؛ فالجاهلية المعاصرة رجعت مرة أخرى إلى مواردها القديمة من الجاهلية اليونانية أو الرومانية أو "التراث اليوناني الروماني "Greco-Roman"كما يسمونه. لأنها تغذي كل ما يريدونه من تفسخ وانحلال وقسوة واستعمار واستغلال للآخرين؛ كذلك كانت الجاهلية الرومانية والجاهلية اليونانية.

"فنونهم وآدابهم" فقد استوحوا مرةً أخرى الفنون القديمة التي كانت تعيش في أيام الرومان واليونان؛ وهي فنون شديدة الانحلال وشديدة العري والتفسخ. والإنسان يخجل ويشعر بالحياء حينما يدخل مسارح الرومان أو يذهب إلى روما أو اليونان وأثينا؛ يستحي من التماثيل المجسمة التي تتجسم فيها العورات بشكل مخز جداً ومقزز جداً، وفي كل الميادين في أثينا وفي روما تجد تماثيل ضخمة جداً عارية تماماً للرجال والنساء بأعضائهم التناسلية.. أشياء مقززة جداً.. هذا غير ما يوجد في المتاحف القومية عندهم من مجسمات وتماثيل لا يستطيع المسلم أن ينظر إليها، أشياء منعتنا من أن ندخلها أصلاً.. وهم عمدوا اليوم إلى تلك الفنون فأحيوها ونشروها.. تجد المجلات والجرائد والصور العارية موجودة على محطات الترام -محطات مترو الأنفاق -Underground في كل بلاد أوروبا وفي أمريكا.. تجدها بسهولة جداً.. فضلاً كما قلت قبل ذلك عن أن العري أصبح هدفا من أهداف الفكر اليهودي في تعرية الإنسان وفضحه.. فالفنون والآداب المعاصرة فنون شديدة الجاهلية وليس فيها حياء.. بينما كان هناك كثير من الحياء والقيم الموجودة في الجاهلية العربية والجاهليات الشرقية عامة، لا نجد مثله في الجاهليات التي وُجدت في أوروبا القديمة وفي أوروبا المعاصرة..

"شرائعهم وقوانينهم" أيضاً كلها جاهلية..

ثم يقول الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- **"حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية!!"** وهذا القول يستفز بعض الكتاب والأدباء المعاصرين ويغيظهم جداً، لكن هذه هي الحقيقة فعلاً. فالذي تصفو له تصوراته الإسلامية ويفهم عقيدة التوحيد كما جاء بها الأنبياء، ثم يقرأ ثقافاتنا المعاصرة وكتبنا المعاصرة وفكرنا الإسلامي أو فلسفتنا الإسلامية -كما يطلقون عليها- يشعر تماماً بأن هذه الثقافة الإسلامية هي ردود أفعال للثقافات الجاهلية أو تقليد ومنافسة للجاهليات المعاصرة وللتفكير المعاصر..

ولم يحدث هذا في العصر الحديث فقط، وإنما حدث في العصر القديم أيضاً، حينما بدأ بعض علماء المسلمين يحاولون أن يتصدوا للفكر اليوناني الوثني وللفلسفة الرومانية والإغريقية ولأساطير الفرس بمقولات الفرس أو مقولات الفلسفة، فأنشأوا ما يُسمى "بعلم الكلام" الذي اقتبس المصطلحات الوثنية والمصطلحات الإغريقية، وحاولوا أن يجعلوا لها محتوى إسلامياً.. فلا هي صارت إسلامية، ولا هي ظلت وثنية خالصة.. فاختلطت الوثنية والانحرافات الرومانية واليونانية بالتصورات الإسلامية. فنشأت ثقافة مشوهة.. وكل ما كتب عن الفلسفة الإسلامية نجد واضحاً فيه هذا التشوه.

وأما من خلال الواقع المعاصر فقد غزت الحضارة أو الفكر الأوروبي الغربي العالم الإسلامي، وبدأت تلون الثقافة القومية أو الثقافات الموجودة في العالم الذي كان إسلامياً بمفاهيم الثقافة الغربية.. وهذا واضح جداً، سواء في الأفكار أو في المصطلحات أو في المقاييس، أو في القيم والموازين.. وبقدر وجود هذا في المجرى القومي في العالم الذي كان إسلامياً بقدر ما يُحسب نجاح الغزو الحضاري والفكري الذي جاءنا من أوروبا.. ولا شك أننا نستطيع أن نقول إنهم نجحوا نجاحاً كبيراً جداً في إفساد الحياة الإسلامية؛ سواء في جوانب العقيدة، أو في جوانب الأخلاق، أو في جوانب السلوك أو اللباس أو التعاملات، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو الرياضة، أو التعليم.

فلا شك أن الجاهلية المعاصرة الموجودة في العالم الإسلامي هي جاهلية أشد انحطاطاً من الجاهلية الغربية، لأنها جاهلية غير أصيلة.. الجاهلية الغربية جاهلية أصيلة، أما جاهليتنا فهي جاهلية مستوردة مزيفة، اختلطت فيها الحقيقة بالباطل، فنتج عنها صورة مشوهة ليست أصيلة وليست محترمة..

إننا نجد كثيراً من الفكر الإسلامي المعاصر وما يُكتب فيه متأثراً بالفكر الجاهلي وبالتصورات الجاهلية، ولذلك ينبغي أن يحرص المسلم المعاصر الصادق أن ينتقي انتقاءً دقيقاً جداً كل ما يُكتب باسم الإسلام.. كثيراً ما نجد عناوين فخمة وموضوعات تبدو رائعة، لكن حينما ندخل فيها نجد أنها تقتبس كثيرا من تصورات الجاهلية.. حتى كتب الأطفال وقصص الأطفال نجد كثيراً منها متأثراً بالتصورات الجاهلية والفكر الجاهلي الغربي. ولذلك ينبغي أن نضع هذه الثقافة الإسلامية وهذه المراجع الإسلامية وهذه الفلسفة الإسلامية والتفكير الإسلامي في خانة الإنتاج الجاهلي وليس في خانة الإنتاج الإسلامي.. لكي يدفعنا ذلك إلى عملية التمحيص والتحقيق الجيد حينما نريد أن ننشئ مجتمعاً إسلاميا.

لا بد أن نتمثل مرةً أخرى الجهود التي صنعها أجدادنا في مراجعة كل مخلفات الحضارات السابقة، ثم كيف عملوا فيها تنقية وتصفية، ثم بعد ذلك استبقوا منها الصالح وبنوا عليه، وصبغوه بالصبغة الإيمانية الصحيحة.. فبذلك نفهم ذلك التعبير الذي جاء في هذه الفقرة **"حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية"**. وتعبير "من صنع هذه الجاهلية" يوحي أيضاً أن هذه الجاهلية تقصده، وهذه حقيقة أخرى، قد لا تكون واضحة للكثير من الناس.. الجاهلية الآن عندها دراسات دقيقة لقياس ردود الأفعال؛ فحينما تريد من العالم الإسلامي أن يكتب في موضوعٍ معين بطريقة معينة يعملون له فعلا معينا، بحيث يكون له رد فعل بالمقياس الذي يريدونه.. فالفعل ورد الفعل له قياسات دقيقة علمية الآن. فحينما تريد أن تجعل من أمامك يرد بطريقة معينة، أو يهتم بموضوع معين، تستحدث له موضوعا من نوع معين وبطريقة معينة تدفعه وتستفزه إلى أن يرد عليك بالطريقة التي تريدها، ومن المنطلق الذي تريده أنت، ومن الزاوية التي تريدها أيضا.. فمن ثم نستطيع أن نقول إن كثيرا من كتابات الإسلاميين الآن هي رد فعل للكتابات الغربية، ومقصود قصداً من الجاهلية أن تدفعهم إلى أن يفعلوا ما يريدونه منهم. ولذلك - كما صنعوا قبل ذلك في علم الكلام- حيث أراد الغيورون من المسلمين أن يكتبوا أو يدافعوا عن الإسلام بطريقة الفلسفة لكي يخاطبوهم بلغتهم وبمصطلحاتهم، فوقعوا في الفخ، حيث حولوا العقيدة الإسلامية إلى مصطلحات جافة وتعبيرات ممسوخة، لا توجِد إيماناً ولا تصنع يقيناً، فيظل الإنسان يقرأ ويقرأ ثم يجد في النهاية كلاماً هامشياً ومشوشاً لا يصنع إيمانا في الإنسان..

الإسلام له قالبه الخاص، والعقيدة الإسلامية لها طابعها الخاص. قالبها القرآن. والقرآن تناول العقيدة بطريقته الخاصة، ومن ثم ينبغي لمن يريدون أن ينشروا عقيدة الإسلام أن يضعوها في القالب القرآني أو في القالب الرباني الذي نتعلمه من دراستنا للقرآن وأساليب القرآن

وموضوعات القرآن.. وكذلك من خلال الأسلوب النبوي الذي يعرض الحقيقة الإيمانية بطريقة الإسلام وليس بطريقة الجاهلية.. فإذا كان هذا فخ وقع فيه الأقدمون، فقد وقع فيه المحدثون بصورةٍ أشد، لأنهم ضموا إلى الخدعة الهزيمة أمام الأشكال الغازية التي جاءتنا من الغرب، ومن ثم نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن **"الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية!!"**[٤٩]

لذلك لا تستقيم قيم الإسلام في نفوسنا، ولا يتضح تصور الإسلام في عقولنا، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أول مرة." ما دمنا نتلقى من تلك المصادر الجاهلية الصنع حتى ولو كانت ذات عنوانات إسلامية.

واجب الحركة الإسلامية المعاصرة

"فلا بد إذن -في منهج الحركة الإسلامية- أن نتجرد في فترة الحضانة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي نعيش فيها ونستمد منها. لا بد أن نرجع ابتداءً إلى النبع الخالص الذي استمد منه أولئك الرجال، النبع المضمون أنه لم يُختلط ولم تشبه شائبة. نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق، وجود الله سبحانه.. ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة، وقيمنا وأخلاقنا، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل مقومات الحياة."

هذا أمر لا بد أن تحرص عليه الجماعة الراشدة؛ أن تخلص أبناءها من مؤثرات الجاهلية، وما أكثرها في واقعنا المعاصر، فما فيها من زخرف وما فيها من دهاء وخداع يمكن أن يمر على كثير ممن يريدون نشر الإسلام.. لذلك نجد كثيراً من التيارات الإسلامية لا تنتبه إلى تلك الخطوط الرفيعة التي نتحدث عنها؛ فنجدهم ببساطة شديدة يعتبرون كثيراً من وسائل الإعلام والكتب التي تأتي من الجاهلية كتباً تصلح أن تكون مراجع لتياراتهم الإسلامية. ومن ثم نجد أن أبناء هذه التيارات ينمون مشوهين، كالأجنة المشوهة تماماً التي تتلقى السموم عن طريق الأدوية الخاطئة التي تتلقاها الأم في فترة الحمل. فيخرجون أجنة مشوهة لا يصلحون أبداً بعد ذلك.. ولذلك نرى كثيراً من شباب الحركات الإسلامية الذين لم يتربوا تربيةً نقية خالصةً، ولم يتلقوا من النبع الخالص، وإنما تلقوا من مصادر مشوبة ومصادر خاطئة؛ نجدهم مشوهي الحركة مشوهي التفكير مشوهي السلوك مشوهي الإدراك، رغم خلوص نواياهم فيما نحسبهم. وبالتالي يرتكبون أخطاء فادحة في حركتهم وفي دعوتهم وفي بلاغهم وفي سلوكهم ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٧].

ولا شك أن هذا أمر يجب أن ننتبه له تماماً، وأن نصر عليه، وألا يغيب عن بالنا لحظةً واحدة مهما تكاثفت علينا الضغوط، أو مهما زينوا لنا من أمور، ومهما وصلنا إلى درجة من الثقة بأنفسنا تنسينا الحرص والحذر حينما نتلقى.. لذلك لا بد أن يكون جهاز التنقية دقيقاً جداً وحساساً جداً، بحيث لا يمرر إلا ما هو نقي وما هو صافٍ، بحيث نضمن أننا نكون أمناء على أجيالنا القادمة الذين نريد أن نربيهم تربية خالصة.. ولا يهمنا في هذا ما يعترضنا من اعتراضات أو صعوبات، أو حتى بعض أنواع الحرمان التي قد نضطر إلى أن نفرضها على

٤٩ انظر مثلا كتابات العقاد الإسلامية، مثل كتاب " الله " حيث ينزلق إلى الاعتراف بتطور العقيدة من عبادة الطوطم.. وحتى عبادة إلهين اثنين، ثم إلى التوحيد في النهاية، متأثرا بعلم الأديان عند علماء الغرب. وكذلك انظر إلى رد فعل كثير من كتاب المسلمين الذين يردون عن الجهاد الإسلامي انطلاقه التحرري ليجعلوه جهادا دفاعيا، لأن المستشرقين اتهموا الجهاد الإسلامي بالعدوان والهجومية...

أنفسنا وعلى أبنائنا، فلا يجب أن نضعف أمام هذه الضغوط ونبدأ في التخلي عن هذا الحذر بدافع الإشفاق أو بدافع التخفيف، فنقع في الخطأ، وتظهر فينا أجيال مشوهة بسبب إشفاقنا غير الرشيد وغير الدقيق.. وهذه النقطة بالذات من أهم النقاط في قضية الثقافة وقضية البلاغ وقضية التربية؛ أن نصر مهما كانت الصيحات المناوئة أو الصيحات الضائقة أو المتمردة، حتى ولو كانت من صفوفنا؛ لا يجوز أن تجعلنا هذه الصيحات نخضع أو نستكين أو ننهزم أو نشفق إشفاقاً يضرنا مهما كانت الأمور.. وخيرٌ لنا أن نكون قلة قليلة راشدة نقية أفضل من أن نكون كثرة مشوهة ومزيفة، فإن الله لن ينصر إلا الفئة الراشدة النقية الخالصة له تعالى.

ولذلك حينما كان المسلمون يستعصي عليهم النصر في غزوة أو معركة كانوا يدعون إلى التميز "ميز الجيش يا خالد"، لأنهم كانوا حين يدخلون وفيهم مع الصحابة من التابعين من دخلوا من المنافقين وغير الملتزمين، فكان النصر يتأخر.. فحينما ميزوا الصحابة ودخل الصحابة وحدهم، انتصروا بسرعة جداً، بسبب صفاء ونقاء الإيمان.. فالقلة الرفيعة القدر أشد فعلاً وأشد تأثيراً وأشد استجلاباً لنصر الله ولمعية الله من الكثرة الهزيلة، التي يختلط فيها الحابل بالنابل، ويختلط فيها المزيف بالصحيح..

هذه النقطة بالذات ينبغي أن نفيق لها. وأشعر في بعض الأحيان أن بعضنا كأنه يميل إلى ناحية الترخص وناحية الإشفاق، بحيث يريدنا أن نتخفف من بعض القيود التي فرضناها على أنفسنا، والتي نعتقد أنها حمتنا حتى اليوم من كثير من التشوهات.. فحذار حذار من هذا الأمر.. حتى لا يضيع منا استحقاق معية الله سبحانه وتعالى إذا نجحنا في تصفية المصدر باستمرار.. وفي تنقية المنابع باستمرار.

"ولا بد أن نرجع إليه -حين نرجع- بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والمتاع. نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون."

هذه مسألة مهمة جداً؛ عملية القراءة والإعجاب بما نقرأ، والتأثر الوقتي بما نقرأ أو نسمع، ثم لا يحدث بعد ذلك تغيير حقيقي في أعماقنا، تتغير به مشاعرنا وسلوكياتنا في أعماقنا الفردية، أو في علاقاتنا الأسرية، أو في علاقاتنا الجماعية، أو في علاقاتنا حتى مع الجاهلية.. حينما يتأخر التنفيذ ويتأخر التغيير عن الإعجاب والاقتناع النظري، فإن هذا يكون نذيراً أيضاً بألا نُصْطَفى وألا يُرَحب بنا في طريق الأنبياء وفي طريق الرواد.. فلا بد أن نتلقى لنعرف ماذا يراد منا أن نكون لنكون.. لا نعرف لمجرد الثقافة الباردة التي لا تغير ولا تبدل في حياتنا.

"وفي الطريق سنلتقي بالجمال الفني في القرآن، وبالقصص الرائع في القرآن، وبمشاهد القيامة في القرآن، وبالمنطق الوجداني في القرآن، وبسائر ما يطلبه أصحاب الدراسة والمتاع.. ولكننا سنلتقي بهذا كله دون أن يكون هو هدفنا الأول.. إن هدفنا الأول أن نعرف: ماذا يريد منا القرآن أن نعمل؟ ما هو التصور الكلي الذي يريد منا أن نتصور؟ كيف يريد القرآن أن يكون شعورنا بالله؟ كيف يريد أن تكون أخلاقنا وأوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة؟"

هذا هو الهدف.. ومن خلال هذا الهدف الأول يتحقق لنا ما يريده أصحاب الدراسة والمتاع والفن، وأي شيء من هذه الأشياء. سنجد هذا في الطريق دون أن يكون هو هدفنا الأول، وإنما هدفنا الأول هو أن نعرف كيف نكون ربانيين، وكيف يتكون منا جيل قرآني يقترب في ملامحه أكثر من ذلك الجيل الأول الذي يقف في أفقٍ عالٍ جداً جداً ورفيعٍ جداً جداً.. لا نقول إننا يائسون أن نصل إليه، ولكن نقول إنه قد شاء الله لهذا الجيل أن يكون في هذا الموقف الرفيع تكريماً له وجزاءً له واصطفاء، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.. ولكننا نطمع -على الأقل- أن نقترب من هذا الأفق، وأن نتنافس على الاقتراب من هذا الأفق.. نقترب منه حينما نتلقى من النبع الخالص دون

أن يشوب منابعنا منابع أخرى تفسد علينا الطريق كله.. فإذا صفينا منابعنا بهذه الصورة، اطمئننا إلى صفاء النبع وإلى الشعور المصاحب بشعور التلقي للتنفيذ لكي نكون كما يريد منا القرآن.

التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي

نضيف لذلك النقطة الثالثة: **"لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية.. في خاصة نفوسنا.."**

فينبغي أن تتحرر نفوسنا من الطمع في أي أوضاع جاهلية أو منافع جاهلية، ويجب ألا تهتز نفوسنا بمشاعر الخوف ومشاعر الهزيمة أو حب السلامة، فيجعلنا ذلك نساوم على ديننا، أو لا يتمحض ولاؤنا لهذا الحق ولهذا الدين.. لا بد أن نتخلص من ضغط المجتمع الجاهلي وتصوراته وتقاليده وقيادته الجاهلية أيضاً، بحيث لا نعطيهم الولاء ولا شرعية الوجود ولا الخوف منهم. لأنهم -كما قلنا- لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن أن يملكون لغيرهم، نفعاً ولا ضرا.. فلذلك ينبغي أن تتكون هذه النفوس تكوناً خاصاً يعيش بهذا الحق، وتتشكل وتصطبغ بصبغة الله؛ ومن أحسن من الله صبغة..

مهمتنا تغيير الواقع الجاهلي وليس الاصطلاح معه

"ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع هذا المجتمع الجاهلي ولا أن ندين بالولاء له، فهو بهذه الصفة.. صفة الجاهلية.. غير قابل لأن نصطلح معه. إن مهمتنا أن نغيِّر من أنفسنا أولاً، لنغير هذا المجتمع أخيرًا."

وهذه نقطة مهمة جداً قد ينساها الكثيرون ممن يعملون داخل الحركات الإسلامية، أو في سبيل إقامة مجتمع إسلامي بتصورهم أنهم بفكرهم الإسلامي وحده وبنواياهم الإسلامية وحدها سيتغير المجتمع.. فبمجرد أن يعلموا حقيقة الإسلام يشرعون في البلاغ ويشرعون في التحدي ويشرعون في المواجهة ويشرعون في القتال ويشرعون في محاولات قلب النظام، ويتصورون أن هذا سيكون سبيلاً سهلاً يجعل الناس يسيرون وراءهم بدون تعب وبدون جهد..

الحقيقة غير ذلك، الحقيقة أنه لا بد للبشرية أن ترى نماذج عملية تقتنع بهذا الدين وتعيش به وتقتات عليه، ثم تُبتلى في سبيله فتصبر وترتفع إلى مستوى التضحية وتصر عليه، ثم تكون نموذجاً حقيقياً وواقعياً بعد المرور بهذه المحن والابتلاءات؛ ثم بعد ذلك قد يقتنع الناس بالحق.. فليس المسألة مجرد البلاغ النظري، لا بد أن يكون هذا البلاغ النظري مصحوباً بنماذج الأسوة والقدوة والعمل الذي يجعل البشرية -التي تسمع بعيونها وليس بآذانها- ترى أن هذا الكلام الذي يقوله هؤلاء الدعاة ينفذونه حقاً، لا بد أن يروا وأن يستيقنوا أنه لا يشوب إيمانهم خوف ولا تشوبه هزيمة ولا يشوبه نفاق ولا يشوبه تملق للجاهلية أو للطواغيت.. لا بد أن يروا ويستيقنوا أنهم مستعلون على الدنيا ومضحون بأنفسهم في سبيل الله.. فالناس يسمعون بأعينهم ولا يسمعون بآذانهم أبداً..

"إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع.. مهمتنا هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه. هذا الواقع الذي يصطدم اصطدامًا أساسيًا بالمنهج الإسلامي، وبالتصور الإسلامي، والذي يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش."

إذن مهمتنا الأولى أن نغير من أنفسنا لكي نغير هذا المجتمع.. والهدف الصحيح والنهائي هو تغيير هذا المجتمع ليكون مجتمعاً إسلامياً ربانياً خاضعاً لألوهية الله الواحدة. لكن الطريق إلى ذلك أن نغير من أنفسنا. ولن نغير من أنفسنا إلا بتلك النقاط الثلاث التي قلناها قبل ذلك؛ بأن نُخَلِّصَ النبع الذي نستقي منه تصوراتنا ومناهجنا وسلوكياتنا من كل ما يشوبه، ثم نتلقاه للتنفيذ، ثم نتخلص من كل الضغوط الجاهلية ونتحرر من كل ما كنا عليه في الجاهلية.. إذا فعلنا ذلك سيتغير تبعاً لذلك المجتمع.

ولا يجوز أن نصطلح مع هذا المجتمع في أي مرحلةٍ من المراحل، إلا في حالة واحدة؛ أن ينتقل ذلك المجتمع بكل تصوراته ومناهجه وقوانينه وعاداته وتقاليده وأفكاره ولهوه وجده ليكون مجتمعا مسلماً، يستقي كل ذلك من الإسلام، ابتغاء وجه الله، وتوحيداً لله. حينذاك نصطلح معه بصفته أنه مسلم وليس بصفته الجاهلية.

إن الواقع اليوم يصطدم اصطداماً أساسياً بالإسلام. فهو ليس اصطداماً فرعياً ولا اصطداماً عَرَضياً كما تحاول بعض الحركات الإسلامية أن تتصور أن الفجوة بيننا وبين مجتمعاتنا فجوة بسيطة، وأن الناس بخير، وأن عقائدهم سليمة، وأن سلوكياتهم المنحرفة نتيجة للجهل ونتيجة لضغوط الجاهلية.. فلو أننا تصالحنا معهم فالأمور بسيطة..

الأمر ليس كذلك.. الأمر أنهم في دينٍ ونحن في دين، وأن الاختلاف اختلاف أساسي.. وأن الاصطدام اصطدام أساسي؛ اصطدام بالمنهج الإسلامي وبالتصور الإسلامي، وهم يحرموننا بكل وسائل القهر والضغط والإغواء والإرهاب أن نعيش إسلامنا كما يريده لنا الله عز وجل..

"إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعدِّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيرًا لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا! إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق!

وسنلقى في هذا عنَتَاً ومشقة، وستفرض علينا تضحيات باهظة، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي، ونصره على منهج الجاهلية."

"إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلى على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته.." هذا الاستعلاء مهم جداً كما قلنا قبل ذلك، فهو صفة أساسية من صفات الرائد وصفات الداعية الراشد الذي يواجه الجاهلية كلها بكل مؤسساتها الضخمة والخطيرة والثقيلة والمخيفة، وبكل إمكانيات الجاهلية، وهو فرد أعزل لا يملك شيئاً إلا إيمانه وعزته بالإسلام، واستعلاءه بهذا الإسلام..

إذا فُقِدَ هذا الشعور بالعزة والاستعلاء، وبالرغبة في التحدي، وبالرغبة في الدخول في معركة سريعة مع الجاهلية كما وقف الأنبياء يتحدون أقوامهم ويستعجلون المعركة ويقولون لهم: "لا تنتظروا ولا ترددوا وأسرعوا إلينا" إذا فُقِدَ هذا الشعور فقد تحققت الهزيمة كاملة قبل بدء المعركة.. إن علينا أن نواجه الجاهلية دائماً.. بهذا الاستعلاء وبهذا الاستخفاف. ونعلم أن الأمر لا يعدو أن نموت في سبيل هذا الحق.. فمن يواجهوننا لا يملكون شيئاً إلا أن يخنقونا أو يشنقونا أو يطلقوا علينا الرصاص، وساعتها تنتهي المشكلة، ونذهب إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض.. فإذا كنا مخلصين لا بد أن تكون أولى الخطوات هي أن نستعلى على هذا المجتمع وعلى كل قيمه وتصوراته.. لا تأخذنا الهزيمة في أي لحظة من اللحظات، ولا نبدي لهم الرضا في أي وقت من الأوقات؛ سواء في الكليات أو الجزئيات.. حتى ذلك

الذي يصنعونه من إفرازات الإنتاج المادي؛ لا بد أن نتلقاه بقدرٍ كبيرٍ جداً من اللامبالاة.. إن هذا الإنتاج المادي الذي أنتجتموه هو نتاج إنساني، ليس إنتاجاً منكم أنتم؛ هو إنتاج لخلقة الله فيكم، وللعقل الذي وضعه الله فيكم.. ليس من إنتاجكم، بل أنتم تفسدون هذا الإنتاج بأن تستعملوه للطغيان في الأرض وللإفساد في الأرض.. فلستم مشكورين على ما فعلتم، لأنكم تستعملون نعمة الله في معصية الله.. فلا يجب أن يشعروا أبداً أننا نرضى عما ينتجونه من إنتاج مادي.. نأخذه منهم، نستفيد نحن به بطريقتنا الخاصة، لا على أساس أنه إنتاجٌ جاهلي، وإنما لأنه إنتاج إنساني.. بهذا الشعور؛ حتى ونحن نعيش على موائدهم وعلى إنتاجهم، لا بد أن نكون نحن الأعلى حتى ولو كنا مستضعفين وكنا قليلين... هذه النقطة مهمة جداً.. لا ينبغي أن نقف أمامهم مبهوري الأنفاس ولا محملقي الأعين ولا مشدوهي الأبصار، ولا مشدودين لأنهم أنتجوا إنتاجاً ضخماً، فنبدو في موقف المنهزم الذي كان يفتقد شيئاً ضخماً ثم وجده.. نحن أصلاً نملك شيئاً أضخم مما يملكون، وهذا الإنتاج المادي الذي يفعلونه لا يساوي شيئاً، بل نستطيع الاستغناء عنه تماماً.. بينما لا يستطيعون هم أن يستغنوا عما عندنا نحن من إيمانٍ ومن تصورٍ ومن قيم.. فالذي نملكه نحن أغلى وأعلى وأرقى وأكثر ضرورة مما ينتجونه.

ولذلك لا ينبغي أبداً أن نقف أمامهم ونحن مشدوهو الأبصار أو منهزمو النفوس، ونحس بالجميل الذي يؤدونه لنا.. نحن نستطيع أن نستغني عن هذا كله ونعود مرةً أخرى إلى أن نعيش على ظهور الإبل ونسكن الخيام ونقيم الإسلام مرةً أخرى كما أقامه أجدادنا الكرام من صحابة رسول الله ﷺ، هذا الشعور بالاستعلاء مهم جداً أن نواجه به القوم، ولا بد أن يكون في داخل نفوسنا حينما ندخل معهم معركة مواجهة، لا بد أن يحسوا أننا صنف جديد كل الجدة، صنف متميز كل التميز، صنف لا يطمعون فيه ولا ينتظرون منه أن يخور أمامهم، أو أن يسقط إعجاباً بهم أو خوفاً منهم.. هذا الذي ينبغي أن نكون عليه ونفعله، كما كان الصحابة الكرام يفعلونه أمام رستم ويزدجرد، وأمام كل القوى التي كانت تشعر بالاتضاع حينما يأتي لهم أعرابي كربعي بن عامر، أو المغيرة بن شعبة الذي كان أفّاقاً من أفّاقي العرب قبل أن يسلم؛ يدخل عليهم بشعور السيد وشعور المستعلي؛ ويقابل رستم ويزدجرد من الموقف الأعلى، فيتصاغرون هم.. هذا هو الذي ينبغي أن نكونه حينما نواجههم في أي وقتٍ وفي أي لحظة؛ سواء ونحن أفراد صغار مستضعفون، أو ونحن ملوكاً على الأَسرَّة.. سواء هذا أو ذاك، نحن نستمد عدتنا واستعلاءنا من الحق، وليس من ذواتنا ولا من عملنا..

"ألا نعدِّل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلاً أو كثيرًا لنلتقي معه في منتصف الطريق.."

لا.. نحن الذين نقف وهم الذين يأتون إلينا.. وهذا الأمر يضايق الجاهلية جداً كما قلت قبل ذلك.. وقلت إنهم يضيقون جداً بشعور الاستعلاء، وأنهم يقولون كثيراً في جرائدهم وكتبهم الآن أن هذه الجماعات الإسلامية ترفض الرأي الآخر، وترفض الحوار، وتستبد بالرأي، وتستعلي بفكرها على بقية البشرية.. هذه مسألة تضايقهم جداً، وهي حقيقة.. حقيقة ينبغي أن يكون المسلم كذلك.. أن يكون مستعلياً وأن يرفض الرأي الآخر، وأن يرفض الحوار الذي يكون ناتجاً عن اعتزاز الجاهلية أو استعلاء الجاهلية.. نحن مستعدون أن نحاورهم، ولكن نحاورهم من نقطتنا نحن وليس من نقطتهم هم، ومن قاعدتنا نحن وليس من قواعدهم هم.. هذه المسألة مهمة، وينبغي أن نكون على يقين بها.. ولا ينبغي أن نعدل في قيمنا وتصوراتنا لكي نجاملهم، أو لكي نحببهم، أو لكي نقربهم إلينا.. ورأينا كيف أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ ليعاتبه عتاباً شديداً وزاجراً وقاسياً حينما أعرض عن الأعمى رغبةً في أن يؤمن كبراء قريش..

الحرص على المنهج وليس النتائج

فالإسلام يحرص على المنهج أكثر مما يحرص على النتائج.. ونحن لا بد أن نحرص على المنهج ونحرص على القيم ونحرص على ما عندنا فلا نتخلى عنه.. فإذا شاءوا أن يأتوا إلينا فليأتوا.. وإذا لم يأتوا فنقول لهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد ﴾ [الكافرون: ١-٣].. هكذا بهذه الصورة التي علمها إيانا القرآن؛ ألا نعدل نحن في قيمنا ولا في موازيننا ولا في تصوراتنا كما فعلت جماعة الإخوان، وكما فعلت جماعة المودودي وجماعة عباس مدني، وكما يفعل هؤلاء جميعاً.. يحاولون أن يتقربوا إلى الجاهلية؛ فيعترفون بالديموقراطية ويعترفون بالرأي الآخر، ويعترفون بصندوق الانتخابات، ويعترفون بالتعاون فيما اتفقنا فيه وهكذا.. هذه التنازلات التي لا يجوز أبداً أن نقدمها، ولا أن نقترفها أبداً.. **"إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق.."** كما قال الله عز وجل لرسوله ﷺ ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۞ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عبس: ١١-١٢]، فمنعه أن يسايرهم لحظةً واحدة. وحينما تردد قليلاً في موضوع زواجه من زينب وتطليق زيد كان الزجر شديداً ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].. فالإسلام لا يجامل ولو كان نبي الله.. فالقرآن نزل ليُعَلِّم الناس من وراء عتابه لرسول الله ﷺ أنه لا يجوز أن نجامل ولا أن نُعدِّل ولا أن نهادن ولا أن نداهن.. ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وهذه الآيات جاءت في أعقاب هذه القصة، لكي يتعلم الدعاة والرواد ألا يخشون في الله لومة لائم، ولا يتنازلون حتى ولو ماتوا في سبيل ذلك، فذلك خيرٌ من أن يتنازلوا عن أنملةٍ بسيطة من المنهج أو من الحق..

سنة الابتلاء

"وسنلقى في هذا عنَتاً ومشقة، وستفرض علينا تضحيات باهظة.."

وهذا ضروري.. لن نتربى إلا من خلال التضحيات، ولن نتربى إلا من خلال الابتلاءات، ولن نتربى ونحن جالسون في حجرة مكيفة نأكل ونشرب ونسمر.. هذا لا يربي.. ونحن الآن في فترة التربية وفي فترة الهدنة وفي فترة إعطاء الفرصة لكي نعيش هذا الحق مع الله عز وجل.. ولكن لا بد أن يأتي وقتٌ نُمتَحن فيه ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]، فلا بد أن نُمتَحَن، والفتنة هي الامتحان. ولا بد أن نستعد لهذا الامتحان، ولا بد أن نعرف أنه بقدر ما نلقى من المشقة والعنت بقدر الفائدة، وبقدر ما نستفيد من التفاعل مع الحق من خلال التضحية ومن خلال التعب، ومن خلال التخلص من طموحاتنا وراحاتنا ومناصبنا وكرامتنا.. سنلقى في ذلك عنتاً ومشقة.. في السجون والمعتقلات تُشتَم آباؤنا وتُشتم أمهاتنا بأقذع الألفاظ.. ونُضرَب ونُهان بكل أنواع الإهانات التي لا نتصورها. وهذا ليس جديداً، فقد فُعل ذلك برسول الله ﷺ، وأُلقى على جسده الشريف الأوساخ وضرب[٥٠]، وجاء أبو بكر -رضي الله عنه- لكي يدفع عنه، فضربوا أبا بكر -رضي الله عنه- حتى أدموه[٥١]، وفُعل ذلك بصحابة رسول الله ﷺ.. وكان بلال -رضي الله عنه- يُجَّر في طرقات مكة يقوده غلمان وسفهاء مكة[٥٢].. فالذي لقيه المسلمون في كل وقتٍ كان عنتاً ومشقة، ولسنا بدعاً من الخلق، نتصور أننا سنظل هكذا نلتقي في حجرات مغلقة مكيفة لنأكل ونشرب.. هذا الأمر سينقلب يوماً ما لنجد أنفسنا في الامتحان

٥٠ سيرة ابن اسحاق. ج١. ص٢٣٠،٢١١.

٥١ المصدر السابق. ج١. ص٢٣٠.

٥٢ سيرة ابن هشام. ج١. ص٣١٧.

الصعب الذي لا نملك عنده إلا رحمة الله الذي يطّلع على قلوبنا فيرانا صادقين فيخفف عنا.. لكن لا بد من أن ندخل عنق الزجاجة.. لا بد أن نُمتحن.. فإذا نجحنا في الامتحان يسر الله لنا وسهل علينا ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٥].. "لما أسلما".. لا بد أن ينجح أولا في الامتحان.. فبعد أن نجح إبراهيم -عليه السلام- بأن همّ فعلاً أن يذبح ابنه، وهو راض هو وابنه بحكم الله وبأمر الله؛ حين ذاك ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧].. إذا تحقق إسلام النفس فعلا انتهت مشكلة المؤمن ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ انتهت المشكلة.. وكما يقول القرآن في سورة النحل ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠].. فليس الأمر مجرد هجرة؛ والهجرة ظاهرها راحة..؛ حيث تهرب من مكة إلى المدينة فتجد الأمن والأنصار والطمأنينة.. لكن لا بد أن تكون قد فتنت ثم هاجرت ثم جاهدت وصابرت على هذا الجهاد.. فلا يكون قبول إلا بعد أن تمر بهذه المراحل الصعبة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠] ... ولا شك أن أجر المهاجر والصامد والمجاهد أجر كبير ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]. فالله عز وجل وعد المؤمنين أن يبوئهم في الدنيا حسنة قبل الآخرة.. ورأينا ذلك في صحابة رسول الله ﷺ، الذين وصلوا من الغنى والمنصب والجاه إلى ما لم يكونوا يحلمون به في أزهى أحلامهم.. حينما يُصبح أعرابي أميراً لقُطر... وحينما يصبح العربي الفقير صاحب أموال توزن بمثاقيل الذهب بعد موته.. فالله عز وجل بوأهم وصدقهم وعده.. بوأهم في الدنيا حسنة، ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١].. لكن بعد أن امتحنوا فثبتوا، وبعد أن تلقوا العنت والمشقة بالروح الراضية.. وقد بكيت حينما قرأت أنه في غزوة من الغزوات في فتوح فارس؛ كان الحصن شديداً جداً، وكان الأمر صعبا، وكان المسلمين لا يعرفون ماذا يفعلون.. فدعاهم القائد وذكرهم بالله وتقوى الله.. ولم يقل لهم بعد متى سيكون الالتحام أو بدء المعركة، فقام أحد الرجال فقال له "هل تريد من رسول الله ﷺ شيئاً؟ إني قررت أن أذهب إليه الآن"، فقال له "بلغه عنا السلام وقل له يا رسول الله لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً".. فدخل الرجل إلى المعركة ودخل وراءه المسلمون بكل قوة وكل عنف حتى انتصروا.. حقيقة بكيت بكاء شديداً حينما تصورت الموقف بهذا اليقين.. اليقين العجيب.. هذا اليقين بأنهم ذاهبون إلى الله وأنهم على الحق، وأن نفوسهم رخيصة جداً، وأنه يقول لقائده أنه "الآن" سيذهب إلى رسول الله ﷺ وسيموت الآن، ودخل فعلاً وجاهد ومات، وانهزم الفرس أمامهم هزيمة منكرة.. لا شك أن هذه الروح روح عجيبة جداً، لا بد أن الذي صنعها كان إيماناً راسخاً جداً وكبيراً جداً..

إنه لا بد لنا أن نخوص هذا الذي خاضه أسلافنا الصالحون.. لا بد أن نلقى العنت والمشقة، وأن نؤدي ما يفرض علينا بنفوسٍ راضية وسعيدة كما كان يفعل الصحابة، وخاصةً ما فعلوه في حروب الردة.. كانت هناك مواقف مذهلة من الصحابة في حروب الردة.. مواقف فوق طاقة البشر، ولكنهم كانوا يصنعونها باستخفاف عجيب كما لو كانوا يلعبون في ملعب.. يقول البراء بن مالك "ارفعوني على أسنة الرماح وألقوني على الحديقة التي بها أصحاب مسيلمة فأسقط عليهم، فإما أن أفتح الباب وإما أن أموت شهيداً"... فرفعوه على الأسنة ورموه من فوق الباب، فنزل وقتل عشرة قبل أن يفتح الباب، ثم فتح الحصن ودخل المسلمون.. استجابوا لهذه الرغبة غير الطبيعية، وهذه دلالة على أنهم جميعاً كانوا في مستوى واحد من الإدراك والتصور والتفاعل.. وفي هذه المعركة قتل ما لا يقل عن عشرين ألفا من أصحاب مسيلمة، وقُتل مسيلمة كذلك..

لا بد لنا أن نعيش هذه الأمور.. لا بد أن نقرأ مرةً أخرى سيرة الصحابة.. نقرأها بمشاعر جديدة.. ونعيشها بمشاعر جديدة، ونقف مع كل كلمة قالها صحابي، ومع كل شعور شعره صحابي، لنعرف أين نحن منه وكيف صدر منه، وكيف يمكن أن نعيشه.. فلا بد أن نراجع مرةً أخرى قصص الصحابة بتفاصيلها العجيبة التي لا يمل الإنسان أن يعيشها..

والذي يعيش في هذا الأفق العالي ثم ينظر إلى الواقع الهابط من حوله، بما فيه من انحطاطات وقذارات، بل واهتمامات هابطة، لا بد أن يحمد الله على ما هو فيه من خير ورقي، ولا بد أن يدفعنا ذلك إلى الإصرار على أن نعيش في ذلك الأفق حتى لو مزقونا إرباً إرباً.. فعلينا أن نعيش في ذلك الأفق.. وعلينا أن نرى ذلك المستنقع الذي يتلبط فيه الناس اليوم لنحمد الله كثيراً على ما أولانا من نعمة.. لكن لا بد أن نعرف أن هذا لن يمر دون عنتٍ ومشقة ودون أن تفرض علينا تضحيات باهظة[٥٣].

وأخيراً يقول **"ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقر الله به منهجه الإلهي، ونصره على منهج الجاهلية"** فكل المخاوف التي يبرزها الشيطان وينصبها الشيطان أمامنا من مخاوف السجون والموت والتعذيب، وضياع الأولاد، وضياع المنصب، وضياع الشهادات، وإذلال كرامتنا...؛ كل هذه الأمور ينصبها الشيطان أمامنا أصناماً وعقبات لكي يخوفنا من أن نمضي في الطريق، ولكن كما يقول الأستاذ سيد **"ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول.."** لكن إذا شئنا أن نسلك طريق الآخرين؛ طريق أبي جهل وطريق أمية بن خلف وأمثالهم؛ فالطريق أمامنا.. أما إذا كنا مصرين -كما نزعم- أننا نريد أن نكون مع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان فليس لنا إلا طريق واحد وهو طريق الأنبياء بكل ما فيه من أشواك وتضحيات ودماء ومتاعب.. ويصنع الله بعد ذلك بنا ما يشاء..

ورغم أن هذا الطريق قد يبدو صعباً وقد يبدو مليئاً بهذه الأشواك والدماء والتضحيات، لكن الحقيقة أن طرق الجاهلية الأخرى كلها فيها المتاعب والمصاعب.. فالجاهليون حينما يريدون أن يحققوا مكاسب لهم في الجاهلية فإنهم يخوضون أيضاً في بحارٍ من الدماء والأشواك.. كل الانقلابات التي نسمع عنها فيها كل هذا.. فيها إعدامات وسجون ومعتقلات وتعذيب.. ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤].. ونحن إذا كنا سنتساوى معهم في الآلام لكن سنتميز عنهم في الأجر إن شاء الله.. فالمكسب مُستيقن. وإن كانت الآلام متحققة في الأرض، فأي إنسان يريد أن يحقق طموحاً لا بد أن يدفع ضريبة.. فالجاهليون يدفعون ضريبة، ونحن أيضاً ندفع ضريبة ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]، فعلينا إذن أن نرجو الآخرة ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ .. نرجو في الدنيا الإحساس بإنسانيتنا.. الإحساس بكرامتنا.. الإحساس بمعية الله.. الإحساس بأننا صنفٌ متميز بالحق والإيمان؛ هذا وحده مكسب.. وبجانب ذلك هناك الطمأنينة والسكينة التي يلقيها الله على عباده المؤمنين.. ثم التخفيف والتدخل الرباني حينما يصل المؤمن إلى نقطة التعب ونقطة عدم الاحتمال؛ يتدخل الله عز وجل بفضله ورحمته فيخفف عنه أو يأخذه عنده ويصطفيه ويدخله جنته.. فالله معنا دائماً، أما هم فليس معهم أحد.. فهم يدخلون المعارك وليس معهم إلا الشيطان الذي يتركهم في اللحظة الحاسمة، فيتنصل منهم ويتركهم لأعدائهم..

---

٥٣ كلمة تضحيات قد تكون غير دقيقة، فالتضحية أن تبذل ما تملك في شيء بلا مقابل، أو لشيء لا يستحق.. وذلك لا يكون مع الله أبدا.. فالمسلم يبذل ما وهبه الله من طاقات في سبيل أعلى ثمن، وهو رضوان الله والجنة، وبذلك هو يبذل ولا يضحي.. والله أعلم.

ثم هناك الأجر في الآخرة.. وهو أجرٌ نعرفه. فقد أخبرنا الله به ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

فنحن إذن لسنا مخيرين، ولا بد أن نسير في هذا الطريق. وهذا الطريق لا يزيد في متاعبه عن طرق الطموحين من عوام الناس. أما إذا كنا نريد أن نعيش دوداً في الأرض كما يعيش الدود فلنترك ارتياد القمم ولنرض بما يرتضيه الدود لنفسه، فكل واحد يختار لنفسه ما يشاء والله عز وجل أعلم حيث يجعل رسالته ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

"وإنه لمن الخير أن ندرك دائماً طبيعة منهجنا، وطبيعة موقفنا، وطبيعة الطريق الذي لا بد أن نسلكه للخروج من الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد.."

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الثاني

شروح

كتاب

معالم في الطريق

طبيعة المنهج القرآني

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

المقدمة ١
القضية الأولى والأساسية في هذا الدين وكيف كان اهتمام المنهج القرآني بها ٢
أهمية قضية الألوهية والعبودية وأثرها على حياة الإنسان ٢
الإنسان وموقعه من هذا الوجود ٣
هل قضية العقيدة مقتصَرة على القرآن المكي؟ ٥
ضرورة البحث عن الحقيقة والدافع وراء ذلك ٥
ما المدى الذي يجب أن تستغرقه القضية الكبرى؟ وكيف نعرف أنها استوفت حقها؟ ٨
البدء بالعقيدة هي أيسر السبل لإقامة هذا الدين ١١
سلطان الله على كل شيء، هل هذا مجرد مفهوم سياسي؟ ١١
لماذا العقيدة أولا، رغم الصعوبات الظاهرية؟ ١٢
لماذا لم يبدأ الرسول ﷺ دعوته بأي شيء غير الدعوة إلى التوحيد؟ ١٣
لا بد من السير على هدي الأنبياء ١٦
أول شروط النجاح؛ إقامة هذا الدين في الضمير وفي الواقع؛ عقيدة وعبادة وسلوكا ١٦
الصفقة الرابحة ١٧
الابتلاء في الأرض سنة ثابتة للمؤمن والكافر ١٨
محصلة فترة بناء العقيدة (متى تستحق الفئة المؤمنة نصر الله؟) ١٩
الخطوات الطبيعية لإقامة أي فكرة وتحويلها إلى واقع ٢٢
لماذا قضية العقيدة هي وحدها القضية الأولى (دون تفصيلات نظام أو تشريعات)؟ ٢٣
حقيقة الألوهية هي الأصل الذي يقوم عليه بناء هذا الدين كله ٢٤
النفوس المستسلمة لله تعالى تتلقى شرعه ونظامه بالرضى والقبول ٢٦
من سمات المنهج القرآني أنه منهج عملي حركي جاد ٢٨
وجود السلطان ضروري لضمان تطبيق النظام والشرائع ٣٠
ما الحكمة من تأخر نزول النظام والشرائع إلى ما بعد قيام الدولة في المدينة؟ ٣٢
صياغة النظريات في واقع غير مسلم ليس من طبيعة هذا الدين ولا يحقق الهدف ٣٧
ليست وظيفة الإسلام أن يبحث عن حلول لمشكلات مجتمع غير مسلم ٣٩
ماذا عن منهج الدعوة الآن وقد اكتمل نزول الوحي والقرآن؟ ٤١
أهمية إدراك أساس دعوة الناس ٤٣
وهم تنشئه العجلة والحرص غير الواعي على هداية الناس ٤٤

كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة؟ ٤٥
القرآن لم يعرض العقيدة في صورة نظرية ولا صورة لاهوت ٤٦
القرآن يخوض بالعقيدة معركة حية لتغيير الواقع البشري ٤٨
العقيدة تمثلت في واقع حي متحرك يتواكب بناؤه مع بناء العقيدة ٤٩
القرآن يربي الجماعة المؤمنة بالعقيدة على مهل وفي عمق وتثبت (التكيف بالعقيدة) ٥١
لماذا تنزل القرآن منجما؟ وهل طول فترة البناء خاص بالجماعة الأولى؟ ٥٦
خطورة التباين بين التصور والواقع العملي للجماعة المسلمة ٥٧
كما أن الدين رباني فإن منهجه في العمل ومنهجه في التفكير رباني أيضا ٦٢
ضوابط منهج التفكير في الإسلام ٦٣
منهج التفكير الجاهلي يحرر العقل من كل الضوابط ويقدم العقل على الوحي ٦٧
خاتمة الفصل: أصالة المنهج ٦٨
عرض الإسلام في صورة نظرية لن ينشئ الإسلام من جديد ٦٩
خدعة جاهلية ٧٠
المنهج الرباني لهذا الدين هو سر قوته ٧٢
المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة ٧٢

طبيعة المنهج القرآني

المقدمة

ننتقل الآن إلى الحديث عن فصل جديد هو **(طبيعة المنهج القرآني)**، وإذا كنا قد تحدثنا في الفصل السابق عن جيل قرآني فريد فسنتحدث في هذا الفصل عن منهج قرآني فريد أيضاً، ولا عجب في أن يكون منهج القرآن منهج فريد، لأنه منهج الله عز وجل.

وحينما نتحدث عن المنهج القرآني الذي صنع الجيل الأول.. والمنهج القرآني الذي صنع الحركة الأولى ونظّمها.. والمنهج القرآني الذي حدد طريقة البلاغ وطريقة الأداء القرآني أيضاً.. والمنهج القرآني الذي تربت عليه الأمة الأولى، فإننا سنجده منهجاً متفرداً.

وهو منهج فيه من الوجوه ومن الطرق التي عالجت قضايا الإنسان كلها، وأدت إلى تحقيق منهج الله المتفرد في الأرض، والذي أوجد أمة متفردة ذات وظيفة متفردة كذلك. فحينما نتحدث عن المنهج القرآني، أو عن طبيعة المنهج القرآني فسنجد أن هناك قضايا عديدة يتطرق إليها هذا الفصل، وكلها قضايا ذات خطر كبير لا بد أن يعيها أصحاب الدعوة الإسلامية.

وقد رأينا كيف أن الجيل القرآني الفريد قد عاش بهذا القرآن، وتربى على ذلك النبع الوحيد الذي قامت عليه الأمة وقامت عليه الحركة الإسلامية الأولى. وعرفنا كيف تعامل الصحابة مع هذا القرآن، وكيف استطاع هذا المنهج -حينما تناوله الصحابة تناولا صحيحاً، وحينما تعاملوا معه تعاملاً دقيقاً- كيف استطاع أن يخرج لنا نماذج فريدة لم تتكرر في تاريخ البشرية حتى اليوم. وكما نعرف أن الله قد زكى ذلك الجيل بأنه خير أمة أخرجت للناس ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].. أُخرجت من بين دفتي هذا الكتاب.. من هذا القرآن الكريم الجليل، وزكاها أيضا رسول الله ﷺ حينما قال (خير القرون قرني هذا)[١].

ونحن نكرر دائما أنَّ نَصْر هذا الدين لا يقوم إلا على يد طائفة من البشر قد أخذت هذا المنهج القرآني كما أخذه الصحابة، وكما أخذه الجيل الأول. وحتى لو كان هناك فارق بين مستوى الجيل الأول وبقية الأجيال التي تلته، فإنه لا ينبغي أن يكون الفارق في طريقة الأخذ، ولا في طريقة الأداء.. إنما هو فارق في الدرجة، ليس في المنهج، ولا في القيم التي قام عليها هذا المنهج، ولا في صور الأداء التي لا يتحقق المنهج القرآني إلا بها وعليها.

والإنسان لا يشبع حينما يتحدث عن القرآن، وعن فعل ذلك القرآن في قلوب البشر، وفي قلوب المؤمنين به، وفي قلوب العصبة المؤمنة التي تضطلع بأداء الأمانة الكبرى التي خلق الله الإنسان من أجلها. فالحديث عن القرآن دائما حديث يحفّه جلال الألوهية، ويحفه عذوبة هذا الكلام الرباني، وجلال هذا الكلام الرباني، ويحفّه أيضا ودائما خطر القضايا التي يتحدث عنها هذا القرآن، والتي تفرد الإنسان عن بقية الخلق فتجعله ظاهرة فريدة، تحمل قضية فريدة، وتحمل سلوكا فريدا، وتبغي هدفا فريدا، ليكون الإنسان -بحق- خليفة الله في الأرض،

---

١ متفق عليه.

وليكون الإنسان -بحق- مصطفى من الله عز وجل ليقوم بمهمة فريدة أيضا. فالإنسان أُعطي الاختيار، هل يختار السير في طريق العبودية بإرادته وبرغبته وبأشواقه وبإصراره، أم أنه ينزلق إلى التمرد على الله، وإلى البعد عنه؟ فالإنسان هو ذلك المخلوق الذي مُيّز بهذه الميزة، بينما بقية الخلائق -ما عدا الجن- مفطورين أن يعبدوا الله عز وجل. لذلك كان تفرد الإنسان بهذه الصورة التي جعلته مخلوقاً عظيماً سُخّرت له السماوات والأرض، واصطفاه الله عز وجل وجعله خليفة في الأرض.

القضية الأولى والأساسية في هذا الدين وكيف كان اهتمام المنهج القرآني بها

يقول الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- في بداية هذا الفصل: **"ظل القران المكّي يُنَزَّل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة، يحدِّثه فيها عن قضية واحدة.. قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر.. ذلك لأن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنما يطرقها للمرة الأولى."**

ولا شك أن هذا أمر يتفرد به كتاب الله عز وجل؛ أن القضية الواحدة يتحدث عنها الله في كتابه، وتتكرر كثيرا، ولكننا نجد أنها لا تتشابه في طريقة العرض، ولا تتشابه في إيقاعها على القلب، ولا في تذوقها.. ومهما عاودت تلاوة القرآن فستجد مذاقات جديدة.. لو أن قلبك مفتوح وروحك واصلة.. وستجد أن لآيات القرآن -مهما تكررت- مذاقها الخاص، وجمالها الخاص، وعذوبتها الخاصة، فضلاً عن أثرها الخاص في حياة القلب الإنساني المؤمن. ولعل هذا الموضوع قد تحدث عنه الأستاذ سيد بصورة جيدة في سورة يونس عندما تحدث عن طبيعة القرآن، وعن آثار ومذاقات القرآن.. فالقضية الواحدة -رغم تكرارها في القرآن- إلا أنها في كل مرة تأتي في عرض جديد كأنما يطرقها للمرة الأولى، لأنه دائماً يطرقها من زاوية جديدة ويربطها أيضا بعلاقات جديدة، فكأن هذه القضية جديدة فعلا، يراها الإنسان لأول مرة.

يقول **"لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد.."** وحينما يؤكد على أن هذه القضية التي يتكلم عنها هي القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، لا بد أن ندرك خطر هذه القضية، لأنها قضية الوجود كله كما سنرى. ولا شك أن عدم التفات البشرية لهذه القضية الخطيرة هو سبب نكسات البشرية، وسبب ضياع البشرية دائما.

وقضية هذا الدين **"قضية العقيدة.. ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة."**

أهمية قضية الألوهية والعبودية وأثرها على حياة الإنسان

وحينما نتحدث عن قضية الألوهية والعبودية.. فلا شك أن الألوهية والعبودية هما طرفا هذا الوجود، فهما حقيقتان تستغرقان حقيقة الوجود كله.. حقيقة الألوهية ممثلة في الله عز وجل خالق هذا الوجود.. وحقيقة أن كل ما عدا الله سبحانه وتعالى إنما هو في مقام العبودية.

وقدرة الإنسان على استيفاء مذاق هذه العلاقة وخطورتها هو أول خطوة للإنسان في الطريق الصحيح. فحينما يستطيع الإنسان أن ينجح في تصور معنى أن هناك إلهاً، وأن هناك خالقاً، وأن هناك ذاتاً تتصف بكل معاني الجلال والجمال والكمال والتفرد والوجود السرمدي

الأزلي الأبدي، وأنها ليس كمثلها شيء.. ومحاولة الإنسان -بكل ما أوتي من قوة- أن يتخيل ويتعمق خطر هذه الحقيقة وضخامتها وخفائها، بل وجلائها أيضا في نفس الوقت.. ثم يتصور مقام بقية الوجود كله في مقام العبودية الضئيل الهزيل الذي نشأ من عدم، من غير حول ولا قوة، والذي أنشأه هذا الخالق العظيم، ثم صرّفه ودبره.. كل هذه الصور؛ صورة العلاقة بين هذه المخلوقات الضئيلة وهذه الذات السرمدية التي ليس كمثلها شيء.. وما يترتب على ذلك من جدية التفكير فيما يُراد من هذا المخلوق.. وماذا يحق لهذا الخالق.. هذه القضية هي قضية الإنسان الأولى، وقضيته الكبرى وقضيته الأساسية. ولا بد أن يقف الإنسان عندها طويلا لكي تتحدد له -بالضبط- نقطة البداية؛ سواء نقطة البداية في التكاليف، أو نقطة البداية في الشعور بالله عز وجل، أو نقطة البداية أيضا في التعامل مع بقية المخلوقات.. فلا شك أن قضية الألوهية والعبودية هي القضية التي يدور عليها القرآن كله، وتدور عليها دعوات الأنبياء كلهم، وتدور عليها وظيفة الإنسان في الأرض. فوظيفته أن يعرف ما لهذه الألوهية من حقوق، وما لهذه الألوهية من صفات وأسماء ومقام، ثم يحدد من خلال هذه المعرفة ما يستحقه هذا الإله الجليل في علاه، وما ينبغي أن يكون عليه هذا المخلوق..

فالقرآن المكي ظل **"يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد.. قضية العقيدة.. ممثلة في قاعدتها الرئيسية.. الألوهية والعبودية، وما بينهما من علاقة."** كلمات قليلة، ولكنها تشمل الحقيقة كلها. ولو أن الإنسان وقف عندها طول عمره.. بل طول أعمار البشر جميعاً -وأنى له ذلك- فإنه لن يوفيها حقها. وحينما يغفل الإنسان عن التفكر في حقيقة هذه القضية، وحينما ينسى طبيعة هذه العلاقة، ولا يدرك قيمتها ووزنها وحدودها فإنه يفقد الطريق كله، وينتكس، وبدلاً من أن يكون ذلك الخليفة المصطفى من الله ينزل إلى أضل من درك الحيوان والأنعام.

يقول: **"لقد كان يخاطب بهذه الحقيقة "الإنسان".. الإنسان بما أنه إنسان.. وفي هذا المجال يستوي الإنسان العربي في ذلك الزمان والإنسان العربي في كل زمان، كما يستوي الإنسان العربي وكل إنسان، في ذلك الزمان وفي كل زمان!"**

وهذه صورة من صورة الوحدة؛ أن تكون هذه القضية هي قضية الإنسان، منذ خُلق أول إنسان إلى أن يموت آخر إنسان، فهي قضية ليست قابلة لأن تتغير ولا أن تتطور، لأنها قضية قائمة على أسس، أو تتعامل مع حقائق غير قابلة للتغير. فالإنسان هو الإنسان.. وفي أي زمان سيظل هو الإنسان بمكوناته ومقوماته، وسيظل بأهدافه ومنهجه وقيمه، بل وانحرافاته كلها هو صورة الإنسان في كل وقت.

وحقيقة الألوهية هي الحقيقة -أيضا- الثابتة التي لا تزول ولا تحول ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فالله عز وجل هو الذات التي يتعامل معها الإنسان، منذ أول إنسان إلى آخر إنسان، بنفس الصورة وبنفس الطريقة.. والأنبياء جميعا -كما نعرف- جاءوا بمنهج واحد وبهدف واحد وبقيم واحدة، ولم يختلف منهج الأنبياء إطلاقا بعضه عن بعض، إلا في بعض تفاصيل الشرائع التي كانت تتطور مع أطوار الإنسان في علاقته بالدنيا، ولكن الحقائق الأساسية والرئيسة لم تتغير، وهي غير قابلة للتغيير.. والإنسان يُخاطب بهذه الحقيقة دائما.

الإنسان وموقعه من هذا الوجود

ولا شك أن الإنسان -ككيان له خصائصه الذاتية- يختلف حتى عن الجن في قدراته المرنة الواسعة، فالإنسان المخلوق على الأرض غير الجن المخلوقين لوظيفة أخرى، والذي غاظ إبليس وجعله يتمرد على الخضوع لله عز وجل هو غيرته من آدم حينما أحس أن آدم خير منه،

وأعلى وأفضل عند الله، لأن الله طلب منه أن يسجد لهذا المخلوق الإنساني، فغار منه، وأبى أن يسجد له، وأدعى أنه خير منه ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]، ثم توعد ذلك الإنسان بأن يَضله ويغويه، ويبعده عن الشرف الكبير الذي خلق من أجله، وهو العبودية لله.. ولذلك كان ذلك الصراع الممتد الذي قام بين الإنسان وبين الشيطان. فالإنسان خَلقٌ أرفع كثيراً من ذلك الجنس الآخر الذي أُعطي قدراً من الاختيار وقدرا من الإرادة، ولكنه لم يُعطَ ذلك الأفق المتسع الذي يعيش فيه الإنسان ويحققه في الأرض.

والمنهج القرآني يخاطب الإنسان بما أنه إنسان، وهذا يبطل كل ما قالته الفلسفة وما قالته المذاهب البشرية عامة في القديم والجديد من أن الإنسان متغير، وأن الإنسان في كل وقت غيره في وقت آخر، وبالتالي فإنه ليست هناك في حياة الإنسان حقيقة ثابتة، وليس للإنسان في ذاته وجود وكيان ثابت.. فهذه قضية باطلة أرادتها الجاهلية لكي تفسد على الإنسان كثيراً جدا من استقراره وتوجهه الصحيح الى الحقائق الثابتة بكيانه الثابت.

وقضية الثابت والمتغير في حياة الإنسان قضية جديرة أيضا بأن تحرر تماما في حسنا، لأنه ليس كل ما في حياة الإنسان متطور، وليس كل ما في حياة الإنسان ثابت. وإنما هناك حقائق ثابتة، ومحاور أساسية لا تتغير، يدور حولها الإنسان باستمرار. ولكن هناك أيضا صور متغيرة، تمثل الشكل أكثر مما تمثل الجوهر.. وبالتالي فهي لا تؤثر في حقيقة المسيرة، ولا في حقيقة التوجه، ولا في حقيقة الوظيفة التي يقوم بها الإنسان، ولا في القيم التي تحكم سير هذا الإنسان في هذا الوجود.

"إنها قضية "الإنسان" التي لا تتغير، لأنها قضية وجوده في هذا الكون، وقضية مصيره.. قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الأحياء، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الأحياء. وهي قضية لا تتغير، لأنها قضية الوجود والإنسان."

وأهمية إدراكنا أن هذه القضية غير قابلة للتغيير يعطينا الإحساس بأننا نقف على أرض ثابتة، ونتجه لهدف ثابت، وندور حول محور ثابت أيضا. وهذا يعصمنا من الزيغ ويعصمنا من الضلال. بينما البشرية حينما تغير كل محاورها وتطورها، وتجعلها متغيرة ومتقلبة باستمرار، فإن ذلك يجعلها في حالة من الدوار والتخبط الدائم بحيث لا يمكن أن تستقر على وضع، ولا يمكن أن تهدأ على قرار.. لأنها دائمة الحركة العشوائية المضطربة التي لا يمسكها مركز ولا تأوي إلى ركن شديد. بينما الإنسان الذي يعرف الحق جيدا يعرف أن الحقائق ثابتة في حياته، يأوي إليها باستمرار.. وهي واضحة باستمرار ولا تتغير.

وحينما يصاب الإنسان بأي غبش فلا يرى تلك الحقائق الثابتة فليعلم أن بصره قد زاغ، وأنه قد ضل، وأنه قد وضع أمام عينيه غشاوة.. فلا بد أن يحاول إزالة تلك الغشاوة.. ولكن عليه ألا يتشكك في وجود الحقائق الثابتة.. وهذا ما تحاول الجاهلية أن تصنعه دائما؛ أن تزيغ عقول البشر وتزيغ أفكارهم وتضللهم حتى يفقدوا رؤية الحقائق الثابتة فيسهل قيادهم إلى السبل المضللة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦-٧].. فمهمة الشيطان أن يضع هذه الغشاوة على عقول وأسماع وأبصار الناس، فيجعلهم لا يعقلون ولا يسمعون ولا يرون.. ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].. فهذه القضية -قضية غشاوة العقل الإنساني، والبصر الإنساني، والسمع الإنساني- يحاولها الشيطان دائما، لأنه لا يستطيع أن يغير الحقائق الثابتة، لكنه يستطيع أن ينحرف بالإنسان عن زاوية الرصد الصحيحة، فلا يستطيع أن يرى الحقائق الثابتة.. وهذا ما يصنعه الشيطان حينما يتهدد الإنسان فيما نقله عنه القرآن ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].. هذه قضية الإنسان.. قضية تجعلنا ونحن نواجه الجاهلية في أي وقت نستصحب الطمأنينة والاستعلاء، لأننا نواجه قوما يجهلون مهما تعالموا، ومهما تصورنا أنهم على شيء، ومهما تصوروا هم أنفسهم أنهم على شيء فإننا نعلم أنهم ليسوا على شيء، وأننا الأعلى تصوراً، وأننا الأعلى واقعاً.. والتعبير القرآني يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].. فالرسوخ في اليقين وفي العلم بهذه الحقائق الثابتة قضية أساسية وهامة جداً.. فلا بد أن نطمئن أن قلوبنا راسخة، وعقولنا راسخة، وأبصارنا ثابتة، وأسماعنا منضبطة، وكياننا كله قائم على الصراط المستقيم، لا نزيغ عنه لأننا على بصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].. فلا بد أن نكون بهذه الثقة وهذا اليقين وهذا الاعتزاز وهذه الفرحة أن هدانا الله عز وجل إلى هذا الحق الذي يفتقده بقية البشر.

فهذه هي قضية الإنسان التي لا تتغير، لأنها غير قابلة للتغير على الإطلاق.

هل قضية العقيدة مقتصَرة على القرآن المكي؟

"لقد كان هذا القرآن المكي..." وحينما يتحدث عن القرآن المكي فليس معنى ذلك أن القرآن المدني لم يتكلم عن نفس الحقائق.. ولكن لأن القرآن المكي قد تخصص في هذه الحقائق.. بينما القرآن المدني كان مشغولا بتنظيم المجتمع، ومواجهة المجتمعات البشرية، والصراع معها.. فكان -بجانب حديثه عن العقيدة- يتحدث عن النظام، وعن العلاقات البشرية. لكن القرآن المكي ظل على مدى ثلاثة عشر عاما -وهي أطول الفترتين التي عاش فيها رسول الله ﷺ، والتي تنزل فيها الوحي- ظل يركز على قضية العقيدة وما يتصل بها.. **"لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده، ووجود هذا الكون من حوله.."** وكثير من الناس يفتقد هذا التفسير، وكثير من الناس يعيشون لا يعرفون لماذا جاءوا، ومن أين جاءوا، ومن الذي جاء بهم، وإلى أين سينتهون؟ يعيشون في عماية، فيسهل بذلك اصطيادهم وإضلالهم. لكن الإنسان كله -جنس الإنسان- لم يتركه الله، ولم يدعه هملاً لطاقاته وقدراته المتواضعة، ولكن أنزل له كتباً، وبعث له رسلاً، وملأ فطرته وركز فيها الإيمان بالله عز وجل والإحساس بحقيقته وحقيقة الكون.

ضرورة البحث عن الحقيقة والدافع وراء ذلك

"لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء؟ ولماذا جاء؟ والى أين يذهب في نهاية المطاف؟ من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به، وما مصيره هناك؟ وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره؟ ومن ذا يحوره؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على النحو الذي يراه؟ وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، كما يبين له: كيف يتعامل العباد مع العباد؟"

ومحصلة هذه التساؤلات هي العلم الحق، والعلم الجدير بأن يحرص عليه الإنسان.. والذي يفقد هذا العلم فَقَدَ العلم كله، فتصبح كل علوم الحياة هي قشور ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧].. كله ظاهر من الحياة الدنيا لا قيمة له.. لكن العلم الحقيقي هو

الإجابات عن هذه التساؤلات. لأنه حين يجيب عنها إجابة صحيحة، وحين يدركها إدراكاً صحيحاً.. حينذاك يبدأ مسيرته الصحيحة، ويبدأ صعوده في معراج العبودية إلى الحق سبحانه وتعالى.

وجدير بأي إنسان أن يبحث عن هذه الحقيقة.. فالبحث عن الحقيقة ضرورة من ضرورات الإنسان، وإذا لم يبحث عن الحقيقة وتلهى عن البحث بترهات الأرض والأكل والشرب والشهوات والغرائز وأشكال الحياة التي لا قيمة لها فقد ضل ضلالاً بعيداً. فالإنسان الذي ينشغل بأمور حياته الدنيا، وبأمور رزقه.. ولا ينشغل بالبحث عن حقيقة هذا الوجود، وعن مكانه هو في هذا الوجود، وعن دوره في هذا الوجود، وعن مصيره في هذا الوجود فهو إنسان ضلَّ الطريق إلى الحقيقة، وضلَّ قيمته الإنسانية. فهذه الحقائق التي تنشئها هذه التساؤلات حقائق ضخمة جدا ترفع من قدر الإنسان، وترفع من اهتماماته.. فإذا لم يعرفها الإنسان فإنه ينحدر إلى درك أقل من الحيوان ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. فهذه التساؤلات فطرية في طبيعتها، ولا بد أن يقف عندها الإنسان طويلا لكي يصل إلى تصور صحيح فيها.

ولأن الله عز وجل يعلم أن الإنسان قد تعترضه عقبات وغواشي تجعله غير قادر على الرؤية الصحيحة والصافية، رحمه وأكرمه.. فأنزل له الكتب، وبعث له الرسل، ثم استبقى هذا الذكر الحكيم ليظل مع الإنسان إلى يوم القيامة، ليكون بمنزلة النور الدائم الساطع الذي يتجه إليه الإنسان بفطرته النقية.. شوقاً إلى الله وبحثاً عن الحقيقة.

أما الذين يغمضون أعينهم، أو الذين تغشاهم الغواشي فلا يرون هذا النور، ومن ثم لا يسعون إليه، فهؤلاء هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا.

فلا شك أننا في حاجة إلى أن نقف طويلا ونتفكر كثيرا في قضية الوجود، وأن نقف مع هذه التساؤلات نجيب عنها إجابات حقيقية، وليس إجابات سطحية. وهذه الأسئلة قد تبدو ساذجة يسيرة؛ من أنا؟ وكيف جئت؟ وإلى أين سأنتهي؟ لكن كثيرا من الناس وهم يجيبون على هذه الأسئلة لا يدركون عمق خطرها، ولا يرتبون عليها حقيقة مقتضياتها وأهدافها.. وكل الناس تقول لك الله خلقنا.. وكل الناس تقول: سوف نذهب إلى الآخرة وإلى الجنة أو النار.. وتجد أخبث الناس يقول: أنا سأدخل إن شاء الله الجنة! وهم لا يعرفون هذه الحقيقة، ولا مقدارها، ولا ثقلها.. فالمطلوب من المؤمن أن يقف طويلا عند هذه الحقيقة لكي يعطيها وزنها الثقيل، ويقيم على أساسها مقتضياتها الحقة، ولذلك يخبرنا القرآن أن المؤمنين قليل، وأن الضالِّين هم أكثر البشرية ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].. ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].. لماذا؟ لأن الإيمان ليس مجرد علم بارد، أو حقائق سطحية.. الإيمان الحقيقي الذي يتصف به هؤلاء الأقلون هو ذلك الإيمان الذي يستوعب كيانهم، فيعيشون به في قلب الحقيقة، ويسوقهم إلى طريق الحق، فتصطبغ حياتهم به.. أما الذين يلوكون الكلمات ثم لا يدركون معناها، ولا يدركون مقتضاها، ولا يعيشون في أعماقها.. فأولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون صُنعا، لكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك. فلا شك أننا محتاجون إلى أن نقرأ القرآن المكي ونعيش معه، ونستخرج منه هذه الحقائق، ونحاول أن نستحضر نفسية الصحابة الذين سمعوا هذه الآيات أول مرة، ونراهم كيف انفعلوا بها، وكيف عاشوا معها.

وسأعرض عليكم بعض نماذج من تلقي بعض الصحابة لحقائق الوجود.. فسنجد كأنهم دائما يُفاجؤون بها، وكأنهم يعيشونها ويسمعونها لأول مرة، وكأنهم محتاجون إلى أن يتعلموها مرة أخرى من جديد.. وكانوا دائماً -كما قلنا في فصل **"جيل قرآني فريد"**- نتيجة أدبهم

وإحساسهم بقيمة النبوة والعلم الإلهي والوحي الرباني.. كانوا يقفون مما كانوا عليه موقف الخوف والاضطراب والشك، لأنهم كانوا يقفون دائما في موقف العبودية الذي ينبغي أن تتعامل مع الله وتتعامل مع رسوله بذلك الأدب الخاص الذي يجب أن يقفوا عنده، **"وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود "الإنسان"، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الأزمان."**

ومهم جداً حينما نبحث عن هذه القضية أن نحرر الدافع وراء هذه البحث، فقضية هذا الوجود شغلت الإنسان في فترات حياته كلها، وشغلت الفلاسفة أنفسهم.. ولكن هناك فارق كبير بين الدافع لمن يبحث عن الحقيقة ليعيشها ويقوم بمقتضاها، وبين البحث العلمي الفارغ من الدافع الإيماني، والذي يبحث عن الحقيقة لمزيد من المعرفة، أو لمجرد حب الاستطلاع ولمجرد التفلسف والتعالي.

فمهم جدا أن نسعى إلى التعرف على الحقيقة بدافع الشوق الى الحق، وملء النفس بالإيمان، والاستعداد للخضوع لمقتضيات هذه الحقيقة، وبقدر وجود هذا الدافع، وصدقه وعمقه تنفتح لنا آفاق هذه الحقيقة، ونُعان على تلقيها، ونُعان أيضا على الالتزام بمقتضاها.. فلذلك -كما قلنا قبل ذلك- كان الصحابة يقولون: أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن.. وكل الناس سمعوا القرآن، وكل الناس أعجبوا بالقرآن، حتى أبو جهل والأخنس بن شريق، وكثير من طواغيت العرب أعجبوا جدا بالقرآن، لكنهم لم يستفيدوا منه، لأنهم تلقوه تلقي المعجب والمبهور، ولم يتلقوه بإحساس الراغب في أن يعرف ما وراء هذا القرآن من حق.

فالذين أوتوا الإيمان كانوا يريدون الحق ليخضعوا له، فإذا سمعوا القرآن وجدوا بغيتهم فيه وخضعوا له. أما الذين لا يريدون الله ولا يريدون الحق فكان القرآن يقهرهم بإعجازه وبعظمته، لكنه لا يغير من حياتهم شيئاً، وهذا هو الفارق بين الذين أوتوا الإيمان قبل القرآن والذين لم يؤتوا الإيمان ولا القرآن. فالبشرية كلها في كل أوقاتها تسمع القرآن، ولكن كم من الناس يفرح بالقرآن؟ وكم من الناس يعيش بالقرآن؟ وكم من الناس يخضع خضوع الراضي الفرح بأنه وجد الهدى ووجد النور فيسبح فيه وهو جذلان بهذه الحقيقة؟ فالدافع وراء البحث مهم جدا لكي نعيش هذه الحقيقة.

ولا شك أن الله عز وجل حينما يطّلع على قلب إنسان فيراه مشتاقاً إليه ومشتاقاً إلى معرفته فإنه يصب عليه رحمته صبا، ويصب عليه نوره صبا، ويسوقه إلى الحق بكل الوسائل، حتى يملأه ويثبته، ويجعله فعلا عبدا خالصا له.

أما إذا رأى الله تعالى من العبد أنه يريد أن يتعالم، أو أنه مشغول وهو يبحث عن الحق بشهواته ونزواته ورغباته، فإنه لا يعينه ولا يسوقه إلى الهدى.

لا بد إذن من البحث، ولا بد أن يكون الدافع من البحث دافعا صادقا مشوقا. وكما قلت إن هذه الحقائق الهائلة الفطرية التي تبدو سهلة وبديهية هي الحقيقة، وهي من العظمة والخطر بحيث أنها ترفع من قدر الإنسان ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].. ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۞ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۞ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ

كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۞ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩-٢٥].

ما المدى الذي يجب أن تستغرقه القضية الكبرى؟ وكيف نعرف أنها استوفت حقها؟

"وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاماً كاملةً في تقرير هذه القضية الكبرى، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات."

وواضح أن الأستاذ سيد يؤكد المرة تلو الأخرى، وسيظل يؤكد أن قضية العقيدة وقضية لا إله إلا الله هي القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان، وهذا الأمر كان يفهمه صحابة رسول الله ﷺ فهماً عميقاً وجاداً، لا يقولونه كلاما كما يقوله الناس الآن، أو كما نقوله نحن في كثير من الأحيان.. إنما كانوا يقولونه، وكانوا يعيشونه، وكانوا يعرفون أن ليس هناك شيء في حياتهم مُقدَّم على هذه القضية، أو بمعنى أدق ليس هناك شيء في حياتهم إلا هذه القضية.

وهذا الأمر هو الذي صنع الجيل الأول، لأنه عاش مع حقيقة الألوهية، وعاشت مشاعره حية مستيقظة مع شعورهم العميق بالله سبحانه وتعالى فكما نعلم أن الرسول ﷺ قد عاش بينهم نبياً لثلاثة وعشرين عاما، ثلاثة عشر عاما كاملة قُضيت في هذه القضية الواحدة.. وهذا الأمر لا بد أن يعني أمرا كبير حينما نعلم أن الله مُنَّزِل هذا القرآن قد أفرد لهذه القضية كل هذه المساحة من الزمان، لكي تتعمق في القلوب، ولكي يعيشها الجيل الأول الذي نيط به إقامة هذا الدين في واقع الحياة.

"ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقراراً مكيناً ثابتاً في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان، التي قدَّر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين."

فكل هذا القدر من الزمان، وكل هذه السور القرآنية التي نزلت من القرآن المكي كانت تركز على هذه القضية الأساسية، ولم ينتقل القرآن منها إلى أي قضايا أخرى إلا بعد أن علم الله أنها استوفت ما تستحقه من البيان.

ولذلك نحن نقول إننا حينما ندعو أي إنسان إلى هذا الحق ينبغي أن تأخذ قضية العقيدة المساحة الكبرى في الدعوة وفي البيان، وفي تربية المدعو إلى الله. سواء في المرحلة السرية التربوية الفردية، أو في مرحلة العلانية قبل التمكين ينبغي أن تكون هذه القضية هي التي تأخذ المساحة العظمى، بل المساحة كلها قبل أن ننتقل منها إلى أي فرعيات أو تفريعات متعلقة بنظام الحياة.

وواضح أن الله سبحانه وتعالى لم ينقلهم في الآيات المكية من قضية العقيدة والتوكيد عليها إلى بقية القضايا إلا بعد أن علم سبحانه أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان في عقولهم، وأنها قد استقرت في قلوبهم.

أما كيف نعرف أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان؟ فذلك من خلال آثارها في قلوب من يعيشها ويتلقاها. فحينما نجد الناس الذين تلقوها قد انفعلوا بها حقا، وأنها تسيِّر حياتهم، وتضيء طريقهم، وتشكل مشاعرهم، وتصبغ سلوكياتهم، نعرف أنها قد استوفت حقها من البيان.

فليست القضية قضية اقتناع عقلي، أو كمية البيان النظري. ولكن لكي نعرف أنها قد استوفت حقها من البيان لا بد أن يكون لها ثمرات في حياة هؤلاء الذين يعيشونها ويتبعونها، ولا يكون ذلك إلا من خلال ما تُحدثه من انقلاب في حياة هؤلاء الناس.. انقلاب في سلوكياتهم، وفي قيمهم، وفي مشاعرهم، وفي تحركاتهم، وفي ولائهم وبرائهم، وفي عباداتهم ونُسكهم... وحينما نرى أنها قد غيرت حقا وأنها قد أثرت تأثيرا واضحا في حياتهم العملية وفي خطواتهم السلوكية نعرف أنها قد استقرت واستقامت في حياتهم. وليست العبرة بالوعي النظري، ولا التكرار القولي.. وإنما بتمثل هذه الحقيقة في حياتهم واقعا يعيشونه.. كما تمثل في حياة الصحابة الأوائل في وقوفهم العظيم أمام كل ما عذبتهم به قريش، وكيفية تلقيهم ذلك العذاب وذلك التخويف وسخريتهم ورفضهم لكل ما حاولته قريش من فتنهم وإبعادهم عن هذا الحق.. وهذا أمر نجده في كثير من سلوك الصحابة، وليس كبارهم فقط... فمثلا زنيرة التي عذبوها حتى فقدت بصرها، أخذوا يقولون لها: لقد أعمتك اللات والعزى لأنك كفرت بها، فاستهزأت بهذا وقالت: والله لا تدري اللات والعزى شيئا ولكن هذا من الله، فرد الله عليها بصرها[٢]... بلال العبد الذي لم يكن له قيمة في المجتمع العربي تحدى سلطان قريش كلها، وظل يقول: أحدٌ أحدْ على الرغم من درجة العذاب التي يحكيها لنا بلال فيقول: إن النار كانت تُطفأ من الدهن الذي كان يسيل من جسدي من قسوة العذاب... هذا هو معنى استقرار حقيقة لا إله إلا الله، وليس معناها أنه قد حفظها وفهمها نظريا... ورأينا كيف كان عثمان بن عفان يُلف في الحصير ويُعلق من قدميه وتوقد النار من حوله حتى تحترق الحصير من حول جسده ولا يعود عن عقيدته.. وكيف كان مصعب بن عمير يُكبَّل بالحديد ويُمنع عنه الأكل والشراب ويضرب وهو الفتى المدلل الذي كانت تعرفه قريش برائحة عطره حينما يمر في الأسواق وفي الطرقات.. هذا الفتى المدلل يحتمل كل هذا العذاب ويسخر منه حتى تيأس منه أمه..

وهكذا حينما نستعرض كل صور الفتنة التي عُرِّض لها الصحابة.. وثباتهم إزاءها ندرك أن هذا كان مقياس رسوخ هذه القضية الأساسية في حياتهم واستقرارها، وليس المقياس هو الاستيعاب النظري ولا الحفظ النظري، وكما كان الثبات إزاء الفتنة مقياساً لرسوخ قضية العقيدة كان الاستعلاء والاعتزاز والإصرار الذي كان يبدو في حياة الصحابة مقياساً كذلك.. فحينما يقول سعد بن أبي وقاص لأمه: والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت هذا الدين فكلي وامتشطي أو لا تفعلي، وكان يُعلم عنه أنه من أبر الناس بأمه، وكانت أمه قد أقسمت ألا تأكل أو تمشط شعرها حتى يرجع عن دينه، فإننا ندرك من ذلك عمق قضية العقيدة وثباتها في نفسه.

كذلك يبدو استقرار حقيقة العقيدة ورسوخها في سلوك الإنسان، فلا يكون مراوغاً، ولا يكون كاذباً، ولا يكون مُسْتحِلاًّ للحرمات، ولا يكون ظاهره غير باطنه...

وهكذا ينبغي أن تبدو هذه الحقيقة في حياتنا ثابتة من خلال سلوكنا.. فنكون حريصين على أوقاتنا، حريصين على أخلاقنا، حريصين على حدود الحلال والحرام، حريصين في حديثنا من الكذب والمبالغة، حريصين في تعاملاتنا مع أنفسنا ومع إخواننا ومع أهلينا على العدل والرفق، وحريصين على العفاف.. فحينما تبدو سلوكياتنا مستقيمة مع قضية لا إله إلا الله نقول حينئذ أنها استقرت في قلوب العصبة

---

٢ الإصابة في تمييز الصحابة. ج٨. ص١٥١.

المؤمنة المختارة التي نِيط بها أن تقيم دين الله في الأرض، وليس أننا قرأنا عدداً من الكتب وكم عشنا معا.. نحن حينما نجد في سلوكياتنا مصداق هذه الحقيقة فإنه يحق لنا أن نأمل في نصر الله عز وجل وليس قبل ذلك.. فهذا هو ما حدث للصحابة رضوان الله عليهم فحينما تمكنت هذه الحقيقة في نفوسهم في مكة أذن الله لهم بالهجرة ونجاهم من الفتنة، ومكنهم من إقامة دولتهم التي كانت هي البداية الحقيقية للمد الإسلامي في الأرض، لكن قبل ذلك لن ينزل نصر الله، فالله سبحانه وتعالي لا ينطلي عليه الزيف ﴿ الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

لا بد أن نمحو كل القيم الجاهلية من قلوبنا ومن سلوكياتنا في شتى مجالات الحياة وأن نصبغ حياتنا كلها بالإسلام ولا نستبقي جزءاً واحداً منها لم ينصهر في بوتقة الإسلام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].. لكن أن نقول كلاما ونفعل غيره، أو أن يكون لنا باطن غير ظاهرنا، أو يكون لنا ادعاء غير ممارساتنا، فهذا بيانٌ ساطع على أن قلوبنا ليست ممتلئة بهذه الحقيقة.. والآن لنقرأ هذه الفقرة مرة أخرى لكي ندرك معناها ونعيشها.. يقول الأستاذ سيد قطب: **"ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان، وأنها استقرت استقراراً مكيناً ثابتاً في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان، التي قدَّر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين."**

إن قضية العقيدة من الجلال ومن الجمال بحيث لا يمل من امتلأت بها نفسه وعاشتها جوارحه من تكرارها وتردادها ولذلك يكرر الأستاذ سيد -رحمه الله- مرة أخرى، ويصر على هذا التكرار، فيقول: **"وأصحاب الدعوة إلى دين الله. وإلى إقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة، خليقون أن يقفوا طويلا أمام هذه الظاهرة الكبيرة، ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً لتقرير هذه العقيدة، ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها."** وأصحاب الدعوة -وهذا خطاب لأصحاب الدعوة المعاصرين- إلى دين الله ما يفتؤون يلقون من معسكر الجاهلية السخرية والاستهزاء رجاء أن ينقلوهم من هذه النقطة الثابتة التي اختارها الله لهم إلى أن يتحولوا إلى الحديث عن النظام وعن التشريعات وعن التفريعات ليتسع مجال الجدل والنقاش والمساومة على فرعيات أو على مقتضيات الحقيقة الأولى الثابتة، وإن علينا نحن الدعاة إلى دين الله ألا ننزلق إلى تلك السراديب والدهاليز المظلمة، فأصحاب الدعوة إلى دين الله لا يجوز لهم أن ينهزموا ولا أن يُخدعوا ولا أن يُستدرجوا إلى أن يتركوا قاعدتهم الراسخة إلى منحنيات وأساليب معوجة غير ما اختاره الله لهم.

"لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الأول للرسالة، وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا: أن لا إله إلا الله، وأن يمضي في دعوته يعرِّف الناس بربهم الحق، ويُعَبِّدَهم له دون سواه."

ونحن لا نستطيع أن نتذوق روعة البداية بلا إله إلا الله إلا حينما نعرف مقام الألوهية، وحينما نستشرف معنى الوحدانية ومعنى الكمال الرباني والعظمة القاهرة التي ينبغي ألا نُقَدِّم على التعريف بها شيئاً آخر مهما كان.. حينما ندرك عظمة الله وحينما نحب الله حق الحب وحينما نعتز بانتسابنا إلى الله حق الاعتزاز.. حينذاك سنعرف لماذا نُصِرّ أن تكون البداية دائما أن ندعو إلى هذا الإله الذي نعظمه ونحبه ونشتاق إليه ونعرف قدره وجلاله، حينذاك لن تستخفنا سخريات القوم، ولن تستخفنا آراء الناس، ولن ننهزم أمام سخرية الجاهلية منا وقولهم:

إننا لا نملك غير هذه الكلمة ولا نملك من العلم إلا هذه الكلمة، وأننا لو كان عندنا علم بالفروع وبالأصول وبالقضايا الأخرى لتكلمنا فيها.. كما سنشرح بعد قليل.

ولكننا بقدر إجلالنا لله وبقدر حبنا له وبقدر معرفتنا بعظمته سبحانه سنستمد القوة والإصرار على ألا نتخطى هذه النقطة الأولى التي بدأ بها رسول الله ﷺ بوحي من ربه، فكانت خطوته الأولى أن يدعو الناس إلى لا إله إلا الله، وأن يعرّفهم بربهم الحق، وأن يعبدهم له دون سواه.

البدء بالعقيدة هي أيسر السبل لإقامة هذا الدين

"ولم تكن هذه -في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب- هي أيسر السبل إلى قلوب العرب!فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى "إله" ومعنى: "لا إله إلا الله". كانوا يعرفون أن الألوهية تعني الحاكمية العليا.. وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله -سبحانه- بها، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام، وردَّه كله إلى الله.. السلطان على الضمائر، والسلطان على الشعائر، والسلطان على واقعيات الحياة، والسلطان في المال، والسلطان في القضاء، والسلطان في الأرواح والأبدان.. كانوا يعلمون أن "لا إله إلا الله" ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية، وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله..."

والعقل البشري المحجوب يتصور أن نقطة البداية هذه ليست هي أيسر السبل إلى قلوب الناس، وهذا تصور جاهل وسطحي وممجوج، لأن الحقيقة -كما سيتبين لنا- أن هذه هي أيسر السبل إذا نظرنا إلى الهدف المطلوب، وإلى طبيعة الفطرة الإنسانية، وإلى طبيعة العقل البشري في جدله ونقاشه واختلافه، وإلى بساطة هذه البداية التي يترتب عليها هذا البناء الضخم.

لكن العقل البشري المحجوب القاصر يتخيل أنه حين يدعو الناس بطرق أخرى فإن هذا قد يكون أقرب إلى نفوسهم مما إذا دعوا في البداية إلى هذه القضية العظمى والكبرى التي تواجه أمورا ضخمة في حياة البشر وأن البداية بهذه القضية ستكون أصعب فهماً وأشق التزامات وخاصة على أولئك الذين تقرع أسماعهم أول مرة. فحينما تدعوهم إلى التنازل عن معتقداتهم وعن آلهتهم وعن عاداتهم وعن أمجادهم وعن عصبياتهم وعن سلطانهم وعن كل تاريخهم فلا شك أنه يبدو -لأول وهلة- أن التنازل عن هذا كله صعب جدا. ولكن الحقيقة أن الأمر ليس كذلك لأسباب سنشرحها بعد قليل.

سلطان الله على كل شيء، هل هذا مجرد مفهوم سياسي؟

وحينما يعدد الأستاذ سيد -رحمه الله- هنا نواحي سلطان الله عز وجل، وأنه سلطان على الضمائر، وسلطان على الشعائر، وسلطان على واقعيات الحياة، وسلطان على المال، وسلطان في الأرواح والأبدان وفي القضاء، وسلطان على الواقع الأرضي والسلطان الأرضي، وعلى الأوضاع التي يقوم عليها بالاغتصاب، وعلى الحكام والسلطات التي تحكم الشعب بغير شريعة الله.. حينذاك يتبين لنا أن معنى توحيد الألوهية وإفراد الله سبحانه وتعالى بها ليس معنىً جزئياً، ولا معنى يختص بجانب من جوانب الحياة دون بقية الجوانب الأخرى..

ويقف الإنسان متعجبا من بعض الناس الذي اتهموا سيد قطب وأبا الأعلى المودودي بأنهم حددوا معنى العبادة ومعنى الدين في المفهوم السياسي فقط، وأغفلوا معنى العلاقة المباشرة بالله، ومعنى التعبد والتنسك والشعائر..

وكلمات الرجل واضحة هنا؛ أن سلطان الله على الضمائر يعني السلطان على المشاعر وعلى الأفكار وعلى الخواطر.. وسلطانه على الشعائر يعني النسك والعبادة من صلاة وصوم وحج وعمرة وذكر.. وسلطانه سبحانه على واقعيات الحياة كلها يشمل السلطان على المال وعلى القضاء.. وغيرها فهو سلطان على الأرواح وعلى الأبدان.

فالذين يقولون إن سيد قطب حصر دعوته في الحاكمية على مفهومها السياسي فقط.. هؤلاء قد جانبوا الصواب، لأن كلامه من الوضوح بحيث لا يدع لأحد مجالاً لهذا الفهم المغلوط.. فالأمر إذن هو رغبة في محاربة الاتجاه، أو هو تضخيم -عندهم- وانحراف في معنى التنسك والشعائر على حساب واقعيات الحياة الأخرى. وهو اتجاه -كما نعلم- كثير من التيارات الإسلامية التي ترى أن الإسلام هو مجرد عقيدة فقط، وتركيز من بعضهم في توحيد الأسماء والصفات.. أو تركيز من بعضهم الآخر على التنسك والتعبد، فيستبعدون السياسة والاقتصاد والتدخل في أمور الحياة الواقعية من اهتمامهم، أو من دعوة الإسلام أصلا.

فالأستاذ سيد هنا يجعل تصور التوحيد تصورا شاملا كاملا، مسيطرا على الحياة كلها، بما فيها من المشاعر والأفكار والخواطر، وما فيها من النسك والتعبد والسياسة والاقتصاد والعادات والتقاليد وشتى نواحي الحياة. فالذين يتهمون سيد قطب وأبا الأعلى المودودي بأنهم حصروا الإسلام في زاوية ضيقة هم في الحقيقة يفترون افتراءً واضحا.. ولو أنصفوا لأدانوا أنفسهم ولعلموا أنهم أتوا هذا الفهم الخاطئ من حصرهم الإسلام في قنوات محدودة، أو في ناحية واحدة وإغفالهم شموله. وهذا موجود؛ في جماعات شتى مما تكتظ به الساحة اليوم.

والعجيب أن الشيخ أبا الحسن الندوي في كتابه: "التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب" الذي ينتقد فيه الأستاذ سيد والمودودي يتهمهم بأنهم يتحدثون عن الإسلام السياسي وأنهم تركوا الحديث عن العبادة، مع أنهم يحددون أن مفهوم العبادة مفهوم شامل لكل تصرفات الإنسان من المهد إلى اللحد، وأن التنسك هو جزء من عبادة الله لكنه ليس كل عبادة الله.. ولكن لأن أبا الحسن الندوي -الذي عرف عنه أنه من جماعة التبليغ، على الرغم من سعة علمه وتوقد ذهنه اللذين ظهرا في كتابه القيم "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"- غلبه التعصب لهذه النقطة.

إلا أن كلام الأستاذ سيد هنا، وفي كل الكتاب بعد ذلك سيدحض هذه الفرية وهذه التهمة تماما، فسلطان الله هو سلطان على كل شيء..

لماذا العقيدة أولا، رغم الصعوبات الظاهرية؟

"ولم يكن يغيب عن العرب -وهم يعرفون لغتهم جيدا، ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة "لا إله إلا الله"- ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة -أو هذه الثورة- ذلك الاستقبال العنيف، وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام..

فَلِمَ كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ وَلِمَ اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟"

وهو في الحقيقة عناء ظاهري، وليس عناء حقيقيا، فأي اقتراحات أخرى للبدء بالدعوة غير البدء بلا إله إلا الله مكتوب عليها الفشل منذ البداية، لأن أي بداية أخرى غير الدعوة إلى لا إله إلا الله، أي إلى حاكمية الله العليا المسيطرة على كل شيء في الوجود، وعلى كل شيء في حياة الإنسان، مكتوب عليها الفشل، لأنها مدخل غير طبيعي، وسوف تفشل في صياغة الإنسان وفي صياغة الواقع -أيضا- صياغة صحيحة مادامت لا تقوم على هذه البداية الصحيحة.

لماذا لم يبدأ الرسول ﷺ دعوته بأي شيء غير الدعوة إلى التوحيد؟

وهنا يبدأ الأستاذ سيد بذكر بعض المقترحات التي قد يظن البعض أنها تمثل بدايات بديلة أكثر يسرا لإقامة الإسلام. فيذكر اقتراح بعض الناس أو تساءلهم؛ لماذا لم يبدأ رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى قومية عربية يعلي فيها شأن العرب على بقية الأجناس الأخرى كفارس والروم الذين كانوا قد استعمروا واقتطعوا أخصب بلاد العرب في الشمال وفي الجنوب، وأن رسول الله ﷺ كان يستطيع أن يستثير عصبية العرب لعربيتهم ولقوميتهم العربية، ويثير في أنفسهم العداء والثورة على سلطان فارس والروم، وأن العرب كانوا سيستجيبون له في هذه الدعوة إلى هذه القومية.

وهذا الاقتراح قد يراه البعض اقتراحا جيدا، فالعرب يمكن أن تستهويهم هذه الدعوة إلى القومية العربية، فيتحمسون إلى إعلاء الجنس العربي والانتقام من الفرس والرومان الذين أذلوهم واستعمروهم، ولكن هذه الدعوة بهذه الصورة من الممكن أن تصطدم بالعصبيات الكثيرة المتفرقة داخل الكيان العربي الكلي، لأن العرب لم يكونوا قبيلة واحدة، ولم يكونوا أباً واحداً، وقد رأينا في حروب الردة كيف اتبع كثير منهم مسيلمة وقالوا: والله إننا لنعلم أنه كذاب ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر.. فما الذي يجعلهم يسيرون وراء محمد القرشي ولا يسيرون وراء مسيلمة النجدي؟ فكان من الممكن أن تقوم عصبيات كثيرة، ولا يستجيبون إلى دعوة من يدعوهم إلى القومية العربية، لأن معنى ذلك أن يتملكهم رجل من قبيلة غير قبيلتهم، ولا بد أن تخضع له بقية القبائل. فلم يكونوا ليخضعوا حتى لو دعوا إلى القومية العربية.

ولكن حتى لو تصورنا أنهم استجابوا لهذه الدعوة.. فما الذي كان سيتغير في حياتهم؟ كانوا سينتقلون من طاغوت فارسي أو طاغوت روماني إلى طاغوت عربي، سيحكمهم بفكره وعقله وطموحاته، وبانحرافاته وظلمه أيضا، وما كان ليحكمهم لِيُعبِّدهم لله. فإذا كان الهدف من دعوة الأنبياء هي تعبيد الناس لله فأي دعوة تبدأ بغير البداية بلا إله إلا الله والخضوع لله عز وجل خالق الناس فستكون خروجا -ابتداء- عن الهدف، فضلا أنه لن يتحقق بها خير للبشرية، لكن مع الدعوة إلى الهدف الأكبر -وهو تعبيد الناس لله- سيتحقق للناس مصلحتهم الدنيوية ومصلحتهم الأخروية معا. فدعوة الناس إلى القومية العربية -حتى لو تصورنا أنهم قبلوها وخضعوا لها- فإنها ما كانت لتحقق الهدف الذي جاء من أجله الأنبياء، وما كانت لتحقق مصلحتهم الدنيوية أيضا.

فالدعوة إلى الأرض، وإلى القومية هو خروج عن منهج الأنبياء الذين جاءوا لِيُعَبِّدوا الناس لله، فإذا دعوهم إلى راية بشرية؛ سواء كانت عربية أو غيرها، فهو انتقال من طاغوت إلى طاغوت، وكما يقول: **"فالطاغوت كله طاغوت!إن الناس عبيد لله وحده، ولا يكونون عبيداً لله وحده إلا أن ترتفع راية: "لا إله إلا الله" -لا إله إلا الله كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته- لا حاكمية إلا لله، ولا شريعة إلا من الله، ولا سلطان لأحد على أحد، لأن السلطان كله لله، ولأن "الجنسية" التي يريدها الإسلام**

للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله. وهذا هو الطريق..."

وهذا الاقتراح الذي قد يبدو عند بعض الناس أقرب إلى تجميع الناس ليس هو الطريق. لأن الناس لن يكونوا عبيدا لله إلا حينما يدعون إلى "لا إله إلا الله". ومهمة الأنبياء ليست مهمة دنيوية يجمعون الناس عليها، وليست سلطاناً أرضياً يريدون أن يحوزوه، وإنما هم عبيد لله، ورسل من الله، جاءوا ليعبّدوا الناس لله وحده، ليكونوا تحت سلطان الله، ولا يكونون تحت أي سلطان آخر. فالله سبحانه وتعالى لم يوجه رسوله ﷺ أن يبدأ بهذه البداية الخاطئة التي يظن بعض الناس أنها كان من الممكن أن تكون أيسر في دعوة الناس إلى الله.

والاقتراحات الأخرى أقل شأنا وأكثر خطأ.. فسواء دعوة الناس إلى ثورة اقتصادية، أو ثورة طبقية؛ ثورة طبقة الفقراء على الأغنياء من أجل أن يتغلب بهم الداعية على بقية القوم ثم يقودهم بعد ذلك إلى الله ويدعوهم بعد ذلك إلى توحيد الله، لأن العرب كانوا ينقسمون إلى طبقتين؛ طبقة الأغنياء والسادة، وطبقة الفقراء والعبيد. ويظن بعض الناس أن دعوة الفقراء والعبيد وإغراءهم بالسلطان وإغراءهم بأن يكونوا هم أصحاب القوة لينتقموا من الأغنياء قد تكون طريقة من طرق جمع الناس، ثم بعد ذلك يدعوهم إلى لا إله إلا الله.

وهذا أيضا ظنٌ واهٍ تماما، فسواء تحقق هذا الظن واستجابت الكثرة الفقيرة المعذبة للرسول ﷺ فإن القلة صاحبة السلطان ما كانت لتخضع وتسكت أبدا عن هذا الوضع.. وحتى لو سكتت ورضخت فهذا يعني أن الدعوة قد قامت على إثارة النوازع البشرية، وكما تدعو الشيوعية إلى زرع الكراهية وزرع الصراع الطبقي والحقد الطبقي بين الناس؛ بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء، وأن يأتي حكم البروليتارية -طبقة العمال- لينتقموا من هؤلاء الرأسماليين الذين كانوا يستعبدونهم.. فكأن هذا الاقتراح هو اقتراح يؤدي إلى إخراج أسوأ ما في النفس الإنسانية لتقوم عليها حياة المجتمع، وهذا أيضا -فوق أنه مخالف للهدف الأول الذي جاء من أجله الرسل- فهو مُفْسِد للحياة البشرية في الدنيا وفي الآخرة. ومن ثم يكون هذا الاقتراح.. اقتراح ثورة اقتصادية أو اجتماعية ضد الأغنياء بعد تجميع الفقراء وإثارة أحقادهم وحماسهم ضد الأغنياء اقتراحاً خاطئاً ومن ثَمَّ فلم يكن هو الطريق، لأن الله يعلم أنهم لن يحققوا بهذا الطريق الهدف الذي من أجله جاء الأنبياء.. **"لقد كان الله -سبحانه- يعلم أن هذا ليس هو الطريق.. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل، يرد الأمر كله لله، ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة التوزيع، ومن تكافل الجميع، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه سواء أنه ينفذ نظاماً شرعه الله، ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء. فلا تمتلئ قلوب بالطمع، ولا تمتلئ قلوب بالحقد، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا، وبالتخويف والإرهاب!ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح، كما يقع في الأوضاع التي تقوم على غير "لا إله إلا الله"."**

رأينا كيف أن الأوضاع في الرأسمالية وفي الشيوعية وفي أي وضع من أوضاع البشرية تقوم على الحقد وعلى الضغائن وعلى الظلم وعلى الالتواء، وعلى كل أنواع الفساد النفسي الذي يتعرض له الإنسان. ولكن حينما يكون العدل منبثقا من وقوف الناس جميعا على قدم المساواة أمام رب واحد وأمام قوة واحدة، يستمدون منها نظامهم، ويستجيبون لما يأمرهم به من صور الإنفاق ومن صور التوزيع، حينذاك يستتب في قلوب الناس الحب والتعاون، ويتحقق في المجتمع العدل والتكافل والتعايش.. وبغير ذلك لا تقوم عدالة اجتماعية.

فلهذا كان هذا الاقتراح اقتراحاً واهماً، وبعيدا عن تحقيق أي خير للبشرية، كما أنه بعيد جدا عن تحقيق هدف الأنبياء ومراد الله عز وجل من خلق الإنسان.

أما الاقتراح الثالث، وهو أن يقوم رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى الترفع الأخلاقي، والعودة إلى الفطرة الطيبة السليمة، وإقامة مجتمع يقوم على القيم الكريمة الفاضلة، في مقابل ما يعج به المجتمع الجاهلي من فساد أخلاقي ومن انحطاط في كل صور الحياة؛ سواء كان في حبهم للخمر، أو في حبهم للزنا، أو في صور كثيرة من صور الظلم الاقتصادي من ربا وغيره...فهذه الدعوة الأخلاقية هي أشد صعوبة على المجتمع الجاهلي، لأن أهل الجاهلية حينما يعيشون في مستنقع الانحطاط الأخلاقي، ويستمرئون طعم الفساد، قلما يقبلون من أحد من المصلحين أن يخرجهم من هذا المستنقع. ونادر جداً من يتوجه إلى هذه النظافة الخلقية. وحتى لو استجابوا فإن النظافة الخلقية والتوجه الخلقي لا يتحقق فعلا إلا من خلال إيمان بالله وخوف من الله وحرص على إرضاء الله عز وجل.. **"ولكن الله -سبحانه- كان يعلم أن ليس هذا هو الطريق!**

كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة، تضع الموازين، وتقرر القيم، كما تقرر السلطة التي تستند إليها هذه الموازين والقيم، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين. وإنه قبل تقرير هذه العقيدة، وتحديد هذه السلطة تظل القيم كلها متأرجحة، وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك، بلا ضابط، وبلا سلطان، وبلا جزاء!"

وعلى هذا المقياس يصبح كل طريق آخر وكل اقتراح آخر لأي بداية من البدايات مرفوض، وغير متناسق مع مراد الله عز وجل الذي يريده من الناس، ولا يحقق ذلك الهدف الأرضي الذي يظنه بعض الجهلاء أو المنهزمين أمام النظام الجاهلي ويقترحونه.

وحينما بدأ الرسول ﷺ بلا إله إلا الله واستجاب الناس على هذا النحو الذي سجله لنا التاريخ، وسارت الأمور -كما نعلم من سيرها في الجيل الأول- تحقق الهدف في واقع الحياة منذ تحقق ذلك الهدف الأول [لا إله إلا الله] الذي استجاب له أول مرة نفرٌ قليلون، ثم اتسعت القاعدة، ثم حدث النصر الأخير، وحدثت بعد ذلك الفتوحات.. كل هذا لأن نقطة البداية كانت صحيحة، وترتب على هذه النقطة الصحيحة والبداية الصحيحة كل الأهداف التي كان هؤلاء المقترحون يقترحونها؛ تحققت الحرية والعزة الإنسانية، وتحققت العدالة الاجتماعية، والاقتصادية، وتحقق أيضا الترفع الأخلاقي والارتفاع النفسي لدى هؤلاء العرب الذين كانوا يعيشون الجاهلية بكل سوءاتها وانحطاطها.

"فلمَّا تقررت العقيدة -بعد الجهد الشاق- وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة.. لَمَّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده.. لَمَّا تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء.. لَمَّا تقررت في القلوب "لا إله إلا الله".. صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.. تطهرت الأرض من "الرومان والفرس".. لا ليتقرر فيها سلطان "العرب". ولكن ليتقرر فيها سلطان "الله".. لقد تطهرت من سلطان "الطاغوت" كله.. رومانياً، وفارسياً، وعربياً، على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته. وقام "النظام الإسلامي"، يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده، ويسميها راية "الإسلام". لا يقرن إليها اسماً آخر، ويكتب عليها: "لا إله إلا الله"!

وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر حتى للحدود والتعازير التي شرعها الله -إلا في الندرة النادرة- لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر، ولأن الطمع في رضى الله وثوابه، والحياة والخوف من غضبه وعقابه، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات.

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلا في ظل الإسلام."

لا بد من السير على هدي الأنبياء

هذا التصور وهذا اليقين بأهمية وضرورة البداية بلا إله إلا الله بهذه الصورة الواضحة مهم جدا أن يكون زاداً لقلوب العصبة المؤمنة التي تواجه الناس اليوم، والتي تريد أن تقيم الحق في الأرض مرة أخرى. ولا بد أن تكون هذه القضية عميقة في نفوسنا كل العمق، وأن نكون معتزين بها كل الاعتزاز، ونكون قادرين على الحجاج عنها أمام كل من يقف أمامنا من أهل الأرض؛ سواء كانوا أصحاب السلطان، أو كانوا من العلماء، أو كانوا الدهماء من الشعوب، لا بد أن نُصرْ على هذه النقطة وعلى هذه البداية مهما كانت المواجهات التي ستواجهنا.. وهذا زاد ضروري وأساسي في عملنا وفي دعوتنا.. فبقدر يقيننا بهذه القضية بقدر نصر الله سبحانه وتعالى لنا، وصونه إيانا.. لأن هذا أمر الله، وليس من حقنا ولا من شأننا أن نختار على اختيار الله، وما وسع رسل الله يسع الدعاة إلى الله بعد ذلك.. وإذا كنا نريد أن نكون في ركب الأنبياء لا بد أن نقتفي آثارهم وأن نُصِرْ على السير على طريقهم.

أول شروط النجاح؛ إقامة هذا الدين في الضمير وفي الواقع؛ عقيدة وعبادة وسلوكا

ولا بد أن ندرك شروط النجاح في هذا الأمر لكي نحاولها ونتمسك بها كي نستحق شرف الاصطفاء وشرف التمكين ورضى الله عز وجل.. **"ولقد تم هذا كله لأن الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك."** وهذا الذي نكرره دائما؛ أننا لن نحظى برضوان الله وباصطفاء الله وبوقوف الله معنا وبنصره لنا إلا إذا فعلنا كما فعل الجيل الأول تماما.. وهم كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك. لا بد أن تكون تصوراتنا صحيحة وعميقة ويقينية ونقية وصافية تماما، لا بد أن نطمئن أن قلوبنا وعقولنا قد فهمت العقيدة فهما حقيقيا وصافيا، ليس فيه أي قدر من الانحراف أو التردد أو الشُبَه أو الغَبَشْ، حتى تصبح عقيدتنا واضحة تماما، ويرى الله عز وجل بعلمه أننا مستيقنون بالعقيدة الحقة التي يريدها بصفائها ونقائها. وهذه القضية تحتاج علماً، وتحتاج دراسة في القرآن وفي السنة، وفي أخذ الصحابة لهذه العقيدة، فهماً وإدراكاً ووعياً، كما ينبغي أيضا أن يتمثل هذا الدين في خلق؛ أن نكون متخلقين حقيقة بآداب الإسلام، بأن نكون بيننا وبين الله صادقين ومخلصين، فلا تكون ظواهرنا غير نوايانا، ولا نرائي الناس بأعمالنا، ولا نخشى الناس، بل نخشى الله وحده، علينا ألا نستخفي من الناس ولا ننسى الله.. وإنما يكون ظاهرنا كباطننا، بل يكون باطننا أفضل وأكثر صلاحا من علانيتنا، وأن تكون معاملاتنا مع الناس قائمة على الصدق، وليس على التلاعب ولا على الخيانة ولا على المعاريض ولا على التجسس ولا الخوف ولا الجبن، ولا بد أن نكون أصحاب خلق متين ومكين يجعلنا مرضيين عند الله، ومرضيين عند الخلق أيضا، ونكون قادرين أيضا على العدالة بين أولادنا وزوجاتنا وإخواننا، وأن نصون ألسنتنا عن الغيبة وعن النميمة، وأن تتطهر أموالنا من الحرام، وتتطهر خواطرنا من الفساد.. لا بد أن يتمثل هذا الدين في صورة أخلاق واضحة وجيدة. وحينما نصنع ذلك سيختفي الكثير جداً من متاعبنا ومشاكلنا التي نعاني منها؛ نتيجة عدم صدق بعضنا مع نفسه ومع الله في أن يلتزم بالقيم الإيمانية والقيم الأخلاقية.

لكن هؤلاء الذين أكرمهم الله بإقامة دولة الإسلام ونظام الإسلام، كانوا قد أقاموا هذا الدين قبل ذلك في ضمائرهم في صورة عقيدة نقية صحيحة واضحة صافية، وفي صورة خلق حقيقي يتعاملون به حينما يكونون مع الناس، أو في خلوتهم، مع العظيم ومع الحقير، يعطفون على الحقير كما يعطفون على الكبير، ويعاملون الوضيع بعدل واحترام كما يعاملون الكبير، وهكذا ينبغي ألا يكون فينا تجبر ولا طغيان، فلا نعامل الكبار خوفا ونفاقا، فإذا جئنا إلى الصغار والضعفاء نحتقرهم أو نظلمهم، ينبغي أن نكون قد أقمنا الحق فعلا في قلوبنا وفي سلوكنا، وأن نكون قد أصبحنا حججا لله على خلقه، من خلال قيامنا بالقيم الإيمانية في سلوكياتنا الصغيرة قبل الكبيرة، كيف نتعامل مع الخادم ومع "الفرّاش" ومع "الزبّال" كما نتعامل مع الرئيس والملك والعظيم والحكيم.. فإذا استطعنا أن نكون كذلك، واستطعنا أن نقيم العدل والرحمة والرفق والقيم في كل لحظة وفي كل وقت نأمل أن يصطفينا الله سبحانه وتعالى..

وهم قد أقاموها أيضا في صورة عبادة... وينبغي أن نكون -أيضا- كذلك، بحيث نشتاق إلى القيام بين يدي الله في الصلاة، ونشتاق إلى ذكر الله عز وجل، ونفرح حينما نسمع آيات القرآن، وتضيق نفوسنا وتتقزز حينما نسمع الأغاني والعهر الذي تفعله الجاهلية، ونسعى إلى التنسك والتعبد، وإلى السجود وتعفير جباهنا على الأرض بين يدي الله، ونحس بحلاوة الخضوع لله عز وجل في تعبد حقيقي يصنع من قلوبنا قلوبا رقيقة نقية مخبتة باكية، خوفا من جلال الله، وحباً لله، وتوقيراً لله، وخوفاً من عذابه، وطمعاً في جنته. فنهرع إلى العبادة مشوقين، وليس بإحساس المساقين إلى واجب ثقيل على نفوسنا، نفرح إذا أذن المؤذن، لأن هذا إيذان بأن نقف بين يدي ربنا، وأن هذا الأذان توقيت جعله الله ليفتح أمامنا بابا من أبواب الوقوف بين يديه والتقرب إليه.. فحينما نعيش معنى العبادة بهذا الشكل الراضي المشتاق المحب يتحقق فينا ما يريده الله سبحانه وتعالى، ويحق لنا أن نطمع في نصره وفي معيته سبحانه وتعالى.

كما أنهم أقاموها في صورة سلوك، بحيث يكون سلوكنا في كل وقت وفي كل حين شهادة لهذا الدين، لنقيم بذلك الحجة على الناس..

الصفقة الرابحة

"وكانوا قد وُعِدُوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً، لا يدخل فيه الغلب والسلطان.. ولا حتى لهذا الدين على أيديهم.. وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا.. وعداً واحداً هو الجنة. هذا كل ما وُعِدُوه على الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضي في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان في كل زمان وفي كل مكان، وهو: "لا إله إلا الله"! "

والتعبير هنا قد يشي كما لو أن هذا الوعد الواحد قليل أمام هذا الجهد، وأمام هذه التضحيات وهذه المواجهات!، وهو لا يعني هذا بطبيعة الحال، وإنما يعني أن الوعد الذي وعده الله للمؤمنين، وإن كان وعدا واحدا، ولكنه وعد بعيد عن رغبات أهل الدنيا ووعود أهل الدنيا.

وملوك أهل الدنيا وأباطرتها يعدون الناس بنعيم الدنيا ويمنونهم بها -هذا إذا كانوا قادرين على ذلك- ولكن الله عز وجل وعده من العظمة ومن الاتساع ومن الخلود بحيث أنه وعدهم الجنة التي نعرف قدرها، والتي وصفها الله لنا فقال ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، فهو وعدٌ واحدٌ حقاً، لكنه وعد من العظمة ومن الروعة ومن الجمال ومن الغنى ومن المتاع بحيث أنه يوازي -بل يزيد بما لا يقاس- على كل هذا التعب الذي يتعبه المؤمنون في إصرارهم على الحق.

والحقيقة أن الإنسان السائر في طريق الله، والذي ينتظر وعد الله بالجنة، وينتظر رؤية وجه الله، وينتظر رضوان الله سبحانه وتعالى، وينتظر صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا يجوز أن يشعر أبدا أن ما يبذله في هذا الطريق -مهما كان في مقاييس البشرية صعبا- لا يجوز أن يشعر أنه شيء كبير.. ينبغي أن نستحي من شعورنا أننا نضحي في سبيل الله.. نحن لا نضحي، لأن التضحية معناها أنك سوف تتخلى عن شيء بلا مقابل، ولكن الحقيقة غير ذلك.. فأنت حينما تضحي بالدنيا كلها فأنت تختار الآخرة بكل امتداداتها وخلودها وعظمتها.. فما الذي ضحيت به؟ هذه ليست تضحية، ولذلك كلمة التضحية -في مدى علمي- لم ترد لا في القرآن ولا في السنة تعبيراً عما يقدمه الناس لله، وإنما جاءت كلمة الجهاد والمجاهدة، لكن ليس بمعنى التضحية التي تعني التنازل عن الشيء بلا مقابل.

والإنسان المؤمن يجب أن يستشعر أنه مهما بذل في سبيل الله، ومهما تنازل عما يحبه، أو تعرض لما يخيفه في سبيل مرضاة الله فهو في الحقيقة لم يضح، وإنما هو قد دفع ثمنا ضئيلاً حقيراً بسيطاً في مقابل جزاء هو من العظمة بحيث لا يستطيع خياله أن يتصوره ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

فالتعبير بأن المؤمنين وُعِدوا وعداً واحداً هو كل ما وعدوه ليس معناه التقليل من شأن هذا الوعد، ولا من شأن هذه الجنة. هو وعد واحد، ولكنه وعد يشمل كل ما يريده الإنسان.. فما الذي يريده الإنسان في الأرض؟ يريد اللذة والمتاع والمال والراحة وعدم الخوف وعدم المرض وعدم الموت.. هذا كل ما يريده الإنسان في الأرض.. وهذا كله موجود في الجنة؛ لا فيها نصب ولا تعب، ولا موت، ولا خوف، ولا فراق، وفيها متاع دائم وبلا تعب؛ يأكل الإنسان ولا يتعب، ويشرب ولا يتعب، ويتمتع ولا يتعب.. فما الذي يريده الإنسان بعد ذلك؟ فالجنة جزاء شامل فوق ما يتصوره وفوق ما يمكن أن يتخيله الإنسان، وهو جزاء يجمع كل ما يأمله الإنسان من ألوان السعادة في الأرض. فحينما يُوعَد هذا الوعد، وحينما يقال إنه وعدٌ واحدٌ فالمقصود أنه لم يقرن الوعد بالجنة بالنصر في الأرض ولا بالجزاء في الأرض.. هذا هو المقصود بأنه وعد واحد.. فقد يموت المؤمن في المعركة ولا يرى النصر، وقد يموت المؤمنون جميعا كما حدث للمؤمنين الذين ألقوا في الأخدود فاستشهدوا جميعا ولم يروا نصراً.. فالإنسان المؤمن مطلوب أن يكون هدفه من الجهاد وهدفه من الإيمان هو إرضاء الله سبحانه وتعالى، فيكون الهدف الأسمى للإنسان هو رضوان الله، ثم ما يترتب على هذا الرضوان من حياة طيبة في الجنة. لكن لا يجوز أن يرتبط هدف الإنسان المؤمن ولا إيمان الإنسان المؤمن ولا جهاد الإنسان المؤمن في الأرض بأن يشترط على الله أن ينصره أو يمكنه في الأرض، أو أن يوسع عليه في الدنيا، أو أن يؤمنه من المتاعب والأخطار.. كما لا يجوز له أن يشرك في إيمانه وعبادته لله، أو أن يشرك مع رضوان الله شيئا آخر من أمور الدنيا.

فهؤلاء الذين اصطفاهم الله من الجيل الأول، ومن كل جيل بعده، وعدوا وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا، وعدا واحدا هو الجنة، هذا هو كل ما وعدوه على الجهاد المضني والابتلاء الشاق والمضي في الدعوة ومواجهة الجاهلية.

الابتلاء في الأرض سنة ثابتة للمؤمن والكافر

والحقيقة أن صور البلاء هذه، وصور الجهاد والمجاهدة لا يعانيها المؤمن وحده، فالأرض أصلا هي دار ابتلاء، والناس جميعا في هذه الأرض يكدّون ويتعبون ويكدحون ﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: ١٠٤]. وتاريخ البشرية منذ أن وجدت وحتى تنتهي مليء بالصراع والعراك والابتلاء للناس جميعا؛ سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين. فلا يتصور المؤمن أن السير في طريق الله هو الذي يؤدي به دائما إلى التعب وإلى الضنك، وإنما كل سير في الحياة تصاحبه المشقة ويحفه التعب. وهناك

فرق هائل بين كد المؤمن الذي يعقبه هذا الرضوان من الله، ويصاحبه هذا الاعتزاز، وهذا الرضاء النفسي، لأنه يجاهد من أجل الله، ومن أجل هدف نبيل وقيمة عليا.. وبين كد الذين يجاهدون من أجل الدنيا وأعراض الدنيا فقط، فلا شك أن المؤمن وهو يجاهد ويواجه كل متاعب الأرض هو الأعلى والأعز والأكرم والأسعد بهذا الجهاد في الدنيا وفي الآخرة.. فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أكرم المؤمنين بوعده لهم أنه سيحييهم حياة طيبة في الدنيا قبل الآخرة، فهم -إذن- قد كسبوا الدنيا والآخرة في وقت واحد معاً.

فالإنسان المؤمن ينبغي أن يكون قانعاً وراضياً وسعيداً بأن يجاهد من أجل إرضاء الله وابتغاء وجه الله، وهذا العمل وحده هو جزاء نفسي كبير يحسه الإنسان الخالص النقي الذي يكفيه أن يفعل ذلك ليرضي الله عز وجل، فإذا جاء أي شيء آخر فوق ذلك فهو من فضل الله سبحانه وتعالى. فلو جاهدنا -فقط- لنرضي سيدنا سبحانه وتعالى، ولم يكن لنا بعد ذلك جزاء لا في الدنيا ولا في الآخرة فهذا يكفي لذوي النفوس الكبيرة والهمم العالية، ولكن الله يعلم أن هذا ليس هو شأن الناس جميعا، وأن هذا لا يستطيع أن يحتمله إلا أفذاذ أو أفراد معدودون من البشرية، لذلك جعل -بجانب السعادة برضوان الله- الجنة لتكون جزاء، وجعل الجحيم ليكون تخويفا وترهيباً.. فبذلك يسعى الناس على جناحي الطمع والخوف، وعلى جناح الشوق والحب ليصلوا إلى الله سبحانه وتعالى.

لكن إذا كنا نريد أن نرتفع إلى مستوى الأنبياء والصديقين في مشاعرهم حينما يطيعون الله فليكن عملنا كله ابتغاء وجه الله ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٢] فهذا هو المقام الأعلى. وكما قال رسول الله ﷺ حينما سألته عائشة، وقد رأته يقوم الليل حتى تتورم قدماه: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال (أفلا أكون عبدا شكورا)[٣]. هذه هي القمة المطلوبة أن نسعى إليها ما استطعنا. وليكن من دوافعنا في الطريق الشوق إلى الجنة، وليكن كذلك الهروب من النار.. ولكن لتكن المساحة الكبرى من مشاعرنا أن ينظر إلينا ربنا فيرى قلوبنا وقد اشتاقت إليه وأحبته، وخضعت له وارتفعت إلى محاولة إرضائه.. وهذا وحده كفيل بأن يجعلنا في رضوان الله وفي معيته، فنحظى بحب الله سبحانه وتعالى.

محصلة فترة بناء العقيدة (متى تستحق الفئة المؤمنة نصر الله؟)

"فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولَمَّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض -كائناً ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم- ولَمَّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا -إذن- أمناء على هذه الأمانة الكبرى.. أمناء على العقيدة، التي يتفرد فيها الله -سبحانه- بالحاكمية في القلوب والضمائر، وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال.. وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم، ولا لعشيرتهم، ولا لقومهم، ولا لجنسهم. إنما يكون السلطان الذي في أيديهم لله، ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه."

٣ متفق عليه.

لقد وقفت أمام هذه الفقرة طويلاً جداً لأن ما فيها من شروط هي من الصعوبة بمكان.. يقول: **"فلما أن ابتلاهم الله فصبروا.."** وحينما يراجع الإنسان نفسه وحياته يرى أنه لم يصبر أبداً على أي ابتلاء، وأن هذا الشرط شرط صعب جدا، ولكنه شرط ضروري.. والصبر هنا ليس كما نتصور أنه صبر على السجن أو على التعذيب، وإنما هو صبر أكبر من ذلك.. صبر على كل شهواتهم وعلى كل ضعفهم.. وهذا الذي أعتقد أننا كلنا راسبون فيه.. فليست القضية أن أصبر بعض الوقت على بعض الحرمان أو التعذيب، فالمجرمون والسارقون لديهم القدرة أن يصبروا على الضرب والتعذيب، ويستهينوا بذلك، ويسخروا من معذبيهم، ويستكبرون عليهم.. ونحن نعلم من التاريخ أن كثيرا من الجاهليين يصبرون على التعذيب وعلى الضرب وعلى الحرمان، ويصنعون أساطير من الصلابة والقوة والتضحيات والاستهانة بكل ما يلقونه من عذاب، فليس هذا هو ميدان الصبر وحده كما يسبق إلى نفوسنا، ولكن الأمر الصعب حقيقة، والذي يشعر الإنسان أنه لم ينجح فيه النجاح الذي يريده هو: أن يقيم نفسه على طاعة الله كما ينبغي، وأن يتخلص من أدوائه وسقطاته ونزغاته، وأن يغلب الشيطان.. هذا هو الصبر الذي جعلني أقف أمام هذه الفقرات وجلا وخائفا، وأحس أننا فعلا أمام امتحان شديد الصعوبة، لا أدري كيف سننجح فيه.. **(فلما أن ابتلاهم الله فصبروا..)** هذا هو أحد شروط النجاح بعد الشروط الأولى التي تكلمنا عنها؛ وهو أنهم أقاموا هذا الدين في ضمائرهم عقيدة وخلقا وعبادة وسلوكا، ولم ينتظروا عليه إلا جزاء واحدا هو الجنة.. هذه شروط أخرى ومواصفات أخرى لهذا الرعيل وهؤلاء المصطفين الأخيار.

ونحن حينما ندرس تاريخ الصحابة، ونرى كيف صبروا، وكيف عاشوا بهذا الحق، وكيف استعلوا به -نساء ورجالا- سنجد أننا مازلنا في أول الطريق..

"فَلَمَّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولَمَّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم.." كلمة كبيرة جداً، وحقيقةً ظللت أرددها، ووقفت أمامها أحاول أن أصل إلى أغوار ما كان يحسه ذلك الرجل حينما كتب هذه الكلمات.. فكيف تفرغ نفوسنا من حظ نفوسنا؟ كيف تفرغ نفوسنا من الغضب لأنفسنا، من الشح، من الكسل، من حب الدنيا، من تقديم حظوظ أنفسنا على عبادة الله، وتقديم مصلحتنا على مصلحة الجماعة؟ هذه كلها حظوظ أنفسنا.. فلما أن فرغت نفوس الصحابة فعلا من حظ نفوسهم كان لهم شأنهم مع الله. وهذا موقف يحتاج منا إلى وقفة طويلة.. كل منا مع نفسه.. صادقا مبتهلا إلى الله عز وجل أن يبصره بهذه المعاني.. ما هو الابتلاء المطلوب منه أن يصبر عليه؟ وما هي حظوظ النفس التي ينبغي أن يفرغ منها؟ فالإشكال الكبير الذي نعانيه هو أن نفوسنا متضخمة دائما، وحساسة دائما، ولا يحتمل أي منا أن تمس ذاته، فنحن نريد أن نتدبر هذا المعنى؛ كيف يمكن أن تفرغ نفوسنا من حظها؟ وهو أمر ليس سهلا..

"ولَمَّا أن علم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض -كائناً ما كان هذا الجزاء، ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم.." كثير منا يقول إننا لا ننتظر جزاء في الأرض، ولكن حينما يتعرض لخطر يفكر ويعيد التفكير. ينبغي أن يعرف الأخ المسلم بأنه لا يجب أن يهتم ولو انفضت الجماعة كلها عن هذا الحق وبقي وحده، فلا يهتز لذلك، ولا يخفق قلبه خوفاً، ولا ترددا، ولا شكاً فيما هو عليه، ولا يهمه قول الناس ولا نظرتهم إلى هذه الجماعة بأي صورة من الصور.. ينبغي أن يكون على يقين بأنه على الحق، وأنه لا ينتظر جزاء في الأرض إلا رضاء الله، وإلا الجنة في الآخرة..

(ولَمَّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجد ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.. لَمَّا أن علم الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا -إذن- أمناء على هذه الأمانة الكبرى..) وليس قبل ذلك، يجب أن نعرف أننا نحن الذين نؤخر النصر، لأن نصر الله

صادق ومشروط ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، فإذا تحقق الشرط تحقق المشروط، فنحن الذين نسرع أو نبطئ من وعد الله عز وجل، فبقدر ارتفاعنا إلى مستوى الادعاء وإلى مستوى الأمر بقدر ما نستجلب نصر الله، ونسارع إلى تحقق نصر الله عز وجل.. وحينما يرانا الله عز وجل على هذا.. حينما يبتلينا فنصبر.. حينما تفرغ نفوسنا من حظ نفوسنا.. وحينما لا يكون لنا تطلع إلى جزاء في الأرض.. وحينما لا يكون لنا أي اعتزاز بغير الحق وبغير الله.. حينذاك يصطفينا الله ويمكننا، ويجعلنا أمناء على العقيدة التي يتفرد الله فيها بالحاكمية على كل شيء.. وحينما يتحقق هذا فعلا تتحقق معنى الربانية والألوهية الواحدة، ومعنى العبودية الكاملة الشاملة في عالم الإنسان والكون سواء.. حينما تتحقق في نفس الإنسان هذه الأمور، ويصبح عبدا خالصا لله، لا يشرك في قلبه مع الله شيئا آخر، تتحقق معنى الوحدانية في قلب الإنسان، ويتحقق معنى العبودية الشاملة في قلب الإنسان، ويصبح هو والكون خاضعا لإله واحد ولهيمنة واحدة ولسيطرة واحدة، فتتحقق معنى الوحدانية في حياة الإنسان.

"ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع، إلا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء. وإلا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها.. راية لا إله إلا الله.. ولا ترفع معها سواها. وإلا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره، المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية.. أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: "لا إله إلا الله"."

فهذا هو المنهج الذي اختاره الله عز وجل لأنبيائه؛ بأن يبدؤوا خطواتهم بلا إله إلا الله، وأن يحققوا في نفوسهم كل شروط النجاح التي تحدثنا عنها.. هذا منهج الله. وهو منهج مبارك.

والذي يتحقق به هذا المستوى الرفيع، والذي يرفع الإنسان إلى أقصى كمالاته الإنسانية، أن يكون الإنسان عبدا خالصا لله.

فهذا المنهج الرباني المبارك الذي شاءه الله عز وجل لأنبيائه ولدعاة الحق هو المنهج الوحيد الذي يحقق المستوى الرفيع الذي يرقى إليه الإنسان ليحقق أسمى كمالاته التي خلق من أجلها؛ وهو أن يكون عبدا خالصا لله عز وجل. وهذا الكمال وهذا الهدف الكبير لا يتحقق إلا أن يُدعى الناس إلى لا إله إلا الله، وأن يكون البدء بالدعوة إلى الله، وأولى خطوات الدعوة إلى الله هي رفع راية لا إله إلا الله وحدها، دون أن يشرك معها أي إغراء ولا أي راية أخرى.

علينا أن نعلم ونوقن أن المطلوب من الإنسان، ومن الدعاة، ومن الأنبياء أن يحققوا مراد الله عز وجل، وأن يبلغوا رسالة الله، وليس عليهم أن ينجحوا أو يفشلوا، أو يستجيب الناس لهم أو لا يستجيبوا، فهذا ليس من أمرهم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].. ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].. فالإنسان والداعية والنبي والرسول مهمته أن يبلغ، وأن يستقيم، وأن يلتزم ما أمر الله به، وليس عليه بعد ذلك شيء. من أجل ذلك على الدعاة أن يبدؤوا بلا إله إلا الله، وعليهم أن يلتزموا بأمر الله، ثم يكون بعد ذلك ما يكون، فالله أعلم من يستحق الهدى من خلقه.. وكما نعلم أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه

الرهط، والنبي يأتي ومعه الرجل والرجلان، والنبي يأتي وليس معه أحد[4]، وكل هؤلاء قد وفّوا وأدوا ما عليهم. أما النتائج فهي من أمر الله وحده، فالله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين.

فلا بد أن نلتزم بهذا المنهج المبارك التزام المستيقن، والتزام المعتز، والتزام الراضي، والتزام الذي لا يهمه أن تقف البشرية كلها لتقبل أو ترفض ما يقول.. فهذا ليس في حسبان المؤمن أصلاً، لأنه لا يبتغي في هذا إلا وجه الله، وإلا رضوان الله. وأما رضوان البشر أو سخطهم فهذا شيء لا يدخل أصلاً في حساب الرسل والأنبياء، ولا في حساب الدعاة الصادقين.

وهذا المنهج المبارك لا يخلص إلا حينما تكون الدعوة إلى "لا إله إلا الله" وحدها، دون أن تُشْرَكَ بأي راية قومية أو اجتماعية أو اقتصادية أو أخلاقية، أو أي شعار آخر غير هذا الشعار.

الخطوات الطبيعية لإقامة أي فكرة وتحويلها إلى واقع

والجاهلية -لا شك- أشد ذكاء وأكثر منطقية وأشد جدية من بعض الدعاة الذين ضلوا عن الحقيقة، حتى ولو كانوا مخلصين، وحتى ولو كانت نواياهم طيبة. فكما قلنا إن الخطوات الطبيعية هي أن يدعى الناس إلى العقيدة، ويتربوا عليها، لينخلع من نفوسهم كل آثار الشرك الماضي، وأن يتخلقوا أيضا بالخلق المنبثق من هذه العقيدة لكي يرتفع مستواهم الإنساني، فيحبون العقيدة، ويحبون هذا الدين، ويزداد تمسكهم به، فيصبحون قادرين على أن يتحملوا في سبيله كل اضطهاد أو عذاب أو ابتلاء. وهذا -أيضا- سيؤدي إلى أن يتضعضع أهل الجاهلية حينما يجدون ثبات هؤلاء المؤمنين أمام هذه الضربات العنيفة والساحقة. ثم يتعمق هذا الدين وتتعمق هذه العقيدة، لكي يتحدد من خلالها القدرة على الاستجابة الراضية والفهم العميق لتكاليف هذا الدين الذي ستأتي بعد ذلك. وحينما تتكون الدولة يكون هؤلاء المؤمنون قادرين على أن يحكموا بالشرائع التي كلفوا بها عندما يصبحون أصحاب سلطة، وهم -وقتها- أصحاب حرية حقيقية في فرض ما يريدون على المجتمع.

والجاهلية تصنع ذلك؛ تضع فلسفة -وهي العقيدة بالنسبة لهم- كما وضع ماركس، ثم دعا إليها، وربى الرعيل الأول عليها، ثم جاهدوا في سبيل إقامتها، وتحملوا من العذاب أشده في سبيلها في روسيا.. والذي يقرأ قصة "مكسيم جورجي" -الأم- والتي تحكي قصة الاضطهاد القيصري للشيوعيين بكافة مستويات الجماعة الشيوعية؛ عجائز وأطفال ونساء وبنات وأولاد ورجال، وتحكي كيف صبروا على كل ذلك، وكيف كانوا يبتكرون أساليب الدعوة وبناء الكوادر والدعاية حتى أسقطوا القيصرية، ثم تكونت دولة، ثم بدأوا يطبقون الأحكام على أناس اعتنقوا الشيوعية، ورضوا بها، وكانوا يطلبونها.

فما كان الشيوعيون يستطيعون أن يطبقوا الشيوعية في المجتمع القيصري في روسيا. ولم يستطيعوا أبدا أن يقيموها في بريطانيا التي كانت المرشح الأول عند ماركس لإقامة الشيوعية فيها باعتبار أن الثورة الصناعية قد قامت في بريطانيا، وأن المجتمع العمالي هو الأكثر حركة والأكثر وجودا في بريطانيا، فكان يتوقع أن تحدث ثورة البروليتاريا في بريطانيا، وأن يقوم المجتمع الشيوعي في بريطانيا. ولكنه للأسف -بالنسبة للنظرية- أن الشيوعية قامت في المجتمع القيصري الذي لم يكن مجتمعا صناعيا على الإطلاق، وإنما كان مجتمعا مازال يعيش في العهد الزراعي، ولم يكن له أي مقومات لقيام الشيوعية التي لا بد أن تأتي -كما يقول ماركس- بعد مرحلة الصناعة والرأسمالية، وبعد

---

٤ رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

حدوث الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال. لكنه لم يستطع هو وأتباعه أن يقيموها في بلد لم تستعد لذلك، ولم تكن فيها القاعدة الصلبة التي تعتنق الشيوعية وتقوم بها.

وهكذا تكون خطوات إقامة أي فكرة، أو بناء أي حضارة، أو بناء أي دولة من نقطة الفكرة إلى حيز الواقع لا بد أن تمر على هذه المراحل -سواء كانت إسلامية أو جاهلية- مرحلة الفكرة، ثم الدعوة إليها ونشرها، ثم الثبات عليها في مواجهة أعدائها، والجهاد في سبيل ذلك حتى تقام في عالم الواقع كدولة وسلطة، ثم التنفيذ لما يترتب عليها من أحكام وتشريعات، باعتبار أن ذلك ظاهرة بشرية وإنسانية.

والناس كلهم يفهمون ذلك ما عدا دعاة الإسلام الذين ضلّوا الحقيقة. فهم يريدون أن ينتقلوا من نقطة الفكرة، بل نقطة الخاطرة إلى نقطة الدولة في مرحلة واحدة. فلذلك حينما نقول إن أهل الباطل أكثر ذكاء وأشد جدية وأكثر معرفة من بعض الدعاة لا نكون بذلك قد شتمناهم ولا أخطأنا في حقهم. وإنما نحن نتعامل مع الحقائق، والحقائق في بعض الأحيان تكون مريرة. وقد قرأت مقالا لإحسان عبد القدوس بعد أن التقيت بالأستاذ سيد في سنة ١٩٦٢م، وكنت عند الأستاذ سيد فأعطاني المقال وقال لي: انظر ماذا يقول إحسان.. كان يقول في المقال: إننا لكي نكون اشتراكيين لا بد أن نعتقد أولا، ثم نعاني ونعذب من أجل الاشتراكية، حتى يثبت منا من يثبت على هذه العقيدة -لأنها في تصورهم عقيدة- ثم بعد ذلك ننجح في إقامتها في الواقع، لأننا سنكون قد آمنا بها، ونكون قد دفعنا الثمن من أجلها.. وقال لي الأستاذ سيد: هذا الرجل يقول نفس الكلام الذي نقوله. فهم يعتبرونها عقيدة، ويعتبرون أنها تحتاج إلى معاناة، وإلى ابتلاء ليتبين الصادق من الكاذب، ولكي تفهم جيدا من خلال العناء، فيحرصون عليها لأنهم بذلوا من أجلها، ثم بعد ذلك يقيمون الدولة. وحينما نزل الميثاق كانت الحكومة تقول عنه "عقيدة الميثاق".. فالقوم إذن عالمون بباطلهم، وعالمون بما ينبغي أن يمر به هذا الباطل ليقوم في الواقع.. ما عدا هؤلاء الذين يعملون في الحقل الإسلامي بلا وعي، وإنما ينطلقون من ركيزتين؛ ركيزة الجهل، وركيزة التسرع الذي يريد أن يعجل بالثمرات، لأن الهوى متعجل، وهم لذلك لا ينجحون في هذا ولا في ذاك.

لماذا قضية العقيدة هي وحدها القضية الأولى (دون تفصيلات نظام أو تشريعات)؟

"ذلك شأن القرآن المكِّي كله في تقرير: "لا إله إلا الله" في القلوب والعقول، واختيار هذا الطريق -على مشقته في الظاهر- وعدم اختيار السبل الجانبية الأخرى، والإصرار على هذا الطريق.

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها، دون التطرق الى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها، فذلك كذلك مما ينبغي أن يقف أمامه أصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية.

إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا.. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة.."

ونقف عند هذا التعبير.. إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا.. لماذا.. لماذا قضت طبيعة هذا الدين أن تكون قضية العقيدة هي القضية الأولى؟ ولماذا تأخرت التشريعات والتنظيمات وتفصيلات النظام إلى ما بعد ذلك؟

لا شك أن طبيعة هذا الدين تقوم على أساس أن العبودية لله وحده، ومن ثم كان لا بد أن تكون البداية بتقرير قضية الوحدانية، وقضية ألوهية الله الواحدة، فأي بدء بغير ذلك يكون تخطياً للأساس الذي يقوم الدين عليه، وأي قاعدة أخرى وأي منطلق آخر غير قضية العقيدة يكون انطلاقا خاطئا، ولا يكون محققا لقضية الوحدانية، ولتعبيد الناس لربهم.

فقضية هذا الدين -الذي جاء لِيُوَحِّد الله سبحانه وتعالى، ويعبّد الناس جميعا لله سبحانه وتعالى- اقتضت أن تكون قضية الشرائع قضية متضمنة في قضية العقيدة، فإذا قبل الناس العقيدة فقد قبلوا الشرائع ابتداءً دون أن يسألوا عن طبيعة هذه الشريعة ولا عن تفصيلات النظام، لأن حقيقة الوحدانية تكمن في حقيقة أنه لا سلطان إلا لله عز وجل، فإذا تقرر أن السلطة كلها لله فتنبثق منها تلقائياً أن تكون الشريعة والنظام أيضا من عند الله، دون أن يسأل المسلم ودون أن يستفسر: لماذا هذا الأمر أو هذا النهي؟ فالله هو الحق، وهو الرب الواحد، وهو صاحب السلطة الكاملة والمطلقة على ذلك الوجود الذي خلقه. فمن ثم لا بد أن تكون السلطة كلها بيده وحده، وأن يكون التلقي منه وحده، وأن يكون التوجه إليه وحده. ومن ثم كان طبيعيا أن يكون هو المشرع الواحد أيضا.

فطبيعة هذا الدين هي التي فرضت أن تنفرد العقيدة في فترة النشأة لتسيطر على ميدان الدعوة وعلى ميدان البلاغ دون أن يُتَطَرَق إلى النظام، ودون أن يتطرق إلى تفصيلات النظام أو الشرائع.. هذا جانب.

وعلى الجانب الآخر.. الإسلام مؤسسة هائلة، وامتداداته هائلة جدا، ومجالاته متشعبة.. كالشجرة الضخمة الباسقة، وكالبناء الرفيع القدر والمتشعب الجنبات والعالي القامة يحتاج جذوراً وأساسات عميقة جدا لكي يقوم ويثبت.. فلكي يقوم بناء الإسلام -هذا البناء الضخم جدا، المتشعب جدا، العالي جدا- لا بد أن تكون جذوره عميقة جدا في واقع البشرية وفي قلوب الناس وفي حياتهم.. وهذه الجذور هي جذور العقيدة.. فبقدر ما تثبت العقيدة وبقدر ما تتعمق العقيدة وبقدر ما تمتد جذور العقيدة في الواقع بقدر ما ينطلق البناء رفيعا عاليا لا يتزحزح ولا تؤثر فيه العواصف مهما كانت.

فكان لا بد -إذن- استجابة لطبيعة هذا الدين أن تتعمق جذور هذه العقيدة، وكان هذا يحتاج زمنا طويلا لكي تتعمق هذه الجذور، ويحتاج أيضا أن تتفرد العقيدة بالخطاب، لكيلا يتشتت الناس في أمور النظام وتفصيلاته فمن ثم كان التوحد على خطاب العقيدة، فأصبح هو الخطاب الوحيد الذي يتلقاه الناس في بداية النشأة.

حقيقة الألوهية هي الأصل الذي يقوم عليه بناء هذا الدين كله

"إن طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا.. فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة.. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير.." فلا شرعية لشيء من النظام، ولا لحكم من الأحكام، ولا لعادة من العادات، ولا لتقليد من التقاليد إلا أن تكون منبثقة من قاعدة التوحيد، لأن هذا هو شأن الألوهية؛ أن يكون الله سبحانه مهيمنا على كل شيء، فلا يجوز أن تند ذرة واحدة في حياة البشرية دون أن تكون منطلقة من تلك القاعدة، وهي قاعدة لا إله إلا الله.. قاعدة السلطة الواحدة التي تهيمن على هذا الوجود، والتي تستحق وحدها أن تكون متفردة بالسلطة.. لأن أي شيء آخر لا يستحق أن يكون صاحب سلطة، أو أن يكون مهيمنا، لأن كل ما عدا الله فهو مخلوق له، فإذن ليس هناك سلطة إلا سلطة الله، ولا وجود حق إلا وجود الله، أو من شاء الله أن يوجده. فالتنظيمات كلها والتشريعات كلها واللوائح كلها والعادات والتقاليد والمشاعر والقيم والموازين لا بد أن تكون منبثقة من هذه القاعدة

الحقيقة والحقة، وهي قاعدة الألوهية الواحدة.. **"وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة، الوارفة المديدة الظلال، المتشابكة الأغصان، الضاربة في الهواء.. لا بد لها أن تضرب بجذورها في التربة على أعماق بعيدة، وفي مساحات واسعة، تناسب ضخامتها وامتدادها في الهواء.. فكذلك هذا الدين.. إن نظامه يتناول الحياة كلها، ويتولى شؤون البشرية كبيرها وصغيرها، وينظم حياة الإنسان -لا في الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك في الدار الآخرة، ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها، ولا في المعاملات المادية الظاهرة وحدها ولكن كذلك في أعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا- فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية، ولا بد له إذن من جذور وأعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار أيضاً.."**

وكلمات الأستاذ سيد لها طعم خاص ومذاق خاص، تعبر عن الحقيقة التي يريد أن يوصلها إلينا، فضلا عن أن لها جمال، لا شك أننا نستمتع به، إلى جانب توضيح القضية.

وهذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته، يحدد نفسه في بناء هذا الدين وامتداده.. وهذا السر هو هذه القاعدة؛ قاعدة أن طبيعة هذا الدين جاءت لتعبّد الناس لله وحده، هذا الأصل الكبير أو هذه القاعدة الأساسية هي التي حددت منهج هذا الدين في بناء نفسه وفي امتداده، وجعلت من بناء العقيدة وتمكينها وشمولها واستغراقها لشعاب النفس كلها ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة، وضمانا من ضمانات الاحتمال والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء والضارب من جذورها في الأعماق.

ومن هنا يتبين لنا -أيضا- أهمية ما نكرره وما سنظل نكرره حتى نموت؛ وهو أهمية التعرف على الله، والتعرف على مقام الألوهية، والتدبر والاهتمام بالحياة في دائرة عظمة الله وهيمنة الله وتفرد الله بصفاته وأسمائه.. فكلما عشنا مع حقيقة الألوهية وتعرفنا على مقام الألوهية كلما انحلت كل العقد، وكلما ظهرت كل الأمور، وأصبحت صفحة هذا الوجود أمامنا واضحة نيرة لا تحتاج منا كثرة سؤال ولا كثرة استفسار.. فيتضح لنا لماذا خلقنا؟ لماذا نعبد الله؟ لماذا لا يليق أن نتلقى شرعا من غير الله؟ ولماذا.. ولماذا؟ فتتضح لنا كل الحقائق كلما تعمقنا في معرفة الله عز وجل، ومن هنا تبدو أهمية التدبر والتعرف على مقام الألوهية من خلال الوسائل التي قلنا عنها سابقا؛ ومن أهمها الحياة مع القرآن في وقت الخلوة، والعيش الهادئ مع كلمات الله، بعد أن نأخذ بكل الأسباب التي تجعل قلوبنا وعقولنا مهيأة للتلقي من القرآن.. وكذلك البعد عن المعصية، وأن يكون طعامنا حلالا ورزقنا حلالا، وألا نرتكب ظلما، وألا نرتكب سوءا.. فإذا جئنا إلى القرآن تفتح لنا وعشنا فيه، وتعرفنا من خلاله على حقيقة الألوهية الواحدة، ومهما عشنا ومهما تدبرنا ومهما تعرفنا سنظل في معراج التعرف.. ولن ينتهي ذلك المعراج أبدا، لأن الكائن المحدود سيظل قاصرا عن إدراك المطلق، وكما يقول العارفون والعلماء أن العجز عن إدراك الألوهية هو إدراك في الحقيقة، فالعجز عن الإدراك إدراك، لأن إحساسك الدائم بالعجز عن إدراك الألوهية وعن الإحاطة بها وبمقامها وبصفاتها وبعظمتها هو -في الحقيقة- إدراك، لأن هذا هو الحق، لأنك لن تستطيع الإحاطة بذلك مهما اتسعت مداركك، ومهما ارتفعت في معراج التعرف على الله، فستظل دائما تحس أنك على مشارف الطريق ولم تعرفه كله بعد، لأن الله سبحانه جلّ أن تعرفه العقول، وأن تدركه القلوب، إلا بالقدر الذي يحيينا ويجعلنا عبيدا له..

"ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه "لا إله إلا الله"..." ومن أجل هذا مهما أخذت العقيدة من الوقت في تعميقها فليس هذا ضياعا للوقت، وليس هذا وقوفا عند النظريات،

وإنما هي غذاء للقلب، وزراعة لحقيقة التوحيد في أعماق ذلك الإنسان، حتى تستقر قضية لا إله إلا الله، لينبثق منها الإحساس بأن النظام والشرع أيضا من عند الله وحده..

"ومتى استقرت عقيدة: "لا إله إلا الله" في أعماقها الغائرة البعيدة، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه "لا إله إلا الله"، وتعين أنه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة، واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام، حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته.. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان.."

النفوس المستسلمة لله تعالى تتلقى شرعه ونظامه بالرضى والقبول

وحينما يحدث ذلك يتطابق الإنسان مع الحقيقة الكبرى؛ حقيقة أن كل ما في الكون هو عبد لله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فالكون كله يسبح، والكون كله في مقام العبودية.. والإنسان وحده هو الذي يشذ عن هذه القاعدة حينما يرتضي طريقا غير طريق العبودية لله، فإذا استقرت حقيقة لا إله إلا الله في أعماقه، واستقر الاعتقاد أنه لا نظام إلا نظام الله في أعماقه، وأصبحت نفسه متوافقة تماما مع هذا النظام، ونافرة من أن تتلقى نظاما أو تشريعا أو لائحة أو حتى حكما واحدا من غير الله، تكون في هذا الوقت قد تطابقت مع الحقيقة الكبرى؛ وهي حقيقة العبودية الكاملة والشاملة في عبوديته لله وحده سبحانه وتعالى. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان.. وليس هو التنفيذ فقط، وليس هو تحقق الشريعة في واقع الناس فقط.. فقبل ذلك هناك خطوة واحدة مهمة جدا؛ وهي الاستسلام والإيمان بأن الله وحده هو صاحب السلطة، وأنه لا سلطة إلا لله.. هذا هو المنطلق الأول، وهو الذي يحقق الإيمان في القلب. ثم تأتي بعد ذلك الشريعة، ويأتي بعد ذلك الائتمار والانتهاء بأوامر الله ونواهيه، لتكون مظهرا لهذه الحقيقة، فهي ليست الحقيقة ذاتها.. فهناك من ينفذ أمر الله، وهناك من يستسلم لشرع الله، ولكنه لا يكون مؤمنا، فالمنافقون كانوا ينفذون شرع الله ولكنهم لم يكونوا مستسلمين لألوهية الله، لذلك لم ينفعهم استسلامهم الظاهر.. فالإسلام إذا كان حقاً يعني الإيمان بأن الله وحده هو الله الذي لا إلا هو، صاحب السلطان الوحيد، الذي ينبغي أن يعبّد كل شيء له دائما.. فإذا تحقق هذا الاستسلام ابتداء فقد انتقل الإنسان من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الغربة إلى الأنس، ومن الشقاء إلى السعادة.. وهذا فارق ضخمٌ جداً إذا لم يدركه الناس بهذا المفهوم المفعم بالحرارة لا ينتقلون أبدا إلى الإسلام.. فالإسلام ليس أن أصلي وأن أصوم وأن أنفذ الحدود، هذا مظهر الاستسلام.. أما الإسلام فهو حقيقة تكمن في القلب، تنبثق منها تلك الشجرة الوارفة التي هي تطبيق التشريعات وتطبيق النظم وتحكيم الله في كل شيء في حياة الإنسان.. فهذا هو مقتضى الإيمان وليس هو الإيمان. وهناك من المسلمين من مات قبل أن تتنزل الشريعة، ومات مسلما وموحدا وفي قمة الإيمان؛ كخديجة رضي الله عنها وغيرها من المؤمنين الذين قتلوا أو ماتوا في مكة.. فهم لم يكلفوا بشيء.. وفي الحقيقة هم كلفوا بكل شيء؛ كلفوا بأن ينتقلوا من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان، ومن دائرة الشرك إلى دائرة التوحيد، فاستجابوا لذلك، وهذا هو المطلوب. فالمطلوب أن ينتقل الإنسان من أن يكون عبدا لغير الله إلى أن يكون عبدا لله.. أما أن يكلف أو يؤمر أو ينهى فهذا أمر الله يأمره حينما يشاء وينهاه حينما يشاء، ولكن العبد أصبح في دائرة العبودية لله الواحد الأحد.. وأصبح عبدا خالصا لله عز وجل لا يشرك به أحدا، وهو يحس أنه يقف ليتلقى من الله، فإذا أمره الله بشيء سينفذه، وإذا نهاه عن شيء سينتهي عنه، وهذا هو مفهوم وملخص وجوهر العبودية الحقة.

ثم جاءت التشريعات بعد ذلك كأمر طبيعي ومقتضى طبيعي لحياة الناس. فالناس حينما يعيشون في الأرض يحتاجون تنظيما، ويحتاجون تشريعا، ويحتاجون قوانين تنظم علاقتهم وتنظم نشاطاتهم، فكان لا بد أن تتنزل الشريعة من صاحب الحق ومن صاحب السلطة الذي أخَّرَ هذه الشريعة إلى الوقت الذي يراه صالحا لينزلها، لكن قبل ذلك كان المؤمنون مكلفون بأن يعيشوا فقط بلا إله إلا الله في قلوبهم، وأن لا يشركوا مع الله شيئا، كانوا لا يرون إلا الله، ولا يخافون إلا الله، ولا يرجون إلا الله، ولا يوالون إلا الله، ولا ينقادون إلا لله.. هذا هو جوهر العبودية التي يريد الله أن ينتقل الناس إليه في كل وقت، من جاهليتهم التي يرتضون فيها إلها وسلطانا ومرجعا غير الله، إلى أن يكون مرجعهم وإلههم وسندهم هو الله وحده.. هذا هو جوهر الإسلام الذي ينبغي أن يدعى الناس إليه.. فهي ليست قضية النظام ولا تفاصيل النظام على الإطلاق.

"وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس -فيما بعد- تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها، ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له.. وهكذا أُبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأُبطل الميسر، وأُبطلت العادات الجاهلية كلها.. أبطلت بآيات من القرآن، أو كلمات من الرسول ﷺ بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها، ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطاتها، ودعايتها وإعلامها، فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات، بينما المجتمع يعج بالمنهيات والمنكرات."

فحينما تعمقت لا إله إلا الله في القلوب تلقت هذه القلوب تشريعات الله دون أن تتلكأ ودون أن تجادل ودون أن تناقش، وحتى في بعض الأحيان دون أن تتبين شيئا من تفصيلاتها.. كانت تطبقها حتى قبل أن تذهب إلى رسول الله ﷺ لتعرف تفصيلاتها.. ورأينا الصحابيات حينما تنزلت آيات الحجاب كما تحكي عائشة رضي الله عنها فتقول: ذهبن إلى رسول الله ﷺ وهن معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[٥].. شققن مروطهن واحتجبن بها، دون أن ينتظرن ليسألن رسول الله ﷺ عن شكل الحجاب أو شروطه.. هذا لم يكن عند هؤلاء الصحابيات الجادات المؤمنات الخالصات لله ورسوله ذهبن وهن معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان، وهذا وصف رائع من السيدة عائشة نتبين منه بلاغاتها وقدرتها على التشبيه وجمال التعبير الأدبي بقدر علمها وتقواها، فذهبن هكذا دون أن يتلكأن.. وحينما حُرِّمت الخمر لم يحتج الأمر إلا لرجل واحد يمشي في طرقات المدينة يقول ألا إن الخمر قد حُرِّمت، ألا إن الخمر قد حرمت، فألقى الناس بدنان الخمور فجرت في سكك المدينة[٦] وظلت رائحة الخمر تفوح في طرقات المدينة لأيام طويلة، لأن الناس قد استجابوا في لحظتها فأراقوا وحطموا كل إناء كانوا يشربون بها الخمر.. بكلمة..

فلا شك أن هذه الصورة تبين لنا كيف كان الصحابة يتلقون أمر ربهم وأمر سيدهم وأمر مولاهم وأمر قائدهم ﷺ؛ بهذه الصورة التي تفعم قلب قائدهم بالفرح والرضا، حينما يرى أتباعه وجنوده هكذا يخضعون لكل إشارة دون تلكؤ ولا تردد ولا تساؤل ولا استفسار.. وإنما يطبقونها كما فهموها في لحظتها بشكل فوري.. هذا هو الإيمان، وهذا هو الإسلام، وهذه هي العقيدة.. وأي شيء آخر غير ذلك فهو نقص وتراخ في إقامة هذا الدين. فكلما ظهر في نفوس الأتباع شيء من التردد أو التلكؤ أو الشك أو إثارة التساؤلات الكثيرة فاعلموا أن هذا ناتج مما في قلوب هؤلاء الناس من عدم يقين وتوقير لربهم الجليل سبحانه وتعالى.

---

٥ أخرجه أبو داود وابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث عائشة رضي الله عنها، وسكت عنه المنذري.

٦ صحيح البخاري ج٣. ص١٣٢.

وحينما يتحقق هذا الاستسلام تتحقق العبودية.. وتبدو في أجلى وأروع وأبهج مظاهرها، عبودية تحمل روحها وشكلها ومعناها ومذاقها. ونحن نعرف أن الطريق المعبد هو الطريق المذلل الذي ليس فيه نتوءات.. فالإنسان يجب أن يكون مع ربه هكذا.. إنسانا مذللا، ليس فيه نتوءات، ليس فيه اعتراض، ليس فيه تلكؤ، ليس فيه استفسار الشاك ولا استفسار المتثاقل ولا استفسار المستثقل لما كلف به.. وإنما يكون عبدا ذلولا ينقاد إلى طاعة ربه وسيده وهو راض هادئ منشرح.

وهكذا تتحقق العبودية حينما يتحقق الاستسلام بهذا الشكل في كل مجالات الحياة، وفي كل أوقات الزمن، فتتحقق العبودية في أجلى معانيها.

وحينما تتحقق العبودية بهذا الشكل يتحقق معها كل شيء؛ يتحقق معها يُسْر الحياة، تتحقق عدالة المجتمع، وتتحقق إنسانية المجتمع أيضا، ويتحقق جمال الحياة، وتصبح الحياة نظيفة، ويتحقق الأمن والطمأنينة، وتتحقق المتعة واللذة أيضا.

لذلك يتعجب الإنسان المؤمن لماذا لا يطبق الناس دين الله عز وجل؟ ولماذا يرفضونه؟ ويتعجب أكثر ويأسى أكثر ويحزن أكثر حينما يرى مجتمع المؤمنين غير قادر على أن يرتفع إلى درجة العبودية التي ليس فيها لجاجة ولا تردد ولا معصية ولا قصور!لماذا؟ والله يُؤَمّن عباده ويمتعهم وييسر حياتهم ويقيم العدل بينهم وينظفهم ويرفع إنسانيتهم، فكل شيء يتحقق للإنسان إذا عبد الله حق عبادته.. فهذه حقيقة العقيدة، وحقيقة ما ندعو الناس إليه. نحن لا ندعوهم إلى حكم سياسي، ولا ندعوهم إلى أن يُقهَروا تحت نظام ولا تشكيل ولا رغبة، وإنما ندعوهم إلى الراحة والطمأنينة واليسر والسعادة، ندعوهم إلى العبودية لله التي يتحقق من خلالها حقيقة إنسانية الإنسان، ويتحقق معها كل سعادة الإنسان في كل مجالات الحياة؛ مع الجمال والنظافة والطهر. ونحن لو أردنا أن نتحدث عن هذه المجالات؛ مجال اليسر ومجال الجمال ومجال المتعة ومجال الطمأنينة والأمن ومجال العدالة نحتاج إلى حديث طويل جدا قد يتيسر في وقت آخر، لكننا الآن نوضح لماذا كان الوقوف بادئ ذي بدء عند قضية العقيدة دون التطرق إلى تفصيلات النظام والشرائع التي تنظم المعاملات.

من سمات المنهج القرآني أنه منهج عملي حركي جاد

"وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم. إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد.. جاء ليحكم الحياة في واقعها، ويواجه هذا الواقع ليقضى فيه بأمره.. يقره، أو يعدله، أو يغيره من أساسه.. ومن ثم فهو لا يشرِّع إلا لحالات واقعة فعلاً، في مجتمع يعترف ابتداء بحاكمية الله وحده.."

وهذه هي النقطة الثالثة في هذا الفصل الخاص بطبيعة المنهج القرآني.. **"إن هذا الدين منهج عملي حركي جاد.."** وسوف يتضح من خلال الشرح بعد ذلك ما الذي يعنيه بأنه منهج عملي حركي جاد، في الوقت الذي يتحدث فيه عن ضرورة البداية بالعقيدة.. فما هي صلة البداية بالعقيدة، والإصرار على هذه البداية، وانقضاء فترة ثلاثة عشر عاما يقف فيها القرآن عند قضية العقيدة، وبين أن ذلك متصل بمنهج عملي حركي جاد؟ فالمفهوم أن العقيدة -أو كما يفهمها الناس- أن العقيدة عبارة عن فلسفة أو نظرية.. فما هي صلة ذلك بما يريد أن يقوله عن أن هذا الدين من طبيعته أنه منهج حركي أو عملي جاد في الوقت الذي يتكلم فيه عما يظنه الناس فلسفة أو تصورا نظريا؟

يقول: **"إنه ليس "نظرية" تتعامل مع "الفروض"!.. إنه "منهج"، يتعامل مع "الواقع"!.."** وهذه نقطة شديدة التميز في التصور الإسلامي وفي الدين الإسلامي، لأن هذا الدين يصر على هذه النقطة وعلى هذه البداية.. فالإسلام منهج يتعامل مع الواقع منذ اللحظة الأولى التي تنزل فيها القرآن، وهو يواجه واقعا، ويحدد منهجا واقعيا في نفس الوقت الذي يعرض فيه قضية العقيدة، فالقرآن لا يتعامل مع العقيدة على أنها نظرية، إنما يتعامل معها على أنها موجّه حركي للإنسان.. فمنذ اللحظة الأولى تتحول العقيدة إلى حركة، وتتحول إلى عمل وإلى خطوات على الأرض، ولا تظل معلقة في أذهان الناس كنظرية تنتظر التحقيق. وسنعرف مزيداً من هذه الصلة بين العقيدة وبين كونها منهج عملي يتعامل مع الواقع بعد قليل..

"فلا بد أولاً أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة: أن لا إله إلاَّ الله، وأن الحاكمية ليست إلا لله ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله، ويرفض شرعية أي وضع لا يقوم على هذه القاعدة.."

فمنذ اللحظة الأولى التي تنزلت فيها هذه العقيدة تكّون المجتمع المسلم الحركي الجاد الواقعي، الذي له وجود واقعي في الحياة.. فلم تظل العقيدة نظرية في كتاب، أو فلسفة في عقل، ثم -بعد سنين أو أجيال- جاء أفراد يعتنقونها ثم يطبقونها.. الذي حدث بالنسبة لهذا الدين أنه منذ اللحظة الأولى تحركت الجماعة المسلمة، ممثلة في الطلائع الأولى المكونة من رسول الله ﷺ أولا، ومن خديجة وزيد وعليّ وأبي بكر -رضي الله عنهم-، لكي يكوِّنوا ذلك المجتمع المسلم، ويتلقوا العقيدة في نفس اللحظة التي يتلقاها فيها رسول الله ﷺ، فهم معه، ويتحركون من خلال الوحي، وتتحرك خطواتهم على إيقاع الوحي لحظة بلحظة، وكلمة بكلمة.. ولم يكن هذا -كما سيقول بعد ذلك- مرتبط بنشأة هذا الدين، ولا بأنه يتنزل لأول مرة.. وإنما هذا شأن هذا الدين؛ أنه دين عملي وحركي، يتعامل بجدية مع واقع الإنسان، فيتحرك مع هذا الواقع من خلال حاجاته الحقيقية، ومن خلال نموه الذي يتواكب مع تلقيه للعقيدة وتفاعله معها. فهو ليس نظرية تتعامل مع الفروض، ولكنه منهج يتعامل مع الواقع. فعندما تكوَّن المجتمع المسلم منذ اللحظة الأولى التي نُبِّيء فيها رسول الله ﷺ بكلمة اقرأ، ودعى فيها خديجة، ثم بعد ذلك أبا بكر ثم علي وزيد، أصبحوا جميعا في موقع واحد؛ الرسول ﷺ يتلقى، وهم يتلقون من رسول الله ﷺ، ويتحرك ذلك الركب جميعا -الذي يمثل الجماعة المسلمة- مع إيقاعات الوحي الذي تلقوه، ليحركهم ويأمرهم وينهاهم، ويكوِّنهم وينظم ذرات كيانهم حسب المنهج الجديد وحسب العقيدة الجديدة.

ولأنهم كانوا يعرفون حقيقة لا إله إلا الله منذ اللحظة الأولى كانوا قد خَلُصوا في نفس اللحظة من الولاء للمجتمع الجاهلي؛ عقائده، وتصوراته، وأفكاره، وكل شيء فيه، فأدركوا منذ اللحظة الأولى التي جاء فيها جبريل -عليه السلام- بالوحي، ونُبِّيء بذلك رسول الله ﷺ أدركوا أنه لا حاكمية إلا لله، وأن الشرع هو شرع الله، وأنهم قد تحولوا بكيانهم وعقولهم وقلوبهم من عبودية العبيد إلى عبودية الله وحده.

"وحين يقوم هذا المجتمع فعلا.." -مهما كان ذلك المجتمع قليلا، فالمجتمع المسلم يتكون منذ أول ثلاثة يلتقون على هذه العقيدة، ويتحركون بها- **"تكون له حياة واقعية، تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع.. وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع لقوم مستسلمين أصلاً للنظم والشرائع، رافضين أصلاً لغيرها من النظم والشرائع.."**

وحينما يتلقى الإنسان العقيدة تنبت في نفسه حركة تتعامل مع الواقع؛ الواقع المشرك والجاهلي، والإنسان الذي كان بالأمس جاهليا ومشركا وعابدا للأصنام، ومتحركا من خلال قيم الجاهلية وموازينها، قد انتقل الآن إلى الضفة الأخرى، وقد تلقى تصورا جديدا، وأدرك الحقيقة التي خلق من أجلها، ومن ثم.. وفي نفس اللحظة حدثت تلك المفاصلة الشعورية التي حددت الموقع الجديد الذي انتقل إليه

ذلك الرجل الذي كان بالأمس جاهليا مشركا، وترك على عتبة الإسلام كل ما كان عليه من الجاهلية، ونظر إليها نظرة المستريب الشاك، وأعطى قلبه وعقله وكيانه لهذا الدين الجديد، ولهذه الجهة الجديدة التي تستحق وحدها أن تعبد، وتستحق وحدها أن يتوجه إليها، وأن يتلقى منها.

هذا المجتمع الجديد الذي كان صغيرا لا بد أن تنبت في نفسه مشاعر، وتصبح عنده مشكلات، وتصبح عنده مواقف يحتاج فيها إلى تنظيم وإلى تحديد، ولا شك أن المجتمع المسلم حينما كان في مكة كانت مشكلاته نابعة من هذه الانتقالة الجديدة التي انتقل إليها، ومن ثم كان كل ما نزل من القرآن المكي متصلاً بسلوكيات المسلم تجاه المجتمع الجاهلي، وليس متصلاً بتفاعلات المسلم داخل الإطار الإسلامي.. ففي الإطار الإسلامي ظل يعيش بالمفاصلة الشعورية وبالعبودية الحقيقية لله، ولكن كانت أكثر مشكلاته هي مع المجتمع الجاهلي الذي يضطهده ويعذبه، ويراوده للتخلي عن عقيدته التي آمن بها.. فكانت التوجيهات كلها في ذلك الوقت توجيهات عقدية، متصلة بذلك الصراع الدائر بين الجماعة الوليدة وبين الواقع الجاهلي الذي يقف أمامها بالمرصاد. فكانت مشكلات ذلك المجتمع محصورة -أو يغلب عليها- جو الصراع بينها وبين الجاهلية. وهذا يحدث دائما حينما تتعرض أي مجموعة من البشر إلى شدة معينة، فتجد أن مشاكلها الداخلية تكاد تنتفي وتختفي، لأنهم يواجهون عدوا خارجيا، فتجد كل واحد منهم يفدي أخاه بنفسه وبروحه، ويعيشون معا في وئام وحب حقيقي.

فالجماعة المسلمة في مواجهة المجتمع الجاهلي لم يكن بداخلها مشكلات تحتاج إلى حل، لأن طاقاتها كلها كانت متجهة لمواجهة الخطر الهائل الكبير الذي يترصدها ويترصد وجودها، ويريد أن يقتلعها من جذورها. ولكن حينما تنتهي فترة الشدة وتأتي فترة الراحة، تبدأ المشاكسات والصراعات على أشياء تافهة، لأنها هي متطلبات للذات.. ذلك لأن الصراع الكبير قد اختفى، فبدأت النفوس تنشغل بتفاهاتها الصغيرة، وبتفاهات الأرض. فكذلك كانت الجماعة المسلمة الأولى في حياتها في مكة.. كان أمامها خطر داهم على عقيدة غالية عليهم وعلى كنز أحسوا أن الله قد منّ به عليهم، وعدو يريد أن يسرق هذا الكنز أو يحطمه.. فكانوا منشغلين بالقضية الكبرى؛ وهي الصراع بينهم وبين الكفر وبين الجاهلية.. ولم يكونوا منشغلين بأنفسهم.. كانوا قلة بطبيعة الحال، وكانوا منشغلين بهذا الصراع، وكل واحد يريد أن ينقذ نفسه، كيف أثبت على دين الإسلام؟ كيف أثبت على هذه العقيدة؟ فلم تكن هناك نتوءات ولا بروزات تحتك بعضها ببعض في الجماعة المسلمة في مكة.. فمن أجل هذا لم يكن هناك ثمة حاجة إلى تشريعات تنظم حياتهم، لأن حياتهم ليس فيها مشكلات، أو نادرة المشكلات، لأنهم ذاهلون عن أنفسهم وعن ذواتهم وعن أمورهم الصغيرة أمام ذلك الخطر الداهم الكبير. وهذه إحدى حِكَم عدم حاجتهم في هذا الوقت إلى تشريعات كثيرة تنظم حياتهم.

وجود السلطان ضروري لضمان تطبيق النظام والشرائع

والأمر الثاني: أن هذا المنهج منهج جاد، فالمجتمع المسلم لكي تنزل عليه الشرائع، ويطالب بها ليقيمها، ويحل الحلال ويحرم الحرام، لا بد أن يكون له سلطان على واقعه، وإلا تصبح هذه الشريعة عبئاً عليه، لأنه يريد أن يقيمها ولا يستطيع، وإذا كلف بها أتباعه ثم خرج عليها أحد أو عصى لا يملك أن يقيم عليه حدا، ولا أن يقيم عليه تعزيرا. ولذلك لم يكن من الجدية في شيء أن تتنزل هذه الشرائع فيُستهزأ بها، أو تجمد في ثلاجة التشريع حتى يقوم المجتمع الذي يكون للمسلمين فيه سلطان. فكان من الجدية إذن أن تتأخر التشريعات ريثما يكون للمجتمع المسلم سلطان يستطيع أن يحكم الحياة ويوجهها..

"ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من سلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع حتى يكون للنظام هيبته، ويكون للشريعة جديتها.. فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من واقعية تقتضي الأنظمة والشرائع من فورها.."

فلا بد إذن من السلطان، ولا بد أن يكون هذا المجتمع مهيمناً على مقدراته، حتى تصبح للشريعة هيبتها، فإذا طالبت أو أحلت أو حرمت يستجاب لها، ويكون للنظام هيبته حتى يستطيع أن يكافئ وأن يعاقب بحسب استجابة الناس لهذا الأمر، فلا بد أن تتأخر هذه التشريعات حتى يأتي الوقت المناسب الذي يكون للمسلمين فيه سلطان، ثم تنبثق من خلال هذا المجتمع مشكلات تحتاج إلى تشريع، فيتنزل التشريع ليعالج الحالة الواقعية بحجمها الحقيقي، وبأبعادها وبأصدائها، وبإحساس الناس بها.. فإذا نزل التشريع في هذه اللحظة أدرك الناس قيمته، وأحسوا بنعمته، وأحسوا بحِكَمه المختلفة، وأحسنوا تطبيقه في واقعهم.. لأنه نزل من خلال حاجة ينتظرونها، ومن خلال واقع يعانونه، فإذا جاء الدواء أحس المريض بقيمته لأنه محتاج إليه، يخفف عن معاناته ويعالج مشكلته.. أما إذا جاءك الدواء وأنت صحيح فلن تحس بقيمته، وإذا أخذته لا يكون له أي أثر فيك لأنك لست محتاجاً إليه. فلهذا كان من الواقعية ومن الجدية ألا يتنزل التشريع إلا والناس في حاجة إلى ذلك التشريع، لكي يفهموه ويدركوه ويطبقوه ويستمتعون بالنعمة من خلاله، ومن ثم أيضا يكون له قيمته وهيبته الواقعية.

"والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم. وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشريعة الله.. ومن ثم لم ينزل الله لهم في هذه الفترة تنظيمات وشرائع، وإنما نزَّل لهم عقيدة، وخُلُقاً منبثقاً من هذه العقيدة بعد استقرارها في الأعماق البعيدة.."

فالإنسان في حركته في المجتمع الجاهلي يحتاج إلى هذه العقيدة التي تربطه بالله، ويحتاج إلى توجيهات تتصل بهذه العقيدة؛ سواء في عالم المعركة الداخلية بينه وبين نفسه.. عالم الهوى والمشاعر والخلق والقيم، أو عالم الصراع الخارجي مع الشرك والمجتمع الجاهلي الخارجي. لذلك كانت الآيات التي تتنزل في مكة كانت تتنزل بالعقيدة وبالتوجيهات الخلقية التي تكوّن ضمير الإنسان المسلم، وتجعله يرتفع بنفسه من الوهدة التي كان فيها ومن المستنقع الذي كان يعيشه، وتذيقه طعم قِيم جديدة رفيعة القدر، ترفع من إنسانيته بعد أن كان يعيش في مستنقع هابط يسحق إنسانيته، أو يحول الإنسان إلى حيوان يعيش لغرائزه وشهواته، وإلى قلوب قاسية متحجرة تنتفي فيها الرحمة والإنسانية، أو إلى عقول عمياء طائشة لا تعرف الحق ولا تستضيء بنور الحق.. فكانت الأخلاق والتوجيهات تأتي لتنير عقل الإنسان، وتنظف قلبه من مشاعره وجهالاته وأخلاقياته.. وكان هذا يعينهم أيضا على أن يتذوقوا حقيقة الإسلام، ويتنعموا بهذه الرفعة التي وصلوا إليها.. فيتمسكون أكثر بهذا الدين، ويحسون النعمة ويحرصون عليها، فإذا واجههم الكفار ليقتلعوهم من هذا وجدوا أنفسهم غير قادرين على أن يستجيبوا، وغير راغبين أن يستجيبوا، بل وجدوا أنفسهم مستعدة أن تبذل حياتها من أجل هذه العقيدة، حبا لها، وليس فقط إحساسا بالتكليف، ولا إحساسا بالواجب.

فالإسلام دائما يحب أن ينطلق المسلم من حبه لله، ومن رضائه بألوهية الله، ومن فرحه بعبوديته لله.. وليس من إحساس بالقهر، ولا إحساس بأنه يؤدي واجبا ثقيلا على نفسه.. فلا بد أن تتحول العقيدة في نفس الإنسان إلى علاقة حميمة بينه وبين الله، بحيث يحب الله ويحب دينه ويحب رسوله ﷺ أكثر من حبه للحياة ولنفسه ولبنيه ولأي شيء في الوجود.

هذا التركيز على العقيدة وعلى الأخلاق المنبثقة من العقيدة كان هدفها أن يصل المسلم في علاقته بالله إلى هذه الدرجة الحميمة والشفافة التي تجعله يواجه المجتمع الجاهلي بصلابة جديدة على المجتمع الإنساني.. صلابة يتعجب منها الكفار؛ لماذا يتمسك هؤلاء بعقيدتهم كل هذا التمسك؟ ولماذا يستخفون بهم كل هذا الاستخفاف؟ ولا يؤثر فيهم لا ترغيب ولا ترهيب ولا تعذيب؟ كيف تحول العبيد الذين كانوا بالأمس عبيدا لهؤلاء السادة، لا يتجرؤون أن يناقشوهم أو يعصون لهم أمرا، بل لا يخطر ببالهم أصلا أن يرتفعوا قريبا من أقدام أسيادهم.. كيف تحول هؤلاء العبيد إلى أن يحسوا أنهم أسياد، وأنهم الأعلى، وأنهم الأفضل.. ومن ثم يسخرون من هؤلاء الأسياد، فيحس الأسياد بأنهم حقراء بجانب رفعة هؤلاء العبيد.. هذا الدين يصنع العجائب في قلوب الناس ليرفعهم إلى ذلك المستوى الذي ما كان ليرفعهم إليه أي منهج آخر من مناهج البشرية.. ومن هنا كان الإصرار على العقيدة، وعلى أن تظل العقيدة هي الغذاء الوحيد لقلوب هؤلاء الناس، يقتاتون منه ليلاً ونهاراً، وينهلون من هذا المنهل العذب العميق، ليزدادوا صعودا إلى الله، ويزدادوا إحساسا بعبوديتهم لله، ثم يتحولون ويتغيرون من خلال ترتيب جديد لذرات نفوسهم ومن خلال رحيق جديد يسري في عروقهم وشرايينهم ليصبحوا كيانا جديدا.. هؤلاء المؤمنون ولدوا ولادة جديدة، وأصبحوا خلقا جديدا.. ليس هناك أي صلة بين عمر بن الخطاب ذلك العابث المتهور القاسي المستهتر حينما كان في الجاهلية وبين ذلك الرجل الجاد الوقور الذي يبكي ويدمع لكلمات الله، والذي يرحم ويقف من أجل خدمة المسلمين، والذي يتحرج من تقبيل الحجر الأسود لولا أن رأى رسول الله ﷺ يقبله!كيف تحول هذا إلى ذلك؟ لأن هناك رحيقا جديدا، وهناك شراباً جديد، وهناك دواء جديدا حّول تلك النفوس إلى شيء جديد.

فلا شك أن الإسلام حينما جاء بالعقيدة، وحينما أصر المنهج القرآني على أن يتوقف عند العقيدة تلك المسافة الطويلة، وأن تنبثق منها توجيهات الأخلاق، كان يريد أن يغير من طبيعة هؤلاء الناس، لينتقلوا من وهدة العبودية لأنفسهم ولأهوائهم ولواقعهم، إلى أن يتحرروا من أنفسهم، ومن عبوديتهم لذاتهم، وعبوديتهم للأهواء وللشرائع وللسلطات الأخرى، فلما خلصوا من حظ نفوسهم حدث ذلك التحول العظيم، لكي يستحقوا معية الله، ويستحقوا نصر الله، ولن يتحقق ذلك في أي جيل إلا بعد أن يتحقق في نفوس العصبة المؤمنة ذلك الخلوص وذلك الانطلاق والتحرر من أثقال الجاهلية ومن جواذب الجاهلية. فإذا ظلت الجماعة المسلمة تنجذب إلى الجاهلية، وظلت تحنّ إلى ماضيها في الجاهلية، فهي لا تستحق ولاية الله ولا معيته. لا بد أن يخلص الناس من حظوظ نفوسهم، ولا بد أن يرتفعوا إلى مستوى الحرية التي يزرعها الإسلام في قلب الإنسان ليتحرر من كل شيء في الوجود، إلا من خضوعه لسيده ومولاه وربه عز وجل.

ما الحكمة من تأخر نزول النظام والشرائع إلى ما بعد قيام الدولة في المدينة؟

"فلما أن صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان، تنزلت عليهم الشرائع، وتقرر لهم النظام الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية، والذي تكفل له الدولة بسلطانها الجدية والنفاذ."

هذه هي مراحل الانتقال بالنسبة للجماعة المسلمة؛ تتلقى العقيدة، وتتغير من خلال تلك التوجيهات العقدية، ويصبح الإنسان خلقا جديدا، ثم يثبت ويصبر، ثم يتعالى ويعتز، ثم تتصاغر أمامه الجاهلية.. وحينذاك ينقله الله إلى النقطة الجديدة؛ نقطة السلطة، ونقطة الدولة.. ثم تتنزل عليه الشرائع منجمة حسب نمو ذلك المجتمع الوليد وحاجاته، خطوة بخطوة، ودرجة بدرجة.

هذه هي حركة الإنسان. فطبيعة الحركة الإنسانية في الأرض ليست لها منهج آخر غير ذلك. وأي منهج آخر يتعامل مع الإنسان بغير هذه المراحل وبغير هذه الصورة فهو منهج معادٍ للإنسان، مع معاداته لله سبحانه وتعالى، وهو يؤدي إلى ارتباك البشرية وتناقضها، ومن ثم شقائها، فتعيش في الضنك الذي توعدها الله به.

أولا: أراد الله أن تعيش الجماعة المسلمة من خلال مشكلاتها الحية، لتتلقى الشرائع، خطوة خطوة، ولحظة لحظة

"ولم يشأ الله أن ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة، ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة!إن هذه ليست طبيعة هذا الدين!إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية!إنه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولاً.. إنما يواجه الواقع حين يكون واقع مجتمع مسلم مستسلم لشريعة الله رافض لشريعة سواه بحجمه وشكله وملابساته وظروفه، ليشرع له، وفق حجمه وشكله وملابساته وظروفه."

ولا نشك لحظة أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم المشكلات التي سيلقاها أو سيمر بها المجتمع المسلم، والتي ستمر بها الجماعة المسلمة في المستقبل، وكان ممكنا أن ينزل من الشرائع ما يعالج هذه المشكلات التي ستستقبلها الجماعة المسلمة.

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد شيئا غير ذلك، أراد أن تعيش الجماعة المسلمة من خلال مشكلاتها الحية، لتتلقى ذلك المنهج أو تلك الشرائع، خطوة خطوة، ولحظة لحظة، ومشكلة مشكلة.. وكان من وراء هذا حِكَم كثيرة جدا. سنذكرها بترتيب صلتها بواقع الإنسان، وليس بترتيب أهميتها..

وقد قلت طرفاً من ذلك حينما ذكرت أن الإنسان حينما يكون في معاناة وشدة، وفي حيرة وألم مما اعتراه من مشكلات فإنه يكون كالأرض العطشى التي تتشرب الماء لتنتفع به كله. فهكذا النفس البشرية حينما تكون في شدة وفي حيرة حينما تواجهها مشكلة أو مصيبة، ثم ينزل إليها التشريع ليحل لها هذه المشكلة، فإنها تستقبله استقبالا حارا، وتمتصه امتصاصا شديدا، وتفهمه فهما جيدا، وتحس في اللحظة ذاتها بالنعمة والإنقاذ وكرم الله الذي تدخل في هذه اللحظة ليحل لها إشكالها.

وهذا حدث كثيرا في المجتمع المسلم؛ حينما تنزلت آيات الظهار مثلا.. وكذا حينما تنزلت آيات اللعان.. وكانت مشكلة وقف أمامها الرجل المسلم لا يدري كيف يصنع؛ يجد امرأته مع رجل، فإذا ذهب ليأتي بثلاثة شهود آخرين يكون الأمر قد انقضى، وكيف بعد ذلك يستطيع أن يعيش مع هذه المرأة، ثم إذا تكلم يعتبر قاذفا ويقام عليه الحد، فيكون هو المجني عليه، ثم هو الذي يعاقب.. أمر محير يصطدم مع كرامة الإنسان ومع مشاعره.. أمر ثقيل جدا، ولما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك -قبل أن تحدث الواقعة- قال لهم: لا بد أن يأتي بأربعة شهود.. وحينما وقعت الواقعة، وجاء الرجل يلهث إلى رسول الله ﷺ ليقول له: وجدت مع امرأتي رجلا.. فقال له رسول الله ﷺ (البينة، أو حد في ظهرك)[٧].. فكانت مصيبة لم ينفعل معها الرجل وحده وإنما انفعل لها المجتمع الإسلامي كله، لأنه يمكن أن يتكرر هذا مع غيره.. ولكن وهم في ذروة الانفعال وذروة الحيرة وذروة التأثر، نزل الوحي ليحل لهم المشكلة.. ونحن لا نستطيع -مهما كان خيالنا عميقا وواسعا- أن نتخيل كيف كانت هذه الآيات بردا وسلاما، وكيف تشربها المجتمع الإسلامي لحظة نزولها.. فهذه حكمة

٧ صحيح البخاري. ج٣. ص١٧٨.

هائلة جدا، ولو لم يكن في أمر تأخر التشريعات وتفرقها إلا هذه الحكمة وحدها لكان كافيا.. ولكن -كما قلت- أن هذه ليست هي الحكمة الوحيدة.

والإنسان هو الذي طُولب بأن يقيم هذه الشريعة، ولكي يقيمها لا بد أن يكون مدركا إدراكا كبيرا لكل أبعادها وحكمها ما استطاع، ولا شك أنه حينما يتنزل هذا التشريع منجّماً حسب الوقائع فإن الإنسان المسلم الذي سيطالب بعد ذلك بتطبيق هذه الشريعة ويكون قد عاصر مولد هذا الحكم وملابساته، ومقدماته ونتائجه، ومعاناته اللحظية والواقعية، فإنه يصبح أقدر ما يكون على أن يقيم هذا التشريع. ولذلك كان الصحابة يدركون من التشريعات ومن حكمها ما لم يكن يدركه أحد من التابعين ومن وراءهم، لأنهم كانوا قد عاشوا لحظات التنزيل، وكانوا قد عانوا لحظات المشكلة، وكانوا قد أحسوا بنعمة الحل، ومن هنا تحققت فيهم الخبرة والحس الخفي الذي نبت من خلال معايشتهم للمشكلة ولحيرة المشكلة ولمعاناة المشكلة، ثم عاشوا نعمة الحل وحكمته حينما نزل، وعاشوا فرحة الحل، فحينما تأتي حادثة أخرى يستطيعون أن يكونوا هم أقدر الناس على أن يحكموا فيها، وعلى من يأتي وراءهم أن يعيش هذه اللحظات بقدر الإمكان. ولذلك كانت معرفة أسباب التنزيل، ومعرفة وقائع المشكلة التي نزل بسببها الأمر تعين الفقيه على أن يحكم الحكم الأقرب إلى روح هذا الدين وعدالته وسموه ورحمته. لكن الذي يأخذ الحكم مجردا دون أن يعايش المشكلة وجذورها وامتداداتها، وما صاحبها من انفعالات، يظل غير فقيه، لأنه سيحكم حكما مجردا من المشاعر والوقائع التي عايشت الحكم حينما نزل، فكثير من حكمة الحكم ومن أبعاده ومن إيحاءاته تكمن في معرفة أسباب النزول وجو التنزيل حينما حدثت هذه الواقعة.

وأنتم تعلمون عن بعض الوقائع التي لم يطبق الرسول ﷺ فيها الحد على من يستحق الحد، لأن جو المشكلة اقتضت أن يوقف الحد، رغم أنه لا يجوز أن يوقف أحد الحد. عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ عَنْ أَبِيهِ «أَنَّ امْرَأَةً وَقَعَ عَلَيْهَا فِي سَوَادِ الصُّبْحِ وَهِيَ تَعْمَدُ إِلَى الْمَسْجِدِ بِمَكْرُوهٍ عَلَى نَفْسِهَا، فَاسْتَغَاثَتْ بِرَجُلٍ مَرَّ عَلَيْهَا، وَفَرَّ صَاحِبُهَا، ثُمَّ مَرَّ عَلَيْهَا ذَوُو عَدَدٍ، فَاسْتَغَاثَتْ بِهِمْ، فَأَدْرَكُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَتْ اسْتَغَاثَتْ بِهِ فَأَخَذُوهُ، وَسَبَقَهُمْ الْآخَرُ، فَجَاؤوا يَقُودُونَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَغَثْتُكِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْآخَرُ قَالَ: فَأَتَوْا بِهِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهَا، وَأَخْبَرَ الْقَوْمُ أَنَّهُمْ أَدْرَكُوهُ يَشْتَدُّ، فَقَالَ: إِنَّمَا كُنْت أَغَثْتهَا عَلَى صَاحِبِهَا فَأَدْرَكَنِي هَؤُلَاءِ فَأَخَذُونِي، فَقَالَتْ: كَذَبَ، هُوَ الَّذِي وَقَعَ عَلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: انْطَلَقُوا بِهِ فَارْجُمُوهُ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ النَّاس فَقَالَ: لَا تَرْجُمُوهُ وَارْجُمُونِي، فَأَنَا الَّذِي فَعَلْت بِهَا الْفِعْلَ، فَاعْتَرَفَ، فَاجْتَمَعَ ثَلَاثَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهَا، وَالَّذِي أَغَاثَهَا، وَالْمَرْأَةُ، فَقَالَ: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ غُفِرَ لَك وَقَالَ لِلَّذِي أَغَاثَهَا قَوْلًا حَسَنًا، فَقَالَ عُمَرُ: أُرْجُمْ الَّذِي اعْتَرَفَ بِالزِّنَى، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ: لِأَنَّهُ قَدْ تَابَ إِلَى اللَّهِ»[٨].. فالرجل كان بريئا، لكن الواقع أمام الرسول ﷺ كان هكذا.. وهذا أيضا نستخرج منه فقها؛ أن الحكم ليس بالضرورة أن يكون بالبينة، ولكن قد يكون بقرائن الأحوال.. فالقرائن كلها كانت ضده.. رجل يهرب وامرأة تصرخ وتدعي الزنا، وقبض عليه وهو يهرب، والناس رأوه وهو واقف بجانبها ثم جرى، فقرينة الحال كلها تقول إن هذا الرجل هو الذي ارتكب هذه الجريمة.. فبعد أن حكم الرسول ﷺ بهذا الحكم، وبدأ الصحابة يتحركون ليرجموه، تكلم الرجل الفاعل الأصلي، وقال: يا رسول الله.. أنا الفاعل وهذا الرجل بريء، ارجموني أنا.. فعفى عنه الرسول ﷺ، فقال له عمر: أتعفو عن رجل زنى لا تقيم عليه الحد؟ فقال: اعترافه وفداؤه لأخيه طهره من الحد. فهذه الواقعة مثلا، بهذه الملابسات، لا نستطيع أن نطبقها تطبيقا أعمى، لا بد أن نعيش المشكلة، ونعيش أبعادها، لكيلا يأتي أحد من الناس فيظن أن من الممكن أن نعطل الحد.. لكن الموقف الكبير

---

٨ السنن الكبرى للنسائي ٧٢٧٠. وذكره ابن قيم الجوزية في إعلام الموقعين عن رب العالمين وصححه الألباني.

جدا الذي لم يحتمله الرجل الجاني على نفسه وعلى ضميره، وخشيته من الله، وفداؤه لأخيه، وإحساسه بالظلم الذي سيقع، وإحساسه بأنه ارتكب تضليلا للعدالة.. هذا كله تجمع في قلبه لينطق بالاعتراف وينقذ أخاه الذي جاء لينقذ المرأة، فإذا به يقع في هذه المصيبة التي تصمه بالزنا، والجريمة ليس عقابها للجاني وحده، ولكن أهله وأولاده وقبيلته وأسرته كلهم سيعانون ويعيرون أن هذا الرجل قد زنى، فجاء هذا الصحابي ليعترف بجريمته لينقذ ذلك الرجل، وينقذ كل من وراءه. فلا شك أن هذه الفعلة كانت هي التي من أجلها عَفَى عنه الرسول ﷺ ورفع عنه الحد اجتهادا منه ﷺ، وأقره الله على هذا الاجتهاد، لأنه لم ينزل الوحي ليغير الحكم، أو ليعاتب رسول الله ﷺ.

فإذن من حكم تنزل الشرائع والأحكام حسب الحوادث وحسب الحاجات أن يعيش الناس الواقعة ويفهمون الحكمة من ورائها ليستهدوا بها في مستقبل حياتهم كلها إلى يوم الدين.

ثانيا: كيف يتلقى الناس شرع الله، الدافع المصلحي أم الدافع الإيماني؟

والحكمة الثانية من تأخر الأحكام والشرائع حتى يأتي المجتمع المسلم وسلطان المجتمع المسلم، هو أمر خاص بالاعتقاد ذاته، وبالعلاقة بين الإنسان وبين الله.. هل يتلقى الإنسان الشرع لأنه في مصلحته، ومن ثم يوافق على الخضوع له لأنه شيء في صالحه؟ أم أنه يتقبل شرع الله لأنه أمر الله ولأنه مقتضى إيمانه بالله؟

فخطاب الناس بالنظام وبتفصيلات النظام، ومحاولة إقناعهم بأن الشريعة التي جاءت من عند الله خير من أي شرائع أخرى، وأنها تحقق للإنسان مصلحته، ومن ثم ادخلوا الإسلام لأن الإسلام يحقق مصالحكم، ولأن هذه الشريعة أرحم بكم وأرفق بكم وأصلح لكم وأعلم بمشاكلكم، وأنها تحل لكم مشاكلكم الآنية والمستقبلية.. لأن الله أكثر علما.. فلماذا تتركون شريعة تحقق لكم كل هذا وتتبعوا شريعة بشر قاصر النظر، قد لا يستطيع أن يحل مشاكلكم، أو قد تكون أحكامه متلبسة بالهوى.. فبعد المقارنة وبعد الحسابات يقولون لك: رضينا بالإسلام ورضينا بالعقيدة ورضينا بدخول هذا الدين، لأن هذا الدين يحقق لنا مصالحنا!

هذا الأمر وحده لا يدخل الناس في دين الله، وإنما يدخلون في دين أنفسهم، فيصبحون هم الذين تلقوا شرع الله من خلال ذواتهم ومن خلال مصلحتهم. فإذا تبين لهم في أية لحظة أن هذا التشريع قد ثقل عليهم، أو حرمهم شيئا كانوا يريدونه، أو اختلت موازينهم، فسيرفضون شرع الله، لأنهم لم يقبلوه أولاً لأنهم عبيد لله، ولكن لأنهم سادة أنفسهم، يقبلون ما شاءوا ويرفضون ما شاءوا.. فحتى لو ارتفعوا إلى مستوى العلم بعدل الشريعة ورحمتها فطبقوها اقتناعا بعقولهم أنها هي الصواب والأفضل فإن هذا لا يكون إيمانا، ولا يكون توحيدا.

ثالثا: استحالة أن يكون أساس الدعوة خطاب عموم الناس بتفصيلات الشرع والنظام

وثالثا: لأننا إذا أردنا أن نخاطب الإنسان بالشريعة وبتفصيلات الشريعة فإننا لا نستطيع أن نخاطب بذلك عوام الناس ولا حتى المثقفين الذين لم يتلقوا علوما شرعية، فهذا الخطاب لا يكون إلا خطابا للمتخصصين في القانون وفي التشريع وفي الفقه وأصول الفقه، لكن بقية الناس سيفهمون الحِكَم العامة ولن يفهموا الأسرار العميقة في تفاصيل الشريعة؛ سواء كان شريعة اقتصادية أو شريعة في الأحوال المدنية أو الأحوال الأخلاقية أو غيرها، فالأمر يكاد يكون مستحيلا أن يخاطب الناس بتفصيلات النظام وقضايا النظام وهم ليسوا على مستوى فهم هذا النظام أو الحكم من هذا النظام. وهذا كالمريض الذي يوصف له دواء، فيطلب من الطبيب أن يتعرف على عناصر هذا الدواء، وعمله في أجهزة جسمه، ومضاعفاته وكيف تحدث.. وهذا يحتاج إلى أن يكون المريض دائماً دارساً للطب أو الصيدلة لكي يتلقى أي

دواء، وإلا رفضه، وهذا أمر يعطل الطب والعلاج.. فإذا كان علينا أن نخاطب الناس بتفصيلات النظام فلا بد أن نفترض أن كل الناس دارسين للشريعة أو للقانون لكي يفهموا عنا هذا الأمر، وهذا افتراض مستحيل وغير ممكن.

فلا بد أن يكون تعامل الناس مع من يصدر التشريع، فإذا اطمأنوا إليه تلقوا منه التشريع بلا مناقشة، كما يطمئن المريض إلى الطبيب الذي اختاره ليعالجه، فيتلقى علاجه أو توجيهه باطمئنان وتسليم، لأنه استسلم للأصل، فتلقى منه التفاصيل استسلام الراضي، بل المقتنع، بل الذي يجزيه على ذلك، فيشكره ويكافئه.. ولله المثل الأعلى.. الله هو الذي يعلم هذه البشرية، ويعلم مصالحنا، ويعلم ما الذي نحتاجه، فإذا أسلمنا أمرنا لله، واعتقدنا اعتقادا جازما أنه هو الذي من حقه وحده أن يشرع، لأنه هو وحده الذي يعلم، وهو الذي يرحم، وهو الذي يجازي، لم نكن في حاجة إلى أن نعرف تفصيلات النظام.. وإنما الذي نحتاجه هو أن نعرف هل الإله الذي نُدعى إلى عبادته يستحق أن يكون إلها أم لا؟ فإذا آمنا أنه يستحق أن يكون إلها، فإننا بعد ذلك لا نحتاج إلى أن نسأله عن شيء.. وبذلك نفهم أن قول الله عز وجل ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، لأنه سبحانه الإله الذي لا ينبغي أن يُسأل من العباد، أدبا وثقة، ويقينا منهم بأنه هو الأعلم والأعظم والأرحم والأرفق.. ولذا لا يُسأل سبحانه عما يفعل، وهم يسألون.

رابعا: دعوة الناس للإسلام من خلال إقناعهم بالنظام وتفصيلات النظام عمل عابث

ورابعا: إن دعوة الناس للإسلام من خلال إقناعهم بالنظام وتفصيلات النظام عمل عابث، لأنك قد تبذل جهدا هائلا مع إنسان ما في عرض النظام عليه، فيقتنع بالقضية الأولى والثانية والثالثة والرابعة والعاشرة، وحتى الألف، ثم يأتي للقضية الأولى بعد الألف فلا يقتنع بها، أو يقول هذه غير صحيحة، أو فيها ظلم، وأنا غير مستعد أن أقتنع بها.. فحتى إذا دخلت الإسلام سأطبق الألف حكم التي اتفقنا عليها، لكن هذه القضية سأحكم فيها بعقلي.. فماذا ستصنع؟ هذا لم يكن في لحظة من اللحظات عبدا لله، ولم يكن اقتناعه في لحظة من اللحظات لأنه عبد.. هو -في الحقيقة- يتصرف كإله في مواجهة إله.. ولذا فهو يصوب أو يخطئ الله في أحكامه، لأنه إله، بل إله أكبر، لأن الذي نقف بين يديه بشرع الله، نريد منه موافقة وإجازة لهذا الشرع، لا بد -إذن- أن نكون قد وضعناه في موقع أكبر من الله.. وبذلك نكون نحن -ابتداء- قد كفرنا قبل أن يكون هو كافرا، فحينما نضع البشر ليقولوا كلمتهم في شرع الله نكون نحن قد كفرنا، لأننا أعطيناهم صفة الألوهية الأعلى من ألوهية الله، لكي يوافقوا على شرع الله أو لا يوافقوا.. فضلا عن ضياع الجهد والوقت، فبعد أن تعبنا معه زمنا طويلا لنقنعه بمجموعة من المسائل أو التشريعات، ثم يأتي لمسألة أخيرة فلا يوافق عليها، فكأنه لم يوافق على شيء ابتداء.. والله عز وجل يقول في الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[٩]. فالله غير محتاج للبشر.. فهو الغني عن العالمين.. فعلينا أن نسلم له بكل كياننا ابتداء.

فقضية دعوة الناس إلى تفصيلات النظام دعوة عابثة، تتناقض مع قضية التوحيد ابتداء، لأنه ليس لنا أن نُحكّمَ الناس في شرع الله، وليس لنا أن نستلهمهم رأيهم في شرع الله، ولا أن نفرح حينما يوافقون على شرع الله كما يصنع بعض الذين يدّعون أنهم يعملون للإسلام، حينما يعرض قانون الخمر على مجلس الشعب ليبحث هل سيوافق على تحريمه أم لا!فإذا وافق مجلس الشعب ضج الإسلاميون بالتصفيق والفرح، لأن مجلس الشعب وافق أخيرا على إجازة شرع الله!!!وهذه مصيبة.. فعرض التنظيمات والتشريعات والتفصيلات على الناس

٩ رواه مسلم في الصحيح من حديث أبي هريره -رضي الله عنه-.

ليقولوا رأيهم فيها هو تناقض مع المطلب الأول الذي جاء به الأنبياء ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥].. فيأتي هذا المطلب قبل أن يتحدث معهم في أي أمر من التشريع.

فالإسلام -كما نقول- أكثر جدية من أن يتعامل مع الناس من خلال ما يريدون، والله غني عن الناس، فهو يدعوهم من خلال أنبيائه ورسله وكتبه ودعاة الحق، فإذا وافقوا على القضية الأساسية؛ وهي قضية أن الإله هو الله الذي لا إله إلا هو، فقد انتهت القضية بعمل واحد يستطيع كل الناس أن يفهموه، ودعوة واحدة يستطيع كل الناس أن يتلقوها، لأنهم يعيشون بالفعل ألوهية الله التي تخلقهم وترزقهم، وتعطيهم وتمنعهم، وهم يحسون في أعماقهم أن الله هو صاحب الفضل عليهم، فإذا كانوا يعترفون بأنهم مخلوقون خاضعون لهذا الإله الذي خلقهم، فتكون الدعوة إذن وسيلتها سهلة، وقضيتها مركزة، وفي قدرة الناس أن يفهموها، لأن جميع الناس -ولو لم يُؤتَ أحد منهم شيئا من العلم الدنيوي- يستطيع أن يُخَاطَب بمطلب الفطرة؛ أتؤمن بأنك مخلوق؟ ألا تعلم أن الله خالق السماوات والأرض، وخالق الناس، وخالق النبات والحيوان؟ فسيقول: أعلم.. فيقال له أن هذا الخالق يطالبك أن تخضع له.. فالقضية تكون منحصرة في شيء واحد؛ إما أن يستسلم لخالقه الذي يعترف به، وإما أن يتمرد على ذلك الخالق.. فتكون القضية منتهية بضربة واحدة؛ لا أو نعم، وينتهي الموقف بسرعة.. ويستطيع الناس جميعا أن يتلقوا القضية، فهي لا تحتاج إلى ثقافة معينة، ولا إلى علم معين، ولا إلى مكانة معينة. فالإسلام بهذا يكون أشد واقعية، لأنه يتعامل مع واقع الناس جميعا.. وأشد جدية من أن يضيع وقته عبثا.. وأشد صدقا من أن يُحكّم الناس في شرع الله، أو أن يرفع الناس فوق ألوهية الله.

صياغة النظريات في واقع غير مسلم ليس من طبيعة هذا الدين ولا يحقق الهدف

"والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات للحياة.. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلاً تحكيم شريعة الله وحدها، ورفض كل شريعة سواها، مع تملّكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام هذا، لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة.. كما يريد له الله.."

وبهذه البساطة وبهذه النصاعة يصوغ الأستاذ سيد القضية بشكل واضح لا يرفضه إلا جاهل، ولا يرفضه إلا محتقر لعقله، أو غير محكِّم عقله في هذا الأمر.

فالقضية واضحة.. إن هذا الدين له هدف واحد، وهو تعبيد الناس لله، فكيف نخاطب الناس بشريعة وهم لا يعترفون ابتداء بأنهم عبيد لصاحب هذه الشريعة، وكيف نصوغ نظريات وقوالب للنظام وللتشريعات بينما ليس في الأرض أحد يريد هذا؟ لا شك أن هذا عبث، وعدم معرفة بطبيعة هذا الدين الذي يحرص على الواقعية، ويحرص على الجدية، ويحرص على الصدق مع الحقيقة، ولا يخاطب الناس لمجرد أن يخاطبهم، وهم عابثون، أو وهم رافضون، أو وهم مقررون ابتداء ألا يحكموا بشريعة غير ما يريدون هم وما يهوون.

فالذين يريدون من الإسلام أن يصوغ نفسه في نظريات يصطدمون مع طبيعة هذا الدين، وطبيعة هذا المنهج، وطبيعة طريق الأنبياء الذين جاءوا من عند الله مؤيدين بوحي الله، والذين علمهم الله كيف يدعون الناس، فالأنبياء جميعا لم يتجاوزوا النقطة الأولى؛ وهي أن يقولوا للناس ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥].. فالذين يريدون أن يفعلوا ذلك يريدون أن يغيروا من هذا الدين..

"إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه.." لأنه ليس من طبيعة هذا الدين أن يكون عابثاً ولا لاهياً ولا حائداً عن هدفه الذي وضعه..

وليس له أن يغير منهجه.. لأنه منهج جاء من عند الله.. فليس من طبيعة هذا الدين أن يخرج على شرع الله.

ويريدون منه -أيضا- أن يغير تاريخه.. وتاريخ هذا الدين لم يبدأ منذ أن جاء محمد ﷺ، وإنما منذ أن جاء آدم وأُمِر بتبليغ شرع الله وبإقامته.. فهؤلاء الذين يريدون أن يصوغ الإسلام نفسه في صورة نظريات أو قوالب نظام أو تشريعات مسبقة. هؤلاء **"يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية، ومناهج بشرية.."** فهم خرجوا من جاهلية تصوغ أفكارها في نظريات وفي قوالب وفي تشريعات، تعطيها للناس جاهزة ليطبقوها.. فيريدون أن يتبعوا مناهج الجاهلية.. **"ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، رغبات إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.."** فهؤلاء قاموا حماسة لهذا الدين وعاطفة له، وقد يكونون صادقين أنهم يريدون الإسلام، ويريدون تطبيق شريعة الإسلام.. ولكن لأنهم لم يعرفوا حقيقة الإسلام وحقيقة التوحيد، ولم يعرفوا حقيقة منهج الإسلام، وجدية هذا الدين وواقعيته، ثم هم لهزيمتهم أمام تلك النظم الجاهلية، وأمام دعاية الجاهلية وعجرفتها، والتي يعتقدون أنهم إن خالفوها فستنظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار.. يتصورون -لذلك كله- أنهم يمكن أن يستعيروا من الجاهلية منهجها ليدعوا إلى الإسلام من خلاله، أو ليطبقوا الإسلام من خلاله، وأرادوا أن يخلطوا بين حقيقة الإسلام وبين منهج العبيد، فأخرجوا جنينا مشوها لا يصلح للحياة. فمن ثم **"يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب نظريات وفروض، تواجه مستقبلاً غير موجود.. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده.. عقيدة تملأ القلب، وتفرض سلطانها على الضمير، عقيدة مقتضاها ألاَّ يخضع الناس إلاَّ لله، وألاَّ يتلقوا الشرائع إلاَّ منه دون سواه.. وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم، ويصبح لهم السلطان الفعلي في مجتمعهم، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك."**

فالذين يريدون من الإسلام أن يصوغ نفسه في نظريات هم لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة كما يريد له الله، **"يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية، ومناهج بشرية، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم.."**، لأنهم يريدون أن يستعجلوا النصر، ويستعجلوا الأتباع والمستجيبين، وأن يكون لهم صوت عال في المجتمع، فلذلك لا يصبرون على تأخر الاستجابة، ولا على أن يظلوا غرباء بمنهجهم الغريب عن ذلك المجتمع، وعلى التقاليد السائدة في المجتمع.. هذا فضلا عن تلك النظرة المستعلية التي يتوقعونها من الجاهلية التي تحتقرهم، وتتهمهم بعدم العلم، وعدم الواقعية، وعدم المنهجية العلمية، وعدم المعرفة بأساليب التقدم العصري، وعدم الاطلاع على النظريات الحديثة التي تحدثت عن الشرائع وعن القوانين؛ كقوانين مونتيسكيو، وجان جاك روسو، وفولتير وغيرهم.. فهم يحسون أنه يجب أن يستمدوا من ثقافة العصر ليرتفعوا إلى مستوى القوم، فهم ليسوا معتزين بثقافتهم القرآنية، وبذلك يريدون أن يلبوا رغبات وقتية في نفوسهم لكي يكونوا مثقفين كالقوم الجاهليين، ولكي يكونوا علماء بالشرائع والقوانين بطريقة الجاهلية، ولكي يكونوا منهجيين وعلميين كما تدعي وتخاطبهم الجاهلية، ومن ثم يريدون أن يستعجلوا الإسلام عن طريقه وخطواته، ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، رغبات إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.

وهذا يبدو على سحنة كل الذين يرتضون أن يدخلوا مجالس الشعب، أو أن يقارنوا بين نظام الله العظيم وبين نظام البشر الهزيل.. فترى في وجوههم سحنة الذل والهزيمة التي ارتضوها لأنفسهم حينما نزلوا بمنهج الله إلى مستوى العبيد ليناقشوه معهم.. تحس من خلال حوارهم مع أفراد الجاهلية ذلك الذل.. والذي سمع حوار الأستاذ مأمون الهضيبي والشيخ الغزالي مع فرج فودة كان يشعر بذلك؛ يشعر أن فرج فودة أكثر استعلاء وأكثر وثوقا وأكثر هجوما، وهم أكثر ذلة وأكثر تضعضعا، وكأنهم يستجدونه.. فلا شك أنهم مهزومون داخليا.

ليست وظيفة الإسلام أن يبحث عن حلول لمشكلات مجتمع غير مسلم

وهم -أيضا- **"يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب نظريات وفروض، تواجه مستقبلاً غير موجود.."** فهم كالمجانين الذين يريدون أن يفصلوا ثوبا لرجل غائب، أو لإنسان لم يعرفوا مقاسه.. فالإسلاميون يفعلون ذلك، يقولون نريد حلولا لمشكلات هذا المجتمع الذي يعدونه إسلاميا.. ولذلك يقعون في التناقض، فهم يقولون إن هذا مجتمع إسلامي، وعندما يطالبونهم بقوانين ليعالجوا مشكلات هذا المجتمع لا يجدون عندهم.. ويضطرون أن يقدموا تشريعات لمجتمع ليس إسلاميا في الحقيقة.. فخُدعوا لجهلهم، ووقعوا في هذا التناقض، واضطروا أن يستجيبوا للخدعة، فيشرعون لمجتمع ليس إسلاميا، ومشكلاته ليست مشكلات مجتمع مسلم، فيواجهونها بعلاج ليس من طبيعته أن يعالج هذه المشكلات.

والمشكلات الموجودة في هذا المجتمع الذي ليس مسلما، والذي يعطونه صفة الإسلام، مشكلات نشأت من فلسفة المجتمع الجاهلي الكافر، وليس من تصور الإسلام، فلن يعالجها المعالج المسلم.. فهؤلاء ليسوا مفكرين، وليسوا دعاة للإسلام، ولا هم منطقيون لأنهم يفترضون أن هذا المجتمع الذي أمامهم مجتمع إسلامي، بينما هو مجتمع لم يقرر أن يقبل الإسلام، ولا أن يطبقه، إنما هو مجتمع يستجيب ويشرع لنفسه ويحرم الحلال الذي أحله الله ويحل الحرام الذي حرمه الله، ثم بعد ذلك يقول لك أعطني دواء لهذه المشاكل.. الذين يستفتونهم هازلون، والذين يفتونهم أشد هزلا.. كما قال الأستاذ -سيد رحمه الله- وهذه كلمات تكتب بماء الذهب، ولا يكتبها إلا رجل ملهم، يعرف حقيقة الإسلام، ويعيش حقيقة الإسلام، ويعيش عزة الإسلام فعلاً.

والحقيقة أن الجاهلية أعقل من دعاة الإسلام المخطئين هؤلاء.. فالجاهلية تضع فلسفة، وتقيم على هذه الفلسفة قوانين تتناسب مع فلسفتها، وتحقق مطالب وشهوات وغرائز الذين أقاموا فلسفتهم من خلال هذه المطالب والشهوات. فهم أصحاب قاعدة فكرية وعقيدية، وأهداف محددة، ويصيغون نظاما وقوانين تتناسب مع هذه الأهداف. فهم في حقيقتهم أعقل وأذكى، وأكثر جدية ومنطقية من الدعاة الذين يفصلون ثوبا لرجل لا يعرفونه، أو يصيغون قوانين لمجتمع يرفضهم.

ثم هم أيضا -لأنهم آلهة- يصوغون تشريعاتهم بأنفسهم، ويعطون لأنفسهم حق التغيير والتبديل كلما عنّ لهم أن يغيروا وأن يبدلوا، فالمجالس التشريعية مهمتها أن تنظر كل فترة في القوانين، أو تدعو الحكومة المجلس التشريعي ليصوغ لهم قوانين جديدة تتناسب مع مشكلات جديدة، أو لتغير قوانين قديمة، لأنهم اكتشفوا أن هذه القوانين القديمة لم تعد تتناسب مع واقعهم الجديد، أو نشأ عن تطبيقها مشاكل جديدة. فالمجلس التشريعي مجلس مهمته التشريع، وأعضاؤه آلهة يجلسون على كرسي الآلهة يشرعون كلما اقتضى أمرهم ذلك، فهم منطقيون مع أنفسهم، يعدون أنفسهم هم القوة العليا، وليس فوقهم مشرع، فهم الذين يشرعون لأنفسهم. والتبديل والتغير هو خاصية الإله، فالله عز وجل يقول ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].. فالله هو الذي يبدل، وهو الذي يغير، وهو أعلم بما

ينزل.. ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧].. فلأنه هو مالك السماوات والأرض، وهو إله السماوات والأرض، فحينما ينسخ ويبدل ويغير، فهذا من حقه.. والمجلس التشريعي يصف نفسه بهذا، فهو ينسخ ويبدل ويغير ويشرع، فهم منطقيون مع أنفسهم.

لكن الذين يدّعون أنهم دعاة للإسلام بغير المنهج الحق لا يفعلون ذلك، هم يدّعون الإسلام ثم يدَعون لهذه الآلهة أن تشرع للإسلام، وأن توافق على شرائع الإسلام!وهذا سفه وعته، وجريمة، وكفر بالله عز وجل.. ينبغي أن يترفع عنه المسلم صيانة لدينه أولاً واحتراماً لطاقاته من أن يهدرها فيما لا يحقق هدفه ثانياً.

وهذا الحكم حكم عقدي عام، لكن حينما نأتي لإيقاعه على الواقع فالأمر يكون شيئا آخر، لأنه ليس كل من نطق بالكفر، أو ليس كل من عَمِل بشيء من الكفر كافر، إلا أن يكون عالما ومتعمدا وغير متأول.. وهناك ضوابط فقهية وأصولية تحكم الأمر. ولذلك نحن لا نحكم على جماعة الإخوان أو غيرهم ممن يتبنى ذلك المنهج بالكفر لمجرد أنهم اشتركوا في المجالس التشريعية، لأنهم أصلاً لم يدخلوها بقصد الانضواء تحت هذه الشرائع، ولا هم يعتقدون حق هذه المجالس في أن تغير وتبدل في شرع الله، وإنما هم -جهلاً وتأولاً فاسداً- ظنوا أنها وسائل ليحكّموا من خلالها شريعة الله عز وجل، فهم متأولون تأويلا فاسدا. وهذا الذي يجعلنا لا نتعرض للحكم عليهم بالكفر، ونكلهم إلى الله عز وجل، ولا ندخل في هذه الدائرة، فهم مسلمون بالعقد الأول الذي دخلوا به الإسلام حينما رفعوا راية لا إله إلا الله، وراية الدعوة إلى تحكيم شريعة الله، والجهاد من أجل إعلاء كلمة الله. إلا أن نرى كفراً بواحاً.

وهذا هو المنهج الذي يتقرر في هذه السطور التي قلناها، فلا بد أن يوجد المجتمع المسلم أولا لكي يشرع له، والجيل الأول قد تنزلت عليه الشرائع بعد أن انتقل إلى المدينة، وتكونت له دولة، فتنزلت عليه الشرائع منجّمة حسب الحاجات والوقائع.. وكان هذا هو الترتيب الطبيعي.

"هذا ما يريده الله لهذا الدين، ولن يكون إلا ما يريده الله، مهما كانت رغبات الناس!"

ونريد أن نقف أيضا عند هذا التعبير الجليل.. **"ولن يكون إلا ما يريده الله"** لأن الناس يتصورون أن باستطاعتهم أن يغيروا قدر الله، وأن يستعجلوا أمر الله، أو أن يبدلوا ما شاءوا في دين الله ومنهجه ثم -أيضا- يصلون إلى ما يريدون!وهذا لن يكون أبدا، فالله عز وجل أمره غالب ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ [يوسف: ٢١].. والله عز وجل ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦].. وحينما يريد الله لهذا الدين أن يمر بهذه المراحل، ويمر بهذه الوقائع، وأن يسير بهذا المنهج، فلا بد أن يكون هذا المنهج هو الذي يحرك الجماعة المسلمة، فلن تصل الجماعة أبدا إلى نقطة النهاية إلا أن تلتزم بالمنهج الذي يريد. **"هذا ما يريده الله لهذا الدين، ولن يكون إلا ما يريده الله"**، فليس هناك أحد قادر على أن يفرض على الله شيئا، وقدر الله غالب، والناس ضعفاء، والله لا يحابي، وقد أُنزل هذا المنهج ليقوم الناس به، لا ليحتالوا عليه، وهو سبحانه يريد الدين بالطريقة التي يريدها، لأن الله أعلم ﴿ قل ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وحتى لو خلصت النوايا، فالقضية ليست بخلوص النوايا فقط، ولكن لا بد أن تكون على علم، وعلى تجرد من الهوى. فالإنسان الذي يريد أن يحقق الإسلام لا بد أن يحققه بالطريقة التي يريدها الذي صمم هذا الإسلام وأراده للبشرية. والناس يفعلون ذلك في أمور الدنيا؛ فحينما يريدون أن يبنوا بنيانا معينا بخصائص معينة، يرجعون إلى المصمم الذي صمم هذا البناء ليعرفوا أسرار البناء، وكيف قام، وما هي الخطوات التي لا بد أن يعملوها ليقيموا مثل هذا البناء في مكان آخر، ويعتبرون الذين يستدعونهم ليقيموا هذا المشروع هم الخبراء، لأنهم

خبراء بهذا البناء. فيلتزمون التزاما أمينا بمواصفات وتصميمات وتوجيهات وتحذيرات المصمم الأول لهذا الأمر. أما في دين الله فكل أحد يريد أن يقيم هذا المشروع دون علم!

المشروع الإسلامي مشروع له من صممه، ومن حدده، ومن وضع له طريقة إقامته. فينبغي لمن يريد أن يقيم هذا الإسلام أن يعرف الأمر من ألفه إلى يائه، وأن يتلقى ذلك كله من الذي صممه، هذا إذا كان عاقلا ومخلصا في سعيه لإقامة هذا المشروع.

أما إذا كان غير مخلص أو غير جاد في إقامة المشروع فليفعل باجتهاده ورأيه ما يشاء.

والله عز وجل هو الذي طالبنا بهذا الدين، وهو الذي حدد لهذا الدين خطواته ومراحله، وهو الذي يطالبنا بالالتزام الأمين بهذا، لأن هذا تحقيق -أيضا- لعبوديتنا له سبحانه، والله لا يعجزه شيء، ولن يفلت منه أحد. وبذلك نفهم هذا التعبير.. **"هذا ما يريده الله لهذا الدين، ولن يكون إلا ما يريده الله، مهما كانت رغبات الناس!"**

وهذا الأمر مهم جداً أن ندركه، حتى لا يطول بنا الزمن فنيأس، أو نضيق، أو نفكر في أن نغير أو نبدل من خلال ردود الأفعال، أو من خلال الاستقلال بعقولنا بعيداً عن منهج الله.

لا بد أن نعرف أننا عبيد، وأننا أجراء، وأن علينا أن ننفذ المنهج بأمانة لكي تتحقق عبوديتنا لله أولاً، ثم لكي ينجح المشروع الإسلامي الذي نريده ثانياً.

وبغير هذا لا نكون عابدين لله، ولا صادقين في رغبتنا في إقامة المشروع الإسلامي. وإنما نكون متسكعين في طريق الدعوة، ونكون خائنين لأهدافنا، ونكون أيضا غير أمناء على الأمانة.

ماذا عن منهج الدعوة الآن وقد اكتمل نزول الوحي والقرآن؟

ويُطرح هنا سؤال: إذا كان هذا الترتيب قد حدث بالنسبة لحاجات الجيل الأول ولظروف الجيل الأول، فماذا عن الأجيال التي بعده.. الأجيال التي نعيشها الآن، حيث اكتمل نزول الوحي، واكتمل الدين، وأصبح لدينا القرآن كله، والشرائع كلها، وتاريخ الفقه كله، وإنجازات الفقهاء كلها.. فكيف نفعل؟ وكيف نستطيع أن نرتب أو نسير في هذه المرحلة التي نعيشها؟

والجواب أن هناك فقها خاصا لا بد أن يكون لهذه الأجيال الجديدة، يضع في اعتباره كل هذه العوامل؛ يضع في اعتباره أن القرآن قد اكتمل، وأن الشريعة قد اكتملت، وأن كل شيء موجود تحت أيدينا، ويضع في اعتباره أيضا أن الناس يعيشون في مجتمع يرفض الإسلام، ويرفض شريعة الإسلام، ويضع في اعتباره أننا جماعة وليدة تقوم في هذا المجتمع لتدعوه إلى الله، فهي في مرحلة من مراحل الاستضعاف التي لا تملك فيها السلطة.

والإسلام وضع لنا قواعد ثابتة ينطلق منها أي جيل يريد أن يقيم الإسلام، فهناك قواعد ثابتة لا تتغير في أي وقت من الأوقات، وهذه القواعد الثابتة هي بنفسها تفرز الحل الإسلامي. ونحن نصر على ثبات هذه القواعد، بحيث لا تترجرج تحت طرقات الهزيمة الداخلية، ولا طرقات العجلة، ولا طرقات الوهم ولا الجهل. فلا بد من تثبيت القواعد التي جاء بها القرآن والسنة في كيف نقيم هذا الدين، وكيف

نتلقاه، وكيف نفهمه، وكيف نتعامل معه.. فهذه القواعد لا تتغير أبدا مع مرور الوقت، ولكن -مع ذلك- تعطينا نسبة من المرونة تجعلنا قادرين على أن نقيس الواقع، ونطبق عليه القواعد من خلال حجم هذا الواقع ومستوياته التي نلقاها فيه.

فمن خلال ثبات القواعد، ومرونة الفقه، والإدراك الدقيق لحجم الواقع ومستواه، نستطيع أن نؤلف فقها حركيا يتناسب مع الواقع الذي نعيشه. وبذلك نستطيع أن نتعامل مع النصوص من خلال القواعد الثابتة، ومن خلال القياسات، ومن خلال المرونة التي تتصف بها هذه الشريعة، ومن خلال الثابت والمتغير في الأحكام، ثم من خلال الدقة في تشخيص الواقع، وحجمه، ثم بعد ذلك من خلال دقة إدراك المراحل المختلفة، والانتقالات منها وإليها.. بحيث يتجمع من خلال كل هذه الأمور فقه يتسق مع الواقع، ويستمد -في نفس الوقت- جذوره من الشريعة الحقة التي أرادها الله.

وتختلف المراحل، وتختلف المستويات، لكن تظل القواعد ثابتة، ويظل الهدف ثابتا، وتظل الأحكام الثابتة ثابتة، أما الأحكام القابلة لأن تتغير مع تغير الأزمان والأحوال فتتضمنها القواعد الشرعية التي تحددها باستمرار.

فنحن لسنا خائفين من عدم قدرتنا على التعامل مع النصوص، ولا نقف موقف الجاهل الذي يريد أن يطبق الإسلام كله في وقت غير طبيعي، أو في مرحلة غير طبيعية. وإنما يتنقل وهو مطمئن في أنه يسير في أرض ثابتة، ويصعد بخطوات ثابتة، مستنيراً بمصباح الإيمان، وفقه المتغير والثابت وصولاً إلى الغاية التي ارتضاها رب العالمين.

فمن أجل هذا نحن نفهم أننا نتحرك من خلال علم دقيق، ومن خلال طمأنينة إلى أن الله لن يتركنا إذا كنا صادقين دون أن يلهمنا الصواب في الوقت المناسب. وهذا جربناه في كثير من الأحيان.

وإذا كنا نقول إن الجاهلية تنطلق من منطلقات أكثر جدية وأكثر وعياً بالواقع البشري من الجماعات التي لا تدري.. فما هو الفارق بين منطلقات هذه الجاهلية ومنطلقات الإسلام؟

الفارق ضخم جدا.. فالإسلام يستمد عقيدته من الله، فيطمئن أنها حق.. بينما الجاهلية تستمد فلسفتها من البشر، فهي -إذن- ليست مضمونة الصحة، بل يغلب عليها الضلال والهوى.

فالفارق بين منطلقات الإسلام ومنطلقات الجاهلية هي كل الفوارق التي تفرق بين الحق وبين الباطل. فإذا تشابهت الجاهلية والإسلام في أخذهم بالسنن البشرية التي أطلقها الله في حياة المجتمع الإنساني كمجتمع آدمي، فإن أَخْذ المسلمين لها يفترق في أنهم يصبغونها بصبغة الله، وينطلقون بها من منطلقات الحق.. بينما الجاهلية تنطلق بها من منطلقات الباطل. فتتغير النتائج، لأن الجاهلية حينما تنطلق من منطلقات باطلة فلا بد أن تأتي بنتائج باطلة، ويتحقق ما توعد الله به الجاهلية ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، أما الذين يتبعون الحق والإسلام، ويطبقون الإسلام، ويصبغون هذه المراحل الإنسانية، أو السنن الإنسانية بالحق، فإنهم يفلحون، ويصبحون كما قال الله ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] أو ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٣].

أهمية إدراك أساس دعوة الناس

ثم يقول **"كذلك ينبغي أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة -حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون!- يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو "أولاً" إقرار عقيدة: "لا إله إلا الله" -بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم- إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم.."**

وهذا أيضا مفهوم، فليس من حقنا أن نشخص الأوضاع من خلال العواطف، أو من خلال الموروثات، أو من خلال المجاملة.. ولكن ينبغي أن نقيس الواقع البشري -أياً كان- من خلال المقياس الإسلامي. فإذا خرج المقياس الإسلامي بحكم يكون هذا هو الحكم الصحيح.

فحينما نلتقي بالمجتمعات الإنسانية الحالية كلها سوف نجدها -بما فيهم المجتمع الذي يدعي أنه مسلم- مجتمعات تشترك في الجاهلية، وهم جميعا مطالبون بالإسلام -مع تغير الأشكال والأنماط وأسلوب الخطاب لهؤلاء وهؤلاء- فأصحاب الدعوة الإسلامية لا بد أن يعدوا أنفسهم إعداداً دقيقاً لكي يخاطبوا المجتمعات التي تدعي الإسلام بالخطاب الذي يليق بهم، حيث أنهم قد تركوا حقيقة الإسلام، بينما هم يظنون أنهم مازالوا مسلمين. وهذا يعقّد الأمر على الدعاة أكثر، ويجعلهم محتاجين إلى فطنة أكبر، وعلم أكثر، وصبر أكثر..

"ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام، كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة.. هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاماً كاملة.. فإذا دخل في هذا الدين -بمفهومه هذا الأصيل- عصبة من الناس.. فهذه العصبة هي التي يطلق عليها اسم "المجتمع المسلم".. المجتمع الذي يصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياته الاجتماعية، لأنه قرر بينه وبين نفسه أن تقوم حياته كلها على هذا الأساس، وألا يحكّم في حياته كلها إلا الله."

وهذا -أيضا- واضح، لأننا حين نتعامل مع الجاهلية، أو مع الذين ندعوهم إلى الإسلام، فنحن لا نحاكمهم في كثير من الأحيان إلى ما نحاكم أنفسنا إليه، فنحن قد دخلنا في دائرة الإسلام، وأوجدنا الجماعة المسلمة، ولذلك نحن مطالبون أن نقيم الإسلام، والذي ينبغي أن نقيمه في واقعنا، وفي مرحلتنا، وتصبح هذه العصبة منذ أول ثلاثة يستجيبون لهذا الدين، يصبحون مجتمعاً إسلامياً، يصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياته الاجتماعية، من خلال المرحلة، ومن خلال فقه المرحلة.

"وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض أسس النظام الإسلامي عليه، كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية، في إطار الأسس العامة للنظام الإسلامي.. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد."

فهذا هو الترتيب من نقطة البداية إلى نقطة النهاية، وبالشكل الذي عرضناه؛ أن يأتي رسول بهذا الدين يدعو الناس إليه، ومنذ أول ثلاثة يؤمنون بهذا الدين يتكون المجتمع المسلم، وعليهم أن يدخلوا في صراع مع المجتمع الجاهلي، وعليهم أن يلتزموا بتوجيهات العقيدة؛ سواء في الجانب العقدي أو الأخلاقي، ثم يصارعون هذا المجتمع، ومن خلال هذا الصراع، ومن خلال هذا النمو الداخلي يتحقق

للمجتمع المسلم النمو، ثم بعد ذلك عليهم الثبات أمام الصراع، ثم يتحقق النصر عندما يشاء الله، بعد زمن يراه هو سبحانه من خلال علمه بقلوب هؤلاء الناس، فإذا خلصوا من حظ نفوسهم، وانتصروا على ضغط الجاهلية، حينذاك يصبحون أمناء على العقيدة، وأمناء على هذا الدين، فيمكّنهم، إن كان قد قدّر في غيبه أن يكون لهم تمكين، ثم من خلال التمكين يستطيعون أن يقيموا دولتهم، التي سيسندها النظام، وتسندها السلطة، وتسندها القوة.

وهم قبل ذلك، وبعد ذلك، مطالبون أن يكون لهم الفقه الذي يستمدونه من القواعد الثابتة، ومن مرونة الشريعة، لكي يقيموا المجتمع على أسسه الإسلامية.

هذا هو الترتيب الصحيح الوحيد لخطوات المنهج الإسلامي الواقعي العملي الجاد.

وهم تنشئه العجلة والحرص غير الواعي على هداية الناس

"ولقد يخيل لبعض المخلصين المتعجلين، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين، وطبيعة منهجه الرباني القويم، المؤسس على حكمة العليم الحكيم وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة.. نقول: لقد يخيل لبعض هؤلاء أن عرض أسس النظام الإسلامي -بل التشريعات الإسلامية كذلك- على الناس، مما ييسر لهم طريق الدعوة، ويحبب الناس في هذا الدين!"

وأسس النظام غير التشريعات.. أسس النظام هي العدالة والأمن والطمأنينة والتكافل إلى غير ذلك.. لكن التشريعات هي تفصيلات إقامة هذه الأسس في واقع الحياة..

"وهذا وَهْمٌ تنشئه العجلة!وَهْمٌ كالذي كان يمكن أن يقترحه المقترحون: أن تقوم دعوة رسول الله ﷺ في أولها تحت راية قومية، أو راية اجتماعية، أو راية أخلاقية، تيسيراً للطريق!

إن القلوب يجب أن تَخْلص أولاً لله، وتعلن عبوديتها له وحده، بقبول شرعه وحده، ورفض كل شرع آخر غيره.. من ناحية المبدأ.. قبل أن تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه!"

وهذا الوهم نابع من العجلة، ونابع من الرغبة في الحصول على الثمرات السريعة، والرغبة في أن يتحقق النصر في حياتهم أنفسهم، وأن يستلذوا بهذا النصر ويستمتعوا به.

هذا فضلا عن أنه وهم قد يدعوهم إليه إخلاصهم وحبهم للناس أن يهتدوا، فيستعجلون خطوات الناس، ويعتسفون الطريق، وهو الوهم والخطأ الذي يريده هؤلاء حينما يريدون أن يجعلوا الجماعة المسلمة الوليدة الضعيفة تنطلق بقوة الإنسان الراشد الكامل، ثم هو محاولة عسيرة جدا، ومتعسفة، أن ينقلوا ذلك المجتمع الغارق في المستنقع الآسن النتن فجأة إلى قمة الإسلام الرفيعة، فلا هؤلاء يستجيبون، ولا هم يقدرون، فتصبح النتيجة بائسة، لأنهم سيحسون بالفشل، وهذا ما يحدث للتيارات المعاصرة الحالية؛ أنهم كلهم يحسون أن الطريق طويل جدا، وأن الثمرات لا تبدو أبدا، وأن الناس لا يتغيرون.. لماذا؟ لأنهم يظلون يدورون ويدورون في حلقة مفرغة ثم يجدون أنفسهم مازالوا في نقطة البداية، فيضيقون، فيكررون الدوران مرة ثانية وثالثة ورابعة، ثم بعد ذلك يضيقون بالدوران، فيخترعون اختراعات جديدة، ويعملون مناهج جديدة، ويبدؤون بالتغيير والتبديل، لعل هذا التجديد والتبديل ينفع، ثم يكتشفون مرة أخرى أنها نفس النتيجة الفاشلة،

لأنهم لن يصلوا أبدا إلا بمنهج الله، فما داموا يتجنبون ويتنكبون منهج الله سيظلون يدورون كما يدور الحمار في الرحى، دون أن يعرفوا لماذا يدورون؟ وما الذي يجعلهم لا ينجحون؟ وتأتيهم الضربات تلو الضربات ولا توقظهم.. ويوعظون بكل أنواع المواعظ فلا يتعظون ولا يقبلون، ثم يظلون كما هم، لا يستفيدون بالدرس؛ سواء منهم الذين يتعجلون السلاح ويعبرون المراحل، مخالفين منهج الله، أو هؤلاء الذين يدعون الناس إلى الإسلام عن طريق المجالس التشريعية والحكومة والوزارة والنقابات.. أو الذين يبدؤون بتفصيلات النظام، أو الذين يبدؤون بالدعوة إلى التنسك والتعبد.. كل هؤلاء يتنكبون الطريق الصحيح، ولن يصلوا أبداً مهما كان.

فبهذا تصبح قضية البدء بالعقيدة قضية يفرضها هذا الدين، وتفرضها عبوديتنا لله، وتفرضها مصلحة المدعوين إلى هذا الدين، ويفرضها منهج إقامة هذا الدين.. فلكي يقوم لا بد أن يبدأ بالعقيدة، ولا يبدأ بأي شيء آخر، ولا بد لكي يتحقق أن تكون نقطة البداية هي الرغبة الصادقة والخلوص لله عز وجل، والرغبة في استمداد كل صغيرة وكبيرة من الله، ليس من النفس، ولا من الهوى، ولا من الهزيمة.

"إن الرغبة يجب أن تنبثق من إخلاص العبودية لله، والتحرر من كل سلطان سواه، لا من أن النظام المعروض عليها.. في ذاته.. خير مما لديها من الأنظمة في كذا وكذا على وجه التفصيل."

فالقضية كلها ليست مكسبا دنيويا، وإنما هو تحقيق لمراد الله من خلق الإنسان، وهو تعبيده لله وحده، وأن إقامة الشريعة هي مظهر من مظاهر التعبد الخالص لله الذي ينبغي أن يحرص الناس عليه. وبدون هذه البداية لن يحدث إطلاقا أي تقدم للدعوة الإسلامية.

"إن نظام الله خير في ذاته، لأنه من شرع الله.. ولن يكون شرع العبيد يوماً كشرع الله.. ولكن هذه ليست قاعدة الدعوة. إن قاعدة الدعوة أن قبول شرع الله وحده أيّاً كان، ورفض كل شرع غيره أيّاً كان، هو ذاته الإسلام، وليس للإسلام مدلول سواه، فمن رغب في الإسلام ابتداءً فقد فصل في القضية، ولم يعد بحاجة إلى ترغيبه بجمال النظام وأفضليته.. فهذه إحدى بديهيات الإيمان!"

كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة؟

تحدثنا فيما سبق من هذا الفصل عن ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً لتقرير أمر العقيدة ووقوفه عندها لا يتجاوزها إلى شيء آخر.

ثم تحدثنا عن شأن هذا القرآن في تناول قضية العقيدة وحدها دون التطرق إلى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها، وأنه لم يتطرق إلى الشرائع خلال الفترة المكية.

ولا شك أن هناك قضايا كثيرة منبثة في هذا الفصل لم نتعرض لها، على أمل أن نلتقي بها في الفصول القادمة بصورة أكثر توسعا وأكثر مباشرة، وإن كان الأستاذ سيد قد أشار إليها.. وكنت أضطر إلى العبور فوقها بسرعة، على أن نركز عليها حينما نلتقي بها إن شاء الله في الفصول القادمة.

والحديث الآن يدور حول قضية متشعبة، ولها آثار كبيرة جدا في منهج الداعية إلى الله، وطريقة الدعوة، وأهمية التربية، والتعامل الواقعي مع النصوص ومع الحقائق، وكثير من تفاصيل قضية البلاغ، وأهمية التأصيل، وكيف نبلّغ، وما هي عناصر الموضوع الذي نبلغه، وكيف

نستطيع أن نترجم النظرية إلى سلوك، وما مفهوم النظرية، وما مفهوم الترجمة لهذه النظرية في عالم السلوك، وصلة التربية والنمو العقدي والنمو الحركي والتنظيمي أيضا مع خوض المعركة الحية...

كل هذه الموضوعات يتعرض لها هذا القسم الأخير من فصل طبيعة المنهج القرآني.. نسأل الله أن يوفقنا إلى أن نجلي كثيرا من مجملها إن شاء الله تعالى.

القرآن لم يعرض العقيدة في صورة نظرية ولا صورة لاهوت

يقول: **"وبعد، فلا بد أن نقول كيف عالج القرآن المكي قضية العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاماً.. إنه لم يعرضها في صورة "نظرية"، ولا في صورة "لاهوت"!، ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله ما يسمى "علم التوحيد"."**

ولا شك أن كتاب "مقومات التصور الإسلامي" للأستاذ سيد قطب -رحمه الله- ينفعنا في إدراك هذا الموضوع حينما نتعامل مباشرة مع النصوص القرآنية، وصلتها بتعديل الواقع، وخوض المعركة بالجماعة المسلمة من خلال هذه النصوص في خضم الواقع الموجود.

وهو يقول هنا؛ أن القرآن المكي حين تعامل مع قضية العقيدة لم يعرضها في صورة نظرية، ولا في صورة لاهوت. ونحن نعرف ما هو مفهوم "النظرية"؛ إنه الحديث عن أصول وحقائق العقيدة بمعزل عن الواقع. أما صورة "اللاهوت" فيستحضر في الأذهان دائما اللاهوت النصراني، ذلك اللاهوت الذي كان يدور حول قضايا لا تؤثر كثيرا في الواقع، وحول إشكالات يستحيل الإقناع والاقتناع بها. ولذلك كان المنطق اللاهوتي منطقاً تقريرياً واستبدادياً، حتى ولو اصطدم ببديهيات العقل وبديهيات الواقع. فاللاهوت المسيحي الكنسي كله قائم على قضية باطلة وغير صحيحة، ومستحيلة الوقوع، ومستحيلة الفهم، ومستحيلة الترابط بينها وبين عناصرها؛ وهي قضية بنوة المسيح لله -تعالى الله عن ذلك- وقضية طبيعة المسيح. وقد اختلفوا فيما بينهم في هذا الأمر اختلافاً شديداً.. كله باطل، وكله غير مفهوم، وحتى هم أنفسهم لا يستطيعون شرح هذا الأمر.

فالعرض القرآني -يقينا- لم يكن عرضا لاهوتيا، وما كان ممكنا أن يكون عرضاً لاهوتياً.

ولم يعرض القرآن قضية العقيدة -أيضا- في صورة جدل كلامي، كذلك العلم الذي وقع المسلمون فيه انخداعا بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني.

وقد حاول فريق من العلماء المسلمين أن يتصدوا للفلسفة ولأباطيل الفلسفة ولأباطيل التيارات الأخرى، نتيجة الخوف الزائد عن الحد من تأثير الفلسفة على الوضع الثقافي في حياة المسلمين، بنفس طريقة الفلسفة وبقوالب الفلسفة، وهو ما أطلق عليه علم التوحيد أو علم الكلام، وهو لا يفترق كثيرا عن الفلسفة كما سنتحدث بعد ذلك.

ولا شك أن هذا كان خطأً ضخما جدا وقعوا فيه نتيجة حماس غير واع وغير مدروس، بَعُد بهم عن تذوق الروح القرآني والروح الرباني في عرضه لهذا الدين الذي لا يقبل أن يعرض إلا في قالبه القرآني وقالبه الرباني. ولا شك أن المسلمين حينما فعلوا ذلك بعدوا بصورة أو بأخرى عن تذوق ذلك الطابع القرآني.

"كلا.. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وإيحاءات.."

والمنطق القرآني في هذا منطق واضح، والذي يعيش مع القرآن ويقرأ القرآن يجد أن القرآن يتعامل مع الواقع البسيط الموجود فعلا.. يتحدث عن الإنسان بخصائصه الإنسانية.. يتحدث عن الوجود بمظاهره الطبيعية الواضحة البينة، والتي يتعامل معها كل البشر؛ عالمهم وجاهلهم، كبيرهم وصغيرهم، بعيدهم وقريبهم.. فالقرآن يستخلص من الواقع المشهود، ومن عالم الشهادة الواضح، الدلائل اليقينية البديهية الفطرية على حقيقة الألوهية ومقامها وتأثيرها وفعلها في الوجود، ومن ثم يرتب عليها حق الله عز وجل على العباد.

فالمنطق القرآني يخاطب الفطرة، ويتعامل معها، ويتعامل مع الواقع دون تعقيد، ودون أي نوع من الصيغ العقلية الجافة، أو الصيغ العقلية المعقدة التي لا يستطيع أن يتعامل معها إلا نفر قليل من الناس.

والقرآن هو كتاب هذا الدين، ولأن هذا الدين نزل لجميع الناس، وهو خاتم الرسالات، وخاتم الكتب، كان من الضروري أن يكون كتابا بسيطا ميسرا، ومن ثم كان الأسلوب القرآني والمنطق القرآني يقوم على البداهة، ويقوم على البساطة، ويقوم على التعامل مع الواقع. فضلا عما في كلمات الله من روح خاصة، ومن نور خاص، ومن تعامل مع النفس البشرية بطريقة مؤثرة، تؤدي إلى التفتح القلبي والعقلي، واليقين النفسي العميق.

بينما حينما نتعامل مع الفلسفة، أو مع اللاهوت، أو مع علم التوحيد.. نجد أننا نعيش في بقعة منعزلة تماما عن الواقع وعن البساطة وعن البداهة، وندخل في دوامات من الفكر المعقد الذي لا يكون منطقيا في كثير من الأحوال، ونجد أننا نتعامل في هذا كله بالجانب العقلي الجاف، الذي ينتقل بك من قضية معقدة، إلى قضية أشد تعقيدا وأشد خطرا. وحينما ينتهي الإنسان من قراءة الفلسفة أو علم الكلام أو اللاهوت يجد نفسه وقد أصبح مجموعة من المفاهيم المغلوطة المتراكبة المتداخلة التي لا يمكن أن تؤدي به إلى اقتناع، ولا إلى يقين.. وإذا سلّمت فإنك تسلّم عجزا عن فهم الأمور، فتسلّم لأنك لا تريد أن تتعب أكثر من هذا، فلتسلم بأي شيء حتى تنتهي من هذه المشكلة العقلية المعقدة، أو في بعض الأحيان يحدث انبهار بمنطق فلسفي ينبث ويتعمق في العقل، فيربك التفكير الصحيح، ويستسلم العقل لهذا الانبهار المؤقت، أو الانبهار الدائم أيا كان.

هذا الأسلوب لم يستعمله القرآن أبدا، إلا في كلمات سريعة لكي يتعامل مع العقل البدهي أيضا، فحينما يقول القرآن ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥].. هذه قضية تعاملت معها الفلسفة بطريقة أخرى، لكن القرآن يوردها بسرعة.. بهذا السؤال الذي يعتبر أن الإجابة عنه إجابة بديهية لا تحتاج لإعمال عقلي كثير، وأن الرد الطبيعي أنهم لم يخلقوا أنفسهم، فبالتالي هم مخلوقون. وهذا منطق عقلي بالتأكيد، لكنه منطق عقلي يرتكز على البداهة، ويرتكز على الفطرة.

"كلا.. لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة "الإنسان" بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وإيحاءات.. كان يستنقذ فطرته من الركام، ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها، ويفتح منافذ الفطرة، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها."

فهذا هو الأسلوب القرآني في مجمله.. كان يعمد إلى الفطرة بطريقة مباشرة، ويبعد كل ما يمكن أن يكون قد ران عليها من تصورات أو من طرق للتفكير تمنعها من أن تتلقى الوحي البسيط الهادئ المنير..

القرآن يخوض بالعقيدة معركة حية لتغيير الواقع البشري

"هذا بصفة عامة.. وبصفة خاصة كان القرآن يخوض بهذه العقيدة معركة حية واقعية.. كان يخوض بها معركة مع الركام المعطل للفطرة في نفوس آدمية حاضرة واقعة.. ومن ثم لم يكن شكل "النظرية" هو الشكل الذي يناسب هذا الواقع الخاص. إنما هو شكل المواجهة الحية للعقابيل والسدود والحواجز والمعوِّقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية.. ولم يكن الجدل الذهني -القائم على المنطق الشكلي- الذي سار عليه في العصور المتأخرة علم التوحيد، هو الشكل المناسب كذلك.. فلقد كان القرآن يواجه "واقعاً" بشريّاً كاملاً بكل ملابساته الحية، ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع.. وكذلك لم يكن "اللاهوت" هو الشكل المناسب. فإن العقيدة الإسلامية، ولو أنها عقيدة، إلا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي، ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية النظرية!"

وهذه القضية من أهم القضايا التي أحسب أن الأستاذ سيد -رحمه الله- قد أبدع في التعبير عنها، وفي لفت النظر إليها بصورة رائعة. فالإسلام جاء بعقيدة ليغير الواقع البشري.. يغيره على أساس تصحيح الأساس والمنطلق الذي ينطلق بالإنسان في الأرض؛ وهو أنه عبد لله، وأن هناك ألوهية تهيمن على هذا الوجود كله، وعبودية تشمل الكون كله. هذه العقيدة البسيطة -برغم بساطتها وبداهتها- لكنها كانت تواجه واقعا تربى على تصور مخالف؛ تصور يعتقد في ألوهية غير الله، ووجود آلهة مع الله، وترتب على هذا الانحراف نظم وأخلاق وقيم وعادات وتقاليد وشرائع.. وهذا الذي كان يمثل الواقع العملي للناس. فلم تكن القضية فقط أنهم كانوا يشركون بعقولهم أو بقلوبهم مع الله آلهة أخرى، وإنما كانت القضية أكبر من هذا.. إن هذا الشرك صبغ حياتهم بسلوكيات ومعتقدات وأفكار وعلاقات ونظم وشرائع وأخلاق.. فلكي تحول هذا الكيان الإنساني وهذا المجتمع الإنساني إلى الطريق المستقيم، وتشده مرة أخرى إلى أن يسير في الطريق المستقيم، لم يكن من الطبيعي أن تخاطب عقله فقط، وإنما كان لا بد أن تتعامل مع الكيان الإنساني كله، ليتغير كل شيء فيه بصورة تتمشى مع الأساس الجديد الذي يجب أن يكون عليه.

لهذا كان القرآن يخوض بالعقيدة معركة حية، معركة متمثلة في نفوس آدمية، تتحرك وتشعر، وتتخلق بأخلاق، وتتعامل على أساس من القيم، وأيضا تُشَرِّع وتقرر وتقنن لحياتها.

فكان القرآن -إذن- لا يتعامل مع مقررات نظرية، وإنما كان يتعامل مع نفوس حية لم تكن لتفهم العقيدة إلا من خلال أن تدخل بها معركة حية في خضم الواقع.

وهذا الأمر له أيضا ما بعده في نفوس الجماعة المسلمة، وفي نفوس أفراد الجماعة المسلمة الذين يدخلون هذا الدين. فهم لم يكونوا يدخلون مدرسة للفلسفة، ولم يكونوا يدخلون كلية من كليات العلوم الاجتماعية أو العلوم النظرية.. وإنما كانوا يدخلون بالعقيدة معركة في خضم الحياة، يواجهون في كل خطوة اختيارا وسلوكا، لا بد أن يقرروا على ضوء العقيدة كيف يسلكون. فلم تكن القضية أبدا في لحظة من اللحظات مجرد اقتناع نظري منخلع عن الحياة، أو مفترق عنها. وكثير من النظريات البشرية تتحدث عن تصورات نظرية، لكنها لا تغير في الواقع تغييرا كبيرا.

"كان القرآن، وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة، يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وأخلاقها وواقعها.. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا في صورة "نظرية" ولا في صورة "لاهوت"، ولا في صورة "جدل كلامي".."

العقيدة تمثلت في واقع حي متحرك يتواكب بناؤه مع بناء العقيدة

فكيف تمثل إذن هذا القرآن، أو هذه العقيدة، إذا لم يكن قد تمثل في نظرية ولا في جدل ولا في فلسفة ولا في علم كلام؟

تمثل :**في صورة تجمع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها، وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها.. كان هذا النمو ذاته مُمُثلاً تماماً لنمو البناء العقيدي، وترجمة حية له.. وهذا هو منهج الإسلام الذي يمثل طبيعته كذلك."**

وهذه القضية يجب أن نكون قد أحسسنا بها ونحن نعيش مع هذا التصور على مدى الأعوام الماضية. لا بد أننا قد فهمنا من خلال تعاملنا مع العقيدة أنها ليست عقيدة نظرية، وأنها ليست مجرد أفكار في عقولنا لا تؤثر في واقعنا الشخصي أو في تعاملنا مع الجاهلية. فالحقيقة أنه منذ أن يتلقى الإنسان هذه العقيدة، ومنذ أن يشهد ألا إله إلا الله، ومنذ أن يقرر المفاصلة بينه وبين هذا المجتمع على أساس العقيدة يجد نفسه مضطرا أن يتغير هو لكي يكون متوافقاً مع عقيدته، وبالتالي يجد نفسه غريبا في هذا المجتمع، ويجد أنه في حالة دائمة من حالات التميز والاختيار والمفارقة والمفاصلة، وفي كل خطوة يخطوها يحتاج فقها وإدراكا ووعيا، لكي يتعامل مع هذه الجاهلية التي كان بالأمس القريب عضوا فيها يتعامل معها كما تتعامل ويعيش بقيمها وأخلاقها، فإذا به فجأة بعد أن أدرك هذا الدين، وبعد أن استيقنه يحتاج إلى أن يتغير هو تغيرا كبيرا لكي يتوافق مع العقيدة الجديدة، ولكي ينخلع من الوجود الجاهلي القديم.

هذه العقيدة التي تعلمناها نظريا، نجد أنفسنا في كل موقف نحتاج أن نستفتيها، أو أن نتشكل بمقتضاها في تعاملنا مع أنفسنا ومع الناس ومع العمل ومع المؤسسات ومع القيم التي تحكمنا.. فالعقيدة الإسلامية لم تكن يوما ما، ولا يجوز، ولا هي تقبل أبدا أن تقبع في جوانب العقل بعيدة عن أن تشكل الكيان الإنساني كله بمشاعره وخواطره وحركته وكلامه ومنطقه وتعامله أيضا مع الناس.

ولا شك أن تفاصيل هذه المعركة الضخمة كثيرة، وأخطر عناصرها هي النفس البشرية. فقد يكون أقل الأخطار هي ما يحيط بنا من تعاملات مع المجتمع، لكن أكبر معركة وأخطر معركة هي المعركة التي تدور داخل جوانحنا في التعامل مع ماضينا الذي كان، ورواسب الماضي، ورواسب الجاهلية التي في أعماقنا؛ سواء القيم أو المشاعر أو الرغبات أو الشهوات أو الغرائز أو المفاهيم والتصورات أو العلاقات أو الحب والبغض. كل هذا يمثل معركة ضخمة جدا تدور في داخلنا، وعناصرها كثيرة جدا، والإنسان مطالب أن يخلص نفسه، وأن يغير كل هذه العناصر لكي تتمشى وتستمد من قاعدة لا إله إلا الله. وقد ننجح في تعاملنا مع المجتمع الجاهلي، وقد نستعلي عليه بسرعة، وقد ننفصل عنه شعوريا بطريقة بسيطة. ولكن الذي يبقى ويظل نعاني منه هو معركتنا مع أنفسنا.. فما زالت نفوسنا متأبية، أو على الأقل تعاني معاناة صعبة في محاولة الخلوص للمثال الإسلامي، وللنموذج الإسلامي الذي تريده هذه العقيدة. فما زلنا نعاني في داخلنا،

ونكتشف كل يوم أن هناك طبقات جديدة من نفوسنا كانت مغطاة، ثم إذا بنا -من خلال الأحداث- نكتشفها في نفوسنا، ونكتشف أن الجاهلية مازالت قابعة في داخلنا بصورة أو بأخرى.

المعركة الحقيقية هي معركة داخلية مع عناصر النفس الإنسانية، وقد نتعرض لبعض أمثلة لذلك حينما نتحدث عن التفاصيل.

يقول: **"وإنه لمن الضروري لأصحاب الدعوة الإسلامية أن يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بينَّاه. ذلك ليعلموا أن مرحلة بناء العقيدة التي طالت في العهد المكي على هذا النحو، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية، والبناء الواقعي للجماعة المسلمة. لم تكن مرحلة تلقِّي "النظرية" ودراستها!ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معاً.. وهكذا ينبغي أن تكون كلما أُريد إعادة هذا البناء مرة أخرى."**

وهذه مسألة مهمة، لأن هناك شبهة تدور في بعض الأحيان في أوساطنا تقول إننا نتكلم كثيرا نظريا، وأننا شبعنا من الحديث عن النظرية.. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أننا تعاملنا مع القضية تعاملا خطأ، لأنه كما يقول الأستاذ سيد هنا مرحلة بناء العقيدة التي طالت في مكة لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي، بمعنى أن كل ما كان يتلقاه المسلمون منذ اللحظة الأولى التي نُبِّئ فيها رسول الله ﷺ وبدأ دعوته كانت الجماعة المسلمة تتربى عليه، فكانت تتربى مع كل كلمة تنزل، وتتربى من خلال المعركة التي كانت تعانيها؛ سواء كانت في المرحلة السرية وهي تتخفى بعقيدتها وتتخفى بصلاتها وتتخفى من رؤوس قريش وطغاتها، أو في المرحلة التي أعلنت فيها الدعوة بعد ذلك، وبدأ فيها المسلمون يعذبون ويضطهدون.. فالمعركة لم تكن معركة نظرية، ولم يكن التعامل فيها نظريا، وإنما الذي كان يحدث أن النظرية كانت تشكل الضمير البشري، وتشكل السلوك البشري.

ونحن حينما نراجع أنفسنا نجد -بلا شك- أن إدراكنا للنظرية لم يكن إدراكا منخلعا عن الواقع، لم نكن ندرسه في صحراء بعيدة عن الواقع الجاري، وإنما كنا نتلقى هذا الحق ونحن عناصر في ذلك المجتمع الجاري، وتقابلنا عقبات كثيرة جدا؛ سواء في داخل الأسرة، أو في داخل العمل، أو في داخل الشارع، أو مع الحكومات، أو مع الأوضاع كلها، أو حتى مع أنفسنا حينما يراد منا أن نتشكل بصورة جديدة لنتفق مع هذه العقيدة.

فالأمر -إذن- لم يكن نظريا فقط، وإنما كانت النظرية توجه السلوك وتشكله، وبالتالي كان هناك توازٍ وترابط بين مرحلة تلقي النظرية، وبين التعامل الفعلي والعملي الواقعي داخل النفوس وداخل البناء الحركي والتنظيمي للجماعة المسلمة. فلا يجوز -إذن- أن نتصور أن مرحلة تلقي النظرية مرحلة نظرية، أو مرحلة كلامية، أو مرحلة عقلية وذهنية فقط، وإنما هي في الحقيقة مرحلة عملية في صميمها إذا كانت تشكل الواقع.

أما إذا حدث العكس؛ أننا تلقيناها نظرية ولم نرتب عليها أي مقتضى من مقتضياتها؛ سواء في تشكيلنا لأنفسنا، أو في تشكيلنا لتنظيمنا وحركتنا، أو في تعاملنا مع المجتمع، أو في البلاغ وطريقة البلاغ، فيكون هذا هو الافتراض الذي يقول عنه الأستاذ سيد بعد قليل أنه: خطأ أي خطأ، وخطر أي خطر كذلك.

ومهم جداً أن نفهم أنه ليست هناك في حياة الجماعة المسلمة مرحلة تسمى بالمرحلة النظرية، وإنما الحقيقة أنه منذ أن يتعرف الإنسان على الحق ويقتنع به ويقرر الانتماء إليه فإنه في الحقيقة قد بدأ طريقا عمليا، يتعامل فيه مع النظرية، ويتعامل فيه مع الواقع الحركي، فلم تكن إذن مرحلة النظرية مرحلة فكرية وعقلية فقط.. **"ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معاً.."** وهذه النقطة ينبغي أن نفهمها كذلك، لأنها تساعدنا في أمرين؛ تساعدنا في أن نحيل النظرية باستمرار إلى أن تتحول إلى سلوك وإلى شعور، وأيضا في ألا نتصور -مهما طالت فترة النظرية- أنها مرحلة نظرية مجردة، لأنها في الحقيقة مرحلة عملية تغذي الكيان الإنساني باستمرار وتوجهه.

فما قد يتصوره البعض أن هناك مرحلة يكون التلقي فيها تلقيا نظريا بحتا تصور خاطئ. فهذا لا يحدث أبدا بالنسبة لطبيعة العقيدة الإسلامية التي تتطلب تغير المشاعر وتغير النفس، وتتطلب أيضا المحاولة الدائبة للتجاوب والتعامل مع الحقائق الجديدة منذ اللحظة الأولى. فليس هناك فاصل بالنسبة للتصور الإسلامي بين تلقي الحقيقة، وبين التعامل معها. فالتعامل معها، والتجاوب معها، والتفاعل معها، والانفعال بها أمر من طبيعة هذه العقيدة.

فحينما يتعامل الإنسان مع الله ﷻ فإن تعامله يختلف اختلافا كبيرا عن تعامله مع أي تصور بشري آخر. فالإنسان -في الجاهلية، أو مع أي منهج بشري- يمكن أن يكون منفصل الشعور، بل منفصل الإحساس بالولاء أو بالاقتناع مع ما يتلقاه. أما مع الله فالأمر يختلف اختلافا كبيرا، لأن الإنسان إذا عرف الله بصدق، وانفعل بهذه الحقيقة، وآمن بها، يجد أنه مضطر أن يتغير وأن يتبدل مع هذه الحقيقة. لكن في التعامل مع المناهج البشرية يمكن أن يكون هناك فصام كامل بين الاقتناع النظري وبين الواقع الفعلي. فضلا عن أن أكثر المناهج البشرية لا تتطلب من الإنسان تغيرات جذرية في سلوكياته وفي حركته، وإن تطلبت فهي -على كل الأحوال- ليست بالصورة التي يتعامل فيها الإنسان مع الله سبحانه وتعالى.

القرآن يربي الجماعة المؤمنة بالعقيدة على مهل وفي عمق وتثبت (التكيف بالعقيدة)

"هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتم خطوات البناء على مهل، وفي عمق وتثبت.." وهي مسألة مهمة أيضا، لأن كثيرين ضاقوا بطول الفترة، وأحسوا أننا نعيش في مرحلة الكلام، ولفترة طويلة، وتركوا هذا الطريق.

والحقيقة أن هذا الشعور دليل على أنهم لم يتفاعلوا مع الحقيقة التي تلقوها، لأنهم لو تفاعلوا مع الحقيقة لانشغلوا بالتغيير في أنفسهم، وفي الحياة التي تحيط بهم، ولو فعلوا ذلك لما أحسوا ذلك الإحساس الذي أحسوه؛ أنهم يعيشون في مرحلة الكلام، أو في مرحلة النظرية.

فالواقع أن الإنسان المؤمن الصادق حينما يتلقى الحقيقة الإيمانية، ويتفاعل معها، ويدركها، لا يجد عنده وقت فراغ يحس أنه لا يجد فيه عملا.. لأنه في انشغال دائم؛ سواء بالبلاغ، أو بالمعركة التي يعيشها مع الجاهلية، وكذلك مع نفسه، وهو ذلك الانشغال الأكبر الذي يأخذ أكبر مساحة من حياته.

فالذي يعيش مع هذه الحقيقة بصورة جادة لا يجد وقتاً، ولا يحس فراغاً، ولا يحس مللاً ولا سأماً.. وإنما بالعكس، يأمل أن تطول فترة الحياة الداخلية والمعركة الداخلية حتى ينتهي منها، لكي يتفرغ وهو أكثر ثباتا وأكثر نضوجا في معركة المواجهة مع الجاهلية. فلا يستعجل المؤمن هذه المرحلة، لأنه يحب أن يواجه الجاهلية في معركتها المادية والحية وهو أكثر علما وأكثر انسجاما مع الحقيقة التي آمن بها.

فهذا الإحساس بالعجلة أو بالملل أو بالسأم هو دليل على أن الإنسان الذي يقول هذا لم يعش القضية حياة حقيقية، وإنما يريد أن يختار طريقاً أو منهجاً غير منهج الحق الذي نزل على رسول الله ﷺ.

"ثم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكنها مرحلة ترجمة لهذه العقيدة -أولا بأول- في صورة حية.."
وهو الذي نعبر عنه بالتربية، ومتابعة التربية.

فلا شك أننا لكي نحول الفكرة إلى سلوك، ونترجم النظرية إلى مرحلة عملية وتكوين عملي، فإن هذا يحتاج إلى عمل كبير جدا، وضخم جدا من الجماعة المسلمة -قيادةً وأفراداً- فجميعهم سيجدون أنفسهم منشغلين انشغالا هائلا جدا بتربية أنفسهم، وبمتابعة هذه التربية، وسيجدون أنهم كلما تعمقوا في التربية كلما اكتشفوا حقولا بكرا جديدة، تحتاج أن يعملوا فيها، وأن تصا غ صياغة جديدة.

وكما قلت إن النفس البشرية طبقات، وكلما تصورت أنك قد انتهيت وجدت أن هناك طبقة جديدة مازالت بكرا، تحتاج عملا جديدا. وهكذا الإنسان.. كلما ارتفع في معراج العبودية لله عز وجل يجد دائما أن هناك درجات أرقى، وأنه مازال يحس أنه لم يصبح ذلك العبد التقي النقي الذي يعطي لله حقه، فيحتاج تعاملا آخر مع نفسه ليرتقي درجات جديدة.. فلا تنتهي أبدا مدارج العروج إلى الله عز وجل، ولا تنتهي أيضا نزغات النفس، ولا ينتهي اكتشاف الإنسان لمناطق جديدة في نفسه تحتاج معالجة وتحتاج تربية.

فالإنسان المسلم لا يجد نفسه في أي لحظة من لحظاته -منذ أن يدرك الحق، وحتى يلقى الله- لا يجد نفسه عاطلاً أبداً، وإنما لا بد أن يكون عاملاً ومتابعاً لتربية نفسه، وتربية من حوله من أبناء وزوجة ومدعوين، ولا بد من تمثيل لهذا الحق في واقع الحياة، لكي يمثل شهادة حق أمام الناس. فيجد -دائما- أن عليه أعمالا ضخمة جدا، تحتاج وقتا وجهدا، ولا تنقضي ولا تنتهي على الإطلاق حتى يموت.

لذلك **"ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة -أولا بأول- في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي وتجمع حركي، يُعبِّر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك، لتتمثل العقيدة حية، وتنمو نمواً حياً في خضم المعركة."**

وواضح أن الأستاذ سيد مهتم جدا بهذه القضية، لأنها من الأشياء التي يلحظها الإنسان ملاحظة كبيرة جدا حينما يتعامل مع التجمعات الإسلامية الأخرى. ولا شك أنه هنا متأثر تأثرا كبيرا بواقع جماعة الإخوان المسلمين. فحينما تعيش مع واقع الإخوان المسلمين تحس أنه لم يكن هناك تطابق بين الشعارات وبين الواقع العملي. لم يكن هناك جدية في ترجمة الواقع لكي يرتفع إلى مستوى النظرية. فكانت الفكرة منعزلة إلى حد كبير، بعيدة عن الترجمة الواقعية. وقد يكون مما ساهم في ذلك أنهم تخطوا مراحل المنهج بسرعة، بحيث أنهم وصلوا إلى خطوط نهائية، قبل أن يكونوا قد تربوا وتزودوا في المراحل الأولية في هذا الطريق. ولذلك كان الفصام واضحا جدا بين تلك الشعارات الضخمة جدا، وبين الواقع العملي لجماعة الإخوان.

لذلك تجد الأستاذ سيد حريصاً جداً على توضيح هذه النقطة؛ نقطة أن تُترجم العقيدة إلى واقع حي، وأن تتم خطوات البناء على مهل وفي عمق وتثبت.. والتثبت هنا بمعنى أن يكون على علم بكل خطوة يتحرك بها، فلا يتحرك تحركا عفويا، ولا عشوائيا، ولا تحركا غير مبني على فقه للعقيدة، وللواقع، وللفقه الحركي الذي يلبي حاجات العقيدة في هذه المرحلة من مراحل البناء.

فالتثبت مهم جدا، لأن التحرك العشوائي قد ينقل الجماعة من مرحلة إلى مرحلة، ومن مقتضى إلى مقتضى، دون أن تكون الجماعة قد تهيأت له، أو تكون المرحلة غير مستعدة لتقبل هذا العمل أو هذا التحرك. فالتثبت هنا يقصد به تثبيت القضية ذاتها، والتثبت من كل خطوة صغيرة أو كبيرة يتحركها الإنسان إلى الأمام، حتى ولو كانت تبدو رُقِياً وانتقالا إلى الأحسن، لأن الانتقال إلى الأحسن لا بد أن يكون متزامنا مع النمو الداخلي للعقيدة، فلو لم يكن هناك نمو عقدي متزامن مع التكليف ففي الغالب أن التكليف يتوقف عن التطبيق، أو عن الظهور الواقعي، أو يغير من العقيدة ليتكيف مع المرحلة التي انزلق إليها الإنسان بتعجله أو بجهله للواقع. فلا بد أن يتزامن بناء العقيدة وتعمق جذورها في القلب مع التكليف الجديد، أو مع المرحلة الجديدة. فالذين ينتقلون من مرحلة المفاصلة الشعورية إلى المفاصلة العملية قبل أن تأخذ العقيدة دورها الطويل في التربية فإنهم يفشلون في الغالب في المواجهة العملية.

لذلك لا بد من التثبت والتعمق في التعامل مع العقيدة، وتعميق جذورها، وترجمتها في عالم الواقع، ومتابعة هذه الترجمة في الواقع العملي للجماعة. ولذلك يقول هنا **"ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة -أولا بأول- في صورة حية، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة.."** والتكيف هنا لا بد أن يكون تكيفا في كل المجالات.. لا يكون تكيفا ظاهريا فقط، ولا تكيفا في علاقاتنا مع المجتمع فقط، ولا تكيفا في علاقاتنا مع بعضنا البعض فقط.. هو أولا وأخيرا تكيف مع متطلبات هذه العقيدة داخل النفس، لا بد أن يتحول الإنسان في داخله إلى إنسان ورع، إنسان تقي، إنسان يعمل حسابات كثيرة لكل كلمة ولكل شعور ولكل سلوك ولكل حركة، لا يكون إنسانا منفصما مع ذاته، أو منقلبا على ذاته، أو يتحرك حركات ظاهرية تبدو كما لو كان صاحبها قد تكوّن تكوينا داخليا منسجما مع هذه العقيدة، بينما هو في واقع الأمر لا يكون كذلك. وهذا أمر مهم جدا. لأن الإنسان الذي لا يكون كذلك في واقع الأمر يتميز بصورة من صور النفاق التي لا يجوز أن يتمثلها أو يكون عليها الإنسان المسلم. فلا بد ألا يتصرف كل واحد منا تصرفا واحدا واعيا يختلف مع متطلبات هذا الدين؛ سواء في علاقته مع نفسه، في صلاته، في ذكره، في صيامه، في إحساسه بالله عز وجل، في نظرة عينه الخائنة، في سماع أذنه التي يمكن أن تخون، في تعامله بقيمة من قيم الجاهلية، كأن يحتقر الفقير مثلا، أو يتجاهل الفقراء أو البسطاء، ويحترم الكبراء لغناهم، أو لوجاهتهم.. هذه مخالفة، لأنه بذلك لم يتشكل بالضمير الإسلامي.

وأكاد أقول إننا جميعا نسقط في هذه الهوة التي يحدث فيها تناقض بين تصرفاتنا وسلوكياتنا ومشاعرنا، وبين مقتضيات هذه العقيدة، في خصوصيات حياتنا وفي عموميتها.

ولذلك فعملية التكيف عملية من أخطر مهمات الإنسان في الوجود، لأنها محاولة دائبة في كل لحظة أن يتشكل الإنسان حسب القضية التي يؤمن بها.

فالإنسان الذي لا يعدل في بيته، لا يعدل بين أبنائه.. الإنسان الذي ينفعل انفعالات خاطئة مع زوجته.. الذي يظلمها.. الذي يأكل حقها.. الذي يحتقر أهلها.. كل هذا دليل على أنه لم يتشكل وفق العقيدة التي يدعيها.

الإنسان الذي لا يعمل حسابات في التعامل -مثلا- مع المؤسسة التي يعمل فيها.. مع أعضاء هذه المؤسسة.. مع أشكالهم.. الذي لا يعرف كيف يضع الحدود الدقيقة حينما يتعامل مع النساء في المجالات التي يؤدي العمل فيها إلى الاختلاط، كل هذا معناه أنه لم يفهم بعد، ولم يخلص بعد، ولم يصدق بعد.. وبالتالي هو لم يتكيف مع عقيدته التي ينبغي أن تشكل مفردات السلوك.

حينما أكون مديرا -مثلاً- في مؤسسة ولدي سكرتيرة، كيف أتعامل مع هذه السكرتيرة؟ إذا لم أكن واعيا كل الوعي يمكن أن أنزلق إلى ما ينزلق إليه كثير من مديري المؤسسات.

حينما أكون طبيبا ومعي زميلة من الطبيبات، أو ممرضة، كيف أضع الحواجز بيني وبينها، حتى تتعامل معي على أنني شخص غير كل الأشخاص الآخرين الذين تعرفهم في الجاهلية.. لست كأي طبيب.. ولست كأي مدير أعمال.. ولست كأي مهندس.. أنا إنسان يمثل نموذجا جديدا.. نموذجا لم تقابله من قبل.. وبالتالي لا يمكن أن تطمع فيه، ولا يمكن هو أن ينزلق إلى ما ينزلق إليه الآخرون.

لا بد أن يعمل حساباً للكلمة والبسمة واللفتة والصوت.. نغمة الصوت نفسها يمكن أن تغري المرأة، أو أن تطمعها في الرجل. والذي لا يستطيع أن يفهم ذلك فهو لم يفهم الإسلام بعد، وهو لم يفهم قضية لا إله إلا الله. فقضية لا إله إلا الله معناها أن تتشكل أو تصطبغ بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة.. والثوب الذي يوضع في الصبغة ثم لا تتخلل هذه الصبغة كل ذرة من نسيجه فهي إذن صبغة مغشوشة.. من منا يعيش هذا المعنى بهذه الدقة وبهذا الوعي في كل لحظة، وفي كل نَفَس.. في كل حركة، وفي كل لفتة، وفي كل نظرة، وفي كل كلمة.. هذه المسألة مهمة، لكي ندرك أن القضية ليست قضية سهلة، قضية أن ندخل الجنة أبد الآبدين، وأن نجاور الله أبد الآبدين.. لا بد أن يكون ثمنها صعباً، وثمنها كبيراً.. وليس كما نظن أن الأمر مجرد اعتقاد، ومجرد اجتماع، ومجرد بيعة، وينتهي الأمر.. أو مجرد فروض نحرص عليها ثم ينتهي الأمر.. الأمر أخطر من هذا.. الله عز وجل يريدك أن تكون عبدا خالصا ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥].

هذا الأمر لا بد أن نفهمه بدقة، لكي نحسن التعامل به، ولا نجد -إذا فهمناه- لحظة فراغ، ولا لحظة ملل، ولا لحظة غفلة. نحن محتاجون أن نكون في أشد درجات الوعي وفي أشد درجات الانتباه في كل لحظة من اللحظات.

ولذلك حينما يقول هنا **"متمثلة في ضمائر.."** ندرك أن القضية قضية ضمائر، ليست قضية مظاهر، ليست القضية أن تُظهر أمامي أنك إنسان ممتاز، ليست هذه. هي قضية ضمير، والضمير لا يراه إلا الله عز وجل، فأنت تتعامل في الحقيقة مع الله مباشرة، كيف تتعامل في كل صغيرة وكبيرة؟ هذه المسألة أظن أننا محتاجون أن نفهمها، ونراجع أنفسنا فيها دائما، ليس في كل ليلة، بل في كل ساعة، أرى ماذا فعلت في الساعة التي مضت، لا أنتظر حتى تمضي أربع وعشرون ساعة، فتتراكم الأخطاء بصورة كبيرة. أنا محتاج أن أقف مع نفسي كل لحظة لكي أرى ماذا فعلت في اللحظة السابقة إذا كنت أريد الله حقا، إذا كنت مبجلا وموقرا لله حقا. الله حقيقة متفردة.. ذات عظيمة جليلة، تحتاج منا أن نكون في شدة الخوف، وشدة الانتباه، وشدة الوله والحب والشوق، وشدة التوقير لله سبحانه وتعالى، بحيث أريد أن أطمئن أن اللحظة السابقة لن تمر دون أن تكون عابدة كاملة العبودية لله عز وجل. فأنا محتاج أن أراجع نفسي كل لحظة إذا استطعت، فإذا لم أستطع كل لحظة فيكون كل نصف ساعة.. كل ساعة، لكن أن أغفل عن المتابعة وعن المحاسبة هذه الفترة الطويلة فهذا يعني أن الشيطان قد سحبني بعيدا عن المرفأ الآمن، وعن المنطقة الآمنة، وأوقعني في الخطأ.. (ومن حام حول الحمى

يوشك أن يقع فيه)[10]. فالأمر ضخم جدا، وهو تعامل مع الضمائر، وليست القضية قضية أشكال وكلام وتعاملات.. وإنما **"متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي وتجمع حركي.."** لا بد أن يكون هذا البناء بناء دقيقا، بناء منظما، يقوم الناس فيه بواجباتهم الجماعية، كل جندي في مكانه، وكل قائد في مكانه، وكل تكليف في مكانه، وكل شيء يعمل بدقة وبحساب، لأنه عبادة لله عز وجل. وكما أنه لا يقبل منك أن تسجد قبل أن تركع مثلا، فأيضا لا يقبل منك أن تؤخر عملا للجماعة بعد عملك، أو تكليفا قبل تكليف. وكما لا يقبل منك أن تترك صلاة حتى يمر وقتها، فأيضا لا يقبل منك أن تؤخر عملا تأمرك به الجماعة.. هذه عبادة، وهذه عبادة.. فلا بد أن يكون التجمع الحركي تجمعا دقيقا، وتجمعا منظما.. تجمعا حركيا قائما على أحدث التصورات الإدارية والتصورات التنظيمية والتصورات الحركية، بحيث يقدم صورة نموذجية للكمال الإنساني في مجال العمل، ومجال التنظيم، ومجال الحركة، ومجال التعامل، ومجال البلاغ، ومجال البناء، ومجال الثقافة، ومجال العلم. هذه المجالات كلها ينبغي أن تقوم على أفضل صورة ممكنة، ولذلك لا بد للجماعة المسلمة أن تكون على أرقى مستوى من الإدراك العقلي، والتنظيم الإداري، والمنهج العلمي، والخبرات العملية في الحياة.

ولا يجوز أن تكون الجماعة المسلمة متخلفة في أي مجال من المجالات عن الواقع البشري الذي حولها، بل ينبغي أن تكون أعلى منه ما استطاعت. وهكذا نكون قد فهمنا معنى أن تتحول النظرية إلى سلوك وإلى تحرك صحيح، **"يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية.."** فالعقيدة ليست كلاما، وليست أشواقا، وليست مشاعر. العقيدة لا بد أن تكون تعبيرا عن: كيف ترى الله، كيف تتعامل مع الله، كيف تحس بالله، كيف توقر الله، كيف تجل الله، كيف تخشاه؟؟ فإذا لم تعبِّر الحركة التي تتحركها والتي تتغذى على العقيدة عن هذه العلاقة بينك وبين الله، فإنك تكون قد قصرت، وتخلفت بقدر تخلف هذا التطبيق الصحيح في التعامل مع الله سبحانه وتعالى.

"وخطأ أي خطأ -بالقياس إلى الإسلام- أن تتبلور العقيدة في صورة "نظرية" مجردة للدراسة الذهنية.. المعرفية الثقافية.. بل خطر أي خطر كذلك."

كنت استمع إلى خطيب الجمعة وكان الخطيب أستاذاً ودكتوراً جامعياً، والرجل يفهم القضية، ولكنه يوصل للناس عكس ما يريد، لأنه من اللحظة الأولى يقول لهم: يا أتباع رسول الله، ثم يقول لهم: إن أمتنا تمر بنكبة عارضة ستفيق منها!!ما دمنا أتباع رسول الله، وما دام الأمر نكبة عارضة، فالأمر إذن بسيط جدا.. ثم يتحدث عن فقداننا للهوية الإسلامية، فيقول: إن هناك أمرين لا بد أن يتحققا؛ هو أن نتمسك بالإسلام، وأن نتمسك بالشريعة.. وكأن الشريعة شيء والإسلام شيء آخر.. إذن يمكن أن نكون مسلمين، ونكون غير متمسكين بالشريعة، وتكون الشريعة هذه تكملة للأمر، ويمكن أن نفهم أن الشريعة ليست هي الإسلام ولا الإسلام هو الشريعة. فأحسست أن الرجل -رغم فهمه- إلا أنه لم يدخل من المدخل الصحيح، ولم يبدأ البداية الصحيحة، ولم يحكم على الواقع حكما صحيحا، أفسد كل شيء، لماذا؟ لأن النظرية في واد والواقع والتطبيق في وادٍ آخر.. ما هو واقع هؤلاء الذين تخاطبهم: يا أتباع محمد، ثم تقول: لهم أفيقوا، وتقول لهم: إننا لا بد أن نعلم العالم درسا في كذا، ولا بد أن يرى العالم منا كذا.. من هؤلاء الذين يقفون أمامك؟ هم أصلا المطالبون أولا أن يعرفوا الإسلام، وأن يتربوا على الإسلام، وأن يعرفوا أنهم خارج الإسلام ليدخلوه، قبل أن يقال لهم: تمثلوا الإسلام وكونوا نماذج له، وقبل

١٠ متفق عليه من حديث النعمان بن بشير -رضي الله عنه-.

أن نقول لهم كونوا سفراء.. كيف سيكونون سفراء؟!بطبيعة الحال من يسمع هذا الخطاب سيحس أنه مسلم، وأنه يصلح أن يكون سفيرا للإسلام، وأن القضية قضية نكبة عارضة، وأنه -والحمد لله- من أتباع محمد ومن أمة الاستجابة في حين أنه كان ينبغي أن يوقن أنهم أمة دعوة وليسوا أمة استجابة، والسبب في حال هذا وأمثاله أن هناك فصلاً بين النظرية والواقع، وهذا من أخطر الأمور أن يكون الإسلام نظرية وبعيدة عن الواقع.

لماذا تنزل القرآن منجما؟ وهل طول فترة البناء خاص بالجماعة الأولى؟

"إن القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاماً كاملة في بناء العقيدة بسبب أنه كان يتنزل للمرة الأولى.. كلا!فلو أراد الله لأَنزل هذا القرآن جملة واحدة، ثم ترك أصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاماً، أو أكثر أو أقل، حتى يستوعبوا "النظرية الإسلامية"."

فلم يكن الأمر عبثا، وإنما كان المنهج يتحرك من خلال حكمة، ومن خلال قصد. فتنزل القرآن منجماً، وطول فترة بناء العقيدة لم يكن لأنها تتنزل للمرة الأولى، لأن القضية ليست قضية عقيدة نظرية، وإنما هي قضية بناء النفوس بالعقيدة وحركتها بها، والنفوس هي هي في كل وقت، فحينما تكون الدعوة إلى العقيدة، لأناس خارج دائرة الإسلام، فلا بد أن يكون المنهج هو هو كما كان أول مرة. فليس السبب أن العقيدة كانت تتنزل أول مرة، ولكن القضية أنها كانت تواجه قوما ليسوا على شيء، وكلما التقت العقيدة -أو الإسلام- بقوم ليسوا على شيء، فلا بد أن يبدأ بنفس البداية، ولا بد أن تأخذ العقيدة تلك الفترة الطويلة حتى تُبنى النفوس على العقيدة، ثم بعد ذلك تأتيهم الشريعة. فلم يكن هذا لأن الإسلام، أو لأن العقيدة، أو لأن القرآن، نزل لأول مرة، وإنما الأمر غير ذلك، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان من الممكن أن يتنزل القرآن كله جملة واحدة منذ اللحظة الأولى، ثم يقول للمسلمين ادرسوا الأمر على زمن كما تحبون.

"ولكن الله سبحانه كان يريد أمراً آخر، كان يريد منهجاً معيناً متفرداً، كان يريد بناء جماعة وبناء حركة وبناء عقيدة في وقت واحد.." وهذا أمر هام جدا، وأمر ضخم جدا، وأمر صعب جدا كذلك. وبقدر ما تنجح أي جماعة في هذا الأمر بقدر ما تطمئن أنها سائرة على الطريق.

فإذا تخلف التصور العقدي عن البناء الحركي، وعن التكوين الجماعي، تصبح هذه الجماعة ليست جماعة صالحة لأن تقوم بالمهمة.

ولكن لا بد أن يسير الأمر كله متوازياً، أو متواكباً، أو متداخلاً.. بحيث يؤدي في النهاية إلى أن تُبنى العقيدة وتُبنى الحركة وتُبنى الجماعة في وقت واحد.

"كان يريد أن يبني الجماعة والحركة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بالجماعة والحركة.." وهو أمر متبادل دائما.. كلما ارتفع فهم العقيدة أكثر كلما نمت الجماعة والحركة، فإذا نمت الجماعة والحركة أدركت من العقيدة ما لم تكن تدركه قبل، وارتفعت إلى مستوى جديد من العقيدة، فإذا ارتفعت إلى مستوى جديد من العقيدة إذا بها ترتفع إلى مستوى جديد من الحركة والجماعة.. وهكذا يظل البناء دائم الصعود، في حركة تبادلية بين العقيدة وبين الحركة والجماعة.. العقيدة تغذي فتنمي، والجماعة تكبر فتفهم أكثر وتدرك أكثر فتنطلق، تفهم العقيدة أكثر، فتعطيها العقيدة بعداً جديداً.. وهي أيضا تتمثل واقعا جديدا.. وهكذا، حتى يصل إلى نقطة النهاية، وقد تكاملت العقيدة، وتكاملت الجماعة والحركة في وقت واحد.

خطورة التباين بين التصور والواقع العملي للجماعة المسلمة

"كان يريد أن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة.."

ولذلك، إذا تخلف الواقع عن العقيدة تكون هذه الجماعة هازلة. وهذا الذي نطالب به باستمرار؛ ألا نتخلف في سلوكياتنا وفي تعاملاتنا عما ندعيه وما نقوله، لأن هذا نذير شؤم على أننا قد فصلنا بين الواقع وبين الحق، وبالتالي نستحق الإبعاد في أي وقت من الأوقات، والعياذ بالله.

وهذه قضية خطيرة نحذر منها منذ أن تكونت الجماعة، ونقول: لا بد أن يتشكل كل واحد منا تشكلا آنياً وفورياً مع متطلبات العقيدة، وأن ينمو مع العقيدة، وتنمو العقيدة به، وتصبح الجماعة هي الصورة المجسَّمة للعقيدة، بحيث إن الذي يرى إنساناً ما يعرف ماذا يحمل من عقيدة من خلال سلوكه وتصوراته، والذي يقرأ عن عقيدة قوم، يستطيع أن يتمثل سلوكياتهم حتى قبل أن يلقاهم، لأنه يتصور أن العقيدة حينما تترجم ستكون هكذا.. فإذا التقى بهؤلاء الناس، ووجد أن هناك فارقا بين العقيدة التي قرأ عنها، وبين الصورة التي تمثلها لهؤلاء القوم، أدرك أن هؤلاء القوم ليسوا صادقين، أو جاهلين بالعقيدة التي ادّعوا الانتساب إليها.

ولذلك فإن أخوف ما نخافه هو ذلك الافتراق بين واقعنا وبين تصورنا وإدراكنا. ولا شك أن هذا موجود، ونحذر منه منذ زمن بعيد؛ فما أكثر ما قلنا من أن هناك فارقاً بين الواقع والتصور سواء في التعامل الجماعي، أو التعامل الفردي.. ففي تعامل الناس مع بعضهم نجد أن هناك سقطات كثيرة وتناقضات كثيرة بين ما يعرفونه وبين ما يتعاملون به بعضهم مع بعض. وأيضا نجد هذا في سلوك الفرد ذاته مع نفسه، وفي حياته؛ سواء في جانبه الأخلاقي، أو في جانب العلاقات التي بينه وبين الناس، أو في سلوكياته المالية، إلى غير ذلك.. نجد أن هناك تناقضا بين ما يعلمه هذا الفرد وبين ما يسلكه. وكلما تزايدت هذه العينات، أو تزايدت حدة الزاوية بين العمل وبين الواقع النظري أو الاقتناع النظري، كلما كان هذا نذيراً بأنه لا بد أن يحكم على هذه الجماعة بالخروج من الخط ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨].. لا يكونوا أمثالكم في البخل والكسل، وفي عدم الصدق، وعدم الجدية والعمل، والتوافق مع هذه العقيدة.

فأمر خطير أن يتحول الإسلام إلى فكرة جميلة، أو إلى فلسفة براقة، أو إلى ادّعاء ضخم، ثم يحدث الافتراق بين السلوك وبين الواقع؛ سواء على المستوى الفردي، أو على المستوى الجماعي.

"وكان الله -سبحانه- يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة، فلم يكن هنالك بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة.. حتى إذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج."

فنضج التكوين العقيدي لا يكون بالفهم، وإنما يكون بالإحساس والشعور والتصور الصحيح لمعنى العقيدة في واقعها الحقيقي العملي والنفسي. فالفهم النظري للعقيدة شيء، والتفاعل معها نفسياً وعملياً، ثم الارتقاء إلى مستوى الأفق العقيدي شيء آخر. فلا يقول الإنسان أنني قد تكونت عقيديا لمجرد أنه حفظ المقولات العقيدية أو القضايا النظرية.. ليس هذا هو التكوين العقيدي، هذا هو الفهم النظري،

أما التكوين العقيدي فهو أن تتحول مذاقاته ومشاعره وخواطره وتوجهاته كلها، وتتحول أهدافه في الحياة، وتتحول محاور حياته كلها لتتكامل مع العقيدة وتتذوقها. وهذا يحتاج وقتا طويلا، ويحتاج حياة طويلة مع القرآن، ويحتاج تبتلاً مع الله، ويحتاج حياة مع الله بالليل، ويحتاج محاسبة ومراقبة للنفس في كل لحظة، حتى يصل المرء إلى أن يكون قد تكون عقيدياً فعلاً. وبذلك يكون تكوينه العقيدي متمشياً مع المظهر الواقعي، الذي يكون ظاهرا لمن حوله.

وهذه قضية تحتاج أن يعيشها كل إنسان مع نفسه؛ ماذا يفهم من العقيدة؟ فالقضية ليست قضية مقولات فلسفية، ولا مقولات نظرية. القضية أكبر من هذا.. هي قضايا شعورية وسلوكية، وعروج إلى آفاق جديدة للمعرفة بالله، والتعرف على صفات الله، وخصائص الله، والتعرف على معنى الإيمان، ومعنى الإحسان، ومعنى الإخلاص، ومعنى المحبة لله، ومعنى الشوق.. كل هذه المعاني لا بد أن يلتقي بها الإنسان ليرتفع مستواه العقيدي في الواقع الحركي.

"هذه هي طبيعة هذا الدين -كما تستخلص من منهج القرآن المكي- ولا بد أن نعرف طبيعته هذه، وألا نحاول تغييرها تلبيةً لرغبات معجلة مهزومة أمام أشكال النظريات البشرية!فهو بهذه الطبيعة صنع الأمة المسلمة أول مرة، وبها يصنع الأمة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد إخراج الأمة المسلمة للوجود كما أخرجها الله أول مرة.

يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معاً، في تحويل العقيدة الإسلامية الحية التي تحب أن تتمثل في واقع نَامٍ حي متحرك، وفي تجمع عضوي حركي.. تحويلها عن طبيعتها هذه إلى "نظرية" للدراسة والمعرفة الثقافية، لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ "نظرية إسلامية"."

وهذا الذي يجعل الجاهلية لا تخشى من وجود الأزهر الشريف، ولا وجود الكليات الشرعية، ولا كليات الدعوة، ولا مجمع البحوث الإسلامية.. لأنها مطمئنة أن هذه المؤسسات كلها مؤسسات نظرية ومعرفية ثقافية باردة.

لكن انظر إلى طلاب وأساتذة هذه المؤسسات؛ ما علاقتهم بالإسلام العملي؟ لا شيء. الجاهلية إذن تعرف حقيقة الأمر، تعرف أن قضية "النظرية" ليست هي المهمة. وفي كل سنة تخرج بحوث ورسائل دكتوراه ورسائل ماجستير في قضايا إسلامية في غاية العظمة وفي غاية الدقة.. رسائل تتكلم عن الفرق بين دار الإسلام ودار الحرب، ورسائل تتحدث عن التربية في عهد الرسول ﷺ، ورسائل تتحدث عن الولاء والبراء، ورسائل تتحدث عن الحركة الإسلامية في العهد الأول، قضايا مهمة جدا.. وأنت إذا ما حضرت مناقشة رسالة من تلك الرسائل تسمع كلاما رائعا.. ومثل ذلك يقال في الإذاعات المخصصة لبث القرآن الكريم.. افتح إذاعة القرآن الكريم تجد الناس يتكلمون كلاما من أروع ما يمكن، وتجد المذيعين يتحدثون حديث العالم الدقيق بمعنى القرآن، والحياة مع القرآن، والمعيشة مع القرآن، ونور القرآن.. كلام نستفيد منه ونتعلم منه.. وحتى بعض التواشيح تحمل معاني من أرقى التعبيرات التي تربط بين القلب الحي وبين الله.. حديث عن عمق التوحيد.. وعمق المحبة.. وعمق الشفافية.. والعلاقة بين العبد وبين الرب.. وكيف يحس القلب وحدانية الله.. ولكن ما علاقة هذا الذي يتكلم بالإسلام؟ إنه في الغالب لا يعيش الإسلام.. والجاهلية تعرف جيداً أن كل هذا تلهية رائعة جداً، تُلهي هؤلاء الناس عن حقيقة الأمر، لأن الواقع في اتجاه والنظرية في اتجاه آخر. لذلك فهي لا تأبه كثيرا لما يقال.

وهذا هو الذي يقوله الأستاذ سيد من أنه خطأ وخطر أن تتحول العقيدة إلى نظرية للدراسة والمعرفة الثقافية.. فإذا ما انسقنا إلى الرضوخ إلى مقالة من يقول إنه لكي نواجه مقولات الجاهلية التي تحارب الإسلام، أو التي تنتقص من الإسلام، أو التي تحرف الإسلام عند الناس

فإن علينا أن نقابلها بنظريات مماثلة لكي ندحض حججها، فإننا سَنُستدرج كما أُستدرج الأولون إلى علم الكلام وإلى الفلسفة الإسلامية، فنكون قد استدرجنا إلى البحوث الإسلامية التي تحاور الهجوم الاستشراقي أو الهجوم الجاهلي ضد الفكر الإسلامي، وتصبح القضية قابعة في العقول، تتعامل على مستوى العقول، ولا تنزل أبدا إلى مستوى القلب ولا مستوى العمل والجوارح.. وإنما تتحول إلى قضايا فلسفية وقضايا ترفيهية وقضايا للاستعراض الفلسفي والعلمي في أروقة الجامعات والبحث الأكاديمي. وهذا كله لا تخشى منه الجاهلية، بل تُغذيه.

ولذلك إذا وقع دعاة الإسلام، أو دعاة الحركة الإسلامية، أو طلائع الحركة الإسلامية في هذا المأزق، فإن أقدامهم تكون قد أخطأت الطريق من اللحظة الأولى.

ونحن إذا نظرنا إلى منهج الجاهلية في تحويل المجتمعات الإسلامية إلى مجتمعات جاهلية سنرى أن المخططين الخبثاء لم يكتفوا بعرض النظرية الجاهلية، وإنما مزجوها بتغيير الواقع، لكي تتحول النظرية إلى سلوك حركي وسلوك واقعي. فهم قد صاغوا الأفكار في مؤسسات وفي نظم وفي أخلاقيات وفي سلوكيات، ولم يكتفوا فقط بأن يتحدثوا أو ينزلوا كتبا، وإنما كان مع الكتب والمجلات واقع مشهود منظور، كانت الصورة، وكانت السينما، وكان تغيير الشريعة، وكان خلع حجاب المرأة، وخروجها سافرة، وبناء المنتزهات والمنتديات و"الكباريهات" والمراقص.. فكان يصاحب الهجوم النظري صياغة عملية، ليتغير الإنسان من خلال الواقع العملي، وليس من خلال النظرية.

فلو ظل الكلام نظريا فقط لكان من الممكن ألا يتغير المجتمع الإسلامي، وكان من الممكن أن يرفض المجتمع هذه المقولات الكافرة، لأنها تتعارض في الحقيقة مع النظرية الإسلامية. لكن الذي أوقع المسلمين، وجعلهم ينزلون إلى مستوى الجاهلية، ويتخلون عن الإسلام، هو التغيير العملي.

ومنذ الحملة الفرنسية، عندما جاء نابليون إلى مصر لم يأت بالجيش فقط، وإنما أحضر معه خمسة آلاف عاهرة من النساء، لكي يسرن في شوارع القاهرة، ويدخلن الأزهر وهن شبه عاريات مع الضباط ومع الجنود، ويتعاملن بالأخلاق الجاهلية أمام أنظار المسلمين، فبدأت طبقات من المسلمين الخلعاء يتأثرون بهن، وبدأت هذه الأمور تخف حدة وقعها على الحس الإسلامي تحت تأثير الواقع وتكراره، هذا مع التغيير النظري.. ففي نفس الوقت أحضر معه علماء، لكي يعملوا مهرجانات علمية جعلت المسلمين يحسون بالفارق الهائل الكبير بين واقعهم المتخلف وبين ما وصلت إليه الجاهلية الفرنسية، فأصبحوا مهزومين أمام ذلك التقدم.

فهذا التداخل بين النظرية وتحويلها إلى واقع هو الذي غير المجتمعات الإسلامية، من مجتمع إسلامي، إلى مجتمع جاهلي.

فكذلك المجتمعات الجاهلية لن تتغير من مجتمع جاهلي إلى مجتمع إسلامي إلا من خلال تغيير الواقع، ومواكبة النظرية مع الواقع في نفس الوقت، فكلما تمثل المسلمون والدعاة النظرية الإسلامية في سلوك كلما كان هذا أبلغ أثراً في إيصال الإسلام إلى الناس على أنه واقع، وليس نظرية في صفحات الكتب، أو في المراكز البحثية والجامعات الأكاديمية.

والواقع أن هذه سُنَّة من سنن التغيير -ليست خاصة بالإسلام فقط- ولكنها تشمل كل تغيير جوهري في حياة المجتمع الإنساني، فالمجتمع الإنساني لا يتغير من خلال الكلام، وإنما يتغير من خلال تحويل الكلام إلى واقع، ولذلك لا بد لكل فكرة نظرية من رواد يتمثلونها في عالم الواقع، فإذا تمثلوها في عالم الواقع رآها الناس واقعا فتأثروا بها.

أما إذا ظلت فكرة نظرية فمن الممكن ألا يحدث تأثر بها على الإطلاق. فهذه السنّة سنة عامة، ولكنها أظهر ما تكون بالنسبة للعقيدة الإسلامية، لأن العقيدة الإسلامية تختلف عن العقائد البشرية في أنها تغير الواقع تغيرا جذريا من النقيض إلى النقيض. أما الأفكار البشرية فيمكن أن يوجد -مع اختلاف الأفكار النظرية- توافق في الواقع العملي، فليس هناك اختلاف في سلوك الأفراد -مثلا- بين الفرد الرأسمالي والفرد الشيوعي.. فالإنسان الذي يتغير من الرأسمالية إلى الشيوعية، أو من الشيوعية إلى الرأسمالية لا يحتاج زمنا طويلا في تربيته على التغير، لأنه لا يطلب منه تغيير في واقعه الفردي، ولا في واقعه الجماعي.. والمسألة كلها هو تغير في أشكال النظم، وفي الفكر النظري، لكن الواقع السلوكي هو هو فجذور كلا النظامين واحدة.

لكن الإسلام ليس كذلك. الإسلام يحتاج تغيرا جذريا، بحيث يتحول الإنسان إلى نمط للحياة جديد، يشمل الشعور والقيم والأفكار، ويشمل السلوك والعلاقات، وكل مجالات الحياة. لذلك كانت العقيدة الإسلامية، وكانت التربية الجماعية الإسلامية تحتاج وقتا أضعاف أضعاف ما تحتاجه أي جماعة بشرية أخرى كي تنتقل من واقع إلى واقع. لأن الواقع الإسلامي الذي يريده الإسلام واقع يحول الإنسان إلى الجهة المضادة تماما. بينما الواقع الجاهلي قد لا يطالب صاحبه بأن يتغير تغيرا كبيرا مهما تغيرت النظرية من النقيض إلى النقيض. فهذا الذي يجعل البرامج الإسلامية أو العقيدة الإسلامية تحتاج ذلك الوقت الطويل الذي يميزها عن بقية الأفكار البشرية.

"إن العقيدة الإسلامية تحب أن تتمثل في نفوس حية، وفي تنظيم واقعي، وفي تجمع عضوي، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها -بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة إلى نفوسهم، وتنتزعها من الوسط الجاهلي- وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول -ومن الحياة أيضاً- مساحة أضخم وأوسع وأشمل مما تشغله "النظرية". وتشمل -فيما تشمل- مساحة النظرية ومادتها، ولكنها لا تقتصر عليها."

فالإسلام يختلف دائما عن أي تصور آخر، والعقيدة الإسلامية تحتاج من أصحابها أن يتشكلوا تشكلا كاملا، وأن يتغيروا تغيرا جذريا. وهذا يتطلب وقتا طويلا، ويتطلب جهدا طويلا أيضا.

ونواصل قراءة ما كتب الأستاذ سيد، لأن ذلك يساعدنا على فهم الأبعاد التي يريدها..

يقول: **"إن التصور الإسلامي للألوهية، وللوجود الكوني، وللحياة، وللإنسان.. تصور شامل كامل. ولكنه كذلك تصور واقعي إيجابي. وهو يكره -بطبيعته- أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته."**

نجد أن التعبيرات دقيقة، وكل كلمة توضع بحساب، فهو تصور شامل كامل، وكذلك تصور واقعي إيجابي، فهو ليس تصوراً فلسفياً، ولكنه تصور يأتي للواقع، ولتغيير الواقع، وليعمل في هذا الواقع بطريقة إيجابية. ولذلك **"هو يكره -بطبيعته- أن يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي، لأن هذا يخالف طبيعته وغايته."**

فإذا كانت طبيعته أنه تصور واقعي وإيجابي، بجانب شموله وتكامله، فلا بد -بطبيعة الغاية التي يسعى إليها الإسلام، وهو تغيير الواقع، وإخراج الناس من عبودية العباد إلى عبادة الله وحده، وتغيير حياة الناس سلوكاً وواقعاً وفكراً وقيماً- أن يكون تصورا عمليا واقعيا، وليس تصورا ذهنياً معرفياً.. لذلك **"يجب أن يتمثل في أناسي، وفي تنظيم حي، وفي حركة واقعية.. وطريقته في التكون أن ينمو من**

خلال الأناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية، حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً، ولا ينفصل في صورة "النظرية" بل يظل ممثلاً في صورة "الواقع" الحركي.."

لذلك نجد أن رسول الله ﷺ في حجة الوداع والتي توفي بعدها، ينزل القرآن عليه بآيات تحريم الربا، وفي نفس الوقت ينزل قول الله ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وفي هذا الوقت تم فتح الجزيرة العربية بكاملها، في نفس الوقت الذي تم فيه تكامل الشريعة، وفي نفس الوقت -أيضاً- الذي يرتضي الله عز وجل هذا الدين لعباده نهائياً. فكل ذلك متجه في اتجاه واحد، متواكب ومتوازي، بحيث إنه حينما تكامل الواقع، تكاملت الشريعة، وتكاملت العقيدة. تكامل الواقع كله، بحيث لا يتخلف الواقع العملي عن الواقع النظري، فلم تسبق النظرية الواقع، ولم تنزل مكتملة في أول لحظة ليظل الناس يدرسونها مع تحركهم الواقعي، وإنما كان القرآن يتنزل ليوجه حركة الجماعة المسلمة، خطوة خطوة. ولذلك فإنه قد يفيدنا أن نحاول دراسة القرآن حسب تنزيله، لنرى كيف كان الله سبحانه وتعالى ينقل خطوات الجماعة المسلمة في مكة والمدينة، حسب السور والآيات التي تنزل، وحسب تدرجها في التنزيل، لنرى شكل النمو الحركي والاجتماعي والأخلاقي والتشريعي مع العقدي في نفس الوقت. كما حاول ذلك الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه عن السيرة من خلال القرآن، كان يتتبع الآيات القرآنية مع التنزيل، ويتحدث عن السيرة من خلال الآيات القرآنية المتنزلة.

"وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي، ولا يتمثل من خلاله، هو خطأ وخطر كذلك، بالقياس إلى طبيعة هذا الدين وغايته، وطريقة تركيبه الذاتي. والله -سبحانه- يقول: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فالفرق مقصود. والمكث مقصود كذلك، ليتم البناء التكويني، المؤلف من عقيدة في صورة "منظمة حية" لا في صورة "نظرية"!."

والتعبير القرآني واضح أن الله هو الذي فرّق هذا القرآن عن حكمة، وأن هذا القرآن مقصود أن يمكث في الناس فترة طويلة لكي يتعامل مع واقع الناس ومشكلاتهم. وقد رأينا كيف كان القرآن يتنزل، فكما نرى في التعبير القرآني أن الله عز وجل يقول ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ ويسند التفريق إلى ذاته سبحانه وتعالى، فهو الذي يريد ذلك التفريق، وعلى مدى هذه السنين الطويلة، ليمكث في الناس مكوثا طويلا، ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ ﴾ أنت يا محمد ﷺ، أي لتعلمه للناس ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾.. وهناك فرق بين أُنْزِل ونزَّلَ، فنزَّل تعني أنه نزل على فترات، فالفرق مقصود، والمكث مقصود.

ولعلنا من خلال تتبع أسباب النزول نستطيع أن نرى كيف كان القرآن يتنزل ليعالج مشكلات واقعية، ويقدم توجيهات واقعية، ويعبر عن واقع حي للجماعة المسلمة، سلبا وإيجابا، لكي يوجهها التوجيه الذي يريد.

فلا بد إذن -حينما يعاد بعث الإسلام مرة أخرى- أن تأخذ فترة التربية، وفترة تكوين العقيدة، وفترة تكامل الجماعة ونموها الحركي، أن تأخذ فترة طويلة من الزمن، ولا يجب أن يصيبنا الملل والسأم، لأن الحقيقة أن جوانب كثيرة من حياتنا الفردية والنفسية، وجوانب كثيرة من التنظيم الجماعي، وجوانب كثيرة من الحركة ونموها، لا يتم في وقت واحد، ولا في ليلة واحدة.. وإنما يحتاج باستمرار إلى متابعة، وإلى تكوين، وإلى بناء. فمن أجل هذا لا بد أن يأخذ هذه الفترة الطويلة على جميع المحاور العقيدية والتنظيمية والحركية والأخلاقية.

كما أن الدين رباني فإن منهجه في العمل ومنهجه في التفكير رباني أيضا

"يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيداً -كما أنه في ذاته دين رباني- فإن منهجه في العمل منهج رباني كذلك. متواف مع طبيعته، وإنه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل."

وهذا الفصل هو ما يقع فيه كثير من الجماعات الإسلامية.. حينما يأخذون التصور الإسلامي، ثم يختارون منهجا لتطبيق هذا التصور من أي مكان آخر، أو باجتهادهم العقلي، أو لا يلتزمون بالخطوات التي مر فيها هذا التصور ليكتمل كما بُنِيَ أول مرة. فيبدؤون منهج العمل من الخطوة الأخيرة. وهذه مخالفة صريحة للمنهج، وأيضا خطأ كبير، لأنه يعطل الحركة، بل يقلبها قلبا كاملا، لأن البدء من نقطة النهاية هو قلب لنظام الإسلام كله رأسا على عقب.

ولذلك نجد أنه تحدث انحرافات كثيرة جدا نتيجة لتجاهل المراحل الطبيعية السابقة التي كان يجب أن تمر فيها الجماعة المسلمة لتصل إلى هذه النقطة التي بدأوا منها؛ كفكرة الجهاد المسلح، أو فكرة الالتزام بكل النصوص النهائية منذ لحظة البداية. كل هذا يعاكس بطبيعته طبيعة التدرج، وطبيعة التوجيه الرباني، المُراعى فيه حاجة الجماعة، والمُراعى فيه قدرة الجماعة وطاقتها، والمُراعى فيه -أيضا- الخطاب الموجه للجاهلية من خلال الجماعة المسلمة.

لأن الجماعة المسلمة حينما تخاطب الجاهلية من اللحظة الأولى بالنصوص النهائية فإن ذلك يُصَعِّب على الجاهلية أن تفهم ذلك الخطاب. ولكن حينما ترى الجماعة المسلمة وهي وليدة، ثم تنمو وتدرج وتكبر مع النمو الحركي والجماعي والعقيدي، فإن ذلك يقرب الصورة إلى المجتمع الجاهلي، فيتفهم الإسلام، حتى ولو لم يدخل فيه.. ولكنه يتابع هذا النمو وتدرجه، وفي اللحظة التي يدخل فيها يكون قد وعى الخطوات السابقة.

وهذا ما كان يحدث فعلا بالنسبة للذين يدخلون الإسلام في مراحل نموه المتتالية، فكانوا عندما يدخلون يلتقون مع المسلمين في نفس النقطة التي وصلوا إليها، لأنهم لم يكونوا منعزلين انعزالا كاملا عن الجماعة المسلمة، وإنما كانوا يعيشون أحداث الجماعة، وكانوا يسمعون كل تغير يحدث في هذه الجماعة، ويعيشونه معها وإن لم يكونوا على دينهم. فحينما دخلوا كانوا يعرفون أن الجماعة قد سارت هذه الأشواط كلها، وهم يلتقون معها في نفس النقطة التي وصلت إليها.

هذا يُيَسر الأمر على الناس ليفهموا هذا الدين. أما الذين يبدؤون القتال أو الحركة من نقط النهاية، أو يبدؤون التشريعات من النصوص النهائية، فإن ذلك يصعّب على الناس؛ سواء في الفهم، أو في الخضوع لهذا الدين، ويصعب على الجماعة المسلمة أيضا أن تسير، لأنها تكلف نفسها أمورا لا يمكن أن تطبق فعليا في هذه المرحلة الأولى.. فهم بهذا -على جميع المحاور، وبكل المقاييس- هم يخالفون منهج الله، ويصعبون الأمر على أنفسهم، ويصعبونه أيضا على المدعوين. وهذا كله خطأ، وخطرا في آنٍ واحدٍ معاً.

"ويجب أن يعرفوا كذلك أن هذا الدين -كما إنه جاء ليغير التصور الاعتقادي، ومن ثم يغير الواقع الحيوي- فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الذي يبنى به التصور الاعتقادي، ويغير به الواقع الحيوي.. جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة.."

وهذه أيضا حقيقة أخرى مرتبطة بالحقيقة الأولى؛ فهذا الدين بما أنه دين رباني، فمنهجه في العمل أيضا منهج رباني، يُتلقى من الله، كما يُتلقى التصور والعقيدة تماما. والإنسان ليس حراً في أن يأخذ العقيدة ولا يأخذ المنهج. فهذا الدين جاء ليغير الواقع الحيوي، من خلال منهج خاص يبني به التصور الاعتقادي، في نفس الوقت الذي يبني به الأمة تنظيميا وحركيا وواقعا.

ضوابط منهج التفكير في الإسلام

والأمر الثالث.. **"ثم لينشئ منهج تفكير خاصاً به، بنفس الدرجة التي ينشئ بها تصوراً اعتقادياً وواقعاً حيوياً. ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص، وتصوره الاعتقادي الخاص، وبنائه الحيوي الخاص.. فكلها حزمة واحدة.."**

وإذا كنا قد تكلمنا عن قضية التصور، وقضية المنهج، فنريد أن نقف وقفة مع منهج التفكير، وكيف أن الإسلام جاء ليس فقط ليغير الأفكار، وإنما جاء ليغير منهج التفكير ذاته.

والإسلام يربط الفكر الإنساني بعدة محاور ثابتة، ليضمن سلامته، ويضمن استقامته، ويضمن ألا يزيغ عن الصواب في أي وقت من الأوقات. بينما المنهج الجاهلي يعطي للعقل الإنساني الحرية الكاملة في أن يتخبط وأن يضل، حينما يقطع الصلة بينه وبين المحاور الثابتة.

فحينما يخبط العقل بلا دليل، ويتحرك حركة عشوائية معتمدا على ذاته -وهو أداة ناقصة بطبيعتها- فإنه بذلك يعرّض نفسه للدمار، ويعرض نفسه للتخبط والضياع.

بينما الله الذي خلق هذا العقل الإنساني، وخلق هذا الكيان الإنساني يعلم أن العقل طاقة ضخمة جدا، ومهمة جدا، ولكنه طاقة معرضة للانحراف، ومعرضة لعدم الرؤية الصحيحة، ومعرضة لالتباس الأمور أمامها في لحظة من اللحظات، فضلا عن أنها معرضة للتباين الهائل بين العقول البشرية بعضها مع بعض، سواء في جيل واحد، أو في الأجيال البشرية كلها.

لذلك مع اعترافه بالعقل، ومع اعتباره العقل هو أداة التمييز في الإنسان، وشرط التكليف إلا أنه لم يجعله هو المرجع النهائي للإنسان، ولم يكلفه بهذا التكليف الذي لا يطيقه وليس من وظيفته.

وظيفة العقل شيء آخر؛ وظيفة العقل أن يتلقى، وأن يبحث عن طريقة التلقي الصحيحة، وأن يحاول أن يفهم الذي يتلقاه بطريقة صحيحة، ويحاول أن ينفذه بطريقة صحيحة. وليس من طبيعة العقل، ولا من وظيفة العقل أن يستقل بتقرير الحقائق، ولا أن يستقل بتنفيذها. وإنما هو مطلوب منه أن يتلقى، ويتحرى عن مصدر التلقي الصحيح، ثم يتلقاه بطريقة صحيحة، ثم ينفذه بطريقة صحيحة.

الضمان الأول للعقل: أن يكون الوحي هو المرجع

وكما يقرر المصدر الأول لهذا الدين فإن المرجع للعقل الإنساني هو الوحي. والوحي هو كلمة الله، وكلمة الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، تنزيل من حكيم حميد. وبذلك يضمن العقل، وتضمن البشرية في كل أطوارها أن يكون لها مصدر، ويكون لها مرجع تطمئن إلى علمه وإلى صدقه وإلى رحمته وإلى شموله وإلى لا نهائيته، بحيث لا يكون ذلك المصدر مصدرا مؤقتا، ولا مصدرا متحيزا، ولا مصدرا جاهلا.. وإنما يكون الوحي متميزا بما أنه وحي الله، وكلمة الله بالكمال الذي لا نقص فيه، ممتد على طول الطريق

وعلى طول الحياة. وبذلك نضمن عدم التغيير والتبديل، ونضمن العلم بالمستقبل، وكذلك العلم بالماضي، والعلم باللحظة الحاضرة، فكلها سواء في علم الله. فحينما يقرر الله شيئا نطمئن أن الله يرى الأمر كله، ويرى الطريق كله. ونطمئن كذلك إلى عدل ما يأتي به الوحي لأن الله يتعالى عن الظلم، ويتعالى عن المحاباة، فحينما يضع للناس تقريرا أو أمرا فإنه عدل محض وخير محض.

فهذا المرجع مهم جدا في عملية التفكير الإنساني مهم جداً أن يرتبط العقل البشري بالله من خلال الوحي. ثم يقرر هذا المرجع للعقل مجالاته التي يفكر فيها؛ يقرر المجالات المسموح له بها، والمجالات الممنوعة عنه، حتى يحفظ هذه الأداة المحترمة من أن تتبدد وأن تتبعثر فيما لا تحسنه، أو فيما يرجع بها إلى الوراء. لذلك منع العقل أن يتدخل أو يلج عالم الغيب، لأنه عالم بعيد عن إمكانية العقل. والإنسان يتلقى الغيب من الوحي، ومن مصدره العليم الخبير.

فالعقل حينما يحاول أن يفكر في الحقائق المطلقة، أو في عالم الغيب، فإنه يدخل مجالا لا خبرة له فيه، ولا طاقة له بالتجول فيه، كالذي يعبر المحيط بلا مجداف وبلا مركب وبلا سفينة، فبالتالي لا بد أن يرجع من هذه الجولة بتخرصات وتخبطات. وهذا الذي نراه في كتب الفلسفة منذ أن حاول العقل البشري أن يستقل بنفسه ليكتشف الحقيقة الكبرى، أو يكتشف عالم الغيب. فالله عز وجل منع العقل من أن يتبعثر أو يتبدد، ليس حجرا على العقل، وإنما تكريما للعقل، وصيانة للعقل، وإراحة للعقل.

وأعطاه بعد ذلك مجالات كثيرة جدا يتحرك فيها؛ من التفكر في نعم الله، وخلق الله.. إلى كثير جدا من وظائف أخرى؛ من إقامة الشريعة، ورقابة المجتمع، والتفكر في التاريخ، والسير في الأرض. ثم المجال الأعظم بالنسبة للعقل البشري؛ وهو اكتشاف أسرار السنن الإلهية، وإقامة الحضارة.. وهذه مجالات واسعة جدا لا يكف الإنسان والبشرية عن الانشغال بها، ولن تنتهي منها على الإطلاق.. وستظل تحس أنها كلما ازدادت علما كلما أدركت مدى الجهل الذي تمارسه وتعيش فيه.

ثم إن الإسلام يقرر للعقل ألا يواجه الحقائق بمقررات سابقة.. لا بد أن يخلي نفسه من أي مقررات سابقة.. فإذا أراد أن يبحث عن حقيقة جديدة فلا يقابلها بمقررات سابقة نابعة من الإلف والعادة، أو نابعة من ركام الماضي، أو من خصائص البيئة وموروثاتها. لا بد -لكي يعرف الحقيقة- أن يتخلى عن مقرراته السابقة، ويحاول أن يواجه الحقيقة بعقل متجرد، معتمداً على التجربة والمشاهدة، أو على العلم الصحيح من الوحي.

وأيضا يأمره بالتثبت المستمر ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].. فالقرآن والإسلام يأمر العقل بالتثبت من كل شيء، فيتخلى في أول الأمر عن مقرراته السابقة، ثم لا يُدخل إلى عقله شيء إلا من خلال التثبت والعلم الصحيح، وبهذا يضمن الإنسان ألا يأخذ شيئا من غير مرجعه الصحيح. فالوحي هو المسيطر، وهو المهيمن، وهو الموجه. فالفكر الإسلامي الإنساني حينما يرتبط بالمرجع الرباني، وهو الوحي، يضمن أنه كلما ادلهمت عليه الأمور رجع إلى هذا الوحي، فإذا به يجد النور.. ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].. فالإنسان في الإسلام يشعر بالطمأنينة، ويشعر بأن لديه مرجعا صحيحا شفيقا رحيما.. بكل صفات المرجع التي يريدها الإسلام.

الضمان الثاني للعقل: ارتباط منهج التفكير الإسلامي بالجماعة

والأمر الثاني: أن منهج التفكير الإسلامي مرتبط بالجماعة، فالإنسان وحده قد يضل، وحتى لو تلقى من الوحي قد لا يفهم الوحي فهما صحيحا، وقد لا يفهم النص فهما صحيحا، وقد يفهمه فهما صحيحا ثم يسيء التطبيق، أو لا يعرف مجالات التطبيق الصحيحة. لذلك كان الضمان الحقيقي لعدم ضلال الفرد هو اتباع أمر الجماعة. فإذا أجمعت الجماعة على أمر لا بد أن يتنازل الفرد عن رأيه لرأي الجماعة. وهذا ضمان له قبل أن يكون ضمانا للجماعة. فالجماعة لا تخسر، لأن الجماعة سائرة في الطريق.

أما الفرد الذي يشذ عن الجماعة، ويستقل بتفكيره في الأمور التي ليس فيها نص محكم حاسم بل هي مجال للاجتهاد فإنه يقع في الخطأ. لذا فإنه إذا اجتهدت الجماعة اجتهادا فعلى الفرد أن يتنازل عن رأيه.. ليس تنازل مجاملة، وإنما تنازلاً حقيقياً، لأنه يعلم أنه الضمان لوحدة الجماعة، وأيضا لعدم ضلاله هو أن يكون مع الجماعة. ولذلك يقول الرسول ﷺ (يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار)[11]، ويقول الله عز وجل ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العصر: ١-٣] فلم يقل: إلا الذي آمن، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣].. وهذا منهج من أهم الأمور التي اعتقد أنها كانت سببا في الفتن التي حدثت في البشرية دائما، وخاصة في أمر الفتنة التي حدثت في عهد الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ في عهد عثمان وعلي ومعاوية، فلو أن عليا ومعاوية والزبير وطلحة وعائشة وغير هؤلاء لم يتحرك واحد منهم تحركا فرديا لم تكن قد حدثت الفتنة، لو كان معاوية وعلي والزبير اجتمعوا واجتمع الصحابة جميعا وتناقشوا في كل الأمور، ثم الذي يصل إليه هذا المجموع يخضع له الكل فكان لا بد أن يحدث خيرا.. لكن حينما أصر فريق أن يسلم قتلة عثمان، وفريق آخر رأى أن هذا ليس هو الوقت المناسب، وإنما يجب أن يستتب الأمر أولا ثم نبحث القضية، وفريق آخر وجد الفريقين كذلك، فاتجه إلى أن يحرجهم بتصرف عملي، كما فعل الزبير وطلحة، فأراد أن يقبض على قتلة عثمان ومن وراءهم بنفسه.. وهكذا اختلفوا، وهذا هو الذي أدى إلى الفتنة. لكن أي أمر كانوا سيتفقون عليه لم يكن ليحدث فتنة.. لكن الذي حدث أنهم حينما انقسموا إلى فرقاء حدثت الفتنة التي قتل فيها في يوم واحد في معركة صفين وحدها سبعون ألفا من المسلمين.. أمر مريع جدا هذا الذي حدث.. لماذا؟ لأن كل فريق أصر على ما يراه. ولا شك أن موقف علي كان الموقف الأصح من الجانب الشرعي، بما أنه هو الخليفة الذي اختير، فكان لا بد للجميع أن ينضووا تحت لوائه، ثم يبحثوا معه، ويناقشوه أو يخطئوه، لكي يصلوا معه إلى تصور موحد، ثم يحمّلوه المسئولية ويمضوا حتى لو لم يقتنعوا، لكن إصرار الفرقاء بأن يكون لهم رأي بجانب علي -حتى ولو افترضنا أن عليا لم يكن رأيه صوابا أدى إلى تلك الكارثة- لئن تجتمع الأمة على خطأ خير من أن تفترق على صواب، وهذا الذي أوجد الفتنة.. والذين قاموا بالفتنة -مهما كانوا- كانوا ضعافا، وكان من الممكن أن يسيطر عليهم، ومن الممكن أن يؤدبوا ويُنتهى منهم، لكنهم انتهزوا فرصة الخلخلة التي حدثت في الصف المسلم.

فإذا كان الضمان الأول للعقل هو أن يكون الوحي هو المسيطر، فالضمانة الثانية التي لا قيمة للضمانة الأولى بغيرها هي أن يعرف الفرد أنه لا بد أن ينصاع -وليس فقط يرضى- بل ينصاع انصياعا كاملا لرأي الجماعة في الأمور الاجتهادية، وأن يتنازل الإنسان عن اقتناعه -

---

١١ رواه الترمذي وقال حسن غريب، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني بلفظ (يد الله مع الجماعة والشيطان مع من خالف يركض)، قال الهيثمي: رجاله ثقات.

مهما كان عميقا- حينما يرى أن الجماعة ترى غير ذلك، لأن الجماعة لا تجتمع على باطل.. (لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة)[١٢].. ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ [النساء: ١١٥].

فهذا الأمر من أهم مقومات قيام أي تجمع. فحين تجتهد الجماعة، ففي الغالب أن يكون اجتهاد الجماعة هو الأصح.. فحينما يجتمع عشرة ليبحثوا قضية، وهم على مستوى العلم المطلوب للمسألة، ومستوى الورع والتقوى، ففي الغالب يكون رأيهم أصح من رأي فرد إذا كان وحده، أو من رأي اثنين أمام سبعة أو ثمانية أو عشرة. وحينما أرى الرأي بهذا الشكل لا بد أن أتشكك فيما أراه، وأن أقرر أن رأيي، إن لم يكن يقينا خطأ، فهو يغلب عليه أن يكون خطأ، ولذلك ينبغي أن أنصاع لرأي المجموع، راضيا، بل متبنيا لهذا الرأي، وطارحا لرأيي تماما على أنه اجتهاد مني يعوزه الصحة التي رآها الآخرون.

وهذه قضية مهمة جدا، لأنها ضمان لبناء أي تجمع إنساني؛ سواء في الجاهلية، أو في الإسلام. وهم في الجاهلية يفعلون ذلك حتى تجتمع الأمة، لأن ذلك سنة بشرية. فإذا أُعجب كل إنسان برأيه لا بد أن تفترق البشرية وتتصادم وتتعارك، لكن إذا لان الناس المؤمنون لبعضهم، وخضع الفرد لما تراه الجماعة يكون ذلك بركة، فيد الله مع الجماعة. وهذا الضمان الثاني هو الذي يضمن صحة ومضاء الأمر الأول.. وإغفال هذا الأمر هو الذي تقع فيه الجماعات المسلمة الآن.. إن كل جماعة ترى أنها على الحق، والجماعات الأخرى على الباطل، دون أن يكون هناك مرجع.. في عهد الرسول ﷺ كان هناك مرجع.. وفي عهد الخلافة كان هناك خليفة.. وحينما افترقت الدولة إلى أموية وعباسية كان هذا ناتجاً عن اختلاف الناس. ولو أن عبد الرحمن الداخل الأموي لم يذهب إلى الأندلس ويقيم الدولة الأموية هناك لظلت الخلافة واحدة، حتى لو كان هذا اغتصابا، لكن المهم أن يجتمع الناس بدل أن يتفرقوا. وحدث بعد ذلك أن تفرقت الممالك الإسلامية، نتيجة أن كل واحد أصبح يبحث عن ذاته وعن مصلحته وعن رغبته في أن يكون ملكا أو أن يكون حاكما، فتساقطت الممالك كلها بهذا الشكل، حتى وقعنا وسقط كل شيء.

فالضمان الحقيقي هو التمسك بالجماعة، ليس فقط من أجل وحدة الجماعة، ولكن أيضا لضمان أن نتبع الفكر الصحيح، ونسلك الطريق الصحيح. ففكر الجماعة هو الفكر المبارك، وفكر الفرد فكر مرجوح، حتى ولو كان في تصور صاحبه أنه أصح، لكنه يكون مرجوحا لأنه يصطدم مع رؤية الجماعة. فما دامت الجماعة جماعة حق، وما دامت قيادة الجماعة قيادة عادلة، وتتحرى مرضاة الله، وأيضا قادرة على العلم والبحث.. إذن لا يكون لأي فرد أن ينفرد برأيه، أو أن يستعدي على الجماعة برأيه، أو أن ينفر من رأي الجماعة بأي صورة من الصور.

الضمان الثالث للعقل: التقوى

والضمان الأخير؛ هو تقوى كل فرد، لأن التقوى هي التي تجعلنا نتوحد، وهي التي تجعلنا أيضا نتعاون في أن نصل إلى الحقيقة الواحدة بصورتها الحقيقية. لكن إذا لم نتق الله، فكل واحد ستتضخم ذاته، وكل واحد سيعجب برأيه، وكل واحد سيبحث عما يرجح رأيه من النصوص، وسيأخذ من الوقائع ما يؤيد موقفه، ويبرهن على صحته..

---

١٢ رواه الطبراني موقوفا على ابن مسعود -رضي الله عنه-، وروى أحمد والطبراني مرفوعا في حديث (سألت ربي ألا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها)، قال العجلوني في كشف الخفاء الحديث مشهور المتن وله أسانيد كثيرة وشواهد عديدة في المرفوع وغيره.

والذي يحكم الأمر هنا هو التقوى، فإذا اتقينا سنبحث عن الحق لذاته، سواء كان الحق معي أم معك، فلا يضيرني ذلك، لأني أريد أن أرضي الله.

هذه ضمانات ثلاثة مهمة جدا لكي يمضي بها الركب الإسلامي وهو مطمئن.

منهج التفكير الجاهلي يحرر العقل من كل الضوابط ويقدم العقل على الوحي

وفي الجاهلية لا يكون الأمر كذلك.. فالجاهلية -حتى لو اجتمعوا- لا تحكمهم التقوى، ويتربص بعضهم ببعض، وينتهزون الفرص لتسوية الحسابات حينما تنتقل السلطة من فرد إلى فرد.. فالذي يجمع الجاهلية هي السلطة والقوة والخوف، فإذا تغيرت مراكز القوى ينقلب بعضهم على بعض، ويبدأ تصفية الحسابات. لكن في المجتمع المسلم لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك.. لأن الجميع يتعاملون مع الله سبحانه وتعالى، ولذلك هم يتقون الله، ويتعاونون في رؤية الحق من خلال الرجوع والبحث والتحري في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يكون البحث والتحري انتقائيا، بحيث ننتقي ما يؤيد وجهة نظرنا المسبقة، وإنما يكون بحثنا شاملا كاملا لكي نصل إلى الحقيقة، بعد أن نستجمع كل وسائل البحث، وبعد أن نجمع كل النصوص في المسألة، ونستلهم الله العون، ثم نبحث ونصل مجتمعين إلى الحق.

هذا هو منهج التفكير الذي يقول عنه الأستاذ سيد؛ أنه كما جاء الإسلام ليغير أفكارنا، فإنه جاء قبل ذلك ليغير منهج التفكير. وهذه نقطة من أروع النقاط التي أبرزها الأستاذ سيد، والتي ينبغي أن ندركها. وهذا ليس فقط على المستوى الجماعي، وإنما أيضا على المستوى الفردي.. فحينما يكون لي سلوك شخصي، والجماعة تراني مخطئا، أو ترى رأيا غير ذلك، ينبغي أن أخضع لرأي الجماعة.. حينما أختار وظيفة والجماعة لا تريدني أن أعمل فيها، عليّ أن أترك الوظيفة.. حينما أختار مكانا لأعمل فيه والجماعة ترى في ذلك خطرا على نفسي، أو على أسرتي، أو على ديني، أو على جماعتي، فعليَّ أن أغير ذلك المكان مهما كانت رؤيتي أنا للمسألة، ومهما كان تصوري للفوائد التي سأجنيها من وراء هذا، فرأي الجماعة أصوب وأكرم وأكثر بركة حتى في صميم خصوصياتي، حتى لو أردت أن أتزوج قد يكون للجماعة تدخل في هذا؛ فقد تقول لي أن هذه المرأة لا تنفعك، أو هذه المرأة لها أخطارها عليك وعلى الجماعة.. وكذلك في مجال عملك؛ إذا قالت لك هذا المجال صعب لا ينبغي أن تدخل فيه، اسمع رأي الجماعة.. حينما تقول لك إنك أخطأت في مجال عملك في كذا وكذا، تسمع رأي الجماعة.. هنا نكون قد فهمنا الإسلام حقيقة. فلا نأخذ الأمور أخذا سطحيا وعاما ونقول: منهج التفكير المقصود به هي حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وضرورة الجماعة، وكذا.. لا.. ليس فقط، وإنما منهج التفكير في التعامل مع كل أمورنا، صغيرها وكبيرها، وبذلك نكون مجتمعا ربانيا.. حينما أختلف مع زوجتي لا أرغمها على رأيي الشخصي، وإنما أعيدها إلى منهج الله عز وجل، وأتفق معها على منهج الله، ونبحث القضية شرعيا، ثم بعد ذلك حينما تكون هي تقية، وأنا تقي، أختار أنا الرأي النهائي باعتبار أني صاحب القوامة التي تعترف هي بها. وبذلك لن نختلف، فلست أنا الذي أقرر ما تسير عليه زوجتي، وما يسير عليه أولادي.. لست طاغوتا مستقلا عن منهج الله، أنا عبد لله.. عبد وأنا أب.. عبد وأنا زوج.. عبد وأنا رئيس عمل.. عبد وأنا جندي.. عبد وأنا قائد. أفعل ذلك كله، وأرجع كل شيء لله، حتى يتعود الأولاد من صغرهم حينما نختلف في قضية أن نرى ما هو حكم الله.. وهذا هو التعبير الذي كان يجري على لسان المسلمين في الماضي.. أي خلاف في شيء يقولون نريد أن نرى حكم الله في الموضوع.. فالأمر لا يكون بتذوقاتنا ولا بأمزجتنا.. فمنهج التفكير يدخل في كل صغيرة وكبيرة، وليس في مجالات الحياة الكبيرة فقط.

خاتمة الفصل: أصالة المنهج

"فإذا نحن عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيّناه، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل، وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الأولى، إنما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين -في أي وقت- إلا به."

وتعبير **"لا يقوم بناء هذا الدين -في أي وقت- إلا به"** يعني في النقطة التي يلتقي بها الدعاة مع الواقع.. فإذا كان المجتمع في نقطة الجاهلية البحتة نبدأ معه من نقطة الصفر، وإذا التقينا مع المجتمع وقد رضي بالإسلام لكنه متخلف في التطبيق فيكون المطلوب هو تعميق العقيدة حتى تؤدي إلى التطبيق الصحيح، ولو كان المجتمع يطبق تطبيقا صحيحا لكنه ناقص يكون في حاجة إلى علاج وإصلاحات.. فمن حيث النقطة التي تلتقي فيها مع المجتمع كداعية وكمصلح تأخذ بالمنهج الإسلامي؛ سواء من نقطة البداية، أو من أي نقطة في الطريق.

"إنه لم تكن وظيفة الإسلام أن يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب، ولكن كانت وظيفته كذلك أن يغير منهج تفكيرهم، وتناولهم للتصور وللواقع، ذلك أنه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمناهج البشر القاصرة الهزيلة.

ونحن لا نملك أن نصل إلى التصور الرباني وإلى الحياة الربانية، إلا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك، المنهج الذي أراد الله أن يقيم منهج تفكير الناس على أساسه، ليصح تصورهم الاعتقادي وتكوينهم الحيوي."

فالحياة الربانية لا تتحقق إلا من خلال منهج التفكير الرباني، ولذلك لا بد للداعية أن يغير تفكير الناس حتى يفهموه، فيبدأ من النقطة الأولى؛ نقطة أن هناك خالقاً ورباً لهذا الكون، فإذا أقروا بهذه القضية يرتب عليها التساؤل: هذا الخالق ورب الكون الذي هو سيده ومالكه.. لماذا خلق هذا الكون؟ ولماذا خلقكم؟ فلا بد أن يرتب تفكيرهم لكي يفهموه.

لكن حينما يأتي ليخاطبهم فيقول لهم: افعلوا كذا أو لا تفعلوا كذا.. لن يفهموا هذه الأمور، فلا بد -لكي نقيم حياة ربانية- أن يكون المنهج ربانيا كذلك.

"نحن، حين نريد من الإسلام أن يجعل من نفسه "نظرية" للدراسة، نخرج به عن طبيعة منهج التكوين الرباني، وعن طبيعة منهج التفكير الرباني كذلك، ونخضع الإسلام لمناهج التفكير البشرية!كأنما المنهج الرباني أدنى من المناهج البشرية!وكأنما نريد لنرتقي بمنهج الله في التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد!"

وهذا الأمر تحدثنا عنه حينما تحدثنا في الجزء الأول من هذا الفصل عن أن المنهزمين أمام الجاهلية يحاولون أن يقنعوا الجاهلية من خلال مناهج الجاهلية، فيغيرون المنهج الإسلامي في الدعوة وفي البلاغ، وفي عرض الأمور، وفي ترتيب الخطوات، ليتوافق مع مناهج الجاهلية، ليقولوا لهم إننا مثلكم، ونفكر مثلكم، ونخطط مثلكم.. ديمقراطيون مثلكم، ونقدم لكم تشريعات، ونقدم لكم حلول لأزمات المجتمع كما تقدمون.. فكأنهم يغيرون منهج الله ليتوافق مع منهج العبيد، كأن منهج العبيد أعلى ومنهج الله هو الأدنى، وهذا أمر لا يجوز أن تقع فيه الجماعة المسلمة.. لأن **"الأمر من هذه الناحية يكون خطيراً، والهزيمة تكون قاتلة."**

فالمنهج الإسلامي في التفكير يحقق لنا أشياء كثيرة جدا، ونحن متمسكون به.

فهو أولا يشفينا ويبرئنا من رواسب المناهج الجاهلية.. فهو يطهرنا ويجعلنا نلقي بالمقررات الجاهلية خلف ظهورنا لنتلقى من المصدر الحق والمصدر المضمون، وهو بهذا يشفينا من تلك الأفكار الغريبة على فطرة الإنسان، وعلى كيان الإنسان. فمنهج التفكير الإسلامي يشفي الإنسان، ويجعله يبرأ من رواسب مناهج التفكير السائدة في الأرض، والتي تضغط على عقولنا وتترسب في ثقافتنا من خلال حياتنا في المجتمع الجاهلي.

وحينما نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غربي أو جاهلي نفقد الأمرين معا؛ نفقد الرؤية الصحيحة لهذا الدين، ونحرم أنفسنا أيضا من الاهتداء بهذا الحق. ونكون بهذا قد فقدنا كل شيء. ولا شك أن الأمر يكون من هذه الناحية خطيرا، والخسارة تكون قاتلة.. حينما نخطئ فهم الإسلام، ونخطئ تطبيقه كذلك، ومن ثم نخطئ العيش به.. فنُحرم من بركات هذا الدين.

فلا بد أن نتمسك بمنهج التفكير الذي جاء به الإسلام، ليضع لنا منهج تفكير خاص، لأنه هو الضمان الوحيد لكي نرى الحق حقا، ونرى الباطل باطلا، ونرى الصواب صوابا، ونرى الخطأ خطأ، بهذه الضمانات الثلاثة التي ذكرناها؛

الضمان الأول: وهو أن يكون مرجعنا هو الله.. من خلال الوحي.

والثاني: أن يد الله مع الجماعة، فلا يستقل فرد منا بتفكيره وحده، وإنما ينبغي أن ينصاع لرأي الجماعة ويتبناه، بعد أن ينصح ويبين ويناقش.

والثالث: أن يتقي الله، في ألا يخضع أي شيء لهواه، وإنما يتخلص ويتجرد، ليختار، ويُعين الجماعة أن تختار الرأي الصحيح.

"إن منهج التفكير والحركة في بناء الإسلام، لا يقل قيمة ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي، ولا ينفصل عنه كذلك." فكل شيء يأتي من عند الله هو قيمٌ في ذاته، ومهمٌ في ذاته، وكل شيء يأتينا من الله لا بد أن نوقره، وأن نضعه في مكانه، وألا نتنازل عنه أو نهمله، ولو جاء في الدرجة الثالثة أو الرابعة من حيث ترتيب الأولويات.. لكن حسبه أنه من عند الله لنتلقاه بالتسليم والقبول، فنحل ما أحل الله، ونحرم ما حرم الله، ونقدم ما قدمه الله، ونؤخر ما أخره الله.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [الحجرات: ١].

عرض الإسلام في صورة نظرية لن ينشئ الإسلام من جديد

"ومهما يخطر لنا أن نقدم هذا التصور وهذا النظام في صورة تعبيرية، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن هذا لا ينشئ "الإسلام" في الأرض في صورة حركة واقعية، بل يجب ألا يغيب عن بالنا أنه لن يفيد من تقديمنا الإسلام في هذه الصورة إلا المشتغلون فعلاً بحركة إسلامية واقعية.."

وهذه النقطة معناها أنه مهما كان العرض رائعا جدا فلن يستفيد منه إلا الذين يتحركون بالإسلام. وهذه نقطة مهمة؛ إن الذي يقرأ الإسلام، وهو لا يتحرك به، ولا ينشغل به، ولا هو في حركة لإقامة الإسلام ولا لتغيير نفسه، سيقرأه على أنه ثقافة وفكر جميل وتعبيرات رائعة، كما قرأنا نحن الظلال قبل ذلك، وكما قرأنا كتب الأستاذ المودودي أكثر من مرة.. فقد قرأناها، لكن لم نكن نتلقاها تلقياً جديداً.. كنا نتلقاها بالمصطلحات القديمة التي تلقيناها ونحن في الإخوان.. لكن عندما بدأنا نقرأها برؤية جديدة، وبمدلولاتها الحقيقية التي عناها الأستاذ

سيد أو الأستاذ المودودي، وجدنا رؤية أخرى. وهذا من خلال أننا نسعى إلى تغيير واقعنا من الجاهلية إلى الإسلام. فمهما كان العرض عظيماً ورائعاً لن يلتفت إليه ولن ينتفع به إلا المشتغلون بالإسلام، وبقدر انشغالهم بقدر فهمهم لهذا الإسلام. فإذا كانوا قد باعوا أنفسهم تماما لله، ورضوا بالله رباً وإلهاً وسيداً، سينتفعون الانتفاع الكامل. أما إذا كانوا يأخذون الإسلام ممزقاً، أو يأخذونه محصوراً في صورة معينة، أو في درجة معينة فلن يستفيدوا منه..

فكما يقول الأستاذ سيد: **"وأن قصارى ما يفيده هؤلاء أنفسهم"** أي هؤلاء المشتغلون بالحركة الإسلامية **"من تقديم الإسلام لهم في هذه الصورة"** أي هذه الصورة التعبيرية الرائعة **"هو أن يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا هم إليه فعلاً في أثناء الحركة."** ولهذا نجد الإخوان يقرأون كتب الأستاذ سيد ولا يفهمون منها شيئا.. ويقرأون كتب الأستاذ المودودي ولا يفهمون منها شيئا.. ليس لأنهم أغبياء، ولكن لأنهم لم يقرروا أن يتغيروا مع الحق، ويدوروا معه حيث دار، ولأنهم يقابلون ما يقرؤون بمقررات سابقة تحصرهم في هذا القفص الذي لا يستطيعون الخروج منه، ولذلك لا ينتفعون، بل يؤولون القضايا الصريحة الواضحة، والتعبيرات الشديدة الوضوح حسب مفاهيمهم، أو حسب مقرراتهم أو أصولهم التي كانوا عليها.

ويؤكد هذه الحقائق مرة أخرى بتعبيره المليء بالثقة والإصرار على هذه الحقائق: **"ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلاً صحيحاً وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي.**

ومرة أخرى أكرر كذلك أن هذا هو المنهج الطبيعي للإسلام الرباني، وأنه منهج أعلى وأقوم، وأشد فاعلية، وأكثر انطباقاً على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشتغلين فعلاً بحركة واقعية، وقبل أن يكونوا هم أنفسهم ترجمة حية، تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري."

هذه الثقة والطمأنينة والاستعلاء والإصرار مهم جدا أن يكون جزءاً من البناء النفسي للداعية الذي يدعو إلى الله عز وجل، فلا يكون مستعدا للمساومة، وليس مستعدا لأن يتنازل عن شيء لكي يسترضي الآخرين، أو ليكسب أرضا جديدة أو ناساً جدد. فمهم جدا أن يصر على موقفه، وهذا هو الذي يأتي بالناس، وليس العكس. فتنازل الداعية لا يأتي بالناس، وإنما يصرفهم عن الحق، وإن جمعهم حول شخص الداعية. فإذا كنا نريد أن نجمع الناس حول الحق فلا بد أن نُصر على الحق حتى ولو بعدوا عنه زمنا من الوقت، لكنهم سيعودون إليه.

خدعة جاهلية

ويقول: **"وإذا صح هذا في أصل النظرية فهو أصح بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم أسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الإسلامي.."** فقضية عدم التنازل عن المنهج مهمة جدا، وكذلك قضية المطالب التي تطلبها الجاهلية في أن نقدم لهم حلولا لمشكلاتهم التي يعانونها، ونقدم لهم مناهج مسبقة لكل ناحية من نواحي الحياة في حياتهم، فتضغط بذلك على أصحاب الدعوة الإسلامية فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الإسلامي، وهي -أي الجاهلية كما يقول- تتعمد أن تحرجهم فتسألهم: أين تفصيلات

نظامكم الذي تدعون إليه؟ ماذا أعددتم لتنفيذه؟ وأين دراسات الفقه؟ وأين.. وأين.. وهو يسخر من هذا ويقول: **"كأن الذي ينقص الناس في هذا الزمان لإقامة شريعة الإسلام في الأرض هو مجرد الأحكام الفقهية والبحوث الفقهية الإسلامية. وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله راضون بأن تحكمهم شريعته، ولكنهم فقط لا يجدون من "المجتهدين" فقهاً مقنناً بالطريقة الحديثة!وهي سخرية هازلة يجب أن يرتفع عليها كل ذي قلب يحس لهذا الدين بحرمة!"**

فلا شك أن السير معهم خطوة في هذا الأمر هو تقليل من جدية الداعية، وتعريض للإسلام ومنهجه إلى السخرية، لأن معنى ذلك أنك قبلت هذه الخدعة التي يريدون أن يخدعوك بها؛ أن الناس مستسلمون وراضون وفرحون ومنتظرون فقط، والذي ينقصهم أن يقال لهم هذا حلال وهذا حرام.. وهذا كذب بطبيعة الحال، لأن الحرام معروف، وأساسيات الدين معروفة بين الناس، وهم يخالفونها متعمدين، لأنهم اختاروا الجاهلية على الإسلام، فلا بد أن يعودوا للإسلام أولا، ثم يقال لهم ماذا يريد منهم الإسلام.

وإذا كان هذا الطلب منطقيا مع مناهج البشرية ومع الأحزاب البشرية، فهو ليس منطقيا مع الله، لأن الله أعظم وأجل من أن يُسأل: ماذا تريد منا؟ أو ماذا ستصنع لنا؟ أو نريد أن نطمئن إلى ما سيكون في حياتنا قبل أن نتبع ونطيع.. لأن الله يُعبدَ لذاته، ويُطاعَ لذاته، ثم أن في طاعته سبحانه الخير كل الخير للبشرية. فهذا السؤال لا يجوز مع الله حتى وإن جاز مع بقية المناهج البشرية. ولذلك لا يجوز لدعاة الإسلام أن يخضعوا لهذه المناورة على الإطلاق.

"إن الجاهلية لا تريد بهذا الإحراج إلا أن تجد لنفسها علة في نبذ شريعة الله، واستبقاء عبودية البشر للبشر.. وإلاَّ أن تصرف العصبة المسلمة عن منهجها الرباني، فتجعلها تتجاوز مرحلة بناء العقيدة في صورة حركية، وأن تحول منهج أصحاب الدعوة الإسلامية عن طبيعته التي تتبلور فيها النظرية من خلال الحركة، وتتحدد ملامح النظام من خلال الممارسة، وتسن فيها التشريعات في مواجهة الحياة الإسلامية الواقعية بمشكلاتها الحقيقية."

هذا هو المنهج الإسلامي، ولكن الجاهلية تأتي لتفسد هذا كله، وتريد أن تجعل الجماعة المسلمة تقدم لها نظرية، وتضع لها حلولاً لمشكلات وهمية لا صلة لها بالواقع الإسلامي الذي تنشئه العقيدة، لكي يصرفوا المسلمين عن منهجهم الأصيل. فإذا استجاب المسلمون لهذه المناورة يصبحون على خطر عظيم.

"ومن واجب أصحاب الدعوة الإسلامية ألا يستجيبوا للمناورة!من واجبهم أن يرفضوا إملاء منهج غريب على حركتهم وعلى دينهم!من واجبهم ألا يستخفهم الذين لا يوقنون!" وفي كثير من الأحيان نستحي في أثناء الحوار مع الجاهلية، أو نخجل، أو نخشى إذا نحن رفضنا رفضا باتا الاستجابة لهم بدون إبداء الأسباب، أو عندما يسألون حل المشكلات فنقول: ليس عندنا.. فنخشى أن يكون هذا معناه أن عندنا فقراً في العلم، أو أنه يعني عدم واقعية المنهج الذي ندعو إليه، فنستجيب للمناورة. لا يجب أن نستجيب.. يجب أن نرفض باستعلاء وبإصرار، مهما قالوا عنا إننا جهلة، أو إننا مستكبرون لا نقبل الرأي الآخر، أو إننا مستبدون.. إلى آخر هذه الاتهامات التي تلوكها الجاهلية لتشوه موقف المسلمين، ولتخيفهم، ولكي تضغط على أعصابهم. ينبغي ألا يستخفنا الذين لا يوقنون.

"ومن واجبهم أن يكشفوا مناورة الإحراج، وأن يستعلوا عليها، وأن يرفضوا السخرية الهازلة فيما يسمى "تطوير الفقه الإسلامي" في مجتمع لا يعلن خضوعه لشريعة الله ورفضه لكل شريعة سواها. من واجبهم أن يرفضوا هذه التلهية عن العمل الجاد.. التلهية باستنبات البذور في الهواء.. وأن يرفضوا هذه الخدعة الخبيثة!"

فمهم جدا أن نسمي الأسماء بمسمياتها؛ أنها سخرية، وأنها تلهية، وأنها مناورة، وأنها محاولة للإحراج. فإذا فهمناها هكذا سهل علينا ألا نستجيب للمناورة، وسهل علينا أن نستعلي عليها، وسهل علينا أن نكشفها، وأن نرفضها بصورة قوية.

أما إذا لم نكن نفهم معنى الخدعة، ومعنى التلهية، ومعنى المناورة، ومعنى السخرية، ولم نكن نفهم منهجنا بشكل أصيل، فيمكن جدا أن يسحب البساط من تحت أقدامنا ونحن غافلون. فمهم جدا أن نكون على وعي وعلى إدراك جيد بحقيقة القضية. وبالتالي نسميها سخرية ونعلم لماذا هي سخرية.. ونسميها خدعة ونعلم لماذا هي خدعة.. ونسميها مناورة للإحراج أو مناورة لسحبنا عن طريقنا وسحبنا من القاعدة التي نقف عليها إلى قاعدتهم. إذا فهمنا كل هذا سيكون من السهل جدا أن نرفض مناوراتهم، وأن نكشفها، وأن نسخر منها، وأن نستعلي عليها، وأن نحرجهم بدل أن يحرجونا، وأن نستعلي عليهم بدل أن يخيفونا ويضغطوا علينا. وبدون ذلك لن نكون دعاة أبدا، لأن الداعي إلى الله ينبغي أن يكون واثقا ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٨].. ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون: ١-٣].. بهذا المنطق المستعلي المدرك لحقيقة الأشياء نستطيع أن نُبلّغ ما أمرنا به.

المنهج الرباني لهذا الدين هو سر قوته

"ومن واجبهم أن يتحركوا وفق منهج هذا الدين في الحركة. فهذا من أسرار قوته. وهذا هو مصدر قوتهم كذلك."

وهذا أيضا مهم جدا؛ أن ندرك أن المنهج الرباني هو الذي يحقق الإسلام، وهو الذي يعطي للعقيدة القوة والمضاء والنماء، وهو أيضا مصدر قوتنا نحن، حيث نكون أكثر ثقة وأكثر استقرارا، وأكثر ضمانا لنصر الله ولمعية الله ولاصطفاء الله لنا.. فالمنهج الرباني هذا هو سر قوة هذا الدين، وسر قوتنا أيضا. بحيث إننا حينما نلتزم بمنهج الله نطمئن أننا مستندون إلى مصدر الحق وإلى السند الحقيقي.

المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة

وأخيرا يقول **"إن "المنهج" في الإسلام يساوي "الحقيقة". ولا انفصام بينهما. وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية، والمناهج الغربية يمكن أن تحقق أنظمتها البشرية، ولكنها لا يمكن أن تحقق منهجنا. فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام في كل حركة إسلامية.."**

ولهذا نرى أن الذين يريدون أن يطبقوا الإسلام عن طريق الديمقراطية، أو عن طريق الديكتاتورية، أو عن طريق الثيوقراطية، أو عن أي طريق آخر غير المنهج وبغير المراحل وبغير الخطوات التي مر بها رسول الله ﷺ لا بد أن يفشلوا، ولا بد أن يصدوا الناس، حتى عن سبيل الله، لأنهم حينما يفشلون، وحينما يضطرون إلى ممارسات في غير موعدها وفي غير وقتها، فهم يشوهون حقيقة الإسلام.. حينما يقتلون في غير موعد القتل وفي غير زمن القتل.. حينما يَسْبُون في غير وقت السبي.. حينما يواجهون الملوك والحكام في غير موقع الخطاب لهم.. حينما يتعجلون الخطوات ويخالفون المنهج هم يصدون عن سبيل الله.

أما حينما يلتزمون بالمنهج وهم مستعلون واثقون، وحينما لا يستجيبون لمناورة الجاهلية الخبيثة ولا لخدعتهم، ويعرفون أنها تلهية وسخرية، حينها سيكسبون، ويضمنون النصر في النهاية.. وإذا لم ينتصروا فسيذهبون إلى الله وقد وفوا ما عليهم ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧].. وإبراهيم لم يبن دولة، ولا أنشأ نظاما.. ولكنه وفّى.. (ويأتي النبي وليس معه أحد)[١٣] ويكون هذا النبي أيضا قد وفّى.. فليس بالضرورة أن يستجيب لنا الناس، وليس بالضرورة أن يزيد عددنا، وليس بالضرورة أن تنتصر الجماعة وتصل إلى التمكين، ولكن الشيء الوحيد المهم أن نكون متوافقين مع التصور الحق، ومع المنهج الحق، ومع منهج التفكير الحق، بحيث -حينما نصل إلى الله- نقول قد فعلنا ما أمرتنا يا ربنا فاستجب لنا كما وعدتنا.. وبهذا نضمن الفلاح.. أما إذا أعملنا عقولنا القاصرة، وأعملنا أهواءنا، وانخدعنا بالتلهية وبالسخرية وبالخدعة وبالمناورة، وإذا حاولنا أن نجتهد في غير موضع الاجتهاد، وإذا لم نلتزم بالمصدر والمرجع النهائي، ولم نلتزم بالجماعة كضمان، ولم نتق الله في كل شيء، فإنه لا ينبغي أن نلوم إلا أنفسنا.

فهذه الأمور ينبغي أن تكون مفهومة وواضحة ومستيقنة. إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة، وبالتالي إذا التزمنا بالمنهج فقد ضمنا ولاية الله عز وجل، وأكثر الجماعات التي نرى أنها لا تصل إلى شيء -بصرف النظر عن إخلاصها أو رغبتها الحقيقية- يكون السبب أنها لم تلتزم بالمنهج.. فإما أنها لم تفهم المنهج ومن ثم لم تلتزم به، أو فهمته ولم تعره جدية كاملة، أو استعجلت، أو أي شيء آخر. المهم أنها تركت الحقيقة. (إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة)، وبذلك يكون التنازل عن المنهج هو تنازل عن الحقيقة..

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

---

١٣ رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الثالث

شروح

كتاب

معالم في الطريق

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
الموكب الكريم والرسالة الخاتمة: وحدة الهدف والعقيدة والمنهج ١
تاريخ الإنسان وخطورة داء الكبر ٣
بساطة ووضوح دعوة الحق على مدار التاريخ ٤
ليس المطلوب من الدعاة إثبات الحق وإنما الثبات على الحق ٧
صور الشرك بالله في واقعنا المعاصر ٨
إسلام العباد لرب العباد هو هدف الدعوة ٨
الاستسلام لله يضمن التناسق بين الجانب الإرادي والجانب الفطري في الإنسان ١٢
ضرورة نشأة المجتمع المسلم ١٤
الجاهلية واقع حي وليست مجرد نظرية فلن تقوضها فكرة مجردة ١٥
قاعدة الإسلام النظرية "لا إله إلا الله" بمدلولها الشامل تمثل ثورة على الباطل ١٨
الرسل جاؤوا ليردوا السلطة إلى الإله الواحد ٢٠
مدلول الجاهلية ٢١
المنهج الإلهي وحده يحقق التوازن للإنسان ٢١
مصطلح الجاهلية في القرآن وإسقاط ذلك على الواقع ٢٤
سمات المجتمع الجاهلي ٣٣
شرعية قيام المجتمع المسلم ٣٧
الجاهلية تجمع بشري عضوي يقوم على أساس باطل ٣٨
التدافع والصراع بين الحق والباطل لا يتم بنظريات مجردة ٣٩
قاعدة الإسلام "لا إله إلا الله" بحقيقتها المتكاملة ٤١
كيف عالج منهج الأنبياء هذه القضية ٤٢
الإيمان بالله بدهية عقلية وضرورة فطرية ٤٦
الدليل الشرعي على الألوهية الواحدة ٤٩
أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول قضية الحاكمية ٥٤
معنى كلمة الحكم ٥٧
القوانين المعاصرة ومخالفة شرع الله ٦٥
الشبهات والمغالطات في مسألة كفر من ترك الحكم بما أنزل الله ٦٧
متى يكون الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا كفرا لا يخرجه من الملة؟ ٧٥
موقف عامة الناس ٧٨

عوامل ترويج المبطلين لقضية الحكم بغير ما أنزل الله ٨٠

ما الذي يجب أن نفعله إزاء قضية الحكم بما أنزل الله؟ ٨١

قضايا هامة متعلقة بنشأة المجتمع المسلم ٨٣

المسلم النظري والانخراط في الجاهلية ٨٤

حكم المجتمعات القائمة اليوم والعقبات أمام الدعاة ٨٦

هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات؟ وقضية العذر بالجهل ٨٨

شروط شهادة ألا إله إلا الله ٩٨

تطبيق القواعد السابقة على الواقع المعاصر ١٠٢

الخاتمة: كيف يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى في واقع الأرض ١٠٣

نشأة المجتمع المسلم وخصائصه

مقدمة

نتحدث في هذا الفصل عن نشأة المجتمع المسلم، وعن خصائصه.. ولا شك أن هذا موضوع جديد، تتجسم من خلاله العقيدة، وتتجسم من خلاله طريقة القرآن في إيجاد المجتمع الإنساني الذي يتلقى هذه العقيدة، ثم ينشغل بها وينفعل، ويتجاوب معها. ومن خلال هذا التفاعل وهذا التجاوب يتحقق ارتفاع البشرية -كما يريد لها الله عز وجل أن ترتفع- من حمأة الجاهلية، ومن مستنقع الجاهلية، ومن سفح الجاهلية، إلى قمة جديدة يريد الله أن تُحقَق من خلالها أشياء عديدة وجديدة سيأتي ذكرها في الحديث عن نشأة المجتمع المسلم وعن خصائصه. وحينما نتحدث عن نشأة المجتمع المسلم وخصائصه نحس أننا نقف على مشارف التاريخ الإنساني.. كيف بدأ؟ وكيف تحقق من خلاله ومن خلال حركته الهدف الرباني الذي من أجله خلق الله الإنسان؟ فالتاريخ الإنساني بدأ منذ اللحظة الأولى بداية صحيحة، حينما خلق الله عز وجل آدم -عليه السلام- وحواء لكي يكونا أول ممثلين للمجتمع الإنساني.

وكما نعلم من خلال العرض القرآني كيف أن الله عز وجل كلف آدم وحواء منذ اللحظة الأولى بتكوين الجماعة المسلمة ودعاهما إلى اتباع المنهج الرباني، وبين لهما من خلال التجربة الأولى التي عاشاها في الجنة كيف يتعرفان على نقاط القوة ونقاط الضعف فيهما، وكيف يتعرفان أيضا على العدو المتربص بهما؛ سواء من داخل نفوسهما، أو من خارجها ممثلاً في إبليس، وكيف أن آدم وحواء تعلما من خلال هذا الدرس حقائق كثيرة جدا يجب أن نذكرها حينما نتحدث عن المجتمع المسلم وعن خصائصه وكيف تكّون هذا المجتمع المسلم. ففي الحقيقة هذا الفصل يقف بنا على مشارف التاريخ البشري منذ اللحظة الأولى التي كُلف فيها آدم أن يقود المسيرة البشرية، أو دُعي ليكون هو الأب الأكبر الذي قامت ذريته بعد ذلك لتؤدي هذه المهمة إلى يوم الدين.

الموكب الكريم والرسالة الخاتمة: وحدة الهدف والعقيدة والمنهج

يقول الأستاذ سيد هنا في بداية الفصل **"إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول الله ﷺ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام.. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً: هو تعريف الناس بإلههم الحق وربهم الحق.."**

فهذه الدعوة الأخيرة على يد هذا الرسول الخاتم ﷺ كانت تمثل الحلقة الأخيرة لهذا الموكب الطويل المتطاول لحياة الدعوة الإسلامية. وهذا ما يدعونا أن نتحدث عن تاريخ الإنسان، وكيف أنه منذ أن خلق.. خلق ليكون خليفة في الأرض. وهذه

الحقيقة تدحض وتبطل ما يسمى بعلم تاريخ الأديان وتاريخ مقارنة الأديان كما يدّعونه ويفرضونه في الجاهلية، وتبطل أيضا التاريخ الذي يقولونه عن نشأة الإنسان؛ من أن الإنسان لم يخلق منذ اللحظة الأولى إنسانا، وأنه لم يُخلق أيضا ليكون منذ اللحظة الأولى متميزاً بإنسانيته، وأنه تطور في سلم الأحياء، أو تطور في التصور العقلي، أو تطور في إدراكه الديني إلى أن وصل في مرحلة من المراحل إلى تصور الإله الواحد وفكرة التوحيد.. هذا الكلام الذي يقوله علماء مقارنة الأديان، ويقوله فلاسفة الغرب، ومن يسير وراءهم من المضللين في العالم الإسلامي.

هذا القول باطل، لأن الله عز وجل الذي خلق الإنسان.. قرر من قبل أن يخلقه أن يكون له دور ضخم جدا في الأرض، وأن هذا الدور دور متميز لم تكلف به خليقة أخرى، لذلك بدأت سلسلة النبوات بآدم -عليه السلام- وانتهت برسول الله محمد ﷺ، ليكون الموكب كله قد جاء ليحقق نفس الهدف ونفس العقيدة ونفس المنهج، لكي يتحقق مراد الله عز وجل حينما خلق هذا الإنسان. وكما جاء في سورة البقرة بعد أن استعرض القرآن أحوال أصناف البشرية؛ المؤمنين والكافرين والمنافقين، ثم بيّن الله لنا في صدر السورة أن الناس مدعوّون إلى عبادة الله عز وجل لعلهم يتقون، ومنَّ عليهم بخلقهم، وأنه سبحانه قد هيأ لهم هذا الكون كله ليكون في خدمتهم، ثم تحداهم بهذا الحق وبهذا القرآن أن يأتوا بمثله، ويأّسهم يأسا كاملا من أن يستطيعوا أن يفعلوا بعد هذا كله فقال سبحانه:﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فكانت هذه القضية منذ اللحظة الأولى واضحة بينة.. ثم عقَّب بعد ذلك بالحديث عن آدم -عليه السلام- وعن خلق آدم -عليه السلام- ليقرر أن هذه الأصناف الثلاثة، وهذه الحقائق الأولى التي عرضها القرآن كانت مقدمة للحديث عن مهمة آدم ومهمة الكائن الإنساني.. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].. إلى آخر الآيات التي انتهت بقوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].. فالمنصب الذي كُلِّف به آدم -عليه السلام- هو منصب الخلافة في الأرض، وهو منصب متميز.. لم تدرك الملائكة معناه في أول الأمر.. وحتى لو أدركت معناه وأدركت خطورته فهي لم تر أن ذلك الجنس البشري الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض جدير بهذا التكريم. ولكن الله عز وجل رد عليهم ردا مقتضباً واضحاً وحاسماً ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣٠-٣١].. وهذا العلم هو العلم المطلوب الذي يريد الله أن يتحلى به آدم وذريته، وهو العلم الذي يمكِّنهم من القيام بالخلافة في الأرض.. والملائكة ليسوا مهيئين لهذا الأمر، ولذلك لم يؤتَوْا العلم الذي يهيئهم لهذه الخلافة.. ولكن آدم وذريته هم الذين كان عليهم أن يتعلموا.. فيعلمهم الله عز وجل ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].. فالله هو الذي علم آدم الأسماء كلها. وكما يقول المفسرون أنه علَّمه كل شيء مما كان يحتاجه في نزوله إلى الأرض.. فليس الأمر -كما تقول الجاهلية وعلماء الأديان المقارنة- أن الإنسان كان لا يعرف اللغة وأنه كان يتكلم بالإشارة.. كل هذا باطل.. فكما أخبرتنا السنة النبوية أن آدم منذ أن نفخت فيه الروح كان أول ما فعل أنه عطس، فألهمه ربه أن قال الحمد لله، فقال له ربه يرحمك الله[١]..

---

١ الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

تاريخ الإنسان وخطورة داء الكبر

فالإنسان متميز منذ اللحظة الأولى. وكما رأينا أن الله عز وجل بيّن لآدم أن له عدوا هو إبليس، وأن هذا العدو أبى واستكبر، وأن أول جريمة، أو أول داء ركّز الله عليه في بداية الحياة البشرية هو داء الكبر.. داء الاستكبار على الله عز وجل.. لأن إبليس قد ارتكب أول معصية لتكون معروضة على الجنس البشري؛ وقد ارتكب إبليس جريمته العظمى هذه على الرغم من أن كل دواعي الاستسلام والتعظيم والعلم، الباعثة علي العبادة كانت عنده.. إلا أنه استكبر.. فقد كان إبليس من العلم وكان من العبادة حتى نافس الملائكة في هذا، وكان يخاطب الله رب العالمين، وكان يعلم أن الله هو الذي كلّفه وأمره بالسجود لآدم -عليه السلام- ومع كل هذا العلم وكل هذه العبادة وكل هذا المقام، كان هناك ذلك الكبر في نفس إبليس، والذي لم يقف أمامه أي حاجز من هذه الحواجز التي كان ينبغي أن تخيفه حينما يعلم أنه يخاطب رب العالمين، وأن الله هو الذي أمره، وأن الملائكة كلهم سجدوا، وأن هذا مراد الله عز وجل، وهو على علم بهذا.. إلا أن هذا كله لم يمنعه أن يتجاوز حده، وأن يستكبر، وأن يعارض الله عز وجل، ويحتج على الله ويقول ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].. ثم بعد ذلك حينما يصر على ألا يسجد يستنظر الله، ويصر على أن يتحدى الله عز وجل ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]..

فمهم جداً أن نفهم كيف بدأ التاريخ الإنساني بهذه الجولة الأولى.. جولة الكبر على الله، لكي نفهم ونحن في خضم السير في هذه الأرض وكما كررت دائما قبل ذلك أن من أخطر أدواء البشرية الكبر.. الذي هو الإحساس بالذات.. أو هو تضخم الذات كما نعبر عنه. فلا شك أن هذا الأمر لا يوقفه شيء.. لا العلم يوقفه، ولا ممارسة العبادة توقفه، ولا أي شيء يوقفه. فحينما تنتفخ في نفس الإنسان ذاته، وحينما تتطلع إلى شيء تريده فإنه لا يوقفها شيء ويغذيها الحسد والحنق والحقد، فتقف معارضة لله عز وجل. وهذا ما نراه دائما في المستكبرين، وفي المنحرفين، وفي الذين يلبسون الحق بالباطل من أجل ذاتهم ومن أجل نفوسهم..

لذلك كان هذا الدرس، وكان هذا الترتيب في أولويات المخالفة، كان ترتيبا طبيعيا يعرضه الله عز وجل على البشرية منذ اللحظة الأولى، قبل أن يكلف آدم وقبل أن ينزله إلى الأرض.. فعرض عليه كيف أن إبليس استكبر، وكيف أنه خان الأمانة.. ثم بعد ذلك كيف وسوس لآدم لكي يوقعه في مخالفة الله، ونجح حينما أغراه واستثاره من نقطتين أساسيتين ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠].. هاتان الشهوتان؛ شهوة حب البقاء، وشهوة الملك والسيطرة، شهوتان ضخمتان جدا تعْرِضان للإنسان في كل وقت. والشيطان يوسوس للإنسان منهما باستمرار.

وبيّن الله عز وجل لرسوله آدم -عليه السلام- ولزوجه ولذريته أن هذا عدو، وأنه سيظل عدوا إلى أبد الدهر.

بيَّن الله هذا كله لكي نعرف كيف بدأت الرسالة، وكيف أن الرسل جميعا جاءوا ليحذروا البشرية من هذا العدو، ولكي يعلموا البشرية كيف تخضع لله ربها. وأنهى الأمر بأن أعلم آدم أنه سينـزل إلى الأرض، وأن له وقتا معينا في هذه الأرض، متاع ومستقر إلى حين، ثم إنه إذا أخطأ فإن باب التوبة والرجوع مفتوح، فتاب الله عليه بعد أن علّمه كيف يتوب، ثم كلفه بعد ذلك

بالرسالة، وأصبحت الرسالة مفهومة من خلال معرفة طبيعة آدم وطبيعة العدو وطبيعة الأرض التي نزل إليها وطبيعة المعصية وألوانها، ثم ينتهي السياق بقوله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].. وكما جاء في سورة طه ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]..

هذه البداية كان لا بد أن نقف معها على مشارف التاريخ الإنساني، لكي ندرك ما هو ذلك المجتمع الذي يريده الله، وما هي القضية التي قام ذلك المجتمع ليؤديها. ولذلك حينما يقول الأستاذ سيد هنا **"إن الدعوة الإسلامية على يد محمد رسول الله ﷺ إنما تمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام.."** فإنه يريد بذلك أن يربطنا في نفس الوقت بالحلقة الأولى، فلا ننسى ونحن نتحدث عن الحلقة الأخيرة أنها ليست حلقة منقطعة، وليست حلقة مستقلة، وليست حلقة انقطعت الأواصر بينها وبين من سبقوها.. وإنما الموكب متواصل، وموصول بعضه ببعض، والحلقة الأخيرة هي نتاج للحلقة الأولى وللحلقات التي بعدها.

بساطة ووضوح دعوة الحق على مدار التاريخ

"وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمراً واحداً: هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق، وتعبيدهم لربهم وحده، ونبذ ربوبية الخلق.." هذه القضية التي جاء لها الأنبياء جميعا كما يقول الأستاذ سيد، وهذا حق، أنهم كانوا جميعا يستهدفون أمرا واحدا، وهو تعبيد الناس لربهم الحق.. وهي قضية بسيطة، قضية محددة، ومن هنا تأتي عظمتها؛ فعلى الرغم من عظمتها، ومن ضخامتها، فإنها في نفس الوقت قضية بسيطة جدا، بسيطة بساطة البداهة، وبساطة الفطرة، وبساطة الحقيقة حينما تكون متجلية.. فهذه هي الحقيقة؛ أن الأنبياء جميعا جاءوا ليقرروا هذه الحقيقة البسيطة الواضحة، رغم أن الناس كانت الشياطين تجتالهم دائما فتغبش عليهم هذه الحقيقة وتعمي عنها أبصارهم، وكانت القضية تتعقد في نفوس البشر بما تدخله الشياطين إلى قلوبهم وإلى مفاهيمهم، فتزين لهم الباطل بما تدخله من عقائد وأفكار ما أنزل الله بها من سلطان.

لكن هذه العقائد الباطلة -مع وضوح بطلانها- إلا أن الشيطان كان يحقق بها وعيده الذي قاله من أنه سيضل الناس جميعا ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]..

لكن الحقيقة أن القضية بسيطة جدا.. قضية أن هناك رباً وعبداً.. هناك خالق ومخلوق.. وهي قضية لا تحتاج إلى كلام كثير، ولذلك كان عرض الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- للقضية عرضا مبسطا وهادئا، وكانوا يكررون هذا العرض باستمرار، وكانوا دائما يصرون على قضية واحدة، بتعبير يكاد يكون واحدا. كان جميع الأنبياء يأتون بنفس القضية ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. فقد جاء الأنبياء ليعرّفوا الناس بقضية وحدة الربوبية ووحدة الألوهية وتعبيد الناس لربهم، لا لأنهم لا يعرفون الله، وإنما كما يقول الأستاذ سيد: **"ولم يكن الناس -فيما عدا أفراد معدودة في فترات قصيرة- ينكرون مبدأ**

الألوهية[٢] ويجحدون وجود الله البتة، إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع.. وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد.. ويرتَدُّون إلى الجاهلية التي أخرجهم منها، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى. إما في الاعتقاد والعبادة، وإما في الاتباع والحاكمية. وإما فيهما جميعا.." وهذه هي القضية.. وهي قضية لا بد أن نفهم ونستيقن أنها قضية لا تحتاج إلى حشد من الأدلة، ولا إلى مزيد من العلم المعقد.. فالرسل جاءوا ليخاطبوا الناس خطابا مبسطا.. ولذلك كان هذا الدين مُيسراً..

قضية تيسير هذا الدين قضية من أساسيات الاعتقاد الإسلامي، ومن أساسيات الدعوة والبلاغ.. كثير من الدعاة يوحون للناس أن قضية هذا الدين قضية صعبة، أو قضية معقدة، أو قضية لا يعرفها إلا متخصصون وأفذاذ من الناس.. وهذا صد عن سبيل الله.. لأنه معارض لما يريده الله عز وجل، ومعارض لتقرير الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فالله عز وجل قد كلف الناس جميعاً بهذه الحقيقة، وما دام قد كلف الناس جميعاً بهذه الحقيقة ولم يفرق بينهم في هذا فلا بد أن تكون هذه الحقيقة على مستوى الناس جميعاً، وإذا كان الذين كُلفوا بهذه الحقيقة لم يشترط فيهم إلا أن يكونوا عقلاء بالغين، فمعنى ذلك أنه لا يشترط درجة من العلم معينة، ولا درجة من الثقافة معينة، ولا درجة من الحسب أو النسب، ولا درجة من الخبرة والتجربة.. وإنما الذي طولب من خلاله الناس بالتكليف هو أن يكونوا بالغين وعقلاء.. والعقل هو ذلك العقل الأساسي والبديهي الذي يتعامل مع الضرورات العقلية، وليس المقصود به ذلك العقل المتفلسف، ولا العقل المتبحر، وإنما يقصد بالعقل القدرة العقلية على إدراك الحقائق الضرورية والبدهيات العقلية التي تدرك أبسط الأمور؛ مثل أن الإنسان لا يستطيع أن يوجد في مكانين اثنين في وقت واحد.. فهذه القضايا التي يدركها الإنسان الذي وصل إلى سن البلوغ بطريقة يقينية لا تحتاج إلى دليل متخصص، ولا تحتاج إلى دليل من خارجها.. لذلك يؤكد القرآن في سورة كاملة من سوره وهي سورة (القمر) أن القرآن ميسر.. ويكرر هذه القولة وراء كل نبي، ومع نهاية قصة كل نبي ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

هذه الحقيقة، إذا لم يؤمن بها الدعاة ولم يؤمن بها المبلغون عن الله، فهم ابتداءً يعقّدون الأمر على أنفسهم، ثم يعقدونه على الناس.. فلا بد أن يكون أسلوب البلاغ أسلوباً ميسراً، حتى لا يحدث تناقض بين واقع الحقيقة التي يريدها الله، وبين طبيعة الكتاب الذي أنزله الله، وبين أسلوب البلاغ الذي ينتهجه المبلغون. فلا بد أن تتساوق هذه الأمور كلها في منظومة واحدة.. ولن يكون ذلك إلا إذا كانت القضية بسيطة، وتعرض بطريقة سهلة مبسطة، وأن يكون الدليل عليها أيضا دليلاً فطرياً مبسطاً..

---

٢ هناك خلاف قديم بين علماء المسلمين في مدلول توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وأيهما ركز الأنبياء الدعوة إليه، والأستاذ سيد – رحمه الله – كالإمام الطبري – رحمه الله – يري أن تحكيم غير شرع الله هو إشراك في الربوبية بينما يرى الإمامان ابن تيمه وابن القيم أن ذلك شرك في الألوهية والخلاف نظري لأنه لا بد من توحيد الألوهية والربوبية والذات المتصفة بهما واحدة. فالله هو الاله وهو الرب ولا مشاحة في الاصطلاح. وقد أشبع هذه النقطة بحثاً الدكتور / صلاح عبد الفتاح الخالدي في رسالة للدكتوراه: في ظلال القرآن في الميزان. (جدة: دار المنارة، ط الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨١) ج٣. ص١٥٢-١٧٢.

وبهذا نكون قد بلّغنا عن الله البلاغ الحق، واستعنا في هذا بكل الأسباب التي ركزها الله في فطرة الإنسان وفي عقل الإنسان وفي واقع الإنسان.

فهذه القضية.. قضية لا بد أن نؤمن بها وهي تيسير ويسر البلاغ.. ويسر الحقيقة التي يواجَه بها الناس. ولذلك حينما استقل الإنسان بفكره وبمنهجه وبطريقته ليتعرف على حقائق الوجود أنتج ما يسمى بالفلسفة، وأصبحت الفلسفة قضايا معقدة لا يفهمها إلا فريق متخصص من الناس، وقد لا يفهمونها أبدا، فضلّ الناس.. ضلَّ الفلاسفة، وضلَّ من يأخذون عنهم.

وعندما وقع المسلمون في المأزق الذي صنعه لهم الفلاسفة حينما أثاروا قضايا عقلية على مستوى معين من التعقيد، فأراد المسلمون المخلصون أن يردوا عليهم باستخدام نفس المنهج ونفس القوالب، فأنشأوا ما يسمى بعلم الكلام.. كان هذا العلم مضيعة للوقت، ومضيعة للفهم، بل ومضيعة للعقيدة والدين. ولذلك نرى أن السلف الصالح من المسلمين كانوا يرفضون علم الكلام، وكانوا يبدّعون الذين يقومون بهذا العلم أو الذين يعرضون الدين بهذه الطريقة.. فهذا الإمام الشافعي -رحمه الله- كان يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[٣].

وقال تلميذه المزني: كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي، فلما قدم الشافعي أتيته فسألته عن مسألة في الكلام فقال لي: تدري أين أنت؟ قال: قلت: نعم أنا في المسجد الجامع بالفسطاط.

فقال لي: أنت في تاران "وتاران موضع في بحر القلزم لا تكاد تسلم منه سفينة" قال: ثم ألقى علي مسألة في الفقه فأجبت فيها، فأدخل شيئاً أفسد جوابي فأجبت بغير ذلك فأدخل شيئا أفسد جوابي، فجعلت كلما أجبت بشيء أفسده قال ثم قال لي: هذا الفقه الذي في الكتاب والسنة وأقاويل الناس يدخله مثل هذا فكيف الكلام في رب العالمين الذي الزلل فيه كفر. فتركت الكلام وأقبلت على الفقه[٤].

فهذا الدين لا يُعرف إلا بطريقة واحدة.. وهي التي عرض الله بها دينه وبينه سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.. ودعى بها رسوله العظيم ﷺ. صورة ميسرة سهلة تتحدث عن الإنسان من خلال عقله ووجدانه وتجربته وفطرته وما ركز في هذه الفطرة من حقائق بدهية وضرورات عقلية..

هناك ما يسمى بالضرورات العقلية.. فالإنسان لا يحتاج دليل على وجودك ما دمت أنت الذي تكلمه وتقول له أنا موجود، فلا يقول لك اثبت لي أنك موجود.. والفلسفة تقول لك اثبت لي أنك موجود.. وحينما يغيب إنسان عن نظرك فيقال إن هذا غاب تقول لك الفلسفة اثبت أنه غاب.. من أدرانا أنه موجود.. فهذا التلاعب بالعقل البشري يؤدي إلى بعثرة هذه الطاقة العقلية التي ما جاءت لكي يُتلاعب بها، أو لكي تكون أداة للعبث أو أداة للضلال، وإنما لتكون أداة للعلم.. لذلك زودت بالعلم الضروري الذي لا يحتاج إلى دليل.. فكما أن الشمس إذا كانت في رابعة النهار فإنك تتعجب ممن يقول لك اثبت لي

---

٣ سير أعلام النبلاء. ج٨. ص٢٤٥.

٤ المصدر السابق. ج١٩. ص٢٥.

أن الشمس موجودة، فلا ترد عليه لأنك تعتبره -بهذا الشكل- إما عابث، وإما مستهزئ بك، وإما أعمى لا يرى.. فمثل هذا لا يمكن إثبات الحقيقة له وقديماً قالوا:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فكذلك هذه القضية.. قضية أن هذا الدين يسر، وأن هذه العقيدة فطرية، وأن الطريقة التي تعرض بها هذه العقيدة لا بد أن تكون ميسرة لكي تصل إلى الناس، ولنكون قد صدقنا الله عز وجل في أننا مبلغين عنه ولسنا مبلغين عن أنفسنا ولا عن عقولنا ولا عن أهوائنا.. فنحن نريد أن نبلغ كلام الله، ونبلغ مراد الله، ونبلغ رسالة الله.. فلنتمسك بمنهج الله في العرض وفي البلاغ وفي الأداء وفي الطريقة، ونؤمن أن هذا هو الطريق الوحيد في عرض هذه القضية..

ليس المطلوب من الدعاة إثبات الحق وإنما الثبات على الحق

هذا الأمر كله من وحي هذه القضية.. قضية أن التاريخ الإنساني قد بدأ بآدم، وأن تاريخ الرسالة الإنسانية قد بدأت بآدم وانتهت بمحمد ﷺ، وأن هذا الموكب جميعه كان موكبا يعرض القضية بأسلوب واحد بسيط، يخاطب الفطرة ويخاطب الوجدان ويخاطب الضرورات العقلية، ومن ثم فليس هناك تعقيد في عرض قضية الإسلام.. والذي يصد الناس عن الإسلام ليس هو الجهل، وليس هو عدم القدرة على الفهم، وليس هو عدم العلم.. وإنما الذي يصد الناس دائما أنهم يُعرضون عن الحق، ويعطون للحق ظهورهم، أو يسدون آذانهم، أو يضعون أيديهم في أفواه الدعاة لكيلا يسمعوا الحق، وليس لأن القضية معقدة، وليس لأن فيها صعوبة.. ويترتب على بساطة القضية وعلى يسر القضية وعلى سهولة القضية أن المعركة بين الدعاة وبين المدعوين، أو بين الدعاة وبين الجاهلية ليست قضية إثبات أن هذا حق، وإنما القضية هي القدرة على الثبات على الحق في مواجهة عناد الجاهلية..

فمجرد الثبات على الحق في مواجهة الجاهلية هو الدعوة الحقيقية للإسلام.. وحينما يُستدرج الدعاة إلى حوارات وإلى مناقشات على طريقة الجاهلية فإنهم يكونون -منذ اللحظة الأولى- قد انهزموا، وقد تخلوا عن القاعدة التي ينبغي أن ينطلقوا منها.. وتركوا قاعدتهم وذهبوا إلى قاعدة العدو ليخاطبوه منها.. وهذه هي بداية الهزيمة، ونهايتها في نفس الوقت.. فلا بد أن يقف المسلم عند قاعدته ويدعو الناس، ويصر ألا ينتقل هو إليهم.. ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].. لكن أن تتنازل أنت عن منهجك أو عن طريقتك أو عن ترتيب أولوياتك، فهذا كله نزغ من الشيطان ليحرفك عن الصواب. فإذا استجبت له سهل جرّك بعد ذلك إلى أي هاوية من مهاوي الضلال.

الذي نريد أن نؤكده أن الناس كانوا يعرفون -وهم دائما يعرفون- ربهم، ويعرفون خالقهم، ويعرفون أنهم نبت مخلوق، لم يخلقوا أنفسهم ولم يصنعوا أنفسهم.. فهذه قضية يجمع عليها الناس كلهم، حتى الماديون الذين يقولون لا إله والحياة مادة، فهم -في الحقيقة- يستبدلون العقيدة الصحيحة بعقيدة باطلة.. هم يقولون إن المادة هي التي خلقت، والمادة ليس لها أول وليس لها آخر.. والمادة أزلية أبدية.. المادة تخلق ولا حد لقدرتها على الخلق.. وكل هذه صفات الإله.. ولكنهم يريدون أن ينزعوا عن الإله أن يكون حيا سميعا بصيرا قادرا جبارا، لكي يعيثوا في الأرض فسادا، ويبعدوا أنفسهم عن التكليف، أو ما يتصورون

أنه تكليف صعب عليهم، أو أنه تكليف يصادم أهواءهم وشهواتهم.. فالحقيقة أن الناس كلهم مجمعون على أنهم مخلوقون، وأنهم جاءوا نتيجة خلق من خالق أوجدهم.. ولكنهم لا يرتبون على هذه القضية ما ينبغي أن يكون..

فعندما يأتي الرسل ليقولوا للناس: ارجعوا إلى الله، وأعطوا الله ما يستحقه من العبادة وما يستحقه من الانقياد والخضوع.. فهي إذن مهمة واضحة بسيطة.. ولكنها مهمة الإنسان كله على الأرض.. أن يعرف أن له ربا، وأن هذا الرب هو صاحب السلطان، وأن هذا السلطان له مظهر معين وله حقائق معينة يتحقق من خلالها.. فإذا انحرف الناس عن معرفتهم بربهم.. وعن معرفتهم بصفاته.. أو بأسمائه.. أو بحقوقه.. أو بشرعه.. أو بقيمه.. يأتي الأنبياء ليردوا الناس إلى الله.. فالقضية بسيطة وليست صعبة.. وكما يقول هنا.. أن الناس **"إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق، أو يشركون مع الله آلهة أخرى: إما في صورة الاعتقاد والعبادة، وإما في صورة الحاكمية والاتباع.."** وهذه الأمور إنما هي وجوه لحقيقة واحدة.. وجوه لحقيقة الخروج عن عبودية الإنسان لهذا الإله الحق؛ إما في الاعتقاد.. فيعتقدون أن له شركاء، أو يعددون الخالقين، أو يعددون صفاتهم أو أسماءهم.. وإما في صور العبادة وأشكالها.. وإما في أمر المقتضيات لحقوق الله عز وجل..

صور الشرك بالله في واقعنا المعاصر

الاعتقاد مفهوم، وهو التعرف على الله عز وجل، وعلى مقام الألوهية وصفاتها وأسمائها، والاعتقاد بحقائق الأشياء الموجودة حول الإنسان؛ حقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان.. فكل هذه تصورات عقدية مطلوب من الإنسان أن يدركها وأن يعرفها..

والعبادة هي مجموعة النسك والأعمال التي يتقدم بها العبد تقرّبا إلى الله عز وجل، واسترضاء له واستدفاعا لغضبه سبحانه.

أما الاتباع والحاكمية فهي قضية الالتزام السلوكي والاجتماعي والواقعي في الحياة من خلال إعطاء الله حق إدارة الحياة، وحق تقرير كل شيء في حياة الإنسان..

فالناس إما أنهم يشركون في الاعتقاد، أو يشركون في العبادة، أو يشركون في قضية الاتباع والحاكمية..

وقد يكون الاتباع والحاكمية أمران يتباينان قليلا.. فقد يقرر الناس مبدأ الحاكمية، ولكنهم يتبعون في هذه الحاكمية أهواءهم أو مشايخهم أو بدعهم أو انحرافاتهم.. فيقررون ويؤكدون مبدأ الحاكمية، ولكنهم يحققون هذه الحاكمية بأهوائهم، كما يحدث حينما يشرع الناس أو يبتدعون في دين الله ما لم يقرره الله.. فهناك خطوط رفيعة بين هذه الأمور..

إسلام العباد لرب العباد هو هدف الدعوة

يقول الأستاذ سيد **"هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري. إنها تستهدف "الإسلام".. إسلام العباد لرب العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، بإخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة.."**

كثيرا ما نتكلم عن أن الدعوة إلى الله، أو هذا الدين إنما يستهدف إقرار إسلام العباد لرب العباد.. والكلمة حق في ذاتها.. ولكن الذي أريد أن أوجه النظر إليه هو كيفية فهم هذه القضية.. كيف يفهم الإنسان معنى إسلام النفس لله عز وجل؟ وكيف يتذوق هذه الحقيقة؟ ولعلنا لمسنا جزءاً من هذه القضية حينما تحدثنا عن الجيل الأول، وكيف كان يتذوق الإسلام، وكيف كان يعيش مع الله سبحانه وتعالى، وكيف كان يتعامل مع هذا الرب الذي عرفه بعد ضلاله.. فلا شك أن طريقة إدراك الصحابة لهذه الحقيقة، وطريقة تذوقهم لها، والذي نتج عنهما طريقة تعاملهم مع هذه الحقيقة انعكس على طريقتهم في الحياة، وعلى مشاعرهم وعلى قيمهم وعلى سلوكياتهم في كل صورة من صور الحياة.. هذه القضية التي نريد أن يفهمها الناس حينما نقول لهم: أن الهدف هو إسلام العباد لرب العباد، أو خروجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. فليس الهدف هو الخروج من عبادة الطواغيت فقط.. فليست القضية فقط هي أن أرفض حكم الطواغيت.. القضية أعمق من هذا؛ وهي كيف أتعامل مع هذا الإله؟ كيف أعرفه؟ كيف أوقره؟ كيف أفهم طبيعة المسافة التي بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى؟ وهي في أعماقها قضية شعورية وقضية وجدانية.. وليست قضية عقلية فقط، وإنما بدايتها لا بد أن تكون عقلية.. حينما يحدد الإنسان المسافة بينه وبين الله.. المسافة بين المخلوق وبين الخالق.. بين صفات المخلوق وصفات الخالق.

وهذه القضية لا بد أن نقف عندها طويلا.. وقد تحدثت كثيرا قبل ذلك عن أننا في حاجة أن نقف طويلا لنتفكر في: ما معنى أنني مخلوق؟ ومعنى أن الله هو الخالق؟ ما معنى أنني كائن خُلق ونشأ بعد عدم، وأنه لم يكن في يوم من الأيام شيئا مذكورا؟ وما معنى أن الله هو الخالق السرمدي الأبدي الأزلي.. القائم بذاته، الذي لا يعتريه نقص ولا فناء ولا موت ولا غفلة ولا نسيان ولا جهل؟ كل هذا لا بد أن نقف طويلا أمامه لنفكر في حقيقة النسبة والمسافة بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، وبين حقيقة الألوهية وحقيقة العبيد، بين مقام الله سبحانه وتعالى ومقام البشر المخلوقين.. هذه القضية بداية رئيسة لكي ندخل إلى دائرة الإيمان الحق، وإلى دائرة الإيمان الحي المتوهج.. والذين يأخذون القضية على أنها قضية رياضية أو فلسفية؛ أنني بما أنني موجود إذن هناك مُوجد.. وتنتهي القضية بهذا الشكل الفلسفي بأنني وُجدت وهناك من أوجدني، وتنتهي العلاقة بيني وبين هذا الخالق بهذه الصورة الباهتة الجافة التي لا تحرك الوجدان، ولا يترتب عليها أي حقوق ولا أي تصورات.. الذين يأخذون القضية على هذا النحو ضَلُّوا عن المدخل الصحيح الموصل إلى الحقيقة.

فمهم جدا أنْ نعرف أنّ الدعوة إلى الله التي جاء بها الأنبياء لم يكن القصد منها تعريف الناس بأن لهم خالقاً أو أنهم مخلوقون.. هذه قضية فطرية، وقضية واقعية، بل كما أقول دائما أنها من الضرورات العقلية للإنسان وللعقل البشري.. فالإنسان العاقل لا يمكن أن يفلت من هذه القضية.. ولا يستطيع أن يلقيها وراء ظهره أبدا.. فبما أنه موجود لا بد أن هناك موجِداً له.. والإنسان لم يَدّعِ أبداً أنه قد خَلق نفسه.. وإلا لو أنه ادعى ذلك لطولب أن يُغير من واقعه إلى ما هو أفضل.. ولكن ما من إنسان منا إلا ويشعر أنه ناقص، وأنه لا يستطيع أن يكمل هذا النقص.. ولا أن يُغيره.. الذي خُلق قصيرا يريد أن يكون طويلاً فلا يستطيع.. والذي خُلق قبيحاً يريد أن يكون جميلاً فلا يستطيع.. والذي خُلق فقيراً يريد أن يكون غنياً فلا يستطيع.. ولو أنه هو الذي خلق نفسه لفعل.. وهذه مقولة -أصلا- فلسفية باطلة لا تتمشى مع البدهيات العاقلة، لأن الشيء لا يستطيع أن

يخلق نفسه، لأنه لا بد أن يكون موجودا قبل وجود نفسه لكي يخلق نفسه.. قضية بيزنطية لا ينبغي أن يقف الإنسان عندها أبداً، ولا يقولها إلا مجنون أو عابث أو هازل، أو يريد تضييع وقت نفسه، أو أن الشيطان يتلاعب به فيستجيب للشيطان..

القضية البدهية التي توجد عند العقل البشري العاقل الهادئ الذي يحترم ذاته أنه لم يوجِد نفسه، وبالتالي لا بد أن يكون قد أوجده خالق وقوة أخرى أعلى منه.. فإذا نظر إلى ما حوله من هذا الوجود وتلك الموافقات التي يُسِّرت له لكي يعيش فإنه يدرك ذلك، لأن الإنسان ليس قائما بذاته، وليس مستكفيا بذاته.. ولو أنه وجد نفسه مستكفيا بذاته لكانت القضية أكثر تلبسا وأكثر صعوبة.. وقضية الموت والحياة كفيلة وحدها بأن تقرر أنه مخلوق وحادث، وحتى لو كان قائما مكتفيا بذاته وعنده ما نسميه بالتحكم الذاتي، أو أنه فيه كل مقومات الحياة من داخله.. لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بهذا الإنسان حتى لا يقع في هذه الضلالة، وحتى لا يقع في هذا الغرور فيظن أنه قد خلق نفسه، أو أنه مخلوق مكتف بذاته، جعله محتاجاً لكل شيء.. محتاجاً للهواء وللضوء وللأكل وللشراب.. بحيث يشعر الإنسان -دائماً- أنه لا يمكن أن يكون قد خلق نفسه، ولا يمكن أن يكون قد أعد لنفسه كل هذا المسرح بكل ما يحتويه من ضرورات أساسية ومن كماليات.. فتتحقق في حِسّه الضآلة والحاجة، ويتحقق في حِسّه الفقر.. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥]..

ثم يأتي بعد ذلك مهانة التكوين البشري، ومهانة النشأة البشرية؛ سواء النشأة الأولى حينما نشأ من طين، أو النشأة الأخرى وقد نشأ من ماء مهين.. كلتا النشأتين لا تعطي الإنسان حق الاغترار ولا حق الاستكبار ولا حق الإحساس بذاته، وإنما هو كائن هزيل حقير ضعيف مهين، بدايته نطفة مذرة، ونهايته جيفة قذرة.. فهذا الإنسان من أين يأتيه الغرور؟ من أين يأتيه الإحساس بالذات؟ ذلك الذي أراد إبليس في أول الأمر أن يغر آدم بها.

هذه القضية لا بد أن تكون واضحة؛ قضية أن الإنسان.. هذا الكائن المخلوق.. لا بد أن يعرف خالقه.. هذه القضية الذي جاء الأنبياء ليعلموها للناس.. جاؤوا ليقولوا للناس: عودوا لربكم، أعطوا حق العبودية لخالقكم الذي تقرون به، والذي تؤمنون به، والذي تعيشون من نعمائه، والذي خلقكم بعد أن لم يكن الإنسان شيئا مذكورا، والذي يتحول بعد ذلك إلى أن يكون جيفة.. إن لله خالقكم عليكم حقا.. هذه هي مهمة الأنبياء.. وهذه هي مهمة الدعاة.. فليست القضية قضية حشد أدلة.. ولا قضية فلسفة، ولا جدل على مستوى الأساتذة أو الأكاديميين.. فالقضية تتميز بالبساطة السهلة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. وكما خاطب الله عز وجل الناس في سورة الطور ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٩].. هذا الإله الذي يقول عن نفسه سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۞ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ۞ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۞ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۞ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ [النجم: ٤٣-٤٨].. كيف تضحك؟ ما معنى أن تضحك؟ هذه قضية عندما يقف أمامها الإنسان يمكن أن يصاب بحالة من لوثة العقل.. لأنه لا يستطيع أن يفهم ما معنى الضحك، وما معنى أنه يستطيع أن يضحك، وما هو التعبير بالضحك لكي يفهم الناس أنني سعيد.. إنه هو الله الذي أضحك وأبكى، وكما أضحك هو الذي أبكى.. كيف نبكي؟ وكيف نضحك؟ هو الذي فعل ذلك سبحانه.. قضايا مباشرة يفهمها الإنسان الذي لا يعرف

القراءة والكتابة، ويفهمها العالم الكبير.. فهي قضايا بدهية لا تحتاج إلى نظر، ولا تحتاج إلى مزيد من إعمال العقل الفلسفي، وإنما تقتضي فقط إعمال العقل الضروري.. فتتحقق القضية.. فليس لنا من أنفسنا شيء، ولذلك يجب أن نكون عند ما يريده الله عز وجل.. بل أن نأوي إلى الله.. وهذه هي مهمة الأنبياء أن يدخلوا الناس إلى حظيرة الألوهية، وأن يُرجعوا العباد إلى رب العباد، إلى خالقهم، ويخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..

فالذي أريد أن أقوله: إن كلمة إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليست قضية سياسية.. فهي ليست قضية إخراجهم من شريعة إلى شريعة، ولا من نظام إلى نظام.. وإنما هي إخراجٌ من سلطان إلى سلطان.. ثم إن هذا الخروج إلى هذا السلطان لا بد أن يكون ممزوجا بالحب والإجلال، لذا فإنه لا بد منْ مزيد منَ التعرف على هذا المقام الكبير.. وهذا يتأتى من التفكر الطويل في النسبة والمسافة بين الخالق والمخلوق، بين البشر وبين الله سبحانه وتعالى..

فلا شك في أهمية أن ندرك ما هي روح الدعوة إلى الله عز وجل، والدعوة إلى سلطان الله وحاكميته.. فحينما يطالب الله عز وجل الناس أن يخرجوا من سلطان العباد وشريعتهم وتقاليدهم وأفكارهم وشرائعهم وقيمهم إلى سلطان الله وحاكميته لا بد أن نفهم أن القضية ليست قضية شكليات، ولا قضية نظم، ولا قضية شرائع فقط.. وإنما القضية قبل ذلك، وبعد ذلك، هي الإحساس بأن الإنسان هو أثر من كلمة "كن" التي شاءها الله سبحانه وتعالى.. فهو بكل كيانه.. بكل ما فيه من طاقات.. بكل ما فيه من قدرات عظيمة.. وبكل ما سُخِّر له من هذا الكون هو عطاء من الله، ونعمة من الله. هذا الشعور لا بد أن يسبق التعرف على حقوق الله وعلى شرائع الله.. فالإنسان لن يكون مؤمنا حقا إلا بعد أن يتعرف ابتداءً على الله، ثم يتعرف بعد ذلك على حقوق الله.. فيدخل من باب الإحساس بالضآلة أمام عظمة الألوهية.. فإذا أحس بذلك فإنه سيتلقى من الله كما ينبغي، ويتواضع لألوهية الله كما ينبغي.. ويتذلل ويخضع لهذه الألوهية... ذلك التذلل الذي يعني عدم القدرة على القيام بدون عون الله عز وجل.. وعدم الحركة بدون أمر الله عز وجل.. فليس هناك شيء في هذا الوجود يتحرك أو يقوم إلا بأمر من الله عز وجل.. هذا هو الذل.. وليس معنى الذل فقط هو معنى الخضوع.. أو معنى الانقياد.. فالبشر يأتون إلى الله أذلاء يوم القيامة لأنهم عرفوا حقيقة الألوهية بكافة عظمتها وضخامتها في ذلك اليوم، ولأنهم حينذاك يكونون قد عرفوا الحقيقة كاملة.

فالمطلوب منا في الدنيا أن نرتفع إلى مستوى هذا الإدراك.. الذل مع الله عز وجل بمفهومه الواسع، الذي يخرجنا من سلطان العباد، لأنهم ليس لهم حق علينا، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته.. وهذه قضية شعورية ابتداء.. فنحن لا نستطيع أن نقدم الإسلام للناس على أنه فلسفة، ولا على أنه مطلب اجتماعي، ولا على أنه مجرد نظم وشرائع.. وإنما نقدمه لهم ابتداء على أنهم عبيد لله.. عبيد بكل معنى العبودية.. ضئيلون بكل معنى الضآلة.. أذلاء بكل معنى الذل.. فقراء بكل معنى الفقر.. فإذا دخل الإنسان الإسلام من هذا الباب كانت بقية الأمور سهلة ميسرة.. أما إذا دخل من باب الجدل، أو من باب التعايش، أو من باب وزن التكاليف، أو من باب نفع هذه التكاليف، أو من باب أن الإسلام يحقق للناس السعادة.. فهذه القضايا كلها لا تدخل الناس الإسلام.. ولا تذيقهم طعم الإسلام..

الاستسلام لله يضمن التناسق بين الجانب الإرادي والجانب الفطري في الإنسان

"وفي هذا جاء الإسلام على يد محمد ﷺ، كما جاء على أيدي الرسل الكرام قبله.. جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي يحتوي الناس، فيجب أن تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي السلطة التي تنظم وجوده.."

وهذه قضية أخرى.. قضية أن الإنسان ليس هو المخلوق الوحيد.. فهذا الكون بكل ما فيه، مما نعلم وما لا نعلم ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].. هذا الكون كله خاضع لله عز وجل ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فعلى الناس أن يكونوا أذكياء، وأن يكونوا على مستوى الإدراك الإنساني الذي مُيِّز به الإنسان، وهو أعقل المخلوقات وأذكاها، بل هو سيد المخلوقات.. فإذا كانت المخلوقات كلها خاضعة لله عز وجل فلماذا يندّ هو عن هذا الخضوع؟ ولماذا يخرج عن هذا القانون؟ فلا بد أن يعرف الناس أنهم بما أنهم مخلوقون، وأن هذا الكون كله بما فيه مخلوق، فلا يجوز لهم أن يشذوا عن القاعدة العامة.. قاعدة أن هذا الكون عابد لله، ويجب أن يكونوا هم أيضا عبيداً لله كذلك الكون، فيتساوق الكل في نسق واحد. فما كان الله عز وجل ليخلق خلقا ليتمرد عليه أو ليشذ عنه أو ليستكبر عليه.. إنما خلق الخلق ليكون خاضعا لألوهيته.. وهذا هو معنى السلطة الشاملة الذي لا ينبغي أن تكون إلا لله عز وجل.. فلا يشذون هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون كله.. بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي هو الله.. فالإنسان قلبه يدق لا يستطيع أن يوقف قلبه.. هذا القلب له طريقة معينة في النبض، وفي عدد النبضات التي ينبضها في الدقيقة.. ولا يتحكم في هذا إلا الله عز وجل، وكل شيء في هذا الإنسان مسخر لله، ومسلم له سبحانه وتعالى.. فالإنسان له جانبان.. جانب مستسلم لحكم قدري يغلبه، فهو لا يستطيع أن يغيره، شأنه في ذلك شأن كل الكائنات الأخرى التي استسلمت لله عز وجل.. والثاني هو الجانب الإرادي الذي ميز الله به الإنسان، والذي جعله تكريما له، وليس تقليلا من شأنه، حينما جعله مسئولا عن أفعاله، وحينما أعطاه قدرة على التمييز، وقدرة على الاختيار، وقدرة على الرفض، أو قدرة على الطاعة.. وكل هذا تكريم للإنسان، وليس تقليلا من شأنه، وليس تقييدا له بمسئولية لا يقدر عليها.. فالله عز وجل حينما خلق الإنسان لهذه المهمة.. خلقه ليكون قادرا عليها.

فلا بد أن يعرف الإنسان مكانه وقدراته وطاقاته في هذا الكون.. ففيه جانب شأنه شأن بقية المخلوقات؛ جانب مستسلم لله تماما لا يستطيع أن يخرج عنه في حياته وموته.. في مرضه وفقره.. في خلقته وشكله ولونه.. فكل هذا أمر قدري لا يخرج عنه. وجانب آخر؛ وهو ذلك الجانب الذي كرمه الله به، وهو أن يكون مختارا.. يختار الله عز وجل عن وعي وعن حب وعن إجلال وعن ذل لله عز وجل، ليتحقق من خلال ذلك الجزاء الأكبر الذي جعله الله عز وجل لعباده المؤمنين.. فكما يقول الأستاذ سيد هنا عن ذلك القانون الفطري.. **"بل الذي يصرف وجودهم هم أنفسهم في غير الجانب الإرادي من حياتهم. فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله في نشأتهم ونموهم، وصحتهم ومرضهم، وحياتهم وموتهم،**

كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها.." فحتى الحركة الاختيارية هي أيضا خاضعة للسنة الثابتة.. فإذا تحركوا بحركة اختيارية فهم راجعون في النهاية أيضا إلى قانون الله الذي يحدد عواقب هذه الحركة الاختيارية.. فالذي يختار أن يرمي نفسه من حالق سيتحدد مصيره من خلال سنة الله أيضا.. ليس هو الذي يقرر أن يسقط من حالق ثم لا يموت.. فهذه سنة إلهية.. فحينما يمتنع عن الأكل، أو يشرب أو يأكل زيادة عن حاجته باختياره.. فهو أيضا محكوم بقانون الله عز وجل.. فحتى الجانب الإرادي هو مردود في النهاية إلى قدر الله عز وجل، وهم لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا الكون وتصرفه.. ومن ثم ينبغي أن يثوبوا إلى الإسلام في الجانب الإرادي من حياتهم، فيجعلون شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون هذه الحياة، تنسيقا بين الجانب الإرادي في حياتهم والجانب الفطري.. وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني..

وفي الحقيقة هذا من أكبر الحوافز للإنسان أن يتبع دين الله عز وجل.. لأنه إذا اتبع دين الله فسيتم تناسقه. لأنه لا يمكن أن يتبع الله في حياته اللاإرادية -وهو خاضع بالضرورة لقوانين الكون وسننه في حياته- ثم يجعل حياته الأخرى الاختيارية مستقاة من مصدر آخر.. فهذه الحقيقة حافز حقيقي، وهي في ذاتها دليل على ضرورة أن يستسلم الإنسان لله، وأن يعبد الله عز وجل.. حتى وإن لم يُدع إلى ذلك فإنه كان عليه أن يتساءل: يا ربي ماذا أفعل في حركتي الاختيارية؟ فأنا هناك في حركتي اللاإرادية مطمئن لأنك أنت الذي تسيرني.. فكيف أصنع في حركتي الاختيارية؟ لماذا تتركني بلا دليل؟ هكذا كان ينبغي للناس أن يتساءلوا.

لكن الله عز وجل أكرمهم بأن أرسل رسله، وأنزل كتبه، وفطرهم على أن يشتاقوا إلى الله عز وجل، وأن يبحثوا عن الله سبحانه وتعالى، لكي يكونوا عبيدا له سبحانه، ولكي ينسقوا بين هذين الوجودين؛ بين الجانب الإرادي والجانب اللاإرادي.. فبغير هذا لا تتحقق حقيقة الوجود الإنساني كوحدة متناسقة ومتكاملة.

فإذا حدث هذا الفصل بين الجانب غير الإرادي والجانب الإرادي بأن سيَّر الجانب الإرادي إله وسيَّر الجانب غير الإرادي إله آخر فإنه لا بد أن يحدث الفساد والتصادم.. وهذا ما يحدث للبشر حينما يخرجون عن دين الله ويسلمون أنفسهم لآلهة أخرى.. فهم حينما يعبّدون أنفسهم للعباد، فإنهم يتخذون آلهة أخرى، والله عز وجل أمرهم بغير ذلك.. ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].. فهذا التنسيق هو تنسيق بدهي.. وهذا التوحيد هو توحيد بدهي.. والمفروض أن يسعى الإنسان إليه حتى ولو لم يُدع إليه، لأن هذا هو الذي يُحدث في نفسه التكامل، ويُحدث في نفسه التناسق، ويُحدث في نفسه السكينة وعدم التصادم بين جانبين، فلا يكون بين مطرقتين.. ولذلك يقول الله عز وجل في كتابه العزيز في سورة الزمر ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [الزمر: ٢٩].. لا يستويان.. لأنه حينما يكون الإنسان عبدا لإله واحد فإنه يتلقى أوامر متناسقة من إله واحد لا تتعارض، لأن الإله الواحد هذا لا يمكن أن يأمر أمرين متعارضين في وقت واحد.. لكن حينما يكون هناك إلهان أو أكثر فلا بد أن يحدث التعارض؛ هذا يريد له السعادة والآخر يريد له الشقاء، هذا يريده غنيا والآخر يريده فقيراً.. فكيف يعيش الإنسان.. ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ

شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٩].. فلا شك أن هذا التنسيق هو تنسيق فطري ينبغي أن يسعى إليه الإنسان.

ضرورة نشأة المجتمع المسلم

"ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر، والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني، والتصادم بين منهج الجانب الإرادي في حياة الإنسان والجانب الفطري.. هذه الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده، والتي واجهها رسول الله ﷺ بدعوته.."

واجهها بماذا؟ واجهها بالدعوة إلى الإسلام وحده.. لكي يخرجها عن هذا الشذوذ.. يخرجها عن التحاكم إلى غير الله.. لأن التحاكم إلى غير الله يسلمها إلى آلهة متعددة.. فهو يريد أن يخرجها وينجيها من التصادم بين الجانب الإرادي وبين الجانب الفطري فيها.. هذه الجاهلية واجهها كل رسول، فهذا كان دأب البشرية دائما حينما تجنح عن دين الله فتدخل في العبادة لشركاء متشاكسين، فلا بد أن يأتي رسول ليقول لهم: عودوا مرة أخرى إلى إلهكم الواحد لكي تنعموا بهذا التناسق، ولكي تنعموا بهذه السكينة، وتنعموا بهذا التوحيد، وتنعموا بهذا التواؤم والتناسق بين الجانبين، فيترتب على ذلك السعادة في الدنيا وفي الآخرة.

فكل رسول واجه الجاهلية بالدعوة إلى الإسلام وحده، وكذلك واجهها رسول الله ﷺ بدعوة هذه الجاهلية إلى الإسلام.. **"هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في "نظرية" مجردة.. بل ربما أحياناً لم تكن لها "نظرية" على الإطلاق!.."** كانوا ينطلقون من أهوائهم، ولذلك كانوا يغيرون كل يوم في حياتهم بصورة أو بأخرى.. إنما كانت متمثلة في واقع حي.. في تجمع حركي.. في أناس، وفي مجتمع.. هذا المجتمع خاضع لقيادة، وخاضع لتصورات، وخاضع لقيم وتقاليد ومفاهيم ومشاعر وعادات.. **"هو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك -بإرادة واعية أو غير واعية- للمحافظة على وجوده، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد."** هذا الكلام كله تمهيد إلى ضرورة أن ينشأ مجتمع مسلم، وهذا المجتمع المسلم لكي ينشأ لا يمكن أن ينشأ لكي يدعو إلى نظرية، وإنما لا بد -لكي ينشأ- أن يكون مجتمعا عضويا فيه كل مقومات الكيان العضوي.. وفيه كل مقومات الترابط العضوي، لكي يواجه كيانا عضويا آخر.. فالجاهلية لم تكن في يوم ما نظرية.. وإنما كانت واقعا عضويا حيا.. كانت مجتمعا مكونا من أفراد.. وهؤلاء الأفراد تربطهم علاقات، وتربطهم تصورات، وتربطهم فلسفات، وتربطهم أهداف، وتربطهم حقوق وواجبات، وتربطهم قوانين تنظم حياتهم.. ولهم أهدافهم ومصالحهم التي يعكفون عليها والتي يدافعون عنها.. ومن ثم لا يسلّمون فيها بسهولة.. وإنما يعيشون ليدفعوا عنها كل خطر يهدد هذا الوجود -سواء كانوا واعين أو غير واعين-.

هذا المجتمع الذي هذا شأنه؛ ما كان ليواجَه بنظرية مجردة كما يدعو كثير من الناس؛ أن نكتب ونؤلف كتبا نبين فيها الإسلام فقط.. وليس هذا ممكناً ولا صحيحاً في واقع الحياة، لأننا لا نواجه نظرية مجردة، ولا فلسفة فقط، وإنما نواجه واقعا، بكل

ما في هذا الواقع من عناصر الوجود وعناصر الحياة، وما في هذا المجتمع أو هذا الواقع من حرص على ذاته وعلى نفسه وعلى وجوده، وحرص على أن يرد كل خطر يهدد هذا الوجود.. هذا المجتمع لا يسلّم إلا إذا كان هناك قوة أخرى تواجهه، تأخذ نفس النمط؛ أن تكون مجتمعا عضويا حركيا، تتآلف أعضاؤه، وتكون بينهم تصورات ومفاهيم وعلاقات ومصالح، ويتكاتفون على رد الخطر الذي يهدد وجودهم..

ومن هنا كانت ضرورة نشأة المجتمع المسلم استجابة لدعوة الرسل، واستجابة لطبيعة الخلق الرباني لهم، ثم استجابة لتحقيق التناسق وعدم التصادم بين جانبهم الإرادي وغير الإرادي، ثم لكي يواجهوا المجتمع الجاهلي الذي لم يكن يوما ما متمثلا في نظرية فقط.. وإنما كان متمثلا دائما في مجتمع عضوي، له كل عناصر الكائن الحي، وكل مقوماته.

الجاهلية واقع حي وليست مجرد نظرية فلن تقوضها فكرة مجردة

الجاهلية لم تكن في يوم من الأيام نظرية مجردة، ولا يمكن أن تكون كذلك في أي وقت.. والجاهلية هي الوجه المقابل للإسلام.. وهي الواقع المقابل دائما للإسلام.. وهذه الجاهلية تتمثل دائما في واقع حي، فيه أناس يتحركون ويتدافعون، وينظمون أنفسهم، ويحرصون على ما يبدعون في حياتهم.. كما أنهم يحرصون أيضا على تحقيق أهدافهم التي تقوم على قيم وتصورات معينة، وتبدو من خلال سلوك معين. وهم ينظمون حياتهم ويخضعون نظامهم لتحقيق هذه الأهداف التي آمنوا بها، أو التي يريدون أن يكونوا عليها، ومن ثم فإنهم أحرص ما يكونون على الدفاع عن وجودهم من أي خطر يهدد هذا الوجود..

هذا التجمع العضوي الذي يسمى الجاهلية لا يمكن للإسلام حينما يريد أن يغيره أن يقابله بنظرية مجردة.. فالإنسان لا يستطيع أن يتغلب على خصم له إلا إذا كان في قوته أو أقوى منه.

والجاهلية تتمثل في واقع حي، يقوم على فلسفة أو نظرية، أو لا يقوم، وتحكمها قوانين وقيم تنظم عناصر هذا المجتمع، لأن الحقوق والواجبات لا تقوم إلا من خلال نظام.. فلا بد للجاهلية أن تكون منظمة.. حتى ولو كان الهوى هو أساسها.. وهو بالفعل أحد أساسيات كل جاهلية -كما سنبين فيما بعد- ولكن لا بد أن يكون هذا الهوى منظما بصور معينة ليتعامل الناس من خلاله بصور معقولة وثابتة، وبطريقة تحفظ للناس في الجاهلية حقوقهم وتحقق أيضا أمانيهم..

هذه الصورة الواقعية لا بد أن يقابلها الإسلام- الذي يريد أن يغير هذه الجاهلية ويقوضها- لا بد أن يواجهها بواقع حي أقوى من هذا الواقع.. وهذا ما يقوله سيد قطب في هذا النص الواضح:

"ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في "نظرية" مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز -ولا يجدي شيئاً- أن تتمثل في "نظرية" مجردة. فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي

منهجه وفي كلياته وجزئياته. بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلاً."

ولا شك أن هذه المحاولة ضخمة جدا، لأن من طبيعة أي محاولة أو أي فكرة جديدة أن تكون غريبة عن المجتمع الذي نبتت فيه.. بل تكون معادية له أصلا.. ومتناقضة مع أسسه وأهدافه ووسائله..

فوجود مثل هذه الفكرة وتطورها في هذا المجتمع يعتبر أمرا أقرب إلى المستحيل.. ولكن هذا المستحيل مطلوب أن يقوم به أصحاب الدعوة الإسلامية. بل إن البشر أيضا يقومون به حينما يؤمنون بفكرة ويريدون أن يشيعوها في وسط معاد.. يضحون كثيراً، وينظمون أنفسهم، ويبلغون هذه الفكرة وهذا الأمر. فإن كان مكتوباً لهم النجاح فإنهم سيصلون في النهاية إلى إلغاء الوجود القائم، وتغلب فكرتهم، ويسيطرون من خلالها.

وهذا قد حدث في التاريخ مرارا. وأقرب مثال لنا هو الشيوعية حينما قامت في روسيا.. وروسيا لم تكن هي البلد المرشح أيديولوجيا واجتماعيا، ولم تكن هي المهيأة لتقبل الشيوعية، لأن ماركس تنبأ بأن الشيوعية ينبغي أن تقوم في مجتمع صناعي، حيث إن النظرية قائمة أساسا على الصراع بين العمال ورأس المال.. وروسيا كانت قيصرية، وكانت مجتمعا زراعيا تعيش على صور قريبة من الإقطاع.. ولذلك لم تكن هي تلك البقعة من الأرض المرشحة لتقبل الشيوعية.. ولكن الذي حدث أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا الشيوعية في بريطانيا، فحاولوا أن يقيموها في روسيا.. ومن أجل أن يقيموها في روسيا بذلوا جهودا جبارة.. وضحوا تضحيات هائلة. والذي يقرأ قصة الأم لمكسيم جوركي يعرف كيف ضحى الشيوعيون، رجالا ونساء وأطفالا، صغارا وكبارا، بصورة يقف الإنسان أمامها معجبا بهذا القدر من الإصرار وبهذا القدر من التحمل والتضحية في سبيل إقامة هذا الصرح الباطل الذي عذَّب البشرية بعد ذلك حتى سقط.. فلا بد أن يحدث الصراع بين الفكرة الجديدة وبين الواقع الذي تريد هذه الفكرة أن تقوضه وأن تنتزعه من جذوره.. فإذا كانت هذه سنة بشرية لكل فكرة جديدة تنبت بين مجتمع معاد.. فالإسلام بفكرته التي سنفصِّل فيها هو أشد غربة وأشد بُعداً عن واقع الجاهلية وعن فكر الجاهلية وعن احتمال الجاهلية أن تقبله.. لأن الأفكار البشرية والجاهلية مهما كانت معادية للأفكار الجاهلية الأخرى.. فإنها تلتقي معها في مساحات واسعة، بل في واقع الأمر لا تكاد تغير من حياة الناس إلا في أشكال قليلة.. الشيوعي والرأسمالي كلاهما رجلان متحللان من كل القيم ومن كل الأخلاق، يتبعان شهواتهما، ولا يقيمان الحق، ولا يحرصان عليه.. فالإنسان الرأسمالي لن يخسر في مجاله الفردي شيئاً كثيراً.. قد يكون الاختلاف في المستوى المادي، أو في طريقة التعبير وطريقة الحرية أو شكلها.. لكن الواقع الحقيقي أن الإنسان لن يطَالَب بأن يتغير تغيرا جذريا من حالة الرأسمالية الذي كان فيها يعربد ويفسق إلى حالة شيوعية تجعله مثاليا.. بل إن الشيوعية تدعوه إلى مزيد من العربدة ومزيد من الشهوة.. بل تعطي له شرعية التحلل وسهولة التحلل كما نعرف.. فالشيوعية تحارب الأخلاق من جذورها، وتعتبر أن الجنس والأكل والشرب أشياء بيولوجية طبيعية لا بد أن تكون مشاعة بين الجميع، ونعرف أن الشيوعية في صورتها المثالية تعتبر الأولاد إنتاجا طبيعيا، بمعنى أنهم أولاد الدولة، وأن العلاقات الجنسية ينبغي أن تكون حرة، فإذا جاء أولاد فالدولة عليها أن تؤويهم لأن الدولة عليها أن تؤوي الجميع..

فالواقع أن الرأسمالي لا يفقد شيئا كثيرا في خاصة نفسه حينما يصبح شيوعيا، إلا تلك الصور التي يحرص عليها البشر من الغنى، أو من الكلام وحرية التعبير، كمطالب فطرية عند الإنسان تجعله يحس بكرامته وبحريته وبرغبته في التعبير عن نفسه.. هذا هو الفارق.. وهو ليس فارقا كبيرا كذلك الفارق الذي يحدث عندما ينتقل الرأسمالي أو الشيوعي أو الجاهلي -في أي صورة من صوره- لكي يكون مسلما.. حينئذ يحتاج أن يغير كل لبنة في وجوده.. فكل خلية في حياته لا بد أن تأخذ شكلا جديدا مناقضا تماما لما كان يمارسه هذا الإنسان في جاهليته..

فإذا كانت الفكرة الجاهلية الجديدة الغربية تجد صراعاً ودفعاً من الجاهلية.. فما بالنا حينما تكون هي فكرة الإسلام التي تحول الناس من قيادة إلى قيادة، ومن أخلاق إلى أخلاق، ومن تصور إلى تصور، ومن واقع إلى واقع، يختلف اختلافا جذريا -كما يقول هنا- في كل شيء؛ في كلياته وجزئياته على السواء، حتى وإن تشابهت بعض الجزئيات فالتشابه عرضي، ولكنه مختلف في جذوره، ومختلف في مذاقه، ومختلف في طريقة أدائه، ومختلف أيضا في نتائجه.

فهذا هو الأمر إذن حينما تحاول أي حركة بعث إسلامية أن تقيم الإسلام وأن تنشر هذا الدين، فلا بد أن تواجه الجاهلية؛ ليس بفكرة مجردة، وليس بنظرية مجردة، ولكن بتجمع عضوي قادر على أن يحطم ويقوض جذور المجتمع الجاهلي. وهذا لا يتأتى إلا حينما تكون الحركة الإسلامية أقوى من المجتمع الجاهلي. لأن رد الفعل المساوي للفعل يجعلهما يقفان في نقطة متساوية فلا يتحركان، فلا بد أن تكون المقاومة أكبر من القوة لكي تغلبها.. فلا بد لرد الفعل الذي يريد أن يغير أن يكون ردا أقوى وأكثر قدرة وأكثر تأثيرا. ونحن نعرف أن المعارك الكبرى في التاريخ، والتي غيرت مجرى التاريخ، غيرته حينما استطاع الغالب في النهاية أن يكون عنده سلاح جديد أقوى من سلاح عدوه، وبذلك كسب المعركة.. فنوعية السلاح أهم جدا من كثرة الرجال أو خطط الأعداء.. فكذلك بالنسبة للحركة الإسلامية، لا بد أن يكون رد الفعل أقوى وأشد، لكي يستطيع أن يدفع الجاهلية إلى الوراء فتظل تتقهقر حتى تسلّم وتختفي..

هذه الحقيقة لا بد أن تكون واضحة، وأن تملأ كيان الإنسان المسلم؛ أنه ليس من الممكن أن يكون مسلما بدون أن يكون صاحب قوة تغير الواقع.. وهذه نقطة مهمة.

ومهم أيضا أن نفهم أن ما يظنه كثير من الدعاة إلى الإسلام من أننا لا يجوز أن نواجه الجاهلية بالقوة، ولا أن ندخل معها في معركة، لأننا لا نملك القوة التي نواجههم بها، وإنما ينبغي أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة وأن نجادلهم بالتي هي أحسن، وأن نقف عند هذا الحد.. مهم جدا أن نفهم أن هذا تصور مرحلي، وتصور غير نهائي.. فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن هي مرحلة ضرورية تمر بها الحركة الإسلامية في وقت من الأوقات، ولكنها لا تقف عندها.. وإنما لا بد أن تنتقل منها إلى محاولة الإلغاء بالقوة مهما كانت صور القوة.. ولكن علينا أن نعرف -كما سنقول في فصل الجهاد- متى تكون هذه القوة ومتى تستعمل.. لكن أن يقف المنظرون للحركة الإسلامية أو للدعوة الإسلامية عند تصور أننا ينبغي أن ندعو الجاهلية إلى الإسلام بطريقة نظرية بحتة، أو كما يدعي ويقول بعض العلماء المحدثين أنه لم يعد هناك ضرورة للجهاد، ولا ضرورة لدار الحرب ودار الإسلام لأن الإذاعات الآن والإنترنت تقوم بتوصيل البلاغ والدعوة إلى كل إنسان، وأنه ليس في

إمكان الدول الآن أن تمنع الناس أن يسمعوا صوت الإسلام، والجهاد شُرِّع لكي يوصل هذه الحقيقة إلى الناس فما دام صوت الإسلام يصل إلى الناس فلا ضرورة للجهاد!!..

الجهاد شُرِّع لكي يزيل العقبات من أمام الناس ليسمعوا دعوة الحق، وكذلك -وهو الأهم- أن يزيل الطواغيت ويحرر الأرض من عبوديتها لغير الله، لأنها أرض الله وملك لله، والمؤمنون جنود الله يريدون أن يحرروا أرض مليكهم التي ينبغي أن يحرروها لتكون له وحده.. فالذين يقولون هذا جاهلون، أو سيِّئوا النية، أو هما معا.. وهذا الذي يقولونه كله قائم على أساس الهزيمة أمام الإلحاح المستمر من أعداء الإسلام أن الإسلام دين سلاح، وأنه انتشر بالسيف وبالقوة، وأننا في عصر الديمقراطية وعصر الحوار.. بينما الواقع الذي يمارسونه -كما نرى في كل مكان- هو عكس ذلك تماما، فهم حينما يريدون يضربون ضرباتهم، ولا ينتظرون من الناس أي رد فعل، ولا يقبلون أصلا ردود أفعال، ولا يكلفون أنفسهم حتى مؤونة الاعتذار والتعليل.. والذي حدث في البوسنة والهرسك، والذي حدث في كسوفو، والذي يحدث في ألبانيا، والذي يحدث في السودان وفي أفغانستان، والذي يحدث في كل مكان هو منطق القوة والغلبة.. وهو المنطق الذي يخرس الآخرين..

أما منطق الدعوة فقط الذي يخلو من القوة ويخلو من السند فإنه لا قيمة له، لأنه لا يعطي صاحبه الفرصة للغلبة.. فالذين يقولون هذا الكلام؛ هم في الحقيقة يسلمون الإسلام لأعدائه، ويسلمون المسلمين لأعدائهم، ويريدون أن يلغوا ما قرره الله سبحانه وتعالى وما شرعه..

قاعدة الإسلام النظرية "لا إله إلا الله" بمدلولها الشامل تمثل ثورة على الباطل

"والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام -على مدار التاريخ البشري- هي قاعدة: "شهادة أن لا إله إلا الله" أي إفراد الله -سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. إفراده بها اعتقادًا في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة. فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."

في كل ما يكتب الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- نجد تلك الروح التي يتميز بها.. روح صاحب الحق المؤمن بقضيته، المستعلي بها، الذي لا ينتظر من الناس أن يرضوا عنها أو لا يرضوا، أو أن يوافقوه عليها أو لا يوافقوه.. هو يريد أن يهديهم إلى الحقيقة.. يريدهم أن يرتفعوا إليها، ولكنه ليس مستعدا أن يساومهم عليها، أو أن ينتظر رضاهم عنها، ولا يهمه ازدراؤهم لها أو غضبهم عليها.. والتعبير الذي يقرره هنا بكل ثقة وبكل وضوح وبكل بداهة، على الرغم من معرفته أن هذه الكلمات أشد إيلاماً من الرصاص في صدور أهل الجاهلية، بل في صدور المتمسلمين الذين يتصورون الإسلام بصورة أو بأخرى؛ حينما يقول **"فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."** هذا التعبير كان يعرف يقينا أن كل كلمة منه ستعطي الجاهلية المبرر الكامل من جانبها لأن تقضي على هذا الذي يتكلم بهذه الكلمات.. لأن هذه ليست مجرد ثورة أو انقلاب.. إنما هي

أكثر من ذلك؛ إذ هي نقض لكل الأسس الذي يقوم عليها المجتمع الجاهلي كله في هذا الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب، سواء كان المجتمع الجاهلي الكافر في الغرب، أو الوثني، أو الشيوعي، أو حتى تلك المجتمعات التي تلوك لا إله إلا الله بلا معنى ولا مدلول.. وكما عبر الأستاذ المودودي في أحد كتبه: لو أن الذي يؤذن كل يوم خمس مرات ويقول أشهد أن لا إله إلا الله.. لو أن هذا القائل يعرف معناها، ولو أن الذين يرددون وراءه ما يقول يعرفون معناها ما تركتهم الجاهلية يوما واحدا، لأن هذا إعلان يومي متكرر من أعلى مئذنة بالثورة على السلطان الأرضي وعلى الملك الأرضي وعلى الواقع الأرضي.. فلو علمت الجاهلية أن القائلين هؤلاء يعنون بهذه الكلمات إعلان ثورة وإعلان تمرد وإعلان انقلاب وإعلان تغيير ما تركت الذي يقول يقول ما يقول.. ولا الذي يردد يردد ما يردد.. ولكن لأن الجاهلية تعلم أن هؤلاء هازلون وعابثون، بل هؤلاء جاهلون بما يقولون فإنها تتركهم يقولونها ألف مرة لو شاءوا، وليس خمس مرات فقط..

هذا المعنى لا بد أن يكون واضحا في أذهاننا وفي قلوبنا؛ إن المسلم هو جندي لله عز وجل في هذه الأرض، جاء ليغير ويدمر ويقلب الباطل والفساد والفسق والفجور، ويطهر الأرض من هذا كله، بكل وسيلة من الوسائل؛ بالكلمة وبالفعل وبالسلاح وبالقوة.. وبغير هذا لا يكون جنديا مخلصا.. وبغير هذا لن يستطيع أن يقيم دين الله، ولا أن يحقق ألوهية الله في الأرض، ولا أن يقيم التوحيد في واقع الحياة..

وحينما ترى الأستاذ سيد يقرر ذلك.. نفهم أن ما يقصده بمعنى الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ليس هو المعنى السياسي البحت.. كما أراد بعض الناس أن يدّعوا أن سيد قطب وأبا الأعلى المودودي أرادا الإسلام السياسي، وأنهما تجاهلا معنى العبادة ومعنى النسك ومعنى التقرب إلى الله.. فكلمات سيد قطب في هذا الأمر واضحة؛ أنه يعني بشهادة أن لا إله إلا الله ما عناه الأنبياء تماما؛ وهي إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. وهو كلام واضح لا يعطي لأشد الناس غباء، وأشد الناس عداء أن يفهم منها غير ما أراد أن يقول.. فإذا بدلوا وغيروا فهذا دأب أعداء أي فكرة.. وهم يفهمونها جيدا، ولأنهم يفهمونها جيدا فإنهم يغالطون فيها عن قصد..

يقول سيد قطب شارحاً ما هو هذا الإقرار بالشهادة؟ **"إفراده بها اعتقادًا في الضمير"** إذن هي اعتقاد وليست مجرد قول باللسان، ولا إعلان لفظي فقط ليدخل به الإنسان إلى دائرة جموع المسلمين.. وإنما لا بد أن يكون اعتقادا في الضمير، **"وعبادة في الشعائر"** إذن العبادة والشعائر جزء أساسي من هذا الدين ومن هذه الشهادة، وأنه لا يتم للعبد أن يكون مسلما دون أن يكون متنسكا بالشعائر التي قررها الله عز وجل.. **"وشريعة في واقع الحياة"** فالذين يريدون أن يلوثوا هذا الفكر لن يجدوا لهم سندا فيما يدعونه أو فيما يقولونه..

"ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية.. أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله، لا يقضون هم في أي شأن من شؤونها، ولا في أي جانب من جوانبها، من عند أنفسهم، بل لا بد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه.. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه، وهو رسول الله. وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الإسلام الأول: "شهادة أن محمداً رسول الله"."

وهذه تكملة ضرورية، لأن الإسلام ليس فقط الإيمان بالله وحده وإعطاء السلطة لله وحده، وإنما أيضا لا بد أن نؤمن برسل الله جميعا، ونؤمن بخاتم النبيين محمد ﷺ، واعتبار أن كل رسول -وعلى رأسهم هذا النبي ﷺ- قد جاءوا ليبلغوا الناس ما أوحي إليهم، وأن الناس مطالبون أن يتبعوا هذا الرسول ﷺ، وكل رسول جاء ليقول لقومه

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].. تلك العبارة التي تكررت على لسان كل رسول كما جاء في سورة الشعراء.. وكما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]..

الرسل جاؤوا ليردوا السلطة إلى الإله الواحد

أما ذلك التصور المهلهل؛ أن الرسل مهمتهم أن يبلغوا، وأن الرسل جاءوا ليقولوا كلمتهم ويمضوا، وليس مهمتهم أن يقيموا الإسلام.. فهذا تصور عبثي حاول البعض أن يوهم الناس به، إذ لم تكن رسالة أي رسول هكذا.. وإنما جاء كل رسول ليبلغ، ويصر على قومه أن يغيروا، ويواجه قومه حتى يفصل الله بينه وبينهم على أساس هذه القضية.. فحينما تكون شهادة الركن الأول من الإسلام هي شهادة أن لا إله إلا الله، فلا بد أن يكون معها شطرها الثاني: وأن محمدا رسول الله.. ليتحدد من خلال ذلك وسيلة التلقي، وهو الرسول ﷺ. وهذا يعني كما قرر الله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].. ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].. فالقضية لا بد أن تكون مترابطة متماسكة هكذا، حتى تتحقق هذه الصورة البينة التي لا لبس فيها، والتي لا تحتاج -كما قلت- إلى حشد كثير من الأدلة. فإذا كنا قد قررنا -من الجانب العقلي البحت- أنه لا بد أن يكون لهذا الوجود سيد وخالق ومصرِّف وحافظ ومالك.. فمن الطبيعي أن يكون هذا الخالق هو المسيطر والحاكم.. ومن مصلحة الإنسان، بل ينبغي أن يكون من مطالب الإنسان وقد نظم الله حياته في شطر منها وهو الشطر غير الاختياري أن يسأل الله عز وجل ماذا أفعل في حياتي الاختيارية.. هذا هو الطلب الطبيعي المنهجي العقلي الذي يطلبه الإنسان العاقل إذا أراد أن يعيش حياة متناسقة.

ولكن إذا حدث العكس؛ أن يقود وينظم حياة الإنسان اللاإرادية إله، وينظم الحياة الإرادية إله آخر.. فإن الإنسان سيتمزق.. ككل إنسان يُشَد بين قوتين، لا بد أن يتمزق.. فهذا هو التصور العقلي البدهي الفطري.

ونضيف إليه أن البشرية توافقت -دون اتفاق ودون اجتماع- على أن أي تجمع بشري لا بد أن يقوده قائد واحد، وأنه إذا قاده اثنان فإنه لا بد أن يفقد استقراره ويفقد أمنه ويفقد مصالحه أيضا.

وإذا كان هذا هو اتفاق الحياة البشرية؛ على أنه لا بد أن تكون هناك سلطة واحدة لها كل صلاحيات التنظيم والإدارة والتوجيه والإصلاح والعقاب.. وإذا كان هذا ضروريا لمصلحة الناس على أي مستوى من مستويات الاجتماع، فإنه يكون بديهيا كذلك ألا يكون لهذا الكون إلا إله واحد يسيطر عليه ويصرفه. فإذا ادعى الناس أن هناك آلهة أخرى، أو اتخذوا شركاء آخرين، فإنهم يغالطون أنفسهم ابتداءً، ويخالفون بدهيات اتفقوا عليها في واقع حياتهم، وهم يمارسونها في الواقع فعلا. لكن حينما يأتي الشياطين ليزينوا لهم هذا التعدد في السلطة فهم لا يريدون بهم خيرا، وهم في الحقيقة لم يستطيعوا أبدا أن يقولوا إن الشركاء جميعا في مستوى واحد. ففي كل الأديان المنحرفة كان هناك دائما التصور بوجود إله أكبر، هو المقرر لكل شيء، وأن الشركاء

الذين يدعونهم إنما يقومون بإعانة الإله الأكبر، أو يأتمرون بأمره في تخصصات هو يعرفها ويحددها لهم. وكان العرب حتى مجيء الرسول ﷺ رغم كل شركهم الواضح وأصنامهم الكثيرة وآلهتهم المتعددة كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك.. وهذا تقرير واضح لهذه الحقيقة. وفي كل الأديان البدائية وغير البدائية -كما يقول أصحاب علم مقارنة الأديان- كان هناك دائما كائن أسمى وأعلى يدين له الناس في كل وقت.. ففكرة الكائن الأسمى فكرة تاريخية، وحقيقة تاريخية في كل القبائل البدائية وغير البدائية.. ولكنهم يشركون مع الله آلهة أخرى بالمعنى الذي حكاه القرآن ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣].. فلم يكونوا يعطونهم أبدا حق الألوهية الكاملة! ولم يكونوا يسوّون بين الآلهة.. وحتى العقيدة المثنوية عند الفرس؛ كان عندهم إلهان.. إله الشر وإله الخير، أو إله الظلام وإله النور.. وكان إله الخير هو الإله الأقوى والإله الأحب إلى الناس، وهو الإله الذين يدافعون عنه ويتمنون أن ينتصر، ويكرهون إله الشر.. فالناس دائما بفطرتهم لجأوا إلى إله واحد يحبونه، ذلك أنهم لا يعتقدون -حقيقة- إلا بألوهية واحدة حقيقية.. فهذه الحقيقة.. حقيقة أن السلطان كله لله والحاكمية كلها لله قضية عقلية ابتداء، وبدهية ابتداء، وقد أتى الإسلام وأتى الرسل جميعا ليقرروا هذه الحقيقة، حتى يكون للناس مرجع من عند الله يرجعون إليه.. فيقوِّي ذلك من إيمانهم ويعينهم..

"هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها.. وهي تنشئ منهجاً كاملاً للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الإسلام وخارجها، في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى."

فيقوم على هذه القاعدة -كما سنتحدث في فصل آخر- منهج كامل للحياة، يغذي كل جوانب الحياة الإنسانية، ولا يترك منها ركنا واحدا خارجا عن توجيه هذه القاعدة، ولا عن تغذية هذه القاعدة.. فكل حياة الإنسان على الأرض لا بد أن تكون مستمدة ومستنبتة من قاعدة لا إله إلا الله.. وأي شيء يقوم ويستنبت على غير قاعدة لا إله إلا الله فهو باطل شرعا، وليس له شرعية وجود ابتداء، بصرف النظر عن شكله أو لونه أو منافعه أو مضاره.. فالإسلام لا ينظر إليه ابتداء لأنه لم يولد ميلادا شرعيا، وبالتالي فهو لا حق له في الوجود ابتداء..

فهذه القاعدة النظرية يقوم عليها بناء متكامل ليحقق أهدافه النهائية؛ وهو تعبيد الناس لربهم، وإقرار ألوهية الله في الأرض..

مدلول الجاهلية

وقبل أن ننتقل إلى ما يترتب على هذه القاعدة من وجود ومن حياة ومن قيم وتقاليد وعادات.. نريد أن نقف وقفة عند معنى الجاهلية ومعنى الإسلام، أو مفهوم الجاهلية ومفهوم لا إله إلا الله..

المنهج الإلهي وحده يحقق التوازن للإنسان

وابتداء نقرر -بكل يقين- أن حياة الإنسان في الأرض هي صورة من صور الازدواج. فالإنسان إما أن يكون حيا أو ميتا.. إما أن يكون مريضا أو معافى.. إما أن يكون سعيدا أو شقياً.. إما أن يكون مسلما أو جاهليا.. هذه هي الصورة الازدواجية التي تتمشى

مع خلقة الإنسان.. فهو كائن مزدوج الطبيعة.. قابل للشر ونقيضه.. يعتوره ويعتلج في كيانه وفي أعماقه تلك الازدواجية باستمرار، وفي الجانب الإرادي منه تتصارع تلك الازدواجية باستمرار ليختار واحدا منها في كل وقت من الأوقات.. ففي كل وقت من الأوقات هو يختار.. ودائما هو على مفترق طريق.. ودائما عليه أن يختار؛ أن يكون في هذا الطريق أو في ذاك.. فالازدواجية هي طابع الإنسان.. والإنسان كما خُلق منذ البداية؛ نفخة من روح.. وقبضة من طين.. فهو يجمع بين جنبيه.. جانب معنوي وجانب مادي.. والإنسان يستطيع أن يرتفع إلى مستوى الملائكة، بل قد يعلو عنهم.. أو ينزل إلى مستوى الحيوان، وقد يتسفل عنه. هذه الازدواجية هي طابع حياة الإنسان.. ولكي يعيش هذا الإنسان لا بد أن يمزج بين هذين الأمرين على نور من الله، وعلى ضوء ما اختاره الله له.

والله سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان حينما يواجه هذه الازدواجية سيقع صريعا بين قوتين دائمتي الشد نحو اتجاهين متعارضين.. ولكن الله عز وجل الذي خلق هذا الإنسان يعرف أن هناك طريقا ثالثا؛ وهو أن هذا الإنسان يستطيع أن يؤلف بين هاتين القوتين وهاتين النزعتين، ويجعلهما متكاملتين، ولا يجعلهما متصارعتين.. وحين يحدث هذا التكامل فإنه يكون في أقوى قوته وفي أكمل صورته..

والإسلام جاء ليحقق هذه المعادلة الصعبة التي لم ينجح فيها أي مذهب من مذاهب التاريخ البشري كله.. فالتاريخ البشري كله يحكي لنا أن المذاهب البشرية كانت دائما تنحو بالإنسان إلى أحد الطرفين وتخلصه لها تماما؛ إما أن تجعله ماديا شهوانيا حيوانا لا يرفع رأسه إلى السماء، وإما أن يكون إنسانا منعزلا بعيدا عن كل أشكال الدنيا، وقابع في مغارته أو في معبده أو في زاويته، لكي يمارس الجوانب المعنوية، ويعيش بالصورة المعنوية.

هذه الازدواجية التي هي طابع الإنسان تعين الإنسان أن يفهم موقعه في الأرض وموقعه في هذا الكون.. فهو ليس كائنا أحادي الاتجاه، ولا أحادي الطبيعة.. ومن أجل هذا لا بد ألا يقلد تلك الكائنات الأخرى ذات الطابع الأحادي.. وإلا فإنه سيسير في طريق غير طريقه، ولن يحقق ما خلق من أجله.

والله كان قادرا -إذا أراد- أن يخلق الإنسان أحادي الطبيعة؛ كالملائكة أو كالحيوانات.. أو في أي صورة من صور الأحادية شاء.. ولكن الله اختار للإنسان شيئا آخر.. اختار له ذلك الازدواج الذي رتب الله عليه مسئولية الإنسان، ورتب عليه أيضا كرامة الإنسان في الأرض، وكرامته في الآخرة..

والرسل كان من مهمتهم أن يحققوا في واقع البشرية ذلك التناغم والتناسق بين هذين الطرفين.. وبين هذين الجانبين.. وأن يحققوا -رغم الازدواج- التكامل، ويلغوا الصراع الدائم بين الإنسان وبين طرفيه أو جانبيه أو طبيعتيه.. فقضية إسلام العباد لرب العباد ليست بذلك المعنى المبسط المخل؛ أن يتلقوا شريعته أو أن يدخلوا في دينه فقط.. فالأمر أعظم وأجل وأخطر وأشمل من مجرد التدين أو مجرد الانتماء.. الأمر أكبر من ذلك لأنه دين الله، ولأن الله الذي خلق الإنسان حينما يختار له طريقا فإن هذا الطريق يراعى فيه كل الاستجابة لنوازع هذا الإنسان ولحاجات هذا الإنسان.. فمن أهداف هذا الدين ومن وظائف

رسل الله أن يأتوا ليرسموا لنا نموذجا من نماذج التكامل الذي استطاع أن يجمع بين طرفي المعادلة.. بين طرفي هذا الكائن اللذين يبدوان لأول وهلة أنهما متناقضان..

ولكننا نجد في سلوك الأنبياء أنهما ليسا كذلك.. وبالذات في سيرة نبينا ﷺ، والذي استطاع أن يجمع بين الأمرين في أجلى صورهما، وفي أجمل وأكمل صورهما كذلك.. فالرسول ﷺ هو النموذج الحي لهذا التوازن وهذا التناسق.. ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].. فلقد استطاع الرسول ﷺ في حياته أن يرسم لنا النموذج المتكامل للإنسان الكامل الذي لم يعطل وظيفة واحدة من وظائفه، ولم يعطل واحداً من نوازعه.. فكما أنه كان أعبد الناس.. فقد كان يأخذ من الدنيا بقوة وبتذوق وباستمتاع.. وكما كان الرسول ﷺ يجاهد البطالة وصور الترف وصور السخافات الموجودة في الجاهلية.. فكذلك كنا نراه إنسانا يتذوق الجمال ويحب الجمال، ويفرح بالجديد، ويتعامل مع صور الجمال الموجودة في هذا الكون بأجمل مشاعر وبأجمل تعبير.. فهذا الرسول الكريم ﷺ جعله الله أسوة.. ليس أسوة فقط في خلوصه لله، وليس أسوة فقط في معرفته بدين الله، وليس أسوة فقط في توحيده لله عز وجل.. ولكنه أسوة أيضا في قدرته على المزج الرائع الذي كان يؤديه بين جانبيه.. الجانب المعنوي والجانب المادي.. الجانب البشري والجانب الروحي..

فحينما نتحدث عن طبيعة الازدواج في الإنسان لا بد أن نتابعه في كل ركن من أركان الحياة الإنسانية.. ومن هذا الازدواج.. أن الإنسان كما قال الله عز وجل ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٨-١٠].. وكما قال الله عز وجل ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].. وكما قال الله عز وجل في سورة التغابن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢].. وكما يقول في سورة الإنسان ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].. هذه صور الازدواج في عالم الاعتقاد.. في عالم السلوك.. في عالم اختيار الطريق الذي يختاره الإنسان..

وأمامه أيضا طريق مزدوج، فيه ظلام وفيه نور.. فيه إسلام وفيه جاهلية.. فيه إيمان وفيه كفر.. فيه سعادة وفيه شقاء.. فيه عز وفيه ذل.. هكذا الازدواجية تصاحب الإنسان في كل وقت.. والإنسان يقف دائما على مفرق طريق، ودائما هو مطالب أن يختار، ومطالب أن يعلم إلى أن يسير.. هل سيسير في طرف من طرفي الازدواج، أم أنه سيستطيع أن يجمع بين طرفي المعادلة..

فالإنسان أمامه طريقان في هذه الحياة.. إما الإسلام؛ أن يكون عابدا لله ومسلما أمره إلى الله، وإما أن يكون متمردا على الله. وعليه أن يختار هذا الجانب أو ذاك.. وحينما يختار الجانب الحق فإنه لا يفقد ما تحققه له الجاهلية من متاع ومن لذات ومن آفاق.. لأن كل ما هو خير في حياة الإنسان، أو كل خير تستطيع أن تحققه الجاهلية في حياة الإنسان فالإسلام يحققه له بطريقة أفضل وبصورة أكمل.. فهو حين يختار الإسلام فهو يحقق تلك الازدواجية بين عنصري كيانه، فيأخذ كل ما يريده وتريده الرغبات الإنسانية، ولكن تحت سلطان الله وتحت رحمة الله وتحت منهج الله..

فالإنسان أمامه هذا الازدواج؛ إما أن يكون مسلما، أو أن يكون جاهليا.. ليس هناك طريق ثالث يستطيع الإنسان أن يسير فيه.. فهو إما شاكر وإما كفور.. إما مؤمن وإما كافر.. إما مهتد وإما ضال.. إما أن يعيش في النور أو أن يعيش في الظلام..

ولذلك لا بد أن نقف وقفة عند مفهوم الجاهلية، ونقف أيضا وقفة عند مفهوم الإسلام بمدلوله الذي جاء به الأنبياء في صورته المبسطة وفي جوهره المبسط الذي ينبغي أن ندعو الناس إليه بصورة تقربه إليهم، وتجعله سهلا يفهمونه ويسيغونه أيضا..

مصطلح الجاهلية في القرآن وإسقاط ذلك على الواقع

الجاهلية تعبير أو صياغة من الصيغ التي وضعها القرآن الكريم.. فلم تستعمل صيغة الجاهلية المستخرجة من الجهل بصيغة الفاعلية هذه إلا في القرآن، وواضح أنها مستخرجة أو مشتقة من أصلها وهو الجهل.. والجهل في اللغة العربية ليس جهلا بمعنى عدم العلم أو عدم المعرفة فقط، وإنما الجهل قد يعني أيضا -كصورة من صوره- الإيذاء والشتم والسب وعدم احترام الآخرين وعدم إعطائهم حقهم، أو هو -في مجمله- عدم إعطاء الحق لأهل الحق بأن يسيء إليهم أو أن ينتقصهم.. كما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

فالعربي.. وحتى في كلمات الناس المتداولة حينما يسب إنسان رجلا يقال له: دعه إنه جاهل.. ولا يقصدون بجاهل هنا أنه لا يعرف، وإنما يقصدون أنه رجل من دأبه أن يؤذي الناس وأن يسيء إليهم..

فالجاهلية هنا مشتقة من الجهل، واستعملها لأول مرة القرآن الكريم.. ولذلك فإنه ككل مصطلح جديد يقابلنا في حياتنا لا بد أن نبحث عن معناه من خلال مصدره الأول الذي أنتجه.. فكما أن كلمة الديمقراطية حينما نريد أن نتعرف إليها فإنه يجب ألا نأخذها من تلك الشروح المعاصرة فقط، والتي تعطيها معان معدلة أو معان مزينة، لكن علينا أن نبحث عنها في مصدرها الأول اليوناني الذي اخترع كلمة الديمقراطية، وأقام في حياته واقعها.. فكلمة ديمقراطية كما نعرف جميعا أنها democracy أي سلطة الشعب، وهذه كانت قائمة في المدن اليونانية القديمة كإسبرطة وأثينا، فكانوا يجمعون أهل المدينة جميعا في أكبر ميدان في المدينة إذا أرادوا أن يقرروا شيئا مهما في حياتهم، فيعرضونه على الجميع، ثم يتناقشون فيه، ثم بعد ذلك يأخذون الأصوات عليه، ويمضون الرأي الذي أخذ أكثر الأصوات.. وهذا معنى أن يكون الحكم للشعب.. فسلطة الشعب هي التي تقرر الأمر في النهاية.. فكلمة democracy تعني سلطة الشعب.

وإذا كانت الديمقراطية هي سلطة الشعب، فمعنى ذلك أن يكون الإنسان هو صاحب الحاكمية في هذا المجتمع، فإذا كنا نفهم أن السلطة في الإسلام لله، فتكون الديمقراطية بهذا المصطلح وبهذا المدلول ليست قابلة للتوافق مع الإسلام، ولا يمكن للإسلام أن يتفق معها.. فحينما نرجع إلى المعنى الأصلي للديمقراطية يسهل علينا أن نرفضه، لأنه يتناقض تناقضا مباشراً مع أصل العقيدة الإسلامية؛ وهو أن يكون الحكم لله..

فالذين يروجون للديمقراطية الآن يحاولون أن يموهوا على الناس بقولهم إن الديمقراطية تعني فيما تعني العدالة والمساواة والشورى والتعبير الحر والنقد الحر، وأن يكون كل إنسان حرا في أن يقول ما يشاء.. فهم يخاطبون الناس من نقاط الحاجة التي يحتاجونها، والناس قد عاشوا تحت سيطرة الديكتاتوريات، فجاءت الديمقراطية لتنتشلهم من الديكتاتوريات..

الديكتاتورية والديمقراطية كلاهما يجعلان الإنسان هو السيد، ولكن في صورتين مختلفتين.. والإسلام يرى أن السيد هو الله، والناس عبيد لله.. هذان تصوران مختلفان تماما.. سواء كان ديمقراطيا أو ديكتاتوريا أو أي صورة من الصور الأخرى.. لكنهم حينما يخاطبون الناس بالديمقراطية لا يقولون لهم أن الحكم في الديمقراطية لغير الله، وأن التشريع فيها لغير الله، حتى وإن كان هذا حقيقة ويمارس في عالم الواقع، لكنهم يدخلون دائما للناس من ناحية الوجه الذي يزين لهم.. ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨].. فالشيطان مهمته أن يزين للناس أعمالهم.. فحينما نفهم الديمقراطية من مصدرها الأساسي فإننا نستطيع أن ندركها، ومن ثم تسقط تماما..

وهكذا فإن العودة إلى أصل كل مصطلح ومصدره ييسر لنا فهمه والحكم عليه كما رأينا آنفاً في مصطلح "الديمقراطية".

وكذلك مصطلح "الجاهلية".. فهو مصطلح قرآني، فإذا أردنا أن ندرك معناه فعلينا أن نعود إلى القرآن لنستفتيه في هذا المعنى.. والناس الآن يعرضون الجاهلية على أنها؛ إما مرادفة للتخلف، أو مرادفة لعدم العلم، وإما مرادفة للعصور الماضية التي وجدت في القرون المظلمة القديمة.. فإذا كانت الجاهلية بهذا المعنى فالعصر الحديث ليست فيه جاهلية.. فالعصر الحديث متقدم وغير متخلف، ولم تصل البشرية إلى العلم كما وصلت إليه الآن، ثم إننا نحن الآن -من الناحية التاريخية- في العصور المتنورة الحديثة.. فتصبح كلمة "جاهلية" إذن ممجوجة عند الناس، ويشعرون أنها رجعة إلى الوراء، ورجعة إلى التخلف، ورجعة إلى الجهل.. ثم إن القول بوجودها اليوم إنما هو كذبة كبيرة.. فكيف تكون جاهلية في عصر النور وفي عصر التكنولوجيا وفي عصر الديمقراطيات وفي عصر الحريات!؟ فمعنى الجاهلية إذن بهذا الشكل يسقط. ويصبح الذين يصمون البشرية الآن بالجاهلية ظالمين.. بل يكونون متخلفين.. بل يكونون أعداء لهذه البشرية.. لأنهم يصمونها ويكذبون عليها ويفترون عليها.. لأن الجاهلية ليس لها وجود الآن في حياة الأرض جميعا.. لأننا الآن لسنا متخلفين، ولسنا جهلاء، بل نحن نعيش في العصور المنيرة، والنهضات التي أضاءت وجه الأرض بقيم العدالة والتكافل والحرية..

حينما يكون العرض بهذه الطريقة لا شك أن صفة "الجاهلية" تكون ممجوجة، ولا يكون لوصف الجماعات المعاصرة بالجاهلية مكان..

ولكن هذه التعبيرات التي قالوها، وهذه التعريفات التي ابتدعوها ليست من الحق في شيء.. فهم قد حرفوها لكي يغلقوا باب الحقيقة فلا يطل على الناس حتى لا يكتشفوا مرارة الواقع، ولا يكتشفوا كلاحة الواقع، ولا انحطاط الواقع، فيصمونه بالجاهلية كما وصف الله عز وجل الأمم السابقة..

والله سبحانه قد وضع للجاهلية مفهوما معينا.. وإذا أردنا أن نرجع إلى القرآن سنجد أن القرآن قد **ذكر كلمة الجاهلية في أربعة مواضع في كتاب الله عز وجل**.. وفي كل موضع أعطى ملمحا من ملامح الجاهلية ومعلما من معالمها، بحيث إننا حينما نجمع المعالم الأربعة تبدو لنا حقيقة الجاهلية واضحة جلية لا تتلبس على أحد..

ففي **الآية الأولى** -بترتيب المصحف- في سورة آل عمران يقول الله عز وجل ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].. والظن في القرآن يأتي في الغالب بمعنى اليقين.. وليس بمعنى التردد والترجيح.. فيظنون هنا بمعنى يعتقدون،

كما جاء في القرآن في سورة الكهف ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].. يعني أيقنوا أنهم مواقعوها.. وجاءت لفظة "الظن" كثيرا في آيات القرآن بمعنى اليقين، إلا إذا كان هناك قرينة كما جاء في سورة يونس وفي سورة النجم ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨].. لكن الأغلب في الاستعمال القرآني أن "ظن" تأتي بمعنى اليقين. فلفظة "يظنون" هنا بمعني "يعتقدون".. يظنون بالله غير الحق، أي يعتقدون في الله غير الحق.. وهذا تقرير وحكم على أن اعتقاد الجاهلية مخالف للحق.. هذا الاعتقاد الذي وصفه الله أنه غير الحق هو ظن الجاهلية.. فالآية الأولى تقرر أن الجاهلية لها اعتقاد، ولها فلسفة، ولها فكرة، ولها تصور، ولكن هذا التصور هو غير الحق.. وهذا هو المعلم الأول، أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ولا شك أننا حينما نستعرض تاريخ الفكر البشري الضال البعيد عن النبوات نجد أنه كله فكر ضال، وأنه اعتقاد بغير الحق، وظن من الجاهلية.. ولو ضربنا مثلا واحداً من تاريخ الفكر البشري الضال سنرى كيف أن أكبر العقول -كما يقولون- لم يستطع أن يتعرف على الحقيقة حينما استعمل عقله بعيدا عن وحي الأنبياء.. ذلك هو أرسطو الرجل الذي مازالوا يقولون عنه أنه المعلم الأول، والذي تستقي منه أوروبا حتى الآن كثيرا من مفاهيمها، ويضعونه في مقام معلم البشرية الأول أو العقل الأكبر الذي أنتجته البشرية.. هذا الرجل حينما تحدث عن الله عز وجل وجدناه يقرر بأن هناك ما يسمى بواجب الوجود، وهو تعبير الفلاسفة عن الله عز وجل، أو عن علة الوجود الأولى، فهي واجبة الوجود، أي قديمة باقية قائمة بذاتها. فهو يقرر أن هناك واجب الوجود، وأنه يتصف بالكمال المطلق.. وهذا حق في ذاته. ولكنه يقول إن واجب الوجود هذا، أو هذا الكامل، لم يخلق الكون.. إذن كيف جاء هذا الكون؟ هذا الكون -كما يقول- ظهر إلى الوجود شوقا إلى الكمال.. وفي نفس الوقت يقول: هذا الكون قديم!! تناقض في عبارة واحدة.. كيف أنه وجد شوقا إلى واجب الوجود أو شوقا إلى الكمال المطلق أو شوقا إلى الله.. فمعنى أنه وجد أو ظهر أنه كان عدما ولم يكن موجودا.. ولكنه يقول إنه قديم.. فأرسطو عنده قديمان.. واجب الوجود، والكون... فكيف يكون هناك قديمان أولا، ثم كيف يسمي المحدث بأنه قديم؟

ثم أن هذا الإله أو واجب الوجود هذا لا يعرف إلا الكليات.. لا يعرف مفردات الأشياء.. فهو يعرف أن هناك كونا ولكنه لا يعرف عناصره، أو إذا عرف عناصره الكلية فعرف أن هناك خلقا اسمه الإنسان.. لكنه لا يعرف أفراده!! فهو بذلك يُفقِد الله سبحانه صفة من صفاته؛ وهي العلم. فهذا أكبر العقول التي أنتجتها أوروبا -والتي تدندن حوله وتمجده- يخبط في التيه ويأتي بالمتناقضات.

ويأتي بعده أفلوطين، وهو فيلسوف الإسكندرية، وهي المدرسة الثانية التي تأثر بها الفكر البشري تأثرا كبيرا. ونستطيع أن نعيد كثيرا من الفلسفة والتصوف والتشيع إلى هذا الأصل الذي يسمى الفكر الاستشرافي، والذي كان سمة فكر مدرسة الإسكندرية..

جاء أفلوطين هذا لينزِّه واجب الوجود تنزيها أكبر.. فيقول: أن واجب الوجود يتسم بالكمال المطلق، وأنه يغاير الحوادث، ويغاير جميع الموجودات الأخرى.. ولذلك فلا يجوز أن يتصف بالعلم، لأن الموجودات عالمة، ولا يجوز أن يتصف هو بما تتصف به الموجودات، فهو لا يعلم حتى ذاته.. أرسطو كان يقول إن سبب عدم انشغال واجب الوجود بالتفاصيل لأنه من الكمال لله أو من الكمال لواجب الوجود ألا ينشغل إلا بأفضل الذوات فهو منشغل بذاته ولا ينشغل ببقية الذوات الناقصة.. فهو منشغل

بذاته، ولذلك فهو لا يدري شيئا عن الوجود الآخر الناقص لأن واجب الوجود لا يجوز أن ينشغل إلا بذاته الكاملة.. ثم جاء أفلوطين لينـزهه أكثر، فيقول إنه لا يعلم حتى ذاته، لأن العلم صفة بشرية، ولا يجوز أن تتمثل صفة بشرية في واجب الوجود، فهو لا يعلم حتى ذاته..

فهذه صور من قمم الأفكار البشرية في تصورها لله عز وجل.. وهذا هو اعتقاد الجاهلية.. اعتقاد غير الحق

﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الآية الثانية في ترتيب المصحف.. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. وهنا أسند الله عز وجل للجاهلية حكما، فكما أن للجاهلية اعتقادا فإن لها أيضا حكما، لأن من طبيعة المجتمع البشري ألا يعيش بدون حكم وبدون نظام.. فالله عز وجل يسأل سؤالا استفهاميا استنكاريا ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. إذن هناك حكمان.. حكم الجاهلية، ويقابله حكم الله.. وهو -سبحانه- يقرر أنه لا ينبغي للناس أن يقبلوا حكم الجاهلية، ولا أن يرضوا بحكم الجاهلية.

وهذه الآية جاءت تعقيبا على تقرير الله عز وجل ثلاث مرات بأن من لم يحكم بشرعه فهو خارج عن دينه سبحانه ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤-٤٧].. ثم يقرر بعدها.. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].. إذن هناك حكم باطل للجاهلية، كما أن لها اعتقاداً باطلاً كما قرر قبل ذلك.. وأن هناك اعتقاداً حقاً وهو الاعتقاد الذي جاء به الأنبياء، وحكماً حقاً وهو ذلك الذي أمر الله به وجاءت به الأنبياء..

والآية الثالثة في سورة الأحزاب ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].. وهنا وصف الجاهلية أنها نظام اجتماعي منحل متبرج.. والتبرج هو شدة الظهور والوضوح والسفور.. كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] أي في مكان عال واضح أمام الناس.. فمن سمات الجاهلية التبرج.. ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣].. فالتبرج سمة من سمات الجاهلية، والتبرج في الحياة الإنسانية هو الخروج عن الفطرة.. وهو البعد عن تكريم الله عز وجل للإنسان، بالانسلاخ عن الفطرة الإنسانية التي كرمها الله..

وحينما تذكر كلمة "تبرج" يتبادر إلى الذهن دائما تصور المرأة حينما تخرج بفتنتها متبرجة لكي تفتن الرجال كي يسقطوا في حبائلها.. فمن هنا نُهيت المؤمنات عن التبرج كما تتبرج نساء الجاهلية، وهذا المعنى -وإن كان خاصا بالنساء- لكنه ليس وقفا عليهن.. فالتبرج إذا أخذناه بمعناه؛ وهو الخروج عن الفطرة، فسنجد كما أن النساء يخرجن عن الفطرة ببيان مفاتنهن

ودعوة الرجال إليهن وإشاعة الفاحشة واستغلال كل مفاتنهن لإفساد المجتمع، فكذلك الرجل يتبرج؛ يتبرج في مشيته، ويتخلع في سيره، ويتبرج بالكلمات البذيئة، ويتبرج بالأفعال البذيئة.. فكل هذا تبرج، لأنه مخالف للفطرة، ومخالف لما هو صحيح، ومخالف لكل ما يكرِّم الإنسان في حياته.. فكما أن المرأة تتبرج بالكلمة وبالمشية.. وبالشكل، وبالموضة، وبالمساحيق.. فكذلك الرجل يمكن أن يتبرج بالمشية، وبالكلمة، أو بالتصرفات والأفعال.. ولذلك نجد الرسول ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال[٥]، لأن الإسلام حريص جدا على أن يظل كل جنس متكامل بصورته التي خلقه الله عليها ليؤدي وظيفته التي خلق من أجلها.. فيحب للرجل أن يكون رجلا، يتميز بالرجولة والقوة والخشونة والعقل والاستقلال، وتتميز الأنثى بالنعومة والأنوثة والطراوة والتبعية.. فإذا حدث خلط بأن تخنث الرجل وتشبه بالمرأة في طراوتها وفي نعومتها.. وتشبهت المرأة بالرجل في شدته وخشونته.. فسدت الفطرة وفسد المجتمع، وفسدت سنة الحياة كلها واضطربت نتيجة لهذا.. فالإسلام يحرص على أن يكون كل طرف متميزا ونقيا نقاوة كاملة ليؤدي وظيفته.. فيكون الرجل رجلا، وتكون الأنثى أنثى.. وتأتي الجاهلية لتفسد هذا الأمر فتخنث الرجل وترجّل المرأة، وتفسد الفواصل الذي بينهما، لكي يصبح الإنسان والمجتمع الإنساني كله مجتمعا متميعا. وكما قالوا إن هناك جنسا ثالثا في طريقه للظهور، جنس لا هو امرأة ولا هو رجل!!

إذن من صفات المجتمع الجاهلي أنه مجتمع منحل ومنحط اجتماعيا، وفاسد الفطرة، لأنه يحول دون استقامة الإنسان، ويحول بين الإنسان واستعداده لتلقي أنوار الحق حينما يمسخه مسخا كاملا، وبالتالي تتميع الفواصل بين الرجل والمرأة.

وكما نرى في بلاد الغرب الآن أن الشذوذ معترف به ومقنن، بل يُسمح بالزواج بين الشواذ، وهناك كنائس مخصوصة لتزويج الرجال بالرجال والنساء بالنساء، بل نجد في هولندا -مثلا- تعرض أفراح الزفاف بين رجل ورجل وبين امرأة وامرأة في التلفاز، ويكون حفلا متكاملا كأي فرح من الأفراح.. بل ويعطونهم إعانات المتزوجين ككل امرأة ورجل متزوجَيْن، وفي فرنسا تبحث الحكومة إصدار قانون بإعفاء المتزوجين الشواذ من الضريبة كباقي الأزواج، والاعتراض على القانون يأتي من أن المتزوجين يعاملون معاملة فرد واحد، وبالتالي ستنقص ضريبة فرنسا كثيرا حينما يتزوج رجل برجل أو امرأة بامرأة، فتسقط ضريبة واحد منهما، وهذا يعود بالخسارة المادية على فرنسا.. فالقضية لديهم قضية مادية، وليست قضية أخلاقية..

فالجاهلية إذن مجتمع منحل متبرج، والنظام المنحل هذا في الجاهلية يقابله في الإسلام نظام الحجاب.. والحجاب ليس هو -فقط- حجاب المرأة.. فليس هو مجرد إخفاء المرأة لمفاتنها بحيث لا تلبس ما يصف أو يشف.. الحجاب نظام كامل.. نظام يحدد العلاقات بين عالم المرأة وعالم الرجل.. فيدخل في نظام الحجاب الاستئذان، والسلام، والتعامل مع المرأة، وحقوقها، وواجباتها، وحقوق الرجل، وواجباته.. فكل هذا يدخل تحت نظام الحجاب الذي يحدد العلاقة والتعامل بين الرجل وبين المرأة.. وهذا النظام الإسلامي -نظام الحجاب هذا- يحافظ على رجولة الرجل، وعلى أنوثة المرأة.. على دور الرجل وقوامته، وعلى تبعية المرأة وأمومتها.. ويحافظ أيضا على أن يظل جنس الرجل جنسا مذكرا وجنس المرأة جنسا مؤنثا، لتتم سنة الله التي يتولد منها الجنس البشري والنوع البشري، ليبقى هذا النوع البشري، مع المحافظة على كل المتعة التي يريد الله للإنسان أن يتمتع بها، في جو نظيف غير مختلط لا يؤدي إلى اختلاط الأنساب، ولا يؤدي إلى النزاع على المرأة، ولا القتال

٥ أخرجه البخاري وأحمد من حديث ابن عباس.

حول الشرف كالذي يحدث في الجاهلية.. فالمجتمع المسلم -أو النظام الإسلامي؛ نظام الحجاب- يعطي للإنسان كل المتاع في صورة نقية نظيفة خالية من كل الأوضار والأوشاب التي تعيشها الجاهلية، والتي تشكو منها الجاهلية العاقلة -إن كانت هناك جاهلية عاقلة- فهم يشكون من ذلك الفساد المُر الذي يعيشونه، ومن هذا المستوى المنحط المقزز الذي يمارسونه، والذي لا يشبعون فيه، فيجددون كل يوم في أشكال المتعة بصورة أو بأخرى، حتى شاع بينهم الزواج الجماعي والحفلات الجماعية التي يرتكبون فيها الزنا، وشاع بينهم تبادل الأزواج، إلى غير ذلك من فساد وشذوذ.. كل هذا لكي يجددوا بحثا عن المتعة بعد أن ضاقوا بالنوع القديم.. بل إن المحرمات أيضا كادت أن تتلاشى في المجتمع الأوروبي الآن، فلم يعد هناك تقزز من علاقة الرجل بابنته، ولا الولد بأمه ولا بأخته.. وقد قاموا فعلا في السويد بإباحة زواج الرجل بأخته.. وهم دائما يسبقون القوانين، بأن يتعارفوا عليها، فيشيع الأمر، فإذا أصبح عرفا قننوه.. وهم يعرضون ذلك في التلفاز بصراحة كاملة، ويطالبون بأن يكون الأمر مشروعا ومقننا، فلا يعارض ولا يحارب.. فهذه هي الجاهلية..

وقد بدت هذه الصيحات المنكرة تجد طريقها إلى البلاد التي ترفع الإسلام شعاراً وتتنكر له واقعاً وذلك عبر القصص التي تسمى "أدباً واقعياً" والتي صارت تجد لها مساحات واسعة في منتديات ومدونات الشبكة العنكبوتية "الإنترنت".

فالجاهلية -إذن- لها اعتقاد خاطئ وضال، ولها حكم خاطئ وضال، ولها أيضا نظام اجتماعي متفسخ ومنحط، ومصادم للفطرة البشرية، ومؤد إلى تمزق الكيان الإنساني فردا وجماعة..

والآية الأخيرة التي تتحدث عن الجاهلية هي قول الله عز وجل في سورة الفتح ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٦].. وهنا نأتي إلى آصرة الترابط بين المجتمعات الجاهلية بعضها مع بعض، أو بين الأفراد الجاهليين بعضهم مع بعض.. فالحمية العصبية، ورابطة العنصرية -عنصرية اللون، عنصرية اللغة، عنصرية المصالح، عنصرية التراب، عنصرية الأرض، أو أي رابطة عنصرية من هذه الروابط- هي التي تربط الجاهلية بعضها ببعض، فيتحاربون فيما بينهم من أجل الأرض، ومن أجل الجنس، ومن أجل اللون، ومن أجل اللغة، وهذه كلها روابط لا تؤدي إلى تجمع الجنس البشري، بل تؤدي إلى تناحره وتفتته، لأنه من الممكن أن يصل التعصب إلى أن تحارب كل أسرة الأسرة التي تضادها فتتفتت البشرية إلى أفراد لا يجمعهم شيء، لأن الأمر يصل في النهاية إلى أن يدافع كل فرد عن نفسه ضد الأفراد الآخرين جميعا -كما يقول جان بول سارتر في قصته "الجحيم هم الآخرون"- فهو يرى أن الآخرين هم الأعداء.. فالفلسفة الوجودية التي جاء بها جان بول سارتر تعني أن يكون الإنسان فردا أنانيا، يفعل ما يشاء، ويحقق لذته بأي طريقة حتى لو كانت على جماجم الآخرين.. وهذه قمة العصبية الجاهلية التي تمزق كل الأواصر، فيبقى الإنسان فردا يفعل ما يشاء، ويتلقى أيضا جزاءه نتيجة لهذا التفرد بأن يُقتل ويُسحق.. ولكنه يكون قد عاش ولو لحظات فرداً، وأدى متاعه الفردي بحرية كاملة، لم يخضع للآخرين الذين يراهم هم الجحيم بعينه، لأنهم يقفون ضد شهواته وضد ذاته..

وأوروبا تحقق هذا المعنى بصورة أو بأخرى.. فحينما يتجول الإنسان في الحي اللاتيني في باريس.. يجده حيا مشوها، ولا تحس أنك أمام كائنات إنسانية.. وإنما تجد أن هناك مُسَخا لا تستطيع أن تصفها.. رجال ونساء لا يجمعهم شيء إلا الشهوة التي يريد كل منهم أن يحققها بطريقته الخاصة.. فتجد الذي يمشي عاريا، والذي يمشي وقد حلق نصف رأسه، والذي يغطي

صدره ويمشي ببقية جسمه عاريا، والذي يسكر ويحتضن عمود النور على أنه امرأة.. أشكال وألوان من الفساد والانحلال والهوس والجنون تشعر معها أنك دخلت مباءة منتنة.. أو دخلت حظيرة حيوانات.

هكذا تكون روابط الجاهلية، روابط من طبيعتها أن تفرق ولا تجمع، لأنها تجعل رابطة التجمع بين الناس هي الأرض أو اللون أو الجنس أو اللغة، أو أي رابطة من روابط هذه الأرض.

وطبيعة هذه الروابط أنها مفرِّقة، وأن الإنسان مجبر عليها، فهي ليست روابط اختيارية، إنما هي روابط إجبارية. فالإنسان لا يستطيع أن يغير مكان مولده، ولا أن يغير لونه، ولا التراب الذي نشأ عليه، ولا أن يغير الجنس الذي ينتمي إليه.. وهذه روابط الحيوان في الحقيقة وليست روابط الإنسان.. فالحيوان وحده هو الذي يرتبط بمجال معين وبحدود معينة يعيش فيها، وبطعام معين يأكله.. فحيوانات القطب لا تستطيع أن تعيش في الخط الاستوائي، أو العكس.. وبينما الإنسان هو ذلك الكائن المتحرر من كثير من القيود، وهو الذي رزقه الله عز وجل تلك المرونة والقدرة على التواؤم مع الأجواء المتعددة ومع الأوضاع الكثيرة.. فجَعْل تلك الروابط الحيوانية هي الرابطة التي ينتمي ويلتقي عليها الناس جهل وخطأ كبير، فهم لا بد متفرقون..

من أجل هذا كانت العصبية مرفوضة في الإسلام.. يقول الرسول ﷺ (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)[٦]، وقال للأنصار حينما تعاركوا فيما بينهم بعد أن أشعل اليهود بينهم الحمية بتذكيرهم بما قيل في حرب بعاث (ما بال دعوى الجاهلية.. دعوها فإنها منتنة)[٧].

ولا شك أن آصرة التجمع المقابلة في الإسلام هي العقيدة، وهذه العقيدة تربط البشر جميعا بإله واحد.. كلهم متساوون أمامه، والتفاضل بينهم بالتقوى. أما حواجز اللغة والمكان والشكل واللون والجنس فكلها يضعها الإسلام تحت قدميه، ولا يجعلها أبدا مفرِّقة بين الناس. فالعقيدة الإسلامية هي التي تجمع الناس على الله سبحانه وتعالى، وتجعل التفاضل بالتقوى، فلا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى، ولا يترتب في الإسلام على اللون ولا اللغة ولا المكانة ولا الوراثة ولا النسب ولا الحسب أي شيء، وإنما يتساوى الناس جميعا أمام الله، وحقوقهم واحدة، وإنما يتفاضلون بالتقوى التي تحدد مقامات كل واحد منهم ومنزلته.

وكون التقوى هي آصرة التجمع، وهي القيمة التي تفاضل بين الناس، هذا في ذاته يؤدي إلى تجمع الناس، ويؤدي إلى ترابط الناس؛ لأنه حينما يتقي الناس الله عز وجل فإنهم يتحابون ويتعاونون ويشيع بينهم الإيثار، ولا يعتدي بعضهم على بعض، ولا يظلم بعضهم بعضا.. فينشأ من خلال تقوى الأفراد خير المجموع، وتتحقق بذلك الصورة المثالية، أو المجتمع المثالي، أو المدينة الفاضلة التي يسعى إليها الفلاسفة، ويشتاق إليها الناس، وهي لا تتحقق إلا من خلال هذه الآصرة الوحيدة للتجمع؛ وهي العقيدة، ومن خلال أن يكون التفاضل بالتقوى. وهذه لا يدخل فيها عائق آخر غير الإنسان ذاته، فالناس جميعا يستطيعون أن يغيروا انتماءاتهم، ويغيروا عقائدهم وأفكارهم، وأيضا يتحكمون في التزامهم أو عدم التزامهم.

٦ رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم -رضي الله عنه-.

٧ متفق عليه من حديث جابر -رضي الله عنه-.

لكن الناس لا يستطيعون أن يغيروا ألوانهم ولا أماكن ولادتهم ولا أجناسهم.. فنجد أن الرابطة التي يجمع الله الناس عليها رابطة تليق بالإنسان المخيَّر، والإنسان المكرَّم، الذي يختار بنفسه طريقه، ويختار بنفسه مكانته.. بينما الجاهلية تضع العراقيل ابتداءً على تجمع الناس، وتضع أيضا الأسافين التي تؤدي إلى الصراع وتؤدي إلى التباغض والتحاسد والتفرق.

وقد أرادت الشيوعية أن تكون عقيدة تجمع الناس، فلا يفرق بين الناس اللون ولا الجنس، وإنما تجمعهم على عقيدة واحدة.. ولكن هذه العقيدة في ذاتها كانت قائمة على الصراع بين الطبقات، وقائمة على إثارة الحسد والحقد والحنق بين الناس.. ومن ثم فهي عقيدة مسمومة تؤدي إلى التصادم، كما أنها تلغي القيم وتلغي الأخلاق.. وتعتبر أن الشيوعي النقي هو الذي لا أخلاق له، وبالتالي تدق في نعشها ابتداء مسمار موتها ودمارها..

الجاهلية التي وردت في الآية الأخيرة تعبر عن العصبية المنتنة، وعن العنصرية، وتعبر عن كل أسباب التفرق وأسباب التشرذم وأسباب التصارع.. وهذا بذاته يصادم مصلحة الإنسان وأمن الإنسان في الأرض..

ولا شك أن الحضارة الإنسانية تقوم على أساس الأمن، وعلى أساس العدل. فإذا كانت الجاهلية تقيم حياتها على أساس الظلم والتباغض فإنها تعرِّض الحضارة الإنسانية إلى الهدم والضياع.

وحينما نجمع ما أوحت به هذه الكلمة التي جاءت في القرآن الكريم وهي "الجاهلية" من خلال الآيات الأربع التي وردت في كتاب الله عز وجل سنجد أنها تعبر عن: الاعتقاد الفاسد، وعن الحكم الباطل الفاسد، وعن المجتمع المتفسخ المتبرج الذي يدعو إلى كل مفسدة، وعن المجتمع الذي يقيم روابطه على الصراع وعلى التفرق، ويؤدي إلى شقاء الإنسان.. وهو ذلك الضنك الذي عبر عنه القرآن ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ [طه: ١٢٤]..

فمن خلال هذه الأوصاف لكلمة الجاهلية، ومن خلال الحقائق التي تنبع من استعمالات مصطلح الجاهلية ومدلولاته نستطيع أن نعرّف الجاهلية تعريفات أدق وأصدق من تلكم التعريفات التي أوحت بها الجاهلية، والتي ذكرناها قبل ذلك.

فيمكن أن نقول إن الجاهلية هي كل دين وكل نحلة وكل نظام غير الإسلام.. وهذا يمكن أن يكون تعريفاً من التعريفات، ويمكن أن تكون الجاهلية: هي الحالة التي تكون فيها البشرية حين تحيد عن منهج الله وتحيد عن دين الله عز وجل.. أو هي -بتعريف آخر- كل وضع وكل حالة ترفض فيها البشرية الاهتداء بهدي الله، وترفض الحكم بما أنزل الله.

هذه كلها تعريفات صحيحة، وهذه التعريفات أو هذه الحقائق التي استخرجناها من مصطلح الجاهلية بمدلولاته القرآنية لا صلة لها من قريب أو بعيد بتلك التعريفات التي يقولها الناس.

فليست الجاهلية ضد العلم. فقد يكون المجتمع في أقصى درجات التقدم المادي، بمعنى العلم المادي والعلم التكنولوجي والتقني والابتكار والتعامل مع السنن ويكون في قمة الجاهلية، كما كانت عاد وثمود، وكما كان الفراعنة، أو كما هي الآن أمريكا وغيرها.. فليس معنى الجاهلية هو التخلف المادي والعلمي، وليست الجاهلية مرادفة لعدم العلم.

وليست الجاهلية فترة تاريخية جاءت ثم مضت ولن تعود.. وإنما هي حالة مَرَضِية، فإذا ظهرت أعراضها في أي وقت من الأوقات ظهرت الجاهلية.. سواء كان ذلك في الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل.. فالمرض ليس له زمان، فحينما تأتي أعراضه ويصاب به الإنسان يوصف بالمرض الذي أصيب به. فكذلك البشرية حينما تظهر عليها أعراض الجاهلية تكون في حالة جاهلية. فهي ليست فترة تاريخية، وإنما هي حالة مرضية تصاب بها البشرية، أو تقع فيها البشرية حينما تحيد عن دين الله، وحينما ترفض الاهتداء بهدي الله وترفض الحكم بما أنزل الله.

عناصر الجاهلية

ونستطيع أن نقول إن عناصر الجاهلية الرئيسية يمكن أن نضمها في عنصرين؛

العنصر الأول: عدم المعرفة الصحيحة بالله عز وجل.. ونقول عدم المعرفة الصحيحة لأن هناك دائما معرفة بالله عز وجل، ولكنها دائما في الجاهلية تكون ناقصة ولا تكون صحيحة، فلا نقول عدم المعرفة بالله فقط لأن عدم المعرفة إطلاقا ليست حقيقة تقع فيها البشرية. فالبشرية دائما تعرف الله، ولكنها معرفة غير صحيحة، أو معرفة ناقصة. فأول عنصر من العناصر التي تميز الجاهلية هو عدم المعرفة الصحيحة بالله.

والعنصر الثاني: هو عدم الحكم بما أنزل الله.

وكما نرى فإن أحد العنصرين ظاهر، والآخر باطن.. فعدم المعرفة يمكن أن يكون باطنا، غير واضح وغير ظاهر. فأنت إذا سألت أي إنسان: أتعرف الله؟ سيقول لك: أنا أعرفه.. وتحتاج وقتاً طويلاً وجدلاً طويلاً لكي تثبت أن معرفته بالله ناقصة.. فالمعرفة أمر باطن، ولا تكون ظاهرة في كل وقت. بينما العنصر الثاني؛ وهو عدم الحكم بما أنزل الله.. أي أن تكون شريعة القوم هي غير شريعة الله، وأن يكون تحاكمهم إلى غير شرع الله عز وجل، فهذه قرينة ظاهرة. فالقرينة الباطنة هي عدم المعرفة الصحيحة، والقرينة الظاهرة هي عدم الحكم بما أنزل الله. ولذلك كان الحكم الفقهي يدور مع القرينة الظاهرة وليس مع القرينة الباطنة. فإذا كان هناك مجتمع يحكم بغير ما أنزل الله فهو مجتمع جاهلي، وإذا كان هناك فرد يرفض الحكم بما أنزل الله، فهو فرد جاهلي. ولهذا كان تفريق الفقهاء بين دار الإسلام ودار الكفر يدور مع ظهور الشريعة بوصفها حكماً بين الناس، أو اختفائها. فالمجتمع المسلم هو ذلك المجتمع الذي يحكم بما أنزل الله ويرفض كل حكم آخر غير حكم الله عز وجل، ولا يعتد بحكم ولا بمصدر لحكم إلا أن يكون قد اعتمده الله عز وجل. ونحن حينما نتلقى ونطيع رسول الله ﷺ إنما نطيعه لأن الله أمرنا بطاعته، ولم نختر نحن طاعته بمحض أنفسنا، ولو أُمرنا بعدم طاعته لما أطعناه ولما تلقينا منه.. ولكن الله هو الذي أمر بطاعة رسول الله ﷺ، لذلك نحن نطيعه ونتلقى منه، ونعد سنته مصدر أصلياً للتشريع لأن الله أمرنا بذلك ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠].. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]..

سمات المجتمع الجاهلي

فالمجتمع الجاهلي إذن مجتمع محدد السمة؛ بأنه مجتمع لا يتحاكم إلى شرع الله.. بينما المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يتحاكم إلى شرع الله. وبالتالي تنقسم الأرض إلى دارين؛ دار إسلام ودار حرب.. والمعالم لكل منهما واضحة. والفقهاء يعتَدُّون بهذا التقسيم اعتدادا أساسيا.. واختلف في هذا بعض الفقهاء -وخاصة الحنفية- فاعتبروا أن الأمان يعطي صفة دار الإسلام، وهذا رأي قد رُدّ عليه، ولا يُعتدُ به.. ولعله كان ناتجاً من حالات واقعية، ولكنها لم تكن بهذه الصورة التي يقع بها الأمر الآن.

فالمجتمع الجاهلي إذن هو المجتمع الذي يرفض الاهتداء بهدي الله، ويرفض الحكم بما أنزل الله عز وجل.

ونتحدث الآن عن سمات المجتمع الجاهلي.. ما هي سمات المجتمع الجاهلي؟ أو: ما هي السمات المشتركة في كل الجاهليات؛ قديمها وحديثها وتلك التي ستأتي في المستقبل؟

الجاهليات كلها -كما قلنا- واحدة، فهي حالة مرضية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله. وكلها لها سمات مشتركة على مدار التاريخ.. فإذا وُجِدت هذه السمات في أي وقت فهي تصف ذلك المجتمع أو هؤلاء الناس بالجاهلية.

أول سمة من سمات الجاهلية: عدم الإيمان الصحيح بالله.. فالجاهليات كلها لا تؤمن إيمانا صحيحا بالله. وهناك فرق بين عدم الإيمان الصحيح وبين عدم المعرفة.. لأن هناك مجتمعات تعرف الله، ولكنها لا تؤمن به إيمانا صحيحا. فأهل الكتاب -مثلا- يعرفون الله، ولكنهم لا يؤمنون بالله إيمانا صحيحا.. فليست العبرة بمطلق المعرفة..

فالجاهليات كلها لا تؤمن بالله إيمانا صحيحا؛ فهي إما تكفر به، أو تشرك معه آلهة أخرى. وعدم الإيمان -أو الشرك- قد يكون في الاعتقاد، أو في العبادة، أو في الاتباع والحاكمية. فهذه أول سمة من السمات المشتركة للجاهلية..

السمة الثانية: وهي مستخرجة من السمة الأولى، وهي اتباع الأهواء، فأهل الجاهليات كلها يتبعون الأهواء، بصرف النظر عن نوع الهوى؛ سواء كان هوى ماديا محضا، كما تتصف به جاهليات اليونان والرومان وجاهليات الغرب كلها.. أو كانت جاهليات تبدو عليها صفة التدين أو سمة التدين؛ كجاهلية الكنيسة، أو جاهلية الفراعنة، أو بعض الجاهليات الأخرى كجاهلية الهند.. فهي جاهليات تبدو متدينة ومترهبنة، ولكنها في الحقيقة تتبع أهواءها في اتخاذ شكل حياتها.

فالجاهليات كلها تشترك في سمة اتباع الهوى؛ سواء كان هذا الهوى بالسعي إلى الاستغراق في الدنيا.. أو بأن يكونوا هم حكام أنفسهم وأسياد أنفسهم.. أو كانوا يتبعون نحلا باطلة تدعوهم إلى التدين الباطل وتعبدهم لآلهة باطلة، كما كان النصارى أو اليهود أو الفراعنة أو الهنود يفعلون، أو كأي جاهلية من هذه الجاهليات التي تتدين ولكن بدين باطل يصنعونه من عند أنفسهم. وكل هذا ناتج من اتباع الهوى، فيصنعون دينا من عند أنفسهم يبتدعون له تصورا، ويعملون له طقوسا، ويرتبطون به، اعتقادا منهم أنه هو الدين الحق، وهو ليس بحق..

السمة الثالثة: وهي عبادة الطاغوت.. فأهل الجاهليات كلها يعبدون الطاغوت.. والطاغوت هو صيغة مبالغة من كلمة الطغيان، والطغيان تعني مجاوزة الحد، والله عز وجل يقول ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١].. أي لما جاوز حده.. والعرب يستعملون هذه الصيغة للمبالغة، مثل: طاغوت، رحموت، ملكوت، رهبوت.. فحينما يريدون أن يبالغوا في الرحمة أو الرهبة أو الطغيان يقولون هذه الصيغة.

فالطاغوت هو صيغة مبالغة من الطغيان، وإذا كان معناه اللغوي هو مجاوزة الحد فإن معناه الشرعي هو كل ما يصد الناس عن سبيل الله فكل ما كان كذلك فهو طاغوت. فالطاغوت هو كل ما صرف الناس عن الله عز وجل. والطاغوت هو كل ما حوّر حياة الناس تبعا لمقتضياته هو وأغراضه هو.. كل هؤلاء طاغوت. أو كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: والطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله، فكل ما عُبد من دون الله، ورضي بالعبادة، من معبود، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله، فهو طاغوت[٨].

والاحتراز هنا بذكر الرضا، لأن الناس قد عبدوا عيسى وعبدوا عزيرا وعبدوا الملائكة وهم غير راضين بذلك.. فكان لا بد من هذا الاحتراز.

ونحن نرى هذه السمة موجودة في كل جاهلية، حيث أنهم يعبدون أو يتبعون ويطيعون سادتهم وكبراءهم بغير إذن من الله عز وجل، ويؤدي بهم ذلك إلى الخروج عن دين الله، والخروج عن شرع الله عز وجل، يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، كما حدث في كل جاهليات التاريخ.

وأنواع الطاغوت كثيرة جدا، وأقلها خطرا تلك الطواغيت المجسمة من الأصنام والأوثان. لكن الطواغيت المعنوية أشد خطرا من الطواغيت المادية المجسمة. وفي كل عصر طواغيت. وإذا أردنا أن نستعرض بعض طواغيت عصرنا الحاضر لوجدنا أنه من أكثر العصور طغيانا ومن أكثر العصور امتلاء بالطواغيت المعنوية التي تخفى على الناس فيتبعونها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا..

طاغوت القومية وطاغوت الوطنية، طاغوت قديم حديث.. فالناس يتبعون أوطانهم ويجاهدون في سبيل إعلاء شأنها حتى ولو كان ظلما وعدوانا.. فبسبب القتال في سبيل الوطن يمكن أن يأكلوا حقوق الناس، ويغتصبوا أراضيهم، وباسم رفعة الوطن يستعمرون البلاد ويذلون أهلها؛ كما يقولون: بريطانيا فوق الجميع، وألمانيا فوق الجميع.. كل هذا طاغوت.

الفن مثلا طاغوت.. وهو طاغوت ضخم جداً، يُعبِّد الناس له، ويجعلهم يحولون حياتهم، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله استجابة للفن، ويعتبرون أن الفن يطالبهم بمقتضيات معينة فيتبعونها، حتى ولو كانت تغضب الله عز وجل والفن اليوم -كما نراه- سواء من أغان أو تمثيليات أو مسرح أو سينما، كله في الغالب يحارب الله، ويحرم ما أحل الله، ويحل ما حرم الله سبحانه وتعالى. وكل هذه المحرمات التي ترتكب باسم الفن من موسيقى ومن دعارة ومن عري ومن سفور ومن ممارسات مخجلة.. يعتبرونها فنونا، ويعتبرون أن الموت في سبيلها شهادة، فيقولون شهيد الفن لأنه مات على المسرح مثلا، أو مات وهو

٨ الدرر السنية. ج١. ص١٦١.

يؤدي دورا فنيا عظيما كما يتصورون، ويعدونه شهيدا.. وهم صادقون في هذا، لأنه شهد أن الفن إلهه، وأن الفن ربه، وأن الفن سيده، فهو فعلا شهيد الفن.

وحينما يرتكب الممثلون أمام الجماهير كل ما نهى الله عنه يعدون هذا مقتضى من مقتضيات الفن التي لا يستطيعون أن يخالفوها.. وحينما اجتمعت أم كلثوم مع عبد الوهاب في أول أغنية جمعتهما معا "أنت عمري" كان "المانشيت" الكبير الذي جاء في صفحات الجرائد حينذاك: التقاء آلهة الفن.. فهم يعترفون بذلك.. وعُدَّ هذا قمة الفن وقمة العظمة التي وصل إليها الفن المصري حينما يلتقي عبد الوهاب وأم كلثوم، ثم كرروا هذا اللقاء أكثر من مرة لكي يحققوا ما تريده الجماهير.. ونرى في صفحات المجلات وفي الشوارع في إعلانات السينما "معبودة الجماهير".. ويعدونه أمرا طبيعيا جدا لا يثور عليه أحد، فهي معبودة فعلا تلك الراقصة الخليعة الماجنة، هي معبودة الجماهير. فهم قد نجحوا في أن يصنعوا طاغوتا يحول حياة الناس؛ من أجله يسهرون، ومن أجله يعيشون. فيأتي الناس لسماع أم كلثوم من أقاصي الأرض، فكان أول يوم خميس من الشهر ملتقى لجميع العرب من جميع بقاع الأرض، يأتي الخليجيون بالطائرات ليحتلوا الأماكن القريبة من أم كلثوم، ويعيش الشعب المصري ليلة كاملة استماعا لأم كلثوم، فهي ليلة مقدسة، ليلة الخميس الأول من الشهر، ولذلك حينما قالت جريدة الأوبزيرفر البريطانية في عدد من أعدادها أن جمال عبد الناصر يعتمد على عكازين؛ أحدهما شيخ الأزهر والآخر أم كلثوم.. فإنها كانت تعبر عن حقيقة.. فلا شك أن شيخ الأزهر يومها كان يوقِّع باسم الدين أو باسم الإسلام ليبرر كل طغيان عبد الناصر، ويخدر الناس باسم الإسلام وباسم الدين، كما يعمل كل شيخ للأزهر وكل مفت باع دينه مع حاكم عصره.. والعكاز الثاني هو الذي يلهي الجماهير فيسكرون بخمر أم كلثوم وبصوتها.. الذي لا شك أنه كان صوتا متميزا وخلابا، ولكن جعله الله فتنة، لكي يراهم هل سيطيعونه أم يعبدون أم كلثوم، وسقط الناس في الاختبار..

فلا شك أن طاغوت الفن طاغوت هائل جدا وطاغ جدا على الناس، وكما نرى فهم ينجحون كل يوم في تعميق الفن وإعلاء طغيانه، وترى الشباب والناس يعدون الممثلين هم المثل الأعلى في حياتهم؛ أي حركة، وأي ملبس، وأي تسريحة شعر يعملها الفنان تصبح هي الرقي وهي سمة "الموضة"، أو الحداثة والتقدم في جميع أنحاء العالم.

طاغوت الموضة أيضاً مذِّلٌ جدا للناس، فمصممو الأزياء ومصممو التسريحات كلهم يتحكمون في الناس تحكماً مطلقاً. فكل سنة أو كل موسم يُخرجون موضات جديدة، والناس لا يستطيعون أن يخالفوها.. لأنهم إذا خالفوها فهم رجعيون متخلفون فقراء، غير قادرين أن يتزيوا بأحدث موضة.. وهم يتلاعبون بالناس؛ يضيقون الملابس ثم يوسعونها، يقصرونها ثم يطيلونها، وكل مرة يكون هذا هو الأفضل.. وحينما تقول للمرأة: غطي جسدك، تقول الموضة عكس ذلك ولا أستطيع أن أخالفها، فإذا جاءت بعد سنة الموضة تأمر بالملابس الطويلة يصبح القصير عارا لا تستطيع المرأة أن تلبسه.. فهي تتعرى وتكتسي بأمر من آلهة الموضة -من هذه الطواغيت- وليس من الله.. فالله عز وجل يقول لهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].. وأهل الموضة وبيوت الأزياء تقول لهن تعرين وتبرجن، فيتبعون ما أمرت به بيوت الأزياء.. فمن المعبود؟ ومن المطاع؟ الله أم هذه الآلهة المدعاة؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]..

وهكذا إذا تتبعنا ألوان الطواغيت في الأرض سنجد أنها كثيرة جدا، وكلها تحور حياة الناس حسب مقتضياتها. ولذلك يقول الرسول ﷺ (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة)[٩].. لأنه يعبد الدرهم، ويعبد الدينار، ويعبد الترف والقطيفة.. فتنسيه الله عز وجل. فالذين يريدون أن يزدادوا ثروة يجرون ليل نهار، ويسافرون أقطار الأرض ليل نهار، ولا يفكرون إلا في كيف يعقدون الصفقات ويزيدون أموالهم، ولا ينشغلون بأي شيء آخر، وترى التجار ينامون عن الصلوات، ولا يعتنون بها إذا تعارضت مع صفقات أو ربح فمعبودهم الحق هو الذهب الرنان.

السمة الأخيرة من سمات الجاهلية هي الاستغراق في الشهوات.

والاستغراق في الشهوات شيء آخر غير اتباع الأهواء.. فليس كل الأهواء شهوات. ونقصد بالاستغراق في الشهوات؛ شهوتي الفرج والبطن. فهاتان الشهوتان بالذات من أكثر الشهوات التي تدعو إليها الجاهلية وتُغرِق فيها الناس إغراقا. فقد يكون بعض الناس الذين يتبعون أهواءهم يريدون أن يكونوا أصحاب سلطان.. أو أصحاب جاه.. أو أصحاب مال. وقد لا ينزلقون إلى شهوة الفرج ولا إلى شهوة البطن.. لأن شهوة الجاه شهوة قوية أيضا، وشهوة السلطة شهوة قوية، وشهوة القوة شهوة قوية.. فليس بالضرورة أن يكونوا مستغرقين في الشهوات الجنسية أو في الأكل والشرب.

واتباع الأهواء قد يكون بأن يشرعوا للناس غير ما أنزل الله، وهذا هوى.

ولكن الاستغراق في الشهوات نقصد به الانحطاط إلى درك الحيوان، حيث ينطلق الإنسان بلا حدود ليغذي شهواته الجنسية والبطنية.. وهذه الشهوات هي التي يعدها الطغاة صمام الأمان الذي يؤمنهم من الناس، فيشيعون في الناس الشهوات، ويطلقون لهم الحرية كاملة في هذا الجانب فقط، بينما يحرِّمون عليهم أن يكونوا أحرارا في أي شيء آخر.. افسدوا كما شئتم.. اشربوا الخمر كما شئتم.. ازنوا كما شئتم.. لكن لا تتكلموا في السياسة، ولا في الاقتصاد.. لأن هذه أمور أكبر منكم، ونحن أعلم بمصلحتكم فيها.. أما هذه الأمور فإنهم يتركونهم يعربدون فيها. وهي أمور قريبة من الناس، وحبيبة إلى النفس، والانزلاق إليها انزلاق سهل.

وذات مرة وقف الطاغية "تيتو" عقب مظاهرات حدثت في يوغسلافيا وقف يقول في خطبة له: ماذا يريد هؤلاء المتظاهرون لقد أطلقنا لهم الحرية في شرب الخمر والشهوات فماذا يريدون؟

فالطواغيت يعتمدون اعتمادا كبيرا في استعباد الجماهير وفي إذلالهم على استغراقهم في الشهوات. ولذلك يحرصون كل الحرص على إشاعة الشهوات وإشاعة الفواحش لكي يقودوا الناس من بطونهم وفروجهم وشهواتهم.

وحينما يُستعبد الناس للشهوات فإنهم قلما يستطيعون أن يقوموا ليطالبوا بحق أو يمتنعوا عن باطل. فالطواغيت دائما تهددهم: أنكم إذا لم تطيعوا سنمنع عنكم الشهوات، فيرجعون بسرعة، ككل مدمن تستطيع أن تستعبده إذا منعت عنه عنصر أو مادة الإدمان التي يتعاطاها. فالطواغيت يحرصون كل الحرص على إشاعة الفاحشة.

٩ رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

ولذلك كان من سمات المجتمع المسلم المؤمن ألا تشيع فيه الفاحشة.. ومن سمات المجتمع الكافر والجاهلي أن تشيع فيه الفاحشة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].. فهذه السمة من سمات المجتمعات الجاهلية؛ أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس. ونحن اليوم نجد أنه في ليالي رمضان تتكاثف برامج الإفساد، منذ لحظة الإفطار، إلى درجة أنه لا يستطيع الإنسان حتى أن يفطر، أو يحس بمشاعر الصوم وفرحة الإفطار.. فيفطر وهو يرى الراقصات وهن يتسكعن أمامه، ليذهبن بأي شيء تبقى في حياته من نظافة الصوم، إن كان قد استفاد منه شيئا، ونجد أن برامج التلفاز وبرامج السينما والمسلسلات تتضاعف حتى الفجر، أو طوال الأربع والعشرين ساعة، لكي يظل الناس مستغرقين، خوفا من أن يحدث فيهم شهر رمضان شيئا من التقوى، أو شيئا من الرجوع إلى الله، فيقفلون هذا الباب قفلا شديدا. وكنا نجد في سنوات الخمسينيات والستينيات، الفِرَق الداعرة العارية تأتي من أوروبا في شهر رمضان بالذات بالإضافة إلى الفرق الراقصة المحلية "كفرقة رضا والفرقة القومية"، وتقام لها السرادقات بجانب المساجد الذي تقام فيها التراويح، فيخرج الناس من المسجد ليذهبوا إلى السرادقات.. لكيلا يبقى في أرواحهم ولا في قلوبهم ذرة من إيمان أو نظافة أو تقوى، وحتى لا يتيحوا لهم فرصة أن يفكروا فيما كانوا فيه من آيات أو من قرآن، حتى لا يعودوا أبدا إلى الله عز وجل.

وهكذا نجد أن الجاهلية حريصة دائما، وكذلك الطواغيت على إشاعة الفاحشة وعلى إغراق الناس في الشهوات.. ولذلك حينما أراد عبد الناصر أن يحرض الناس على الإخوان في سنة ٦٥ قال لهم لقد كان من مخططات الإخوان أن يقتلوا أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ.. وهذه طبعا مسألة ضخمة جدا عند المصريين لا يغفرون لأحد أراد بهم هذا.. كيف يعيشون بعد أم كلثوم أو بعد عبد الحليم حافظ أو بعد محمد عبد الوهاب.. وكما نعلم أنه حينما مات عبد الحليم حافظ انتحرت فتيات كثيرات حزنا على العندليب الأسمر، أو كما كان يسميه عبد الناصر الثروة القومية، لأنه ثروة مهمة جدا في تثبيت حكمه وإشاعة الاشتراكية من خلال أغانيه..

فهذه هي سمات الجاهلية.. السمة الأولى: عدم الإيمان الصحيح بالله.. والسمة الثانية: اتباع الأهواء.. والسمة الثالثة: عبادة الطاغوت.. ثم السمة الأخيرة: الاستغراق في الشهوات. وكل جاهليات التاريخ تشترك في هذه السمات الأربع، فلا تند جاهلية من الجاهليات عنها.

وهناك سمات أخرى نوعية تتسم بها كل جاهلية، وتختص بها عن الجاهليات الأخرى.. سنتكلم عنها فيما بعد إن شاء الله.

شرعية قيام المجتمع المسلم

بعد أن تحدثنا عن الجاهلية وما يتعلق بها من معنى وسمات وواقع.. نتحدث الآن عن التصور الإسلامي، لأن نشأة المجتمع المسلم ووجوده مرتبط ارتباطا عضويا بحقيقة التصور الإسلامي، وتجنبه لكل سمات الجاهلية.

وحينما نتحدث عن نشأة المجتمع الإسلامي لا بد أن نتحدث عن الأسس الأساسية التي يقوم عليها ذلك المجتمع.

الجاهلية تجمع بشري عضوي يقوم على أساس باطل

وقد قلنا فيما سبق إن **"هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في "نظرية" مجردة. بل ربما أحياناً لم تكن لها "نظرية" على الإطلاق! إنما كانت متمثلة دائماً في تجمع حركي. متمثلة في مجتمع، خاضع لقيادة هذا المجتمع، وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته. وهو مجتمع عضوي بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك -بإرادة واعية أو غير واعية- للمحافظة على وجوده، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد."**

فالجاهلية -إذن- مجتمع متكامل العناصر، يجمع كل عناصر التجمع البشري، ولكن على أساس باطل. فمن ناحية أنه تجمع عضوي متكامل العناصر، ومؤسسة متكاملة ومتفاهمة فهي حقيقة أكيدة.. فالجاهلية تتمثل دائما في تجمع عضوي.. وهذا التجمع العضوي تتمثل فيه كل عناصر الوجود البشري، ويربط بين أفراد ذلك المجتمع علاقات ووشائج وولاء، كما أن لهم قانونهم وشريعتهم وأعرافهم، كما أنهم أيضا متمسكون بذلك المجتمع، يحرصون عليه، ويدافعون عنه، ولا يسلمونه لأي خطر مهما كان.. بل يقفون أمام أي خطر يهدد وجوده، ويبذلون في ذلك كل غال ورخيص.

فنحن إذن أمام وجود حقيقي، وليس أمام نظرية مجردة، مكتوبة أو مفهومة، وإنما أمام تكتل مادي عضوي، متمثل في بشر يحملون فكرة، يدافعون عنها، ويلتزمون بها، ويتخلقون بأخلاقها وقيمها، ويدافعون عنها بكل ما يملكون من الوسائل.

ومن هنا فإن الإسلام لا يمكن أن يكتفي بأن يكون مجرد نظرية، فمادام الإسلام جاء ليزيح هذه الجاهلية من الوجود. فلا بد له أن يتشكل أيضا في تجمع عضوي، يربط بين أفراده الإيمان، والعبودية لله رب العالمين، وعدم الشرك بالله، والتحاكم إلى شريعته وحده، ورفض كل شريعة دونه، والدفاع عن هذا الكيان الذي وجد على أساس قاعدة الولاء لله ولرسوله.. وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى دليل أو استدلال. ومن ثَمَّ فإن هذا المجتمع الإسلامي القائم على الإيمان بالله لا يمكن أن يتمثل فقط في صورة نظرية مجردة.. وإنما لا بد أن ينبعث كروح تنفخ في المجتمع الإسلامي الوجود والإصرار والقوة والتحرك دائما إلى الأمام لإلغاء الوجود الجاهلي.

وإلغاء الوجود الجاهلي نابع من أن هذه الجاهلية برمتها؛ بكل ما تأسست عليه من تصورات أو اعتقادات أو أخلاق أو ارتباطات، وما قامت عليه من شريعة ونظم. بل إن وجود ذلك المجتمع الجاهلي برمته -بقياداته وأفراده- ليس له ابتداء شرعية الوجود. فمحاولة إلغاء الكيان الإسلامي للكيان الجاهلي ليس نابعا من صور الغلبة البشرية والتدافع البشري فقط.. وإنما هو قائم على أساس أن المجتمع المسلم وأن الدولة المسلمة وأن الأمة المسلمة هي المسؤولة عن إقرار ألوهية الله وحده، وألا يكون في هذه الأرض إله إلا الله.. ومن ثَمَّ فهي لا بد أن تلغي الجاهلية، أو أي تجمع يعبد مع الله إلها آخر. فهي ليست منبعثة بدوافع شخصية، ولا بدوافع اقتصادية، ولا بدوافع مادية.. وإنما كما قال ربعي بن عامر: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. فإلغاء الوجود الجاهلي هو مطلب شرعي، ومطلب واقعي، لأن هذه الجاهلية التي تعبد غير

الله والتي تدعو لسلطان غير سلطان الله تعيش على وهم وليس حقيقة.. ومن ثم فهي ترفض ألوهية الله، ومن ثم لم يعد لها شرعية الوجود بل ولا حق الوجود ابتداء.

فالمجتمع الإسلامي إذن -أو ذلك التجمع الحركي الذي يقوم على النظرية الإسلامية- هو تجمع رباني، مأمور من قبل خالق السماوات والأرض، ومن قبل مالك السماوات والأرض، لكي يحقق وجوده وعبوديته لله، بإلغاء الوجود الجاهلي، لكي يقيم الحق وحده، ويبطل الباطل.

التدافع والصراع بين الحق والباطل لا يتم بنظريات مجردة

هذا الإلغاء للتجمع الجاهلي، وهذا التدافع لا يتم بنظرية مجردة. وإنما لا بد أن يتم من خلال وجود إسلامي متكامل، ليستطيع أن يواجه ذلك المجتمع الجاهلي. ومن هنا ندرك معنى الصراع ومعنى التدافع الذي هو سنة الله في الوجود وسنة الله في الأرض وسنة الله بين الناس. إن الناس لا بد أن يتدافعوا، ولكن هذا التدافع لا بد أن يكون على أساس من الحق.. ولا بد للناس أن يجاهدوا، ولكن ينبغي أن يكون جهادهم لإعلاء كلمة الله.. وإن الصراع بين الإنسان وبين الشيطان، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان هو صراع شاءه الله عز وجل، ليتبين من خلاله الصادقين من الكاذبين ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].. فقانون الصراع موجود في الأرض، وهو ما ترفضه الجاهلية.. أو بمعنى أصح تغالط الجاهلية في التعبير عنه.. فالجاهلية دائما تحاول أن توهم الناس أنه لا بد أن يحدث توافق بين التيارات المختلفة وبين الأفكار المختلفة، وأننا لا بد أن نسمع رأي الآخر وألا نصادر الآخر.. هذا الأمر ليس صحيحا على إطلاقه.. هناك مجال للبشرية سُمح لها أن تختلف فيه، وأن تتعايش مع هذا الاختلاف.. أما حينما يكون الأمر في مجال الأصول ومجال الاعتقاد فإن القانون الذي يحكم هذا الأمر هو قانون الصراع وقانون التدافع ورفض الآخر. فالجاهلية ترفض الإسلام، والإسلام يرفض الجاهلية.. ولا يمكن أن يجتمعا أبدا في وقت واحد على الإطلاق.. فقانون الصراع والتدافع هو قانون رباني، والجاهلية تعرف ذلك.. ولكنها تحاول -في محاولة مضللة- أن توهم عوام الناس وجهّالهم أن الإسلام وحده هو الذي يصادر الآخر بينما هم لا يصادرون الآخر. وهذا كذب، لأن الله عز وجل قال لنا ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. فالجاهليون برمّتهم -كفاراً ووثنيين وأهل كتاب- لا يرضون بوجود الإسلام أبدا. وهم يمكن أن يتراضوا فيما بينهم، وأن يتعايشوا فيما بينهم.. لكن الذي لا يرضونه أبداً هو أن يعيش الإسلام في وسطهم، وهذا ما حكاه القرآن الكريم عن أهل الجاهلية وهم يجابهون أنبيائهم وأتباعهم بتلك المقولة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [ابراهيم: ١٣]. فقانون التدافع والصراع قانون حقيقي، وليس لنا أن نستنكره أو أن نخجل منه، أو نخجل أن نصرح به. لا بد أن نعرف أننا مكلفون من الله عز وجل أن نلغي الوجود الجاهلي، وألا نقبل ذلك الآخر الذي يرفض ألوهية الله. فلا يجوز للمؤمنين المسلمين أولياء الرحمن أن يرضوا بالوجود الجاهلي. بل عليهم -إن استطاعوا- أن يلغوه. وإذا لم يستطيعوا أن يلغوه فلا أقل من ألا يوالونه ولا يعطونه شرعية الوجود.. فيظل غير شرعي حتى يأذن الله بإلغائه.

فقانون الصراع قانون حقيقي لا يخجل منه المسلمون، ولا يتحاشون التعبير عنه، ولا التصريح به؛ إننا بعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. وهذا لا يكون أبدا باستبقاء الآلهة الأخرى التي تُعبّد الناس لغير الله عز وجل. فليس للآخر في الأرض مكان؛ إما الحق وإما الباطل. فهذا الأمر لا بد أن يكون مفهوما لكي تتم محاولة إلغاء الجاهلية من الأرض.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]

وقيام المجتمع الإسلامي بهذا الإلغاء لا يكون إلا برد الناس إلى الله وحده سبحانه وتعالى.. وهذا الرد لا يغني فيه -كما قلنا- أن يكون الإسلام نظرية مجردة. لأنه حينئذ لا يكون مكافئا للجاهلية التي لا تقوم على نظرية مجردة، وإنما تقوم على مؤسسات وقوانين وشرائع وجيوش وقوى ووجود متكامل. فلا بد أن يكون الإسلام متمثلاً في وجود يحمل كل عناصر الوجود، بل لا يجوز أن يكون مكافئا للجاهلية فقط، ولكن لا بد أن يكون أقوى منها، لأن هذا مطلب ضروري لكي يستطيع أن يتفوق عليها.. فلذلك.. **"ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في "نظرية" مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز -ولا يجدي شيئاً- أن تتمثل في "نظرية" مجردة. فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلاً والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلاً على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته.."**

هذا بالإضافة إلى أنه ليس هناك أي تشابه بين الإسلام وبين الجاهلية، ولا بين مؤسسات الإسلام ومؤسسات الجاهلية، ولا بين قيم الإسلام وقيم الجاهلية ولا بين الأفراد المسلمين والأفراد الجاهليين.. فهناك تباين مطلق بين هؤلاء وهؤلاء.. فهم إن اشتركوا فإنهم يشتركون في الشكل الخارجي للآدميين.. ولكنهم بعد ذلك يختلفون في كل شيء.. فهناك مخالفة أساسية في طبيعتهم، وفي منهجهم، وفي كلياتهم، وفي جزئياتهم.

"لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلاً." وهذا أمر آخر لا بد أن يلتفت إليه الذين يريدون أن يقيموا الإسلام مرة أخرى ويستأنفوا التجربة الإسلامية.. أنهم لكي يلغوا الوجود الجاهلي لا بد أن يكون تجمعهم أقوى من التجمع الجاهلي في قواعده النظرية؛ بمعنى أن يكونوا على إدراك بيّن لكل ما يقومون عليه، وأن تكون الفكرة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي فكرة واضحة في ذهن كل فرد من أفراد التجمع الإسلامي.. فلا تكون الفكرة غائمة ولا مبهمة، ولا كلية أو مجملة.. وإنما ينبغي لكل جندي في جيش الإسلام، ولكل عضو في التجمع الحركي الإسلامي أن يكون على إدراك عميق وواسع وشامل للفكرة الإسلامية، ولمقتضيات فكرة الإسلام، وفكرة الألوهية الواحدة والعبودية الشاملة، وما يقتضيه ذلك من مقتضيات واضحة. فأحد أسباب القوة أن يكون المجتمع المسلم على إدراك واع لمهمته، حتى لا يُلبِّس عليه أثناء المعركة أي ناعق فيجعله يهتز أو يتشكك فيما هو قائم به. فلا بد أن تكون القاعدة النظرية التي يقوم عليها التجمع الحركي الإسلامي

قاعدة واضحة جدا لدى الذين يعيشون لهذا الدين. من أجل هذا احتاجت هذه المسألة ثلاثة عشر عاما لكي ترسي القواعد الإسلامية ولكي تتربى العصبة المؤمنة في مكة، كي تفهم ما هو الإسلام وما معنى التوحيد وما معنى الشرك وما صور الشرك المحتملة والمبهمة والظاهرة، حتى تتخلص تماما لقاعدة التوحيد. وبعد ذلك سمح الله أن تقوم لهم قاعدة في الأرض، وظل التعليم الرباني يعلم الناس معنى الألوهية الواحدة ومعنى العبودية الشاملة، ويحذرهم من الشرك ومن الكفر ومن النفاق ومن الشك ومن الشقاق.. كل هذا لكي تقوم العصبة المؤمنة وتقوم الأمة المسلمة على قاعدة نظرية أقوى وأمكن من القاعدة النظرية التي تقوم عليها الجاهلية.. وأيضا لكي تكون قائمة على قاعدة تنظيمية أشد وأقوى من التجمع الجاهلي. وهذا أمر يقتضي علما ومعاصرة وإدراكا لكل وسائل التنظيم في الواقع المعاصر الذي تعيشه الجماعة والمرحلة التي تعاصرها الجماعة. فلا بد أن يأخذ المسلمون بكل الوسائل التنظيمية والإدارية والتكتيكية والتكنولوجية التي تجعل تنظيمهم أقوى وأدق وأشد انتظاما؛ سواء في الجانب التنفيذي والتكنيكي، أو في الجانب الإداري والتنظيمي.. وهذه مسألة مهمة جدا، لأن هذا من أسباب القوة.. ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠].. فلا بد أن نأخذ بكل أسباب القوة لكي نكون أقوى في حقيقتنا من التنظيم الجاهلي، وأوعى لفكرتنا من فكر الجاهلية.. ولكي نكون أقوى في روابطنا وفي علاقاتنا ووشائجنا. ولا بد أن تكون هذه الروابط وهذه العلاقات أشد عمقا والتحاما، وأن تكون مبنية على الحب الخالص والتلاحم الخالص والولاء الخالص والإيثار والوفاء والتضحية. وبهذا يقوم المجتمع الإسلامي، وتكون الحركة المسلمة أقوى في قواعدها النظرية والتنظيمية وفي روابطها وفي علاقاتها وفي وشائجها وفي أخلاقها.. وتكون كيانا عضويا متفوقا في كل المجالات على التجمع العضوي الجاهلي.

قاعدة الإسلام "لا إله إلا الله" بحقيقتها المتكاملة

"والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام -على مدار التاريخ البشري- هي قاعدة: "شهادة أن لا إله إلا الله" أي إفراد الله -سبحانه- بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية.. إفراده بها اعتقادًا في الضمير، وعبادة في الشعائر، وشريعة في واقع الحياة. فشهادة أن لا إله إلا الله، لا توجد فعلاً، ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليه اعتبار قائلها مسلماً أو غير مسلم."

وبوصولنا إلى هذه الفقرة من الفصل نكون قد وصلنا إلى أخطر نقطة في هذا الكتاب، وهو الحديث عن لا إله إلا الله.. وهي ليست أخطر نقطة في الكتاب فقط، وإنما هي أخطر موضوع في الوجود كله.. وهو موضوع ألوهية الله الواحد.

وبقدر عظمة وخطر هذه القضية وتفردها في هذا الوجود بالأهمية إلا أنها أيضا في غاية الوضوح وفي غاية البساطة. وهكذا -دائما- تتسم القضايا العظمى بالبساطة والبديهية. وتتسم -دائما- بهذا الجلاء الناصع الذي يُخضع الناس لهذه الحقيقة وإن أبوا أن يعترفوا بها.

فهذه القاعدة النظرية هي التي قام عليها الإسلام على مدار التاريخ البشري.. ومعنى ذلك أنه منذ أن خُلق آدم وحتى آخر بشر على الأرض فلا بد أن تقوم حياتهم على هذه القضية الواحدة، وهي هي القضية التي جاء الأنبياء جميعا بها -صلوات الله

وسلامه عليهم- من لدن آدم وحتى محمد ﷺ آخر الأنبياء.. فهي قضية واحدة ودعوة واحدة ورسالة واحدة تنادي الناس ليعبدوا إلها واحدا في طريق واحد هو صراط الله المستقيم.

وكما نقول هنا: أن شهادة لا إله إلا الله، أي إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، سواء في ضمير الإنسان اعتقادا، أو في نسكه وشعائره، أو في شرائعه وقوانينه، لا بد أن تتسم بهذا الشمول.. وأنها لا يمكن أن توجد فعلا ولا تعد موجودة شرعا إلا في هذه الصورة المتكاملة والتي بدونها لا يعد الإنسان مسلما، مهما ادعى ومهما تزَيَّنَ بأي صورة من الصور.

وهذه القضية هي التي نريد أن نقف أمامها طويلا.

فما هو معنى أن هذه الشهادة هي القاعدة التي يقوم عليها الوجود البشري، أو يقوم عليها التاريخ البشري؟

معنى هذا في كلمات قليلة؛ أن الله عز وجل لم يخلق البشرية إلا لكي تعبده وتوحده، وأنه أرسل كل أنبيائه ورسله، وأنزل كتبه جميعا لكي يدعو إلى هذه القضية الواحدة.. قضية أن لا إله إلا الله.. ومن ثم فلا بد أن تنفرد هذه القضية بالاهتمام الكامل، بل بالاهتمام الوحيد في حياة البشرية، وأن هذا لا يتناقض مع بقية نشاطات البشرية ولا رغبات البشرية ولا طموحات البشرية، وأن الاهتمام بهذه القضية هو الذي يغذي النشاط الإنساني، ولا يعطله.. فليست هناك قضية ينبغي أن ينشغل بها الإنسان مساوية لهذه القضية، أو مزاحمة لهذه القضية.. بل إن قضايا البشرية كلها -بما فيها قضية العمران لهذه الأرض- هي قضايا منبثقة من قضية لا إله إلا الله.. ومن ثم فنحن حينما نقول إنه على مدار التاريخ كانت هذه القضية هي القاعدة التي يقوم عليها التاريخ البشري والحياة البشرية نعني بكل وضوح أنه لا يجوز للبشرية أن تهتم بقضية قبل أن تنتهي من قضية لا إله إلا الله.. وحينما تصل البشرية إلى تصور واضح ناضج واعٍ مستقر في الضمير، يكسو الحياة البشرية كلها، فإن كل قضايا البشرية سوف تتحقق وتحل بالتبعية، لأنها لا تتناقض مع مقتضيات ومع متطلبات لا إله إلا الله.

كيف عالج منهج الأنبياء هذه القضية

هناك طريقان لمعرفة هذه القضية؛ طريق صحيح وحيد، والطريق الآخر عبارة عن سُبل شتى ومناهج شتى كلها لا تؤدي إلى هذا التصور الصحيح الحقيقي لـ (لا إله إلا الله)..

الطريق الأول بطبيعة الحال لا بد أن يكون هو طريق الأنبياء. والأنبياء هم رسل الله إلى هذه البشرية.. هم معلمو هذه البشرية.. هم الذين جاءوا ليعرّفوا البشرية حقيقة لا إله إلا الله. ومن ثم لا يجوز أن يكون هناك منهج آخر أو طريق آخر يرتفع أو يسمو إلى نقطة قريبة من منهج الأنبياء. ولا بد بالضرورة ألا يسير دعاة الله ودعاة الإسلام والذين يريدون أن يقيموا حركة إسلامية صحيحة في طريق غير طريق الأنبياء.. وليس ذلك من باب الاختيار.. ولكن هذا إلزام تفرضه طبيعة القضية من ناحية، وتفرضه بعد ذلك العقيدة من ناحية أخرى. تفرضه طبيعة القضية لأن الأنبياء والرسل هم أعلم الناس بهذه القضية، ولذلك لا يجوز لإنسان أن يظن للحظة واحدة أنه يستطيع أن يفهم القضية أو أن يعرف عنها أو عن طريقة تبليغها أو طريقة إقامتها أو مقتضياتها

أكثر من الأنبياء.. فلا بد أن تُسلَّم البشرية ابتداءً لهؤلاء الأنبياء بأن طريقتهم التي دعوا بها إلى الله والتي أقاموا بها دين الله والتي حققوا بها لا إله إلا الله هي الطريق الوحيد الصحيح الذي لا يليق بعاقل أن يتخيل للحظة واحدة أن بإمكانه أن يخترع أو يبتكر طريقا آخر، أو أن يعدل -إضافةً أو نقصاً- ما قام به الأنبياء.. فهذا تفرضه طبيعة المسألة وطبيعة القضية.

أما من الناحية الاعتقادية؛ فلأن رسل الله هم الرسل المعتمدون الذين أرسلهم ليبلغوا كلمته إلى الناس.. ومن ثم فإن مخالفتهم أو التغيير في منهجهم هو رد لمنحة الله للبشرية، وكفر بالله عز وجل حينما يرفض إنسان ما أن يتبع سبيل الأنبياء وسبيل الرسل، لأن هذا رفض لمن أرسلهم ولمن كلفهم. فطريق الأنبياء -إذن- طريق حتمي لا بد أن تسير فيه طلائع الحركة الإسلامية، وأن يلتزموا به شكلا وموضوعا، منطوقا وروحا وسلوكا وتعاملا، وليس لهم أن يترددوا لحظة واحدة بحثا عن طريق آخر، أو يتصوروا أن طريق الأنبياء لم يغط كل متطلبات الدعاة في كل وقت وفي كل زمان وفي كل مكان.

فالطريق الوحيد، والطريق الأول هو طريق الأنبياء.

أما الطريق الآخر.. وسمه ما شئت؛ طريق الفلاسفة.. طريق المتكلمين.. طريق المنجمين.. طريق الكهنة والسدنة.. طريق الطواغيت.. كل هؤلاء يمثلون تيارا واحدا وطريقا واحدا.. ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فالصراط المستقيم هو صراط الله عز وجل.. وهو صراط الأنبياء.. وأي طريق آخر هو صراط معوَّجّ، أو سبل معوجَّة، أيا كان شكل الذين يسيرون فيه. فقد حاولت الفلسفة أن تقوم بمهمة الأنبياء، وحاول المتكلمون أن يقوموا بمهمة الأنبياء، وحاول الطغاة أن يقوموا بمهمة الأنبياء، وحاول كل مدع لإصلاح البشرية أن يقوم بمهمة الأنبياء.. ولكن هؤلاء جميعا انحرفوا بالبشرية عن الصراط المستقيم، فضلوا وأضلوا، وبعدوا وابتعدوا.

ولذلك إذا أردنا أن نفهم لا إله إلا الله، وأن نفهم قضية لا إله إلا الله لا بد أن نلتزم بمنهج الأنبياء.. منهج استدلال الأنبياء.. ومنهج عرض الأنبياء في هذه القضية.. لأنه منهج الله الذي أراده من أنبيائه ورسله لكي يبلغوا عباده وخلقه ماذا يريد منهم.

وهذه بداية القضية.. فالبداية بأن نفهم وندرك، وأن نستيقن ونصر على ألا نتزحزح أنملة واحدة عن منهج الأنبياء في عرض قضية لا إله إلا الله، وفهم لا إله إلا الله، وإدراك لا إله إلا الله.

وقبل أن نتحدث عن هذا المنهج الرباني نقول -وهي قضية أصولية وقاعدة أصولية ضرورية لبحث أي قضية إسلامية- لا بد أن نحيط بكل ما جاء في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ، وفي تطبيقات الجيل الأول لهذه القضية، لنجمع كل هذه المعلومات، ثم نبحث ونرى نتيجة هذه المحاولة. ولا يجوز أبدا أن نكتفي بالقرآن وحده، ولا أن نكتفي بالسنة وحدها، ولا أن نكتفي باستدلالات الصحابة وحدها.. وإنما ينبغي أن نتلقى من القرآن أولا، ثم نجمع إليه ما قاله رسولنا ﷺ مفسرا مبينا، لأن هذه مهمته ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].. ثم نرى كيف أدرك الصحابة هذا الأمر وكيف طبقوه في حياتهم.. وإذا لم نفعل ذلك نكون قد قصرنا في إدراك القضية وفي محاولة توضيحها وجلائها أمامنا. فهذه القاعدة الأصولية قاعدة مهمة وضرورية.

الأمر الثاني: أنه جاء في القرآن الكريم المحكم والمتشابه، كما جاء في السنة أيضا المحكم والمتشابه.. وبالضرورة القياسية أن يكون في كلام البشر محكم ومتشابه. والقاعدة هنا أن المحكم هو الذي يحكم المتشابه، وأن يكون هو المرجع لكل ما يمكن أن نظنه متشابها. والحقيقة أن التشابه ليس تشابها حقيقيا، وإنما هو جهل بحقيقة القضية، وعدم ربطها بالأصول.. فتبدو في بعض الأحيان بعض التعبيرات أو بعض الألفاظ -سواء كانت قرآنية أو كانت نبوية أو كانت من كلام البشر- تبدو كما لو كانت متناقضة أو متشابهة.. ولكنها في الحقيقة منضبطة إذا وضعت على المحكم وعلى أساسه، فلا يصبح هناك متشابه. فالحقيقة أنه لا بد أن ندرك أن كل ما جاء في القرآن وما جاء في السنة مما نتصور أنه متشابه إذا أرجعناه إلى الأصول وإلى الآيات المحكمة وإلى الأحاديث القاضية بصورة قاطعة سنجد أن هذه الآيات المتشابهة قد زال عنها هذا الإبهام ووضحت، لأنها وضعت على مقياس دقيق وجلي وصارم أيضا..

فحينما نتحدث عن منهج الأنبياء نقول ابتداء أن هذا المنهج يقوم على مخاطبة الإنسان كله، وليس وقفا على جانب من جوانبه كما تفعل التيارات الأخرى؛ فالفلسفة تخاطب العقل الإنساني وتتجاهل بقية كيانه، والصوفية والرهبانية وغيرها تتعامل مع وجدان الإنسان وتتجاهل بقية كيانه، والتيارات العبثية تخاطب في الإنسان آراءه المتضاربة ولا تخاطب شيئا معينا. ولذلك نجد الإنسان الذي يستقي من الفلسفة أو من تلك التيارات الوجدانية أو العبثية لا بد أن يضل ضلالا بعيدا. وكل تراث البشرية من الفلسفة أو غيرها هو تراث ضال متضارب متخبط، يتناول أجزاء من الحقيقة ليشوهها ويمزقها ويفتتها، ولا ينبني عليه -أبدا- واقع متناسق متفاهم أو متناغم، فضلا عن أنه لا يصيب الحقيقة أبدا، ولا يلتقي بها، وإنما دائما يحوم حولها ثم يضل بعيدا عنها، ككل عنصر شارد يذهب بعيدا عن الحقيقة.

أما منهج الأنبياء فيقوم على البصيرة.. ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ [الجاثية: ٢٠].. ﴿ قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨].. ومحل البصيرة هنا هو الإنسان كله.. كل وعي الإنسان، وكل عواطف الإنسان، وكل مشاعر الإنسان، وكل ما ينطلق من هذا الإنسان.. فكل هذا يتعامل معه المنهج الرباني.. فيخاطب الإنسان جميعه؛ يخاطب عقله، مختلطا بوجدانه وعواطفه، مختلطا بتجاربه، مختلطا بطموحاته. ولهذا نجد أن المنطق القرآني، يدخل إلى كيان الإنسان ليحدث فيه إشباعا خاصا، ويشيع في جوانب الإنسان ضوء ساطعا ونورا هادئا مطمئنا، ويخرج الإنسان من هذا الخطاب الرباني وهو يشعر بالسكينة والطمأنينة ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].. مع يسره وبساطته ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]. وكما قلنا إنه كلما عظمت الحقيقة كلما كانت أيسر في التعبير عنها وفي تناولها وفي وضوحها وبساطتها.. فالشمس هي أكبر جرم وأكبر شيء في حياة البشر على الأرض، ولذلك نجدها هي أظهر شيء في حياة البشر، وكل الناس يعرفون الشمس، ولا يستطيع أحد أن يطفئ نور الشمس، ولا أن يغطي قرص الشمس إلا إذا تعمد أن يغمض عينيه أو أن يغطي رأسه.. لكن إذا ترك نفسه بكيانه الطبيعي لا بد أن يستيقن هذه الشمس ويراها كما يراها كل أحد على الأرض. فهي حقيقة عظمى، شديدة الوضوح، شديدة النصاعة.

قضية الألوهية أشد وضوحا وأشد نصاعة.. ويحسها كل إنسان، ولا يستطيع أن يستريب فيها أي إنسان.. لأنه -ببساطة- كل إنسان يعلم أنه لم يصنع نفسه، ولم يوجد نفسه، ولم يخلق الأشياء التي حوله، ولا يعرف كيف نظمت، بل كيف تكوَّن هو

أصلا، ولا كيف تناسقت أجزاؤه بعضها مع بعض، ولا كيف تتفاهم أجهزته بعضها مع بعض. بل لا يستطيع هو أن يوقف أي حركةً داخل جسده إذا أراد، ولا أن يفتعل أمرا لا يريده الله.

فالإنسان -إذا كان عاقلا- يدرك بالبداهة أنه ليس صانع نفسه، وليس خالق نفسه.. ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].. فهذه القضية شديدة النصاعة، وشديدة الوضوح، وشديدة التآلف مع قلب الإنسان ومع عقله ومع جوارحه ومع أحاسيسه وشعوره.. فهي قضية بدهية. وحينما تصبح القضية بدهية لا تحتاج إلى دليل كبير، ولا تحتاج إلى إعمال عقل في صورة شاقة. وإنما يكفي الإنسان أن يتلفت حوله، وأن يتفكر تفكرا دقيقا بسيطا، فإذا به يقتنع ويؤمن بهذه الحقيقة البارزة.

فإذا كانت حقيقة الشمس لا يستطيع إنسان أن يتجاهلها.. فكذلك حقيقة الله.. ليس في وسع الإنسان أن يتجاهلها.. والذين كفروا لم يكفروا لأنهم لم يروا هذه الحقيقة ولم يحسوا بها، وإنما هم يُعرضون عنها، و يضعون على أبصارهم غشاوة، كما قال نوح لربه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٥-٧]. فهؤلاء لا يرون الحقيقة لأنهم يغطون أبصارهم، ويصمون آذانهم، وليس لأنهم لا يسمعون، وليس لأنهم لا يرون.. هم يعرفون الحقيقة، والحقيقة تجلجل في أعماقهم، ولكنهم يحاولون أن يخرسوا هذا الصوت الذي يقلقهم، والذي يقض مضاجعهم، والذي يتعارض مع شهواتهم وأهوائهم وشياطينهم. والحقيقة -حقيقة الله، وأنه هو الخالق، وأنه مالك هذا الوجود- حقيقة لا يستطيع أن يماري فيها عقل طبيعي أبدا، وإنما النفس هي التي تنحرف، والقلب هو الذي ينحرف.. ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].. ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].. فالقلوب.. وهو تعبير عن موطن الإيمان، وموطن الاستجابة، وموطن الاستسلام هي التي ترفض.. وهم الذين يعرضون عن الحق، لا يريدونه.. فلذلك نجد المنهج الإسلامي والمنهج القرآني والخطاب القرآني يخاطب البصيرة.. البصيرة التي تستعمل القلب كما خلقه الله.. وتستعمل النظر، وتستعمل السمع، وتستعمل كل ما في كيانها لتتعرف على خالقها.. بل هي لا تملك إلا أن تستجيب.. لأن في أعماقها من يذكرها بالله عز وجل.. ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].. هذه الأعذار غير مقبولة، وسترد على أصحابها: أنهم ليسوا غافلين، وليسوا جاهلين، ولا يجوز لهم أن يتبعوا آباءهم، لأنهم يعرفون الحقيقة.. ومن ثم فقضية الألوهية قضية واضحة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].. هو شهيد على هذه الحقيقة.

فمنهج الأنبياء يخاطب البصيرة التي هي كل ما يعي ويحس ويشعر في الإنسان. وهذه البصيرة بسيطة، تتعامل مع الأمور بطريقة مباشرة، لا تحتاج إلى تلفيقات، ولا إلى تعقيدات، أو إلى تزيينات.. وإنما تتعامل مع الحقيقة في بساطتها، وفي براءتها، دون أن تحتاج إلى إعمال كثير للعقل.. لأنها حقيقة قريبة جدا، وملموسة جدا، وواضحة وجلية في نفس الإنسان.. إلا أن يكون يريد أن يعرض، ويريد أن يكفر، ويريد أن يبعد عن الحقيقة التي تبدو واضحة.

فإذا أردنا أن نفهم أو أن نعرف حقيقة لا إله إلا الله لا يسعنا إلا أن نتبع منهج الأنبياء.

وإذا نظرنا في تاريخ الأنبياء وفي العرض القرآني لجميع الأنبياء سنجد أن منطقهم يكاد يكون واحدا، وتعبيراتهم تكاد تكون واحدة. بل ألفاظهم تكاد واحدة.. بل هي كذلك. كل نبي يظهر على مسرح هذه البشرية يصرخ فيها ويقول ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. ويقرر أنه بشر لا يملك لهم ضرا ولا نفعا. والذي يستعرض القرآن كله؛ وخاصة سورة الأعراف أو سورة هود أو سورة الشعراء، تلك السور التي جاء بها الأنبياء يتواترون ويتحدثون بلغة واحدة وبتعبير واحد وبكلمات تكاد تكون واحدة.. هذه دلالة على أن منطق الأنبياء منطق واحد، والكلمات كلمات بسيطة.. ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩].. فالأنبياء لم يأتوا أبدا ليقولوا للناس أن هناك إلهاً، وإنما ليقولوا لهم اعبدوا الله الذي تعرفونه، وتعرفون أنه حق، وفطرتكم تدعوكم إليه، بل وكيانكم يؤمن به، والواقع الذي تعيشون فيه من أرض وسماء، وكل شيء حولكم يقول لكم أن الله هو الحق.. فارجعوا إلى هذا الإله، وأعطوه حقه، ونزهوه عن كل تلك الضلالات التي تعتقدونها فيه.

فالأنبياء ما جاءوا ليقولوا للناس أن هناك إلهاً، أو ليدللوا على أن هناك خالقاً.. فهذه قضية بديهية مركوزة في فطرة البشر لا تحتاج إلى دليل خارجي.. وإنما جاءوا ليقولوا للناس: ارجعوا إلى الله.. ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣-١٤]. هكذا كان الأنبياء في بساطة شديدة يخاطبون الناس بهذه القضية ليعيدوهم إلى حظيرة الألوهية الواحدة، لكي يعبدوا الله كما يريد منهم أن يعبدوه.

فنحن لسنا في حاجة إلى هرطقة الفلاسفة، ولا إلى تعمقات وتكلفات الرهبان والصوفية والكهنة، ولسنا في حاجة إلى استهواءات العابثين.. ولكننا نريد أن نسلك الطريق القويم البسيط الهادئ الذي يوصلنا إلى الحقيقة بأسهل طريق وبأجلى صورة كما أمرنا الله عز وجل.. ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فالله عز وجل يسر لنا هذا القرآن ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

الإيمان بالله بدهية عقلية وضرورة فطرية

وقضية لا إله إلا الله -كما نرى من لفظها- قضية تنفي وتثبت.. تنفي الألوهية عن كل شيء إلا الله.. وتثبتها لله وحده.. فلا إله إلا الله هي إفراد الله بالألوهية، ونزعها عن كل ماعدا الله عز وجل. وهذه قضية بسيطة، ومفهومها بسيط، ودلالتها بسيطة.. لماذا لا إله إلا الله؟ لأن قضية الألوهية مرتبطة بقضية خلق هذا الوجود وتصريف هذا الوجود وملكية هذا الوجود. فمؤهلات الألوهية -إذا جاز هذا التعبير- تكمن في أن لا إله إلا هو الخالق وهو المالك وهو المصرف لكل ما في الكون وهو الضار والنافع والمعطي والمانع والمحي والمميت فهل هناك أحد غير الله يستطيع أن يفعل ذلك.. ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].. فليس هناك إله مع الله.. ولأن هذه الحقائق وهذه الصفات وهذه الخصائص يتفرد بها الله عز وجل فكان طبيعيا جدا أن يتفرد الله بالسلطان، ويتفرد بالملك، ويتفرد بالهيمنة. ومن هنا كانت شهادة ألا إله إلا الله هي أصدق قولة في تاريخ الإنسان وفي تاريخ الكون، لأنها لا تتلبس ولا تتشابه بصورة أخرى أو بحقيقة أخرى. ليس هناك إله غير الله يخلق، وليس

هناك إله غير الله يصرف الوجود، وليس هناك إله غير الله يحيي ويميت.. فحينما يقول الناس نشهد أن لا إله إلا الله فهم يقولون أصدق كلمة، ويشهدون على أعظم كلمة.

والشهادة هي الإخبار عن علم، وعن يقين. فالذي يشهد لا بد أن يكون موقنا وعالما على ماذا يشهد وإلى ماذا يدعو. فالشهادة -شهادة ألا إله إلا الله- هي شهادة العالِم المستيقِن أنه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، لأنه يعلم أنه لا يستحق هذه الألوهية إلا الله، ولا تليق إلا به وحده سبحانه وتعالى.. ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص].. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].. هذا التفرد هو تفرد الألوهية بكل صفات الكمال وبكل صفات الجلال وبكل صفات الجمال. ومن ثم شهادة ألا إله إلا الله قائمة على هذا العلم اليقيني، أو ينبغي أن تكون قائمة على هذا العلم اليقيني. والذي لا يعرف معنى الألوهية سوف تكون شهادته وقولته شهادة معرضة للخطأ والانحراف.. لذلك كان أول شرط لتحقق لا إله إلا الله هو العلم.. لأنه بدون العلم بقضية الألوهية وبقضية العبودية، وأن هناك ربا وهناك مخلوقا، ولا تشابه بينهما؛ لا في الوجود ولا في الصفات ولا في السلطان لا تتحقق هذه الشهادة. ولذلك كان قول الله عز وجل ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].. هو الشرط الأول الذي تتحقق به الشهادة؛ أن يكون عالما بها، ليس مقلدا.. وإنما يقولها عن علم وعن معرفة. وهذا العلم يستتبع اليقين ويستتبع الصدق، لأنه لا يكفي أن يعرف، ولكن لا بد أن يستيقن.. ولا يكفي أن يستيقن، ولكن لا بد أن يكون صادقا في هذه الشهادة، وأن يكون محبا لهذه الشهادة، وأن يكون متقبلا لكل ما تقتضيه هذه الشهادة، وأن يكون متبرئا من كل ما يناقض هذه الشهادة.. فتصبح شهادة ألا إله إلا الله لها هذه الشروط من العلم، واليقين، والصدق، والمحبة، والقبول، والبراءة مما يناقضها.. هذه شرائطها، ولا بد أن تتحقق كلها. فالذين يعلمون أنه لا إله إلا الله فقط ثم لا يصدقون بها ولا يوقنون بها ولا يحبونها ولا يتقبلون مقتضاها ولا ينكرون ما يغايرها ويضادها.. هؤلاء لا قيمة لعلمهم هذا.

فهذه الشهادة -شهادة الا إله إلا الله- بالمنطق الإيماني واليقيني والبديهي هي قضية بارزة واضحة.

وحينما يشهد الإنسان ألا إله إلا الله بهذا العلم، ويشهد بألوهية الله الواحدة المتفردة بالخلق والإحياء والإماتة والضر والنفع والعطاء والمنع والتصريف والملك، فلا بد أن يقع في نفسه وجوب أن يكون لهذه الألوهية كل السلطات. فالإيمان بأن السلطة لله وحده هي نتيجة طبيعية لإدراك حقيقة الألوهية، ولا يحتاج الإنسان إلى دليل خارجي أبدا ليعتقد أن الذي تكون هذه صفاته وتكون هذه سلطاته وتكون هذه قوته ويكون هذا علمه ويكون هذا وجوده وهذه صفات هذا الوجود لا يملك إلا أن يجد نفسه خاضعا لهذا السلطان. فتتصبح شهادة ألا إله إلا الله تعني في الحقيقة أن لا سلطان إلا لله، وألا سلطة إلا لله، وأنه لا يجوز أن ينازع الله في سلطانه أحد من مخلوقاته أبدا، ولا يستطيع شيء أصلا أن ينازعه. فالقضية إذا بحثناها من زاويتها العقلية البحتة فهي قضية بدهية تفرض نفسها على العقل البشري إذا كان يريد أن يعرف الحقيقة، ولا تحتاج إلى جهد طويل ولا كبير.

والفطرة البشرية تنبعث إلى هذه الحقيقة دون تفكير ودون تعمد.. وإذا سألت الإنسان بطريقة مفاجئة هل تؤمن بالله؟ لا يستطيع أن يقول لا.. لأنها قضية مركوزة في فطرته. لكنه إذا فكر بعد ذلك قد يقول: لا، أنا كنت مخطئا.. لأنه يريد أن يعارض ويريد ألا يؤمن.. لكن البديهة والفطرة تؤمن إيمانا يقينيا بالحقيقة.

وكما أقول دائما: أن الإيمان بالله ضرورة عقلية، تفرض نفسها على العقل حتى وإن كان عقلا كافرا، حتى وإن كان عقلا يرفض الإيمان بالله وبوجود الله.. فالشيوعيون الذين يتبعون ما يسمونه بالمنهج العلمي المادي يقرون تماما بأنه هناك حقيقة لا أول لها ولا آخر.. ولكن يقولون إن هذه الحقيقة التي عندهم هي المادة، فالمادة لا أول لها ولا آخر، ليس لوجودها أول ولا لوجودها آخر، وليست مخلوقة.. وهذه هي حقيقة الذي أوجد هذا الكون؛ أنه لا أول له ولا آخر، وأنه لا مثيل له. لكنهم يبحثون عن المستحيل، بينما الحقيقة قريبة منهم.. فهم رغم إيمانهم بالحقيقة الأزلية الأبدية يقولون هذا عن المادة؛ أنها أزلية أبدية، وهي التي خلقت كل شيء، ولا حد لقدرتها.. أليست هذه هي صفات الله؟! لكنهم يقولون إنها مادة عمياء صماء بكماء ميتة لا تحس.. ورغم ذلك هي التي خلقت كل هذا الأشياء المتحركة الواعية الحية. فهم يطالبون الناس بالإيمان بالمستحيل، مع أنهم يقيمون هذا المستحيل على قاعدة حقيقية؛ وهي أن هناك وجودا لا أول له ولا آخر. فكما أقول: أن الإنسان لا بد أن يصطدم في نهاية المطاف بهذه الحقيقة وبهذه الضرورة العقلية. فبدلا من أن يسير مع مقتضياتها الطبيعية من أن هذه الحقيقة الأزلية الأبدية التي خلقت كل هذا الوجود لا بد أن تكون أعلى من هذا الوجود، وتكون قد وصلت إلى قمة، أو إلى أقصى كمالات ما يمكن أن يتصور من الكمال، ولسنا محتاجين في هذا إلى الشك الديكارتي، ولا إلى الشك الفلسفي في أن نبدأ من نقطة الشك.. لا داعي أن نبدأ من نقطة الشك، لأن اليقين قائم.. لأننا ما دمنا نعي أننا موجودون، وأن الكون من حولنا موجود، فنحن نبدأ من نقطة اليقين. ولكن الشك الديكارتي والشك الفلسفي يطالب الإنسان أن يشك في كل شيء، أي أن يغالط نفسه، ثم يتدرج من هذا الشك إلى إثبات هذا الوجود، ثم إلى إثبات أن هناك موجد لهذا الوجود، وإثبات أن هذا الوجود ناقص، فلا بد أن يكون في مقابله وجود كامل.. نحن لسنا في حاجة إلى الشك الديكارتي ولا إلى الشك الفلسفي.. نحن على يقين أن هذا الكون مخلوق بكل عناصره؛ من إنسان وحيوان ونبات وجماد وسماء وأرض وأفلاك، وهي حقيقة يقينية ليس من الممكن أن نتوهمها، وهذه الحقيقة تؤكد بدلالة قطعية أن هناك خالقاً لهذا الكون، وأنه لا بد أن يكون هذا الخالق الأزلي الأبدي قائم بذاته لا يحتاج إلى أحد، ولا يمكن أن يكون ناقصا، وإنما له الكمال الأبدي، هذه حقيقة بدهية أقرب إلى العقل وإلى الفطرة وإلى الواقع من أي افتراض آخر مما يفترضه الفلاسفة الضالون الذين يريدون أن يوصلوا الخلق إلى مادة ميتة، أو يتهموا الله أنه لا يعرف إلا ذاته، أو أنه لا يعرف شيئا على الإطلاق، إلى غير ذلك من ضلالات.. فكل هؤلاء ضلوا لأنهم رفضوا الوحي الإلهي واستندوا إلى عقولهم وإلى أهوائهم..

هذا الجانب بمنطق العقل لا يحتاج -كما قلت- إلى دليل خارجي، لأنها حقيقة، والحقيقة الكبيرة العظيمة تفرض نفسها على الإنسان، وليس الإنسان هو الذي يفرض نفسه عليها.. فكما أننا لا نفرض أنفسنا على الشمس وإنما هي التي تفرض نفسها علينا.. فكذلك حقيقة الألوهية -ولله المثل الأعلى- تفرض حقيقتها ووجودها وعظمتها وجلالها على كل إنسان حينما يدرك حقيقة ذاته هو كإنسان حي لا بد أن يكون له خالق وإله. فهذه قضية لا تحتاج إلى جدل.

القضية الثانية: وهي تتلخص في أن الله بما أنه هو خالق هذا الوجود ومصرفه ومالكه فلا بد أن يكون له السلطان أيضا. وهي حقيقة بدهية يجب أن تتبع هذا الاعتراف العميق بصفات الله وبوجوده. وينبغي على الإنسان إذا لم تُنزل له كتب أو يُبعث له رسل أن يقف ليصرخ سائلا ربه الذي خلقه: يا من خلقتني ماذا تريد مني؟ فالله عز وجل رحم هذا الإنسان أو استجاب لهذه

الصيحة التي يعرفها من خلقه، فبعث له الرسل، وأنزل له الكتب، ليقول له ماذا يراد منه، ولماذا خُلق. وهي قضية بدهية.. فالرسل جاءت والكتب نزلت تمشيا مع هذه الرغبة المكنونة التي سيحسها البشر حينما يتلفتون حولهم في هذا الكون العريض الرحيب ليبحثوا عن دور لهم في هذا الوجود، ويسألوا خالقهم الذي خلقهم.. فجاء الرسل ليقولوا لهم الحقيقة حتى لا يسبقهم الشيطان إلى الإنسان فيجتال الناس عن الحقيقة. ذلك الشيطان الذي تعهد أن يغوي البشر ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].. فكان لا بد أن ترسل الرسل وتنزل الكتب حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. فجاءت الرسل والكتب لتقول للناس هذه الحقيقة البينة الساطعة التي تتناسب مع فطرتهم ومع واقعهم، ومع بدهيات الأشياء، فلا تسمع البشرية للشيطان. فهذه هي الحقيقة حينما نعرضها بصورتها العقلية، فتصبح شهادة ألا إله إلا الله مطلب طبيعي واقعي ضروري لكل إنسان يحترم نفسه ويحترم عقله ويتعامل مع الحقيقة.

الدليل الشرعي على الألوهية الواحدة

أما إذا جئنا إلى الدليل الشرعي فهو متوفر والحمد لله بصورة يصعب على الإنسان إحصاؤها؛ فالقرآن كله يتحدث عن هذه الحقيقة. فإذا أردنا أن نقول ما هو الدليل على هذه الحقيقة نقول إن كل آي القرآن إنما تتكلم في هذه الحقيقة، وتصلح أن تكون دليلا على هذه الحقيقة.. فلسنا محتاجين إلى كلام المتكلمين، ولا إلى أدلة الفلاسفة، ولا أدلة العلماء لكي نعرف حقيقة الألوهية. فالقرآن من أوله إلى آخره يتحدث في قضية "لا إله إلا الله". وسنحاول أن نستعرض بعض هذه الآيات، وهي كثيرة جدا، لكن سنستعرض أوضحها وأهمها.

لن نستعرض الآيات التي تتحدث عن أن الله هو الخالق، فهذه القضية لا يماري فيها الناس. ولا في أن الله هو الرازق، ولا أن الله هو الضار والنافع.. فإشكال البشرية الآن يكمن في أنهم لا يريدون أن يعطوا الله حق السلطان على أنفسهم وعلى حياتهم وواقعهم.. وهم يعترفون له بكل سلطاته الأخرى؛ فلا يمارون في أن الله هو الذي خلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يميت، وهو الذي يعطي ويمنع.. وإنما هم يعرضون فقط ويقفون فقط في قضية أن السلطان لله، أو أن الحكم لله.

والآيات التي وردت في أن الحكم لله كثيرة جدا، وبارزة جدا في كتاب الله عز وجل.

وقبل أن نتحدث عن القرآن ننبه إلى أن العرب حينما جاءهم القرآن، والذي جاء بلغتهم، وعلى أعلى درجة من الفصاحة، في وقت كانوا قد بلغوا فيه هم أيضا أعلى درجة من فصاحتهم، قد خاطبهم القرآن ففهموا عنه كل شيء.. فهم -الكافرون والمؤمنون- فهموا ماذا يريد الله منهم. وكما نعرف جميعا أن الأستاذ المودودي رحمه الله تكلم في هذه القضية في كتابه "المصطلحات الأربعة"، وبين أن الكفار حينما كانوا يُدْعون إلى لا إله إلا الله كانوا يعرفون منها معنى الإجارة والحماية والحب والولع والشوق والسيادة والقطبية والاحتجاب والسلطة. فكان العربي حينما يدعى إلى لا إله إلا الله كان يدرك أن هذا الرسول جاء ليقول لهم أن افردوا الله عز وجل بالحب والشوق وطلب الحماية والاستجارة والاستغاثة، وأنه هو السيد، وهو الرب، وهو الذي لا يراه عباده، لأنه يدرك كل شيء ولا يدركه شيء. فالقضية في خطاب العرب أن الخطاب كان سهلا وواضحا وميسرا، لأنه خطابٌ لهؤلاء الذين كانوا قد بلغوا أعلى درجة من الفصاحة، وقد نزل القرآن بلغتهم على أعلى درجة أيضا من الفصاحة. فلذلك لم

يكن هناك مشكلة ابتداء في أن يفهم العرب ماذا يُراد منهم. ولكن المشكلة كانت قابعة في نفوسهم.. ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ولم تكن المشكلة أيضا عند أهل الكتاب أنهم لا يعرفون، لأن كتبهم كانت قد بشرت بالنبي الخاتم، وسمته باسمه وبصفاته وبمكانه وبعلاماته. فحينما كفر الكافرون فإنهم لم يكفروا عن جهل، وإنما كفروا عن إعراض وعن استكبار.. وقصة أبي جهل وكذلك قصة حيي بن أخطب معروفتان؛ فهما قد أقرا أنه نبي. فقد جاء الأخنس إلى أبي جهل فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه[١٠].

وعن أم المؤمنين صَفِيّةَ بِنْتِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ -زعيم اليهود- أَنّهَا قَالَتْ: " كُنْتُ أَحَبّ وَلَدِ أَبِي إلَيْهِ وَإِلَى عَمّي أَبِي يَاسِرٍ لَمْ أَلْقَهُمَا قَطّ مَعَ وَلَدٍ لَهُمَا إلا أَخَذَانِي دُونَهُ. فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ -صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- الْمَدِينَةَ، وَنَزَلَ قُبَاءَ، فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، غَدَا عَلَيْهِ أَبِي، حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَعَمّي أَبُو يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، مُغَلّسَيْنِ. فَلَمْ يَرْجِعَا حَتّى كَانَا مَعَ غُرُوبِ الشّمْسِ. فَأَتَيَا كَالّيْنِ كَسْلَانَيْنِ سَاقِطَيْنِ يَمْشِيَانِ الْهُوَيْنَى. فَهَشِشْتُ إلَيْهِمَا كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ فَوَاَللّهِ مَا الْتَفَتَ إلَيّ وَاحِدٌ مِنْهُمَا، مَعَ مَا بِهِمَا مِنْ الْغَمّ. وَسَمِعْت عَمّي أَبَا يَاسِرٍ وَهُوَ يَقُولُ لِأَبِي حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ: أَهُوَ هُوَ؟ قَالَ: نَعَمْ وَاَللّهِ! قَالَ: أَتَعْرِفُهُ وَتُثْبِتُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ! قَالَ: فَمَا فِي نَفْسِك مِنْهُ؟ قَالَ: عَدَاوَتُهُ وَاَللّهِ مَا بَقِيتُ[١١](!!!)"

فلم يكن هناك إذن حائل بين البشرية وبين هذه الحقيقة.. وحتى هرقل قال وهو يخاطب أبا سفيان: إن كان مثلما قلتم فسيملك ما تحت قدمي هاتين، وكاد أن يذهب ليسلم لولا أنه خشي على ملكه أن يذهب.. أما النجاشي فقد آمن وهداه الله للحق.

فالحقيقة كانت واضحة، وكان طريقها إلى العقول والقلوب واضح وسهل وبسيط. وهي في كل وقت كذلك. فهي ليست صعبة على الفهم في أي وقت، وإنما على الناس أن يتوجهوا ناحية الشمس ليروها، فأما إذا أعطوها ظهورهم فأنى لهم أن يروها. فالعيب ليس في الحقيقة، فهي ليست غائمة أو مغبشة أو غير واضحة أو غير ملحة، وإنما الناس عنها يعرضون. فالقضية واضحة، ولم تكن في يوم من الأيام غائمة ولا غامضة.. لا في أي وقت مضى، ولا حتى في عصرنا الذي نحن فيه.. بل القضية في عصرنا الذي نحن فيه أشد وضوحا وأشد جلاء، فكلما زاد العلماء درجة من العلم كلما أيقنوا مرة أخرى أنه لا يمكن أن يصنع ذلك إلا الله عز وجل. فالعلم الآن يدفع البشرية دفعا إلى الإيمان، والعقل يدفعها إلى الإيمان، والتجارب تدفعها إلى الإيمان.. فلم يكن هناك عصرٌ أحوج ما يكون إلى الإيمان كحاجة العصر الذي نحن فيه، ولم يكن هناك عصر أيضا الحقيقة فيه أبده ما تكون كعصرنا الذي نحن فيه. ولكن الناس يعرضون عن الحق، ويعرضون عن هذا الدين.

أما إذا جئنا إلى القرآن فسوف نجد الآيات كثيرة جدا في هذا الموضوع، وخاصة أننا -كما قلنا- سنركز على قضية الحكم والسلطة..

---

١٠ سيرة ابن هشام ج١ ص٣١٦

١١ المصدر السابق. ج١. ص٥١٩-٥٢٠.

يقول الله عز وجل في سورة يونس ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].. لو لم تكن إلا هذه الآية في القرآن لكفى.. فالله عز وجل يسأل سؤالا استنكاريا عن هذه الحقيقة؛ حقيقة أن الله رزق الناس ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾.. وكل شيء في حياة الناس هو رزق من الله؛ من أول الشمس وضوئها وحرارتها، والقمر ونوره، والسماء وما فيها والأمطار التي تنزل، والنبات الذي ينبت، والناس والأحياء والجماد والحيوان.. كل هذا من رزق الله، وكذلك الصحة والأولاد والأكل والشراب، كله رزق من الله. والله عز وجل يسأل ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾، وكلمة رزق هنا جاءت نكرة ليعم اللفظ كل أنواع الرزق، وكل شيء في حياتنا رزق من الله، فقسمتموه على أهوائكم، ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾.. ولما لم يكن هناك إذن من الله بأن يعطي هذا الحق لأحد غيره؛ لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل ولا لبشر من البشر ولا لجن ولا لشيء لما لم يكن شيء من ذلك فإن كل مقولة تعطي غير الله حق التحريم والتحليل إنما هي محض افتراء واعتداء على ألوهية الله وعلى خصائصه وعلى حقه في التحليل والتحريم.. ومعنى هذا هو الكفر الفظيع الواضح.. فهي آية واضحة يقرؤها الناس ليل نهار تؤكد لهم هذه الحقيقة، ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

في سورة النحل ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].. ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم يعني وصف القول الذي يقولونه قبل أن يحدد مضمونه ابتداء بالكذب لشدة وضوح الكذب فيه.. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾.. ما هذا الذي قلناه كذبا؟ ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾.. هذه هي القضية؛ أن تحللوا وتحرموا هي الكذب، الكذب بذاته، الكذب مجسما، لأنه افتراء محض واعتداء محض وتجرؤ محض وكفر محض.. ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾.. كأنكم تقولون ذلك لغرض واحد؛ هو أن تفتروا على الله الكذب، وتعمد الافتراء على الله الكذب كفر بيّن واضح. فهذه القضية أيضا شديدة الوضوح، وهذه الآية مع الآية السابقة تبين القضية بوضوح..

في سورة الشورى ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ١٠-١١].. وهذه الآية أيضا تقرر بجلاء ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وكلمة شيء أيضا جاءت نكرة لكي تستغرق كل شيء، ولو كان عودا من أراك، إذا اختلف البشر عليه ما كان ليكون الحكم فيه إلا لله، ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.. لماذا؟ ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي ﴾.. سيدي ورئيسي وخالقي ومالكي ومصِّرف هذا الوجود.. ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۞ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾.. آيات شديدة الوضوح، أنه لا يجوز التحاكم ولا الحكم لغير الله عز وجل في أي شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا.

وفي نفس السورة يستنكر الله عز وجل ويتساءل، لكي يعلم الناس أن التلقي من غير الله شرك كبير ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].. هل هناك شركاء؟ هل أذن الله لأحد أن يشرع؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾.. فالله لم يأذن لأحد أن يشرع.. فالذين يأخذون شرعا من غير الله هم مشركون به، فهم قد ادعوا له شريكا، وهم بذلك مشركون.. وهذا تؤكده آية سورة التوبة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ

ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣١-٣٢].. فساوى الله عز وجل في هذه الآية بين الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا، بمعنى أنهم كانوا يشرعون لهم، وبين اتخاذهم المسيح إلها، وادعائهم أنه ابن لله.. جعلهم في كفة واحدة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. وقد فسر لنا رسول الله ﷺ هذا الشرك الذي وقع فيه النصارى واليهود حينما قال لعدي بن حاتم (ألم يحلوا لكم الحرام ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم فتلك عبادتكم إياهم)[١٢].

فإذن التشريع والتحليل والتحريم قضية واضحة جلية في كتاب الله وأنها من خصائص الألوهية، ولا يجوز لنبي ولا لبشر ولا لملك أن يحكم ويشارك الله في هذا الأمر.

ويقول الله عز وجل في سورة يوسف بصيغة القصر ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].. فالحكم لله وحده. وحينما يكون الحكم لله وحده تكون العبادة لله وحده.. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾.. وإذا اتخذ الناس حكما من دون الله، أو مع الله، فلم يعبدوا الله كانوا بذلك مشركين، وهذا هو الدين القيم، ولا دينا قيما غير هذا الدين.. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.. وكون الناس لا يعلمون هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، ولا يضيف للناس شيئا.. فالذين لا يعلمون؛ هم الذين لا يتحاكمون إلى الله، وهم الذين لا يعبدونه، وهم ليسوا في دين الله، سواء كانوا يعلمون أو لا يعلمون.

في سورة النور يقرر الله سبحانه وتعالى في قطاع كبير من هذه السورة هذه القضية بجلاء ووضوح ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٥١].. فالقضية بارزة وواضحة لا تحتاج إلى شرح، فهؤلاء الذين يزعمون ويقولون إنهم آمنوا بالله وبالرسول وأطعنا، فإذا تولوا عن شرع الله وأخذوا شرعا غير شرع الله ينفي عنهم الله عز وجل الإيمان. ولأن هؤلاء إذا دعوا إلى حكم الله لم يهرعوا إليه بينما إذا دعوا إلى حكم غيره أقروه واستبشروا به، ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].. فالادّعاء إذا اختلف عن الواقع فالواقع هو الحاكم ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [النور: ٤٩].. إذا كان لهم مصلحة في أحكام الله جاءوا مذعنين.. وكأن هذا الدين خادم لأهواء البشر، إذا احتاجوه استدعوه، وإذا لم يحتاجوه أو ضاقوا به طردوه.. وما يكون لدين الله أن يكون كذلك. وهؤلاء يقرر عز وجل أنهم إما مرتابون، وإما منافقون، وإما كافرون ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٠].. والظالمون هنا تعني الكافرين، لأن أشد الظلم الكفر.. ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٥١]..

---

١٢ أخرجه الترمذي وأحمد.

هذا هو الموقف الوحيد الصحيح.. ﴿ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]..

وتأتي آيات سورة النساء وسورة المائدة، وهي مشهورة معروفة، يقرر الله سبحانه وتعالى فيها من أول آية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩].. إلى آخر مجموعة الآيات التي تنتهي بذلك القسم الرباني ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].. هذه الآيات كلها شديدة الدلالة على أنه لا طاعة إلا لله ورسوله ولا تحاكم إلا لله ورسوله إن كان الناس يدَّعون الإيمان.. فإن لم يفعلوا ذلك فهم زاعمون ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].. وأيّاً كان ادِّعاء الناس أنهم يريدون بذلك الخير والتوفيق والإحسان فهذا ادعاء مردود، لأنهم لن يعرفوا أكثر من الله، ولن يعلموا أكثر من الله، وأنه ما بعث رسوله وما أرسل إلا ليطاع بإذن الله.. فهم ما داموا لا يتحاكمون إلى الله ورسوله، ولا يجدون في أنفسهم الطمأنينة التي تجعلهم مقرين بأن حكم الله هو الخير دائما، وما داموا لا ينفذونه تنفيذا أمينا، فهؤلاء لا يؤمنون. ويقسم الله بهذا القسم العظيم ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء: ٦٥].. والقسم بهذه الصيغة لم يرد في القرآن إلا على قضايا ثلاث أساسية، وهي؛ قضية التحكيم، وقضية البعث، وقضية الرزق.. لأن هذه القضايا الثلاثة هي العُمُد التي تسند الإنسان فلا تجعله يميل ويبعد فتغتاله الشياطين.. فإذا آمن الإنسان بأن الله هو صاحب السلطان والحاكم الواحد، وإذا آمن الإنسان بأن لا شيء ولا أحد إلا الله يحيي ويميت، ومن ثم فالبعث حقيقة أيضا، وآمن الإنسان بأن رزقه بيد الله وحده، فهذه هي العمد التي إذا أيقنها الإنسان لا ينحرف ولا يضل ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.. هذا قَسَمٌ جليل يقرر بما لا يبقي لصاحب حجةٍ حجةً أنه لا بد أن يتخذ الناس شرع الله شرعا، وألا يكون في قلوبهم حرج منه، وأن ينفذوه ويستسلموا له استسلاما كاملا. وأي إدخال لمعنى لم يرد في هذه الآية هو من قبيل التلبيس والتضليل، لأن بعض الناس يتخيلون أنهم يمكن أن يقولوا فلا وربك لا يؤمنون إيمانا كاملا، ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يقولوا: إذا لم يتخذ الناس شرع الله، وإذا تشككوا فيه، ولم يجدوا طمأنينة، بل قلوبهم متحرجة منه، ولم ينفذوه يظلوا مؤمنين، ولكنه إيمان ناقص.. وهذا لا يمكن أن يتمشى عقليا ولا نصيا مع الآية أبداً.. ولو شاء الله لقال ذلك.

وتتبقى آيات سورة المائدة.. وهي آيات شديدة الجلاء في أن الله عز وجل يحكم على كل من لم يحكم بما أنزل الله أنه كافر وظالم وفاسق.. وكلها بمعان واحدة؛ تعني الكفر والاعتداء والخروج عن دين الله.. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].. وهناك حول هذه الحقيقة عدة قضايا نؤجلها لموضع قادم؛ وهي الشبهات التي تَرِد على هذه القضية من المضللين ومن علماء السوء ومن الجهلة، وأيضا بعض الضوابط؛ متى يكون الحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله، والتحدث عن قول ابن عباس في هذه القضية "كفر دون كفر"، وأيضا الاستئناس ببعض ما جاء على ألسنة كثير من علماء السلف والمعاصرين في هذه القضية لكي تتجلى تماما، ونبين بعض الخطوط الرفيعة التي يضل بسببها كثير من الناس حتى من العاملين في الحركة الإسلامية وحتى من العلماء المتصدين للدعوة إلى الله، فنجدهم يقعون في هذه السقطات

الخطيرة دون أن يعوا أنهم سقطوا. فنريد أن نفرد لهذا الموضوع حديثا منفردا حتى تكون هذه القضية واضحة ومحددة، ونتناول من خلالها بعض التأصيلات لهذا الموضوع، بحيث لا يكون هناك احتمال مَهْما كان بسيطا ليعمي على أحد أو يغبش هذه القضية الواضحة.. والله أعلم.

أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول قضية الحاكمية

كنا نتحدث في الجزء السابق من هذا الفصل عن أهم قضية في هذا الوجود كله، وفي حياة الإنسان بطبيعة الحال.. وهي قضية لا إله إلا الله.

ونرى -ونحن في صدد الحديث عن نشأة المجتمع المسلم- أهمية أن نقف وقفة طويلة على القواعد الأصولية والعقائدية والحركية والأخلاقية والنظامية التي يقوم على أساسها هذا المجتمع.

فرغم أن حديثنا قد يطول حول هذه الأسس قبل أن نستكمل ما كتبه الأستاذ سيد في هذا الأمر.. لكن لا شك أنه ضرورة من الضرورات، وأنه لا يمكن أن نفهم ما هو المجتمع المسلم وكيف ينشأ ولماذا ينشأ إلا بعد أن نعرف القواعد التي انطلق منها، والقاعدة الأساسية التي قام عليها.

وبطبيعة الحال، ونحن في صدد المراجعة لكل شيء، فإن ذلك لا يعني أن ما نقوله الآن جديد جدة كاملة.. بل من المفروض أن يكون العكس صحيحا؛ أن يكون الأمر مستقرا فيما بيننا. ولكن كل ما نفعله الآن إنما هو مراجعة وترتيب للقضايا المتناثرة، وتعضيد للقضايا التي نعلمها جميعا.. فنسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى بيان الحق، وتيسيره في آن واحد.

ونحن نعتقد اعتقادا جازما بأن قضية لا إله إلا الله ليست قضية معقدة، ولا قضية صعبة الفهم.. بل هي قضية فطرية وبدهية وبسيطة.. وأن المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان إنما هي بسبب مغالطة الجاهلية ومكابرتها، ومحاولة الجاهلية في اتباعها هواها أن تُطمس قضية لا إله إلا الله، رغم أنها سهلة الفهم وواضحة تماما..

ولذلك نجد الأنبياء حينما جاءوا، كانوا يُعَبِّرون عن هذه القضية -كما قلنا- في بساطة شديدة وباختصار شديد، وكانوا يقفون طويلا عند قضية التزام الناس وانقيادهم لهذه الحقيقة، ويؤكدون ذلك. فالقضية ليس مجرد التعرف على هذه الحقيقة. فهذه الحقيقة في ذاتها -كما قلنا- واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، لا يعمى عنها إلا من أراد ألا يراها، فيغطي عينيه حتى لا يراها. لكن الإنسان الذي يريد أن يبصر ويرى فالشمس واضحة تماما له.. وحقيقة ألا إله إلا الله أشد جلاء ونصاعة وبساطة ووضوحا من الشمس في وضح النهار. فالوقفة الطويلة التي وقفها الأنبياء، والتي يجب أن نقفها، ليست من أجل أن نقرر أنه لا إله إلا الله، فهذا أمر ينبغي أن يكون بديهيا، وسوف يحاسب الناس يوم القيامة على هذه الحقيقة على أنها بديهية كما أوردنا في الآية التي جاءت في سورة الأعراف حينما أخذ الله ميثاق البشرية فأقام عليهم الحجة، ولم يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، لأنهم ليسوا غافلين.. ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] ولا يندرس دين الله أبدا، فدائما هناك ملامح ومعالم تدعو وتسهل على كل من يريد الحق أن يبحث وأن يصل إلى الحق في

كل وقت، فالأمر كما أقول، وكما نريد دائما في أي مواجهة بيننا وبين الجاهلية في أي وقت ألا نحس بأن القضية غامضة، أو أن القضية شائكة.. وهم مهما حاولوا أن يغالطوا أو يكابروا أو يعقدوا الأمر فهذا ناتج عن الهوى وناتج عن الجهالة التي يتصفون بها. فلا يجوز لنا أن نتردد، أو أن يخيل إلينا أن القضية صعبة وليست سهلة الفهم.

والآن نتحدث أو نسترشد ببعض أقوال علماء السلف والخلف والمعاصرين حول هذه القضية، لا لكي نؤمن بها، ولا لكي نستيقن منها، فنحن موقنون مؤمنون بها والحمد لله.. ولكن لكي نعلم أننا لسنا وحدنا الذين نتحدث هذا الحديث، وأن هناك إجماعا بين علماء السلف والخلف على أن لا إله إلا الله تعني أنه لا سلطان إلا لله، بما فيها أمر الحكم الواضح البين.

والحقيقة أني وجدت أن كتاب "إن الله هو الحكم" تأليف محمد شاكر الشريف قد جمع أطراف الموضوع في سهولة وفي بساطة.

وقد قلنا في أول الحديث أن تناولنا لهذه القضية لا بد أن يكون ملتزما بمنهج الأنبياء، وألا نخلط هذا الأمر بمقالات الفلاسفة أو الكلاميين أو العبثيين أو أصحاب الأهواء.. فالقضية كما تناولها القرآن وكما تناولها وبلّغها رسل الله جميعا كانت قضية تعتمد -كما قلنا- على البصيرة، وليس على العقل وحده، أو الوجدان وحده، أو على الأهواء.. وإنما كانت تخاطب الإنسان كله، ببصيرته التي تعبر عن العقل، وتعبر عن الوجدان، وتعبر عن المشاعر، وتعبر عن الواقع الذي يعيش فيه الإنسان. وهذا هو الأسلوب الوحيد، والمنطق الوحيد الذي يجب أن تعرض به القضية، والتي لا تفهم صورتها الكاملة إلا بها. فهذا الكتاب يعرض القضية بهذه البساطة، وبمنطق القرآن الكريم، الذي يؤيده العقل، ويؤيده الواقع، وتؤيده المشاهدة، مع بعض أقوال العلماء التي لا نريد أن نستكثر منها.

وهناك بعض القضايا الدقيقة التي قد تُشْكِل عن فهم المدعوين أو فهم جماهير الناس في العالم الذي كان إسلاميا، وأيضا قد تُشْكِل على بعضنا، سواء في الفهم، أو في الترتيب لها والتعبير عنها.. فهي قضايا قد نطلق عليها شبهات أو نطلق عليها مغالطات يحاول أعداء هذا الحق أن يستفيدوا منها أو يثيروها في وجه من يدعوهم إلى لا إله إلا الله بفهمها الغض الصحيح البسيط كما جاء به الأنبياء. فسنضطر إلى العروج عليها، وخاصة أن الرجل هنا قد مس خطوطا رفيعة تزيد الأمر وضوحا، وأيضا تنفي بعض ما قد يكون غائما ومغبشا في هذه القضية.

استعرضنا نحن بعض الآيات التي تتحدث عن قضية التشريع والتحليل والتحريم باعتبارها أمرا خاصاً بالله عز وجل لا يشاركه فيها أحد. ولا شك أن هذه النصوص التي تحدثنا عنها إنما هي قليل من كثير مما ورد في كتاب الله.. ولكني اخترت الآيات الطويلة نسبيا، والتي تدل دلالة ناصعة جدا على هذه القضية.

وهناك آيات أخرى كثيرة نذكرها على سبيل زيادة العلم وزيادة العرض. فمن النصوص الدالة على أن الحكم لله وحده لا شريك له فيه سبحانه وتعالى قوله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦]، وقوله تعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله تعالى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢]، وقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد: ٤١].. ولا نستطيع أيضا أن نقول إن هذا حصر لكل الآيات التي وردت في قضية الحكم.

وهذه الآيات تدل دلالة قاطعة على أن الحكم لله وحده، لا يشركه في ذلك أحد، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً.. فضلا عن أن يكون فردا أو طائفة من عموم الناس.

وورد أيضا في السنة الصحيحة عن شريح بن هانئ عن أبيه هانئ أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ سمعهم وهم يكنون هانئا أبا الحَكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال له (إن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم، فلم تكنى أبا الحكم؟) فقص عليه هانئ سبب ذلك، فسأله رسول الله ﷺ عن أكبر أبنائه، فقال: شريح، فقال له رسول الله ﷺ (فأنت أبو شريح)، وأبطل رسول الله ﷺ الكنية بأبي الحَكم[١٣].. والسبب في ذلك أن الله هو الحَكَم وإليه الحُكْم.. ويقول ابن الأثير معلقا على ذلك إنما كره له ذلك لئلا يشارك الله في صفته سبحانه وتعالى[١٤]. فلا شك في أن هذا الحديث له هذه الدلالة الواضحة.

وفي دعاء الاستفتاح في صلاة التهجد يقول الرسول ﷺ (وإليك حاكمت)[١٥].. أي رفعت الحكم إليك ولا حكم إلا لك.

فلا شك أن هذه النصوص وغيرها يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الحُكْم لله تعالى، وأن الله هو الحَكَم، وأن هذا من العقيدة، بل هو أساس عقيدة المسلم.

وإذا كان القول بأن الله هو الحَكم وأن الحُكم له وحده يمثل جزءا من عقيدة المسلمين، أو قاعدة هذه العقيدة، فإنه يعني من جانب آخر أن المسلم لا يقر بذلك لأحد دون الله تبارك وتعالى.

يقول المؤلف (محمد شاكر الشريف): "ومما تقدم يتبين أن من ادَّعى أنه هو الحَكَم، وأن الحُكم له؛ سواء كان هذا المدعي فردا أو جماعة أو هيئة أو مؤسسة أو مجلسا نيابيا أو مجلسا شعبيا أو برلمانا أو غير ذلك من المسميات فقد ادَّعى مشاركته لله تبارك وتعالى في ذلك، وليس يخفى على أحد ممن يعلم حقيقة الإسلام أن مثل هذا الادعاء هو من الكفر الغليظ بالله رب العالمين".

ويقول: "ومما تقدم أيضا يتبين أن من أقر بهذه الدعوة لأحد دون الله تبارك وتعالى فقد أقر بشريك لله تبارك، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ولا يخفى أيضا أن ذلك من الكفر الأكبر الغليظ، نعوذ بالله من كل سوء".

---

١٣ أخرجه النسائي كتاب القضاء، باب إذا حكموا رجلا فقضى بينهم، وأبو داود كتاب الأدب في تغيير الاسم القبيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير.

١٤ لسان العرب ٩٥٢/٢.

١٥ صحيح مسلم. ج١. ص٥٣١.

فالذي يدّعي، والذي يقره على هذه الدعوى كلاهما يقع في الكفر الغليظ الذي يخرج من الملة، أو الذي لا يدخل فيها أصلا، والله أعلم.

معنى كلمة الحكم

ويتكلم عن معنى كلمة الحكم أيضا كمدخل لبيان هذه القضية.. فيقول:

"وإذا رجعنا لمعنى كلمة الحكم نجد لها عدة معان، يتعلق منها بموضوعنا معنيان؛

المعنى الأول: القضاء والفصل في الأمور المعينة اعتمادا على تشريع سابق، ويكون دور القاضي في هذه الحالة البحث في نصوص التشريع عما ينطبق على الحالة المعروضة، ثم يحكم فيها بما يدل عليه ذلك التشريع، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢]..

فالمراد بالحكم في هذه النصوص وما شابهها القضاء والفصل في الأمور على وفق التشريع المنزل من عند الله تبارك وتعالى.

وهذا النوع من الحكم ليس خاصا بالله سبحانه وتعالى، ولا يُمنع المسلم من مزاولته. وطبيعة هذا النوع من الحكم يتعلق بوقائع معينة محددة. فكل مسلم استوفى شروط القضاء المعروفة يمكنه مزاولة هذا النوع من الحكم"..

فالقاضي لا يُنشئ حكما من عنده، وإنما يرجع في ذلك إلى تشريع الله عز وجل.

ثم يقول: "المعنى الثاني: القضاء والفصل في الأمور بغير اعتماد على تشريع سابق، أو القضاء والفصل في الأمور اعتمادا على تشريع يضعه القاضي أو الحاكم من قِبَل نفسه، وليس موضوعا له من قبل أحد غيره.

فهذا النوع من الحكم يكون الحكم فيه بمعنى التشريع المبتدأ الذي يبتدئه الحاكم من عند نفسه من غير أن يمليه عليه أحد، أو يتبع فيه أحد".

وهذا طبعا هو المعنيُّ بموضوعنا هذا.

"وفعل الحاكم في هذا الحكم أنه يضع من عند نفسه التشريع، ويبين الأحكام المترتبة على الأقوال والأفعال والتصرفات".

وبطبيعة الحال هذا القاضي أو الحاكم قد يحكم في قضية عين -أي في قضية معينة- بالحكم وفقا لما شرعه هو. يقول: "ويدل على هذا المعنى لمفهوم كلمة الحكم قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠].. ﴿ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٣].. ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ [الأنعام: ٦٢].. فالمراد بالحكم في هذه النصوص وما شابهها إحداث تشريع مبتدأ للحكم في القضايا؛ سواء كانت قضايا كلية عامة، أو قضايا معينة محددة".

وبطبيعة الحال المعنى الثاني هو المختص بالله عز وجل. فحقيقة دين الإسلام تقرر أن هذا النوع من الحكم مختص بالله رب العالمين، لا يشركه فيه أحد من خلقه.

يقول "ومن هنا يتبين أن الحكم بما أنزل الله يراد به:

١- الإيمان بالتشريع المنزل من عند الله وقبوله واتباعه والدعوة إليه، وعدم إحداث شيء يناقضه.

٢- القضاء والفصل في الأمور على وفق تشريع الله الذي جاء به الكتاب والسنة".

يقول "ولعله يصبح من الواضح جدا الآن أن مطالبة المطالبين بالحكم بما أنزل الله لا تعني تنفيذ الحدود الشرعية فقط، ولا تنفيذ أحكام الأسرة فقط.. وإنما تعني الالتزام الكامل التام بكل الأحكام الشرعية التي دلت عليها النصوص، والحكم بموجبها، وتهيئة جميع الظروف والأحوال أمام الناس لكي يتمكنوا من التقيد بشرع الله تبارك وتعالى. فلا يقال عن نظام مثلا أنه ملتزم بالإسلام وبالحكم بما أنزل الله وهو لا يتيح الفرصة أمام الموظفين والعاملين فيه أن يؤدوا الصلاة في مواقيتها.. ولا يقال عن نظام إنه ملتزم بالحكم بما أنزل الله وهو يوصد أمام الناس أبواب الحلال من المطاعم والمشارب والمناكح، ويفتح لهم أبواب الفسق والفساد والفجور على مصاريعها.. ولا يقال -أيضا- عن نظام إنه يحكم بما أنزل الله بينما هو يحارب الدعاة إلى الله أشد المحاربة، ويفسح المجال أمام أصحاب العقائد المنحرفة والبدع المهلكة.. ولا يقال عن نظام أنه يحكم بما أنزل الله، وإن ذكر في دستوره أن مبادئ الشريعة الإسلامية، أو أن الشريعة الإسلامية أو الفقه الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع، بينما محاكمه مفتحة الأبواب يقضي فيها بين الناس بما يناقض حكم الكتاب والسنة".

فهذا أيضا من الأمور التي توضح أن الواقع هو الذي يحكم على الادعاء، وأنه لا يكفي أن يدعي الإنسان أنه يؤمن بشرع الله، أو أنه يؤمن بشريعة الله، أو حتى أنه لا يتلقى إلا من شريعة الله ثم يكون الواقع مناقضا لذلك، فهذا لا يقال عنه إنه نظام إسلامي، أو نظام يحكم بما أنزل الله، كما هو موجود في الواقع في السعودية مثلا.. فمن ناحية التقول والادعاء يكررون كل ذلك؛ سواء الحكام أو العلماء.. لكنهم في الواقع يوالون غير المسلمين، ويفسدون في الأرض بكل ما أوتوا من قوة، ويحاربون دين الله في كل مكان.

بعد ذلك يتكلم عن أوصاف الذي يحكم بغير ما أنزل الله.. ما هي أوصاف تارك الحكم بما أنزل الله عز وجل؟ ويذكر عدة أوصاف كلها مستقاة من كتاب الله عز وجل.

فمن الأوصاف التي وصف الله بها الذين يحكمون بغير ما أنزل الله:

أولا؛ الكفر: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]..

ثانيا؛ هو الظلم ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]..

ثالثا: الفسق ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]..

رابعا: عدم الإيمان ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣].. ويقول تعالى في سورة النور ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٤٧].. كما يقول في سورة الأحزاب ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].. كما جاء في سورة النساء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]..

خامسا: التحاكم إلى الطاغوت، يقول الله عز وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].. فلا شك أن الذي يُعرض عن حكم الله إنما يتجه إلى حكم الطاغوت.

سادسا: اتباع الهوى ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].. وقوله تعالى ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨].

سابعا: ابتغاء حكم الجاهلية في قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثامنا: وصفهم بالنفاق؛ وهذا في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

تاسعا: وصفهم بمرض القلب والشك والارتياب، وعدم الثقة في عدل الأحكام الشرعية؛ وذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨-٥٠].

الوصف العاشر: الشرك ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

الحادي عشر: وصفهم أيضا بتقليد الكفار والمشركين في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

فهذه كلها أوصاف لمن لا يريد أن يتحاكم إلى الله وإلى رسوله.

وينقل أقوال بعض العلماء التي جاءت في تكفير من ترك حكم الله ورسوله وعدل إلى ما سواه من القوانين الوضعية.. فيقول:

"يقول ابن تيمية رحمه الله: ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله؛ كسوالف البادية،

وكأوامر المُطَاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر.. فإن كثيرا من الناس أسلموا، ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية بينهم التي يأمر بها المُطَاعون فيهم، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار.. والحكم بما أنزل الله واجب على النبي ﷺ وكل من تبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر"[١٦].

والاستحلال هنا هو الممارسة، والعدول عن حكم الله الممكن والمعلوم إلى حكم غيره. والإنسان لا يلجأ إلى شيء ويجعله قانونا إلا إذا استحله.. وهذا غير المعصية العابرة.. ولكن أن يقول إن هذا هو ما سأحكم به، أو ما يحكمنا فهو استحلال، سواء نطق بذلك أم لم ينطق.

"يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] يقول: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات مما يضعونه بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، وهو ما يسمى بالياسق أو الياسا؛ وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل أو كثير"[١٧].

"يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في معرض شرحه لقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٦٠]، يقول: من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكا في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله به في قوله ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]، فمن خالف ما أمر به الله ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعا لما يهواه ويريده فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تبارك وتعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان، لما في ضمن قوله ﴿ يَزْعُمُونَ ﴾ من نفي إيمانهم.

يقول الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ مفتي الديار السعودية، وهو الذي كان قبل الشيخ عبد العزيز بن باز قال الشيخ: إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين في الحكم به بين العالمين والرد إليه عند تنازع المتنازعين. وقد نفى الله الإيمان عمن أراد التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ من المنافقين، كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ

---

١٦ منهاج السنة النبوية ٢٢/٣.

١٧ تفسير ابن كثير ٦٧/٣.

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠]، وكما قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].. ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]، قال الشيخ: فانظر كيف سجل تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا ولا يكون كافرا، بل هو كافر مطلقا؛ إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد ".

ويبين الشيخ أنواع كفر الاعتقاد فيقول:

"أحدها: أن يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله، وهو معنى ما روي عن ابن عباس واختاره ابن جرير أن ذلك هو جحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي، وهذا ما لا نزاع فيه بين أهل العلم، ومن الأصول المقررة المتفق عليها أن من جحد أصلا من أصول الدين، أو فرعا مجمعا عليه، أو أنكر حرفا مما جاء به الرسول ﷺ قطعيا فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة..

الثاني: ألا يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقا، ولكن اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع؛ إما مطلقا، أو بالنسبة إلى ما استجد من الحوادث التي نشأت عن تطور الزمان وتغير الأحوال.. وهذا أيضا لا ريب أنه كفر لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي محض زبالة الأذهان وصرف حثالة الأفكار على حكم الحكيم الحميد.

النوع الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن اعتقد أنه مثله، فهو كالنوعين الذين قبله في كونه كافرا الكفر الناقل عن الملة، لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق، والمناقضة والمعاندة لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلا لحكم الله ورسوله، فضلا عن أن يعتقد أنه أحسن منه، لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله.. فهذا كالذي قبله، يصدق عليه ما يصدق عليه، لاعتقاده جواز ما علم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة للمحاكم الشرعية، إعدادا وإمدادا وإرصادا وتأصيلا وتفريعا وتشكيلا وتنويعا وحكما وإلزاما ومراجع ومستندات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدة مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة ومن القانون الفرنسي والأمريكي والبريطاني وغيرها، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة وغير ذلك.. فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكمّلة، مفتوحة الأبواب، والناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم الكتاب والسنة من أحكام ذلك القانون، وتلزمهم به وتقهرهم عليه وتحتمه عليهم.. فأي كفر فوق هذا الكفر، وأي مناقضة للشهادة بأن محمدا رسول الله بعد هذه المناقضة.

النوع السادس: ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم، يتوارثون ذلك منهم، ويحكمون به، ويحرصون على التحاكم إليه عند النزاع، بقاء على أحكام الجاهلية، وإعراضا ورغبة عن حكم الله ورسوله، فلا حول ولا قوة إلا بالله."

وهذه الأمور الستة كلها كفر اعتقاد، يُخرج الإنسان عن الملة، أو لا يدخله فيها أصلا.

"يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦] قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر بقول الله ﴿ ولا يشرك ﴾ بالياء المثناة التحتية وضم الكاف، والمعنى ولا يشرك الله جل وعلا أحدا في حكمه، بل الحكم له وحده جل وعلا، لا حكم لغيره البتة، فالحلال ما أحله تعالى، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه.. وقرأ ابن عامر من السبعة ﴿ ولا تشرك ﴾ بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي، أي لا تشرك يا نبي الله، أو لا تشرك أيها المخاطب أحدا في حكم الله جل وعلا، بل أخلص الحكم لله من شوائب الشرك، شرك غيره في الحكم.."

"ويفهم من هذه الآيات في قوله ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله.. وهذا المفهوم جاء مبينا في آيات أخرى، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله.. قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم، وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠-٦١]. وقد بين النبي ﷺ هذا لعدي بن حاتم -رضي الله عنه- لما سأله عن قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] فبين له أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم في ذلك، وأن ذلك هو اتخاذهم إياهم أربابا.

ومن أصرح الأدلة على هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بين أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرع الله يتعجب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب"

ويقول "وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله سبحانه على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أنه لا يشك في كفرهم وشركهم، إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم".

"يقول الشيخ محمد حامد الفقي: من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها".

أما الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله فيقول: "إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس؛ هي كفر بواح لا خفاء فيه، ولا مداورة ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام كائنا من كان في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها، فليحذر امرؤ لنفسه، وكل امرئ حسيب نفسه.. فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه غير موانين ولا مقصرين"

ويذكر المؤلف نصا عن عبد العزيز بن باز يقول: "والوجه الرابع من الوجوه الدالة على بطلان الدعوة إلى القومية العربية أن يقال إن الدعوة إليها والتكتل حول رايتها يفضي بالمجتمع ولا بد إلى رفض حكم القرآن، لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا تحكيم القرآن، فيوجب ذلك لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعية تخالف حكم القرآن حتى يستوي مجتمع القومية في تلك الأحكام، وقد صرح بذلك الكثير منهم كما سلف، وهذا هو الفساد العظيم والكفر المستبين والردة السافرة، كما قال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وكما قال تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وكل دولة -هذا الكلام للشيخ بن باز- وكل دولة لا تحكم بشرع الله ولا تنصاع لحكم الله فهي دولة جاهلية كافرة ظالمة فاسقة بنص هذه الآيات المحكمات، يجب على أهل الإسلام بغضها ومعاداتها في الله، وتحرم عليهم مودتها وموالاتها، حتى تؤمن بالله وحده، وتحكّم شريعته"..

ويقول: "إن من أقبح السيئات وأعظم المنكرات التحاكم إلى غير شريعة الله من القوانين الوضعية والنظم البشرية وعادات الأسلاف والأجداد، وأحكام الكهنة والسحرة والمنجمين التي قد وقع فيها الكثير من الناس اليوم، وارتضوها، بدلا من شريعة الله التي بعث بها رسوله محمدا ﷺ، ولا ريب أن ذلك من أعظم النفاق، ومن أكبر شعائر الكفر والظلم والفسوق، وأحكام الجاهلية التي أبطلها القرآن الكريم، وحذر منها الرسول ﷺ. ثم ذكر بعض الأدلة على ذلك إلى أن قال: وهذا تحذير شديد من الله سبحانه لجميع العباد من الإعراض عن كتابه وسنة رسوله ﷺ والتحاكم إلى غيرهما، وحكم صريح من الرب عز وجل على من حكم بغير شريعته على أنه كافر وظالم وفاسق ومتخلق بأخلاق المنافقين وأهل الجاهلية".

يقول أيضا الشيخ عبد الله بن قعود حفظه الله: "إن رفع أحكام شرعية من أحكام الإسلام، معروف حكمها من دين الإسلام بالضرورة، وإحلال قوانين وضعية من صنيع البشر مخالفة لها بدلا منها، والحكم بها بين الناس، وحملهم على التحاكم إليها.. إن ذلك شرك بالله تعالى في حكمه"

فهذه بعض الأقوال لبعض العلماء في قضية التشريع؛ تشريع أي حكم غير ما حكم به الله ورسوله.

والأستاذ محمد قطب له في هذا الأمر ملاحظة نذكرها.. يقول فيها "لو أننا استبدلنا القول حينما ندعو الناس بأن نقول لهم: أن من يُشرِّع بدلاً من الله أيّ حكم يكون كافرا بإجماع المسلمين، لعل هذا يكون أقرب إلى فهم الناس، ولا يلبس عليهم، أو لا يدع فرصة للملبسين؛ سواء كانوا علماء أو غيرهم، من أن يستغل كلمة الحكم في هذا التلبيس، لأن عندما ندعو الناس إلى الحكم بما أنزل الله قد يدخلون في بعض الشبهات، ويضللون الناس بأن هناك من يقول كفر دون كفر، أو أن هذا يعني أن من لم يحكم بما أنزل الله في جميع الأمور، وإن الدول تكتب في الدستور أن الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة هي

مصدر القانون.. لكن حينما نقول إن التشريع من دون الله هو كفر مجمع عليه، فلعل هذا لا يعطي فرصة للملبسين أن يلبسوا."

وهذا رأي للأستاذ محمد قطب قد لا أوافقه عليه كثيرا، لأن الذين في قلوبهم مرض لن يعدموا حججا أخرى يلبسون بها على الناس، فضلا عن أننا حينما نتحدث عن قضية أن الحكم لله فنحن نقرر ونبين حكم الذين يضعون حكما غير حكم الله، أو يشرعون لمسألة من المسائل حكما غير شرع الله، أو يستبدلون بشريعة الله شريعة الطاغوت.. فنحن نبين هذا.. ورغم ذلك هم يلبسون على الناس.

فقضية التشريع بغير ما أنزل الله؛ سواء كان بالنسبة لجملة الشريعة بأن تترك شريعة الله جملة، ويؤتى بشرع جديد أو بقوانين جديدة، أو أن يشرع تشريعا واحدا غير ما أنزل الله، ويبدل حكم الله ولو في تشريع واحد.. فهناك إجماع من العلماء -معاصريهم وسلفهم على السواء- على كفرهم. وسنبين من خلال هذا الكتاب المبسط إجماع العلماء على تكفير من ترك حكم الله ورسوله وتحاكم إلى القانون الوضعي.

يقول: "وليس هذا الذي ذكرناه ونقلناه من أقوال بعض العلماء السابقين واللاحقين يعبر عن فقه قائليه فحسب، أو أنه يمثل أحد الأقوال التي ذُكرت أو قيلت في المسألة، أو أنه يمثل اجتهاد طائفة من العلماء، وإنما هو تعبير عما عُلم من دين الإسلام، واستقر عند المسلمين كافة.."

وهذا هو الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر لنا هذا الإجماع حيث يقول: "فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر. فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه، من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين".

فابن كثير يبين في هذا الكلام أن التحاكم إلى الياسق التي هي قوانين وضعية، وتقديمها على شريعة الإسلام كفر بإجماع المسلمين.

وقد نص على هذا الإجماع أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: "ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أن من سوَّغ اتباع دين غير الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر." وقول شيخ الإسلام فيمن سوغ اتباع شريعة غير شريعة محمد يماثل قول الحافظ ابن كثير فيمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع.. وقد بين شيخ الإسلام أن صاحب هذا القول معلوم بالاضطرار من دين المسلمين وباتفاق جميع المسلمين أنه كافر.. بل بين شيخ الإسلام أن هذا القول يستوي مع تسويغ اتباع دين غير دين الإسلام..

ويقول أيضا في هذا الموضوع: "والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله -على أحد القولين- ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]".

وينقل أيضا عن الشيخ عبد العزيز بن باز قوله: "وكل من استباح ما حرم الله مما هو معلوم من الدين بالضرورة كالزنا والخمر والربا والحكم بغير شريعة الله فهو كافر بإجماع المسلمين".

ويقول الشيخ عمر الأشقر أيضا بعد أن نقل كلام الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: "ومن خلال هذا التفصيل يتبين لنا أن صنفين من الناس وقعا في الكفر الذي لا شك فيه:

الأول: الذين شرعوا غير ما أنزل الله، وهؤلاء هم الذين وضعوا القوانين المخالفة لشرع الله، حيث يلزمون بها العباد، والإجماع على كفرهم لا شك فيه، وهم الشركاء الذين عناهم رب العزة بقوله ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وهم الذين عناهم الله بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].. أي زينوا ما شرعوه من الشرائع وما سنوه من القوانين، ومنهم أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابا من دون الله في قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فهؤلاء الأحبار والرهبان الذين شرعوا غير تشريع الله كفرة لا شك في كفرهم، فقد بدلوا دين الله وشرعه.

الثاني: الذين أطاعوا المبدِّلين المغيِّرين لشرع الله، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل"..

وعمر الأشقر عالم معاصر، ورجل فاضل، من فلسطين عاش في الكويت زمنا طويلاً ثم عاد إلى الأردن بعد غزو العراق للكويت.

فواضح أن هناك إجماعا على أن من شرع أي تشريع غير ما أنزل الله أو حلل الحرام أو حرم الحلال فهو كافر بإجماع المسلمين.

القوانين المعاصرة ومخالفة شرع الله

وقبل أن ننتقل إلى الشبهات التي يقولها بعض المعاندين وأعداء هذا الحق، نستعرض بعض أشياء قدمها الكاتب هنا عن بعض ما في القوانين المعاصرة.. وهي لا تحتاج إلى دليل للمخالفة المتعمدة لشرع الله عز وجل..

يقول "فمن حيث تحريم الحلال فما نهت عنه هذه القوانين من قول أو فعل أو تصرف، ورتبت على إتيانه والوقوع فيه العقوبة، وأصبح جريمة وشيئا قبيحا بحيث يؤاخذ به الإنسان ويوقف به أمام القاضي بتلك القوانين الوضعية ليلقى جزاء ما أتى من فعل أو قول أو تصرف حسبما نصت عليه هذه القوانين.. وهذا يعني بكل وضوح أن القانون يُحرِّم هذا الأمر ويعده جريمة.. فلو كان هذا الشيء المحرم بمقتضى القانون الوضعي قد أباحته أحكام الله ورسوله كان هذا منعا وتحريما لما أباحه الله ورسوله.

ولنضرب على ذلك مثلا بتعدد الزوجات، فقد أباحته الشريعة الإسلامية حتى أربع زوجات بنصوص قطعية لا شك فيها، فإذا جاء نص في قانون ليمنع تعدد الزوجات صراحة، أو يرتب على الزواج بامرأة ثانية بعض العقوبات بدنية كانت أو مالية أو غير ذلك؛ كأن يلزم من فعل ذلك بتطليق الأولى، كان هذا منعا وتحريما لما أباحه الله ورسوله، وكان هذا تبديلا لحكم الله ورسوله". والأمثلة كثيرة على تحريم الحلال في هذه القوانين.

أما من حيث تحليل الحرام، فهو يأخذ أكثر من صورة... فمن هذه الصور جريمة الزنا.. فالزنا قد حرمته نصوص الشريعة تحريما قاطعا عاما ومطلقا، بحيث لا يباح الزنا بأي حال من الأحوال، فإذا جئنا إلى أحكام بعض القوانين التي تشترط لمنع الزنا وعقوبة فاعله شروطا معينة؛ مثل أن يقع الزنا بالإكراه وليس بالتراضي، أو إذا كانت الفتاة غير بالغة حدا معينا من السن، كان هذا القانون تحليلا للزنا إذا حدث بالتراضي من فتاة قد بلغت السن القانوني. ولذلك نجد في بعض القوانين مثل هذا الحكم "لا يعاقب على جريمة هتك العرض متى كانت الفتاة بالغة وتم الفعل برضاها".. ونجد في مادة أخرى أن "الزوجة التي زنا زوجها في منزل الزوجية لها الحق في أن تزني مع من شاءت ولا تثريب عليها إذا فعلت ذلك".. هذا أيضا في القانون الوضعي.. "فماذا يعني هذا؟ ألا يعني ذلك أن الزنا غير معاقب عليه في هذه الصور.. وماذا يعني أيضا؟ ألا يعني أن القانون لا يرى في الفعل -بهذه الشروط- جريمة تستحق الإنكار والعقوبة.. وهل هذا إلا تبديل لحكم الله ورسوله؟ وهل هذا إلا تحليل وإباحة لما حرمه الله ورسوله؟"

"ومن هذه الصور أيضا صورة إقرار الحرام والسكوت عليه.. فإذا تركت القوانين شيئا مما يجري في حياة الناس وفي تعاملاتهم ولم تتعرض له بأمر ولا نهي، ولم ترتب عليه ثوابا ولا عقابا كان هذا دليلا على أن القانون لا يرى في هذا الشيء بأسا، ولا يرى في فعله أو تركه حرجا.. لأن القانون -كما ذكرنا- هو المعني بوضع أحكام الأفعال والأقوال والتصرفات.. وترتيب النتائج عليها، والإلزام بها طوعا أو كرها.. فإذا لم يضع القانون لأمر يجري في حياة الناس حكما محددا، بل تركه وسكت عنه، دل ذلك على أن القانون لا يرى في هذا الأمر ما يستدعي أن يتعرض له، ولذلك تركه وسكت عنه، ولم يلزم الناس أو يقسرهم تجاهه على شيء ما..

فماذا يعني هذا؟ إنه يعني إقرار هذا الأمر وإباحته.. فإذا كان هذا الأمر قد حرمته الشريعة، فإن هذا يعني أن القانون قد أحل الحرام.

فإذا افترضنا أن أحد الأشخاص أتى هذا الأمر، فقام شخص آخر ورفع أمره إلى القضاء، فبأي شيء يقضي القضاء المتحَاكم إليه؟ لن يجد القاضي في القانون الوضعي المعمول به أي شيء يستطيع به أن يحاسب هذا الشخص، وسيقضي بأنه لا وجه لإقامة أي شيء ضده، لأن الفعل أو القول أو التصرف الذي أتاه لم يمنعه القانون ولم يحرمه ولم يضع له عقوبة، وبالتالي فلا حرج عليه في فعله..

خذ لذلك -مثلا- الربا؛ فقد حرمته نصوص الشريعة تحريما قاطعا، حرمه الله في كتابه وحرمته سنة رسول الله ﷺ، وأجمع المسلمون قاطبة على تحريمه.. ومع ذلك لا نجد في القوانين الوضعية أدنى إشارة إلى النهي عن الربا أو التحذير منه أو وضع أي عقوبة لفاعله.. بل نجد أكثر من مجرد السكوت والإقرار، حيث نجد تنظيم كيفية الربا بين الأفراد والمؤسسات، والتحريض على فعله"..

فليس بالضرورة أن يكون هناك تشريع، لكن مجرد السكوت عما حرمه الله ورسوله فلا يصدر القانون حُكماً بشأنه ويسكت عنه فهذا تشريع مضاد لما شرعه الله، وهو تحليل لما حرمه الله عز وجل.

فتبديل القوانين الوضعية للشرع المنزل، وتحريمها للحلال المجمع عليه جلي وواضح، وتحليلها للحرام المجمع عليه -وهذا كفر بإجماع المسلمين- يكون إما بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو السكوت عن بعض الأقوال أو الأفعال أو التصرفات التي حرمها الله ورسوله.

الشبهات والمغالطات في مسألة كفر من ترك الحكم بما أنزل الله

نأتي بعد ذلك إلى بعض الشبهات أو المغالطات التي ترد من أعداء هذا الحق ممن يزعمون الإسلام، وهذه الشبهات أكثرها يأتي ممن يدّعون الإسلام؛ سواء من الجماهير العادية، أو من بعض المشتغلين بالحركة الإسلامية، أو بعض العلماء الرسميين في العالم الإسلامي. ومن هذه الشبهات:

الشُبهَة الأولى: وهي؛ حديث رسول الله ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)[١٨].. ويتصورون أن القول وحده، والتلفظ بهذه الحروف وهذه الكلمات تعطي لصاحبها الحكم بالإسلام. هذا القول مردود:

أولا: لأن هذا الحديث لم يذكر فيه الإيمان برسول الله ﷺ، ومعنى ذلك إذا أخذنا بظاهر الحديث أن من قال لا إله إلا الله ولم يقل أن محمدا رسول الله فهو أيضا مسلم.. وهذا مناقض لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

الأمر الثاني: أن القول حينما يرد في حديث رسول الله ﷺ وفي لغة العرب يأتي بمعنى الإقرار الذي يترتب عليه مقتضيات لهذا الإقرار.. فمن قال لا إله إلا الله؛ أي: من شهد أن لا إله إلا الله.. وإلا لو أن الأمر قول فقط لما كان هناك ضرورة -بل يكون عبثا- أن يأتي أي أمر بفعل أو أي أمر بترك إذا كان الإسلام هو قول فقط باللسان.. فلِمَ تأتي بعض الأحاديث تكفِّر من ترك الصلاة؟ مثل (من ترك الصلاة فقد كفر)[١٩]، أو (الأمر الذي بيننا وبينهم -أي الناس- الصلاة، فمن تركها فقد كفر)[٢٠].. فلو أن الفعل لا يدخل في التكفير وإنما فقط القول في قوله (من قال لا إله إلا الله) لكان عبثاً من رسول الله ﷺ -وهو يتنزه عن ذلك- أن يقول (من ترك الصلاة فقد كفر)، والصلاة فعل وليست قولا.

وثالثا: معلوم باتفاق المسلمين أن من استحل شيئا معلوما من الدين بالضرورة فقد كفر؛ سواء كان فعلا أو تركا..

إذن، هذه الشبهة لا تصح، فضلا عن أنها تعارض المنهج والقاعدة الأصولية التي ذكرناها في أول حديثنا؛ وهي أن المسلم، أو أي إنسان يريد أن يتعرف على حكم من أحكام الله ورسوله فعليه أن يجمع كل ما ورد من الأحاديث وما ورد من الآيات

---

١٨ الحديث رواه معاذ وأنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)، أخرجه الطبراني في الدعاء بلفظ (من مات يشهد..) وهو في اليوم والليلة للنسائي بلفظ (من مات يشهد..)، ولمسلم والترمذي من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار). قال الترمذي: وقد روي عن الزهري أنه سئل عن قول النبي ﷺ (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة) فقال: إنما كان هذا في أول الإسلام قبل نزول الفرائض والأمر والنهي قال أبو عيسى (الترمذي) ووجه هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن أهل التوحيد سيدخلون الجنة وإن عذبوا بالنار بذنوبهم فإنهم لا يخلدون في النار.

١٩ أخرجه ابن حبان في صحيحه، وأخرج مسلم وأحمد وأصحاب السنن (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة).

٢٠ أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن بريدة -رضي الله عنه.

وما ورد من تطبيق الصحابة والقرون المفضلة وأقوالهم، ثم يستخرج الحكم.. فهناك أحاديث أخرى كثيرة تقرر أنه لا بد من الإيمان بالله، وشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن يكفر بكل ما عبد من دون الله.. فهناك أحاديث أخرى تقرر إضافات وتحديدات، تقضي بأن قول لا إله إلا الله لا يعطي للناس صفة الإسلام كما قلنا في سابقا إلا إذا تحققت شروط لا إله إلا الله؛ من العلم والصدق واليقين والإخلاص والقبول لها والمحبة لها والبراءة مما يخالفها مثل قوله ﷺ. فهذه أول شبهة وهي ساقطة مردودة ولا قيمة لها.

الشبهة الثانية: وهو يتحدث عنها باستفاضة، وهي قول ابن عباس "كفر دون كفر"..

يقول: "وهو أحد الأقوال التي وردت في تفسير الآية مما يرويه المفسرون عن ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره، والنقل عن ابن عباس وغيره في ذلك صحيح.. لكن السؤال الذي ينبغي أن يدرك المتكلمون في هذا الأمر جوابه الصحيح هو: في حق من تقال هذه الكلمة؟

هل تقال هذه الكلمة في حق كل أحد حكم بغير ما أنزل الله بغير ضوابط ولا قيد؟

أو: هل تقال في حق حكام لم يقبلوا شرع الله كله أو بعضه؟

أو: هل تقال في حق من بدل شرع الله كله أو بعضه؟

أو: هل تقال في حق من آثر على شرع الله شرعا آخر؟

أو: هل تقال في حق من طرح شرع الله كله أو بعضه وراء ظهره وأتى بقانون وضعي قدمه على شرع الله وأنزله منزلة أعلى مما نزل بها شرع الله؟

أو: هل تقال في حق من جعل التحاكم عند التنازع إلى ما وضعه البشر بعقولهم وأهوائهم ولم يجعله إلى شرع الله؟ هل كان في زمن ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره من العلماء من فعل ذلك من الحكام، أو قريبا منه، حتى يمكن أن يحمل حامل كلامه عليهم؟

والجواب الذي لا جواب غيره أنه لم يكن ذلك أبدا، وأن الثابت تاريخيا أنه لم يحدث منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم حتى مجيء التتار واستيلائهم على ديار المسلمين أن وجد حاكم سن تشريعا أو قانونا مناقضا لشرع الله وأعلنه شرعا متبعاً عاماً يُحكم به بين الناس. وأول ما حدث هذا كان بعد استيلاء التتار على ديار المسلمين وإعلانهم "الياسا" شرعاً عاماً متبعاً يُحكم به بين الناس.

وقد تبين لنا بما نقلناه عن الحافظ ابن كثير فيما مضى أن هذا كفر بإجماع المسلمين..

فما القصة إذن في قولهم "كفر دون كفر"؟

يقول: إنه لا بد من ذكر أصلين مهمين قبل الدخول في القضية؛

الأصل الأول: أن من لم يقبل حكما من أحكام الله أو أحكام رسوله ﷺ، أو أي شيء جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ بعد علمه به من دين الله فقد كفر، لأن حقيقة الإسلام هو الاستسلام الكامل لله وحده، وقبول كل ما جاء من الله أو عن رسوله ﷺ. فمن لم يستسلم وأبى الانقياد ولو لحكم واحد من أحكام الله ورسوله فقد استكبر، ومن استسلم وانقاد لغير الله فقد أشرك. وكلا الأمرين خروج وردة عن الإسلام. فلا يكون المرء مسلما حتى يستسلم استسلاما كاملا لله تعالى وحده لا يشرك معه في ذلك أحدا.

والأصل الثاني: أن من قَبِل ما جاء عن الله ورسوله ﷺ، وما حكم به الله ورسوله ﷺ ثم عصى بعد ذلك وارتكب المحرمات، غير مستحل لها، معترفا بجرمه وإثمه فهو مسلم وليس بكافر، فهو في المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، ثم مآله في آخر الأمر إلى الجنة بإذن الله.

والأصل الأول هو ما يقوله كل مسلم شهد لله الواحد القهار بالإلهية وشهد لمحمد ﷺ بالرسالة.. ومن لم يقل به فليس بمسلم.

والأصل الثاني هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين لا يكفرون بمطلق الذنوب، ولا يخلدون أصحاب المعاصي في النار، خلافا للخوارج والمعتزلة ومن تابعهم.

وإذا تبين لنا هذان الأصلان فإن القصة تعود إلى وجود مخالفات ومعاصٍ كانت تصدر حيناً من أفراد الرعية، وكانت تصدر حينا آخر من الحكام والأمراء. وكان من منهج الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر، فإذا رأوا أحدا جار في حكمه أو ظلم حكموا بكفره انطلاقا من فهمهم لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ولم يفرقوا في ذلك بين من يدخل تحت الأصل الأول، ومن يدخل تحت الأصل الثاني، وأنزلوهما جميعا منزلة واحدة.

ومن هنا انطلق أهل العلم من الصحابة والتابعين ليبينوا لهم ولمن سلك سبيلهم أن الكفر الحاصل ممن يدخلون تحت الأصل الثاني لا يكون كفرا، وإنما هو كفر دون كفر، أو كفر أصغر، أي كفر لا ينقل عن الملة.. وقد كان الحكام والولاة والأمراء في عصرهم يدخلون تحته، لأن الحكام في عصرهم قبلوا ما جاء عن الله ورسوله، وقبلوا أحكام الله ورسوله، وكان القضاء العام عندهم تبعا لشريعة الله، وإن كانوا يعصون الله في بعض وقائع الأعيان، من غير أن يمثل ذلك تشريعا عاما مغايرا لشرع الله.. وهم مع ذلك معترفون بخطئهم وتقصيرهم"...

ويقول: "ومن الأمور التي ينبغي التنبيه عليها أن كل من تكلم من العلماء بقول "كفر دون كفر" قد اتفقت كلمتهم على أن المراد بهذا القول هو هذا الصنف من الحكام الذين قبلوا أحكام الله ورسوله ﷺ، ولم يتخذوا شريعة مغايرة لها، لكنهم قد يخالفون في بعض الوقائع بدافع الهوى أو الشهوة، مع اعترافهم بأن حكم الله ورسوله هو الحق لا ما خالفه، وأنهم عاصون مستحقون للعقوبة.

وبعد هذا الوضوح والبيان في بيان معنى قولهم "كفر دون كفر" يصبح من التضليل المقصود أو الجهل الفاضح المزري بصاحبه الاحتجاج بهذه الآثار على عدم تكفير الحكام أو القضاة الذين سنّوا قوانين مناقضة لما حكم الله به أو رسوله ﷺ، وجعلوها

الشرع الحاكم والقضاء العام الذي يُقضَى به بين الناس، كما هو الحاصل الآن في الأغلب الأعم من بلاد المسلمين.. حيث استعاضوا عن أحكام الشرع المحكم المنزل على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ بقوانين وضعية اقتبسوها من الكفار المحاربين لله ورسوله من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، وقدموها عليه، وجعلوا الحكم بها والتحاكم إليها."

ولهذا يقول الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليق له عن الآثار المذكورة "كفر دون كفر"؛ يقول: "وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره مما يلعب به المُضِلَّون في عصرنا هذا من المنتسبين إلى العلم ومن غيرهم من الجُرآء على الدين، يجعلونه عذرا وإباحة للقوانين الوضعية التي ضربت على بلاد المسلمين."

ويعلق أيضا أخوه العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر على هذه الآثار، ويرد على الذين يريدون أن يتخذوا منها مطية لتبرير خروج الحكام عن شرع الله، ويبين أن سؤال هؤلاء النفر من الإباضية -من الخوارج- لأبي مجلز لم يكن عن القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون يخالف شريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ.. وإذا لم يكن سؤالهم عن ذلك فلا يجوز الاحتجاج إذن برد أبي مجلز عليهم في تبرير فعل من يفعل ذلك من الحكام في عصرنا الحاضر. ويكمل العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر كلامه السابق، ويبين الوصف الشرعي الصحيح لمن يفعله فيقول: فهذا الفعل إعراض عن الله وحكمه، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

ويجب أن نؤكد في هذا المقام على أمور، منها؛

١- أن كلمة كفر دون كفر لا تعني التقليل أو التهوين من جرم هذه المخالفة.. ولهذا يقول الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في هذه الكلمة: وهذا، وإن لم يكن يخرجه كفره عن الملة، فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة واليمين الغموس وغيرها، فإنه معصية سماها الله في كتابه كفرا أعظم من معصية لم يسمها الله كفرا.

٢- أن من نسب إلى ابن عباس وغيره من العلماء اعتمادا على كلمة كفر دون كفر عدم تكفير الحكام الذين استبدلوا القوانين الوضعية بالأحكام الشرعية وقدموها عليها وجعلوا الحكم بها والاحتكام إليها فقد افترى عليه وعليهم كذبا عظيما. ولا يستطيع أحد أن ينقل ولا حرفا واحدا عن ابن عباس أو غيره في عدم تكفير من سبق وصفهم من الحكام، وكيف يمكن ذلك وتكفيرهم أمر مجمع عليه كما تقدم.

٣- أن كلمة كفر دون كفر قد أفرط في استخدامها طائفتان من الناس، على بعد ما بينهما من الاختلاف: الطائفة الأولى: طائفة المضلين من المنتسبين إلى العلم، الجُرآء على دين الله، المسارعين في إرضاء ذوي السلطان، الحريصين على متعهم وشهواتهم، الراغبين في زخرف الحياة الدنيا.. يقولون ذلك لينالوا الحظوة والمكانة عند السلطان، ويغدق عليهم الأموال، ويوزع عليهم المناصب والرياسات، ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ١٧٤].

والطائفة الثانية: طائفة منتسبة إلى العلم وطلبه؛ نظروا إلى قول ابن عباس وغيره من العلماء، ولم ينظروا أو يتفقهوا في ملابسات هذا القول وكيفية تطبيقه على الواقع.. وظنوا أن القول بعدم تكفير من سن قوانين مناقضة لأحكام الله ورسوله وجعلها شرعا عاما

وقضاء متبعا، ظنوا أن عدم التكفير فتوى سلفية، وأن الذي ينطبق في حق هؤلاء الحكام المغيرين المبدلين هو عدم التكفير، والنظر إليهم على أنهم مسلمون انطلاقا من قول كفر دون كفر. ومن ثم راحوا يرددون هذا القول، ويجمعون طرقه وأسانيده، ويروجون له بين الناس على أنه مذهب السلف الذي ينبغي اتباعه، بل ذهب بعضهم إلى ما هو أكثر من ذلك؛ حيث عدوا ما خالف قولهم الباطل بدعة يجب تركها والتوبة منها.

وإلى مثل هؤلاء الغافلين الذين لا يعيشون واقعهم، ويطلقون الفتاوى والأحكام وكأنهم يعيشون في القرن الأول أو الثاني الهجري، وليس في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى هؤلاء نسوق كلاما محكما لإمام من أئمة مذهب سلفنا الصالح في عصره، ألا وهو الحافظ بن القيم رحمه الله، عسى أن يكون معينا لهم عن إدراك الحق في هذه المسألة.. حيث يقول الشيخ في بيان أنواع الفهم التي تؤدي إلى الحكم بالحق، يقول: "ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم إلا بنوعين من الفهم؛

أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علما.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر.."

ثم يقول -نقلا عن ابن القيم- "وهذا مبني على أصلين؛

أحدهما: المعرفة بحال الواقع والناس في هذا الواقع.

الأمر الثاني: معرفة حكم الله في مثلهم.. ثم شرع يفصل الأصلين بعد ذلك". وليس هنا مجال هذا التفصيل.

فموضوع "كفر دون كفر" واضح بهذا الشكل، ومعرفة الواقع، وفهم الواقع، وإنزال الأحكام عليه من خلال معرفة مناط الحكم مهم جدا قبل أن يفتي الإنسان بفتوى قد تكون قديمة على واقع مغاير للواقع الذي جاءت فيه وعنه الفتوى القديمة.

يقول: "فلا يكفي في النظر إلى الفتوى والأخذ بها أنها فتوى سلفية ليطبقها على الواقع المعاصر لمجرد ورودها عن السلف، حتى يعرف مناطها والحال أو الواقع الذي قيلت فيه، فإذا استخدم المفتي أو المتكلم في الأحكام الشرعية المأثور عن السلف بضوابطه التي استخدموها بها كانت الفتوى حينئذ فتوى سلفية، أما إذا جهلوا ذلك، أو حادوا عنه، واستخدموا المأثور عن السلف بغير ضوابطه وقيوده لم تكن الفتوى حينئذ فتوى سلفية حتى وإن كانت الكلمة أو الجملة المأثورة واردة عن السلف".

وقبل أن نتحدث عن الشبهة التالية، والتي أُسيءَ فهم قول المفسرين فيها، نقول تعليقاً على الشبهة السابقة: إن أشد ما هو واضح في المغالطات القائمة هو عدم إدراك الواقع، أو محاولة المغالطة في أمر هذا الواقع.

إن أكثر الذين يعادون هذا الحق يعطون المجتمع المعاصر صفة الإسلام، وهذه مغالطة، لأنهم لا يحاولون أن يتعرفوا على هذا الواقع ويقيسونه بمقاييس الإسلام الصحيحة، وما حدده الله ورسوله ﷺ لطبيعة المجتمع المسلم، ومواصفات المسلمين في ذلك المجتمع. فلا شك أن المجتمع المسلم -فوق أنه لا بد أن يكون مستظلا بشريعة الله، وموحدا لله عز وجل، ويرفض كل

سلطان وكل شرع غير شرع الله- لا بد أيضا أن يكون سلوك الأفراد والطوائف والتجمعات في هذا المجتمع مستقيما على أمر الله، وخاضعا للقيم التي أمر بها الله ورسوله.

فلا يمكن أن تتغير قيم المجتمع وأعرافه وسلوكياته، وتصبح أعرافا مجانبة لكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويصبح هذا عرفا متعارفا عليه، بل يعتبر نوعا من التقدم والرقي في الأخذ به، ثم يظل بعض الناس يرون أن هؤلاء الأفراد بقيمهم وأعرافهم وسلوكياتهم ومفاهيمهم وأقوالهم وأفعالهم هذه المناقضة لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يكونون مسلمين؟! لا شك أن الذي يرى ذلك قد استبعد -ابتداء- كل المقاييس وكل الأحكام التي قررها الله ورسوله ﷺ، وارتكن إلى ماضي هؤلاء الناس. فالذي يرتكنون إليه أن هؤلاء من ذراري قوم كانوا مسلمين، فجعلوا هذا الأمر هو الحُكْم الوحيد الذي استندوا إليه، مع بعض المظاهر التي دائما ما توجد في أي مجتمع كبقايا للمجتمع الذي كانوا يمارسون فيه الإسلام. فكل مجتمع كان له دين تظل هناك بقايا بسيطة لا تؤثر في جوهر المجتمع ولا في سلوكياته.. وإنما تربطه فقط بهذا الماضي بخيط رفيع مهترئ.

فلا شك أن عدم معرفة الواقع، ومن ثم إنزال الفتاوى القديمة والأحكام التي حكم بها السلف على بعض الوقائع، أو على بعض الأحداث في مجتمع مسلم يغاير تماما في كل شيء المجتمع الحالي الذي ينزلون الفتاوى السابقة عليه.. لا شك أن هذا من جهل هؤلاء الناس، أو مغالطاتهم، في إيقاع الحكم على الواقع المناسب له، أو بمعنى أصولي: أنه لا بد أن يتوحد مناط الحكم لكي يقاس عليه.. فلا بد لكي يصح القياس أن يكون هناك اشتراك في العلة، حتى ينقل الحكم من واقعة إلى واقعة أخرى.

وهذه مغالطة من الذين يعلمون، وجهل من الذين لا يعلمون. لكن؛ لا هذا ولا ذاك يعذرهم، لأن الباب مفتوح لكل من يريد الحق أن يتعرف عليه. ولا شك أن هذا أكثر ما يعاني منه أهل الحق في هذا العصر، أنهم يواجهون قوما يدّعون الإسلام، ويستندون في هذه الدعوى إلى ماضيهم، وإلى بعض البقايا الموجودة في حياتهم، والتي كانت قبل ذلك موجودة في جميع ذراري المسلمين من أتباع الأنبياء.. فوجود المساجد، أو وجود الآذان، أو وجود بعض أشكال النسك والشعائر.. كل هذا لا يعني أبدا أنهم أقاموا الإسلام، لأنهم حتى لو أقاموا هذه الأمور في شكلها الحقيقي فإنهم قد تركوا كل ما بقي، وشرعوا شرائع كثيرة من عند أنفسهم. وكما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقول لأهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء مع أنه قد كان في حياتهم كثير من بقايا دين موسى وعيسى عليهما السلام، وهو الإسلام فقد كانت هناك بقايا لا شك يتحاكمون إليها، ولكن الله عز وجل أمر الرسول ﷺ أن يقول لهم ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ٦٨].. حتى تقيموا التوراة كلها والإنجيل كله. وهذه التوراة وهذا الإنجيل سيدعوانهم إلى الإيمان بالرسالة الأخيرة، وبمحمد النبي الخاتم، فيرجعون جميعاً إلى الإسلام. فكأنما هي دعوة إلى التزام ما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله... فلم يعتبر لهم أي شيء قد فعلوه، بل ألغى كل شيء فقال ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾.

فكذلك هؤلاء الذراري الموجودون في الوقت الحاضر من ذراري المسلمين، مع كل ما في حياتهم من بقايا شكلية لا روح فيها.. بل تراهم في بعض الأحيان يتعمدون أن يوجِدوا بعض هذه الشكليات، ويروجون لها، لكي يظل بعض المخدوعين مخدوعين في هذا الواقع. فما نراه من مظاهر الحرص على الحج والعمرة، وتيسير الحج والعمرة للناس، ومحطات إذاعة القرآن

الكريم، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ووجود الأزهر ولافتة الأزهر.. كل هذه الأمور مقصود بها استبقاء الزيف واستبقاء الخداع، حتى يظل المخدوعون مخدوعين، فلا يستمعون إلى أهل الحق عندما يقولون لهم إن هذا المجتمع قد أضاع كل شيء، وأنكم لستم على شيء.. فيقولون: كيف أننا لسنا على شيء؟! عندنا وعندنا وعندنا.. فلا شك أن هذه من أكثر العقبات التي تعوق الناس عن إدراك الحق وفهمه، وهي ما يستغله أعداء الإسلام في التخويف وفي الخداع.

كما أنهم يرفعون تهمة تكفير المسلمين لكي يخوفوا الدعاة من أن يقولوا ذلك، ولكي يحرضوا المدعوين على هؤلاء الدعاة. فالجاهلية في الحقيقة تستثمر كل شيء، وكل الأساليب في سبيل الصد عن سبيل الله؛ سواء في اصطناع إسلام مزيف وأشكال إسلامية مزيفة، ليستبقوا شيئا ظاهريا من الإسلام يخدعون به الجماهير، أو بالتخويف سواء كان بإطلاق جريمة تكفير المسلمين، أو بأخذ من يدعون إلى الإسلام بتهم التطرف أو الإرهاب، أو غير ذلك من التهم. فمجموع هذه الأمور تؤدي بالناس إلى الخوف والبعد عن هذا الطريق الصعب، إلى طريق أصعب منه وهو الطريق إلى جهنم بلا شك.

فلا شك أن عدم وضوح الواقع عند الناس عموماً.. وعند كثير ممن يدّعون العلم أمر خطير، عافانا الله منه، بأن هدانا الله إلى إدراك الواقع الموجود، بحيث استطعنا أن نكتشف زيفه، ونكتشف ضلاله.

وننتقل إلى الشبهة التالية من الأقوال التي أُسيء فهم قول المفسرين فيها، وهي عن الآية ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] أنها نزلت في أهل الكتاب.. فيموهون على الناس بأن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن هذا الحكم خاص بأهل الكتاب فقط، وليس بغيرهم من الناس.

وللرد على هذا نقول: أنه معلوم في الأصول -وسنتكلم عن هذا بعد ذلك- أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن الناس يفهمون اختلاف بعض العلماء على تخصيص الحكم بالسبب فهماً خاطئاً.. بأن يربطوا الحكم بذات الطائفة التي نزلت فيها الآية، أو الشخص الذي نزل فيه.. وليس الأمر كذلك -كما سنبينه بعد ذلك- وسبب نزول الآية في أهل الكتاب كان لأن يهوديا زنى بيهودية، فاحتكموا إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم، وأخفوا حكم الرجم الموجود في التوراة، وكانوا قد بدلو حكم التوراة إلى التحميم وإركاب الزاني على حمار بالمقلوب، من عند أنفسهم، وتعارفوا على ذلك، وكان السبب -كما قال أحد علمائهم الذين أسلموا لرسول الله ﷺ- أنه كان في أول الأمر إذا ارتكب الفقير والوضيع الزنا أقاموا عليه الحد فرجموه، وإذا ارتكبه غني أو شريف لم يقيموا عليه الحد وعزروه بأي تعزير بسيط، فلما احتج الفقراء على ذلك اتفقوا لكي يزيلوا هذا التفريق على توحيد العقوبة، بأن يعزّر الجميع بتحميم الوجه -أي تلطيخه بالسواد- وبإركابهم دابة بالمقلوب.. فألغوا حكم الشريعة وأوجدوا شرعا آخر، ثم توارثوه بعد ذلك، فأصبح هذا هو الحكم الذي يحتكمون إليه بدلاً عن حكم الله سبحانه وتعالى. لذلك نزلت عليهم، أو بسببهم هذه الآية، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

يقول المؤلف (محمد شاكر الشريف): "وكون هذا سبب النزول لا يعني قصرها على أهل الكتاب.. ويبين لنا ابن تيمية هذه القضية بوضوح، فيقول: "وقد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصا، كأسباب النزول المذكورة في التفسير؛ كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس بن شماس، وأن قوله ﴿ وَأَنِ احْكُمْ

بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩] نزلت في بني قريظة وبني النضير.. ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو قوم من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق. والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرا ونهيا فهي متناولة لذلك الشخص، ولغيره ممن كان بمنزلته".

يقول: "والنصوص العامة منها ما جاء أو ورد على سبب، ومنها ما جاء عاما من غير سبب. فأما الأخير فلا اختلاف في عمومه". فالذي جاء بغير سبب هذا لا اختلاف على عمومه.

"وأما ما ورد منها على سبب فإننا في هذه الحالة أمام قولين لعلماء الأصول:

الأول: وهو أن العبرة بعموم اللفظ الوارد لا بخصوص السبب.

والثاني: وهو أن العبرة بخصوص سبب النزول لا لعموم اللفظ الوارد.

فأما عن القول الأول، وهو العبرة بعموم اللفظ فلا إشكال في تناول الآية لكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله، لأن لفظ (من) الوارد في هذه الآية من ألفاظ العموم، وعلى ذلك فالآية تتناول أهل الكتاب كما تتناول غيرهم ممن يشملهم عموم اللفظ.

وأما على القول الثاني، وهو أن العبرة بخصوص السبب فإن ابن تيمية يبين أن هذا القول لا يراد منه قصر اللفظ العام على سبب نزوله، وإنما غاية ما في هذا القول إن اللفظ العام الوارد على سبب لا يكون العموم فيه بحسب اللفظ العام الوارد في النص مع قطع النظر عن السبب".. يعني لا بد من وجود السبب حتى يكون الحكم العام واقعا عليه.. "وإنما يكون العموم فيه مقصورا على نوع السبب، فيعم بذلك اللفظ العام الوارد في النص السبب وما يشبه السبب". فإذا اشتركت أي حادثة مع الحادثة التي ورد فيها في السبب ينزل عليهم الحكم.

"وعلى هذا فإن القول بأن الآية نزلت في أهل الكتاب لا يعني قصرها عليهم وحدهم دون غيرهم، ولكن يعني أن هذه الآية نزلت في فعل أهل الكتاب، فهي إذن تشملهم وتشمل كل من كان بمنزلتهم. وعلى ذلك فكل من شابه أهل الكتاب في اختراع قانون وتقديمه على شرع الله وجعل التحاكم إليه دون التحاكم إلى شريعة الله تناولته الآيات الحاكمة بالكفر على أهل الكتاب.. وكذلك يقول الحافظ ابن حجر في تفسير هذه الآيات يقول: "ويظهر أن الآيات وإن كان سببها أهل الكتاب لكن عمومها يتناول غيرهم".. ثم ينقل الحافظ ابن حجر عمن سبقه من العلماء ما يؤيد قوله، فيقول "وقال إسماعيل القاضي في أحكام القرآن بعد أن حكى الخلاف في ذلك: ظاهر الآيات على أن من فعل مثل ما فعلوا واخترع حكما يخالف حكم الله وجعله دينا يعمل به فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور حاكما كان أو غيره" ."

يقول "والمتصفح لدساتير وقوانين كثير من الحكومات التي تسيطر على بلاد المسلمين، والتي يكون القضاء والحكم والمعاملات والفصل في الخصومات فيها تابعا لنصوصها، يجد ويرى بغير عناء إحداث تشريعات أو عقوبات مناقضة لما حكم الله به، بل يرى فيها ما هو أشد من ذلك.. يرى أن هناك أفعالا قد حرمتها الشريعة ووضعت لها العقوبات بينما لا يجد أثرا في هذه الدساتير أو القوانين لتجريم هذه الأفعال، فضلا عن وضع عقوبة لمن فعلها.

فلا تعارض بين القولين (نزلت لأهل الكتاب)، (وكفر دون كفر). فقد يظن بعض الناس أن قول من قال نزلت في أهل الكتاب يعارض قول من قال كفر دون كفر.. والحقيقة أن القولين متكاملان، وليسا متعارضين.

فإن قول كفر دون كفر إنما هو لبيان صفة الحاكم الذي لا يخرجه حكمه المخالف عن ملة الإسلام.

وقول نزلت في أهل الكتاب إنما هو لبيان صفة الحاكم الذي يخرجه حكمه المخالف عن ملة الإسلام. فالقولان على ذلك متكاملان".

متى يكون الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا كفرا لا يخرجه من الملة؟

يقول: "أنه لكيلا نحكم على حاكم مخالف لما أنزل الله بالكفر هناك شروط.." ثم يذكر المؤلف شروطاً ثلاثة إذا توافرت في الحاكم المخالف لما أنزل الله فلا يكون كافرا كفرا مخرجا من الملة.. وهذه الشروط -في الحقيقة- مُعَجِّزَة، فهي ليست موجودة على الإطلاق في الواقع.

أول هذه الشروط: "أن يكون ملتزما ومتقبلا ظاهرا وباطنا لكل حكم أو تشريع جاء عن الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ على أي نحو من الأنحاء، وفي أي جانب من الجوانب، فإذا لم يلتزم أو يتقبل ولو حكما واحدا، بعد علمه بأن هذا الحكم مما جاء عن الله ورسوله ﷺ صار بذلك كافرا مرتدا. والنقول عن العلماء بهذا الشرط كثيرة، نتخير منها قول ابن تيمية، يقول: "والحكم بما أنزل الله واجب على النبي ﷺ وكل من تبعه ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر"، أما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله، باطنا وظاهرا، لكن عصى أو اتبع هواه، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة". فهذا هو الشرط الأول، وهو شرط غير موجود في أي حاكم من الحكام اليوم.

الشرط الثاني: "أن يكون مُقراً ومُعترفاً بأنه بترك الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى في القضية أو الواقعة المعينة التي يحكم فيها صار آثما، وأن حكمه خطأ، وأن حكم الله هو الصواب". وهذا أيضا شرط غير متوفر.. "والنقول عن العلماء بهذا الشرط كثيرة أيضا نختار منها ما مر بنا من كلام أبي مجلز في بيان سبب عدم حكمه بالكفر الأكبر على حكام عصره حيث يقول "فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا". ونختار منها أيضا قول الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله حيث يقول "وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج عن الملة فقد تقدم أن تفسير ابن عباس -رضي الله عنه- لقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] قد شمل هذا القسم، وذلك في قوله -رضي الله عنه- "كفر دون كفر"، وقوله "ليس بالكفر الذي تذهبون إليه"، وذلك أن تُحمِّله شهوته وهواه على الحكم في

القضية بغير ما أنزل الله، مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. فإن قال الحاكم بلسان حاله أو فعاله، أو عن طريق دستوره وقانونه، أو وسائل إعلامه المتحدثة باسم حكمه ونظامه، أو غير ذلك من الطرق والأساليب التي تعرف بها الآراء والأفكار والأقوال أن حكمه أفضل مما حكم الله تعالى به أو رسوله ﷺ، أو أن حكمه مساو لحكم الله ورسوله، أو أن حكم الله ورسوله هو الأصلح والأفضل في الزمن الماضي وأن حكمه هو الأصلح والأفضل في العصر الحاضر، أو أن حكم الله ورسوله هو الأصلح والأفضل في كل زمان ومكان ولكنه غير واجب عليه ويجوز له أن يحكم هو بما يراه هو مناسبا أو فيه المصلحة أو محققا العدل.. لو قال هذا كله أو بعضه صار بذلك كافرا مرتدا". وهذا طبعا ينطبق تماما على كل الحكام المعاصرين.

"الشرط الثالث: أن يكون الحكم المخالف حكماً في وقائع الأعيان، وليس في الأمور الكلية العامة. وهذا الشرط الثالث مما غمض فهمه والتنبُّه له على كثير من المعاصرين الذين تكلموا في هذا الموضوع، لذا لم يذكروه أو يشيروا إليه في كتبهم أو أحاديثهم. فما هي وقائع الأعيان؟ وما هي الأمور الكلية العامة؟".

ويشير الكاتب هنا إلى أن السبب في أن السلف لم يذكروا هذا الشرط هو أن الواقع عندهم أن الأحكام والفتاوى كلها كانت تصدر من الحكام والعلماء في وقائع الأعيان، وليست في أحكام كلية عامة على الإطلاق.

"فوقائع الأعيان هي القضايا المعينة المحددة التي لا عموم لها ولا شيوع، ويكون الحُكْم فيها -وهو من قبيل القضاء- متعلقا بهذه الواقعة، مختصا بها وبالظروف المحيطة بها، فلا يُشَكِّل هذا الحكم حينئذ حكما عاما متبعا".

كأن يحكم قاضي على أحد الزناة أو السارقين بعدم قطع اليد أو بعدم الرجم هوى وشهوة، فيصبح هذا الحكم حكم عين وواقعة معينة، وليست قانونا يقاس عليها بالنسبة لنفس القاضي أو لغيره في واقعة أخرى، لأنه قد يرفع له نفس الفعل لشخص آخر، لكن لا يريد أن يحابيه ولا يريد أن يرفع عنه الرجم، فيرجمه، ويقول: أن هذا حكم الله. لكنه في هذه الحادثة ذاتها كان عنده هوى أو شهوة أو محاباة له. فهي وقائع أعيان.

فالشرط الثالث الذي يقوله الرجل؛ أن يكون الحكم المخالف حكما في وقائع الأعيان، وليس في الأمور الكلية.

"أما الأمور الكلية العامة فهي الأمور التي لا تختص بزمان أو مكان أو شخص، بل يشمل الحكم فيها جميع الأفراد والوقائع والتصرفات الذين يشملهم عموم هذه الأمور الكلية العامة، والحكم في هذه الكليات العامة هو من قبيل التشريع" لأن مثل هذا يكون تشريعا، كأن يقول: أن كل من زنى محصنا يسجن مثلا، أو يقتل..

يقول: "فليس الحكم فيها مختصاً بواقعة معينة بما يكتنفها من ظروف أو ملابسات، وحينئذ فهذا الحكم يشكل حكماً عاماً وشرعاً متبعاً... فإذا حَكَم فيها الإنسان على خلاف ما جاء في الشرع القويم كان منازعاً لله، ومدعياً حالاً أو مقالاً اسماً من أسماء الله العلي الكبير".

فهذا هو الفرق بين وقائع الأعيان وبين الأمور الكلية العامة..

وهذه الثلاثة شروط التي اشترطها هي؛ أن يكون الحاكم:

أولا: ملتزماً ومتقبلاً لكل شرع الله ورسوله في كل الجوانب وكل الجزئيات.

ثانيا: أن يكون مقراً ومعترفاً بأن حكمه في هذه الواقعة خطأ، وأنه يستحق العقاب.

ثالثا: أن يكون الحكم في وقائع الأعيان، وليس حكماً كلياً.

وهذه الشروط لا أثر لواحد منها في جميع حكام عصرنا اليوم.

ويضرب مثالا لذلك فيقول: "وأضرب لكم مثلا يوضح الفرق بين الحُكم في وقائع الأعيان، والحُكم الكلي العام. فلنفترض أن حاكما أو قاضيا عرض عليه سارق، فحكم بأن السرقة حرام، وحكم بأن عقاب السارق هو قطع اليد، وحكم على هذا السارق المعين نظرا لقرابة أو صداقة أو منفعة يرجوها، أو مضرة يدفعها، أو ما شابه ذلك بغير القطع، وليكن الجلد أو الحبس مثلا، والتمس له المعاذير والحجج الواهية لكي يفلت من عقوبة القطع.. فهنا ثلاثة أحكام:

الحكم الأول: أن السرقة حرام؛ وهذا حكم عام يشمل كل سرقة.

الحكم الثاني: أن عقاب السارق القطع، وهو حكم عام يشمل كل من ينطبق عليه لفظ السارق.

الحكم الثالث: هو حكمه على هذا السارق المعين نظراً للظروف والملابسات التي أحاطت بالسارق بالجلد أو الحبس، حكما خاصا بهذه الواقعة، ولا يشكل حكما عاما، بحيث يحكم به في كل واقعة تعرض له، فإنما الحكم العام عنده في هذه المسألة هو القطع، وإنما خالفه في هذه الواقعة المعينة لملابسات معينة. فمتى كان هذا عند القاضي أو الحاكم الحكم بحرمة السرقة، والحكم في عقابها أو حدها هو القطع، ثم خليت الواقعة المعروضة من الملابسات، كان يحكم بالقطع. لكن لملابسات معينة حكم بغير حكم الله في هذا الأمر، فلا شك أن هذا يكون ليس كافرا.

أما إذا حكم القاضي أو الحاكم بأن السرقة ليست حراما، وأنه لا عقوبة على السرقة، فيكون هنا حكمان:

الأول: حكم بأن السرقة ليست حراما.. هذا حكم عام.

الثاني: الحكم بأن لا عقوبة على السرقة.. هذا حكم عام. والحكم العام متى كان مخالفا لحكم رب العالمين كان استبدالا لحكم البشر بحكم رب العالمين، وابتغاء لحكم الجاهلية، أو حكم الطاغوت، ولا ينفعه حينئذ أن يقول: أنا أعترف أن حكمي خطأ، أو أن حكم الله هو الصواب وأني آسف بذلك.. لا ينفعه مثل هذا الإقرار أو الاعتراف، لأنه شَرَّع شرعاً مناقضاً ومخالفاً لحكم رب الأرض والسماء، فيكون بذلك أيضا كافرا، مهما قال ومهما ادعى".

يقول "فلا بد إذن -في الحكم الإسلامي- أن تكون الشريعة العامة المعلنة التي لها صفة العموم والشمول هي ما جاء عن الله ورسوله ﷺ، وبعد ذلك قد تقع المخالفة في وقائع الأعيان على الشرط المقدم.

أما إذا كان الحكم العام والشريعة العامة والأصل الذي يرجع إليه مخالفا لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، في كثير أو قليل، كان ذلك ابتغاء لحكم الجاهلية، واستبدالاً لحكم البشر بحكم الله العلي الكبير رب العالمين، وكان ذلك أيضا الخروج والمروق من الدين.

والحقيقة التي لا يمتري فيها عاقل يعي ما حوله من أمور؛ أن المخالفة التي يقع فيها حكام المسلمين هي من هذا النوع الأخير، حيث عمدوا إلى أحكام وتشريعات مناقضة ومخالفة لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، وجعلوها التشريع العام والأصل الذي يُرجع إليه ويُتحاكم إليه.

ولا ينقصنا الدليل ولا البينة على هذه الدعوى، فهذه مدونات دساتيرهم وقوانينهم التي كتبوها بأيديهم والتي يرجعون إليها ويتحاكمون إليها، وهي طافحة بما يناقض أحكام الله ورسوله في كل المجالات السياسية والاقتصادية والقانونية والأخلاقية والمعاملات وما شابه ذلك".

يقول: "وفي ختام هذا الكلام نذكر أن هذه الشروط الثلاثة التي ذكرناها وبيَّناها إذا تحققت كلها مجتمعة في حُكْم حاكم حَكَم بغير ما أنزل الله فإنه لا يُحكم عليه بالردة والخروج عن الملة، وإن كان عمله هذا من كبائر الذنوب.

أما إذا اختل شرط واحد من هذه الشروط، كأن يحكم الحاكم أو القاضي في واقعة عين بحكم يخالف به حكم الله ورسوله، ولكن لا يقر بخطئه ولا يعترف بإثمه، أو يحكم في القضايا العامة ويشرع تشريعا مخالفا لما شرع الله ورسوله، حتى وإن اعترف بخطئه وإثمه، فإنه في كل هذه الحالات يصير الحاكم كافرا مرتدا عن دين الإسلام".

ويقول المؤلف: "قد يظن بعض الناس أن حكم الكفر على الحاكم لا يكون إلا بأن يترك الحاكم الحكم بكل ما جاء في الشريعة، فإذا حكم ببعض ما أنزل الله دل ذلك على إيمانه.. وهذا الفهم فهم مغلوط.. وقد رد القرآن على أصحابه بأوضح عبارة عندما قال سبحانه ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥] وعندما قال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فليس شرطا أن يقع الترك أو التبديل أو التغيير في جميع الأحكام الشرعية حتى يستحق الفاعلون لذلك اسم الكفر، بل متى تم ترك أو تبديل أو تغيير حكم واحد من الأحكام التي شرعها الله أو رسوله والاستعاضة عنه بما أحدثوه من الأحكام كان الكفر والعياذ بالله".

موقف عامة الناس

والآن: ما هو وضع الناس بالنسبة لمن يحكمون بغير ما أنزل الله ويكفرون بهذا الحكم؟

"عندما يكفر الحكام أو القادة، ويرتدون عن الدين، ويشرِّعون أحكاما ويقيمون أوضاعا يناقضون بها شرع الله المحكم، فإنهم يريدون ويطلبون من شعوبهم وأتباعهم أن يتابعوهم ويقبلوا منهم ما جاءوا به، وهنا يفترق الناس إلى طوائف:

الطائفة الأولى: منهم من يرفض كل ما يخالف شرع الله، ويأبى أن يتابع المغيرين المبدلين، ويصبر منهم على الأذى الذي يناله في أهله وماله ونفسه.

الطائفة الثانية: منهم من لا يكتفي بمجرد الرفض حتى يجمع إلى القول العمل، فيدعو ويجاهد ويبذل النفس في سبيل نصرة الحق وأهله، والتمكين لشرع الله في الأرض.

الثالث منهم: وهم شر الناس، من يقبل ما جاء به المبدلون المغيرون، فيقبلون منهم ويتابعونهم ويناصرونهم، فما أحله المبدلون استحلوه وما حرمه المبدلون حرموه، وهؤلاء هم المشركون بالله في الطاعة أو الانقياد أو التشريع، وإن صاموا وصلوا وزعموا أنهم مسلمون. وهو من الشرك الأكبر. وقد جاءت النصوص الشرعية ببيان أن قبول التشريع المناقض لشرع الله هو شرك بالله العظيم، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] وجاء تفسير ذلك في حديث عدي بن حاتم، وفيه أنهم اتبعوهم في التشريع المخالف لشرع الله، فَحَكَم الله عليهم بالشرك.

الطائفة الرابعة: وهذه هي النقطة التي نرى فيها بعض الغبش.. يقول: "ومنهم من لازال اعتقاده صحيحاً في تشريع الله ورسوله، فالحلال عنده ما أحله الشرع، والحرام عنده ما حرمه الشرع، ولكنه أطاع المبدلين المغيرين في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي. فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، لكن يخشى عليهم أن يقودهم ذلك مع طول الأمد إلى الانتقال من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر والعياذ بالله".

فهنا هو يتناقض مع قوله في النقطة الثالثة أنهم أطاعوا، فالطاعة في كلامه هنا غير العمل! فمعنى ذلك -في الحقيقة- أنهم رضوا بهذا المنهج منهجا.

أما كون أنهم في بعض الأحيان يمارسون بعض المعاصي فهذا أمر آخر، لأنه هنا لا بد من تحقق شرطين:

الأول: الإنكار بالقلب؛ ومعنى الإنكار بالقلب عدم المتابعة، فالذي ينكر بقلبه يظل في خاصة نفسه لا يتابعهم، وخاصة فيما ليس عليه إكراه فيه.

والشرط الثاني؛ الولاء، فلا بد أن يكون ولاؤه ممحضا للصف المسلم.

يقول: "ومن هنا يتبين لنا أن الحديث عن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول صنفين من الناس:

١- صنف الحاكمين أو المشرعين بغير ما أنزل الله.

٢- صنف القابلين أو المتابعين للحكم المناقض أو التشريع المبدل، وهذا يعني أنه يجب على الرعية رد ما شرعه المشرعون مناقضا لأحكام الشرع، وإنكاره وعدم قبوله أو الاستكانة والرضوخ له، كل حسب طاقته أو استطاعته، وذلك لأن قبول الأحكام المناقضة لحكم الله ورسوله والرضا بها ومتابعتها وعدم إنكارها مُخرجٌ من ملة الإسلام نعوذ بالله من ذلك".

وهذا يناقض قوله السابق عن الطائفة الرابعة.. لكن هذا هو القول الصحيح، لأن المتابعة دون إنكار ودون ولاء للصف المسلم يكون اتّباعا، ويأخذ نفس الحكم.

عوامل ترويج المبطلين لقضية الحكم بغير ما أنزل الله

نصل إلى نهاية الموضوعات التي بحثها الكاتب، وهو أن الحكام المبدلين المغيرين وأعوانهم لهم وسائل متعددة في ترويج الحكم بغير ما أنزل الله، ويرى هو أن ذلك بسبب جهل الناس وعدم استقامتهم على أمر الله، والتلبيس الذي يقع فيه العلماء غير المخلصين الذين يساعدون الحكام الكافرين بما يريدونه من فتاوى لتمكينهم من ذلك.

يقول هنا: "أننا نستطيع أن نعطي ضابطا صحيحا يصلح للرد على جميع الشبه أو الوسائل التي قيلت أو التي يمكن أن يزينها الشيطان مستقبلا في نفوس متبعيه. هذا الضابط يتمثل في أنه قد ثبت بالأدلة القطعية سنداً ومعنىً وجوب الحكم بما أنزل الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ في كل مكان وكل زمان، وعلى كل أحد، في الصغير والكبير من الأمور، وأن الأدلة الشرعية الصحيحة يصدّق بعضها، ويعضد بعضها البعض، ولا يمكن أن تتناقض، ومن هنا فإنه من المحال أن تكون هناك قاعدة شرعية صحيحة أو دليل شرعي صحيح يؤدي إلى أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، ويبيح الحكم بغير ما أنزل الله، ويكفي هذا الضابط للدفع في صدر كل شبهة يريدها مورد ضال مرتاب أو منافق عليل اللسان".

ويقول: "وقد ساعد على رواج هذا عند المسلمين (أو المتمسلمين) عدة عوامل أو أسباب:

أولاً: الجهل الذي يُخيِّم على كثير من الناس حتى لا يعرفون من دينهم إلا النزر اليسير، وهذا النزر ليس صافيا بل مخلوطاً بكثير من الخرافات والأساطير والأقوال الباطلة والأحاديث الموضوعة.

ثانياً: الركون إلى الدنيا والاغترار بها، والعمل على جمعها، واستنفاد الوقت كله في ذلك.

ثالثاً: رواسب من فكر الإرجاء الذي يفصل العمل عن الإيمان.

رابعاً: وجود طائفة من علماء السوء التي وظفت علمها لخدمة المبدلين المغيرين لقاء دراهم معدودة أو مناصب زائلة.

خامساً: تقاعس بعض العلماء أو الدعاة عن القيام بواجبهم الشرعي في هذا الشأن.

سادساً: اهتمام بعض العلماء والدعاة بالحديث أو الكلام عن الأمور التي لا يترتب عليها تحمل تبعات أو أعباء أو جهاد.

سابعاً: الغزو الفكري وظهور المذاهب العلمانية والديمقراطية والقومية والاشتراكية وغيرها.

ثامناً: سيطرة كثير من المرتدين أو المنافقين على مقاليد الحكم في بلاد المسلمين.

تاسعاً: محاربة أصحاب الحكم أو السلطان لمن يتكلم في هذه الأمور، وإلصاق التهم بهم، ونعتهم بالأوصاف الذميمة تنفيرا للناس عنهم، وسجنهم وتعذيبهم، وتعليقهم على أعواد المشانق".

ما الذي يجب أن نفعله إزاء قضية الحكم بما أنزل الله؟

وأخيرا يتساءل: ما الذي يجب بعد كل هذا الكلام أن نفعله؟

يقول: "أولا: من أهم ما يجب علينا فعله ونحن بصدد هذا الموضوع أن نزيل الجهل الذي غشى عقولنا وقلوبنا، وذلك عن طريق تحصيل العلم قراءةً وسماعاً وسؤالاً لأهل الذكر، وإذا كان من الواجب على الدعاة أهل العلم أن يبادروا إلى تبصير الناس وتعليمهم وتفقيههم، فإنه لا ينبغي لنا أن نجلس أو نقعد حتى يأتوا إلينا ويعلمونا، فهذا واجبهم، وهم عنه مسؤولون.. أما واجبنا نحن فهو الجد في طلب العلم الصحيح، وتعلمه، وأن نعطيه من أوقاتنا، وأن ننفق عليه من أموالنا.

وفي إطار تعلم العلم وتعليمه فإنه ينبغي علينا أن نطلب العلم من العلماء العاملين الجادين، الذين يظهر منهم صلاح الحال مع بذل الجهد لإعلاء كلمة الله، وتحمل التبعات والمشاق في سبيل ذلك، لا أن نذهب إلى القاعدين المتخلفين عن نصرة الحق والصدع به، أو السائرين في ركب المبدِّلين المغيِّرين، أو الذين لا يفقهون هذه القضايا وليس لهم بها كبير علم أو اهتمام أو عناية ونحاول أن نتعلم منهم في هذه الأمور، أو أن نسألهم فقهها، ونستفسر منهم.. وكيف يتأتى العلم الصحيح بهذا الطريق وعلى أكتاف أمثال هؤلاء وفتاواهم يستند حكم الطاغوت؟!

ومن هنا ينبغي أن تكون لنا وقفات نميز بها بين العلماء العاملين الباذلين في سبيل إعلاء كلمة الله من العلماء الخاذلين المخذِّلين، أو الضالّين المضلين، أو الذين حصروا أنفسهم في باب أو عدة أبواب من الفقه لا يتعدونه إلى غيره.

ثانياً: مما يجب علينا أيضا في هذا الصدد تحديد جهة الولاء تحديداً دقيقاً صحيحاً، بحيث يكون ولاؤنا لله ولرسوله وللمؤمنين، الراضين بشريعته العاملين بها ولها، وبراؤنا ممن يحاربون الله ورسوله والمؤمنين، ومن الذين أعرضوا عن شريعة الله وعن التحاكم إليها، أو الحكم بها. فلا يكون الولاء والبراء بأي حال من الأحوال قائما على أي أساس من الأسس الجاهلية؛ كالقومية أو الوطنية أو العنصرية أو الحالة الاجتماعية أو الجنس أو اللغة أو اللون أو ما شابه ذلك مما يبنى عليه الولاء والبراء عند الجاهليين.

ومن هذا التحديد الصحيح لا بد لنا من الوقوف والانحياز إلى جانب الدعوة الحقيقية، المتمسكة بميراث النبوة، والممثلة في أتباع منهج أهل السنة والجماعة، الداعية إلى تحكيم شرع الله، والعاملة في سبيل تحقيق ذلك.. لا بد من الوقوف إلى جانب أصحاب الدعوة، وتأييدهم ومناصرتهم، وإعانتهم والدعاء لهم، والنصح لهم، وخلافة من يؤذى منهم بسبب قيامه بالحق ودفاعه عنه في أهله بخير، فإنهم مجاهدون في سبيل الله، وخلافة المجاهد في أهله بخير من أفضل القربات.

ثالثاً: العمل على أن تكون شريعة الله هي الحاكمة، واستخدام كل السبل المشروعة في ذلك؛ مثل تبصير الناس وتوعيتهم بهذه القضية وما يترتب عليها، ومطالبة الحكام طلبا حثيثا بالرجوع إلى شرع الله وتحكيمه، وسحب التأييد عمَّن لا يستجيب منهم لذلك، وتعرية نظامه، وبيان سقوط شرعيته، ومن ثم بطلانه، وبيان كل ما يترتب على ذلك من أحكام ومن تصرفات.

رابعاً: ومما يجب على المسلمين في هذا الصدد أن يتركوا ويجتنبوا التحاكم إلى هذه الأنظمة الوضعية المحادّة لله ورسوله، المناقضة لشرع الله، وأن يلجؤوا في كل أمر من الأمور يحتاجون فيها إلى التحكيم إلى من يُرتضى علمه ودينه، يطلبون منه أن يحكم بينهم في القضية المعروضة بشرع الله تبارك وتعالى، فإذا قضى بينهم وحكم فعليهم الاستجابة والتنفيذ.

خامساً: إشاعة روح الجهاد في نفوس المسلمين، وترغيبهم في البذل والفداء، وإشاعة الاعتزاز بهذا الدين، وبيان أنه لا عز لنا ولا سعادة ولا مجد ولا سؤدد إلا بتحكيم شريعة الله، وتقديم كلام الله وكلام رسوله ﷺ على كل كلام، وبيان أن كل ما مرت به الأمة أو تمر به الآن من ضعف وذلة ومهانة وهوان على أعداء الله ورسوله حتى أذلها عباد البقر وعباد الصليب واليهود وأضرابهم إنما وجد ذلك بسبب الإعراض عن شريعة الله، وترك الحكم بما أنزل الله، والاستعاضة عن الوحي الكريم المنزَّل على سيد الأولين والآخرين بما زينه الشيطان وأعوانه من أحكام الكافرين ونظم الجاهلين.

سادساً: ومما ينبغي على العلماء والدعاة ترك الاستجابة لرغبات الناس في الحديث عن بعض الأمور الفرعية أو النظرية بأكثر مما تحتاج إليه هذه الأمور، والانتقال بالناس في هذه المرحلة إلى التركيز على القضايا المهمة الواقعية التي يحتاج الناس إليها فعلا، وإن كانوا لا يدركون ذلك، والتي يترتب على جهلها أو الغلط فيها انطماس معالم الإسلام في نفوس الناس، مع عدم الإخلال بمبدأ تكامل الدعوة وعدم تجزئتها، أو إهمال جزء من الإسلام لصالح جزء آخر.

سابعاً: ومن الأمور التي ينبغي علينا أن نجِدَّ فيها هو بيان سقوط شرعية الأنظمة الكافرة المرتدة التي رغبت عن شريعة الله وتحكيم كتابه وسنة رسوله إلى ما تواضعت عليه من نظم مناقضة لشرع الله، وبث ذلك بين الناس وتعليمهم إياه، وإقامة الأدلة على صوابه.

ثامناً: ومما ينبغي الاهتمام به أيضا والتركيز عليه، أن يهتم كل منا بقلبه، وأن يجتهد في زيادة إيمانه بإذن ربه، وألا يشغلنا الاهتمام بأمر الناس عن الاهتمام بأمر أنفسنا، بل لا بد لكل منا أن يسعى سعياً حثيثاً في سبيل إصلاح نفسه، وتكميل ما ينقصها من التقوى أو العبادات والأخلاق، ليكون المرء منا منضبطا قولاً وعملاً، وليكون قادراً على مواصلة السير في طريق الحق بغير شك أو تردد.

إن تقوى الله تبارك وتعالى في هذا الزمن الذي تكالب فيه علينا أعداؤنا من الداخل والخارج من كل حدب وصوب، وصدق التوجه إليه، والافتقار إليه، والذلة والخشوع بين يديه، والعمل على نصرة دينه، وبذل المُهَجَ والأموال في سبيل ذلك، من أهم العوامل التي تعيننا بإذن الله تبارك وتعالى على تحقيق ما نصبو إليه من الخير والهداية، ويحقق لنا نصر الله عز وجل".

بهذا ينتهي استعراض هذا الكتاب المختصر السهل القيم، لتوضيح الشبهات والمقالات المضادة لهذه الحقيقة؛ حقيقة لا إله إلا الله، التي هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، ونحن بصدد الحديث عن نشأة المجتمع المسلم وخصائصه.

وبذلك نكون قد تحدثنا عن مفهوم الجاهلية وصفاتها. وعن قضية لا إله إلا الله، ومعنى إفراد الله بالألوهية والحاكمية والسلطان، ثم تحدثنا عن بعض الشبهات التي يلقيها بعض أعداء الحق في طريقنا. وأيضا استندنا واستأنسنا في هذا كله بأقوال كثير من العلماء من السلف السابقين ومن الخلف ومن المعاصرين، لتصبح هذه القضية في حِسِّنا قضية أبده من البدهيات، وأوضح من الوضوح، حتى نستقيم على أمر الله، وحتى نذهب في إقامة هذا المجتمع إلى منتهى الخطوات والأمور، مهما كلفنا ذلك من بذل المهج والنفوس والأموال في سبيل ذلك.

ونستكمل -إن شاء الله- الحديث عن نشأة المجتمع المسلم، على ضوء هذه المقررات التي ينبغي أن تكون قد أصبحت بدهية واضحة. وكما قلنا إننا لا نحتاج من أجل هذه القضية إلى استجماع أدلة كثيرة، فنصف ما قلناه، وربع ما قلناه يكفي للدلالة على صحة هذه القضية وصدقها، وعلى مواجهة الجاهلية ومن يعارضنا من علماء أو غير علماء، فلا يجوز لنا أن ننهزم أو نتردد أو نهتز إذا ظلوا يطالبوننا بالأدلة تلو الأدلة، فإننا نقف عند الدليل الذي نعتقد أنه يكفي، فنقول لهم: آمنوا أو لا تؤمنوا، فهذا لا يعنينا، فلا بد من وضوح منهج الاستدلال، وطبيعة المنهج القرآني في عرض القضية، وطريقة الأنبياء في عرض القضية، ثم طريقة المحاجّة بيننا وبين الذين يعادوننا في هذا الحق في أي وقت وفي أي مجال إن شاء الله تعالى.

قضايا هامة متعلقة بنشأة المجتمع المسلم

مازلنا نتحدث عن نشأة المجتمع المسلم، ومازال هذا العنوان أو هذا الموضوع يحتاج منا إلى وضع قواعد كثيرة قبل أن نسير مع بقية الفصل، ذلك لأن نشأة المجتمع المسلم لا بد -كما قلنا- أن يقوم على تصور واضح، ومنهج واضح، وأن نتبين قواعده التي يقوم عليها.

وقد تحدثنا فيما سبق عن أهمية هذه النشأة وضرورتها، ثم تحدثنا عن الجاهلية، باعتبارها المؤسسة أو البناء الذي لا بد أن يواجهه القائمون بالحركة الإسلامية، وقلنا إن هذا التجمع الجاهلي لا يقوم على أساس نظري فقط، ولا يقوم على مجرد فلسفة ولا مجرد أماني وشعارات، وإنما هو مؤسسة متكاملة، لها نظامها، ولها قوتها، ولها فلسفتها، ولها أيضا قيمها. ومن أجل هذا كان لا بد للإسلام أن يواجه الجاهلية بقوة مكافئة، بل بقوة تتغلب عليها، فتكون أقوى منها في كل شيء؛ سواء في قواعدها النظرية والتصورية، أو في منهجها العملي بكل ألوانه، أو بقيمها وموازينها، أو بحركتها وتنظيمها.

وتحدثنا عن الجاهلية، وتعريفات الجاهلية، وتصوراتنا عن الجاهلية.. وإن كنا بطبيعة الحال لم نستقص، ولم نفصل التفصيل الكبير، ذلك لأن هذا الأمر سيصاحبنا على مدار الفصول جميعها، بحيث يتبين من خلال المحصلة النهائية حقيقة الجاهلية بكل ألوانها وبكل عناصرها.

كما تحدثنا أيضا عن شهادة أن لا إله إلا الله، باعتبارها القاعدة التي يقوم عليها المجتمع المسلم، والتي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع الإنساني كله أصلا، حيث أن الله عز وجل خلق البشر لعبادته، ولتحقيق ألوهيته في الأرض، ولتقرير هذه الألوهية، في مواجهة الجاهلية التي تعتدي على حق الله عز وجل.

وقلنا إن شهادة لا إله إلا الله لا توجد فعلا ولا تعتبر موجودة شرعاً إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجوداً جدياً حقيقياً يقوم عليها اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم.

والآن أمامنا عدة موضوعات في غاية الأهمية أيضا، ولها ارتباط قوي وضروري بنشأة المجتمع المسلم وخصائصه..

المسلم النظري والانخراط في الجاهلية

يتكلم هنا الأستاذ سيد رحمه الله، بعد أن عرض هذه الحقيقة سريعا، فيقول:

"ولكن الإسلام -كما قلنا- لم يكن يملك أن يتمثل في "نظرية" مجردة، يعتنقها من يعتنقها اعتقاداً ويزاولها عبادة، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلا. فإن وجودهم على هذا النحو -مهما كثر عددهم- لا يمكن أن يؤدي إلى "وجود فِعْلي" للإسلام.."

ويستعمل الأستاذ سيد هنا هذا التعبير الجديد، وهو تعبير "المسلم النظري"، وهو لا شك تعبير جديد له دلالاته وله إيحاءاته.. فيقول **"لأن الأفراد "المسلمين نظرياً"، الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية.. سيتحركون -طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي- لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا.. أي أن الأفراد "المسلمين نظرياً" سيظلون يقومون "فعلاً" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظرياً" لإزالته، وسيظلون خلايا حية في كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي!"**

لا شك أن هذه قضية من أهم القضايا التي تقتضيها شهادة ألا إله إلا الله بصورتها الصحيحة، فالإسلام لم يكن يوما ما مجرد اعتقاد وجداني، أو اقتناع عقلي، أو حتى مجرد مشاعر مهومة. ولا يمكن أن يوجد الإسلام بهذه الطريقة، حيث يظل قابعا في القلوب، أو في العقول، أو مجرد مشاعر وعواطف تستثار أحيانا وتخمد أحيانا أخرى.

ولكن الإسلام لا بد أن يكون حركة ظاهرة تغذي المجتمع الإنساني بكل ما يحتاجه هذا الكائن العضوي من وظائف الحياة جميعا.

ولذلك حينما يقف المسلم الذي يعتقد هذا الاعتقاد الصحيح، وتتعامل أو تتفاعل في نفسه مشاعر الحب أو الولاء لهذا الدين.. لا يمكن ولا يستطيع -إن كان صادقاً- أن يبقى عضوا، أو يبقى خلية عاملة في اتجاه مضاد لما يريد ولما يعتقد ولما يحب.

فحينما يؤمن الإنسان بحقيقة لا إله إلا الله.. حينما يعرف الإنسان مقام الألوهية.. حينما يدرك الإنسان المسافة بينه وبين مقام الألوهية.. حينما يعرف دوره المحدد في الأرض.. حينما يعرف قيمته التي هو فيها في الحقيقة..

وحينما يعرف أيضا الهدف والغاية التي خُلق من أجلها..

ثم حينما تتفاعل في نفسه مشاعر الإجلال والتوقير والحب والشوق والتوكل، وكل ما ينبثق عنها من اليقين النفسي والقلبي والعقلي الذي يكمن في حقيقة لا إله إلا الله.. لا يمكن أن يعيش هذا الإنسان بعد ذلك -إن كان صادقا- بلا سلوك من شأنه أن يقوض ذلك المجتمع الذي يقوم ليحطم هذه الحقيقة، وليصد الناس عن هذا الدين، وليحرم البشرية من كل مباهج الحياة حينما تبعد عن دين الله عز وجل. فلا شك أن هذا الإنسان يكون مسلما نظريا كما يعبر عنه الأستاذ سيد.. وليس في الإسلام مثل هذا الوضع أبدا، ولا يقبل الإسلام مثل هذا أبدا، لأن الإسلام لا بد أن يغير، ولا بد أن يخلق الإنسان خلقا جديدا.. ولا بد أن ينقله من تلك الوهدة والمستنقع الذي يعيش فيه حينما يعيش في الجاهلية إلى تلك الروضة الندية وذلك المجتمع الرفيع الذي يقوم على شهادة ألا إله إلا الله.

والإسلام لا يمكن أن يقبل من هذا الإنسان إلا أن يتحول ولاؤه وتتحول حياته وتتحول حركته لكي يقيم هذا المجتمع، فينشئ المجتمع الذي يقوم على لا إله إلا الله. فالذي لا يفعل ذلك لا يكون مسلما حقيقيا، وإنما يكون مسلما نظريا.. أي أنه مشروع إسلامي، وليس إسلاما حقيقيا. قد يصبح بعد ذلك مسلما حقيقيا حينما يتحرك وحينما يتغير وحينما يُغيِّر.. أما قبل ذلك فلا، لأنه مازال عضوا عاملا في بناء المجتمع الجاهلي، يغذيه بوجوده وبكفاياته ونشاطاته وقواه وماله واقتصاده وكل حياته.

لكن حينما يبدأ المسلم في التغير.. حينما يبدأ ولاؤه يتغير.. حينما تبدأ حركته في اتجاه مضاد لمسيرة المجتمع الجاهلي.. حينما يمسك بالمعاول لكي يحطم أسس هذا المجتمع الجاهلي، لينقضه ويحطمه من خلال الحركة الوئيدة القائمة على المنهج الإسلامي الصحيح.. حينذاك نقول إنه انتقل من ذلك الإسلام النظري إلى أن يكون مسلماً حقيقيا يحقق عبوديته لله فعلاً، ويحقق ولاءه لله فعلاً.

هذه القضية لا يفهمها كثير من الناس. والناس يتصورون -كما صُوِّر لهم- أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، ويفهمون من هذه المقولة أنها مجرد نطق كلمات وحروف، وبالتالي فهم قد انتقلوا بهذه الألفاظ من الجاهلية إلى الإسلام، أو من الكفر إلى الإيمان. وهذه ليست حقيقة، لأن القول ليس من شأنه وحده أن يغير الإنسان، وإنما القول -كما قلنا قبل ذلك في مفهوم اللغة- أنه إقرار، وأن هذا الإقرار يقتضي مقتضيات، وأن هذه المقتضيات لا بد أن تنفذ في الواقع.

ولم يفهم الجيل الأول أبدا، ولم يفهم علماء السلف أبدا من هذا الحديث أنه مجرد قول، وإنما فهموا أنه اعتناق ويقين بلا إله إلا الله، يقتضي منهم أن يتحركوا، وأن يتغيروا، وأن يغيروا أيضا.

فالإسلام لا يعترف بهؤلاء المسلمين النظريين، ويعتبرهم كائنات غير قادرة على أن تكمل النشأة الإيمانية والإسلامية. فهم يقفون عند نقطة الاقتناع العقلي أو التفاعل الشعوري دون أن يتقدموا خطوة إلى الأمام، بينما المجتمع الجاهلي يكتسحهم معه حيث يسير، ويأخذهم معه في نفس الاتجاه الذي يسير فيه. وهم في الحقيقة لم يؤدوا للإسلام شيئا.. بل بالعكس هم صدوا عن سبيل الله حينما يقولون ما لا يفعلون، وحينما يعتنقون ما لا يعملون.

هذه القضية المهمة ترتبط، أو يتفرع منها، أو يتصل بها، بعض القضايا المهمة. وهي قضايا تحتاج إلى حديث طويل، وكتابات أيضا مُمحِّصَة.

حكم المجتمعات القائمة اليوم والعقبات أمام الدعاة

وكما قلت: يبقى من القضايا المتعلقة بشهادة ألا إله إلا الله باعتبارها هي قاعدة الوجود الإسلامي والمجتمع الإنساني؛ يبقى قضيتان مهمتان هما:

الحكم على هذه المجتمعات بألوانها المختلفة: هناك مجتمعات ترفع راية الكفر، والناس تحتها أيضا يعلنون كفرهم، ويحدث تقابل بين الراية وبين وجود الناس تحتها، فهم مؤمنون بالراية، ويعترفون بها.

فلا خلاف على هذا المجتمع؛ فالمجتمع الذي تتفق رايته مع واقع الناس يأخذ صفة الراية التي يرفعها المجتمع. فإن كانت الراية المرفوعة، أو كانت التصور المرفوع، أو الفلسفة المرفوعة، أو الشعارات المرفوعة هي الجاهلية، أو هي الكفر بآيات الله، أو الصد عن سبيل الله، أو اعتناق دين غير دين الإسلام، والناس تحت هذه الراية أيضا يؤمنون بذلك، ولا يدَّعون غير ذلك الادعاء، فالمجتمع صورته تكون واضحة جلية، بحيث لا يختلف عليها اثنان.. إن هذه الراية راية الكفر، سواء كانت في الماضي أو الحاضر، شيوعية، رأسمالية، وثنية، إلحادية، فارسية، رومانية.. أو أي شيء آخر.. والناس تحتها أيضا يؤمنون بهذه الشعارات، ويعملون على ضوئها، ويتحمسون لها، ويجاهدون في سبيلها ويقتلون.. فهذه المجتمعات واضح أنها مجتمعات كافرة، ليس هناك إمكان أن يختلف اثنان على هذه الصورة الواضحة.

وأيضا، حينما تكون الراية المرفوعة هي راية الإسلام، وحينما تكون الشريعة هي التي تهيمن على المجتمع، والناس الذين تحتها أيضا يؤمنون بهذه الشريعة، ويعملون من أجلها، ويقاتلون في سبيلها.. فهذا أيضا مجتمع لا يختلف عليه الناس أنه مجتمع قد أسلم أمره لله، وأنه قام فعلا على حقيقة لا إله إلا الله؛ اعتقاداً وعملاً وولاءً وإيماناً.

لكن يأتي الإشكال حينما تكون الراية مختلفة عن واقع الناس.. تكون الراية مثلا راية كافرة.. راية علمانية.. راية شيوعية.. راية رأسمالية.. والذين تحتها يزعمون أنهم مسلمون، وأنهم يريدون الإسلام، وأنهم من ذراري المسلمين. هذه الصورة هي صورة لم يحدث مثلها في التاريخ بهذا الشكل أبدا؛ أن يكون هناك راية مرفوعة، وحكم ونظام يعلن علمانيته، ويرفض الإسلام شريعة وواقعا وسلوكا وأخلاقا وقيما.. ثم الناس الذين تحته يزعمون أنهم مسلمون. هذه الصورة لم تحدث في تاريخ البشرية قبل ذلك.. وما يقال إنه حدث أيام التتار لم يكن بهذا الشكل أبداً.. الذي حدث كان صورة شديدة الوضوح.. أن هناك حكاما غلبوا أهل البلد المسلمين على السلطة، لكن ظل أهل البلد يكرهونهم ويقاومونهم، ولا يوالونهم، ويصرون على إسلامهم في السر والعلن.. وهذا الذي أجبر التتار بعد قليل أن يعتنقوا الإسلام وأن يحكموا بالإسلام. فالصورة التي يقال كثيرا أنها حدثت أيام التتار ليست هي هذه الصورة أبدا.. نعم حاول التتار أن يحكموا المسلمين "بالياسق"، وحاولوا أن يفعلوا ما شاءوا، ولكن الذي حدث أن المسلمين لم ينساقوا وراءهم، ولم تظهر الأحكام الكافرة في هذا المجتمع، ولم يرضَ بها هذا المجتمع، ولم يستسلم لها، وظلت هناك فجوة بين الحكام وبين المجتمع واضحة وجلية.

ولعله وُجِد هناك -كطبيعة بشرية- بعض الأفراد أو بعض المجموعات التي استمالها التتار، والتي أرادت الدنيا على حساب الآخرة. لكن هؤلاء كانوا قلة وندرة لا يُعتد بها.. أما جسد الأمة، أو جسد دار الإسلام فلم تخضع ولم ترض أبدا بهذا الحكم الكافر.

الواقع المعاصر ليس كذلك.. ولعل أعداء الإسلام قد أخذوا دروسا من الماضي، فحاولوا قبل أن يرفعوا الشريعة وقبل أن يزيلوا راية الإسلام التي كانت مُعلَنة أن ينخروا في جسد الأمة أولا بحيث أصبحت قواعد المجتمع الإسلامي قواعد نخرة، غير قادرة على القيام، وغير قادرة على حمل هذه الراية العظمى. فحينما سقطت الراية سقط المجتمع كله، وانساق المجتمع كله وراء هذا السقوط بشراهة غير مفهومة، إلا أنهم قبل ذلك لم يكونوا على شيء.. وهذا هو الغثاء الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ؛ أن الأمة سيأتي عليها وقت تصبح غثاء قبل أن تسقط، فسقطت لأنها غثاء. أما بعد السقوط فليسوا غثاء.. فقد أصبحوا شيئا آخر ليس له صلة بالأمة المسلمة، وليست لهم صلة بحقيقة الإسلام.

فالغثاء الذي جاء في الحديث عن أواخر هذه الأمة حين قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٢١] غثاء ضعيف غير قادر على المقاومة.. فلما سقطت الراية ودخل الأعداء سار الغثاء مع التيار، لأنه غثاء لا يستطيع أن يصمد، ولا يستطيع أن يقف.

فالصورة التي تعيشها المجتمعات المعاصرة هي أن الراية واضحة العلمانية، واضحة الكفر، واضحة المحادة لله ورسوله، والاستهزاء بدين الله، والعمل ليل نهار على طمس نور الله، وعلى قتل كل نبتة يمكن أن تكون قد نبتت أو بدأت تنبت في غيبة عنهم.. فيقتلونها.. ثم نجد الجموع من الجماهير مازالت تزعم أنها مسلمة، وقد ترك لها أعداء الإسلام الفرصة لأن يتوهموا هذا الوهم؛ أنهم مازالوا مسلمين ما دام هناك مساجد، وما دام هناك صوم، وهناك أذان، وكذا وكذا.. فتركوهم يتوهمون ذلك. وهم لم يتركوهم في هذه الحالة عن رغبة منهم، وإنما أيقنوا أنهم لن يستطيعوا أن يقتلعوا الإسلام شكلا وموضوعا، فرضوا بأن يظل الشكل موجودا دون أن يكون الجوهر موجودا، فتركوا للناس أن يُخدعوا بهذه المظاهر الإسلامية، بينما هم في حقيقة حياتهم لا يمارسون الإسلام.

فهذه الصورة؛ صورة الراية العلمانية المرفوعة، والناس يزعمون أنهم ضد هذه الراية بادِّعائهم الإسلام.. هذا موضوع يُصَعِّب على الدعاة اليوم بيان الإسلام، ويصعب على الناس فهم الإسلام أيضا، لأنهم يتوهمون أنهم مسلمون، وأنهم يعيشون بالإسلام، ويقولون لا إله إلا الله، ويصومون ويحجون ويحتفلون بالأعياد الإسلامية، ويذهبون لمكة، وأسماؤهم إسلامية، والمساجد مفتوحة والأذان يتردد والقرآن يُتلى.

٢١ سنن أبي داود ج٤. ص١١١.

فهذه الصورة الموجودة لا شك أنها تصنع غَبشاً، وتصنع عقبة أمام الناس أن يقال لهم أنتم لستم على شيء.. فحينما ندعو الناس في أمريكا فطبيعي أن نقول لهم أنتم لستم على شيء، وهم يقولون فعلا نحن لسنا على ذلك الشيء الذي تريدون، نحن لسنا على دين محمد، ولسنا مسلمين بالمفهوم الذي تريدون، فنحن بمفهومكم كفار.. فهم لن يعارضوا في ذلك.

لكن المجتمع الذي نعيش فيه، أو المجتمعات التي كانت إسلامية، واجتاحها الغزو الفكري وزحزحها عن الحق وعن الدين الحق.. هذه المجتمعات هي التي يوجد فيها الغَبش الذي يسبب عقبة أمام الدعاة. وحينما يُدعى الناس إلى الإسلام في هذه المجتمعات ترتفع أو تخرج لنا صيحات تقول إن الناس مسلمون ما داموا يقولون لا إله إلا الله. ونحن قد رددنا على هذه الشبهة. أو أن الناس جهلة لا يعلمون إلا ما وصلهم، فهم مسلمون لأنهم يعملون ما يعرفون.. وهذه أيضا ليست حقيقة، لأن الناس يعرفون أكثر كثيرا مما يعملون، وهم قد دُعوا إلى الإسلام من خلال المجددين، ومن خلال الدعوات الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي، وحتى هذه اللحظة هناك من يُبيّن لهم حقيقة الإسلام.. لكننا نجدهم يتجهون في الاتجاهات المضادة بإصرار وبتحمس. فالحقيقة أنهم يعرفون ما هو الإسلام.. والذي يسمع ما يقال في أية إذاعة من الإذاعات العربية والتي بها محطات للقرآن الكريم يجدهم يتحدثون عن حقائق الإسلام؛ من أول حقيقة العقيدة إلى آخر نقطة فيه بوضوح كامل، سواء بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر.. فادعاؤهم هذا ليس حقيقيا.

هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات؟ وقضية العذر بالجهل

والموضوع الذي يجب أن نقف عنده الآن هو: هل الحجة قائمة على هذه المجتمعات أم لا؟ وهل الجهل بأصول الإسلام وبما هو معلوم من الدين بالضرورة موجود في هذه المجتمعات أم ليس موجودا؟

هذا موضوع مهم لأن من أكثر الأمور التي تغبش على الناس، بل تغبش على كثير من الحركات الإسلامية، بل على كثير من العلماء أو المفكرين الذين يتحدثون عن الإسلام قولهم؛ إن الناس لم تقم عليهم الحجة، وإن العلماء يقولون: لا يكفر الناس إلا إذا قامت عليهم الحجة. فهذه القضية قضية مهمة؛ قضية متى تقوم الحجة؟

وهذا أمر جدير بأن نتناوله ونبين وجه الحق فيه وقد كان بعض السلف يقول: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند ورود الشهوات، ولا شك أننا محتاجون إلى بصر نافذ، لأن الشبهات كثيرة، ولأن أعداء الإسلام، وأيضا الذين يحبون الإسلام يقعون في سقطات كثيرة جدا وكبيرة جدا بسبب أنهم لا يستخدمون عقولهم. وقد قلنا فيما سبق إن الإسلام يخاطب البصيرة، ولا يخاطب العقل وحده، ولا يخاطب القلب وحده، ولا يخاطب الحس وحده، وإنما يخاطب الإنسان كله.

والبصيرة في المفهوم الإسلامي تعني كل أدوات الوعي الإنساني، وكل طرق الوعي وأدوات الوعي التي يعي بها الإنسان الأشياء. فالإنسان يعي بعقله، ويعي بوجدانه، ويعي بحسه، ويعي بعواطفه، ويعي بفطرته. فالبصيرة هي المخاطبة بالخطاب الإسلامي. فلذلك كان الله سبحانه وتعالى يحب للناس أن يكون عندهم بصيرة نافذة عند ورود الشبهات، وعقل كامل عند ورود الشهوات، لأن الشهوة تسكر العقل، فلا بد أن تواجه الشهوات بالعقل الكامل الناضج الذي يعرف خطر الشهوة، ويعرف حكم الشهوة،

ويعرف حدود الشهوة، ويعرف مآلات هذه الشهوة أيضا.. فيحكم شهوته بعقله الكامل. كما أنه حينما ترد الشبهات يحتاج إلى بصيرة تضيء له ما ادلهم من أمور حينما تأتي سُحبٌ ورعود هذه الشبهات لكي تعصف بتوازن الإنسان، فيفقد قدرته على الرؤية الواضحة. فلذلك أعجبني هذا التعبير جدا من بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند ورود الشهوات.

وسنحاول هنا أن نجلي قضية الحجة وقيامها.

المفروض أن الحجة تقوم بالرسل وبالكتب. ولا شك أنه كلما جاء رسول من عند الله كان يقيم الحجة على قومه بنفسه وبمنطقه وبما جاء به من عند الله عز وجل. وكل رسل الله كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، ثم يجتال الشيطان الناس عن الحق فيبعدون عنه، فيحتاجون إلى رسول جديد.. وهكذا.

حتى كان خاتم النبيين ﷺ، والذي جاء ليكون هو خاتم الأنبياء، وجاء بالحجة التي تصلح أن تكون حجة دائمة إلى آخر الزمان.

فإذا كان الناس قبل محمد ﷺ يعيشون في ظلام الجهل، فإنهم بعد محمد ﷺ لم يعودوا كذلك. فقبل رسول الله ﷺ لم يكن هناك كتاب صحيح، فقد حُرِّفت التوراة وحُرِّف الإنجيل، وضاعت صحف إبراهيم وكثير من آثار الأنبياء، ولم يبق إلا بقايا من أهل الكتاب يعرفون الحقيقة، ولكنهم قد لا يستطيعون أن يواجهوا بها الناس، أو حتى يدعوا إليها.

لكن بعد أن جاء الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي مثّله الله عز وجل بالسراج ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، هو ذلك النجم الوضاء الذي يضيء بنوره كل شيء، لذلك سميت الشمس بالسراج، بينما سمي القمر بالنور، لأن القمر ليس نيرا بذاته، فهو جسم معتم يضيء بانعكاس ضوء الشمس عليه، لكن الشمس جسم مضيء يشع نوره على البشرية، أو على الكون كله، أو على ما وصلت إليه أشعته.. فمُثِّل رسول الله ﷺ بالسراج.

فبعد مجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يعد هناك ظلام، وقامت الحجة على البشر. وكما أن الشمس تطلع على الناس، ويراها الناس كلهم، ولا يصح لأحد أن ينكر وجود الشمس ولا نورها ولا حرارتها.. فكذلك لا يصح ولا يقبل من أحد أن ينكر قيام الحجة عليه بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ. فالقرآن هو السراج الذي يضيء للبشرية طريقها إلى يوم الدين، وسنة الرسول ﷺ أيضا سراج آخر يضيء للبشرية حياتها. فلم يعد هناك عذر لأحد أن يقول إن الحجة لم تقم عليه.

والذي نريد أن نقوله ونقرره: أن هناك فرقاً بين قيام الحجة وبين فهم الحجة. فالحجة تقوم بمجرد وجودها، وليست متوقفة على فهم الناس لها. وسنتحدث بالتفصيل عن هذه المسألة. فالحجة قائمة منذ أن جاء محمد ﷺ بالقرآن، والله عز وجل تعهد بفضله وكرمه أن يحفظ للبشرية هذا النور وهذه المثابة حتى يوم الدين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فكل من بلغه هذا الكتاب وكل من علم برسالة محمد ﷺ لم يبق عنده عذر. فالحجة قامت بوجود القرآن ووجود سنة رسول الله ﷺ.

أما عن الفهم.. فالحجة تقوم بمجرد وجودها ولا تتوقف على الفهم، وسنبين ذلك من خلال هذه الرسالة المفيدة لأحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي هو إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.. وعنوان الرسالة "حكم تكفير المعين، والفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة".. وسنقتطف منها مقتطفات ليست كثيرة.

ابتداءً يقول ناشر الرسالة: "إن قضية التكفير والتضليل والتبديع قضية لها جذورها في تاريخ الطوائف الإسلامية، وكانت سِمةٌ ظاهرة وعلامة بارزة للخوارج ومن نحى نحوهم، ثم جعلت سُبَّة، فامتطى الكثير ذراها وتمسكوا بشعفها وتمثلوا بها للنيل ممن حقق التوحيد والمتابعة، ليخلصوا من ذلك إلى توسيع دائرة الإسلام ولو جيء بالمكفرات الظاهرة".

فقضية التكفير قضية قديمة، وقد جاء وقت في تاريخ هذه الأمة الإسلامية كثرت فيه الطوائف الضالة، وأساء الناس الظن بعضهم ببعض في عقائدهم. كان الناس يتضاربون بالكفر بسهولة، حتى أنه كان بعض الناس يأخذوا حججاً مكتوبة من العلماء بأنه مسلم ويستبقيها معه، حتى إذا كفره أحد يقول هذه حجتي من الإمام الفلاني بأنني مسلم. فقد حدث اضطراب في المجرى الثقافي والمجرى العقيدي في حياة المسلمين، بحيث أصبح التكفير تُهمة سهلة الورود.. الناس يتداولونها ويتراشقون بها بسهولة. ونتيجة لذلك أصبح الناس يخشون على أنفسهم أن يُتهَموا بالتكفير. وبطبيعة الحال حدثت فوضى هائلة في هذا الموضوع، بحيث أصبح الناس يكفّرون بحق وبغير حق، وأصبح الإنسان يخشى على نفسه من أن يرمى بالكفر مع يقينه بإسلامه نتيجة لما ساد المجتمع المسلم في وقت من الأوقات من الفرق الكثيرة التي شككت الناس بعضهم في بعض. فقامت حملة -بطبيعة الحال- ضد هذا التكفير الفوضوي، وأصبح هناك حساسية من أن يُكَفَّر أحد. وبالتالي تميعت القضية، ولم يقف الناس عند الوسط المعتدل؛ أن يكفر من يستحق التكفير، وأن يعصم من التكفير من عصمه الله من ذلك. وأصبح مجرد تناول قضية التكفير أو الحديث عنها قضية حساسة، بحيث استغلها أعداء الإسلام واستغلها المفرطون في أن يخوفوا الناس من أن يكفروا أحدا، حتى ولو سُبَّ الرسول ﷺ، وحتى لو سُبَّ القرآن، وحتى لو سُبَّ الله، فيقولون: لا نستطيع أن نكفره، نتوقف فيه، ونكل أمره إلى الله. فأصبحت قضية التكفير، أو قضية إصدار حكم على الأعيان أو على الطوائف أو على المجتمعات قضية ذات حساسية مرضية، كان الغرض منها في أول الأمر هو تنظيم هذا الأمر حتى لا يكون فوضى، ولكنه استُغل بحيث أصبح -كما يقول الأستاذ سيد في الظلال- جريمة معلقة في رقبة كل إنسان يجرؤ أن يتلفظ بتكفير؛ سواء المجتمع، أو الطوائف، أو أحد من الأعيان.

ولا شك أن هذه القضية تقابل العاملين الآن الذين يدعون إلى الحق ويدعون إلى التوحيد الصحيح، ويحكمون بحكم الله عز وجل في أمر هذه المجتمعات وفي أمر هذه الطوائف وفي أمر هذه الدول والمناهج وفي أمر بعض الأفراد.. فأصبح هذا الأمر يُنظر إليه كأمر مخيف لا يجوز الاقتراب منه، وأنه لا يجوز التكفير بأي حال من الأحوال، حتى أنني قرأت للأستاذ حامد أبو النصر مرشد الإخوان السابق مقالة يقول فيها: أننا لا نكفر أحداً على الإطلاق، هو قالها كذلك، وسمعت أحد الناس في المعتقل يقول: أنا لا أستطيع أن أكفر اليهود والنصارى! فالأمر صار رَدّة فعل للحديث في قضية الإسلام وقضية التوحيد الحق، وما يستتبعه من الولاء والبراء، وما يستتبع هذه القضية من إصدار أحكام على بعض الأوضاع، أو على بعض الطوائف، أو على بعض النظم، أو حتى على بعض الأشخاص. فصارت قضية يستغلها أعداء الإسلام، ويجعلونها تهمة يؤخذ عليها بالنواصي

والأقدام. وكما يقول الأستاذ سيد في تفسير سورة الأنعام: "ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة. فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا. حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! تهمة تكفير المسلمين"[٢٢]، ويقول -وقوله في هذا الموضوع حق- "أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوقها غبش، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم "المسلمون" وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم "المجرمون".. كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان. وأنهم وقومهم على مفرق الطريق، وأنهم على ملة وقومهم على ملة. وأنهم في دين وقومهم في دين:

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥]"..

وقال: "إنه لا بد أن تُحَدد الرايات والشارات، وتُزال الأقنعة، وتتحدد الأمور تحديداً واضحاً، حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة"[٢٣].

وهذه مهمة الرسل أن يأتوا بالحق الصريح الذي يفرق بين الظلام والنور، وبين الكفر والإيمان، وبين الجاهلية والإسلام، وبين الضلال والهدى.. وما لم يفعل الأنبياء ذلك فلا يكونوا قد قاموا بمهمتهم.

والأنبياء جميعا جاءوا ونجحوا بفضل الله سبحانه وتعالى أولا، وبإخلاصهم وبإصرارهم على أن يضعوا منارات الهدى، وأن يحددوا مع أقوامهم الفواصل الواضحة.. كما أمر الرسول ﷺ أن يقول لقومه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون]، وكما أمر الرسول ﷺ في قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [المائدة: ٦٨].

فتهمة التكفير، أو التعرض لعقائد الناس هي مهمة الأنبياء، جاءوا ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وجاءوا ليقولوا للناس إنكم على باطل، وإننا ندعوكم إلى الهدى، وجاءوا ليقولوا للناس: إنكم لستم على شيء، وأمروا أن يواجهوهم بحقيقتهم؛ بحقيقة أنهم كافرون، وأنهم ليسوا على شيء.

ولكن لكل شيء ضوابطه حتى لا يكون الأمر فوضى، وكما يحدث في الواقع الآن -كما شاهدنا من بعض الحركات والجماعات الإسلامية- أنهم أيضا يسرفون في إصدار أحكام الكفر حتى على بعضهم البعض، لمجرد خلاف فرعي بسيط، أو مجرد تناطح في الأفكار، أو في أي شيء.. وهذا لا يجوز.. لا بد أن يكون للأمر ضوابطه، حتى لا يصبح الأمر فوضى تغري أعداء الإسلام بأن يخوفوا الناس من الاقتراب من هذه القضية. وهذه الضوابط تجعل القائمين بالحق قادرين على توصيل الأمر للناس بصورته الصحيحة التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

٢٢ في ظلال القرآن. ج٢. ص١١٠٧.

٢٣ المصدر السابق. الموضع نفسه.

سبق أن قلت فإن الحجة تقوم بمجرد وجودها، وليست متوقفة على الفهم، وأن التعريف -كما يسميه صاحب الرسالة المنوه بها آنفاً والذي يعني به هنا "التبيين والإعلام"- إنما يكون في الأمور الخفية، وليس في أصول الإسلام.. فالذي يدوس على المصحف لا يقال إننا لا بد أن نعرفه أن هذا كفر.. هذا العمل كفر بذاته، لا يسأل صاحبه ولا يعرَّف، لأن هذا أصل. والذي ينكر سنة الرسول ﷺ كذلك، فهذا أصل لا يعرّف صاحبه ولا يبين له، وإنما يستتاب.. والاستتابة غير البيان والتعريف، أو غير التعليم.

لكن الأمور الخفية التي قد تخفى على الناس، مثل بعض البدع، أو بعض الأقوال الفرعية، إذا وقع فيها بعض الناس لا بد أن يعرّفوا بخطورتها، وبأنها تكفِّر، فيعودون عنها. لكن الأمور الأصلية؛ من الأصول التي جاء بها الرسول ﷺ وجاء بها القرآن والسنة إذا أنكرها الناس أو اعتدوا عليها يصبحون بها كافرين بمجرد ذلك.. وهذه هي القضية الأولى.

القضية الثانية: أنه حتى لو وجد خلاف بين أهل العلم في بعض الحالات الخاصة هل يعذر صاحبها أم لا كأهل الفترة؟ فإن كلا الفريقين متفق على أن هؤلاء لا يكونون مسلمين. والاختلاف الحاصل بين الجمهور وبين البعض إنما هو في هل يعذرون في الآخرة أم لا. فالاختلاف هو عن الجزاء الأخروي.. أما الوضع في الدنيا فالإجماع أنهم ليسوا مسلمين.

وهذه القضية مهمة جدا، لأنه حتى لو كان هؤلاء سيعذرون في الآخرة، لكن واقعهم في الدنيا أنهم ليسوا مسلمين، وقد يعذرهم الله عز وجل بما يعلم سبحانه عنهم. وهؤلاء قد جاء حديث بامتحانهم في العرصات يوم القيامة.. فيمتحنون إن كانوا فعلا لم يبلغوا، أو لم يصلهم البلاغ.. وكما سيُحاجّ الأصمُ والأحمقُ والذي مات في الفترة اللهَ سبحانه وتعالى يقولون: يا رب ما علمنا، فيعيد الله عز وجل لهم قواهم، ثم يختبرهم.. هكذا ورد في الحديث[٢٤].

فهذه القضية الثانية مهمة، لأن الناس يتشدقون بالحديث وهم يجهلون أن الحجة قائمة بمجرد وجودها، وهذا أمر متفق عليه. لكن الخلاف فيما لو لم تصل الحجة.. فحتى لو لم تصل لا يكون هؤلاء مسلمين.

يقول الشيخ إسحاق في هذه الرسالة (ولغة الرسالة فيها قدر من الصعوبة، لكن الأمر واضح إن شاء الله) يقول: "مسألتنا هذه، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من عبادة ما سواه، وأن من عبد مع الله غيره فقد أشرك الشرك الأكبر الذي ينقل عن الملة.. هي أصل الأصول، وبها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وقامت على الناس الحجة بالرسول وبالقرآن. وهكذا تجد الجواب من أئمة الدين في ذلك الأصل عند تكفير من أشرك بالله، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.. لا يذكرون التعريف في مسائل الأصول، وإنما يذكرون التعريف في المسائل الخفية التي قد يخفى دليلها على بعض المسلمين، كمسائل نازع بها بعض أهل البدع كالقدرية والمرجئة، أو في مسألة خفية كالصرف والعطف.."[٢٥]. فالتعريف هنا -كما قلنا بمعنى التبيين وشرح الحجة- لا يكون في أمر الأصول.. فيستتاب من وقع في ذلك، ولكن ليس المطلوب أن يعرّف، ولا يتوقف تكفيره على التعريف، لأن الأمر في باب الأصول.. فلا يجوز فيه التعريف.

---

٢٤ أخرجه أحمد من حديث الأسود بن سريع -رضي الله عنه-، قال علي بن المديني: إسناده صحيح.

٢٥ الصرف والعطف: نوعان من السحر.

ويضرب مثلا بعُبَّاد القبور، فيقول: "وكيف يعرفون عُبَّاد القبور وهم ليسوا بمسلمين؟ ولا يدخلون في مسمى الإسلام، وهل يبقى مع الشرك عمل؟ والله عز وجل يقول ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].. ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨].. ويقول ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾ [المائدة: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات. ولكن هذا المعتقد يلزم منه معتقد قبيح، وهو أن الحجة لم تقم على هذه الأمة بالرسول والقرآن، نعوذ بالله من سوء الفهم الذي أوجب لهم نسيان الكتاب والرسول، بل أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة والقرآن وماتوا على الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع، ولا يستغفر لهم، وإنما اختلف أهل العلم في تعذيبهم في الآخرة"..

ويُنقَل عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قوله: "إن من ارتد عن الإسلام بعد النبي ﷺ كالذين في زمن أبي بكر -رضي الله عنه- حكموا عليهم -أي الصحابة- بالردة بمنع الزكاة، وكأصحاب علي، وأهل المسجد الذين بالكوفة، وبنو عبيد القداح، كل هؤلاء حكموا عليهم بالردة بأعيانهم". فحينما تحدث دلائل الكفر -حتى ولو على الأعيان- يحكم عليهم بالكفر، وليس هناك تردد في ذلك.

ويقول: "والإمام ابن تيمية صرَّح بأن المعين لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة، فإذا كان المعين يكفر إذا قامت عليه الحجة، فمن المعلوم أن قيامها ليس معناه أن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا عما يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن، مع قول الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ [الكهف: ٥٧] وقوله تعالى ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢]."

فيفهم من كلام ابن تيمية في هذا، وكلام العلماء أنه لا يكفر إلا إذا قامت عليه الحجة بمعنى أن تكون وصلته الحجة وعرف بها، وليس بمعنى أن يفهمها، وإلا لو كان هذا الأمر لما كفر أحد! وكما يقول في موضع آخر "وإلا قامت عليهم الحجة ألا يكفروا النصارى ولا اليهود لأنهم لا يفهمون"، والتعريف والتبيين -كما قلنا- يكون في المقالات الخفية التي قد يخطئ الضال في فهمها، فهذا لا يكفر لأنه لم تقم عليه الحجة التي يكفر تاركها.. يقول "ولكن الأمور الظاهرة التي يعلم المشركون واليهود والنصارى أن محمد ﷺ بعث بها وكفر من خالفها مثل أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ونهيه عن عبادة أحد سواه من النبيين والملائكة فإن هذا أظهر شعائر الإسلام فهذا لا يعذر به أحد". ويقول: "وأبلغ من ذلك أن منهم من صنف في الردة كما صنف الرازي في عبادة الكواكب، وهذه ردة عن الإسلام باتفاق المسلمين"، وهذا لفظ ابن تيمية. ويقول هنا: "تأمل تصريحه (أي ابن تيمية) ردة الفخر الرازي عن الإسلام مع كونه من أكابر أئمة الشافعية فهذا يرد انكارهم التعرض للمعين". فإذا ثبت المكفِّر للمعين يكفر، ولا شيء فيها. ويقول: "والمقصود أن الحجة قامت بالرسول والقرآن، فكل من سمع بالرسول وبلغة القرآن فقد قامت عليه الحجة، وهذا ظاهر في كلام شيخ الإسلام عند قوله. فمن المعلوم أن قيامها ليس بأن يفهم كلام الله ورسوله مثل فهم أبي بكر الصديق، بل إذا بلغه كلام الله ورسوله، وخلا عن شيء يعذر به فهو كافر، كما كان الكفار كلهم تقوم عليهم الحجة بالقرآن مع قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]."

ويكرر مرة أخرى فيقول: "أما أصول الدين التي وضحها الله في كتابه فإن حجة الله هي القرآن، فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة، ولكن أصل الإشكال أنهم لم يفرقوا بين قيام الحجة وفهم الحجة، فإن أكثر الكفار والمنافقين لم يفهموا حجة الله مع قيامها عليهم، كما قال تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وقيام الحجة وبلوغها نوع، وفهمهم إياها نوع آخر... وقد ذكر الشيخ سليمان بن عبد الله رحمة الله عليه في شرح التوحيد (هذا أحد أحفاد محمد بن عبد الوهاب) أن من تكلم بكلمة التوحيد وصلى وزكى لكن خالف ذلك بأفعاله وأقواله من دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والذبح لهم أنه شبيه باليهود والنصارى في تكلمهم بكلمة التوحيد ومخالفتها، وعلى هذا يلزم من قال بالتعريف للمشركين أن يقول بالتعريف لليهود والنصارى، ولا يكفرهم إلا بعد التعريف، وهذا ظاهر بالاعتبار جدا". ويقول إن العلامة ابن القيم رحمه الله جزم بكفر المقلدين لمشايخهم في المسائل المكفرة إذا تمكنوا من طلب الحق ومعرفته وتأهلوا لذلك وأعرضوا ولم يلتفتوا، ومن لم يتمكن ولم يتأهل لمعرفة ما جاء به الرسل فهو عنده من جنس أهل الفترة ممن لم تبلغه دعوة لرسول من الرسل، وكلا النوعين لا يُحكَم بإسلامهم، ولا يدخلون في مسمى المسلمين حتى عند من لم يكفر بعضهم.

ونحن نعرف أن ابن القيم قال في كتاب "طريق الهجرتين" هذا الكلام حينما صَنَّف أنواع الكفار، وجاء للطبقة السابعة عشرة؛ وهم المقلِّدون، وقال عنهم: إنهم حمير الكفار. يقول: "ويجلو عنك بقايا هذه الشبهة قول ابن القيم رحمه الله في كتاب طبقات المكلفين (يعني به كتاب طريق الهجرتين)؛ لما ذكر رؤوس الكفار الذين صدوا عن سبيل الله، وأن عذابهم مضاعف، ثم قال: الطبقة السابعة عشرة: طبقة المقلِّدين وجهَّال الكفر وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبع، يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة ولنا أسوة بهم، ومع هذا فهم مسالمون لأهل الإسلام، غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلمته، بل هم بمنزلة الدواب، وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالا مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين؛ لا الصحابة ولا التابعون ولا من بعدهم".

ويتابع كلام ابن القيم فيقول "والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان برسوله، واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل، فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارا، فإن الكافر من جحد توحيد الله تعالى، وكذب رسوله؛ إما عنادا، وإما جهلا وتقليدا لأهل العناد، فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله تعالى في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وإن الأتباع مع متبوعيهم، وأنهم يتحاجون في النار".. ثم ذكر آيات وأحاديث في هذا الأمر، وهذه الآيات معروفة في كتاب الله.

ويتكلم الكاتب عن قضية تحريم موالاة أعداء الله، فيقول: "في حديث ثوبان -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال (لا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي المشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان)".. ولا شك أن هذا حادث في واقع المسلمين..

"ويقول أبو الوفاء بن عقيل: إذا أردت أن تعرف محل الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى ازدحامهم في أبواب المساجد، ولا إلى ضجيجهم بلبيك، ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة".

فقضية الولاء قضية حاسمة ومحددة للموقف، وموضوع الصلاة والحج وغيره لا قيمة له مع موالاة أعداء الله، أو مع عدم العداء لأعداء الله. وفي الحديث عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، لينـزعن الله عن صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن)، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال (حب الدنيا وكراهة الموت).

ويذكر قول حذيفة -رضي الله عنه- "ليتّقِ أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر"، وتلا آية سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١].

وعاتب عمر -رضي الله عنه- أبا موسى في جعل النصراني كاتبا وقال: ما لك وله قاتلك الله، أما اتخذت حنيفيا مسلما؟ وتلا عليه هذه الآية أيضا.. هذا مع استخدامه، فكيف بموالاته وإكرامه. يقول: "وقد نفى الله تعالى الإيمان عمن وادّ المشركين، فقال تعالى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ومن المعلوم أن من وادَّ أحداً فهو عنه راض، فإذا رضي عنه رضي بدينه، فصار من أهل ملته وهو لا يشعر.. وأكثر الناس يفطن للمعصية ووسائلها، ولا يفطن للشرك ووسائله". وهذه حقيقة، فكثير من الناس يتحرجون جدا من أن يزني أو أن يرابي، لكنه يقع في الشرك كثيرا وهو لا يدري.

يقول: "ولما نهى الله عن موالاة أعدائه من الكفار والمشركين، وأباح التقية مع الإكراه قال ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وهذا من أعظم الوعيد والتهديد لمن تدبر كتاب الله وعقل عن الله أمره".

يقول أيضا أن البعض لا يرى هجر أعداء الله أو الذين يوالون المشركين، فيقول رداً على ذلك: "أولا إن الهجر المشروع قد قام الدليل عليه، وأشار جلّ من السلف إليه، وهو مراتب، وله أحوال وتفاصيل على القلب واللسان والجوارح.. قال الله تعالى عن الخليل عليه السلام ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ [مريم: ٤٨] وقال تعالى عن أصحاب الكهف ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الكهف: ١٦]، وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة (الذين خلّفوا) وقصتهم مشهورة.

ويقول عن الآية في سورة الممتحنة في قول القرآن عن إبراهيم ومن معه؛ "قال تعالى ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].. فانظر إلى هذا البيان الذي ليس بعده بيان، حيث قال أيضا ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا ﴾ أي ظهر، هذا هو إظهار الدين، فلا بد من التصريح بالعداوة، وتكفيرهم جهاراً، والمفارقة بالبدن. ومعنى العداوة أن تكون في عدوة والضد في عدوة أخرى. وكان أصل البراءة المقاطعة بالقلب واللسان والبدن. وقلب المؤمن لا يخلو عن عداوة الكافر، وإنما النزاع في إظهار العداوة، فإنها قد تخفى لسبب شرعي وهو الإكراه، مع الاطمئنان، وقد تخفى العداوة لمستضعف معذور عذره القرآن،

وقد تخفى لغرض دنيوي، وهو الغالب على أكثر الخلف، هذا إن لم يظهر منه الموافقة. ودعوى من أعمى الله بصيرته وزعم أن إظهار الدين هو عدم منعهم ممن يتعبد أو يدرس دعوى باطلة، فزعمه مردود عقلا وشرعا، وليهنأ من كان في بلاد النصارى والمجوس والهند ذلك الحكم الباطل، لأن الصلاة والأذان والتدريس موجود في بلدانهم، وهذا إبطال للهجرة والجهاد، وصد للناس عن سبيل الرشاد".

فلا شك أن هذا الكلام واضح في الفرق بين قيام الحجة وفهم الحجة، وأن التحرج من أمر التكفير إذا كان بضوابطه ليس من الشرع وليس من الدين في شيء، وحتى الذين يعذرون بجهل بعض الناس واعتبارهم من أهل الفترة لا يعطونهم صفة الإسلام.. وبالتالي، فالواقع الذي نعيشه في أحسن الصور -إذا تصورناهم لم تبلغهم الحجة كما يزعم البعض من المفكرين المعاصرين- أنهم إذا اعتُبروا حتى من أهل الفترة فهم ليسوا مسلمين، إنما هم مدعوون إلى شريعة الله وإلى دين الله من جديد، ليدخلوه من جديد.. وليسوا يستصحبون أصل الوراثة بقولهم إن آباءهم مسلمون، أو أنهم كانوا في يوم ما مسلمين. فالواقع أنهم ليسوا كذلك.. فهم لا يعرفون الإسلام، ولا يدركون حقيقة الإسلام.

وبصدد الحديث أيضا عن قضية الجهل يقول الأستاذ محمد توفيق بركات بعد أن تحدث عن النقد الموجه للأستاذ سيد في قضية التكفير، ودافع عنه دفاعا طيبا، يقول[٢٦]: "وتُعرَض هنا شبهة واحدة بالنسبة للحاكمين بغير ما أنزل الله، وللمحكومين الراضين بغير حكم الله؛ وهي الجهل، فإن كثيرا من الناس يقول إن ما ذكرتموه صحيح في أمر تكفير من لا يتحاكم إلى شرع الله... ولكن الناس يجهلون وجوب التحاكم إلى شريعة الله، ويجهلون أن الرضا بغيرها كفر.. ولم يترك سيد قطب هذه النقطة أيضا دون توضيح.. يقول (الأستاذ سيد): ومرة أخرى أحدد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع عن دين الله، حكما معلوما من الدين بالضرورة، لأنها تخرجه من عبادة الله وحده، وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعا، وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه، وكلها سواء في ميزان الله عز وجل. ويقرر يوسف عليه السلام أن اختصاص الله سبحانه بالحكم تحقيقا لاختصاصه بالعبادة هو وحده الدين القيم ﴿ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠] وهو تعبير يفيد القصر، فلا دينا قيّما سوى هذا الدين الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٤٠].. وكونهم لا يعلمون لا يجعلهم على دين الله القيم. فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه، ولا تحقيقه. فإذا وُجِد ناس لا يعلمون حقيقة هذا الدين لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين، ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام.. ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداءً، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به، وهذا منطق العلم والواقع، بل منطق البداهة الواضحة".. انتهى كلام الأستاذ سيد.

يكمل محمد توفيق بركات كلامه فيقول[٢٧]: "فسيد قطب رحمه الله يبني حكمه هذا على تسلسل منطقي واضح:

---

٢٦ سيد قطب حياته ومنهجه في التغيير والنقد الموجه إليه. ص٢٠٦.

٢٧ المصدر السابق. ص٢٠٧.

أ- مصطلح العبادة في الإسلام لا ينحصر في تقديم الشعائر، بل يشمل الأخلاق والقوانين وكل شؤون الحياة، فلا تتحقق صفة العبادة إلا لمن يقدم الشعائر إلى الله، ويتلقى منه منهج حياته بكل شعبها.

ب- وأنه لا تتحقق صفة الألوهية كاملة لله إلا أن يكون حاكما أيضا، فإفراد الله سبحانه بالحاكمية جزء من إفراده بالألوهية، وذلك مقتضى التوحيد الخالص. وهذان أمران لا ينكرهما مسلم، والجهل بهما جهل بأمر معلوم من الدين بالضرورة، وهو جهل لا يقوم عذرا، لأن الأمور المعلومة من الدين بالضرورة لا يعذر أحد بجهلها، ومن وقع في نقيضهما عن جهل كمن وقع في نقيضهما عن علم، وهذا أمر مقرر ثابت في الأصول وفي العقيدة الإسلامية.

وبما أن بيان كفر هذا النوع من الناس فرع من الاعتقاد بمعنى العبادة والحاكمية في الإسلام، فإن سيد قطب قد أصر عن وجوب الكشف عنه، فضلا عن ضروراته العملية للحركة الإسلامية. فكشف هذه الحقيقة ينزع الستار الخادع عن الأنظمة القائمة، وعمن يساندها، وهو أمر ضروري لانطلاق الحركة الإسلامية، لأن استبانة سبيل المجرمين هدف قرآني ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].. إن الاندفاعة الكبرى نحو العمل لا تتم فقط بأن يعرف المرء أنه هو نفسه على الحق، ولكن بأن يعرف أيضا أن عدوه على الباطل والكفر، وكشف هذه الحقيقة ربما أعاد الكثيرين من الغافلين إلى رشدهم حين يرون الهوة السحيقة التي انحدروا إليها حين خرجوا من دين الله وهم يحسبون أنهم مهتدون. وقد تنبه أعداء الإسلام إلى هاتين الفكرتين، وحرصوا دائما على رفع لافتات إسلامية على الأوضاع المخالفة لدين الله، حتى أنهم بدأوا يسمون حركة كمال أتاتورك -عدو الإسلام- ثورة تجديد إسلامية، بعد أن كانوا يطمعون أن تكون هذه الحركة الخبيثة قد قضت على الإسلام في تركيا"..

ويواصل توفيق بركات حديثه قائلا: "ومما يؤكد دقة سيد قطب رحمه الله أن الكتب المؤلفة في العقيدة تنص على هذه المسألة؛ من ذلك ما قاله الدكتور سعيد رمضان البوطي في كتابه "كبرى اليقينيات الكونية"، يقول: إذن فالحاكمية هي لله وحده، هو المشرع لعباده في شتى شئونهم المتعلقة بدنياهم وآخرتهم، وهو المرجع في كل مشكلة من مشاكلهم، وإقامة كل تنظيم ودستور لحياتهم، ومن جحد ذلك فهو كافر بالله ورسوله، وإن ادَّعى بلسانه الإيمان بالله ورسوله، وصلى وحج وصام، قامت على ذلك أدلة العقل والنقل من الكتاب والسنة، وتم على ذلك إجماع المسلمين كلهم.. انتهى كلام البوطي. ولذا كان سيد قطب يقول: إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا. وإن نقطة البدء في أي حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها؛ شركا وكفرا، ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم. وأشد ما تعانيه الحركات الإسلامية هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق. ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام "تهمة تكفير المسلمين"، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله". انتهى ما نقلناه من كتاب محمد توفيق بركات.

فقضية إقامة الحجة قضية مهمة، والجهل في الأصول لا يعتد به، وحتى من يقول بعذر أهل الفترة، أو من لم يصلهم شيء عن دين الله عز وجل؛ إما لحداثة عهدهم بالإسلام، أو عدم وصول الحجة لهم، هؤلاء لا يعدون مسلمين حتى يشهدوا الحق كما ينبغي أن يكون.

شروط شهادة ألا إله إلا الله

ولقد سبق أن قلنا قبل ذلك أن شهادة ألا إله إلا الله لا بد لها من سبعة شروط، حتى تحقق النجاة لصاحبها فلنعد الآن التذكير بها والتأكيد عليها:

لا بد لشهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط لا تنفع صاحبها إلا باجتماعها:

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

هذا من شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن محمد بن القاسم.

فهذه الشروط لا بد أن تتحقق ليتحقق الإسلام.

وكما قلنا بأن الشهادة معناها الإخبار عن يقين، وعن علم واضح.

جاء في كتاب "إبطال التنديد باختصار شرح التوحيد" للعلامة حمد بن علي بن عتيق عند ذكر حديث عتبان قال رسول الله ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).. جاء ما يلي: "وقال الحسن: معنى هذه الأحاديث؛ من قال هذه الكلمة، وأدى حقها وفريضتها. وقيل إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات على ذلك.. وهذا هو قول البخاري. قال بعض المحققين: قد تتخذ أمثال هذه الأحاديث ذريعة إلى طرح التكاليف ورفع الأحكام وإبطال الأعمال، معتقدين أن الشهادة وعدم الشرك كاف، وربما يتمسك بها المرجئة، وهذا الاعتقاد يستلزم طي بساط الشريعة وإبطال الحدود والزواجر، ويوجب أن يكون التكليف بالترغيب في الطاعات والتحذير عن المعاصي والجنايات غير متضمن طائلا، بل يقتضي الانخلاع عن ربقة الدين والملة، والانسلاخ عن قيد الشريعة والحكمة والسنة، والولوج في الخبط، والخروج عن الضبط.

فقوله (من شهد) فلا ريب أن الشهادة لا تكون شهادة إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع، فيكون الشاهد والحالة هذه كاذبا لجهله بمعنى الذي شهد به. وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيا وإثباتا، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك (لا إله)، وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك (إلا الله)، قال الله تعالى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].. فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضال، وهم الأكثرون، فقلبوا حقيقة المعنى، وأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك، واتخذوا ذلك دينا، وشبهوا وزخرفوا.. وأخذوا التوحيد بدعة، وأنكروا على من دعاهم إليه، فلم يعرفوا منها ما عرفه أهل الجاهلية من كفار قريش".

وهو يقول إن كفار العهد المعاصر لم يفهموها ولم يعملوا بها، بينما كفار قريش كانوا يفهمونها، ولكنهم يرفضونها عن علم.

ويأتي السؤال بعد ذلك: حينما تكون الراية علمانية، والناس الذين تحتها يزعمون الإسلام.. فما هو الحكم؟

يحكم على المجتمع كله بأنه مجتمع كافر مشرك، لأنه يستظل بشريعة الطاغوت.. أما الناس فيقرر وضعهم حسبما يقرر كل فرد منهم موقعه من الإنكار ومن الولاء.. فلا بد من الإنكار على الطاغوت، ولا بد من الولاء لجماعة المسلمين.. فبهذا ينقذ نفسه من جريمة الكفر المعلقة على رقبة كل إنسان في هذا المجتمع.

والذي يريد أن يستخلص نفسه من الكفر لا بد أن ينكر الباطل، وأن يوالي أهل الحق. وحينما نحكم بالشرك على المجتمع في عمومه بينما نتوقف أو نتريث حتى نتبين حال الأفراد، فإن هذا يتمشى مع الأصول الشرعية؛ فالعموم يمكن أن يطلق عليهم حكم عام، ولكن يبقى أن يحدد موقع كل واحد من الأعيان على حدة من خلال موقعه. ولنا في ذلك الدليل والاطمئنان بما حدث لرسول الله ﷺ؛ فقد كانت مكة دار كفر رغم وجود الرسول ﷺ والصحابة فيها، وأيضا في الحديث الذي جاء عن الجيش الذي يخسف به بين المدينة ومكة، فقالت عائشة: أيخسف به يا رسول الله وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال (نعم، ثم يبعثون على نياتهم)[٢٨].. فالحكم العام لا يعني استغراق جميع أفراد الأعيان بهذا الحكم، وإنما يكون هو الحكم الغالب باعتبار الراية المرفوعة، وباعتبار اختفاء الشريعة الإسلامية، فيحكم على المجتمع أنه مجتمع كافر ومجتمع كفار، ثم يبقى للأعيان عصمتهم؛ من يتبين منه حالة الإسلام يحكم له بالإسلام. فإذا كان الله عز وجل وهو قادر على أن ينقذ الصالحين من الخسف بأي طريقة.. لكن أن يؤخذوا بمصير الهالكين معنى ذلك أن الحكم العام قد يستغرق الناس جميعا، ولذلك في سورة الأنفال يقول الله عز وجل ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]، فتأخذ الجميع، حتى ولو كان هناك بعض الأفراد الصالحين، فتعمهم، ثم يبعث الله الناس على نياتهم.

وهناك نص عن الإمام ابن تيمية رحمه الله يقول: "ويجوز، بل يجب قتال هؤلاء التتار، وإن تكلموا بالشهادتين وانتسبوا إلى الإسلام، وجب قتالهم بسنة رسول الله ﷺ واتفاق أئمة المسلمين، وهذا مبني على أصلين: أحدهما المعرفة بحالهم، والثاني معرفة حكم الله فيهم وفي أمثالهم.

---

٢٨ البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها.

أما الأول: فكل من باشر القوم يعلم حالهم، وهو متواتر بأخبار الصادقين. ونحن نتكلم على جملة أمورهم بعد أن تبين الأصل الآخر الذي يختص بمعرفته أهل العلم، فنقول: كل طائفة خرجت عن شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة؛ مثل أن تركوا الصلاة، أو منعوا الزكاة، أو أعلنوا بالبدع المناقضة للإسلام في العقائد أو العبادات، أو احتكموا إلى الطاغوت، ونحو ذلك.. فالواجب على المسلمين قتالهم باتفاق أئمة المسلمين، وإن تكلموا بالشهادتين، فيجب قتالهم على نحو ما فعل أبو بكر والصحابة بأهل الردة وبالخوارج، حتى يكون الدين كله لله.

وأما الأصل الآخر: وهو معرفة أحوالهم، وهذا معروف"[٢٩].

فإذن العبرة بأمرين؛ بمعرفة حكم الله، والأمر الثاني معرفة الحال.

وفي كثير من الأحيان، حينما نناقش بعض مفكري هذا الزمان يقول أحدهم: من أين لك أن تحكم على الناس وهم يقولون لا إله إلا الله.. والجواب: أنا أحكم من واقع حياتهم.. واقع حياتهم الذي أعرفه، بل أعرف نفسي قبل أن أعرف هذا الحق، أين كنت أنا قبل أن أعرف الإسلام؟ فكل واحد منا قبل أن يعرف الإسلام يعرف أنه لم يكن مسلما بمفهوم الإسلام الحقيقي، ويعرف من خلال واقع الناس أنهم ليسوا على شيء.

فمعرفة الحال أحد القرائن والعلامات الأساسية التي يُستند إليها في الحكم على الناس.. فلا يقال إنكم تشقون عن القلوب.. نحن لا نشق عن القلوب، وإنما الظاهر والمعلن هو الكفر بآيات الله، والاستهزاء بآيات الله، والعبث بآيات الله، وعدم الحكم بشرع الله، والضرب على أيدي من يطالب بشريعة الله واعتباره خارجا عن المجتمع ومجرما ومستباح الدم.. وما يمكن أن يوجد أكثر من ذلك من الظواهر التي تجعلنا نطمئن إلى أنهم ليسوا على شيء.

يقول ابن تيمية: "والأصل الآخر؛ وهو معرفة أحوالهم، يقول: وهم يقاتلون على مُلْك "جنكيز خان" فمن دخل في طاعتهم وطاعة شريعة جنكيز خان الكفرية التي يسمونها الياسق جعلوه وليا لهم وإن كان كافرا، ومن خرج عن ذلك جعلوه عدوا لهم وإن كان من خيار المسلمين".

فالتتار وجنكيز خان وأولاده كان هذا حالهم؛ الذين يتبعونهم على سياستهم الكفرية، وعلى أحكامهم وشرائعهم الطاغوتية يجعلونه وليا لهم وإن كان كافرا.. ومن خرج على ذلك جعلوه عدوا لهم وإن كان من خيار المسلمين..

يقول "ولا يقاتلون على الإسلام، ولا يضعون على أهل الذمة جزية.. بل جنكيز خان أعظم من فرعون وهامان ضرراً، فإنه علا في الأرض وجعل أهلها شيعا، وأهلك الحرث والنسل، ورد الناس عن دين الأنبياء إلى ما ابتدعه من جاهليته وسياسته الكفرية المفسدة. ولو قلت ما رأيت منهم وما سمعت ما وسعه هذا المكان" -هذا كلام ابن تيمية- "ومعلوم من دين الإسلام أن من جَوَّز اتباع شريعة غير الإسلام فإنه كافر، ومن فر إليهم من أمراء العسكر فحكمه حكمهم، فيه من الردة بقدر ما تركه من شرائع الإسلام، فعلينا أن نقاتلهم، ولو كان فيهم من هو مكره لا نلتفت إليه، لأن الله تعالى يخسف بالجيش الذي يغزو الكعبة مع

٢٩ مختصر الفتاوى المصرية. ص٥٠٥.

علمه سبحانه وتعالى بمن فيهم ممن هو مكره، ثم يبعثهم على نياتهم. ومن زعم أن هؤلاء التتار يقاتلون كالبغاة فقد أخطأ خطأ قبيحا، فإن هؤلاء التتار لا شبهة لهم، بل يسعون في الأرض فسادا، خارجين عن شرائع كل دين.

ثم لو قُدِّرَ أنهم يتأولون لم يكن تأويلهم سائغا، بل تأويل الخوارج ومانعي الزكاة أوجه من تأويلهم. وإذا قُدِر على كافر حربي فنطق بالشهادتين وجب الكف عنه، بخلاف الخارجين عن الشريعة؛ كالمرتدين الذين قاتلهم أبو بكر-رضي الله عنه- أو الخوارج الذين قاتلهم علي -رضي الله عنه- وكالتتار، وأمثال هذه الطوائف ممن نطق بالشهادتين ولا يلتزم شرائع الإسلام. وأما الحربي فإذا نطق بها كف عنه، ثم إن لم يصل فإنه يستتاب، فإن صلى وإلا قتله الإمام، وليس لأحد من الرعية قتله، إنما يقتله ولي الأمر عند مالك والشافعية وأحمد، وعند أبي حنيفة يعاقبه بما دون القتل.

وأما إذا كانت هناك طائفة ممتنعة عن الصلاة ونحوها فهؤلاء يقاتلون كقتال المرتدين والخوارج، ومن قدر عليه يجب قتله. فيجب التفريق بين المقدور عليه وبين قتال الطائفة الممتنعة التي تحتاج إلى قتال".

ويقول توفيق بركات في الحديث عن **قضية جاهلية المجتمع**، وأن هذا دار كفر، يقول[٣٠]: "إن الفقهاء مجمعون على أن دار الإسلام هي التي تُحكم بشريعة الله، ودار الكفر هي التي لا تحكم بشريعة الله. وقالوا إن الديار التي كانت يوما ما إسلامية ثم خرجت عن الإسلام إما أن تكون دار حرب أو دار ردة. وأحكام دار الردة أشد قسوة من أحكام دار الكفر".

ولذلك هو يسخر من الذين يقولون إن هؤلاء مسلمون وارتدوا، وليسوا كفارا كفرا أصليا.. يقول: "هؤلاء لا يعرفون أنهم بهذا يحكمون عليهم حكما أشد، لأن أهل الردة ودار الردة لا يعذرون، أي لا يكف القتال عنهم حتى يعودوا للإسلام".

فالقضية إذن واضحة في أن الحكم العام على المجتمع حكم شرعي، ومستأنس له من السيرة، ومن قول الله سبحانه وتعالى في كتابه؛ كما قلنا في الآية ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وحول معنى لا إله إلا الله أيضا، جاء في تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي[٣١] ما يلي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].. يقول: "قوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لنسألن هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا في الدنيا.. وفي البخاري: قال عدة من أهل العلم ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي عن لا إله إلا الله. قال القرطبي: وهذا قد روي مرفوعا؛ روي الترمذي الحكيم قال حدثنا الجارود قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال (عن قول لا إله إلا الله)، قال أبو عبد الله: معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها، وذلك أن الله تعالى ذكر في تنزيله العمل، فقال ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، فلم يقل (عما كانوا يقولون)، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عملا للسان، فإنما المعنيُّ به ما يعرفه أهل اللغة أن القول قول والعمل عمل، وإنما قال رسول الله ﷺ (عن لا إله إلا الله) أي عن الوفاء بها والصدق بمقالها، كما قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلي ولا الدين

٣٠ سيد قطب . خلاصة حياته . منهجه في الحركة .. المؤلف : محمد توفيق بركات.

٣١ ج١٠. ص٥٩-٦٠.

بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.. ولهذا لما قال رسول الله ﷺ (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة)، قيل: يا رسول الله وما إخلاصها: قال (أن تحجزه عن محارم الله) رواه زيد بن أرقم. وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله عهد إليّ ألا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وجبت له الجنة)، قالوا: يا رسول الله وما الذي يخلط بلا إله إلا الله؟ قال (حرصا على الدنيا وجمعا لها ومنعا لها، يقولون قول الأنبياء، ويعملون عمل الجبابرة). وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله ردت إليهم، وقال الله كذبتم).. أسانيدها في نوادر الأصول. وعن حذيفة -رضي الله عنه- بسند صحيح في قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾.. ﴿ .. الظالمون ﴾.. ﴿ .. الفاسقون ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧].. قال رجل أمام حذيفة: إن هذا في بني إسرائيل، فقال حذيفة: نِعمَ الإخوة لكم بنو إسرائيل إن كانت لكم كل حلوة ولهم كل مُرّة، كلا والله لتسلكن طريقهم قدّ الشراك. وعن ابن عباس نحوه. وأقول: هذه الآية وإن نزلت في اليهود لكنها ليست مختصة بهم، لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلمة (من) وقعت في معرض الشرط، فتكون للعموم.. وهذه الآية متناولة لكل من لم يحكم بما أنزل الله، وهو الكتاب والسنة.

وعن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي).. وهذا حديث صحيح رواه الترمذي في سننه."

وتعليقا على **قضية لا إله إلا الله ووجود أي مانع من تحققها**.. يقول ابن تيمية في آخر كلامه عن كفر مانعي الزكاة: "والصحابة لم يقولوا لمانع الزكاة؛ هل أنت مقر بوجوبها، أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الصحابة بحال، بل قال الصدّيق لعمر -رضي الله عنه- والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فجعل المبيح للقتال مجرد المنع، لا جحد الوجوب. وقال الإمام اسحاق بن راهويه أحد الأئمة المشهورين: أجمع المسلمون أن من سب الله أو رسوله أو دفع شيئا مما أنزل الله أنه كافر بذلك وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله". (المصدر: الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ).. (والنص الأسبق عن مجموعة التوحيد النجدية).

فواضح إذن من حديثنا عن قضية لا إله إلا الله، وعن تعاملنا مع المجتمع وحكمنا على المجتمع، وأيضا بالنسبة للأفراد إن كانوا تحت راية هم يقفون معها ويقرون بها فحكمهم حكم الراية بطبيعة الحال، وإن كانت الراية تخالف ادِّعاء الناس فيُنظر إلى حال الناس كأفراد، ويحكم على الأفراد وعلى الأعيان بحال كل فرد بعينه، أما على العموم فيحكم عليهم حسب الراية المرفوعة وحسب الشريعة التي تحكمهم.

تطبيق القواعد السابقة على الواقع المعاصر

وهذا حينما نطبقه على واقعنا المعاصر يصبح الأمر واضحا جدا على كافة الجوانب؛

فأولا: في قيام الحجة، فهي قائمة بالقرآن وسنة رسول الله ﷺ، بصرف النظر عن فهمهم لهذه الحجة، فإنه لا عذر بالجهل في أمر الأصول.

والأمر الثاني: أنه في أحسن الأحوال إذا نُظِرَ إلى قول من يعذرون الناس بعدم وصول الحق لهم، أو عدم وضوح الأمر لهم، حتى هؤلاء الذين يُعذرون بجهلهم.. فهذا العذر يفيدهم في الجزاء الأخروي، أما في الدنيا فالعلماء مجمعون على أن أهل الفترة ومن كان مثلهم لا يسمّون مسلمين، ولا يُدعى لهم، ولا يُصلى عليهم.

وبالنسبة للحكم على الأفراد والحكم على الجماعة فكما قلنا إن كل إنسان يحكم عليه بموقعه كما أفادتنا السنة وكما أفادنا القرآن في هذا الأمر وأن العموم يأخذ صفة الراية، أما الأفراد فيتحدد موقعهم من الإسلام بحسب سلوكهم.

وهذا يُرجعنا مرة أخرى إلى ما بدأنا الحديث عنه؛ في أن الإسلام لا يعتد بالمسلمين نظرياً، وأنه لا بد أن يتحول الإنسان الذي يعتقد هذا الاعتقاد الحق إلى عامل على هدم وتقويض الجاهلية..

الخاتمة: كيف يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى في واقع الأرض

يقول الأستاذ سيد **"ومن ثم لم يكن بُدٌ أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الأولى.. لم يكن بُدٌ أن ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه، وأن يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله ﷺ ومن بعده في كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته -وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولاءه من التجمع الحركي الجاهلي- أي التجمع الذي جاء منه -ومن قيادة ذلك التجمع- في أي صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد، وفي قيادته المسلمة.**

ولم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم في الإسلام، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا. لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم، لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون، له وجود ذاتي مستقل، يعمل أعضاؤه عملا عضويا -كأعضاء الكائن الحي- على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي، تنظم حركتها وتنسقها، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامي، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي.

وهكذا وجد الإسلام.. هكذا وجد متمثلاً في قاعدة نظرية مجملة -ولكنها شاملة- يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي، مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع.. ولم يوجد قط في صورة

"نظرية" مجردة عن هذا الوجود الفعلي.. وهكذا يمكن أن يوجد الإسلام مرة أخرى، ولا سبيل لإعادة إنشائه في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية."

وبهذا يكون قد أصبح واضحا أن وجود الجماعة المسلمة ضرورة إيمانية، وليس ضرورة تنظيمية فقط.. ضرورة إيمانية لا يتم الإسلام إلا بها، ولا يتم إقامة الإسلام ولا تحقيق هذا الدين بدون التجمع العضوي الإسلامي، والذي ينبغي أن يقوم بمجرد أن يوجد ثلاثة يشهدون أن لا إله إلا الله، ويعتقدون عقيدة الحق، ويكون ولاؤهم خالصا لله ورسوله ولقيادة هذا التجمع، وينفصلون بمشاعرهم وبقيمهم وبموازينهم عن المجتمع الجاهلي؛ تصورا وقيادة ونظاما وقيما وسلوكا. ويكون واضحا تماما أن الإسلام يرفض تماما فكرة المسلمين النظريين، الذين يعتنقون أو يفهمون الإسلام ولا يتحركون به، ويظلون أعضاء عاملين في المجتمع الجاهلي، يغذونه بقوتهم وبحركتهم، ولا يعملون على تقويضه وعلى إلغائه كما يريد منهم الإسلام.

هذا المجتمع المسلم الذي نحن بصدد الحديث عن نشأته، والذي تكلمنا عنه كل هذا الكلام الطويل، والذي كان من الضروري أن نؤصله وأن نفصله ليتضح لنا ضرورة قيام هذا المجتمع، وأن هذا المجتمع ليس موجودا في الواقع، وأن ادعاء الناس الإسلام، أو نطقهم بشهادة ألا إله إلا الله، أو وجود أي مظهر من المظاهر الإسلامية، أو حتى بعض السلوكيات الإسلامية.. كل هذا لا يخدعنا عن حقيقة الواقع وأنه ليس واقعا إسلاميا، وأننا ينبغي أن ندعو الناس إلى الإسلام من جديد، وأن نبين لهم أنهم ليسوا على شيء. وهذا الموضوع سنتحدث عنه في فصول قادمة.. سنتحدث عن منهج البناء، ومنهج الدعوة، ومنهج البلاغ، ومنهج التربية، ومنهج المفاصلة، ومنهج التعامل مع الجاهلية.. كل هذه فروع للمنهج الإسلامي سنتحدث عنها في فصول قادمة.. وسنتحدث أيضا عن طبيعة هذا المنهج، وعن قضية المرحلية، وقضية الأولويات، وقضية تنظيم وتحديد خطوات المنهج الإسلامي.

ولكننا نريد أن نختم هذا الفصل بهذه القضية التي ينبغي أيضا أن تُستكمل، لنكمل بها سمات المجتمع المسلم الذي نريد إنشاءه..

يقول الأستاذ سيد **"وبعد: فإن الإسلام -وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج، ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي، ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة- إنما كان يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان" وتقويتها وتمكينها وإعلائها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني، وكان يمضي في هذا على منهجه المطَّرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه.."**

فإلى جانب أن نشأة المجتمع المسلم ضرورة إيمانية، واستجابة لغاية الوجود الإنساني، واستجابة لمراد الله سبحانه وتعالى في إقامة المجتمع المسلم الذي يعبد الله وحده، ويقر بألوهيته في الأرض، ويحارب الطاغوت الذي يريد أن يعتدي على ألوهية الله، ويقوض أركانه، ليكون الدين كله لله.. إلى جانب ذلك كله فإن الإسلام من خلال تحقيق هذا المجتمع يستهدف إبراز "إنسانية الإنسان".. لأن إنسانية الإنسان لا تتحقق في الحقيقة إلا في المجتمع المسلم.. أما حينما يكون الناس في الجاهلية فإنهم يفقدون أول ما يفقدون إنسانيتهم، ويكونون كالأنعام.. بل هم أضل.

وهذه الحقيقة بجانب أنها نتيجة طبيعية لقيام المجتمع المسلم على أساس التصور الصحيح، لكنها في ذات الوقت تعطي للمجتمع المسلم تلك الميزة الرائعة؛ وهي تحقيق إنسانية الإنسان كما ينبغي له كسيد للكائنات الموجودة على الأرض، ولتميز ذلك الإنسان بكل الخصائص التي أفرده الله بها وميزه الله بها. والجاهلية تريد أن تنتكس بهذا الإنسان عن هذه المكانة إلى مكانة الحيوان.. بل أضل. فضلا عن سوء نية الجاهلية في هذا، لأنها تعلم أن الإنسان حينما ينحدر إلى درك الحيوان، أو أسفل منه فإنه ساعتها لا يكون قادرا على أن يكون عبدا لله.

ولأنها تصد الإنسان عن عبادة الله فهي تحرص الحرص كله على أن تنزله إلى دركات الحيوان، بل هي في الحقيقة تنزله إلى درك أحط من درك الحيوان. لأنه -كما قلنا- إن الحيوان يؤدي دوره الذي خلق من أجله كما أراد له الله، فهو يؤدي دوره، ويخلص في أداء هذا الدور، ولا يحيد عما أراد الله له.

أما الإنسان حينما ينـزل بنفسه إلى مستوى الحيوان، أو أقل وأضل، فإنما يخرج بذلك عن مهمته وعن دوره، ويخرج بذلك أيضا عن عبوديته لله عز وجل، وينقلب محادّا لله عز وجل، ومحادا لنفسه أيضا، ومشقيا لنفسه ويكون كما عبر القرآن الكريم قد سفه نفسه ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي حقرها وأهانها.

فأعداء الإسلام يريدون أن ينـزلوا الإنسان إلى الدرك الحيواني. ولذلك يطلقونه في عالم الغرائز والشهوات، لكي ينحسر عن دائرة الإنسانية إلى دائرة الحيوانية، ولكي يلبّسوا على الناس هذا يجعلون ذلك في صورة نظريات علمية، هي في الحقيقة جهالة علمية كما يعبر عنها الأستاذ سيد في هذا النص.. يقول **"إن الكائن الإنساني يشترك مع الكائنات الحيوانية -بل الكائنات المادية- في صفات توهم أصحاب "الجهالة العلمية!" مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان، ومرة بأنه مادة كسائر المواد! ولكن الإنسان مع اشتراكه في هذه "الصفات" مع الحيوان ومع المادة له "خصائص" تميزه وتفرده، وتجعل منه كائناً فريداً، كما اضطر أصحاب "الجهالة العلمية!" أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي أعناقهم لياً، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة!"**

فتعبير الجهالة العلمية تعبير -فعلاً- رائع ومعبر، وهو مانع للوهم في هذا، فمن ناحية هم يستعملون العلم ويلبسون لباس العلم، ويمكن أن يستغلوا بعض سنن ونواميس الكون في محاولة إثبات ما يقولون.. لكن الحقيقة أنهم لا يصلون إلى الحقيقة كما هي، فهم يحققون جهلا حتى ولو كان باسم العلم، أو حتى مع استغلال بعض سنن الله، فهم يرون في الإنسان بعض سمات الحيوان -كما يقرر فرويد، وكما يقرر كل العلماء الماديين- فهم يقررون أن الإنسان عبارة عن شهوات وغرائز فقط، والمدرسة السلوكية تنزع عن الإنسان حتى الإرادة، فتجعله ينغمس في الشهوات وفي الجريمة وفي الانحرافات على غير إرادة منه، فهو ينطلق إليها حسب الدوافع، أو ما يسمونه بالشرط المنعكس.. بمعنى أنه ينطلق استجابة لأي عامل يؤثر فيه، فهو ينطلق في اتجاهه كما أراد له هذا العامل بلا إرادة ولا وعي ولا مسئولية ولا فهم.

والشيوعيون يجعلون الإنسان عبارة عن مادة.. فالذي خلقه هي المادة. وهو أيضا عبارة عن كائن يأكل ويشرب ويمارس الجنس، وليس أكثر من ذلك. والجانب المعنوي كله لا وجود له في النظرية العلمية المادية كما يسمونها.

فسواء الذين يقولون عن الإنسان إنه حيوان، أو الذين يقولون إنه مادة؛ كلاهما يخدع الجماهير ببعض وجوه الشبه التي توجد في الإنسان من الحيوان ومن المادة، سواء في التفاعلات، أو في طبيعة المزاوجة، لأن الكون كله خلق على سنة الزوجية، سواء في عالم المادة، أو في عالم النبات، أو في عالم الحيوان، أو في عالم الإنسان.

لكن الحقيقة أنهم يخفون الحقيقة التي اضطروا أن يعترفوا بها؛ أن الإنسان متفرد عن كل هؤلاء كما يقول جوليان هكسلي الذي يسمى أبو الداروينية الحديثة (نيو داروينيزم)، وهو قد اعترف في كتاباته أن الإنسان شخص غريب جدا عن عالم الحيوان، وأن بينه وبين عالم الحيوان فجوة كبيرة جداً جداً.. ويقول إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يعرف معنى الإرادة ومعنى الإصرار، وهو أيضا المخلوق الوحيد الذي يعاني من الصراع.. ومعنى أنه يعاني من الصراع أنه يختار، وأنه يقف دائما على مفرق طريق، وأنه يختار، فيحدث عنده صراع بين ما يريده وبين ما يراد منه. فاعترف جوليان هكسلي اعترافا صريحا بتفرد الإنسان عن سائر المخلوقات.. حتى أنه يقول إن ما وصل إليه العلم الحديث عن الإنسان قريب جدا مما قررته الأديان، لكنه ليس بالضبط كما تقول الأديان!! لأنه يستكبر على أن يعترف أن ما قالته الأديان حق كامل.

فأصحاب الجهالة العلمية يريدون أن ينزعوا من الإنسان هذه الهالة الرائعة؛ وهي هالة الإنسانية.

ولكن الإسلام يأتي ليقرر أن الإنسان متفرد، وأن الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان، أو بينه وبين المادة هي خصائص يستطيع الإنسان أن يعليها وأن يرفعها، ليجعل منها خصائص إنسانية ومشاعر إنسانية وشهوات إنسانية.. فيتعامل مع كل الشهوات بطريقة الإنسان، وليس بطريقة الحيوان.. ومن ثم يقف أيضا على مستوى لا صلة له بالحيوان كثيرا، حتى وإن اشترك في ظاهر السلوك أو في شكل العمل مع الحيوان.

والإسلام يتعامل مع الإنسان بعيداً عن كل روابط الجاهلية، التي هي في الحقيقة روابط الحيوان. فروابط الجاهلية -كما قلنا- هي روابط الحيوان؛ من جنس أو أرض أو فصيلة أو نوع.

ولكن الإسلام يتعامل مع الإنسان ككل، على أن نوع الإنسان كله واحد.. ويخاطبه خطابا واحدا، ويطالبه بمطالب واحدة، وأنه لا يفرق بين الناس إلا بالعقيدة فقط، وليس بأي فارق من فوارق الزمان ولا المكان ولا الجنس أو الأرض أو اللغة.. فلا يعترف الإسلام بأن كل هذه العوامل لها تأثير في عمل فواصل وحواجز بين الناس. ولذلك اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق؛ العربي، والفارسي، والشامي، والمصري، والمغربي، والتركي، والصيني، والهندي، والروماني، والإغريقي، والإندونيسي، والإفريقي.. إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتشارك -متمازجة متعاونة متناسقة- في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما عربية.. إنما كانت إسلامية. ولم تكن يوما ما قومية.. إنما كانت دائما عقدية. وهذا ما يحاول أعداء الإسلام أن يضغطوا عليه ويموهوه؛ فيصفون الحضارة التي أنشأها الإسلام بأنها حضارة عربية.. ويذكرون دائما الحضارة الإسلامية بأنها حضارة العرب.. بينما هم يعرفون أن الذين كان لهم باع واسع جدا

في علوم الإسلام وحضارته لم يكونوا عربا، بل كانوا من الموالي، أو كانوا من العجم وليسوا من العرب على الإطلاق.. ولكن الإسلام جمعهم على قدم المساواة وبآصرة الحب وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة، فبذلوا جميعهم أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة.. تجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها، بلا عائق.. وهذا ما لم يجتمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ.

ونحن نعرف أن الإمبراطورية الرومانية جمعت أجناسا عديدة، ولكنها لم تمزج بينهم، ولم تجمعهم على قيمة عليا لم تجمعهم على آصرة العقيدة.. وإنما كان التجمع في الإمبراطورية الرومانية تجمعا طبقيا على أساس طبقة السادة وطبقة العبيد، أو طبقة الأشراف وطبقة العبيد.

وكذلك في عصرنا الحاضر قامت تجمعات كالإمبراطورية البريطانية، التي كانت تجمعاً قومياً استغلالياً، استغل الأقوام الذين جمعتهم الإمبراطورية البريطانية أو الانجليزية على أنهم عبيد، بينما بريطانيا فوق الجميع. ونحن نعرف أن الانجليزي يكون "جنتلمان" جدا داخل الجزيرة البريطانية، أما إذا خرج إلى المستعمرات فهو روماني غليظ القلب وغليظ التعامل.. حتى أنه في البلاد التي استعمرها كان إذا أراد أن يركب الحصان ركع له الإفريقي أو الباكستاني أو الهندي ليقف على ظهره ليركب حصانه.. هكذا كانوا يعاملون العبيد، ويعدونهم أجناسا من دماء غير دمائهم، ومن درجة غير درجتهم. وهذه هي فكرة الشعب المختار الذي يريد اليهود أن يبثوها في العالم بوصفهم هم شعب الله المختار كما يزعمون.

فالإمبراطورية الرومانية جعلت نفسها أيضا الشعب المتميز.. وكذلك فعلت الإمبراطورية البريطانية.. والأمريكان يعدون العالم خدماً للأمريكان، يعبثون في كل مكان كما يشاءون.

فهذه المجتمعات مجتمعات كلها تقوم ابتداء على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها، وتنميتها وتمكينها، باعتبار أن المطالب الأساسية للإنسان هي الطعام والمسكن والجنس؛ وهي مطالب الحيوان الأولية، تستوي في ذلك الشيوعية والرأسمالية والرومانية القديمة، والإمبراطورية البريطانية والفرنسية والأمريكية.. فكلها تنزل بالإنسان إلى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت.

لكن الإسلام هو الذي تفردَّ وحده بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان، وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني، وما يزال متفردا. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر، يقوم على أي قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة.. إلى آخر هذا النتن السخيف، هم أعداء الإنسانية حقا.. هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله، ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق.. وهم الذين يقول الله سبحانه في أمثالهم ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦]..

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الرابع

شروح

كتاب

معالم في الطريق

الجهاد في سبيل الله

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
هدي الرسول ﷺ مع الكفار والمنافقين ٢
سمات المنهج الحركي لهذا الدين ٣
السمة الأولى: الواقعية الجدية في منهج هذا الدين ٣
السمة الثانية: الواقعية الحركية لهذا الدين (المرحلية في المنهج الإسلامي) ٤
السمة الثالثة: ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل ٥
السمة الرابعة: الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات ٦
تشخيص الواقع ودوره في تحديد المنهج ٦
مفهوم وأهمية ودور الجهاد الصحيح في الإسلام ٨
التوافق بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض ١٢
الإسلام لا يقوم بالبيان والبلاغ فقط ١٣
الحكمة من كف الأيدي في مكة ١٦
الحكمة من كف الأيدي في أول العهد بالمدينة ١٨
مبررات الجهاد في الإسلام ١٩
قضية عقيدة ٢٥
الإسلام عقيدة ومنهج لا بد أن ينظم الحياة ٢٦
المرحلية في الإسلام ٢٨
أهمية تشخيص الواقع في قضية المرحلية ٣٢
معنى المرحلية ٣٣
تطبيق المرحلية لا يعني التنازل ٣٤
التدرج في الشريعة الإسلامية ٣٥
أنواع التدرج في التشريع ٣٦
الحكمة من التدرج التشريعي ٣٨
التدرج في التطبيق ٤٣
مرتكزات القول في التدرج في التطبيق ٤٥
الجماعة المسلمة ٥٠
ضرورة وجود الجماعة ٥٢
أولا: الأحاديث الواردة في الجماعة ٥٣

ثانيا: مرادفات كلمة الجماعة.. ٥٧
ثالثا: دعائم أو أسس الجماعة المسلمة ٥٩
رابعا: المصالح التي تتحقق من خلال إقامة الجماعة ٦٢
خامسا: خطوات بناء الجماعة المسلمة.. ٧٣
سادسا: خصائص وركائز الجماعة المسلمة ٨٠

الجهاد في سبيل الله

مقدمة

لا شك أن الجهاد في سبيل الله هو سنام الإسلام كما أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: "ألا أنبئك برأس الأمر؟ رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"[١] ولعل تعبير سنام الإسلام يعطي الإيحاء بأنه قمة الصراع وقمة البناء.

ويأتي دائما الجهاد بمعنى القتال في اللحظات التي تسبق النهاية، فيكون هذا الجهاد بمثابة الضربة الأخيرة للطاغوت وجنده حتى يستقر الحق في هذه الأرض. ولا شك أن كون الجهاد سنام الإسلام لا يعني أنه هو الإسلام في ذاته وإنما هو أعلى أجزاء الإسلام وقمته، وبلوغ القمة والثبات عليها بحاجة إلى جهد يُبذل ومجاهدة للنفس مستمرة لذلك سُمي القتال لإعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيل الله. وهي لفظة معبرة تزخر بالكثير من المعاني والدلالات كما سنرى إن شاء الله.

والجهاد بمعنى القتال -كما هو المقصود هنا- ليس وقفاً على المسلم، فالقتال هو سمة من سمات الإنسان، وأحد الإفرازات الطبيعية للحياة البشرية. لأن التدافع هو سنة من سنن الله في هذه الأرض، فالذين يقاتلون ويَقتلون ويُقتلون ليسوا المؤمنين فقط، وليسوا هم فقط الذين يعملون لرفع راية الإسلام، إنما البشرية كلها تتدافع وتتقاتل منذ أن خُلق الإنسان وحتى الآن.. ولكن العبرة بالأهداف والغايات، والدوافع والنوايا، والنتائج التي يحددها قتال المقاتلين وجهاد المجاهدين.

ونحن -هنا- حينما نتحدث عن الجهاد نتحدث عنه بهذا المعنى الخاص؛ وهو القتال والدخول في صراع مع الجاهلية من أجل إعلاء كلمة الله، ومن هنا يكون جهادا في سبيل الله. أما الجهاد بالمعنى العام وهو كل جهد يبذل من أجل استقامة الإنسان على طريق الله عز وجل؛ أوسع مدىً وأعمق أبعاداً من مجرد الجهاد حينما يكون قتالا. ولعل كثيراً من الناس، بل أكثر الناس يسهل عليهم القتال في ميادين القتال، ويصعب عليهم جهاد أنفسهم، وتخطي صعاب الشهوات والغرائز والأهواء. فالجهاد بمعناه العام يضم أنواعاً كثيرة من المجاهدة والتعب، ولا شك أن جهاد النفس هو أصعب كثيراً جداً من القتال بالسيف وذلك لأن جهاد النفس يصطدم اصطداماً هائلاً مع خطط الشيطان في الأرض، ومع الإغواء والاستهواء اللذين يتعرض لهما الإنسان في مسيرته على هذه الأرض. ولعل كلمة الجهاد تعني أيضا استمرار هذه المدافعة بين الإنسان وبين أهوائه، وبين الإنسان وبين الشيطان، وبين الإنسان وبين أعداء الإنسان في كل وقت؛ سواء كان قتالاً، أو كان إغواء، أو كان استهواءً، أو أي شيء آخر، فهو جهاد مستمر لا ينقضي في حياة الإنسان حتى يموت. ولا ينقضي الجهاد في الأرض -بمعنى القتال- حتى تنتهي هذه الأرض أيضاً. ونحن وإن كنا سنتحدث عن الجهاد بمعناه الخاص إلا أنه لا بد من أن نعرج على الجهاد بمعناه العام أيضاً.

---

١ أخرجه الحاكم في المستدرك.

بدأ الأستاذ سيد الحديث عن فصل الجهاد في سبيل الله بذلك التلخيص القيّم الذي ورد عن ابن القيم في كتابه "زاد المعاد" ولعل الإنسان -لأول وهلة- كان يظن أن يأتي هذا التلخيص بعد أن يشرح الأستاذ سيد قضية الجهاد، فيستدل بهذا النص بعد ذلك على ما يقول، ولكن لعل إيراد النص في مقدمة الفصل؛ قصد منه الأستاذ سيد رحمه الله التركيز على أن علماءنا السابقين لاحظوا هذه السمات التي يريد أن يتحدث عنها، فجاء بها كدليل مسبق على كلامه.. كأن هذا كلام الأقدمين، ونحن نؤكده، وليس أن هذا كلامنا سنستدل عليه بكلام الأقدمين.. فالحق قديم يدركه الأول كما يدركه الأخير لأن نبع الحق واحد لا يختلف.

وما جاء به الأستاذ سيد إنما هو إحياء لما تكلم به وعنه علماؤنا الصالحون، ولم يكن ما قاله بدعاً من القول، ولم يكن ما قاله جديداً. وإنما الجدة فيه أنه جديد على قوم قد جهلوا الإسلام وجهلوا كل ما يتصل بالإسلام، وأيضاً جديد على أعداء الإسلام الذين كانوا يتصورون أنهم فرغوا من تضليل وقمع هذه الحقائق واستراحوا منها.. فجاء الأستاذ سيد ليجليها مرة أخرى بهذا الوضوح.

وللحقيقة والإنصاف.. لا نقول أن الأستاذ سيد هو أول من تحدث في هذه المعاني في هذا العصر، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ المودودي، وكان له جهاد كبير في هذا الميدان، ولعل الأستاذ سيد قد استفاد كثيراً جداً من الأستاذ المودودي، فكثير مما قاله الأستاذ سيد كانت بذوره واضحة عند الأستاذ المودودي، وأيضا هناك أشياء كنا نظن أنها اجتهاد محض وابتكار محض من الأستاذ سيد، والحقيقة أن الأستاذ المودودي كان عرج عليها وتحدث عنها، وهذا لا يقلل من جهد الأستاذ سيد، وإنما الإنصاف يفرض علينا أن نُرجع الفضل لأهله باستمرار، فضلاً أن المؤمنين متضامنون، والأجيال المؤمنة متضامنة، والعلماء المخلصون لا يستأثرون ولا يحتكرون العلم، ولا يحتكرون المعرفة، ما داموا جميعاً مبلغين عن الله. فلا يقلل من ريادة الأستاذ سيد أن يكون قد استفاد ممن سبقه، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ليس فقط إن أتت من المؤمنين، ولكن حتى لو كانت آتية من الكافرين.

هدي الرسول ﷺ مع الكفار والمنافقين

الملخص الذي قدمه الأستاذ سيد في هذا الفصل؛ والذي نقله عن ابن القيم رحمه الله فصل في ترتيب هديه ﷺ مع الكافرين والمنافقين من حين بَعثِهِ إلى حين لقي الله عز وجل، وفيه توضيح لكل ما يريد أن يقوله الأستاذ سيد عن موضوع الجهاد بعد ذلك. وسنذكره لكي نرتب عليه بعد ذلك كل الحقائق التي تليه.

يقول ابن القيم[٢]: "أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ١-٢]، فنبأه بقوله ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١]. ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين. ثم أنذر قومه. ثم أنذر من حولهم من العرب. ثم أنذر العرب قاطبة. ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

---

٢ زاد المعاد. ج٣. ص١٤٣-١٤٥.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأُمِر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأُمِر أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها؛ فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم.. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم.

وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم؛ وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له. فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأُمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتم للموفي بعهده عهده إلى مدته. فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه.

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين فإنه أُمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأُخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين".

سمات المنهج الحركي لهذا الدين

فلا شك أن هذا التوضيح يحمل كل سمات قضية الجهاد كما سيعرضها الأستاذ سيد فيما يلي من الحديث:

"ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً، ولكننا لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين"

السمة الأولى: الواقعية الجدية في منهج هذا الدين

والواقعية تعني التعامل مع الحقيقة الواقعة، وليس مع الافتراضات، وليس مع الآمال والأماني التعامل الذي يقابل الواقع بحجم معين وبحاجات معينة..

فأول سمة في المنهج الحركي لهذا الدين في مواجهة أعدائه هي الواقعية الجدية؛ فهي تواجه واقعا بشريا، وتواجهه بوسائل مكافئة لوسائله؛ سواء كانت هذه الصور والعقبات عقبات تصورية فكرية، أو عقبات مادية من سلطة ودولة، أو أدوات واستعدادات.. كل هذا أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يُواجهه بما ينبغي أن يواجهه به.. فلم يكن موقف الرسول ﷺ مع الجاهلية كما يدعي بعض الناس أنه كان يبلغ فقط بالبيان.. كلا، فالبلاغ ليس بالبيان فقط، وإنما بالبيان وبالسيف والقتال.. وكل هذا بلاغ، لأنه يوصل كلمة الحق إلى قلوب الناس وإلى أعماقهم. ولم تكن هذه المواجهة؛ سواء بالبيان والبلاغ، أو بالقدوة، أو بالجهاد والسلاح.. لم يكن المقصود منها إكراه الناس على العقيدة، ولا إكراه الناس على الإيمان، ولكن كان هناك غرض آخر؛ هو أن يرفع عن كاهل الناس كل القوى وكل القهر الذي يمنعهم من الاستجابة للحق إذا أرادوا، كان المقصود أن يرفع عنهم كل الضغوط التي تقع على كاهلهم؛ ضغوط السلطة والإرهاب والطغيان والتخويف والإغراء والإغواء والإفساد.. فإذا رُفع كل هذا يقال للناس: لا إكراه في الدين، وكلٌ يختار ما أراده، ولكن تحت مظلة الحكم الإلهي، وليس تحت أي مظلة أخرى.

السمة الثانية: الواقعية الحركية لهذا الدين (المرحلية في المنهج الإسلامي)

وهي التي بدت حينما سمعناها أول مرة جديدة علينا، وهي في الحقيقة ليست جديدة.. ولكنها كانت جديدة علينا لأننا كنا نجهلها، فلم يكن قد سبق لنا أن رأينا أو سمعنا؛ سواء في جماعة الإخوان، أو في كتابات من يكتبون عن هذا الدين وعن حركته، لم نسمع عن قضية المرحلية، أو قضية التدرج بالحركة وببعض التكاليف. كانت هذه جديدة تماماً علينا، وكان المفهوم أن الواقع مسلم، وأن الدين قد اكتمل، وأننا مطالبون أن نقيم الإسلام كله، وأن الواقع الموجود -رغم بعده الكامل عن دين الله كما اكتشفنا- كان مطالباً أن يدعى إذا دُعي إلى الإسلام، يُدعى بالنصوص النهائية، ويطالب بالصورة النهائية تماماً، بصرف النظر عن نقطة الالتقاء بينه وبين الإسلام.

جاءت فكرة المرحلية التي يقول عنها الأستاذ سيد: الواقعية الحركية ... أن هذا الدين ومنهج الحركة في هذا الدين **"هي حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها.. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة.."** فالنظرية المجردة لا تحل إشكاليات الواقع، فهي نظريات لا تتعامل مع حقائق واقعية، وإنما تتعامل مع أفكار نظرية ليس لها صلة بالواقع، كما أنها تقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة بحيث أنها لا تستطيع أن تتغير أو تتلاءم، أو أن تعالج الواقع الذي أمامها بوسائل تتناسب مع اللحظة التي التقت فيها مع هذا الواقع. وإنما الإسلام يلتقي مع هذا الواقع بوسائل متجددة متطورة، وأيضاً بنظرية قادرة على أن تتحقق في عالم الواقع من خلال فكرة المرحلية وفكرة التدرج، فهو يلتقي مع الناس في النقطة التي يلتقي بهم فيها، ويتعامل معهم في نفس النقطة بما يكافئ واقعهم ويكافئ استعدادهم ويكافئ قدراتهم ويكافئ حاجاتهم أيضاً فآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ يجد الناظر والمتأمل فيها ما يعالج ويجيب ويحقق إيمان الناس من خلال مستوى المرحلة التي هم فيها.

والذين يصفون النصوص القرآنية النهائية على أنها الصورة الوحيدة التي لا بد أن تواجه الناس في كل وقت.. هؤلاء لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا يعرفون حقيقة منهج الله في التعامل مع الواقع، ولا يعرفون رحمة الله في التعامل مع الناس في حدود قدراتهم وفي حدود حاجاتهم وفي حدود إمكانياتهم. ولذلك فهم يحمّلون أنفسهم ويحملون الناس ما لا يطيقون، ثم هم أيضاً لا يستطيعون أن يحققوا النتائج

لأنها تتصادم مع قدرة الواقع الذي يعيشون فيه، وتظل الرغبات والأماني معلقة على المستحيلات، لأنها ليست موجودة باستمرار.. وهذا ما سنفصله بعد ذلك إن شاء الله.

يقول الأستاذ سيد: **"الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية. ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين، ويقولون -وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان-: أن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يُسْدُون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة.. بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها.."**

وهؤلاء الذين يخلطون هذا الخلط، ويتصورون أن كل النصوص القرآنية هذه نصوص نهائية يقعون في واقع الأمر في تناقض بعد قليل، لأنهم سيجدون أن مدلولات هذه النصوص تتناقض في نتائجها وتتناقض في مطلوباتها. ولكنهم لو استطاعوا أن يدركوا الحقيقة سيفهمون أن هذه النصوص هي نصوص مرحلية، فكل نص كان يرتقي، أو يعالج الواقع في مرحلة من المراحل. فإذا جاوزه جاء نص جديد ليقود الواقع إلى مرحلة أعلى، ويواجهه بأسلوب جديد. وهكذا.. حتى وصل بهم إلى نقطة القمة، فكان النص النهائي الذي استقام مع واقع الناس وقدراتهم، ولم يتنافر ولم يتناقض مع مقولات هذا الدين. وإلا فإننا سنجد أن هذا الدين بهذه الصورة كتاب متناقض وسنة متناقضة، وحاشا لله أن يكون كذلك، ولكن الذين لا يفهمون هم الذين يرونه متناقضاً، لأنهم لم يعرفوا حقيقة أن هذه النصوص جاءت للتعامل مع واقع معين، ثم جاء نص جديد ليتعامل مع ذلك الواقع في صورته الجديدة بعد تطوره وبعد نموه وبعد اختلاف حاجاته وبعد اختلاف صوره ومتطلباته، إذا أدركوا ذلك سيجدون أن الأمر واضح ومفهوم، وأنه ليس هناك تناقض.. بل هناك تسلسل طبيعي، كتسلسل الكائن البشري أو الكائن العضوي وهو ينمو من مراحل الطفولة أو حتى وهو جنين إلى مرحلة الرشد وإلى مرحلة الشيخوخة والنهاية، وسيجدون أن الكائن العضوي يتعامل معه الإنسان تعاملاً مرتبا ومتسلسلاً مع نمو هذا الكائن العضوي، ويقدم له الحاجات حسب ما يطيق في مرحلته التي يرتقي بها معه، فإذا نما نمت وتغيرت متطلباته، واستجيب له استجابة جديدة بصورة جديدة.. وهكذا. فالمجتمع الإنساني هو مجتمع عضوي، والواقع البشري هو كائن عضوي ينمو من نقطة البداية حتى نقطة النهاية، ماراً بمراحل متعددة، ثم على الذين يواجهون هذا الواقع أن يتعاملوا معه كما يتعاملون مع الكائن العضوي تماما، فيمدونه بالغذاء المناسب والاستجابة المناسبة التي تتناسب مع لحظة التقائهم به.

السمة الثالثة: ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل

فهذا المنهج الحركي الإسلامي ذو مراحل -كما قلنا- وليس معنى ذلك أنه تتغير أهدافه أو تتغير قواعده، فالحقيقة أن القواعد ثابتة. فإذا كان الإسلام يقوم على قاعدة لا إله إلا الله، فإن هذه القاعدة لا تتغير أبداً. وإذا كان هدفه الكبير هو إقرار ألوهية الله في الأرض وتوحيد الله، فهو دائماً ثابت على هذه القاعدة.

ولكن الوسائل قد تتغير أثناء السير وأثناء النمو، فمنهج الإسلام الحركي يلتقي دائماً مع أهدافه، وينطلق منها، ويصبر عليها، منطلقاً من القواعد الثابتة إلى الأهداف الثابتة بوسائل قد تتغير، ولكنها لا تتناقض مع هذه القواعد ولا مع هذه الأهداف، ولا بد أن تكون الوسائل من جنس الأهداف في طهرها ونقائها كي تحقق هذه الأهداف وتصل بنا إليها. وعلى هذا.. فهذه السمة مهمة جداً؛ وهي ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل وتطورها وتجددها وتغيرها مع النمو.

السمة الرابعة: الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات

وذلك على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد: **"وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل.."** هذا الضبط التشريعي يعني أن الشريعة تعطي أحكاماً تنظم حياة الجماعة المسلمة وعلاقاتها بالمجتمعات الجاهلية في كل مرحلة، بما لا يتناقض مع القواعد، ولا مع الأهداف، ولا مع قدرة الجماعة المسلمة، ولا مع قدرات المجتمعات الجاهلية أيضاً وإدراكه للحقيقة. فهناك ضبط تشريعي يجعل تعامل الجماعة المسلمة والمجتمع المسلم مع المجتمع الجاهلي باستمرار تعاملاً منضبطاً، لا يتناقض مع القواعد والأهداف، ولكنه في نفس الوقت يضبط إيقاع الحركة وإيقاع النتائج مع الأهداف النهائية ومع القواعد الأساسية. وهذا واضح جداً في السيرة النبوية كما سنعرض لأمثلة منها إن شاء الله.

فهذه السمات الأربعة سمات مهمة لكي نفهم منها طبيعة المنهج الحركي الإسلامي.

وقضية المرحلية قضية كبيرة، تحدث عنها علماؤنا الأقدمون، وتحدثوا عنها بوضوح شديد، حتى يتعجب الإنسان كيف خفيت على الناس في وقتنا الحاضر، ولكن يمكن أن نفسر خفاءها أو عدم إدراك الناس لها بأنهم قد قرروا أن الإسلام قد كمل، وأن الواقع واقع إسلامي، فهو مطالب إذاً بالنصوص النهائية؛ فلم يفكروا أبداً أنه يمكن أن يتراجعوا إلى الوراء، ولم يتصوروا أن هذا المجتمع الذي أمامهم سيعود إلى مرحلة قبل المرحلة النهائية. فلذلك لم يلتفتوا أبداً إلى قضية المرحلية، واعتبروا أن النظر إلى المرحلية هو تبديل وتغيير في النصوص النهائية لهذا الدين وفي أهداف هذا الدين. ولذلك حدث هذا الخلط في الجماعات المختلفة التي لم تدرك فكرة المرحلية.

تشخيص الواقع ودوره في تحديد المنهج

وقبل أن نتحدث عن التفاصيل؛ نقول إن المنهج الحركي الإسلامي، أو أن الجماعة المسلمة حينما تريد أن تختار منهجاً فأمامها ثلاثة اختيارات:

الاختيار الأول: وهو الاختيار الذي يترتب على تشخيص المجتمع بأنه مجتمع مسلم، وأن هذا المجتمع يحتاج لبعض الإصلاحات والإيقاظات ليقوم ويكمل المسيرة، أو يستكمل صورته الإسلامية الصحيحة. فالنظرة هذه تجعله يختار منهجاً بعيداً كل البعد عن علاج الواقع الموجود، لأن التشخيص الصحيح ليس كذلك، وواقع الناس ليس كذلك، وسيبدأ علاجهم بعلاج ليس هو -في واقع الأمر- العلاج الذي يعالج أوضاعهم التي هم فيها.

فهذا الداعية سيدعو الناس إلى إكمال ما نقص في حياتهم من تعاليم الدين بحسب تصوره، وهو يثبت لهم في ذات الوقت أنهم مسلمون وأنهم موحدون، وأنهم سيدخلون الجنة بتوحيدهم، لأن الإنسان الموحد يدخل الجنة، وحتى إن أذنب فهو خاضع للمشيئة -إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه- فحينما يدعوهم هذا الداعية إلى هذا فهو في الحقيقة لا يعالج حقيقة الداء، لأن حقيقة الداء أنهم ليسوا واقفين على قاعدة التوحيد الصحيح، ولذا فإن الترقيع لا يستطيع أن يسد الخلل الكبير الذي هم واقعون فيه، فهذا منهج وقعت فيه كثير من الجماعات الإسلامية التي ترى الواقع إسلامياً، والتي تتعامل مع الناس على أنهم مسلمون، بل هم يتعاملون مع الحكام كذلك على أنهم مسلمون.. ولذلك فلا بأس أن يتعاملوا مع الحكام، ولا بأس أن يدخلوا مؤسسات هذه الجاهلية، ولا مانع أن يتعاملوا مع الناس ويقبلوا منهم أي تقدم في طريق الطاعة، ويعدون كل ذلك مكسباً، ويعدون هذا تقدماً، ويظلون في هذه العملية باستمرار لا يتقدمون أبداً، ويشعرون في كثير من الأحيان بالإحباط، ولكن يُرجعون ذلك إلى قدر الله، أو يرجعون ذلك إلى أخطاء بسيطة لم يلاحظوها، أو يرجعون ذلك إلى ظلم الحكام وإلى انحراف الناس وعدم جديتهم. ولكنهم لا يراجعون أنفسهم أن يكون المنهج الذي انتهجوه أو التشخيص الذي شخصوه غير صحيح، وهذا يقع تحته جماعات كثيرة؛ أولها جماعة الإخوان، وجماعات أخرى جزئية كالجماعة الشرعية، وجماعة أنصار السنة، وكذلك بعض الجماعات الأخرى كجماعة المودودي، التي وإن كان تصورها النظري للعقيدة صحيحاً إلا أن أتباعها والقائمين عليها وقعوا في خداع لأنفسهم حينما انفصلت باكستان عن الهند، فتصوروا أنهم في دار إسلام فأخطأوا منهج التعامل مع الحكومات التي لم تطبق الإسلام يوماً ما.

هؤلاء جميعا يحدث لهم هذا الخطأ المستمر، وهو الاستمرار في دعوة الناس إلى جزئيات، وإلى التنازل عن كثير من نقاط المنهج من أجل التربيت على شهوات الناس وعلى ما يرضي الناس، فكلما وجدوا الناس لا يستجيبون يتنازلون هم قليلاً لعلهم يجذبون الناس. وهم يتنازلون أيضا مع الحكومات التي تقف لهم بالمرصاد لعل الحكومات تلين معهم، فيتنازلون عن بعض الأساسيات، لعل هذا التنازل يؤدي إلى مكاسب جديدة. فيدخلون الوزارات، ويدخلون المجالس النيابية والنقابات وغيرها وكل فترة يتنازلون تنازلاً جديداً، لعل هذا يجذب الناس إليهم، ويكف عنهم الأذى، أو يكسبهم بعض الثمرات السريعة. ويظلون هكذا.

والعجيب أن أعداء الإسلام الذين يرقبون الحركة الإسلامية يعرفون الحقيقة، ويكتبون عن جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات؛ أنها جماعات مستأنسة و"مدجنة"، وأنها جماعات قد تنازلت عن أهدافها الحقيقية، وأنها تحت الضربات المتوالية ومع طول الأمد تنازلت عن كثير من أهدافها، ولذلك لا يجدون لها خطراً حقيقياً ولا كبيراً.

الاختيار الثاني: وهو أن ينظر الداعية، أو ينظر أصحاب هذا التوجه إلى الواقع على أنه واقع غير إسلامي.. ولكنهم يتناقضون في الفصل بين الحكام وبين المحكومين، فيرون الحكام بنظرة صحيحة -وهي أنهم ليسوا على شيء- وينظرون إلى الشعوب وإلى الرعية على أنهم معذورون بجهلهم، أو أنهم مسلمون بأي سبب من الأسباب، فنجد أن هذا التفريق بين مصادماتهم مع الحكام وبين تعاملهم مع الناس يوقعهم في خلل غير متناسق، حين يصطدمون في بعض الأحيان بالسلطة، ويؤدي هذا إلى ضحايا من الناس، فيعتبرون أنفسهم مخطئين، أو أنهم يتورعون حينما يصطدمون بالناس فيوقعون أنفسهم في مصائب كبيرة.

وفي الوقت نفسه يرون أن المجتمع لا بد أن يخضع للنصوص النهائية، فيصرون على مواجهة المجتمع بالنصوص النهائية؛ وهي القتال والسلاح وعدم قبول أي حل أقل من النصوص النهائية. وهؤلاء يحملون أنفسهم ما لا يطيقون، ويحملون الناس ما لا يطيقون، ويسيئون إلى الفكرة الإسلامية، لأنهم لم يعطوا للناس فرصة لرؤية الإسلام كما ينبغي أن يكون.. كما سيتضح لنا بعد قليل إن شاء الله.

الاختيار الثالث: الاختيار الصحيح..

وهو تشخيص الواقع بصورة صحيحة مفادها أن هذا الواقع بجملته حكاماً ومحكومين ومؤسسات وقيماً وقوانين ولوائح كلها لا صلة لها بالإسلام، وأن هذه المجتمعات مدعوة للإسلام من جديد، وأننا ينبغي أن نبدأ معها كما بدأ الأنبياء مع مجتمعاتهم، وبالذات كما بدأ رسول الله ﷺ مع المجتمعات التي التقى بها.

هذا التصور الصحيح يعطي للجماعة المسلمة فرصاً كثيرة جداً من البداية الصحيحة، ومن التتبع الصحيح للمراحل، والتنقل بينها بصورة منطقية تتناسب مع طاقة الجماعة المسلمة، وتتناسب مع طبيعة الفكرة الإسلامية، وتتناسب مع الواقع الجاهلي أيضاً؛ سواء كان لرؤيته للحقيقة، أو لمواجهته بالصورة التي تتناسب معه. ففي كل مرحلة تواجه الجماعة المسلمة هذا الواقع الجاهلي بصورة تتناسب مع قدراتها ومع استعداد ذلك المجتمع لتلقي الحقيقة.

مفهوم وأهمية ودور الجهاد الصحيح في الإسلام

يقول الأستاذ سيد: **"والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام" يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبِّد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله.. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هذا التخليط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية").."**

الجهاد -كما يُقَرَر- شيء آخر غير الحرب الدفاعية -والتي تعني أن الإنسان يدافع إذا تعرض لعدم الأمن في أرضه أو في واقعه- هذا هو التصور الدفاعي. وكما يقول الأستاذ سيد أن هذا غير صحيح. ويقول؛ وإن كان لا بد أن نستعمل كلمة الدفاع فلا بد أن نوسع مفهوم كلمة الدفاع ليكون الدفاع عن الإنسان ذاته؛ نوع الإنسان، أمام من يريدون أن يسحقوا هذا الإنسان، والدفاع عن دين الله الذي يريد هؤلاء أن يطمسوه، والدفاع عن ألوهية الله التي يريد هؤلاء الناس أن يغتصبوها. وهذا يؤدي بالضرورة في النهاية أن يظل الجهاد كما قرره الإسلام؛ جهاد ماضٍ إلى يوم القيامة حتى يكون الدين كله لله.

وأنا أرى أننا لسنا مضطرين أن نستعمل كلمة الدفاع، فالجهاد كما يقول الأستاذ سيد يفهم على ضوء هذه الحقيقة؛ **"إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد -ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد- وذلك بإعلان ألوهية الله وحده -سبحانه- وربوبيته للعالمين..! إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور.. ذلك أن الحكم الذي مَرَدّ الأمر**

فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقـومون منهم مقام الأرباب ويقـوم الناس منهم مكان العبيد.. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض، أو بالتعبير القرآني الكريم:

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]".

فالجهاد في سبيل الله هو إقامة مملكة الله في الأرض، فيكون الله سبحانه وتعالى -كما هو في الحقيقة- إلهاً في الأرض وإلهاً في السماء. وكلمة مملكة الله في الأرض أو الحكم الإلهي قد تتلبس بها بعض الصور الخاطئة التي حدثت في تاريخ البشرية. ولذلك يقول الأستاذ سيد **"ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم -هم رجال الدين- كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم "الثيوقراطية" أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة."**

فلا شك أن الذين يضيقون بكلمة الحكم الإلهي، أو بأن يكون الله هو الحاكم يتصورون بعض التصورات الخاطئة التي حدثت في بعض المجتمعات نتيجة للانحراف البشري الذي مر بهم. ففي وقت الكنيسة وسلطانها، كان رجال الدين هم الذين يحكمون باسم الرب، ويعتبرون هذا هو حكم الله سبحانه وتعالى.. بينما في الحقيقة هو حكم رجال الدين وليس حكم الله، لأنهم كانوا يعطون لأنفسهم حق التشريع وحق التبديل. وأدى ذلك إلى ما نعرفه من الفساد في حياة أوروبا، والثورة على الدين، أيا كان ذلك الدين.. وبالمفهوم الثيوقراطي -أي الحكم الإلهي المقدس- كان الحكام ينطقون باسم الآلهة؛ كما كان يحدث في حكم الفراعنة، أو حكم الفرس، أو بعض الأنظمة الأخرى كالهنود وغيرهم.. فكان الكهنة والسدنة هم الذين يتحدثون باسم الإله، أو كان الحاكم يعطي لنفسه حق أن يتحدث باسم الإله، فكان هذا أيضا حكما خاطئا، ليس هو حكم الله في الحقيقة.

ولكن الإسلام يرى أن الحكم الإلهي يتحقق حينما تكون شريعة الله هي الحاكمة، ويكون مَرَدّ الحكم لله، مع الاعتقاد بأن الله هو الإله وحده، لا شريك له في صفاته وفي أسمائه وفي حقوقه وفي أفعاله.

وفي ظل هذا المفهوم الصحيح يُطاع الخليفة أو أمير المؤمنين ما أطاع الله في أحكامه يستوي في ذلك مع باقي الناس فإذا ما عصى الله فلا طاعة له على أحد من الناس. وبهذا المفهوم الواضح الجلي لا يبقى لما يشيعه العلمانيون من تسلط الخلفاء والحكام وإضفاء ما يصدر عن أهوائهم صفة القداسة الإلهية فلا يناقشون ولا يحاسبون لا يبقى لهذه المقولة أي نصيب من الحقيقة والواقع الإسلامي كما تمثل في عصر الراشدين رضوان الله عليهم والذي لا ينكره العلمانيون أنفسهم شاهد على هذه الحقيقة.

هذه الحقيقة.. حقيقة **"وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده.. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- وتاريخ هذا الدين على مر الأجيال!"**

فالحقيقة أن الذين يتصورون أن على الدعاة أن يبينوا وأن يبلغوا فقط، وألا يستعملوا القوة أبدا في إقرار الحق، وأن يلتزموا بالنص الذي يستندون إليه ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].. هؤلاء يتجاهلون أولاً تاريخ الإسلام كله، لأن الرسول ﷺ جاهد بالسلاح، ولم يقف عند الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة كما فهموها، لأن الحكمة قد تكون تارة بالبلاغ والبيان، وتارة قد تكون بالسلاح. فصورة الحكمة هم قد قلصوها بحسب ما يشتهون. والموعظة الحسنة أيضا قد لا تكون بليغة إلا بالسلاح، وإلا بالقتال. وحتى لو فهموها كما يريدون فهي كانت مرحلة من مراحل الدعوة، وليست هي المرحلة النهائية.

والواقع أن الجاهلية هي مؤسسة متكاملة؛ لها فلسفتها وتصورها، ولها أيضا نظامها، ولها أيضا قوتها التي تحمي بها نفسها، وعندها من الإصرار على ما هي عليه، بحيث أنها لا تفرط فيه ولا تتنازل عنه لكل من يطالبها بالتنازل عنه بسهولة.

هذا الواقع الجاهلي لا يمكن أن يقابل بالبيان فقط. ويقول الأستاذ المودودي في كتاب له -ينبغي أن تقرؤوه جميعا- وهو كتاب "الحكومة الإسلامية" وكتاب "الدين والدولة".. يقول: هذا سخرية وعبث أن يأتي أحد ليدعو إلى فكرة، وينزل نظاما وقوانين، ثم يقول للناس: اسمعوا ثم لا عليكم إذا لم تنفذوا، فأنتم ستظلون راضين بهذه الفكرة وتعتبرون مؤمنين بها، وأنكم ستجازون بالجنة وبكل مكافأة حتى ولو لم تطبقوا هذه القوانين، ولم تعطوا لهذا الإله حقه.. فهذا يكون عبثا وتناقضا يتعالى الله سبحانه وتعالى عنه، ويتعالى كتاب الله عنه. وإنما الأمر الطبيعي أن الإنسان إذا اقتنع بالفكرة فعليه أن يحاول أن يطبقها، وهو ولا بد سيجد أمامه عقبات لا بد أن يزيلها، ثم إن الواقع الموجود أمامه الذي لا يقبل هذه الفكرة الجديدة، وهذا الحكم الذي يريد فرضه لا بد أن يدخل معه في صراع. فالتدافع سنة طبيعية، وإنه من السخرية أن نطالب دين الله بما لا يطالب البشر به أنفسهم حينما يريدون أن يقيموا لأنفسهم نظاما. فأي صاحب ثورة جديدة لا بد أن يلغي الوجود الآخر لكي يقوم هو، وإلا فإنه لا يمكن أن يتواجدا معا في وقت واحد."

فإذا كان البشر الذين لا يملكون حق تعبيد الناس لهم يعطون لأنفسهم حق الصدام وحق القتال حينما يرفض الناس أفكارهم، ويقيمونها بالقوة وهم ليسوا أهلا لها، ولا لهم حق فيها، بينما يحرمون الإسلام الذي جاء ليعطي صاحب الحق حقه أن يفعل مثلما يفعلون.. فلا شك أن الذين يُدعَون إلى هذا التصور -التصور المسالم الذي يقف عند البلاغ والبيان فقط- هؤلاء خائنون للحق، وهؤلاء مضللون أيضا، وهؤلاء مجرمون.. لأنهم يعرفون أن الإسلام لم يكن يوما ما كذلك حتى يطالبوا الحركات الإسلامية الآن أن تقف عند نقطة البيان فقط.

يقول الأستاذ سيد **"إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً.. إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً.. إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا**

شريك.. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة" إلى جانب شكل "البيان".. ذلك ليواجه "الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني، أمس واليوم وغداً، يواجه هذا الدين -بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله- بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية.. وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة.. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد.

وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات، فإن "الحركة" تواجه العقبات المادية الأخرى -وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة- وهما معاً -البيان والحركة- يواجهان "الواقع البشري" بجملته، بوسائل مكافئة لكل مكوناته.. وهما معاً لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض.. "الإنسان" كله في "الأرض" كلها.. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى!

إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب! إن موضوعه هو "الإنسان".. نوع "الإنسان".. ومجاله هو "الأرض".. كل "الأرض". إن الله -سبحانه- ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم.. إن الله هو "رب العالمين".. وهذا الدين يريد أن يرد "العالمين" إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى -في نظر الإسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر.. وهذه هي "العبادة" التي يقرر أنها لا تكون إلا لله، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين. ولقد نص رسول الله ﷺ على أن "الاتِّباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة" التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة" الله وحده.."

وذلك حينما قرر رسول الله ﷺ أن النصارى واليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حينما تلقوا منهم الشرائع، وحينما حرموا لهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فقرر أن هذه عبادتهم إياهم وهذا نص واضح جلي لا يقبل التأويل.

فإذن هذا هو التصور الإسلامي للعبودية؛ أنه حينما يكون المشرعون هم البشر، وحينما لا يكون الحاكم هو الله.. فهذه هي العبودية الكبرى. لأن أي علاقة بالله بعيدة عن الخضوع لشرعه لا تستوعب حياة الإنسان كلها، وحتى لو استوعبت جزءا من حياة الإنسان لا تكون عبودية لله.. وإنما تكون عبودية لذلك الذي يستوعب حياة الإنسان كليا أو جزئيا.

لكن الشريعة بوصفها التي تنظم حياة الإنسان في كل أحواله، هي التي تغطي حاجات الإنسان كلها، لكن حينما يتصور الناس العبادة أنها نسك وشعائر فقط! فكم تأخذ هذه الشعائر في حياة الناس؟، وحينما يتصورونها أحوالا شخصية.. كم تأخذ هذه من مساحة الحياة عند الناس؟ مساحات صغيرة فقط.. وهذه المساحات الصغيرة -على صغرها- تبهت وتضيع حينما يصبح التشريع الأعظم بعيدا عن شريعة الله. فالعبودية الحقيقية تكمن في أن يتلقى الناس كل شيء في حياتهم من الله. وحينما تكون شريعة الله بكل شمولها وكل هيمنتها وكل استغراقها لحياة الإنسان الصغيرة والكبيرة -حينما يكون الأمر كذلك- يكون الناس في عبودية الله.. وإذا كانت الشريعة التي تحكمهم ليست هي شريعة الله، مهما أخذوا نتفاً من صور التعبد أو التنسك أو التنظيم في حياتهم فإن هذا يبعدهم ابتداء عن العبودية لله.

وأمر آخر أشد خطرا، وهو أن الله عز وجل غني عن العالمين، فإما أن يخضع الناس لشريعة الله كلها فيكونون عبيدا لله، وإما ألا يأخذوها كلها. وساعتها لا يكونون عبيدا لله. فالعبودية لله لا تكون إلا عبودية التوحيد؛ توحيد القوامة والدينونة لله وحده، فيُؤخذ من الله ولا يُؤخذ من غيره، حتى ولو كان هذا الذي يؤخذ من غيره قليلا أو صغيرا.. فالقضية هي تعبيد الإنسان نفسه لله، بمعنى الخضوع الكامل المطلق لله عز وجل، بأن يتلقى حياته كلها من الله، ولا يتلقى شيئا -ولو جزء بسيطا- من غير الله عز وجل.

فالعبودية لا بد أن تكون شاملة، وأن تكون مستغرقة كاملة في شريعة الله وحدها دون أن يتلقى الناس في هذا من غير الله في صغيرة ولا كبيرة.

التوافق بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض

"ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام.. بالبيان وبالحركة مجتمعين.. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبِّد الناس لغير الله.. -أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه- والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة" بحرية لا يتعرض لها السلطان. ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي -بعد إزالة القوة المسيطرة- سواء كانت سياسية بحتة، أو متلبسة بالعنصرية، أو الطبقية داخل العنصر الواحد!

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته.. ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة"."

فليس هناك تناقض بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين، وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض حتى يخضع الناس جميعا لسلطان الله في الأرض كلها، أي يخضعون لشريعته.. لأن الإسلام ليس عقيدة فقط.. الإسلام نظام مع عقيدة، فإذا رضي الناس بالعقيدة وبالنظام كانوا مسلمين، وكانوا ناجين، وكانوا عابدين لله.. فإذا لم يرضوا بالعقيدة فعليهم أن يخضعوا للنظام، لأن الأرض هي مملكة الله، والله هو صاحبها، ومن حقه وحده أن يحكمها بقانونه.. فالذين لا يرضون به رباً عليهم أن يخضوا لنظامه.

وهذا ولا شك نوع من التعامل الرحيم بالبشر، وإن كان يؤجلهم إلى موقف أصعب. فالإسلام لا يجبر الناس على الاعتقاد، ليس لأن الله ليس من حقه أن يجبرهم على الاعتقاد، فهو من حقه أن يجبرهم على الاعتقاد، وكان من الممكن أن يخيرهم بين الإسلام وبين القتل، وهذا من حقه سبحانه وتعالى، لأنه خالق الخلق، والكون مُلْكُه، ولكن لأن الله يريد مسلمين.. فيكون من العبث أن يجبر الناس على اعتناق عقيدة لا يريدونها، لأنهم في هذه الحالة سيكونون منافقين وليسوا مؤمنين، لذلك لم يجبرهم على اعتناق الإسلام بل ترك ذلك لاختيارهم، حتى يظل المسلم مسلما صدقاً لا نفاقاً، وعلى من اختار سبيل الكفر أن يعلم أنه وإن نجا من العقوبة في الدنيا فإن يوماً ينتظره هناك ليلقى جزاء اختياره الظالم، وهو يوم بعده الخلود في نار جهنم التي أعدت للكافرين.

فالإسلام لم يكره الناس على العقيدة، ولكنه يجبرهم على الخضوع لنظامه. وليس في هذا ظلم لهم، وليس في هذا إكراه ولا استبداد عليهم.. بل العكس هو الحقيقة؛ أن خضوع الناس للنظام الإسلامي؛ سواء كانوا مؤمنين به أو لم يكونوا مؤمنين به هو رحمة للجميع،

لأن حكم الله هو الرحمة المهداة للبشرية، وسيجني ثمارها من يعيشون في حكم الله؛ سواء كانوا مؤمنين به أو غير مؤمنين.. فهو إذن رحمة أخرى بالبشر حينما يجبر الناس على التحاكم إليه لكي يسعدهم، رغم أنهم رفضوا ألوهيته.. ولكنهم لا بد أن يخضعوا لحكمه سبحانه وتعالى، لأن هذه هي الصورة التي لا يجوز أن يكون الأمر غيرها.

لذلك إذا كان لم يتحقق في واقع الأمر في التاريخ البشري أن تصبح الأرض كلها خاضعة لشرع الله -حتى في أوج هيمنة الإسلام وعلو دولته وسعتها وانتشارها ظلت أقسام من الأرض لم تخضع لشرع الله، حيث ظلت أجزاء من أوروبا، وأجزاء من أفريقيا، وأجزاء من آسيا، وأمريكا التي لم تكن قد اُكتشفت بعد.. كل هذه المناطق ظلت بعيدة عن حكم الله- أقول: إذا لم يتحقق خضوع الأرض كلها لشرع الله فإن ذلك سيقع لامحالة قبل يوم القيامة على يد المسيح عليه السلام حينما يأتي ليحكم الأرض كلها بحكم الله، ويكون الناس جميعا تحت حكم الله، لتتحقق الصورة الناصعة والصورة المكتملة في الأرض قبل أن يعود الناس إلى ربهم يوم القيامة. فإذا لم تتحقق على أيدي البشر من خلال جهادهم، فسوف تتحقق بآية من آيات الله قبل أن تقوم الساعة.. حينما يأتي المسيح ليحكم الأرض بحكم الله، وحينذاك سيجد الناس بركات هذا الحكم كاملة، وتتبدى لهم تماما، لكيلا تغلق صحيفة الأرض قبل أن تتحقق الصورة الناصعة، لتكون حجة على الناس.. فلو أنهم كانوا رضوا بحكم الله لعاشوا كما سيعيش الناس في ظل حكم المسيح المهيمن المطلق، حتى يلتقي الأسد بأي حيوان فلا يؤذيه، ويحثو الناس المال حثوا ولا يجدون من يطلبه، وتخرج الأرض خيراتها.. وهكذا سيعيشون في نعيم مطلق وفي أمن مطلق.

لكن لا بد أن يظل هذا الهدف -هدف خضوع الأرض كلها لشرع الله وحكمه- قائما باستمرار في حس الذين يؤمنون بالله، يسعون إليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. سواء تم أم لم يتم، ولا يقصرون فيه، مهما بدى لهم من العقبات، وعليهم أن يقيموا الشهادة لهذا الدين حتى نهاية الحياة.. فكما يقول الأستاذ سيد: إن الإسلام ليس مجرد عقيدة، هو نظام لله لا بد أن يقوم.. ولذلك فإنه ليس من الممكن أن يقوم بالبيان فقط، ثم يترك الناس بعد ذلك في عمايتهم.. عليه أن يدعوهم للعقيدة، وأن يقيم نظامه، وأن يجبر الناس على هذا النظام ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].. وكما يقول.. **"إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة" إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة، وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة، ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة.. وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام."**.

الإسلام لا يقوم بالبيان والبلاغ فقط

فإذا أدرك الناس الدين بهذا المفهوم.. فإنهم سيدركون معه **"حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف -إلى جانب الجهاد بالبيان- ويدركون أن ذلك لم يكن حركة دفاعية -بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية" كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام- إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض".. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة."**.. ويقول **"وإذا لم يكن بد أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع"، ونعتبره "دفاعاً عن الإنسان" ذاته، ضد جميع العوامل التي تقيد حريته**

وتعوق تحرره.." فهو دفاع -إذن- عن حرية الإنسان، وحينما نريد أن نحرر الإنسان فإنه -في الحقيقة- لن يكون حرا إلا حينما يكون عبدا لله وحده، وحينما يكون تحت شريعة الله وحدها.. وبذلك نرجع مرة أخرى إلى أننا لا بد أن نزيل كل النظم والضغوط التي تستعبد الإنسان وتذله وتنتقص حريته ولا تجعله حرا. فإذا كان لا بد أن نقول إن الحركة بالإسلام حركة دفاعية فهو دفاع عن حرية الإنسان.. **"وبهذا التوسع في مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في "الأرض" بالجهاد، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها، وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان.."**

ويقول **"أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي" -وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب- فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض. كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي."!**

ويقول **"ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- قد أَمِنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية، والطبقية، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟!**

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير "الإنسان".. نوع الإنسان.. في "الأرض".. كل الأرض.. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان! إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد، تخاطبهم بحرية، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات.. فهنا "لا إكراه في الدين".. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله، وهو طليق من هذه الأغلال!"

وبذلك يصبح الجهاد بمعنى القتال ضرورة للدعوة، وليس مجرد اجتهاد من المسلمين.. هو ضرورة للدعوة إذا كان الدعاة جادين في أن يقيموا الإسلام.. فالإسلام لم يقم بالبيان والبلاغ فقط أول مرة ولا يمكن أن يقوم تارة أخرى بالبيان والبلاغ فقط حينما يواجه مؤسسة تقوم على القوة وعلى الصراع المادي، لا بد إذن أن يدخل معها في صراع مادي ولا يكتفي بالبيان النظري، بل لا بد أن يكون له جهاده، وأن يغير ويقتلع هذا الواقع المادي ليقيم بدله بناء الإسلام. وهذا الأمر يتطلب أن يكون للإسلام قاعدة ينطلق منها لكي يبدأ جهاده أمام أعدائه.. ولذا فإنه لا بد أن يقيم دار الإسلام في مواجهة دار الكفر أو دار الحرب، وينطلق من قاعدته هذه ليقتنص أو ليقلص من مساحة دار الكفر، حتى يكون الدين كله لله.

والسلم الذي يريده الإسلام هو ذلك السلم القائم على الإيمان، والقائم على العدل، والذي لا يتحقق إلا تحت شريعة الله عز وجل.. وهو يدعو الناس أن يدخلوا في السلم كافة بهذا المعنى الواضح، وليس ذلك السلم الرخيص الذي يريده الآخرون لهذا الدين.. فهذا ليس سلما في الحقيقة، لأنه عدوان على الإسلام، وعدوان على الإنسان أيضا.

لكن السلم الذي يدعو إليه الإسلام هو ذلك السلم الذي يقوم على العدل وعلى الإيمان وعلى الرحمة التي يكفلها النظام الإسلامي وحده في الأرض.. وليس النظام الجاهلي.

"ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة، وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة.. وقيل للمسلمين: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء: ٧٧].. ثم أذن لهم فيه، فقيل لهم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠].. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦].. وقيل لهم: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. فكان القتال -كما يقول الإمام ابن القيم- "محرماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين"..

إن جدِّية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد، وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه، وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام، وعلى مدى طويل من تاريخه.. إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي!"

ولا شك أن هذا ينبع من العلم بالحقيقة، ومن الاعتزاز بالحقيقة، لأن الإنسان حينما يعلم مقام الألوهية وحقها في أن تعبِّد الناس لها لا يأتي في خاطره أبدا أن يستنكف أو أن يخجل أو أن يتورع في أن يزيل كل العقبات وبأي طريقة من أمام الحق الذي يؤمن به. فإذا كان الإسلام في تاريخه بهذه الصورة؛ أن القتال كان محرما، ثم مأذونا به، ثم واجبا لمن قاتل المسلمين، ثم واجبا للانسياح في الأرض وإزاحة كل الطواغيت من على الأرض.. فهذه الصورة من التدرج الجدي لا يدع لأي إنسان يعلم هذه الحقيقة أن يدور في نفسه أي تصور آخر غير التصور الصحيح.. **"ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله ﷺ، ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي، ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملابسات تذهب وتجيء، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟!**

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض، لدفع الفساد عن الأرض: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة.."

وهذا التدافع ليس جديدا.. هو قديم منذ أن وقف الشيطان هذا الموقف من آدم.. ومنذ أن قال الله عز وجل لآدم ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧].. هذا الصراع بدأ منذ هذه اللحظة.. وسيظل إلى أن تفنى الأرض.. صراع

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.. بين عباد الله وبين عباد الشيطان.. فلا تصلح الأرض إلا بهذا الصراع، ولو سكت فريق لن يسكت الفريق الآخر.. ولو سكت المؤمنون لن تسكت الشياطين وأعوان الشياطين. فلكيلا يتزحزح المؤمن عن موقعه لا بد أن يدفع الآخر بعيدا عنه، ويصده.. فهذا التدافع من مصلحة الكيان الإنساني، وهو أيضا الذي يجعل جذوة الإيمان دائما حية ومتوهجة في نفوس أصحابها حينما يحسون دائما أنهم باستمرار في حالة دفاع، بل هجوم مستمر على الشيطان وعلى مواقع الشيطان، لكي يظل الدين كله لله.

"وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة. الشأن الدائم ألا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض. وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد، رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأرض" ذلك السلطان الغاصب.. حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله."

فإذا تحقق ذلك يظل الإنسان في حالة استنفار دائم، حتى لا يستغل الشيطان وأعداء الإنسان فرصة الغفلة فينقضون على الإسلام مرة أخرة. فحتى لو تحقق أن يكون الدين كله لله في الأرض سيظل الناس في حالة رباط دائم ليدافعوا عن هذا الدين إلى يوم القيامة.

"إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة. كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة. والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة.. هذا هدف أولي لا بد منه، ولكنه ليس الهدف الأخير.. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق، ويؤمن قاعدة الانطلاق.. الانطلاق لتحرير "الإنسان"، ولإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق!"

فكف الأيدي هو مرحلة، والدعوة بالموعظة هي مرحلة، والعفو والصفح هو مرحلة.. وتأتي بعدها النصوص النهائية للانطلاق النهائي لسحق الجاهلية كلها، ولإخضاع الأرض كلها، لتكون خاضعة لشرع الله.. وهي حرة -بعد ذلك- في أن تقتنع وتعتنق دين الله عز وجل أو لا تعتنقه.

الحكمة من كف الأيدي في مكة

ويقول هنا أن كف الأيدي في مكة كانت له حِكمٌ كثيرة يلخصها بسرعة:

ربما أن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة أن تحتاج إلى وقت هادئ لكي يُعَد ويُربى الناس فيه، وليخلصوا من جاهليتهم التي كانوا عليها. فكف الأيدي يسمح للناس بفترة من الزمن لكي يتربوا في هدوء.

كذلك قد يكون من الحكمة التعود على ضبط الأعصاب، فالعربي -والإنسان في عمومه- يستثار إذا أوذي في نفسه، أو إذا تعرض لأي إهانة.. فكف الأيدي كان للتربية ولضبط الأعصاب حتى لا يغضب الإنسان إلا لله.. فلا يغضب لنفسه، ولا لذاته. وكان العرب في قمة هذه الاستثارة كطبيعة عربية. فلعل أمرهم بكف الأيدي كان لتربيتهم أن يكون تصرفهم في سلوكهم لله، وألا يثوروا لأنفسهم، وأن يتريثوا في رد الفعل.

وربما كانت أيضا لأن الدعوة السلمية يمكن أن تعطف الناس على أصحاب هذا الدين وعلى أصحاب هذه الدعوة، وتحرج أعداءها الذين يقفون أمامها ويؤذونها.. فحينما تقابل الجماعة المسلمة إيذاء الأعداء بالسكوت والصبر وكف الأيدي لعل هذا يحرج الأعداء، ويجعلهم في حرج أمام الناس، ويعطف قلوب الناس على أصحاب هذه الدعوة.

وربما كان من الحكمة اجتناب أن يحدث في كل بيت مقتلة، وكان الصراع هو بين الآباء والأبناء والأمهات والإخوة والأزواج، فلو أن القتال كان مأمورا به لحدثت في بيوت الناس مقتلة، ولغابت عن الناس القضية الحقيقية الأساسية، وانشغلوا بقضايا الثأر وقضايا القتال وقضايا العراك.

وربما أيضا كان السبب أن دخول المسلمين مبكرا في قتال مع أفراد الجاهلية كان سيفني أعداداً من الفريقين، وخاصة من الجاهلية، ولعل هؤلاء يكونون جندا للإسلام بعد ذلك إذا سكت عنهم، وهذا ما حدث في الواقع.

وربما أيضا كان خطابا موجها للنخوة العربية التي كانت تتعود أن تقف مع المظلوم، وتقف مع الضعيف، فلعل هذا يجعل هؤلاء العرب الذين يقفون كي يتفرجوا يحددون مواقفهم بصورة أفضل، وهذا قد حدث أيضا في بعض الأحيان حينما كان يتدخل البعض في نصرة المسلمين.. كموقف أبي طالب مع رسول الله ﷺ، أو موقف بني هاشم جميعا في شعب بني هاشم، أو موقف ابن الدغنة مع أبي بكر، وموقف الذين مزقوا صحيفة المقاطعة التي علقتها قريش في جوف الكعبة.. وغيره كذلك.. فكان هؤلاء يعطفون وتستثار نخوتهم العربية. وهذا متكرر أيضا في البشرية بصورة أو أخرى.

وأيضا ربما لأن المسلمين كان عددهم قليلا في ذلك الوقت، فإذا دخلوا معركة فقد يقتلون جميعا -حتى لو قتلوا أضعافهم من المشركين- وتضيع الفكرة بمقتل أصحابها، فكان لا بد أن تكف الأيدي حتى يكون للمسلمين شوكة تستبقي الفكرة حتى وإن قُتل بعضهم في أي وقت من الأوقات.

ولكن حينما انتقل المسلمون إلى المدينة لم يعد هناك ضرورة لكف الأيدي، وإنما أصبح للمسلمين قاعدة، وأصبح لهم قوة، وأصبح لهم شرعية -حتى بالمفهوم الجاهلي- كأصحاب دولة أو أصحاب أرض يجاهدون عن أنفسهم، ويقاتلون ويدفعون عن أنفسهم الضرر، فأصبحت لهم قاعدة آمنة ينطلقون منها، وأصبح لهم -حتى في الحس الجاهلي- منطق مشروع يواجهون به الناس بصورة القتال أو القتل.

فلم يعد -إذن- في المدينة داعٍ لكف الأيدي، وإنما أصبح مسموحاً لهم أن يقاتلوا.. ولكن حتى في المدينة لم يشرع القتال مرة واحدة، ولم يسمح لهم أن يقاتلوا الجميع مرة واحدة، وإنما سمح لهم بالاستطلاع أولا، ثم بعد ذلك برد العدوان، ثم بعد ذلك بالانطلاق الكامل لقتال المشركين كافة.. وهذا كله يتمشى مع قضية المرحلية التي سنفرد لها حديثا طويلا بعد ذلك إن شاء الله.

لكن الذي نريد تقريره هنا أنهم بعد أن انتقلوا إلى المدينة أصبحت لهم قاعدة آمنة. وفكرة القاعدة الآمنة مهمة جدا في كل وقت. فالمسلمون حينما يكونون تحت سلطان الجاهلية وبدون قاعدة لا يكونون أبدا في الوضع الأمثل الذي ينطلقون فيه للقتال، لأن عدم وجود قاعدة آمنة، وعدم وجود موارد أيضا مأمونة تمدهم باستمرار يجعل موقفهم ضعيفا، ويجعلهم بين فكي الكماشة باستمرار. لذلك لم يطلب من المؤمنين في مكة ولا يطلب منهم في أي وقت من الأوقات -حينما لا تكون لهم قاعدة آمنة ينطلقون منها- أن يدخلوا في صراع مسلح مع الجاهلية.. فالجاهلية ستكون أقوى منهم عشرات المرات، وسيدخلون في معادلة صعبة جدا لا يمكن تحقيقها في واقع الأمر.

فالذي جرى أول مرة ينبغي أن يظل نبراساً لأي تجمع إسلامي؛ أنه طالما هو مستضعف، لا يملك سلطانا على نفسه، ولا يملك قاعدة آمنة ينطلق منها ويعود إليها، ولا يملك موارد مأمونة ومضمونة تمده دائما بالإمدادات.. يظل المسلم معذورا في ألا يدخل في معركة مكشوفة، ولا في قتال مكشوف مع الجاهلية. لذلك كان كف الأيدي في مكة مفهوما ومُفسَراً.

وبكل هذه السبعة أسباب أو السبعة حكم التي قلناها يكون الأمر بالقتال في المدينة مفهوما؛ فالقتال أصبح طبيعيا لوجود القاعدة الآمنة.

الحكمة من كف الأيدي في أول العهد بالمدينة

قلنا إن كف الأيدي كان في الفترة المكية، وكان أيضا في أول العهد بالمدينة، وقد ذكرنا الحِكَم المستقاة من السيرة في الفترة المكية.

أما في المدينة فلعل كف الأيدي في الفترة الأولى كان له عدة ملابسات أو حِكم أدت إلى ذلك، وإن كانت الفترة لم تطل.. لأننا -كما نعلم- أن بدراً كانت في السنة الثانية من الهجرة، وقد سبقت بدرا سرايا عديدة بعث بها رسول الله ﷺ لكي يؤمن المدينة ويثير الرعب في القبائل حتى لا يطمعوا في المدينة.

ولكن في أول الأمر قبل ذلك كان كف الأيدي. ولعله كانت هناك فترة احتاجت فيها الدولة الوليدة بعد الاستقرار في المدينة إلى قدر من إعطاء فرصة للبلاغ والبيان.. فظل عليه السلام يبلغ ويبين لفترةٍ ما في المدينة؛ سواء ما كان يحتاجه العرب الوثنيون، أو اليهود وأهل الكتاب الذين كانوا في المدينة وحولها، فكانوا محتاجين أن يسمعوا من رسول الله ﷺ بأنفسهم، ويتفهموا الأمر حتى ولو كان عندهم خبر عنه.

وكان الرسول ﷺ يحتاج إلى قدر من الوقت -أيضا- لتنظيم المجتمع الجديد في أول عهده بالمدينة، وقد رأينا تلك المعاهدة التي عقدها أو ذلك الميثاق الذي كتبه ليحدد الحقوق والواجبات والمسئوليات على كل الأطراف الساكنة في المدينة باعتبار أنه قد أصبح رأس السلطة في المدينة. فاحتاج هذا الأمر قدرا من الوقت -أيضا- لينظم القاعدة الجديدة لتصلح أن تكون قاعدة للانطلاق.

ولعله أيضا ﷺ كان يريد التفرغ في هذه المرحلة لقريش، ويستعد لهذا التفرغ قبل أن يضرب الجهات الأخرى، فوقف في حالة انتظار لكي يرى ماذا ستفعل قريش بعد هجرته ﷺ، ولذلك توالت السرايا للاستطلاع والاستكشاف، ولم يكن هدفها القتال بالدرجة الأولى.

ثم بعد ذلك حدثت غزوة بدر الكبرى.. فكف الأيدي في المدينة كان لفترة قصيرة امتدادا لكف الأيدي في مكة، وكان لأغراض أيضا تتمشى مع طبيعة الظرف الجديد الذي وجد فيه رسول الله ﷺ والمسلمون.

ونلاحظ أن الأستاذ سيد رحمه الله قد اهتم بقضية الجهاد، وتوضيح معناه، والحديث عن الشبهات أو عن المكر الخبيث للمستشرقين.. ولعله قد كرر هذا المعنى أكثر من مرة، مما يشي أن هذا الأمر كان يشغله كثيرا، أو كان يحس أن له خطراً وأن له ثقلاً كبيراً في الواقع الذي نعيشه، ولذلك نجده قد كرر كثيرا الحديث عن مفهوم الجهاد، وأيضا عن المؤاخذات التي يأخذها على المنهزمين، ونجد ذلك التفصيل المتكرر لمفهوم الجهاد.

وبما أننا نتحدث عن شروح للكتاب فنحن ملزمون بمتابعة الكتاب كما كتبه الأستاذ سيد، حتى وإن كان هناك بعض التكرار الذي قد يبدو -في نظر البعض- تكرارا زائدا..

مبررات الجهاد في الإسلام

يقول مرة أخرى **"ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع، لا تدع مجالاً للقول بأن "الدفاع" بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية، كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر!**

إن الذين يلجؤون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي، إنما يُؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية، في وقت لم يعد للمسلمين شوكة، بل لم يعد "للمسلمين" إسلام! إلا من عصم الله.."

فالمستشرقون ينتهزون فرصة هذا الضعف أو عدم وجود إسلام ولا مسلمين الآن، ويضغطون بهذه التهم على الجهاد الإسلامي لجعل المهزومين يدافعون ويبحثون عن مبررات أدبية للدفاع عن الجهاد الإسلامي باعتباره كان دفاعا عن النفس، ولم يكن هجوما، ولم يكن محاولة للقهر والإجبار.. بينما النصوص القرآنية واضحة تماما في أن الله يطالب المسلمين بالقتال، وأن هذا القتال مطلوب وواجب عليهم لكي يكون الدين كله لله، كتلك النصوص التي جاءت في سورة النساء مثلا ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۞ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].. فهذا حض واضح من الله سبحانه للمسلمين أن يقاتلوا في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين وإخراجهم من ظلم الظالمين.. وسمى القرية الظالم أهلها -ولم يسمها قرية ظالمة لأنها مكة- فوصف أهلها بالظلم ولم يصف القرية نفسها بالظلم.. ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٧٥].. ويقرر أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت.. ويقرر أيضا أنهم أولياء للشيطان، وأن الشيطان كيده ضعيف لا يخشى منه.

فهذه مطالبة مُلِحة للمؤمنين كي يقاتلوا. وبالتالي فلا يجوز للمؤمن أن يبحث عما يدحض أو يرد كلام الله عز وجل أمام محاولات الاستشراق في أن يحرجوا الدعاة بأن الإسلام انتشر بحد السيف، أو انتشر بالقهر، أو أن الإسلام دين يصادر إرادة الإنسان أو فكر الإنسان، أو لا يقبل النقاش ولا يقبل الحوار.. كل هذه المحاولات للمستشرقين لا يجوز للمؤمنين أن يُؤخذوا بها.

كما يقرر الله سبحانه أيضا في سورة الأنفال ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٨-٤٠] فهذه أيضا واضحة في أن القتال ماضٍ حتى يكون الدين كله لله، وأنه يعطي للذين كفروا فرصة أن ينتهوا، فإن لم ينتهوا يقاتلون، وأن الله هو مولى المؤمنين وهو نعم المولى ونعم النصير.. فليس للمؤمنين أن يبحثوا عن أعذار ولا أن يخجلوا من أن يقاتلوا الذين كفروا، وعليهم أن يردوا كيد المستشرقين ومكرهم على أعقابهم.. لأن هذا الدين دين الله، وهذه أرض الله، والله من حقه أن يحكم.. ومن حقه أن يسيطر ويهيمن، والذين يريدون أن يغتصبوا هذا الحق على المؤمنين أن يسحقوهم وأن يزحزحوهم عن مكانهم.

ويقول تعالى -أيضا- في سورة التوبة ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].. وفي آخر هذه الآيات يقرر الله سبحانه أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فلا بد أن يعمل المؤمنون على نشر دين الله وعلى إتمام نور الله عز وجل ولو كره الكافرون، ولو كره المستشرقون.. ولا يؤخذوا بهذه الدعاية.

يقول الأستاذ سيد عن هذه الآيات كلها **"إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض، وتحقيق منهجه في حياة الناس، ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس، والناس عبيد لله وحده، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه! وهذا يكفي.. مع تقرير مبدأ: "لا إكراه في الدين".. أي لا إكراه على اعتناق العقيدة، بعد الخروج من سلطان العبيد، والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله، أو أن الدين كله لله، بهذا الاعتبار."**

فلا يحتاج المؤمن إلى مبررات أخرى غير المبررات التي يقررها الله عز وجل في كتابه؛ إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض، وأن يكون السلطان كله لله سبحانه وتعالى.. **"إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض."**.

"وهذه وحدها تكفي.." أي كلمات الله عز وجل، وحديث رسوله ﷺ تكفي بالنسبة للمؤمن **"لقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين، فلم يُسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول: خرجنا ندافع عن وطننا المهدد! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة!**

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر. وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية، قبل المعركة: ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قَبِله منا قَبِلْنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه. ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر)."

هذا كانت مبررات الغزاة من المسلمين والفاتحين من المسلمين.. المبررات أن الله ابتعثهم ليحرروا البشرية من سلطان الكفار، فإن أسلموا تركوهم وأرضهم، لأنهم ليسوا في حاجة إلى الأرض، وليسوا في حاجة إلى المال والغنيمة، وإنما هم ينشرون دين الله عز وجل، وإن أبوا قاتلوهم حتى يفضوا إلى الجنة أو الظفر..

ويقول **"إن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته، وفي إعلانه العام، وفي منهجه الواقعي.."** هذا المبرر هو الانتصار للحق ونصر الله سبحانه.. والإنسان الذي يؤمن بلا إله إلا الله، والذي يعرف مقام الألوهية، والذي يعرف حق الألوهية في تعبيد الكون والوجود كله لها يعرف أن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين وهو أنه لا بد أن ينطلق ليحرر الأرض كلها بما عليها ويعيدها إلى سلطان الله وحده سبحانه وتعالى. فهو ليس في حاجة إلى مبرر من خارجه.. هو في ذاته يحمل المبرر؛ بأن الأرض أرض الله، والملك ملك الله، والحاكم هو الله.. فالأمر الطبيعي أن يكون جنود الله هم الذين يقومون لتقرير هذا الأمر في واقع الأرض..

"وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء -ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها- إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية.. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة، وموقوتة!"

ويقول **"إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان.. مع هواه وشهواته.. مع مطامعه ورغباته.. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه.. مع كل شارة غير شارة الإسلام.. ومع كل دافع إلا العبودية لله، وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله.."**

وهذا يعني أن نفس المؤمن من الداخل تلتقي مع طبيعة هذا الدين، ومع المبررات الذاتية في هذا الدين. فالإنسان المسلم ينطلق لتحقيق سلطان الله في الأرض، لا لتحقيق شهوة من شهواته، ولا لتحقيق مغنم، ولا ليتوسع، ولا ليحس بروعة الانتصار وفرحة الانتصار.. وإنما يخرج عبدا ذليلا لله، ليحقق ألوهية الله.. فتتوافق نفسية المؤمن مع حقيقة هذا الدين في نفس الوقت. وهذا أمر مهم.. لا يتحقق إلا من خلال جهاد النفس والارتفاع بها فوق غرائز الإنسان وشهواته وطموحاته. ولذلك نحن نقول كثيرا إن المسلم لا ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله بدافع تحقيق النصر، حتى ولو كان ذلك النصر هو لدين الله، فهو أصلا يستجيب لداعي الله عز وجل لكي يقاتل. أما ان يكون هذا القتال نتيجته الانتصار، أو الموت في سبيل الله فهذا لا يهم المؤمن.

فلا بد أن يخرج المؤمن متجردا، ويكون عبدا خاضعا لله عز وجل، يحقق أمر الله كما يريده الله، وليس كما تريده شهواته، حتى ولو كانت ابتغاء نصر الدين نفسه.. فهو لا يدري لعل الله لا يريد النصر في هذه الجولة.. فلا يكون النصر هدفا في ذاته، إنما يكون الهدف في ذاته هو إرضاء الله، ثم يتحقق النصر أو لا يتحقق.. يموت هو أو يعيش.. فهذه قضية أخرى يقررها الله كما يشاء سبحانه وتعالى.

"والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن" وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات".

فهو يقرر هنا إن الذين يبحثون عن مبررات الجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من شأن المنهج، ويعتبرونه أقل من الموطن، أي أقل من الأرض، فيعتبرون الأرض هي الأصل، والدفاع عنها هو الأصل.. أما منهج الله، وأما دين الله فليس في مقام الأرض التي يدافعون عنها. وكما يقول؛ إن الإسلام لا ينظر إلى الأمور بهذه الطريقة، ولكنها نظرة مستحدثة، أتتنا مع الغزو الفكري، غريبة على الحس الإسلامي.. لأن روابط الجاهلية باستمرار -كما قررنا قبل ذلك- هي روابط الحيوان؛ سواء دافع عن الجنس، أو عن الأرض، أو عن اللون، أو عن اللغة، أو عن المصالح.

لكن الإسلام يدافع عن دين الله عز وجل ويقرر الحقيقة، والأرض تستمد قيمتها من المنهج الذي يحكمها، ومن الواقع الذي تعيشه؛ فإن كانت أرض إسلام فهي أرض مكرمة، وإن كانت أرض كفر فهي ليست كذلك، ولا بد من تطهيرها وإرجاعها إلى الله عز وجل. فالذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي على أنه دفاع فقط عن دار الإسلام وعن الأرض هؤلاء يغضون من قيمة المنهج. والإسلام لا يعترف بذلك.. **"أما الأرض -بذاتها- فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان"."**

فنحن حينما نحافظ على الأرض إنما نحافظ عليها باعتبارها القاعدة التي ننطلق منها لتحرير الإنسان، وأنها التي نقيم فيها المنهج، والذي نكون فيها أحراراً في اعتقادنا وفي حياتنا.. فتصبح الأرض حينذاك مهمة ندافع عنها، لكي نحتفظ بعقيدتنا ونحتفظ بمنهجنا، ولكي تكون نقطة انطلاق لتحرير الإنسان.

أما أن تكون الأرض لذات الأرض.. فالإسلام لا يعترف بهذا على الإطلاق.

ويقول **"وحقيقةً إن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي، وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي، إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنساني بجملته.."**

فلا بد أن تكون عندنا قاعدة لننطلق منها، فحينما يُعتدى عليها لا بد أن نرد الاعتداء، لكن هذا ليس الخطوة الأخيرة، ولا هو نهاية المطاف.. وإنما نرد العدوان عليها لننتقل إلى خطوة جديدة.. لننطلق إلى بقية الأرض ونحررها من الطاغوت.

وحمايتها إنما هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها، وإلى النوع الإنساني بجملته. فكما يقول **"فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين والأرض هي مجاله الكبير!**

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمذهب الإلهي[٣] تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة، ونظام المجتمع، وأوضاع البيئة.. وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة، كي يخلو له وجه الأفراد من الناس، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم، بعد أن يحررها من الأغلال المادية، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار."

وبالتالي فخطة الدفاع التي مر بها المسلمون هي خطة وقتية وليست خطة نهائية، ولذلك لا يجب أن نستجيب لمكر المستشرقين حينما يريدون أن يقفوا بنا عند هذه المرحلة الوسيطة، أو هذه المرحلة الوقتية التي مر بها الجهاد الإسلامي.

يقول **"يجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية.."** فالمجتمع المسلم، أو دار الإسلام تمر عليها فترات تكون كل مهمتها الدفاع عن كيانها.. تكون مستضعفة فتكون كل مهمتها أنها تدافع عن كيانها لتعيش.. فلا يقول أحد في ذلك الوقت أن هذا كل ما تريده! إنما هي مضطرة إلى هذا الموقف مؤقتا لأنها ضعيفة، فإذا قويت واستطاعت أن تحمي حدودها وتحمي مكانها، واستطاعت أن تنطلق وتخرج.. فهذا هدف جديد لا بد أن تنطلق إليه، وواجب أيضا. فلا نخلط بين الأوضاع المؤقتة، أو الظروف المؤقتة ونعتبرها ظروفا نهائية، أو نعتبرها هي أفضل الأوضاع بالنسبة لدار الإسلام، أو يأخذنا التكييف الجاهلي للقضايا فنعتبره هو المقياس، ونترك مقياس الله عز وجل.

فقد تقول الجاهلية أنه لا بد أن نعطي للآخر حق الرأي، ونحترم حدود الآخرين، وألا نتدخل في شؤون الدول الأخرى.. وكذا وكذا مما يجعلونه عناوين لمعنى الحرية ولمعنى المساواة.. هذه مقولات الجاهلية تقولها من موقعها هي باعتبار أنها ترى الإنسان هو القوة العليا،

---

٣ الصواب الدين الإلهي.

وأن ما يقرره الإنسان هو الصواب، وأن الناس كلهم متساوون في نقطة الانطلاق.. ولذا يجب أن يقف كل إنسان منهم عند حدود الإنسان الآخر.

أما حينما يكون الأمر عكس ما يرونه؛ أن يكون الأمر لله والملك لله، فيكون الأمر غير ذلك.. لا يقام للناس في هذا ولا لرغباتهم وزن، فينبغي أن يكون دائما ميزان المسلم هو ما يقرره الإسلام وليس ما تدعو إليه الجاهلية، أو تمدحه وتثني عليه. وهذا هو ما يحدث عند المنهزمين؛ أنهم أولا يتلقون من الجاهليين ويقرون مقولاتهم، ثم بعد ذلك تصبح هذه المقولات ضاغطة على أعصابهم يريدون أن يرتفعوا إلى مستواها، فيبدؤون بتبرئة أنفسهم من فكرة الاعتداء ومصادرة الرأي الآخر وتملك أرض الآخر، ويعدون أن هذه هي المثاليات.. لذلك يحاولون أن يبرروا أو يجدوا مبررات للجهاد الإسلامي؛ أنه كان يدافع عن نفسه، وأنه كان مضطرا إلى أن يخرج عن حدوده لأنه كان وكان وكان.. وهذا لا يجوز على الإطلاق.. فهذه الأمور الوقتية.. **"هذه ملابسة لا بد منها، تولد مع ميلاد الإسلام ذاته، وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضاً، ولا خيار له في خوضها، وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً..."**

"ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة.. إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداءً لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية، ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية، تاركاً "الإنسان".. نوع الإنسان.. في "الأرض".. كل الأرض.. للشر والفساد والعبودية لغير الله."

فليس من حق المسلم أن يقرر لنفسه حركته على الأرض.. الذي يقرر له حركته على الأرض هو إلهه وسيده سبحانه وتعالى.. والله أمر المسلم أن ينساح في الأرض كلها، لا يعترف بالحدود الجغرافية، لأنه ليست هناك حدودا جغرافية في أرض كلها لله.. الحدود الجغرافية صنعها الناس، وهذه مقولات الناس، وهذه حدود الناس، وإنما الأرض لا حدود لها، الأرض كلها لله، فينبغي أن تظل كلها لله ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن: ١٠] فهو خالقها وهو مالكها وإنما الإنسان مستخلف فيها لا مالك ومن ثم فلا نقف عند الحدود الجغرافية لأنها صناعة بشرية، وعلى الناس جميعا أن يكونوا في مملكة واحدة هي مملكة الله عز وجل.

"إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تُؤْثر فيه ألا تهاجم الإسلام.." فيمكن أن تهادن المعسكراتُ المعادية الإسلامَ، وتطلب منه أن يتركها ويهادنها.. هذا الأمر أيضا لا يرضاه الإسلام، لن يترك الناس يختارون الموقف الذي يريدون كما يهوون.. والاختيار الوحيد؛ إما أن يدخلوا في الإسلام وإما أن يخضعوا لشرع الله ولسلطان الله.. لكن أن يقولوا لن نهاجمكم ولا تهاجمونا، هذا ليس منطق المسلم.

"إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام! ولكن الإسلام لا يهادنها، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية، ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها."

وهذا موقف لا يجوز أن يجمجم فيه المسلم، ولا أن يخجل منه.. وإنما عليه أن يعلن موقفه في وضوح: أنتم ليس لكم حق أن تختاروا المواقف التي تريدونها.. نحن نعرض عليكم بوصفنا دعاة لله في الأرض أن تدخلوا في دين الله فتكونوا مثلنا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا.. أو أن تدفعوا الجزية وتخضعوا لسلطان الله عز وجل. فحتى لو هادنتنا الجاهلية، وحتى لو سكتت.. فالإسلام لن يهادنها حتى

تستسلم لسلطانه في صورة أداء الجزية، أو في الدخول في دين الله عز وجل.. **"هذه طبيعة هذا الدين، وهذه وظيفته، بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين!"**

ويقول **"وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة، وتصوره قابعاً داخل حدود إقليمية أو عنصرية، لا يحركه إلا خوف الاعتداء!.."**

ولا شك أنه ستتغير الدوافع، وتتغير نفسية المسلم، وتتغير النتائج أيضا إذا تصورت أنني صاحب حدود أدافع عنها وأحرص عليها، ولا يجوز لي أن أعتدي على حدود الآخرين، وأن أترك الناس في حالهم، وأنني لست مطالباً بأن يكون الدين كله لله في الأرض.. فهذا تصور.. والتصور الآخر أن أعرف الحقيقة؛ أنني مطالب أن أسيح في الأرض لأخضع وأزيل كل العقبات لكي يكون الدين كله لله، وأترك الناس بعد ذلك يختارون ما يريدون من عقيدة.. لا شك أن الموقف سيتغير، وأن النتائج أيضا ستتغير.

"إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية، وليس منهج إنسان، ولا مذهب شيعة من الناس، ولا نظام جنس من الأجناس! ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حِسِّنا هذه الحقيقة الهائلة.. حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد.. إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي!"

لا شك أن المسلم.. إن لم يكن ممتلئا اقتناعا وعزة وفرحا واعتزازا بهذا الحق، وأنه ينطلق لا يخيفه شيء ولا يوقفه شيء، مستندا إلى قوة الله، ومتوكلا فيه على الله، وشامخا بعبوديته لله، ومحتقرا كل الطواغيت الذليلة مهما كانت متجبرة.. لا شك أنه إن لم يكن المسلم كذلك فسيكون ضعيفا ويكون مهزوما، ولن يقيم الإنسان المسلم الإسلام بهذه النفس المنهزمة أبدا.. لا بد أن يكون مستعليا بالحق، موقنا به، شامخا به، لا يخجل من أن يقول الحق حتى ولو كره الناس أجمعون. إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي.. يعرف إنسان حقيقة مكانه من الله ثم يتصور أنه يخجل أن يعلن هذه الحقيقة أو يجمجم فيها، أو ينهزم أمام أي أقاويل أخرى. لا بد أن يمتلئ المسلم بالإصرار والاعتزاز، ولا تأخذه في ذلك هوادة ولا مجاملة ولا رحمة، لأن الرحمة الحقيقية تكمن في حكم الله عز وجل.

"والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق، بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه، وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداءً، فيدخل في هذه المعركة.."

قد لا تبدو المسافة كبيرة في بادئ الأمر، لأنه سيقاتل على أي الأحوال، سيقاتل لأن الناس يقاتلونه، وسيقاتل لأنه ينبغي أن يتقدم هو ويبدأ.. ففي أول الأمر قد تبدو المسافة بسيطة، فهو قتال على كل حال..

"المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة، فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً، ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة، تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييراً كبيراً.. خطيراً."

ويأتي هذا التغير في المشاعر والمفهومات، وتتضح هذه المسافة الكبيرة حينما ينطلق الإنسان ليدافع عن حدوده سيقف حينما تؤمّن هذه الحدود وينتهي الموقف، ولا يكون دافعه في حينها هو إعلان كلمة الله ولا نشر دين الله ولا إزالة الطواغيت ولا إنقاذ الناس مما هم فيه من عبودية لغير الله.. ستكون مشاعره مشاعر الذي يريد أن يدفع الخطر عن حدوده فقط، دون أن يستصحب مع ذلك أي مشاعر ولا أي مثل عليا ولا أي أهداف رفيعة من تلك الأهداف التي يحملها المسلم الذي يفهم حقيقة دينه. أما المسلم الآخر فسينطلق؛ سواء هُدِّدَت حدوده أم لم تُهدَّد، لأنه -وهو في دار الإسلام- يشعر بأن إنسانية الإنسان مهددة وهم يعيشون تحت عبودية الطواغيت، ويحس بشقاء الإنسانية من حوله وهم يعيشون تحت ظلم الطواغيت. ثم هو فوق ذلك يغار على عباد الله أن يكونوا عبيدا لغير لله. ولذلك يحس أنه كما حرره الله لا بد أن يحرر الآخرين. هذه كلها مشاعر أخرى تماما غير تلك التي تكون عند من يريد أن يدفع الأمر عن حدوده فقط ثم يقف. فالمسافة تبدو هائلة في قلب الإنسان أولا، وفي نتائجها الباهرة بعد ذلك حينما يحقق الله هذا الأمر..

قضية عقيدة

"هذا تصور.. وذاك تصور.. ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد.. ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه، يختلف اختلافاً بعيداً، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه."

يبهرني جدا دخول الأستاذ سيد رحمه الله إلى قضايا خطيرة جدا في لمح البصر.. فينقلك من مجرد قضية جهاد وقتال إلى أن تصبح قضية عقيدة.. هكذا يدخل بك بسرعة جدا.. فأنت تقرأ في قضية جهاد وقتال، لكن حينما يعبِّر أن الأمر يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه.. يتعجب المرء كيف أنه لم يخطر على باله هذا المعنى.. لأنه حينما ترضى أنت أن تقف عند حدودك الأرضية.. أنت في هذا قد خرجت فعلا عن مهمتك الإسلامية، وعن تكليف الله لك كمسلم بأن تقوم لكي يكون الدين كله لله. وهذا أمر مهم جدا أن يُفهم، وهذا من توفيقات الله للأستاذ سيد في أنه يجرك بطريقة عجيبة إلى قضايا ضخمة جدا تتصور أنها ليست بهذه الخطورة.. ولكنه فجأة ينزع عن عينيك الغشاوة لترى الحقيقة جديدة تماما، وترتبط في حسك هذا الارتباط الحي المتوهج العميق.

"إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً. فالإسلام ليس نحلة قوم، ولا نظام وطن، ولكنه منهج إله، ونظام عالم.. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار. وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار."

فيتقرر بهذا الحق بوضوح؛ أن هذا هو الإسلام، وهذا هو واجب المسلم، وأنه لا ينبغي أن يجمجم ولا يتلعثم ولا يخجل من هذا التقرير، وأن يعرف أنه بهذا لم يصادر حرية الآخرين كما يقولون، لأن الآخرين ليسوا أحرارا، -كما يظنون- وإنما هم عبيد لله سواء أرادوا أم لم يريدوا.. ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فمن أين جاءت الحرية للإنسان حتى يرفض أن يكون عبدا لله؟ هو عبد لله أراد أم لم يرد، لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي صوره، وهو الذي يميته، وهو الذي يحييه.. فمن أين جاءت لهم هذه النعرة وهذه العصبية وهذه النزغة الشيطانية حتى يظنوا أنهم ليسوا عبيدا لله؟ هم عبيد رضوا أم لم يرضوا.. ولذلك حينما ندعوهم إلى منهج الله فنحن لم نصادر حريتهم، بل العكس، نحن نستجيب لحقيقة موقعهم الطبيعي الذي خلقوا من أجله.. فحينما

يخاطبنا ويناقشنا الآخرون ويدَّعُون أن هذه مصادرة للآخر نقول لهم: لا.. هذا إرجاع لهم إلى موقعهم الطبيعي الذي تمردوا عليه، والذي خرجوا يريدون التحرر منه.. ونحن نريد أن نحفظهم من هلاك أنفسهم ومن تدمير أنفسهم.. فالحقيقة هي أننا نحافظ عليهم ولا نصادرهم، ونطالبهم أن يقفوا معنا نفس الموقف.. كلنا عبيد، وكلنا خاضعون لإله واحد.. فنحن لا نصادر حرية الآخرين، ولكن الجاهلية تحاول دائما أن تستفز الدعاة بمثل هذه المقولات التي تغيب عن بعض السذج الذين ينبهرون بتلك الشعارات المزينة، بينما هي شعارات فارغة جدا لا تعني شيئا. والمسلم الحقيقي يسخر منها، ويستطيع أن يردها بسهولة، ويستطيع أن يجعل الجاهلية تخجل من مكابرتها ومغالطتها ونفاقها. وما حالنا وحال أولئك الذين نريد أن نعيدهم إلى رشدهم وإلي موقعهم الحقيقي.. موقع العبودية لله إلا كحال من يمنع الذي يريد الانتحار مما أقدم عليه فإذا به يدفع منقذه ويسبه.

"من حق الإسلام أن يُخرج "الناس" من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين، وتحرير الناس أجمعين.. وعبادة الله وحده لا تتحقق -في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي- إلا في ظل النظام الإسلامي. فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم، حاكمهم ومحكومهم، أسودهم وأبيضهم، قاصيهم ودانيهم، فقيرهم وغنيهم، تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء.. أما في سائر الأنظمة، فيعبد الناس العباد، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد. وهو من خصائص الألوهية، فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه، فقد ادّعى الألوهية اختصاصاً وعملاً، سواء ادَّعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء. وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية، سواء سماها باسمها أم لم يسمها!"

وهذا تلخيص جيد للحقيقة، بحيث يصبح المسلم بعد ذلك مندفعاً اندفاعا ذاتيا لكي يحقق ألوهية الله في الأرض، وبحيث يجفل ويخاف ويرتجف من أن يتلبس ولو للحظة واحدة أن يكون عبدا لبشر مثله.. يعبده حينما يقبل منه ولو تشريعا واحدا.

وحينما تتقرر القضية بهذا الجلاء وبهذا الوضوح يصبح الجهاد الإسلامي إفرازا طبيعيا وحقا طبيعيا وواجبا طبيعيا على الإنسان المسلم أن يفعله بلا تحرج وبلا خجل ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].. فالمسلم لا يجد حرجا من كتاب ربه ولا من كلمات ربه، وإنما ينطلق وهو مطمئن تماما لهذا.

الإسلام عقيدة ومنهج لا بد أن ينظم الحياة

"والإسلام ليس مجرد عقيدة، حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان. إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس، والتجمعات الأخرى لا تمكِّنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو، ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام. وهذا -كما قلنا من قبل- معنى أن يكون الدين كله لله، فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته. كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد!"

هناك بعض المفكرين يقولون إن الجهاد كان مطلوبا في الماضي لأن الدعوة لم تكن تصل للناس.. أما في وقت أصبحت الدنيا فيه قرية واحدة، وتحققت ثورة الاتصالات والإنترنت، وأصبحت الحقيقة تصل إلى أطراف الناس في كل مكان في الأرض، بل يمكن أن تصل للكواكب الأخرى، فلم يعد هناك إذن داع للجهاد، لأن الدعوة وصلت، والجهاد كان مطلوبا منه أن يبلغ الدعوة!

هذا تصور قاصر جدا.. فالدعوة ليست بلاغا فقط ودين الله لن يقوم في الواقع ولو استعملنا مليون انترنت لنبلغ الحقيقة، ومهما بلغت الحقيقة للناس جميعا.. وحتى لو اقتنع الناس بالإسلام ولكن ظل الطواغيت يحكمونهم ويعصفون بهم فإنهم لن يدخلوا في دين الله بمعناه الحق أي في شرع الله وحكمه فالدين هو النظام والشرع كما قال الله سبحانه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في شرعه ونظامه فلا بد إذن من إزالة الطواغيت لكي نقيم حكم الله. فهؤلاء المنهزمون من المفكرين ينسون هذه الحقيقة في لحظة من اللحظات.

ومرة أخرى يقول الأستاذ سيد رحمه الله ولكن بإضافة مهمة.. **"إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة، لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون -المهزومون- عن سمعة الإسلام، بنفي هذا الاتهام، فيلجؤون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في "تحرير الإنسان" ابتداءً."**

وهذا -ولا شك- منظر ساخر جدا.. الخبثاء من المستشرقين ومن الجاهلية يعرفون الفعل ورد الفعل، فيقولون إن الإسلام انتشر بالسيف وأكره الناس على العقيدة، وهم يعرفون أنها ليست حقيقة، ولكنهم يقيسون بدقة رد الفعل المتوقع من هؤلاء المهزومين الذين يعرفون أنهم مهزومون، فيحدث ما يتوقعونه؛ أن يتحرك هؤلاء المهزومون ليردوا ويقولوا: لا.. ما هو إلا دفاع عن النفس، وما كان الإسلام أبدا ليهاجم بلا سبب.. إلى آخر هذا الدفاع المهزوم، فيسخرون منهم، ويضحكون عليهم وهم يفعلون ذلك. وهذا ما يفعله دائما أعداء الإسلام.

ولا شك أن المسلم الذي يغفل عن حقائق دينه يجعل نفسه سخرية لأعدائه، لأن الأعداء يعرفون، ويسخرون منه. ويفعلون به ما يشاءون؛ فيلعبون به، والمسلم ليس كذلك.

ويقول أيضا إن الباحثين العصريين المهزومين أخذوا من الغزو الفكري، وأخذوا من الفكر الغربي الضال فكرة إن الدين مجرد عقيدة في الضمير لا شأن له بالأنظمة ولا بالحياة.. وهذا التصور الباطل للدين هو الذي يتمشى مع انحراف أوروبا بعد الكنيسة.. حيث صار الدين عندهم أمراً بين الإنسان وربه، ونحلة ومشاعر يصورها ويصبغها كل فرد بالصبغة التي يريدها.. أما الواقع فلا شأن له بالدين. فنقل هؤلاء الببغاوات هذه المقولات من الغرب، ثم جاءوا بعد ذلك ليحاكموا الإسلام إليها! ومن ثم يصبح الجهاد لا مكان له على الإطلاق.. فلماذا يجاهد وخاصة إذا كانت الفكرة كما يقول بعضهم قد وصلت إلى كل الناس، فماذا تريد بعد ذلك؟ فالناس يأخذون هذا الإسلام ويعيشون به، ولا داعي للاصطدام بالأنظمة ولا بالطواغيت، لأن كل واحد يستطيع أن يكون مسلما في أي مكان؛ لا أحد يمنعك من أن تصلي ولا أن تزكي ولا أن تتمتم بتسابيح.. فلماذا الجهاد إذن؟ لأن الإسلام في تصورهم عقيدة في الضمير، لا مكان له في إدارة الحياة.

"ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام، فالإسلام منهج الله للحياة البشرية، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية!.." فالإسلام يتدخل في كيف تأكل، كيف تشرب، إذا رأيت وجهك في المرآة ماذا تقول، إذا لبست ثوبك ماذا تقول، إذا خلعته ماذا تقول، إذا دخلت إلى دورة المياه ماذا تقول، إذا خرجت كذلك.. هكذا يتدخل الإسلام في كل حركة وسكون في حياتك، وكل نفس من حياتك.. فكيف يقال إن الإسلام شيء في الضمير؟! كيف يقوم

هذا الإسلام حينما لا تُزال العقبات التي يصنعها الطواغيت ويطمسون بها حقيقة الدين، بل يمنعون الناس من أن يعيشوا بهذا الدين؛ سواء عن طريق الإغراء والاستهواء، أو عن طريق الترهيب والإيذاء.

"فالإسلام منهج الله للحياة البشرية، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمر موكول إلى حرية الاقتناع، في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات.. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتَسَلُّم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان، فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ، مسألة مقتضيات الحركة لا مسألة عقيدة.. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة، في المراحل التاريخية المتجددة، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل."

هذا كلام يستحق أن يكتب بماء الذهب، فالله سبحانه يمنح ذلك الفضل للإنسان حينما يحس أن الله هو الذي يبارك له ويباركه ويعتمده لكي يضيء الأرض بنور الله، ولكي يحرر العبيد من عبادة العبيد إلى عبادة الله، فينطلق وهو فرح مسرور معتز شامخ قوي، لا تخيفه العقبات، ولا تخجله المقولات، ولا ينخدع بالزيف، ولا يطأطئ رأسه مهزوما، وإنما هو الأعلى كما قال له القرآن ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فربط -سبحانه- الإيمان بالإحساس بالعزة والاستعلاء بالدين حتى وهم عائدون في أعقاب غزوة أحد مثخنين بالجراح، فقال لهم ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

فلا بد أن نتيقن أنه في أي وقت يوجد فيه هذا التجمع الإسلامي الذي يتمثل فيه منهج الله، فإن الله عز وجل يمنح هذا المجتمع حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان.

فكف الأيدي كان أمراً مؤقتا، وكان مسألة خطة مرحلية، وليس خطة دائمة.

ولذا فنحن بحاجة إلى أن نفهم ما الذي تعنيه المرحلية وهذا ما سنوضحه الآن بعونه سبحانه.

المرحلية في الإسلام

استعرضنا فيما مضى موضوع الجهاد، وركزنا كثيراً على مفهوم الجهاد ومعناه، وطبيعة المنهج الحركي في الإسلام وخصائصه. كما تحدثنا عن بعض الشبهات التي تقام أمام هذا المفهوم الواضح، وبينا طبيعة الجهاد الإسلامي، ونظرة الإسلام لهذه الفريضة أو لهذا المفهوم الكلي الجامع لكل أنواع الجهود التي تبذل لإعلاء كلمة الله، وإقرار ألوهية الله في الأرض، وإحلال شريعة الله مكان كل شرائع الطاغوت.

وأريد الآن أن أقرر حقيقة ينبغي أن نعيها نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله؛ إن الذي يستعرض الدين الذي جاء من عند الله، منذ أن جاء أول نبي إلى آخر نبي، وإلى وقتنا الحاضر، يدرك أن حقائق الإسلام وأصوله لا تحتاج إلى دليل خارج عنها.. بدءاً بقضية الألوهية وأحقية الله بالعبادة، وأحقيته بالسلطان، ومن ثم تفرده بالتشريع والحاكمية، مروراً بقضية الجهاد التي

ينبني على قاعدة أن الأرض كلها لله ولا بد أن تخضع لله، وأن هذا الخضوع لا يمكن أن يأتي إلا بالجهاد، فيصبح أمر الجهاد أيضاً لإقرار ألوهية الله في الأرض بديهية واضحة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فتصبح قضية الجهاد وإقامة دين الله، بكل أسباب المجاهدة؛ من قول أو فعل، ومن سلاح وتخطيط، وأي شيء آخر، يصبح أيضاً قضية لا تحتاج إلى دليل من خارجها.

وإذا كنا نريد أن نحقق أمر الله في الأرض، وهناك من يرفضون هذا الأمر، ويقفون أمامه بقوة، وبكل أسباب المعارضة من فكر وتخطيط وصد وحرب ومقاتلة.. فإنه لا بد لفئة المؤمنين أن يواجهوا أعداءهم هؤلاء بكل هذه الأساليب، وبأقوى منها أيضاً إذا استطاعوا، ويصبح -بذلك- أمر الجهاد قضية بديهية، مبنية على بديهية أخرى، وتصبح قضية الجماعة بديهية كذلك، لأن الإنسان الفرد، أو الأفراد المفككين المتناثرين الذين لا تربطهم رابطة، ولا ينظم شأنهم منظم، ولا يتلمسون أسباب القوة من خلال اجتماعهم، لا يستطيعون أن يقيموا أمر الله، ولا أن يجاهدوا، فيصبح أمر التجمع، وأمر الجماعة مطلبا بديهيا لا يحتاج إلى أدلة من خارجه.

وليس هذا مخصوصاً بالإسلام، فأي صاحب فكرة يريد أن يقيمها في الأرض -سواء كانت حقاً أو باطلاً- لا بد أن يجاهد، ولا بد أن يقاتل أعداء هذه الفكرة، ولا بد أن يتغلب عليهم بالقوة وبالفكر والتخطيط و"التكتيك"، وبكل ما أوتي من قوة، ولا بد لأصحاب هذه الفكرة أن يكوّنوا جماعة متعاونة متكاتفة لكي تواجه الجماعة المقابلة التي تعارض هذه الفكرة، لأن هذا الأمر بديهي من مقررات الحياة الإنسانية، وليس فقط من مقررات الإسلام.

إنما الفارق هنا هو أن الإسلام يعطي هذا الأمر صفة شرعية، لأنه ليس كل تجمع مشروع، وليس كل جهاد مشروع، وليس كل فكرة أو هدف مشروع. فيصبح الجهاد الإسلامي، والجماعة المسلمة، والهدف إلى عبادة الله وإقامة دينه أمر مشروع، يستحق صاحبه عليه الثواب من الله، والنجاة من عذاب الله، ويستحق صاحبه المعية من الله سبحانه وتعالى.

أما الأفكار الأخرى الباطلة التي تعبّد الناس للطاغوت، والتي تنصب آلهة باطلة، والتي تجاهد في سبيل إعلاء كلمة هذه الآلهة الباطلة أو أنظمتها أو أفكارها أو أحكامها، أو الجماعة التي تتساند لكي تؤيد هذه الأفكار الباطلة أو الآلهة الباطلة.. هؤلاء بمعبوداتهم وبآلهتهم وبجهادهم وبتجمعهم وبحركتهم وبأخلاقهم. إنما يمثلون الباطل المقابل للحق الذي جاء من عند الله.

فالشرعية يكتسبها أولياء الله، لأنهم يقومون من أجل الله الذي يستحق العبادة، ويستحق الجهاد في سبيله، ويستحق أن يتجمع الناس حول ألوهيته، ويستحق أن يعبّد الناس بأحكامه وبشرائعه. أما الآلهة الأخرى فهي باطلة. ومن ثم يكون كل ما يتصل بها ويقوم على أساسها باطلا كذلك.

فمن ناحية الخطوات الإجرائية، أو الأساليب التخطيطية والتكتيكية فهي متشابهة بين الذين يريدون أن يحقوا الحق ويقيموه في الأرض، أو الذين يريدون أن يحقوا الباطل ويقيموه في الأرض. غير أن هؤلاء أولياء الرحمن، لهم شرعية الوجود، ولهم شرعية الثواب.. وأولئك أولياء الشيطان لا شرعية لباطلهم ولا شرعية لوجودهم.. ولا نصيب لهم في معية الله ولا ثوابه.

هذا هو الفرق.. وهو فرق ضخم جداً. أما الأساليب البشرية فهي أساليب واحدة؛ فمن يريد أن يقيم الباطل لا بد أن يحتاج هذا الباطل منه إلى جهد، ويحتاج إلى تخطيط، ويحتاج إلى مال، ويحتاج إلى رجال، ويحتاج إلى سلاح، ويحتاج إلى تضحيات، ويحتاج إلى من يضحي في سبيله ويقتل في سبيله، ويحتاج إلى تجمع يؤازره ويقويه.

والحق أيضاً يريد ذلك. فالفرق فقط في الغاية وفي الهدف، وفي نتائج هذا الحق ونتائج هذا الباطل، في الدنيا أو في الآخرة.

فهذه الحقائق لا بد أن تكون واضحة لنا ومستيقنة أيضا، والإنسان كلما تمعن في حقائق الأرض، وحقائق الوجود، وفي حقائق هذا الدين يكتشف أن هذه الحقائق لا تحتاج إلى كل هذا الجدل، ولا إلى كل هذا التعقيد، ولا إلى كل هذه الأدلة والاستدلالات. فهي قضايا بديهية.. إذا خاطبت عقلاً سليماً، يفكر بطريقة سليمة فإنه لا بد أن يسلم بها بلا دليل خارجي عنها. ولكن لأن الإنسان كان أكثر شيء جدلا، عنده استعداد للمغالطة، وعنده استعداد للجهل، وعنده استعداد لمبارزة الحقائق بأهوائه وبمزاجه، احتاج الأمر أن تقام الحجة على الناس بالبيان وبالدليل، ليس لأن الحق يحتاج إلى دليل، ولكن لكي تقام الحجة على الناس، ولكي يعان الذين يقعون تحت سلطان المبطلين وحججهم وآرائهم وإغوائهم وإرهابهم، فيحتاجون إلى البيان الشافي الذي يضيء بصائرهم بعد أن أعمى الكافرون والطواغيت أبصارهم وغشوا عليها، وألهوهم بزخارف القول، وبزخارف الشهوات.. فلم يعودوا يبصرون الحق أو يدركون البديهيات.. كالأعمى الذي لا يرى الشمس في ضوء النهار، فاحتاج أصحاب الحق أن يدعوا الناس ويبلغوهم.. وشاء الله برحمته وبفضله وكرمه أن يرسل الرسل وينزل الكتب، ويلهم المصلحين والدعاة أن يقوموا بأمر الدعوة إلى الله والبلاغ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل بعد إقامة الحجة وبيانها.. وليس ذلك لأن القضية معقدة، وليس ذلك لأن القضية ليست بديهية.. فالذي يحترم عقله، والذي يفكر بطريقة طبيعية وسهلة وفطرية لا بد أن يدرك الحق دون دليل خارج عن هذا الحق، لأنها بديهيات تلح على الإنسان وتفرض نفسها عليه إن كان مستعداً لقبول الحق وغير رافض له.

أما الذين يضعون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، ويردون أيديهم في أفواههم، فليس الذي ينقصهم هو الحجة. ولكن هؤلاء لا يريدون هذا الحق ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].. ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [النمل: ١٣].. فالآيات مبصرة، والقضايا ناطقة بالحق، ولكن الناس يبتعدون بأهوائهم وبشياطينهم عن الحق.

أما ما نريد أن نتحدث عنه الآن فهو قضية نسميها نحن "المرحلية". وقد جاء في صفات خصائص المنهج الحركي لإقامة الإسلام أنه؛ فوق أنه منهج جاد، فهو أيضاً ذو مراحل.

وتسمية هذه القضية "بالمرحلية" لعلها تسمية جديدة، ومصطلح جديد. قد غفل عنه كثير من الناس؛ سواء كانوا علماء، أو كانوا دعاة في هذا العصر الذي نعيش فيه.

وقضية المرحلية رغم بساطتها وبداهتها إلا أن الذين لم يلحظوها، لم يكن ذلك نتيجة جهلهم بالفقه الإسلامي وبطريقة تطبيق شرع الله عز وجل، وإنما غفلوا عنها بسبب جهلهم بالواقع وتشخيصهم الخاطئ لهذا الواقع، أو بسبب أنهم وقعوا في ظن أنهم مطالبون بكافة الأحكام النهائية مادام الإسلام قد اكتمل ووصل إلى صورته النهائية، فلم يعد لأحد أن يرجع خطوة إلى الوراء، ولا بد أن يبدأ خطوته لإقامة الإسلام من نقطة النهاية التي وصل إليها الإسلام أول مرة، باعتبار أن الإسلام قد تمت حجته وتمت أحكامه وتمت شرائعه، فيأخذون النصوص النهائية مع إغفال الواقع الذي يطبقون فيه هذه النصوص.

فهذه هي الأسباب التي جعلت كثيرا من العلماء وكثيرا من المفكرين وأصحاب الدعوة إلى الله لا يلتفتون إلى قضية المرحلية. وهي قضية جوهرية جداً، لأنها هي روح المنهج الإسلامي؛ سواء بعد إقامته وتمامه، أو حين ولادته ونموه المتطور. وهي قضية -في ذاتها- لا بد أن

تكون في وعي الذي يتفقه في دين الله، والذي يحتاج إلى استخراج الأحكام من الأدلة الأساسية.. فلا بد -لمثل هذا- أن يكون مدركاً لمعنى المرحلية، ولمفهوم المرحلية.

وهي أشد أهمية وأشد حاجة عند الذين يتعرضون لإقامة الإسلام مرة أخرى في واقع قد نحى الإسلام عنه، وأصبح واقعاً جاهلياً مرة أخرى. هؤلاء أحوج ما يكونون إلى إدراك معنى المرحلية، وإلى إدراك شرعية المرحلية، وإلى إدراك مجالات المرحلية، وكيفية التعامل مع هذه القضية المهمة.. لأنها قضية أساسية في رسم منهج الحركة، ومنهج التعامل مع الجاهلية، ومنهج بناء الجماعة، ومنهج العلاقات مع المعسكرات الأخرى وكيفية التعامل معها، ومع التكاليف الربانية أيضاً. فهي قضية من أخطر القضايا التي ينبغي أن يتسلح بها الذين يعرضون أو يتعرضون لدعوة الناس إلى الإسلام.

وسواء كانت الجماعة التي تريد أن تدعو للإسلام وتريد أن تصحح حياة الناس؛ سواء كانت جماعة إصلاح تريد أن تصلح ما وقع في المجتمع المسلم رغم قيامه ووجوده، أو كانت جماعة تجديد تريد أن تجدد الإسلام مرة أخرى رغم وجود جذوره الأساسية، مع اختفاء معظم حقائقه عن الحياة، أو كانت جماعة بعث تريد أن تبعث الإسلام مرة أخرى بعد أن اختفى تماماً من الواقع.. أيٌ من هذه الجماعات، أو أيٌ من هذه الحركات يحتاج إلى فهم قضية المرحلية. وحتى الفقيه في الدولة المسلمة في أعظم أوقاتها يحتاج إلى فهم المرحلية، لأن المرحلية ستحل له المشكلات التي يواجه فيها أوضاعاً غير طبيعية أو مواقف غير طبيعية، فلا بد أن يدرك روح المرحلية لكي يتعامل مع النصوص التشريعية.

وسوف نجد أن سلفنا الصالح من العلماء والفقهاء قد أدركوا هذه الفكرة تماماً، وعبروا عنها تعبيراً دقيقاً، وإن لم يستعملوا مصطلح المرحلية، ولكنهم استعملوا مصطلحات أخرى مثل؛ مصطلح الضرورة، أو مصطلح المصلحة وضوابطها، أو بعض المصطلحات الأخرى التي سوف نتعرض لها حينما نتكلم عن رؤية السلف وفقهاء السلف لقضية المرحلية. فهي ليست قضية جديدة في ذاتها، ولكنها كشف جديد للذين لم يكونوا على علم بها. لكن القضية قد تناولها السلف وتعاملوا بها، وأفتوا على أساسها.. وكانوا على علم واع ودقيق بقضاياها وروحها وضوابطها أيضاً.

فكما قلت نحن لا نتكلم عن قضايا جديدة كل الجدة، ولم نخترع قضايا لم تكن موجودة من قبل.. وإنما نحن -في محاولة إعادة بعث الإسلام من جديد- نحاول أن نفتش عن كل شيء يتصل بهذا الإسلام، ويتصل بمنهج العمل والبناء والحركة وإقامة هذا الدين.. فنكتشف أن كل ما نريده موجود -والحمد لله- في فكر السلف الصالح؛ سواء كانوا صحابة، أو تابعين، أو تابعي التابعين، أو من العلماء الذين كان لهم باع كبير في الفقه الإسلامي في أوقات مختلفة وفي عصور مختلفة.

المرحلية الذي نقصدها عبر عنها الأستاذ سيد رحمه الله بقوله: **"السمة الثانية في منهج هذا الدين: هي الواقعية الحركية.. فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة.."** هذا هو المقصود بأنه منهج ذو مراحل؛ أنه وهو ينطلق من السفح إلى القمة، أو من نقطة البداية إلى نقطة النهاية يمر بمراحل متعددة، وكل مرحلة لها مقتضياتها الخاصة، ولها أحكامها التي تتفق معها، وتستجيب لحاجات هذه المرحلة.. ولذلك لا بد من أن يكون للجماعة المسلمة فقهها الحركي الذي

يمشي متواكباً مع طبيعة المرحلة وأهدافها وحاجاتها، وأيضاً مع عقبات المرحلة، وكل ما تستلزمه هذه المرحلة من إدراك وفقه، لكي تستخرج من شريعة الله الأحكام التي تتفق مع هذه المرحلة، وتستجيب له.

هذا هو المقصود بقضية المرحلية التي نحن بصددها.

أهمية تشخيص الواقع في قضية المرحلية

إن الذين يعملون للإسلام اليوم يفترضون أن الواقع الموجود هو واقع مسلم، وأن مهمتهم إصلاحية بحتة، وبالتالي هم ملزمون، بأن ينادوا إلى تحقيق الإسلام بصورته التي انتهى إليها، ولا يحتاجون إلى فقه جديد، لأن الإسلام قائم والمسلمين يملؤون الأرض والدار بمن فيها دار مسلمة.. فهم لا يفهمون المرحلية ولم يلحظوها على الإطلاق، ويضطرون إلى الخروج عن المنهج الصحيح نتيجة جهلهم هذا بالواقع، أو نتيجة إعطاء الواقع ابتداء صفة الإسلام، وبالتالي لا يبدؤون مع الناس من نقطة البدء الصحيحة، ثم يتدرجون بهم التدرج الطبيعي، ولكن يخاطبونهم على أنهم مسلمون.. في الوقت الذي الناس فيه في واد وهم في واد آخر.. وهؤلاء منهم من يضطرون -كما رأينا من خلال الواقع- إلى تغيير مناهجهم في كل فترة لكي يبحثوا عن وسائل للوصول إلى الهدف الذي لا يصلون إليه أبداً، حتى ولو كانت هذه الوسائل مناقضة لروح الإسلام ولجوهر الإسلام ولجوهر العقيدة التي يدعون إليها، أو لجوهر الشهادة التي يريدون أن يقيموها في الواقع.. وهذا يتبين من خلال علاقتهم بالحكومات، وتفاوضهم مع الطواغيت، ومجاملتهم لحكومات الجاهلية، أو دخول المجالس التشريعية، أو قبول كثير جداً من عادات وتقاليد الجاهلية.. كل هذا على حساب جوهر الإسلام وجوهر العقيدة وجوهر الشريعة، وعلى حساب الشهادة التي ينبغي أن يقوموا بها.

ومنهم من يأخذون بأسلوب المواجهة النهائية التي أمر الله عز وجل بها رسوله ﷺ في المراحل الأخيرة؛ وهي جهاد وقتال كل من في الأرض بكل الوسائل. فهؤلاء أيضا قد حمَّلوا أنفسهم ما لا يطيقون واصطدموا مبكراً بالسلطة المعادية في وقت لم يستعدوا لها. وفي نفس الوقت -وهو الأهم- أنهم غبَّشوا على الناس القضية الأصلية بإشغالهم الناس بقضايا الجهاد والقتال والاغتيالات وغيرها.. مما جعل الناس يرون من الإسلام ذلك الوجه الذي يبدو -في غير وقته- كالحاً وصاداً عن سبيل الله. ويستغل الأعداء هذا الخطأ ليشوهوا به صورة الإسلام، وينفروا الناس عن الإسلام مستغلين ذلك الخطأ الكبير. وبهذا يصبح هؤلاء قد صدوا عن سبيل الله، دون أن يعوا أنهم يفعلون ذلك، وذلك في الوقت الذي يريدون فيه أن يرضوا الله عز وجل.

ولا شك أن الفئة الأولى أيضاً تصد الناس عن سبيل الله بأن يجعلوا الإسلام مرناً إلى درجة التميع، ومستعدا أن يقبل أي وضع مهما كان منافياً للإسلام مادام الذين يقومون به يزعمون أنهم مسلمون. هؤلاء وهؤلاء لا شك يصدون عن سبيل الله، ويضعون عقبات كبيرة جداً أمام أهل الحق الذين يعرفون الحق ويلتزمون منهجه.

أما الذين يختارون الطريق الصحيح فهم الذين يشخصون الواقع تشخيصاً صحيحاً، على أساس فهمهم الصحيح لمعنى لا إله إلا الله. فحينما يفهمون معنى لا إله إلا الله تماماً يدركون أن الواقع البشري الآن في كل مكان لا يدين بالإسلام، أياً كان نوع المجتمعات وألوانها؛ سواء كانت شيوعية أو كانت رأسمالية، أو كانت مجتمعات وثنية، أو كانت حتى مجتمعات ترفع ادعاء الإسلام لكنهم في الواقع لا يحكّمون الله عز وجل في أي أمر من أمور حياتهم، ويتبعون الطاغوت، ويحاربون أولياء الله، ويصدون عن سبيل الله، ويستهزئون بدين الله

وبأحكام الله.. فكل الأرض الآن ارتدت إلى الجاهلية التي كانت، أو التي يرتد إليها الناس كلما بعدوا أو كلما انحرفوا، وكلما تركوا شريعة الله.

فأهل الحق يرون الواقع بهذا الشكل الواضح؛ فالناس جميعهم إلا من كفر بالطاغوت وشهد ألا إله إلا الله بمعناها الحق ليسوا على الإسلام لا فرق في ذلك بين حاكم ولا محكوم ولا مثقف أو أمي، وبذلك أدركوا أنهم يقفون في نفس النقطة التي يقف عندها الأنبياء حينما يأتون إلى قومهم يدعونهم إلى لا إله إلا الله ليخرجوهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر للإيمان، ومن عبادة الطاغوت إلى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى. فالذين يقفون هذا الموقف يعرفون أنهم -بطبيعة الحال- لا بد أن يبدؤوا من نفس البداية التي بدأها الأنبياء.

معنى المرحلية

ولا شك أن التجربة المتكاملة والتي بقيت محفوظة لتكون دليلاً للناس أمامهم ليوم القيامة هي التجربة الأخيرة التي قام بها رسول الله ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء، فأمضى الله على يديه حقيقة هذا الدين متكاملة؛ تصوراً ومنهجاً وحركةً وسلوكاً وأخلاقاً.. فأصبحت هذه هي التجربة الرائعة الوحيدة التي ينبغي على المسلمين أن يحذوا حذوها، وأن يرتبطوا بها ارتباطاً كاملاً، ويخطوا خطواتها التي خطتها. فكما أن الرسول ﷺ بدأ من نقطة الصفر حتى وصل إلى نقطة النهاية، فكذلك أي حركة تقوم الآن لا بد أن تبدأ نفس البداية لتصل إلى نفس النهاية إذا شاء الله، مارة بكل المراحل التي مر عليها رسول الله ﷺ، وهم لذلك أحوج الناس إلى أن يدركوا مفهوم المرحلية كما طبقه رسول الله ﷺ منذ أن بدأ يدعو الناس سراً في مكة إلى أن فتح مكة وتحقق النصر الإسلامي في النهاية، وبعد أن مد الله عز وجل الإسلام إلى أقاصي المعمورة التي كانت موجودة في وقتها.

فالمرحلية هنا تعني؛ كيف نتعرف على مراحل الإسلام وحركة الإسلام، وكيف طبقها رسول الله ﷺ. وكما رأينا في النص الطويل الذي جاء به الأستاذ سيد في أول فصل الجهاد كيف يتحدث ابن القيم رحمه الله عن بداية حركة رسول الله ﷺ الجهادية.. فكانت بدايته بأن نبأه الله عز وجل بـ "اقرأ"، وأرسله بـ "المدثر"، ثم دعا الناس سراً، ثم أعلن ذلك بقول الله ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] بعد أن أنذر عشيرته الأقربين قبل ذلك، ثم إعلان هذه الدعوة بمراحلها المختلفة في مكة في حالة الاستضعاف، وقول الله وأمره للمسلمين بأن يكفوا أيديهم، ثم بعد ذلك حدثت الهجرة التي بدأت معها الخطوات الإيجابية أو الخطوات العملية في أمر القتال، فأذن للمسلمين بالقتال، ثم أذن لهم بأن يقاتلوا من قاتلهم، ثم بعد ذلك أمروا أن يقاتلوا كل أهل الأرض ليكون الدين كله لله.

فهذا النص أعطى صورة للمرحلية في باب الجهاد.

ولكن المرحلية ليست فقط وقفاً على باب الجهاد.. فهي تتناول حياة المسلمين كلها. وكما سنوضح فيما يلي من الحديث؛ كيف أنها تناولت كثيرا من الفروض والواجبات أو المنهيات في الإسلام.. وسنوضح كيف سارت كل هذه الأمور على منهج المرحلية الذي لا بد وأن يدركه وأن يفقهه الذين يريدون أن يبعثوا الإسلام من جديد.

فهذه هي الفكرة العامة لقضية المرحلية.

وننتقل بعدها إن شاء الله لنتحدث عن هذه المرحلية بعرضها وأدلتها المستقاة من حركة رسول الله ﷺ، ومن خلال فقه الإسلام وفِقه السلف الصالح من المسلمين.

تطبيق المرحلية لا يعني التنازل

حينما نتحدث عن المرحلية نريد أن نلفت النظر إلى نقطة شديدة الأهمية، وهي أننا حينما نضطر، أو تضطر الجماعة المسلمة أو الفرد المسلم، في طريق البناء العظيم لإقامة الإسلام ومن خلال خطواته وتداعيات هذه الخطوات، وفي طريقه إلى القمة -كما سنقول- حينما نضطر إلى أن نتعامل مع أحكام المرحلية يجب أن ندرك أنها هي في حقيقتها الحكم الشرعي الصحيح لهذه المرحلة، فكل حكم تقتضيه المرحلة أو كل فقه تقتضيه المرحلة هو -في الحقيقة- الفقه المشروع والمطلوب لهذه المرحلة، وهو بهذه المثابة يكون هو الذي يحقق عبودية الجماعة وعبودية الفرد لله في هذه المرحلة من خلال الالتزام بهذا الحكم المرحلي الذي اهتدى إليه الفرد المسلم، أو اهتدت إليه الجماعة المسلمة عن طريق كل أسباب الاجتهاد.

والذي أريد أن أنبه عليه هو أن إحساس المسلم وهو يطبق هذا الحكم المرحلي لا بد أن يكون إحساساً واعياً أنه يحقق العبادة لله، وأن هذا الحكم المرحلي -وإن كان دون الحكم النهائي؛ سواء في الدرجة، أو في النوع، أو حتى في الشكل- لا يعني نوعا من التنازل، أو نوعا من التفريط، أو نوعا من التساهل، أو نوعا من المخالفة.. وإنما يجب أن يكون إحساس المسلم وهو يفعل ذلك أن هذا هو المطلوب الآن في هذه اللحظة، وأن هذا هو الحكم الشرعي الذي يعبد به الله سبحانه وتعالى، ومن ثم يكون قد أخذ بالإحسان في هذه المرحلة، بصرف النظر عن شكل الحكم أو درجته أو نوعه، لأنه هو الحكم الذي يتناسب مع المرحلة، والذي تقتضيه المرحلة. والإنسان في هذه اللحظة يكون في نفس موقف الصحابة حينما كانوا في نفس هذه المرحلة، ولم يكن قد تنزلت عليهم الأحكام التي تلت هذه المرحلة. فحينما كانوا في هذه المرحلة كان هذا هو سقف الأحكام الشرعية بالنسبة لهم، وكانوا يحسون أنهم استجابوا استجابة كاملة لما يريده الله منهم بطبيعة أن هذا هو الحكم الذي أنزله الله عليهم في هذه المرحلة.

وحينما تقف الجماعة المسلمة المعاصرة، أو الفرد المسلم المعاصر، ويرجع إلى هذه المرحلة بطبيعة التطور الطبيعي للجماعة المسلمة في مراحلها المختلفة لا بد أن يتخيل هذا التخيل؛ أنه في نفس المرحلة التي كان يقف فيها الصحابة، ومن ثم فإن الشعور الذي ينبغي أن يملأ نفسه هو شعور الاستجابة الكاملة لله من خلال هذا الحكم المرحلي.. لأنهم في واقعهم القديم كان هذا هو كل ما عندهم من الأحكام، وكان هذا هو آخر حكم وصل إليهم.. وقد كان الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل عليهم الأحكام بعلمه حسب حاجاتهم وحسب واقعهم وحسب المرحلة التي هم فيها، فالله سبحانه هو الذي كان يدير المعركة، وهو الذي كان ينظم حياة المسلمين التشريعية، وهو الذي كان يعلم حاجات الجماعة المسلمة في هذه المرحلة التي يمرون بها، فكان هذا الحكم الذي يمارسه الصحابة باعتبار أن هذا آخر ما أمروا به، وهذا أعلى ما أمروا به.

كذلك ينبغي للمسلم المعاصر والجماعة المعاصرة أن تجتهد كل الاجتهاد، وأن تتحرى كل التحري، بمنتهى التجرد وبمنتهى الصدق والإخلاص والعلم لكي تصل إلى الحكم المناسب للمرحلة. فإذا انتهت إلى أن هذا هو الحكم المناسب للمرحلة يكون هذا هو الحكم في حقها، وهو الحكم الذي يتعبدون به الله، وتكون هي في مقام الإحسان حينما تفعل ذلك. فلا يأتي في نفس أحد من الناس أن هناك تقصيراً أو تكاسلاً أو تساهلاً أو تفريطاً أو مخالفة.. وهذه نقطة مهمة جداً لا بد أن يستصحبها الفرد المسلم والجماعة المسلمة في صعودهم إلى القمة. وكلما صعدوا خطوات جدّت لهم حاجات، وجدت لهم نظرات، وجدت لهم أحكام تتناسب مع موقعهم الجديد. فإذا وصلوا إلى القمة سوف يجدون أنفسهم قد وصلوا إلى نقطة الأحكام النهائية بطبيعة النمو المتنامي الطبيعي، والله أعلم.

التدرج في الشريعة الإسلامية

وحينما نريد أن نتحدث عن المرحلية لا بد أن يسوقنا هذا إلى حديث عن التدرج في الشريعة الإسلامية، وأنواع هذا التدرج، ومجالاته. وسنتحدث أيضاً عن القضايا التي مارس فيها المسلمون هذا التدرج التشريعي وهذا التدرج التطبيقي، ونضرب أمثلة لكل نوع من هذه الأنواع، بحيث تبدو لنا -في نهاية الحديث- قضية التدرج أو قضية المرحلية قضية فوق بداهتها وفوق ضرورتها وفوق واقعيتها التي قد تلزم الإنسان بها حتى ولو لم يكن عنده أي فقه بالنسبة لها.. قضية تحمل بصمات الشريعة كاملة واضحة، وتحمل روح الشريعة بشكل واضح، وتحقق للجماعة المسلمة أمنها النفسي وأمنها الحركي وأمنها التشريعي، بحيث تسير على نور من الله في كل خطوة من خطواتها، وهي مطمئنة أنها تؤدي مطلب الله عز وجل منها في كل وقت وفي كل حين، هذا أمر مهم جداً أن ندركه من خلال الاستدلالات الشرعية، لكي نكون على يقين من هذه القضية التي نمارسها ليل نهار في حياتنا، طالما نحن مستضعفون في هذه الجاهلية، وطالما لم نملك السلطان بعد، ولا نستطيع أن نطبق شريعتنا بالحرية الكاملة. فنحن تحت ظل الجاهلية مضطرون إلى فقه المرحلة، وفقه المراحل، وكيف ننتقل من مرحلة إلى أخرى، وما هي مقتضيات كل مرحلة، وما هي الأدلة الشرعية على ذلك إن شاء الله تعالى.

حينما نتحدث عن المرحلية -فكما قلت- سنجد أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالتدرج في التشريع. فلا شك أنه هو المثل العملي والتاريخي الواقعي الذي نتعلم منه قضية المرحلية من خلال التتبع لحركة الجماعة المسلمة الأولى، وكيف أن كل أحكامها كانت متدرجة، وكان القرآن -كما نعلم جميعاً- ينزل منجماً ومتناسباً مع ظرف وحاجة الجماعة؛ سواء وهي في مكة، أو وهي في المدينة بعد ذلك.

ونحن متفقون على أن الفترة المكية كانت تتميز بالتركيز على العقيدة، وعلى كل ما ينبثق من العقيدة من أخلاق وسلوك. فكان التركيز كاملاً على قضية الاعتقاد. ولم يبدأ تفصيل الأحكام والتكاليف إلا بعد أن انتقلت الجماعة المسلمة من مكة إلى المدينة.

وفي مكة.. جاء في القرآن المكي إشارات لأصول التكاليف.. ولكنها كانت تأتي إما كإشارات عابرة، أو كحقائق مجملة.. ولكن التفصيلات لم تتضح إلا حينما هاجر المسلمون إلى المدينة. وقلنا إن هذا أمر طبيعي يتماشى مع نظرة الإسلام الجادة، فالتفاصيل أو القوانين المفصلة لا بد أن تقوم بها جماعة ذات سلطة على واقعها. وبما أن الجماعة المسلمة في مكة لم تكن لها سلطة ولم تكن صاحبة قوة فكان من الصعب.. بل من المستحيل أن تستطيع أن تنفذ الأحكام وتقيمها في بلدٍ السلطةُ فيه بيد الكافرين.

وثمة حكمة أخرى أيضاً -تحدثنا عنها حينما تكلمنا عن طبيعة المنهج القرآني- وهي أن الإسلام يقرر أن العقيدة هي الأصل، وأنه لا بد من أن يتعرف الناس إلى ربهم سبحانه وتعالى، وأن تتعمق في نفوسهم الخشية من الله والهيبة من الله وتوقير الله سبحانه وتعالى، والاعتزاز بالانتساب إلى الله.. فإذا تعمقت هذه الأمور في القلب البشري كان يسيراً عليه أن يستجيب لأي تكليف مهما كان.. ليس فقط كأمر مصلحي، ولكن كعبادة لله عز وجل.. فلذلك كان من الطبيعي أن يتم التركيز على العقيدة في الفترة المكية. وهو -أيضاً- أمر يتصل بمعنى التدرج، وبمعنى المرحلية، فبناء العقيدة أساس ضروري لبناء أو اكتمال البناء الإسلامي.

ولذلك لا بد أن يكون بناء العقيدة هو الخطوة الأولى في إقامة الحركة الإسلامية. وهو تدرج -أيضاً- منتظم وطبيعي أن نهتم بإقامة الأساس وتعميقه وترسيخه، ثم بعد ذلك نقيم على هذا الأساس بقية البناء. وهذا أمر غير مستغرب، نمارسه في حياتنا الواقعية؛ أن نبدأ دائماً

بالأسس قبل أن نبدأ بالفروع أو بالأشياء التي تنبني على هذه الأسس، سواء كان ذلك في البناء والعمارة، أو كان في التعليم. فلا بد أن نعطي الطالب القواعد الأساسية لأي مادة أو لأي علم قبل أن نطالبه بفرعيات هذا العلم.

وكذلك بالنسبة لإقامة الإسلام.. كان لا بد أن نؤسس ونقيم العقيدة قبل أن نبني عليها بقية البناء.. وهذا يتمشى -أيضاً- مع روح المرحلية ومع روح التدرج الذي هو أمر واضح جداً في الجماعة المسلمة الأولى التي نزل عليها الإسلام أول مرة.

ولعل هذا أيضاً يتمشى مع طبيعة الحياة. والحياة تبدأ دائماً من الضعف، ثم تصل إلى القوة. فالإنسان كائن حي. وكأي كائن حي يبدأ ضعيفاً من نقطة البذرة الأولى، ثم يتطور حتى تتكامل شخصيته ويصل إلى درجة النضج.

والأمم والشعوب والجماعات -أيضاً- أشبه ما تكون بالكائنات العضوية؛ تبدأ واهنة ضعيفة، ثم يشتد عودها مع الزمن ومع التطور، ثم تصل إلى قمة نضجها ورشدها مع الزمن. فسنة الله سبحانه وتعالى هي التدرج في الشعوب والأمم والمجتمعات، وفي الكائنات الحية والكائنات العضوية، وأيضاً في بناء الأشياء المادية.

فسنة التدرج سنة عامة، وسنة كونية. ومن ثم لم يكن مستغرباً أن تكون تلك السنة أيضا -سنة التدرج- في التكاليف وفي التشريع وفي التربية وفي العلاقات.. فتبدأ تلك الأمور من نقطة الصفر وحتى تصل إلى نقطة النهاية.

وإذا تتبعنا قضية التدرج -أو قضية المرحلية- سنجد أن هناك تدرجا في التشريع، وتدرجا في التطبيق[٤]. والتدرج في التشريع أمر متفق عليه وواضح لا يحتاج إلى دليل خارجي، لأن أحكام القرآن كلها لم تنزل إلا منجمة ومتدرجة.. وبدأت مع نبوة الرسول ﷺ.

أما التدرج في التطبيق فهو الذي يحتاج إلى بحث أو نظر..

أنواع التدرج في التشريع

التدرج التشريعي كان على أنواع متعددة:

إما التدرج بذكر الأحكام بشكل كلي دون تفصيلات.

وإما التدرج في التشريع في جملة الأحكام نفسها.

فالشريعة لم تنزل كلها مرة واحدة.. أو كما يسميه الشيخ الدكتور علي عبد الجبار -في بحثه "التدرج" المنشور في مجلة الأزهر- "التدرج الكمي"، بمعنى أن الكمية ظلت تزداد مع مرور الزمن، ومع تنزل الوحي. فقد بدأت كمية الأحكام صغيرة، ثم ظل يُضاف إليها الأحكام حتى اكتملت في النهاية.. فهذا تدرج كمي.

٤ انظر –إن شئت– بحث التدرج في التشريع مفهومه ومجالاته وأنواعه. نشر في مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي جامعة الأزهر. العدد الثاني. وبحث التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية بالمقابلة بالتدرج في التشريع. نشر في مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي. العدد ٣٩. وكلاهما للدكتور علي عبد الجبار السروري. ونحن سنعرض في حديثنا عن التدرج كل ما جاء في هذين البحثين تقريباً.

أما النوع الأول من التدرج في التشريع فيقصد به أن الحكم يأتي مجملاً دون تفصيل، مثل أن يأتي تنويه إلى الأخلاق أو النهي عن الزنا، دون أن يتحدث عن تفصيلات الزنا وحكمه وعقوباته، أو يتحدث عن الحق في المال والصدقة دون أن يتحدث عن الزكاة وأنصبتها، أو يتحدث عن أشياء كثيرة مثل الصلاة دون أن يكون هناك تفصيلات عن هذه الصلاة، أو يتحدث عن القتال دون أن يتحدث عن أنواع القتال أو مراحله أو أساليبه.. وهكذا.

فالتدرج الأول -أو النوع الأول من التدرج- هو ذكر جملة الحكم بغير تفاصيله.

أما النوع الثاني -التدرج الكمي- فالمقصود به هو تكاثف وتراكم الأحكام الشرعية كمّاً مع نزول الوحي، فكانت الأحكام في أول أمرها قليلة، ثم تزداد كمّاً مع مضي الزمن.

والنوع الثالث: هو "التدرج الكيفي"؛ وهو تدرج الحكم الواحد. فالحكم الواحد تدرج في صور مختلفة وبأشكال مختلفة، حتى وصل إلى صورته النهائية، ونحن نعرف أمثلة لهذا الأمر؛ كالخمر -مثلاً- لم تحرم مرة واحدة، وإنما حرمت على عدة مراحل، ففي أول مرة ذكر ما يشي بأن الخمر شيء غير طيب وذلك في آية سورة النحل ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل: ٦٧].. فهناك تفريق بين السَكَر وبين الرزق الحسن، فكأنّ السكر مقابل للرزق الحسن، وهذا إشعار من بعيد إلى أن الخمر ليس أمراً طيباً.

ثم كان الأمر الثاني -أو المرحلة الثانية- وكان أشد صراحة وذلك في قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩].. فهي إثم، وكبير، دون أن تكون هناك منافع كبيرة.. فالإثم هنا كبير، والمنافع ذكرت دون وصف لكمياتها أو قيمتها، وهذا يدل على أنه إثم. وكلمة إثم في طبيعتها تخيف الإنسان المسلم المؤمن، ثم إنه إثم ليس صغيراً، وإنما إثم كبير، وهذا لكي يشيع في النفوس المؤمنة في المجتمع المسلم الشعور بأن هذا الأمر ينبغي أن يفكر فيه المسلم وأن يعرف أنه سيكون فيه حكم آخر، أو إلغاء.

ثم جاء ما يشي بالوصول إلى مرحلته النهائية، ولكن قبلها بخطوة، منع المسلمين أن يصلوا وهم سكارى، ولذلك كانوا -نتيجة لتقارب أوقات الصلوات- لا يستطيعون أن يشربوا الخمر بين صلاة الظهر والعصر، أو بين العصر والمغرب، أو بين المغرب والعشاء. فهذه الفترات كانت فترات متقاربة جداً، فاضطروا أن يتوقفوا عن الشرب في هذه الفترات. بينما الفترة ما بين العشاء والفجر، أو ما بين الفجر والظهر كانت طويلة، وهي بطبيعتها إما وقت نوم أو وقت شغل وعمل، فيقل فيها التفرغ لممارسة هذه العادة. فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعودهم ألا يشربوا كثيراً، فتنتهي من دمائهم هذه الرغبة، وتخلو أعصابهم من الإلحاح الذي تحدثه أي عادة من العادات.

ثم جاء في النهاية الأمر النهائي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]

فهذا نوع من التدرج الكيفي الذي حدث في الخمر. وحدث أيضاً في أمر القتال كما رأينا.. بدأ بـ ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ [النساء: ٧٧] وانتهى تبعاً للمراحل الكثيرة التي تحدثنا عنها سابقا بأمره تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] كي يكون

الأمر كله لله عز وجل ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فمر بالمراحل التي ذكرها ابن القيم، والتي نعرفها من خلال السيرة ومن خلال القرآن.

وفرضية الصلاة، كان فرض الصلاة قد بدأ ركعتين في الغداة وركعتين في العشي، فكانت -فقط- مرتين في اليوم، وكانت ركعتين فقط، ثم بعد ذلك زيدت في الإسراء والمعراج؛ زيدت بعضها لتكون رباعية، وثبتت صلاة السفر، وصلاة الفجر ظلت كما هي ركعتين، ثم كان المغرب ثلاث.. فهذا أيضاً كان تدرجاً في الصلاة وفي شكل الصلاة وفي أوقات الصلاة كيفاً وشكلاً.

والميراث أيضاً حدث فيه تدرج كيفي؛ فبعد أن كان يتم بحق الأخوة الإيمانية، انتقل بعد ذلك إلى الصورة الطبيعية، وهذا كله يعني أن هناك تدرجاً كيفياً.

الحكمة من التدرج التشريعي

أما بالنسبة للحكمة في التدرج التشريعي.. فهناك حكم نستطيع أن نعرفها، وأخرى لا نعرفها، وعلمها عند الله. ولكن هناك خمس حكم نستطيع أن نستخرجها لهذا الأمر:

أولاً: أخذ الناس بالرفق:

فالله عز وجل رحيم بعباده فالتدرج في التطبيق والتشريع كماً وشكلاً ونوعاً فيه رفق بالناس، ينقل خطواتهم كما تنقل طفلك الصغير لكي يستكمل نموه، فتأخذه برفق حتى يصل إلى نقطة النضج أو نقطة النهاية. فأخذ الناس بالرفق أمر من طبيعة هذا الدين، والله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

فالحكمة الأولى هي أخذ الناس بالهوادة والرفق، والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك ما مرد عليه الناس من باطل، وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق. فسواء كان التدرج بانتشال الناس من عاداتهم السيئة، أو في تكليفهم بتكليفات حقة ونافعة لهم، ففي كلا الأمرين يحتاج الأمر إلى الرفق والأخذ بالهوادة لكي يستطيعوا أن ينتقلوا من مرحلة إلى مرحلة. ونحن نعرف ما يقوله الأستاذ سيد عن هذا المعنى في مقدمة الظلال، فهو يقول: "إن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن، ومن ثم لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج، لأن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد ولا تستحثه رغبة فان ولا يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غاياته البعيدة، كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى، لأنهم لا يصبرون على الخط المتزن. وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر وتسيل الدماء وتتحطم القيم وتضطرب الأمور، ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة. فأما الإسلام فيسير هيناً ليناً مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل.. ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها.. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف، فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل.. وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة وتتطاول فروعها وتتشابك، كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة، ثم يكون دائماً ما يريده الله أن يكون".

فهذا منهج الإسلام في عملية التدرج التشريعي؛ أن يكون هادئاً رفيقاً، يتدرّج بالناس، وينقل خطواتهم بصبر ويقين.

الحكمة الثانية: وهي أن تدرج الأحكام أدعى إلى قبول الناس لها:

ويقابلنا في هذا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (إنما نزل أول ما نزل -تعني القرآن- سور من المفصل فيه ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً.. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[٥].. تعني أن الذي نزل في أول الأمر كان تربية للعقيدة، وتخويفا باليوم الآخر، ثم بعد ذلك بمدة طويلة نزلت آيات الأحكام التي في سورة البقرة والنساء.

فهنا تقرر أم المؤمنين أن تدرج الأحكام وبناء الأساس العقيدي وربط الناس بالله عز وجل كان ضرورياً، لأنه لو جاء التكليف أول ما سمع الناس بالإسلام لما التزموا ولما سمعوا ولما أطاعوا، ولما اهتدوا ولما آمنوا، وتكون العاقبة خسارة على الجميع. ولذلك كان تأسيس اليقين أولاً أمراً ضرورياً قبل أن تكلف هذه النفوس. والله عز وجل يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، يقول الأستاذ سيد "إن هذا الدين لا يغفل واقع الناس عندما يريد أن يرفعهم إلى القمة السامقة التي شاء أن يتربعوا عليها.. لا يغفل أنهم بشر لهم شهوات وميول، كما لا يغفل تعلق الكائن البشري بما ألف واعتاد، ومن ثم فهو لا يقهرهم قهراً على ترك ما ألفوه، وإنما يجعلهم -بغرس الإيمان في قلوبهم، وتصحيح نظرتهم للأشياء- يعيدون تقييم ما ألفوه، فيتمسكون بالحق وينبذون الباطل، رضاً وطواعية لا قسراً وجبراً".

إن هذا الدين حريص على أن يملك القلوب، لا أن يسيطر على الأجساد، ومن ثم فهو لا يترك سبيلاً لتحقيق غايته هذه إلا سلكها -ما لم تكن إثماً- وإن من أهم تلك السبل التيسير على الناس.

فلا شك أن القهر لا يصنع إيماناً حقيقياً، ولا يكوّن قلوباً صادقة، وإنما أقصى ما يفعله هي صورة الاستسلام الظاهري المكره المجبور، والله عز وجل يريد من الناس أن يعبدوه عن رضى وعن إيمان وعن يقين. فلذلك كان لا بد أن تتدرج الأمور حتى يتقبل الناس الأمر برفق وسلام..

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن أعرابياً بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ (دعوه وأهريقوا[٦] على بوله ذنوباً[٧] من ماء -أو سجلاً[٨] من ماء- فإنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا مُعسِّرين)[٩].

٥ البخاري.

٦ أهريقوا: أريقوا، والهاء مبدلة من الهمزة.

٧ الذنوب: الدلو العظيم، وقيل لا تسمى بذلك إلا إذا كان فيها ماء.

٨ سجلاً: الدلو.

٩ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا)، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس، انظر: صحيح البخاري مع الفتح ج١ ص ٥٢٤.

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا)[١٠].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه"[١١].

فلا شك أن هذا كله دليل على حرص الإسلام على الرفق وعلى التيسير. ومن أهم صور التيسير التدرج في الأمر، وتعليم الناس الحكمة من وراء ذلك. ونحن نعرف قصة معاذ حينما صلى بالناس وأطال، فخرج رجل من الصلاة، فلما أُخبر معاذ بذلك قال: إنه منافق، فذهب الرجل يشكو معاذا إلى رسول الله ﷺ، وكما نعلم أن رسول الله ﷺ قال له (أتريد أن تكون فتاناً يا معاذ، إذا أممت الناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى)[١٢].. فإذا صلى الإنسان بالناس يرفق بهم، وإذا صلى لنفسه يطيل ما شاء.

الحكمة الثالثة: هي تهيئة النفس بتغيير تصورها عن الشيء:

فلا شك أن الإنسان يتحمس للأمر طالما هو مقتنع به، فإذا تغير هذا الاقتناع يمكن أن يتغير سلوكه.. فإذا أردنا أن نغير سلوك الناس لا بد أن نغير تصورهم عن الأمر الذي هم عليه إلى ما نريدهم إليه، فإن موقف الإنسان من شيء ما، أو أمر ما هو نتيجة لتصوره عن ذلك الشيء أو ذلك الأمر. فلا شك أن الإنسان وهو صغير -مثلا- يرى النار لعبة جميلة، وشكلها مغري، فيحاول أن يمسكها، لكنه حينما يكبر قليلا ويعرف أنها محرقة لا يعمل هذا العمل.. لماذا؟ لأن تصوره عن النار قد تغير، فبعد أن كان يظنها لعبة اكتشف أنها شيء ضار وحارق. فاختلاف اقتناع الناس شيء مهم.

فالجاهلية كانت ترى الخمر شرفا، وترى الظلم عزا. فلا بد أن يتغير تصورها عن هذا الظلم وعن هذه الخمر لكي تستطيع أن تستغنى وتقلع عنهما.

وهذه بعض أبيات من الشعر عن الجاهلية تصور لنا كيف كانوا غارقين في تصورات باطلة. فهذا حسان بن ثابت -رضي الله عنه- يرثي فارسا من فرسان العرب في الجاهلية، وقد مر على قبره، وكان الناس يعقرون على ذلك القبر -أي يقدمون القرابين على هذا القبر- فيقول:

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناق منه فإنه ... شرّيب خمر مسعر لحروب

لولا السفار وطول قفر مهمة ... لتركتها تحبو على عرقوب

١٠ أخرجه البخاري في نفس الموضع السابق.

١١ أخرجه البخاري في نفس الموضع السابق.

١٢ أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج٤ ص ١٨٢، ١٨٣.

والقلوص هي الناقة.. فهو يقول: لولا حاجته لناقته لطول السفر لقدمها قربانا لصاحب هذا القبر الذي يمدحه بأنه شريب خمر ومسعّر لحروب.

فهذا كان تصور الصحابة قبل أن يسلموا؛ أن الخمر شيء عظيم، وكذلك مسعر الحروب هو أيضا أمر عندهم عظيم.

وهذه أبيات أخرى لشاعر يهجو قبيلة من القبائل فيقول:

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة　　　فعادى بني العجلان رهط بن مقبل

قبيلة لا يخفرون بذمة　　　ولا يظلمون الناس حبة خردل

فالوفاء كان في تصورهم سبة، والعدل منقصة.

فلا شك إذا كانت نظرة الذين جاء إليهم الإسلام بهذه الصورة فلا شك أن الأمر كان يحتاج إلى طريقة ذكية جدا ورفيقة جدا لكي يقبلوا أن ينتقلوا -ابتداءً- من عبادتهم للأصنام والآلهة المدعاة إلى عبادة الله وحده، ثم لكي يتركوا هذه العادات الكثيرة التي كانوا يعتبرونها عزا وسؤددا وشجاعة ومروءة، فكان لا بد من تغيير نظرة الناس إلى هذه الأشياء بتدرج وبإقناع وبرفق.. حتى إذا تغيرت نظرتهم إلى الخمر تركوها، وإذا تغيرت نظرتهم إلى الظلم غيروه.. وهكذا.

وهذا ما فعله الإسلام ببطء وتدرج؛ بناء للعقيدة وترسيخ لها، وترسيخ لأخلاق العقيدة أيضا، ثم بيان ما في هذه الأعمال من مساوئ وأضرار وعدم مروءة وظلم للعباد، ومناقضة لعبادة الله الذي آمنوا به. فحينما وصلوا إلى هذه نزل الحكم بعد ذلك بالأمر أو بالنهي وهم متهيئون للوفاء به.

الحكمة الرابعة: تجنيب الناس فتنة الانشغال بالفروع وإغفال الأصول:

وهذه القضية معروفة عندنا، ومنذ زمن ونحن نتكلم فيها، ونقول: إننا إذا شغلنا الناس بالفروع قبل أن يهضموا الأصول سينشغلون بهذه الفروع عن الأصل، وتتغبش القضية الأساسية، وفي النهاية لن يلتزموا لا بالأصول ولا بالفروع. ولذلك كنا نقول دائما أننا لا ندعو الناس ابتداءً إلى أن يصلوا أو يصوموا أو إلى فرعيات السلوكيات قبل أن ندعوهم إلى أن يعرفوا الله ويعبدوه.. ولا نمنعهم -مثلا- عن التليفزيون ولا عن الاهتمام بكرة القدم ولا بالسينما ولا بالمسرح ولا باللبس وما شابه ذلك قبل أن نُعمّق فيهم حقيقة العبودية لله، وحقيقة فهمهم للألوهية. فنحن إذا أصررنا على الفرعيات سندخل في جدل عقيم، ثم لا يقتنعون في النهاية.

ولا شك أن الإسلام حينما جاء كان حريصا حرصا شديدا على هذا الأمر.. والدكتور علي عبد الجبار يضرب المثل هنا بعدة قضايا فهو يقول عن موضوع التبني مثلا: "ترى لو شرع في مكة حِلُّ زواج الرجل بامرأة متبناه، أو أُلغي ما تعارف الناس عليه من حرمة الزوجة بظهار زوجها منها.. ترى لو كان كذلك كم سيبقى للناس من الاهتمام بالحقيقة الكبيرة؛ حقيقة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، إنهم لن يكون لهم شغل إلا الحديث عن ذلك الأمر الذي جاء به محمد ﷺ، وستغيب الحقيقة الكبرى الأصلية في غمرة الاهتمام بذلك المقتضى الفرعي الذي لا سبيل إلى فهمه ولا إلى قبوله إلا بإدراك الأصل واعتقاده والإذعان والتسليم لمقتضاه. وهكذا بقية التكاليف..". يقصد أن هذه التكاليف ما لم تأتِ في موعدها المناسب لا يمكن أن تأتي بثمارها.

الحكمة الخامسة: تهيئة المُناخ الملائم لتطبيق التشريعات:

يقول: "إن أي حكم من الأحكام لا بد له من مناخ ملائم يعمل فيه، وكما لا تنبت الأزهار والرياحين إلا في تربة معينة ودرجة حرارة معينة وقدر من الضوء معين، فكذلك أحكام الشرع. إنها لكي تحقق غايتها من درء المفاسد وجلب المنافع، لا بد لها:

أولا: من مكلفين ذوي مواصفات معينة.

وثانيا: لا بد لها من وسط اجتماعي معين.

وثالثا: لا بد لها من سلطة تشرف على تطبيقها وتردع الخارجين عليها، وتمنع أن يزاحمها أحكام أو أعراف أخرى تصطدم بمقاصدها وتفسد آثارها".. وهذا كلام جيد..

إنه لا بد أن يكون الذين تتنزل عليهم هذه الأحكام مكلَّفين لهم مواصفات معينة لكي يرضوا حكم الله، ولكي يرضوا أن ينتهوا عما حرمه الله مما كانوا يحلونه ويعتبرونه شيئا رائعا، أو يأمرهم بأمر كانوا يرونه شيئا إدّاً.. فلا بد أن يكونوا نوعا خاصا.. والنوع الخاص المقصود هنا أن يكونوا قد عبدوا لله أولا، ورضوا بالله ربا وأحبوه وهابوه ووقروه، ثم بعد ذلك حينما ينزل إليهم الأمر والنهي يكونون مستعدين لهذا الأمر.

ولا بد من وسط اجتماعي معين؛ بمعنى أن يكون هناك الجماعة التي تعين على الالتزام، ويكون التكاتف على طاعة الله عز وجل بالتزام أمره والانتهاء عن نهيه.. فوجود جماعة يدفع أفرادها إلى أن يشجع بعضهم بعضا على الخير ويوصي بعضهم بعضا بالانتهاء عن الشر. فلا شك أن وجود الصحابة في المدينة بعضهم مع بعض في جو آمن وفي اجتماع متواصل كان داعيا لهم إلى أن يتكاتفوا على التواصي بتنفيذ الأمر الذي يؤمرون به أو الانتهاء عن الأمر الذي نهوا عنه وإن وجدوا في ذلك صعوبة، فيسهل عليهم التنفيذ، وذلك بعد توفر الأمر الأول؛ وهو أنهم جميعا قد ربُّوا على العقيدة وتعمقت في نفوسهم.

والشرط الثالث: إنه لا بد من سلطة كسلطة النبي ﷺ في المدينة، ففي مكة لم يكن له سلطة -لا على نفسه، ولا على غيره- لكنه في المدينة أصبح هو صاحب السلطة. فلا بد أن تكون هناك سلطة تقيم الشرائع وتشرف على تطبيقها، وتمنع ما يناقضها، وتعاقب من يخالفها، وتثيب من يستجيب لها.

فكل هذه الشروط الثلاثة لا بد من توفرها لكي تتحقق التكاليف.. مكلفين من نوع خاص، ووسط اجتماعي يتعاون على البر والتقوى، ثم سلطة مسلمة قوية قادرة على أن تهيمن على الأمور وتسيرها كما ينبغي أن تكون.

ويقول: "ولقد كان من واقعية الإسلام عدم تكليف الناس تكاليف لم تتوفر عوامل نجاحها، ففي مكة مثلا -والمسلمون لم يكن لهم سلطان على المجتمع الذي يعيشون فيه- لم يكلفهم الله إلا بتكاليف فردية قليلة تتناسب مع قدرتهم. ولما صار للمسلمين مجتمع في المدينة على رأسه دولة، أخذت الأحكام تترى، إذ صار المناخ ملائما للالتزام بتلك الأحكام، وإحداثها أثرها الصحيح".

فلا شك أن إدراك الحِكَم من وراء التدرج يجعلنا -ونحن نقيم الإسلام مرة أخرى وندعو إلى الله مرة أخرى، في وقت يتماثل مع نفس المراحل التي مرت بها الجماعة الأولى- متفهمين للحكمة من التدرج، ويسهّل ذلك علينا أن نستخرج الأحكام ونحن في حالة من الطمأنينة، ثم يسهل علينا -أيضا- تربية الجماعة دون أن نكلفها شططا، ودون أن نحملها ما لا تطيق، ويكون تعاملنا مع المجتمع -أيضا-

تعاملا واقعيا، يوصل له الإسلام، ويوصل له القضية الأساسية قبل أن نشغله بالفروع، وقبل أن نعطيه فرصة للانقضاض علينا من خلال السلوك الخاطئ أو الفهم الخاطئ.

فإذن الحكمة في التدرج التشريعي:

أولا: أخذ الناس بالهوادة والرفق.

ثانيا: أن التدرج أدعى إلى قبول الناس لهذه الأحكام.

ثالثا: تهيئة النفوس بتغيير تصوراتها عن الأشياء.

رابعا: عدم الانشغال بالفروع عن الأصول.

وخامسا: تهيئة المناخ الملائم للتطبيق.

التدرج في التطبيق

ويبقى بعد ذلك التساؤل: هل يكون التدرج التطبيقي في كل شيء؟ أم أن هناك مجالات لا يجوز فيها التدرج، ومجالات تقبل هذا التدرج؟

لا شك أن من البديهي أن نقرر أن هناك مجالات لا تقبل التدرج بطبيعتها من خلال طبيعة مجالها؛ فمثلا:

أصول العقيدة لا يقبل فيها التدرج، لأن العقيدة هي التي تحدد أو تُثْبِت للناس حقيقة الإسلام، فلم يكن هناك تدرج في قضية التوحيد. فلا بد من التوحيد، ولا بد من الانتهاء عن الشرك.. ولا بد لأي إنسان يريد أن يكون مسلما أن ينتهي عن كل ما يؤدي إلى الشرك بالله، وأن يحقق توحيده كاملا. فهذه هي الخطوة الأولى التي لا خطوة قبلها، ولا بد أن تتوفر في أي مسلم.. فهذا مجال لا يقبل التدرج.

وأي عمل يخرق العقيدة لا يقبل فيه التدرج، فلا بد أن يكون المؤمن عارفا بعقيدته، وعارفا بما يخرق هذا التوحيد.

المجال الثاني الذي لا يقبل التدرج هو **الأخلاق**؛ فالمسلم مطالب بالأخلاق، ومطالب بأن يكون ملتزما بأصول الأخلاق. ولذلك جاء الحديث عن أصول الأخلاق كثيرا في السور المكية.. كما في سورة "الفرقان"، وفي سورة "المؤمنون"، وفي سورة "المعارج"، وفي غيرها من السور المكية.. تحدد الأخلاق بصورة واضحة لا بد للمسلم أن ينتهي إليها ويأتمر بها.

وهناك مجالان آخران؛ مجال يتعلق بالفرد، ومجال يتعلق بالمجموع..

فلا شك أن الإنسان مطالب بالتكاليف الفردية باستمرار، ما لم يكن هذا التكليف متوقفا على الآخرين. وهذا هو ضابط التكاليف الفردية الملزم بها المؤمن باستمرار؛ سواء في الجماعة المسلمة الأولى، أو مرحلتنا التي نحن فيها اليوم.

فبالنسبة لنا الشريعة قد اكتملت، فنحن مطالبون أصلا بالشريعة كلها، ثم يطرأ على هذا الطلب عوارض وموانع تجعلنا غير قادرين على أن نقيم هذه الشريعة؛ إما للعجز عن تطبيقها، أو فوات مصلحة أو خلل بترتيب الأولويات. فالذي يمنعنا الآن من تطبيق كل الشريعة التي

نحن مطالبون بها؛ إما العجز لأننا مستضعفون، أو لأن هذا التدرج تقتضيه المصلحة ويقتضيه ترتيب الأولويات، فنضطر إلى التأخير والتقديم حسب تحقق الأولويات وارتباطها بالمصلحة.

فضابط التكاليف الفردية -إذن- هي أن يستطيع الفرد أن يقوم بهذا التكليف دون أن يترتب عليه مضرة، ودون أن يكون متوقفا على الآخرين، فيصبح بذلك مكلفا به باستمرار.

أما التكاليف الاجتماعية -أو الجماعية- فهي تلك التكاليف التي تكون مرتبطة بالآخرين، فلا يستطيع الفرد أن يقوم بها وحده، فتصبح الجماعة مكلفة بها. وضابطها ألا يترتب على القيام بها فوات مصلحة أو خلل بترتيب الأولويات.

فالمجالات التي تدخل فيها المرحلية تنقسم إلى هذين القسمين الكبيرين؛ قسم التكاليف الفردية، وقسم التكاليف الجماعية.

والتكليف الفردي ضابطه ألا يكون مرتبطا أو متوقفا على الآخرين، وألا يسبب مضرة وخللا في الأولويات.

والتكليف الجماعي وهو التكليف الذي يكون مرتبطا بالآخرين أو متوقفا على الآخرين، وضابطه أيضا ألا يتحقق من إقامته ضرر أو خلل بالأولويات.

أما من ناحية التفصيل فيما يقبل التدرج فهي العادات والمألوفات الاجتماعية، وهذه المسائل تتغير بتغير الزمن، وتتغير بتغير الأعراف، وتتغير بتغير الأماكن أيضا. فلا شك أن ما كان سابقا يعتبر تكليفا جماعيا قد لا يصبح في عصرنا تكليفا جماعيا.

فالخمر -مثلا- كانت في الزمن الماضي عنصرا من عناصر الرجولة والفحولة والكرم، بحيث كان الإنسان لا يستطيع ألا يقدم الخمر للناس أو لا يشربها، فتكون مسبة بالنسبة له.. لكن الآن ليست الخمر كذلك. وبالتالي ما كان يعتبر تكليفا جماعيا في الماضي يمكن ألا يكون كذلك في الحاضر.

ومسألة التبني انتهت، فلم يصبح هناك إلزام بها، أو لم يصبح هذا الحكم اجتماعيا، لأنه أمر فردي يمكن ألا يلتزم الناس به وإن كان قائما.. فالناس الآن يتبنون، لكنه ليس عرفا وليس اعتقادا وليس نظاما كما كان في الجاهلية الأولى.. فكان إذا تبنى الرجل أي إنسان يأخذ هذا الإنسان حكم الابن تماما؛ في الميراث وفي الحرمة وفي حرمة زوجته عليه وهكذا.. والآن ليس الأمر كذلك. لكن يمكن أن توجد عادات جديدة يعتبرها الناس شيئا طبيعيا أو تكليفا اجتماعيا.. لو لم يعمله الإنسان لكان ذلك منتقدا أو يصيبه ضرر.. فتقدر الأمور بمقاديرها.

فعلى الإنسان المسلم أن يتعرف على ما هو تكليف فردي ليس متوقفا على الآخرين، وما هو تكليف اجتماعي يحتاج تدرجا في التعامل معه، فالسلام على المرأة مثلا، والاختلاط في مجتمعات يعتبر هذا ضروريا كالمجتمعات الغربية، فالانسلاخ عنه أمر غير مفهوم. فالسلام على المرأة وتقديمها على الرجل هذه مسائل عرفية، الذي لا يعملها يكون إنسانا فقد مروءته عندهم، وهذا كذلك في بعض مجتمعاتنا الشرقية مثل المصرية واللبنانية وغيرها والتي تأثرت بهذا التقليد حتى أصبح الآن الأمر عندهم طبيعيا. فالإنسان في مثل هذه الحالة لا يستطيع أن ينسلخ مرة واحدة، وإنما ينسلخ بالتدريج حتى ينتهي منه. ويكون في ذهنه أنه لا بد أن يصل إلى الحكم النهائي فيه.

كذلك الربا كانوا يعتبرونه ضرورة اقتصادية ومعلما رئيسيا من معالم الاقتصاد الجاهلي عند العرب وعند غير العرب، لذلك كان آخر آيات الأحكام التي نزلت آيات تحريم الربا، لأنه كان شديد التداخل والتعمق في نفوس العرب، وفي نفوس العالم كله.. فنجد أن هذا قد احتاج إلى تدرج كما رأينا في الخمر وكما رأينا في التبني.. فكل هذه الأمور حدث فيها تدرج، وانتهت إلى الأمر الشرعي كما أراده الله عز وجل..

ورأينا ذلك أيضا في العادات وفي العلاقات مع المجتمعات الأخرى، والذي هو صورة الجهاد، حدث فيه هذا التدرج. وموضوع الأسرى أيضا حدث فيه تدرج؛ من الصفح عنهم أو قتلهم أولا، ونعلم كيف عوتب الرسول ﷺ في بدر أنه لم يقتلهم ويثخن فيهم، ثم جاء بعد ذلك التخيير بين المن أو القتل حسب ما يرى الإمام من مصلحة.

والأوضاع الاقتصادية -كما قلنا بالنسبة للربا وغيره- لأنها أمر يحتاج إلى تهيئة المجتمع كله بعلاقاته وبموارده وبنشاطه لكي يتقبل الأوضاع الاقتصادية الجديدة، فلا تحدث بلبلة أو أزمات عنيفة في المجتمع الذي تتم فيه هذه التغييرات، فلا بد لهذه التغييرات أن تحدث بالتدريج.

مرتكزات القول في التدرج في التطبيق

ونأتي أخيرا إلى مرتكزات القول في التدرج في التطبيق.. ما هي المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها أمر التدرج من الناحية الشرعية.. ونقصد بالمرتكزات التي ارتكز إليها علماؤنا والفقهاء والأصوليون للقول بالتدرج؟ وهذا الفصل سنحتاج فيه إلى الاستشهاد ببعض ما قاله الأئمة السابقون.

ابتداءً مرتكزات القول بالتدرج وتطبيقه ثلاثة:

الأول: النسء.

الثاني: مقاصد الشريعة

الثالث: القواعد الشرعية.

المرتكز الأول: النسء:

يقصد به رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي لزوال علته، بمعنى أن الحكم يتغير بزوال العلة. وهذا يفرقه عن النسخ. لأن النسخ تعريفه: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ ليس مرتبطا بالعلة، وإنما مرتبط بإرادة المشرع سبحانه بأن يغير الحكم لحكمة يريدها.

هذا الفرق في التعريف جعل هناك فرقا في النظرة إليه. فالنسء بما أنه تَغيَّر أو رُفِع الحكم الشرعي بسبب زوال علته، فإذا رجعت العلة رجع الحكم، وهذا هو الذي استند إليه الفقهاء في قولهم بأنه ليس كل حكم رفع يكون نسخا. فمن ذلك ما يكون نسخا فلا يجوز الرجوع إليه، ومنه ما يكون نسيئا فيمكن الرجوع إليه (أي إلى حكم المرحلة السابقة التي شرع فيها هذا الحكم) إذا رجعت العلة، أو رجعت الظروف التي تسببت فيه.

وقد وضح الإمام الزركشي النسء بالمثال الآتي حيث قال: "ومن هذا قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه، ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي ﷺ في قوله (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ)[١٣] عاد الحكم، وقال ﷺ (فإذا رأيت هوى متبعا وشحا مطاعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك)[١٤]، وهو -سبحانه وتعالى- حكيم أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقة؛ فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره، أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية -إن كانوا أهل كتاب- أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب. ويعود هذان الحكمان -أعني المسالمة عند الضعف والمسايفة[١٥] عند القوة- بعود سببيهما، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة، بل كل منها يجب امتثاله في وقته"[١٦].

ومثال آخر أورده الإمام الشافعي رحمه الله قال: "أخبرنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدٍ بن عبد الله بن عمر، أَنَّهُ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلاَثٍ، فقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَتْ: صَدَقَ، سَمِعْتُ عَائِشَةَ، تَقُولُ: دَفَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَضْرَةَ الأَضْحَى فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: ادَّخِرُوا لِثَلاَثٍ وَتَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ، قَالَتْ عمرة: قالت عائشة: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: لَقَدْ كَانَوا يَنْتَفِعُونَ من ضَحَايَاهُمْ وَيَحمُلُونَ مِنْهَا الْوَدَكَ، وَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الأَسْقِيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: وَمَا ذَلِكَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالُوا يا رسول الله: نَهَيْتَ عَنْ إمساك لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلاَثٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ عَلَيْكُمْ فَكُلُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَادَّخِرُوا"[١٧]. قال الشافعي رحمه الله: فالرخصة بعدها في الإمساك والأكل والصدقة من لحوم الضحايا إنما هي لواحد من معنيين لاختلاف الحالين، فإذا دفت الدافة ثبت النهي عن إمساك لحوم الضحايا بعد ثلاث، وإذا لم تدف فالرخصة ثابتة بالأكل والتزود والادخار والصدقة".

ومثل ثالث قال شيخ الإسلام ابن تيمية معللا قتل النبي ﷺ المنافقين الذين ظهر منهم من الكفر ما يوجب قتلهم "فإن قيل: فَلِمَ لَمْ يقتلهم النبي ﷺ مع علمه بنفاق بعضهم، وقبل علانيتهم؟ قلنا: إنما ذلك لوجهين:

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة..

---

١٣ رواه مسلم في كتاب الإيمان.

١٤ أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. وبقية الحديث: "ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام، الصبر فيه مثل القبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله". وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة المائدة. وقال عنه: هذا حديث حسن غريب.

١٥ المسايفة: استعمال السيف، أي القوة في تغيير المنكر.

١٦ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. البرهان في علوم القرآن. (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ج٢. ص٤٢-٤٣.

١٧ موطأ الإمام مالك ج٢ ص١٨٩ حديث ٢١٣٦.

الوجه الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بين ذلك حينما قال: (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)[١٨]... والذي يبين حقيقة الجواب الثاني أن النبي ﷺ لما كان بمكة مستضعفاً هو وأصحابه عاجزين عن الجهاد أمرهم الله بكف أيديهم والصبر على أذى المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة وصار لهم دار عز ومنعة أمرهم بالجهاد وبالكف عمن سالمهم وكف يده عنهم، لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل منافق لنفر عن الإسلام أكثر العرب إذ رأوا أن بعض من يدخل فيه يقتل، وفي مثل هذه الحالة نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٨]، وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له، فلا يكافئهم عليه لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة، ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة، ودخلت العرب في دين الله قاطبة، ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام في غزو الروم، وأنزل الله تبارك وتعالى سورة (براءة)، وكمل شرائع الدين من الجهاد والحج والأمر بالمعروف، فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر، ولما نزلت (براءة) أمر الله بنبذ العهود التي كانت للمشركين وقال فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذه ناسخة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمداً يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم... فحيثما كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف والصفح، وحيثما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله تعالى: ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾[١٩]."

ويعلق الدكتور علي عبد الجبار قائلا: "وهكذا ينتقل المسلم من حكم إلى حكم لا عن هوى يكسبه ثوب المصلحة، ولكن لعلة منضبطة هي التي تنقله من الحكم الأخير إلى الحكم الأول، فإذا زالت تلك العلة عاد إلى الحكم الأخير".

وهكذا يتضح أن النسء هو العلة أو الركيزة الأولى التي ارتكز إليها العلماء في أمر المرحلية أو التدرج في الأحكام، فإذا زالت العلة عاد الحكم، وإذا اختفت العلة اختفى الحكم.

المرتكز الثاني: مراعاة مقصد الشارع (أو مقاصد الشريعة):

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل"[٢٠].

ثم يقدم الإمام ابن القيم صورة من فقه شيخه ابن تيمية -رحمه الله- ترينا مدى فقه الشيخ لمقاصد الشارع فيقول: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان

١٨ صحيح البخاري. كتاب التفسير في تفسير سورة المنافقين. باب قوله تعال: "سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين". انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني. (بيروت: دار المعرفة، بدون طبعة ولا تاريخ) ج٨. ص٦٤٨.

١٩ الصارم المسلول على شاتم الرسول. تحقيق: محي الدين عبد الحميد. (طنطا: مكتبة تاج، ط الأولى ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) ص٣٥٥-٣٥٩.

٢٠ إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: محي الدين عبد الحميد. (بيروت: دار الفكر، ط الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ج٣. ص١٤.

معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم"[21].

ويعلق الدكتور علي عبد الجبار قائلا: "إن إنكار المنكر ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق ما يحبه الله ورسوله من المعروف، ولذا فإنه إذا كان إنكار المنكر يؤدي إلى ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يجوز إنكاره، ولقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات من طواف النساء بالبيت عرايا وأشكالاً من الزنا فما أنكر شيئاً منها[22]، إذ كان عليه الصلاة والسلام يعلم أن ثمة منكراً أكبر ينبغي أن يقلعه من النفوس هو الشرك بالله، وأن ثمة معروفاً أكبر ينبغي أن يغرسه في القلوب هو التوحيد، وأن كل محاولة لتغيير المنكرات المتولدة من الشرك دون اقتلاعه هي جهد ضائع، وعبث لا يليق.

إن إدراك مقاصد الشارع الحكيم قد تجعلنا نؤجل العمل بحكم من الأحكام لعدم تحقق مقصد الشارع إن أمضيناه الآن".

فمقاصد الشريعة -إذن- لا بد أن تكون لها حكمها أو أثرها في اتخاذ الحكم المناسب، والرسول ﷺ يقول في نصيحة للمؤمن (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي)[23]. وهذا الكلام صحيح تماما في المجتمع المسلم، فحينما يقاطع الفاسق ويقاطع الكافر ويجد نفسه منبوذا يدفعه هذا إلى الخروج من هذا النبذ إلى الإسلام، فيكون هذا خير له.. لكن إذا أخذنا هذا الحديث وعملنا به الآن فسوف نقاطع كل الناس ويقاطعونا، وبالتالي من سندعو؟ سنقاطع آباءنا وأولادنا، وقد يكون -أيضا- بعض زوجاتنا.. فتنقطع الجسور بيننا وبين الناس، فلا تكون هناك وسيلة إلى الدعوة. فإذا أخذنا بظاهر الحديث لأبطلنا معروفا أكبر وجئنا بمنكر أكبر، وإذا سكتنا عن هذا الآن صاحبنا غير المؤمنين لندعوهم ولنعمل جسورا بيننا وبينهم، ودعوناهم إلى بيوتنا لكي يشاركونا في بعض الأشياء ابتغاء هدايتهم إلى الحق، ويكون هذا هو الحكم المطلوب الآن، وغير ذلك يكون عصيانا وخروجا عن مقاصد الشارع.

المرتكز الأخير: هو القواعد الشرعية:

والقاعدة الشرعية -في اصطلاح الفقهاء- هي حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته، وعرفها بعضهم بأنها حكم أغلبي يعرف منه حكم الجزئيات الفقهية مباشرة.

فالقاعدة الفقهية حينما يفهمها الإنسان جيدا يستطيع -من خلالها- أن يحكم على أشياء كثيرة، حتى وإن لم يعلم الحكم الفقهي الفرعي في هذه الجزئية، مستصحبا في ذلك القاعدة الكلية.

وتكتسب القواعد الفقهية أهميتها من أنها:

---

٢١ المصدر السابق. نفس الجزء. ص١٦.

٢٢ المصدر السابق. نفس الجزء. ص١٥-١٦. وانظر: أنواع النكاح في الجاهلية في حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري. كتاب النكاح. باب من قال: لا نكاح إلا بولي. انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري. ج٩. ص١٨٢-١٨٣.

٢٣ رواه أبو داود في سننه. كتاب الأدب. باب من يؤمر أن يجالس. ج٤. ص٣٥٨. ورواه الترمذي. كتاب الزهد. باب ما جاء في صحبة المؤمن. وقال عنه: هذا حديث حسن. انظر: سنن الترمذي مع شرحها عارضة الأحوذي للإمام ابن العربي. ج٩. ص٢٤٢. وقال عنه عبد القادر الأرناؤوط: إسناده حسن. انظر: مختصر شعب الإيمان للبيهقي بتحقيقه.

أولا: تكوِّن المَلَكة الفقهية لدى الباحث فتيسر عليه تلمس الحكم الشرعي في كثير من المسائل الفقهية.

ثانيا: أنها تجمع الفروع والجزئيات المتناثرة التي لا يسهل حفظها واسترجاعها.

ثالثا: تحقق إدراك مقاصد الشريعة، فمعرفة القاعدة العامة التي تندرج تحتها مسائل فقهية عديدة يعطي تصورا واضحا عن مقصد الشريعة. فقاعدة "الضرر يزال" -مثلا- يفهم منها أن رفع الضرر مقصد من مقاصد الشريعة.

وكذلك القواعد الأخرى كلها، كقاعدة "إذا تعارض واجبان قدم الأوجب منهما"، فإذا كنا بصدد أداء واجب معين، ووجدنا عملا آخر هو واجب أيضا لكن إذا فعلناه عجزنا عن فعل الواجب الأكبر منه أخرنا الواجب الأقل لنقيم الواجب الأول، فإذا تعارض واجبان يعمل بالأوجب.

وكذلك قاعدة "المشقة تجلب التيسير".. فالقواعد الشرعية كثيرة.

فإذا عرفنا ذلك عرفنا أن القواعد الشرعية مرتكز للقول بالتدرج أو المرحلية.

فحينما نطبق هذه القواعد على واقعنا نرى أننا مضطرون في كثير من الأحيان -تبعا للقواعد الشرعية ومقاصد الشارع- أن نؤجل بعض الفروض لأنها تتناقض مع واجبات أكبر منها، ونرتكب بعض المنكرات لأن الانتهاء عنها يوجب منكرات أكبر منها. ونضرب لذلك مثلا في ترك اللحية التي يرى أكثر الفقهاء أنها واجب، ولكن لا شك أن تربية اللحية الآن يمثل عقبة في حركة الإنسان المسلم بين مجتمع يعادي كل مظاهر الإسلام وكل مظاهر الحق.. والنقاب أيضا يمكن اعتباره كذلك، رغم أنه مطلب شرعي حكمه الندب على الأقل، ولكنه يصنف الداعية أو الأخت تصنيفا خاصا.. لبس الملابس الإفرنجية كالبدل والبنطلون لا شك أنه ليس هو الأفضل، لكن نحن مضطرون إليه لأننا نعيش في مجتمعاتنا في إطار معين، والانتهاء عن ذلك يميزنا بصورة معينة، ويؤدي إلى أخطار أكبر.. أشياء كثيرة جدا كهذه.. نستطيع من خلال القاعدة الفقهية أن نستنتج لها أحكاما جزئية كلما قابلتنا مواقف نستطيع من خلال إدراكنا للقواعد الفقهية أن نعرف حكمها المرحلي المناسب.

فهذه المرتكزات الثلاثة وهو؛ النسء، ومقاصد الشريعة، والقواعد الشرعية هي مرتكزاتنا للقول بالمرحلية، أو مرتكزات الفقهاء والسلف الصالح الذين فقهوا القضية فقها جيدا، وقدموا لنا حلولا وتكييفا شرعيا لقضية المرحلية، وإن لم يسموها بالمرحلية كما نسميها الآن.

ونحن الآن -أيضا- نستطيع أن نطمئن أننا مطالبون بأحكام مرحلية نتيجة أننا نمر بتطورات وبأطوار شبيهة بتلك المراحل التي مر بها الجيل الأول وارتكز عليها أيضا في حركته نحو الهدف النهائي، والله أعلم.

وبطبيعة الحال قد لا يفهم كثير من العلماء الآن أهمية قضية المرحلية، أو قد لا يلتفت إليها كثير من الدعاة من الحركات الإسلامية الآن. ولا يجوز أن يكون هذا الجهل أو عدم الالتفات عامل تشكيك لنا فهي -كما قلت- لا تحتاج إلى كثير أدلة إلا لتثبيتها والطمأنينة إلى شرعيتها، ولو لم يعلم المسلم إلا قول الله عز وجل ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] لكفاه هذا القول دليلاً على مشروعية المرحلية فهذه الآية وحدها تجعلك تستنتج منها دائما أن ما لا تستطيع أن تفعله فأنت لست مؤاخذا به ابتداء.. فإذا كنت في مجتمع جاهلي فأنت غير مؤاخذ على عدم استطاعتك إقامة الحدود. وأيضا إذا فهمت أنك مطالب بإقامة واجب ضخم وكبير فإنك ستجد بعقلك أن أي واجب آخر سيؤخر هذا الواجب أو يعطله لا بد أن يُؤخر وهذا نفعله حتى في أحوالنا الحياتية.. فإذا وجدت -مثلا- معتدي يريد أن

يضرب ابنك أو يقتله وتستطيع أن تفديه ببعض المال فستضحي بالمال في سبيل إنقاذ ابنك من الخطر، مع أن الأصل أن تقف أمام هذا المعتدي وتقاتله لكي تكون رجلا وتحافظ على كرامتك، لكن عندما تجد أن هذا الاختيار سيعرضك إلى أخطار أنت لا تستطيعها فتختار أمرا آخرا يحفظ لك الأمر بأقل الأكبر منه، فتدفع المال.. وهكذا فعل الصحابي الذي رأى عمر بن الخطاب متوجها إلى قتل رسول الله ﷺ فحوّله إلى أخته فاطمة بنت الخطاب وزوج أخته سعيد بن زيد، وقال له: لا تغرنّك نفسك يا عمر اذهب إلى ختنك وإلى أختك فقد أسلما، فأراد أن ينقذ حياة رسول الله ﷺ لأن قتله من المنكر الأكبر ومن الخطر الأكبر وحتى لو أدى قوله ذلك إلى قتل سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب، فهما فردان لا يؤثر قتلهما في مسيرة الإسلام، فضحى بهما لينقذ الرسول ﷺ؛ فارتضى فعل المنكر اتقاء لما هو أشد نكراً.. فهكذا كان الصحابة يفهمون الأمر بفطرتهم، فهذا الصحابي لم يعلمه أحد، لكنه بفطرته فَهِم الأمر هكذا. فحتى لو ترك الإنسان لعقله سيجد أنه يتصرف في تعامله مع الأمور كذلك إذا كان جادا وكان واقعيا وكان حصيفا.

فنحن نأتي بالأدلة الشرعية لكي نطمئن أن ما نفعله إنما هو استجابة لتوجيه الله وشرعه، فنفعله ونحن مطمئنون أننا نعبد الله ونحقق طاعتنا له تماما، مهما قال القائلون ومهما عارض المعارضون.

الجماعة المسلمة

نتحدث الآن عن موضوع مرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الجهاد في سبيل الله، فما زلنا نتحدث عن الجهاد والقضايا المرتبطة بهذا الموضوع الكبير.

وهذا الموضوع هو الجماعة المسلمة وأهميتها في حياة المسلمين، ومكانها في شرع الله وفي منهج الله.

ونكرر القول إن كل الأصول الإسلامية التي تقوم على الأصل الكبير، وهو توحيد الله عز وجل نجد أنها أصول ترتقي إلى درجة البداهة من حيث انبثاقها الطبيعي من هذا الأصل الكبير، ونحن نقصد بهذا الأصول الكبرى المترتبة على قضية لا إله إلا الله.

وفي حقيقة الأمر من يدرك حقيقة لا إله إلا الله إدراكاً صحيحاً، ويدرك آفاق هذه الحقيقة والمراد منها وأهدافها سيدرك لا محالة أن هناك وسائل ضرورية لا تتحقق حقيقة لا إله إلا الله إلا بها فتصبح الوسائل التي لا بد منها لإقامة وتحقيق لا إله إلا الله في واقع الحياة البشرية، تصبح قضايا بديهية وفطرية لا تحتاج إلى استدلال خارجي عن إدراك حقيقة لا إله إلا الله.

فإذا عرفنا أن لا إله إلا الله تعني في جوهرها إقامة مملكة الله في الأرض، فلا بد أن يكون هناك منهجاً يربط الناس بالله عز وجل، ولا بد أن يكون لهذا المَلِك سبحانه "برنامج" يطالب به رعيته وعباده، وهذا "البرنامج" لا بد أن يجاهد الناس من أجل إقامته في الأرض، ويصبح الجهاد، كما يصبح المنهج قضايا بديهية، وتصبح أيضا الطاعة والالتزام قضايا بديهية لا يتحقق دين الله إلا بها، ثم تصبح الجماعة أيضاً قضية لا تحتاج إلى دليل من خارجها، وتصبح دلالة على إيمان الإنسان، وعلى صدق هذا الإيمان، وتصبح أيضاً إفرازاً طبيعياً وواجباً طبيعياً مترتباً على الحقيقة الأولى.

وقد كان ارتباط قضية الجماعة بقضية الإسلام، وانبثاقها الطبيعي منه، أمرا بديهيا لا يجادل فيه أحد، مثلها في ذلك مثل كل الأصول الكبرى كالجهاد والتشريع والحاكمية والسمع والطاعة، والتي ترتبط كلها بالأصل الكبير، وهو توحيد الله عز وجل وشهادة لا إله إلا الله.

وكما قلنا، فإن عديدا من القضايا الأساسية مثل الجهاد والتشريع والحاكمية وقضية الجماعة والارتباط بها وقضية الالتزام والطاعة كانت كلها قضايا لا تشغل بال الصحابة، ولا من تلاهم من أجيال المسلمين، لأنها لا تحتاج إلى نقاش ولا إلى حديث ولا جدل ولا استدلال ولا دليل، وإنما كانوا يعرفونها من خلال إدراكهم الصحيح لهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ. ولا نجد أن هذه القضايا قد شغلت أي مساحة من مساحات الفكر والثقافة والعلم في حياة الصحابة وتابعيهم، إلا من حيث إقرارها كقضايا طبيعية.

لكن حينما بدأت الخلخلة في حياة المسلمين، وبدأ التمزق والتفرق، وبدأت أفكار جديدة تدخل لتصب في نهر الثقافة الإسلامية، عندها بدأ الحديث عن أهمية الجماعة وأهمية الالتزام والطاعة، والحديث عن حقوق الله وعن صفاته، وعن الجهاد، وعن غير هذا من القضايا.

وكلما زاد بُعد الناس عن الحقيقة الأولى الجوهرية البديهية البسيطة كلما برزت هذه القضايا البديهية كمعضلات تحتاج إلى حل، حتى إذا وصلنا إلى واقعنا المعاصر -والذي لا شك أننا فيه الآن أبعد ما نكون، من ناحية الزمن، ومن ناحية الالتزام، عن الصدر الأول من الإسلام- وجدنا أن هذه القضايا قد أصبحت معضلات شديدة التعقيد، وأصبحت ميادين للتلاعب وميادين للاختلاف وسوء الفهم، كما أصبحت ميادين لسوء القصد أيضاً.

ونحن حينما نعالج القضية الأولى، وحينما نقف أمامها طويلاً -وهي قضية العقيدة؛ لا إله إلا الله- سوف لا نجد أن هناك ضرورة ملحة، ولا أن هناك حاجة مُقلقة للحديث عن هذه القضايا كقضايا تحتاج إلى استدلال وإلى مناقشة.

وبالرغم من ذلك كله، ولأننا نعيش في هذا الواقع البائس، ولأننا نواجه أقواماً يجادلون في هذه البديهيات -حتى أنه وجد من يجادل في وجود الله ذاته سبحانه وتعالى- فنحن مضطرون، من باب مواجهة الواقع، أن نتحدث في مثل هذه الموضوعات.

فكما تحدثنا عن قضية "لا إله الا الله"، وكما تحدثنا عن شروط تحقيقها وما يتصل بها، وكما تحدثنا عما ينبغي أن يكون عليه الجيل الأول من أخلاق ومن سلوك ومن التزام ومن تربية، وكما تحدثنا عن طبيعة المنهج القرآني، وضرورة البداية بالعقيدة، وضرورة الالتزام بهذه العقيدة، وأنه لا يجوز أن تُنافَس هذه القضية بأي قضايا أخرى جانبية، وألا يستدرجنا أعداء الإسلام للحديث عن قضايا فرعية بعيداً عن تأسيس القضية الأساسية الأولى، ثم تحدثنا عن نشأة المجتمع المسلم والقضايا التي تنبثق عن هذا الموضوع، وعن الجهاد ومراحله وخصائصه -سواء في الواقعية الجدية لهذا الدين أو الواقعية الحركية- التي انبثقت منها قضية المرحلية، وأيضا قضية الجماعة كبديهية.

كما تحدثنا عن ذلك كله فإننا سنتحدث الآن -بعون الله- عن قضية الجماعة.

وقضية الجماعة هي إحدى هذه الموضوعات البديهية المنبثقة من عقيدة هذا الدين، والتي يجادل فيها المجادلون.

وإذا كان الجهاد لإقامة هذا الدين لا يمكن أن يتحقق من خلال جهد فردي، أو أفراد متناثرين، وإنما لا بد أن يتحقق من خلال تجمع على هذا الدين، له أهدافه وله وسائله، فمن ثم تصبح الجماعة في حقيقتها -دون أن نأتي بدليل واحد- تصبح ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي لجدية المسلم الخالص في إيمانه بالله عز وجل، وحرصه على إقامة هذا الدين.

ولا شك في أهمية هذه المقدمة، لأننا ينبغي أن نعيش مع هذا الدين بهذا اليقين. اليقين بأن هذا الدين كله، من أوله إلى آخره، حقيقة عظيمة، ومع كل عظمتها فهي قضية بسيطة بديهية، تفرض نفسها على الإنسان الصادق المخلص، وعلى كل إنسان عاقل، يريد الحق

لذات الحق، فلا يحتاج مثل هؤلاء العقلاء أن يبحثوا في قضايا من مثل: هل لا بد لنا أن نكون في جماعة؟ هل لا بد لنا أن نجاهد؟ هل لا بد لنا أن نلتزم بكل شيء؟ هل لا بد لنا أن نتحاكم إلى شرع الله؟

هذه الأسئلة كلها لا تعني إلا الفراغ والخلل عند من يسألها، لأن المعنى الحقيقي لهذه الأسئلة أن من يطرحها لا يفهم.. أو لا يعرف ابتداء ما هو هذا الدين. فإذا عرف حقيقة هذا الدين وجوهره فإنه لن يحتاج أن يتساءل عن هذه الأمور. لذلك رأينا أن هذه القضايا لم تكن محل تساؤلات عند أفراد الجيل الأول الذين تلقوا الإسلام غضا طريا، وكانوا على درجة من الجد والإصرار والوضوح والصراحة والصدق مع النفس، بحيث أنهم كانوا لا يناقشون هذه الأمور على الإطلاق.

وأي طائفة مؤمنة... وأي جماعة رائدة.. لا بد أن ترتفع عندها حقائق الإسلام إلى أن تكون بديهيات... بديهيات يحار الإنسان في الحديث عن أدلتها، ليس لعدم وجود هذه الأدلة، ولكن لأنها من الجلاء بحيث لا تحتاج إلى دليل، فإذا ظهرت الشمس في رابعة النهار لا يحتاج إنسان يبصر إلى دليل على وجودها. لكن يحتاج الدليل من يجادل بالباطل، أو من كان أعمى لا يرى ولا يسمع ولا يحس.

لكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه القضايا وعن أدلتها، لكي نكشف للناس عن الحقيقة ما داموا يحتاجون إلى ذلك.

ضرورة وجود الجماعة

سنتحدث عن هذه القضية البديهية البسيطة... قضية الجماعة، وهي قضية بديهية، لأن البشر متفقون، فطرةً وعقلاً، على أن أي عمل كبير لا يمكن أن يتم من خلال فرد أو أفراد، سواء كان عملاً دنيوياً أو عملاً أخروياً. وواقع البشرية أنها منذ أن وجدت قد التقت وتجمعت، وأقامت نظاماً، وأقرت حدوداً، وأقامت قوانين وعقوبات... لأن الإنسان -كما يقولون- مدني بالطبع، أو اجتماعي بالطبع، لا يمكن لإنسان أن يعيش بمفرده، فالإنسان منذ أن خُلِق خُلِق جماعة، رجل وامرأة، اجتمعا لكي يكوّنا هذه البشرية، فلم يعش آدم وحده، وإنما خلق الله له حواء، ليكونا أول جماعة في الواقع الإنساني، ثم جاءت الذرية، وظلوا مجتمعين، ويزدادون ويتجمعون في تجمعات بصورة أو بأخرى. فالجماعة كانت أساساً تاريخياً ارتبط بوجود الإنسان. وبالتالي فقضية الجماعة قضية فطرية بالنسبة للإنسان كإنسان، في أي مجتمع كان، جاهلياً أو إسلامياً. فلم يقل الجاهليون أبدا أننا نستغني عن الجماعة، ولا يستطيعون أن يقولوا ذلك. وأي نظام -شيوعي أو رأسمالي، بوذي أو هندوكي- لا بد أن يتعاون الناس فيه ليقوموا بأمر مجتمعهم معاً.

والذي يزيد في منظور الإسلام أنه يربط هذه القضية بالعقيدة. فلا يصبح الإنسان مختاراً في أن يكون في جماعة أو لا يكون. قد تقول الجاهلية أنّ الجماعة ضرورية، لكن الذي لا يريد أن يدخل الجماعة أو يعيش معنا فليبحث له عن مكان آخر، فهو حر في ذلك. لكن الإسلام لا يقول ذلك، **الإسلام يقول إن الجماعة هي الإسلام وأنه لا إسلام إلا بجماعة**، وأنه لا يحل للإنسان أن يكون خارجاً عن الجماعة. لا بد أن يكون مرتبطاً بجماعة وبإمام وببيعة وبمنهج. والفرق بين التصور الجاهلي للجماعة والتصور الإسلامي لها أن كلاهما يشترك في إقرار ضرورة الجماعة لإقامة الحياة البشرية، ولانتظامها، ولإنتاجها، ولأمان الإنسان؛ أمانه من الجوع أو الخوف، وكذلك ضرورتها لتقدم البشرية، فلا يمكن أن تتقدم البشرية إلا من خلال الجماعة، فهذه قضايا مشتركة بين الإسلام والجاهلية لا يناقشون فيها.

أما الفرق بين الإسلام وبين غيره فهو أن الإسلام يرى الجماعة ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي لا يتم إسلام المرء إلا به، وأن الإسلام لا يتحقق إلا بالجماعة، لأننا نعتقد أن الإنسان خلق ليعبد الله، ولن تقوم هذه العبادة إلا بالجماعة، التي تجاهد وتحافظ على دين الله، ليظل الناس عابدين لله.

أما الجاهلية فليست لها أهداف نهائية. أهدافها هي أن يعيش الناس ليأكلوا ويتمتعوا، فلا تصبح الجماعة قضية مصيرية بالنسبة لهم، وبالتالي يعتبرونها ضرورة، ولكنهم يتركونها لإحساس الإنسان بحاجته إلى الجماعة، فتفرض عليه من خلال حاجته هو، وليس من خلال حاجة الجماعة، ولا من خلال الهدف، وهم يعلمون أن من فطرة البشر أن يتجمعوا لحاجة بعضهم إلى بعض، لكنهم لا يلزمون الناس بالجماعة، فمن أراد أن يذهب بعيداً فليذهب.

ولكن الإسلام لا يقول ذلك، **الإسلام يفرض الجماعة فرضاً لمن يريد أن يكون مسلماً**، ولمن يريد أن يكون عبداً لله عز وجل، هذا هو الفرق الأساسي بين تصور المسلم للجماعة وتصور الجاهلية لها.

فقضية كون الجماعة ضرورة وبديهية وفطرة وقانون رباني لا بد أن يخضع له الناس قضية لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى الجدل حولها. وحينما نتحدث نحن عن الجماعة فإننا نتحدث عنها من هذا المنطلق، منطلق أن الإسلام يراها صنو الإيمان، ولا يمكن أن يعيش المسلمون مسلمين إلا بأن يعيشوا في جماعة، وأن يتعاونوا على البر والتقوى.

والموضوعات الخاصة بالجماعة والتي سنتحدث عنها بعد هذه المقدمة.. تشمل الأحاديث الواردة في الجماعة، ليس لأن القرآن خلا من الحديث عن الجماعة، ولكن لأن الأحاديث الواردة نصت على كلمة الجماعة بصورة واضحة، ثم نتحدث أيضا عن مفهوم كلمة الجماعة أو ما يماثلها من المفاهيم الأخرى أو الألفاظ الأخرى التي تساويها أو تنفرد عنها مع اختلاف في المعنى يسير، فهناك مصطلحات أخرى تعني الجماعة في صورتها العامة، ولكن تختلف عنها في المفهوم الكلي أو تختلف عنها في جزئيات وتلتقي معها في جزئيات أخرى.

كذلك سنتحدث عن دعائم الجماعة المسلمة؛ ما هي دعائم الجماعة المسلمة وكيف تقوم.

كذلك سنتحدث عن المصالح التي تتحقق بقيام الجماعة ونتائج قيامها[٢٤].

وبعد ذلك سنتحدث عن خطوات البناء لهذه الجماعة المسلمة منذ نقطة الصفر وحتى نقطة النهاية. وأثناء هذا الأمر سنلتقي بقضايا تتصل بخطوات البناء مثل طبيعة الجماعة وخصائصها وأحوالها.

أولا: الأحاديث الواردة في الجماعة

وردت كلمة الجماعة في السنة الكريمة والحديث الشريف بمعان كثيرة، فهي قد تعني أهل العلم فقط، وقد تعني أهل الحديث فقط، وقد تعني أهل الحل والعقد فقط، وقد تعني الجماعة المؤمنة المنتظمة التي لها إمام، وقد تعني الجماعة التي ليست منتظمة ولا متمكنة وإن كان لها إمام. فالألفاظ التي وردت في الأحاديث تعني أكثر من معنى. ولكن المعنى الذي نقصده قصداً في الحديث الآن عن

٢٤ اعتمدنا في هذه الموضوعات الأربعة على رسالة العالمية "الدكتوراه" التي أعدها الدكتور يحيى إسماعيل وعنوانها (منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم) طبع دار الوفاء، المنصورة. مع تصرف لا يخفى على فطنة القارئ.

الجماعة هو الحديث عن ضرورة الجماعة بالنسبة للفرد، وضرورة انتماء الفرد لجماعة، وضرورة ارتباطه بإمام، وضرورة بيعته لإمام، وضرورة عدم خروجه عن الجماعة.

هذا الموضوع هو الذي يهمنا الآن، لأننا لسنا الآن بصدد الحديث عن أهل العلم، ولا عن أهل الحديث، ولا عن أهل الحل والعقد. فالحديث عن هؤلاء قد يكون مهما بالنسبة للمسلمين حينما تتكون الدولة، وتكون الجماعة الواحدة ذات الإمام الواحد قد تكونت.

وقد احتاج المسلمون أن يفسروا بعض معاني الجماعة من خلال حاجتهم في بعض الأحيان إلى تقرير مَن هو صاحب الكلمة الأخيرة؛ هل العلماء؟ أم أهل الحديث؟ أم أهل الحل والعقد؟ أم الإمام؟ فكانت تلك القضايا مرتبطة بواقع المسلمين وبواقع الفقهاء، أما بالنسبة لنا فواقعنا يرتبط بالموضوع الذي يهمنا -وهو الجماعة في أبسط صورها- أن يتجمع أناس على الحق ويجاهدون في سبيله ويرتبطون به.

وسنذكر الأحاديث الشريفة وأقوال العلماء التي تدور حول هذا الأمر.

أحاديث وردت فيها لفظة الجماعة ويراد منها الكثرة الممكنة المنتظمة على إمام واحد:

أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتةً جاهلية)[٢٥].

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو قائل بكفه هكذا كأنه يشير شيئا (من فارق جماعة المسلمين شبرا أخرج من عنقه ربقة الإسلام، والمخالفين بألويتهم يتناولونها يوم القيامة من وراء ظهورهم، ومن مات من غير إمام جماعة مات ميتة جاهلية)[٢٦]. يعني أن المخالفين الخارجين عن الجماعة الذين لا يلتزمون بجماعة يتناولون ألويتهم -تعني كتبهم أو شاراتهم- يوم القيامة من وراء ظهورهم، وهي الصورة التي يأخذ الكافر أو الفاسق بها كتابه.

وأخرج الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال (ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا، وأَمَة أو عبد أبق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده، فلا يسأل عنهم)[٢٧]. ويهمنا في هذا قوله ﷺ (رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً).

أخرج أحمد والبيهقي عن أبى مالك الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (.. وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن؛ آمركم بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم) قالوا: يا رسول الله وإن صام وإن صلَّى؟ قال (وإن صام وإن صلَّى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل؛ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل)[٢٨]. هذه هي الصفة التي سمى الله بها المؤمنين المسلمين لله والمؤمنين بالله، وهم عباد الله عز وجل الذين يرتبطون بالجماعة، وبالسمع والطاعة، وبالهجرة والجهاد في سبيل

---

٢٥ متفق عليه.

٢٦ الطبراني في الكبير وفيه حسن بن قيس وهو ضعيف، وقد ورد بعضه في الصحيح.

٢٧ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٢٨ هو جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح عدا علي بن إسحق السلمي وهو ثقة.

الله، ولا يدعون دعاوى الجاهلية، أيّ دعوى من دعاوى الجاهلية؛ وأولها الكفر والشرك والخروج عن الجماعة. حينما يكون الأمر كذلك لا تنفع صلاة ولا ينفع صوم.

وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٢٩].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتةً جاهلية)[٣٠].

وعن عرفجة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (يد الله مع الجماعة والشيطان مع من خالف يركض)[٣١]. الشيطان يركض مع من خالف أي يصحبه.

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من فارق الجماعة واستذل الإمارة لقي الله ولا وجه له عنده)[٣٢] وكان يقول هذا الحديث بمناسبة مقتل عثمان -رضي الله عنه-.

عن الحارث بن قيس قال لي عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: يا حارث، أليس يسرك أن تسكن وسط الجنة؟ قلت: نعم، قال: فالزم جماعة الناس[٣٣].

وردت أيضا بمعنى الكثرة والسواد الأعظم من المسلمين المتفقين:

قال أبو أمامة الباهلي -رضي الله عنه-: عليكم بالسواد الأعظم، فقال رجل: ما السواد الأعظم؟ فقرأ أبو أمامة -رضي الله عنه- هذه الآية ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤][٣٤].

عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والشاذة وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)[٣٥].

وعن أبي ذر -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال (اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة وعليكم بالجماعة فإن الله عز وجل لم يجمع أمتي إلا على هدى)[٣٦].

---

٢٩ أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجالهم ثقات.

٣٠ مسلم، صحيح.

٣١ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٢ أحمد ورجاله ثقات.

٣٣ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٤ رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

٣٥ أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات.

٣٦ أحمد في المسند وفيه البحتري بن عبيد وهو ضعيف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (من عمل في الجماعة فأصاب قُبِل منه، أو قَبِل الله منه، وإن أخطأ غفر له، ومن عمل يبتغي الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار)[37]. كأن الجماعة رداء وعصمة للمؤمن، إن أصاب قبل منه، وإن أخطأ غفر له. أما إذا فارق الجماعة فإن أصاب لم يقبل منه، وإن أخطأ فمصيره إلى النار.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ (يد الله مع الجماعة)[38]. ويكفي لأن يحرص الإنسان على الجماعة أن تكون يد الله مع الجماعة، ومعنى ذلك أن يد الله ليست مع الفرد الشاذ عن الجماعة.

وللطبراني عن يسير بن عمر أن أبا مسعود -رضي الله عنه- لما قتل عثمان -رضي الله عنه- احتجب في بيته، فأتيته، فسألته عن أمر الناس فقال: عليك بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى يستريح بر ويُستراح من فاجر.

وروى الطبراني عن أبى مسعود -رضي الله عنه- أيضا حينما قتل عليّ -رضي الله عنه- قال له نفس الرجل: أنشدك الله، ما سمعت من النبي ﷺ في الفتن فقال: إنا لا نكتم شيئاً، عليك بتقوى الله والجماعة، وإياك والفرقة فإنها هي الضلالة وإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر -رضي الله عنه- بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال صلى الله عليه وسلم (أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة)[39]. قال ابن الأثير رحمه الله في شرح هذا الحديث: أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله، ووقايته فوقهم، وهم بعيدون عن الخوف والأذى والاضطراب.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: الزموا هذه الطاعة والجماعة، فإنه حبل الله الذي أمر به في قوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣][40]. فيوضح ابن مسعود أن المقصود بحبل الله هو الجماعة.

وردت أيضا بمعنى النظام والاتفاق:

في سنن أبي داود عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- أنه قال (كان رَسُولُ الله ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا فَزِعْنَا بِالْجَمَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالسَّكِينَةِ، وَإِذَا قَاتَلْنَا)[41]. في مقابلة أي أمر مفاجئ وطارئ أو مخيف يفزع المسلمون إلى الجماعة، أي ينتظمون فيها وينظمون أنفسهم ويتفقون.

٣٧ الحديث ضعيف، وقد ورد عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: عليك بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى يستريح بر ويستراح من فاجر، رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٨ الترمذي، غريب ورجاله ثقات.

٣٩ الترمذي وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

٤٠ أخرجه الحاكم في المستدرك.

٤١ جزء من حديث له، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وردت أيضا بمعنى الكثرة المتفقهة من أهل العلم:

ورد في البخاري عن علي -رضي الله عنه- قال: اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي. يقصد جماعة على رأي واحد من أهل العلم، ولذلك فإن كل ما انفرد به شخص من أحكام كان إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب، وهذا ما يراد من لفظ الجماعة عند الفقهاء، وهو ما يسمى عند الأصوليين بإجماع أهل الحل والعقد وهم الذؤابة من أهل الحل والعقد في ميدان الحكم. يقول الغزالي رحمه الله: "فَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْخَوَاصُّ فَالْعَوَامُّ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِيهِ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ لَا يُضْمِرُونَ خِلَافًا أَصْلًا فَهُم مُوَافِقُونَ أَيْضًا فِيهِ. وَيَحْسُنُ تَسْمِيَةُ ذَلِكَ إجْمَاعَ الْأُمَّةِ قَاطِبَةً، كَمَا أَنَّ الْجُنْدَ إذَا حَكَّمُوا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ فِي مُصَالَحَةِ أَهْلِ قَلْعَةٍ فَصَالَحُوهُمْ عَلَى شَيْءٍ يُقَالُ هَذَا بِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْجُنْدِ. فَإِذًا كُلُّ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْعَوَامّ وَبِهِ يَتِمُّ إجْمَاعُ الْأُمَّةِ"[٤٢].. وبهذا المعنى يقول الأصوليون أن الإجماع هو اتفاق أهل الحل والعقد في أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور، والإجماع معلوم أنه حجة شرعية يستدل بها على الأحكام الشرعية.

وردت بمعنى اتفاق أهل الشوكة والجمهور الذين يقام بهم الأمر:

بحيث يمكن أن تقام بهم مهام الإمامة، وهذا يفسر قول الرسول ﷺ (وعليكم بالجماعة).

قال ابن تيمية: "أَمَّا الْإِجْمَاعُ عَلَى الْإِمَامَةِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْعَقِدُ بِهِ الْإِمَامَةُ، فَهَذَا يُعْتَبَرُ فِيهِ مُوَافَقَةُ أَهْلِ الشَّوْكَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ مُتَمَكِّنًا بِهِمْ مِنْ تَنْفِيذِ مَقَاصِدِ الْإِمَامَةِ"[٤٣].

هذه بعض الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في أمر الجماعة، وهي أحاديث كثيرة، لا تدع فرصة لإنسان صادق أن يتصور، ولو للحظة واحدة، أنه من الممكن أن يعيش بلا جماعة، أو أن تنتظم حياة الناس ومصالحهم بدون جماعة، أو أن يقوم الإسلام أصلاً بدون جماعة، فهذا المعنى بديهي، وكان الصحابة يفهمون ذلك جيدا، ويتعاملون مع هذه القضية بهذه الصورة الواضحة جداً والحمد لله.

ثانيا: مرادفات كلمة الجماعة

هناك بعض الألفاظ التي تقارب لفظ الجماعة وتتفق معها في أصل المعنى، ولكنها تختلف بعض الاختلاف في جانب من هذا المعنى، ومنها: الطائفة، العصبة، الفئة، الفوج، الثلة، الزمرة، الحزب، الشيعة، القوم، الملأ، الأمة.

كل هذه الألفاظ وردت في القرآن وفي الأحاديث، وتعني معنى الجماعة، أو تختلف عنها في جانب، ولكنها تتفق معها في أصل المعنى.

الطائفة: يقول الرسول ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)[٤٤]، هنا لفظ: الطائفة، بمعنى الجماعة.

---

٤٢ المستصفى. ج١. ص١٤٣.

٤٣ مناج السنة النبوية ج٨ ص٣٥٦.

٤٤ صحيح، أخرجه مسلم.

لفظ: **العصبة**، استعمل كالطائفة تماما في الحديث الذي رواه معاوية -رضي الله عنه- (لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة)[٤٥].

ومنها لفظ: **الفئة**، وهي الجماعة المفترقة عن غيرها، وجمعها فئات.

أما لفظ: **الفوج**، فهو الجماعة الكثيرة قال تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ٢].

لفظ: **الثلة**، وهي الجماعة تندفع في الأمر جملة.

الزمرة، جماعة لها صوت أو لها حضور.

الحزب، الجماعة تتحزب على أمر، أي تتعاون، وحزب الرجل: الجماعة التي تعينه فيقوى أمره بها.

الشيعة، وهي الجماعة المائلة بمحبة، والتشيع معه الحب، وأصلها من الشياع وهي الحطب الدقاق الذي تجعل مع الحطب في النار فتشتعل.

القوم: هم الرجال الذين يقوم بعضهم مع بعض في بعض الأمور.

الملأ: وهم الأشراف الذين يملؤون القلوب هيبة والعين إجلالا.

الأمة: هي كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد.

هذه كلها تعبيرات ترد في الحديث والقرآن، فيفهم منها معنى الجماعة.

من هنا يتبين أن قضية الجماعة قضية بديهية، تنبثق وتترتب ترتيبا طبيعيا على موضوع الإيمان بالله عز وجل والتوحيد والجهاد في سبيل الله، وأي إنسان لو تصور نفسه فردا منعزلا عن الجماعة فسيكون كالغصن الذي يموت بعد قليل حينما يُقطع من الشجرة. **فقضية الجماعة من منظور الإسلام قضية إيمانية ومقتضى عقدي، وهي الوجه الآخر لقضية لا إله إلا الله.** فإذا آمن الإنسان بقضية لا إله إلا الله وشهد بها فلا بد أن يقر في حسه في نفس اللحظة أنه منتدب لأن يدعو الناس إلى هذه الحقيقة، ليصنع منهم جماعة تجاهد لإعلاء كلمة الله وإقرار دين الله في الأرض، فهي قضية مرتبطة بشهادة لا اله إلا الله ارتباط معنى وتوقيت والتزام، فكأن قضية الجماعة هي الوجه الآخر لقضية لا اله إلا الله. والعجيب أن هذا المعنى قاله أحد المستشرقين "ألفريد كاونتل سميث" الذي تحدث عن أهمية الجماعة عند المسلمين وعند الشيوعيين، بينما قال أن الجماعة لا تعني شيئاً عند الفكر النصراني أو المسيحي. فالشيوعية ترى أنه لا بد أن يقوم حزب وتقوم طائفة تحمل هذا الفكر وتلك العقيدة وأن يجاهدوا في سبيلها كما فعلوا في واقع الأمر تماما. والإسلام أيضا يرى أن الجماعة ضرورة إيمانية لا يتم إيمان المسلم إلا بها.

فإذا كانت الجماعة بهذا الوضوح، وهذا الوجوب، وهذه الضرورة التي نراها ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي فإن المسلم الصادق الذي يشهد أن لا إله إلا الله يجد -إذن- أن الجماعة تمثل إفرازاً طبيعياً لهذا الإيمان.

---

٤٥ صحيح، مسلم عن معاوية -رضي الله عنه-.

ثالثا: دعائم أو أسس الجماعة المسلمة

لعل هذه الدعائم التي نتحدث عنها سترسم الصورة النموذجية المطلوبة فعلاً من الجماعة المسلمة كي تكون قائمةً فعلاً على أمر الله تحقيقاً لألوهية الله في الأرض، فلا يكون دين غير دين الله عز وجل. ولكن بطبيعة الحال قد تتخلف بعض هذه الدعائم في وقت من الأوقات. فبقدر الدعائم المتاحة للجماعة المسلمة بقدر ما تقوم بواجبها، وعليها أن تحرص على استكمال باقي الدعائم للوصول إلى الهدف النهائي.

الدعامة الأولى: العقيدة

فلا بد من الاجتماع على العقيدة الحقة في الله عز وجل، لأن الجماعة لا تسمى جماعة مسلمة إلا إذا التقت على العقيدة الصحيحة، عقيدة الأنبياء، والتي أمروا أن يبلغوها للناس، والتي من أجلها خُلِق الناس، وهي الأمر الذي نتحدث فيه ونددندن حوله باستمرار، وهي قضية عبوديتنا لله. فالجماعة المسلمة إذا كانت مجتمعة لهذا الهدف فبداهة لا بد أن يكون اجتماعها على عقيدة صحيحة تنبت وتقوم على القرآن والسنة.

الدعامة الثانية: القيادة

ولا بد من إمام ينتظم به أمر الجماعة ويقوم بتكاليفها. وفي الحديث المشهور عن حذيفة -رضي الله عنه-: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال (نعم) قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال (نعم وفيه دخن) قلت: وما دخنه يا رسول الله؟ قال (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر) قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال (نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها) قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا) قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال (تعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[٤٦]. صدق رسول الله ﷺ، فوصية الرسول ﷺ هي أن تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم حيث إن هذه الجماعة وهذا الإمام هو الذي يعصم المؤمن من دعاة على أبواب جهنم. ونحن نعرف أن الرسول ﷺ أمر بالإمارة في أقل من ذلك، فقال (إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم)[٤٧]، وكما يقول ابن تيمية وغيره: "فَإِذَا كَانَ قَدْ أَوْجَبَ فِي أَقَلِّ الْجَمَاعَاتِ وَأَقْصَرِ الِاجْتِمَاعَاتِ أَنْ يُوَلَّى أَحَدُهُمْ: كَانَ هَذَا تَنْبِيهًا عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ فِيمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ"[٤٨].

---

٤٦ متفق عليه.

٤٧ أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بإسناد صحيح، وأخرجه البزار بإسناد صحيح من حديث عمر بن الخطاب، وأخرج البزار أيضا بإسناد صحيح من حديث عبد اللّه بن عمر مرفوعا بلفظ "إذا كانوا ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح.

٤٨ مجموع الفتاوى. ج٢٨. ص٦٥.

الدعامة الثالثة: العلم

علمٌ بالإسلام، وبحقيقة هذا الدين، بالعقيدة والمنهج، بالحلال والحرام، وبالواقع، وبأصول الفقه وقواعد الشريعة، وبروح الشريعة ومقاصدها، حتى تستطيع الجماعة المسلمة أن تختار الطريق الصائب في كل خطوة من خطواتها، وإليه يشير قول الرسول ﷺ فيما أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فَضلّوا وأضلّوا)[٤٩]، لذلك لا بد من أن يكون للجماعة قيادة عالمة تقية لكي تحفظ الناس من الضلال ومن الضياع.

الدعامة الرابعة: المنهج

لا بد أن يكون للجماعة منهج واضح، ووسائل واضحة، وعمل واضح تقوم به وتلتزم به أيضا. أخرج أحمد بن أبي عبد الرحمن قال: "حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا: فعلمنا العلم والعمل"[٥٠].

فلا يكتفي المؤمنون بإقامة الجماعة، ولا بوجود القيادة، ولا بوجود حتى العلم، ولكن لا بد من أن يتحقق هذا العلم في صورة عمل، وفي صورة سلوك، كما قال الصحابة، وكما كانوا يفعلون، كانوا يقترئون، فتعلموا العلم والعمل جميعا.

والعلم المقصود هنا هو طاعة الله عز وجل، وليس المقصود ذلك العلم ولا العمل المراد به التباهي أو الجدل أو المماراة. فلا بد أن يكون العلم خالصا لله عز وجل (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)[٥١]، ولا بد أن تكون الجماعة متوافقة ومتفاهمة ومتلاحمة في العمل حتى يتحقق بها عمل منتج، أما إذا كان هناك خلاف، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلن يكون هناك عمل، كما جاء عن الأوزاعي قال: (إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل ومنعهم العمل)[٥٢]. ولا شك أن المؤمنين سيكونون أبعد ما يكونون عن الجدل والمماراة، وسيكون ديدنهم أن يتفاهموا ويتناقشوا بغية الوصول إلى الحق والصواب، ليس انتصارا للرأي، ولا إثباتا للذات، ولا للمماراة والجدل، أو المغالطة، أو أي شيء آخر غير طاعة الله.

الدعامة الخامسة: وجود أهل الرأي والمشورة

لا بد أن يكون للجماعة أهل رأى ومشورة، يصدر الجميع عن حكمهم، ويرجعون إلى مشورتهم، لأن الشورى -كما نعلم- أصل من أصول النظام الإسلامي. والإمام الحق لا بد أن يستشير، وكذلك فعل رسول الله ﷺ. وهناك فرق بين عملية الشورى في ذاتها وبين النتيجة المترتبة عليها، فالإمام المؤمن التقي لا يستقل بعقله، ولا يعتمد فقط على عقله ولا على علمه، وإنما هو دائماً يحس أنه ضعيف بغير إخوانه، وبغير من معه، لذلك تجده يستكثر من المشورة، لأن الإكثار من المشورة هو في الحقيقة استكثار من العقول. فالمشورة هي

---

٤٩ متفق عليه.

٥٠ أخرجه أحمد في مسنده. ٤١٠/٥. والحديث مرسل ورجاله ثقات.

٥١ أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وحسنه السيوطي.

٥٢ اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٧٩.

عبارة عن اجتماع عقول أهل الحل والعقد، والمؤمنون الأتقياء يصبون في بوتقة واحدة. فلا شك أنه كلما كثرت الشورى وكلما كثر عدد المشيرين كلما كان الرأي صائبا أو أقرب إلى الحق. فالإمام الحق لا يستبد، ولا يقلل من قيمة الشورى، وإنما يحرص عليها حرصا شديدا، والقرآن أمر بذلك في آيتين؛ قال تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال سبحانه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبعد المشورة يكون العزم ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الدعامة السادسة: الأرض

والدعامة السادسة للجماعة هي أرض تقيم عليها الجماعة ويظهر فيها سلطانها. وهي آخر خطوة في عمل الجماعة المسلمة، أن ييسر الله لها أرضا تقيم فيها دولة الحق، وهذه هي الصورة النموذجية المطلوب أن تسعى إليها أي جماعة؛ أن تقيم الإسلام في الأرض، ولن يقوم الإسلام إلا من خلال إقامة أمة الإسلام متمثلة في دولة وإمامة وقيادة. وهذا يستلزم أرضاً تقوم عليها الجماعة وتقوم عليها الدولة. فإذا كانت الجماعة قوية صحيحة فستتوارى أسباب الوهن، وتجتمع على إمام واحد، فتكون بذلك هي الجماعة التي لا جماعة غيرها، ويكون الزمان زمان عافية كما كان في عهد الخلافة الراشدة. أما في زمان الفتنة فستمرض الجماعة، وتتداعى عليها الأمم، وتتفكك أواصرها، ويتنازع أفرادها، وتتوزع في جماعات متناحرة.

فحيثما كان الزمان زمان عافية فالجماعة التي يعُدّ الخارج عليها عاصيا، هي الجماعة الكاملة التي انتظمت على الإمام الواحد، فإذا مات مات ميتة جاهلية ويلقى ربه ولا يمين له والجماعة هنا هي الجماعة الجامعة التي انتظمت على إمام واحد. سئل الإمام أحمد عن حديث رسول الله ﷺ (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية)[٥٣] فقال: ما تدري ما الإمام؟ الإمام الذي يُجْمِع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا إمام[٥٤]. وهذا ما نعبر نحن عنه بالجماعة الجامعة التي يكون الخروج عليها خروجا على الإسلام ومعصية وفسقا. ويؤكده كلام الإمام أحمد في تفسيره لحديث الرسول ﷺ (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية) أنه الإمام الذي يجمع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا إمام.

وحيث يكون الزمان زمان فتنة فكل ما يقع به الكفاية في واحد من مقومات الجماعة أو دعائمها الستة تكون به جماعة الوقت التي ينبغي التزامها، العقيدة بالطبع ضرورة أساسية، أما بقية الأمور (الإمامة، والقيادة، والعلم والعمل، وأهل الحل والعقد، والأرض) فحسب الممكن. فإذا قامت جماعة بعقيدة وإمام وعلم فقد لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا إلا أن يعبدوا الله عبادة فردية، ويكون هذا -فقط- هو المتاح لهم. أما إذا استطاعوا أن يقوموا بالدعوة، أو أن يبلغوا، أو يجاهدوا، فيجب ذلك عليهم، وهكذا حسب الممكن، فتكون هذه الجماعة هي جماعة الوقت التي ينبغي التزامها. ولذلك ينبغي على كل فرد صادق أن يبحث عن جماعة الوقت، أو بمعنى آخر جماعة الحق، فإذا وجدها فلا يجوز له أن يخرج عليها. ولكن إذا خرج عليها -فحتى إن كان له عند الله حكم- فإنه عند البشر لا يكون خارجا عن الجماعة الجامعة، ذلك لأننا في زمن الفتنة. فعند الله قد تكون هذه الجماعة هي الجماعة الوحيدة التي على الحق، والتي لا يجوز الخروج عليها. ولكنّ هذا في علم الله، ولكنْ في علم البشر هي جماعة من الجماعات.

---

٥٣ الحديث أخرجه الطبراني وهو ضعيف، ورواه مسلم بلفظ (من مات وليس في عنقه بيعة.. الحديث).

٥٤ منهاج السنة ١/١٤٤، والحديث أخرجه مسلم بلفظ (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

فإذا وجدت جماعات كثيرة، فما هي الجماعة التي يتوفر فيها شروط الجماعة الحقة؟

لا شك أن الفرد مطالب ألا ينضم إلى جماعة إلا بعد أن يتحرى إن كانت هي جماعة الوقت أو أقرب الجماعات إلي الحق أم لا، فلا يجوز له أن يرتبط بأي جماعة تستهويه؛ سواء بشكلها، أو عددها، أو منظرها، أو ضجيجها، أو سهولتها أو صعوبتها، أو غير ذلك. ليس هذا هو مقياس الجماعة الحقة. الجماعة الحقة هي ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته. يقول ابن حزم رحمه الله[٥٥]: إن لم يكن للناس إمام ممكّن فكل من قام بالحق حينئذ فهو نافذ. أي كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك[٥٦]. فإذا لم يكن للناس إمام ممكّن فحسب الإمكان، فقد لا يكون هناك إلا إنسان واحد قائم بالحق.

وفي العمل يجب اتباع ما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم-، فخيار هذه الأمة هم الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق وأبعد عن التفرق والاختلاف منهم.

الجماعة الحقة هي التي ترتبط على العقيدة الحقة وعلى إمام حق، ويكون علمها علما حقا، وتعمل بعمل الصحابة -رضي الله عنهم- لأنه أصوب صورة للالتزام الحق، لأنهم كانوا أكمل القرون وأفضلها.

رابعا: المصالح التي تتحقق من خلال إقامة الجماعة

إقامة دين الله في الأرض: أول مصلحة تتحقق من إقامة الجماعة المسلمة هي اقامة دين الله في الأرض. وهذه مصلحة تتمشى مع مراد الله من الخلق، وهذا المراد لا يتحقق من خلال فرد أو اثنين أو ثلاثة، وإنما يتحقق من خلال تجمع طائفة من الناس أو ثلة أو حزب كبير من الناس يعملون من أجل إقامة هذا الحق.

تحقيق الإسلام لأفرادها وصدقهم: فاللجوء إلى الجماعة والانضواء تحت لوائها دلالة على صدق الإنسان الذي يدعو إلى الله عز وجل، فلا يكون داعيا لله ثم يكتفى بالكلام أو بتأليف كتاب، أو يكتفى بأن يعبد الله في بيته. لا بد أن يسعى لإقامة الجماعة.. كما سنتحدث بعد ذلك في هذا الموضوع

لا يكون الجهاد إلا بالجماعة: كما قال الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فالقوم هم الجماعة. فإذن الجهاد لا يقوم إلا بالجماعة، ولم يعد الله سبحانه وتعالى الفرد بالنصر ولا بالمعية، إنما وعد الجماعة بالمعية.

صيانة الدماء والأموال: فبالجماعة تصان الدماء والأموال. فبعصمة الدار أو بعصمة الجماعة ومنعة الإسلام المستمدة من قوة المسلمين وجماعتهم يعصم دم المؤمن والمسلم وتصان الأموال، بل إن دماء أهل الذمة المستأمنين وكل من يعيش في دار الإسلام تصان بوجودهم في دار الإسلام.

---

٥٥ المحلى. ج١١. ص٣٥٤.

٥٦ سنن الترمذي. ج٤. ص٤٦٧. وصححه الألباني.

ولذلك أجمع الفقهاء على أنه إذا صلى المرء وحده لم يحكم بإسلامه، ويقصدون طبعا إذا كان ذلك اختياره وكان دأبه، وكأنه يرى أن حكم الصلاة هو الانفراد بها، ولكن مادام هناك من يتحقق بهم أمر الجماعة في الصلاة لا بد أن يصلي جماعة، فأما إذا أصر الإنسان على أن يصلي دائما وحده ويترك الجماعة أجمع الفقهاء على أنه لا يحكم بإسلامه إلا في رواية رواها داود بن رشيد[٥٧]، لأن الصلاة أو جماعة الصلاة إعلان عن الإسلام وعن الارتباط بالإسلام، فالذي يحرص على جماعة الصلاة كأنه يعلن بعمله أنه مسلم، وأنه مرتبط بالإسلام، أما إذا تنحى الإنسان عن الجماعة فيكون شاذاً وخارجاً. لذلك كانت مهمة الجماعة كبيرة جداً في كل شيء وفي كل أمر.

توجب الحكم بإسلام من يأرز إليها: فالجماعة توجب الحكم بإسلام من يأرز إليها، ولا شك أن الإنسان الذي لا يكون موصولا بالجماعة المسلمة يضع نفسه في موضع الشبهة في إسلامه إذا وجدت جماعة مسلمة ولم ينضم إليها. فهو بذلك يكون متناقضاً مع ادعائه، فيشك في صدقه وفي ولائه. وقد ذكر ذلك الشريف الرضي.

صون كرامة المسلمين وبث الروع والمهابة في قلوب الكافرين: لا شك أن الجماعة كلما قويت وكبرت، وأصبح لها شوكة، وأصبح لها أيضا وجود وحضور، ثم أصبح لها دولة، فإن هذا يعني أنها تصون كرامة المسلمين، وتصون أمنهم، وتزرع المهابة لهم في قلوب أعدائهم. فمن ثم تصبح إقامة الجماعة المسلمة ضرورة من ضرورات الأفراد. فهي فضلا عن كونها ضرورة إيمانية فإنها ضرورة اجتماعية: "فإن خوف أهل الحرب من جماعة المسلمين لا من واحد منهم، ولكن من جماعتهم، والقوة للمسلم في دار الإسلام بجماعة المسلمين". فالمسلم قوي بالجماعة.

الشهادة لأفرادها بالخيرية: يقول الرسول ﷺ (ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون عنه إلا خيراً إلا قال الله تبارك وتعالى قد قبلت قولكم أو قال شهادتكم وغفرت له ما لا تعلمون)[٥٨]، فكأن من أهمية الجماعة ونتائجها الرائعة أنها تضمن لنا شفاعة المؤمنين -وهم الجماعة- فإذا شهد أربعة من المؤمنين على رجل أو على إنسان بالخير أمضى الله ما قالوا رغم علمه بسيئاته الكثيرة كما ورد في الحديث (وغفرت له ما لا تعلمون). وهذه نعمة كبيرة، فلا شك أن كل واحد منا له معاص كثيرة لا يعلمها الآخرون... فالمسلمون سيشهدون لأخيهم شهادة طيبة جداً وهم لا يعلمون ما فعله، والله سبحانه يقبل شهادتهم ويغفر له ما لا يعلمون، وهذه نعمة.. ومكسب ضخم جداً، فالأمر كبير فعلاً... قال رسول الله ﷺ (يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار) قالوا: بم ذلك يا رسول الله؟ قال (بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض)[٥٩]. فالله عز وجل يقبل شهادة المؤمنين. فلنحرص على الجماعة، ولعل ثناء بعضنا على بعضنا بالحق يغفر لنا ما لا يُعلم عنا، وهذا ثناء أو إكرام لهذه الأمة، فإذا شهد الأبعدون والأدنون لفرد فلا شك -كما في الحديث الآخر- يوضع له القبول في الأرض.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال "مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها خيراً فقال نبي الله ﷺ (وجبت، وجبت، وجبت) ثم مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها شراً فقال نبي الله ﷺ (وجبت، وجبت، وجبت) فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: فدى لك أبي وأمي مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها خيراً فقلت (وجبت، وجبت، وجبت) ومُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها شراً فقلت (وجبت، وجبت، وجبت) فقال رسول الله ﷺ (من أثنيتم عليه

---

٥٧ السير الكبير ١/١٠٥.

٥٨ الحاكم وقال صحيح على شرط المسلم، ووافقه الذهبي.

٥٩ أحمد وابن ماجة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير الحسن بن عرفة وهو ثقة.

خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)[٦٠]. كأن الله يأخذ بشهادة الجماعة المؤمنة، فإذا أثنت على الإنسان رضي الله عنه، وإذا ذَمَّته لم يرض الله عنه. وهذا لا يكون إلا للجماعة المسلمة. ولذلك يجب أن يحرص الإنسان على أن تكون الجماعة راضية عنه، لأنه لو كانت الجماعة غير راضية عن فرد منها فهذا معناه أن هذا الشخص ليس خيِّراً -طالما أن الجماعة تسير على منهج الله عز وجل- ويستطيع الإنسان أن يعرف قيمته عند الله من خلال قيمته عند الجماعة المسلمة وعند قيادة الجماعة. فإذا كانت قيادة الجماعة راضية عنه وأفراد الجماعة راضون عنه فإنه يكون أقرب ما يكون إلى الله، وكلما قلّ هذا الرضا وقلت هذه الثقة كلما عرف الشخص أنه بعيد بقدر ما نقص من الثقة أو من رضوان الجماعة عليه. وهذا مقياس دقيق جدا. لذلك يجب أن يحرص كل فرد على أن يتحسس أمره عند قيادة الجماعة، وعند أفراد الجماعة؛ هل هو مرضيٌ عنه؟ أم عليه ملاحظات؟ وعليه أن يعالج هذه الملاحظات بسرعة حتى ترضى عنه الجماعة. وتروي لنا السنة أن امرأة كانت في زمن الرسول ﷺ تعلن الفجور، ولم يكن عليها بينة، لكن الناس كانوا يقولون إنها فاجرة، فقال الرسول ﷺ (لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمت هذه)[٦١]. فدلالة الحديث واضحة أن الرسول ﷺ كان يقر في نفسه شهادة الجماعة المسلمة عن هذه المرأة، لولا أنه كان حريصا على إقامة الإجراءات الصحيحة حتى لا يكون الأمر بعده فوضى. ولا شك في أهمية هذا الأمر.

الجماعة عصمة للإنسان من كيد الشيطان: وكما جاء في الحديث (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والشاذة وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)[٦٢]. وفي الحديث (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[٦٣]، والشيطان إلى الواحد أقرب وهو من الاثنين أبعد، لذلك كلما كان الإنسان في تجمع كلما كان معصوما من كيد الشيطان، وهذه بركة أيضا من بركات الجماعة.

يقول ابن تيمية: "المسلمون إذا اجتمعوا وكثروا يكون داعيهم إلى الفواحش والظلم أقل من داعيهم إذا كانوا قليلا، فإنهم في حال الاجتماع لا يجتمعون على مخالفة شرعية أو مخالفة شرائع الإسلام"[٦٤].

الجماعة تكون قوة للمسلم والمسلم قوي بالجماعة: يقول أبو حنيفة: إن الحربي إذا دخل دار الإسلام[٦٥] بغير أمان فأخذه مسلم، فإنه يكون فيئا لجماعة المسلمين لا لفرد[٦٦]، لأن هذا الفرد لم يأخذه بقوته وانما أخذه بقوة الجماعة، فيكون فيئا للمسلمين. وبهذا يكون المسلمون قوة للفرد وليس للفرد بنفسه قوة.

---

٦٠ متفق عليه.

٦١ البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد عن ابن عباس.

٦٢ أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات.

٦٣ هذا لفظ أبي داود، وأخرجه أحمد والنسائي في المجتبى، ومدار الحديث في الثلاثة على السائب بن حبيش الكلاعي الحمصي، قال الدارقطني: صالح الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات.

٦٤ منهاج السنة ٢٣٧/٤.

٦٥ سنتحدث عن تعريف دار الإسلام ودار الحرب وأقسامهما بعد الانتهاء من ذكر المصالح المتحققة بقيام الجماعة المسلمة.

٦٦ السير الكبير ٣٩٩/١.

تعين المسلم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إلا أن يكون فردا ضعيفا متخاذلا.

الجماعة تعصم المسلمين من الضلالة: وكما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- "عليكم بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة"، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)[٦٧]. يقول ابن مسعود -رضي الله عنه- "ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن عند الله وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيئ"[٦٨].

وهذه مسألة مهمة جدا في الجماعة والحركة، فكثيراً ما يكون لأحد الأفراد رأي أو تصرف ويصر عليه حتى لو اجتمع أمامه عشرة أو عشرون أخ من إخوانه الذين يعتد برأيهم. ينبغي أن يعرف المسلم أن ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن وما رأوه سيئا فهو سيئ. فليس نوعا من الاختيار والتفضل على الجماعة أن يقول الفرد: سوف أتنازل عن رأيي لكم. المسألة أكبر من هذا. إن هذا حق في ذاته، حسن في ذاته، لأنه كما أمر الرسول ﷺ (عليكم بتقوى الله ولزوم جماعة محمد ﷺ فإن الله لم يجمع جماعة محمد ﷺ على ضلالة)[٦٩]، وهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: إن دين الله واحد وإياكم والتلون في دين الله وعليكم بتقوى الله ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرق.

الجماعة حصن يأوي إليه المسلم عند الشدائد: إن الجماعة المسلمة سواء كانت في حالة استضعاف أو في حالة قوة تُقوّي المسلم وتحميه.. وقد استثنى الله عز وجل من الفرار يوم الزحف الذين يتحرّفون لقتال، أو ينحازون إلى فئة، من أجل أن هذه الفئة هي الجماعة، وهي القوة، أما إذا كان هارباً على وجهه أو لشأنه فلا شك أنه يقع في المعصية ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦] والفئة هنا هي الجماعة والقوة، ولا شك أن الإنسان عندما يواجه خطراً ويكون معه جماعة من الناس يكون أكثر شجاعة وأكثر طمأنينة وأكثر ثباتا، فمما لا شك فيه أن المسلم في المعركة حينما يرى أن معه أخوة آخرين مسلمين يجاهدون ويقاتلون ويتقدمون فإنه يتقوى بهم، ويسعى إلى أن تثبت قدمه ويثبت قلبه على البلاء، أما إذا كان وحده فإنه يمكن أن يضعف ويهرب. وفي أوقات المحن، لا شك أن وجود الناس مع بعضها يخفف عنهم كثيراً عما لو كان الإنسان منفرداً بنفسه، ولا شك أن أي خطر يخف وتقل متاعبه حينما يكون الإنسان مع الجماعة، ولقد قال سمرة بن جندب -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا إذا فزعنا بالجماعة والصبر[٧٠]. وقال رسول الله ﷺ (إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلك من الشيطان) فلم ينزلوا بعد ذلك إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم[٧١] لأن الرسول ﷺ نهاهم عن حتى التفرق في الشعاب والأودية حينما كانوا يسيرون في سرية فأمرهم رسول الله ﷺ أن يتجمعوا.

---

٦٧ تقدم تخريجه.

٦٨ منهاج الاعتدال. ص٧٧.

٦٩ الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي من قول أبي مسعود الأنصاري، وأخرج الطبراني في الكبير (إن الله عز وجل وعدني في أمتي وأجارهم على ثلاث؛ لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة) ورجاله ثقات.

٧٠ أبو داود والحديث حسن.

٧١ أخرجه أبو داود.

الحق يتحدد بالجماعة: يقول الإمام العيني: في قوله صلى الله عليه وسلم "التارك لدينه المفارق للجماعة" قيد به للإشعار بأن الدين المعتبر هو ما عليه الجماعة، فالتارك للجماعة كأنه ترك دينه، وربط الجماعة بالدين، وربط وجود الإنسان في جماعة بوجوده على الدين، لأن الدين المعتبر هو ما عليه الجماعة، ويستنبط استنباطاً لطيفاً من قول الله عز وجل ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩] يقول: إن الله عز وجل لم يقل في حالة عدم التنازع الرجوع إلى كتابه وسنة رسوله باعتبار أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وما يراه المسلمون حسناً فهو حسن، لكن فرض الرجوع حين التنازع. فإذن من بركة الجماعة أن الحق كأنما يتحدد بالجماعة، فما رأته الجماعة حقاً يكون -إن شاء الله حقاً عند الله- فهذه أيضاً من بركات الجماعة، بحيث يصبح الإنسان المؤمن حريصاً جداً على معرفة رأي الجماعة في كل أمر من أموره حتى يطمئن أنه على الصواب، بل يصبح الأمر كبيرة وجريمة حينما يعرف رأي الجماعة ويصر على ما يراه مخالفاً لها ويستكبر، فيضيع على نفسه المصلحة، كما أنه يرتكب إثماً في ذات الوقت.

دفع المشقة عن المؤمنين: من طبيعة الجماعة أنها تدفع المشقة عن المؤمنين. فقد يفرض المؤمن على نفسه أشياء شاقة، ولكن الجماعة تختار الوسط العام الذي يحتمله القوي والضعيف، فيصبح أمر الجماعة أقل مشقة وأقل إتعابا للمؤمن وللناس. ولا شك أن رد الأمر للجماعة يجعل الأمور تأخذ شكلاً واقعياً أكثر مما قد يظن الفرد حينما يختار لنفسه. وقد يختار الفرد لنفسه عزيمة ضخمة جداً ربما لا يستطيعها، فيُحَمّل نفسه ما لا يطيق، ولكن الجماعة ترى الأمر الذي يحقق مصلحة الجميع، والذي يكون في استطاعة الجميع، فيصبح الأمر ميسراً أفضل مما يختار الإنسان لنفسه.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ (الفطر يوم يفطر الناس والأضحى يوم يضحي الناس)[٧٢]، كأن الأمر مرتبط بالناس، أي بالجماعة، فلا يجوز أن يشذ مسلم عن إجماع المسلمين حتى يكون معهم، فالذي ينفرد بأمر يشقي نفسه. يقول ابن القيم: "في هذا الحديث دليل على أن المنفرد بالرؤية لا يلزمه حكمها لا في الصوم ولا في الفطر"[٧٣]، فحتى لو رأى ولكن الجماعة لم تر فقررت يوم فطر أو يوم أضحى غير ما يرى هو، فهو ملزم برأي الجماعة ولا تلزمه رؤيته المنفردة. وفي هذا حكمة كبيرة لبيان عظم وضخامة دور الجماعة وأهميتها حتى في أمر مستيقن. فلا يجوز أن يأتي أحد ليقول: أنا لن أتبعكم، أنا رأيت بعيني... فهذا تفريق للجماعة، ولو اجتمعت الجماعة على خطأ خير من أن تفترق على صواب.

تعويد المؤمن أن يعيش من خلال الآخرين: لا شك أن الإنسان المؤمن حين يكون مرتبطاً بالجماعة لا يسهل عليه التضحية بها، ولا الفرار من خطر يدهمها، وهو يؤثر سلامة نفسه، ولا يوقع أحداً غيره بالخطر ليهرب هو منه، وإنما على العكس من ذلك، نرى في سيرة الصحابة والتابعين وكل المؤمنين الصادقين أنهم كانوا يؤثرون الجماعة على أنفسهم. ولا شك أن هذه الروح لا توجد إلا فيمن يعيش في تجمع أو في جماعة، فتنمو مشاعر الحب والإيثار والتضحية في نفسه، أما الإنسان الذي يعيش وحده فلا شك يتضخم عنده إحساسه بالأنانية والحرص على نفسه وحب الذات والحرص على مصلحته، فيرتكب بذلك آثاماً كثيرة، فلا شك أن من المصالح التي تتحقق من قيام الجماعة تعويد المؤمن أن يعيش من خلال الآخرين الذين يحبهم، ويؤثرهم على نفسه، ويرى خيره في خيرهم، فلا يستأثر بخير، ولا يضحي بهم من أجل مصلحته أو من أجل نفسه، وهذا كله يدخل في باب التضحية؛ سواء بالرأي أو بالجهد أو بالمال، فينزل عن رأيه

---

٧٢ الترمذي وقال حسن صحيح غريب، وله (الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفطرون والأضحى يوم تضحون) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

٧٣ تهذيب ابن قيم الجوزية على معالم السنن ٣/٣١٤.

لرأي الآخرين -أو بمعنى آخر- لرأي الجماعة، وهذه بركة ولا شك، فيضحي بنفسه من أجل الآخرين... يضحي بماله ووقته وجهده من أجل الآخرين. فلا شك أن الجماعة تحقق هذا المعنى في نفس المؤمن....

الجماعة قوة على الخير وعصمة من الشر ورحمة للمؤمنين: قال أيضاً رسول الله ﷺ (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٧٤]، وقال أيضاً (يد الله مع الجماعة ومن شذ، شذ في النار)[٧٥].

فلا شك أن الجماعة قوة على الخير وعصمة من الشر ورحمة للمؤمنين، والفرقة عذاب، فلا يستسهل أحد منا أن يقول أنا مختلف مع الجماعة أتركها وأمضي، أو القيادة ظلمتني.. هذه أمور يسعى إليها الشيطان. والشيطان يحرص جداً على إيقاع المسلم حينما لا يتقي الله في أمر نفسه فيسهل على الشيطان جره بعيداً عن الجماعة، فإذا قويت عقيدتنا في الجماعة وفي أهميتها، سواء أهميتها العقدية أو أهميتها المصلحية بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة يصبح ما يلقاه الإنسان في الجماعة -مهما كان- خيراً له من أي مكسب يكسبه وهو فرد بعيد عنها.

والإنسان المسلم يعرف أن الشيطان مع من خالف كما قال الرسول ﷺ (يد الله مع الجماعة والشيطان مع من خالف يركض)[٧٦]، يفرح بأن هذا مخالف. ونحن كما رأينا ما ترك أحد الجماعة إلا واجتاله الشيطان، ما فعل أحد هذا إلا وخابت حياته وتناقض مع نفسه وخسر كثيراً، لأن الشيطان معه يركض.. فالذي يركض الشيطان معه كيف يحصل له العصمة أو الخير.

تحقيق البركة: تحقق الجماعة البركة في كل شيء، حتى في أقل الأمور؛ حتى في الطعام والشراب. وكما قال الرسول ﷺ.. قالوا: يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، فقال (لعلكم تأكلون متفرقين)، قالوا: نعم، قال (فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يُبارك لكم)[٧٧].

فهذه البركة تشمل حتى بركة الأكل وبركة الشراب وبركة الملبس، وكل شيء، وحتى اللعب والترويح عن النفس يصبح مباركاً وطاعة حينما نجتمع عليه، نُرَوِّح عن أنفسنا لنتفرغ لما هو أحسن وأفضل وأكرم... يقول الرسول ﷺ (كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة)[٧٨] وهذا عام، ليس في الطعام والشراب فقط، (إن البركة مع الجماعة) البركة في كل شيء، فلا ينفرد أي واحد ليقول: من حقي أن أتصرف من رأيي أو من مزاجي أو... فهذا أمر -فضلاً عن كونه صورة سيئة- فإنه أيضاً يقلل البركة.

الجماعة هي عصمة للإنسان تعصمه من الهلاك الذي توعد الله به البعيدين عنها: يقول الرسول ﷺ (إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة وخلصت فرقة واحدة وأن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ستهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة)، قالوا: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال (الجماعة)[٧٩]. فالجماعة لا شك تعصم الإنسان من الهلاك، لذلك كان الصحابة لا يختلفون ما استطاعوا

---

٧٤ أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجالهم ثقات.

٧٥ الترمذي، غريب ورجاله ثقات.

٧٦ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٧٧ أبو داود وابن ماجة ورجاله ثقات في الطريقين.

٧٨ ابن ماجة، والحديث ضعيف، ويتقوى ما به من ضعف بالحديث السابق.

٧٩ أحمد في المسند ورجاله ثقات غير أنه مرسل، وأخرجه أبو داود من رواية أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه- وأخرج الحاكم بعضه، والترمذي وقال حسن صحيح مع بعض الاختلاف، وابن ماجة بعضه بإسناد صحيح.

في أي أمر. فهذا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أخذ على عثمان -رضي الله عنه- أنه أتم في منى وكان الرسول ﷺ يقصر الصلاة دائما في منى، ورغم ذلك كان يتبع عثمان -رضي الله عنه- في هذا، ولما قالوا له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا؟! قال: الخلاف شر. فالفرقة شر[٨٠].

الجماعة تساعد على التخلص من آفات الحقد والشحناء والخيانة: لا شك أن المسلم الذي يعيش في جماعة ويتربى على الإسلام يسلم قلبه من آفات الحقد والشحناء والخيانة، وذلك غير الإنسان الذي يعيش وحده، فلا يتربى ولا يسمع الخير ولا يسمع المواعظ ولا يسمع التذكير من إخوانه، فهذا -لا شك- ستنبت في نفسه نباتات سامة كثيرة، ولكن حينما يعيش داخل جماعة، فالجماعة ستنقي كل ما ينمو فيه من أخطاء، فتعينه على سلامة القلب، وهذا لا يتم إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر كما قال الله عز وجل ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر] الإنسان في خسر لأنه وحده، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهم في جماعة يُنتفع بها.

كذلك دعوة المؤمن تكون مقبولة إن كان في جماعة: قال ﷺ (نضر الله امرؤ سمع مقالتي فبلّغها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاثة لا يُغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)[٨١]، فلا شك أن دعوتهم مستجابة، فالإنسان الذي يحرص على إخلاص العمل والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم سيضمن قبول دعائه ودعاء المسلمين أيضاً له، وينتفع بذلك.

الجماعة تحرز المؤمن من الغفلة: ذكر ذلك الإمام الشافعي فقال: "وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلة عن معنى في كتاب الله ولا سنة، ولا قياس إن شاء الله"[٨٢] فالإنسان يمكن أن يغفل، لكنه عندما يكون في جماعة إذا غفل فالأغلب ألا يغفل الآخرون، فالجماعة تحرز المؤمن من الغفلة عن أي شيء في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فأي أمر نتشاور فيه ونتفاهم فيه لا شك أن نصيب فيه الصواب والحق، لكن الإنسان إذا اعتمد على نفسه ورفض رأي الآخرين أو رفض مشورة الآخرين باعتبار الخصوصية أو اعتبار الكتمان، فإنه سيخسر كثيراً. وكلما استشار الإنسان أكثر، وكلما فتح قلبه لإخوانه وقياداته كلما كثرت فائدته ونال بركة تلك المشورة وذلك الانفتاح.

إقامة الدين لا تتم إلا بالجماعة: وقد كان أمر الله عز وجل للأنبياء ألا يتفرقوا، لأن إقامة الدين لا تقوم إلا باجتماع أهل الحق ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، فإذا كانت هذه وصية الله للأنبياء، فهي أولى للمؤمنين، الوصية بالائتلاف والجماعة، والنهي عن الافتراق والاختلاف.

الجماعة تحقق معنى الولاء والبراء: فمعنى الولاء والبراء لا يتم إلا من خلال التجمع، فلا بد للمؤمن أن يوالي ويعادي لا بد له أن يوالي المؤمنين ويعادي الكافرين، ولا شك أن هذا يكون من خلال الارتباط في جماعة، لأن الولاء يفرض على المسلم هذا الارتباط وهذا

٨٠ أخرجه أبو داود وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

٨١ ابن ماجة من طريقين أحدهما صحيح، وقد وثق الهيثمي السند.

٨٢ الرسالة ٤٧٥.

الولاء النفسي والشعوري، المادي والمعنوي، وهكذا يقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ويقول ابن تيمية "موالاة الله ورسوله لا تتم إلا بطاعة أمره، وكذلك المؤمنون لا تتم موالاتهم إلا بطاعة أمرهم وهذا لا يكون إلا إذا كان متفقاً"[٨٣].

قبول العمل الصالح لا يكون إلا لمن يعيش في جماعة: وخطؤه مغفور له. أما إذا شذ فلا عمله الصحيح يقبل، ولا عمله الخطأ يغفر.

أخرج الطبراني والبزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (من عمل لله في الجماعة فأصاب قبل الله منه وإن أخطأ غفر الله له، ومن عمل يبتغي الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار)

هذا ولقد كنت حريصاً فيما سبق على أن أذكر مصالح كثيرة للجماعة لأنها تلقي أضواء على فهمنا للجماعة، فلا يكون فهمنا للجماعة أنها مجرد واجب شرعي أو عقدي نحن نعمله دون أن نحس بما يحققه من مصالح، أو ما يؤدي إليه من فوائد للفرد أو للمجموع ولمصلحة الإسلام، بل مصلحة البشرية، ولكن حينما نعدد هذه الأمور نلمح الخطوط الرفيعة والكثيرة لكل الأوجه لهذه الفريضة المهمة جدا في حياة الإنسان.

فإذا كانت كل هذه المصالح المادية منها والمعنوية الفردية فيها والجماعية مترتبة على وجود الجماعة فإنه يصبح حكم الجماعة واضحاً فلا يشك أحد أنها من أوجب الواجبات ومن أخطر المقامات التي ينبغي على المؤمن أن يقوم بها. وباعتبار قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب تصبح الجماعة واجبا دينيا مفروضا لأنه إذا كان واجباً إقامة دين الله وإقامة الإسلام وتحقيق الألوهية في الأرض وكان ذلك لا يتم إلا بالجماعة فإن الجماعة تصبح واجبة، بل أكثر من الواجب.. أو كما نقول إنها مقتضى عقدي وضرورة إيمانية يلزم المؤمن الحريص على دينه القيام بها، ويؤدي التهاون فيها إلى أن يضل الإنسان (فإنما يأكل الذئب من الشاة القاصية والشاذة).

فالجماعة المسلمة تأوي الإنسان المسلم، فهي إيواء وحصن للمسلم، وأي إنسان يترك الحصن إلى الشعاب وإلى الصحراء وإلى الغياهب لا شك أنه يضر بنفسه ويعرضها للضرر يقينا، فحرص المسلم على الجماعة يساوي تماما حرصه على دينه وعلى عبوديته لله عز وجل، لأنه إذا لم يتم الواجب إلا بهذه الجماعة فيكون التفريط في الجماعة يساوي التفريط في دينه وفي عبوديته لله عز وجل.

وكما قلنا؛ قبل ذلك فإن اجتماع المؤمنين على خطأ خير من تفرقهم على صواب. الخطأ والصواب غير الحق والباطل. فالحق حق واحد، ولا يجوز أن نجامل على الباطل إطلاقا، فيجب أن نجتمع على الحق، وأن يفرقنا الحق أيضا، فلا يجوز أن نجتمع على الباطل.

ولكن الصواب والخطأ شيء آخر، فهما يقعان في الأمور الاجتهادية التي تخضع لاجتهاد البشر، فقد نختلف في قضية حركية، في قضية اجتماعية، في توزيع المال، في توزيع التكاليف، في أي قضية اجتهادية، وقد يكون اجتهاد القيادة في هذا خطأ، أو نحن نرى أنه خطأ.. فلنجتمع على هذا الخطأ فهو ليس مضرة، لأنه على أي الأمرين نحن مطالبون بما هو أهم منه وهو الوحدة وعدم الفرقة. فالفرقة أمر خطير جدا ومنكر كبير، بينما الاجتماع على الخطأ قد يكون منكرا أصغر، فلا أحرص على إنكار منكر أصغر لكي أحدث من خلاله منكرا أكبر، وهذا لا يجوز أصلا. وكما نعلم أن المخطئ في اجتهاده مثاب، ومعنى ذلك أنه ليس معصية قال ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب

٨٣ منهاج السنة ٤/٢٣٥.

فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)[٨٤].. إذن فهو مثاب على خطئه، وإذا أصر على ما يراه وأمر الجنود به فهم مثابون من خلال طاعتهم له، وسيأخذون أجرهم، كما سيأخذ هو أجر اجتهاده، مادام الأمر ليس حقاً وباطلاً.

ولا شك أن هذا التعبير يقصد به منتهى الاحتراس عن التفرق عندما تختلف اجتهاداتنا. ولا شك أن كل واحد عندما يجتهد في أمر ويصل إلى نتيجة لا بد أن يكون ممتلئا اقتناعا بما يصل إليه، ثم قد يفاجأ أن الآخرين غير مقتنعين بهذا الأمر، فإذا امتنع الاتفاق تفرقت الجماعة.

فإذا كنت أنا مقتنعا باجتهادي وأنت مقتنع باجتهادك فما الفيصل بيننا؟ الفيصل بيننا أنه لا بد أن يكون هناك مرجح، والمرجح هنا كما أراده الإسلام هو القيادة. فعندما تفصل في أي أمر يكون فصلها هو المرضي عند الله ولو كان خطأ، والصواب يكون غير مرضي عند الله ولو كان صوابا إذا تفرقنا عليه، فلا يظن إنسان أنه إذا قبل اجتهاد الإمام في هذا أنه يتنازل عن شيء من دينه، بالعكس هو يلتزم دينه بذلك، فما دام الأمر ليس فيه نص محكم جلي بل هو مجال من مجالات الاجتهاد فطاعة القيادة في اجتهادها هو الواجب على المسلم في هذه الحال حتى لا تسود الفوضى ويقع الاضطراب في الصف المسلم. وهذا معنى ما قلته إن الاجتماع على خطأ خير من التفرق على صواب. وهناك أحداث كثيرة في تاريخ الإسلام حدث فيها هذا. وقد تكون نتائجها فيها بعض الآلام، ولكن هذا لم يغير رأي المسلمين في هذا الأمر، فلا ينبغي أن يغير رأينا في هذه القاعدة أن هذا الاجتهاد قد حدث منه بعض الضرر، ولا يجوز أن نقول: لو أننا لم نلتزم به لكان أفضل! الالتزام به أفضل، والذي حدث هو ابتلاء كان سيحدث به أو بغيره.

هذه القاعدة لا تبطل أبدا حتى لو حدث في بعض الأحيان أن ابتلانا الله بشيء نتيجة اجتهاد أمرائنا بأمر، وفي هذه الحال لا ينبغي أن نعير بعضنا بعضا، ولا نتلاوم من أجله، وإنما كما في القاعدة الأخرى -المؤمنون متضامنون ويسعى بذمتهم أدناهم- حتى لو أن امرأة أجارت جيشا أجاره المؤمنون، إلا في حالة واحدة؛ لو أن هذه الإجارة ستجر خطرا ماحقا على المسلمين، فللإمام أن ينبذ إلى هؤلاء على سواء، لا يلغي إجارة هذه ولكن ينبذ إليهم على سواء حتى تظل للمؤمن ذمته، وهذ الاحتراز مطلوب حتى لا يأتي مؤمن ضعيف الإيمان فيجير جيشا لمجرد أنهم وعدوه أنهم سيعطونه عدة ملايين أو سيجعلونه ملكا، وتكون في هذه الإجارة هزيمة للمسلمين، فإذا رأى المسلمون أن في إنفاذ إجارة هذا الشخص ضررا أكبر على المسلمين فإن لهم أن يردوا هذه الإجارة، ولكن ليس غدرا، بل ينبذون إلى هؤلاء على سواء، ويعطونهم فرصة للاستعداد ولا يأخذونهم بغتة، مثل ما حدث عندما كان الجيش التركي على وشك أن يدخل بطرسبرج وكانت هذا المعركة حاسمة في احتلال تركيا لأوروبا، فكان يمكن لأوروبا كلها أن تسقط بعد سقوط بطرسبرج لأن سقوط بطرسبرج تعني سقوط روسيا وهي كانت من أكبر الدول وأخطرها، فسقوطها يعني سقوط أوربا كلها، ولكن الذي حدث أن قيصرة روسيا وهبت كل ما عندها من ذهب لقائد الجيش التركي إذا أجلى جيشه عن المدينة أو سكت عن الحرب، وبالتالي لم تسقط المدينة وتغير التاريخ. وهكذا يمكن أن يأتي شخص ضعيف الإيمان فيجير جيشا طمعا في حظ من الدنيا في لحظة حاسمة، وهنا يمكن للإمام أن يتدخل فيسقط هذه الإجارة ولكن ليس غدرا، وإنما ينبذ إلى هؤلاء القوم على سواء ويعطيهم فرصة للاستعداد.

فالمؤمنون متضامنون، ولا يعيب بعضهم على بعض، ولا يتخاصمون، فإذا اجتهد أحدهم اجتهادا ظهر بعد قليل أنه خطأ فإن ذلك لا يعيبه ولا ينقص مكانته. فهو حينما اجتهد كان يتحرى الصواب ويرى الأمر على قدر جهده. فكون الأمر ظهر خطؤه بعد ذلك لا يستوجب أن يُعيَّر ولا يُتهم كما يفعل الجاهليون بعضهم مع بعض، وإنما نعد الأمر قدرا من أقدار الله كما حدث في أحد وفي غيرها؛ أن رسول الله

٨٤ البخاري في الصحيح من حديث عمرو بن العاص -رضي الله عنه-.

ﷺ كان يعلم أنه سيصاب، وأن بعض أهله سيقتل وكان رأى رؤيا، وكان رأيه ألا يخرج من المدينة، ورأى شباب الصحابة أن يخرجوا فخرج معهم رغبة في أن يعلمهم درسا لن ينسوه، ولم يحدث أن رسول الله قال لهم أنتم الذين تسببتم في هذا الأمر، بل أُمر رسول الله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وظلت القضية كما هي لم ينقصوا حقهم فيها.

وهذا حديث أورده الحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال (الزموا هذه الطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، فإن ما تكرهونه في الجماعة خير مما تحبونه في الفرقة، وإن الله لم يخلق شيئا إلا جعل له منتهى، وإن هذا الدين قد تم وإنه صائر إلى نقصان).. فيصبح أمر الالتزام بالجماعة أمرا ضروريا حتى لا تجتاح الانسان الفتن التي تمر على الناس، فيصبح أمر الالتزام بالجماعة هي حبل الله الذي أمر بالالتزام به، وأن ما يكره الإنسان في الجماعة خير مما يحبه في الفرقة، وهذا أمر مما يتعبد الإنسان به، فيسمع الإنسان ويطيع فيما أحب وكره، لأن ليس كل ما يراه الأمير يرضي كل الناس، فإرضاء الناس أمر صعب، ونحن نختلف في طريقة إحساسنا بالأمور ورؤيتنا لها وعلمنا وحكمتنا، فبالتأكيد سنختلف، وهذا في ذاته ليس عيبا؛ أن ترى أنت أمرا وأرى أنا أمرا آخر، هكذا عقلي أدى بي وعقلك أدى بك، ولكن الخطر ألا نجتمع على شيء، ويظل كل منا معجباً برأيه، ويستهين بالجماعة، فمهما كان الأمر الذي سنلتزم به حتى لو كان مما أكره فهو خير عند الله وخير لي في الدنيا والآخرة مما أحب إن كان هناك فرقة.

هذه قاعدة مهمة جدا؛ ألا يسير الإنسان مع هواه، ولا يسير وراء راحته، ولا يسير حتى وراء اجتهاده الذي يعتقد فيه الصواب مادام يتناقض مع أمر الجماعة واجتهاد الجماعة، فحتى لو كره أمرا فستعجبه أمور، وإن كنت أنا في هذه المرة سأكره ما صدر لي من أمر ففي المرة القادمة ستكره أنت، ونتبادل المواقف، فلو أن كل ما كره أحد شيئا ضاق به وعصاه ما قامت جماعة في الأرض؛ لا إسلامية ولا جاهلية. في الجاهلية نرى الأقلية يلتزمون بقرارات الأغلبية، يتعادون ما يتعادون، ونجد في النهاية حينما ينتصر مرشح على مرشح يهنئه ويدعو له ويقول سأكون تحت أمرك وسأتعاون معك، وتنتهي الخلافات ما دام الرأي النهائي كان كذا.. الأغلبية في أي برلمان في العالم تقرر أمر المعركة وأمر الموت والحياة وأمر الفقر والجوع بالأغلبية، ولو أغلبية صوت أو اثنين أو ثلاثة، ويمكن أن يتقرر بسبب الصوتين أمور خطيرة جدا على الأمة، وفي كثير من الأحيان قد تكون ضررا حقيقيا، لكن بما أنهم اتفقوا على هذا فهم يلتزمون به مهما كان. فهذا أمر يفعله الكفار لأنهم يعرفون أن مصلحتهم في أن يتجمعوا وأن يكون لهم مرجع يرجعون إليه.. فإذا كان هؤلاء يرجعون إلى عقولهم أو إلى باطلهم أو إلى الطاغوت ورغم ذلك يصرون على هذه القاعدة، فأولى بنا نحن المسلمين أن نتمسك بهذه القاعدة ونحن مرتبطون بحبل الله وبيننا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلا شك أن الإنسان عندما تتضخم ذاته سيرى الخير فيما يراه هو وحده ضاربا عرض الحائط برأي الأخرين.. وهذه أبأس خطة يخطها إنسان لنفسه والعياذ بالله.. فلا شك أن الخير فيما تراه الجماعة.. هذه قاعدة مهمة جدا..

سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل لا يشهد جمعة ولا جماعة قال "هو في النار".. وكثير من الناس يظن ذلك.. يظن أنه يستطيع بمفرده أن يكون شيئا.. هذا يصوم النهار ويقوم الليل، ولكنه مستغن عن الناس.. مستغن عن المؤمنين.. يقول ابن عباس "هو في النار" رغم أن الرجل لا يرتكب معصية ظاهرة بالمفهوم البحت.. يصوم النهار ويقوم الليل لكنه لا يحضر جمعة ولا جماعة.. يعني لو لم يصم بالنهار ولم يقم الليل وحضر الجماعة فهذا خير له.. فلا يتبعن إنسان منا هواه ويستأثر به هذا الهوى فيضيعه.

فلا شك أن هذا أمر من أهم الأمور التي ينبغي أن نفهمها عن الجماعة؛ أنها واجب وفريضة تعوق كل فريضة أخرى، لأنها أعلى فرائض الإسلام. وكما نقول: إنها مقتضى عقدي لأنه بدون الجماعة لا تتحقق هذه العقيدة.. والله أعلم.

دار الإسلام ودار الحرب

والحديث عن الجماعة المسلمة يقودنا إلى الحديث عن دار الإسلام ودار الحرب.

ونقول: إن دار الإسلام هي الدار التي تُحكم بشريعة الله، ودار الكفر أو دار الحرب هي الدار التي لا تُحكم بشريعة الله. فالعالم في شريعة الإسلام من حيث تطبيق الأحكام وعدمها وأمن المسلمين وخوفهم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: دار الإسلام:

وهي دار أمن وسلام للمسلمين، ويدخل فيها كل البلاد التي يتحقق فيها سلطان المسلمين، سواء أكان المسلمون فيها أغلبية أو أقلية. ويدخل فيها أيضا كل البلاد التي دخلت في ذمة المسلمين، والتزم أهلها أحكام الإسلام ولو لم يكن فيها مسلمون. فخيبر -مثلا- كانت في عهد رسول الله ﷺ لا يسكنها إلا اليهود، ولم يكن فيها من المسلمين إلا عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-، حيث كان أميرا عليهم. فكان الواقع أنه لم يكن هناك مسلمون، لكنهم كانوا خاضعين لأحكام الإسلام التي تقوم فيها، لذلك كانت خيبر دار إسلام. وهكذا كل الأماكن التي يسكنها مسلمون يستطيعون أن يظهروا أحكام الإسلام ولا يمنعهم من ذلك مانع تعد دار إسلام.

وهذا الشرط قد يفهمه بعض الناس على أن المقصود هو إظهار الشعائر كالصلاة والصوم، والأمر ليس كذلك، فالمقصود هنا من قول الفقهاء هو إظهار أحكام الإسلام وليس مجرد إظهار الشعائر. فمثلا في وقت التتار؛ كان التتار في أول الأمر غير مسلمين، ولكن ظل المسلمون تحت حكمهم يحكمون بشرائع الإسلام، فيكون حكم هذه الدار أنها دار إسلام، وتظل كذلك إلى أن يُمنع إقامة الأحكام الإسلامية فتنقلب دار كفر أو دار حرب. وهذا الاحتراز مهم.

ويدخل في دار الإسلام كل ما يتبعها من جبال وصحار وأنهار وبحيرات، وما يقال عنه "حدود الدولة" سواء كانت جوا أو بحرا أو أرضا أو جبالا، فكل ما عليها يعد من دار الإسلام ويعد داخلا في حكم دار الإسلام. وكذلك كل مكان في دار الحرب يعسكر فيه مسلمون، مثل السفارة في أي دولة، تعتبر أرضا للدولة التي تمثلها السفارة، وكذلك المعسكر الذي يعسكر فيه المسلمون في دار الحرب يعد من دار الإسلام، وتعد المراكب الحربية قياساً على هذا من دار الإسلام، بحيث لا يكون لغير المسلمين سلطة عليها، حتى لو كانت في بحر للأعداء، فإذا دخلته سفينة حربية فهي جزء من دار الإسلام، ينبغي على دار الحرب أن يحترموها ويعاملوها على أنها جزء من دار الإسلام.

وتعد أيضا البلاد دار إسلام حتى لو تعدد فيها الحكام واختلفوا، فمثلاً زمن الدولة العباسية في بغداد كانت هناك الدولة الأموية قائمة في الأندلس، وكانتا كلتاهما على الإسلام. ففي مجموعهما كانتا تعدان دار إسلام، وأي مسلم كان يستطيع أن يتحرك داخل هذه الحدود الواسعة.

ودار الإسلام يمكن أن نقسمها إلى عدة أقسام:

دار العدل: وهي التي تقيم الإسلام وتحمي السنة، وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلين.

دار البغي: وهي التي يسيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالإسلام.

دار البدعة: وهي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم.

دار الردة: وهي التي ارتد أهلها، أو سيطر عليها المرتدون، أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها. وهذه تعد جزءاً من دار الإسلام باعتبار إلزام المسلمين في دار العدل بأن يردوا هذه الدار إلى حوزة دار الإسلام. لكن دار الردة في ذاتها إذا ارتدت ولم تحكم بشرع الله فإنها لا تعد دار إسلام، ولكن باعتبارها كانت جزءا من دار الإسلام تصبح هذه أول ما ينبغي استرداده على الخليفة العدل.

الدار المسلوبة: وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام.

وبهذا الاعتبار لهذين النوعين من الديار -دار الردة والدار المسلوبة- فإن الفقهاء عندما يعتبرونها دار إسلام لا دار كفر فإنهم يقصدون بذلك أن الإلزام يقع في أعناق المسلمين بأن يردوها للإسلام.

القسم الثاني: دار الحرب:

وهي كل البلاد الأجنبية التي هي دار خوف وعداء للمسلمين، والتي لا تحكم بشريعة الإسلام.

وتنقسم دار الحرب إلى قسمين: دار حرب بيننا وبينهم ميثاق وتسمى دار عهد؛ ودار حرب ليس بيننا وبينهم ميثاق وتسمى دار كفر أصلية.

خامسا: خطوات بناء الجماعة المسلمة

والآن.. كيف تخطو الجماعة المسلمة خطواتها في واقع الحياة لكي تصل إلى خط النهاية؟

وما هي خطوات البناء الذي يجب أن تسير فيها الجماعة المؤمنة إذا كانت قد بدأت من الصفر، أو من سفح الجاهلية، لكي تصل إلى القمة التي تحقق من خلالها هدفها العظيم؛ وهو تقرير ألوهية الله في الأرض وإقامة دار الإسلام في الأرض كلها ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ونستعرض هنا خطوات البناء، ثم نفصل ما يهمنا منها إن شاء الله تعالى.

يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ومن خلال نظرتنا إلى سيرة الرسول ﷺ باعتبارها المرجع النهائي الحي الذي شاء الله تعالى أن نتأسى به نستطيع أن نحدد معالم المنهج الحركي للجماعة المسلمة، ولا شك أن حركة الرسول ﷺ هي النموذج الرائع للجماعة المسلمة، لأنها بناء متكامل، ولأن حركة الرسول ﷺ قد بدأت من الخطوة الأولى، بل من قبل الخطوة الأولى، وحتى خط النهاية بتفصيل واضح نستطيع أن نتأسى به ونحن مطمئنون.

ونقول إن هناك مرتكزات لفهم **قضية المرحلية**. منها التتبع لسنة الرسول ﷺ في هذا الأمر. فلا بد أن نرجع إلى ما قرره الرسول ﷺ، لأننا مأمورون بالاقتداء به، مستهدين في هذا بالقواعد الشرعية التي تحكم حياتنا. ومن خلال القواعد الشرعية ومقاصد هذا الدين نعرف كيف نضع فقهاً يتمشى مع كل مرحلة من مراحل الحركة. هذه الحركة التي هي بمثابة الكائن العضوي في مسيرته من الميلاد وحتى النهاية.

ولا شك أن كل مرحلة من مراحل هذا النمو في حياة هذا الكائن العضوي تحتاج تعاملاً خاصاً، ومن ثم يحتاج فقهاً خاصاً يتمشى معه. وفقه المرحلية (التدرج في التطبيق) فقه هام جداً لا بد منه في تسيير الجماعة المسلمة، وفي تحديد جوانب الفقه الذي يتفق مع متطلبات كل مرحلة من المراحل، ومع نمو الجماعة المسلمة في كل مرحلة.

فمن خلال استعراضنا لخطو رسول الله ﷺ، ذلك الخطو المبارك، الذي يحتاج منا حكمة كبيرة جداً لكي نفقه ما في الأحداث ولكي نفقه أيضا ما وراء الأحداث كلها، بحيث نفهم كيف كان رسول الله ﷺ يقود الجماعة في خطاها من السفح إلى القمة. والذي لا يستطيع أن يدرك الحِكَم من وراء الخطة النبوية فإنه سيفقد كثيراً جداً من أسباب النجاح في مسيرته.

ونحن نجد أن هناك من يتحمس بصدق، ومن يكون شديد الحرص على إقامة الإسلام، ولكن لأنهم لم يفقهوا قضية تدرج التطبيق والمرحلية، والحِكَم وراء اجتهادات الرسول ﷺ، وحكمة الوحي حينما كان يخطط للمسلمين، ونتيجة عدم فقههم لتلك المرحلية اجتهدوا اجتهادات خاطئة قفزوا بها فوق المراحل، فأدى بهم ذلك إلى سقطات كثيرة، نتج عنها الصد عن سبيل الله، ونتج عنها الإعنات والمشقة للجماعات المسلمة، وأدى إلى إعطاء الجاهلية فرصاً أكبر لحرب الإسلام وتشويهه. وهذا كله لأن هذه الجماعات لم تستطع أن ترتفع لمستوى الفقه عن الرسول ﷺ وهو يتحرك حركته المباركة على مسرح الحياة في البعثة الأولى.

وخطوات البناء كما نستطيع أن نحددها من خلال الرؤية للأحداث -وهي بالطبع أمر اجتهادي- هي كالآتي:

١. الخطوة الأولى هي الفترة السرية التي فيها سرية الدعوة وسرية الحركة.
٢. إعلان الدعوة مع بقاء سرية الحركة.
٣. إعلان الحركة مع بقاء بعض الأفراد سراً حسب المصلحة وحسب الفرص.
٤. الدعوة العامة والصدع العام لكل البشر وكل الناس.
٥. البحث عن مكان آمن وطلب النُصرة لكي يبلغ الرسول ﷺ عن ربه سبحانه.
٦. ثم جاء الاتفاق مع أهل يثرب وبدء الاستعداد للهجرة. وهذه المرحلة أخذت قرابة عامين أو ثلاثة في الإعداد للهجرة، وإعداد دار الهجرة لاستقبال المهاجرين، ولاستقبال الجماعة المسلمة.
٧. الهجرة وتوطيد دعائم المجتمع والدولة.
٨. الإذن بالقتال وسرايا الاستكشاف.
٩. القتال الدفاعي في أول الأمر.
١٠. القتال العام لأهل الجزيرة.
١١. قتال الناس كافة ليسود دين الله في الأرض -أي نظامه وشرعه- لا لإرغام الناس على عقيدة الإسلام.

انتهى الأمر بفتح مكة، وتُوِّج جهاد الرسول ﷺ بخضوع مكة والطائف، وهي أكبر تجمعات العرب، وأكبر مراكز القوى في الجزيرة، لكي ينتقل محور القتال بعد ذلك في معركة مؤتة كي يلاقي إحدى أكبر قوتين في الأرض حينذاك. وبدأ الرسول ﷺ في هذا الأمر حينما بَعَثَ بَعْث زيد بن حارثة -رضي الله عنه- ثم بعث أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قبل أن يموت صلى الله عليه وسلم. فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ في إعلان الحرب على القوى الكبرى من حوله خارج جزيرة العرب في ذلك الوقت.

فهذه خطوات البناء كما يتبين لنا من خلال استعراض السيرة. ولا شك أن هناك قضايا كثيرة ستقابلنا من خلال هذا الاستعراض.

المراحل الخمسة الأولى كانت -تقريبا- هي المرحلة المكية التي أُمر فيها المسلمون بكف الأيدي والصبر على الأذى والدعوة بالحسنى والبحث عن مكان آمن.

ثم جاءت المرحلة السادسة وهي الاتفاق مع أهل يثرب والاستعداد للهجرة. وكانت هذه الفترة هي بداية الانفراج، التي عاش المسلمون فيها وهم يحسون أن لهم أرضاً مرتقبة، فكانت هذه فترة انتقال، حدث للمسلمين فيها نوع من الفرج النفسي وهم مازالوا في مكة، وبدأوا يهاجرون أفراداً وجماعات إلى المدينة، ثم بعد ذلك كانت الهجرة النبوية التي استقر بعدها المسلمون في المدينة، بدأوا يُكونون دولة يتحركون منها إلى بقية العالم. وهناك أُذن لهم بالقتال، وامتدت المعارك حتى تم فتح الجزيرة العربية، وجاء الوقت لكي تُسلم لله عز وجل.

هذه هي خطوات البناء... **ويهمنا منها الآن العهود المكية وخاصة العهد الأول، وهو الفترة السرية.**

يقول الأستاذ محمود شاكر في كتابه عن السيرة -وهو كتاب جيد-: لم يكن الرسول ﷺ يُظهر الدعوة في مجامع قريش كالأندية والحرم، إنما كانت دعوته لأفراد بعينهم، ولم يكن المسلمون الأوائل يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش لدينها، فكانت **الخطوة الأولى** في البناء هي **الدعوة السرية** لأقرب الناس إليه، وكان -وهذا بطبيعة الحال- أول من آمن بالرسول ﷺ هم أقرب الناس إليه، كانت خديجة ثم أبو بكر وزيد وعلي. وكان هؤلاء هم أقرب الناس إلى الرسول ﷺ فقد كانت خديجة زوجته، وأبو بكر صديقه الأول، وكان علي في حضانته، وزيد متبناه، حتى كان يقال له زيد بن محمد. ثم دخل بعد ذلك الثمانية المعروفون الذين دعاهم أبو بكر، وعلى رأسهم عثمان والزبير، وكان هذا كله دعوة سرية متخفية، ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم الرسول ﷺ على شكل جماعات، يرشدهم ويعلمهم، ليكون منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها أولئك الذين يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار صلى الله عليه وسلم لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فكان يلتقي بهم على شكل أسر يعلمهم ويوضح لهم الطريق، وكان إلى جانب دار الأرقم دور أخرى، تكون مراكز فرعية، حيث يذهب إليها رسول الله ﷺ أحياناً، دون انتظام، أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم، مثل دار سعيد بن زيد ابن عم عمر بن الخطاب وزوج أخته.

ومن المقولات التي تقال كثيراً؛ أن الذين يتبعون الأنبياء هم الضعفاء. وكلمة الضعفاء لا تعني ما فهمه الناس من أنهم هم العبيد والموالي والطبقة المتدنية من الشعب، وإنما المقصود بالضعفاء الذين لم يكونوا من الملأ الحاكمين، وفي الواقع أن هؤلاء الضعفاء كان كثير منهم من كبار رجالات قريش، وكانوا من الأشراف في قريش، ولم يكن أولئك الذين لبوا دعوة الرسول ﷺ من مجموعة واحدة، أو من طبقة واحدة كما يقولون، فلم يكونوا هم الفقراء والعبيد والموالي الذين نقموا على النظام الجاهلي كما يدعي التفسير المادي للتاريخ الذي يحاول أن يفسر أن الأنبياء يأتون بثورة على الأغنياء فيجتمع إليهم الفقراء والعبيد والمطحونون. وهذا ليس صحيحاً، إنما كان ينضم إلى الرسل دائماً أحكم من في القوم، وأخلص من في القوم، لذلك نجد أن الذين اتبعوا الرسول ﷺ في السنوات الست الأولى كانوا مجموعة كبيرة، أغلبهم من وجهاء قريش وأبنائهم، كانوا واحداً وثلاثين من وجهاء قريش وثلاثة من قبائل أخرى، اثنا عشر امرأة وأربعة عشر من الموالي والحلفاء. كأن الغالبية التي اتبعت الرسول ﷺ في الفترة الأولى من الدعوة كانوا من الأشراف وكبار القوم. فغير أبي بكر وعلي كان هناك عثمان وسعد بن أبي وقاص وخالد بن سعيد وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهؤلاء كانوا من بني عبد شمس قوم أبي سفيان. ومن بني

عبد المطلب: عبيدة بن الحارث. من بني عبد الدار: مصعب بن عمير، ومن بني تميم: أبو بكر الصديق، ومن بني عدي: عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد، وهكذا نجد أن أكثر من ثلاثين رجلاً من أبناء الأشراف والسادة في مكة هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ أولاً.

أما الموالي فكان عددهم أربعة عشر.

والنساء أيضاً كنَّ من شريفات قريش، لم يكنَّ جميعاً من الإماء والموالي. كان أولهن خديجة وأسماء وعائشة وأسماء بنت عميس وفاطمة بنت الخطاب وفاطمة بنت المجلل وفكيهة زوجة الخطاب وأم حبيبة بنت أبي سفيان ورملة بنت أبي عوف. كل هؤلاء كُنَّ من بنات الأشراف في قريش. وكانت هناك أم أيمن -حاضنة الرسول ﷺ- وسمية زوجة ياسر وبعض الإماء اللاتي آمنّ برسول الله ﷺ. فكأن أكثر من أربعين كانوا شرفاء وأغنياء ومن كبار القوم، فالمقولة التي تقال أن الأكثرية الذين دخلوا في الإسلام كانوا هم الضعفاء والعبيد، لأنهم رأوا في الدعوة الجديدة تخلصاً من سيطرة الأغنياء ومن جبروت الظالمين هي مقولة خاطئة. لم يكن الأمر كذلك، وإنما كانوا من السادة وأبناء السادة الذين ينعمون بالثراء والنعمة، كمصعب بن عمير وغيره الذين كانوا على درجة كبيرة من الترف، وكان حمزة وعمر من كبار قريش الذين كان لهم صولة وجولة يُعمل حسابها، هؤلاء هم الذين آمنوا، فلم يكن إذن الإيمان ناتجاً عن ضعف أو فقر، أو عن رغبة دنيوية، وإنما كان العكس صحيحاً، كانوا من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فكانت المرحلة الأولى مرحلة الدعوة إلى الإسلام بصورة سرية فيها الكتمان.

ويقول الشيخ محمود شاكر: بدأت الدعوة **أولاً**: بانتقاء العناصر المؤمنة الحركية النشيطة، وبدأ العمل الإسلامي بتكوين لبنات الجماعة المسلمة الأولى، يلتزم الأفراد فيها بالإسلام التزاماً كلياً، وقد رُوي عن عمر -رضي الله عنه- قوله "لا إسلام إلا بجماعة"[٨٥]. وبالتالي لا بد من تكوّن الجماعة مهما كان ما يقوله الناس والعلماء المأجورون أن هذه ليست من الدين، وإنما لأنهم لا يفهمون الدين ولا يعرفون الواقع، وبالتالي يحطون من قدر تكوين الجماعات، ويسيرون وراء الحكام الذين من مصلحتهم أن يستخلصوا فتاوى من العلماء الرسميين بأن إقامة الجماعة ليست من مقاصد الإسلام ولا من ضروراته.

ويقول: وعلى كل مسلم ضمن الصف الإسلامي الصحيح ألا ينحرف عنه ولا يحيد، ولا يبتعد عنه ولا يقف موقف المتفرج أو موقف الحياد كما يزعم بعضهم، إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يُسَمى حياداً، فالمحايد إنما هو بجانب القوي وضد الضعيف، إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقه، ولكن إذا ترك الأمر فإنما سمح للقوي أن يأكل الضعيف، ولا حياد في هذه الأمور، ولا بد أن يحدد الإنسان لنفسه، فالذي ليس مع الحق هو مع الباطل، ليس هناك وقوف في قنطرة بين الحق والباطل. لا بد إذن أن يكون المسلم مرتبطا بالجماعة، ولا يقف موقف المحايد. وإذا لم يطمئن المسلم إلى ذلك الصف، أو لاحظ بعض الهنّات، فعليه أن يسعى في

٨٥ رواه الدارمي عن تميم الداري عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: "إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة"، وقد ورد عن قتادة عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: لا إسلام إلا بطاعة ولا خير إلا في الجماعة والنصح لله وللخليفة وللمؤمنين عامة. ذكره ابن كثير في التفسير، وابن عبد البر في التمهيد.

إصلاحها. فإن وجدها كبيرة، أو وجد في الخط انحرافات لا تُقَوَّم أو لا يصح السير فيها فعليه أن يفتش عن جماعة أخرى يرتضي سيرها. والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض. وإنما دعت الظروف لقيامها، أو تعددت بتعدد الأمصار.

وإن لم يجد جماعة قائمة فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعة أو يسعى في ذلك ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأديةً للفريضة وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه.

أما إذا كانت هناك جماعة تؤدي واجبها الإسلامي بحق وتخلص في العمل، وعَمِلَ هو على إيجاد جماعة أخرى فعمله باطل، يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين وعليه وزر كبير. والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام وخاصة أن الفرد لم يعد له دور في المجتمعات التي لا تقيم له أي وزن. وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ (آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإنه من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع)[٨٦]، وهذا يدل على أن تكوين الجماعة أمر ضروري، وهو قبل كل شيء. ثم يليه عدم الخروج من الجماعة، حيث إن مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تتكامل إلا بالجماعة والجهود الجماعية.

وقد نجد أثناء الطريق من ينفر من الجماعة ويدعو إلى نبذ التجمع والاقتصار على الدعوة العامة، فهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما رغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالة فارغة، وإما خوفاً وتهرباً من حمل المسؤولية.

ثانياً: تقوم الجماعة بدعوة الناس عامة لالتزام الإسلام وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة؛ العامة منها والخاصة، بقدر الإمكان.

ثالثاً: تقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلى العمل، وتشكل منها أسراً خاصة لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا يوجد تناقض بين الدعوة العامة وسرية العمل، بل على كل عضو في الجماعة أن يدعو إلى الإسلام علناً، ويظهر أثر ذلك في كل تصرفاته. وبالطبع من خلال المسلك الإسلامي فإنه يدعو للإسلام، ولا يدعو إلى الباطل، ولا يقف أمام دعوات الإسلام الموجودة[٨٧] حتى وإن لم يُظهر انتماءه لجماعة، الانتماء الحركي يظل سراً، أما إظهاره لشعائر الإسلام، والتزامه، ودعوته للالتزام، وعمله في الحرص على الإسلام، فإنه واجب على كل مسلم بقدر الظروف التي يكون فيها.

رابعاً: يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضم الحياة المادية العنيفة، إذ ما أن يقع الفرد في ذلك حتى يتخبط فيه، ويبدأ في مصارعة التيارات، وهذا معناه أن يكون العمل للجماعة المسلمة هو الأمر الأول، وأنه لا يجوز أن يكون البحث عن المادة أو الراحة مُقَدَّم على العمل الجماعي.

خامساً: ينبغي عدم إهمال الروح المعنوية؛ كالثقة بتأييد الله ونصره إذا استقمنا على الطريق واتبعنا أوامر الله عز وجل. لا شك أن عمل المؤمن لا يتم ولا ينجح إلا بالتوكل على الله عز وجل. لا بد من الالتزام بخطة الرسول ﷺ والأمانة فيها، ثم التوكل على الله عز وجل حتى يظهر الله الحق سبحانه وتعالى، فهذه طريقة رسول الله ﷺ وهو الموحَى إليه من قِبل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝

---

٨٦ أحمد ورجاله ثقات، والبخاري في التاريخ، والترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان.

٨٧ الالتزام السلوكي بالإسلام شيء والدعوة العامة شيء آخر لا تجوز في فترة السرية، كما لا يجوز التماس بالجماعات الأخرى إطلاقا.

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣-٤]، فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقة غيرها تُعد ناقصة، بل وقاصرة إذا لم تتبع أمر رسول الله ﷺ. كالذين يعتمدون على الدعوة العامة فقط -كما تبنى ذلك كثيرون- فيعملون بلا جماعة، ولا يمكن بهذه الطريقة تكوين القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور. فنحن نجد الشيخ محمود شاكر يقرر هنا أنه لا بد من التنظيم والحركة، مع الدعوة العامة أو البلاغ العام. كما لا يمكن الاعتماد على القوة فقط، فلا بد من الاعتماد على الالتزام الدقيق في العمل والتنظيم، وأخذ كل الأسباب التي تؤدي إلى الانتصار، ومنها؛ معرفة الجاهلية معرفة جيدة، واتخاذ الأساليب التي تقوي وعي الجماعة المسلمة، ومعرفة طبيعة المؤامرات التي تُكاد من حولها، وكذلك بناء القواعد والقيادات التي تتسلم مراكز القيادة التي تتحرك من خلالها الجماعة. فهذا كله لا بد منه.

ويقول: إن بعض الجماعات قد استعجلت في المنهج، وكان همها الوصول إلى الحكم، وما أن تربعت على كرسي الحكم حتى ظهرت اتجاهات متناقضة، حيث يعمل كلٌ لتأمين هواه، وله اتجاهاته، ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس. وتكررت الصدامات المسلحة بين الأجنحة المتعددة، (وليس الأفغان عنا ببعيد، فالجهاد الأفغاني وغيره كان مصيبة كبيرة على الحركة الإسلامية عامة).

وكذلك لا يجب أن تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي، أو التخلص من أفراد بأعينهم بسبب من الأسباب، إذ لم يلجأ رسول الله ﷺ إلى هذه الطريقة أبدا في مكة. وكان بإمكانه ذلك بكل يسر في مكة. ولكنه لم يفعل، لأن هذا يؤدي إلى اجتماع قوى الشر على الجماعة قبل أن يشتد عودها ويؤجج نيران التيارات مما يحول بين الناس وإعمال الفكر الهادئ في اكتشاف الحق وإتباعه. والجماعة المسلمة هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وهي الحاملة لأمانة الدعوة الحريصة على أن تبلغ الناس في حكمة ويسر

الجماعة المسلمة تعد نواة الأمة المسلمة ونواة المجتمع المسلم، وقائدها هو الأمير بالنسبة للدولة الإسلامية، والأمير هو خليفة رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، فالسمع واجب للقائد المسلم، وطاعته في طاعة الله فرض (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[٨٨]، والأمير هو إمام المسلمين ورئيسهم، كما أن طاعته واجبة، والقتال تحت رايته واجب حينما يأتي وقت القتال. روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال (الإمام جُنَّة يُقاتَل من ورائه ويُتقَى به)[٨٩]، والهجوم عليه والكلام عنه بسوء مخالفة لأمر الله ورسوله ﷺ، وخلع للبيعة وهدم للعمل الإسلامي، وتفريق للصف، وتقويض للمجتمع. ومن هنا كانت أهمية تنقية الصف، والتي يجب أن تتم بين المدة والأخرى، بالاختبار والابتلاء، للمحافظة على الجماعة الإسلامية، والتأكد من خلوها من الشوائب.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته للعالم، وهو غاية كل دعوة إسلامية، وأمل لكل داعية، وفرض على المسلمين كافة. من هنا كان عليهم واجب البيعة لأمير، وقد قال عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-: سمعت رسول الله ﷺ

---

٨٨ أحمد والحاكم والحديث صحيح.

٨٩ متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ولفظه (إنما الإمام جُنَة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا وإن أمر بغيره فإن عليه وزرا).

يقول (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[٩٠]، وقال ﷺ (من بايع إماماً وأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[٩١].

ولما لم يكن اليوم هناك دار للإسلام يُطَبق فيها قانون الله فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة، طاعته واجبة، والبيعة له حتمية وإن لم يستطع أن يطبق المنهج ويقوم بتنفيذ الأحكام و (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية). وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ ولم تكن هناك دولة إسلام تقيم الحدود وتطبق منهج الله، فقد قال عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم)[٩٢]، فتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنة. ومتى أعطى المبايع البيعة كانت أمانة في عنقه لا يحل له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عن ذلك لا يجوز له ذلك إلا أن يخل الأمير بشروط البيعة، فعندها يجوز عزله، وكل رغبة في تقويض الجماعة أو الإساءة إليها إنما توجه أول ما توجه للقائد بالدرجة الأولى، لذلك نرى التهم تُكال للأمير، وتروج الشائعات ضده وضد جماعته من قِبَل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الطمع من المسلمين. ولقد كان المسلمون الأوائل يحافظون على تجمعهم فلا يتعرضون للقيادة إلا بخير، ولا يتلقون إلا من المسئول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدثون إلا له، ويمثله الآن الأمير. وكان ﷺ يوجه اهتمامه وانتباهه الكبير إلى الأسرة التي تعد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء ينحصر في التلقي والعطاء فقط، وإنما الحياة بين أعضائها حياة إسلامية تصور الحياة في ظل الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها. كان المسلمون في مكة يلتقون في مجموعات صغيرة، يتعايش بعضهم مع بعض من خلالها، هذا غير اللقاء برسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ولا شك أنه في مثل هذا الوقت حينما تبدأ الدعوة تصل إلى آذان القوم فإنهم يحاولون أن يساوموا صاحب الدعوة ابتداءً قبل أن يعلنوا الحرب عليه، وكان هذا ما فعلته قريش مع رسول الله ﷺ، حيث جاءه زعماؤها يقولون: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظٍ منه وإن كان الذي نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، وجاء الأمر الإلهي الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة لله وحده، ليس لمحمد فيه شيء، إنما هذا أمر الله الذي لا مرد لأمره ولا راد لحكمه، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون]، تأكيد يليه تأكيد، على أن هذه أول خطوة في الطريق، كما يجب أن تكون أول الشوط أمام الداعية -كل داعية- يتميز بها. ويصاحب ذلك المفاصلة الشعورية التي يحس بها المؤمن؛ أنه على دين وقومه على دين، وليست مفاصلة انعزالية، ولكنها مفاصلة شعورية، لأن المفاصلة الانعزالية تقطع الجسور بيننا وبين من ندعوهم إلى الله.

وكما قلنا: ما يهمنا هنا هو هذه الفترة الأولى، وهي الفترة السرية التي تتميز بسرية الدعوة وسرية الحركة، وإن كان الإسرار بالدعوة ليس قائماً بالصورة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ، لأن الإسلام واضح الآن وبيّن، وقد قامت جماعات وكُتّاب متعددون بتوضيح الإسلام

---

٩٠ أخرجه مسلم والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري وأخرجه النسائي بعضه.

٩١ مسلم.

٩٢ متفق عليه.

وبيانه، ولكن لا شك أن هذا البيان كان ناقصاً وكانت فيه فجوات، وينبغي للجماعة الراشدة أن تقوم لكي تصحح المفاهيم وتملأ هذه الفجوات. أما سرية الحركة فهي موجودة الآن حتى بالنسبة لكثير من الجماعات الأخرى.

سادسا: خصائص وركائز الجماعة المسلمة

ونختم الحديث الآن عن الجماعة المسلمة باستخلاص خصائصها أو ركائزها التي تقوم عليها كتكوين إيماني يجمع بين أفراده روح الإيمان.

الأمر الأول: الأخوة:

والأخوة مطلب أساسي بعد الإيمان وبعد الاجتماع على هذا الدين ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقد رأينا كيف تعامل الصحابة رضوان الله عليهم من خلال هذه الأخوة، حتى أن الإسلام -في أول الأمر- جعلهم يتوارثون فيما بينهم، لكى تندمج الجماعة المسلمة اندماجاً كاملاً، فكانت هذه الأخوة من أروع الأسس التي قام عليها البناء الإسلامي الأول، أو الجماعة المسلمة الأولى، فكان ذلك الرباط الذي جمع أفرادها أقوى من كل روابط النسب والدم والجنس وغيرها، ولا شك أنه كلما كان التلاحم قوياً بين أفراد الجماعة كلما كانت هذه الجماعة أقوى في إيمانها وفي دينها وفي تنظيمها، وأقوى كذلك في مواجهة أعدائها.

الأمر الثاني: التميز:

فالشعور السائد عند هؤلاء المسلمين أنهم شيء آخر غير الجاهلية، وكيان آخر غير الجاهلية، وأنهم يقيمون لهم مجتمعا خاصاً يبذلون فيه جهودهم كي يصل إلى الكمال المطلوب (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[٩٣]. وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم في الشعور، متكامل، يؤدي كل عضو فيه دوره المكلف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه هي الفكر المحرك الذي يعطي التوجيه لجميع الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومتطلباته ومشكلاته، والتي تنقي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تنقي الرئة الدم في الجسم. ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع الجاهلي فلا يشعر بالانتماء إليه، إنما يشعر بانتمائه إلى مجتمع آخر هو المجتمع المسلم ولو كان بعيداً عنه.

الأمر الثالث: التعاون:

ومن سمات وخصائص هذه الجماعة المسلمة التعاون، وليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما التكافل أيضا في الأمور المادية وفي أعباء الحياة كلها. ولا شك أن أبا بكر -رضي الله عنه- كان يضرب المثل في هذا عندما كان يعتق كثيراً من الموالي المسلمين، وقد لامه أبوه عثمان أبو قحافة ولم يكن يدري بعدُ طبيعة هذا الدين، فقال له: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك، فقال رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل. فلا شك أن التعاون على المصلحة وفي الأمور المادية والتكافل في كل الأمور هو ديدن الجماعة المسلمة، وقد كان الصحابة يحبون أن يشتركوا حتى

٩٣ مسلم وأحمد.

في البلاء ولا ينفردون بالعافية، كما حدث لعثمان بن مظعون -رضي الله عنه- حينما رد جوار الكافر الوليد بن المغيرة ورضي أن يعيش كما كان الصحابة يعيشون.

الأمر الرابع: الطاعة:

كان هذا المجتمع يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠] وكان كل فرد يشعر أن النبي ﷺ أولى به من نفسه ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى للمؤمنين ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أن طاعته واجبة بصفته رأس أو رئيس المجتمع وقائده، وبه ﷺ تتمثل الدعوة، فلم يكن أي مسلم يتصرف دون إذنه ﷺ، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه. وكذلك الأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيسا يمثل المجتمع المسلم ويقيم حدود الله بينهم، وهو في ذلك يمثل رسول الله ﷺ.

الأمر الخامس: البذل والفداء:

كان المسلمون يبذلون كل شيء في سبيل الرسول ﷺ وفي سبيل دعوته، نتيجة تقديرهم العميق له، وكونه رمزاً للدعوة. ويتجلى هذا البذل والفداء في نماذج كثيرة؛ منها ما حدث عندما نام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- على فراش النبي ﷺ وكان هدفاً للقتل. بل يتجلى ذلك في كل معركة خاضها رسول الله ﷺ حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يحمونه بأنفسهم ويتلقون الضربات عنه.

الأمر السادس: الوعي:

كان كل مسلم يعرف موقفه تماماً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به. ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقعاً داخل المجتمع الجاهلي يتعرف على ما يُحاط ضد الإسلام من مؤامرات، ويراقبها مراقبة دائمة، ويعرف من خلالها تحرك الأعداء، ويبلغ قيادته بشكل دائم ومتصل لتتخذ المواقف المناسبة التي تحبط عمل الخصم وتحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه.

الأمر السابع: النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يقدر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى، فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة. بل هو مقدار قربه من الرسول ﷺ قائده وموجهه، ومقدار تطبيقه للإسلام وانقياده له، ووعيه. قال الله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك كان هذا المجتمع يحمي بعضه بعضاً، فيلتقون سراً، ويفدون هذا الحق بأنفسهم، ويبعدون عنه الخطر كما فعل نعيم بن عبد الله -رضي الله عنه- حينما أبعد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من وجهته لقتل الرسول ﷺ إلى أخته وزوج أخته، ونعيم كان من بني عدي أيضاً كما كان عمر -رضي الله عنه-.

الأمر الثامن: الالتزام الشديد بدقة الحركة ودقة السرية:

كما حدث من فاطمة بنت الخطاب حينما دُعيَت إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فلم تتكلم أمام أمه لولا أنه أمرها. كما أن الحماية كانت تتم بدخول بعض المسلمين في جوار بعض زعماء قريش، أو كانت تتم بهجرة المسلمين من البلد الذي يُؤذَوْن فيه إلى بلد أقل إيذاءً أو فيه قدر من العدل.

ويتساءل بعضهم هل يجوز الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذها مظلة يتقي بها شر الأعداء ويعمل من خلالها لفكرته؟ ويستندون في هذا التساؤل إلى دخول الرسول ﷺ في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، وكذلك دخول أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في جوار مالك بن الدغنة، ودخول عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول الرسول ﷺ مع بني هاشم وبني عبد المطلب في شعب أبي طالب.

والجواب: لا يصح ذلك لأسباب كثيرة منها:

أولاً: دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخوله في حماية مؤسسة لأن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية، ربما تتوطد وتزداد، أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه، كما حدث عندما رد أبو بكر -رضي الله عنه- جوار ابن الدغنة، وعندما رد عثمان -رضي الله عنه- جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة بين الفرد والمؤسسة فهي تختلف عن ذلك. فمادام الفرد عضواً في المؤسسة فيجب أن يخضع لها ويسير على نهجها ويتبع أفكارها ولو كانت تغاير أفكاره، لأنه هو الطرف الضعيف في هذه العلاقة.

ثانياً: دخول الرسول ﷺ مع بني هاشم وبني عبد المطلب كان دخول فرد مع أسرته، وكان هو المحور، بينما طلب من الآخرين اللجوء إلى الحبشة كي يجدوا مكاناً يأمنون فيه. أما هو ﷺ وكان مُحافَظاً عليه من أعدائه باتفاق عشيرته كلها في هذا، وكان هو المحور الذي يدور حوله المجتمع والعنصر المحرك فيه. حتى أنه كان أحياناً إذا آوى إلى فراشه ﷺ رأى ذوو قرابته أن ينتقل إلى فراش آخر من أبناء عمومته حتى يظل في حماية بعيداً عن الأذى.

ونلاحظ أنه كثيراً ما يتخذ الإنسان هذا الدخول في المؤسسات لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوغات له، وبعد المناقشة تتبلور في ذهنه حتى تصبح حقيقة ويُصبح الأمر المادي هو كل شيء. لذلك نرى أن الدخول في المؤسسات والاحتماء بها ليس من باب الدخول في جوار، لأن هذا يجبر المسلم على أن يكون هو الجانب الضعيف الذي يقبل ما لا يجوز له قبوله. لكن إذا وُجِد في أي وقت مثل هذا النظام أو كانت الحماية من دولة أو مجتمع أو مؤسسة بلا شروط فهذا يجوز بطبيعة الحال، ولكن هذا يكون بالتفاهم مع الجماعة المسلمة ومع قيادتها.

هذه صورة من حياة الجماعة المسلمة وخصائص أفراد الجماعة المسلمة، فبعد الإيمان بالعقيدة، وبعد البيعة للقيادة، وبعد الطاعة لهذه القيادة، تكون الأخوة، ويكون التميز بالتجمع حول الفكرة والاتحاد في العقيدة، ويكون التعاون على كل أمور الحياة المادية والمعنوية والمصالح وكل شيء. ويكون أيضاً الطاعة للقيادة وحمايتها والحرص عليها، وكذلك البذل والفداء في سبيل بقاء الجماعة واسترخاص النفس في سبيل ذلك. ويكون كذلك شدة اليقظة من المسلم وهو يعيش في المجتمع الجاهلي، بحيث يتعرف على كل ما يُحاك ضد

المسلمين من مؤامرات، فيكون عيناً لقيادته يزودها بكل ما يعينها على التخطيط السليم، وكذلك ينبغي أن يكون المقياس الذي يتعامل به مع الأفراد هو قربهم أو بعدهم عن الحق ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك ينبغي أن يحرص المؤمنون على حماية بعضهم البعض، من خلال التزامهم الدقيق بسرية العمل ودقة النظام، وكل ما يؤدي إلى الحفاظ على المسلم ليظل مُبَلِّغاً عن الله رب العالمين.

وبهذا الحديث ينتهي استعراضنا بقدر الإمكان عن الجماعة المسلمة وأهميتها وكيف كانت في واقع الحياة في المجتمع الأول، وما هو حكمها الشرعي، وما هي الأسانيد الشرعية لهذا، كما تحدثنا عن المصالح والنتائج التي تترتب على قيام الجماعة سواء في حياة الفرد أو في حياة الأمة أو في حياة الجماعة نفسها.

وكل هذا له صلة وثيقة بموضوع الفصل الذي تناولناه بالشرح فصل "الجهاد في سبيل الله".

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الخامس

شروح

كتاب

معالم في الطريق

لا إله إلا الله منهج حياة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
عناصر المنهج ١
الركن الأول في العقيدة الإسلامية ٣
المسلم يصوغ حياته وفق هذه القاعدة ٤
"لا إله إلا الله" قضية الحياة كلها ٦
أهمية هذه القاعدة في تحديد القضايا الأساسية في حقيقة هذا الدين ٨
طبيعة المجتمع المسلم ٩
التصور الاعتقادي الإسلامي ١٢
منهج نشأة المجتمع المسلم ١٣
منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية ١٧
منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية ٢٠

لا إله إلا الله منهج حياة

مقدمة

نتحدث الآن عن فصل جديد بعنوان (لا إله إلا الله منهج حياة).. وهذا الفصل من أمتع فصول الكتاب، ورغم بساطته، سنلاحظ أنه يتحدث عن قضايا قد تكون مسموعة من قبل ومعروفة، ولكنه يتحدث عنها من زاوية جديدة، وبتقرير جديد أيضاً، ومنذ أن نقرأ العنوان "لا إله إلا الله منهج حياة" سنجده عنوانا -في ذاته- جديداً.. أو على الأقل جديداً على هذا العصر الذي نعيش فيه. وهذه الحقيقة التي يعبر عنها هذا العنوان كانت معلومة يقيناً عند الجيل الأول، وعند التابعين وتابعيهم، وعند صالحي هذه الأمة.. ولكن لا شك أن هذا المعنى غاب تماماً عن الأجيال الأخيرة التي غزتها أوروبا بفكرها المادي والعلماني، وأصبحت "لا إله إلا الله" كلمة خالية من المعنى، وخالية من المقتضى، وخالية من التأثير في حياة الإنسان.

وهذا المعنى.. حينما سمعناه أول مرة، وقرأناه أول مرة.. حينما قرأنا الكتاب وهو مازال مخطوطاً.. كان له رنين خاص، وكان له معنى وتذوق وطعم رائع. ولا شك أن قضية لا إله إلا الله ستظل هي القضية العظمى في حياة الإنسان، أو هكذا يجب أن تكون.

ونحن حينما نعيش هذه الحقيقة ونفهمها سيزداد تعلقنا بهذه الكلمة، ويزداد حبنا لها، ويزداد إعجابنا بهذه القضية العظمى، والتي هي أعظم القضايا، بل إنها القضية التي بُني عليها هذا الوجود كله. فإذا أضيف إليها هذا المعنى الجميل، والجاد؛ أنها منهج حياة.. ستصبح هذه القضية أكثر فاعلية في حِسّنا، وأكثر بداهة، وسنتعامل معها بصورة جديدة تجعلنا نفهم أن "لا إله إلا الله" لم تكن يوماً ما كلمة تقال، ولم تكن يوماً ما دعوة يدعيها الناس، ولكنها كانت دائماً منهج حياة متكامل.

عناصر المنهج

وإذا أردنا أن نحلل لفظة "منهج" لكي نتعرف عليها قبل أن ندخل في الموضوع؛ سنجد أن المنهج له عناصر معينة لا بد أن نتعرف عليها لكي ندرك الأبعاد التي تعنيها هذه الكلمة، ومن ثم نستطيع أن نفهم الموضوعات التي تحدث عنها الأستاذ سيد في هذا الفصل، فنفهمها على ضوء ما نقول عن هذه العناصر إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن نوجز عناصر المنهج -أي منهج- في أنه لا بد أن يكون قائماً على تصور.. أو فكرة.. أو فلسفة. فلا بد أن يتحدد لأي منهج تصور خاص.

والعنصر الثاني؛ هو الطريقة التي يتم بها هذا التصور، أو التي تحقق هذا التصور في واقع الحياة.

العنصر الثالث؛ أن يكون الهدف واضحاً من هذا المنهج، لكي يظل الهدف دائماً في أفق الرؤية، يسعى إليه الإنسان دون أن ينحرف عنه بصورة من الصور.

العنصر الرابع؛ هو الوسائل التي يتحقق بها هذا الهدف، ويتحقق بها هذا التصور، وتتحقق بها هذه الصورة لهذا المنهج.

العنصر الخامس؛ هو السلوك الذي ينبثق أو ينتج عن هذا المنهج أو هذا التصور.

والعنصر الأخير؛ هو المشاعر والتذوقات والطعوم التي تنتج من الحياة في هذا التصور، والتي تشكل مشاعر الإنسان وتذوقاته في الطريق الذي يسير فيه.

هذه العناصر نستطيع أن نعطيها بُعداً آخر، أو نترجمها ترجمة أخرى تزيد الصورة وضوحاً..

فالتصور يمكن أن نترجمه بأنه رؤية للحياة؛ كيف يرى الإنسان الحياة من خلال هذا المنهج؟ ولا شك أن المناهج منذ أن وُجدت الحياة البشرية كثيرة. وكل منهج يعطي صورة ورؤية معينة لطريقة حياة الإنسان وهو يدب على هذه الأرض، وما يتصل بهذا الإنسان من مظاهر الوجود التي تحيط به، هذه الطريقة التي يمكن أن نعبر عنها بتحقق هذا التصور في عالم الواقع.. كيف يتحقق هذا التصور، وما هي صورة هذا التحقق.

والهدف لا بد أن يكون محدداً، فبالنسبة للإنسان هل هو يعمل من أجل نفسه أم من أجل الآخرين؟ من أجل الله أم من أجل لا شيء؟ كما يحدث في مذاهب العبثية واللامعقول وغيرها، لا بد أن يكون الهدف متجهاً إلى نقطة واضحة ومحددة.

والوسيلة يمكن أن نعبر عنها بالوسائل التي تؤدي إلى أي هدف؛ سواء كانت هذه الوسيلة علماً أو تناصحاً أو إخلاصاً أو مهارة، فهناك وسائل متعددة يتبعها كل منهج حسب طبيعته ولونه.

والسلوك إنما هو اصطباغ بذلك المنهج الذي اختاره الإنسان لنفسه، فالسلوك هو ترجمة وتعبير عن الصبغة التي يريدها هذا المنهج ليصطبغ بها الإنسان، ولا شك أن كل منهج يصبغ أهله بصبغته، ونستطيع أن نعرف المنهج من خلال سلوك أتباعه، ونتوقع سلوك الأتباع من خلال المنهج.

وكذلك الشعور والتذوق، لا بد أن يحدث من خلال هذا كله، لا بد أن تتكوَّن مشاعر خاصة يقتضيها هذا المنهج؛ سواء كان حباً أو كراهية، تجرداً أو أنانية، عداءً أو وفاقاً. فالمنهج يخلق شعوراً، ويوجد مشاعر وتذوقات لا بد أن نفهمها من خلال هذه العناصر.

فأي منهج هذه عناصره، وهذه معانيه التي ينبغي أن تكون محددة في حياتنا بالنسبة لهذا الدين.

وإذا كانت العناصر واضحة بهذا الشكل؛ أنها تصور، وطريقة، وهدف، ووسيلة، وسلوك، ومشاعر وتذوقات..

فإننا إذا جئنا للإسلام من خلال قراءتنا لهذا الفصل سنستطيع أن نتناول هذه العناصر، أو تبدو لنا هذه العناصر من خلال العرض الرائع في هذا الفصل القصير.

وأي إنسان -حينما يختار منهجاً معينا- فلا بد أن يكون مستعداً للتواؤم مع هذا المنهج، والإخلاص له. وأي إنسان يختار منهجاً، أو يختار هدفاً، أو يختار طريقة، ثم لا يكون صادقاً معها فإنه بالتأكيد لن يتشكل بها، ولن تصبح منهجاً لحياته كما يزعم وكما يدعي.

والإسلام -كأي منهج- يقتضي من أتباعه أن يكونوا على درجة كبيرة من الاقتناع، ومن الإخلاص والتجرد، ومن الرغبة والشوق لأن يعيشوا بهذا المنهج، ولذلك نجد أن دعاوى كثيرة يكذبها سلوك الإنسان الواقعي في الحياة. فليس من السهل أن يكون الإنسان شارداً ويدعي الاستقامة، ومنحرفاً ويدعي الالتزام. ولا شك أن هذا التناقض يعني شيئاً واحداً؛ أنه ليس هناك صدق ولا اقتناع ولا إخلاص مع هذا الهدف.. أو مع هذا المنهج.

وعندما يكون هذا المنهج منهجاً بشرياً، أو منهجاً من صناعة إنسان، فقد يُفهم أن الناس قد يكون لهم ظاهر وباطن، وأن الصدق والإخلاص والتجرد قضية لا تكون جوهرية في اعتناق المذاهب البشرية، لأنهم بشر يتعاملون معاً، ولأنهم يجرون وراء مصالحهم، وبالتالي قد يُفهم معنى أن يكون هناك تناقض في المناهج البشرية.

وكل المناهج البشرية التي ليست هي منهج الله، نقول عنها أنها -يقيناً- مناهج جاهلية. ومن طبيعة الجاهلية -كما قلنا قبل ذلك- عدم الصدق، وعدم التوافق مع الحق. فمن الطبيعي أن نجد هذا التناقض في حياة الجاهلية، فنجدهم يرفعون رايات الحرية ولا يكونون كذلك، ويرفعون رايات التقدم ولا يكونون مترقّين في الحقيقة، ويرفعون رايات الإحسان في العمل، وغيرها من الرايات ولا يكونون كذلك، لأن الأمر كله عبارة عن شعارات، ولكنها شعارات قد تتعارض مع المصالح التي يقررها أصحابها لأنفسهم دون مرجع يهديهم إلى الصواب وإلى الحق، فلا يلتزمون بها.

ولكن الأمر مختلف في الإسلام. فالمنهج ليس منهجاً بشرياً.. المنهج منهج إله، والتعامل هو تعامل مع إله، وليس تعاملاً مع بشر، ولذا يتغير إحساس الإنسان بالمنهج ومتطلبات المنهج.. فتصبح تلك المتطلبات مختلفةً تماماً عما يحدث في الجاهلية. ولذلك يكون معيباً جداً أن يدّعي الإنسان الإيمان بالله والإيمان بالحق ثم لا يكون مستقيماً عليه، وفي منهج الله الأمر أكبر وأخطر مما يظن الناس، فلا يمكن في منهج الله أن يدّعي الناس دعوة ثم يتفلتون منها حسب أهوائهم ويظلون تحت اسم هذه الدعوة. فهذا مع منهج الله لا يُقبل أبداً، لأن لذلك آثاره الخطرة على حياة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة.

الركن الأول في العقيدة الإسلامية

في أول هذا الفصل يقول الأستاذ سيد رحمه الله:

"العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: أن لا إله إلا الله، والتلقي عن رسول الله ﷺ -في كيفية هذه العبودية- هي شطرها الثاني، المتمثل في شهادة أن محمداً رسول الله."

ونلحظ أن التركيز هنا على العبودية.. العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية، وكان من الممكن أن يتحدث عن التوحيد باعتباره هو الشطر الأول في قضية لا إله إلا الله، ولكن لأنه سيتحدث عن منهج وعن سلوك وعن حياة

فكان التركيز على الجانب البشري من المعادلة، وهي موقف البشر من الله، فلذلك تصبح العبودية هي القضية الأنسب هنا أن نتحدث عنها باعتبارها منهج الحياة بالنسبة للإنسان، ومن خلالها تتحقق حقيقة التوحيد أيضاً. فالتعبير هنا مقصود؛ أن العبودية لله وحده هي شطر ركنه الأول، لصلتها بالمنهج، ولتخصصها في الموضوع الذي يتحدث فيه هذا الفصل.

"والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان، وأركان الإسلام، إنما هي مقتضى لها.."

وهذه قضية مهمة جداً لا نريد أن نتعامل معها بالفكر ولا بالعقل فقط، وإنما نريد أن نتعامل معها أولاً بالقلب الحي الذي يعيش دائماً منفعلاً بالحقيقة. فقاعدة لا إله إلا الله لا شك هي أساس البناء كله، وبقدر وضوح هذه القضية، وبقدر عمقها، وبقدر حرارتها، وبقدر صفائها ونقائها يتحقق المنهج في حياة الإنسان. ولذلك كان الالتزام والاتباع والعمل مقياسا دقيقا جداً لمقام وحقيقة الإيمان في القلوب ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] لأن الاتباع والالتزام والسلوك السوي هنا يتبع الحقيقة، وهو الذي يصدقها. فلذلك كانت أي مفارقة، وأي مجانبة وتضاد بين القول وبين العمل من أخطر سمات الكفر أو النفاق والعياذ بالله.. ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].. أما القلب المؤمن المسلم فهو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام وأعماله إنما هو مقتضى لهذه القاعدة؛ من أكبر وأخطر الأمور إلى أقلها؛ فالإيمان بالله، ومعرفة الله، والحب لله، والإيمان به، أو الإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أو الصلاة والصيام والزكاة والحج، أو الأحكام التي وردت في شريعة الإسلام، حتى ولو كانت سنناً عملية صغيرة تبدو بسيطة في أهميتها وفي قيمتها، لكنها في الحقيقة هي أيضاً مقتضى لا إله إلا الله، لأن الإنسان لا يأكل بيمينه، أو لا يدخل الحمام برجله اليسرى إلا من خلال أنه يراقب الله عز وجل، وأنه يتأسى برسول الله ﷺ، لأن هذا الرسول هو المعتمد من قبل الإله الواحد، الذي شهد أن لا إله إلا هو. فكل شيء مهما صغر هو مرتبط ومشدود إلى ذلك الأصل الكبير؛ وهو لا إله إلا الله. ومن ثم تصبح قضية لا إله إلا الله المعروضة في هذا الفصل، من جانب السلوك، ومن جانب الواقع الذي يعيشه الإنسان الذي يعيش لا إله إلا إله، أو الذي يدعي لا إله إلا الله.. قضية ذات خطر كبير.

المسلم يصوغ حياته وفق هذه القاعدة

ويهمنا نحن الدعاة والرواد الذين عرفوا لا إله إلا الله أن تكون حياتنا واضحة التمثيل ومعبرة كل التعبير عن هذه الحقيقة. فإذا وجدنا أن الدعاة والرواد لا يلتزمون هذه الحقيقة في كل سلوكياتهم، وفي كل اهتماماتهم، وفي كل مجالات حياتهم، فهؤلاء في الحقيقة يُنقصون من قدر أنفسهم بقدر ما يَنقص هذا التمثيل وهذه الترجمة لحقيقة لا إله إلا الله. وهذا يبدو في كل سلوكياتنا؛ في تعاملنا مع أنفسنا، ومع أعمالنا، وفي اختيارنا لأعمالنا، وفي تعاملنا مع الأهل ومع الأولاد ومع الجيران، ومع الأعداء والأولياء، وفي مسكننا، وفي حياتنا.. لا بد أن نكون صورة واضحة لهذه الحقيقة. فإذا تخلفت الصورة عن الدعوة فإن هناك خطراً كبيراً جداً على حياتنا. ولا شك أن هذا الأمر قد يكون باهتاً في حياتنا من خلال السعي في خضم هذه الحياة

التي تنسينا في بعض الأحيان، أو في كثير منها، أننا نعيش لحقيقة كبرى، وإن كنا نقول باللسان كلاماً طيباً، ولكن في الحقيقة لا نجعل "لا إله إلا الله" هي القاعدة التي تشع على سلوكياتنا واختياراتنا.

فحينما يختار الإنسان بيتاً يسكن فيه لا بد أن يكون هذا الاختيار مبنياً على قضية لا إله إلا الله. وقد يسمع إنسان هذا الكلام ويتعجب: ما هي صلة "لا إله إلا الله" باختيار بيت لأسكن فيه؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إنه لا بد أن تبحث أولا: هذا البيت الذي ستسكن فيه.. هل هو في حدود قدراتك أو أنك مسرف أو مقترّ؟ هل ستختار البيت للتظاهر؟ هذا البيت.. هل أخذته بصورة تحقق إسلامك في داخل البيت؟. أم أن هذا البيت بنظامه الداخلي سيعوق حركتك وحركة أهلك كمسلم داخل البيت؟ البيوت مفتحة الأبواب، أو المصممة بدون حواجز بين الحجرات لا تنفع للمسلمين لأنها تظهر العورات.. هذا البيت هل هو في منطقة ستعينني على أن أتربى وأربي نفسي وأربي أهلي وأربي أولادي، أم أنني اخترت مسكناً في بيئة ستفسد علي كل ما أصنعه من تربية للأولاد؟ فحينما أختار كمسلم هذا البيت الذي أسكن فيه، يجب أن يكون في بؤرة اهتمامي أن هذا البيت لا بد أن يتوافق مع الهدف الذي أسعى إليه. وأن لا إله إلا الله تسري في دمي وفي وجداني، وتملأ أفق حياتي.. بحيث تجعلني دائماً دائراً في بؤرتها.. فإن لم أكن كذلك سوف لا أهتم، وسأختار بيتاً في أي مكان وبأي صورة دون أن أفكر أن هذا البيت سيكون عائقاً بعد قليل بيني وبين هذا الهدف العظيم الذي أريده.

حينما أختار عملاً أيضاً.. لا بد أن أفكر؛ هل هذا العمل سيعينني على تحقيق أهدافي في الحياة، أم أنه سيبعدني عن أهدافي؟ هل سأعيش من خلاله مع أناس يتعبونني أو يبعدونني عن أهدافي وعن اهتماماتي؟ هل سيأخذ وقتاً من حياتي بحيث لا يبقى لي وقت أفكر فيه وأربي فيه نفسي وأسرتي وأعيش مع ربي.. هل هذا العمل غير متلبس بحرام أو بتقصير أو بتعاملات غير كريمة، أو بمظاهر إباحية.. فقبل أن أدخل في أي عمل لا بد ان أنظر هل سيحقق لي "لا إله إلا الله"..

حينما أريد أن أتزوج.. حينما أريد أن أُدخِل ابني مدرسة.. كل هذه المسائل تحتاج مني أن أربطها بلا إله إلا الله، فالقضية أكبر من أن تكون عقيدة مجردة تدخل رأسي ثم أصبح بها مسلماً حينما أتلفظ بها وينتهي الأمر.. القضية منهج.. منهج حياة، لا بد أن ندرك مدلول كلمة "منهج حياة".

فكلنا ينبغي أن يراجع واقعه، هل واقعه.. وهل زواجه، وأولاده، ومدارسهم، والبيت الذي يسكن فيه، والعمل الذي يعمل وعدد ساعات العمل، والملابس التي يلبسها، وتعامله مع الجيران.. هل كل هذا يتمشى مع تحقيق قضية "لا إله إلا الله" في حياته التي خُلق من أجلها؟ ولا شك أنها قضية كبيرة، إذا غفلنا عنها سنكون مسلمين نظرياً، وقد قلنا سابقا أن المسلم النظري لا وجود له في الحقيقة، لأنه حينما يكون مسلماً نظرياً فهو في الحقيقة جزء لا يتجزأ من جسد الجاهلية، يعطيها كفاءاته وإيجابياته، وكل شيء، بينما هو يتلفظ فقط بكلمة الإسلام، ويُحسب على الإسلام، لكنه في الحقيقة عنصر مقو للجاهلية.

لكنه حينما يعيش بحقيقة لا إله إلا الله فإن الأمر يختلف. يصبح الإنسان يختار اختيارات لا يفهمها إلا المسلم الذي يعيش معه في نفس الاهتمام وفي نفس الدائرة، لكن الآخرين يعتبرون هذا جنوناً، أو خطأً.

هذه هي قاعدة "لا إله إلا الله" بشطريها؛ شطر لا إله إلا الله التي تعني التوحيد والعبودية الكاملة لله، والشطر الثاني وهو شهادة أن محمداً رسول الله، والتي تعني أنه المصدر المعتمد، الذي اعتمده الله ليكون رائدنا في سعينا إليه. فلا بد أن تكون هذه القضية هي شغلنا الشاغل؛ لو كان رسول الله ﷺ مكاني كيف كان سيتصرف؟ وبمثل تصرفه أتصرف. لو كان رسول الله ﷺ مكاني هل سيختار هذه الزوجة؟ أو سيختار هذا العمل؟ ما الذي كان سيفعله؟ حتى أتلبس بهذه الشخصية، وأعيش من خلالها.. لأنه هو الشخص الذي اعتمده الله، وجعله نموذجاً أعرف الإسلام من خلاله، وأعرف الحق من خلاله.

والشرك في معانيه البسيطة هو أن تجعل مع الله إلهاً آخر؛ سواء كان في الخلق، أو في الاتباع، أو في التحاكم. فحينما يتضح الأمر هكذا نجد أننا حينما يكون هوانا هو الذي يسيرنا، واختياراتنا ومذاقاتنا هي التي تسيرنا، فنحن في الحقيقة قد ارتكبنا نوعاً ما من الشرك، لأننا جعلنا مع الله مصدراً آخر نتلقى منه حياتنا.

فالقضية قضية منهج. نريد أن نفهم المنهج، ونريد أن نعيش بمشاعر معينة، نفهم ونعي معنى كلمة "منهج"، حتى نصبح فعلاً صادقين حينما نقول "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"..

"والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلماً.."

وهذه قضية أيضاً تمثل حقيقة كبيرة، وهي حقيقة بديهية عند من يعرف حقيقة "لا إله إلا الله" بكل أبعادها، فالمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها، قاعدة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" بشطريها، وما يترتب على هذه القاعدة من مقتضيات، فإذا لم تتمثل في مجتمع فلا يمكن أن يكون هذا المجتمع مسلماً. وبذلك لا نجد ذلك الجدل الرخيص السخيف الذي يثار اليوم. فعندما يكون المجتمع كله يسير في اتجاهٍ معادٍ تماماً لكل ما جاء به الرسول ﷺ أو ما أمرنا به الله، ثم يظل الجدال يثار حول هذا المجتمع لماذا لا يكون مجتمعاً مسلماً.. ونحن نقول لهؤلاء: كيف يكون ذلك؟ وهذه الشهادة.. وهذه القاعدة بشطريها لا تتحقق في هذا المجتمع في أي صورة من الصور؟

"لا إله إلا الله" قضية الحياة كلها

"ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة.."

وهذا لا يأتي أبدا بالادعاء ولا بالأماني، ولا بالرغبات.. وإنما يأتي بالتحقيق.. تحقيق العمل، وتحقيق الانبثاق من قضية لا إله إلا الله.. من هذه القاعدة بشطريها.

"كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة، أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية عنها.."

فهذا المفهوم الرائع؛ أن تصبح لا إله إلا الله هي قضية الحياة كلها.. هي التي تشكل وتنير الحياة كلها، بحيث لا يصبح هناك مجال للجدل حول "لا إله إلا الله"؛ هل هي كلمة باللسان أم لا، وهل لها مقتضيات أم لا.. فهذه قضايا رخيصة لا ينشغل بها إلا الأفّاقون الذين يعملون في مجال الدين وليسوا منه في شيء، لأن القضية أكبر، والله سبحانه وتعالى أعظم من ألا نفهم عنه هذه القضية. فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعني القاعدة التي يقوم عليها منهج كامل لحياة الأمة المسلمة بحذافيرها، بكل كبيرة وصغيرة.. فليس هناك شيء يند عن هذه القاعدة العظمى التي تقوم عليها حياة الأفراد، وتقوم عليها حياة المجتمع..

يقول الله عز وجل ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].. فأداة الحصر والقصر هنا مقصودة، لكيلا تدع هناك مجالاً لتصور آخر أو احتمال آخر.. إن الحكم إلا لله.. فالحكم قضية واضحة.. فلا يجوز أن يكون هناك حُكْم لغير الله ولا حَكَم إلا الله سبحانه وتعالى في كل شيء، وهذه هي قضية التوحيد ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾. وهذا يتحقق من خلال أن يكون الحكم لله وحده، والحاكمية لله وحده.. فيكون عندها التوحيد الحق.. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾.. فهو أمر الله سبحانه وتعالى، وليس أمر أحد من البشر.. فليس الذي يقرر ذلك هو أبا بكر، وليس ابن تيمية، وليس سيد قطب، وليس أحداً من البشر أياً ما كان.. ولكنه الله الذي أمر وجزم ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾.. فالأمر من الله، وليس من اختيار البشر، لكي يكون لهم اختيار في أن يعبدوه -سبحانه- أو لا يعبدوه، أو أن يحكموه أو لا يحكموه.

فإذا حكموا بأمر الله وحده، وجعلوا الحكم لله وحده، فقد نفذوا أمر الله؛ ألا يعبدوا إلا إياه، فالعبادة هنا هي المنهج؛ منهج الحياة كلها.. ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾.. تحقيقاً للتوحيد الذي يدعيه المسلم أو الموحد.. ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾.. فهذا هو الدين، وغيره لا يكون ديناً مقبولاً عند الله.

وحينما يكون الحكم لله وحده في كل شيء، صغير أو كبير. وحينما تكون العبادة لله وحده بأمر من الله، واستجابة لأمر الله، وليس استجابة لأمر أحد من البشر، يكون ذلك هو الدين القيم، ولا دين قيم إلا دين الله عز وجل، فيصبح المنهج قضية مرتبطة ارتباطاً مباشراً بقضية العقيدة.. بقضية الألوهية.. بقضية التوحيد، فهي ليست قضية كمالية، ولا قضية اختيارية، ولا قضية جدلية.. وإنما هي قضية الحكم فيها ليس لغير الله.. هو الذي أمر ألا نعبد إلا إياه.. فلا تكون صورة من حياتنا إلا والعبادة متمثلة فيها.. في كل شيء..

يقول الله عز وجل ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].. فالله هو الذي يقول، والله هو الذي يقرر أن طاعتنا لرسوله ﷺ هي طاعة له، ومن ثم يصبح التأسي برسول الله ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ويصبح استفتاء رسول الله ﷺ في كل شيء هو منهج حياة.. وليس عقيدة فقط، وإنما هو منهج حياة، هو سلوك وشعور وتذوق ومرجع وهدف ووسيلة وطريقة، لا بد أن نعيش الحقيقة بحرارتها، ونعيشها بمشاعرها الساخنة باستمرار، لأن الحياة قصيرة، وقد يداهمنا الموت في أي وقت، لا بد أن نعيش هذه الحقيقة لحظتنا هذه لكي نعيشها ساخنة دائماً، وحينما تكون هذه المشاعر حارة وساخنة سَتُلين الصخر الذي في قلوبنا، وتُلين السدود التي تمنعنا أن نعيش مع الله، وتُلين الرغبات الشاردة التي تجعلنا لا نعيش لله عز وجل، فليراجع كل

واحد منا نفسه، ويراجع اختياراته، ويراجع عمله، ويراجع أهله، وأولاده، ورغباته، وطموحاته، وسلوكياته، واقتصادياته، هل هي فعلاً في مجموعها تحقق له تلك الشهادة بشطريها؟ أم أن الشهادة بشطريها في وادٍ وسلوكه في وادٍ آخر؟ والله عز وجل لا يقبل الشرك.. لا يقبل أن يُعطى جزءاً من الحق، لا نصفه ولا ثلثيه ولا حتى أغلبه، إما أن يكون الأمر كله لله.. أن تكون العبادة كلها لله، وإلا فلا.. يقول الله في الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[١] أو كما قال في رواية أخرى (فهو للذي أشرك وأنا منه بريء)[٢].. فالقضية خطيرة..

فقضية اختيارنا لأي شيء، صغير أو كبير، له مساس بقضية الشرك وقضية التوحيد. فلا تحسبوا الأمر بسيطاً، الأمر أكبر مما تتصورون.. إنها قضية الحياة الدنيا، وقضية الإنسان، الذي خُلق لأمر ضخم وكبير، وما كان الله العظيم الجليل أن يخلق هذه الحياة بهذه التفاهة وبهذه البساطة وبهذه السخافة التي يتصورها الناس، والتي نقع فيها نحن في بعض الأحيان، حينما نغفل، وحينما تتضخم عندنا طموحاتنا الدنيوية فتعمى أبصارنا عن الحقيقة العظمى.

نريد أن نعيش الحقيقة، ونريد أن نعيش مع الله سبحانه وتعالى، فنصدقه في كل ما يقول، فلا نقول إننا نؤمن به ثم لا نصدقه، وعدم التصديق لا يأتي بوعي، ولا يأتي من خلال التقرير بأننا لا نصدقه، ولكنه يأتي عن طريق تَخالف السلوك مع العمل، أو تَخالف الرجاء والخوف مع العقيدة.. عندما أخاف على رزقي وأبغي سبيلاً للرزق يعطلني ويبعدني عن لا إله إلا الله فهذا نوع من الشرك الخفي، لأنني لا أصدق أن رزقي سيأتيني، وأنه لن أظلم منه شيئاً.. ثم إن هذا الرزق يُبارك فيه حينما تقدم أمر الله على أمره، وحينما تتوكل على الله.. سيبارك لك في هذا الرزق، وحينما يغلبني خوفي على الرزق فيجعلني أنسى حقوق الله وأتساهل فيها بينما أهتم اهتماماً كبيراً بأمر رزقي أو أمر أولادي.. فهذا شرك خفي، له مساس بالإيمان ومساس بالتوحيد، لا بد أن أتعلم أن أصدق ربي، وأن أعرف أن رزقه لن يفوتني، وأن أجله لن يفلتني، وأنني حينما أتوكل سأكسب من خير الله أكثر مما أعمله بنفسي. وما أرتب له بنفسي يمكن أن يخيب، وما يأتيني بترتيب الله هو ما يكون ناجحاً.. كثيراً ما يرتب الإنسان أموراً لنفسه ثم تضيع بسبب بسيط جداً، وبعض الأحيان يرى أموراً معقدة جداً ثم يجدها سهلة جداً لأن الله يريدها.. إذا توكلنا على الله حق توكله فإن الأمور ستسير أكثر ما تكون بركة، وأكثر ما تكون سداداً وتوفيقاً..

أهمية هذه القاعدة في تحديد القضايا الأساسية في حقيقة هذا الدين

"هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين، وفي حركته الواقعية كذلك.."

---

١ رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

٢ أخرجه ابن حبان.

ويقصد بالتقرير الموجز المطلق الحاسم الحديث عن أن العبودية لله وحده هو شطر الركن الأول للعقيدة الإسلامية، وتقريره أن شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها. هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم؛ سواء في شرح هذه القضية، أو في التقرير الحاسم في قول الله عز وجل ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف: ٤٠].. هذا التقرير يفيدنا في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين.

والتقرير الحق والمطلق هو تقرير الله وليس تقرير البشر، وحينما يقرر أي بشر شيئاً إذا لم يكن مستمداً من تقرير الله فلا قيمة له، فلا شك أن التقرير الذي نفصله ونوضحه هو تقرير من خلال ما أمر به الله وما قرره سبحانه وتعالى. هذا التقرير المطلق الحاسم

"يفيدنا أولاً في تحديد "طبيعة المجتمع المسلم". ويفيدنا ثانياً في تحديد "منهج نشأة المجتمع المسلم". ويفيدنا ثالثاً في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية". ويفيدنا رابعاً في تحديد "منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية". وهي قضايا أساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الإسلامية قديماً وحديثاً.."

وهذه القضايا التي تتعدد، وقد يحسبها بعض الناس -حتى من العاملين في الحركة الإسلامية- أنها نوع من الترف العقلي، ونوع من المبالغة في المعاملات الفكرية.. بينما الحق أن الأمر ليس كذلك، فالقضية لأنها قضية كبيرة وخطيرة وعظيمة فإنها تمس أموراً عظيمة أيضاً. ونحن في عصر غربة الإسلام الآن، نحتاج إلى أن نستوضح هذه الحقائق، لأنها هي التي تشكل حركتنا، وحياتنا مع الله، والتي تضمن لنا العودة إلى حظيرة الإيمان بعد أن تُهنا كثيراً في التيه الطويل العريض الذي ساقتنا إليه الجاهلية.

طبيعة المجتمع المسلم

والأمر الأول: **"أن السمة الأولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في أمره كله.. هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله."**

وتكرار قضية شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مقصودة في هذا الفصل، لكي ندرك كيف أن هذه الشهادة بشطريها هي أغلى شهادة في حياتنا، وأن المطلوب منا أن ندركها بكل وجوهها، وبكل أعماقها وأبعادها، حتى نعيشها حياة حقيقية.

وكما يقول؛ إن الموضوع الأول الذي يفيدنا في هذا التقرير الموجز هو تحديد طبيعة المجتمع المسلم. فالمجتمع المسلم سمته الأولى التي تميز هذه الطبيعة أنه يقوم على قاعدة العبودية لله وحده في الأمر كله. إن روح العبودية لله وحده هي التي تشيع في أرجاء هذا المجتمع، وفي حنايا النفس، وفي تلوين الغايات والأهداف، وفي تشكيل الوسائل والأساليب.. وهو الذي يتمثل في الذوق العام بمعنى الحياة الإنسانية.. هكذا نفهم معنى أن سمة هذا المجتمع أو السمة الأولى المميزة لهذا المجتمع هي العبودية لله، وأنه يقوم على قاعدة العبودية، ونفهم أن هذا ليس كلاماً مجرداً ولا نظرياً، وإنما هو روح تشيع في أرجاء هذا

المجتمع، وفي كل حنايا النفس، وفي كل تناول للحياة في كل أعمالها وأساليبها.. هذا الأمر الذي كان يعيشه الصحابة حياة حقيقية وعميقة.. كنا نرى أن العبودية هي منطقهم الذي يعيشون به، ويتحدثون من خلاله، ويتصرفون من خلاله، وكانوا يقيسون كل صغيرة وكبيرة من حياتهم ويلونونها بهذه العبودية، هذا التخصص في إدراك العبودية كان تخصص الصحابة -رضي الله عنهم- وكانوا -ولا شك- يتميزون بها. وكل إنسان يريد أن يكون على طريقهم لا بد أن يدرك هذا المعنى، بأن يعيشه حقيقة.. يعيش عابداً بروح العبودية، ومتلبساً بمعنى العبودية الكامل الشامل الكبير.. وهذا هو الذي يجعل الإنسان يدرك هذا المذاق الرائع الجميل..

"وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي، كما تتمثل في الشعائر التعبدية، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء.

فليس عبداً لله وحده من لا يعتقد بوحدانية الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۞ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥١-٥٢]."

والوحدانية -كما نكرر دائماً- ليس في أن نعتقد أن الله خالق فقط، ولا أن الله رازق فقط، وإنما في أنْ نعتقد أنّ السلطة الكاملة المهيمنة على كل شيء في هذا الوجود هي لله وحده.. هذا هو التوحيد.

ليس التوحيد بأن تعترف بأن الله موجود.. هذا يعترف به الكافر والمؤمن سواء، لكن المؤمن يجعل السلطان كله لله في كل شيء، صغيراً كان أم كبيراً، فيما يعلم وفيما لا يعلم، ويحس أن حياته تتشكل بهذا المعنى الرائع الجميل..

"ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله -معه أو من دونه- : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله، عن الطريق الذي بَلَّغَنا الله به، وهو رسول الله ﷺ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]."

فهذا الشرح بهذا المعنى يجعل الجدل حول إسلام الناس أو كفرهم حينما يقولون لا إله إلا الله ويعتقدون العقيدة.. هل يكفي هذا فيصبحون مسلمين، حتى ولو لم يؤدوا الشعائر، ولو لم يؤدوا الشرائع؟ يصبح هذا الجدل سخفاً.. وكذلك الذين يقفون عند الشعائر، ويقولون: المسلم هو من يقوم بالعبادات، والمجتمع المسلم هو الذي تظهر فيه العبادات أيضاً.. فيقولون كلاماً ناقصاً منحرفاً عن الحقيقة.. وكذلك الذين يعتقدون أن الشرائع هي حدود وحرام وحلال فقط، بينما يتجاهلون القيم والأخلاق التي دعانا إليها الرسول ﷺ. وهؤلاء أيضاً لا يعرفون معنى لا إله إلا الله.. فقضية العبودية تشمل كل ذلك، وإذا نقص أمر من هذا فلا قيمة للباقي بمفرده..

"هذا هو المجتمع المسلم. المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم، كما تتمثل في شعائرهم وعبادتهم، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم.. وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود. لتخلف ركنه الأول، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله."

ربطٌ دائمٌ بين هذه الشهادة، وبين الواقع، وبين السلوك، وبين التشريع والشعائر والاعتقاد.. هذا الكلام الواضح البسيط يبعدنا كثيراً عن هذه المعضلات الفقهية والصيغ القانونية التي نجدها في كتابات بعض من يكتبون عن قضية الإسلام. ونجد في بعض الأحيان -سواء في الكتابات القديمة أو الحديثة- افتراضات غريبة، تصل بقضية الاعتقاد أو قضية وضع الناس أو غيرها من القضايا إلى أمور عجيبة وغير واقعية... حينما نفتح بعض الكتب التي تتكلم عن العقائد نجدهم يفترضون افتراضات عجيبة، ويقفون عندها، ويتحدثون عنها كما لو كانت قضية يمكن أصلاً أن تَرِدْ على ذهن مؤمن صحيح الإيمان، اقرأ في كتاب ككتاب ابن حزم عن المِلل والنِحل تجده يقول: لو أن إنساناً ظن الله جسماً فهل يكفر أو لا يكفر، وتصبح هذه قضية، وينقسم عليها هؤلاء العلماء؛ يكفر أم لا يكفر. والمؤمن الجاد والواضح لا يمكن أن تخطر بباله هذه القضية أصلاً.

وحينما تصبح قضية الصفات قضية يترتب عليها إشكال ضخم، ويترتب عليها تكفير بعض فِرق المسلمين لأنهم اختلفوا في قضية الصفات؛ هل أن لله يداً أو وجهاً على الحقيقة أم أنها تعبيرات مجازية يقصد بها القهر أو العلو.. قضية نجدها لم تثر في عصر الصحابة، لأنهم كانوا منشغلين بلب القضية وبجوهرها. ولكن عندما بَعُد الناس عن اللب بدأوا يتراشقون بهذه الآراء التي تجفف منابع اليقين، وتشكك وتزلزل مشاعر الإنسان الإيمانية.. فيحدث الاختلاف في الاعتقاد أنه لا بد من الإيمان أن لله يداً ولكنها ليست كأيدينا، أو أن اليد معناه القهر والسلطة.. وأياً كانت قيمة الكلام الذي يقال.. ولكن.. لماذا ندخل في هذه القضايا التي ينبغي ألا تعبر إلى عقولنا؟ وحتى لو أراد المشككون وأصحاب الديانات الأخرى أن ينقلوا لنا ما عندهم من تصورات وانحرافات حول هذه القضايا، فكان ينبغي على المسلمين أن يردوهم بالمنطق القرآني؛ أن هذه القضايا لا ينبغي أن تكون محل تفكير، وأن يضربوا بيد من حديد على كل من يجرؤ أن يشيع في المجتمع المسلم هذه القضايا التي تُشغل الناس عن جوهر العبودية لله عز وجل.. صفة العلو صفة قامت عليها وقعدت آراء العلماء.. لماذا؟ لا شك أن الله هو الأعلى بكل معاني العلو.. لكن لا يمكن أن ندخل قضية الزمان والمكان والشكل في هذه القضية، الله أعمق وأعظم في قلب المؤمن من أن يقارنه بهذه الأمور الصغيرة. فتصبح تلك الأمور قضايا تُشغل العقل وتُتلف القلب وتُغشي البصر عن رؤية الحق، وتفسد الذوق الإيماني.

ولكن حينما نفهم الإسلام هكذا من كلمات رب العالمين، وبهذا الوضوح الرائع، فهذا يجعلنا نعيش فعلاً معنى العبودية، ونتذوق روح العبودية، دون أن ننحرف إلى أي مشغلة يتصور أصحابها أنها تزيدنا إيماناً، أو تزيدنا معرفة بالله.

فلا شك أن هذا الفصل بتعبيراته البسيطة وبتقريراته الحاسمة يرفع مستوى إدراكنا وتناولنا للحقائق الإسلامية إلى مستوى يتميز بصفاء الرؤية ونقاء النفس وحكمة الفكر وصدق التوجه، وتجعل الأمور رائعة وجميلة وبسيطة وواضحة ويقينية، ونأخذها غضة طرية كما أخذها صحابة الرسول حينما كانوا يسمعون القرآن.

فهذا الفصل في الحقيقة من الجمال، بحيث يحسب الإنسان أنه يرفع مستوى إدراكنا وتناولنا لهذه الحقائق الإسلامية، ولا يهمّنا أن ينشغل الآخرون بغير ذلك، أو أن يحاولوا جرّنا إلى هذه المعضلات التي تُشغل العقل والقلب، وتُتلف الذوق. نحن نؤمن بالله ربنا، ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فنُثبت ما أثبته لنفسه وننفي ما نفاه عن نفسه، ونؤمن أنه صاحب السلطان المطلق في هذا الوجود، وأننا عبيد من عباده الذين ينبغي أن يكونوا في مقام العبودية، بمعنى فقدان الحرية الكاملة معه سبحانه، ثم نبدأ في عبادته في واقع حياتنا كلها.

لكن أن ندخل في فلسفات ومعضلات من هذا النوع، فلا شك أن هذا سيفسدنا ويبعدنا عن الله، وعن الحقيقة.

التصور الاعتقادي الإسلامي

"ولقد قلنا: إن العبودية لله تتمثل في "التصور الاعتقادي".. فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي الإسلامي.."

يقول سيد قطب في تحديد هذا الأمر **"إنه التصور الاعتقادي الإسلامي الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني، والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه، ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه -غيبه وشهوده- ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها -غيبها وشهودها- ولحقيقة نفسه.. أي لحقيقة الإنسان ذاته.. ثم يُكيّف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعاً.."**

تصور ينشأ في الإدراك البشري من خلال تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني.. تعبير بسيط ومعنى بسيط، أي أننا لا ينبغي أن نأخذ تصورنا الاعتقادي -أي لا نأخذ عقيدتنا إلا من هذا المصدر الرباني- عن طريق رسول الله ﷺ ﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤]، فالرسول ﷺ مهمته أن يوضح ويبين ويشرح.. (أوتيت القرآن ومثله معه)[٣].. ليبين لنا كل الحقائق بشكل واضح، ومن خلال هذا المصدر الرباني نعرف وندرك حقيقة ربنا، وندرك حقيقة الحياة، وندرك حقيقة الكون، وندرك حقيقة الإنسان..

"تعامله مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملاً يستمد أصوله من دين الله -كما بلّغها رسول الله ﷺ- تحقيقاً لعبوديته لله وحده في هذا التعامل.. وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله."

فمعنى "لا إله إلا الله منهج حياة" يتمثل في هذا كله، لكي تصطبغ الحياة بهذا الشعور الحي والسهل والبسيط والحار، الذي يجعلنا فعلاً نعيش بصبغة الله سبحانه وتعالى.

---

٣ رواه أحمد، والحديث صحيح.

منهج نشأة المجتمع المسلم

القضية الثانية في هذا الفصل؛ **"فإذا تقرر أن هذا هو "المجتمع المسلم"، فكيف ينشأ هذا المجتمع؟ وما منهج هذه النشأة؟"**

ابتداءً نريد أن نقول: أن المجتمع المسلم شيء آخر غير كل مجتمعات البشرية، وهو غريب عنها تماماً غربة كاملة، مهما تبدّى في بعض الأحيان من تشابه، فهي ليست مشابهة حقيقية، وإنما هي مشابهة عارضة، مشابهة شكلية، ولكن أعماقها ودوافعها وجذورها تختلف تماماً، والمجتمع المسلم كالفرد المسلم.. يعيش غريباً غربة كاملةً.. فحينما يعيش في مجتمع الجاهلية يجد نفسه غريباً تماماً. والجاهلية -أيضاً- ترى المجتمع المسلم مجتمعاً غريباً جداً..

"إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله.. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر.. ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع.."

لا بد أن تنشأ جماعة من الناس تقرر ابتداءً أن عبوديتها كاملة لله، فلا يصلح أن يُنشِئ المجتمع المسلم ناس لا يعرفون حقيقة الألوهية، وما هو معنى العبودية، لا بد أن يكون هؤلاء الناس قد قرروا فعلاً اختيار العبودية لله عز وجل وحده في اعتقادهم وتصوراتهم، في عبادتهم وشعائرهم، في نظامهم وشرائعهم.. ولا يكفي هذا.. ولكن لا بد أن تبدأ حياة هذه الجماعة بالفعل في أن تأخذ شكل وروح هذه العبودية..

"ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة.."

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]..

"تُنقّي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله -معه أو من دونه- وتُنقّي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله -معه أو من دونه- وتُنقّي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله -معه أو من دونه."

هذه القضية يجب أن تكون بارزة وواضحة.. وقد كنت أقرأ بالأمس القريب الادعاء ضد الأستاذ سيد رحمه الله في قضيته، والمدعي يرد على ما جاء في المعالم، ويذكر كثيراً مما جاء في المعالم مما وَصم به الأستاذ سيد هذه المجتمعات بالكفر والخروج، وكل القضايا التي نعرفها.. أردت أن أرى المغالطات التي كان يرتكبها الادعاء -عامداً- في تمييع كل ما جاء به الإسلام، وبتبجح غريب يقرر أن العدل لم يرسم الإسلام له صورة معينة، فأيما صورة من صور العدل تحققت تصبح هي الإسلام، كما كانوا يقولون: شريعة العدل شريعة الله، ويتحدث عن معنى العبادة، وعن الشعائر، وعن الشرائع.

مغالطات متبجحة، لكنها للأسف تمر على الشعب، لأن هذا الشعب أصلاً لا يعرف معنى الإسلام الحقيقي، وبالتالي حين يقف مثل هذا الادعاء ليكذب ويغالط ويحرّف، ويأتي ببعض النصوص المبتورة عن بعض العلماء والفقهاء ليرصع بها خطبته النكراء.. تجد الناس يتخيلون أن هذا الكلام صحيح، وأن سيد قطب جاء ببهتان عظيم.

هذا الأمر إن جاز لهذه الشعوب، لكنه لا يجوز أن ينخدع به أي مؤمن يعرف الحق، لأننا في تعاملنا مع الجاهلية ومواجهتنا للجاهلية، وفي صدامنا مع الجاهلية سنلتقي بهذه الأكاذيب وهذه الأغاليط.. ومن ثم إن لم نكن مستيقنين من الحق فإن البعض قد يتزلزل ويتشكك، خاصة -كما قلت قبل ذلك- أن لحظات الخوف تعطي للإنسان شرعية البحث عن نجاة ولو بالباطل، فقد يجد أحدنا أن لحظات الخوف هذه تجعله يقبل ذلك المنطق المغلوط لينجو من العذاب ومن التعب.. ولكن هذا لن يغني عنه شيئاً، لأن الحجة قد قامت علينا، ولا يجوز لنا أن نكفر إلا تحت الإكراه، بالقول وليس بالعمل.

"عندئذ -وعندئذ فقط- تكون هذه الجماعة مسلمة.." حينما تختار العبودية لله، وحينما تنظم حياتها على أساس من هذه العبودية، وحينما تُنقّي ضمائرها وشعائرها وشرائعها من التلقي عن غير الله عز وجل..

"عندئذ -وعندئذ فقط- تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك.. فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله -على النحو الذي تقدم- فإنهم لا يكونون مسلمين.. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً.. ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام، والتي يقوم عليها المجتمع المسلم -هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله- لم تقم بشطريها.."

مرة أخرى يكرر الحقيقة التي تقوم على نفس القاعدة، حتى تبدو لنا حقيقة هذه الشهادة بشطريها وهي تظلل حياتنا، وتتخلل كل شيء.. وعجيب بعد ذلك أن يقول الناس أن سيد قطب لم يتعرض للناس، ولم يصفهم بأنهم ليسوا مسلمين.. فهنا كلام شديد الوضوح في هذه القضية، وما معنى قوله إنه إذا لم يقرر الناس أن يخلصوا عبوديتهم لله على ذلك النحو لا يكونون مسلمين.. ماذا يراد منه أن يقول أكثر من ذلك؟ فهذه الجماعة تصبح مسلمة، وذلك المجتمع يكون مسلماً حينما يقوم على هذا التصور الاعتقادي، وعلى هذه الصورة من الشعائر والشرائع كما هو واضح في كلامه -رحمه الله-.

ويتكلم بعد ذلك عن الخطوات التي ينبغي أن تُتخذ لتكوين هذا المجتمع؛ فيقول:

"وإذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي، وإقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام.. ينبغي أن يتجه الاهتمام أولاً إلى تخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله -في أي صورة من صورها التي أسلفنا-.."

هذه هي الخطوة الأولى؛ لا يكفي أن يدّعِي الناس الإسلام.. لا بد أن تخلص ضمائرهم حقيقة من العبودية لغير الله، وأن يدركوا معنى الشرك ومعنى التوحيد، ويدركوا معنى لا إله إلا الله، ويشهدوها بالمعنى الصحيح، ويتخلصوا حقيقةً من العبودية لغير الله..

والأمر الثاني: **"وأن يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة.."**

فلا يكفي الاعتقاد البارد المستكن في القلوب.. لا بد أن يتجمع هؤلاء الافراد في جماعة..

"وهذه الجماعة التي خلصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم.."

وهذه هي الخطوة الثالثة..

فالخطوة الأولى: أن تتنقى ضمائر الناس والأفراد ابتداءً من العبودية لغير الله.. أي علينا نحن الذين نريد أن نكون مسلمين أن نُخلّص -ابتداءً- ضمائرنا من شوائب الشرك الظاهر والخفي، وكما قلت: أن الشرك ليس فقط أن تعتقد أن مع الله إلهاً آخر في الخلق، لكن أيضاً إذا لم تصدق بأن الرزق بيد الله وحده، وأن الأجل بيد الله وحده، وأن الضر والنفع بيد الله وحده، وأن الإحياء والإماتة بيد الله وحده، فيصبح هذا شركاً..

فخطوات التكوين لهذا المجتمع المسلم يمر بهذه الخطوات الثلاث:

أولاً: الاهتمام بتخليص ضمائر الأفراد من العبودية لغير الله بأي صورة من صورها.

ثانياً: أن يجتمع هؤلاء الأفراد الذين تخلصت ضمائرهم من العبودية لغير الله في جماعة مسلمة.

ثالثاً: **"وهذه الجماعة التي خلّصت ضمائر أفرادها من العبودية لغير الله، اعتقاداً وعبادة وشريعة، هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم، وينضم إليها من يريد أن يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل فيها العبودية لله وحده.. أو بتعبير آخر تتمثل فيها شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله."**

وواضح أن الأستاذ سيد رحمه الله يكرر هذه الشهادة ومقتضاها، وكلما جاء مقتضى لها ربطه بها مرة أخرى، لكي يكون هذا الأمر عميقاً وحيّاً وحاراً في نفوس الروّاد الذين يكوّنون الجماعة المسلمة.

وكما قلنا: إن الجماعة المسلمة التي جاءت لتقيم هذا المجتمع المسلم لا بد أن يكون أفرادها قد خلصت ضمائرهم حقيقة من العبودية لغير الله، ثم يتجمعون في هذه الجماعة، ثم ينشأ بعد ذلك منها المجتمع المسلم، من خلال الزيادة في العدد، ومن خلال التربية الدائبة والدائمة، لتكوين المجتمع المسلم الذي تتمثل فيه العبودية لله.. بمعنى أن تكون حياة هذه الجماعة تحقيقاً عملياً وشعورياً لهذه الحقيقة المتمثلة في شطري الشهادة؛ وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى، التي أقامت المجتمع المسلم الأول، وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم.. وأي تصور آخر غير هذا هو تصور خاطئ، وتصور عاجز، وتصور لا يمكن أن يؤدي إلى قيام المجتمع الإسلامي، وقد رأينا في واقع الحياة هذا.

وأكبر مثل لهذا هو الجهاد الأفغاني.. فقد رفعوا راية إقامة الأمة المسلمة والخلافة الإسلامية، ولكن ضمائر الأفراد لم تكن قد خلصت للعبودية لله عز وجل، كان كثيرون منهم يحملون التمائم، ويتبركون بالمشايخ، ويتلقون حياتهم كلها من غير الله.. فلذلك ما كان ليمكن أن ينجح هذا الأمر..

وهكذا في أي وقت؛ لا بد أن تمضي الخطة كلها بهذا الترتيب الدقيق.. دعوة يستجيب لها أفراد خلصت ضمائرهم لهذا الحق، وخلصت من العبودية لغير الله.. ثم يتجمعون في جماعة وينظمون حياتهم على ضوء هذا الحق.. ثم يتكون المجتمع المسلم من خلال الانتماء والتكاثر داخل هذه الجماعة، حتى يأذن الله لها بإقامة مجتمع ودولة..

"إن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله -معه أو من دونه- إلى العبودية لله وحده بلا شريك.."

أي أن الانتقال هذا انتقال كيف وليس عدد، وليس بمجرد التمرد على المجتمع، فالناس يمكنهم أن يتمردوا على المجتمع لسبب قومي.. أو لهدف شخصي.. أو لأي شيء غير العقيدة، فلا يكون لهذا المجتمع صفة الإسلام، إلا إذا كان الانتقال هو الانتقال من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك.. ثم تقرر هذه المجموعة أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية.. وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له، بعقيدة جديدة، ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة، وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..

ويقول: **"وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السنة قد جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه -وهو أفراد أو مجموعات- أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً، وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام، إلى محمد عليه الصلاة والسلام، بغير استثناء."**

وهذا الكلام حتى لو علمته الجاهلية والمخططون فهو لن يزيد من عداوتهم للإسلام، فهم دائماً في أقصى درجة من العداوة للإسلام، وهم في أكثر أوقاتهم ضيقاً بهذا الدين واستعداداً لضرب كل نبتة فيه حتى لا يكون له وجود ولا يقوم له نظام.. فهذه الحقيقة لا بد أن تكون معروفة لدينا.. وأن نعلن بها لهم، فنقول لهم: أنه ليس هناك بيننا وبينكم مهادنة، لأن طبيعة الأمرين لا يلتقيان أبداً، وأن المعركة معركة حياة أو موت، إما نحن أو أنتم، ونحن نريد أن نموت في سبيل الله..

"وطبيعي أن المجتمع الجديد لا ينشأ، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي القديم.."

وهذا أمر بديهي.. إذ لن ينزاح المجتمع الجاهلي، ولن تتقوض أركان الجاهلية بمجرد البلاغ والبيان، ولكن لا بد أن يتسلح المجتمع المسلم بكل أسباب القوة.. وأسباب القوة ليست فقط -كما يتصور الناس- القوة المادية، وإنما يسبقها..

"قوة الاعتقاد والتصور، وقوة الخلق والبناء النفسي، وقوة التنظيم والبناء الجماعي، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب عليه، أو على الأقل يصمد له!"

وأيضا قوة إدراك المعركة، ومعرفتها ومتابعتها.. فهذه أيضاً من أسباب القوة التي لا يجوز للجماعة المسلمة أن تغفلها. فلا ينبغي أن تغفل عن حقيقة الكيد، ولا عن صوره، ولا عن دوافعه، ولا عن أشكال الصراع التي تتغير وتتلون يوماً بعد يوم.

كذلك قوة المستوى العلمي والاجتماعي.. فلا بد للجماعة المسلمة أن تتسلح بالوجاهة التي تجعل الجاهلية تحترمها وتتلقى منها، ولا بد أن يبحث الدعاة في كل مجتمع عن أسباب الوجاهة المشروعة، والتي لا تتناقض مع عقيدتهم ولا أخلاقهم، فيتسلحون بها.. وهذا كان واضحاً في اختيار الله عز وجل لرسله الكرام، فكان يسلحهم دائماً بما يتفوقون به على الجاهلية، وهذا واضح في موسى -عليه السلام-، وفي عيسى -عليه السلام-، وفي محمد ﷺ.

فالتسلح بالقوة العلمية والاجتماعية، والتي يراها المجتمع البشري الآن هي سمات الوجاهة، لا ينبغي أن نغفلها، لأن المجتمع الجاهلي يعتبر أن العلوم والأخذ بها هو نوع من الوجاهة يعطي لصاحبه مكاناً عالياً في المجتمع، بحيث يستجاب له ويسمع منه.. فهذا ينبغي ألا تضيعه الجماعة المسلمة.. ليس بحثاً عن هذا الأمر في ذاته.. وإنما كسبب من الأسباب التي ينبغي أن نأخذ بها. ونحن لا نقيّم بهذه الوجاهةُ الأشخاصَ في داخل الجماعة، ولكن نحن نتسلح به في مواجهة الجاهلية، فالإيمان والتقوى هو ميزان التفاضل داخل الجماعة المسلمة. ولكنهم في الجاهلية لا يتفاضلون إلا بالشهادات والمناصب.. فلا يجوز أن نضيع الفرصة على الناس أن يسمعوا منا بسبب عدم حيازتنا لأسباب الوجاهة المطلوبة، لكن على ألا يكون هذا له قيمة فيما بيننا.. لأن القيمة العليا بيننا ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].. فقد يكون أحد إخواننا يعمل عاملاً أو كناساً.. ففي تقييمنا داخل الجماعة قد يكون أفضل من الآخرين لأنه أكثر تقوى.. فهذه الوجاهة ليست قيمة داخل الجماعة، فالجماعة لها مقاييسها، ولكننا نتكلم عن القوة التي نواجه بها المجتمع الجاهلي لنتغلب عليه ونكون أقوى منه..

وهناك أيضا قوة التخطيط، والسلوك العملي داخل الجماعة.. فداخل الجماعة لا بد أن يكون هناك التخطيط الذي يجعلنا قادرين على أن نسبق الجاهلية دائماً، ولا نتركها تأخذنا على غرة، ولا تخدعنا، ولا تُسخّرنا لها، لأن الجاهلية في بعض الأحيان تُسخّر الجماعة المسلمة لمصلحتها.. فينبغي أن نكون على وعي بأن نكون على أعلى درجة من التخطيط بحيث لا نُستغفل ولا نُسخّر ولا نفاجأ ونؤخذ على غرة..

كل هذه القوى ضرورية لكي نكون أقوى من المجتمع الجاهلي القديم، لكي ينشأ على أنقاضه المجتمع الإسلامي الوليد.

منهج الإسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية

الموضوع الثالث: هو موقف الجماعة المسلمة وموقف المسلم من المجتمعات الأخرى الموجودة على وجه الأرض.

وإذا كنا قد قلنا: أن المجتمع الوليد ينبغي أن يزيح المجتمع الجاهلي، ويتعالى على ضغطه، ويتسلح بكل أنواع القوى.. فيجب أن نعرف ما هو المجتمع الجاهلي؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟

"إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم!.." قضية بسيطة.. فإذا كنا نُعرِّف المجتمع المسلم بأنه: المجتمع الذي يدين بالعبودية لله عز وجل وحده في الاعتقاد والشعائر وفي الشرائع.. يصبح أي مجتمع لا يفعل ذلك هو مجتمع جاهلي، ولا نحتاج إلى الدخول في قضايا جدلية حول ذلك..

"وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية.. وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار "المجتمع الجاهلي" جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلاً!!"

وهذا حكم قاتل للجاهلية. ولا شك أن مما أثار الجاهلية على الأستاذ سيد رحمه الله هو هذا التقرير الحاسم.. فحينما يقرر أن المجتمعات القائمة اليوم في الأرض كلها جاهلية؛ فيدخل في ذلك المجتمعات الشيوعية، واليهودية، والنصرانية، والوثنية، ويدخل أيضاً في هذا المجتمع الجاهلي كل المجتمعات التي تزعم أنها مسلمة.. فلا يبقى بعد ذلك في الأرض إسلام، ولا يبقى في الأرض مجتمع مسلم.. فكل المجتمع البشري الآن على وجه الأرض كلها هو مجتمع جاهلي..

وواضح وبلا شك لماذا يكون المجتمع الشيوعي مجتمعا جاهليا.. مجتمع يلحد، فلا يعترف ابتداءً بالله، ويرفض الاعتراف بعقيدة لا إله إلا الله، والحياة في نظره مادة، فهو ينكر كل ألوهية ويعترف بالمادة فقط، ثم أن هذا المجتمع الشيوعي لا يقدم شعائر لله لأنه لا يعترف بالله، وبالتالي فهو لا يتلقى شرائعه من الله، وهو يمسخ الإنسان ويفقده إنسانيته حينما يعتبر كل متطلبات الإنسان هي متطلبات الحيوان من الأكل والشرب والجنس فقط، فهذا المجتمع هو أدنى مجتمعات الجاهلية قاطبة.

والمجتمعات الوثنية مازالت قائمة في كثير من الأرض؛ في الهند وفي اليابان وفي الفلبين وفي أفريقيا وفي غيرها.. وهي مجتمعات كل ما فيها ضلال؛ في التصور الاعتقادي، أو في تقديمها للشعائر لآلهة مدعاة يتعبدونها، سواء أصناماً أو شمساً أو قمراً أو قبيلة أو زعيماً، وبالتالي فهي لا تتلقى شرائعها إلا من شيخ القبيلة أو ممن يقرون له بذلك.

أما المجتمعات اليهودية والنصرانية؛ فمعلوم أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون لله، وأنهم قالوا عزير بن الله، وقالوا المسيح بن الله، وأيضاً عندهم من الطقوس التي اخترعوها والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فهم جميعاً خارجون عن دائرة الإسلام ببساطة ووضوح.

وأخيراً.. تدخل في إطار هذا المجتمع الجاهلي كل المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة.. وهذه وإن كانت تقر بأن الله واحد، وبأن محمداً ﷺ هو الرسول، وأن القرآن هو كتاب الله، ولكنها في الحقيقة يدخل في عقائدها كثير من التحريفات، مثل الذين يعتقدون في الأولياء والأضرحة، والذين يعتقدون أن أمر الرزق والأجل بغير يد الله. ولكن الصورة الأكثر وضوحا هو أنهم لا يتلقون الشرائع من الله، بل ينصبون طواغيت يحكمون لهم ويشرعون لهم من دون الله، وهذا كله كما علمنا شرك أكبر يخرج الناس من الإسلام، وبالتالي فإن هذه المجتمعات التي تزعم أنها مسلمة هي أيضا تندرج في ركاب المجتمع الجاهلي.

"وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها "مسلمة"!

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضاً، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها. فهي -وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله- تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها.. وكل مقومات حياتها تقريباً!

والله سبحانه يقول عن الحاكمين: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]..

ويقول عن المحكومين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۞ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٠-٦٥]..

كما إنه -سبحانه- قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دونه، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم أنهم "مسلمون" لناس منهم! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركاً كاتخاذهم عيسى ابن مريم رباً يؤلهونه ويعبدونه سواء. فهذه كتلك -خروج من العبودية لله وحده- فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة "علمانيته" وعدم علاقته بالدين أصلاً، وبعضها يعلن أنه "يحترم الدين" ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلاً، ويقول: إنه ينكر "الغيبية" ويقيم نظامه على "العلمية" باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال[٤] وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله! وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة:

إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره.

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة.. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده. وهي من ثم تلتقي -مع سائر المجتمعات الأخرى- في صفة واحدة.. صفة "الجاهلية"..."

فكلها تلتقي في عدم توحيدها لله عز وجل. وحينما تكون القضية بارزة واضحة هكذا؛ سواء فيما بيننا وبين أنفسنا، أو في صراعنا مع الجاهلية، أو في مواجهتنا لها.. لا بد أن تكون القضية محسومة هكذا.. لأننا نؤمن بذلك، ولسنا مطالبين دائماً أن نقنع الجاهلية بآرائنا، ولا بعقيدتنا.. نحن نريد فقط أن نُقيم الحجة. وكما اتفقنا أن الحجة تقوم بمجرد وجودها، فهي لا تعتمد على اقتناع الناس بها. ونحن نقول للناس ما عندنا من دليل، وهو دليل بسيط واضح، ثم ليؤمنوا أو لا يؤمنوا ﴿ فَمَنْ شَاءَ

٤ يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ في الجزء السابع من الظلال.

فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].. لكن لا ينبغي لأحد منا أن يشعر أنه ضعيف، أو أنه ليس على الحق تماماً لأن الكثرة التي أمامه لا تريد أن تقتنع بما يقول.. فهذا مقياس شديد البطلان كما حكى لنا رسول الله ﷺ (عُرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد)[٥].. فالمسألة كلها لا ترتبط بالكم، بعدد الرؤوس التي تقتنع، وإنما ترتبط بمدى ما أديته أنت في تبليغك لرسالة الله عز وجل، فإذا أديت ما عليك فلا عليك بعد ذلك إن آمن الناس كلهم أو كفروا.. وهذا ما يجعلني دائماً أقول: أننا لسنا في حاجة إلى الاستكثار من الأدلة، والتعب في الإحاطة بالقضية بكافة أرجائها لكي نخاطب الناس..، لسنا ملزمين بهذا، نحن ملزمون فقط بأن نبين لهم الحقيقة بأبسط أسلوب وبأوضح حجة، لكن ليس بالضرورة أن نخاطب الفلاسفة بفلسفتهم، ولا العلماء بعلومهم، ولا كل طائفة بما تحسن.. نحن نحسن شيئاً واحداً؛ أن نقول الحقيقة، وأن نقولها بأدلتها الواضحة البسيطة كما عرضها القرآن الكريم، وكما عرضها رسول الله ﷺ، ثم نقول للناس بعدها ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].. ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].. أما أن تحاول الجاهلية أن تستدرجنا إلى مأزق العلمية والمنهج العلمي، وإلى الاستكثار من الأدلة التفصيلية، وإلى الإتيان لها بمناهج تقنعها أن الاقتصاد الإسلامي أحسن والسياسي أحسن.. فهذا استدراج، وهذه مناورة للإحراج لا يجب أن يستجيب لها المؤمنون أبداً.. وإلا يكونوا قد فقدوا الطريق ابتداءً حينما يستجيبون لهذه المناورة.. ثم أنك لا تريد منهم شيئاً، وإنما تريد أن تبلغهم، ثم يفعلون هم ما يشاءون، فيستجيبون لك، أو يعارضونك، أو يقتلونك.. فأنت قد قلت كلمتك، وتبغي بها وجه الله، ثم يفعل الله بك ما يشاء؛ إذا شاء أن يسلط عليك أعداءك فليسلط، ستموت شهيداً، وإن شاء أن يصرفهم عنك دون إيمان صرفهم، وإن شاء أن يؤمنوا جميعاً كما آمن قوم يونس -عليه السلام- فليكن ذلك.. لكنك أنت لا تتخير النتيجة، لا سابقاً ولا لاحقاً.. أنت عليك أن تبلغ، وهذه وظيفتك، أما ما يحدث لك فهذا ليس شأنك، إنه شأن خالقك سبحانه وتعالى، يفعل بك ما يشاء، بهذا لا نكون حريصين كل الحرص على أن نقنع الآخرين.. نحن علينا أن نبلغ الآخرين، لكن إقناعهم مسألة أخرى، وكما قال الله لرسوله ﷺ ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].. ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٦]..

لا بد أن يكون هذا اليقين عندنا، وهذا الاعتزاز عندنا، وأن نكون على هذه البساطة في التعامل مع الحقيقة ومع المجتمعات بهذه الصورة الواضحة.

منهج الإسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية

وأخيراً نأتي إلى القضية الرابعة والأخيرة والخطيرة كما يقول؛ وهي:

"منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري كله.. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان.. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الأولى عن "طبيعة المجتمع المسلم"، وقيامه على العبودية لله وحده في أمره كله.

---

٥ أخرجه أحمد والبخاري.

إن تحديد هذه الطبيعة يجيب إجابة حاسمة عن هذا السؤال:

ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أيّاً كان؟..."

القضية الرابعة هي: ما هو منهج الإسلام في مواجهة الواقع البشري؟

نحن قد واجهنا واقعاً بشرياً.. ووجدناه واقعاً يخضع للطواغيت، يشرّع له ناس منهم، ويعبِّدون الناس لهم، ويحددون لهم القيم والموازين والأحكام والشرائع والأخلاق والقيم.. فما الذي نفعله في مواجهة هذه المجتمعات؟

السؤال الأول الذي ينبغي أن نسأله هو: هل هذه المجتمعات التي تتلقى من غير الله، وتعيش حياتها بعيدة عن منهج الله، وتتلقى شرائع حياتها من غير الله عز وجل.. حرة في أن تختار منهجها، وأن تشرع لنفسها، وأن تقرر حقائق حياتها هكذا؟ أم أنه ينبغي أن تعود لخالقها تستمد منه حياتها وشرائعها؟

ما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة، أم هو الواقع البشري أياً كان؟

"إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعثم فيها ولا يتردد لحظة.. إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة.. إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم ولا تؤدى إلا أن يكون هذا هو الأصل.. وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يُعترف بهذا الأصل، ثم يُتّبع اتباعاً كاملاً بلا تلعثم ولا تردد: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]"

إذن.. حينما نواجه الواقع البشري نرى: إن كان واقعاً يتلقى من الله ومن رسوله، والعبودية فيه لله وحده دون شريك، وحياته مستمدة من سنة رسول الله ﷺ فهذا مجتمع مسلم، موقفنا منه الولاء والحب والعلاقة الطيبة والتعاون على البر والتقوى.

أما إذا كان الواقع -كما هو مشهود في المجتمع البشري كله كما قررناه في الفقرة السابقة- فإن موقف الإسلام منه هو رفض الاعتراف بإسلاميته.

إذن موقفنا هو أن الأصل الذي تقوم عليه الحياة البشرية وترجع إليه هو دين الله ومنهجه في الحياة.. لأن الحق المقرر المنبثق والقائم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله هو أن تكون العبودية لله وحده، وأن يكون التلقي عن رسول الله ﷺ.

"ثم إن الإسلام يسأل:

﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠]

ويجيب:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]..

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].."

فهذا أمر طبيعي حينما يكون السؤال هكذا.. فلا يكون هناك إجابة إلا هذا.. ولا يمكن لإنسان لديه مسحة من عقل عندما يُسأل ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾.. أن يقول إنه أعلم من الله.. فلا يمكن أن يكون المخلوق أعلم من الخالق، ولا أقدر من الخالق، ولا أحكم من الخالق، ولا أرحم من الخالق، ولا أقوى ولا أكثر عذاباً أبداً.. الله جل وعلا -في علاه- هو الذي ليس كمثله شيء، وله كل الكمالات، وهو الوجود المطلق في كل شيء.. فليس هناك في تصور أي إنسان عاقل أن يقارن بين الله وبين خلقه.

فإذا كان الأمر كذلك فمن الذي يُرجع إليه؟

وبذلك يكون دين الله ومنهجه في الحياة هو الإجابة الطبيعية في تحديد تعاملنا مع الواقع البشري، والذي يعلم ويخلق ويرزق هو الذي يحكم، ودينه.. الذي هو منهجه للحياة.. هو الأصل الذي ترجع إليه الحياة.

أما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم فهي تفسد وتنحرف، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون، والذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً.

هذا الدين وهذا المنهج ليس غامضاً، وليس مائعاً.. إنه دين جليّ واضح ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١].. ليس كتاباً غامضاً في نصوصه، ولا معقّداً في تعبيراته، وإنما هو كتاب واضح، ودين ثابت محدد دقيق.. فهو محدد بشطر الشهادة الثاني محمد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص.. فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع نص، وإن لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد وفق أصول مقررة في منهج الله، لا وفق الأهواء والرغبات ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩].. فهذا الدين ليس لعبة في يد الناس.. يقول فيه كل إنسان ما يريد، ويقرر حقائق في هذا الدين كما يريد، ويحاكم الناس إلى ما رأى، ثم يقول أنا على الحق وغيري على الباطل.. ليس هذا شأن هذا الدين، لأن هذا الدين أوضح وأجلّ من أن يعطي هذه الفرصة لأهواء الناس.. فهو ليس ديناً كدين الكنيسة.. عبارة عن أغاليط ومعتقدات باطلة، وعقائد محرفة، وأساليب معقدة، وتعطيل للفكر والعقل.. ليس هكذا الإسلام.. وليس كذلك كدين اليهودية المليء بالتشويه والتحريف والكلام في الله وفي أنبيائه بالباطل والسوء.. إنما هو دين شديد الدقة، وشديد الصفاء والنقاء، وشديد الوضوح.. فالرجوع إليه وجعله مرجعاً هو الحق الذي لا حق غيره، والله عز وجل يقول ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. ويقول ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس: ٣٢].. فالقضية واضحة، وليس لأي إنسان أن يأتي ليقول: أنا أقول في دين الله كما أشاء، ثم على الناس أن يتبعوه، أو أن يقولوا له إذاً أنت مجتهد ونحن مجتهدون!! هناك الأصول لا اجتهاد فيها.. فالأصول مقررة واضحة محكمة.. قد نختلف في الفرعيات، ولكن كل الأصول في العقائد وفي التكاليف هي أمور مستفيض العلم بها، لا يجوز الجهل بها، ولا يجوز العذر بالجهل فيها على الإطلاق.

والاجتهاد في الإسلام ليس اجتهاداً حراً طليقاً من القيود، إنما هو مقيد بأصول معتبرة، ومقيد بروح الشريعة، وبمقاصد الشريعة، وبقواعد الشريعة، ومقيد بالأدلة التي يعتمد عليها المجتهد بعد القرآن والسنة؛ من الإجماع، والقياس، والمصالح المرسلة، والاستحسان، ورأي الصحابي، إلى غير ذلك من مصادر الاجتهاد.. فهناك أصول وقواعد تحكم المجتهد ولا تجعله ينفلت بلا قيود.. ثم هو بعد ذلك ليس وحده هو الذي يقرر إن كان اجتهاده صحيحاً أم لا.. وإنما مجموع علماء الأمة من أهل الحل والعقد ومن العلماء لهم أن يعقبوا على قوله ويردوه إلى الصواب إن ضل ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣]

والإسلام لا يعطي فرصة لأن يحدث كما حدث في أوروبا من الحكم المقدس، أو الثيوقراطية؛ التي كانوا يدّعون فيها أن لهم حقاً إلهياً، ومن حقهم أن يقولوا ما يشاءون، وأن يُسمع لهم، ويُحكم بكلامهم.. أو كما حدث من الكنيسة التي كانت تعتبر نفسها وكيلاً عن الرب، تفعل ما تشاء، وتحل ما تشاء، وتحرم ما تشاء.

فالإسلام لم يعط البشرية هذه الفرصة أبداً، وإنما كان حاسماً جداً في أن الحكم لله، وأن الكتاب والسنة هما المرجعان اللذان يُرجع إليهما، وأنه لا يجوز لأحد أن يتقول على الله بغير علم بهذه الأمور، أو أن يكون غير ملتزم بالمقررات والأصول والضوابط.

وهناك من يستعمل تعبير "الدين للواقع" للتفلت من شرع الله.. يقول الأستاذ سيد:

"إن كلمة "الدين للواقع" يساء فهمها، ويساء استخدامها كذلك. نعم إن هذا الدين للواقع. ولكن أي واقع!"

الدين الذي جاء من عند الله ليس خادماً للواقع، وإنما جاء ليغيّر هذا الواقع، ويهيمن عليه، ويصححه وينظمه..

"إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه، وفق منهجه، منطبقاً على الفطرة البشرية في سوائها، ومحققاً للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها. هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق، والذي يعلم من خلق:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]..

والدين لا يواجه الواقع أياً كان ليقرَّه ويبحث له عن سند منه، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة! إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه، فيقر منه ما يقر، ويلغي منه ما يلغي، ويُنشئ واقعاً غيره إن كان لا يرتضيه، وواقعه الذي ينشئه هو الواقع. وهذا هو المعنى بأن الإسلام: "دين للواقع".. أو ما يجب أن تعنيه في مفهومها الصحيح!"

ونجد الآن أن من يزعمون الإسلام، وحتى بعض علمائهم وبعض حركاتهم يريدون أن يصوغوا الإسلام بحيث يتفق مع الواقع، وأن يبحثوا عن شرعية هذه المجتمعات وما فيها من قوانين، وما فيها من عادات وتقاليد، ليقولوا إنها لا تخرج عن الإسلام وعما أمر به الله. ورأينا العلماء الذين اجتمعوا في الأزهر وقالوا إن القانون أو الدستور أو أن الحكومة لا ترفض لله حكماً، وحينما يقولون ذلك فهذه شهادة علماء كبار يشهدون أن هذا المجتمع بحكومته وبواقعه لا يرفض لله حكماً.. ويأتي أيضاً مشايخ الأزهر وعلى رأسهم شيخ الأزهر ليقولوا إن الدستور دستور إسلامي وإن كان فيه بعض الاشياء البسيطة جداً لا تبلغ ٥ % منه تحتاج تعديلا، أما ٩٥ % فهو يتمشى تماماً مع الإسلام..

ونحن نقول: لو كان ١٠٠ % يتمشى مع الإسلام، ولكن مصدره ليس هو العبودية لله فهو دستور مرفوض، لا بد أن نتلقى الدستور لأنه من عند الله، وليس لأن الحكومة أو لأن بشراً من البشر قرر صلاحيته.

فإذا كان الواقع الموجود، بكل ما فيه من رذائل ومحرمات ومخالفات، يقال عنه أنه مجتمع مسلم لا ينقصه شيء، إذاً بعض الناس يريد أن يطوع الدين ليعطي شرعية لهذا المجتمع فهذا شأنه وعليه وزره ودين الله بريء من ذلك السفه كله، وما أكثر السفهاء في هذا الزمن. وقد قال لي أحد الناس قريباً إن أحد "العلماء" ذهب إلى مدرسة بنات فقال لهم وقد سألوه عن النقاب: إن المرأة التي تتنقب كافرة لأنها شرعت غير شرع الله، لأن جمهور الفقهاء يقول إن وجهها ليس بعورة وهي غطت وجهها فهي تكون كافرة، والرجل الملتحي كافر لأنه خالف أمر ولي الأمر الذي يريد تأمين المجتمع، وهو يربي لحيته ويكون مع التطرف والإرهاب.. فهذا عالم من علماء الأزهر.. وقال وقد سألوه عن البنطلون للمرأة: ليس فيه شيء أبداً!! وهم قد بدأوا يجتثون المظاهر الإسلامية ويعرضون بها، ويسخرون منها، فنجد أحدهم يُسأل: هل المرأة السافرة المتبرجة التي تخرج متبرجة دائماً لا ترى في ذلك إثماً هل صلاتها مقبولة؟ فيقول: نعم صلاتها مقبولة ما دامت إذا جاءت الصلاة تلبس ملابس الصلاة، وهكذا تُطّوع الأمور كلها لكي تصبح متمشية مع الواقع.

فالدين للواقع يقصدون به: أن الدين جاء ليقر ويبحث عن مبررات لهذا الواقع. ونحن نقول إن الدين جاء لينشئ واقعاً جديداً، وليزن هذا الواقع ليقر ما يقر، ويلغي ما يلغي، أو يلغيه كله وينشئ واقعاً جديداً حسب ما يشاء..

"ولعله يثار هنا سؤال:

"أليست مصلحة البشر هي التي يجب أن تصوغ واقعهم؟"

ومرة أخرى نرجع إلى السؤال الذي يطرحه الإسلام ويجيب عليه:

﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾؟ [البقرة: ١٤٠]

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾! [البقرة: ٢١٦]."

وهذا السؤال قد يصح أن يرد على الذهن في حالة واحدة؛ إذا كان الله لم ينزل شرعاً على العباد.. فلهم أن يقولوا: إذن نضع نحن شرعاً، ونجتهد في أن نبحث عن مصلحتنا، ونضع الشرع الذي نهتدي إليه باجتهادنا.

أما حينما ينزل الله كتباً، وفيها شرائعه.. فكيف يتسنى لإنسان عاقل يدّعي أنه يعترف بالله أن يسأل هذا السؤال: ألسنا نحن أعلم بمصلحتنا؟ فلا شك أن الإجابة واضحة: أن الله يعلم وأنهم لا يعلمون. والعجيب أن الإنسان يذهب إلى المتخصصين ليستفتيهم في أمور حياته، ثم يدع الله الذي هو مالك الملك، وأعلم العالمين، لا يتلقى منه الشرع، هذا انحراف، وهو انحراف مقصود وليس عن جهل، وليس عن غفلة، فهم ليسوا غافلين أن الله أعلم بمصلحتهم، وليسوا غافلين أن الله إذا قرر منهجاً فسيكون منهجاً أفضل.. ولكنهم لا يريدون منهج الله.. فيقولون: دعونا نحن نصنع نصوص شرائعنا بمعرفتنا، كما حاولوا

استخدام حديث رسول الله ﷺ حينما قال (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[٦] فأخذوه حجة يحتجون بها بعيداً عن سبب ورود الحديث ومجاله، وبعيداً عن ثوابت الإسلام وقواعده الأولى..

"إن مصلحة البشر متضمنة في شرع الله، كما أنزله الله، وكما بَلّغه عنه رسول الله.. فإذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم، فهم.. أولاً: "واهمون" فيما بدا لهم.

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ۞ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ [النجم: ٢٣-٢٥]"

هم واهمون.. لأن ركائز العلم الإنساني هي الظن والهوى والتقليد والجهل وهي جزء يسير من العلم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧].. فالعلم البشري كله هو علم ظاهر، ونحن لا نعرف الكُنه أبداً، نحن نحكي توصيف العلم البشري، لكن لا ندخل في كُنه الأشياء، ولا نعرف للآن ما هي الذرة؟ ولماذا كانت هكذا؟ ولماذا الماء من هيدروجين وأكسجين؟ ولماذا كان ذرتين وذرة؟ لا نستطيع أن نقول شيئا عن هذا، فيسير من العلم هو ظاهر العلم، أما الباقي فهو الظن والتقليد والهوى والجهل، وهي ركائز الفكر الإنساني، لذلك رحمنا الله عز وجل بأن أنزل لنا كتباً ورسلاً لكي يكفينا هذه "المطبات" التي تبعدنا عن المصلحة التي نريد أن نحظى بها. فهذه الركائز لا تؤدي بنا إلى المصلحة. ورأينا على مدى التاريخ حينما استقل العقل البشري بعيداً عن هدى الله كيف انحرفت حياة الإنسان، وكيف شقيت حياته، وكيف ضلت، وكيف تسفلت وانحطت بصورة رهيبة جداً. كما رأينا أنهم كلما رجعوا إلى هدى الله انتعشوا كما ينتعش النبات حينما ينزل عليه القطر، فيحيون من جديد، وترتفع حياتهم.. كما رأينا في هؤلاء العرب الأجلاف الذين كانوا في الجزيرة العربية، عندما جاء الإسلام جعلهم أساتذة العالم، وجعلهم أنظف وأرقى وأكرم شعوب العالم. فهكذا إذا بدا للبشر ذات يوم أن مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم فهم أولاً واهمون فيما بدا لهم، لأن ركائز العلم الإنساني ركائز غير مضمونة على الإطلاق.. **"وهم.. ثانياً: "كافرون".. فما يدعي أحد أن المصلحة فيما يراه هو مخالفاً لما شرع الله، ثم يبقى لحظة واحدة على هذا الدين!"**

فالقضية إذن لها شقان:

شق من ناحية الواقع: أن هؤلاء واهمون، لأن العقل الإنساني لم يستطع في يوم من الأيام أن يضع لنفسه منهجاً. والثاني: من ناحية موقفهم وحكمهم؛ أنهم كافرون، لأنهم تجرأوا للحظة واحدة أن يقولوا إنهم أعلم من الله عز وجل، أو يدّعوا أن المصلحة فيما يرون وليس فيما يرى الله. وهذا أمر لا يمكن أن يتصف صاحبه بالإيمان، ولا يمكن أن يكون من أهل هذا الدين.

---

٦ رواه مسلم من حديث أنس -رضي الله عنه-.

جماعة الصادعون بالحق

الفصل السادس

شروح
كتاب
معالم في الطريق

شريعة كونية

للشيخ
مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
الإسلام في الضمير والواقع على السواء ٢
هذا الوجود من خلق الله وخاضع لمشيئة الله ٤
الإنسان جزء من هذا الوجود الكوني ٦
الشريعة قطاع من الناموس الإلهي الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام.............. ٧
التزام الشريعة يحقق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه.............. ٩
ثمرة التناسق بين حياة البشر ونظام الكون ١١
عاقبة الشقاق بين الإنسان وفطرته ١٥
هل الهدف الظاهر من قيام شريعة الله هو مجرد العمل للآخرة؟ ١٧
الذي يملك الكون ويسير الكون، هو الوحيد الذي ينبغي أن ينظم حياة الناس ١٨

شريعة كونية

مقدمة

نستعرض الآن فصلاً جديداً قصيراً بعنوان **(شريعة كونية)**، وكما تعودنا من الأستاذ سيد رحمه الله أنه في كل فصل يضيف معنىً جديداً، ويضيف ملمحا جديدا، سواء في مجال التصور، أو في مجال المنهج، أو في أي جانب من الجوانب الأخلاقية أو الثقافية أو الحضارية، أو في أي مجال آخر من مجالات هذا الدين الرحبة الواسعة.

وهو حين يضيف هذا الجديد فإنه يكون نابعاً من أصالة هذا الدين، ومن إدراك شفيف لهذا الحق، يلحظه من عاش في أجواء القرآن وظلال القرآن، ويستمد هذا الجديد من طبيعة هذا الدين الذي جعله الله عز وجل دين الإنسانية كلها، بل هو في الحقيقة دين الكون كله.

فالإسلام هو دين الكون، كل ما في الكون مسلم لله عز وجل، فليس البشر هم وحدهم المسلمين، ولكن كل شيء في هذا الوجود مسلم لله عز وجل، إذ أن مفهوم الإسلام هو الخضوع والانقياد لرب العالمين.

ولعل من هذا المدخل كان الحديث عن هذا الفصل، أن شريعة هذا الدين شريعة كونية، وأن كونها كونية يمثل مَعَلماً من معالم الطريق، لا ينافسه في ذلك مذهب آخر، ولا تصور آخر.

والحقيقة أنه كلما عشنا مع القرآن، وكلما عشنا مع معالم هذا الدين، وكلما عشنا مع هذا الكتاب الذي حاول فيه صاحبه أن يبث كل ما شعر به وعاشه، وكل ما علمه من حقائق ومعالم هذا الدين، يمتلئ الإنسان امتلاء قوياً بكون هذا الدين هو الحق الفريد في هذا الكون، وأن من يهديه الله عز وجل لمعرفة هذا الدين فقد أنعم عليه بالخير كله، ومن ضل عنه فقد ضاع في غياهب الضياع كما يصفه الله عز وجل.

ومن هنا كلما تحدثنا أو عشنا مع الإسلام كلما ازددنا اقترابا من الله عز وجل، وكلما سعدنا بإنعام الله علينا بهذا الحق، وكلما امتزجت نفوسنا مع رحيق هذا الدين، فأصبح كالدم يسري في عروقنا، أو هكذا يجب أن يكون، بحيث تستحيل الحياة بدون هذا الدين، بل يستحيل التنفس بغير الحياة بهذا الدين، وهذا أحد معاني العروج الى الله عز وجل.

أقول: إن الإنسان كلما عاش مع هذا القرآن، وكلما عاش مع الله عز وجل، وكلما اقترب من الله من خلال الطاعة والعبادة والتنسك والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، كلما امتزج وكلما ارتفع وكلما اختلط النور بكيانه، فأصبحت حياته بهذا النور لا تنفك عنه، ولا يستطيع أن يعيش بدونه. فإذا وصل القلب البشري إلى هذه النقطة، التقى مع هذا الدين في هذا الأفق، وحينها

نأمل ألا يرتد هذا القلب أبداً بعد أن ذاق حلاوة هذا الدين، فمن ذاق حلاوة هذا الدين من الصعب أن يرجع عنه، ولكن التذوق لا بد أن يكون تذوقاً صادقاً عميقاً مشوباً بالصدق والإخلاص.

الإسلام في الضمير والواقع على السواء

يقول الأستاذ سيد **"إن الإسلام حين يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده، ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء، وباعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده -في صورتها هذه- هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله إلا الله.. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة أن محمداً رسول الله..."**

حين يقيم الإسلام بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع.. وهذه هي قضية هذا الدين.. بل هي قضية الكون؛ ألا يكون الاعتقاد في الله عز وجل مجرد اعتقاد في الضمائر فقط، أو مجرد مشاعر في القلب والنفس، ولكن لا بد أن يكون هذا البناء الاعتقادي شامخا وراسخا في الضمير والواقع. والله سبحانه لا يمكن أن يقبل هذا الفصام بين الاعتقاد في الضمير وبين السلوك في الواقع.. كهذه الصورة الممسوخة التي يفعلها أو يعيش بها المدّعون الذين يدّعون الإسلام، أو يدّعون أنهم في أي دين من أديان الله، أو رسالات الله التي نزلت؛ سواء في ذلك اليهود أو النصارى أو الذين يدعون الإسلام.. فكلهم يدعي شيئا بقلبه أو بلسانه، ولكنهم في واقع الحياة لا يقيمون هذا الأمر الذي يدعونه. فاليهود والنصارى رغم انحرافهم، لكن مازالت بقية من دين الله عز وجل ماثلة بين أيديهم، ومازالت بعض القوانين الصحيحة منبثة في كتبهم وعقائدهم، ولكنهم لا يقيمون هذا البناء الاعتقادي في الضمير وفي الواقع.

أما حال الذين يدعون الإسلام فهو أشد نكرا وأشد ضلالا، ذلك لأن الله عز وجل حفظ للبشرية كتابهم المجيد من كل تحريف.. فإذا كان ذراري اليهود والنصارى قد وجدوا أنفسهم يتلقون من كتب هي في حقيقة الأمر محرفة فانحرفوا وهم يظنون أنهم على صواب، لكن الذين يدّعون الإسلام لماذا ينحرفون؟

فالذين يدعون الإسلام ليس أمامهم شبهة عذر في أن يضلوا.. لأن الكتاب الذي بين أيديهم والمنارة التي أقامها الله عز وجل في حياتهم دائماً مضيئة، ودائما مشعة، ودائما ميسرة.. ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

فإذا كان أهل الأديان الأخرى عندهم شبهة عذر، أو يزين لهم الشيطان ما يفعلونه، فليس أمام المسلمين أو أمام الذين يتلقون من القرآن هذه الشبهة على الإطلاق، فقد قامت عليهم الحجة كاملة، وهي قائمة على البشر جميعا في الحقيقة، لأن هذا الكتاب لم ينـزل لقوم مخصوصين، ولا لجنس مخصوص، ولكن نزل للبشرية كلها، لكي تتلقى البشرية جميعها من هذا المنبع الصافي الذي حفظه الله بكل وسائل الحفظ التي تتجدد مع كل مرحلة من مراحل التقدم البشري.

لذلك.. ليس هناك عذر أن يكون هناك فصام بين الضمير والواقع.. وبين الادعاء والعمل.

وإذا كان هذا شيئاً مقيتاً بالنسبة لعامة البشرية فهو أشد مقتا لهؤلاء الذين يزعمون أنهم رواد حينما يدّعون الريادة في الطريق، وأنهم هم الذين يحملون النور إلى البشر، وأنهم هم الذين يفهمون حقيقة هذا الدين، وأنهم هم المنفردون بفهم هذا الحق. ثم يكون في حياتهم فصام بين ما يعتقدون وبين ما يقولون وما يعملون.

إن هذا الأمر أشد خطرا، وأصحابه أشد شقاوة، لأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لا يستوي في حياة، ولا يستوي في قول، ولا يستوي في عمل، ولا يستوي في جزاء.

وعلى هذا يكون الرواد مطالبين بما لا يطالب به باقي الناس، كما رأينا من صحابة رسول الله ﷺ؛ كيف كانوا يعرفون مكانتهم، ويعرفون خطر هذه المكانة، ويعرفون معنى المسؤولية، ومعنى اختصاصهم بصحبة نبيهم ﷺ وتنزل الوحي عليهم. فعلموا أن هذا يحملهم عبئا غير بقية البشر، لذلك أخذوا الإسلام بقوة، وعاشوا به، وورّثونا هذا الحق واضحا جليا من خلال السلوك والعمل، قبل أن يكون من خلال القول والادعاء.

ولذلك لا بد على كل من يريد أن يتبعهم بإحسان أن يدرك خطر المسؤولية، وخطر المهمة، وخطر الادعاء، وخطر الانتساب إلى جيل الرواد، وخطر التمني أن يكون من الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

هذا كله يحملهم عبئاً هائلا لا يجوز أن يفوتهم، ولا أن يغيب عن بالهم، ولا يجوز أن يتقاعسوا عنه بأعذار مثل أعذار بقية الناس، ولا يقبل منهم ما يقبل من الآخرين.

هذا الإسلام الذي يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده.. هذا الإسلام الذي جاء به الأنبياء جميعا، هو ذاك الإسلام الذي يدّعيه الرواد الآن، والذي ينبغي أن يكون ضميرهم وواقعهم يجسدان الالتزام بالإسلام روحا وشعورا وعملا.

ولهذا كان هذا التعبير الدقيق الذي يصدِّر به هذا الفصل.. **"إن الإسلام حين يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده، ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء، وباعتبار أن هذه العبودية الكاملة لله وحده -في صورتها هذه- هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله إلا الله.. وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة أن محمداً رسول الله..."**

فالبناء الاعتقادي مرتبط بحقيقة لا إله إلا الله، وحقيقة أن محمدا رسول الله، وهذا البناء الاعتقادي في الضمير والواقع لا بد أن يكون مستمدا من الالتزام بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

يقول: **"إن الإسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الأساس، بحيث تمثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله منهج الحياة في الإسلام، وتصور ملامح هذا المنهج، وتقرر خصائصه.."**

أي أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله هي التي تحدد طبيعة الإسلام، وتصور الإسلام، ومنهج الإسلام، وخصائص هذا الدين. فالإسلام كله نابع من فهم حقيقة لا إله إلا الله فهما واضحا، ومن خلال هذا الفهم الواضح يقوم البناء الإنساني كله على هذه القاعدة.. قاعدة أن لا إله إلا الله.

يقول: **"إن الإسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الأنظمة الأخرى التي عرفتها البشرية.. إنما يرجع إلى أصلٍ أشملَ في تقريره عن الوجود كله، لا على الوجود الإنساني وحده، وإلى منهجٍ للوجود كله، لا منهج للحياة الإنسانية وحدها."**

حقيقة ألا إله إلا الله ليست هي الأساس لقيام الإنسان فقط، ولا لقيام المجتمع الإنساني فقط، وإنما لا إله إلا الله هي التي يقوم عليها بناء الكون كله، ومن أجل هذا حينما يُرجع الإسلام حياة الإنسان إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أن لا إله إلا الله.. إنما يسلك الإنسان مع الوجود كله، ليكون هو والوجود في طريق واحد، ينبعان من قاعدة واحدة، ويظللهم منهج واحد، ويعبدون جميعا رباً واحداً.

وهذا معنى من المعاني الكونية في حياة الإنسان.. فالإنسان ليس منفصلا عن الوجود. والإنسان مهما كان، ومهما قيل عنه أنه سيد المخلوقات، فهو أحد هذه المخلوقات. فهو والوجود وُجدا بإرادة واحدة. إرادة الله عز وجل.

هذا الوجود من خلق الله وخاضع لمشيئة الله

يقول **"إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه الله -سبحانه- قوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء. ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].. ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].."**

هذه الحقيقة الهائلة والوحيدة والبديهية.. أن هذا الوجود هو خلق الله عز وجل، وأن التصور الإسلامي يقوم على هذه الحقيقة البسيطة البديهية، وأن هذا الوجود كله هو من خلق الله عز وجل، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، فهناك رب أراد أن يخلق فخلق، واتجهت إرادته أن يكون الوجود فكان، وأودع الله هذا الوجود كل القوانين التي يتحرك بها، والتي تنسق بين حركات مخلوقاته في سيرها إلى الله عز وجل.

فهيمنة الله عز وجل على هذا الوجود لا بد أن تكون إحدى الحقائق الشعورية بعد أن تكون حقيقة عقلية، تملأ جنبات الإنسان في صحوه ونومه، وفي سيره وقعوده.. يحس دائما أنه يسير تحت مظلة الألوهية، ويعيش تحت هيمنة الألوهية، وأن الله معه في كل لحظة، وأن الله خلقه وخلق هذا الوجود معه، فهو لا يعيش حائرا ولا منفردا ولا وحيدا، وإنما هو دائما يعيش في ظلال الألوهية المجيدة. وحينما يكون الإنسان شاعرا بهذه الحقيقة، تسوقه دائما، وتظلله دائما، وتقوده دائما، ويعيش في أجوائها دائما.. فلا شك أنه سيكون عبدا حقيقيا لله..

أما حينما ينسى.. ولو للحظة.. أنه هكذا خُلق.. وأنه هكذا يعيش.. وأنه هكذا يمشي.. وأنه هكذا وُجد.. وأن الدنيا كلها هكذا خُلقت، دون أن يرتبط ويربط في كل لحظة، بل في كل نفس، بين إرادة الله المهيمنة وبين خلق هذا الوجود، وبين إمساك الله عز وجل بكل ذرة في هذا الوجود، إن تركها الله فسوف تهوي الى مكان سحيق.. فإنه -حينها- سيضل ويبعد عن حقيقة العبودية.

حينما يعيش الإنسان بهذا الشعور؛ بأنه دائما يعيش تحت مظلة الألوهية المجيدة.. حينما يعيش ذلك فلا بد أن يكون عبداً حقيقيا.. عبدا ربانيا ناجيا.. لأن الذي يعيش بهذه الصورة يكون له شأن آخر في كل حركة وفي كل سكنة من حركاته أو سكناته.

يقول: **"إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره، وقدراً يحركه، وناموساً ينسقه. هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها، وينظم حركاتها جميعا، فلا تصطدم، ولا تختل، ولا تتعارض، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة -إلى ما شاء الله- كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره، والقدر الذي يحركه، والناموس الذي ينسقه، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة، أو أن يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد، إلا أن يشاء الله."**

هذه الكلمات لا بد أن نقرأها مراراً لكي نفهم هذا المعني البسيط العميق البديهي الذي يربط كل شيء في الوجود.. بما فيه هذا الإنسان بمشيئة الله، وبتدبير الله، وبقدر الله. ولكي يدرك الإنسان أنه لا يختل أبدا ولا يحدث له أن يحيد عما أراده الله له. وجزء كبير من حياة الإنسان المادية يخضع لهذا الناموس.. قلب الإنسان يدق منذ أن يولد وحتى يموت، وكل أجهزة الإنسان تعمل دون أن يتدخل هو فيها، فهي تعمل بصورة معينة كما أراد الله لها أن تعمل.

فهذا الكيان المادي مسخر تسخيرا كاملا، يسير تحت المشيئة الربانية، بقدر خاص، بتدبير خاص، وبناموس خاص. ولا يفكر هذا الجسد ولا هذه الأجهزة أن تحيد أو تتمرد. ولو تصورنا ولو للحظة واحدة أن أجهزة الإنسان تُركت لإرادته هو لما عاش الإنسان ولو للحظة.. فإذا تصورنا أننا نسيِّر القلب ونجعله يدق أو يسرع أو يبطئ، أو نتحكم في الكلى، أو ننظم عمل الكبد، أو ننظم أي شيء من أجهزتنا.. لو أننا نحن الذين أُعطيت لنا مفاتيح الكيان الإنساني وقيل لنا نظموا جسدكم.. كلنا سنموت في لحظات.. وسنتحطم. ويكفي أن نعلم فقط أننا ننام.. لا بد أن ننام.. فمن الذي سينظم القلب وأنت نائم ثمان ساعات في اليوم؟ ولكن قلبك يعمل وأنت نائم، وكذلك وأنت يقظ.. والكلى تعمل وأنت نائم وأنت يقظ.. وكذلك كل شيء في حياتك وفي جسدك مما تعلم ومما لا تعلم.. وحتى الآن يكتشف العلماء أموراً جديدة في نظام القلب، وفي نظام الأجهزة الإنسانية، وفي نظام الخلايا، وفي نظام الدم، كل يوم يكتشفون جديداً، ويقفون أمامه مبهورين مذهولين من دقة التقدير ومن دقة الوظيفة ومن دقة التصميم.. ثم دقة التسيير.. كيف بهذه الدقة تسير الأمور؟ لو وكِّل هذا الأمر الى الإنسان لما عاش إنسان على وجه الأرض.

فالإنسان جزء من الناموس العام، فكما نرى الشمس والقمر والنجوم يتحركون جميعا بناموس خاص بهم، فلا تختل الشمس منذ أن عرفت حتى الآن، ولا يختل القمر، ولا تختل النجوم، وإنما تسير كل هذه بدقة عجيبة.

فمحور الأرض يتغير كل مائة عام جزء ضئيل محسوب.. وهذا التغيير نفسه ينبئ عن الدقة، وينبئ عن العظمة.

فالقضية إذن قضية هائلة، فهذا التفسير لهذا الوجود بهذه الصورة هو التفسير العلمي الوحيد.. فهو تفسير صلب وليس رجراجا، ولا يمكن أن تجد فيه فجوة تستطيع أن تغير منها أو تبدل، فهو تفسير شديد الوضوح وشديد المنهجية. وهو الوضع المنطقي الوحيد لرؤية هذا الوجود، وللحياة في هذا الوجود، وهو أيضا تصور يربط الإنسان بمحور ثابت يدركه ويفهمه، ويسعد به، وتستجيب فطرته له، وأي تفسير آخر لا يحقق ذلك. اقرأ ما شئت في كتب البشر والفلاسفة وأصحاب المذاهب الذين يفسرون الوجود أي تفسير.. اقرأ ما شئت.. سوف تجد نفسك غير مستريح وغير مقتنع وغير راض بأي تفسير، إلا أن يكون هذا التفسير الذي جاء من عند الله، هذا التفسير البسيط الذي لا يحير الإنسان، ولا يدخله في متاهات فكرية ولا فلسفية، وأكثرها غير منطقي وغير مفهوم، ولا دليل عليه. ولكن تفسير الإسلام لخلق هذا الوجود تفسير منطقي جدا، وبسيط جدا وواضح جدا، ومريح ومتناغم مع الفطرة ومع البديهة ومع العقل.

معنى آخر من معاني الكونية في إدراكنا لهذا الدين ولهذه الحياة التي نعيشها ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].. هذه حقيقة بسيطة جدا.. إن كل شيء خلقه يسير بأمره، فهو رب العالمين.. فالأمر بسيط وليس فيه تعقيد ولا غموض، وليس فيه شيء غير مفهوم.

الإنسان جزء من هذا الوجود الكوني

يقول: **"والإنسان من هذا الوجود الكوني، والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله.. لقد خلقه الله -كما خلق هذا الوجود-.."**

حقيقة بسيطة ليس فيها أي تعقيد. ليس هناك كبير على الله، وليس هناك صعب على الله أن يخلق شيئا.. أي شيء.. فالذي خلق الإنسان خلق هذا الوجود.

ويقول: **"وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض، وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنسانا، إنما رزقه الله إياه مقدراً تقديراً، وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنّه الله له -رضي أم أبى يعطي وجوده وخلقه ابتداءً بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه أو أمه -فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنين وجوده- وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة. وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له. وهو يحس ويتألم، ويجوع ويعطش، يأكل ويشرب، ويمثل الطعام والشراب.. وبالجملة يعيش.. وفق ناموس الله، عن غير إرادة منه ولا**

اختيار، شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه..."

فالإنسان لا بد أن يستشعر هذه الحقيقة البسيطة.. ليس بطريقة سطحية، أو بطريقة عابرة.. وإنما يجب أن يقف عندها ويتأملها، ويعيشها، ويحس أنه جزء من هذا الوجود الكوني الذي أراد الله أن يخلقه فخلقه، وأراد أن يكون فكان.. وأن هذا الإنسان هو جزء من هذا الكون، وجزء من هذا الوجود.. وأن القوانين التي تحكم هذا الإنسان ليست بمعزل عن قوانين الناموس العام التي تحكم الوجود كله.. وبهذا نحس أن كل الوجود هو شيء واحد مترابط، وأنه انبثاق من إرادة الله وعن مشيئته عز وجل.

يقول **"والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الإنسان، والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني.. هو -سبحانه- الذي سن للإنسان "شريعة" لتنظيم حياته الإرادية تنظيماً متناسقاً مع حياته الطبيعية."**

هذا الإنسان يخضع للناموس العام كما يخضع الكون كله للناموس العام. وإن كان الكون كله ليست له هذه الخاصية التي أفرد الله بها الإنسان وكرمه بها.. وهي قدرته على الاختيار.. أي أن الإنسان له جانبه الإرادي، وجانبه الكوني، فالجانب الكوني من الإنسان يخضع -كما يخضع الكون كله- لقوانين صارمة لا يملك أن يفلت منها.

فما بال الجانب الإرادي الاختياري في ذلك الإنسان؟

إن الجانب الاختياري في ذلك الإنسان قد سن الله له شريعة تنظم حياته الإرادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية.. أي أن الشريعة التي جاءت لتنظم حياته الإرادية الاختيارية لا بد من أن تكون متناسبة ومتناسقة مع الشق الثاني من حياته -وهي الحياة اللاإرادية- فالناموس الذي يسير الحياة اللاإرادية للإنسان منسجم ومتناغم مع الناموس الذي يسير الكون كله.. حيث أنه فرع منه.. وإذن فلا بد أن تكون هذه الشريعة متناسقة مع الناموس العام الذي يحكم هذا الوجود.

الشريعة قطاع من الناموس الإلهي الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام

يقول: **"فالشريعة -على هذا الأساس- إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان، وفطرة الوجود العام، وينسقها كلها جملة واحدة."**

وهذا معنى جديد رائع ليس من السهل أن يدركه الناس ويفهمونه.

الشريعة ليست شيئاً غير الناموس العام.. أي هي جزء من الناموس العام.. الله عز وجل كان قادراً على أن يسيّر الإنسان كله تبعاً للناموس العام كما يسير الجمادات والنباتات والحيوانات والملائكة، فكلهم يسيرون وفق الناموس العام بلا إرادة وبلا اختيار، ودون تفكير.. فحينما خص الله الإنسان بهذا الجانب الإرادي وسنّ له شريعة.. فلا يعني هذا أن هذه الشريعة التي تختص

بالجانب الإرادي الاختياري هي شيء آخر غير الناموس الكوني.. هي شريحة من الناموس الكوني، أُعطي للإنسان الحق في أن يتعامل معها في حرية. فإذا مُنع الإنسان من أن يتعامل مع قلبه أو معدته أو مع دمه أو مع مخه بحرية.. فلأن ذلك سيفسد الحياة الإنسانية.. فجعل له جزء آخر يتعامل معه بقدر من الحرية وبقدر من الاختيار، ويترتب على ذلك تلك المسؤولية التي سوف يُسأل عنها الإنسان ويحاسب على أساسها، ورُتِّب على ذلك تحقق الخير أو الفساد في حياة ذلك المخلوق.

وهذا معنى رائع جدا، وجديد جدا في إدراك نوعية هذا التصور، ومردوده في مزج الإنسان بالكون كله وبقانونه وناموسه العام، فلا يحس الإنسان في لحظة واحدة أنه شيء مغاير لهذا الكون.. إنما هو مخلوق من المخلوقات، حُمّل المسؤولية في هذا الجانب الذي أشفقت منه السماوات والأرض والجبال، وحمله الإنسان وقبِله، عانى منه ما عانى، وأيضا ارتفع به، فكان له به شأن عظيم. فهذا الجانب الذي قدره الله ليختاره الإنسان ويتعامل معه بإرادة حرة.. تحت إرادة الله الكلية.. هو الذي أعطى ذلك الإنسان فرصة ليرتفع الى أعلى عليين، أو ليهبط إلى أسفل سافلين.

يقول **"وما من كلمة من كلمات الله، ولا أمر ولا نهي، ولا وعد ولا وعيد، ولا تشريع ولا توجيه.. إلا هي شطر من الناموس العام، وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية -أي القوانين الإلهية الكونية- التي نراها تتحقق في كل لحظة، بحكم ما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها، وهي تتحقق بقدر الله."**

هذا معنى يصعب على الإنسان أن يعبر عنه، ولكن يستطيع الإنسان أن يعيشه وأن يتملاه وأن يتذوقه. بحيث يشعر أن الشريعة ليست هي مجرد أوامر ونواهي، وإنما هي قانون من قوانين الله، وتابعة لناموس الله كله، وهي قوانين إلهية كونية، وليست قوانين إلهية شخصية للإنسان، أو خاصة بالإنسان.. ولكنها تربطه بالقانون الكلي الذي شاءه الله لهذا الكون جميعه، ولهذا الوجود كله.

وحينما تتحقق هذه القوانين بحكم ما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها -لأن علم الله شامل، وعلم الله قديم، وإرادته قديمة- فبقدر ما تتحقق بما في طبيعتها من حق أزلي أودعه الله فيها فهي تتحقق بقدر الله، ولا تتحقق بذاتها، فليس لها وجود ذاتي، إنما هو قدر من الله، مرتبط بإرادة الله التي تقرر كل شيء في كل لحظة، وفي كل همسة، وهي لا تنطلق بذاتها حرة طليقة.. حتى وإن كان الله هو الذي أطلقها في أول الأمر، وحتى إن كانت لا تزال منطلقة، فهي مرتبطة دائما في كل لحظة بقدر الله الذي يزودها بالحركة ويزودها بالوجود ويزودها بالعمل. وهكذا يصبح الإنسان مرتبطاً بالناموس في كل لحظة، وليس في حياته قانون أولي ثم بعد ذلك ينطلق بذاته بلا رقيب وبلا مغير أو محول.

يقول: **"والشريعة التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي -من ثَمَّ- شريعة كونية. بمعنى أنها متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه.."**

وهذا الذي يعنيه -بعد هذا التفصيل السابق- من أن الشريعة هي شريعة كونية، حيث إن قوانين هذه الشريعة وما فيها من أمر ونهي ووعد ووعيد أو تشريع وتوجيه هي جزء من الناموس العام، متصفة بكل ما تتصف به القوانين العامة التي تُسيّر الوجود كله، فبالتالي هي شريعة كونية، لأنها متصلة بناموس الكون العام، ومتناسقة معه.

يقول: **"ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذي يعيش فيه.."**

وهذه نتيجة طبيعية.. فإذا كان الإنسان مخلوقاً لله عز وجل كهذا الوجود الكوني كله، وهو جزء من هذا الوجود الكوني، فلا بد أن يخضع للناموس الواحد الذي يسير هذا الكون.

ولكن الإنسان له جانبه المستسلم اللاإرادي، وجانبه الاختياري الإرادي، فكان لا بد أن يكون جانباه خاضعين لقانون واحد وناموس واحد.

التزام الشريعة يحقق التناسق بين حياة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه

وإذا كانت الشريعة هي التي تنظم الجانب الإرادي الاختياري.. فلا بد أن تكون متناسقة مع الناموس العام.. أي لا بد أن تكون شريعة كونية كما أن القوانين الأخرى قوانين كونية، فهي شريعة إلهية كونية، كما أن القوانين الأخرى قوانين كونية. **"ومن ثم فإن الالتزام بها ناشئ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان، وحركة الكون الذي يعيش فيه.. بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المُضْمَرة، والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة. وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان.."**

هذا كلام رائع جدا، لأنه يفسر بصورة واضحة جدا وبسيطة ضرورة الالتزام بالشريعة، فهي ليست مجرد أوامر إلهية، وليست مجرد هيمنة إلهية، وليست فقط تحكماً إلهياً، وإنما هي الضمان لأن يعيش الإنسان حياة صالحة، حياة مستقرة، حياة متناسقة مع بقية هذا الوجود الذي يعيش فيه، فالالتزام بها ينشأ من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الإنسان وبين حركة الكون الذي يعيش فيه ابتداء.

يقول: **"بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة، والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة. وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للإنسان.."**

وكل هذا لا يعلم الإنسان عنه شيئا كثيرا.

لا هو يستطيع أن يحيط بحركة الكون، ولا بالقوانين التي تسير الكون، بحيث يستطيع هو بمفرده أن يضع مذهبا وشريعة لحياته تتفق مع بقية القوانين الكونية. لأنه لا يعلم القوانين الكونية، فحينما يأتي لينفرد ويستقل بوضع شريعة لحياته تنظم جانبه الإرادي بحيث لا تصطدم بقوانين الكون لا يستطيع، لأنه يجهل حقيقة القوانين الكونية، ولذلك سيضع شيئا ناقصا، وشيئا غير صحيح.

وهو أيضا لا يستطيع أن يعرف ما يحكم حياته الباطنة، وما هو صالح لحياته الظاهرة.

وعملية الإدراك لكل ما يجري في كياننا الداخلي من مشاعر وأحاسيس، بل من قوانين تحكم أجهزتنا البدنية التي اكتشف العلم ارتباطها بالجانب الشعوري والنفسي للإنسان، فليست الأجهزة العضوية بمعزل عن المشاعر النفسية، كلاهما مفتوح بعضه على بعض.. الجانب العضوي يؤثر في الجانب النفسي، والجانب النفسي يؤثر في الجانب العضوي، وكلاهما يشكلان توجه الإنسان في سلوكه الظاهر.

فإذا لم يكن الإنسان على علم بكيانه الباطن المضمر، سواء أجهزته المادية، أو كيانه النفسي الداخلي، فإنه لن يستطيع أن يضع شريعة تنظم حياته الظاهرة التي يعيشها مع نفسه أو مع الآخرين، ثم بعد ذلك يحقق القدرة على إيجاد هذا التواؤم والتلاؤم بين كيانه الداخلي وكيانه الظاهر، وكيان الآخرين الظاهر وكياناتهم الباطنة أيضا.. هذا أمر مستحيل.. أن يعرف الإنسان كل البشر ليعرف ما يجوس في ضمائرهم وما يجوس في كيانهم، ثم يعمل تلاؤما بينهم وبينه في الظاهر والباطن، ويضع شريعة تنسق بين هذا الظاهر والباطن، وتوائم بينها وبينه.

فتصبح قضية: هل يستطيع الإنسان أن ينفرد بوضع منهج لحياته بنفسه مع كل هذا الجهل المركب، سواء بقوانين الكون، أو قوانين نفسه، أو بجانبه الظاهر، أو جانبه الباطن، وببقية المخلوقات.. تصبح هذه القضية أمرا يستحيل على هذا الإنسان الضعيف الجاهل أن يقوم بها.

"ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام -ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له رضوا أم أبوا- فإنهم -من ثم- لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاماً يحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة. إنما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر، ومدبر أمره وأمرهم، وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه."

وهذا يربط الإنسان بالألوهية ربطا محكما، ربطا مفهوما، ربط المحتاج الفقير بالقادر الغني. ويتحقق قول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

هذا هو الفقر الحقيقي، فقر البشرية في كل لحظة إلى خالقها العليم الكريم الرحيم، الذي يعرف عباده ويرحمهم ويعينهم، وينظم حياتهم، وينسق لهم هذه الحياة، ويريحهم من هذا التدبير، ويريحهم من هذا التفكير.

ولذلك يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق هذا التناسق، فوق وجوبه لتحقيق الإسلام اعتقادا، فتلتقي العقيدة، ويلتقي الواقع، ويلتقي الضمير. فالإنسان لا يستطيع أن يكون عبدا لله إلا أن يتلقى منه الشريعة، وإلا أن يلتزم بهذه الشريعة.

ولا يستطيع أيضاً أن ينسق حياته ولا أن يدبرها إلا بالالتزام بشرع الله عز وجل. فهي إذن شريعة كونية بالمعنى العام المطلق، لأنها تربط الإنسان بالله سبحانه وتعالى خالق هذا الوجود وخالق هذا الكون. وتربط الإنسان بهذا الكون الذي هو جزء منه، ثم بعد ذلك تربط الإنسان ببقية البشر الذين هم خلق مثله، ثم بعد ذلك تضمن له التناسق والوحدة بينه وبينهم، فيصبح مفهوم الالتزام بالشريعة ليس مفهوما سطحيا بهذا المدلول الذي يفهمه الناس؛ أنه مجرد استجابة لأمر الله، وأنه فرض من أعلى على من هم دونه..

الأمر ليس كذلك.. الأمر أوسع وأشمل وأروع وأجمل من كل هذا، هو التزام راض من العبيد بشريعة ربهم، لأن هذه الشريعة هي وحدها التي تنسق حياتهم مع ربهم، ومع الكون، ومع كل خلائق الكون، ومع كل البشر. هذا المعنى العميق والرائع هو معنى أن هذه الشريعة شريعة كونية. ولذلك **"يصبح العمل بشريعة الله واجباً لتحقيق ذلك التناسق.. وذلك فوق وجوبه لتحقيق الإسلام اعتقاداً. فلا وجود للإسلام في حياة فرد أو حياة جماعة، إلا بإخلاص العبودية لله وحده، وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده، تحقيقا لمدلول ركن الإسلام الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.**

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد.."

هذا الالتزام الاعتقادي والعملي بتحقيق التناسق بين الإنسان وبين الكون، وتحقيق عبوديته لله عز وجل انطلاقاً وتحقيقاً لمفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله هو الذي يعطي للشهادة معنىً هائلاً لا بد أن يعرفه الناس. فليست شهادة لا إله إلا الله مجرد كلمة أو ادّعاء. ولكن لكي يحققوا العبودية لا بد أن يفهموا حقيقة لا إله إلا الله بهذا المفهوم الكبير العميق الشامل الذي يتخلل حياتهم بهذه الصورة.

ثمرة التناسق بين حياة البشر ونظام الكون

ثم يبين ثمرة التناسق بين حياة البشر ونظام الكون فيقول: **"وفي تحقيق التناسق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد.. إنهم -في هذه الحالة وحدها- يعيشون في سلام مع أنفسهم.."**

حينما يعيش الناس في أي نظام آخر وتحت أي شريعة أخرى فلا يمكن أن يعيشوا في سلام مع أنفسهم.

فأما السلام مع أنفسهم فمفهوم؛ حيث تتناسق رغباتهم وتنتظم دوافعهم وغرائزهم وشهواتهم وطموحاتهم، بما يجعل هناك تناسقا بين كل هذه الأمور، فلا يتصارع الإنسان مع نفسه، ولا يتمزق في حياته، وإنما يعيش في تناسق وتناغم يحقق سعادة الإنسان.

"فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه.."

ولا شك أن الإنسان عندما يشعر أنه ليس نشازا في هذا الوجود ولا في هذا الكون، وأنه مثله مثل الشمس والقمر والنجوم والرياح والجماد والنبات والحيوان.. كلهم يسيرون في ركب واحد.. يذكرون الله عز وجل ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحديد: ١]، ويوحدون الله عز وجل، ويستسلمون لإله واحد.. لا شك أن هذا له مردود هائل على حياة الإنسان النفسية، وعلى الأنس الذي يجده حينما يسير مع هذا الكون، إذ يشعر أن كل مخلوق في هذا الكون هو صديق له، وأخ له في العبودية لله عز وجل.

فلا يعيش كما يعيش أعداء الله الذين يشعرون دائما أنهم في صراع مع الكون، وصراع مع الطبيعة، بل وصراع مع الله ذاته سبحانه وتعالى.

وهم حينما يعيشون كذلك يعيشون في ضنك وفي عذاب.

لكن الإنسان المسلم حينما يسير وحده في الصحراء لا يشعر أنه وحده، يشعر أن الرمال التي يسير عليها تسبح لله، والجبال التي يراها، والبرق الذي يراه يسبح لله، والرعد يسبح بحمد الله، والشجر والمطر.. فلا يشعر بالوحدة، ولا يشعر بالوحشة.. وإنما يشعر أنه عبد لله، يخاطب هذه الأكوان خطاب العبد للعبد..

حينما يرى الهلال يقول: ربي وربك الله، فهو يعيش مع هذه الأشياء بهذا الحس دائما.. حينما يأكل فاكهة جديدة يأكلها وهو يشعر أنها حديثة عهد بربها.. حينما يتلقى قطرات المطر وهي نقية يمسح بها وجهه يشعر أنها قريبة عهد بالله عز وجل، وهكذا يشعر بأنس، لا يعيش في وحدة حتى لو كان يعيش وحده في جب، فهو مع الله، والله معه لا يتركه لحظة واحدة، فهو أقرب إليه من حبل الوريد. فلا يشعر أبدا بالوحدة ولا بالوحشة، ولكن يشعر أنه قريب قريب من الله، لا يستشعر الخوف والهلع الذي يستشعره الآخرون.

"وأما السلام مع أنفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته، لأن شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة، في يسر وهدوء.. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام، لأنهم جميعا يسلكون حينئذ وفق منهج موحد، هو طرف من الناموس الكوني العام."

فلا شك أن جماعة المسلمين، والمجتمع المسلم، بل البشرية كلها، حينما تخضع لهذا الناموس الكوني والشريعة الكونية لن يتصارعوا.. ولن يتباغضوا، ولن يتحاربوا.. بل سنرى -كما رأينا في المجتمع المسلم الأول- أناساً يتعايشون متحابين، يدعو بعضهم لبعض، ويسعى بعضهم في أمر بعض، ويحسون كلهم بمتاعب بعض.. فالأمة المسلمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.. هذا الشعور الموحد يبث السعادة والطمأنينة والراحة بين أفراد المجتمع حينما يخضعون جميعا لهذه الشريعة الكونية، فلا يقوم الصراع فيما بينهم.

وبقدر مخالفتهم لهذه الشريعة يقوم بينهم الصراع.. فإذا كانت المخالفة هينة يكون الصراع هينا، وكلما تزايد هذا الاختلاف كلما تزايدت الصراعات.. وإذا خرجت الحياة تماما عن شريعة الله انقلبت الحياة إلى صراع الوحوش الذين لا يرقب بعضهم في بعض إلّاً ولا ذمّة.

فالتنسيق الاجتماعي بين الناس من خلال خضوعهم لشريعة الله الواحدة لا شك أنه يعطي للحياة معنىً رائعاً.. يعطي للحياة معنى الأمن الحقيقي، ومعنى السعادة الحقيقية، ومعنى الإنتاج الحقيقي أيضا.. كما أن تطابقهم مع الكون يجعلهم لا يستثمرون سنن الكون إلا في الخير، ولا يوظفون ما يكتشفون من حقائق الكون وأسراره إلا فيما يزيد عبوديتهم لله، ويزيد تواصلهم مع الله، ويزيد الخير للبشرية.. فهم حينما يكتشفون سنن الكون يكتشفون حقائق جديدة تربطهم بالكون، وتزيد روابط

بعضهم ببعض، وتقربهم جميعا إلى الله حينما يكتشفون ما ييسر حياتهم ويوفر طاقتهم وأوقاتهم، فيجدون أوقاتا أوسع يعبدون فيها الله سبحانه بيسر وسهولة.. فكلما اكتشفوا ما ييسر لهم الحياة كلما فاض عندهم من الجهد والوقت الذي يجدونه ليعبدوا الله عز وجل ويذكروه.. فهكذا يحدث هذا التناسق بينهم وبين الكون، وبينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين الخلق والنباتات والجمادات.. ويصبح الكون كله والوجود كله نغمة واحدة متجهة ومسبحة لرب الوجود كله، دون خلل ودون اضطراب.

"كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها في يُسر إلى أسرار هذا الكون، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في أطوائه، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله، لتحقيق الخير البشري العام، بلا تعارض ولا اصطدام."

ومن هنا تنشأ الحضارة البشرية التي ترفع الإنسان، وتُيَسِّر له الحياة، وتجمّلها له، وتيسر له العبادة، والتنعم بآلاء الله عز وجل. فلا تكون حضارة قذرة ممسوخة كحضارة الدعارة التي نراها اليوم.. وإنما تكون حضارة نظيفة كريمة هادفة، ترفع الإنسان في يُسر إلى الله عز وجل، وتمتعه في ذات الوقت بنعم الله الهائلة، التي يذكّره الله بها.. ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: ١٨].. فحينما يعيش الناس بهذه الشريعة الكونية تتحقق لهم كل هذه النعم، وكل هذه البركات.. ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]..

"ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١]..

ومن ثم تُوحّد النظرة الإسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين، والحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، ويصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، ويحاسب الله به ويجازي من يتعدونه.. فهو حق واحد لا يتعدد، وهو الناموس الكوني العام الذي أراده الله لهذا الوجود في جميع الأحوال. والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم وأشياء وأحياء."

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۞ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۞ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۞ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠-٢٠]...

وهكذا يصبح المنهج الذي يعيش به المسلمون هو نفس الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض، فيتعانق هذا الإنسان مع الحق الذي تقوم به السماوات والأرض، فيحس الإنسان أنه هو والوجود كله شيء واحد مرتبط بالحق سبحانه وتعالى، ومن

أسماء الله أنه هو الحق، وأن هذا الوجود كله خلق بالحق، فالسماوات والأرض خلقتا بالحق، والإنسان خلق بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت..

فإحساس الإنسان بأن الحق الذي قام عليه هذا الدين هو الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض أمر يربط الإنسان ربطا شعوريا ممتعا بالله سبحانه وتعالى. ولذلك يقول الله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].. فهذا الكتاب نزل ليرفع الإنسان، ويجعل له ذكرا عاليا في هذا الوجود. فالذين يمسكون بهذا الكتاب يرتفعون إلى درجة أعلى من درجة الملائكة.. ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].. فلماذا تَدَعُونه؟ لماذا تتعدون حدوده؟ لماذا تتركونه؟ لماذا لا تتمسكون به؟ وهو فيه عزكم، وفيه ذكركم.. وفيه سعادتكم.. وفيه نجاتكم في الآخرة ونعيمكم فيها.. ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١-١٥]..

فالذين يحاربون الله لن يفلتوا من عذابه. فالله عز وجل بعد أن يُعّرفهم بأنه أنزل إليهم الكتاب ليرتفعوا به، ويعزهم به.. يخوفهم.. كم قصمنا من قرية كانت ظالمة كما تظلمون، وأنشأنا بعدها قوما آخرين، والله قادر على كل شيء، ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].. فليس هناك مفر، وليس هناك مخرج من هذه النهاية البائسة.. ارجعوا إلى ما كنتم فيه مترفين.. ارجعوا إلى هذه الدنيا الخادعة.. ارجعوا إلى اللهو واللعب.. وسوف تسألون.. ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٤].. اعترفوا أخيراً بأنهم كانوا ظالمين.. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين.. ظلوا يرددون هذا الإحساس البائس، وهذا الاعتراف البائس.. يا ويلنا إنا كنا ظالمين.. حتى جعلناهم حصيدا خامدين.. ويكرر الله عز وجل هذه الحقيقة؛ أن السماوات والأرض لم تخلق عبثا ولا لهوا ولا لعبا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۞ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٨].. هذا تهديد رهيب من الله عز وجل لهؤلاء البشر المهازيل.. وكل البشر مهازيل.. ليس في إمكانهم أن يقفوا أمام سطوة الحق، وأمام إرادة الحق. ولذلك يقرر الله عز وجل.. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].. والدمغ هو شدة السحق.. فإذا هو زاهق ينتهي.. ولكم الويل بعد ذلك مما تصفون، أي مما اجترأتم أن تصفوا به هذا الرب، أو دينه، أو رسوله، أو المؤمنين.. لكم الويل مما تصفون.

وعلى الناحية الأخرى.. هناك خلق يعرفون قدر الله عز وجل ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].. فإذا كان هذا الإنسان لا يقدر الله حق قدره، ولم يقدر كتابه حق قدره، ولم يقدر كل هذه الحقائق.. فهناك خلق آخر ممن نعلم، وممن لا نعلم.. لأن التعبير مطلق ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ [الأنبياء: ١٩] كما يستكبر هؤلاء ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]..

وللجمع بين حقيقة الالتزام بشريعة الله التي هي تعبير من الإنسان عن عبوديته لله عز وجل والتي تلتقي مع عبودية الكون لله سبحانه وتعالى، فإن هذا الإنسان قد وُضع في موقف مخيف جدا، لأنه حين يخرج عن حدوده يكون له الويل، ويكون له السحق، ويُزهق باطله زهقاً.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].. بينما حين يتناسق الإنسان مع هذا الكون ويسير بشريعة هذا الدين.. تلك الشريعة الكونية التي تنسق بين جانبه الإرادي وجانبه غير الإرادي، يكون مع هؤلاء الذين لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون، ومع الذين يسبحون بالليل والنهار لا يسأمون ولا يفترون.

"وفطرة الإنسان تدرك هذا الحق في أعماقها. فطبيعة تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله، توحي إلى فطرته بأن هذا الوجود قائم على الحق، وأن الحق أصيل فيه، وأنه ثابت على الناموس، لا يضطرب، ولا تتفرق به السبل، ولا تختلف دورته، ولا يصطدم بعضه ببعض، ولا يسير وفق المصادفة العابرة والفلتة الشاردة، ولا وفق الهوى المتقلب والرغبة الجامحة! إنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديراً.."

ولهذا أمرنا الله عز وجل أن نتفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار. ونرى دقة هذا الوجود، ودقة سيره. لكي ندرك دقة الناموس الكوني، الذي نتعلم منه الدقة في تسيير شؤوننا الخاصة والعامة، بنفس الدقة التي ينبغي أن تسير عليها للتناسق مع الوجود الكوني الذي تعيش فيه، والذي تدور حوله بهذه الدقة الرهيبة.

فالإنسان إذا التزم بشريعة الله سيجد نفسه سائراً بنفس الدقة التي يسير بها الكون في حياته كلها. فالكون لا يسير مصادفة، ولا يضطرب. وإنما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر تقديرا.

عاقبة الشقاق بين الإنسان وفطرته

"ومن ثم يقع الشقاق -أول ما يقع- بين الإنسان وفطرته حينما يحيد عن الحق الكامن في أعماقها، تحت تأثير هواه. وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مُستمدَة من هذا الهوى لا من شريعة الله، وعندما لا يستسلم لله استسلام هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه!"

وتصبح هذه نظرية عملية دقيقة جدا، وليست مجرد نظريات دينية -كما يسميها أعداء الإسلام- أو نظريات فلسفية.. إنما هو كلام علمي دقيق. ولا يمكن أن يكون هناك حق غير هذا الحق، ولا علم غير هذا العلم. فالإنسان والكون كله يسير حسب قوانين دقيقة وثابتة تحكم حياة الإنسان الإرادية وغير الإرادية. والله عز وجل وضع الشريعة لتكون شريعة متناسقة مع القوانين الكونية، فهي أيضا شريعة كونية. وحينما يترك الإنسان الشريعة فهو يتبع أهواءه وأمزجته واجتهاداته، وهو بذلك يدمر نفسه تدميرا، ويحدث هذا الشقاق الذي يصْلَى به الإنسان.

"ومثل هذا الشقاق يحدث بين الأفراد والجماعات والأمم والأجيال، كما يقع بين البشر والكون من حولهم، فتنقلب قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء، بدلاً من أن تكون وسائل عمران وأسباب سعادة لبني الإنسان."

الشقاق بين الأفراد والجماعات واضح.. فالناس عندما يتبعون أهواءهم يدخلون في صراع بعضهم مع بعض، ويقتل بعضهم بعضا، ويعتدون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.. فيعيش الناس في هذا الضنك الذي تعيش فيه أوروبا وأمريكا وغيرهما.. حتى أن الإنسان قد لا يستطيع أن يخرج وحده في بعض البلاد ولو في وقت الظهيرة، إلا أن يكون في مجموعة من الناس، كي يدافعوا عن أنفسهم ضد العصابات وغيرها. ولا تأمن امرأة أن تسير وحدها خشية أن تُغتصب أو تُخطف.

فحينما يحدث خروج عن شرع الله يحدث هذا الضنك وهذا الصراع والخوف والهلع وعدم البركة وعدم الأمن التي تعيشها الشعوب التي أوغلت في عصيان الله عز وجل. ونرى تلك الفضائح تُحكى هناك؛ مثل فضيحة كلينتون.. فما هذا الضجيج الهائل الذي يصنعونه حول رجل انحدر؟ ما قيمة هذه القضية؟ إلا أنهم يريدون أن يعيشوا في خضم هذه الموضوعات القذرة، وهذا المستنقع القذر ليل نهار، وتُباع الكتب التي تتكلم عن هذا الموضوعات بأسعار خيالية، وتُطبع وتنفذ، وينشرونها ليلوثوا بها آذان الناس وضمائر الناس.. ثم يظل بعد ذلك هذا الرجل الساقط رئيسا لأقوى دولة، ويظل الرؤساء والحكام يسلمون عليه ولا يتحرجون من هذه اللقاءات معه، وهو يعتبر أقذر رجل في العالم وليس أعظم رجل في العالم. ولكن هكذا تعارفت البشرية أن هذا الانحراف لا يقلل من شأن الرجل، ولا من شأن المجتمعات. وهذا أمر عجيب فعلا أن يعيش الناس بهذا الشكل، ويرتضونه لأنفسهم!

فالشقاق بين الأفراد والجماعات والأجيال واضح تماما.

وكذلك الشقاق بين البشر والكون من حولهم يتمثل في تلك الحروب التي تقوم بين الناس بعضهم البعض.. وفي تلك الابتكارات المهلكة التي تدمر حياة البشر، وتؤثر في التوازن الكوني. فلا شك أن الإنسان كلما تدخل في تناسق الكون وتناسق القوانين الكونية كلما نتج عن هذا تفريط وإفراط وتدمير وإهلاك في حياة الإنسان.

والأمثلة على ذلك كثيرة.. فكلما تدخل الإنسان في التوازن الذي أوجده الله في هذه الأرض أو في هذا الكون كلما أدى ذلك إلى اضطراب في حياة البشر وحياة الكون. وإذا صدق موضوع ثقب الأوزون فهو أيضا من أعمال البشر. وهم قد أزالوا في بعض المناطق في أوروبا غابات بأكملها، ونتج عن ذلك انهيارات أرضية. وحينما قضوا في استراليا على نوع معين من الأرانب البرية بأن أحضروا لها حيوانات لتقضي عليها، أصبحوا بعد ذلك لا يعرفون كيف يتخلصون من العدو الجديد. وحينما زرعوا أشجارا معينة لكي تحميهم من الفئران أصبحت هذه الأشجار غولا تدخل عليهم مدنهم وتزحف عليهم. وكلما صنعوا شيئا تدخلوا فيه بعيدا عن توازن الخالق كلما شقوا بهذه الاجتهادات المدمرة.

وكلما خرج الإنسان عن حدوده الأخلاقية يجد نفسه قد وقع في شر أعماله، ووقع في أبأس أنواع الحياة. فلا شك أن الشقاق بين البشر وبين الكون أيضا يتحقق من خلال تدخل الإنسان في توازنات الكون. أو حينما يبتكر ابتكارات تؤدي إلى خلل في التوازن الأرضي، أو في توازن الصخور، أو في توازن أي شيء وكلما حدث شيء من ذلك حدث الشقاق والشر.

كذلك الشقاق بين البشر وبين الكون يحدث حينما يُغضِبون الله فيُسلط هذا الكون عليهم. يسلط البراكين والزلازل والأعاصير. وهذا عقاب ناشئ من عصيانهم لله.. فيسلط الله عليهم هذا الكون الذي لا يستطيعون أن يقفوا أمام سطوته. وهذا الكون

نفسه يستغفر للمؤمنين، وتسبح فيه الحيتان والملائكة للمؤمنين، وكل ما في الكون يتعاطف مع المؤمنين. ولكنه يظهر العداوة لغير المؤمنين.

وكذلك الإنسان حينما لا يكون مؤمنا. فحين يتعامل مع أقدار الله تعاملا معاديا، فلا يرضى بقدر الله، ويسخط بأقدار الله. ولا يرضى عن نصيبه من الحياة. وإذا أصابته مصيبة يضيق بالله وبقدر الله، ويكفر بالله.. فإنه حينئذ يدخل في شقاق مع الكون، ومع قدر الله، ومع مقدرات هذا الكون الذي يقدرها الله عز وجل. فهو في شقاق دائم مع هذا الكون.

وبدلاً من أن تصبح قوى هذا الكون المسخرة للإنسان سبب عمران ويُسر وراحة مُعدَّة للإنسان.. تنقلب -كما نرى- قنابل نووية تُخترع لتهلك البشر وتحطم الحياة، وحبوب منع للحمل لتبيح النساء.. وتنتشر الأوبئة نتيجة العلاقات الجنسية الشاذة.. كل هذا نتيجة الصراع والخروج عن هذه الشريعة الكونية، ويدخل الإنسان في صراع مع الله ومع الكون ومع نفسه.

هل الهدف الظاهر من قيام شريعة الله هو مجرد العمل للآخرة؟

"وإذن فإن الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الأرض ليس مجرد العمل للآخرة. فالدنيا والآخرة معاً مرحلتان متكاملتان، وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في حياة هذا الإنسان. تنسق الحياة كلها مع الناموس الإلهي العام."

فالالتزام بهذه الشريعة الكونية يحقق الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، وينظم الحياة السعيدة في الدنيا بين الإنسان وبين نفسه، وبين الإنسان وبين الناس، وبينه وبين الكون.. قبل أن تكون مجرد نجاة له من الحساب والمسؤولية في الآخرة.

"والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس إلى الآخرة، بل يجعلها واقعة ومحققة في المرحلة الأولى كذلك، ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة."

يقول الله عز وجل ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]..

كما يقول الله عز وجل ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]..

وكما في سورة نوح ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢]..

وكما قال هود لقومه ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢]..

فالإيمان بالله والالتزام بشريعة الله تحقق للحياة الإنسانية في هذه الأرض؛ السعادة المادية والوفرة المادية، وكذلك السعادة المعنوية.. كما تحقق لهم في الآخرة الرضوان من الله والسعادة والحياة مع الله. ولذلك نرى أن الجنة نموذج من نماذج النعيم التي لن نستطيع أن نفهمها ولا أن نتذوقها إلا إذا أكرمنا الله عز وجل بها يوم القيامة.

فالحياة في الجنة حياة عجيبة؛ لا فيها تعب ولا نصب ولا نوم ولا إرهاق، لذة دائمة، وكل شيء في حياة الإنسان في الجنة يختلف تماما عن حياة الدنيا، ولا يحدث شيء يكدره، فهو لا يهرم أبدا، ولا يكبر سنه.. تمام النعمة تتم كمالها في الآخرة. ولكن يعطينا الله مذاقاً منها في الدنيا من خلال حياتنا مع شريعته، وحياتنا معه سبحانه وتعالى في الدنيا.. فييسر لنا هذه الدنيا ويُنعم علينا.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦]..

وكما وعد الله عز وجل المؤمنين في الدنيا.. ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]..

(وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه)[١]

فتنقلب الحياة إلى نعيم في الدنيا قبل الآخرة؛ نعيم نفسي ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ونعيم مادي من الرخاء والخير.. يستشعرون جمال هذا الكون وجمال هذا الوجود، ويعرفون الله، ويتنعمون بجنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الذي يملك الكون ويسير الكون، هو الوحيد الذي ينبغي أن ينظم حياة الناس

"هذا هو أساس التصور الإسلامي للوجود كله، وللوجود الإنساني في ظل ذلك الوجود العام، وهو تصور يختلف في طبيعته اختلافاً جوهرياً عن كل تصور آخر عرفته البشرية، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور آخر في جميع الأنظمة والنظريات.."

وكل التصورات التي في الأرض، والمذاهب التي في الأرض إنما تقوم على تصورات ضالة، تحول بين الإنسان وبين الحقيقة، وبين الإنسان وبين الحق، وبين الإنسان وبين السعادة والراحة والأمن، وبين الإنسان وبين النجاة في الآخرة.. بل تؤهله لعذاب خالد في نار جهنم والعياذ بالله. فضلا على أنها غير منطقية وغير مفهومة. ولذلك تعددت المذاهب وتعددت التصورات. وكل فيلسوف وكل صاحب مذهب يأتي بتصورات ما أنزل الله بها من سلطان. وكثير منها يثير الضحك ويثير الازدراء. بينما الحق هو الذي جاء به الأنبياء. كله حق واحد خرج من مشكاة واحدة من عند الله الواحد الأحد. تجده حقا مريحا منطقيا رائعا جميلا مشرقا مشعا، تسعد به الفطرة البشرية؛ تسعد به في دنياها وآخرتها، وتستشعر أيضا العزة به، وتستشعر التفرد الذي يتحقق به معنى الاستعلاء الذي سنتكلم عنه في فصل آخر إن شاء الله.

"إن الالتزام بشريعة الله -في هذا التصور- هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون.."

---

١ أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث خباب بن الأرت -رضي الله عنه-.

لم يعد فقط مجرد التزام بدين أو بشرع، وإنما هو مقتضى طبيعي تقتضيه الحياة البشرية إذا سارت مسارها الصحيح كجزء من هذا الكون.

إن الالتزام بشريعة الله هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون بما أنهم جميعا خلق الله وخارجون من يد الله عز وجل ومحكومون بربوبية الله وألوهيته.

"وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون.." فالإنسان في حياته وفي كيانه تسيره نفس القوانين التي تسير الكون، وبالتالي هو ناموس واحد يقتضي أن يلتزم الإنسان في جانبه الإرادي بنفس الناموس الذي جاء من عند الله. فشريعة الله هي ناموسه الكوني، وناموسه الكوني هو شريعته الكونية.

وأيضا الارتباط بين ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان، وتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده. وكما أن عبودية الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان. فلا يوجد إنسان عاقل يدعي أنه خالق هذا الكون، فأيضا لا ينبغي للإنسان أن يدعي لنفسه حق وضع الشريعة التي تنظم حياته.

"إن الالتزام بشريعة الله -في هذا التصور- هو مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون، وبين الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون، ثم ضرورة المطابقة بين هذا الناموس والشريعة التي تنظم حياة بني الإنسان، وتتحقق بالتزامها عبودية البشر لله وحده، كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه إنسان."

فكما أن الكون عبد لله وحده، ولا يدعي أحد أنه خلق الكون، أو أنه يُسيّر الكون أو يُسيّر الأفلاك.. فكذلك الإنسان لم يخلق نفسه لكي يصنع لنفسه شريعة، ولم يخلقه طاغوت لكي يصنع له هذا الطاغوت شريعة.

الذي خلق الإنسان هو الله. والذي خلق الكون هو الله. والذي وضع القانون هو الله. وينبغي أن يكون القانون الإنساني هو أيضا من عند الله. ومن ثم تصبح شريعة الله هي شريعة كونية، لأنها منبثقة من نفس المشكاة الإلهية؛ وهي أن الله رب هذا الوجود وهذا الإنسان بشقيه الإرادي واللاإرادي. هو عبد لله ومسير من عند الله. ومن ثم يكون أمرا طبيعيا في تمام البداهة أن تكون شريعة الإنسان منبثقة من عند الله. ولا يجوز للإنسان ولا للبشرية كلها أن تضع شريعة مستقلة عن الله عز وجل، لأن هذا تصادم وتناقض مع الحقيقة البديهية؛ أن الإنسان عبد لله، وأن الكون عبد لله، وأن من يسير الكون ينبغي أن يسير الإنسان.

وإذا كان الإنسان في جانبه اللاإرادي يتبع الناموس العام، فكذلك هو في جانبه الإرادي يتبع الناموس العام. وتصبح الشريعة إذن جزءً من الناموس الكوني، وليست شيئا منفصلا عنه أو متميزا عنه.

"وإلى ضرورة هذا التطابق و التناسق يشير الحوار الذي جرى بين إبراهيم -عليه السلام- أبي هذه الأمة المسلمة، وبين "نمرود" المتجبر المدعي بحق السلطان على العباد في الأرض، والذي لم يستطع -مع ذلك- أن يدعي بحق السلطان على الأفلاك والأجرام في الكون، وبُهتَ أمام إبراهيم -عليه السلام- وهو يقول له: إن الذي يملك السلطان في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة البشر، ولم يحر جواباً على هذا البرهان:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].."

وتصبح المُحاجّة في بؤرة القضية، وهي أن الذي يملك الكون ويسير الكون، هو الوحيد الذي ينبغي أن ينظم حياة الناس وأن يفرده الناس بالعبادة. فإذا ادّعى مدعٍ حق تعبيد الناس له.. فليثبت أولا أنه يُعبّد الكون لنفسه ويسير الكون بنفسه.. وهذه لن يستطيعها أحد كائناً من كان.. فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه هو الذي يُسيّر الكون، فضلا أن يكون قد خلقه. ومن ثم تصبح عملية الالتزام بشريعة الله جزء من الناموس الكوني الخاضع لألوهية الله الواحدة، وتصبح هذه الشريعة شريعة كونية. وتصبح شريعة ملتصقة ومندمجة في كيان الإنسان. لا يملك الإنسان أن يفلت منها، أو أن يتخلى عنها، مثلما أنه لا يستطيع أن يوقف تنفسه أو دقات قلبه. فهي جزء من كيانه لأنها ناموس الله العام. فكذلك الشريعة جزء من القوانين الكونية التي هي ناموس الله العام. ومن ثم تصبح علاقة الإنسان بالشريعة علاقة حميمة.. علاقة ضرورة.. علاقة عبودية لله الواحد.

"وصدق الله العظيم ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].."

الفصل السابع

شروح

كتاب

معالم في الطريق

الإسلام هو الحضارة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
المعنى اللغوي للحضارة ٢
ثلاث مقومات للرقي ٣
المجتمعات نوعين لا ثالث لهما ٤
أهمية الحزم في تحديد ماهية المجتمع وعدم الانخداع بالشعارات ٤
"المجتمع الإسلامي" هو وحده "المجتمع المتحضر" ٦
الهزيمة في مواجهة الغزو الفكري الأوروبي ٧
"مقومات الحضارة" من منظور الإسلام ٩
المقوم الأول: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله ٩
المقوم الثاني: تحقيق وإعلاء الخصائص التي تميز الإنسان ١٣
المقوم الثالث: مقاييس التكريم للإنسان ١٥
المقوم الرابع: مفهوم الأخلاق في الإسلام ١٦
المقوم الخامس: قضية الأسرة ٢٠
المقوم السادس: الخلافة ٢٤
العلم بـ"الحقيقة الأولى" من مقومات الحضارة والرقي ٢٧
مصدر التلقي وقاعدة الانطلاق وطبيعة التكوين العضوي أهم ما يميز المجتمع المسلم ٢٨
التلقي من مصدر أعلى وانعكاسه على المجتمع ٢٨
المجتمع الإسلامي وليد الحركة ٣٠
سيكولوجية البناء الإسلامي ٣٣
الحركة الدائبة تحدد مقادير الأفراد وأدوارهم ٣٦
المجتمع المسلم هو طُلْبة الحاضر وأمل المستقبل ٤٠
المجتمع المسلم ليس صورة تاريخية ثابتة ولكنه يرتكن إلى قيم ثابتة ٤١
تنوع أشكال الحضارة الإسلامية لا يعني التميع ٤٢
خاتمة: الإسلام دائما هو مصدر الحضارة ٤٥

الإسلام هو الحضارة

مقدمة

الآن نتحدث عن فصل جديد، مزدحم بالقضايا والمعلومات والإيحاءات، ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا على أن نحيط بكل ما جاء في هذا الفصل الكبير المزدحم.

وأسأل الله عز وجل أن يوفقني إلى أن أبين إيحاءات هذا الفصل التي عشت فيها أياماً كثيرة. ولذلك أحس أنه يحتاج تركيزا، فهو يجمع بين قضايا التصور والمنهج، وبين قضايا السلوك، وأيضا قضية المعركة.

فهو فصل مزدحم، يجمع بين طياته كثيراً من القضايا المهمة، والتي تحتاج دقة في التعبير، ودقة في التلقي والفهم.. والله هو الموفق.

يقابلنا أول ما يقابلنا عنوان الفصل.. وهو عنوان جديد ومثير "الإسلام هو الحضارة".. ليس هو صانع الحضارة.. وليست الحضارة أحد نتائجه. ولكن التعبير يعطي تصورا مباشرا كما لو أن الحضارة وجه من وجوه الإسلام.. أو هي الإسلام ذاته. وهذا يعطي للحضارة مكانة ضخمة كبيرة، أكبر مما تعوَّد الناس أن يتعاملوا به مع كلمة الحضارة، ويعطيها بُعْداً كونيا وربانيا، يجعلها في حس المؤمن شيئا آخر غير ما يحسه أي إنسان؛ سواء كان من أهل الجاهلية، أو من أصحاب الأديان الذين يأخذون أديانهم بصورة سطحية أيا كان دينهم.

ولا شك -كما عوّدنا الأستاذ سيد في هذا الكتاب- أنه كان يعيش الحقيقة بأعماقها البعيدة والقريبة والواسعة وكلماته تحتاج دائما إلى شرح واسع كي تُفهم بأبعادها العميقة. ومن الممكن أن تُفهم بصورة مختصرة جدا. وفي بعض الأحيان قد تفهم كلماته بصورة سطحية. ولكن لا شك أن لتلك الكلمات أعماقها وجذورها وأبعادها كما عوَّدنا في هذا الكتاب المختصر جداً، والمزدحم جداً بالقضايا. ومن وراء الازدحام توجد تلك الروح التي تنفخ فيمن يقرؤها مزيجا من الإيمان والاستعلاء، والفرحة والإصرار والحماس لهذا الحق، وتنفخ فيه أيضا كل ما ينبغي أن يتسلح به المؤمن في معركته في الأرض مع الشيطان، أو مع نفسه، أو مع الجاهلية من حوله.

"الإسلام هو الحضارة".. وهذا يعني أمرا كبيرا. فإذا كان الإسلام هو مظهر الكمال المادي والمعنوي والسلوكي بالنسبة للإنسان، فإنه يرفع الإنسان إلى أعلى درجات الكمال المقدَّرة للإنسان في الأرض، معنوياً ومادياً وسلوكياً. ومعنى ذلك أن الحضارة ينبغي أيضا أن تكون مظهر الكمال المادي والمعنوي والسلوكي. فإذا كان الإسلام هو الحضارة، أو الحضارة هي الإسلام، فينبغي أن يلتقي الإسلام والحضارة فيكونان مظهرين لهذا الكمال المادي والمعنوي والسلوكي.

المعنى اللغوي للحضارة

الحضارة كتعبير لغوي جاء من التحضر، وهو الوجه الآخر للبداوة. فحينما كان الناس ينتقلون من البادية إلى الحضر، ومن القرية إلى المدينة، ومن الصحراء إلى المركز أو المدينة، فإنهم لا ينتقلون بكيانهم الذي كانوا عليه، وإنما بعد قليل يكتسبون صفات جديدة، وينتقلون إلى مستوى جديد، ويبدأ في حياتهم نوع جديد من الرقي؛ سواء كان ماديا، أو معنوياً ويظهر ذلك في التقاليد والعادات. ويكون هناك ذلك الفارق الذي تعوَّدنا أن نلحظه بين أهل الحضر وأهل البداوة، سواء في طريقة الكلام، أو اللباس، أو استعمال الآلات والأدوات.

التحضر يحمل في مجمله معنى الرقي. وبذلك فالحضارة تساوي مفهوم الرقي بالنسبة للإنسان.

وإذا كانت الحضارة هي الرقي، فالحضارة أيضا مظهر الإبداع الإلهي لاسمه "البديع" سبحانه، حيث أن الإنسان يكتشف كل يوم إبداعا جديدا يضيفه إلى رصيده. وكلما انتقل الإنسان في سلم الحضارة اكتشف شيئا جديدا من الإبداع الإلهي.

وكأن اسمه تعالى "البديع" يظهر في هذه الحضارة الإنسانية، ويعيشه الإنسان الذي يكون واعيا لمصدر هذا الإبداع.

فيعيش الإنسان مع الله عز وجل كلما اكتشف شيئاً جديداً، أو كلما عرف ناموسا جديدا أو قانونا جديدا، وكلما اطلع على ذلك الإبداع الإلهي في توافق الكون، وأسرار هذا الكون، وأسرار جسمه وخلاياه. وبهذه الصورة التي تبلغ درجة الكمال في الوظيفة والأداء.

فكأن الحضارة هي السجل لاكتشاف الإنسان معنى الإبداع الإلهي. فحينما يربط الإنسان بين مراحل حضارته، ومراحل تنقلاته في سلم الحضارة، فإنما هو في الحقيقة ينتقل في سلم العبودية لله عز وجل، أو هكذا يجب أن يكون.

ينبغي أن تكون الحضارة هي المعراج الذي يعرج فيه الإنسان ليصل إلى الله. فهي سبب من أسباب اليقين، وسبب من أسباب الإيمان. فحينما يقال الإسلام هو الحضارة، أو الحضارة هي الإسلام فإن الأمر يكون مفهوما، لأن الحضارة هي ذلك المعراج الذي يحقق الإسلام في نفس الإنسان من خلال ما يراه ويعيشه ويبتكره. فيصبح الإنسان -وهو يرقى في سلم الحضارة- يرقى في الحقيقة في سلم العبودية إذا أخذ الحضارة بشكلها الصحيح الذي يريدها الله للعباد.

يبدو إذن التعبير في العنوان "الإسلام هو الحضارة" مفهوما، حيث تصبح الحضارة هي معراج الإنسان إلى الله، رغم ما قد يبدو في ظاهرهما (أي الإسلام والحضارة) من اختلاف في الشكل أو الصورة، لكن الجوهر واحد، لأنه نابع من مشكاة واحدة.

ولا شك أن العنوان مثير.. وجديد.. وحقيقي.. ورائع. يربط الأستاذ سيد فيه بين مفهوم المسلم لمعنى الحضارة، حيث تتحول الحضارة إلى معراج، وإلى معين للإنسان ليصل إلى الله، ولا تنقلب الحضارة إلى أن تصبح عائقاً أو مُبعداً عن الله عز وجل.

"الإسلام هو الحضارة" عنوان يستحق منا أن نقف عنده.. والفصل كله يحاول أن يشرح هذا المفهوم بهذا المعنى الجديد والمحدد، الذي رفع الإسلام فيه الحضارة إلى أن تصبح معراجا إلى الله، وتحقيق العبودية له سبحانه.

ولا شك أن الله عز وجل حينما يقول في كتابه ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].. لا شك أن هذه النشأة كانت نشأة لتعبيد الإنسان لله عز وجل، وليكون الإنسان عبدا، ويكون خليفة في الأرض. وقد استعمره الله فيها -أي طلب منه عمارتها- وهذا الاستعمار، وهو التعمير للأرض، هو جزء من أسباب نشأة الإنسان على الأرض.

فالحضارة وتعمير هذه الأرض، ليس بعيدا عن الهدف الأول الذي خلق له الإنسان.. ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

ثلاث مقومات للرقي

وإذا كان التحضر يعني الرقي، والحضارة تعني ترقي الإنسان في معراج العبودية من خلال تعميره لهذا الكون.. فإننا عندما نستعرض المقومات الأولية للرقي والتحضر سنجد من تلك المقومات: العلم.

فالعلم باب من أبواب التحضر. فلا تحضّر -مادياً ولا معنوياً- إلا من خلال العلم.

ولا شك أن هناك أشياء كثيرة تغذي العلم، ومن أهم هذه الأشياء التي تغذي العلم ليصبح حضارة تلك القوة التي وضعها الله في الإنسان؛ وهي قوة الخيال، أو طاقة الخيال. هذه الطاقة من أروع الطاقات التي زود الله بها الإنسان، لأنه يتخيل الشيء قبل وقوعه، ويتخيل الشيء قبل تصميمه، ويتخيل الواقع قبل أن يقع، وبالتالي يسعى إلى إقامته ويسعى إلى تنفيذه في واقع الأمر.

فالعلم مع طاقة الخيال يؤديان مهمة كبيرة جدا في أمر الحضارة وأمر إقامة هذه الحضارة.

كما سنجد من مقومات الرقي والحضارة: التحرر. هو رغبة الإنسان في الانطلاق من القيود؛ قيود الجهل وقيود العجز والتعب والنصب. فيحاول الإنسان أن يتحرر من هذه القيود بالسعي لتسخير الأشياء التي حوله لكي يرتقي، ولكي يحقق أهدافا تجعله أكثر تحررا وأكثر سهولة في العيش والحياة.

والتحرر هنا ليس تحررا ماديا فقط بل هو معنوي أيضاً حيث يتحرر الإنسان من آفاته ومن شهواته وغرائزه.

هذا التحرر من قيود الجهل والعجز والتخلف، ومن قيود الأنانية والشقاق، وغيرها من القيود.. كل هذه مقومات من مقومات الرقي. فلكي يصبح إنسانا راقيا لا بد أن يكون متحررا، ليحقق رقيا أكبر وأحسن.

كما سنجد من مقومات الرقي والتحضر مُقوِّم التوافق الذي يؤدي إلى سعادة الإنسان.. التوافق بين فطرته وبين الوجود من حوله، والتوافق بين ما يشعر به من مشاعر وقيم وبين ما يخترعه من أسباب تُرقِّي الحياة مادياً.

هذا التوافق، والتوفيق بين هذه الأمور هو مفتاح سعادة الإنسان.

وبقدر ما يحقق الإنسان من توافق بين مشاعره ووجدانه وبين الأسباب المادية كلما كان محققا للسعادة بصورة أفضل.

لذلك نجد أن الحضارة تأخذ طعما جديدا حينما ننظر لها من خلال المقياس الإسلامي كما سنشرح في هذا الفصل.

المجتمعات نوعين لا ثالث لهما

بعد هذا العنوان يتحدث الأستاذ سيد عن مجتمعين في الحياة البشرية.. هما في الحقيقة يمثلان البشرية بأجمعها، سواء في القديم أو في الحديث.

حيث إنه في الواقع البشري دائما إما أن يكون المجتمع إسلاميا، أو يكون جاهليا. والإسلام لا يعترف إلا بتقسيم البشرية إلى هذين المجتمعين من المجتمعات.. وإن لم يعرفهما الناس في جاهليتهم. فيسمون المجتمعات الجاهلية بالمجتمعات الراقية أو المتحضرة، أو يطلقون عليها أي اسم آخر.

هذه المغالطة شيء، والواقع شيء آخر. فالإسلام حينما ينظر من منظاره.. **"لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات... مجتمع إسلامي، ومجتمع جاهلي..**

"المجتمع الإسلامي" هو المجتمع الذي يُطبق فيه الإسلام.. عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاماً، وخلقاً وسلوكاً.. و"المجتمع الجاهلي" هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه.."

بهذا التعريف الواضح يصبح المجتمع الإسلامي ليس مجرد راية، ولا مجرد شعار، ولا مجرد لافتة، ولا مجرد قانون، ولا مجرد عادة.. إنما هو دائماً مجتمع يعيش بقانون يأتيه من عند الله عز وجل، ويملك جميع جوانب هذا الإنسان وهذا المجتمع، فلا يتخلف نشاط واحد في حياة الإنسان عن هذا الدين، أو عن هذه العقيدة.

فالمجتمع المسلم والمجتمع الجاهلي كلاهما مجتمعان يقومان على تصورين مختلفين. وتنظّمهما شرائع وقوانين، كما قلنا قبل ذلك في حديث عن الجاهلية وعن الإسلام.

المجتمع الجاهلي مؤسسة متكاملة، تغذي حياتها وأفرادها بكل ما يحتاجون إليه من عقيدة وتصور، وعادات وتقاليد، وقانون ونظام، وقيم وموازين، ولكن في الاتجاه المنحرف الذي لا يُرضي الله عز وجل.

أهمية الحزم في تحديد ماهية المجتمع وعدم الانخداع بالشعارات

ويشرح الأستاذ سيد ماهية المجتمع الإسلامي فيقول:

"ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناساً ممن يسمون أنفسهم "مسلمين"، بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام! وليس المجتمع الإسلامي هو الذي يبتدع لنفسه إسلاماً من عند نفسه -غير ما قرره الله سبحانه، وفصله رسوله ﷺ- ويسميه مثلا "الإسلام المتطور"!"

هذا الحزم في التصور، والصلابة في التوصيف، لا بد أن يكون في نفس الدعاة إلى الله، وفي نفس الرواد الذين لا يُخدعون بأشكال ولا بادعاءات ولا بشعارات ترفع، بينما الواقع شيء آخر غير هذه الشعارات.

فسواء كان الناس يظنون أنفسهم على الإسلام، وأنهم مسلمون.. أو يظنون أنهم يحكمون بشريعة الإسلام إلا قليلاً.. فهذا كله لا قيمة له.. لأن المجتمع الإسلامي هو الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاما، وخلقا وسلوكا. فإذا تخلف شيء من هذه الأشياء في حياة هذا المجتمع دل هذا أن ذلك المجتمع قد خرج من الإسلام، وردَّ دين الله عز وجل، سواء في جزئية أو في كلية.

وسواء كانوا يسمونه إسلاما متطورا، أو إسلاما من أي نوع آخر.. فهذا نوع من الالتفاف حول الحقيقة، وليس الحقيقة. فالمجتمع المسلم لا بد أن يُفهم بهذا الحزم في التصور والتوصيف.

(و "المجتمع الجاهلي" قد يتمثل في صور شتى -كلها جاهلية-: قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى، ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جدلياً، ويطبق ما يسميه "الاشتراكية العلمية" نظاماً.

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى، ولكن يجعل له ملكوت السماوات، ويعزله عن ملكوت الأرض، فلا يطبق شريعته في نظام الحياة، ولا يحكِّم قيمه التي جعلها هو قيماً ثابتة في حياة البشر، ويبيح للناس أن يعبدوا الله في البِيَع والكنائس والمساجد، ولكن يحرِّم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض، التي ينص عليها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]).

وإذا كان المجتمع الأول ينكر وجود الله جهلاً بالحقيقة، فإنهم منطقيون مع هذا الجهل الذي يتَّبعونه. لأنهم حينما يعيشون على أهوائهم فهم يعيشون تحت معتقد أنه لا شيء فوقهم. فهم أكثر منطقية من الذين لا ينكرون وجود الله ثم يخالفون هذا الإله في حياتهم.

فإذا كان المجتمع الشيوعي جاهلاً بالحقيقة، فإن حياته منطقية مع هذا الجهل، فهو يرتب على معتقده الجاهل هذا أمورا تسير مع القاعدة التي قام عليها.

أما المجتمعات التي تعلن وتدعي أنها تعرف الله وتؤمن به، ثم لا ترتب على هذه المعرفة والعلم الذي تدعيه حياتها فهي مجتمعات غير منطقية..

فإن علمها هذا علم غير منطقي.

ثم إن ذاك الجهل المنطقي عند الشيوعيين، وهذا العلم المعاكس للمنطق عند من يدعون الإسلام، يمثل -كلاهما- صورة الجاهلية في وضع من الأوضاع.

فسواء كان الناس ينكرون الله ابتداءً. أو كانوا يعترفون بوجود الله ولكنهم يخصصون له جزءاً من الوجود أو جزءاً من الحقيقة، فإنهم في تلك الحالتين يعيشون في جاهلية.. لأن واقعهم يتناقض مع الحقيقة الربانية التي تقرر ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]. ومن ثم فإن هذا المجتمع لا يكون في دين الله عز وجل، حيث إن دين الله يقرر ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].. وبذلك يكون هذا المجتمع الذي يؤمن بوجود الله ولا ينكر ذلك، مجتمعا جاهليا إذا لم يكن الحكم فيه لله، حتى لو ترك الناس يقدمون الشعائر التعبدية لله عز وجل، لأنهم يعزلون الله عن الحكم وينقضون شريعته.

"المجتمع الإسلامي" هو وحده "المجتمع المتحضر"

" "المجتمع الإسلامي" -بصفته تلك- هو وحده "المجتمع المتحضر"، والمجتمعات الجاهلية -بكل صورها المتعددة- مجتمعات متخلفة! ولا بد من إيضاح لهذه الحقيقة الكبيرة."

ثم يقول إنه أعلن مرة عن كتاب له بعنوان "نحو مجتمع إسلامي متحضر" ثم عاد في الإعلان التالي عنه فحذف كلمة "متحضر" واكتفى بأن يكون عنوان الكتاب "نحو مجتمع إسلامي"، ويقول إن هذا التعديل لفت نظر كاتب جزائري -الكاتب هو مالك بن نبي- الذي فسر تراجع الأستاذ سيد، أو حذفه لكلمة "متحضر" على أنه ناشئ من "عملية دفاع نفسية داخلية عن الإسلام"، وأسف لأن هذه العملية غير الواعية -كما يقول مالك بن نبي- تمنع الأستاذ سيد من مواجهة المشكلة على حقيقتها.

وكأن مالك بن نبي يريد القول إن الإسلام يقف في موقف اتهام، ويحتاج إلى أن يدافع عنه. وكأنه لا بد أن يكون في نفوس المسلمين في واقعنا الحاضر إحساس دائم أنهم في حالة دفاع. وأن الأستاذ سيد عندما حذف كلمة "متحضر" قد غفل عن ذلك وكان ينبغي عليه أن يقول ويؤكد لأعداء الإسلام من الجاهلية الأوروبية أن الإسلام متحضر، في حين كان يرى الأستاذ سيد أن كلمة "متحضر" وصف زائد لا ضرورة له بل الضرورة في الإبقاء عليه لأنه يوحي ولو من بعيد أنه يمكن أن يكون ثمة إسلام غير متحضر في حين أن الحقيقة أنه حيث وُجد الإسلام وُجدت الحضارة فهي وصف ملازم غير منفك للإسلام.

وإنما المشكلة -في حقيقتها- هي في الناس المنتسبين للإسلام، وليست في قضية الإسلام ذاته. فحينما يقول الأستاذ سيد "نحو مجتمع إسلامي" فهو يتحدث عن ذلك المجتمع الذي ينبغي أن يقوم على صورة الإسلام الحق الذي جاء من عند الله. أما كون الناس لا يقيمون الإسلام بصورة صحيحة فهذا أمر آخر فهي مشكلة الناس الذين يدّعون الإسلام وليست مشكلة الإسلام ولن تكون هذه المشكلة قائمة يوم يقوم المجتمع المسلم بصورته الصحيحة. ولكن مالك بن نبي تصور أن المشكلة هي أن واقع الإسلام الآن واقع يحتاج إلى أن يدافع عنه.. واقع يحتاج إلى اعتراف بأن هناك مشكلة في حياة المجتمع المسلم.. أو في المجتمعات التي تسمي نفسها مسلمة.

ومالك بن نبي ليس غريبا علينا.. وكتبه كلها فيها الاهتمام بالإسلام والحماسة للإسلام. ولكن من منظور غربي. فهو متأثر كثيرا جدا بالمفاهيم الغربية. ففي كتابه "الإسلام والحضارة" أورد معادلة معينة رآها السبيل لتحقيق الحضارة:

إنسان + تراب + زمن = حضارة

ولم يدخل في هذه المعادلة دين الله عز وجل، ولا هدي السماء. فالإنسان مع التراب مع الزمن سينشئ حضارة. لأن الإبداع الإنساني عند الغرب عبارة عن قوة وتقدم مادي وسيطرة. وهذا ممكن لكل إنسان بغض النظر عن دينه؛ هل هو الإسلام أم غيره.

فمالك بن نبي متأثر بمفهوم الحضارة في الفكر الغربي. وبما أن المسلمين ليسوا أقوياء، وليس عندهم تقدم مادي، وليست هناك سيطرة.. فإذن يصبح هؤلاء متخلفين وغاب عنه أن المشكلة تكمن في هذه المجتمعات التي ترفع الإسلام شعاراً وتتنكر له واقعاً ومن ثم فإنها لا تنال بركة الإسلام ولا يعطيها ثمراته الطيبة.

يقول الأستاذ سيد **"أنا أعذر هذا الكاتب.. لقد كنت مثله من قبل.. كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن.. عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة! وكانت المشكلة عندي -كما هي عنده اليوم- هي مشكلة: "تعريف الحضارة"!"**

ولا شك أن الأستاذ سيد كان قاسيا في تجاهله لمالك.

ولعله كان يتعمد ذلك التجهيل عندما تعمد عدم ذكر اسمه فقال عنه **"كاتب جزائري "يكتب بالفرنسية".."** ثم قال بعد ذلك **"وأنا أعذر هذا الكاتب.."** لعله تعمد ذلك لكي يبرز استعلاءه بالحق الذي يريد أن ينشره ويقرره في مواجهة مالك بن نبي؛ ذلك الرجل الذي كانت له أيضا مكانة عند القارئ العربي..

ثم يقول الأستاذ سيد **"وكانت المشكلة عندي -كما هي عنده اليوم- هي مشكلة: "تعريف الحضارة"!"**

وأنا أقول إن المشكلة عنده ليست في تعريف الحضارة.. بل هي مشكلة "تعريف الإسلام". فلو أنه عرف الإسلام لأدرك معنى الحضارة.

والأستاذ سيد نفسه لم يعرف معنى "الحضارة" إلا بعدما عرف حقيقة الإسلام. فلما فتح الله عليه بهذا المفهوم الصحيح للإسلام عرف من خلاله معنى "الحضارة". ومالك بن نبي لم يصل إلى هذا الأمر، وبالتالي ظل على خطئه؛ سواء في "تعريف الإسلام"، أو في "تعريف الحضارة" كليهما.

الهزيمة في مواجهة الغزو الفكري الأوروبي

يقول الأستاذ سيد **"لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي، وهي رواسب آتيه من مصادر أجنبية.. غريبة على حسي الإسلامي.. وعلى الرغم من اتجاهي الإسلامي الواضح في ذلك الحين، إلا أن هذه الرواسب كانت تغّبش تصوري وتطمسه! كان تصور "الحضارة" -كما هو في الفكر الأوروبي- يخايل لي، ويغبش تصوري، ويحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة."**

وهذا الأمر كان شأن الجيل الذي شهد الهزيمة في مواجهة الغزو الفكري الأوروبي. فحينما استعمرت أوروبا الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي كله حدث مع ذلك الاستعمار تلك الهزيمة التي عاشها ذلك الجيل السابق.. وحيث ظنوا أن الرقي والحضارة هو في ذلك النموذج الأوروبي..

فالهزيمة كانت مريرة جداً على جميع المستويات بالنسبة لذلك الجيل الذي نشأ فيه الأستاذ سيد. وكان أقرانه كلهم على هذا النمط من الهزيمة أمام الوضع في العالم الشرقي حينذاك. فهم كانوا في مأزق حقيقي له ما يفسره، وليس له ما يبرره، والمأزق أن الواقع كان فقيراً؛ سواء في الجانب الديني، أو في الجانب المادي. وكانوا غير مستمسكين بالدين. وكان واقعهم بعيداً بُعداً هائلاً عن التصور الإسلامي الصحيح، وعن الممارسة الإسلامية الصحيحة. وكان التصوف والفِرق والأفكار الكثيرة المنحرفة موجودة، بحيث أنها طمست صورة الإسلام الحقيقي. فكانوا يعانون من تصورات بثتها الصوفية والفِرق الكلامية وصار ما يحسون به تجاه تلك التصورات التي يظنونها الإسلام مشابهة لتلك التي كان يجدها الأوروبي تجاه الكنيسة. وكان المسلم يحس أن الإسلام -بصورته هذه- مُعوِّق للرقي، ومعوق لإحساس الإنسان بالحرية والانفتاح. فكان المأزق الديني موجوداً عندما جاء المستعمر الغربي إلى العالم الإسلامي.

وكذلك الواقع المادي -أيضا- كان متخلفاً.. كان هناك الضعف العلمي والعسكري والمادي.

فعندما جاءت القوات الأوروبية تحمل القوة العسكرية مع العلم المادي مع الفخامة في التحضر المادي، وجد أهل ذلك الجيل نفسه في مأزق. ولم يجدوا مناصا من أن يحاولوا أن يتبنوا النموذج الأوروبي والنمط الأوروبي، وهو ما عبر عنه طه حسين بقوله: إننا ينبغي أن نأخذ الحضارة الأوروبية بكل ما فيها، بحلوها ومرّها، وخيرها وشرها.

هذا المأزق هو الذي يفسر لنا كيف كان مالك بن نبي، أو طه حسين، أو العقاد، أو كل المشاهير الذين نعلمهم في تاريخ ما يسمى بالنهضة العربية، كانوا كلهم واقعين تحت الإعجاب والانبهار بالنموذج الغربي.

وكذلك -أيضا- كان محمد عبده والأفغاني.. كانوا كلهم خاضعين لهذا النموذج الأوروبي، أو معجبين به. حتى أن محمد عبده يقول: ذهبت إلى أوروبا فوجدت إسلاما بلا مسلمين، وجئت إلى هنا فوجدت مسلمين بلا إسلام.

ولا شك أنه مغالط في هذا تماما. فلم يكن ذاك الذي شاهده في أوربا إسلاماً.. ولكنه تصور أن التقدم المادي، والحرية في التعبير، والديمقراطية.. تصور أن هذا هو الإسلام.. ونسي أن الإسلام شيء آخر؛ وهو أن يكون الناس عبيدا لله، وليسوا عبيدا لأنفسهم كما كانت أوروبا ترى، حتى أنها أعلنت موت الإله!!

ولكن محمد عبده -لأنه كان مهزوما هزيمة منكرة بشعة- تصور أن أوروبا بهذا التقدم المادي وهذه الحرية والديمقراطية قد حققت الإسلام.. وإن كانوا غير مسلمين. بينما الذي غاب عن الشرق هو الإسلام، وإن بقي الناس مسلمين. وهي مغالطة أخرى.. فكيف لا يكون هناك إسلام ثم يكون الناس بعد ذلك مسلمين؟ فهي مغالطة كبيرة، ليست بعيدة عن منهج محمد عبده.. الإمام الأعظم! كما يسمونه.

ثم يقول الأستاذ سيد **"ثم انجلت الصورة.. "المجتمع المسلم" هو "المجتمع المتحضر". فكلمة "المتحضر" إذن لغو، لا يضيف شيئاً جديداً.. على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حس القارئ تلك الظلال الأجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوري، وتحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة! الاختلاف إذن على "تعريف الحضارة".. ولا بد من إيضاح إذن لهذه الحقيقة!"**

ونحن نستطيع أن نلخص التوضيح لهذه الحقيقة تحت عنوان "مقومات الحضارة" كما يراها الإسلام. وكما قلت إننا سنكتشف أن الحديث عن الحضارة هو الحديث عن الإسلام، لكي يتأكد لدينا العنوان الرائع لهذا الفصل "الإسلام هو الحضارة".

"مقومات الحضارة" من منظور الإسلام

المقوم الأول: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله

أول مقوم من مقومات الحضارة هو "التحرر". ويأتي التحرر هنا بمعنى تحرير الإنسان من العبودية لغير الله عز وجل.

"حين تكون الحاكمية العليا في مجتمع لله وحده -متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية- تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر.. وتكون هذه هي "الحضارة الإنسانية" لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع.. ولا حرية -في الحقيقة- ولا كرامة للإنسان -ممثلاً في كل فرد من أفراده- في مجتمع بعضه أرباب يشرعون، وبعضه عبيد يطيعون!"

فالعبودية لغير الله ذل وسجن للإنسان. فحينما يتوجه الناس جميعا بالعبادة لله عز وجل وحده، وحينما يخضعون لشريعته وحدها، فهم إذن خاضعون لمن يستحق الخضوع، ولمن هو جدير بهذا الخضوع. لأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يملكهم.. فضلا عن أن الله هو الذات التي ليس كمثلها شيء، والذي يستحق من خلق الله كلهم، ومن الوجود كله، أن يخضع له سبحانه، وهم حين يخضعون له لا يشعر واحد منهم أنه ذليل، أو أنه غير متحرر. فالتحرر الحقيقي هو أن يتخلص الإنسان من كل خضوع وذل لغير الله، وأن يخضع لله وحده، ويحس حينما يخضع لله أن كرامته الإنسانية متوفرة، وأن سعادته أيضا متوفرة.

والعجب ممن يقولون إن الإيمان بالله والخضوع لله هو ذل وقيد وعدم تحرر، وإن الإنسان حينما يرفض الخضوع لله يكون متحرراً من كل سيطرة عليه! في حين نجدهم حينما خرجوا عن عبوديتهم لله خضعوا لمعبودات شتى؛ وأولها الإنسان. خضع الناس بعضهم لبعض، وتحكمت فيهم الطواغيت.. تجد فردا واحدا يمكن أن يتحكم في الأرض كلها كما نرى الآن من محاولة الولايات المتحدة أن تكون هي صاحبة السلطة الوحيدة التي تقرر في شأن الشعوب وشأن الدول، بل في شأن الحكام ما تريده.. فهي تقرر ما تشاء، وتنفذ ما تشاء.. والذي لا يعجبه عليه أن يتلقى عقابه.. ونجدها تغير الحكام وتختطفهم

وتحاكمهم، وتدخل بجيوشها لتغير الأمور كما تريد.. فكأن فردا واحدا في البيت الأبيض يتحكم في شعوب العالم كلها، ولا يستطيع أحد أن يعترض.

فالناس حينما زين لهم الشيطان أن يتحرروا من سلطان الله لم يتحرروا في الحقيقة، وإنما أصبحوا أذلاء وخاضعين لكل شيء.

وهم في جميع المجالات يخضعون لآلهة متعددة.. فهم حينما خرجوا من عبادة الله وحده، ومن الخضوع لله وحده، وقعوا في ألوان شتى من العبودية فهم يخضعون للحكام في الجانب السياسي، ويخضعون للاقتصاد ووزراء الاقتصاد في الجوانب المادية، ويخضعون للفنون ولأهل الفن في أمور الفن.. وهكذا نجدهم دخلوا في عبوديات شتى لآلهة شتى متعددة تخضعهم لها، ولا يخضعون لإله واحد.

فهم في الحقيقة لم يحققوا الهدف الذي زعموه حينما خرجوا من عبوديتهم لله ومن خضوعهم للدين، بل خرجوا إلى فوضى في العبادة، فعبدوا آلهة شتى، ولم يستطيعوا أن يخرجوا من هذه العبودية المذلة.

يقول **"ولا بد أن نبادر فنبين أن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية -كما هو المفهوم الضيق في الأذهان اليوم لكلمة الشريعة- فالتصورات والمناهج، والقيم والموازين، والعادات والتقاليد.. كلها تشريع يخضع الأفراد لضغطه. وحين يصنع الناس -بعضهم لبعض- هذه الضغوط، ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع، لا يكون هذا المجتمع متحرراً، إنما هو مجتمع بعضه أرباب وبعضه عبيد -كما أسلفنا- وهو -من ثم- مجتمع متخلف.. أو بالمصطلح الإسلامي "مجتمع جاهلي"!"**

والشرع الإلهي هو كل ما جاء من عند الله عز وجل، سواء في قضية الاعتقاد، أو العادات والتقاليد، أو الأحكام والشرائع، أو المشاعر.. كلها شرع الله عز وجل.. ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾ [الشورى: ١٣].. شرع كل شيء في حياة الإنسان.

ولا شك أن الذين يخرجون عن ألوهية الله، ويعبدون آلهة شتى.. يخضعون لهذه الآلهة في كل شيء. فالجاهلية تضع للناس قيما وأخلاقا، وليس فقط قوانين تحكم حياتهم المدنية والاقتصادية والجنائية.. وإنما تضع لهم قيما. فيصبح التحرر من كل الأخلاق قيمة.. ويصبح الزنا، والتحرش الجنسي، والملكية الفردية التي لا قيود عليها، والتنافس غير الشريف قيماً تصنعها الجاهلية ليخضع لها الأفراد.

تضع لهم أيضا موضات في كل شيء: في المأكل.. في الملبس.. في تسريحة الشعر.. في لبس الأحذية.. وفي كل شيء نجد الجاهلية تتدخل..

لذلك فإنه عندما يخرج الإنسان من عبوديته لله يجد نفسه في بحر هائج من الموضات ومن الأخلاقيات ومن القيم. ونجد أن الإنسان مضطر أن يخضع لها طالما لم يحرر نفسه من العبودية لهذه الآلهة..

تضع لهم آداب: أن ينحني الرجل للمرأة ويقبل يدها و ladies first..

كل هذه آداب لا بد أن يصنعوها وإلا يكونون موضع ازدراء..

تفرض عليهم أن يشربوا الخمر.. أن يراقص بعضهم بعضا.. ألا يرقص رجل إلا إذا تقدمت له امرأة تطلبه لكي يرقص معها، ولا يجوز له أن يرفض إذا كان "جنتلمان"..

تفرض عليهم تقاليد بصورة معينة في الجنائز والأفراح، كما نرى الآن أن التقاليد الأوروبية تصل إلينا هنا في عقر دارنا.. وفي الأفراح الآن لا بد أن يرقص العريس مع العروس أمام المدعوين.. ولا بد أن يسقيها نخب الفرح، وتسقيه كذلك.. ويقبلها وتقبله أمام المدعوين..

كل هذه تقاليد صنعوها لهم فاتبعوها، لأنهم قد اتخذوا آلهة غير الله عز وجل.

وتصنع لهم الجاهلية أهدافاً.. سواء للسيطرة السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية، أنماط الاقتصاد، أنماط اللهو والتسلية، أشكال الاستهلاك، وتعرض القنوات التلفزيونية أفلاما معينة، وتنشر قصصاً معينة، وأشعاراً معينة.. تفرضها علينا أجهزة الفيديو والإنترنت..

كل هذه تصنعها الجاهلية.. لأنها مؤسسة متكاملة. فليست الجاهلية مجرد أن نأخذ أحكاما من أوروبا فيما يخص الاقتصاد والسياسة. وإنما تتدخل الجاهلية في أهدافنا.. وبالتالي يحدث الاستعمار، يحدث أن تطغى أمة على أمة، ويطغى شعب على شعب.. لمجرد أن يصنع منه سوقاً لبضائعه أو يسرق خاماته.

أصبح هناك أهداف غير الأهداف التي شرعها الله عز وجل.

وكذلك الوسائل، فوسائل الجاهلية مرنة جدا، لا تتمسك بقيم أو أخلاق. وعندهم الغاية تبرر الوسيلة. بل يرفعون الوسائل الخسيسة إلى أن تصبح وسائل مقدسة. كما يرفعون من شأن المخادنة والزنا، وتصبح المومس الزانية هي التي تسقط زعيما سياسيا، أو تحرر شعبا من الأغلال لتصبح قديسة.

فالشريعة ليست هي القانون والأحكام التي تنظم الحياة الجنائية أو الاقتصادية أو المدنية فقط..

إنما الشريعة هي كل ما يُشرَّع لكي يحكم حياة الناس ويصرفها ويلوّنها.

فالله عز وجل له شرعه الذي يلون حياة الناس، ويجعلهم متماشيين مع عبوديتهم لله.

والجاهلية أيضا تضع شرعا تُخضع الناس له، وتلون حياتهم -كما قلنا- وأهدافهم وتقاليدهم وآدابهم وفنونهم وأخلاقهم وقيمهم كي تتمشى مع شرعها. ومن ثم فإن حرص الإسلام على مخالفة الجاهلية في كل شيء يصبح دينا، ولا يصبح مجرد عادة أو تقليد، أو مجرد شيء كمالي، لأن التقليد في الكلمة أو التسريحة أو الملبس أو العادة هو في الحقيقة تسرب لدين الجاهلية إلى قلوبنا، أحسسنا أم لم نحس. وهذا معروف في الواقع الإنساني، وفي الفلسفة الاجتماعية الإنسانية.. فإذا غيرت زي إنسان سيتغير عقله وتفكيره، لأنه لا بد أن يتواءم مع الزي الجديد.

فالجاهلية الأوروبية تعرف حقيقة الإنسان وطبيعته. ومن ثم حرصت الجاهلية الأوروبية في استعمارها للبلاد الإسلامية على تغيير العادات والتقاليد والزي، لأنه لو ظل المسلمون ملتزمين بأزيائهم وطريقتهم في الكلام وتعاملاتهم مع المرأة سيظل التأثير الأوروبي قليلاً وليس فعّالاً.

لا بد أن يتغيروا.. ولذلك كانوا يصنعون رُواداً من أتباعهم.. أول امرأة تلبس الملبس الإفرنجي.. أول رجل يلبس القبعة..، تبديل تعبيرات اللغة العربية.. مثلاً thank you بدلا من شكرا لك، يقول عن القهوة café وعلى الشاي tea لكي يتلون من الداخل، لأن الإنسان لا يصنع ذلك إلا إذا كان معجباً.. لا يغير كلمة مكان كلمة ولا سلوك مكان سلوك إلا إذا كان قد أعجب بالسلوك الجديد واستهان بالسلوك القديم.. عندما نغير كلمة "السلام عليكم" إلى "مساء الخير" معناه أنك ترى "مساء الخير" أفضل. وهكذا كان الاستعمار حريصا أن يغير العقلية الإسلامية بتغيير الزي والأشكال والعادات. ولذلك يجب أن نحرص مع أنفسنا على أن نحررها من هذا بقدر الإمكان، بحيث إذا لم نستطع أن نرجع إلى زينا في القديم فلا أقل من أن نتباطأ في كل تغيير للموضة، وخاصة إذا كان تغييرا يتلامس مع بعض مشاعرنا أو مقاييسنا. لا يجوز أن نلبس بنطلونا ضيقا يظهر العورة من الإمام أو الخلف، لأننا نرفض هذه الموضة.. لا يجوز أن نلبس قميصا مرسوم عليه رسومات لا تليق برجل أن يلبسه.. لا يجوز أن نسرح تسريحة تجعلنا في طابور المعجبين بممثل خليع أو ممثلة.

لا بد أن نحرص في تربيتنا لأولادنا بأن نقلل بقدر الإمكان من ملاحقة الموضة التي نرى أنها ستشكل -دون وعي من الأولاد ودون وعي منا- عقولهم ومشاعرهم وتصوراتهم.

والأستاذ سيد يقول إن التشريع لا ينحصر فقط في الأحكام القانونية كما هو في المفهوم الضيق عن الشريعة، ولكن هو تصورات ومناهج وقيم وموازين وعادات وتقاليد يضغطون بها على الناس ليتغيروا، فيشرع البعض ليتلقى البعض الآخر، ويصبح البعض أربابا والآخر عبيدا، والمجتمع الذي يقبل ذلك يكون مجتمعا متخلفا.

"والمجتمع الإسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل، الذي ترتكز إليه حضارة الإنسان، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له، وهو يعلن خلافته في الأرض عنه، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الأعلى..."

ففي المجتمع المسلم الذي يدين فيه الكل لإله واحد، يتلقون منه العقيدة والشرائع والشعائر والتقاليد، فلا يصنعها إنسان لإنسان، وإنما يصنعها الله للبشر جميعا.. يكونون جميعا في مقام العبودية، ويتحررون من أن يخضع بعضهم لبعض.

وهذا هو المقوم الأول من مقومات الحضارة؛ التحرر من العبودية لغير الله، وهو كما نرى المقوم الأول من مقومات الإسلام.

فالإسلام هو أن يكون الناس عبيدا لله وحده، وأن يتحرروا من العبادة لغير الله؛ وهذا يعني تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

المقوم الثاني: تحقيق وإعلاء الخصائص التي تميز الإنسان

"وحين تكون آصرة التجمع الأساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة، ويكون هذا كله صادراً من إله واحد، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر، وليس صادراً من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر.. يكون ذلك التجمع ممثلاً لأعلى ما في "الإنسان" من خصائص.. خصائص الروح والفكر.."

فالمقوم الثاني هو تحقيق وإعلاء الخصائص التي تميز الإنسان عن بقية المخلوقات الأرضية، وعن بقية الحيوانات.

فحينما تكون آصرة التجمع هي الجنس أو اللون أو الأرض أو غيرها من الروابط التي لا تمثل الخصائص العليا في الإنسان فإن المجتمع التي آصرة التجمع فيه واحدة من تلكم الأواصر يكون مجتمعاً غير متحضر وذلك لأن تلك الروابط ليست هي الخصائص التي تميز الإنسان بل هي روابط قسريه لم يخترها الإنسان.. فالإنسان يستطيع أن يغير فكره وعقيدته، بينما لا يستطيع أن يغير تلك الروابط الأخرى من لون أو أرض أو جنس أو قوم.

فهذه الروابط هي روابط الحيوان. فالحيوان مرتبط بالأرض التي يعيش فيها، ومرتبط بالوظيفة التي يؤديها، وبالغذاء الذي يأكله..

والإنسان يستطيع أن يعيش إنساناً إذا كان يملك القدرة على تغيير عقيدته وفكره. ويستطيع أن يعيش إنسانا إذا كان حرا في الاختيار في هذه الأمور.

أما إن كان مستعبدا لروابط لا يستطيع أن يغيرها فهو لن يكون حرا، وإنما يطمس بذلك خصائصه العليا من أجل خصائصه السفلى الأخرى.

فمهمة الحضارة هي إعلاء الخصائص العليا في الإنسان؛ وهي خصائص الروح والفكر. لا أن تحكم فيه الخصائص الأخرى التي هي روابط جاهلية وحيوانية، تجعل الإنسان عبداً وغير مترفعاً، ولا تحرك فيه نوازعه العليا إلى العقيدة وإلى العبادة.

ولا شك أن الروابط الاختيارية غير القاهرة هي التي تميز الإنسان المتحضر عن الإنسان المتخلف -أو غير المتحضر-.. ومن ثم كان من أساس الحضارة الإسلامية هو إعلاء الخصائص العليا في الإنسان، وعدم تقييده بالخصائص الأخرى التي تقيده.

ولا شك أن هذه نقطة مهمة في حياة الإنسان المسلم، تغيره، وتجعله متميزا عن بقية المجتمعات الأخرى.

والمأزق الحضاري الذي تعيشه البشرية اليوم هو أنها تبعد عن خصائص الروح والفكر، وتعلي خصائص الجسد والغريزة. وبذلك يظل الإنسان في سجن حقيقي. لأن الإنسان بهذا الشكل يدفن خصائصه العليا من أجل خصائصه الدنيا. وهذا هو المأزق الذي تقود الجاهليةُ في عمومها الإنسانَ إليه، وهو المأزق الشيطاني الذي توعد به الشيطان الإنسان عندما أخرجه الله من الجنة.. فقال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

هذه الغواية هي التي تقوم بها الجاهليات دائما حينما تسحب الإنسان من خصائصه العليا لتمرغه في وحل خصائصه السفلى التي أراد الله له أن يرتفع عنها.

"والمجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الأرض في أمة واحدة، ربها الله، وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم، ولم يشرعه أحد من العباد!"

وحينما نتحدث عن الروابط الاختيارية والروابط القاهرة في حياة الإنسان فإن هذا يلفتنا إلى ما تعانيه البشرية الآن مما هي مقبلة عليه من غَل إرادة الإنسان..

المأزق الحضاري الذي تتعرض له البشرية في هذا العصر، والذي ستظهر آثاره جلية في القريب العاجل هو شل إرادة الإنسان، بحيث يصبح الإنسان غير قادر على الهروب من الضغوط القاهرة التي تضغط عليه.

فالثورة البيولوجية التي بدأت في أمر الجينات، وتغيير صفات الإنسان الرئيسية، وعمليات الاستنساخ التي يسعون إليها، والتي يريدون من خلالها أن يغيروا الجينات في الجنين لكي يخرجوا المخلوق الإنساني بصورة معينة كما يشتهون.. هذه الثورة البيولوجية ستحدث حالة من الفوضى الرهيبة جدا في حياة الإنسان، بحيث يمكن أن يحدث نوع من التيه بالنسبة للإنسان في هذا الخضم من التحكمات في حياة البشر.

وهناك أيضا ثورة الاتصالات التي ستؤدي إلى إلغاء الخصوصية الفردية.. فقد أصبح كل شيء يمكن التجسس عليه، بحيث لا يصبح عند الإنسان قدرة على الاحتفاظ بأسراره الخاصة.

وهذا الصراع الهائل بين القوى الظالمة للسيطرة على العالم؛ سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية، سيجعل هذا الإنسان الضعيف لعبة في يد هذه القوى.

فهذه الأمور؛ من الثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، والقهر السياسي والاقتصادي والعسكري للشعوب سيؤدي إلى إلغاء الإرادة الإنسانية.. هذا الإلغاء الذي يتناقض ويتنافى مع مسؤولية الإنسان في الأرض.

فإذا كان الله قد خلق الإنسان ليكون قادرا على اختيار الطريق، واختيار الوسائل والأهداف، ليصل إلى الأصلح إذا أراد.. فإن هذه الأمور التي تمثل المأزق الحضاري الذي تعانيه البشرية المعاصرة تشل قدرة الإنسان على التحكم في نفسه. فيمكن جدا أن يصلوا في ثورة الاتصالات والكمبيوتر والانترنت إلى أن تصبح كل الأشياء القذرة معروضة في الشوارع والحواري، ومعروضة في أجهزة دقيقة جدا، يمكن للولد أو البنت أن يضعها في جيبه بحيث تصبح تسليته التي تحيل حياته إلى ماخور قذر باستمرار.. فيسحبوا منه كرامته الإنسانية، بحيث لا تستطيع أن تربي أولادك، ولا يستطيع أي طفل أو أي شاب إلا أن يسمم منذ سنواته الأولى. وهذا ليس أمراً متوقعاً إنما هو أمر واقع وما الهواتف الذكية اليوم إلا تجسيد لما قلناه والأيام القادمة حبالى بكل عجيبة وداهية تمحق الخلق والفضيلة... تئد إنسانية الإنسان، وتعلي حيوانيته.

ولا شك أن هذا يبطل القدرة الإنسانية على التحكم في الأمور المختلفة. وهذا كله لا شك مأزق حضاري يجعلنا نميل إلى أنه لا بد أن يكون هناك تدخل ربانيٌ وقدريٌ ليصحح هذه المعادلة، ويكف أيدي الأشرار عن السيطرة على الإنسان، أو إنهاء الحياة البشرية لكي يذهب كل إنسان إلى نهايته المرتقبة من خلال عمله.

فإذا فقد الإنسان إرادته، أو غُلّت هذه الإرادة، فإنه لن يصبح للوجود الإنساني معنى في هذه الأرض. وهذا من ضمن المؤشرات التي تجعلنا نميل إلى أنه خلال الفترة القادمة لا بد أن يكون هناك تدخل رباني قدري يصحح المعادلة، ويعيد للإنسان وجوده وإرادته، ومن ثم مسؤوليته واستحقاقه للمحاسبة. وإلا فإن الوجود الإنساني تحت هذه الضغوط الهائلة لن يكون له معنى على الإطلاق.

فالجاهلية تحاول أن ترفع من قدر الخصائص القهرية، وتقلل من الخصائص الاختيارية، ليصبح الإنسان في قبضتها تماما، ويكون هذا مصداقا لوعيد الشيطان ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]، ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].. فغل الإرادة الإنسانية هو مطلب للشيطان، لكي يقود الإنسان كالأعمى إلى حتفه. فالوسائل المعاصرة، والتي ستحدث، هي وسائل تعين الشيطان، أو هي من عمل الشيطان وإيحائه ووسوسته، لكي يتحكم في الإنسان تحكما كاملا لشل إرادته، ويصبح الإنسان غير قادر على أن يختار، ومن ثم تنمحي إرادته التي هي أولى خصائصه الإنسانية.

ولا شك أن الإسلام حينما يحرص على إعلاء خصائص الروح والفكر يميز إرادة الإنسان.

ولا شك أن عمل الإنسان في الأرض باختياره عمل حضاري. يجعل الإسلام هو الحضارة. والمجتمع المسلم هو المجتمع المتحضر. بينما هذه المجتمعات الجاهلية، وخاصة هذه الجاهلية التي نعيشها الآن، والتي تمثل قمة التقدم المادي، تمثل أيضا أحط دركات التخلف البشري.

المقوم الثالث: مقاييس التكريم للإنسان

المقوم الثالث: يكمن في مقاييس التكريم للإنسان.. ما هي مقاييس التكريم؟ هل هي تلك المقاييس التي صنعتها الجاهلية؟ أم هي المقاييس التي أرادها الله للإنسان؟ وكيف أن هذه المقاييس الجاهلية هي في حقيقة الأمر مقاييس متخلفة، تحول الإنسان إلى حيوان، أو أقل من حيوان. بينما المقاييس الإسلامية ترفع الإنسان إلى ما فوق الملائكة.. ومن ثَمّ يصبح الإسلام هو الحضارة بالمفهوم الإسلامي الدقيق لمعنى الحضارة.

يقول الأستاذ سيد **"وحين تكون "إنسانية" الإنسان هي القيمة العليا في مجتمع، وتكون الخصائص "الإنسانية" فيه هي موضع التكريم والاعتبار، يكون هذا المجتمع متحضراً.. فأما حين تكون "المادة" -في أية صورة- هي القيمة العليا.. سواء في صورة "النظرية" كما في التفسير الماركسي للتاريخ! أو في صور "الإنتاج المادي" كما**

في أمريكا وأوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص والإنسانية.. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً.. أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعاً جاهلياً!"

وليس ذلك لأن الإسلام يحتقر المادة؛ لا في صورة النظرية، ولا في صورة الإنتاج المادي، ولا في أي صورة أخرى..

فالإسلام لا يحتقر المادة، وإنما يوجهها ويوجه التعامل معها. ولا يحتقر الإنتاج المادي، وإنما يعتبره أحد أهداف الإنسان في الأرض؛ وهي عمارة الأرض ورقيها، والتعامل مع نواميسها، وتسخيرها من أجل تسهيل الحياة وترقيتها. وهو لا يحْرِم الإنسان أيضا من قدر كبير من الحرية؛ بأن يختار طريقه الذي يريد، ولكنه يضع لهذه الحرية حدودا ومقومات.

فالإسلام إذن -كمجتمع متحضر- يعطي هذه الأمور صورتها الرفيعة. بينما هذه الجاهلية تجعل الكيان الإنساني، أو الخصائص الإنسانية، تقهر أو تذوب من أجل المادة، أو الإنتاج المادي، أو من أجل إحساس الإنسان بالحرية -بمفهومها الجاهلي- والتي هي عين التخلف والشرود. فالمجتمع الإسلامي إذن مجتمع متحضر، لأنه يُعلي من خصائص الإنسان ومقوماته. بينما المجتمعات الجاهلية تهدر القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة في الإنتاج المادي.

المقوم الرابع: مفهوم الأخلاق في الإسلام

يقول: **"وحين تكون "القيم الإنسانية" و "الأخلاق الإنسانية" التي تقوم عليها، هي السائدة في مجتمع، يكون هذا المجتمع متحضراً. والقيم الإنسانية والأخلاق الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيماً "متطورة" متغيرة متبدلة، لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ، وكما تزعم "الاشتراكية العلمية"!**

إنها القيم والأخلاق التي تنمِّي في الإنسان خصائص الإنسان التي يتفرد بها دون الحيوان، والتي تُغَلِّب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزله عن الحيوان، وليست هي القيم والأخلاق التي تنمِّي فيه وتُغَلِّب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان."

خصائص الإنسان التي يتفرد بها دون الحيوان كالعقل والحرية والعدالة والاختيار والنظافة والمروءة والإرادة هي جوانب عليا رفيعة في الإنسان، يحرص الإسلام أن ينميها فيه. فالقيم والأخلاق في الإسلام هي التي تنمي في الإنسان تلك الخصائص التي ينفرد بها دون الحيوان، والتي تغلب فيه ذلك الجانب الذي يميزه ويرفعه عن الحيوان.. أما الجاهلية فهي تحرص على القيم والأخلاق التي تنمي وتغلب في الإنسان الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان؛ كالجنس والطعام والشراب والدفاع عن النفس وحب البروز..

وهذه كلها أخلاق يشترك الإنسان فيها مع الحيوان.

والجاهلية تنمي هذه الأمور؛ تنمي فيه الغريزة الجنسية، والشراهة في الطعام والشراب، والرغبة في الاعتداء، والأنانية، وحب التملك والسيطرة، وإهدار حقوق الآخرين، وأكل عرقهم وجهدهم، وتنمي فيه كل الخصائص التي تجعله حيوانا أكثر افتراسا ووحشية من الحيوان.

بينما الإسلام ينمي فيه تلك الخصائص العليا؛ من العقل، والاختيار، والحرية، والنظافة، والعدالة، والمروءة، والإرادة.. بل في الحقيقة نجد أن الجوانب التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان قد تدخّل فيها الإسلام تدخلا رائعا، وجعلها أخلاقا إنسانية، يمارس بها الإنسان تلك الجوانب المشتركة مع الحيوان بصفتها الإنسانية، وليس بصورتها الحيوانية. فالطعام بالنسبة للإنسان المسلم يصبح في مجال الاختيار، يختار فيه الحلال ويترك الحرام، ويصنع لهذا الطعام آدابا؛ كيف يأكل، كيف يشرب، كيف يسمي الله عز وجل قبل الأكل، كيف يأكل بيده اليمنى، كيف يحمد الله على طعامه...

ويضع لها فضائل وآداباً، بحيث لا يأكل وحده، ولا يحرم منه المسكين، ويذكر اسم الله عليه..

وهو -أيضا- له إرادة في أمر طعامه وشرابه، فلا تكون استجابته لهذا الدافع الغريزي كالحيوان، كلما جاع أكل، أو كلما اشتهى استجاب.. وإنما عنده إرادة تجعل تعامله مع الطعام تعاملا إراديا، يختار الوقت والصنف والطريقة.

وهو -أيضا- إنسان يصنع طعامه، بحيث يخترع أصنافا عديدة جدا من الطعام، لكيلا يأكل الشيء الخام.. حتى لو كانت فاكهة يتدخل في تجميلها وتنظيفها ووضعها في أطباق..

فلا شيء في حياة الإنسان يؤخذ كما يأخذه الحيوان. هذا فضلاً عن المجال الواسع الذي يختار الإنسان فيه طعامه.. ليس حيوانا من آكلي اللحوم، أو من آكلي الحشائش، أو من آكلي الحشرات، أو مصاصي الدماء.. إنما هو إنسان، يستطيع أن يأكل أشياء كثيرة جدا، ويختار كما يشاء.

فحتى هذه الجوانب التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوان نجد الإسلام يعلمه كي يحولها إلى ممارسات إنسانية رفيعة، تنسي الإنسان بعد قليل أنه مشترك فيها مع الحيوان.

فلا شك أن الأخلاق في الإسلام هي القيم التي تُنمي في الإنسان خصائص الإنسان العليا التي يتفرد بها عن الحيوان.

"وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم "وثابت" لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحاولها "التطوريون"! و "الاشتراكيون العلميون"!"

فالجاهلية تريد أن تجعل هذه الأخلاق متغيرة غير ثابتة، وإنما تتغير مع رغبة الإنسان، ومع مراحل تطوره المادية، ومع اتفاقات الإنسان واختياراته.. بينما الإسلام يرى أنها قيم وأخلاق ثابتة.

"عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعُرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية.."

هناك في الفكر الجاهلي نظريات:

إحداها: النظرية الحتمية التي تعتبر أن البيئة هي التي تخلق الإنسان، أو هي التي تشكله. فكل إنسان في بيئة هو ابن بيئته، بحيث أن سكان الجبال لهم أخلاق معينة، غير أخلاق سكان الريف، غير سكان المدن.. وهكذا.

فهذه النظرية تجعل البيئة هي التي تتحكم في الأخلاق والعادات والتقاليد، وكأن الإنسان هو عبد للبيئة، ليست له إرادة مستقلة يختار بها بين الأمور..، أو يبتكر شيئا آخر غير ما هو محكوم به.

وهناك نظرية أخرى مخالفة لها تماما، وهي الإمكانية، والتي تعتبر أن الإنسان هو الذي يتحكم في كل شيء، وهو الذي يستطيع أن يغير، وأنه ليس محكوما بأي شيء، ولا يستطيع أحد أن يتحكم فيه.

وكلا النظريتان بطبيعة الحال مغرقة في الخطأ، لأن الإنسان مؤثر ومتأثر، وهو يستطيع بصورة كبيرة أن يتغلب على كثير من العقبات، ولكن تظل للبيئة أو للنشأة الأولى آثارها وبصماتها عليه، لكنه في النهاية هو سيد نفسه، قادر على أن يستبقي من هذه الآثار ما يعتقد أنه صالح، وأن يرفض الباقي، ويستطيع أن يجلب من أي مكان إضافات إلى نفسه، ويستطيع أن يبتكر شيئا آخر يحوله ويجعله مكسباً جديداً.

فالإنسان ليس عبدا للبيئة، ولا عبدا لشهواته وأهوائه. ولكن الله سبحانه خلقه ليكون قادرا على الاختيار. وأعطاه العقل والإرادة ليكون قادرا على تنفيذ ما يريد بإذن الله وبعد مشيئة الله عز وجل.

فالغربيون يحلو لهم كثيرا أن يمارسوا هذه الأفكار، ويعتبرونها نظريات يتحمسون لها. ويظلون يتأرجحون من النقيض إلى النقيض، ولا يقفون عند الحقيقة على الإطلاق.

ثم جاء الفكر الشيوعي ليقول إن هناك أخلاقا زراعية، وأخلاقا صناعية، وأخلاقا رعوية، وأن تغير وسيلة الإنتاج يؤدي إلى تغير الأخلاق وتغير الأفكار وتغير الأزياء.. وكأن الإنسان دائما هو سجين البيئة وسجين التغيرات والتصورات، وأنه خال -من ثم- من المسؤولية، فهو غير مسئول بل ليس عنده قدرة حتى يكون مسؤولاً.

ولا شك أن هذا التصور يتمشى في عمومه مع التصور الجاهلي، ومع التصور المادي بصورة خاصة، حيث إنه يريد للإنسان أن يكون عبدا لهؤلاء المنظرين الذين يسوقونه كالحيوان لكي يكون عبدا للجنس أو عبدا للرغبات. ومن ثم يكون عبدا للطواغيت الذين يتحكمون فيه.

هذه التصورات كلها تصورات غير صحيحة.

"عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية، إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت.. عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق "زراعية" وأخرى "صناعية"! ولا قيم وأخلاق "رأسمالية" وأخرى "اشتراكية"، ولا قيم وأخلاق "برجوازية" وأخرى "صعلوكية"! ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة.. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية.. إنما تكون هناك -من وراء ذلك كله- قيم

وأخلاق "إنسانية" وقيم وأخلاق "حيوانية" -إذا صح هذا التعبير!- أو بالمصطلح الإسلامي: قيم وأخلاق "إسلامية" وقيم وأخلاق "جاهلية"."

ونحن نعرف أن الذين يقولون إن البيئة أو المرحلة الاقتصادية هي التي تضع الأخلاق أو القيم يستطيعون أن يقنعوا الناس من خلال الممارسات الجاهلية أن ما يقولونه إلى حد ما صحيح.

فالمرأة في الريف، وفي المرحلة الزراعية تكون أكثر عفافا ونظافة، ويكون الرجل أكثر وجودا وحضورا، وبذلك تصبح الأسرة ذات قيمة في المجتمع الريفي والزراعي، لأن الأسرة كلها تتكاتف لأداء هذا العمل بصورة متخصصة بتفريق التخصصات على الأسرة.

فعفة المرأة كانت تمثل قيمة يحرص عليها المجتمع الزراعي، ويعتبر هذه العفة من الفضائل المهمة جدا التي يحرص عليها المجتمع، ويغضب من أجل انتهاكها الرجل والأولاد، وتخشى المرأة من أن تفرط فيها لأنها من قيم المجتمع ومقوماته.

وهذه في الحقيقة استجابة الأسرة للفطرة، لأن الأسرة هي صورة فطرية، والأخلاقيات صورة فطرية، وهذه القيم هي صورة فطرية أيضا، يطبقونها في المرحلة الزراعية تطبيقا طبيعيا.

تقول لهم الشيوعية إن الإنسان حينما انتقل إلى المرحلة الصناعية لم يعد هناك داع أن يتحكم الرجل في الأسرة. ولم يعد هناك داع للأسرة، لأن كل فرد فيها يستطيع أن يعمل، ومن ثم تستطيع المرأة أن تتحرر من سيطرة الرجل. فلا تصبح العفة إذن قيمة من القيم العليا في المجتمع الصناعي، لأن المجتمع الصناعي صنع له أخلاقا جديدة، وهي التحرر من السيطرة، وكل إنسان يفعل ما يشاء. وكما أن الرجل في المجتمع الريفي إذا ارتكب خطيئة لا يحاسب كما تحاسب المرأة لأنه هو الرجل وهو المسيطر وهو الذي ينفق ويحمي، فكذلك المرأة في المجتمع الصناعي تحررت من هذا تماما.. وأصبح القانون أن تكون حرة في عفتها كما أن الرجل حر في عفته. فالأخلاق إذن تتغير حسب المرحلة -في زعمهم-.

وهذا الكلام غير صحيح، لأنهم حينما صنعوا ذلك تحول المجتمع الصناعي كله إلى مجتمع ذئاب. وانهارت كل القيم والأخلاقيات.. بل الحضارة نفسها عرضة لأن تنهار كلها نتيجة لهذه التفسخات.

الصناعة لا تتطلب هذه الأخلاق المنفلتة. وإنما الأشرار الذين يقفون وراء التخطيط من اليهود والنصارى هم الذين يقفون وراء هذا الأمر. فلما دفعوا المرأة لدخول مجال العمل في الصناعات الناشئة كي يضربوا بها العمال المضربين احتجاجا على ظروف العمل السيئة والأجور المتدنية، أشاعوا في نفس الوقت هذا المفهوم المنحل لتحرر المرأة من سلطة الرجل لكي يشيعوا الفاحشة بين العمال.

وكان من الممكن جدا أن يظل المجتمع الصناعي وقفا على الرجل، هو الذي يعمل، ويعود إلى بيته كي يربي أسرته، وتكون المرأة في انتظاره لكي تربي أولادها، وهو الذي ينفق ويرعى الأسرة، فلا يتغير شيء من قوامة الرجل؛ سواء كان مزارعا، أو راعيا، أو سياسيا، أو عاملا، أو غير ذلك. ولكن الشياطين الذين هم وراء الستار كانوا هم الذين يشكلون الحياة، ثم يضعون لها

القوانين، فيخدعون الناس بأن هذه القوانين صحيحة وحتمية، لأن الواقع يغذيها، بينما هم الذين صنعوا الواقع بأيديهم، ثم شكلوا له القوانين.

"إن الإسلام يقرر قيمه وأخلاقه هذه "الإنسانية" -أي التي تنمِّي في الإنسان الجوانب التي تفرقه وتميزه عن الحيوان- ويمضي في إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة، وسواء كانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي أو مجتمعات حضرية مستقرة، وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية.. إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية، ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية.. لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني.. فإذا انتكس هذا الخط -مع حضارة المادة- فلن يكون ذلك حضارة! إنما هو "التخلف" أو هو "الجاهلية"!"

في الجاهلية ينتكس هذا الخط، فينحدر من المرتقى الإنساني إلى الدرك الحيواني. فالإسلام يخاطب الإنسان في كل مكان وفي كل زمان وكل بيئة وكل حال من أحواله.. يخاطب أصوله الثابتة التي يستطيع أن يمارسها وأن يخرجها في الواقع أياً كان الوضع الذي يعيشه، لأن هذه أخلاق ثابتة في كينونته لا تتغير مع الواقع. إنما الذي يغيرها هو إرادة الإنسان إذا أراد أن يتسفل أو أراد أن يترقى.

لكن الجاهلية تريد أن تقول إن الإنسان عبد للبيئة وعبد للمجتمع وعبد للظروف، وأنه لا يستطيع أن يتغير، فهي حتميات لا يستطع أن يخرج عنها.

والذي يعيش تحت الحتميات إنسان متخلف. بينما الإنسان الذي يستطيع أن يترقى أو يتسفل حسب اختياره فهو الإنسان الذي يملك الإرادة.

والمجتمع الذي ينمي الأخلاق الإنسانية، ويصعد بها من الدرك الحيواني إلى المرتقى الإنساني يكون مجتمعاً متحضراً. بينما المجتمعات الجاهلية التي تنتكس بالإنسان من أعلى إلى أسفل لا شك أنها تكون مجتمعات متخلفة. وبهذا يكون واضحا أن الحضارة ليست مع دعاوى الجاهلية في شيء.

المقوم الخامس: قضية الأسرة

والإسلام يرى الأسرة أمراً ضرورياً ومهماً كقاعدة للمجتمع.

"وحين تكون "الأسرة" هي قاعدة المجتمع. وتقوم هذه الأسرة على أساس "التخصص" بين الزوجين في العمل. وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الأسرة.. يكون هذا المجتمع متحضراً.. ذلك أن الأسرة على هذا النحو -في ظل المنهج الإسلامي- تكون هي البيئة التي تنشأ وتُنَمَّى فيها القيم والأخلاق "الإنسانية" التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، ممثلة في الجيل الناشئ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الأسرة.."

فالإسلام يرى أن الأسرة هي المأوى الطبيعي للإنسان. والبشرية بدأت تاريخها بهذه الأسرة.. بآدم وحواء، وظلت الأسرة لفترات طويلة تحتل مكاناً مرموقاً ورئيسياً وضرورياً في دولاب الحركة الإنسانية، وفي دولاب الحضارة الإنسانية.

والأسرة تقوم ابتداءً على أساس التخصص في الوظيفة بين الزوجين. لأنها تتوافق مع الفطرة التي خلق منها الرجل والمرأة. وهذا التباين الهائل بين الجنسين في أشياء كثيرة جداً يجعل من المستحيل -كما تريد الجاهليات المعاصرة بالذات- أن تكون هناك مساواة بين الرجل والمرأة في كل شيء.

الأصل ألا يكون هناك مساواة في كل شيء، وإنما يكون هناك تكافؤ وتكامل في الوظائف، بحيث يكون لكل فريق وظيفته، ولكل جنس مهمته التي يؤديها، والتي تتكامل مع الوظيفة التي يؤديها الجنس الآخر.

أما إذا انخرط الرجل والمرأة في أداء وظائف متشابهة فسينمحي هذا التخصص، ويفسد الأداء الوظيفي.

وهذا التخصص مبني على علم الله سبحانه وتعالى بالإنسان، وتظهر لنا حكمته فيما يبدو لنا في واقع الأمر، وفيما تلاحظه البشرية من الاختلاف والتباين بين المرأة والرجل؛ سواء في الصورة الخارجية، أو في المشاعر، أو في الطاقات والقدرات..

فالإسلام يعتبر أن التخصص مهم جداً في حياة الأسرة.. فالرجل يملك القوامة، وعليه واجبات الحماية والإنفاق والتربية والرعاية.

والمرأة تتحمل أعباء الحمل والولادة، والرعاية للأطفال وتنشئتهم، ومعاونتها الزوج، وجعل البيت واحة ظليلة للزوج والأولاد.

والوحدة الأسرية تمثل الوحدة التربوية في المجتمع. كما أنها تمثل أيضاً الوحدة الوجدانية التي تربط العشيرة والقبيلة ومن ثَمّ تربط المجتمع البشري كله بعضه ببعض.

والمنهج الإسلامي يرى أن التخصص مهم جداً في عمل الزوجين لكي يؤديا المهمة الأخرى التي خلق الإنسان من أجلها، والتي من أجلها أيضاً يوجد الأطفال، ويستمر النوع الإنساني في الوجود، وهي رعاية الجيل الناشئ كي يتكون الإنسان الذي يعبد الله عز وجل، ولا يكون ذلك إلا من خلال الأسرة التي تحفظ القيم وتحتضن الأطفال لتربيتهم لكي يكونوا عبيداً لله عز وجل.

فالأسرة إذن ضرورة من ضرورات المجتمع الإنساني، ومن ثم فإن إهدار الأسرة يكون تخلفاً. بينما يكون الحرص عليها هو التحضر.

ومن ثم يكون المجتمع الإسلامي مجتمعاً متحضراً، لأنه يقيم قاعدته الاجتماعية على نظام الأسرة. بينما المجتمعات الجاهلية -وخاصة الجاهلية المعاصرة- تدعو إلى تفكك الأسرة وإلى تحطيمها.

"فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع.. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الأُسرة.. حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة.. وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الأساسية في رعاية

الجيل الجديد، وتُؤْثِر هي -أو يُؤْثِر لها المجتمع- أن تكون مضيفة في فندق أو سفينة أو طائرة! حين تنفق طاقتها في "الإنتاج المادي" و "صناعة الأدوات" ولا تنفقها في "صناعة الإنسانية"! لأن الإنتاج المادي يومئذ أغلى وأعز وأكرم من "الإنتاج الإنساني"، عندئذ يكون هذا هو "التخلف الحضاري" بالقياس الإنساني.. أو تكون هي "الجاهلية" بالمصطلح الإسلامي!"

حين تكون الأسرة مهدرة في أي مجتمع، ويخرج الأطفال مشردين منذ أن يولدوا.. يتنقلون بين أيدي الحاضنات والمربيات. وحينما يرتع الرجل والمرأة كما يشاءان في مراتع الرذيلة. وحينما ينشأ الأطفال على أصداء هذا الهبوط في المجتمع الجاهلي، لا بد أن تحدث النتيجة النهائية من الضياع الذي يحدث في المجتمع الجاهلي والتفلت الذي يحدث في الأسرة والمجتمع كله، والشك الذى يقتل طمأنينة الإنسان، والقسوة التي تؤدى في بعض الأحيان إلى قتل الأطفال أو تركهم يموتون، أو ترك الآباء والأمهات العجائز يموتون من البرد أو تحرقهم المدفئة لأن أحداً لا يرعاهم.

حينما تجتاح الجريمة كل شيء لأن الإنسان يريد أن يمتع نفسه ولو على حساب الأخرين، حينما تنتهك الأعراض في كل مكان بحيث لا تأمن امرأة على نفسها، ولا يأمن رجل على نفسه أو ابنته، حينما يحدث هذا يحدث الشقاء والانحطاط، ويكون هذا المجتمع بالضرورة مجتمعاً متخلفاً، لأنه أدى إلى كل هذه النتائج التي لا تمت من قريب أو بعيد إلى معنى الرقي. بينما نجد التصور الإسلامي والمنهج الإسلامي في رؤيته لهذه المهمة يرقِّي الإنسان، ويضمن رقيه ويضمن سعادته أيضاً، لأنه من صناعة العليم الخبير.

"وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع.. متخلف أم متحضر، جاهلي أم إسلامي! والمجتمعات التي تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي والعلمي! إن هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم "الإنساني"..

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم "الأخلاقي"؛ بحيث يتخلى عن كل ما له علاقة بالتميز "الإنساني" عن الطابع "الحيواني"! ففي هذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية -ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة- رذيلة أخلاقية.. إن المفهوم الأخلاقي يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية - والسياسية أحياناً في حدود "مصلحة الدولة"-.."

ونحن نرى أن الفضائح الجنسية التي تحدث في المجتمعات الغربية لا يكون اللوم فيها نتيجة ممارسة الجنس؛ سواء كان شاذاً أو طبيعياً، وإنما تكون الجريمة في أنه خان زوجته أو رفيقته، أو كذب عليها، أو لم يعترف بهذه العلاقة للدولة أو أمام المحكمة.

وفضيحة كلينتون مثال صارخ، كما أن فضيحة بروفيمو وزير الدفاع البريطاني في الستينات من القرن العشرين مع كريستين كيلر، أيام أن كتب الأستاذ سيد هذا الكتاب، كانت الجريمة التي ارتكبها ليست في ارتكابه الفعل الجنسي، وإنما لأنه كذب

على الدولة، ولأن هناك خطراً من هذه العلاقة، لأن هذه الفتاة كانت أيضاً على علاقة بالملحق العسكري الروسي الذي كان يعتبر عدواً للدولة.

فالمفهوم الأخلاقي عند أوروبا ينحصر في الإجراءات التي لا يعترف بها مرتكب الفعل الجنسي، أما إذا ارتكبه في وضوح وبدون تستر فهذا ليس عيباً.

لذلك يقول: **"والكُتَّاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات: إن الاتصالات (الحرة) ليست رذائل أخلاقية. الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت! والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة! عشرات من القصص هذا محورها! ومئات التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها..**

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة.. غير متحضرة.. من وجهة نظر "الإنسان" وبمقياس خط التقدم "الإنساني".."

ثم ينتقل إلى نقطة ذات أهمية كبيرة.. فيقول:

"إن خط التقدم الإنساني يسير في اتجاه "الضبط" للنزوات الحيوانية، وحصرها في نطاق "الأسرة" على أساس "الواجب" لتؤدي بذلك "وظيفة إنسانية" ليست اللذة غايتها، وإنما هي إعداد جيل إنساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة "الإنسانية" التي يميزها بروز الخصائص الإنسانية.."

إن العلاقة بين الرجل والمرأة الأصل فيها هو انتاج الإنسان، بحيث تعمر الأرض بهذا الإنسان. فهي وظيفة وواجب مكلف به الإنسان كي يستمر النوع الإنساني، ولكي يستمر وجود الإنسان العابد لله عز وجل من خلال التكليف الرباني.

اللذة ليست هدفاً، وليست غاية.. وإنما هي طريق وسبيل إلى هذا التكليف وهذا الواجب، لذلك كان خط التقدم الإنساني مرتبطاً بعملية الضبط، حيث تؤدَى هذه الشهوة الجنسية من خلال العلاقة الزوجية الشرعية التي تنظم حياة الإنسان، وتنظم العلاقات الجنسية، والحدود بين الرجل والمرأة.

فالضبط ميزان حضاري، لا التفلت أو الكبت. فالتفلت ليس ميزاناً حضارياً، والكبت ليس ميزاناً حضارياً كذلك. ويعرف علم النفس الكبت بأنه استحقار وازدراء الدافع الجنسي حتى ولو مارسه. فهذا الكبت صنعته الكنيسة أو المذاهب المتشددة النصرانية في نظرتها إلى العلاقة الجنسية على أنها علاقة حقيرة هابطة، والإنسان الكريم يجب أن يترفع عن الممارسة الجنسية. وهذا يؤدي إما إلى كبت هذه الشهوة فيؤدي إلى الجريمة، أو يؤدي إلى اضمحلال الحضارة البشرية، أو يؤدي إلى التمرد على هذا الأمر، وإلى الانطلاق الحيواني.

والإسلام لا يعرف الكبت.. ولا التفلت..

الإسلام يعرف الضبط، والضبط هو الاستجابة للدافع الغريزي في الوقت المناسب، أو تأجيل الدافع الغريزي إلى الوقت الذي يستطيع أن يؤدَّى فيه بصورة شرعية. فهو ليس مصادرة للدافع الغريزي، وليس احتقاراً للدافع الغريزي.. وإنما اعتراف به في النور، وتأجيله ليؤدَّى في وقته المناسب، حتى لا يكون الإنسان عبداً لهذا الدافع، إنما يكون هو المسيطر عليه.

فالضبط ميزان حضاري. والإنسان يضبط كل نوازعه وكل غرائزه، يأكل في الوقت الذي يقرر أن يأكل فيه، ويمتنع عن الأكل في الوقت الذي يقرر أن يمتنع فيه، يتاجر بالمال في الوقت الذي يرى أن هذه التجارة منتجة وحلال، ويمتنع إذا كانت حراما، وكذلك يمارس الجنس حينما يكون في الوقت المناسب، وحينما يكون في المكان المناسب الذي شرعه الله عز وجل.

فالضبط إذن هو ميزان حضاري، بينما التفلت انحراف، والكبت انحراف، والجاهلية تمجد إما الكبت في نزعاتها الرهبانية، أو تمجد التفلت في نزعاتها العلمانية. بينما الإسلام هو الدين الذي يحترم هذه الشهوة، ويحترم هذه الغرائز، بل يعطي عليها الأجر ويثيب عليها كما قال ﷺ "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"[1].. لكنه في الوقت ذاته يضبطها في مسار معين، يحفظ للإنسان قوته، ويحفظ له كرامته، ويحفظ للمجتمع نظافته، ويحفظ للأعراض قيمتها.

فالتقدم الإنساني إذن يسير في اتجاه الضبط. فالمجتمع الذي يدفع أفراده إلى التفلت أو إلى الكبت ليس مجتمعاً حضارياً. والمجتمع الذي يحافظ على غرائز الإنسان وعلى قوى الإنسان ويصرفها بطريقة منتجة نظيفة هو المجتمع المتحضر. والإسلام هو الذي يصنع ذلك، بينما الجاهلية تصنع العكس تماماً.

"من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والإيحاءات والضمانات الإسلامية هي اللائقة بالإنسان. ويكون "الإسلام هو الحضارة" ويكون المجتمع الإسلامي هو المجتمع المتحضر.. بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع أو لا "يتطور"."

المقوم السادس: الخلافة

والخلافة في حس الإنسان المسلم تساوي التقدم الإنساني التقي معنوياً ومادياً..

يقول سيد قطب: **"وأخيراً فإنه حين يقوم "الإنسان" بالخلافة عن "الله" في أرضه على وجهها الصحيح: بأن يخلص عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يُحَكِّم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدعاة. ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله في هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها، وجعل تلك النواميس الكونية أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فض هذه الأختام بالقدر الذي يلزم له في**

---

١ صحيح مسلم ج٢. ص٦٩٧.

الخلافة.. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق، ويصنع المادة الخامة، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تاريخه كله.. حين يصبح وهو يصنع هذا كله "ربانياً" يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو -عبادة الله- يومئذ يكون هذا الإنسان كامل الحضارة، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة.."

وهذا تلخيص رائع لقضية الحضارة.. فكما قلنا في بداية الفصل عند الحديث عن مفهوم الحضارة أنها تحقيق الكمال الإنساني في الجانب المعنوي والمادي والسلوكي، وأن الإسلام هو أيضاً تحقيق الكمال الإنساني في السلوك وفي الجانب المعنوي والمادي. ونقول هنا إن الخلافة هي الصورة التي تتبلور وتصاغ فيها هذه الحقيقة في الواقع.

ويتحقق التكامل والكمال الإنساني معنوياً ومادياً من خلال الخلافة التي تخلص الإنسان من عبوديته لغير الله، وتجعل الإنسان لا يتحاكم إلا إلى شريعة الله، وتجعل الإنسان يعيش بالقيم والأخلاق التي قررها الإسلام.

ويتعرف في ذات الوقت على كل النواميس والقوانين الكونية، فيسخر الأرض كما أراد الله له ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وحين يستخدم هذا كله في عبادة الله، وفي إقامة ألوهية الله في الأرض يكون الإنسان قد أصبح في قمة الحضارة الإنسانية.

يقول: **"فأما الإبداع المادي -وحده- فلا يسمى في الإسلام حضارة.. فقد يكون وتكون معه الجاهلية.. وقد ذكر الله من هذا الإبداع المادي في معرض وصف الجاهلية نماذج:**

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۞ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۞ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٥].

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۞ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۞ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢].

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]..

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤]."

وكل هذه نماذج للإبداع المادي الذي تخلف عنه الإبداع المعنوي، وبالتالي يصبح لعنة على البشرية، ويصبح مغضوباً عليه من الله، وتصبح نهايته محتومة، كما علمنا من هذا الذي صنعه الله بهذه الحضارات المادية، أو المجتمعات الجاهلية التي تقدمت مادياً.

إذن الخلافة هي التقدم الإنساني التقي الذي يتقدم معنوياً ومادياً. وحينذاك يكون الإنسان في قمة رونقه وعظمته، عبداً لله. فما قيمة التقدم المادي حين لا تزيد الجاهلية الإنسان جمالاً ولا قيمة، لأن القيمة الحقيقية هي في الجانب المعنوي، فإذا كان هذا الجانب منتكساً معنوياً فلن يزيد الإنسان التزين بجواهر التقدم المادي قيمة.

والتقدم المادي نستطيع أن نمثله بزينة المرأة، فالمرأة الفاضلة لو أنها أصبحت عاطلة عن كل الزينة الخارجية من مجوهرات وأدوات الزينة كلها فإنها ستظل امرأة فاضلة، بينما المرأة الفاسدة لو تزينت بكل جواهر الأرض ستظل امرأة فاسدة، وإذا جاء إنسان عاقل ليختار، سيختار المرأة الفاضلة التي تلبس "الخيش"، ولن يختار المرأة الفاسدة التي تزينت بالجواهر. ولكن حينما تتزين المرأة الفاضلة بالجواهر والزينة ستكون في أبهى جمالها الأنثوي وجمالها الإنساني.

فتصبح الزينة الخارجية إذن زينة إضافية، لا تمثل جوهراً. وإذا عطلت منها المرأة فلا يؤثر ذلك في جوهرها، وستظل فاضلة، بينما المرأة الفاسدة ستظل فاسدة، مهما تكاثرت عليها الحلي وغطتها الزينة.

والمجتمع البشري هكذا -إذا كان تقياً- لا يضيره كثيراً إذا كان مازال في أطواره الأولى نحو التقدم المادي، فهو يظل مجتمعاً راقياً متحضراً؛ فمجتمع الصحابة كان مجتمعاً متحضراً مع ما كان ينقصه من التقدم المادي لا يختلف في ذلك عن المجتمع الإسلامي في القرن الرابع الهجري، حيث كانت الحضارة الإسلامية في قمتها وفي عظمتها، فكلاهما كان مجتمعاً متحضراً. ولعل مجتمع الصحابة كان أفضل بنص حديث رسول الله ﷺ: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم..."، لأن حظه من التقوى كان أعظم وأرفع.

أما المجتمعات الجاهلية المعاصرة التي وصلت إلى قمة التقدم المادي فهي مجتمعات متخلفة رغم كل ما وصلت إليه.

لا شك أن الخلافة هي التقدم الإنساني التقي معنوياً ومادياً.

"ولكن الاسلام -كما أسلفنا- لا يحتقر المادة، ولا يحتقر الإبداع المادي، إنما هو يجعل هذا اللون من التقدم - في ظل منهج الله- نعمة من نعم الله على عباده، يبشرهم به جزاء على طاعته:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٢].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

المهم هو القاعدة التي يقوم عليها التقدم الصناعي، والقيم التي تسود المجتمع، والتي يتألف من مجموعها خصائص الحضارة "الإنسانية".."

ولذلك نستطيع أن نقول إن هناك تقدما إيمانيا، وهناك تقدم حقير وهابط. فإذا كان التقدم -إذا جاز التعبير- إيمانياً تقياً، أي يجمع بين التقدم المعنوي والتقدم المادي، أو بين الرقي المعنوي والرقي المادي، أو بين الكمال المعنوي والكمال المادي كان ذلك نعمة يعيشها الإنسان، ويكرمه الله عز وجل بها، ويجزيه بها على طاعته وتقواه.

أما إذا كان التقدم مادياً فحسب خالياً من الروح، فهو مرهون بلعنة الله عز وجل كما يقرر القرآن:

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس: ٢٤]..

العلم بـ"الحقيقة الأولى" من مقومات الحضارة والرقي

تحدثنا في الجزء الأول من هذا الفصل عن مقومات الحضارة في التصور الإسلامي، وكان آخر مقوم ذكرناه هو مقوم الخلافة عن الله في الأرض، وكيف أنها تعني التقدم الإنساني التقي معنوياً ومادياً.

ولا شك أن مقومات الحضارة هي هذه المقومات الستة كما تحدث عنها الأستاذ سيد.

وكنا قد قدمنا قبلها حديثاً عن مقومات الرقي. وقلنا أنها: العلم، والتحرر، والتوافق الذي يؤدى إلى سعادة الإنسان.

والتوافق الذي فصلناه هو توافق بين ما أعطى الله عز وجل للإنسان من طاقات، وبين الهدف الذي خلق من أجله. والتوافق أيضاً بين قوانين وناموس الكون والحياة، وبين قدرات الإنسان. والتوافق أيضاً بين الجانب المعنوي وكيف يتآلف ويتكامل مع الجانب المادي، فلا يضاده ولا يعاديه.

ولا شك أن مقوم العلم يضيف إيحاء مهما جدا ً؛ وهو أنه يستحيل أن يكون أي إنسان أو أي مجتمع متحضراً وهو يجهل الحقيقة الأولى التي يقوم عليها هذا الوجود. وهذه أولى مقومات الحضارة، أن يتفق ما يعلم الإنسان أو المجتمع مع الحقيقة الواقعة. فإذا لم يدرك الحقيقة الواقعة على صورتها الصحيحة فهو جاهل. فلا شك أن عدم العلم بالله، وعدم الإحاطة بصفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه، وحقيقة معنى الألوهية، وموضع الإنسان من هذه الألوهية، والدور الذي خلق من أجله، وطبيعة العلاقة بين هذا الوجود وبين هذا الكون.. كل هذه الأمور إذا جهلها إنسان ما، أو جهلها مجتمع ما، فهو لا شك إنسان متخلف، أو مجتمع متخلف، ونستطيع أن نحكم عليه بذلك من خلال هذه القضية وحدها.

فعدم إدراك الحقيقة الكبرى التي تفرض نفسها على العقل، وتفرض نفسها على كل شيء، بحيث -كما يقول القرآن- ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].. فالله هو الشهيد، وهو الدليل على ذاته سبحانه وتعالى. فليس شيء يدل عليه بقدر ما تدل عليه الفطرة. والكيان الإنساني يحس أن الله حقيقة عظمى، تفرض نفسها على العقل وعلى الفطرة

الإنسانية. فحينما يجهل إنسان ما، أو مجتمع ما، أو تجهل حضارة ما -أو ما تسمي نفسها حضارة- هذه الحقيقة الأولى التي هي القاعدة التي يقوم عليها هذا الوجود كله.. فلا شك أنها تفقد منذ اللحظة الأولى معنى الحضارة حيث تكون قابعة في زوايا الجهل ومتخلفة إلى درجة الجهل بالحقيقة الظاهرة الكبرى والعظمى، والتي يترتب عليها أيضاً بقية مقومات الحضارة كلها كما شرحها الأستاذ سيد.

فلا شك أن هذا المقوم من مقومات الرقى، وهو العلم، نقصد به ابتداءً العلم بالحقيقة العظمى، والحقيقة الأولى، والبديهية التي ينبغي أن يدركها أي إنسان يستعمل عقله وفطرته، ويستعمل دلائل الوجود الإلهي والعظمة الإلهية. فإذا تجاهلها وأقام حياته على قاعدة أخرى فهو ابتداءً قد انتقل من العلم إلى الجهل، وانتقل من أن يكون متحضراً إلى التخلف.

مصدر التلقي وقاعدة الانطلاق وطبيعة التكوين العضوي أهم ما يميز المجتمع المسلم

أما ما نريد أن نتحدث عنه الآن فهو موضوع جديد، رغم ما يبدو أنه بديهي، وأنه معنى مفهوم ابتداءً، أو مفهوم بالضرورة من ناحية التلقي عن الله.. لكنه معنى يمكن أن نقول عنه أنه جديد من خلال آثاره النفسية التي تفرض نفسها علينا حينما نتحدث عنه.

يقول الأستاذ سيد رحمه الله: **"وبعد.. فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي، وطبيعة تكوينه العضوي، تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي.."**

هذه القاعدة -التي يكرر الحديث عنها أكثر من مرة- هي أن المجتمع الإنساني الإسلامي ينطلق من مصدر خارج عن الوجود البشري، وخارج عن الوجود الأرضي. وأن الإنسان قد جاءه هذا الإسلام، أو جاءته هذه التكاليف، وجاءته هذه العقيدة، وجاءه هذا الدين من مصدر خارجي عنه، فليس هو من اجتهاد الإنسان، وليس من توقعات الإنسان. وإنما جاءه هذا الأمر من مصدر أعلى.. من مصدر خارجي. بينما كل المجتمعات الجاهلية تنبثق من داخلها، وتتلقى من اجتهادها، وتعيش في إطارها الخاص المحلي البشري الأرضي. ومن ثم فهي تختلف اختلافا جذريا عن المجتمعات الإسلامية.

المجتمع الإسلامي -ابتداء- مجتمع يتحرك من خلال التلقي من الخارج.. من مصدر خارجي.

التلقي من مصدر أعلى وانعكاسه على المجتمع

ولا شك أن هذه القضية ينبني عليها أشياء كثيرة:

ينبني عليها أولا: أن هذا المصدر الخارجي يفرض هذه الحقيقة على الإنسان -نوع الإنسان- كله. فهو ليس اختيارا من الإنسان، وليس هناك مجال للاختلاف عليه، لأنه جاء من الخارج. والبشر حينما يتلقون بعضهم من بعض، ويكون الفكر صادرا من البشر، يكون الاختلاف على هذا الفكر البشري أمرا طبيعيا.

ولكن حينما يكون التلقي من أعلى، والمصدر الله، تتساوى البشرية كلها أمام هذا المصدر وأمام هذا التلقي. هذه هي القضية الأولى.. وهي قضية أن هذا المجتمع المسلم يتلقى فكره ويتلقى تكليفه من مصدر أعلى، خارج عن الإنسان، وخارج عن المجتمع البشري كله. وهذا يعطيه تفردا عن بقية الأفكار الأخرى، وبقية التصورات الأخرى...

ثانيا: أن ما يفرضه هذا المصدر الخارجي يصبح ملزما لكل البشر. لأن الفرق بين البشر في مجموعهم، وبين خالقهم فارق يعطي الحق لله عز وجل أن يلزم عباده، ويلزم مخلوقاته بما يرى، وبما يقرر لهم، فيصبح هذا المصدر الإلهي الآتي من أعلى يحمل في طياته الإلزام الطبيعي، وليس الإلزام المصطنع، ولا الإلزام الكريه. وإنما هو أمر طبيعي جدا أن يخضع الناس لإلههم.. أن يخضعوا لمن خلقهم.. أن يخضع المخلوقون لمن منحهم نعمة الوجود ونعمة الصيانة ونعمة الرعاية ونعمة القدرات، والنعم كلها التي أتاحها الله لهم. فيصبح هذا المصدر بطبيعته ملزما، ولا يجد البشر فيه أي نوع من التململ ولا الكبر، ولا الإحساس بالحق في أن يختاروا أو يرفضوا.

ولا شك أن قوة الإلزام هذه هي التي تفرض على البشرية ضرورة الطاعة لله عز وجل. وهي التي تجعل الذين يرفضون نعمة الله ويرفضون طاعة الله متمردين على الله، ويستحقون من ثم غضب الله عليهم ولعنته وعذابه الخالد يوم القيامة. لأنهم رفضوا واستكبروا عن أمر لا يحق لهم أن يرفضوه أو أن يستكبروا عليه، وليس لديهم أي مقومات لهذا الاستكبار. فإذا رفض إنسان ما تصورا آتيا من إنسان مثله فهذا أمر مفهوم، ومقومات الاستكبار هنا موجودة، فكلاهما بشر، فلماذا أطيعه؟ ولماذا أخضع له؟

ولكن حينما يكون الأمر بيني وبين الله تنمحي كل مقومات الكبر، وكل مقومات الذاتية، وكل مقومات الاستكبار. فالله هو الذي أوجد بيده هذا الإنسان ابتداء.. أوجد عقله.. وأوجد إرادته.. وأوجد حياته.. فالإنسان لا يجد في نفسه أي سبب يدفعه إلى الاستكبار، فالحقيقة والواقع يمنعان أن يستكبر إنسان ما على الله، أو أن يخطر بباله هذا.

ولكننا نرى العكس في الجاهلية.. نراهم يقبلون أن يكون بعضهم أرباب بعض، ويقبلون أن يذلوا لبشر مثلهم، ويجدون هذا منطقيا، ويرفضون ولاية الله وسلطان الله.. فيقلبون الأمر قلبا كاملا، ويجادلون في هذا ويستكبرون.

ولا شك أن هذا هو الذي يجعلهم يستحقون بجدارة غضب الله ولعنته، لأنهم في الوقت الذي يفتقدون فيه كل مقومات الاستكبار يستكبرون، وفي الوضع الذي تتوفر فيه مقومات الاستكبار يخضعون ويذلون. فهم يسيرون ضد الحقيقة وضد البداهة وضد الفطرة، وضد كل ما يصطلح عليه من مفاهيم العقل، أو الفكر، أو مقاييس الأمور.

وبذلك تصبح الخاصية الأولى في الحضارة الإسلامية وفي الحياة الإسلامية أنها تُتلقى من مصدر أعلى خارجي عنها. وهذا المصدر الأعلى الخارج عنها يفرض عليها بطبيعة صفاته وخصائصه الخضوع الراضي لهذا المصدر. بينما أي فكر آخر، أو أي مذهب آخر ينتج وينبثق من الوجود البشري فإنه لا يحمل هذا المقوم. وبذلك يكون الإلزام قوة ذاتية موجودة في دين الله.

فالذي يرفض؛ يرفض عن إصرار، وعن استكبار، وعن محاداة لله، وعن تمرد، فهم يبارزون الله بالمعاصي.. فمبارزة الله عز وجل بالمعاصي كمن شهر سيفه وقوته وجبروته في مواجهة الله عز وجل.. يبارزه وهو المخلوق الهزيل الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا، ويظن أنه قادر أن يواجه الله، وأن يقف أمام الله ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

ولا شك أن هذا يجعل جزاء جريمة الكبر على الله، وجريمة الرفض لمنهج الله، وجريمة الرفض لهذا المصدر الأعلى مفهوما جدا؛ فالذي يرتكب هذه الجريمة يسير عكس التيار الكوني كله، ويستحق تماما هذا المصير.

ثالثا: إن هذا الدين الذي جاء من عند الله يفرض فرضا ذاتيا على الإنسان أن يتحرك به إذا اعتنقه. فهذا الدين وهذه العقيدة من طبيعتها أنها لا تترك الإنسان خاملا. فلا يمكن أن يتلقى إنسان ما هذا الدين، ولا يمكن أن تدخل هذه العقيدة قلب إنسان ما ويظل ساكنا. لا بد أن ينطلق.. لا بد أن يتحرك.. لا بد أن يدعو إلى هذا الحق.. لا بد أن يقيم، أو يحاول إقامة المجتمع في حياته على أساس هذه العقيدة. هذا كله من طبيعة هذا الدين؛ أنه لا يترك إنسانا خامدا، ولا يسمح له بأن يعيش ساكنا، وإنما هو -بطبيعته- لا بد أن يطلق طاقات هذا الإنسان ومشاعره وقلبه وحركته لكي يتحرك لإقامة هذا الدين.

وبذلك ندرك أن من معالم هذه العقيدة الحركة، وأن الإنسان الذي لا يتحرك بهذا الدين، ولا تحركه هذه العقيدة وهو يزعم أنه قد اعتنقها فإنه يكون كاذبا في زعمه ذلك، لأن من طبيعة هذه العقيدة أنها تحرك من اعتنقها وآمن بها. فإذا لم يتحرك فهي إذن غير موجودة.

وهذا الأمر -أيضا- يعطي معلما واضحا للمؤمنين؛ سواء في معرفتهم لأنفسهم وميزان الإيمان في قلوبهم، أو في معرفتهم للآخرين الذين يدّعون الإيمان أو يدّعون الإسلام. فالحركة من طبيعة هذه العقيدة، والحركة من طبيعة الفرد الذي يؤمن بهذا الدين. وبذلك تصبح الحركة بهذه العقيدة حركة ضرورية؛ بمعنى أنها حركة ذاتية وطبيعية.

نقرأ ما يقوله الأستاذ سيد في هذا الأمر **"فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي، وطبيعة تكوينه العضوي، تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي.."**

وحينما نستعرض النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الإنسانية نجدها كلها باطلة، وكلها تقيم حياة الإنسان على مقومات بشرية وتصورات بشرية، وحتى إذا أقامتها على تصورات غيبية فهي تصورات غيبية ضالة لا تتصل بالحق ولا ترتبط به.

ولذلك لا تنطبق على المجتمع الإسلامي أية نظرية؛ سواء من النظريات الغيبية الضالة، أو من النظريات المادية أو البشرية التي يحاول فلاسفتها أن يقيموا أو يفسروا المجتمعات على ضوئها.

المجتمع الإسلامي وليد الحركة

يقول: **"المجتمع الإسلامي وليد الحركة، والحركة فيه مستمرة، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم.**

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري.. إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر، تنشئ لهم تصوراً خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات، وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور.. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون.. إنها -كما قلنا- آتية لهم من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري.. وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه.

إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي."

هذا المعني يعطي للإنسان المسلم شعورا بالعزة.. شعورا بالطمأنينة.. شعورا بالأحقية.. شعورا بالأمن، وأنه ليس مرتبطا بشيء من الأرض كما يرتبط الناس، وإنما هو مرتبط بالقوة العظمى التي خلقت هذا الكون كله. فهو ينطلق من هذه العقيدة التي جاءته من الخارج. فالدفعة الأولى التي تطلق الحركة في نفوس المسلمين وفي نفوس المجتمع المسلم والجماعة المسلمة ليست منبثقة من نفوسهم.. فهم لم يختاروها، ولم يصنعوها، ولم يفكروا فيها، وإنما جاءتهم من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري.

يقول: **"وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه، أو يحسب حسابه، ودون أن يكون للإنسان يد فيه -في ابتداء الأمر-.."**

هذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يختره الإنسان، وإنما كان الله سبحانه وتعالى هو الذي قدره، وهو الذي اختار من ينزّل عليه هذا الوحي، وهو الذي اختار الرسول أو النبي الذي حمله هذا التكليف، واختار الأرض التي سيقوم عليها هذا الدين، واختار القوم الذين سيكلفهم به، واختار الزمان الذي يتحقق فيه هذه الأمر.. الله سبحانه هو الذي يصنع كل هذا. وهو قدر غيبي ليس للإنسان يد فيه، حتى إذا كان الإنسان يتوقعه كما كان بعض الناس قبل مجيء النبي ﷺ يتوقعون ظهور نبي.. فهم إنما كان يتوقعون ذلك بما بقي لهم من علم عن الرسل السابقين.. ولكنهم لم يكونوا يعرفون متى بالضبط، لا اليوم ولا التاريخ، ولا يعرفون الشخص الذي سيبعث، ولكنهم يعرفون فقط مواصفات عامة، علامات وأمارات فيمن سيبعثه الله ليخلص العالم مما غرق فيه من الأهواء والضلالات والظلم والجور.

هذا العنصر -دائما- عنصر قدري وغيبي؛ سواء كان هذا مرتبطاً بساعة الوحي ونزوله، أو مرتبطاً بشخص الرسول الذي سيبعث، أو مرتبطاً بالقوم الذين يهيئهم الله ليتلقوا هذه الرسالة، أو بالمكان أو بالزمان.

وهذا العنصر القدري الغيبي ينطبق -أيضا- على أي مجتمع، أو أي تجمع مسلم. فهو ينبت وينشأ بقدر غيبي من الله يقول: **"بهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه، أو يحسب حسابه، ودون أن يكون للإنسان يد فيه -في ابتداء الأمر- تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي.."**

القدر هو الذي يدفع، وهو الذي يحرك، والحركة الأولى هي حركة قدرية.. الله الذي يختار، والله الذي يملأ قلب أي إنسان بهذا الحق، والله الذي يدفع الإنسان هذا ليبدأ الحركة.

يقول: **"ويبدأ معها عمل "الإنسان" أيضاً. إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي، الجارية بقدر الله وحده. وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً).. إن الإنسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه.. إنه سينطلق بها.. هذه طبيعتها.. طبيعة الحركة الحية.. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتماً! إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً."**

فالحركة صفة ذاتية لهذه العقيدة، وإذا دخلت دخولا صحيحا إلى قلب إنسان فهي تحركه وتدفعه دفعا. وحينما يؤمن إنسان واحد بهذه العقيدة فإنه يكون ممثلا لنقطة البداية، ويكون هو المجتمع المسلم (حكما)، بحيث نقول: إن المجتمع المسلم ابتدأ كما يعبر الأستاذ محمد قطب في أحد كتبه فيقول: إن المد الإسلامي يبدأ من قلب مسلم.

فبمجرد أن تسكن هذه العقيدة في قلب يبدأ المد الإسلامي الذي قد ينتهي إلى آخر حدود الأرض. ولكنه يبدأ من قلب حي، كما بدأ في قلب الرسول ﷺ بعد أن تلقى هذه الدفعة الغيبية من الله عز وجل، وحينها بدأ المجتمع الإسلامي يتحقق، وبدأ المد الإسلامي بعد ذلك على مدى هذه الأعوام القليلة التي عاشها رسول الله ﷺ.

فالقاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي قاعدة فريدة، وهي أنه يقوم على عقيدة جاءته من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري، فهي تطلق حركة ليست منبثقة من نفوس الناس، ولا من مادة الكون، وهي بطبيعتها تلزم الإنسان الذي يتلقاها بالحركة والعمل بها.

وهي حين تقوم في قلب إنسان تعني أن المجتمع المسلم قد قام، ومن هنا يبدأ المد الإسلامي.

ولا شك أن هذا يختلف عن أي مذهب أو فكر بشري. فالفكر البشري ليس آتيا من الخالق، وإنما هو صناعة بشرية متكلفة. ثم إنه قائم على الهوى البشري والجهل البشري والقصور البشري، ثم هو أيضا ليس ملزما للناس أن يطبقوه، لأن المصدر الذي أنشأه لا يملك سلطة على البشر، وإنما هو بشر كبقية البشر، فمن حقهم أن يرفضوا أو يوافقوا. ثم أنه يمكن أن يتغير مع الأهواء ويتغير مع المصالح ويتغير مع الزمن حينما يضيق به الناس أو يفشل في تحقيق رغباتهم، فيضطر الناس أن يبحثوا عن شيء آخر يناسبهم.

هذه الأمور كلها لا توجد في منهج الله، ولا العقيدة التي جاءت من عند الله. فهي جاءت من عند العليم الخبير.. من عند الله صاحب السلطان الحقيقي على هذا الوجود. وجاءت إلى البشر الذين هم خلق الله الخاضع بطبيعته لخالقه، والذي ينبغي أن يسلم نفسه لمن خلقه بيديه، كما أن طبيعة هذه العقيدة وهذا المنهج أنه لا يتغير مع مصالح الناس ولا مع أهوائهم.. فالفارق كبير.

ثم إن هذه العقيدة بطبيعتها تدفع الإنسان إلى العمل وإلى الحركة، بينما المذاهب البشرية يمكن جدا ألا تدفع أصحابها إلى الحركة ولا إلى العمل، فتظل قابعة في زوايا العقل وزوايا القلب، ولا تحرك أصحابها. لكن هذه العقيدة الإسلامية بطبيعتها هي التي تدفع الناس، أو تدفع صاحبها -إذا كان صادقا- إلى الحركة.

"إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً."

هذا قدر غالب لا يملك أحد أن يقف في وجهه.. ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

يقول **"وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولا تسود فيه قيمها الأساسية -القيم التي أسلفنا الإشارة إليها- وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وُجِدَ (فعلاً)!"**

وهذا يعطي لهؤلاء الثلاثة وصفا خاصا ووضعا متفردا.. هم ثلاثة.. وهم قليل.. ولكنهم من خلال تأييد الله عز وجل، ومن خلال اعتراف الله سبحانه وتعالى بهم، ومن خلال اعتماد الله لهم كممثلين لدينه في الأرض، وممثلين لأوليائه في الأرض، فإن هؤلاء الثلاثة في حقيقة الأمر يكونون هم المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله من بين هذه البشرية ليكونوا هم البداية المباركة لما يريده الله عز وجل منهم. ثلاثة.. وهم قلة، ولكنهم في الحقيقة مستندين إلى قدرة الله، ومستمدين وجودهم الشرعي من الله عز وجل. بينما الجاهلية التي تموج بها الأرض نبت شيطاني لا يتمتع بالاعتراف الإلهي، ولا يتمتع بالحقائق الإلهية، ولا الرعاية الإلهية.

فحقَّ لهؤلاء الثلاثة أن يشعروا بولاية الله عز وجل، وأن يفرحوا بولاية الله ورضاه عنهم. وهذا يعطيهم قوة في مواجهة البشر كما حدث من أنبياء الله عز وجل.. نوح وهود، وكل الأنبياء.. كانوا يقفون وحدهم فرادى ليواجهوا البشرية كلها. وهذا لا يحدث أبدا إلا حينما يكون هذا الفرد مرتبطاً ارتباطا حقيقا بقوة حقيقية. فلا يمكن لبشر ضعيف غير مستند لقوة حقيقية أن يجازف بنفسه إلا أن يكون مجنونا، إما إذا كان عاقلا فلا يمكن أبدا أن يقف ليواجه البشرية ويتحداها، ويستعجل النزال معها، إلا أن يكون نبيا، أو يكون مؤمنا قد وصل يقينه بالله أن يحس أن قوة الله معه. وهذه في ذاتها معجزة.. كما يقول العلماء عن معجزة هود -عليه السلام- إنها كانت فقط في هذا الموقف الذي وقفه وحده متحديا الجاهلية من حوله ليقول لهم ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٥].

يقول **"والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة يصبحون ألفاً، والألف يصبحون اثنى عشر ألفاً، ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي!"**

سيكولوجية البناء الإسلامي

ثم ينتقل الأستاذ سيد إلى نقطة أخرى، نستطيع أن نسميها "سيكولوجية البناء الإسلامي"..

يقول **"وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته، عن المجتمع الجاهلي -الذي أخذ منه أفراده-.."**

فالبناء النفسي للجماعة المسلمة يبدأ لحظة الإحساس بالمفاصلة الشعورية الكاملة بينها وبين المجتمع الذي كانت جزءا منه قبل ذلك، فهذا المجتمع الوليد الذي يمثله فرد.. أو ثلاثة أفراد قد انفصل بعمومه.. لم ينفصل بجزء منه.. وإنما انفصل بقلبه وعقله وحركته ومشاعره وخواطره وقوانينه.. فكل شيء قد تغير فجأة في هذا الإنسان. فالإنسان الجاهلي حينما يتلقى دين الله ويؤمن به، فإنه ينتقل بكليته إلى عالم جديد، يختلف اختلافا جذريا في المضمون والشكل والإحساس والمشاعر بصورة واضحة عما كان فيه. وهذه هي بداية التكوين الجديد للإنسان المسلم؛ فهو يحس منذ لحظة تلقيه الحقيقة الإيمانية -حقيقة لا إله إلا الله- أنه إنسان جديد جدة كاملة.. ويشعر أنه قد ولد ولادة جديدة كاملة.. لم يولد ولادة جسمانية وإنما ولد ولادة معنوية، جعلته كيانا جديدا في كل شيء. فإذا نظر إلى ماضيه فإنه يتعجب؛ كيف كان يفكر؟ كيف كان يحس؟ كيف كان يعيش؟ كيف كان يزن الأمور؟ لأنه قد صار إنسانا جديدا كلية. وهذا هو البناء النفسي الذي تحدثه هذه الشهادة المباركة.. شهادة ألا إله إلا الله.. فتقذف في قلب الإنسان شحنة من نور الله عز وجل، تضيء اليقين والثبات في قلبه وجنبات نفسه، وجنبات الوجود كله من حوله فتغيره إلى شخص آخر.

وحين لا يحس الإنسان بهذه الدفعة الحية، وبهذه الإشراقة، وبهذا التغيير الهائل.. فإن تلقيه لهذه الدفعة يكون تلقيا خامدا، أو ناقصا، أو مزيفا، أو قل فيه ما شئت.

فالإنسان الجاهلي حينما ينير الله بصيرته فيعرف الحق ويدخله لا شك أنه يشعر بالفرحة، ويشعر بهذه الومضة الرائعة التي غيرته تغييرا كاملا. وهذا ما نلاحظه في إيمان الصحابة الأوائل، كما نلاحظه في أنفسنا حينما عُرض علينا هذا الحق فآمنا به، وتغيرنا تماما، وأصبح ما كنا نحبه نكرهه، وأصبح ما كنا نعشقه نتقزز منه، وأصبح ما كنا نكرهه نحبه.. وهكذا تغيرت الأمور تغيرا كاملا بصورة غير مفهومة، إلا أن يكون تفسيرها الوحيد أن هناك حياة قد دخلت نفوسنا بصورة جديدة.. ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالتكوين النفسي.. أو سيكولوجية البناء الإسلامي المتفرد هو الذي يصنع صناعة لا يصنعها دين آخر في الحياة البشرية. فكل المذاهب التي تنبثق من اجتهادات البشر قد تغير أجزاء من الإنسان، لكنها لا تغير الإنسان كله، ولا تخلق فيه روحا جديدة كاملة الجدة، إنما نجد الإنسان يتغير في جانب من جوانبه.. جانب مادي.. وتبقى حياته بعد ذلك هي هي. فالشيوعي الذي يكفر بكل إله، والرأسمالي الذي يدعي أنه يؤمن بعقيدة.. كلاهما في حياته الواقعية لا يختلف عن الآخر. وكذلك الهندي الذي يعبد البقر، والوثني الذي يعبد الوثن.. لا تحس أن حياتهم العملية -دون أن تعرف انتماءاتهم- تختلف بعضها عن بعض.

لكن لا شك أن الفارق هائل جدا بين الإنسان الجاهلي في عمومه والإنسان المسلم.

هذا البناء النفسي، والسيكولوجية النفسية، هي أيضا أحد معالم ومقاييس ومعايير الإيمان الحقيقي. فالإنسان يستطيع أن يعرف نفسه؛ هل آمن بهذا الحق أم لم يؤمن؟ ويستطيع أن يعرف الناسُ هل زعمه هذا صادق أم كاذب.. من خلال مشاعره، ومن خلال كلماته، ومن خلال حركته، ومن خلال سلوكه.. ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]. فكأن الإنسان المنافق،

والإنسان المسلم يظهران من لحن القول؛ من كلمة ينطقها أي منهما تستطيع أن تدرك أن هذه الكلمة لا يمكن أن تصدر من قلب مؤمن، أو أن هذه الكلمة لا تصدر إلا من قلب مؤمن.

لا شك أن التكوين النفسي الذي تصنعه قضية لا إله إلا الله، والذي يصنعه هذا التصور الذي جاء من خارج الأرض ومن خارج هذا الكون له آثاره النفسية العميقة التي تكوّن الإنسان المسلم المتفرد.

يقول **"وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته، عن المجتمع الجاهلي -الذي أخذ منه أفراده- وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع، وأعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع -حسب الميزان والاعتبار الإسلامي- ويكون وزنه هذا معترفاً له به من المجتمع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه، بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة!"**

تكون الحركة من نقطة الانطلاق، والتي هي نقطة التلقي من مصدر خارج عن هذا الوجود والأرض، ومن المصدر الرباني الذي ليس كمثله شيء.. تكون هذه الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل في الأرض.. البارز والمستقل عن المجتمع الذي كان فيه.

"ويكون وزنه هذا معترفا له به من المجتمع، دون أن يزكي نفسه، أو يعلن عنه. بل إن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليه في البيئة!"

وهذا أيضا معلم آخر في التكوين النفسي لأفراد المجتمع الإسلامي، وطريقة تكوينه.

والفرد الذي برز إلى الوجود خلال بروز المجتمع الإسلامي، من نقطة الانطلاق التي انطلق منها ثم الحركة التي يعيشها، هي التي تعطي كل فرد -من خلال عمله.. ومن خلال سلوكه.. ومن خلال وزن الإيمان الذي يحمله- هي التي تعطيه وزنه في المجتمع حسب الميزان والاعتبار الإسلامي.

فوزن كل إنسان في هذا المجتمع الوليد يتحدد من خلال حركته، ومن خلال ارتباطه بهذا الحق، دون أن يزكي نفسه. بل إن هذه العقيدة تدعوه أن يتوارى عن الأنظار المتطلعة إليه.

وهكذا يكون وزن كل فرد وزن مبارك.. لأن الذي يعطيه وزنه هو الله عز وجل من خلال التقوى.. التي من ركائزها: إنكار الذات. ولذلك نقول دائما: إن تضخم الذات، والتطلع إلى الوجود والحضور، والرغبة في أن يكون للإنسان مكان ونصيب من الظهور والعلو، مهما كان هذا العلو صغيرا أو كبيرا.. أمر يتنافى ابتداءً مع طبيعة هذه العقيدة، التي لا تريد من أفرادها أن يتطلعوا إلى أمر من أمور الدنيا، ولا أن يزكوا أنفسهم.. ﴿ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٩].. وأنهم حين يفعلون ذلك يرتفعون ويأخذون أكثر مما كانوا يتصورون ويأملون.

أما هؤلاء الذين يقررون لأنفسهم أهدافا وطموحات، ويحاولون أن يفرضوها على المجتمع بالحق وبالباطل، تغذيهم في ذلك نزعة البروز والرغبة في الظهور، فهؤلاء ينزلون وإن حاولوا الصعود. وكلما حاولوا أن يرتفعوا بهذه الوسائل غير المشروعة، والتي لا يقرها دين الله يخفضهم الله ويذلهم.

ولذلك نحذر دائما من تضخم الذات..

وتضخم الذات له ألوان كثيرة جدا، ويحتاج إلى بحث مستفيض، لكي نتحدث عن مظاهره، وألوان هذا البروز، والمداخل المدسوسة والخفية والمعلنة لهذا التضخم، وآثار هذا التضخم في الواقع.. وهذا موضوع يحتاج من كل منا أن يدرسه، ويحتاج من كل إنسان أن يوضحه للآخر.

فلا شك أن سيكولوجية البناء الإسلامي قائمة على التقوى، وعلى التجرد. والتضخم ينافي هذا التجرد.. لأنه يضع -مع ابتغاء وجه الله- وجه النفس، ووجه المخلوقين. وهذا شرك خفي نعوذ بالله منه، والذي يحاول أن يرتفع بنفسه عن غير طريق الأسباب المشروعة التي شرعها الله فإنه يهبط بنفسه إلى الدرك الأسفل.

والمسلم المتجرد لا يكون له في هذه الدنيا هدف إلا إرضاء الله عز وجل. وكل ما يضاد هذا الهدف فإنه يحاول أن يبتعد عنه.

فهذا الوزن.. وزن مبارك فعلا. ولذلك نجد المجتمع المسلم لا يُبرِز الله فيه إلا أفرادا مباركين فعلا، قد أقاموا حياتهم ابتغاء وجه الله عز وجل. أما الذي يريد أن يفرض نفسه بأساليبه البشرية على الآخرين فإنه في الحقيقة لا يحوز رضاهم ولا إقناعهم، وسيسقط في النهاية. وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: "مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله تعالى عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عليه الناس"[٢].

الحركة الدائبة تحدد مقادير الأفراد وأدوارهم

يقول **"ولكن "الحركة" التي هي طابع العقيدة الإسلامية، وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها، لا تدع أحداً يتوارى! إن كل فرد من أفراد هذا المجتمع لا بد أن يتحرك! الحركة في عقيدته، والحركة في دمه، والحركة في مجتمعه، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي.. إن الجاهلية من حوله، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله، والمعركة مستمرة، والجهاد ماض إلى يوم القيامة.**

على إيقاعات الحركة، وفي أثناء الحركة، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع، وتتحدد وظيفته، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه."

٢ صحيح ابن حبان ج١. ص٥١٠.

وهكذا يأخذ كل فرد حقه صافيا بفضل الله عز وجل، وببركة هذا المنهج.. فالإنسان لا بد أن يتحرك، ومن خلال الحركة يتبين الدور الذي يستحقه، والدور الذي يستطيع أن يقوم به. ومن ثم يكون أنفع لهذا الدين وأنفع للناس، ولهذه الجماعة فمن يصرف جهده كله وطاقته كلها لله عز وجل.. يضعه الله على رأس أو قمة هذه المنظومة لكي ينفعها.

أما الذي لا يعطي جهده كله، وطاقته كلها، ووقته كله، وكل ما يملك لله رب العالمين.. ولا يجعل ذلك كله خاضعا لتنمية الحق في نفسه وتنمية الحق في مجتمعه، فإنه سيظل بعيدا عن أماكن القيادة، وبعيدا عن جوانب الفائدة في جماعته، وبعيدا أيضا عن الحبال التي تشده إلى الثبات في وقت المحن ووقت الفتن.

وهذه المسألة مهمة جدا.. فليست القضية قضية شخصية.. وليست القضية أن تكون ناجيا.. وإنما حين يُقصِّر الإنسان في استغلال وقته استغلالا صحيحا، وحين يُقصِّر في استغلال طاقته استغلالا صحيحا، وحين يُقصِّر في استغلال الوقت والجهد والمال والعقل استغلالاً يبتغي به وجه الله، فإن مضرة هذا تقع على نفسه وعلى الجماعة وعلى أولاده وعلى البشرية كلها.

هو -أولا وآخرا- تقصير في حق الله عز وجل.. حينما تبخل بجهدك الذي أعطاه الله لك، وتبخل بعقلك وبمالك وبوقتك وبصحتك على الله، وتعطيها لطموحاتك الشخصية، ولمزاجك الشخصي، ولشهوتك ولذاتك.. فهذا تقصير في حق الله الذي منّ عليك بكل هذا، ثم أنت بعد ذلك تصرفه في غير مكانه الذي يريد الله عز وجل.

فالقضية أكبر من أن تكون مجرد نشاط، أو مجرد اجتهاد.. المسألة مسألة عبودية لله عز وجل..

لكي تكون عابدا حقا لا بد ألا يكون في نفسك شيء لغير الله عز وجل.. لا بد أن يكون وقتك موظفا لله.. مالك موظف لله.. بيتك موظف لله.. أولادك موظفون لله.. حياتك موظفة لله.. مشاعرك موظفة لله. والإنسان الذي لا يفعل ذلك عليه أن يعلم أنه بمقدار خموله وكسله وقصوره يكون مقصراً في حق الغاية التي خلق من أجلها.. ومقصراً في حق الله عز وجل.. وهذه قضية لا يختلف عليها مؤمنان قط، ولا بد أن يعلمها الناس. ومن خلال هذا البذل المجرد لله يأخذ الأفراد أماكنهم في سلم الجماعة المسلمة، لأن الجماعة المسلمة ستختار كل من يفرض بتقواه وبجهده وبإخلاصه وبعلمه مكانه ليستفيد منه المجتمع المسلم.

فالمجتمع المسلم يختلف عن المجتمع الجاهلي في أن الوصول للمقامات العليا لا يأتي بتزكية النفس، ولا يأتي بالكذب، وبالإعلانات، ولا يأتي بالمحسوبيات، ولا يأتي بالأهواء، ولا يأتي بالاختيارات العشوائية القائمة على الهوى..

المواقع والمراكز في داخل المجتمع المسلم تؤخذ عن جدارة من خلال بركة الالتزام بهذا الحق، ومن خلال تزكية الله لهذا الفرد أو ذاك. حينما يتقي الله ويتجرد يرتفع من القاع إلى القمة بتقواه. لذلك رأينا عمر -وقد دخل الإسلام في السنة السادسة- يسبق كل من سبقوه إلا أبا بكر.. سبق سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسبق.. وسبق.. كل هؤلاء سبقهم عمر، لأنه كان يأخذ كل شيء بقوة. فحينما دخل الإسلام دخل بقوته.

فلا شك أن القضية ليست قضية قِدَم في الجماعة، ولا قضية سن، ولا قضية مستوى ثقافي، ولا مستوى اقتصادي.. وإنما هو مستوى التقوى.

مستوى التقوى في القلب هو الذي يدفع صاحبه إلى أن يعيش من أجل الله عز وجل في كل لحظة، ويستخدم كل طاقاته من أجل بناء نفسه بناءً إسلاميا، ورفع هذا المجتمع.. وكذلك لكي يحقق عبوديته كاملة لله عز وجل. وبغير هذا لا يأخذ إنسان ما مكانا غير الذي يستحقه في الواقع الإسلامي مهما حاول أن يرتفع. فالمجتمع المسلم لا يقبل الزيف، ولا يقبل الخبث. وإنما يميز نفسه باستمرار، وينفي خبثه باستمرار ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].. فالله عز وجل هو الذي يجتبي، وهو الذي يرفع. وأي إنسان منا يحاول أن يتطلع إلى مكان في الجماعة أو دور في الجماعة دون أن يتجرد لله ويسقط هذه الرغبة فلن ينال هذا المكان، وإذا ناله فلن يعان عليه، ولن يبارك الله له فيه. والجماعة المسلمة لا تعطي لفرد مكانا لا يستحقه، ولا تجامله أبدا في هذا الأمر. وإذا كان لدى الإنسان طموح فليطمح في التقوى، وليطمح فيما عند الله، ولا يطمح فيما عند الناس، حتى لو كان مكانا في الجماعة.. وحتى لو كان نصر هذا الدين نفسه.. فلا بد أن يكون الأمر متجردا لله.

"على إيقاعات الحركة، وفي أثناء الحركة، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع، وتتحدد وظيفته، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه."

والتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه أيضا قضية مهمة، لأن مجموعة وظائف المجتمع المسلم متفردة. لا بد أن يصاغ الأفراد ليكونوا متناسقين مع أهداف المجتمع. فإذا كان من وظائف المجتمع توحيد الله، والعبودية لله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمار الأرض من أجل إقامة الحق، فلا بد أن يكون الأفراد أيضا مهيئين لهذه الأهداف، ولا يكونون بعيدين عنها.. فالذي يعمل داخل المجتمع المسلم ليكوِّن نفسه اقتصاديا، يجب أن يكون هدفه هذا متناسقا مع حركة المجتمع المسلم ووظائفه. فالمجتمع المسلم يحقق للأفراد ما يريدون، ولكن من خلال وظائف المجتمع المسلم، ولا بد أن يحدث تناسق بين تكوين الأفراد في مجموعه وفي أشخاصه وبين أهداف ووظائف المجتمع الذي ينشؤون فيه. فإذا سار إنسان داخل المجتمع بأهداف غير تلك الأهداف التي يريدها الله، فإنه لن يحقق ما يريد، وإن حقق فلا ثواب له، كذلك الرجل الذي دخل المعركة مع رسول الله ﷺ، وأبلى بلاء هائلا، وظن المسلمون أنه في قمة الشهداء، فإذا برسول الله ﷺ يقول لهم (هو في النار).. ويتعجب الصحابة لذلك، ولكن ذلك يظهر بعد قليل، حينما زادت عليه جراحاته، فوضع سيفه بين ثدييه واتكأ عليه حتى قتل نفسه.. فجاء الصحابي الذي شاهد فعله ذاك بنفسه يقول: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله، لقد رأيت الرجل الذي قلت أنه في النار والذي تعجبنا لقولك فيه، وجدته قد فعل كذا وكذا[٣]..

فهذا رجل دخل المعركة وقاتل وجرح، وأبلى بلاء حسنا، ولعل الإسلام قد انتفع بسببه.. ولكنه في النار. فليست العبرة بشكل العمل، إنما العبرة بالنيات. فلا بد أن تتكافأ وظيفة الأفراد وأهدافهم، وتتناسق مع وظيفة المجتمع وأهدافه. فالإنسان الذي يريد

٣ أخرجه الطبراني في الكبير.

أن ينجح كتاجر ينجح لكي يثري المجتمع المسلم، ولكي يقوي الجماعة المسلمة.. وهكذا.. فإذا كان هذا هدفه يبارك الله في ماله، ويرفع من قدره.. كما كان عثمان -رضي الله عنه- يجهز جيش العسرة من ماله، ويتنازل عن قافلة بها سبعمائة جمل لينفقها كلها في سبيل الله، فلا يدخل "جيبه" منها شيئا.. هؤلاء كانوا أعظم الاقتصاديين، وكانوا وجهاء الطبقة الاقتصادية في المجتمع المسلم الأول. وهكذا كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف.. كانوا ينفقون من الأموال أكثر مما يضعون في خزائنهم، ولكنهم كانوا يتاجرون ويعملون. ولذلك كان الله عز وجل يجعلهم خزانة المجتمع المسلم، يدفعون من أموالهم ما يدفع ضرورات المجتمع، وما يبعد حاجات المجتمع.

ولكن الذي يستغل المجتمع المسلم لكي يثرى هو بنفسه فهذا إنسان شقي وليس سعيدا. فلا بد أن يحدث تناسق بين مجموعة الأفراد وأهدافهم وسعيهم، وبين مجموعة وظائف المجتمع المسلم وما يريد.

يقول **"هذه النشأة، وهذا التكوين، خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تُميزانه، تُميزان وجوده وتركيبه، وتُميزان طابعه وشكله، وتُميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً.."**

وهذا ينطبق على كل صغيرة وكبيرة في المجتمع المسلم؛ من أول اختيار الإمام، ثم طريقة اختيار أهل الحل والعقد، وطريقة الشورى، واختيار عمال الأمصار، وشكل التعامل بين الولاة والأئمة وعامة الرعية، ووضع المرأة، ومفهوم التعليم، ومفهوم الرياضة، ومفهوم التوسع.. كل شيء سنجده مختلفا تماما؛ في الصغيرة والكبيرة. وسنجد أن الإسلام يظلل حركة المسلم في كل لحظة.. فحينما اختصم عمر بن الخطاب مع أحد الناس، فاحتكما لأحد الصحابة كي يقضي بينهما، وعندما دخلا عليه قال الصحابي المحكَّم: اقعد يا أمير المؤمنين على هذه الوسادة، فقال له عمر: هذا أول الجور، ومنعه عمر بن الخطاب من أن يحكم كقاضي طوال حياة عمر.. هذه نفسية أمير المؤمنين، وهذه طريقة الإسلام في أنه يقلب الموازين من الانحطاط إلى هذه الرفعة، فيقرر ببساطة شديدة هذا الأمر، ويقف عمر وهذا الذي يختصمه.. والرجل المحكَّم يريد أن يكرمه لأنه الخليفة، فيأبى هذا التكريم، لأنه ليس في موضعه، فالقاضي ينبغي أن يسوي بين المتخاصمين.. فأخطأ هذا الخطأ غير المقصود.. ولكن هذا الخطأ حرمه من أن يكون قاضيا في عهد عمر كله.. فهذا القاضي لم يأخذ مكانه في المجتمع المسلم، لأن توجهه لم يتماش ولم يتناسق مع أهداف المجتمع المسلم.

فأي فرد لا يسير بصدق متحر الحق فليعرف أنه لن يأخذ مكانه أبدا، ولن يمكِّنه الله، بل سيخذله الله في كل خطوة يريدها في غير الاتجاه الصحيح. فليحذر كل إنسان من تضخم ذاته. وليحذر كل إنسان أن يعمل عملا لا يبتغي به وجه الله. وليحذر كل إنسان أن تكون طموحاته دنيوية، وليعمل عملاً خالصا ابتغاء وجه الله، ولا يضيق بكلمة توجيه، ولا بكلمة تصحيح، ولا يضيق بأي شيء مادام مقصوده وجه الله عز وجل.

فلنحذر هذا التضخم الذي يفسد على الإنسان حياته..

يقول **"هذه النشأة، وهذا التكوين، خاصيتان من خصائص المجتمع الإسلامي تُميزانه، تُميزان وجوده وتركيبه، وتُميزان طابعه وشكله، وتُميزان نظامه والإجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً، وتجعلان هذه الملامح كلها**

مستقلة، لا تعالج بمفهومات اجتماعية أجنبية عنها، ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها، ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر!"

في المجتمع المسلم كان يكفي شهادة اثنين من العدول لتنظم أشياء كثيرة جدا من العقود والمعاملات. أما الآن فيحتاج الأمر إلى إجراءات طويلة جدا، تضيع الوقت والجهد، وترهق الأعصاب. ذلك لأن الأمانة قد ارتفعت وضاعت. والناس لم يعودوا صادقين أو أتقياء. ولذلك لا بد أن يكون كل شيء مكتوبا، ومن عدة نسخ، وموقع من عدة موظفين، ومختوم بختم الدولة.. ورغم ذلك كله لا يضمنون أيضا العدل، ولا يضمنون أيضا الأمانة، وإذا شاءوا تلاعبوا بكل هذه الأمور. لكن في المجتمع المسلم كان يكفي أن يشهد اثنان على أمر لكي يمضي.. سواء كان زواجا، أو طلاقا، أو تجارة.. أو أي شيء.. وفي بعض الأحيان كانت الكلمة تكفي حينما يتعامل المسلمون مع بعضهم.. لأن الأمانة موجودة في القلب، وليست في الأوراق. فالإجراءات في المجتمع المسلم إجراءات تختلف تماما في كل صغيرة وكبيرة عنها في المجتمع الجاهلي؛ في الشكل والروح والهدف. فينبغي دائما أن نعلم أن المجتمع المسلم يتميز تميزا كاملا ومطلقا عن المجتمع الجاهلي. ولذلك ينبغي ألا يعالج هذا المجتمع بمفهومات أجنبية عنه، ولا وفق منهج غريب عن طبيعته، ولا أن تنفذ فيه اجراءات مستمدة من نظام آخر غير مطبق فيه.. فلا بد أن تكون هذه الاجراءات متمشية مع طبيعة هذا المجتمع وعقيدته وأهدافه.

المجتمع المسلم هو طُلْبة الحاضر وأمل المستقبل

ثم يقول الأستاذ سيد رحمه الله: **"إن المجتمع الإسلامي -كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة- ليس مجرد صورة تاريخية، يبحث عنها في ذكريات الماضي، إنما هو طُلْبة الحاضر وأمل المستقبل. إنه هدف يمكن أن تستشرفه البشرية كلها اليوم وغداً، لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها، سواء في هذه الجاهلية الأمم المتقدمة صناعياً واقتصادياً والأمم المتخلفة أيضاً."**

فالمجتمع الإسلامي مجتمع مطلوب أن يكون موجودا باستمرار، وأن يكون هو الأمل للبشرية. فالبشرية -دائما- تأمل السعادة والطمأنينة والكفاية والأمن والتحابب والتعاضد.. ولن يكون ذلك إلا في المجتمع الإسلامي. فالمجتمع المسلم ليس صورة تاريخيه مضت، وليس ذكريات عن الماضي تُذكر للمتعة.. ولكنه طُلْبة الحاضر وأمل المستقبل.

إن هذا الإسلام وهذا المجتمع المسلم يمكن أن يتحقق في كل مكان، وفي كل بيئة، ومع كل تطور وكل مرحلة.

يقول **"إن تلك القيم التي أشرنا إليها إجمالاً هي قيم إنسانية، لم تبلغها الإنسانية إلا في فترة "الحضارة الإسلامية". ويجب أن ننبه إلى ما نعنيه بمصطلح "الحضارة الإسلامية".. إنها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم، وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف القيم عنه وهذه القيم ليست "مثالية خيالية" إنما هي قيم واقعية عملية، يمكن تحقيقها بالجهد البشري -في ظل المفهومات الإسلامية الصحيحة-، يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائدة فيها، وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي.. فهي لا تعارض -بل تشجع بالمنطق العقيدي ذاته- التقدم في كافة حقول الخلافة، ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين في**

البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد. إن الحضارة يمكن أن تقوم في كل مكان وفي كل بيئة.. تقوم بهذه القيم. أما أشكالها المادية التي تتخذها فلا حد لها، لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلاً وتنميها."

والواقعية قضية تحدثنا عنها قبل ذلك. والإسلام لا يتعامل مع الأماني الخيالية، ولا ينضغط تحت متطلبات الواقع، وإنما هو -دائما- يحاول أن يرفع الواقع إلى المثال، من خلال قدراته وإمكانياته الحقيقية المتاحة.

هذا الدين وهذه العقيدة وهذه القيم تعضد وتشجع التقدم في كافة حقول النشاط الإنساني. ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين إذا لم تكن متقدمة في هذه الحقول بعد. فهذه القيم الإنسانية ليست مرتبطة بمستوى تقدم معين، ولا بمستوى إنساني معين من الناحية المادية، أو من الناحية الاقتصادية والعلمية.

فأي مجتمع -من مجتمعات الرعي والبدو، إلى مجتمعات التكنولوجيا الرفيعة- أي مجتمع من هذه المجتمعات يستطيع أن يقيم هذه القيم الإيمانية فيها بصرف النظر عن مستوى مرحلة الحضارة المادية التي يكون عليها هذا المجتمع.

إن الحضارة تقوم في كل مكان وفي كل بيئة. تقوم بهذه القيم. فالمهم أن تقوم هذه القيم. أما مستوى المجتمع من ناحية أشكال الحضارة فيختلف باختلاف أشكالها المادية التي تتخذها، وهي لا حد لها، لأن كل بيئة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلا، وتنميها.

فالإسلام -بقيمه الرفيعة- يلتقي مع الإنسان، ومع أي مجتمع، من النقطة التي يقف عندها.. ليقرر قيمه أولا، لأن هذه هي الأسس الإنسانية التي يقوم عليها المجتمع الإنساني، ثم يأخذ هذا المجتمع صعدا إلى الآفاق العليا، من النقطة التي يلتقي فيها مع هذا المجتمع. ومن ثَم تختلف أشكال الحضارة الإسلامية. فالمجتمعات الإسلامية يمكن أن تختلف في أشكالها الحضارية، ولكنها لا تختلف في قيمها الإنسانية.

المجتمع المسلم ليس صورة تاريخية ثابتة ولكنه يرتكن إلى قيم ثابتة

يقول **"المجتمع الإسلامي إذن -من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه- ليس صورة تاريخية ثابتة.."**

فالمجتمع الأول في عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، هو مجتمع إسلامي. ولكن ليس مطلوبا من المجتمعات التالية أن تكون صورة "كربونية" مطابقة تماما لهذا المجتمع، بحيث يصبح هذا المجتمع صورة تاريخية ثابته لا يجوز مخالفتها في الشكل الحضاري.. وإنما الذي لا يجوز هو مخالفتها في الأسس الثابتة التي قامت عليها.. ولكن يمكن أن يختلف عنها في الأشكال الحضارية.

يقول **"لكن وجوده وحضارته يرتكنان إلى قيم تاريخية ثابتة.. وحين نقول: "تاريخية" لا نعني إلا أن هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين.. وإلا فهي ليست من صنع التاريخ، ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها.. إنها حقيقة جاءت إلى البشرية من مصدر رباني.. من وراء الواقع البشري. ومن وراء الوجود المادي أيضاً."**

هذه القيم الإنسانية عُرفت مع خلق آدم. فهي قيم ثابتة. ويستطيع المجتمع الإنساني في تطوره أن يستصحب هذه القيم باستمرار، ويغير من شكله الحضاري أيضا باستمرار. وهنا يدخل مفهوم الثابت والمتطور في الحياة البشرية.

هناك أشياء ثابته لا تتغير (عقيدة المجتمع، قيمه، أخلاقه، أخوته، أهدافه.. وهكذا). ولكن يمكن أن يختلف شكل الحضارة؛ من حياة الغابة، إلى الحياة في ناطحات السحاب. والإنسان الذي يدير سفينة الفضاء هو نفس الإنسان -بقيمه وموازينه- الذي كان يعيش في الغابة شبه عار حينما لم يكن هناك نسيج ولا ملابس. الخُلُق هو الخلق، والعقيدة هي هي، والأخوة هي هي، والمشاعر والشعائر والشرائع كذلك. ولكن الاختلاف يكون في الشكل الخارجي للحضارة.

تنوع أشكال الحضارة الإسلامية لا يعني التميع

يقول **"والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة: العبودية لله وحده. والتجمع على آصرة العقيدة فيه. واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة. وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته.. وحرمة الأسرة. والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه.. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة..."**

هذه الأمور الستة التي تكلمنا عنها قبل ذلك، والتي هي مقومات الحضارة.

"إن "أشكال" الحضارة الإسلامية التي تقوم على هذه الأسس الثابتة، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي، لأنها تستخدم الموجود منها فعلاً في كل بيئة.. ومن ثمَّ لا بد أن تختلف أشكالها.. لا بد أن تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الإطار الإسلامي.."

فالمسلم، والرواد المسلمون لا يقفون مترددين أمام شكل من أشكال الحضارة، لأنهم يستطيعون أن يستغلوا هذه الحضارة، ويصيغوها في القالب الإسلامي. وهذا جانب من المنهج الإسلامي.. منهج المرونة، والقدرة على التشكُّل، للتعامل مع أي مجتمع في أي مرحلة من مراحله، بحيث لا تتناقض ولا تخرج عن الأسس الثابتة.

فالإسلام والمنهج الإسلامي يستطيع أن يصبغ الشكل الحضاري المتقدم بالروح الإسلامية. ويستخدم كل منجزات الحضارة، بحيث تخدم الغاية العظمى؛ وهي العبودية لله، وينقي أشكال هذه الحضارة من كل موروثات التصور القديم الباطل، ويرفعها لكي تخدم الغرض الجديد.

هذه المرونة لا بد أن تكون معلومة. لأن كثيرا مما تركته بعض المذاهب المنتسبة للإسلام؛ مثل الصوفية، والسلفية المنحرفة، أوهمت الناس أن الإسلام لا يقبل بالمنجزات الحضارية الجديدة، وأنه لا يقبل الطائرة ولا السيارة، ولا يقبل كذا وكذا.. بحيث تصور الناس أن الإسلام يعادي التقدم المادي، ويعادي التسهيلات التكنولوجية.. وهذا التصور باطل.

فالمسلم لا يغير من طبيعة الإسلام حتى يتفق مع أشكال الحضارة الجديدة التي يواجهها، أو التي يصل إليها. لكن هذا التواؤم مع أشكال الحضارة الجديدة هو من طبيعة العقيدة الإسلامية، فهي تعطي المجتمع الإسلامي المرونة الكافية ليتشكل بأشكال متعددة، ولكن يكون ملتزما -في نفس الوقت- بالأصول الثابتة فنحن لن نتنازل عن الإسلام كي نأخذ بأشكال الحضارة الجديدة، ولسنا متجمدين حتى نرفضها.. إنما نحن نعرف أن هناك أصولا ثابتة، ثم بعد ذلك تتعدد الأشكال الحضارية فوق الأرض الثابتة، لتصبح هذه الأشكال الحضارية حضارة إسلامية، تمتص رحيقها من التربة الإسلامية الثابتة الواضحة.

يقول **"لكن المرونة ليست هي التميع.. والفرق بينهما بعيد جداً!"**

وكثير من المنهزمين يأخذون هذه المرونة على حساب الأصول الثابتة. ويميعون في التاريخ الإسلامي وفي الحركة الإسلامية، ويقولون إن الإسلام لا يناقض الحرية، فيوسعون دائرة الحرية حتى يمسوا القيم الثابتة.

يقولون إن المرأة مكرمة في المجتمع المسلم، وأنها مساوية للرجل من ناحية القيمة، ومن ناحية العبودية لله، ومن ناحية التكليف.. ثم يوسعون هذا الأمر ليسووا بينهما في الوظائف، ولكي يجعلوها حرة في كل شيء.. وهذا نوع من التميُّع.

الإسلام يدعو إلى الشورى.. ثم يغيرون أمر الشورى إلى أن تصبح ديموقراطية؛ الأغلبية هي التي تحكم، حتى وإن كانت على الباطل.

في أمر المواصلات والمدارس.. يقولون إن الإسلام ليس معقدا.. الإسلام فطري.. لماذا نعمل مواصلات خاصة للرجال وأخرى للنساء؟ لماذا نعمل مدارس خاصة للرجال وأخرى للنساء؟ ويوسعون هذه المرونة المحكومة بالقيم الثابتة، فيفقدونها القيم الثابتة، ويميعونها.

هناك فرق كبير بين هذا وبين المرونة التي تجعل المجتمع المسلم قادرا على أن يقبل أي تغيير وتشكيل من الأشكال الخارجية للحضارة، دون أن يفقد ذرة واحدة من قيمه الثابتة. وحينما يفعل ذلك تصبح هذه الأشكال الحضارية أشكالاً مباركة وأشكالاً طيبة.

يقول **"لقد كان الإسلام ينشئ الحضارة في أواسط إفريقيا بين العراة.. لأنه بمجرد وجوده هناك تُكتسى الأجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيه الإسلامي المباشر.."**

يدخل الإسلام فيستر عوراتهم، وهذه هي الحضارة. بينما الجاهلية تدعو إلى الانتكاس، وإلى الحيوانية.. حيث لا لباس ولا ستر للعورات.. بينما يكون أول شيء يعمله الإسلام حين يدخل أي بيئة جاهلية أن تُكسى العورات، والعورات هنا ليست فقط في شكل العورة، وإنما في شكل الملبس، وشكل الكلمات والحركات، والعلاقة بين الرجل والمرأة، وبين عالم الرجال وعالم النساء، وأشكال النكاح.. كل هذا يدخل في الحضارة الإسلامية التي ترفع الناس من التشبه بالحيوان إلى أن يصبحوا أناسا يحرصون على القيم الإيمانية.

يقول **"ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المادي.."**

كذلك الإسلام.. يدعو دائما إلى العمل، وإلى الحركة.. بعد أن كان العرب ينشدون أشعارا ويشربون الخمر ويتقاتلون فقط.. أصبح العرب بعد ذلك سادة العالم، وهم الذين وضعوا أسس الحضارة حينما أخذوا بالمنهج الإسلامي في جوانب الحياة كلها، وساهموا مساهمة رئيسية في كل ما تقوم عليه الحضارة المادية المعاصرة، والتقدم العلمي المعاصر.

اكتشفوا أنفسهم، وخرجوا من ذلك الخمول والانحطاط، فأصبح هناك علماء وكيميائيون وعلماء فلك ورياضيات وطب، وأصبح.. وأصبح.. وامتلأت الحياة الإسلامية حركة ونشاطا، بعد أن كان العربي يميل إلى الخمول وإلى البعد عن الطموحات العالية.

يقول **"ويخرجون كذلك من طور القبيلة -أو العشيرة- إلى طور الأمة.."**

هذا الضيق الذي كانوا يعيشون بداخله.. "القبيلة".. القبيلة هذه بكل عناصرها الضيقة.. مكانا.. وزمانا وتقاليد.

فالقبيلة كانت هي محبس الإنسان.. تستعبده داخلها، ولا يستطيع الإنسان أن ينطلق خارجها، فلا يستطيع أن ينتقل من قبيلة إلى قبيلة.. وإلا يصبح هذا انحطاطا وفضيحة، ويُسمى بالصعلوك الذي لا قبيلة له.. وفي نفس الوقت إذا كان فردا منضما إلى قبيلة استعبدته:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فإذا أراد أحد أن يتمرد على القبيلة، لعدم رضائه عن ممارستها، يصبح صعلوكا، وتطرده كل قبائل العرب.

والإسلام نقل هؤلاء من طور القبيلة والعشيرة إلى طور الأمة. فصارت كلها أمة واحدة، تقوم على عقيدة واحدة، بصرف النظر عن الجنس أو اللغة أو اللون، أو أي شيء آخر.

فينتقل الإنسان بالإسلام من هذا الضيق الذي كان يعيش فيه؛ ضيق القبيلة والمكان، إلى سعة الأرض كلها، بل سعة الكون كله.. فينساح في الأرض كلها، بلا حدود من جنس أو لون أو أرض أو لغة. وكما رأينا أن الأمة الإسلامية قد جمعت بين دفتيها من طرف المحيط الأطلسي إلى أسوار الصين، ومن أسوار فيينا وبحر البلطيق شمالا إلى منابع النيل جنوبا.

ولم يشعر المسلم وهو ينتقل في هذه الرقعة الهائلة أنه غريب أو ضيف، أو أنه مستهجن.. ولم يشعر للحظة واحدة أنه قد فارق قومه أو فارق أهله، بل هو -في كل مكان ومع كل قوم- يشعر أن هؤلاء أهله.

وكان الرجل ينتقل من الغرب إلى الشرق، فيجد مكانته في المكان الجديد، فإذا كان الرجل رجل علم يصبح إماما في العلم، وإذا كان يستحق القضاء ينصّب في القضاء، بصرف النظر عن موطنه، ولا شك أن الإسلام أخرج البشرية من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

فلا شك أنه حينما كان الإسلام يدخل أي أرض، كان ينشئ الحضارة بكل معانيها.

يقول **"وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة إلى عبادة رب العالمين.."**

ولا شك أن هذا أكبر رقي يصنعه الإسلام، حين يخلع الإنسان وينقذه من وهدة الضلال، ومن وهدة العبادة لكل شيء حقير، إلى أن يعبد الله الحق، المستحق للعبادة وحده، والذي يجد الإنسان معه سبحانه كرامته وحريته.

لكن في الجاهلية؛ يعبد الإنسان كل ما هو دونه.. يعبد الأحجار، يعبد إنسانا مثله، يعبد الحشرات، يعبد الكواكب، يعبد الأشجار، يعبد الأوهام والأساطير.. ويعبد كل شيء.

ويأتي الإسلام لكي يأخذ بيد الإنسان وعقله وقلبه إلى هذه القمة السامقة من التحرر من كل هذه الأوهام والأساطير، ومن كل هذه الأغلال والقيود. لكي يكون إنسانا حرا، يعبد الله وحده، ويكون سيدا في الأرض في نفس الوقت.

خاتمة: الإسلام دائما هو مصدر الحضارة

يقول **"فما هي الحضارة إن لم تكن هي هذا؟ إنها حضارة هذه البيئة، التي تعتمد على إمكانياتها القائمة فعلاً.. فأما حين يدخل الإسلام في بيئة أخرى فإنه ينشئ -بقيمه الثابتة- شكلاً آخر من أشكال الحضارة يستخدم فيه موجودات هذه البيئة وإمكانياتها الفعلية وينميها."**

فسواء دخل الإسلام إلى مجتمع القبائل البدائية في أواسط أفريقيا، أو دخل أعلى المجتمعات تكنولوجيا في أمريكا أو أوربا، فإن المسلم لا يشعر أنه متخلف.. بل على العكس، يشعر أنه سيد قادم من عالم آخر، ليعلم الناس كيف يرتقون بإنسانيتهم، ويستخدمون في نفس الوقت كل ما أنجزوه، أو ما أنعم الله به عليهم من مقومات الحضارة والتقدم. يشعر أنه جاء لينظف هذه المجتمعات، ويطهرها، ويغيرها، ويستغل هذا التقدم والتسهيلات لكي يوفر الوقت والجهد لتعبيد الناس لله، وليس لمجرد المرح والمتعة الجسدية أو النفسية فقط.

وبذلك يصبح الإسلام دائما هو مصدر الحضارة. ليس هو الذي يأخذ الحضارة، وإنما هو الذي يعطي الحضارة.

يقول **"وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة -بطريقة الإسلام ومنهجه- على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي. وإنْ كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم -عند وجوده- وتدفعه إلى الأمام دفعاً، وترفع أهدافه. كما إنها تنشئه إنشاءً حين لا يكون.. وتكفل نموه واطراده.."**

فقيام الحضارة -بمفهومها الإسلامي- لا يتوقف على درجة معينة من التقدم الصناعي أو الاقتصادي أو العلمي، وإن كانت هذه الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم، وتدفعه إلى الأمام، وترفع أهدافه، كما أنها تنشئه إن لم يكن موجودا، وتكفل نموه واطراده. ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة، على تميزها الكامل، حينما تقوم على تلك القيم الحضارية التي أوردناها قبل ذلك. فهي لا تتنازل عنها أمام أي عرض من أعراض التقدم المادي والأشكال الحضارية.

لا بد أن تكون هذه القيم قائمة ثابتة، ثم بعد ذلك تأتي الأشكال الحضارية لتخضع لهذه القيم، وتصطبغ بصبغتها، وتتشكل بروحها. وإلا فلا يجوز للقائمين على هذا المجتمع المسلم أن يقبلوها، مهما كانت المكاسب المادية والمكاسب الشكلية

الحضارية. فهم يرفضون هذه الأشكال الحضارية إذا كانت تعارض أو تعطل أي نمو ونماء في الجانب الإيماني والجانب المعنوي.

يقول **"ولكنها تظل في كل حال قائمة على أصولها المستقلة. ويبقى للمجتمع الإسلامي طابعه الخاص، وتركيبه العضوي، الناشئان عن نقطة انطلاقه الأولى، التي يتميز بها من كل مجتمعات الجاهلية.. ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].."**

فنقطة الانطلاق الأولى هي أنها تصدر عن مصدر خارج عن الأرض، وخارج عن الكون المادي.. مصدر علوي.. مصدر إلهي رباني. وأنها تنطلق من هذا المنطلق لتحقق شكلا معينا وروحا معينة ووجودا معينا، تتميز به عن كل المجتمعات الجاهلية التي تنطلق من مصادر أرضية وتتشكل حياتها بالأهواء البشرية وبالتخلف البشري.

ومن ثم يصبح الإسلام هو الحضارة كما بيَّنا، وتصبح المجتمعات الجاهلية هي المجتمعات المتخلفة.. فهي مجتمعات متخلفة ابتداءً لجهلها الواضح بالحقيقة العظمى والأولى، ونهاية بانحطاطها النفسي والسلوكي والعقلي وحتى التنظيمي.

فنحن نرى أنه رغم التقدم الهائل في علوم الإدارة -مثلا- لكننا نجد ممارسة الجاهلية للإدارة نفسها ممارسة منحطة جدا، تتدخل فيها المؤامرات والمحسوبية والأهواء والخداع، ومحاولة استغلال الآخرين وتحطيمهم، فالإدارة شيء وممارستها شيء آخر.

فالواقع أنها مجتمعات متخلفة معنويا وماديا، وإن تزينت بزينة التقدم المادي. وهي زينة عارضة، لا تقلل من انحطاطها ولا تخلّفها. ولا ينقص ذلك المجتمع المسلم إذا كان عاطلاً من هذه الزينة، وإن كانت العقيدة الإسلامية تدعو وتلح على اتخاذ هذه الزينة بشروطها التي لا بد منها؛ وهي الالتزام بالقيم الإيمانية والإسلامية.

وحينما تأخذ الحضارة الإسلامية هذين المقومين: "المقوم المادي والتكنولوجي"، "والمقوم المعنوي والنفسي" فحينها تكون في أقصى صورها وفي قمة كمالها.

وكما قلنا: إن الإسلام هو تحقيق الكمال المعنوي والمادي والسلوكي.. والحضارة هي تحقيق الكمال المعنوي والمادي والسلوكي. ومن ثم نخرج بمعادلة واضحة "أن الإسلام هو الحضارة"

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة: ١٣٨].

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الثامن

شروح

كتاب

معالم في الطريق

التصور الإسلامي والثقافة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
النشاط الفكري والفني وارتباطه بقضية الحاكمية ٣
مصدر تلقي أصول الفكر والفن والثقافة.. ٥
الموقف من العلوم البحتة ٧
التصور الإسلامي فيه الكفاية..٧
هناك نوعين اثنين من الثقافة ٩
الإسلام لا يعرف فصل العلم عن صاحب العلم.. ١٠
العداء لدين الله متأصل في الفكر الغربي.. ١١
هدف اليهود هو إخراج المؤمنين والمسلمين عن ملتهم ١١
إنهم يدسون السم في العسل ١٣
أصول مناهج الفكر الغربي والعداء للدين.. ١٤
الخاتمة ١٦

التصور الإسلامي والثقافة

مقدمة

نتحدث الآن عن فصل جديد بعنوان التصور الإسلامي والثقافة، هذا الفصل يُعنَى بالحديث عن الثقافة وصلتها بهذا التصور، أو موقعها من التصور الإسلامي؛ كيف ينظر الإسلام إلى الثقافة وما هي قيمتها ومكانتها وما هو دورها في حياة الإنسان. ومن ثم فهو يحدد مصدرها ومجالاتها.

وهذا الفصل بالذات قد يكون من أكثر الفصول وضوحاً بالنسبة لنا، لأن التصور الإسلامي الذي عرفناه مبني ابتداء على تحديد مصدر المعرفة ومصدر العلم. ونحن جميعاً نؤمن بيقين أن المصدر الوحيد للمعرفة وللعلم هو الله سبحانه وتعالى، أو المصادر التي أمرنا الله أن نتلقى منها.

قبل أن نتحدث عن صلة الثقافة بالتصور الإسلامي يحسن أن نعرّف الثقافة.

ولا شك أن الثقافة مَعلَم واسع وكبير، ولكننا نستطيع أن نقول إنها مظهر النشاط العقلي للإنسان، فهي إنتاج العبقرية البشرية التي تُميِّز الإنسان عن بقية خلق الله في الأرض.

وهي تشمل كل أنواع المعرفة بكل وسائلها التي تُكوِّن في النهاية الرصيد المعرفي للإنسان. ومن ثم فهي تعبّر عن المستوى الإنساني. كما أنها ترتبط بتحديد مكانة الإنسان في الأرض.

والأداة التي تعتمد عليها الثقافة بطبيعة الحال هي العقل، وهي الأداة الأساسية والأولى. وإن كان العقل وحده ليس هو مصدر الثقافة، باعتبار أن العقل ليس وحده مصدر الإدراك، وإنما يشترك مع العقلِ الحسُ والوجدان. وكما تحدثنا قبل ذلك فإن المعنى العام لكلمة البصيرة أنها هي قوة الإدراك الكاملة والتي تجمع كل وسائل المعرفة والعلم عند الإنسان، ومن ثم فلا تكون الثقافة علماً جزئياً ولا فكرة جزئية، وإنما تصبح الثقافة هي الرصيد المعرفي للإنسان بكل أدواته وبكل مصادره، بحيث تصبح الثقافة هي المعرفة، ولا شك أنها تشترك وتتداخل مع العلم، وتتماس معه وتتداخل. ولكن قد يطلق العلم على مجالات محددة، وقد يكون أيضاً تصوراً مطلقاً. فنحن إذا أخذنا العلم بمعناه المطلق فهو كل معرفة، ولكن قد يطلق العلم على معان أو على علوم معينة، أو على مستويات معينة من المعرفة.

ولكن الثقافة تعني الرصيد المعرفي للإنسان في أي مستوى من مستوياته. فالرجل الأمي عنده رصيد معرفي، والمتعلم الذي يكتب ويقرأ عنده رصيد من المعرفة، والمتبحر في العلم أو العلماء عندهم رصيد من المعرفة، ولكن لكل منهم رصيد يتناسب مع مستواه ومع الأدوات التي وصل من خلالها إلى هذه المعرفة.

وعنوان الفصل يربط بين الثقافة وبين التصور الإسلامي، وسيتبين من خلال الشرح أن هناك ارتباطا وثيقا بين العقيدة وبين الثقافة، أو بين فلسفة الإنسان في الحياة وفكرته عن الوجود وعن رصيد الثقافة الذي لديه.

فرصيد الثقافة يتأثر تأثراً شديداً بتصور الإنسان عن الوجود، وعن الحياة، وعن الإنسان، وعن الله سبحانه وتعالى، وعن اليوم الآخر.. وهكذا... فالثقافة هي نتاج لهذه التصورات، وهي تؤثر في حياة الإنسان من خلال فكره وفلسفته التي يعبر عنها الإسلام بالعقيدة، أو بالتصور الإسلامي عن الحياة والوجود كله، بما فيه الإنسان.

ويبدأ الفصل بتأسيس طبيعي لقضية الثقافة، حيث يُذكِّرنا بمفهوم العبودية ومفهوم التلقي فهو يقرر أن العبودية المطلقة لله وحده وذلك هو مدلول الشطر الأول من الشهادة، أو هي الشطر الأول لركن الإسلام الأول، والمدلول المطابق لـ "لا إله إلا الله". فمدلول لا إله إلا الله تعني أن العبودية المطلقة لله وحده، ولا معبود بحق إلا الله عز وجل والشطر الثاني وهي شهادة أن محمداً رسول الله تبين كيفية هذه العبودية، أو التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ. وهذا المعنى قد وضح عند حديثنا في فصل لا إله إلا الله منهج حياة، حيث أكدنا على هاتين الحقيقتين الأساسيتين؛ معنى لا إله إلا الله ومدلولها في حياة الإنسان، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله ومدلولها كذلك في حياة الإنسان.

العبودية المطلقة لله وحده تتمثل في ألا يكون في حياة الإنسان إله إلا الله، باعتبار أن هذا حق في ذاته. فلا إله إلا الله في الحقيقة. وأن العبودية المطلقة لا تكون إلا له سبحانه وتعالى، عقيدة وشريعة وعبادة، فالمسلم يعتقد أن الألوهية لا تكون لأحد غير الله، ويعتقد أن العبادة لا تكون لأحد من خلقه، ويعتقد أن الحاكمية أيضاً لا تكون لأحد من عباده. وهذا أيضاً واضح في الفصول السابقة، ولكن هذا -كما قلنا- تأسيس طبيعي لكي يدخل في قضية الثقافة، فقد أوضحنا -فيما سبق- مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية.. وفي هذا الفصل نوضح مدلول الحاكمية وعلاقته بالثقافة:

مدلول الحاكمية في التصور الإسلامي لا ينحصر في القوانين أو الشرائع القانونية كما يحاول أن يقصرها الناس الآن من قولهم إن الشريعة تعني القوانين التي تحكم المجتمع، فهذا فهم ضيق ومدلول ضيق لمعنى الشريعة. والإسلام يوسع معنى الشريعة توسيعاً أكبر بكثير.. الشريعة أو القانون في الجاهلية تنحصر في تنظيم حياة المجتمع، لكنه لا تُعنى بقضايا القيم؛ سواء كانت قيماً أخلاقية، أو قيماً سلوكية، أو قيماً اعتقادية، أو غيرها. فالقانون في الجاهلية لا دخل له بتنظيم هذا المسائل، ولا دخل له في الجاهلية بالحياة الفردية للإنسان، فهو يترك الفرد يتحرك بحرية كاملة، ويختار من الأخلاق ومن العقائد ومن السلوكيات ما يشاء، ولكن بشرط ألا يقع تحت طائلة القانون، وهذا القانون يمثل شريحة ضيقة -وليست كبيرة- في حياة الإنسان، لأننا حينما نطرح الأخلاق ونطرح القيم ونطرح العقيدة ونطرح السلوك من حياة الإنسان... ماذا سيبقى، إلا بعض القوانين التي يمثلها العقاب والمؤاخذة حينما يعتدي الفرد على مصالح الأفراد الآخرين، أو مصلحة المجتمع الذي يعيش فيه!! فيصبح معنى القانون أو معنى الشريعة عند الجاهلية معنى منحصرا وضيقا جداً، لا يكاد يفي بحاجات الإنسان الحقيقية، بل هو يستبعد ابتداءً أساسيات الحياة، وينحصر في قضية التوظيف للحياة الدنيا في مجالات الحقوق والواجبات المرتبطة بالأفراد وبالجماعة...

ولكن الشريعة كما يراها الإسلام تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا المعنى الكبير والواسع هو الذي يتكافأ بطبيعة الحال مع مقام الألوهية المهيمنة على كل شيء في حياة الإنسان وفي حياة الوجود، فلا يجوز أن يند شيء عن سلطان الله، ولا يند شيء عن التلقي من الله. ومن ثم تصبح الشريعة تعني كل ما شرعه الله للإنسان، والله عز وجل قد شرع للإنسان في كل مجال من مجالات الحياة.. فشرّع في أصول الاعتقاد، وأصول الحكم، وأصول الأخلاق، وأصول السلوك، وأصول المعرفة.. وقد تُلقي كلمة أصول -في ذهن البعض- شبهة أن الفروع بعيدة عن شريعة الله ، ولكن لا شك أن معنى الأصول أنها الأصول التي تحكم الفروع، لأن الأصول هي التي تقوم عليها فروع الأشياء، ففروع العقيدة تقوم على الأصول، وفروع الحكم تقوم على أصول الحكم، وفروع الأخلاق تقوم على أصول الأخلاق، وفروع السلوك تقوم على أصول السلوك، وأيضاً فروع المعرفة تقوم على أصول المعرفة. فذكره للأصول هنا لا يعني إبعاد الفروع، لأن الإنسان في التصور الإسلامي محكوم بالقاعدة الأولى؛ وهي قاعدة العبودية المطلقة لله، التي تعني التلقي في كل شيء -مهما كان صغيراً- من الله. فإذا تحدثنا عن أصول الاعتقاد أو أصول الحكم فإنه تندرج تحتها بطبيعة الحال كل الفروع، بل تنبثق منها وترتبط بها ارتباطاً كاملاً.

وفي الاعتقاد يتمثل ذلك في كل مقومات هذا التصور الإسلامي؛ التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية، وعن حقيقة الكون، غيبه وشهوده بطبيعة الحال.. حقيقة الحياة غيبها وشهودها.. حقيقة الإنسان.. والارتباطات بين هذه الحقائق كلها وبين الإنسان، وكيف يتعامل معها، وهذا يمثل الاعتقاد وأصول التصور الاعتقادي. كما أن أصول الحكم تتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والأصول التي تقوم عليها تتمثل فيها العبودية الكاملة له سبحانه. كما تتمثل فيها أيضا الشرائع القانونية بمعناها الضيق التي يحاولون أن يقصروا عليها الشريعة؛ فيحصرونها في الحدود والأحكام الجنائية فقط. وهذا معنى ضيق كما قلنا. ويتمثل أيضا في قواعد الأخلاق والسلوك التي تحدد القيم والموازين التي تسود المجتمع، والتي يقوم بها الأشخاص والأحداث والأشياء في حياة الإنسان الاجتماعية. ثم تتمثل في المعرفة بكل جوانبها، سواء الجانب الفكري أو الجانب الفني على السواء. فتصبح الشريعة ليست هي هذه الشريحة الضيقة، وإنما هي ذلك المجال الرحب الهائل الذي تتحدد من خلاله وتصاغ حياة الإنسان كلها في كل نواحيها وكل جوانبها. وفي هذا كله لا يجوز أن يتلقى الإنسان فيه إلا عن الله عز وجل، كما يتلقى منه الأحكام تماماً، فهو يتلقى في كل ذلك عن الله وحده.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣].. شرع لكم من الدين.. بهذا الأمر المطلق العام الذي أمرنا أن نتلقاه من الله سبحانه، على لسان أنبيائه، من خلال وحيه. وهذا لا تفرق فيه.

وهذه الأصول كلها التي من عند الله اتفق عليها الأنبياء جميعاً.

النشاط الفكري والفني وارتباطه بقضية الحاكمية

الأمر في الحاكمية فيما يخص القانون وما يخص القواعد القانونية مفهوم ومعروف، وتحدثنا عنه قبل ذلك بوضوح. والأمر في قواعد الأخلاق والسلوك والقيم والموازين تحدثنا أيضاً عنها في فصل "لا إله إلا الله منهج حياة" بحيث وَضُحَتْ هذه المسألة.

لكن كما يقول الأستاذ سيد **"أما الأمر الذي قد يكون غريباً -حتى على قراء مثل هذه البحوث الإسلامية!- فهو الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني إلى التصور الإسلامي وإلى مصدره الرباني."**

النشاط الفني هو تعبير إنساني عن تصور الإنسان وانفعالاته واستجاباته، وعن صور الوجود والحياة في نفس هذا الإنسان. وحينما يكون الأمر كذلك لا بد أن يصدر النشاط الفني عن التصور الإسلامي، لأنه إذا كان النشاط الفني هو تعبير إنساني عن تصورات الإنسان وانفعالاته واستجاباته، وعن صورة الوجود والحياة في النفس الإنسانية.. فلا بد إذن أن يكون الفن مرتبطا ارتباطا عضويا بالقاعدة الأساسية وهي التصور الإسلامي، ولا يكون الفن طليقاً من القيود، أو غير مرتبط بفكرة ولا فلسفة ولا عقيدة كما تحاول أن تقرر ذلك الجاهلية. وكذلك الفكر الإنساني هو فكر يرتبط ويتصل بكافة ما يعيشه الإنسان وما يتصل به في حياته في كل مجال من مجالات الوجود.

ومن ثم يكون النشاط الفني والنشاط الفكري كلاهما ينتُجان عن تصور اعتقادي مؤثر وحي وفعال ودافع ومسيطر على انبعاثات الإنسان كلها، وليست مجرد مفاهيم جامدة أو جزئية.. إنما هي مفاهيم كلية تربط الفن والفكر، كما تربط الإنسان في مجالات الحكم والاقتصاد والسياسة والاعتقاد، وكل شيء.

يقول هنا **"فأما قضية النشاط الفكري، وضرورة رد هذا النشاط إلى التصور الإسلامي ومصدره الرباني، تحقيقاً للعبودية الكاملة لله وحده، فهذه هي القضية التي تقتضي منا بياناً كاملاً لأنها قد تكون بالقياس إلى قراء هذا البيان -حتى المسلمين منهم الذين يرون حتمية رد الحاكمية والتشريع لله وحده- غريبة أو غير مطروقة!"**

لماذا؟ لا شك أن الجيل الحاضر الذي عايش الغزو الغربي للعالم الإسلامي، والذي استقى كثيراً وتأثر كثيراً بالمفاهيم الغربية، قد ورث فيما ورث، وتأثر فيما تأثر بمقولة أن الفكر والفن أمران لا يرتبطان بتصور ولا يرتبطان بدين ولا يرتبطان بعقيدة.. وذلك

أولاً: لأن الفكر الجاهلي وخاصة الغربي يجعل العقل الإنساني هو مصدر المعرفة النهائي، ومن ثم يرى أن الدين لا دخل له في تشكيل حياة الإنسان، حيث إن الدين في التصور الغربي ينحصر في المعتقدات الشخصية لكل فرد، أما الحياة فيسيرها العقل والرغبة والمنفعة، لأنها دنيا، فالدين لا دخل له عند الغرب في تشكيل الحياة الاجتماعية.

وثانياً: أن الغرب حاول أن يشيع فكرة أن الثقافة تراث إنساني لا يرتبط بمرحلة معينة، ولا بناس معينين، ولا بدين ولا تصور معين، فهو تراث للإنسانية، وعلى الإنسان أن يتلقى من كافة مصادر الثقافة لأنه تراث إنساني، ومن ثم يكون في زعمهم ربط الثقافة بدين معين أو فكر معين هو نوع من التعصب، ونوع من الوصاية على العقل البشري، ونوع من حرمان البشرية من أن تستفيد من بقية إنتاج العقول في المجتمعات والمستويات الثقافية الأخرى. فحينما يرى الإسلام غير ذلك، أو يرى أي مذهب ديني غير ذلك فهو مخطئ، فالثقافة الغربية ترى أنه لا بد أن تكون الثقافة تراثاً إنسانياً عاماً، وهي حينما تفعل ذلك فإنها -في الحقيقة- لا تخسر شيئاً، لأن الفكر الغربي قائم على التفلت من كل القيود ابتداء، ومن ثم يضايقه جداً أن يكون هناك مذهب يحاول أن يقيد المعرفة ويقيد الثقافة، فهو حينما يقبل في تياره الثقافة الإسلامية ضمن التراث الإنساني العام فهو لا يشعر أنه قد خسر شيئاً، وهو يعلم أن التراث الثقافي الإسلامي منفصل بطبيعته عن بقية التراث الفكري الجاهلي، بحيث يصبح الفكر

الجاهلي هو البحر الطاغي الذي يبتلع في داخله الفكر الإسلامي، فضلاً على أن الثقافة الغربية أو الفكر الثقافي الجاهلي يتيح لأي إنسان من الحريات ومن الانصياع للشهوات والغرائز بحيث يصبح الفكر الإسلامي منبوذاً عند من يأخذ بفكرة أن التراث فكر ثقافي عام، ويذكرنا هذا بقول الكفار للرسول ﷺ: (تعبد إلهنا يوماً ونعبد إلهك يوماً) فهم لن يخسروا شيئاً، لأنهم يعبدون آلهة شتى فإذا أضيف إله جديد إلى آلهتهم فلن يخسروا شيئاً. ولكن الذي يخسر كل شيء هو المسلم الذي أشرك مع ربه إلهاً آخر، أو مع الله الحق آلهة مزيفة. وهذه الفكرة الجاهلية من أن الثقافة تراث إنساني سيتكلم عنها الأستاذ سيد بعد قليل. فهذا فكر تكتيكي من الجاهلية لكي تطمس الفكر الإسلامي.

ثالثاً: أشاع الفكر الغربي أيضاً فكرة العلم للعلم والفن للفن، وهذا أيضاً بهدف إبعاد كل منهما عن أي قيود دينية أو أخلاقية تعطله عن الانطلاق الحيواني الذي أرادته الجاهلية للبشرية في كل عصر، وفي هذا العصر بالذات. فمن أجل هذا فإن الحديث عن النشاط الفكري وصلته بالتطور الإنساني يحتاج -كما يقول الأستاذ سيد- بياناً كاملاً لكي يتضح ويتبين. يقول الأستاذ سيد في توضيح هذا المعنى **"إن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو يختص بالعبادة، أو يختص بالخلق والسلوك، والقيم والموازين، أو يختص بالمبادئ والأصول في النظام السياسي، أو الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني.. إلا من ذلك المصدر الرباني.."** الذي جاء من عند الله وهو القرآن وشرحته السنة.

مصدر تلقي أصول الفكر والفن والثقافة

"ولا يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه، ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة." لا يتلقاها من مسلم نظري، وكما قلنا ليس هناك مسلم نظري، لأن المسلم النظري لا بد أن يذوب في المجتمع الجاهلي لو ظل واقفاً عند الجانب النظري، فليس هناك في الحقيقة مسلم نظري، لأن هذا المسلم لا يلبث أن يندحر وينهزم وينزلق إلى الجاهلية.. فالتلقي في هذه الأمور كلها لا يكون إلا من المصدر الرباني، ولا يكون إلا من خلال مسلم يوثق في دينه وتقواه، مسلم يتحرك بعقيدته في واقع الحياة ليقيمها في واقع حياته وحياة الآخرين.. **"ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة، كالكيمياء، والطبيعة، والأحياء، والفلك، والطب، والصناعة، والزراعة، وطرق الإدارة -من الناحية الفنية الإدارية البحتة- وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال -من الجانب الفني- إلى آخر ما يشبه هذا النشاط.. يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم.. وإن كان الأصل في المجتمع المسلم حين يقوم، أن يسعى لتوفير هذه الكفايات في هذه الحقول كلها.."** والشرع الإسلامي يرى أن هذه من فروض الكفاية التي لا بد أن تكون في المجتمع المسلم، وإذا لم تتوفر في المجتمع المسلم يأثم الجميع.. فوجود الطبيب المسلم والمهندس المسلم والفلكي المسلم... من فروض الكفاية المتعين على طائفة من الأمة أن تقوم بها، فإذا لم تقم في مجتمع أثم الجميع، لأن هذه العلوم هي الطريق إلى إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح الذي يستجيب لأمر الله سبحانه وتعالى للإنسان بتعمير هذه الأرض، فلا بد أن يتوفر في المجتمع المسلم هؤلاء الذين يقومون بهذه المهمة، ولكن حينما لا يتوفر هؤلاء فإن المجتمع المسلم لا يكون قد اكتمل تكونه بعد. وحينما ينشأ المجتمع لا يكون عنده هذه الكفايات في بادئ الأمر، فيستطيع أن يستعين بغير المسلم في هذا، مسترشدا بقول رسول

الله ﷺ (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1] ، فيستطيع الإنسان في أمور الدنيا أن يتلقى تلك المهارات من غير المسلم ومن المسلم، بعيداً عن فلسفات هذه العلوم وعن اتصالها بالتصور، فيأخذ العلم البحت ولكن لا يأخذ فلسفة العلوم، لأن فلسفة العلوم أيضاً تؤدي إلى التدخل في قضية تصور الإنسان عن الله، وعن بقية المجالات التي قلنا أنه لا ينبغي أن يتلقى فيها المسلم إلا من المصدر الرباني.

"فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإنساني كله أفراداً ومجتمعات، وهو المتعلق بالنظرة إلى "نفس" الإنسان وإلى "حركة تاريخه"، كما يختص بتفسير نشأة هذا الكون، ونشأة الحياة، ونشأة هذا الإنسان ذاته -من ناحية ما وراء الطبيعة- (وهو مالا يتعلق بالعلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب.. إلخ) فالشأن فيه، شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التي تنظم حياته ونشاطه، مرتبط بالعقيدة ارتباطاً مباشراً، فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم، يثق في دينه وتقواه، ويعلم عنه أنه يتلقى في هذا كله عن الله.. والمهم أن يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده، أو مقتضى شهادته: أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله." وهذا ليس مجرد اختيار أو عاطفة، ولكن هذا مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.

نعم قد يجوز للإنسان أن يطَّلع على كل آثار النشاط الجاهلي، لكن لا ليتلقى منه، ولكن ليعمق معرفته بالجاهلية المنحرفة، ليعرف كيف يصحح لهذه الجاهلية انحرافاتها فيردها إلى الأصول الإسلامية الصحيحة.

ويستعرض الأستاذ سيد هنا كافة مجالات المعرفة الجاهلية لينحيها بعيداً عن طريق الإنسان المسلم فيقول: **"إن اتجاهات "الفلسفة" بجملتها، واتجاهات "تفسير التاريخ الإنساني" بجملتها، واتجاهات "علم النفس" بجملتها -عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها- ومباحث "الأخلاق" بجملتها، واتجاهات دراسة "الأديان المقارنة" بجملتها، واتجاهات "التفسيرات والمذاهب الاجتماعية" بجملتها -فيما عدا المشاهدات والإحصائيات والمعلومات المباشرة، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها- إن هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي -أي غير الإسلامي- قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية، وقائمة على هذه التصورات، ومعظمها -إن لم يكن كلها- يتضمن في أصوله المنهجية عِداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي على وجه خاص!"** وهذه طبعاً ضربة قاضية بالنسبة للجاهلية، بأن يقف إنسان في القرن العشرين ليقول أن كل علوم الجاهلية مرفوضة، وأنها كلها قائمة على غير أصول صحيحة، وأنها لا تدعو الإنسان أيضاً إلى غايات شريفة وكريمة، ومن ثم لا يجوز للمسلم أن يتلقى منها شيئاً؛ لا في مجال اعتقاد ولا أخلاق ولا سلوك ولا قيم ولا أي شيء من هذه الأمور، ومن ثم فكلها مرفوضة من الإنسان المسلم، إلا -كما قال- بعض المشاهدات أو الملاحظات التي يلاحظونها في علوم النفس أو علوم التربية أو العلوم الاجتماعية، فهي حقائق وصفية لبعض السلوكيات الإنسانية، لكن تفسيرها وإرجاعها إلى تفسيرات معينة فهذا الذي يرفضه الإنسان المسلم.. ولا شك أن أي قارئ لهذه الكتب كتب الفلسفة أو كتب التاريخ أو كتب

[1] رواه مسلم.

اتجاهات علم النفس أو التربية أو الاجتماع أو علم مقارنة الأديان.. يشعر تماماً أنها تسير في اتجاه معاكس ابتداءً للمفهوم الديني، وللتصور الإسلامي بصورة خاصة.

الموقف من العلوم البحتة

"والأمر في هذه الألوان من النشاط الفكري -والعلمي!- ليس كالأمر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والأحياء والطب، وما إليها -مادامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية.." فكل هذه العلوم التي ذكرها علوم طبيعية تُتلقى من المسلم وغير المسلم، مادامت في حدود التجربة الواقعية العملية، أو تسجيل النتائج والإحصائيات، ولكن لا تتجاوز هذه الحدود إلى التفسير الفلسفي في صورة من صوره، كما حدث من الداروينية مثلا وهي تبحث في تركيب الأحياء في السلم الأحيائي، فإذا بها قد انتقلت منه إلى الحديث عن أصل الحياة وعن أنه لا داعي أن يفترض وجود قوة أوجدت الحياة.. فلا شك أن هذا تجاوز غير مقبول.. فالكلام الأول يمكن أن نتلقاه أو نتعامل معه. وقد تطرق العلماء المسلمون إلى هذا الترتيب، فتحدثوا في ترتيب الموجودات، وكيف أن هذه الموجودات مرتبة في سلم تصاعدي من الجماد آخر أنواع الجماد متصل بأول سلم النبات وآخر سلم النبات متصل بأول سلم الحيوان وهكذا.. تحدث علماء المسلمون في هذا دون أن يجعلهم هذا ينحرفون في تصورهم لأصل الوجود أو لأصل الحياة أو فكرة الخلق، وإنما رأوا أن هذا نوع من العرض للمتحف الرباني، ولترتيب الله عز وجل لهذا الوجود بهذا الترتيب التصاعدي، ولم يدر في خاطرهم أبداً أنه يمكن أن يقال إن هذا الأمر كله وجد بدون خالق أو بدون موجد. ولكن الداروينية تأثراً أو رد فعل لكراهيتها للكنيسة، ومحاولة للتحلل من السيطرة الكهنوتية الباطلة للكنيسة انحرفت إلى رد فعل أكثر انحرافاً، فتمردهم على الكنيسة وكراهيتهم لها، لم يكن يبرر لهم الخروج على الدين جملة، أو الرجوع إلى الفكر اللاديني، سواء كان فكراً يونانياً أو غيره.

التصور الإسلامي فيه الكفاية

"إن لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون، وفي المستوى الذي تبدو فيه محاولات البشر في هذه المجالات هزيلة ومضحكة.." فكل من يقرأ الفلسفة بعقل مسلم يجد أن الفلسفة وآراء المفكرين واجتهاداتهم في المجالات التصورية مضحكة فعلاً، أو مثيرة للغثيان في بعض الأحيان، وهي في نفس الوقت لن تقدم لك تصوراً مقنعاً، وإنما هي تصورات متضاربة لا تؤدي إلا إلى مزيد من التيه، ومزيد من الضلال. فالمسلم مطالب أن يتلقى في هذا كله عن ربه، وعن بيان الله عز وجل، لأن بيان ربه هو الصدق والحق، وهو الذي يجعله يحلق على مستوى تصبح معه كل محاولات البشر في هذا المجال لا تستحق الاحترام ولا الالتفات إليها، فضلاً عن أن التلقي من الله في هذا الأمر يتعلق تعلقاً مباشراً بعقيدته، وبتحقيق عبوديته لله. فهو لن يكون عبداً لله إلا إذا تلقى في كل أمر منْ هذه الأمور عنَ الله....

"إن حكاية أن "الثقافة تراث إنساني" لا وطن له ولا جنس ولا دين.. هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية.." ففي علوم الرياضيات والجبر والهندسة وما شابهها، الكافر والمسلم كلاهما يرى نفس الحقيقة، وكذلك أمور الفلك وأمور الطب والصناعة.. إلخ، فهذا تراث إنساني -حقيقة- لا وطن له ولا جنس ولا دين، ليس بمعنى أنه

لا دين له، ولكن بمعنى أنه ليس وقفاً على اعتقاد معين.. ولكن الأصل أن يكون له دين، وأن يكون دينه الإسلام، ولكن المقصود أنه تراث إنساني يصل إليه الكافر والمسلم على السواء، دون أن تجاوز هذه المنطقة التفسيرات الفلسفية الميتافيزيقية لما وراء الطبيعة لنتائج هذه العلوم، أو التفسيرات الفلسفية للنفس أو التاريخ، أو لنشأة الإنسان، أو نشاطه. ففكرة أن الثقافة تراث إنساني فكرة صحيحة حينما يتعلق الأمر بالعلوم البحتة، وإن كان الإسلام يكلف أبناءه أن يبرزوا أيضاً في هذا المجال حتى يستقلوا تماماً عن أي سلطة جاهلية تستطيع أن تتسلل إلى التأثير على العقول، كما حدث حينما ذهبت بعض العقول إلى أوروبا ثم عادت كافرة أو مرتدة عن هذا الحق.. مثل الشيخ المعمم الذي ذهب لكي يكون إماماً للبعثة المصرية في باريس وهو رفاعة الطهطاوي، عاد وهو لا يكاد يتقن الحديث بالعربية، عاد ليقول "كافية وبونجور وبنسوار".. ثم يكتب كتابا كبيرا هو "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" يقول فيه "إن الرقص رياضة جميلة، وكل واحد في فرنسا يدعو امرأة ليرقص معها ثم يدعوها آخر بعده.." فلا يستنكر ذلك ولا يرى فيه أي مخالفة.. فالذهاب إلى هناك حتى لو بقصد التعلم محفوف بأخطار. فلا شك أن المجتمع المسلم يجب أن يحرص -كما حدث في المجتمع المسلم الأول- أن ينقي ما يتلقاه.

وقد استطاع المسلمون الأوائل أن يتلقوا ويجمعوا من الثقافات الجاهلية التي سبقتهم، سواء كانت رومانية أو مصرية أو فارسية أو هندية أو غيرها، ثم عملوا لها نوعاً من الجرد والتنقية، بحيث صنعوا ثقافة خاصة بهم، فما هو قائم على الظن والأساطير رفضوه، أما الأمور العملية قد أخضعوها للتجربة ليتحققوا منها. وكما سنقول هنا إنهم هم الذين أوجدوا المنهج التجريبي الذي بني عليه بعد ذلك كل أصول التقدم المادي المعاصر.

لكن حينما يتصل الأمر بالتفسيرات الفلسفية أو بنشاط الإنسان وتاريخه أو بنشأته أو بالفن والأدب أو بالتعبيرات الشعورية أو بغيرها فذلك شأن آخر.. يقول الأستاذ سيد **"ولكنها فيما وراء ذلك إحدى مصايد اليهود العالمية، التي يهمها تمييع الحواجز كلها -بما في ذلك، بل في أول ذلك حواجز العقيدة والتصور- لكي ينفذ اليهود إلى جسم العالم كله، وهو مسترخ مخدر، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني.."**

وقد قال أحد علماء الغرب أو فلاسفة الغرب: "إن الغربي إذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فإنه لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً".. لأن العلم عند الغرب مضاد للدين.. إما أن تكون مؤمناً أو تكون عالماً.. هكذا الأمر عندهم، فإذا أراد الإنسان أن يصبح عالماً لا بد أن يترك دينه فلا خيار له في ذلك، بينما المسلم لا يترك دينه إلا إذا صار جاهلاً.. فالعلم عند الإنسان المسلم مؤيد للدين باستمرار بل هو صادر عن الدين ابتداءً.

وإذا أردنا أن ندرك دور اليهود في ذلك فعلينا أن ندرك أنهم في التصور اليهودي لا يؤمنون بالآخرة[٢]، بل يقولون أنه لا فرق في الموت بين الإنسان والبهيمة، فكلاهما سيصير تراباً، ولذلك فاليهود شديدو الارتباط بالدنيا، ويعتبرون أن العلاقة بينهم وبين

---

٢ التوراة الحالية الموجودة بين أيدي اليهود تخلو بصورة واضحة من ذكر عقيدة اليوم الآخر والحساب والعقاب، اللهم إلا بعض شذرات في سفر دانيال تشير إشارات بعيدة إلى هذه العقيدة، ولكن ما عليه إجماع اليهود هو أنه ليس هناك بعث بعد الموت، وأن الحساب والعقاب هو في الدنيا وحسب. وهناك بعض الفرق اليهودية كالفريسيين صورت البعث تصويرا دنيويا، فقالت إن الصالحين من بين الأموات سينتشرون في هذه الأرض ليشتركوا في ملك المسيح الذي سيأتي في آخر الزمان.. فالحياة الأخروية هي الحياة التي ستعقب ظهور المسيح المنتظر من استقرار

الآخرة مبتورة تماماً، ولذلك هم يركزون تماماً على الجانب الدنيوي، ومن ثم يصبح القول "أن الغاية تبرر الوسيلة" أمراً مفهوماً ومفسراً في سلوك اليهود. فهم يريدون أن يعيشوا حياتهم بأقصى مدى وأوسعه.. فالتصور اليهودي لا وجود فيه للآخرة، ولذلك فهم أشد الناس عداوة للفكر الديني الذي يربط الإنسان بالآخرة.

هناك نوعين اثنين من الثقافة

ولكن الإسلام يعتبر أن هناك فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية نوعين اثنين فقط من الثقافة: الثقافة الإسلامية القائمة على قواعد التصور الإسلامي، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها إلى قواعد جاهلية.

القاعدة الجاهلية كما نعلم تجعل الفكر البشري هو الإله، وتجعل العقل البشري هو المرجع النهائي الذي تتقرر من خلاله كل الحقائق. وما لا يقبله العقل لا يقبلونه، وما يقره العقل هو المقبول فقط، وبالتالي تتعدد المفاهيم وتتعدد الحقائق عندهم وتتبدل وتتغير مع تغير إدراكهم العقلي للأشياء وللأمور، أما الثقافة الإسلامية التي هي شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الإنساني، فهي قائمة على الارتباط بالوحي الذي يأتي من عند الله، صاحب العلم المطلق، الذي لا تتبدل فيه الحقائق، لأن علم الله مطلق ونهائي.

"ويكفي أن نعلم أن الاتجاه التجريبي، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة، لم ينشأ ابتداءً في أوروبا، وإنما نشأ في الجامعات الإسلامية في الأندلس والمشرق، مستمداً أصوله من التصور الإسلامي وتوجيهاته، إلى الكون وطبيعته الواقعية.."

لأن الإسلام يوجه المسلم باستمرار إلى محاولة تبين الأسباب، ومعرفة الأسباب وراء كل ظاهرة، سواء كان ذلك في أموره الاجتماعية أو الأخلاقية، أو في حياته الاقتصادية والسياسية والعلمية والفنية والفكرية.. وجدنا أن المسلمين لم يتلقوا العلوم التي جاءتهم من الرومان واليونان وفارس والهند وغيرها تلقياً أعمى ونهائيا، ولكن عرضوها للتجربة لكي يثبتوا صحتها، وما لم يثبت صحته رفضوه. وهم أيضاً كانوا يعمدون إلى استحداث أجواء خاصة ومتغيرة للتجربة. فلم يعتمدوا فقط على العوامل الطبيعية، وإنما استحدثوا تلك العوامل لكي يعرفوا ما الذي سيحدث عندما يتغير عامل منها، وذلك حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى القوانين المتعدية والصحيحة للظاهرة التي يجرونها. وهذه انتقالة هائلة جداً من العلم النظري الذي كانت تقوم عليه العلوم اليونانية والرومانية وغيرها إلى العلم الإسلامي، الذي كان يقوم على التحقق والتأكد من صحة النتائج، ثم تكرار التجربة حتى يتأكدوا من تكرار النتيجة الصحيحة، وهذا هو الذي قام عليه في الحقيقة التقدم الأوربي المعاصر.

وهدوء وانتصار لهم على الأمم الأخرى بعد حياة الشقاء والتعاسة. (انظر: العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية تأليف د./ سعد الدين صالح الناشر: مكتبة الصحابة بالإمارات، مكتبة الصحابة جدة، مكتبة التابعين القاهرة.)

ثم أخذت أوربا هذا العلم التجريبي وطوَّرته، وأقامت عليه حضارتها المعاصرة، بينما ركد هذا العلم في العالم الإسلامي حينما دخل في غفوته الطويلة، وترك حضارته، وترك أسسه العلمية التي كانت عنده في يوم من الأيام، والذي سلبته أوربا منه وقطعته عن أصوله الاعتقادية وعن أصوله التصورية، فأخذت العلم التجريبي منبتاً عن أصوله الاعتقادية.

"وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوربي بجملته -شأنه شأن إنتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان وفي جميع البقاع- شيئاً آخر، ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي. ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلاً للتصور الإسلامي.. ووجب على المسلم أن يرجع الى مقومات تصوره وحدها، وألا يأخذ إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه، وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه الى الأخذ عنه."

ففي كل نواحي المعرفة يحاول الإسلام أن يربط -حتى العلوم البحتة منها- بالقاعدة الإيمانية، وهي التي تدعو الإنسان إلى مزيد من التفكر والتدبر في أحوال هذا الكون. ومن خلاله يلتقي مع قوانين المادة، ومع النواميس التي يبني عليها حياته الحضارية، ومن خلال التفكر والتدبر في مخلوقات الله وفي كون الله، وفي البحث عن أسرار خلق الله لهذا الوجود من حوله يلتقي الإنسان بهذه القوانين التي يبني عليها حضارته المادية، وبالتالي رقيه المادي وتسهيلاته المادية.

الإسلام لا يعرف فصل العلم عن صاحب العلم

"إن حكاية فصل "العلم" عن "صاحب العلم" لا يعرفها الإسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة في نظرة الإنسان.."

لا يجوز للإنسان المسلم أن يتلقى في أمر العقائد والأخلاق من غير المسلم، لا كما تقول الجاهلية أنه ليس هناك ربط بين الفكرة وصاحب الفكرة.. فيمكن أن أتلقى أي حقيقة من أي إنسان لأنها حقيقة.. هذا الكلام صحيح حينما يكون خاصاً بالعلوم البحتة، ولكنه ليس صحيحاً على الإطلاق حينما يكون خاصاً بفكرة الوجود ونشأة الإنسان ودور الإنسان والقيم والأخلاق والسلوكيات والفن والأدب، فكل هذا مرتبط ارتباطا شديدا بصاحب الفكرة. وهكذا الإسلام لا يفصل بين العلم وصاحب العلم، وإنما يربط بينهما ربطاً شديداً.

والإسلام يتسامح حينما يتلقى المسلم عن غير المسلم أو غير التقي في العلوم البحتة، ولكنه لا يتسامح في أن يتلقى أصول عقيدته، ولا مقومات تصوره، ولا تفسير قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ﷺ، ولا منهج تاريخه، وتفسير نشاطه، ولا مذهب مجتمعه، ولا نظام حكمه، ولا موحيات فنه وأدبه، إلا من مسلم يثق في دينه. ولذلك يصبح من المثير للسخرية أن تؤخذ شهادات علمية في العقيدة الإسلامية وفي الحديث والتفسير من جامعة السوربون أو جامعات أوربية وأجنبية. والواقع الحاصل من خلال ما نعرفه أن هؤلاء العلماء أو المفكرين والأساتذة الأجانب يُسخِّرون طلابهم المسلمين للبحث في موضوعات شائكة جداً لكي يخرجوا بنتائج ضد الإسلام من خلال أطروحات دكتوراه أو ماجستير أو غيرها.. بل يأتي هؤلاء بشهادات في موضوعات هي ذات اتصال وثيق بالعقيدة والشريعة أشرف عليهم أساتذة يهود، كما حدث لطه حسين والترابي وغيرهم، فكل هؤلاء أخذوا أطروحات على يد يهود أو نصارى لا يتقون الله، ولا يرقبون فيهم إلا ولا ذمة.

يقول الأستاذ سيد **"إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.."**

ونحن نعرف تاريخ الأستاذ سيد.. فقد ذهب إلى أمريكا وهو يعيش في مجالات الفكر الجاهلي والأدب الجاهلي، وكان له دور كبير في الفكر الثقافي المصري والعربي على السواء، وكان فارساً في هذا المضمار ولا شك.. عارض وطاول فيه كبار العقول العربية والإسلامية على السواء وعلى رأسهم العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم.

ثم يقول **"ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم -وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك- وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره. فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك!!!"**

ونلاحظ هنا روح التحدي التي تُميز الأستاذ سيد في هذه الكلمات، لأنه كان يعلم أن كل حرف في هذه الكلمات بمثابة رصاصة في قلوب وعقول من يقرؤون هذا الكلام من كُتَّاب الجاهلية الذين يعرفونه جيداً، والذين لا يعرفونه كذلك، ولكنه -كما قلنا- كان مفتاح شخصيته هو التحدي والصراحة والمواجهة، بصورة هي التي أهلته لكي يُرجع العالم كله إلى هذا التصور الجديد الذي غاب عن الناس، واستطاع أن يزرعه ويثبته في تربة البشرية، ولم يعد على البشرية الآن قدرة على مواجهة هذا الاتجاه الذي يتعمق كل يوم.

"وعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي!!!" ونحن حين نقرأ إنتاج الأستاذ سيد القديم من شعره وقصصه، وبعض فلسفته عن الحياة وهكذا.. لا شك أننا ندرك كم كان يغوص في وحل الجاهلية، ولكن حينما أراد الله له النجاة أخرجه من ذلك المستنقع إلى هذه الجنة الطاهرة.. جنة الإسلام والفكر الإسلامي، وأكرمه فيما نحسب والله حسيبه بالشهادة كمكافأة له عليه.

العداء لدين الله متأصل في الفكر الغربي

هدف اليهود هو إخراج المؤمنين والمسلمين عن ملتهم

"ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأياً لي أبديه.. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأي.. إنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه.." في قضية أنه لا يجوز أن نتلقى أي شيء بعيداً عن الله إلا في العلوم البحتة بعيداً عن فلسفتها يقول أن هذا ليس رأياً لي أبديه، لأن الأمر أكبر من أن يُفتى فيه بالرأي، إنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه **"إنما هو قول الله -سبحانه- وقول نبيه ﷺ.. نحكِّمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله والرسول، كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه."** فيقدم البيان الرباني في هذه القضية التي تحدد طبيعة النوايا الجاهلية تجاه الإنسان المسلم، وطبيعة المصدر الجاهلي، وتحدد المصدر الصحيح للمسلم، والنتيجة التي

تترتب على التلقي من غير المسلم، وذلك في بيان رباني واضح بينه الله لنا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقد كنا جميعاً من الذين لا يعلمون قبل ذلك... كنا نقرأ القرآن ولم نكن ندرك هذا البيان الرباني الواضح جداً، ولكن حينما تنطمس البصيرة ينطمس معها العقل البشري أيضاً

يقول الأستاذ سيد: **"يقول الله -سبحانه- عن الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة:**

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]."

ويأمر الله بعد ذلك بقتال هؤلاء وعدم التلقي منهم أو الصفح عنهم، فهذا البيان الرباني يحدد النوايا الجاهلية التي تكمن في قلوب أعداء الإسلام بالنسبة للمسلمين؛ إن الهدف النهائي هو ردهم عن دينهم حسداً من عند أنفسهم، وليس تمسكاً بالحقيقة، بل هم يعرفون أن الرسول ﷺ حق، وأنه هو الرسول الذي بشَّرت به التوراة والإنجيل، ولكنهم كفروا به حسداً من عند أنفسهم إذ لم يأت هذا الرسول من بني إسرائيل. والآية الثانية:

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

فهدف اليهود هو إخراج المؤمنين والمسلمين عن ملتهم، وأنه مهما فعل المسلم من تقرب لليهود والنصارى ومن متابعتهم في كل شيء، فإنه ما لم يخرج عن دينه فإنهم لن يرضوا عنه. فهدفهم النهائي هو إخراج المسلمين عن دينهم. والله عز وجل يحدد للمسلم المصدر الوحيد للتلقي؛ ﴿ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ ، وهذا أسلوب قصر فلا هدى إلا هدى الله وحده، ويهدد القرآن المسلمين وعلى رأسهم الرسول ﷺ أنهم إذا اتبعوا أهواء هؤلاء اليهود بعد الذي جاءهم من العلم عن طريق جبريل -عليه السلام- في القرآن ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠] وما أعظمه من تهديد، وما أشده من وعيد.

أما النتيجة لمخالفة هذا الأمر فتأتي في الآية الثالثة حيث يقول عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

هذه النتيجة التي تنتج من اتباع فريق من أهل الكتاب وهي أن يردونا عن ديننا كافرين بعد إيماننا، وبعد أن من الله علينا بهذا الإيمان.

والبيان النبوي في هذا واضح أيضا: **"ويقول رسول الله ﷺ فيما رواه الحافظ أبو يعلي عن حماد عن الشعبي عن جابر -رضي الله عنهم-: "لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني"."**

فهذا في الجانب التصوري، وفي الجانب الذي قلنا إنه محرم على المسلم أن يتلقى فيه من غير الله.

أما في العلوم البحتة فيمكن ذلك، إلى أن يكون للمسلمين علمهم الخاص.

"وحين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله سبحانه، يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، أو التاريخ الإسلامي، أو التوجيه في نظام المجتمع المسلم، أو في سياسته أو اقتصاده، أو يقصدون إلى خير، أو إلى هدى، أو إلى نور.. والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس -بعد تقرير الله سبحانه- إنما هم الغافلون!"

إنهم يدسون السم في العسل

ومن الناحية الواقعية حين نقرأ ما شئنا من الكتب التي كتبها الأوربيون ممن يسميهم الناس "المثقفين" نجد أنهم ليسوا منصفين، وأنهم يدسون السم في العسل، غير أن المسلمين، أو الذين يقرؤون هذه الكتب من المتمسلمين ليس عندهم الحس النقي ولا الرؤية المفصِّلة لكي يكتشفوا هذا السم الذي يدسه أولئك داخل هذا العسل المقدم، فينبهرون ببعض الاعترافات وبعض الثناء على الإسلام، فبعد ذكر بعض الحقائق من اليهود والنصارى عن الإسلام يظن الذين يقرؤون هذه الكتب أن هؤلاء قد أنصفوا المسلمين تماماً، غافلين عما يطعن به هؤلاء بعد ذلك في كتبهم تلك تحت ادعاء العدل والإنصاف. فالظن أن هؤلاء يمكن أن يريدوا خيراً للمسلمين ظن يخالف ويضاد قول الله سبحانه وتعالى. وحينما يقرر الله لنا أمراً فإنه لا ينبغي لنا أن نقول بعد كلام الله كلام، ولا أن نتلقى من هؤلاء، أو نقول في لحظة من لحظات الضعف والهزيمة هؤلاء يرجون لنا خيراً، أو أن هؤلاء يمكن أن نتعاون معهم؛ كما يقال "نتعاون مع اليهود والنصارى ضد الشيوعية" ثم نكتشف بعد ذلك أن اليهود والنصارى هم الذين صنعوا الشيوعية، وهم الذين هدموها، وما أقاموها ولا هدموها إلا ليصدوا عن سبيل الله عز وجل.

فكرة مجمعات الأديان ومؤتمرات التوفيق بين الأديان والحوار بين الإسلام وبين المسيحية وغيرها مما يجري إليه كثير من العمائم الإسلامية والأسماء الإسلامية.. هؤلاء جميعاً غافلون في أقل درجاتهم، إن لم يكونوا متواطئين أو مخادعين.

"كذلك يتحدد من قول الله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [البقرة: ١٢٠].. المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع إليه في هذه الشئون، فليس وراء هدى الله إلا الضلال، وليس في غيره هدى، كما تفيد صيغة القصر الواردة في النص: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [البقرة: ١٢٠].. ولا سبيل إلى الشك في مدلول هذا النص، ولا إلى تأويله كذلك!"

بيان رباني آخر في تحديد طبيعة الفكر الجاهلي؛ أنه يقوم على اتباع الظن وعلى العلم بظاهر الأمور وليس بحقيقتها، وبالتالي ينهانا الله عز وجل أن نتلقى ديننا أو حياتنا عن هؤلاء الغافلين، وعن هؤلاء الذين يسيرون وراء الظن، والظن ليس بعلم، أو يعلمون علماً ظاهراً ليس حقيقياً ولا صحيحاً.

"كذلك يرد الأمر القاطع بالإعراض عمن يتولى عن ذكر الله، ويقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا، وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظناً، والمسلم منهي عن اتباع الظن، وأنه لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فهو لا يعلم علماً صحيحاً.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]...

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]..."

وحينما يقرر الله عز وجل هذا القرار، ويُعلِّمنا بأن نثق الثقة المطلقة بربنا عز وجل أنه أعلم بمن ضل عن سبيله وأعلم بمن اهتدى، وحينما يوجهنا لكيفية التلقي، وإلى مصادر التلقي الصحيحة، وينهانا عن المصادر الباطلة، ينبغي أن نأخذ كلام الله عز وجل بما يليق به من التسليم والثقة والطمأنينة والفرح والالتزام ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

ومن ثم فإن أولئك لا يمكن أن يعطونا علماً صحيحاً، ولا علماً يخدم آخرتنا. وإنما هم يقصرون نشاطهم وطموحاتهم على هذه الحياة الدنيا.. **"والذي يغفل عن ذكر الله، ولا يريد إلا الحياة الدنيا -وهو شأن جميع "العلماء!" اليوم- لا يعلم إلا هذا الظاهر، وليس هذا هو "العلم" الذي يثق المسلم في صاحبه فيتلقى عنه في كل شأنه، إنما يجوز أن يتلقى عنه في حدود علمه المادي البحت، ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً للحياة، أو النفس، أو متعلقاتها التصورية... كما أنه ليس هو العلم الذي تشير إليه الآيات القرآنية وتثني عليه، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها ليستشهدوا بها في غير مواضعها؟ فهذا السؤال التقريري وارد في آية هذا نصها الكامل:**

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

فهذا القانت أناء الليل، ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. هو هذا الذي يعلم.. وهذا هو العلم.. الذي تشير إليه الآية، العلم الذي يهدى إلى الله وتقواه.. لا العلم الذي يفسد الفطرة فتلحد في الله!"

وفي سورة سبأ أيضاً يحدد الله عز وجل العلم ويحدد العلماء في قوله عز وجل ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].. فالذين لا يرون ما أنزل إلى الرسول هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ليسوا علماء، وبالتالي يتحدد معنى العلم المقصود في قول الله عز وجل ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] في ذلك العلم الذي يؤدي إلى العبودية المطلقة لله عز وجل.

أصول مناهج الفكر الغربي والعداء للدين

"إن العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض الدينية والشرائع.. فالعلم يشتمل كل شيء، ويتعلق بالقوانين الطبيعية.. وتسخيرها في خلافة الأرض تعلقه بالعقيدة والفرائض والشرائع.." فالعلم البحت حينما يرتبط بالقاعدة

الإيمانية يؤدي إلى تمكين المسلم من إقامة الخلافة في الأرض، ولكن إذا انقطع عن القاعدة الإيمانية فيؤدي إلى الفساد الذي نراه في كل جاهليات التاريخ.

"إن هناك ارتباطاً بين القاعدة الإيمانية وعلم الفلك، وعلم الأحياء، وعلم الطبيعة، وعلم الكيمياء، وعلم طبقات الأرض.. وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية، والقوانين الحيوية.. إنها كلها تؤدي إلى الله، حين لا يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله.. كما اتجه الفكر الأوربي في النهضة العلمية -مع الأسف- بسبب تلك الملابسات النكدة التي قامت في التاريخ الأوروبي خاصة، بين المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الغاشمة! ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الأوروبي كلها، وفي طبيعة التفكير الأوروبي، وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة.." حتى العلم البحت هو علم يؤدي إلى الله، والمفترض أن الإنسان الذي يعيش في دائرة هذه العلوم البحتة يلمس يد الله، وهي تصمم هذا الوجود.. وهي تُسيِّر هذا الوجود.. وهي ترعى هذا الوجود، فيزداد إيماناً على إيمانه، ويزداد علما على علمه.. لكن حينما لا يؤدي هذا العلم إلى الإيمان بالله فيكون علماً ملعوناً، وليس علماً مباركاً. وكما يقول الرسول ﷺ (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم)[٣]. فأي علم لا يؤدي إلى الله فهو علم ملعون لأنه لا يؤدي إلى خير على الإطلاق. وحتى الخير الظاهر الذي قد يبدو فيه من التسهيلات فهو يُستغل أسوأ استغلال في تخدير الإنسان للاستجابة لغرائزه وشهواته ولظلم الإنسان..

فحينما يُدرِّس العلماء الكون فإنهم يدرسون صَنْعَة الله ويدرسون كون الله، فهم يدرسون إذن ما يتصل بالحق وما يؤدي إلى الإيمان. لكن حينما ينحرف الإنسان متعمداً عن هذا الأمر فإنه لا يضر إلا نفسه، وهذا ما صنعته الجاهلية المعاصرة، وكل جاهليات التاريخ. فالجاهلية اليونانية والجاهلية الرومانية مثلا رغم كل ما كان عندهم من عقول كبيرة، ولكنها كلها عقول أدت إلى الفساد، سواء سقراط أو أرسطو أو أفلاطون أو غيرهم، وحتى مع إيمانهم أن وراء هذا الكون واجب الوجود، لكنهم لم يرتبوا على هذا الأمر أي شيء في الجانب الدنيوي، بل على العكس نجد أن سقراط وأفلاطون كانوا ضد الأخلاق وضد القيم وضد الضعفاء، وأشياء كثيرة جداً في مناهجهم الاجتماعية تضاد تماماً الفطرة الإسلامية. فأوروبا أو الفكر الجاهلي عموماً استغل العلم استغلالاً معادياً للدين ومعادياً لله عز وجل.

ولعل معاصرتنا للجاهلية الآن هي التي تجعلنا نحس بضراوة الكفر المعاصر. لكننا لو كنا قد عاصرنا اليونان أو الرومان أو الفرس أو الهنود لكنا قد وجدنا هذا أو قريباً منه. فليس هناك فروق كبيرة إلا في التسهيلات الجديدة التي قد تكون صنعتها الجاهلية المعاصرة من خلال التقدم العلمي.. لكن نوعية الفساد ومجالاته وعمقه وعنفه كان واضحاً جداً في الجاهليات القديمة، وكانت القسوة والعنف الإنساني أمراً بارزاً جداً في الحياة القديمة كما هو موجود الآن... فما يُصْنَّع الآن في كوسوفو صُنِع تماماً مثله في كل البلاد التي استعمرها الرومان، وكانوا يعاملون أهل المستعمرات معاملة يقشعر منها البدن.. كانوا يسكبون الزيت المغلي في حلوق العبيد وحلوق أهل المستعمرات، وكانوا يقطعون أوصالهم قطعة قطعة وهم أحياء، وكانوا يقدمونهم للحيوانات المفترسة ويسعدون بذلك، أما عن الاغتصاب وغيره فكان وجبة طبيعية جداً للرومان ولليونان وللهنود ولكل الجاهليات

٣ رواه الترمذي وحسنه عن أبي هريرة مرفوعا ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ورواه أبو نعيم في الحلية والضياء عن جابر -رضي الله عنه-.

القديمة.. بل كانت هناك أديان تقوم على العلاقات الجنسية باعتبار أن البغاء تقرب إلى الله، وأن العمل الجنسي داخل المعبد تقرب للآلهة، وكان على كل فتاة أن تقدم نفسها ولو مرة في العام قرباناً للآلهة بأن تزني داخل المعبد كي ترضى عنها الآلهة. فكانت الأفكار القديمة لا تقل حقارة وقسوة وانحطاطاً عما نسمعه الآن في الواقع المعاصر.

والقسوة الموجودة الآن عند أوربا هي قسوة موروثة من قديم الزمان، وليست مستحدثة في أوربا وحدها.. كان الفراعنة كذلك، وكانت المنطقة هنا لا تقل في ذلك عن هذه الضراوة. وهذا أمر طبيعي حينما ينفصل الإنسان عن الإيمان الحق والارتباط الحق بالله. فالإنسان حينما يكون مسلماً يكون متحضراً كما قلنا. وحينما لا يكون كذلك يكون كائناً همجياً حقيراً ومرعباً ومخيفاً.

فالحقيقة أن أوربا الآن هي أوربا قديماً. والجاهلية الآن هي الجاهلية قديماً. بصرف النظر عن التغير في الأشكال والألوان. لكن الممارسات تكاد تكون هي هي.

"وإذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي، ونتاج هذا الفكر في كل حقول المعرفة، يقوم ابتداءً على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لأصل التصور الديني جملة، فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداءً للتصور الإسلامي خاصة، لأنه يتعمد هذا العداء بصفة خاصة، ويتحرى في حالات كثيرة -في خطه متعمدة- تمييع العقيدة والتصور والمفهومات الإسلامية.." وهذا واضح في الواقع المعاصر، وهؤلاء الذين يسيرون وراء القافلة الغربية من المفكرين المتمسلمين في هذه المنطقة يستقون خططهم من هؤلاء. وكما نرى فهم يضيقون جداً بالتميز الإسلامي، ويضيقون جداً برأي من يسمونهم بالمتطرفين؛ يضيقون بردهم للرأي الآخر، ويعتبرونه تعصباً ذميماً. أنشأ العقدة منه في نفوسهم الثورة الفرنسية والفكر الغربي الذي جاء بالديمقراطية والذي يستمع لكل الآراء، بينما هم في الحقيقة أشد تعصباً من أي متعصب في العالم العربي. فنراهم في يوغسلافيا -مثلا- ينتقمون من أهل كوسوفو لأن كوسوفو كانت هي المفتاح لدخول القوات العثمانية إلى داخل أوربا، فلذلك ينتقمون منهم بعد ثمانية قرون أو سبعة قرون، وهذا أمر عجيب جداً، ثم لا يألون فيهم إلاًّ ولا ذمة بعد هذا التعايش الطويل الذي عاشوه جنباً إلى جنب في دولة واحدة. وتتكاتف الأرض كلها على إعطائهم الفرصة للانتهاء من هذا التطهير العرقي تحت ستار هذه التمثيلية الخاصة بالناتو الأطلنطي. فلا شك أن هذه الروح لا توجد أبداً إلا في نفوس جاهلية تعيش في أعمق أطوار الانحطاط والتفسخ. ولذلك فإن محاولة تمييع وتضليل المسلمين عن حقيقة الإسلام بتمييع الثقافة والتراث الإنساني هي محاولة جادة من الجاهلية لكي تسحب من المسلمين أصالتهم وتميزهم، وتُميِّع قوامهم الذي ينبغي أن يكون قوياً وصلباً، وتحرمهم من طوق النجاة الذي يرتبطون به، وهو حبل الله المتين وقرآنه الحكيم.

الخاتمة

لذلك بعد أن اتضح لنا أن الفكر الجاهلي عموماً، والفكر الغربي خصوصاً، معادٍ للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي خاصة، يصبح من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي، وعلى نتاجه كذلك في الدراسات الإسلامية.. وأيضا تجب الحيطة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقيها من مصادرها الغربية، وتنقيتها من أية

ظلال فلسفية تتعلق بها، لأن هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جملة، وللتصور الإسلامي بصفة خاصة. وأي قدر منها يكفي لتسميم الينبوع الإسلامي الصافي.

وبذلك يتضح ارتباط الثقافة بالتصور الإسلامي، وما هو معنى الثقافة، وما هي مجالاتها، وما هي مصادرها. ويتبين لنا البيان الرباني الذي يحدد لنا حقيقة أي مصادر أخرى غير المصدر الرباني. ويبين لنا البيان الرباني أيضاً حقيقة نوايا الجاهلية، وحقيقة أهدافها، وحقيقة سلوكياتهم ومناهجهم. وبذلك يصبح لدينا العلم الواضح والبيان الشافي لكيفية تلقي الثقافة، وكيفية تميزنا، وكيفية استفادتنا، وكيفية تقبلنا، وكيفية رفضنا، من خلال هذا البيان الرباني الكامل.

ولا شك أن هذا يعطينا خلاصة جيدة لهذا الفصل، ويعطينا يقيناً كاملاً للحق الذي نحن عليه، ويعطينا اعتزازاً عميقاً بالمصدر الذي نتلقى منه، وبالتوجيهات المنيرة التي أكرمنا الله بها. كما يمدنا أيضا بتلك الرحابة التي تجمع بين خير الدنيا وخير الآخرة، فلا شك أن العلم المرتبط بالإيمان -حتى لو كان علماً بحتاً- يحقق لنا خير الدنيا، بينما تلك العلوم حينما تنقطع عن القاعدة الإيمانية تستعمل في تحطيم البشرية؛ سواء تحطيمهم كموجودات وخلائق كما يحدث في الحروب النووية وغيرها، أو تحطيمهم ككيانات إنسانية من خلال استعمال كل الإنجازات الحضارية في إفساد فطرة الإنسان وفي إشاعة الفاحشة وفي تيسيرها. ولكن العلم الإيماني يعطينا هذه الرحابة، مع جمعه لنا خير الدنيا والآخرة..

ويعطينا هذا الفهم الجيد لمفهوم الثقافة وارتباطها بالتصور الإسلامي قوة الطمأنينة، والاستناد إلى الله، وإلى معية الله في إدارة الحياة الدنيا، والذي يُمكِّن ولا شك الإنسان من أداء وظيفة الخلافة في الأرض، فالإنسان بوصفه خليفة لله في الأرض يعتمد ويتوكل توكلاً كاملاً على الله، وأول أنواع التوكل هو التلقي الواضح من الله سبحانه وتعالى في كل خطوة من خطواته، فيسير على نور من الله، سواء في حياته النفسية والعقدية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية، أو في إقامة حضارته المادية، حينما يرتبط علمه المادي ويرتبط إنجازه المادي بالقاعدة الإيمانية القائمة على الحق. ولا شك أن هذا يعطي المسلم قوة، ويربطه بالله وبمعية الله، فيحس أن الله هو الذي يدير حياته الدنيا، كما يوجهه في كل شيء، وهذا هو معنى الوظيفة التي خلق الإنسان من أجلها؛ وظيفة الخلافة في الأرض..

جماعة الصادعون بالحق

الفصل التاسع

شروح

كتاب

معالم في الطريق

جنسية المسلم عقيدته

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

العقيدة وانعكاسها على الروابط والوشائج الإنسانية ١
الأسر المبارك: رد الإنسان إلى الألوهية الواحدة والسلطة المتفردة ٢
مقررات ربانية ٤
المقرر الأول: هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله ٤
المقرر الثاني: هناك حزبا واحدا لله لا يتعدد.. ٦
المقرر الثالث: هناك طريقا واحدا يصل إلى الله ٧
المقرر الرابع: هناك نظاما واحدا هو النظام الإسلامي ٨
المقرر الخامس: هناك شريعة واحدة هي شريعة الله ٨
المقرر السادس: هناك حقا واحدا لا يتعدد.. ٩
المقرر السابع: هناك دارا واحدة هي دار الإسلام ١١
الحق الناصع: جنسية المسلم عقيدته ووطنه الذي تقام فيه شريعة ربه.................................. ١٢
قرابة الدم وقرابة العقيدة ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ١٢
آثار القيم الربانية على واقع البشرية.. ١٨
دار الإسلام ودار الحرب ١٨
خاتمة الفصل ومعنى الشهادة ٢٠
استبانة سبيل المجرمين هو السبيل لثبات واستعلاء أصحاب الدعوة ٢٥

جنسية المسلم عقيدته

العقيدة وانعكاسها على الروابط والوشائج الإنسانية

نتحدث في هذا الفصل الجديد عن معلم جديد من معالم الطريق. وأذكِّر أنها معالم، وأنها لا بد أن تستوعب استيعاباً عميقاً. لأنها رغم اختصارها وإيجازها إلا أنها تمثل معالم رئيسية.

والمعلم هو الذي يهتدي به السائر في الطريق الذي يوصله. والطريق الذي بلا معالم طريقٌ يؤدي إلى التيه ويؤدي إلى الضلال. فلا بد أن يعرف المسلم معالمه، ومعالم طريقه، ليسير ولا يحيد عن هذا الطريق.

وهذا الفصل من أهم وأخطر معالم الإسلام ومعالم هذا الطريق النير المنير الذي ارتضاه الله لنا.. فصل "جنسية المسلم عقيدته". ولا شك أنه من العنوان تبدو لنا أهميته الضخمة والكبيرة.

يقول سيد قطب رحمه الله: **"جاء الإسلام إلى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات، ولحقيقة الجهة التي تتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات.."**

وكما قلنا قبل ذلك؛ أن محمداً ﷺ يوم أن جاء بهذا الدين كانت البشرية قد ارتدت ردة كاملة إلى الجاهلية، وأن الله عز وجل نظر إلى الناس فمقتهم جميعاً عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وأن محمداً ﷺ جاء بعد رسالة عيسى عليه السلام بستة قرون تقريباً. وفي هذه الفترة تلقفت الطواغيت البشرية، وارتدت بها إلى جاهلية كاملة. فحينما جاء الإسلام إلى هذه البشرية جاء بتصور جديد في كل شيء. ومن هذه التصورات الجديدة.. التصور لحقيقة الروابط والوشائج بين البشر، بعضهم مع بعض، وذلك يوم جاءهم بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات، لأن هذه الروابط والوشائج تقوم على قيم وتقوم على اعتبارات معينة، تستمد مادتها من التصور الأساسي؛ وهو التصور الاعتقادي الجديد الذي جاء به محمد ﷺ إلى البشرية يوم جاءها وكل شيء كان قد تغير من مكانه وفسد واضمحل. فجاء رسول الله ﷺ بعد أن أوحى الله تعالى له عن طريق جبريل بهذا التصور الاعتقادي الجديد.

ومن هذا التصور الاعتقادي الجديد انبثقت كل التصورات الأخرى، والتي هي أيضاً جديدة في حقيقتها.. جديدة في مجال الروابط والوشائج -وهذا هو موضوع هذا الفصل- وجديدة أيضاً في تصور معنى القيم وحقيقة القيم والاعتبارات -والتي تكلمنا عن كثير منها أثناء استعراضنا لمعالم الكتاب السابقة- وجديدة أيضاً في تصور حقيقة الجهة التي تتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات.

هذه التصورات الجديدة كلها جاءت لتواجه تصورات الجاهلية الكثيرة جداً، والمتنوعة جداً. والذي يدرس الجاهلية، أو يدرس فترات ضلال البشرية في أي وقت من الأوقات، وخاصة في ذلكم الوقت الذي جاء فيه رسول الله ﷺ سيجد أن البشرية كانت تعج بالأفكار والمذاهب والتصورات القائمة على الأساطير وبقايا الأديان السماوية، وعلى الفكر الوثني والفكر الفلسفي.. ركام هائل جداً كانت تقتات عليه البشرية يوم جاءها رسول الله ﷺ بهذا الوحي، وهذا السراج المنير الذي أضاء للبشرية طريقها، فجاءها بتصورات جديدة في مواجهة تلكم التصورات الجاهلية التي كانت تتخبط في دياجيرها هذه الجاهلية التي كانت تعم البشرية جميعاً.

الأسر المبارك: رد الإنسان إلى الألوهية الواحدة والسلطة المتفردة

"جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه.." ونقف عند كلمة (ليرد).. ليرد الإنسان إلى ربه سبحانه وتعالى.. ذلك لأن الإنسان لا بد أن يعي بكل ما أوتي من إدراك ووعي وشعور حقيقة أن الله عز وجل هو رب الوجود الذي ترتبط به حياة هذا الإنسان.. جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى الله عز وجل رب هذا الوجود.. ليرد هذا الإنسان الذي يضيع تماماً حينما ينفلت من أسر العبودية لله عز وجل؛ هذا الأسر المبارك الذي يعصمه من الضلال والضياع والتشتت والانحطاط والخوف والهلع والفزع الذي تعيش فيه الجاهلية جماعات، وتعيش فيه أفراداً.. فهم -في الحقيقة- يعيشون في فزع وتخبط وضياع. والإسلام قد جاء ليرد الإنسان إلى ربه.. وهذه الحقيقة ينبغي أن يعيها الإنسان تماماً بكل ما أوتي من إدراك ووعي وشعور. ويحاول أن يستنفر جميع القوة النفسية والفكرية والعقلية والوجدانية لكي يستوعب هذه الحقيقة.. حقيقة؛ أن الله هو الوجود الحق الذي ترتبط به حياة الإنسان منشأً ومصيراً، وما بينهما من زمن في مكابدة الحياة.. فالإنسان مرتبط بالله ارتباطاً كاملاً شديداً، لا ينفك عنه لحظة واحدة، منشأً ومصيراً. وما بين المنشأ والمصير هو أيضاً في قبضة الألوهية، تُسيِّره كيف شاءت، وتهيئ له من الأمور ما تشاء، فهو في أسر الألوهية، وفي أسر هذه العبودية، لا يستطيع منها فكاكاً.

فالله سبحانه وتعالى هو الحقيقة التي تحيط بالإنسان أينما كان وأينما صار، في كل مرحلة من المبدأ إلى النهاية إلى الموت إلى البعث إلى ما بعد ذلك. وفي هذه المراحل كلها يكون الإنسان في قبضة الألوهية، لا يستطيع أن ينفك عنها.. فلا بد أن يعي هذه الحقيقة. فالجاهلية تنزع الإنسان من هذه القبضة المباركة، وتنزع الإنسان من هذا المأمن الذي يعيش فيه، وتنزع الإنسان من هذه الجنة؛ جنة الإيمان، وجنة التقوى، وجنة الكرامة، وجنة الأمن، وجنة الرفعة والرقي.. تنزعه الجاهلية لتلقيه في مستنقع حقير من المستنقعات الجاهلية.. وما أكثرها.. فيفقد الأمن والطمأنينة واحترام الذات، ويفقد معها كرامته، ويفقد معها كل شيء. فالجاهلية مهمتها أن تحاول اختطاف هذا الإنسان؛ كما يعبر الحديث (إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)[1] تجتالهم.. وتصرفهم لكي تبعدهم عن عبادة الله عز وجل، وعن هذه العصمة التي ينعمون بها؛ وهي عصمة العبودية لله من كل شر. فحينما يكون الإنسان عبداً لله فهو في محضن الألوهية، وفي محضن الرعاية الربانية.. فتأتي الجاهلية لتجرده من هذه الحماية، وهذا هو وعيد الشيطان الذي قاله.. ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

---

[1] رواه مسلم من حديث عياض بن حماد -رضي الله عنه-.

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] ووعيده أيضا.. ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]. فمهمة الشيطان هو وحزبه أن يجتالوا البشرية بعيداً عن هذه الجنة الوارفة الظليلة التي يعيش فيها المؤمن في الأرض، قبل أن ينتقل منها يوم ينتقل إلى جنة عرضها السماوات والأرض..

"جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه، كما تلقى منها وجوده وحياته، والتي يرجع إليها بروابطه ووشائجه، كما أنه من إرادتها صدر وإليها يعود."

كلام رائع وعميق، يربط الإنسان ربطاً كاملاً ومطلقاً بالألوهية العظيمة الواحدة التي لا يشاركها شيء في الوجود وفي الصفات وفي الأفعال..

جاء الإسلام ليرد الإنسان إلى ربه، وحينما يرد الإنسان إلى ربه يرده أيضاً إلى السلطة الواحدة التي تهيمن على هذا الوجود كله، ليتلقى منها حياته كلها.. فيتلقى منها موازينه وقيمه، وليس من هواه ولا من رغباته ولا من تجاربه ولا من عقله وعلمه.. وإنما يتلقاها منه سبحانه، فهو الذي خلقه، وهو أعلم به.. يتلقى منه هذه الموازين وهذه القيم، لأنه تلقى منه -أو من هذه الذات، ومن هذه السلطة- وجوده أول مرة، وحياته أول مرة حينما كان عدماً، فشاء الله عز وجل أن يخرجه إلى الوجود، بإرادته ومشيئته المطلقة. فكما أنه خرج من بين يدي الله سبحانه، وبمشيئة الله، وبكلمة "كن" وجد وعاش، فإنه يرجع أيضا إلى هذه السلطة -سلطة الله سبحانه- ليأخذ منها روابطه ووشائجه..

فلا شك أن هذا التصور؛ تصور رد الإنسان إلى الله عز وجل لتكون سلطة الله هي السلطة الواحدة التي تهيمن على حياته يعمّق الشعور بأن الله هو الملك والسيد وصاحب الأمر، كما أنه صاحب الخلق، ويعمق في شعور الإنسان تفرد الله سبحانه وتعالى بالملكية والهيمنة والسيطرة والحاكمية.. هذا الشعور لا بد أن يكون شعوراً يقينياً عميقاً، كما يشعر -بل أشد- مما يشعر به الناس حينما يخضعون لملك أو يخضعون لإمبراطور يجدون فيه كل السلطة والهيمنة، فيخافونه في سرهم وعلانيتهم، لأنهم آمنوا واعتقدوا بأن هذا الملك أو هذا الإمبراطور صاحب سلطة عليا وصاحب نِعَم عليهم، وأنهم يخشون بطشه، لذلك تجد الناس يتعاملون مع ملوك الأرض بهذه المشاعر اليقينية، فيخافونهم، ويطمعون فيهم، ويتزلفون إليهم ويتملقونهم، ويخشونهم بالغيب، ويخشونهم في الشهادة، وهم بشر مثلهم، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً.. فالمؤمن لا بد أن يستبدل بهذا الشعور شعوراً آخر، وهو الشعور الحق، ليؤمن إيماناً عميقاً بأن الله هو صاحب السلطان.. وهو السلطة الوحيدة في حياته.. ليس بجانبها سلطة أخرى، ولا يجوز أن يكون بجانبها سلطة أخرى؛ لا ملك ولا إمبراطور ولا رئيس ولا وزير، ولا شيء على الإطلاق.. هؤلاء جميعاً عبيد لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فالإسلام جاء ليرد الإنسان إلى ربه، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة في حياته، لأن هذه السلطة هي التي استمد منها وجوده أول مرة، واستمد منها حياته، ومن إرادتها صدر أول مرة، ولإرادتها يعود مرة أخرى.. هذه -الحقيقة- لا بد أن تُوِّلّدَ شعوراً عميقاً ينتج آثاراً عظيمة في حياة الإنسان، لأنه حينما يتعمق هذا الشعور بصدق فإنه المسلم سيكون أقوى الناس، وأشد الناس إيماناً، وأشد الناس يقيناً، ولا يستطيع أن يتخيل الخروج عن هذه السلطة لحظة واحدة مهما كانت المخاوف ومهما

كانت التهديدات ومهما كانت الإغراءات. فهو على يقين بأن الله هو صاحب السلطة الواحدة، وأن كل ما يُهَدَّد به من السلاطين الآخرين لا قيمة له، لأنها سلطة مزيفة لا قيمة لها.. وحينما يؤمن بيقين بهذا الشعور فإنه لا يخشى أحداً إلا الله ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

هذا المعنى العميق؛ معنى أن الإسلام جاء ليرد الإنسان إلى ربه، وليجعل سلطة الله خالقه هي السلطة الوحيدة في حياته.. قضية كبيرة، بل هي قضية الوجود كله، وقضية الإنسان على الأرض، وقضية المسلم الوحيدة طوال حياته على هذه الأرض. ومن خلالها يستمد المسلم كل شيء في حياته، ومن خلالها يعيش، وبها يتنفس، وعليها يموت، وعليها يلقى الله تعالى، وبها ينجو من عذاب جهنم ومن غضب الله، وبها يفوز بالجنة ورضوان الله. وهذه الصورة العميقة إن لم تتيقنها نفوسنا، وتصبح أبده من البديهيات فسيظل إيماننا مزلزلا وسيظل إيماننا ضعيفا. فإذا هبت الرياح والأعاصير -حتى وإن كانت ضعيفة- فقد تزلزل الإنسان من قاعدة الإيمان إلى قاعدة الشرك والجاهلية والعياذ بالله.

وعلى هذه القاعدة التي تكلمنا عنها، وهذه الحقيقة التي جاء الإسلام بها ليرد الإنسان إلى ربه، كانت هذه الحقيقة تصوراً جديداً تماماً على البشرية حينما جاء محمد ﷺ، وهي جديدة اليوم أيضاً على هذه البشرية التي نعيشها الآن.. فالبشرية الآن تؤمن بكل سلطان غير سلطان الله، أو بمعنى أدق تؤمن أن أي سلطان على الأرض هو أعظم من سلطان الله. ولذلك لا يوقرون الله، ولا يخشونه. وتراهم يعملون حساباً لعقل البشرية، ولعلم البشرية، ويعملون حساباً للوطن، ويعملون حساباً للعلماء، ويعملون حساباً للدنيا والمنفعة.. ولكن لا يعملون حساباً لله عز وجل.

فالبشرية الآن تقف في نفس الموقف الذي وقفته البشرية قبل ذلك حينما جاء الإسلام أول مرة ليرد الإنسان إلى ربه، وليجعل سلطة الله هي السلطة الوحيدة.. نحن الآن في زمننا الحاضر نجد أن البشرية في حاجة إلى أن تُرَد إلى الله عز وجل، وأنْ تعلم أنّ السلطة الوحيدة هي سلطة الله سبحانه وتعالى، وأن ما دونها هو الباطل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

مقررات ربانية

وعلى هذه القاعدة نجد أن هناك مقررات ربانية صادرة من هذه السلطة الوحيدة، يوردها صاحب المعالم هنا واحدة وراء أخرى. فهي مقررات ربانية، استمدت قوتها ووجودها من القاعدة الأولى؛ وهي قاعدة أن الله هو رب الناس ورب هذا الوجود كله، وأنه هو السلطة الوحيدة التي لا يشاركها أحد، وأنه كما أنه هو صاحب الخَلْق فهو صاحب الأمر وصاحب الهيمنة والملكية والحاكمية في حياة هذا الوجود كله.

المقرر الأول: هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله

"جاء ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله، فإذا انبتّت هذه الوشيجة فلا صلة ولا مودة.." هذا أول قرار في هذا الفصل يرسي هذه القاعدة؛ إن الإسلام جاء ليقرر أن هناك وشيجة واحدة تربط الناس في الله، لكونهم عبيدا لله

عز وجل، فهم جميعاً مرتبطون بوشيجة واحدة تربطهم في الله عز وجل. فإذا انبتَّت هذه الوشيجة في الله فلا صلة ولا مودة. لأن هذه الوشيجة هي التي تجمعهم على الله ولا تفرقهم. وهذا موقف بديهي؛ أن الناس قد خلقهم الله، ومن ثم فلا بد أن يجتمعوا على الله ولا يتفرقوا. فإذا اجتمعوا على الله تجمعوا، وإذا تفرقوا على آلهة أخرى كثيرة حدث الشتات وحدث التفرق.. ولذلك كان القرار الأول أو القاعدة الأولى؛ أنه ليس هناك وشيجة يتجمع عليها الناس ويرتبط بها الناس إلا الإيمان بالله، والأخوة في الله سبحانه وتعالى. يقول الله عز وجل ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

هكذا في صورة واضحة كاملة؛ أن الوشيجة المعتبرة في الإيمان وفي العقيدة هي الصلة في الله عز وجل، أما صلة الدم فصلة ثانوية جداً، لا اعتبار لها إلا إذا قامت الوشيجة الأولى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢].. لا تجد قوماً يؤمنون.. وكأن هذا هو علامة الإيمان.. علامة الإيمان ألا يتولى المؤمن إلا من كان يؤمن مثله بالله تعالى. وأما الذين يحادون الله ورسوله فليس بينه وبينهم علاقة، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.. فكل الروابط تسقط، وكل الروابط تهوي، وكل الروابط تفقد قيمتها وتفقد الاعتراف بها حينما تفقد الرابطة الأولى؛ رابطة الإيمان بالله.. لذلك وجدنا مصعب بن عمير في بدر حينما أُسِر أخوه (أبو عزيز بن عمير)، وكان الذي أسره بلال العبد الحبشي الذي كان يداس بالأقدام في مكة من أسياده، وأبو عزيز بن عمير من أسياد مكة.. فلما رأى أبو عزيز أخاه مصعبا ناداه: يا أخي يا أخي، قال مصعب لست لي بأخ إنما أخي الذي يسوقك، ثم وجه الكلام لبلال قائلا: أشدد عليه فإن له أماً غنية إن علمت أن القيد آلمه فستفتديه بمال كثير.. ذُهل أبو عزيز بن عمير.. أخي مصعب يتصرف هكذا! أين العصبية، وأين الشرف؟ ويا ليت الذي أسرني رجل من أشراف قريش.. عمر أو أبو بكر أو من شابههما.. ولكنه بلال هذا العبد الأسود الحقير في ظنه!! يقف بجانبه مصعب ويقول: هذا أخي.. ويتنكر للأخوة في الشرف.. كانت هذه ثورة.. ثورة هائلة في ميدان القيم والاعتبارات.. سقطت الجاهلية.. وسقطت مقالة الجاهلية: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً سقط قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت   غويت، وأن ترشد غزية أرشد

سقطت هذه المقالة.. فلم تعد القبيلة إلها، ولم تعد عصبية الدم إلها، ولم تعد لأخوة الدم قيمة.. جاء الإسلام ليصنع أساساً جديداً، وليصنع ثورة جديدة ظهرت في سلوك المسلمين.. ظهرت حينما تآخى المهاجرون والأنصار.. هؤلاء الأعداء التقليديون.. فقريش كانت عدنانية، وأهل يثرب الخزرج والأوس كانوا قحطانية، وكانت قحطان هي أصل العرب، والعدنانيون جاءوا من ولد إسماعيل. فكان القحطانيون ينظرون إليهم على أنهم وافدون عليهم وليسوا أصلاء في العروبة.. ولهذا كان الصراع بين أهل المدينة وأهل مكة صراعاً على الأصل وصراع على القيمة. ولذلك شاء الله عز وجل أن يكون مهجر الرسول ﷺ إلى المدينة لأن المدينة هي القوة الحقيقية التي تستطيع أن تقف أمام مكة، لأنها ليست تبعاً لأهل مكة.. فهم يرون أنهم الأصل فلا يهمهم أهل مكة ولا تهمهم قريش، وخاصة إذا جاء ابن قريش: النبي ﷺ لينصروه، فقد جمعوا إذن شرف قريش وشرف قحطان. ولذلك استطاعوا أن يقفوا ويذلوا قريشاً، ثم يفتحون قريشا بعد ذلك..

إخاء المهاجرين والأنصار آية من آيات الله التي حدثت.. وقد أحدثها الإسلام حينما نسي المهاجرون أنهم قرشيون وعدنانيون، ونسي الأنصار أنهم قحطانيون، ونسي الخزرج والأوس ما بينهما من عداوات، وتآلفت القلوب، ونسوا تماماً ما كان بينهم من عصبية.. ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وهذا هو المقرر الأول..

المقرر الثاني: هناك حزبا واحدا لله لا يتعدد

"وأن هناك حزباً واحداً لله لا يتعدد، وأحزاباً أخرى كلها للشيطان وللطاغوت.." ولعل كلمة حزب لها طعم خاص عند المؤمن. ليست كذلك المذاق الذي يتصوره أهل الجاهلية. الحزب عند المؤمنين هو ذلك الفريق الذي التقى على الله وحده سبحانه وتعالى. فليست المصلحة، وليست التعصبات، وليس الجنس، ولا اللون، وليست مصلحة الوطن، ولا مصلحة القوم هي التي جمعتهم.. ولكنه حزب نوراني، يربطه الحب في الله، والأخوة في الله، والعبودية لله عز وجل.

وكلمة حزب في عصرنا الحاضر يعترف بها القوم، فلماذا لا يعترفون إذن بحزب الله؟ وهم يعترفون بكل الأحزاب إلا الحزب الذي يقوم على الدين، فيحرمونه. لأنهم يعرفون أن الحزب الذي يقوم على الدين هو أقوى الأحزاب، حتى لو كان ديناً باطلاً، لأنهم يعرفون قيمة الدين وما تحدثه العقيدة -ولو كانت عقيدة باطلة- أمام تجمعاتهم وأحزابهم المهترئة التي لا تجتمع على خير أبداً. فهم يحرمون الأحزاب الدينية، ويحرمون حزب الله، لأنه حزب يضيقون بمبادئه ويضيقون بوجوده.

وفي بعض الأحيان تُصادِر النظم الاستبدادية والديكتاتورية الأحزاب كلها ولا تعترف إلا بقوتها وإلا بفكرها. وتعتبر المرجع هو ذلك الحاكم المستبد الذي يغتصب حق الألوهية لنفسه على الشعوب، ويصبح هو المستبد الوحيد، الذي يشرع ويقنن ويحاكم ويعاقب ويجازي هو وحده. ثم ينقمون على المؤمنين أن يتخذوا إلهاً واحداً يخضعون له ليكون هو صاحب الحاكمية الوحيد، والذي يحكمهم ويشرع لهم، ويجازيهم ويعاقبهم.. فيسمحون بهذا للطواغيت والديكتاتوريين والمستبدين، بما لا يسمحون به لله عز وجل. ويصبح المؤمنون الذين يدعون إلى حاكمية الله، وأن يكون الله هو الحاكم الوحيد والمشرع الوحيد والمقرر الوحيد والمحرر الوحيد والمجازي الوحيد.. يصبحون متطرفين، ويصبحون جهلاء، ويصبحون مفترين.

بينما البشرية في كل أوقاتها تسلم أمرها لحاكم مستبد، يستبد بها ويحكمها ويشرع لها ويعاقب ويجازي، ولا يعترضون على ذلك بشيء. وحتى الديمقراطية حينما جاءت وأقامت الأحزاب.. فإنها تعطي لحزب الأغلبية ما تعطيه لحزب الديكتاتورية، ويصبح حزب الأغلبية هو الذي يشكل الحكومة، وهو الذي يملك القول في البرلمان، وهو الذي يقرر كل شيء، وتصبح فرصة الحكم للحزب الغالب هي فرصته الهائلة التي ينهب بها البلاد، ويسيطر على كل شيء، ولكن هذه المرة باسم الديمقراطية.. في الصورة الأولى باسم الاستبداد.. استبداد واضح لا شك فيه.. والصورة الثانية باسم مقنع بحرية الأحزاب، ثم يتنافسون، ويأتي الحزب الحاكم صاحب الأغلبية ليتحكم كما يشاء.

وإذا كانت الأحزاب الديمقراطية تتنافس فيما بينها ثم تعترف لحزب الأغلبية بالصلاحية والسلطة، مع أنهم جميعاً بشر، ومع أنهم جميعاً يخضعون لفكر بشري، ويخضعون لمشروع بشري.. فلماذا ينكرون على حزب الله!

حينما يأتي وهو الذي ينتمي إلى الله الذي ليس كمثله شيء، ويطالب أن يكون هو الأعلى على كل أحزاب الأرض، أليس هذا هو المنطق الطبيعي والمنطق الصادق والصحيح؟ لكنهم -الجاهلية بأحزابها جميعا- يكذبون دائماً ويغالطون دائماً، وتسير وراءهم للأسف جماعات إسلامية وحركات إسلامية، تؤمن معهم بالديمقراطية، وتؤمن معهم بالانتخاب، وتؤمن معهم بأن يحتكموا إلى صندوق الاقتراع.. وينسى هؤلاء الإسلاميون أنهم بهذا قد فقدوا الطريق ابتداءً حينما وضعوا أيديهم في أيدي هؤلاء الطواغيت..

فالمقرر الثاني هنا يؤكد أن هناك حزباً واحدا لله لا يتعدد، وأحزاباً أخرى كلها للشيطان وللطواغيت.. حزب لا يتعدد منذ أن خلق الله الإنسان وحتى ينتهي هذا الوجود.. حزب واحد ممتد إلى أن تقوم الساعة منذ أن كوَّنه آدم عليه السلام بهدى من ربه وحتى يأتي آخر مؤمن على ظهر هذه الأرض.. حزب واحد ممتد، يتناوب عليه الأنبياء، ويتناوب عليه الدعاة، ولكنه سلسلة واحدة متضامنة متآلفة متوالية، يوالي بعضها بعضاً، وهو حزب تاريخي، مرتبط بخلقة الإنسان منذ أن خلق، فهو ليس حزباً جديداً، ولا حزباً مصطنعاً، إنما هو حزب لم يصنعه البشر.. وإنما الذي صنعه هو الله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].. فالله هو الذي قرر منذ اللحظة الأولى أن هناك حزبين؛ حزب لله، وحزب للشيطان.. يقول الله عز وجل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]..

فحزب الله لديه الأساس الشرعي الذي يقوم على قاعدة تفرد الله بالألوهية.. أما الأحزاب الجاهلية فليست لها قاعدة شرعية، لأنها تقوم على الباطل، وتقوم على المغالطة.. فحزب الله هو الحزب الحق وبقية الأحزاب باطلة لا حق لها في الوجود أصلا.

المقرر الثالث: هناك طريقا واحدا يصل إلى الله

"أن هناك طريقاً واحدا يصل إلى الله وكل طريق آخر لا يؤدي إليه.." وهذه أيضاً حقيقة.. حقيقة طبيعية.. لأن البداية جاءت من عند الله، والعودة ستكون إلى الله ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ﴾ [يونس: ٤]. فكما خلق الله الناس أول مرة سيجمعهم إليه مرة أخرى. فالطريق إليه لا بد أن يكون طريقاً واحداً منذ لحظة البداية إلى لحظة النهاية، ثم العودة. أما الطرق الأخرى التي تتنكب طريق الله فهي سبل شتى، تؤدي بالناس إلى الضياع وإلى الهاوية وإلى السراب الذي لا يجدون عنده شيئاً ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].. فقضيةُ هذا الدين قضيةٌ منطقية وبديهية، أما الجاهلية فتقوم على الكذب والمغالطة والبهتان، ومصادرة الحق واعتناق الباطل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

فهناك طريق واحد إلى الله.. وليست طرقاً متعددة.. طريق واحد من أول نبي إلى آخر نبي.. إلى آخر داعية إلى الله.. إلى أن يأتي عيسى -عليه السلام- في آخر الزمان.. طريق واحد، يدعو كل من يسلكه إلى حقيقة واحدة، وسيأتي عيسى -عليه السلام-

آخر الزمان لكي يعيد الأمر إلى نصابه، ولكي يسدل الستار وقد عرف أهل الباطل أنهم على باطل، وأهل الحق أنهم على حق، ولكي تختم البشرية بهذا الإسلام الذي سيعم البشرية كلها، ثم يُقبض عيسى -عليه السلام- ويُقبض المؤمنون..

فهناك طريق واحد يصل إلى الله، وطرق شتى تؤدي إلى الضياع وإلى الضلال وإلى الظلام. ولذلك -دائماً- يأتي طريق الله مفرداً.. ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فدائماً يأتي طريق الله واحداً مفردا، لأنه هو الطريق الواحد والدائم الذي لا يتعدد. بينما طرق الجاهلية طرق كثيرة جداً، بقدر أهواء البشر، وبقدر مغالطات البشر. فالمؤمن الذي يهتدي إلى طريق الله يعرف أنه السعيد، وأن الله عز وجل قد رضي له هذه السعادة. فليمسك بها ويعض عليها بالنواجذ، حتى لا يضيع منه الطريق.

المقرر الرابع: هناك نظاما واحدا هو النظام الإسلامي

"وأن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية.." نظام واحد.. وذلك -أولاً- لأن هناك إلهاً واحد، فلا بد أن يكون هناك نظام واحد في الوجود. فكل المخلوقات يسيرون بنظام واحد هو نظام الله صاحب هذا الوجود الذي خلقه والذي يرعاه والذي يعتني به والذي سيجمعه إليه يوم القيامة. فهو نظام واحد لأن الله هو صاحب السلطة الوحيدة في حياة هذا الوجود. وأيضاً لأن هذا النظام لا بد أن يضعه مالك هذا الكون الذي خلقه، ومالك هذا الإنسان الذي خلقه، وهو أعلم بالهدف من خلقه، وأعلم بطاقاته وأحواله، ومن ثم يكون أيضاً هو الحقيق وحده أن يضع للإنسان نظاماً واحداً.

فالنظام الإسلامي نظام واحد، وما عداه من النظم فهو جاهلية، بكل سمات الجاهلية التي تحدثنا عنها قبل ذلك، وبكل ما تؤدي إليه من ضنك في حياة البشرية. ودائماً الجاهلية تؤدي إلى شقاء الناس، ومهما تنوعت ألوان الجاهلية فهي تؤدي إلى شقاء الناس في النهاية ولا بد، فيفقد الناس كل شيء تحت إغواءات الجاهلية ومغالطات الجاهلية وضلالات الجاهلية ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

المقرر الخامس: هناك شريعة واحدة هي شريعة الله

"وأن هناك شريعة واحدة هي شريعة الله وما عداها فهو هوى.." ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]..

فشريعة الله هي الشريعة القائمة على الحق، لأن الحق هو الذي قررها، وهو الجدير وحده سبحانه وتعالى أن يكون صاحب السلطة، وهو العليم أيضاً بعباده، يضع لهم ما ينفعهم. بينما شريعة البشر قائمة على الهوى والجهل، وعلى التجبر، وعلى إفساد الفطرة.. لأنهم بشر لا يعلمون، ولأنهم بشر تتحكم فيهم النزوات والرغبات، وتتحكم فيهم الأهواء والشهوات، وهم -أيضاً- يتجبر بعضهم على بعض. فحينما يشرع بعضهم لبعض يصبح بعضهم آلهة والآخرون يصبحون عبيداً. ولكن حينما يشرع الله

للناس فإنهم يكونون جميعاً سواءً في عبوديتهم لسيدهم الحق، ولربهم الحق، ولخالقهم الذي أخرجهم من العدم. فهم جديرون أن يكونوا عبيداً لله سبحانه وتعالى لا لغيره، فمن أجل هذا كان لا بد أن يضع الله للناس شريعة لكي يكونوا منتظمين في سلك واحد. ونحن نجد أن أصول الشرائع عند جميع الأنبياء واحدة.. كل الأنبياء جاءوا فحرموا المحرمات الكبرى، وأمروا بالمأمورات الأصلية الكبرى.. كل الأنبياء أمروا بالصلاة والصيام والزكاة والحج والصدق، وكلهم حرموا الخمر والزنا والربا والكذب والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.. واختلفوا في بعض التفاصيل التي اقتضتها حياة الناس وتطورات البشرية ومستويات البشرية.

المقرر السادس: هناك حقا واحدا لا يتعدد

"وأن هناك حقاً واحداً لا يتعدد، وما عداه فهو الضلال.." هو حق واحد.. لأنه يتعامل مع الحقائق.. يتعامل مع الحقيقة كما هي. الحقيقة أنه ليس لهذا الوجود موجد إلا الله الواحد الأحد. وأن هذا الرب هو صاحب السلطة الوحيدة على هذا الوجود الكبير. ومن ثم فهو الحق الذي تنبثق منه كل الحقائق الأخرى. فهو حق واحد، أما ماعدا هذا الحق فهو ضلال وباطل ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

والقضية هذه قضية بديهية، حيث لا أحد من الناس يدعي أنه قد خلق الكون.. فكل البشر -حتى أشدهم كفرا- يعيدون خلقهم إلى قوة خَلقتْ.. ومن ثم ينبغي أن يتجمع الناس على الولاء وعلى الإقرار لهذه القوة، وعلى الخضوع لها، وعلى التلقي منها، وعلى أن يعرفوا منها لماذا خلقتهم، ولماذا أوجدتهم؟ وماذا تريد منهم؟ وما الذي سيترتب على خلقهم في هذه الأرض؟ أخلقوا عبثاً.. أم أن لخالقهم حكمة تليق بجلاله وتليق بعظمته؟!

كل هذا أمر بديهي أن يتساءل الناس عنه، ما داموا قد اجتمعوا على أن هناك قوة قد أوجدتهم من العدم إلى الوجود، وأنها خلقت لهم السماوات والأرض، وخلقت لهم النبات والحيوان، وخلقت لهم الطاقات والذخائر الموجودة في الأرض وفي أنفسهم. فالبداهة تقرر أن يعودوا لهذه القوة ليعرفوا منها الهدف من خلقهم.. فيأتيهم الجواب ليأخذوه وليسيروا عليه حتى يحققوا وجودهم كما أراده الله لهم..

ورغم هذه البديهية يصبح هذا الحق هو المنبوذ، وهو الغريب، وتصبح الأباطيل الأخرى هي التي يعترف بها وينتصر لها.

ولا شك أن هذه المغالطة التي تمدها الأهواء وتمدها الرغبات وتمدها النزوات وتمدها الشياطين وتروج لها.. لا شك أنها تستحق مقت الله يوم القيامة، وفي الدنيا أيضا، وتستحق ذلك العقاب الهائل الرهيب الذي أعده الله سبحانه وتعالى للكفار الذين لا يرتضون أن يتبعوا هذا الحق البديهي الواضح الذي يجب أن ينصرف إليه الناس جميعاً، ما داموا كلهم يقرون أنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا السماوات والأرض، ولم يخلقوا النبات ولا الحيوان، ولم يخلقوا شيئاً على الإطلاق.. فلا شك أنه كما يقول الله عز وجل ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].. أين سيذهبون.. وكيف سيتصرفون.. وماذا سيقولون؟ وما هي حججهم عند الله؟ فأنى يصرفون؟ لا صفة لهم ولا مكان ولا حجة، ولا طريق يستطيعون أن يسلكوه، لأن الطريق مسدودة، بل لا وجود لها أصلا.. لذلك لا يكون الجزاء إلا ذلك العقاب الصارم الذي لا منجى منه، فسيخلدون في الآخرة في الجحيم، وتغلق عليهم أبواب الجحيم، وينتهي الأمر، فلا يجدون مصرفاً ولا مصيراً.

فكما أنهم كانوا في الدنيا لا يهتمون بشيء، فهم أيضاً في الآخرة سيوكلون إلى حياتهم البشعة التي أوصلوا أنفسهم إليها وسيخطب فيهم إبليس الذي خدعهم خطبته الأخيرة قائلاً لهم: ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].. وليس بعد الحق إلا الضلال..

والعجيب أن الإنسان حينما يستعرض الحق ويقارنه بأقوال المبطلين من فلاسفة ومفكرين ومبتدعين وأصحاب مذاهب وأفكار، يجد أن الحق واضح جداً، وبسيط جداً، ومقنع جداً، ونير جداً.. وقوته من ذاته، وحجته في ذاته. بينما أقوال المبطلين كلها أقوال تتميز بالتعقيد والغموض والتفاهة والتناقض والظلمة في النفس. ورغم ذلك يتركون الحق البين الواضح، ويذهبون إلى الظلمات التي لا يكادون يرون أنفسهم ولا أيديهم فيها..

ومحدثكم يقول هذا الكلام الآن، يقوله بعد أن أخرجه الله عز وجل بفضله ومنّه وكرمه من الظلمات إلى النور. لكن حينما كان يعيش في الظلمات كما يعيش الآخرون ما كان يرى أنه في ظلمات، ولم يكن يرى هذا النور الذي أدخله الله فيه.. كنا نعيش كما يعيش الناس، وكنا نتحمس لكل ما كنا عليه من تفاهات واهتمامات هزيلة وتصورات تافهة وأماني تافهة ورغبات تافهة، كنا نعمل لها ليل نهار، ونظن أننا سنحقق لأنفسنا المجد بهذه الأماني التافهة..

ولكن لا شك أن الإنسان حينما أدرك الحق وعرفه أدرك ما كان عليه من باطل. وكما يقول الأستاذ سيد في الفصل السابق فصل "التصور الإسلامي والثقافة" أنه **"إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم -وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك- وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره. فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها، وعلى قزامتها.. وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وادعائها كذلك!!!"** فلا شك أننا كنا نعيش في هذه الجاهلية بكل ما فيها من ضلالات، وكانت تستهوينا بضلالاتها، وكنا نتحمس لكثير جداً من هذه الضلالات، وما كنا ندري حقيقة الحق فلما جاء الحق ووفقنا الله إلى رؤيته لأن التوفيق إلى رؤية الحق، وإلى الاقتناع بالحق، وإلى حب الحق نعم أخرى من الله سبحانه. فالحق يمكن أن يُعرَض على الناس ولكن لا يؤمنون به. فأن يُعرَض الحق، ثم تؤمن به، ثم تفهمه، ثم تهضمه، ثم تحبه، ثم تتحمس له، ثم تحس أنك لا تستطيع أن تتنفس لحظة واحدة بدونه.. هذه كلها نعم من الله. ولا نقول إنه من أنفسنا، والذي يقول أنها من نفسه فهو أظلم من قارون ومن فرعون.. وإنما الهادي هو الله ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣]. فلا شك أننا كنا يوماً ما في تلك الضلالات الكثيرة، ولم نكن نحس بالحق. ولكن حينما عرفنا الحق عرفنا حقيقة الضلالات ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذا هو المَعْلَم؛ أن هناك حقاً واحداً هادياً منيراً واضحاً، وأن هناك ضلالات كثيرة، كلها ظلام، وكلها عفن، وكلها نتن، وكلها تناقض، وكلها تفاهة يتمسك بها التافهون. وهذا الحق الذي يهدي إليه الله حق قائم على العلم.. أما الضلالات فقائمة على

المغالطة والجهل. والذين ينكرون وجود الله يخالفون البديهيات. والذين يشركون مع الله آلهة أخرى إنما يغالطون في البديهيات، والذين يستبعدون الله عن الحكم إنما يغالطون أنفسهم.

فالحق قائم على العلم.. العلم الرصين ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦].. ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩].. فالحق هو الذي يقوم على العلم والذين يرون الحق هم الذين أوتوا العلم، أما الذين لا يرون هذا الحق فليسوا من الذين أوتوا العلم، حتى ولو كانوا جمعوا كل شهادات العالم في جيوبهم، فهم أجهل من الأنعام، لأن الأنعام تعرف ربها ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان: ٤٤] ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ﴾ [الإسراء: ٤٤].. ولقد كان الرسول ﷺ يمر على بعض الحجارة في صحراء مكة فتسلم عليه، ونعرف قصة الجذع الذي أنَّ بُكاءً حينما تركه الرسول ﷺ عندما صنعوا له منبراً، فنزل الرسول ﷺ من على المنبر وربّت عليه فسكن.. فالشجر والمدر والحجر يعرفون الحق، ويسلمون له.. أما هؤلاء المثقفون أصحاب الشهادات فهم أضل من الأنعام ما داموا لا يعرفون أن هذا هو الحق.

المقرر السابع: هناك دارا واحدة هي دار الإسلام

"وأن هناك داراً واحدة هي دار الإسلام، تلك التي تقوم فيه الدولة المسلمة، فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً.." دار واحدة هي دار الإسلام، لأنها الدار التي تقوم على الحق وتحكم بالحق، وتعطي الحق لمن يستحقه، وهو الله عز وجل. فهي دار الإسلام، وهي دار السلام أيضاً. أما دار الحرب فهي الدار التي تحارب الله وتحارب الحق، وتقوم ابتداءً على اغتصاب حق الله وحق البشر.. فهي دار حرب. دار حرب لأنها دار تحارب الله ابتداءً، ليس فقط لأنها تحارب المسلمين ولكن لأنها ابتداءً قد أعلنت قبل ذلك الحرب على الله وعلى اتباع الله أيضاً.

ومعنى أن تحكم دار الإسلام بشريعة الله: أنها تؤمن بالله، وأنها تعطي الحق لله أن يكون هو سيدها وربها، كما أنه خالقها وصاحبها، وأن أهلها أيضاً يأخذون حقوقهم؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ولأنها أيضاً تعلم وتبلغ الحق للناس، ليهتدوا به، ولأنها تجاهد من أجل إخضاع الناس للحق وجمعهم عليه. فهي دار الإسلام لأنها دار الحق..

"وما عداها فهو دار حرب، علاقة المسلم بها إما القتال، وإما المهادنة على عهد أمان، ولكنها ليست دار إسلام، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۞ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥]."

فحزب الله موصول أفراده.. فكل من آمن وهاجر في سبيل الله فهو من المؤمنين، وهو من أولياء الله المؤمنين، وهو من حزب الله الذي -كما قلنا- حزب قديم قِدَم الإنسان على هذه الأرض.

الحق الناصع: جنسية المسلم عقيدته ووطنه الذي تقام فيه شريعة ربه

"بهذه النصاعة الكاملة، وبهذا الجزم القاطع جاء الإسلام.. جاء ليرفع الإنسان ويخلصه من وشائج الأرض والطين، ومن وشائج اللحم والدم -وهي من وشائج الأرض والطين- فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله، ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضواً في "الأمة المسلمة" في "دار الإسلام"، ولا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله، فتصل الوشيجة بينه وبين أهله في الله..."

هكذا جاء الإسلام بتصور جديد -كما قلنا في أول الفصل- في أمر الروابط والوشائج، كما جاء بتصور جديد في أمر القيم والاعتبارات، كما جاء بتصور جديد للجهة التي يتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات.. فالوطن ليس أرضا، وليس مولداً، وليس جنساً، وليس قوماً.. إنما الوطن هو ما تقام عليه وفيه شريعة الله.. هذا هو وطن المسلم.. وجنسية المسلم هي عقيدته، لا يفرق بين المسلمين كونهم من بلاد شتى ومن أماكن شتى، لا فرق بين المصري وبين السوري وبين الإنجليزي وبين الروسي وبين الاسترالي.. ولا فرق بين الأسود وبين الأحمر وبين الأبيض.. هم كلهم أخوة، وكلهم عبيد لله، وكلهم أقرباء، وكلهم جنسيتهم عقيدتهم. فإذا كانوا مسلمين فهم أخوة، وليس لهم جنسية إلا هذا. وهذه الجنسية وهذه العقيدة هي التي تجعلهم أعضاء في الأمة المسلمة، من أقصاها إلى أقصاها.. وقد كان الرجل يتحرك من أقصى الشرق من أسوار الصين إلى أقصى الغرب على المحيط الأطلسي، ومن بحر البلطيق في الشمال إلى منابع النيل في الجنوب، ولا يحس بالغربة.. وكان كل واحد منهم يحس أنه بين أهله وخاصته، وكان الرجل ينتقل من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، فيجد مكانه محفوظاً.. إن كان عالماً يأخذ مكانه كعالم، وإن كان قاضياً يأخذ مكانه كقاض، وإن كان قائداً عسكرياً يأخذ مكانه في قيادة العسكر.. لا تؤثر جنسيته أو لونه أو مكان مولده في حقوقه، فهو في أي مكان من هذه الرقعة الهائلة عضو في الأمة المسلمة.. وكل هؤلاء كانوا هم الأمة المسلمة.. وكانوا هم أفراد الأمة المسلمة.. هكذا كان الناس يعرفون أن الإسلام والعقيدة هي الجنسية، فلا يتفاخرون بأن هذا فارسي أو هذا عربي. ولكن حينما قامت هذه النعرات بدأ الهدم في كيان المجتمع المسلم.

قرابة الدم وقرابة العقيدة ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

"ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته، مالم تنعقد الآصرة الأولى في الخالق، فتتصل من ثم بالرحم.." القرابة مشتقة من القُرب، وليس هناك قُرب أشد من قُرب العقيدة. وأي قرب آخر هو قرب أبعد. لذلك يكون المسلم أقرب إلى أخيه في العقيدة من أخيه في الدم. وحينما يتعصب الناس لأي عقيدة تجدهم يترابطون على هذه العقيدة

ويختلفون عليها، حتى مع أقرب الناس إليهم. فليست قرابة المسلم أباه وأمه وإخوته.. القرابة ابتداءً هي قرابة العقيدة، ثم بعد ذلك تأتي هذه القرابات إن كانت العقيدة قد تحققت في حياته. يقول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

اتقوا الله أولاً، ثم تأتي الأرحام بعد ذلك.. ليس الرحم هو أول شيء، وليست قرابة النسب ولا قرابة الدم هي أول شيء، ولكن اتقوا الله الذي تساءلون به، ثم اتقوا الأرحام.

لكن هذا لا يمنع أن يصاحب الإنسان والديه بالمعروف مع اختلاف العقيدة، أو يتعامل مع كل الناس بالمعروف وأن اختلفوا معهم في العقيدة. فالتعامل معهم شيء، والمودة والمكانة شيء آخر، الولاء والمودة لا يكونان إلا للمسلم وللمسلمين، ولكن التعامل بالحسنى يمكن أن يكون مع أعداء المسلم مالم يقفوا في الصف المعادي للجبهة المسلمة، فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة.

ويقص علينا الأستاذ سيد هنا قصة عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ مع أبيه، فيقول: **"روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال: دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ قال: ألا ترى ما يقول أبوك؟ قال: ما يقول أبي -بأبي أنت وأمي-؟ قال: يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال: فقد صدق والله يا رسول الله. أنت والله الأعز وهو الأذل. أما والله لقد قدمتَ المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بوالده مني. ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيهما به. فقال رسول الله ﷺ: "لا".. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على بابها بالسيف لأبيه، قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله. فقال: يا للخزرج! ابني يمنعني بيتي! يا للخزرج ابني يمنعني بيتي! فقال: والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه. فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال: والله لا يدخلن إلا بإذن من الله ورسوله. فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال: "اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه". فأتوه فقال: أما إذ جاء أمر النبي ﷺ فنعم.."**

هكذا يُضرَب المثل في موقف المسلم من والديه، فهو يصاحبهم بالمعروف، ويبرهم كما كان عبد الله يبر أباه. ولكن إذا وقف أبوه موقفاً ضد الإسلام فلا بد أن يؤخذ بحق الإسلام وبحق الله ورسوله على حساب هذه الأبوة وهذه البنوة..

"فإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم أخوة، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر.. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].. على سبيل القصر والتوكيد: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢]..."

لذلك ينبغي أن نستيقظ لمشاعر العصبية التي قد تنتاب بعضنا لأبويه أو أخوته أو أقاربه أو أبناء وطنه.. ففي بعض الأحيان ينتابنا هذا، فيغضب الإنسان لأبيه أو أمه، ويقشعر بدنه إذا وصف أبوه بالضلال، أو وصفت أمه بأنها لم تكن مسلمة، أو

وصف أبوه أو أمه بأنهما لم يكونوا على خير، أو وصف أحد أبنائه بأنه فاسد.. فنجد بعض النفوس تضيق، إذا كان الكلام عن الآخرين لا يضيق، أما إن كان الأمر يخصه.. يخص عصبيته من أب أو أم أو ابن أو زوجة نجد البعض يضيقون بهذا.. لا بد أن نعرف أنه لا يجوز أن تكون بيننا هذه العصبية التي وصفها الرسول ﷺ بأنها عصبية منتنة. فينبغي أن ندور مع الحق، وأن نحب آباءنا وأبناءنا وأمهاتنا، ونواليهم ونودّهم إذا كانوا على الحق.. أما إن لم يكونوا على الحق فنبرهم ونحسن إليهم، ولكن نصفهم بأوصافهم التي يستحقونها؛ إن كانوا على ضلالة فهم على ضلالة.. إن كانوا على كفر فهم على كفر.. وإن كانوا على فسق فهم على فسق.. لكن لا مانع -مثلا- أن يحمل الرجل المسلم أمه ليذهب بها إلى الكنيسة إذا أرادت أن تتعبد في كنيستها أو في بيعتها براً بها، وأن يحملها فوق رأسه.. لكن هذا لا يجعله يجاملها بأن يقول لها: أنت على خير.. لا.. ولكن قل لها: أنت على ضلاله، لكني سأبرك.. وهذا الأمر خاص بالأب والأم.

"وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد إلى الأجيال المتعاقبة، وتربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، برباط الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين.."

ولا شك أن هذا حق.. كم يشعر الإنسان بحب وشوق إلى بعض الصحابة.. حينما يذكر اسم أبي بكر أو عمر أو عثمان أو غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم يستشعر الشوق والحب لهؤلاء، ويتمنى لو يراهم، ويتمنى أن يقابلهم.. فلا شك أن هناك ولاء ورباط بين الأولين والآخرين.. وليس ذلك فقط للأفراد من أمة محمد ﷺ، فكم نشتاق إلى حواريّي عيسى، وحواريّي موسى، وإلى إبراهيم، وإلى أتباع إبراهيم.. فكل المؤمنين في كل دين نحن نحبهم ونشتاق إليهم، ونتمنى لو رأيناهم.. فهذا الولاء وهذه المودة تجمع المؤمنين دائماً في كل وقت وفي كل حين..

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٩-١٠]..

ونحن لا نحب أن نخوض في الفتن التي مرت على المؤمنين السابقين، لأننا لا ندري شيئاً عنها، ولذلك لا نخوض فيها، لكي تظل صورتهم في قلوبنا صورة مضيئة، ولكيلا نظلمهم إذا دخلنا في أمر الفتنة التي وقعت بينهم.. وعلينا أن نحسن بهم الظن مهما كان الأمر غير مفهوم وغير معروف لنا، لأننا لو كنا معهم لكنا أدركنا ما هم فيه.. لذلك لا نذكر إخواننا السابقين إلا بخير ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠].. ومن قبل نقول ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].. ولأن هذه العقيدة هي التي تحدد الوشائج والروابط والعلاقات..

"يضرب الله الأمثال للمسلمين بالرهط الكريم من الأنبياء الذين سبقوهم في موكب الإيمان الضارب في شعاب الزمان.." ضرب لنا المثل الأول من قصة نوح -عليه السلام- ليضرب لنا مثل الأبوة التي تنفصم إذا لم تكن على العقيدة. فهذا نوح -عليه السلام- يدعو ربه استناداً إلى وعد الله السابق أنه سينقذ أهله.. فحينما أصر ولده على ألا يركب معه دعا ربه..

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۞ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥-٤٦]..

هكذا يأتي البيان المتوالي من الله.. كان يكفي أن يقول الله سبحانه لنوح -عليه السلام-: إنه ليس من أهلك، ولكن الله عز وجل يبين له، ويبين للمؤمنين من بعده لماذا هو ليس من أهله؟ إنه عمل غير صالح، لأنه كفر بالله فأصبح عملا غير صالح، فهو ليس من أهلك ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦]، فلا بد أن تتعلم من هم أهلك، ومن الذي تواليه ومن الذي تحبه، ومن الذي تدعو الله له ومن لا تدعو الله له.. فلا بد أن تكون على علم ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].. هكذا يُعلِّم الله نبيه نوح -عليه السلام- هذه الأمور بوضوح، لكي يتعلم هو ومن وراءه إلى يوم القيامة أن الروابط والوشائج لا تقوم إلا على العقيدة، وأنه ليس هناك إلا العقيدة تربط الناس بعضهم ببعض ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]. فيعود النبي الكريم سريعاً وهو يرتجف أن يكون قد أغضب الله ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].. هكذا أدب النبوة، وهكذا نتعلم منه ألا نستكبر ولا نجادل ولا نتعاظم، وأن نقر بالحق؛ فما دام ابني أو أبي أو أخي أو زوجتي ليس على العقيدة فهو ليس من أهلي.. إنه عمل غير صالح.. فإذا جاءك أحد يقول لك ذلك عن ابنك أو أبيك لا تغضب لأن هذا هو الحق..

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]..

ليس هناك مجاملة، وليست هناك وراثة تعطى للناس حقاً بدون حق. وإنما إذا جاء من وراءك وأخذوا الحق وآمنوا به فهم جديرون بأن يجعلهم الله أئمة. أما الظالمين فلا عهد لهم عندي ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].. هذا العهد فقط للمؤمنين ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] هكذا يكون الحسم.. وهكذا يعلمنا الله ألا تأخذنا في الحق لومة لائم، وألا نجمجم حينما يكون الأمر خاصا بأقاربنا وأهلينا.. بل نقول الحق ولا نستحيي ولا نجامل ولا نغالط.. ونحن بعضنا يغالط وبعضنا يحجم حينما يطلب منه شهادة ضد أبيه أو ضد ابنه، فيحجم ويهرب من السؤال ويهرب من الإجابة.. والله عز وجل يعلمنا أنه لم يجامل خليله إبراهيم -عليه السلام- ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

لا مجاملة في الحق، ولا مهادنة في أمر العقيدة، ولا صلة أصلاً إذا انبتت العقيدة؛ لا أبوة ولا بنوة.. فكل هذه الأشياء زائفة لا قيمة لها إذا اختلفت العقيدة. فلا بد أن يشعر المسلم بقيمة العقيدة، بحيث لا يحب إلا من معه على هذه العقيدة، ولا يشتاق إلا إليهم، ولا يفرح إلا بلقياهم. فإذا قام بحق الأقارب والأهل فإنه يقوم به بإحساس الواجب، لا بإحساس المشوق، لأنه في الحقيقة لا توجد أرض مشتركة يقفون عليها، ولا توجد اهتمامات مشتركة يتكلمون فيها.. ولا توجد أشياء مشتركة يتعاملون بها.. ولا توجد قيم واحدة تحكمهم ويحكمون بها على ما يواجههم، فكيف يعيش معهم؟! عليه أن يحسن معاملتهم، لكن يجب أن يكون واعياً أنهم ليسوا أهله وخاصته، إنما أهله وخاصته هؤلاء المؤمنون، كما قال مصعب لأخيه أبو عزيز بن

عمير: لست لي بأخ إنما أخي الذي يسوقك.. وحينما قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه لم تأخذه في الله لومة لائم، كان الجراح رجلا عظيما من عظماء قريش، ولكن لم تأخذ أبا عبيدة مهادنة ولا مجاملة لأبيه، فقتله.. وكذلك أبو بكر.. يقول له ابنه بعد بدر وقد كان يقاتل في صف المشركين: والله يا أبتي لقد عرضت لي أكثر من مرة في غزوة بدر وكنت أتحاشاك، فقال له أبوبكر: أما والله لو رأيتك ما تركتك.. هكذا.. مع أن مشاعر الأب تكون أكثر حنواً، لكن لم تأخذه في الله لومة لائم.. وليس هذا غريبا على أبي بكر.. وهكذا ينبغي أن يكون الأمر واضحاً في حياتنا بألا نجامل ولا نجمجم.

"ويعتزل إبراهيم أباه وأهله حين يرى منهم الإصرار على الضلال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨]... ويحكي الله عن إبراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]."

هكذا بهذا الوضوح وبهذه الصرامة وبهذه الصراحة.. ليست فيها كلمة مجاملة واحدة.. ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ [الممتحنة: ٤].. لم نكفر بآلهتكم فقط، بل كفرنا بكم أنتم أيضا.. بكل الآباء والتاريخ والعظماء الذين تنتسبون إليهم.. كفرنا بكم أنتم، وبرآء منكم أنتم.. هكذا يكون المؤمن صادقاً وصريحاً وقوياً.. ﴿ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].. هذا منطق الإيمان القوي الذي ليس فيه جمجمة ولا ضعف ولا هوان، ولا مجاملة لأهل أو أقارب على حساب الحق.. فحينما يأتي وقت الحق والمفاصلة والبيان لا نجمجم.

"والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهم وأرضهم ليخلصوا لله بدينهم، ويفرُّوا إلى ربهم بعقيدتهم، حين عز عليهم أن يجدوا لها مكاناً في الوطن والأهل والعشيرة.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۞ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۞ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٣-١٦]..."

وقد كان، ناموا ثلاثمائة وتسع سنين، ليقوموا ويجدوا الأمر غير الأمر، والأرض غير الأرض، والناس غير الناس.. وجدوا أن الناس كلهم قد آمنوا بعقيدتهم التي فروا من أجلها إلى الكهف.. فنصرهم الله وهم نيام.. نصر الله عقيدتهم.. وحينما أيقظهم الله رأوا بأنفسهم أنهم قد رجعوا إلى أهليهم مرة أخرى وقد آمنوا.

"وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبين زوجيهما حين تفترق العقيدة: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].."

وهما زوجتان لرسولي الله نوح ولوط عليهما السلام..

"وامرأة فرعون على الضفة الأخرى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]..."

فلا يضير المؤمن ولا المؤمنة أن يبتليا بضلال الزوج أو الزوجة، ولا يشعر المرء بالخزي أو العار من هذا، مما قد يدفع البعض أحيانا أن يدافع عن ضلال الزوج أو الزوجة بغير حق لرد التهمة، أو التعصب بالباطل، ولكن على المؤمن والمؤمنة أن يحتسبا ذلك، ولا تأخذهما في الله لومة لائم.

وهكذا تتعدد الوشائج التي يعرضها علينا القرآن الكريم، لنعرف أن أي وشيجة مهما كانت لا قيمة لها إذا انبتت وشيجة العقيدة، سواء كانت أبوة كما في قصة نوح، أو بنوة وقوم وأهل وعشيرة كما في قصة إبراهيم وأهل الكهف، أو علاقة زوجية كما في قصتي نوح ولوط وامرأة فرعون..

ومهما تعددت الوشائج والروابط فهي جميعاً فانية ولا قيمة لها مالم تتحقق الوشيجة الأولى؛ وهي وشيجة ورابطة العقيدة.

"وهكذا يمضي الموكب الكريم في تصوره لحقيقة الروابط والوشائج.. حتى تجيء الأمة الوسط، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة، وتفترق العشيرة الواحدة، ويفترق البيت الواحد، حين تفترق العقيدة، وحيث تنبتّ الوشيجة الأولى، ويقول الله سبحانه في صفة المؤمنين قوله الكريم: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢]..."

ولا شك أن الجاهلية ترتبط وتتجمع على قيم، وتفترق على نفس القيم. لكن الفرق بينها وبين القيم الإسلامية أن القيم الإسلامية قيم حق في ذاتها، وصادرة عن الله سبحانه، صاحب الحق في تحديد القيم والاعتبارات، كما أن القيم الإيمانية بطبيعتها هي القيم اللائقة بالإنسان. وأما قيم الجاهلية فهي صادرة ابتداءً عمن ليس له الحق أن يصدر القيم ويقررها، فضلاً عن أنها بطبيعتها تفرق الناس، وبطبيعتها تنزل بالناس عن مستوى الحيوان بل والمادة.

فالجاهلية تفرق وتجمع على قيم، والإسلام يفرق ويجمع على قيم.. ولكن شتان بين القيم التي يقررها الله والقيم التي يقررها البشر.. بين القيم التي تفرق وتجمع حينما تكون العقيدة في الله الحق هي الوشيجة، وبين الوشائج الأخرى القائمة على روابط الحيوان وروابط الأشياء.

"وحين انبتَّت وشيجة القرابة بين محمد ﷺ وبين عمه أبي لهب، وابن عمه عمرو بن هشام (أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر.. حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والأنصار، فإذا هم أهل وإخوة، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وإخوانهم: صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي. وتوارت عصبية القبيلة، وعصبية الجنس، وعصبية الأرض. وقال لهم رسول الله ﷺ: "دعوها فإنها منتنة".. وقال لهم: "ليس منَّا من دعا إلى عصبية، وليس منَّا من قاتل على عصبية، وليس منَّا من مات على عصبية"..

فانتهى أمر هذا النتن.. نتن عصبية النسب. وماتت هذه النعرة.. نعرة الجنس، واختفت تلك اللوثة.. لوثة القوم، واستروح البشر أرج الآفاق العليا، بعيداً عن نتن اللحم والدم، ولوثة الطين والأرض.."

آثار القيم الربانية على واقع البشرية

هكذا جاء الإسلام.. جاء بتصور جديد للوشائج والروابط، كما جاء بتصور جديد للقيم والاعتبارات، كما جاء بتصور جديد للجهة التي يُتلقى منها القيم والاعتبارات. وقام العدل فوق علاقة الدم وعلاقة الجنس وغيرها. لأنه حينما تكون رابطة العقيدة هي الرابطة وهي الوشيجة فإن هذا ينهي اعتزاز الناس بالأقوام، وينهي اعتزازهم بالدم وبالقرابات التي تؤدي إلى كثير من المظالم، وإلى كثير من أكل الحقوق حينما يتعصب الناس بعضهم لبعض على أساس الدم وعلى أساس العصبية، ويظلم بعضهم بعضاً كما كانت الجاهلية تقول: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).. المهم أن يكون أخاك، فإن كان أخوك فانصره سواء كان ظالماً أو مظلوماً، وتنصره على الآخر سواء كان مظلوماً أو غير مظلوم.

ومما لا ريب فيه أنه حينما تكون العقيدة الحقه في الله، والتي تقوم على تقوى الله، سينمحي الظلم، وتنمحي المشاعر النتنة الخبيثة؛ من الكبر والخيلاء حينما يتعاظم أهل النسب وأهل الشرف على أهل الفقر وأهل النسب الأقل، أو حينما يتعاظم البيض على السود. ستنتهي كل هذه المظالم الناشئة والنابتة من مستنقع القيم الجاهلية، ويرتقي الإنسان إلى الإنسانية الكريمة التي كرمها الله، بسبب الرباط القائم على العقيدة، التي بطبيعتها تدعو إلى التقوى، وتدعو إلى الحب، وتدعو إلى العدل، وتدعو إلى تلك المشاعر الكريمة التي تربط الناس بعضهم ببعض على أساس من الدين الحق، فلا يتمايزون بعصبية دم، ولا بجنس ولا لون ولا أرض ولا لغة. ومن أجل هذا نقول إنه العدل يقوم فوق الدم والجنس والأرض وغيرها، ويتحقق فعلاً نعيم الإنسان في الأرض بسبب هذه العقيدة المباركة، وبهذه الرابطة المباركة التي قررها الإسلام.

دار الإسلام ودار الحرب

"منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض، إنما عاد وطنه هو "دار الإسلام" الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها، الدار التي يأوي إليها ويدافع عنها، ويستشهد لحمايتها ومد رقعتها.."

وهذا لا شك معنىً جديد تماماً.. معنى انقلابي بكل المقاييس.. قلب كل موازين البشر حينذاك، فوقف البشر أمام هذا الانقلاب مشدوهي الأعين والأبصار، لأنهم يرون أموراً جديدة لم تكن تخطر على بال أحدهم؛ أن يقف في مكان واحد السيد بجانب العبد، وأن يتحدث معه العبد بطلاقة كما يتحدث السيد إلى السيد، وأن يتصاهر العبيد مع الأسياد، والأسياد مع العبيد والموالي كما حدث فعلا.. بل في بعض الأحيان كان يأتي مولى ليكون أميراً، وليكون سيداً على مصر من الأمصار، ويخضع له الأشراف والسادة، ويقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قبل أن يموت: "لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته" وسالم مولى من الموالي يقول عمر -رضي الله عنه- هذا، وأمامه أشراف قريش جميعاً.

هكذا حدث هذا الانقلاب الهائل المروع الذي وقفت البشرية فترة لا تفهمه ولا تستسيغه، إلا حينما دخل الإيمان قلبها، فعرفت معنى هذا الشعار وهذا الانقلاب الكبير. ووجد الإنسان الذي لم يعد يتعصب لأرضه التي ولد فيها، ولا لآبائه وأجداده، وإنما أصبح يتعصب لدار الإسلام.. الدار التي تسيطر عليها عقيدته، وتحكم فيها شريعة الله وحدها، ويدافع عنها حتى ضد بلده التي ولد فيها، وضد قومه الذين عاش بينهم.

"وهي "دار الإسلام" لكل من يدين بالإسلام عقيدة ويرتضي شريعته شريعة. وكذلك لكل من يرتضي شريعة الإسلام نظاماً -ولو لم يكن مسلماً- كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون في "دار الإسلام".. والأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هي "دار الحرب" بالقياس إلى المسلم، وإلى الذمي المعاهد كذلك.. يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده، وفيها قرابته من النسب وصهره، وفيها أمواله ومنافعه.

وكذلك حارب محمد ﷺ مكة وهي مسقط رأسه، وفيها عشيرته وأهله، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها. فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلا حين دانت للإسلام وطُبِّقت فيها شريعته."

هكذا يحدد الإسلام هذا المعنى الكبير. وقد وقف رسول ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة، ينظر إلى مكة ويقول: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت)[٢].. ورغم ذلك خرج منها وذهب إلى المدينة، ولم يعد إلى مكة أبداً ليعيش فيها، بل قال للأنصار (لو أن الناس أخذوا شعبا وأخذت الأنصار شعبا لأخذت شعب الأنصار، ولولا الهجرة كنت امرأ من الأنصار)[٣].. وعاش الرسول ﷺ في المدينة رغم أنه يقرر أن مكة أحب بلاد الله إلى الله وأحب بلاد الله إليه، ولكن لأنه تركها يوماً في سبيل الله، واحتضنته المدينة وأصبحت هي مدينة الإسلام وبيضة الإسلام فلم يرجع إلى مكة، وكافأ المدينة وأهلها بهذه الكرامة، وعاش بينهم ومات بينهم ﷺ.

"هذا هو الإسلام.. هذا هو وحده.." هذا هو الإسلام يضرب في كل جنبات الحياة ليشكلها لتحقق الألوهية الواحدة والعبودية الشاملة في حياة البشرية.. **"هذا هو الإسلام.. هذا هو وحده.. فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان، ولا ميلاداً في أرض عليها لافتة إسلامية وعنوان إسلامي! ولا وراثة مولد في بيت أبواه مسلمان."**

فلا قيمة لهذه اللافتة إذا ظل كل شيء على ما هو عليه من جاهلية.. ليس الأمر كذلك.. وليس الإسلام كلمة، وليس لافتة، وليس وراثة.. إنما الإسلام حقيقة..

"﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. هذا هو وحده الإسلام، وهذه هي وحدها دار الإسلام.. لا الأرض ولا الجنس، ولا النسب

٢ أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة.

٣ أخرجه أحمد.

والا الصهر، ولا القبيلة، ولا العشيرة. لقد أطلق الإسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا إلى السماء، وأطلقهم من قيد الدم.. قيد البهيمة.. ليرتفعوا في عليين."

ولا شك أن الإسلام وحده، بشكله وروحه، هو الذي يعلو بالإنسان إلى الله.. إلى السماء.. إلى أعلى عليين. الإسلام وحده بحقيقته، وليس بالادعاء.. بأخلاقه وقيمه، وليس بالكلمات الفارغة من الجوهر هو الذي يصنع ذلك.

أما الذين يدّعون الإسلام، ويرفعون شعارات الإسلام، ويتسمون بأسماء المسلمين، ولكن حياتهم لم تأخذ من رحيق الإسلام شيئاً، فهؤلاء ليسوا مسلمين، وليس هذا الذي يدعونه إسلاماً حقاً، لأن الإسلام جوهر وحقيقة واقعية تشكل حياة الناس، وتشكل أرواحهم، وتشكل قيمهم، وتشكل قوانينهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وحياتهم كلها. فالإسلام وحده هو الذي يطلق الإنسان من هذه القيود؛ قيود الطين، وقيود الأنعام، إلى هذه الرفعة التي يرفعها الله لدينه ولأتباعه ليكونوا في عليين حقاً..

"وطن المسلم الذي يحنّ إليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض، وجنسية المسلم التي يُعرف بها ليست جنسية حكم، وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ويدفع عنها ليست قرابة دم، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم، وانتصار المسلم الذي يهفو إليه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش.."

خاتمة الفصل ومعنى الشهادة

وهكذا يكون الحسم الواضح، لكي لا يتلجلج المؤمن في أي وقت حينما يقال له: كيف تكره قومك؟ كيف تكره وطنك؟ كيف تكره أرضك؟ كيف تكره الأرض التي ولدت عليها ودست عليها؟

يقول لهم: أكرهها لأنها كرهت الله، لأنها رفضت الله سبحانه وتعالى، فكرهتها. فإن عادت إلى الله عدت إليها.. هكذا يكون الأمر واضحا؛ أنني أكره الأرض التي تكره الله، وأكره المكان الذي ولدت فيه لأنه رفض دين الله، وأكره القوم الذين لم يرضوا الله سيداً لهم وملكاً ورضوا بدلاً عنه الطواغيت. وهكذا يكون الدفاع دفاعاً قوياً، ليس فيه لجلجة، وليس فيه اهتزاز. لأن هذا هو الحق. ليس الوطن قطعة أرض. ولا فرق بين أرض وأرض.. لكن الفرق هائل بين أرض يحكمها الله وأرض يحكمها الطاغوت.

وجنسية المسلم هي العقيدة، وليس أن أكون مصرياً أو سورياً أو إنجليزياً أو أمريكياً... ما معنى أن أكون مصرياً.. ما معنى أن أكون سورياً.. ما معنى أن أكون إنجليزياً إن لم يكن هناك معنى كبير أتشرف به؛ وهو أن أكون عبداً لله، وحينما تكون عقيدتي هي الإسلام يكون هذا شيئا يستحق الاعتزاز به.

وعشيرة المسلم ليست هي قرابة الدم.. عشيرة المسلم هم هؤلاء الذين يؤمنون معه، ويسجدون ويركعون لله.. أما الذين يسجدون لغير الله، ويركعون للأصنام والطواغيت، فهم ليسوا أهلي وليسوا عشيرتي ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤]..

هكذا يكون إحساس المؤمن حقيقة.

وراية المسلم التي يعتز بها ليست راية قوم.. لسنا عبيداً للقبيلة، ولا عبيداً للعشيرة، ولا عبيداً للوطن، ولا عبيداً للجنسية.. نحن عبيد لله.. فإذا كانت الراية تقوم لتكون كلمة الله هي العليا فنحن تحتها. أما إذا كانت تنصر قوماً أو جنساً أو دماً أو بلداً أو وطناً فليست رايتنا، ولا قيمة لها.. فالانتصار الحقيقي للمسلم هو انتصار العقيدة التي يعتز بها، وليست غلبة جيش على جيش، ولا سيطرة أمة على أمة، ولا استعمار قوم لقوم.. ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ١-٢].. هكذا يكون الانتصار؛ أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً. لا يدخلون في عبادة الطاغوت الروماني أو الفارسي أو العربي، ولا يدخلون أرضاً لا تحكم بشرع الله. وإنما يدخلون في دين الله أفواجاً.. هذا هو معنى النصر، وهذا هو النصر الذي يقاتل الإنسان المسلم من أجله، وهذا هو النصر الذي ترفع رايته، وهذا هو النصر الذي يدين به المسلم ويموت في سبيله.. ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ٢-٣].. لأن النصر من عند الله، وليس بأيدي المسلمين.. الله هو الذي ينصر العباد حينما يشاء..

"إنه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات. والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لا لأي هدف من الأهداف، والذياد عن "دار الإسلام" بشروطها تلك لا أية دار، والتجرد بعد هذا كله لله، لا لمغنم ولا لسمعة، ولا حمية لأرض أو قوم، أو ذود عن أهل أو ولد، إلا لحمايتهم من الفتنة عن دين الله.."

هكذا تكون المفاهيم واضحة، وتكون المعالم صارخة، ولا يؤدي غموضها إلى التيه والضلال. لا بد أن تكون المعالم دائماً ساطعة لكيلا يضل الإنسان.. فإذا كانت ساطعة في القلب وفي النفس فلن ينهزم الإنسان أبداً، ولن يضيق تحت سياط الظالمين، ولا بسبب العذاب، ولا بسبب الحرمان، ولا بسبب السجن، ولا حتى بسبب القتل.. هكذا تكون الأمور واضحة، ويعلم الإنسان أنه حينما يتنكر لهذا إنما يتنكر لله، وأن مصيره إن هو نكص عن الطريق إلى عذاب أشد من هذا العذاب الذي يهرب منه.. ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].. ليس عذاب الله كعذاب الناس.. فعذاب الله أشد ولا مهرب منه، وعذاب الله خالد يدوم، بينما عذاب الناس مؤقت وبسيط، وقد يموت الإنسان قبل أن يعذب، وقد يهرب من أيديهم. لكن عذاب الله خالد.. ﴿ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: ٣٦]. فحينما يعرف الإنسان الحقيقة هكذا، وتكون هذه المعالم عميقة وحية وحبيبة إلى قلبه فإنه لن يتركها أبداً مهما كان الثمن المدفوع، فهو ثمن ضئيل.. فما هو الثمن الذي ندفعه من أجل جنة عرضها السماوات والأرض؟!! وما الذي ندفعه من أجل رؤية الله؟!! بل ما الذي ندفعه من أجل احترامنا لأنفسنا؟!! فالإنسان قد يكره أن يخضع لعدو احتراماً لنفسه فقط، وهذه قيمة كبيرة.. لماذا أُذَّل لعبد مثلي.. ولو لم يكن هناك جنة ولا نار إلا أن أحترم نفسي فهذه قيمة تستحق أن أبذل لها... والذين لا يترخصون في الجاهلية لأعدائهم إنما يصدرون في ذلك من هذا القبيل؛ أنهم لا يريدون أن يعطوا لعدوهم يداً عليهم، وحينما قال أبو جهل لعبد الله بن مسعود: لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا رويعي الغنم وما فعلتم إلا أن قتلتم رجلاً.. فصبر على كفره وعناده وعلى كبره وغطرسته حتى اللحظة الأخيرة لأنه يحترم نفسه، وهذا هو الذي كان يعرفه رسول الله ﷺ منه أنه لو آمن لكان عمر بن الخطاب الثاني، فكانت خصائص أبي جهل خصائص

رائعة من الثبات والإصرار على ما يعتقده. فلو آمن لكان مثل عمر.. (اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ)[4]، دعا لأحدهما فكان عمر، وكان الآخر أبا جهل، لكنه ثبت وارتضي لنفسه الموت إكراماً لذاته.. فما بالك لو كان الأمر هو الثبات على دين الله؟ ولكن الله لا يريد منا أن نقتل في سبيل ذواتنا.. وحينما بصق اليهودي في وجه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- تركه علي خشية أن يقتله غضباً لنفسه، فلا يجوز أن يباشر قلوبنا ونحن نقاتل في سبيل الله أننا نقاتل حمية لذواتنا وكبراً لذاتنا، أو أننا قلنا كلمة لا نريد أن نرجع عنها لأننا رجال ولا نريد أن نخضع لرجال مثلنا. نحن نريد أن نموت لله، وأن ننتصر لله عز وجل، فننتصر لتكون كلمة الله هي العليا.. وعندما أسرت الروم عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله ﷺ قال له الطاغية هرقل: تَنَصّر وإلا قتلتك، قال: لا أفعل، فقال تَنَصّر وإلا ألقيتك في النقرة النحاس، قال: ما أفعل.. فأتى بنقرة نحاس فَمُلئت زيتاً وأُغليت ودَعى رجلا من المسلمين فعرض عليه النصرانية فأبى فألقاه في النقرة، فإذا بعظامه تلوح، فقال لعبد الله بن حذافة تنصر وإلا ألقيتك، قال: ما أفعل، فأمر به أن يلقى في النقرة، فكتفوه فبكى، فقالوا: قد جزع وبكى، قال: ردوه، فقال: لا تظن أني بكيت جزعا ولكن بكيت إذ ليس لي إلا نفس واحدة يفعل بها هذا في الله عز وجل، وكنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة فيّ ثم تُسَلَّط عليّ فتفعل هذا. فأُعجب به وأحب أن يطلقه فقال: تنصر وأزوجك ابنتي وأقاسمك ملكي، قال: ما أفعل، قال: قبِّل رأسي وأُطْلِقك، قال: ما أفعل حتى تُطلق معي أسارى المسلمين. فقال: نعم، فقبَّل رأسه فأطلقه ومعه أسارى المسلمين، فلما قدموا على عمر قال عمر: حقٌ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ بذلك، ثم قام عمر فقبل رأسه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يمازحون عبد الله فيقولون: قبّل رأس العلج.

فيمكن للمرء أن يذل نفسه من أجل الحق، ويمكن أن يتنازل عن كرامته من أجل إخوانه المسلمين كما فعل عبد الله بن حذافة. فلا بد أن يكون جهاد المسلم في سبيل إعلاء الحق.

"عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"... وفي هذا وحده تكون الشهادة لا في أية حرب لأي هدف غير هذا الهدف الواحد.. لله.."

في هذا وحده تكون الشهادة -بمفهومها الحقيقي- لا في أية حرب لأي هدف غير هذا الهدف الواحد.. لله عز وجل. ونعرف قصة الرجل الذي شارك في إحدى الغزوات فقاتل وأبلى في القتال بلاءً حسناً، فأثنى عليه المسلمون، فقال لهم الرسول ﷺ (هو في النار).. فتابعوه، فلما زادت جراحه قتل نفسه وانتحر[5].. فلم يدخل المعركة لله، إنما دخل عصبية لقومه، ولما ثقلت عليه الجراح قتل نفسه، لأنه لم يدخل إيماناً بالله عز وجل..

"وفي هذا وحده تكون الشهادة لا في أية حرب لأي هدف غير هذا الهدف الواحد.. لله.."

---

٤ سنن الترمذي. ج٥. ص٦١٧. وصححه الألباني.

٥ رواه الطبراني في المعجم الكبير. ج١٣. ص٤٣١.

ونحن نسمع في هذه الأيام عن شهيد الفن، وشهيد المسرح، وشهيد الوطن، وشهيد السلام.. وهم صادقون.. لأنهم فعلاً عاشوا من أجل هذه الأهداف الحقيرة.. شهيد المسرح يموت على خشبة المسرح.. لأنه عاش طوال عمره من أجل هذا الفن الساقط الحقير.. وشهيد الفن أيضاً مات من أجل الفن.. وشهيد الوطن مات من أجل هذا التراب.. وشهيد السلام من أجل ذلك السلم الرخيص.. فهؤلاء -بهذا المعنى- ليسوا شهداء لله عز وجل.. ليسوا هؤلاء الشهداء الذين قال عنهم الله أنهم ﴿ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ومهما سماهم أقوامهم شهداء، لكنهم ليسوا بشهداء عند الله عز وجل.

"وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته، وتصدُّه عن دينه، وتعطل عمل شريعته، فهي "دار حرب" ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته.. وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته، فهي "دار إسلام" ولو لم يكن فيها أهل ولا عشيرة، ولا قوم ولا تجارة."

بهذا الوضوح تصبح علاقتنا بالناس وبالأرض وبالحكم وبالعشيرة وبالأقارب واضحة.

"الوطن: دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله.. هذا هو معنى الوطن اللائق "بالإنسان". والجنسية: عقيدة ومنهاج حياة. وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين."

والناس الآن يتعاظمون بالجنسية الأمريكية والجنسية البريطانية، لأنها -في نظرهم- جنسيات عظيمة لها علو في الأرض، ويحتقرون الجنسيات الأخرى لأنها جنسيات تتدنى بهم وتهبط.. هذا هو الموجود في الأرض الآن..

وفي الحقيقة؛ أن الفوارق بين الجاهليات فوارق مَنْفَعة.. فبعض الجاهليات تعطي لأفرادها منافع أكثر من غيرها، ولكنها كلها جاهلية. ولكن حينما يكون هناك دار إسلام ودار حرب، فلا شك أن دار الإسلام هي الدار التي تستحق أن نعيش فيها ونموت في سبيلها، حتى ولو كانت دارا فقيرة، ولو كانت داراً قليلة العدد والعدة.

"إن عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية صغيرة متخلفة.." وحينما نرجع إلى مفهوم الحضارة، كما شرحناه من قبل، وأن الإسلام هو الحضارة، تصبح كل هذه الروابط روابط صغيرة ومتخلفة. **"عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي، وسماها رسول الله ﷺ "منتنة" بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز.**

ولما ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم ردَّ الله عليهم هذه الدعوى، ورد ميزان القيم إلى الإيمان وحده على توالي الأجيال، وتغاير الأقوام والأجناس والأوطان:

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي

شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٥-١٣٨]..."

فإنما هم في شقاق.. شقاق في كل شيء.. فالجاهلية تعيش شقاقا في كل شيء، ليس شقاقا في العلاقات فقط.. ولكنه شقاق في المشاعر، وشقاق في الأموال وفي الحقوق وفي الأمن، وفي كل شيء.. شقاق كامل

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٣٧] بهذا الحق حينما تأوي إليه.. فيكفيك هذا الشقاق، ويكفيك هؤلاء الذين يعيشون في شقاق، كي تعيش بصبغة الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨]. وكما جاء في القرآن أيضاً ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

فليست المسألة دعوى، وإنما الإيمان هو الذي يحدد الاصطفاء..

"فأما شعب الله المختار حقاً فهو الأمة المسلمة التي تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الأجناس والأقوام والألوان والأوطان: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]...

الأمة التي يكون من الرعيل الأول فيها أبو بكر العربي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وإخوانهم الكرام. والتي تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع.. الجنسية فيها هي العقيدة، والوطن فيها هو دار الإسلام، والحاكم فيها هو الله، والدستور فيها هو القرآن.

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة إلى الله، والذي ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب التصورات الجاهلية الدخيلة، ولا تتسرب إليه صور الشرك الخفية: الشرك بالأرض، والشرك بالجنس، والشرك بالقوم، والشرك بالنسب، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة، تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كفة، ويضع الإيمان ومقتضياته في كفة أخرى، ويدع للناس الخيار:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]..."

هذه كلها مفاهيم تتسرب حتى إلى الجماعات الإسلامية.. تسربت إليها صور الشرك الخفية هذه التي ينسى أصحابها الإسلام الحقيقي في غمرة التعصب لأنفسهم ولأقوامهم.

استبانة سبيل المجرمين هو السبيل لثبات واستعلاء أصحاب الدعوة

"كذلك لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام، وفي صفة دار الحرب ودار الإسلام.. فمن هنا يُؤتى الكثير منهم في تصوراته ويقينه.."

نجد كثير جداً من التيارات الإسلامية الآن لا يفهمون حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام، ويستنكرون جداً أن توصف البلاد التي كانت إسلامية والوطن الذي كان إسلامياً، والذي ترك الإسلام وترك شريعة الإسلام وانصبغ بصبغة الجاهلية، يستنكرون أن يقال إن هذه الأوطان أوطان جاهلية، وأن هؤلاء الأقوام أقوام جاهليين.. مازال الكثيرون من الجماعات الإسلامية والتيارات الإسلامية ينافحون بقوة عن كل من تسمى باسم المسلمين، ونسوا أن الإسلام ليس دعوى وليس لافتة وليس ادعاء، وأن الجاهلية ليست هي التخلف وليست هي الفقر وليست هي ضد العلم. إنما الجاهلية -كما عرفناها سابقاً- أنها حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بشريعة الله عز وجل. فالجاهلية إذن ليست جاهلية تاريخية. وليست مرتبطة بقوم ولا بجنس ولا بدرجة تقدم مادي. وإنما الجاهلية مرتبطة بالكفر بالله، وبرفض شريعة الله، وبعدم الاهتداء بهدي الله؛ سواء كانوا يزعمون أنهم مسلمون، أو لا يزعمون.. كلهم شيء واحد إذا لم يخضعوا لشريعة الله، ولم يخضعوا لله الواحد الأحد، ولم يتبرؤوا من كل دعاوى الجاهلية كما فعل المسلمون وأتباع الأنبياء في كل وقت.

وهذا الوضوح الذي ينبغي أن يكون في نفوس أصحاب الدعوة هو الذي يثبتهم في المحن، ويجعلهم مصرين على الحق الذي دخلوا من أجله، والذي يجعلهم مستعلين بهذا الحق وهم في قاع الزنازين وقاع السراديب.. فلا يحسون أنهم أهينوا، بل العكس.. يحسون أنهم الأعلون، لأنهم جنود الله، ولأنهم الأعزاء، وأن الجاهلية تصنع بهم هذا لأنهم يخيفونها، ويدركون أن الله لم يتركهم هواناً لهم، وإنما يتركهم هواناً للجاهلية. فلولا أن الله عز وجل يريد أن تستحق الجاهلية نقمته ما سلطهم على أوليائه وعباده. ولذلك حينما رأى أبو بكر المشركين يضربون رسول الله ﷺ ويضربونه كان يقول "ربِّ ما أحلمك.. ربِّ ما أحلمك.. ربِّ ما أحلمك"، لأنه يعلم أن رسول الله ﷺ أحب خلق الله إلى الله، ولأنه يعلم أن الله قادر أن ينصر رسوله ﷺ، وأن الله غاضب أشد الغضب وهو يرى رسوله هكذا يهان، ولكن حلمه سبحانه وتعالى هو الذي جعله يتركهم يرتكبون هذا، وسيقابلونه يوم القيامة ليروا ما سيفعل بهم جزاء فعلتهم تلك التي أهانوا فيها رسول الله ودينه، فيقول أبو بكر: رب ما أحلمك.. كان يمكن أن يقول: رب ما أقواك، رب كيف تتركهم.. لكنه لمح هذه النقطة الدقيقة جداً التي كان بإيمانه المتميز أهلاً لأن يلمحها، فقال: ما أحلمك، فالمسلم وهو في قاع الهزيمة هو الأعلى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

"إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام، ولا تقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه، وليس وراء الإيمان إلا الكفر، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية.. وليس بعد الحق إلا الضلال.."

هذه الثنائية لا بد أن تكون صارمة جداً في نفوسنا رغم أنف الجاهلية. والجاهلية الآن تقول -لكي تُميِّع الحقائق-: الإسلام مستبد، والمسلمون مستبدون لا يحتملون رأياً آخر.. ضعفاء لأنهم يخشون الرأي الآخر.. كيف يكون الأمر أسود وأبيض فقط؟

كيف يكون الأمر إسلام ولا إسلام فقط؟ يريدون أن يميعوا هذه القضية.. ونحن مصرون عليها.. هناك حق وهناك ضلال، هناك نور وهناك ظلمات، هناك سبيل الله وهناك سبل الشيطان.. هذه الثنائية لا بد أن نفخر بها ونُصِّر عليها رغم أنف الجاهلية، ولا بد أن تكون هذه الثنائية صارمة جداً، لا نقبل فيها مساومة، ولا نقبل فيها مداهنه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون].

جماعة الصادعون بالحق

الفصل العاشر

شروح

كتاب

معالم في الطريق

نقلة بعيدة

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
الشعور المصاحب لأداء الدعاة إلى الحق.. ١
وظيفة الإسلام الأولى أن ينشأ حياة إنسانية مبنية على تصور مستقل ومنهج رباني متفرد ٢
التصور الإسلامي للوجود والحياة ذو خصائص متميزة ٢
بناء حياة إسلامية يحتاج إلى علم وجهد وإرادة ٣
ليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة ٤
وجهان متقابلان ٥
الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية.. ٥
حقيقة الجاهلية أنها خبثت وإن اختلفت مظاهرها ٨
كما أن الله لا يغفر أن يشرك به؛ فهو لا يقبل منهجاً مع منهجه ٩
حقيقة الإسلام يجب أن تقدم للناس في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة ٩
مع الثقة والقوة والعطف والرحمة لا بد كذلك من المفاصلة الكاملة ١٣
النقلة من شقوة الجاهلية إلى واحة الإسلام نقلة واسعة بعيدة ١٤
عناصر القوة كامنة في الدعوة مهما حاولت الجاهلية العاتية أن تعصف بها...................... ١٥
موقف الجاهلية من الدعوة وموقف الدعوة من الجاهلية كان وسيظل كما هو ١٥
النفس البشرية لا تستجيب إلا للحق الواضح الكامل دون تملق ولا تدسس ١٦
خطأ فادح يقع فيه الكثير من المخلصين.. ١٧
واجب الدعاة اليوم استنقاذ الناس من الجاهلية إلى الإسلام من جديد ٢٠
دوافع الداعية إلى الله ٢١
الهزيمة الروحية أمام النظم البشرية هي صد عن سبيل الله ٢١
مجاراة الجاهلية خطوة واحدة يعني الهزيمة من أول الطريق............................ ٢٤
منهج التعامل مع الجاهلية في غربة الإسلام الثانية.. ٢٥

نُقلة بعيدة

مقدمة

هذا الفصل -فيما أعتقد- هو لب الكتاب، وهو يمثل تحدياً كبيراً للجاهلية، وهو نُقلة بعيدة كبعد السماء عن الأرض، وبعد الآخرة عن الدنيا، وبعد الإنسانية عن الحيوانية، وبعد الموت عن الحياة.

فهي ليست نُقلة أرضية تحدث فقط في الأرض، ولا نُقلة اجتماعية تُحدِث تغييراً في حياة الإنسان. ولكنها نقلة للإنسان من الموت إلى الحياة، أو من الضياع إلى الوجود..

ويتميز هذا الفصل بأنه مجموعة من التحديات المتلاحقة التي كان الأستاذ سيد رحمه الله يواجه بها الجاهلية يوم أن كتب هذا الفصل، ويوم أن كتب هذا الكتاب. وهذا الفصل كان له أثر كبير جداً على كل من قرأه حينما التقينا بهذا الرجل أول مرة.

ورغم أن كل الفصول السابقة على درجة كبيرة من الأهمية، وعلى درجة كبيرة من وضوح الحقائق التي يقوم عليها الدين، وهي توضح هذا الدين بكل جلاء، وبكل قوة وإصرار. ولكن كأن هذا الفصل هو ثمرة الفصول السابقة كلها. فهو يضع النقاط على الحروف، ويحدد النفسية الرائدة التي ترتاد هذا الطريق. وتصوِّر مشاعر الرسول، أو الداعية الذي يأتي إلى قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور. ويأتي لكي يفك لهم طلاسم الحياة من حولهم، ويضيء جنبات هذه الحياة بعد أن أظلمت إظلاماً كاملاً.

وقفت مع هذا الفصل كثيراً.. حتى أنني شعرت أنه مستوفٍ بطبيعته، حتى لا يكاد يحتاج توضيحاً ولا إضافات. وأخشى أن تقلل أي إضافات أقولها من حرارة الكلمات التي كتبها سيد قطب، أو تقلل من حرارة المواجهة التي يواجه بها الأستاذ سيد الواقع الذي كان يواجهه يوم أن خرج هذا الكتاب وخرج هذا التصور إلى الوجود.

لذلك أكاد أفهم ما اتهمته به الجاهلية حينما قبضت عليه في عام ١٩٦٥؛ فقالوا إنه يدِّعي النبوة، أو كأنه يدعو إلى دين جديد. كأنهم أدركوا أن الرجل يحمل في قلبه مشاعر قريبة من مشاعر النبوة. وأنه جاء للواقع بإحساس المجدد لميراث النبوة، ليخرج هذه الجاهلية من ظلماتها إلى نور الحق.

الشعور المصاحب لأداء الدعاة إلى الحق

وأحست الجاهلية من خلال قدرته على توضيح الحقيقة، وعلى تحدي الواقع، وعلى الاستهانة الشديدة بكل ما يمكن أن يواجهه من متاعب، كأن هذا الرجل يقف موقف الرسل والأنبياء. وهذا الأمر ليس كله افتراءً، لأنه كان يحس أنه جاء ليقيم الدين من جديد، وأن هذه هي الغربة الثانية للإسلام، وأن هذا الواقع أو هذه الجاهلية المعاصرة كأنها أحوج ما تكون إلى نبي

جديد، لولا أن الله عز وجل شاء في علمه أن لا نبي بعد محمد ﷺ، ولا كتاب بعد القرآن. ولولا ذلك لكان هذا الجيل الذي نعيشه من أحوج الأجيال لأن يأتيه رسول أو نبي يخرجه من أسر الشيطان إلى طلاقة الإيمان.

وكان تقدير الله عز وجل أن يأتي المجددون والدعاة ليحملوا هذه المهمة بكل ثقلها وبكل وضوحها. وكان لا بد لهم أن يكونوا مزودين من الله عز وجل بهذا التجرد وبهذه القوة وبهذا التحدي، وبهذه الاستهانة بالجاهلية.

وهذه الصفات كانت -كما قلت- من الصفات الأساسية، بل هي مفتاح شخصية الأستاذ سيد ولا شك.

فهذا الفصل هو مجموعة من التحديات المتلاحقة، موجة بعد موجة. وهو يفصّل في هذه التحديات، بحيث لا يحتاج إلى مزيد من شرح ولا إضافات. ولكن سنحاول أن نقرأ هذا الفصل، ونضيف الضروري من التنبيهات والإشارات، التي ما أظن أنها ستضيف إلى جوهره شيئاً جديداً كما حدث مع الفصول السابقة.

ولعل هذه الخاصية في هذا الفصل نشأت نتيجة أنه جاء بعد أن استوفى الأستاذ سيد ذكر كل الحقائق التي يريد أن يقولها فيما سبقه من فصول. ثم جاء هذا الفصل يتوِّج هذه الحقائق، بأن يضع تصوراً لكيف تكون مشاعر الدعاة؟ وكيف تكون نفسية الدعاة؟ وكيف يكون خطابهم مع الجاهلية؟ وكيف يكون منهج المبلِّغ أو وظيفة البلاغ، وكيفية التعامل مع هذه الجاهلية؟

ويعتبر هذا الفصل -كما قلت- هو ثمرة هذا الكتاب، ولُب هذا الكتاب. والفصلان الآتيان بعده هما استكمال له، وتوضيح لما ينبغي أن يكون عليه الداعية بعد أن أدرك حقائق الإسلام وحقيقة هذا الدين.

وظيفة الإسلام الأولى أن ينشأ حياة إنسانية مبنية على تصور مستقل ومنهج رباني متفرد

يقول في أول الفصل:

"هناك حقيقة أولية، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تماماً ونحن نقدم الإسلام للناس: الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء.. هذه الحقيقة تنبثق من طبيعة الإسلام ذاته، وتنبع من تاريخه."

وواضح أن الكلام يعني بأنه سيتكلم كلاماً كبيراً وخطيراً، وأن هذا الكلام مرتبط بحقيقة البلاغ، لأنه يتحدث أن هذه الحقيقة الأولية ينبغي أن تكون واضحة حينما نقدم الإسلام للناس، فهي قضية مرتبطة بقضية البلاغ، وقضية العلاقة بالجاهلية، وقضية الطريقة التي يُقَدّم بها الإسلام، وطبيعة الإنسان المسلم أو الداعية المسلم وهو يُبلِّغ هذه الحقيقة للناس.

التصور الإسلامي للوجود والحياة ذو خصائص متميزة

"إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة، تصور كامل ذو خصائص متميزة، ومن ثمَّ ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة."

وهذه الحقيقة الأولية التي يؤكد عليها ينبغي أن تكون واضحة تماماً للدعاة.. ينبغي أن يدرك الداعية أنه جاء للناس بتصور جديد، له خصائصه المتميزة، وينبثق من منهج مستقل أيضا بكل مقوماته وارتباطاته، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة.. لأن الداعية المسلم الذي يأتي إلى الجاهلية لا بد أن يكون ممتلئاً بهذا الإحساس واليقين، وأن يكون مستعداً لأن يقابل الجاهلية بهذا الوضوح وبهذا التميز الكامل بين ما جاء به وبين ما هي عليه.

فالإسلام بما أنه تصور ومنهج رباني، لا بد أن يكون تصوراً مستقلاً وكاملاً، وينبثق منه أيضا منهج مستقل وكامل للحياة كلها. لأن البشرية الآن، وكذلك كل جاهلية فيما سبق، لا تملك إلا تصورات بشرية ومناهج بشرية. فحينما يأتي الرسول أو يأتي الداعية فهو إنما يأتي الجاهلية بتصور مختلف تماماً عما هي عليه، لأن ما يأتي به نابع من مصدر رباني. وهذا التصور الرباني يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً.

ونلاحظ دائماً أن الأستاذ سيد دقيقٌ جداً في التمييز الشديد، ووضع الخطوط الفاصلة، بتعبيراتها الواضحة..

يقول **"هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً. وقد يلتقي مع هذه التصورات في جزئيات عرضية جانبية، ولكن الأصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرفته البشرية من نظائرها."**

فهي مخالفة أساسية.. ولا بد أن يتسلح الداعية الذي يواجه الجاهلية بهذا اليقين؛ بأنه جاء بشيء مخالف تماماً، لا علاقة له بما عليه الجاهلية.. سيبين بعد ذلك كيف يحقق هذا التصور المخالف، وكيف يبرزه لهذه الجاهلية.

بناء حياة إسلامية يحتاج إلى علم وجهد وإرادة

"ووظيفة الإسلام الأولى هي أن يُنشئ حياة إنسانية توافق هذا التصور، وتمثله في صورة واقعية، وأن يقيم في الأرض نظاماً يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله، وهو يخرج هذه الأمة المسلمة لتمثله وتقوم عليه.."

وظيفة الإسلام هو أن يُنشئ.. وهذا الإنشاء معناه أنه عملية بناء.. ويتمثل في إيجابية شديدة، تحتاج إلى علم وإلى إرادة وإلى نية وإلى اختيار وإلى إصرار. وهذه هي طبيعة الإسلام؛ أنه لا يمكن أن يصبح الإنسان مسلماً بدون علم وبدون اختيار وبدون إرادة. ولا يمكن أن يصبح مسلماً بالوراثة، ولا مسلماً بلا علم يقوم عليه إدراكه ويقوم عليه تصوره. وهذا ينفي تماماً أن تكون لا إله إلا الله مجرد كلمة يتوارثها الناس، وإن كانوا لا يعلمون محتواها ومقتضياتها.

وحينما يأتي من يسمون أنفسهم بالعلماء ليقولوا للناس إنكم مسلمون بمجرد أن تقولوا لا إله إلا الله، حتى لو لم تكونوا تفهمونها أو تعرفون مقتضياتها، ومن ثم لم تعملوا بهذه المقتضيات.. فهم مخطئون لأن هذا لا يمكن أن يكون إسلاماً.. لأن الإسلام بناء، وما دام بناء فلا بد أن يكون مصحوبا بنية وبإرادة.

والبناء لا يقوم أبداً بصورة تلقائية. لأن البناء يتم عن تصميم مسبق، وعن عمل وجهد. وهذا يحتاج علماً، ويحتاج نية وإرادة، ويحتاج إصراراً لكي يقوم هذا البناء. فالبناء لا يقوم وحده بمجرد الأماني، ولا بمجرد التفكير النظري.

بينما الجاهلية لا تحتاج إلى كل هذا.. فالجاهلية بعكس الإسلام، تأتي لتفكك ضوابط الإنسان وروابطه ليسقط في هاوية الهوى والشهوات والغرائز. أي أن وظيفة الجاهلية هي الهدم فقط، بمجرد أن تترك الإنسان لهواه سيسقط. فلا يحتاج الإنسان أن يبني ليكون جاهلياً.. إنما عليه فقط أن يتخلى عن الحق ليكون جاهلياً. فهي مجرد استسلام لغرائزه وشهواته، والسير في مسارب الهوى ودهاليز الشهوات، فيصبح جاهلياً. فلا يحتاج الجاهلي إلى علم ليكون جاهلياً، ولا يحتاج إلى نية ليكون جاهلياً، ولا يحتاج إلى إيجابية ليكون جاهلياً.. فبمجرد أن يفك القيود والضوابط التي تضبطه يصبح جاهلياً.

بينما الإسلام على عكس ذلك.. الإسلام بناء.. يحتاج إلى قوة.. ويحتاج إلى جهد.. ويحتاج إلى علم وإصرار واختيار. فوظيفة الإسلام الأولى هي أن ينشئ حياة إسلامية تقوم على هذا التصور. فلا بد أن يكون مدركاً لهذا التصور، وأن يتمثله في صورة واقعية. لا بد أن يكون مصحوباً بجهد وبعمل، وأن يقيم في الأرض نظاماً يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله. ولا بد أن يكون هذا عن وعي وعن إدراك وعن تجرد لله عز وجل.

والله عز وجل يعبر عن هذا في كتابه العزيز فيقول ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].. فهذه الأمة لم تكن موجودة بتصوراتها ولا بمنهجها ولا بأخلاقها وقيمها وموازينها.. فهي أمة أُخرجت.. فهناك مجهود لكي تقوم هذه الأمة وتخرج إلى الوجود. وكما يقول الله عز وجل في صفة هذه الأمة ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الحج: ٤١].

والجاهلية لا تفعل ذلك.. فحين يستجيب الإنسان لأي هوى.. ولأي فكرة.. ولأي غريزة.. ولأي دعوة.. بعيداً عن الله يصبح في جاهلية. فالإنسان لكي يكون مسلماً لا بد أن يكون عالماً بحقيقة الإسلام، ويكون مختاراً له.

فوظيفة الإسلام الأولى أن ينشئ حياة إنسانية..

ليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة

"وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان.. لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل.."

وهذه قضية واضحة جداً.. لأن الإسلام جاء ليحل محل الجاهلية. ولم يأتِ ليصطلح مع تصوراتها ولا مع أوضاعها. ولم تكن هذه وظيفته يوم جاء.. ولا يوم جاء أنبياء الله جميعا.. ولا يوم جاء محمد ﷺ.

"فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الإلهي في الحياة، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي.. الإسلام هو الإسلام، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام!"

فوظيفة الإسلام هي وظيفة انقلابية، لتعديل الواقع وتصحيحه، فبعد أن تكون الجاهلية قد مرَّغت البشرية في الأوحال.. يأتي الإسلام ليُخلِّص الناس من هذا الوحل، ويخلّص الناس من هذه المستنقعات. ليرفع البشرية من السفح إلى القمة، ويخرجها من الظلمات إلى النور، وينقي ضمير البشرية وأخلاقها من الانحطاط إلى الرفعة والرقي.

فالإسلام منهج انقلابي. فهو لا يأتي أبداً لكي يصطلح مع الواقع الذي جاء ليغيره، ولو في جزئية من الجزئيات على الإطلاق. فليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان..

وجهان متقابلان

"الجاهلية هي عبودية الناس للناس: بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله، كائنة ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع!

والإسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد!"

وجهان متقابلان.. ليست هناك فرصة على الإطلاق لتلاقيهما. وكما تحدثنا من قبل عن سمات الجاهلية المشتركة فهذه السمات مقابلة تماماً لسمات الإسلام.. فالجاهلية كيان متكامل، يتصف بصفات لا صلة لها بإنسانية الإنسان ولا بالإسلام من قريب أو بعيد..

"هذه الحقيقة المنبثقة من طبيعة الإسلام.." حقيقة أنه منهج وتصور مستقل متميز.. **"هذه الحقيقة المنبثقة من طبيعة الإسلام، وطبيعة دوره في الأرض، هي التي يجب أن نقدم بها الإسلام للناس: الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء!"**

وبطبيعة الحال لا بد أن تكون هذه الحقيقة راسخة جداً في قلب الداعية قبل أن يقدم الإسلام للناس. فقبل أن يقدمه للناس لا بد أن يكون هو قد تيقن أنه يحمل بين حناياه شيئاً جديداً تماماً، لا صلة له بما يعيشه الناس وبما يحيون به. ومن ثم يجب أن يكون على قدر كبير من الإدراك والاستعداد لكل ما يترتب على هذه المواجهة الصارخة التي لن تقبلها الجاهلية برضى، ولا حتى أن تهادنها.

الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية

"إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية.." تحدٍ يواجه به الجاهلية كالتحديات التي سبقت؛

"إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية. لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور.. فإما إسلام وإما جاهلية. وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية، يقبله الإسلام ويرضاه..

فنظرة الإسلام واضحة في أن الحق واحد لا يتعدد، وأن ماعدا هذا الحق فهو الضلال. فهما غير قابلين للتلبس والامتزاج. وأنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وإما شريعة الله، وإما الهوى.."

هذا الوضوح وهذا التحدي هو الذي يجب أن يواجه الداعية به الجاهلية، فلا يدع لها على الإطلاق فرصة للقاء ولا للتفاهم ولا للمساومة، ولا أن يكون هناك أي أمل في أن يتشابها، حتى وإن كان هناك تشابه عرضي في بعض الجزئيات.. فكما يقول بعد ذلك: إن هذا التشابه العارض مجرد مصادفة لا صلة لها بالجذور، ولا بالأصول لهذه الجزئيات.

فلا بد أن يكون الداعية متسلحاً بهذا الوضوح وهذا الإصرار وهذا التحدي. إنه لن يقبل أنصاف الحلول، ولن يقبل أي مساومة في هذا الجانب على الإطلاق. لأنه على يقين من أن الحق واحد لا يتعدد، وأن ماعدا ذلك هو الضلال.

"والآيات القرآنية في هذا المعنى متواترة كثيرة: ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة: ٤٩]. ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]. ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]. ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]. ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

فهما أمران لا ثالث لهما. إما الاستجابة لله والرسول، وإما اتباع الهوى. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية. إما الحكم بما أنزل الله كله وإما الفتنة عما أنزل الله.. وليس بعد هذا التوكيد الصريح الجازم من الله سبحانه مجال للجدال أو للمحال.."

وكما نعلم أن الإنسان دائماً أمامه الطريقان، وعليه أن يختار أحدهما. فهو دائماً في حالة من الاختيار، وهو دائماً على مفرق طريق. وهذه الازدواجية دائماً تقابل الإنسان. فالإنسان دائماً أمامه ازدواج، وعليه أن يختار ناحية ويترك الأخرى؛ سواء في طبيعته، أو فيما يتناوله في شئون الحياة.

فهو دائماً أمامه طريق الحق وطريق الباطل، وعليه أن يختار بينهما باستمرار. وتركيبه الداخلي أيضا فيه هذا الازدواج ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨].. ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠].. فالإنسان في داخله وفيما يقابله في حياته دائماً في مفرق طريق، وعليه دائماً أن يختار ما يشاء.. ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم يقول: **"وظيفة الإسلام إذن هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية.."** تحدٍ جديد.. ليس هناك غموض أو لبس في هذه الأمور. لا بد أن يدرك المسلم أنه جاء بانقلاب وثورة على الواقع الجاهلي. لا ليصطلح معه، ولا ليقبل أي نوع من التنازلات.. وليس هناك حوار -بالمفهوم الجاهلي- لأنه حوار للالتقاء على أرض مشتركة. وليس هناك أرض مشتركة بين الإسلام

والجاهلية. ولا يجوز للمسلم أن يعطي للجاهلية أي إحساس بالأمل في ذلك على الإطلاق. فهو قد جاء ليهدم هذه الجاهلية ويقصيها عن الوجود. فلا يعطيهم أي أمل في هذا الالتقاء.

"وظيفة الإسلام إذن هي إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص، المستقل الملامح، الأَصيل الخصائص.. يريد بهذه القيادة الرشيدة الخير للبشرية واليسر. الخير الذي ينشأ من رد البشرية إلى خالقها، واليسر الذي ينشأ من التنسيق بين حركة البشرية، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص، المستقل، ترتفع إلى المستوى الكريم الذي أراده الله لها، وتخلص من حكم الهوى. أو كما قال ربعي بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس: ما الذي جاء بكم؟ فكان جوابه: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"."

فالمسلم لا بد أن يكون بهذا اليقين وبهذا الإصرار وبهذا التحدي للجاهلية. ويجب ألا يعطيها فرصة لالتقاط الأنفاس لكي تجد مَنفذاً إلى نفس الداعية أو دينه.

وتحدٍ جديد.. يقول:

"لم يجيء الإسلام إذن ليربت على شهوات الناس الممثلة في تصوراتهم وأنظمتهم وأوضاعهم وعاداتهم وتقاليدهم.. سواء منها ما عاصر مجيء الإسلام، أو ما تخوض البشرية فيه الآن، في الشرق أو في الغرب سواء.. إنما جاء ليلغي هذا كله إلغاءً، وينسخه نسخاً، ويقيم الحياة البشرية على أسسه الخاصة. جاء لينشئ الحياة إنشاءً. لينشئ حياة تنبثق منه انبثاقاً، وترتبط بمحوره ارتباطاً."

بهذا الوضوح، وبهذا الحسم الدقيق، وبهذا الإصرار، وبهذا الاستعلاء، وبهذا التحدي يقرر المسلم في نفسه وفي خطابه مع الجاهلية أنه جاء ليلغي هذه الجاهلية وينسخها نسخاً، ويقيم الحياة على أسسه الخاصة التي جاء بها..

"وقد تُشابِه جزئيات منه جزئيات في الحياة التي يعيشها الناس في الجاهلية. ولكنها ليست هي، وليست منها. إنما هي مجرد مصادفة هذا التشابه الظاهري الجانبي في الفروع. أما أصل الشجرة فهو مختلف تماماً. تلك شجرة تطلعها حكمة الله، وهذه شجرة تطلعها أهواء البشر: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨].."

لا يمكن للمسلم إذا لم يكن هذا الأمر واضحاً لديه أن يكون جاداً، أو عابداً لله في الحقيقة.. فلا يمكن ما لم يكن على إدراك لهذا الأمر أن يحقق ألوهية الله في الأرض كما هي في السماء، وأن يكون حاملاً رسالة من الله لكي يغير البشرية تغييراً كاملاً.

حقيقة الجاهلية أنها خبثت وإن اختلفت مظاهرها

"وهذه الجاهلية خَبُثت قديماً وخَبُثت حديثاً.. يختلف خبثها في مظهره وشكله، ولكنه واحد في مغرسه وأصله.."

وهذا تحدٍ آخر.. حينما ترى الجاهلية أن الداعية يحتقرها إلى هذا الحد، ويدينها هذه الإدانة، ويراها على حقيقتها، ويكشفها بهذا الوضوح الشديد.. بحيث لا يكون لها أمل في أن تزحزح هذا الداعية من أرضه الطاهرة إلى أرضها النجسة بأي حال من الأحوال.

والخَبَث الذي في الجاهلية؛ خبث في التصور: حينما يكفرون بالله، ويتصورون عنه تصورات لا تليق بألوهيته سبحانه، ولا بمقام هذه الألوهية.. حين يدّعون له الشركاء، أو يظنون به الظنون.

وخبثٌ في الفكر، وخبثٌ في المنهج، وفى الوسائل التي تحاول الجاهلية أن تصل بها إلى أهدافها، فهي تستعمل أخلاقيات وقيم منحطة، سواء كان ذلك كذباً أو افتراءً، أو مغالطة.

ودائماً كانت الجاهلية تواجه الأنبياء وهي تعلم أنهم على حق، وتعلم طهر الأنبياء، وتعلم من تاريخ الأنبياء صدقهم. ولكنها تغالط وتتهمهم بكل الصفات الخبيثة، كما لو كانوا يقومون بعملية إسقاط لخبثهم على الأنبياء. ولكنهم كانوا بينهم وبين أنفسهم يعلمون أنهم هم الضالون والكاذبون.

وهذا واضح في حوار الأنبياء مع أقوامهم.. نراه في حوار نوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل، ونراه مع رسول الله ﷺ حينما سألهم: أَرَأَيْتُم لَو أَخْبَرَتكُم أَن خيلاً تخرج من سفح هَذَا الْجَبَل، أَكُنْتُم مصدقي؟ قَالُوا: مَا جربنَا عَلَيْك كذباً، قَالَ: فإنّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيد فَقَالَ أَبُو لَهب: تَبًّا لَك أَلِهَذَا جمعتنا؟[1]

ولما جادل إبراهيم عليه السلام قومه في حقيقة الألوهية التي يعبدونها ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].. فهم يعرفون الحقيقة، ولكنهم يصرون على المغالطة لكي ينتصروا لآلهتهم.

فهو خبث في التصور، وخبث في الوسائل والقيم، وخبث في الحياة الأخلاقية.. ينزلقون بها إلى الظلم وإلى العدوان وإلى الكيل مع الناس بمكاييل مختلفة.. فالجاهلية خَبُثت قديماً وخَبُثت حديثاً.

"إنه هوى البشر الجهَّال المغرضين، الذين لا يملكون التخلص من جهلهم وغرضهم، ومصلحة أفراد منهم أو طبقات أو أمم أو أجناس يغلبونها على العدل والحق والخير. حتى تجيء شريعة الله فتنسخ هذا كله، وتشرِّع للناس جميعاً تشريعاً لا يشوبه جهل البشر، ولا يلوِّنه هواهم، ولا تميل به مصلحة فريق منهم."

---

[1] سيرة ابن هشام. ج١. ص٣٥١.

والأمثلة على هذا كثيرة في كل الجاهليات؛ أنها خبيثة خبثاً كاملاً. ولا شك أن أخبث جاهليات التاريخ هي هذه الجاهلية التي نعيشها اليوم.

كما أن الله لا يغفر أن يشرك به؛ فهو لا يقبل منهجاً مع منهجه

"ولأن هذا هو الفارق الأَصيل بين طبيعة منهج الله ومناهج الناس، فإنه يستحيل الالتقاء بينهما في نظام واحد، ويستحيل التوفيق بينهما في وضع واحد. ويستحيل تلفيق منهج نصفه من هنا ونصفه من هناك. وكما أن الله لا يغفر أن يُشرَك به. فكذلك هو لا يقبل منهجاً مع منهجه.. هذه كتلك سواء بسواء. لأن هذه هي تلك على وجه اليقين."

وهذا معنى دقيق في مفهوم التوحيد ومفهوم الشرك.. معنى التوحيد هو خلوص الإنسان لعبادة الله عز وجل، وخلوص الحياة لسلطان الله وهيمنة الله عز وجل.

والشرك هو دخول أي شيء مع الله في إحدى خصائصه أو صفاته. فإذا ادَّعى الناس أنَّ لأحدٍ أو لقوة أنْ تختص أو تشارك الله في إحدى خصائصه فهو الشرك الذي لا يقبله الله عز وجل.

فكما أن الله لا يغفر أن يشرك به أحد في الخلق، فهو أيضاً لا يقبل أن يشرك به في اتخاذ منهج غير منهجه ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف:٥٤]

حقيقة الإسلام يجب أن تقدم للناس في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة

"هذه الحقيقة ينبغي أن تكون من القوة والوضوح في نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس، بحيث لا نتلجلج في الإدلاء بها ولا نتلعثم، ولا نَدَع الناس في شك منها، ولا نتركهم حتى يستيقنوا أن الإسلام حين يفيئون إليه سيبدِّل حياتهم تبديلاً.. سيبدِّل تصوراتهم عن الحياة كلها. كما سيبدِّل أوضاعهم كذلك.."

هذا أيضاً مظهر من مظاهر التحدي.. حيث لا يكتفي بأن يقدم الحقيقة بوضوح.. ولكن يشترط ألا نتلجلج ولا نتلعثم ولا نتردد في تقديمها.. بل نظل نُلح على هذه الحقيقة، لكيلا يظن الناس أبداً أنها غير واضحة، ولا نتركهم حتى يستيقنوا أن الإسلام سيبدل حياتهم تبديلاً. وما لم يحدث هذا، وما لم نؤكد للناس أننا جئناهم بشيء جديد تمام الجدة، غريب عليهم تماماً، فإننا لا نكون قد بلَّغنا عن الله البلاغ الحق الذي يرضاه.

والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]..

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [المائدة: ٦٨].. رغم أنهم كانوا على أشياء، حيث كانوا يصلون، ويذهبون إلى الكنائس والمعابد، ويحرّمون بعض الأشياء.. وكذلك يفعل الآن الذين يزعمون أنهم مسلمون، ولكنهم لا بد أن يفهموا أنهم ليسوا على شيء، لأن الذي يشرك مع الله في جزئية فكأنما أشرك مع الله شركاً كاملاً ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾.

ويقول الله عز وجل ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦]..

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤]..

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس: ٣٢]..

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢]..

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]..

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]..

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]..

فالآيات كثيرة في القرآن الكريم، وهي تحدد دون أدنى تردد أننا على شيء وهم على شيء آخر، وأنهم لا بد أن يُواجَهوا هذه المواجهة ﴿ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾.. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾..﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾..

ليست هناك غمغمة ولا لجلجة في بيان هذا الأمر.. **"ولا نتركهم حتى يستيقنوا أن الإسلام حين يفيئون إليه سيبدِّل حياتهم تبديلاً.. سيبدل تصوراتهم عن الحياة كلها. كما سيبدل أوضاعهم كذلك. سيبدلها ليعطيهم خيراً منها بما لا يُقاس. سيبدِّلها ليرفع تصوراتهم ويرفع أوضاعهم، ويجعلهم أقرب إلى المستوى الكريم اللائق بحياة الإنسان. ولن يبقي لهم شيئاً من أوضاع الجاهلية الهابطة التي هم فيها.."**

ولن يحرمهم هذا من أي خير على الإطلاق؛ سواء في المعرفة.. أو في الجانب العلمي البحت.. أو في جانب بعض الجزئيات التي قد تتشابه مع النظام الإسلامي، ولكنها لن تكون هي -كما قلنا- لأنها ستكون مشدودة إلى أصل كبير يختلف تماماً عن الأصل الذي تشد إليه هذه الجزئيات... فأصل الجاهلية الخبث والنكد.. وأصل الإسلام الطهر والحق.

"يجب ألاَّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية.. بشتى أسمائها وشياتها وراياتها جميعاً.. وإنما هو الإسلام فقط!.."

هذا مطلق الاستعلاء والقوة..

لا بد أن يعرفوا أننا نرفض تماماً أن يتشابه إسلامنا مع أي مذهب أو نظام من أنظمة الجاهلية بشتى أسمائها وراياتها جميعاً..

وإنما هو الإسلام فقط.. **"الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة. الإسلام الذي يحقق للبشرية خيراً مما تحلم به كله من وراء هذه الأوضاع. الإسلام الرفيع النظيف المتناسق الجميل الصادر مباشرة من الله العلي الكبير."**

وكفى شرفاً أن يكون الإسلام صادراً من العلي الكبير. ولا يجوز للمسلمين أن يضعوا الإسلام في كفة مقابلة مع الأنظمة البشرية الجاهلية على الإطلاق.

"وحين ندرك حقيقة الإسلام على هذا النحو، فإن هذا الإدراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام، في ثقة وقوة، وفى عطف كذلك ورحمة.."

بدأ هنا يتحدث عن منهج البلاغ بعد أن تحدث عن حقيقة هذا البلاغ.

وحينما ندرك حقيقة الإسلام بهذه الصورة، وحينما ندرك ما ينبغي أن يتسلح به الداعية من الإصرار والقوة والمواجهة.. فإن هذا الإدراك الواضح وهذه القوة ستجعلنا نقدم الإسلام للناس.. **"في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة.. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل. وعطف الذي يرى شقوة البشر، وهو يعرف كيف يسعدهم. ورحمة الذي يرى ضلال الناس وهو يعرف أين الهدى الذي ليس بعده هدى!"**

هذا الإدراك بهذا التميز بين الإسلام وبين الجاهلية.. وبين ما عليه أهل الجاهلية وبين ما جاء به الإسلام، لا يمنع الإنسان وهو بهذه الثقة وبهذه القوة، وبهذه النظرة التي ترى الجاهلية على حقيقتها الخبيثة.. لا يمنعه ذلك من أن يعطف على البشرية كذلك وأن يرحمها، لأن في بيان هذا الحق لها عين الرحمة وعين العطف عليها.

ولا شك أن الأنبياء قد جاءوا لينقذوا مثل هذه الجاهليات الشقية الغارقة في شقوتها من وهدة الشقاء والمعاناة، ومن الذنب الذي يسري في كل جوانب حياتها، إلى الخير وإلى الرحمة وإلى الرفعة.

فهذا المنهج الواضح.. منهج الصراحة الكاملة والوضوح الكامل، وعدم إعطاء الجاهلية أي أمل في الالتقاء مع الإسلام، وعدم اللجلجة في البيان لا يعني أن يحمل قلب الداعية أي قسوة أو أي احتقار لذوات الجاهليين.. فهو يحرص على أن ينقلهم إلى الحق الذي عرفه، وإلى الهدى الذي أحسه، وإلى الخير الذي نَعِم به. فهو -على العكس- أرحم بهم من أنفسهم بأنفسهم.

"لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسساً، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة.. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة.." فهذا هو صلب منهج البلاغ. فالجاهلية ينبغي أن تعرف إلى ماذا تُدعى، وأن نوضح لها تماماً أننا جئنا بشيء يختلف تماماً عما هي عليه.

"سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيِّبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يرفعكم.. هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم.. والإسلام سيغير تصوراتكم

وأوضاعكم وقيمكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها، وإلى أوضاع أخرى تحتقرون معها أوضاعكم في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى قيم أخرى تشمئزون معها من قيمكم السائدة في الأرض جميعاً.."

هكذا، وبهذا الوضوح الذي ينبغي أن يكون في نفس الداعية ابتداءً.. ثم الوضوح والصراحة في تقديم الإسلام للناس، بحيث لا يخدعهم ولا يتدسس إليهم ولا يجاملهم، ولا يخفي حقيقة ما هم مقبلون عليه إذا هم أخذوا بهذا الإسلام، فلا يجوز أن نخفي أنّ هذه الجاهلية نجس، وأن الإسلام جاء ليطهر الناس من خبث هذه الجاهلية ونجسها. وأن هذه الحياة التي تعيشونها حياة أحط من حياة الحيوان، وأن الله يريد أن يرفعكم إلى مرتقى الخلافة في هذه الأرض، وأن هذا الإسلام جاء ليقيم العدالة ويقيم الأمن ويقيم الكفاية، ويجعلكم تشعرون بمشاعر الإنسانية والأخوة والرِفعة بعيداً عن هذه الشقوة والنكد الذي تعيشون فيه، فيجعل لكم قيما وموازين تليق بكم كبشر، ويرفعكم من هذه القيم وهذه الأوضاع التي تعيشونها. وحينما تعرفون قيم وموازين الإسلام وتعيشون فيها ستحتقرون أوضاعكم التي كنتم فيها، وتشمئزون من قيمكم السائدة في الأرض جميعاً.

فلا بد أن يكون الداعية متسلحاً بهذا الوضوح داخل نفسه أولاً، ثم عليه أن يوضحه للناس بصورته الكاملة. وسيقول لهم أيضا: **"وإذا كنتم أنتم -لشقوتكم- لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية، لأن أعداءكم -أعداء هذا الدين- يتكتلون للحيلولة دون قيام هذه الحياة، ودون تجسُّد هذه الصورة، فنحن قد رأيناها -والحمد لله- ممثلة في ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا المبدع للمستقبل الذي لا نشك في مجيئه!"**

لا بد أن يكون الداعية المسلم قد عاش في ظلال هذا الدين وهذا القرآن، وتذوقه، وعاش به.. حتى يستطيع أن يقول في ثقة لهؤلاء المدعوين: أنهم سيسعدون ويفرحون ويتنعمون حينما ينتقلون إلى الإسلام. وإذا كان أعداء الإسلام يحولون دون أن يقوم الإسلام -ولو في بقعة من الأرض، ولو على جزيرة في محيط- مما حال بين أهل الجاهلية وهذا الخير. فإن الدعاة الذين يعيشون الإسلام في حياتهم قد تذوقوا هذه النعمة حتى وإن لم يقم المجتمع المسلم.. فهم قد عاشوه مع تاريخهم ومع سلفهم، ومع المشاعر التي تنبت في قلب الإنسان حينما يتعامل مع القرآن ومع قيم هذا الدين.

"هكذا ينبغي أن نخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام، لأن هذه هي الحقيقة، ولأن هذه هي الصورة التي خاطب الإسلام بها الناس أول مرة.."

فلا بد أن نقول الحقيقة للناس.. فهكذا خاطب الإسلام الناس أول مرة. وهذا هو المنهج الرباني الذي علمه الله لرسوله ﷺ، وأمره به. ونحن مطالبون أن نرتبط ونتأسى بالرسول ﷺ.

فينبغي أن نخاطب الناس بهذا الوضوح وهذه الصراحة، لأن هذه هي الحقيقة من ناحية؛ فالإسلام سينقلهم من وهدتهم إلى هذه القمة، ولأن هذه الطريقة هي الطريقة التي أمرنا الله أن نُبلّغ بها الإسلام، فنحن لسنا مخيرين في هذا الأمر..

والإسلام حين جاء أول مرة **"نظر إليهم من عل، لأن هذه هي الحقيقة.."** فالإسلام منهج رباني، وهو كلمة الله للبشرية. والله نظر إلى البشرية جميعها، فمقت الناس جميعاً عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وأرسل رسوله ليبلغهم من فوق

سبع سماوات، ومن فوق العرش هذه الحقيقة. فلا بد للداعية أن تكون نظرته عالية ومستعلية.. لا بد أن يكون متأكداً أنه جاء مبتعثاً من الله إلى هذه البشرية.. من أفق أعلى وأطهر وأعظم من أفق الجاهلية. وهذا الاستعلاء بالحق لا بد أن يكون جزء من شعور الداعية.. لا بد أن ينظر إليهم من عل، لأن هذه هي الحقيقة.

"وخاطبهم بلغة الحب والعطف لأنها حقيقة كذلك في طبيعته.." لأن الرسل والأنبياء والدعاة لا يكرهون أقوامهم، وإنما بالعكس، هم يحبونهم ويعطفون عليهم، ومستعدون لتحمل كثير من المتاعب من أجل أن يوصلوا هذه الحقيقة لهم، وأن ينقذوا هذه البشرية من هذا الشقاء.

فالإسلام خاطبهم بلغة الحب والعطف التي هي جزء من حقيقته، وفي الوقت نفسه فاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد، لأن هذه هي طريقته. هذا كله في مزيج واحد؛ الاستعلاء، والإحساس العميق بأن هذا الدين جاء من عند الله، وأنه هو الحق في مقابل الباطل الذي تعيش فيه الجاهلية، ومخاطبتهم بلغة الحب والعطف، لأنه -فعلاً- يريد أن ينقذ هذه البشرية من واقعها البائس.

مع الثقة والقوة والعطف والرحمة لا بد كذلك من المفاصلة الكاملة

"نظر إليهم من عل، لأن هذه هي الحقيقة. وخاطبهم بلغة الحب والعطف لأنها حقيقة كذلك في طبيعته. وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقته.. ولم يقل لهم أبداً: إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة! أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم التي ألفوها.. كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم إليهم الإسلام.. مرة تحت عنوان: "ديمقراطية الإسلام"! ومرة تحت عنوان "اشتراكية الإسلام"! ومرة بأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالمهم لا تحتاج من الإسلام إلا لتعديلات طفيفة!!! إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات!"

وهذا تحد آخر.. فالإسلام لا يمكن أن يكذب ولا أن يخدع ولا أن يتملق. فهو إنما جاء ليرفع الناس من الكذب ومن الخداع ومن التملق، إلى الحقيقة وإلى الصدق. فكيف يأتي ليقول لهم غير الحقيقة؟ لا بد أن يصدع بالأمر كما جاء من عند الله. لا أن يتدسس إليهم، ولا أن يشبّه نظمه بنظمهم، ولا أن يخدعهم بأنه لن يغير من حياتهم، وأن الأمر بسيط، وأن التغيير طفيف، وأن النقلة ليست بعيدة، وأن الحياة ستكون سهلة، ولن تخسروا كثيراً.. إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات.

لا يجوز للمسلم أن يمارس ذلك التدسس لأنه كذب وخداع، ولا أن يمارس ذلك التربيت على الشهوات، أو تملق الجاهلية.. وإلا يكون قد كذب على الله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].. لا تتدسس إليهم.. ولا تتملقهم.. ولا تخش منهم.. والله يعصمك من الناس.

النقلة من شقوة الجاهلية إلى واحة الإسلام نقلة واسعة بعيدة

"كلا. إن الأمر مختلف جداً. والانتقال من هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض إلى الإسلام نقلة واسعة بعيدة، وصورة الحياة الإسلامية مغايرة تماماً لصور الحياة الجاهلية قديماً وحديثاً. وهذه الشقوة التي تعانيها البشرية لن يرفعها عنها تغييرات طفيفة في جزئيات النظم والأوضاع. ولن يُنجي البشر منها إلا تلك النقلة الواسعة البعيدة. النقلة من مناهج الخلق إلى منهج الخالق، ومن نظم البشر إلى نظام رب البشر، ومن أحكام العبيد إلى حكم رب العبيد.

هذه حقيقة. وحقيقة مثلها يجب أن نجهر بها ونصدع، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس."

فالنقلة هائلة جداً.. وإذا لم يشعر الداعية أنها نقلة واسعة فإنه هو ذاته لن يكون قد فهم الإسلام بعد، ولم يدرك حقيقة ما يدعو الناس إليه، ولم ينتقل هو هذه النقلة التي ينبغي أن يدعو الناس إليها.

النقلة واسعة جداً.. وهائلة جداً. ولا بد أن يعرف الناس أنها نقلة بعيدة.. وأنها نقلة واسعة.. ولا ينبغي أن نخدعهم بأنها نقلة بسيطة أو خطوات قليلة أو تغيير بسيط.. هذه ليست الحقيقة. وإنما الحقيقة أنها نقلة ضخمة وواسعة.

وحقيقة مثلها لا بد أن نجهر بها ونصدع، ولا نخشى في الله لومة لائم.

"وقد يكره الناس هذا في أول الأمر، وقد يجفلون منه ويشفقون. ولكن الناس كذلك كرهوا مثل هذا وأشفقوا منه في أول العهد بالدعوة إلى الإسلام. أجفلوا وآذاهم أن يُحقِّر محمد ﷺ تصوراتهم، ويعيب آلهتهم، وينكر أوضاعهم، ويعتزل عاداتهم وتقاليدهم، ويتخذ لنفسه وللقلة المؤمنة معه أوضاعاً وقيماً وتقاليد غير أوضاع الجاهلية وقيمها وتقاليدها.

ثم ماذا؟ ثم فاءوا إلى الحق الذي لم يعجبهم أول مرة، والذي أجفلوا منه: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١].."

وكما سيقول بعد ذلك: إن هذا الصدع وهذا الوضوح وهذا الحسم وهذه الصراحة بأن النقلة هائلة وبعيدة جداً هو الذي قد يدفع الناس إلى الاستقامة.

ولكن الجاهلية التي عاشت حياتها الطويلة مع هذا الباطل ومع هذه الأكاذيب، ومع هذه الصور المنحطة للأخلاقيات، وفى هذه الحرية غير المقيدة بأي قيود.. حينما يأتيهم الحق يجفلون منه، ويرونه غريباً وغير مقبول، ويرونه بعيداً تماماً عن قدرتهم على أن يلتقوا معه وأن يستجيبوا له.

ولا شك أن القرآن قد وصفهم وصفاً محقراً لشأنهم ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۞ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾.. فهم ينفرون من الحق كما تنفر الحمر حينما ترى أسداً يهاجمها، فتخشى منه وتجري.. فهم يجرون ويهربون من الحق كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.

ولا شك أن الجاهلية قد حاربت الإسلام بكل قوة. وعذبت أهله عذاباً شديداً وهم ضعاف في مكة. وحاربوه حرباً عاتيةً وهم أقوياء في المدينة.

عناصر القوة كامنة في الدعوة مهما حاولت الجاهلية العاتية أن تعصف بها

والدعوة الآن ليست في وضع أضعف مما كانت قبل ذلك. ولم تكن الدعوة في عهد رسول الله ﷺ أقوى منها اليوم حتى تكون هناك شبهة أو اعتذار بأن الجاهلية في الزمن القديم كانت أقل ضراوة، وأن الرسول ﷺ ومن معه كانوا أكثر قوة، وأنهم كانوا قادرين على هذه المواجهة الصريحة... **"ولم تكن الدعوة في أول عهدها في وضع أقوى ولا أفضل منها الآن.. كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية، وكانت محصورة في شعاب مكة، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها، وكانت غريبة في زمانها في العالم كله، وكانت تحف بها إمبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها. ولكنها مع هذا كله كانت قوية، كما هي اليوم قوية، وكما هي غداً قوية.."**

موقف الجاهلية من الدعوة وموقف الدعوة من الجاهلية كان وسيظل كما هو

فليست هناك شُبهة، ولا يجوز أن يكون هناك أي اعتذار بأن الأوضاع في الماضي كانت أفضل. ولذلك كان هذا المنهج يتناسب مع الواقع الآن. المنهج هو هو لأن الجاهلية أيضا هي هي.

وكما رأينا أن الإسلام لم ينتشر بسهولة، ولم يتقبله الناس في يسر. وإنما وقفوا منه موقفاً عنيفاً كما نعلم من التاريخ، ولم تكن إمبراطورية الفرس ولا الروم بأقل عتوا من الجاهليات المعاصرة.

"ولكنها مع هذا كله كانت قوية، كما هي اليوم قوية، وكما هي غداً قوية.. إن عناصر القوة الحقيقة كامنة في طبيعة هذه العقيدة ذاتها. ومن ثمَّ فهي تملك أن تعمل في أسوأ الظروف وفى أشدها حرجاً. إنها تكمن في هذا الحق البسيط الواضح.." فالحق بسيط لا يحتاج من الناس جهداً كي يدركوه. وقد أدركته الجاهلية أول مرة بصورة واضحة. وتدركه الجاهلية الآن في صورة واضحة كذلك، ومن أجل هذا هم يحاربونه هذه الحرب الشعواء.

"إنها تكمن في هذا الحق البسيط الواضح الذي تقوم عليه. وفي تناسقها مع الفطرة التي لا تملك أن تقاوم سلطانها طويلاً.." فهذا الدين له سلطان على الفطرة، وله تجاوب مع الفطرة، تعرفه من أعماقها. ولذلك لا تستطيع أن تقاومه طويلاً. فلا بد أن تخضع له ولو بعد حين..

"وفي قدرتها على قيادة البشرية صعداً في طريق التقدم.." إلى الأمام وإلى أعلى وإلى أرقى باستمرار.

فهذا الدين أثبت دائماً أنه يرفع الناس في كل أوجه الحياة المادية والروحية والأخلاقية والعسكرية والسياسية..

وقد حدث هذا من قبل حينما رفع هؤلاء الأعراب الذين كانوا في الصحراء العربية ليكونوا سادة العالم ومعلميه بعد ذلك.

"كما أنها تكمن في صراحتها هذه وهي تواجه الجاهلية بكل قواها المادية.." فهذا الدين لا يربت على شهوات الجاهلية، ولا يتدسس إليها تدسسا. إنما يصدع بالحق صدعا، مع إشعار الناس بأنه خير ورحمة وبركة.

هذه عناصر القوة التي يتميز بها هذا الدين، والتي تجعل من الطبيعي ألا يجمجم الداعية حينما يدعو الناس إلى هذا الحق.

ولا شك أن الجاهلية في كل وقت ستقابل هذا الدين بنفس المعارضة، وهو أيضا سيقابل الجاهلية بهذه الصورة الصريحة الواضحة الناصعة.

النفس البشرية لا تستجيب إلا للحق الواضح الكامل دون تملق ولا تدسس

"والله الذي خلق البشر يعلم طبيعة تكوينهم ومداخل قلوبهم ويعلم كيف تستجيب حين تصدع بالحق صدعاً. في صراحة وقوة وبلا تلعثم ولا وصوصة!" والله -سبحانه وتعالى- يعلم أن هذا الإنسان حينما يواجه بالحق بدون تدسس وبدون تملق، وحين يقدم إليه هذا الحق صريحاً واضحاً، يكون هذا أقرب إلى نفسه من صاحب الدعوة المتردد المتلعثم الخائف، الذي يتدسس إليه تدسساً. فالإنسان بطبيعته يحب الوضوح ويحب القوة، ويحترم الصراحة ويحترم الصدق.. هذا في فطرة الإنسان، ولذلك حينما يجمجم الداعية فإنه يضيف إلى نفسه ضعفاً ليس من طبيعة الدعوة التي يدعو إليها، ويضفي على دينه هواناً ليس من هذا الدين أصلا.

ومن ثم لا بد أن يكون هو أولاً قد وصل إلى درجة اليقين والاستعلاء والقوة والتجرد وعدم الخوف، بحيث يستطيع أن يصدع بالحق، فإن لم يستطع ذلك فلا يقف هذا الموقف، لأنه بغير هذا الصدع القوي قد يصد الناس عن سبيل الله حينما يتدسس إليهم، أو حينما يتملقهم، أو حينما يتلعثم في الصدع بالحق..

"إن النفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة إلى حياة. وذلك قد يكون أيسر عليها من التعديلات الجزئية في أحيان كثيرة.. والانتقال الكامل من نظام حياة إلى نظام آخر أعلى منه وأكمل وأنظف، انتقال له ما يبرره في منطق النفس.. ولكن ما الذي يبرر الانتقال من نظام الجاهلية إلى نظام الإسلام، إذا كان النظام الإسلامي

لا يزيد إلا تغييراً طفيفاً هنا، وتعديلاً طفيفاً هناك؟ إن البقاء على النظام المألوف أقرب إلى المنطق. لأنه على الأقل نظام قائم، قابل للإصلاح والتعديل، فلا ضرورة لطرحه، والانتقال إلى نظام غير قائم ولا مطبق، مادام أنه شبيه به في معظم خصائصه!"

فحينما يكون البديل نقيضاً تماماً لما يحوزه الإنسان فإن الأمر يستحق التضحية، وحينها تقبل النفس التغيير، ويكون الاستعداد لتحمل التكاليف أقرب إلى النفس..

فالبشرية لا بد أن تعرف أنها ستنتقل إلى أفق آخر يختلف تماماً عما هي فيه.. ولكنه أفق أكثر خيراً وبركةً ورحمةً.. أفق أعلى في كل شيء.. حينذاك قد تنتقل الجاهلية، أو ينتقل عقلاؤها أولاً، لأن هذا أمر منطقي ومقبول.

ولكن حينما يتدسس الناس بالقول إن الإسلام يناسب الاشتراكيين، أو أن الإسلام اشتراكي.. فما الجديد الذي سيضيفه؟ فنحن في اشتراكية والحمد لله.. وإذا كان الإسلام ديمقراطياً! فما الجديد؟ نحن في ديمقراطية!

وإذا كان الإسلام ليبرالياً فما الجديد أيضاً؟

وهذا التدسس الناعم لا ينفع الناس، بل يصدهم عن سبيل الله. لأنهم سيقولون: نحن لسنا في حاجة إلى هذه التعديلات البسيطة، وإذا كان هناك ثمة حاجة لتعديلات فلنضع هذه التعديلات ونحن في نظامنا القائم كما نحن مادام الأمرُ واحداً.. وهو الاشتراكية أو الديمقراطية أو الشيوعية أو الليبرالية أو أي شيء آخر.

ولكن حينما يقال لهم إن ما أنتم فيه نجس وخبث وضياع وانحطاط.. ونحن سننقلكم إلى شيء عظيم، فعندها يكون هناك مبرر لأن ينتقلوا.

خطأ فادح يقع فيه الكثير من المخلصين

فالداعية حينما يجمجم فإنه في الحقيقة يصد عن سبيل الله.. فضلاً عن أنه يخون قضيته.. فضلاً عن أنه لا يكون صادقاً مع ربه سبحانه وتعالى..

"كذلك نجد بعض الذين يتحدثون عن الإسلام يقدمونه للناس كأنه متهم يحاولون هم دفع التهمة عنه! ومن بين ما يدافعون به أن الأنظمة الحاضرة تفعل كذا وكذا مما تعيب على الإسلام مثله، وأن الإسلام لم يصنع شيئاً -في هذه الأمور- إلا ما تصنعه "الحضارات" الحديثة بعد ألف وأربعمائة عام!

وهان ذلك دفاعاً! وساء ذلك دفاعاً!"

وبعض الدعاة يفعلون ذلك نتيجة جهلهم بحقيقة هذا الدين، فيدفعون عنه التهم، كما لو كان الإسلام متهماً.

ونجد بعض الكتاب قد كتبوا كتباً مثل كتاب (الدين في موقف الدفاع) لفتحي عثمان، وقد صدر هذا الكتاب في نفس الوقت الذي صدر فيه كتاب الأستاذ سيد (المستقبل لهذا الدين) فكانت المفارقة واضحة بين التعبيرين.

وكما كتب مصطفى محمود (الدين في قفص الاتهام)، أو (الله في قفص الاتهام).. فهؤلاء يريدون أن يدفعوا التهمة عن الإسلام، كما لو كان الإسلام متهما وهم يحاولون أن يدفعوا التهمة عنه.

وهم حينما يدافعون عن الإسلام يستندون إلى أفعال الجاهلية السيئة ليقولوا لهم إن الإسلام حتى وإن كان فيه بعض هذه السيئات فهي مثل السيئات التي عندكم.. فلماذا تضيقون بالإسلام، ولماذا تهاجمونه!!

ومن أمثلة ذلك أنه عندما يُهاجَم الإسلام بأنه دين شهواني، وأن عملية تعدد الزوجات حيوانية، وأن النصرانية ليس فيها تعدد للزوجات.. يخرج من يرد عليهم ليقول لهم: أنتم عندكم خليلات وشذوذ جنسي وأنتم غارقون في الشهوات، فلستم أفضل من الإسلام في ذلك.. وهان ذلك دفاعاً.

وأيضا في موضوع قوامة الرجل.. فعندما يقولون لنا: نحن نسوي بين الرجل والمرأة، وأنتم تنظرون إلى المرأة نظرة دون، وأن الرجال قوامون على النساء، والرجل هو الذي يطلِّق، وهو الذي يتزوج على النساء، فأنتم تنظرون للمرأة نظرة حقيرة.. فيقال لهم: أنتم عندكم ما زالت المرأة تسمى باسم الرجل وتتنازل عن كيانها كله، أنتم كذا وكذا، بنفس النقائص التي يتصورونها نقائص في الإسلام..

وفي موضوع الجهاد يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالسيف والقوة، وأنه استعمر البلاد التي فتحها.. فيردون بالقول: وأنتم أيضاً تفعلون ذلك، الدولة الرومانية دولة مستعمرة وبريطانيا وأمريكا كذلك، وأغلب دول أوربا مارست الاستعمار..

فالإسلام لم يعمل أكثر مما عملتموه.. فيكون الحوار حواراً مهزوماً يدافعون به..

"ومن بين ما يدفعون به أن الأنظمة الحاضرة تفعل كذا وكذا مما تعيب على الإسلام مثله، وأن الإسلام لم يصنع شيئا -في هذه الأمور- إلا ما تصنعه "الحضارات" الحديثة بعد ألف وأربعمائة عام!

وهان ذلك دفاعاً! وساء ذلك دفاعاً!

إن الإسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية والتصرفات النكدة التي تنبعث منها. وهذه "الحضارات" التي تبهر الكثيرين وتهزم أرواحهم ليست سوى نظم جاهلية في صميمها. وهي نظم معيبة مهلهلة هابطة حين تقاس إلى الإسلام.. ولا عبرة بأن حال أهلها بخير من حال السكان فيما يسمى الوطن الإسلامي أو "العالم الإسلامي"! فهؤلاء صاروا إلى هذا البؤس بتركهم للإسلام لا لأنهم مسلمون.."

لا بد أن يدرك المسلم هذا الأمر؛ أن هذه الجاهلية وأن هذه الحضارات هي جاهليات هابطة متخلفة بالمقياس الحضاري الإسلامي، باعتبار أن الإسلام هو الحضارة، وأن ما دونه هو التخلف والانحطاط..

"فلا تبلغ بنا الهزيمة أن نتلمس للإسلام مشابهات في بعض الأنظمة القائمة، وفي بعض المذاهب القائمة، وفي بعض الأفكار القائمة. فنحن نرفض هذه الأنظمة في الشرق أو في الغرب سواء.. إننا نرفضها كلها لأنها منحطة ومتخلفة بالقياس إلى ما يريد الإسلام أن يبلغ بالبشرية إليه."

فكما يتحججون بالسيئات التي في الجاهلية بما يقابلها -بزعمهم- من السيئات في الإسلام في نظر هؤلاء المهزومين.. فهم أيضا حينما يتلمسون القوة في الإسلام يقارنونها بالحسنات الموجودة في المذاهب الأخرى؛ فأنتم عندكم ديمقراطية ونحن عندنا نظام الشورى. أنتم عندكم نظرة تسوي بين الناس ونحن عندنا أيضاً المساواة. أنتم تعملون للرقي المادي والإسلام هو الذي أنتج المنهج التجريبي وهو الذي اهتم بالإبداع المادي. أنتم تحتكمون إلى العقل، ونحن عندنا المعتزلة الذين جعلوا العقل هو الحكم وقدموه على النقل.. وإلى الآن يقولون ذلك، ويعتبرون أن مذهب الاعتزال هو الذي أنقذ الإسلام من التهم الممكن أن تكال له بأنه لا يحترم العقل.. فجاء المعتزلة وأبرزوا هذا الجانب إبرازاً عظيماً. وكذلك الفلسفة؛ إذا كان عندكم أرسطو وأفلاطون فنحن عندنا ابن سينا والفارابي وابن رشد وغيرهم وغيرهم.. وهذا كله لا يجوز. فلا تبلغ بنا الهزيمة أن نتلمس للإسلام مشابهات في بعض الأنظمة القائمة وفى بعض المذاهب القائمة.

"وحين نخاطب الناس بهذه الحقيقة، ونقدم لهم القاعدة العقيدية للتصور الإسلامي الشامل، يكون لديهم في أعماق فطرتهم ما يبرر الانتقال من تصور إلى تصور، ومن وضع إلى وضع. ولكننا لا نخاطبهم بحجة مقنعة حين نقول لهم: تعالوا من نظام قائم فعلاً إلى نظام آخر غير مطبق، لا يغير في نظامكم القائم إلا قليلاً. وحجته إليكم أنكم تفعلون في هذا الأمر وذاك مثلما يفعل هو، ولا يكلفكم إلا تغيير القليل من عاداتكم وأوضاعكم وشهواتكم، وسيبقى لكم كل ما تحرصون عليها منها ولا يمسه مساً خفيفاً!!

هذا الذي يبدو سهلا في ظاهره، ليس مغريا في طبيعته، فضلا على أنه ليس هو الحقيقة.. فالحقيقة أن الإسلام يبدل التصورات والمشاعر، كما يبدل النظم والأوضاع، كما يبدل الشرائع والقوانين تبديلاً أساسياً لا يمت بصلة إلى قاعدة الحياة الجاهلية، التي تحياها البشرية.. ويكفي أنه ينقلهم جملة وتفصيلاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده..

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]..

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].."

هذا ما يفعله بعض الدعاة حين يعرضون الإسلام بطريقة مهلهلة تثير الاشمئزاز. حين يخطب أحدهم مثلاً في مدرسة للبنات فيقول للطالبات: الإسلام سهل جداً بملغ بسيط تشتري حجاب وتلبسينه، وتنتهي المشكلة.

كأن الإسلام هو مجرد شكل.. مجرد قطعة قماش ستوضع على رأس المرأة فتصبح مسلمة!!

وكثير من الدعاة يدعون الجاهلية من خلال شهواتهم "الإسلام سوف ينقذكم من النصرانية التي تحرم عليكم الزواج من أكثر من واحدة، بل سوف يجعلكم تتزوجون أكثر من أربع.. فمن حقكم أن تتزوجوا كل يوم، ثم تطلقوا لتبدلوا أزواجكم.. وبعد ذلك في الحروب يكون هناك الرقيق والجواري.." فيدغدغون شهوات الناس. وهذا عرض مُهين جدا لهذا الدين.

هذا ما يفعله كثير من الدعاة حينما ينهزمون، أو حين لا يعرفون قدر هذا الدين، ولا يقيمون لله وقاراً.

ولكن الدعوة الصحيحة هي تلك الدعوة التي تؤدي بالناس أن يتحولوا من واقعهم إلى واقع جديد، له منطقه وله تكاليفه، وله أيضاً ما سيقنع الناس به.

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

واجب الدعاة اليوم استنقاذ الناس من الجاهلية إلى الإسلام من جديد

"والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام. وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً.. إن الناس ليسوا مسلمين -كما يدَّعون- وهم يحيون حياة الجاهلية. وإذا كان فيهم من يحب أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين، فيعتقد أن الإسلام يمكن أن يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك. ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئاً.. ليس هذا إسلاماً، وليس هؤلاء مسلمين. والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد.."

هذه قمة التحدي في الفصل لوضع النقاط على الحروف تماماً. وهذا منتهى الوضوح الذي يرد على الذين يقولون إن سيد قطب لم يكن واضحاً، وأنه كان يقصد غير ما يقول. فالأمر واضح أن الإسلام الذي ندعو إليه الناس شيء آخر غير الذي هم عليه؛ سواء الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، أو الذين لا يؤمنون. والذين يزعمون أنهم يؤمنون به -في الحقيقة- لا يؤمنون بالإسلام الذي أنزله رب العالمين. إنما يؤمنون بشيء آخر غير هذا. إسلام صنعه لهم المضللون، أو الجاهلون إذا أحسنا الظن. والجهل أو الضلال لا يعطي للناس صفة الإسلام. ولكن عليهم أن يؤوبوا إلى ما أنزل الله ليعرفوا الإسلام على حقيقته.

وعرض هذا الدين اليوم لا بد أن يكون بهذا الوضوح وهذه الصراحة كما نرى من خلال هذه الكلمات؛ أن القضية الآن هي قضية كفر وإيمان، قضية أن يكون لله السلطة، أن يكون هو الحاكم الواحد، وأن يكون دينه هو الدين الأعلى، وأن تكون شريعته هي السائدة. هذا أمر يدخل في باب العقيدة، وليس في باب الفقه ولا في باب الكماليات، وإنما هو في صميم الدين، وهي مسألة إيمان وكفر، أو شرك وتوحيد، أو جاهلية وإسلام.

والناس الذين يعيشون حياة الجاهلية، ويستمدون من مصادرها، ويوالونها، ويصفقون لها، ويعتقدون قيمها وموازينها.. هؤلاء يحيون حياة الجاهلية، وليسوا مسلمين كما يدعون. وإذا كانوا يريدون أن يخدعوا أنفسهم ببعض المظاهر من صلاة أو صوم أو حج أو عمرة أو أذان أو مساجد فإن كل ذلك لا يغني عنهم شيئا. لأن الإسلام في حقيقته هو استسلام لله عز وجل، واحتكام إليه وحده، وأن يكون هو صاحب السلطة الوحيد في حياة الناس الذي يضع لهم قيمهم وموازينهم وشرائعهم، وهو الذي يحلل ويحرم، وهو الذي يُوالَى وهو الذي يُطاع وحده سبحانه وتعالى. ومن ثم فإن هذا الانخداع لا يغني من الحق شيئا..

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا هو الحكم النهائي الذي يقرره؛ أن هذا ليس إسلاماً.. مهما كانت الدعاوى القائمة، وليس هؤلاء مسلمين مهما كان الزعم الذي يقولونه. والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام، ولتجعل منهم مسلمين من جديد، ولو كره الكافرون.

وهذه القضية تبغضها الجاهلية، وتقيم لها المشانق والمحاكم. ولكنها الحقيقة التي ينبغي أن يتبناها رواد الإسلام.. وإلا فليتركوا الطريق.

دوافع الداعية إلى الله

"ونحن لا ندعو الناس إلى الإسلام لننال منهم أجراً، ولا نريد علواً في الأرض ولا فساداً، ولا نريد شيئاً خاصاً لأنفسنا إطلاقاً، وحسابنا وأجرنا ليس على الناس. إنما نحن ندعو الناس إلى الإسلام لأننا نحبهم ونريد لهم الخير.. مهما آذونا.. لأن هذه هي طبيعة الداعية إلى الإسلام، وهذه هي دوافعه.. ومن ثمَّ يجب أن يعلموا منا حقيقة الإسلام، وحقيقة التكاليف التي سيطلبها إليهم، في مقابل الخير العميق الذي يحمله لهم. كما يجب أن يعرفوا رأينا في حقيقة ما هم عليه من الجاهلية.. إنها الجاهلية وليست في شيء من الإسلام. إنها "الهوى" ما دام أنها ليست هي "الشريعة". إنها "الضلال" مادام أنها ليست هي الحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال!"

بعد أن بيَّن حقيقة البلاغ، وفحوى البلاغ، وبعد أن بيّن أيضا منهج الداعية في البلاغ، يتحدث هنا عن دوافع الداعية، ودوافع القيام بهذه الدعوة. إنها امتثال لأمر الله عز وجل، وعبودية لله سبحانه وتعالى، تحمل في طياتها الحب والرحمة والخير للناس.

ويبين أن الداعية -كما كان الأنبياء- لا يطلبون الأجر من الناس، ولا يريدون علواً في الأرض، ولا سلطة لأنفسهم. وإنما أجرهم على الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]. فنحن ندعو الناس امتثالاً لأمر الله أولاً، ثم لأننا نريد أن نهديهم إلى الخير مهما آذونا، وهم دائماً يؤذون الدعاة إلى الله، وهم دائماً يقفون للدعاة بالمرصاد، وهم لا يألون في الدعاة إلاًّ ولا ذمة، ويصنعون بهم ما لا يتخيله إنسان؛ سواء من جانب الإنسانية أو من جانب العدل، أو من جانب الرحمة، أو حتى من جانب حقوق الإنسان، أو في أي صورة من الصور التي يدّعون أنها موجودة في العالم الحر الذي يعرف الإنسانية ويعرف حقوق الإنسان.

هذا كله يغيب حين يكون المسلمون هم الهدف. فهم لا يرعون فيهم إلاًّ ولا ذمّة.

وهذا الحب للناس وهذا الصبر عليهم لا يمنعنا من أن نصارحهم بحقيقة التكاليف التي يطالبهم بها الإسلام، كما أنه لا يمنعنا من بيان حقيقة ما هم عليه من ضلال ومن ضياع.

الهزيمة الروحية أمام النظم البشرية هي صد عن سبيل الله

وفي منهج المواجهة مع هذه الجاهلية لا بد أن يكون المسلم في عزة واستعلاء وفخر بما يحمله.

يقول **"وليس في إسلامنا ما نخجل منه، وما نضطر للدفاع عنه، وليس فيه ما نتدسس به للناس تدسساً، أو ما نتلعثم في الجهر به على حقيقته.. إن الهزيمة الروحية أمام الغرب وأمام الشرق وأمام أوضاع الجاهلية هنا وهناك هي التي تجعل بعض الناس.. "المسلمين".. يتلمس للإسلام موافقات جزئية من النظم البشرية. أو يتلمس من أعمال "الحضارة" الجاهلية ما يسند به أعمال الإسلام وقضاءه في الأمور.."**

ليس في الإسلام شيئا نخجل منه؛ في أي حكم من أحكامه، أو في أي شعيرة من شعائره، أو في أي اعتقاد من اعتقاداته، أو في أي تصور من تصوراته. فهو الحق، وما دونه الباطل.

ومن ثم لا يجب أن يخجل الإنسان المسلم من أي شيء يأمر به الله أو رسوله ﷺ؛ سواء في عالم العقائد، أو في عالم السلوك، أو في عالم العادات.

كثير من الناس يستحيي أن يفعل ما أمر به الرسول ﷺ، ويخشى أن يطَّلع الناس عليه. لأنه ليس من آداب وبروتوكولات الفكر الغربي أو الحضارة الغربية. فإذا ذهب "المسلمون" إلى أوروبا فإنهم يخفون كل عاداتهم ليظهروا بالعادات الجاهلية، ويتصورن أن هذا نوع من الحكمة، ونوع من المداراة. والحقيقة أنها هزيمة.. لأن ما عليه المسلم هو الحق، وهو الرقي، وهو الحضارة، وهو "البروتوكول" و"الإتيكيت" إذا كان لا بد أن نستعمل تعبيراتهم.

والمسلم ينبغي أن يكون قوياً في أن يصلي أمامهم، وأن يأكل بيمينه، وأن يمتنع عن الخمور، وأن يمتنع عن حضور مجالس اللهو، وأن يستعلي عن أي شيء مما يفعلونه.. حتى يعلموا أن الحق معه، وأنه قد أقام الشهادة أمامهم على هذا الدين أنه حق. فالخجل من شيء من تكاليف هذا الدين لا يحمل إلا معنىً واحداً؛ وهو عدم الإيمان الحقيقي به، وعدم توقير الله سبحانه وتعالى، والهزيمة أمام هؤلاء. وحينما ينهزم الدعاة لن يستطيعوا أن يقدموا الإسلام للناس.

وفي تحدٍ جديد أكبر من ذلك يقول **"إنه إذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار فليس هو الذي يقدم الإسلام للناس. وإنما هو ذاك الذي يحيا في هذه الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائص والعيوب.."**

فالذي يحتاج إلى الدفاع هي هذه الجاهلية المنحطة المتخلفة، التي تعيش في الدرك الحيواني، بل أضل من الحيوان. فهم الذين ينبغي أن نحصرهم في ركن الدفاع، لا أن ننحصر نحن في هذا الركن. لا بد أن يعلموا أننا نحن الأعلى، ونحن الأفضل والأطهر والأقوى، وأنهم هم الذين يعيشون في المستنقع المنتن، الذي لا يجب لمن يعيش فيه أن يرفع رأساً ولا أن يقول شيئاً.

يقول **"بعض هؤلاء كانوا يواجهوننا -نحن القلائل المنتسبين إلى الإسلام- في أمريكا في السنوات التي قضيتها هناك.. وكان بعضنا يتخذ موقف الدفاع والتبرير.. وكنت على العكس أتخذ موقف المهاجم للجاهلية الغربية.. سواء في معتقداتها الدينية المهلهلة.. أو في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية المؤذية.."**

كان يهاجمهم -كما يقول- **"هذه التصورات عن الأقانيم وعن الخطيئة وعن الفداء.."** التي لا شك أنها لا تستقيم في عقل ولا ضمير، حتى أن الكنيسة نفسها وقفت أمامها عاجزة عن شرحها للناس، وهي تطالب دائماً المؤمنين أن يؤمنوا بلا

تفكير ولا مناقشة، ويعتبرون أن الجهل بها رأس الإيمان. وحينما سيطرت الكنيسة على أوروبا أبطلت كل المدارس والجامعات، ومنعت النقاش في هذه الأمور، واعتبرته هرطقة وكفراً وإلحاداً أن يحاول المسيحي مناقشة كثير من العقائد التي جاءت بها الكنيسة، وأولها بنوة المسيح لله، وأنه قدَّمه للفداء عن البشرية لكي يخلصها من الخطيئة. فهذا التصور تصور غير ممكن الشرح، وغير ممكن الفهم، خاصة تلك الأقانيم الثلاثة في إله واحد، ولذلك يطالبون الناس بأن يؤمنوا بلا عقل ولا فكر، ويصادرون الحرية الفكرية أمام الإيمان، ويعتبرونها طاعة وعبادة.

"وهذه الرأسمالية باحتكارها ورِبَاها وما فيها من بشاعة كالحة.." ولا شك أن الرأسمالية نظام بشع جدا، لأنه يقوم على الانتهازية، ويقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة. ويقوم على احتكار كل شيء في يد قليل من الناس يتحكمون في بقية الناس. فهذه الرأسمالية لا تشرف أصحابها، ولا تجعلنا نجاملها في شيء.

"وهذه الفردية الأثرة التي ينعدم معها التكافل إلا تحت مطارق القانون.." لا يعرف الناس هناك معنى التكافل والحب على الإطلاق، ونجد الآباء حينما يكبرون في السن لا يجدون من يرعاهم، والأبناء أيضاً لا يجدون من يرعاهم، كل إنسان يجري وراء مصلحته ووراء شهوته، ويهتم بذاته وبأثرته دون الآخرين.

"وهذا التصور المادي التافه الجاف للحياة.." في الفكر الجاهلي عموماً، وفي الحضارة الأوروبية المعاصرة خصوصاً تصبح المادة هي كل شيء، والرفاهية المادية هي كل شيء، وهي مقياس التقدم في المجتمع. هذه المادية التي تطمس المشاعر وتطمس الروح وتطمس العواطف كما يعلمها الذين عاشوا هناك.

"وحرية البهائم التي يسمونها "حرية الاختلاط".. وسوق الرقيق التي يسمونها "حرية المرأة".." ولا شك أن الذي اخترع فكرة الاختلاط وفكرة حرية المرأة إنما كان يقصد سحب ذلك التاج الذي وضعه الله على رؤوس الناس تاج الطهر والعفاف والرِفعة. فهم حينما أشاعوا بين الناس الحرية الجنسية والإباحية والمساواة بين الرجل والمرأة إنما كانوا يقصدون -وقد نجحوا في مقصدهم تماماً- استعباد المرأة واستعباد جسدها، وتركه لقمة سائغة للرجال، وجعلوا الاختلاط هو الطريق إلى الفساد وإلى الدعارة المقنعة، والتي يعترفون بها دون أن يصرحوا.

وكذلك **"نُظُم الزواج والطلاق.."** في الكنيسة وغيرها، دلالة على تفاهة هذه الجاهلية التي تعتبر أن الزواج قيد، وأن الحرية الجنسية ينبغي أن تنفصل عن الزواج الشرعي، وأنه يمكن أن يتزوج الزانيان بعد أن يعيشا معا ويأتيا بالأولاد بل في بعض الأحيان يشهد الأولاد -من الزنا- زواج أبويهما ويحضرون عرسهما!!! كما أن الطلاق عندهم ممنوع إلا إذا كانت هناك خيانة زوجية، ومن ثم تجد هناك مكاتب خاصة لإيقاع الزوج أو الزوجة في الزنا أو الخيانة لكي يتم الطلاق أمام الكنيسة وأمام القانون. وهذا كله تكلف مضاد لواقع الحياة، يؤدي إلى الحرج، ويؤدي إلى الحقد، ويؤدي إلى الجريمة.

وكذلك **"التفريق العنصري.."** ففي الوقت الذي تدعي فيه أمريكا أنها بلد العدل وبلد الحرية تجد أن التفريق العنصري هناك أبشع ما يكون. وفي كل العالم تجد هذا التفريق العنصري بسبب هذه العصبية المنتنة التي تعيشها الجاهلية في كل مكان.

فكان الأستاذ سيد يواجه المهاجمين الذين يواجهون الإسلام ويُلجئون بعض المتسمين بالإسلام إلى الدفاع عنه، كان هو يواجههم بالهجوم في هذه المجالات كلها.

يقول **"وكانت هذه حقائق نواجهها في واقع الحياة الغربية.. وهي حقائق كانت تُخجِل أصحابها حين تعرض في ضوء الإسلام.. ولكن ناساً -يدّعون الإسلام- ينهزمون أمام ذلك النتن الذي تعيش فيه الجاهلية، حتى ليتلمسون للإسلام مشابهات في هذا الركاب المضطرب البائس في الغرب. وفي تلك الشناعة المادية البشعة في الشرق أيضاً!"**

وأمام هذه الصور أو هذه الحقائق البشعة كان يعرض الإسلام وما فيه من منطق وسمو وإنسانية وبشاشة، وتطلّع إلى آفاق تعجز البشرية، أو هي قد عجزت فعلاً عن الوصول إليها.

لذلك يجب أن يكون المسلم عزيزاً ومطمئناً إلى ما عنده، فلا يخجل منه، ولا يضطر للدفاع عنه. بل عليه أن يُلجِئ الجاهلية إلى الدفاع عن نفسها وعن أوضاعها المهلهلة.

مجاراة الجاهلية خطوة واحدة يعني الهزيمة من أول الطريق

وأخيراً يلخص هذا الفصل في سطور:

يقول **"ولست في حاجة بعد هذا إلى أن أقول: أننا نحن الذين نقدم الإسلام للناس، ليس لنا أن نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها، ولا في شيء من أوضاعها، ولا في شيء من تقاليدها. مهما يشتد ضغطها علينا.**

إن وظيفتنا الأولى هي إحلال التصورات الإسلامية والتقاليد الإسلامية في مكان هذه الجاهلية. ولن يتحقق هذا بمجاراة الجاهلية والسير معها خطوات في أول الطريق، كما قد يخيل إلى البعض منا.. إن هذا معناه إعلان الهزيمة منذ أول الطريق.."

ولا شك أن السير خطوة واحدة في مجاملة الجاهلية، أو في الاعتراف لها بوجودها أو بشرعية شيء من أنظمتها، أو قوانينها أو تقاليدها تعني الهزيمة من أول الطريق. فلا يجب -كما قلنا في أول الفصل- أن نعطي الجاهلية أي أمل في أن تقتنص منا اعترافاً بوجودها، أو اعترافاً بأي خير عندها. فكل ما عندها شر. حتى لو تشابهت بعض الجزئيات عندها مع بعض الأمور في الإسلام.. فليست هي هي.. لأن المصدر -كما قلنا- مختلف.

"إن ضغط التصورات الاجتماعية السائدة، والتقاليد الاجتماعية الشائعة، ضغط ساحق عنيف، وبخاصة في دنيا المرأة. والمرأة المسلمة تواجه في هذه الجاهلية ضغطاً قاسياً مشؤوماً حقاً.."

وهذا واضح تماماً.. فالرجل يمكنه أن يتخفى، أما المرأة المسلمة فلا شك أنها تعاني ضغطاً هائلاً.. لأنه مطلوب منها أن تتحجب، ومطلوب منها أن ترفض نماذج معينة من الرجال الذين يتقدمون إليها للزواج، وأن تعيش بعيدا عن ضغط الجاهلية

في أمر الوظائف، وفي كثير من أمور الحياة.. وكل هذا بلا شك يمثل ضغطاً على المرأة المسلمة. لكنه ضغط في سبيل الله عز وجل.

"ولكن لا بد مما ليس منه بد.." فهذه الابتلاءات وهذه المحن التي يواجهها المسلم في الجاهلية، والتي مثّلها الرسول ﷺ بالجمرة التي يقبض عليها من يريد أن يقبض على دينه.. (فالقابض على دينه كالقابض على الجمر)[٢]..

هذه الابتلاءات لا بد أن نعرف أنها ثمن قليل أمام رضوان الله عز وجل، وأمام الجنة، وأمام النجاة من النار، وأمام العزة في الدنيا واحترام النفس. فما نقدمه للإسلام، وما نعانيه من ضغوط، وما نعانيه من عذابات وآلام هي أثمان رخيصة جدا أمام شيء واحد مما نؤمله؛ وهو أن يرضى ربنا وسيدنا عنا سبحانه وتعالى.

"ولكن لا بد مما ليس منه بد. لا بد أن نثبت أولاً، ولا بد أن نستعلي ثانياً، ولا بد أن نُري الجاهلية حقيقة الدَّرك الذي هي فيه بالقياس إلى الآفاق العليا المشرِّقة للحياة الإسلامية التي نريدها."

وهذا لا يأتي إلا من خلال الاستقامة على الحق، والتشبث بهذا الحق، والحياة مع الله طويلا، والحياة مع كتابه، واليقين بأن الله هو الحق، وأن ما دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

منهج التعامل مع الجاهلية في غربة الإسلام الثانية

"ولن يكون هذا بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننـزوي عنها وننعزل.." وهو يتكلم هنا في منهج التعامل مع الجاهلية. فبما أننا نحمل رسالة السماء إلى البشرية فلا بد أن يكون بيننا وبين هذا المجتمع جسور لكي نوصل للناس هذا الحق. لا بد أن تكون هناك علاقات، ولا بد أن تكون هناك معاملات، ولا بد أن نعرف أننا أصلاً غير قادرين على الانسلاخ من هذا المجتمع من أول خطوة، لأننا جزء من هذا المجتمع، وجزء من الهيئة الاجتماعية في هذا المجتمع. فحتى لو أردنا الاعتزال فلن نستطيع. هذا فضلاً عن أنه يتناقض مع مهمتنا؛ وهي أن ندعو الناس للحق، وأن نبين لهم الحق، وأن نرأف بهم.. ونحاول أن نبين لهم في عطف ومودة وحب هذا الحق الذي هدانا الله إليه.

ولكن هذا لا يكون على حساب الحق. فلا يجوز أن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات. فهذا شيء آخر. فلا بد من الإصرار على الحق بشكله الحقيقي، وبمذاقه الحقيقي، وصوره الصحيحة، ومفاهيمه القاطعة. هذا لا بد منه لكي يكتمل البلاغ، ولكي يصل الناس إلى معرفة الحق، ولكي يروا مبرراً لمعرفة الحق والانتقال للإسلام. فيجب أن نبين لهم، ونصدع لهم بهذه الحقائق.. ونبين لهم ما هم فيه من الخبث، وما هم فيه من الضياع.. في نفس الوقت الذي لا ننزوي عنهم فيه، ولا نقاطعهم، لأن هذا جزء مهم من البلاغ، ومن الدعوة، ومن إيصال الحق إلى الناس.

٢ رواه الترمذي وقال حسن، وأحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وفيه ضعف.

"كلا، إنما هي المخالطة مع التميُّز..." فلا يكون هناك تميُّع.. ولكن هناك مخالطة بطبيعة الواقع من ناحية، وطبيعة الدعوة من ناحية أخرى. لا بد أن نخالط أهلنا وآباءنا وأمهاتنا وأولادنا.. لا بد أن نخالط المجتمع.. لا بد أن نخالط الجيران والزملاء في العمل وفي كل مكان. هذه المخالطة مفروضة علينا، ومطلوبة منا في نفس الوقت. ولكن يجب ألا تؤدي هذه المخالطة إلى الذوبان وإلى التميع، أو إلى ضياع شخصيتنا.. لا بد أن نكون متميزين بعقيدتنا، متميزين بأخلاقنا، بحيث لا نذوب في دعاوى الجاهلية، أو سلوكيات الجاهلية. وإنما ينبغي أن يكون واضحاً أننا لا نشاركهم إلا فيما يسمح به ديننا.

"والأخذ والعطاء مع الترفع.." نحن مضطرون أن نعمل معهم في أعمال، وأن نشاركهم في تجارة، وأن نشتري ونبيع.. ولكن كل هذا يحدث ونحن مترفعون.. لا أن نخضع لهم، أو أن نتنازل لهم، أو تلجئنا الأموال أو الحاجة الى أن نتنازل عن ديننا أو عن شرفنا أو أخلاقنا من أجل هذا العطاء أو من أجل هذا الأخذ.

"والصدع بالحق في مودة.." أن نقول كلمة الحق كما أمر الله عز وجل موسى وهارون ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].. فاللين لا يعني ألا نقول الحق. لكن معناه أن نقول الحق في رفق. ففي الحوار أو الدعوة يختار المسلم أسلوب الدعوة المناسب في كل موقف، ومع كل إنسان.

"والاستعلاء بالإيمان في تواضع.." الاستعلاء الذي يُشعِر الناس أننا معتزون بما نحن عليه، وأننا على الحق. ولكن يجب ألا يؤدي هذا إلى أن نتعالى عليهم، ولا أن نحتقرهم. بل يجب أن يشعروا أننا أكثر تواضعاً بانتمائنا إلى الحق، وأننا أكثر تواضعاً بإدراكنا معنى العبودية، وأننا نعاملهم ببر ورفق، لكي نرفعهم إلى هذا المقام الذي وصلنا إليه.

ولا شك أن هذا الاستعلاء بالإيمان يجعل الناس دائماً يرون أن المسلم واثق مما هو عليه، وأنه لا يستحي منه، ولا يتدسس إليهم بما معه.

"والامتلاء بعد هذا كله بالحقيقة الواقعة. وهي أننا نعيش في وسط جاهلية، وأننا أهدى طريقاً من هذه الجاهلية، وأنها نقلة بعيدة واسعة، هذه النقلة من الجاهلية إلى الإسلام، وإنها هوة فاصلة لا يُقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق، ولكن لينتقل عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام.."

هذه القضية؛ قضية التعامل مع الجاهلية.. لا بد أن نقف عندها وقفة قصيرة. فنحن نرى الذين يعملون في مجال الحركة الإسلامية يخترعون لأنفسهم مناهج للتعامل مع الجاهلية:

فإما أن ينعزلوا عن الجاهلية تماماً، ويهربوا من هذه الجاهلية هروباً كاملاً، ويقاطعوها مقاطعةً كاملةً، ويتعالوا عليها تعالياً كاملاً، بحيث تنقطع الجسور والعلاقات بينهم وبين الناس.. فلا يقدمون الإسلام لهم بصورة وضيئة، ولا يحببونهم في دين الله. بل يواجهونهم بوجه ليس هو الوجه المناسب في عرض هذا الدين في بداية الدعوة. فالمقاطعة والتميز الكامل لا يحدث إلا بعد أن يكون المسلمون قد تمكنوا واستطاعوا أن يقيموا دولتهم. وحينذاك يقاطعون الجاهلية ويجبرونها على أن تشعر هي بالانزواء، لا أن ينزوي المسلمون.

وهذا لا بد أن يحدث.. ولكن ليس الآن. ففي بداية الطريق لا بد أن يكون هناك جسور. فالذين يأخذون هذا الجانب -جانب الانفصال الكامل والمفاصلة العملية الكاملة- فضلاً على أنهم لا يقدرون عليه ولا يُمكَّنون منه؛ فإنهم لا يجعلون الناس يفهمون الإسلام فهماً سليماً. وهم بذلك يصدون عن سبيل الله.

وفريق آخر ينغمس في الجاهلية ويجاملها، ويقلِّد الجاهلية في كثير من تعاملاتها، ويذوب في أجهزتها التشريعية والتنفيذية والأدبية والنقابية وغيرها. بحيث يُفقد تميزه ويفقد منطقه في عرض القضية. وبذلك يكون هذا المنهج منهجاً متميعاً. يؤدي إلى الذوبان، ويؤدي إلى أن تقول لهم الجاهلية: إلى ماذا تدعون وأنتم لم تقدموا لنا جديداً.. فأنتم تعيشون كما نعيش، وتعملون مثلما نعمل.

ولكن المنهج الصحيح هو الذي علمنا إياه الإسلام: أن ندعو إلى أمر العقيدة. وأن يكون التميز في أول الطريق تميزاً بالعقيدة أولاً، وبكل ما تقتضيه العقيدة من سلوكيات. أما ما يلي ذلك من أمور فقد أعطانا الإسلام الآن سعة فيها.

وقد تحدثنا عن قضية المرحلية قبل ذلك، ووجدنا أن الإسلام يعطينا الفقه الحركي الذي يستجيب لحاجات كل مرحلة بما يكافئها، وبما لا يعطل الفرض الأول؛ وهو فرض الدعوة والبلاغ وبيان العقيدة.

لكن في أمر العقيدة لا بد أن تحدث هذه المفاصلة الشعورية التي تحدثنا عنها سابقا. ويكون التعامل مع الجاهلية بهذا الوضوح الذي يصفه هنا؛ أنها مخالطة مع التميز. وأخذ وعطاء مع الترفع. وصدع بالحق في مودة. واستعلاء بالإيمان في تواضع. والامتلاء بعد هذا بالحقيقة الواقعة: أننا غرباء في هذا المجتمع، وأننا نعاني في وسط هذه الجاهلية، وأننا أهدى طريقا من هذه الجاهلية، وأن النقلة ليست قريبة وإنما هي نقلة بعيدة جداً بين السفح الذي يعيشون فيه وبين القمة التي نريد أن نرفعهم إليها. وأنها هوة فاصلة لا يقام فوقها معبر للالتقاء في وسط الطريق، ولكن لينتقل عليها أهل الجاهلية إلى الإسلام.

فإن كان لا بد أن يكون هناك جسور فلا بد أن نعطي فرصة للجاهلية أن تنتقل إلى قاعدتنا الإسلامية، ولسنا نحن الذين ننتقل إلى هذه القاعدة الجاهلية.. **"سواء كانوا ممن يعيشون فيما يسمى الوطن الإسلامي، ويزعمون أنهم مسلمون، أو كانوا يعيشون في غير الوطن "الإسلامي"، وليخرجوا من الظلمات إلى النور، ولينجوا من هذه الشقوة التي هم فيها، وينعموا بالخير الذي ذقناه نحن الذين عرفنا الإسلام وحاولنا أن نعيش به.. وإلا فلنقل ما أمر الله به سبحانه الرسول ﷺ أن يقوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾..."**

لسنا مطالبين أن يؤمن الناس. فليس هناك فرض علينا أن يستجيب الناس لما نريد. وإنما المطلوب منا هو الدعوة بمنهجها الصحيح، والبلاغ بالأسلوب الصحيح، وبعد ذلك قد يؤمن الناس أو لا يؤمنون.

ونحن لسنا مطالبين أن نرغم الناس على الإسلام. ولا نملك السلطة على قلوب الناس. وكما أخبرنا رسول الله ﷺ عن السابقين من الأنبياء (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد)[٣]. وكل هؤلاء قد قاموا بالدعوة، وقاموا بأمر البلاغ، وأدوا ما عليهم، ورضي الله عنهم، وكافأهم الله سبحانه وتعالى. فإذا رفض المدعوون الحق

٣ أخرجه الشيخان وأحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فليس هذا مبرراً للتنازل من الدعاة، ولا المساومة على الحق.. وإنما على الدعاة أن يقولوا ما أُمِر رسول الله ﷺ أن يقوله ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

ويحضرني هنا ما كتبه الأستاذ سيد في كتاب المقومات عندما تحدث عن قضية الخروج من تحت الضغوط العنيفة التي يعيشها المسلمون ودعاة الإسلام، وأن الواقع الذي يعيشون فيه واقع ضاغط جدا، وأنهم لا بد أن يرتفعوا عن هذا الضغط ويستعلوا عليه.

فيقول: **"لا بد للإسلام من روّاد.. فيهم من القدرة والطاقة.. والإدراك والكفاية.. والاستعلاء والحماسة.. والإصرار والصلابة.. بقدر ما فيهم من الإيمان، والثقة بهذا الإيمان. لكي يخلصوا أنفسهم من ضغط هذا الواقع، وضغط التوجيهات، وآثار هذا وذاك على التصور، ولكي يملكوا -على الرغم من هذا الواقع المضلل والتوجيه المضلل- أن يروا رؤية واضحة، وتصورا أعمق وأكثر حيوية وأكثر طموحا من كل تصورات الجاهلية، وأن يتحركوا بعد ذلك في هذا الواقع، والتصورات المصاحبة له، والتوجيهات المنوعة الأساليب، لإنشاء واقع آخر."**

فلا شك أن الرواد لا بد أن يتصفوا بهذه الصفات الهامة جدا لكي يستطيعوا أن يواجهوا كل الصعوبات التي تحشدها الجاهلية أمامهم لكي تهزمهم بها، لا بد أن يكون لديهم قدرة وطاقة هائلتان لكي يستطيعوا أن يتحملوا هذه المصاعب.

لا بد أن يكون عندهم الإدراك والوعي لحقيقة الإسلام وحقيقة الجاهلية. والكفاية التي تستطيع أن تتكيف وأن تعمل على تطبيق هذا الدين في حياتهم. وأن يتوفر لهم الاستعلاء والحماسة التي تشعل الإيمان بقوة وتشعل القدرة على المقاومة في نفوس الرواد. والإصرار والصلابة في أن يتحملوا كل ما يمكن أن يتعرضوا له من إغواءات وإغراءات، ومن عذاب واضطهاد وحرمان لأنفسهم وأولادهم وأزواجهم وأموالهم. فكل هذا ينبغي أن يعلموا أنهم سيواجهونه. فلا بد أن يكون عندهم من الإصرار والصلابة بقدر ما عندهم من الإيمان، والثقة بهذا الإيمان. ولا يصنعون هذا إلا ابتغاء وجه الله تعالى. لكي يستطيعوا بعد كل هذه الصفات أن يَخْلصوا ويُخَلِّصوا أنفسهم من ضغط الواقع الجاهلي، ومن واقع كل التوجيهات التي تحتشد لصرف المسلم عن الإسلام. ولكي يستطيعوا هم أنفسهم أن يروا رؤية واضحة، وأن يروا تصورا أكمل وأرفع وأكثر حيوية وطموحا من التصورات الجاهلية التي تحيط بهم. وبعد ذلك يستطيعون -بهذه الصفات- أن يتحركوا في وجه هذا الواقع وهذه التصورات بإنشاء الواقع الجديد الذي يريده الله سبحانه وتعالى.

ولا شك أنهم -حينما يدركون ذلك- سيعلمون أن النقلة هائلة، وأنها بعيدة، وأنها واسعة. فلا بد أن يتصفوا بهذه الصفات، وأن يفهموا هذا الدين بهذا الوضوح، حتى ينتقلوا هم ابتداءً هذه النقلة البعيدة. ثم يتدربوا عليها، ويعرفوا الطريق.. ثم يأخذوا الناس بعد ذلك لينتقلوا بهم في نفس الطريق إلى هذا المرتقى الصاعد من ذلك السفح الهابط الذي يعيشون فيه.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الحادي عشر

شروح

كتاب

معالم في الطريق

استعلاء الإيمان

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
استعلاء الإيمان حالة دائمة ١
المسلم منتسب إلى الله ٣
الاستعلاء على قوى الأرض وقيمها وقوانينها ٤
الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد كالاستعلاء مع القوة والكثرة سواء ٥
الاستعلاء بالإيمان ليس عزمة مفردة ولا نخوة دافعة ولا حماسة فائرة ٦
الاستعلاء المرتكز على الحق الباقي يواجه ضغط الواقع ٧
إدراك معنى التوكل من إدراك حقيقة الألوهية ٨
الاستعلاء المرتبط بقيم الحق يعين على الثبات والتحدي أمام ضغوط الجاهلية ١٠
كيف أكون مستعليا بالإيمان؟ وما هي وعوامل الاستعلاء؟ ١٤
العامل الأول: المؤمن هو الأعلى سندا ومصدرا ١٥
العامل الثاني: المؤمن هو الأعلى إدراكا وتصورا ١٦
العامل الثالث: المؤمن هو الأعلى تصورا للقيم والموازين ١٧
العامل الرابع: المؤمن هو الأعلى ضميرا وشعورا ١٨
العامل الخامس: المؤمن هو الأعلى شريعة ونظاما ١٨
صور مشرقة من استعلاء الإيمان ١٩
الاستعلاء في واقع الدعوة المعاصر ٢٢
حسن العاقبة مهما كانت النتائج ٢٢
نعمة الهداية من الله تقتضي الاعتزاز بالحق مع الرحمة بالخلق والرغبة في هدايتهم إلى الخير ٢٣
معالم في منهج البلاغ ٢٤
المؤمن يرى حقيقة الجاهلية من وراء الهالات الخادعة ٢٦
الاستعلاء بالحق لا التعالي على الخلق ٢٧
الاستعلاء على الشهوات والتطلع إلى الآخرة ٢٧
الاستعلاء على سخرية الساخرين ٢٩
إنه على الحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ٣١

استعلاء الإيمان

مقدمة

نتحدث هنا عن فصل جديد من كتاب المعالم، وهو فصل (استعلاء الإيمان)، وهذا الفصل يصلح أن يكون متمماً للفصل السابق، فموضوعاتهما، مترابطة وكلا الفصلين يقوي كل منهما الآخر، ويلقي أضواء جديدة على قضايا مشتركة.

ولكن كما عودنا الأستاذ سيد بطريقته في تخصيص العام، وفي التركيز على نقاط تفصيلية من قضايا عامة، تحمل تصورات أو إيحاءات جديدة تهم المسلم والجماعة المسلمة في طريقها إلى الله عز وجل، نجده هنا يتحدث عن ملامح وإيحاءات جديدة فيما يختص بهذه النقلة البعيدة التي تحتاج من المؤمن جهداً وعلماً، وإدراكاً وعزماً، وإصراراً، كما قلنا في الفصل الماضي.

واستعلاء الإيمان حقيقة كبيرة وضخمة، فالإيمان نفسه له استعلاء ذاتي خاص، ويُنتج في نفس المؤمن استعلاءً معيناً. فالمؤمن في علوه وعظمته مرتبط بهذا الإيمان.

واستعلاء الناس أنواع كثيرة: من الناس من يستعلي بماله، ومنهم من يستعلي بعصبيته، ومنهم من يستعلي بمنصبه، ومنهم من يستعلي بعلمه، أو بقوته، ومنهم من يستعلي بذاته ولو كانت مجردة من أي شيء، ولكن ذاته كبيرة بحيث إنها تمده بطغيان من نوع خاص..

ولكن استعلاء الإيمان شيء آخر غير هذه الأنواع كلها.. وعنوان الفصل هو " استعلاء الإيمان ".. فما هو معنى استعلاء الإيمان؟ وما هي ميادينه؟ وما هي عوامله؟ وما هي نتائجه؟ هذا كله -ولا شك- مرتبط ارتباطاً مباشراً بالإيمان.. فهو يبين ويفسر لنا في هذا الفصل كيف يستعلي المؤمن بإيمانه، أو كيف ينبثق هذا الاستعلاء من كون الإنسان مؤمناً.

واستعلاء الإيمان -أيضاً- مرتبط بالريادة، ومسئولية الريادة، ومسئولية السبق في مجال الإيمان.. فالرواد والسابقون في الطريق يحملون العبء لينشروا الإيمان ويقرروه ويثبتوه في الأرض. وكما عرضنا في آخر الفصل الماضي الصفات التي يجب أن تتوفر في الروّاد، فإننا نزيد هنا أن استعلاء الإيمان هو أحد صفاتهم الأساسية ومتطلباتهم الضرورية. فالرائد والسابق والداعي إلى الله لا بد أن يكون -ابتداء- مستعلياً بإيمانه قبل أن يبدأ خطوته الأولى في الدعوة إلى الحق وإلى الإيمان..

استعلاء الإيمان حالة دائمة

يبدأ الفصل بالآية الكريمة في سورة آل عمران.. يقول الحق تبارك وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم.. ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، يقول الأستاذ سيد رحمه الله **"أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال.."** لأن هذه الآية وردت في ثنايا الحديث عن معركة أُحد، والتعقيب عليها، وعلى الهزيمة التي لحقت بالمسلمين فيها، وفي ثنايا الحديث عن الأسى الذي أحسه المسلمون في هذه المعركة بعد أن كانوا قد انتصروا في أولها، وما أصاب المسلمين في شخص رسول الله ﷺ، وفي السبعين من أصحابه الذين استشهدوا، وفي الجرحى الكثيرين الذين خلّفتهم المعركة، ثم عودة المسلمين إلى المدينة بعد أن فقدوا أشياء كثيرة.. كانوا في أول المعركة منتصرين.. ثم حدث ما حدث في معركة أحد.. فكان التوجيه في ثنايا الحديث عن المعركة والتعقيب عليها.. ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. ولذلك يتبادر دائماً إلى ذهن الذي يقرأ القرآن أن هذه الآية مرتبطة بقضية القتال وبقضية الجهاد، ممثلة في النصر، أو في الإحساس بالعلو والاستعلاء مهما كانت نتيجة المعركة مع الباطل.

يقول الأستاذ سيد **"ولكن حقيقة هذه التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة، بكل ملابساتها الكثيرة."** ونحن نعلم أن هناك قاعدة أصولية تقرر "أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب". فليس معنى أن الآية قد جاءت بخصوص سبب معين، أو التعقيب على حدث معين، أو عن حالة معينة، أنها تخص فقط هذا الحدث، أو تخص هذا الجانب وحده. وإنما العبرة بعموم اللفظ.. وعموم اللفظ يعني أن العلو والاستعلاء أمر لا يخص فقط قضية الجهاد الممثلة في القتال **"إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء."**

فهي ليست حالة مؤقتة كما يبدو حينما ترتبط في سياق عرضها بقضية القتال أو الجهاد، وإنما هي حالة دائمة تعايش الإنسان المسلم في كل أحواله على الأرض؛ إنه بهذا الإيمان هو الأعلى. وينعكس شعور الاستعلاء على أمور كثيرة سنفصلها بعد قليل، ولكنها في عمومها تمثل حالة دائمة وليست حالة مؤقتة، وتمثل شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء.

"إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان."

وهذه الحالة الدائمة -حالة الاستعلاء هذه- ليست حالة متكلفة يتكلفها المؤمن أو يصطنعها اصطناعاً، وإنما هي حالة طبيعية تتلبس بالمؤمن في اللحظة التي يعرف فيها حقيقة الإسلام، ويعرف فيها مقام الألوهية، ويعرف فيها حقيقة علاقاته ونظرته إلى كل شيء من خلال ما يعلِّمُه الله سبحانه وتعالى.. فهو استعلاء وشعور غير متكلف.. وهو شعور طبيعي يتجلى في كيان المؤمن وفي قلبه وفي حياته، بصورة طبيعية لا يبدو فيها أي تكلف.

والتكلف غالبا -وربما دائما- لا يكون مستقراً في نفس صاحبه، ولا ينتج في نفس الآخرين شعوراً بحقيقة الأمر. فالإنسان الذي يتكلف شيئاً ليس من طبيعته لا بد أن يفتضح، أو يكشف بعد قليل أنه يتكلفه ويصطنعه وليس من طبعه..

وصحيح أن بعضا -أو كثيرا- من السلوكيات والعادات تبدأ بالتكلف، بمعنى المحاولة للتلبس بالموضوع على أن يصير طبعاً وعادة وحياة، لكن إذا ظل في نقطة التكلف دائماً فمعنى ذلك أن الكيان غير متقبل لهذا الأمر، وغير متفاهم مع هذا السلوك، وغير راض بهذه القيمة أو بهذه العادة، فتصبح هذه العادة أو هذه القيمة كشيء غريب على كيان الإنسان، يلفظه لأنه ليس من نسيجه. ولكن حينما يتكلف الإنسان عادة الصدق في أول الأمر لأنه محب للصدق، ولأنه يريد أن يكون صادقاً، ولأنه في ماضيه لم يتعود الصدق فيريد أن يكون صادقاً، حينما يكون راغباً، وحينما يكون متجاوباً تصبح العادة هذه بعد قليل جزءاً من كيانه وليست تكلفاً، وإنما تصبح حالاً وطبعاً ومقاماً.

فالاستعلاء لا يجوز أن يكون متكلفاً على طول الخط، وإنما تنبثق جذوره الأولى منذ اللحظة الأولى التي يتلقى فيها الإنسان معنى "لا إله إلا الله"، ومنذ أن يعرف مقام الألوهية، ومنذ أن يعرف أنه انتقل من دين إلى دين، ومنذ أن يعرف أنه قد انتقل من مستنقع الجاهلية إلى روضة الإسلام.. فتبدأ بذور الاستعلاء في كيانه، ثم تقوى مع المعايشة لهذا الدين، ومع المجاهدة، ومع العمل والحياة والتكيف مع هذا الدين. فنفس المؤمن يجب أن تستقر على حالة الاستعلاء هذه إزاء كل شيء، ولا ينبغي أن تكون حالة الاستعلاء هذه تكلفاً، أو أن تكون حالة مؤقتة، أو حالة اقتناع عقلي دون أن تصل إلى القلب ودون أن تتمكن فيه. فلا بد أن تستقر حالة الاستعلاء. والذي لا يحس بذلك عليه أن يعلم أن إيمانه مدخول، وأنه بحاجة لأن يراجع نفسه.

المسلم منتسب إلى الله

وحالة الاستعلاء هذه مصدرها الأساسي هو إحساس المسلم والمؤمن بنسبته إلى الله عز وجل، فينشأ شعوره بالاستعلاء، الذي يجعله يحس أنه على قمة متفردة لا يشاركه فيها بقية الذين لا يؤمنون. فهي نسبة الحق إذا قيس إلى الباطل، ونسبة مقام الألوهية إذا قيست إلى المخلوقين.

والفرق بين إحساس المسلم بالله عز وجل الإله الحق وإحساسه بالآلهة المزيفة التي تدعي الألوهية يجعله -حينما يعرف الله الحق- يستعلي على هذه الآلهة المزيفة، ويستعلي على الباطل. فالاستعلاء حالة ينبغي أن توجد وتزداد كلما زادت الفجوة في قلب الإنسان بين الحق وبين الباطل. وكلما كانت هذه الفجوة واسعة كلما كان ذلك دليلا على أن هذا الإنسان قد أدرك الفارق الهائل بين الحق وبين الباطل.

ولا شك أن ما بين الحق والباطل فارق هائل جداً، فإذا قل هذا الفارق في قلب الإنسان فهذا يعنى أن ذلك الإنسان لم يدرك الحق بعد، وأن هذا الحق مشوب بالباطل، ومازال ليس له مذاقه الخاص وتفرده في نفسه وقلبه. وكلما زادت المسافة في شعور المؤمن بين الحق وبين الباطل.. بين إحساسه بمقام الألوهية وبين مقام الأشياء الأخرى من دون الله، فلا بد أن يؤدي به هذا إلى الإحساس بالتفرد الذي يجعله يحس بالاستعلاء بالحق، وبنسبته إلى الله عز وجل.

فحالة الاستعلاء التي ينبغي أن تستقر في نفس المسلم ينبغي أن تكون بقدر حقيقة الفارق الهائل بين الحق والباطل، بين الله الحق وبين الآلهة الباطلة المزيفة. وهذا مقياس دقيق يقيس به الإنسان إيمانه وإحساسه بالحق؛ هل يرى أن الفارق بين هذا الحق وبين الباطل قليل أم كثير؟ بين مقام الألوهية ومقام بقية الآلهة كثير أم قليل.. وحين يشعر بأنه ليس هناك مجال للمقارنة

أصلاً يحس أنه قد أدرك تفرد المقام الرباني، وتفرد مقام الحق، وبطلان وانحطاط وتسفل بقية ما دون الحق وما دون الله عز وجل.

الاستعلاء على قوى الأرض وقيمها وقوانينها

هذا الاستعلاء -كما يعبر الأستاذ سيد- ينبغي أن يكون على قوى الأرض: **"الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان. وعلى تقاليد الأرض التي لم يصنعها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان، وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان."**

لماذا الأرض بالذات؟ لأن الإنسان جاء من عند الله عز وجل، بأمر منه سبحانه وتعالى، وهو راجع إليه في النهاية.. فالإنسان في حقيقة الأمر ضيف على هذه الأرض.. ليس خالدا فيها، فلا ينبغي أن يتصور أنه جاء ليخلد في الأرض، وإنما -كما أخبره القرآن- ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٦].. فهو استقرار مؤقت، ثم يمضي بعد ذلك إلى مقره الأول.. إلى تلك الجنة التي خرج منها.. فينبغي أن يكون إحساس الإنسان بالأرض إحساسٌ بالبيت والمكان الذي لم يأت ليستقر فيه.. (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[١].. وهذا هو المعنى الكبير الذي يستطيع المسلم والمؤمن أن يفهمه من هذا الحديث، وهو أيضاً مرتبط بالاستعلاء.

فلا ينبغي أن ينسى الإنسان أنه جاء من عند الله، وأنه راجع إلى الله. فلا ينسى هذا الأصل، ولا ينسى هذا المرجع ويستغرق في الأرض، ويستغرق في حياة الأرض، فينسى منشأه الأول، ثم ينسى -وهو الأخطر- مرجعه الأخير. فإذا كان سيعود في النهاية إلى الله عز وجل، ووجوده في الأرض إنما هو استخلاف من الله لفترة محدودة سيرجع بعدها مرة أخرى إلى الله عز وجل، فينبغي أن يدرك أنه يجب أن يستعلي على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، لأن القوى الحائدة عن منهج الإيمان قوى رضيت أن تعيش وتستقر في الأرض، ورضيت أن تستنيم إلى شهوات الأرض. فلذلك هو يجد بينها وبينه هذا النفور وهذا الاستنكار...

فلا بد أن يستعلي على تلك القوى بإيمانه، وبيقينه أنه راجع إلى الله، وبحرصه على أن يخلص نفسه من هذه الجريمة ومن هذه التهمة التي يقع فيها الحائدون عن الإيمان. فلا بد أن يستعلي على قوى الأرض كلها الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض أيضاً التي لم تنبثق عن أصل الإيمان، لأن القيم التي تنبثق من الأرض ستكون ملوثة بطين الأرض وبعتامة الطين وبانحطاط الطين. والمؤمن لا يرضى لنفسه أن يعرف ولا أن يعايش قيم الأرض التي لا تنبثق من أصل الإيمان.

"وعلى تقاليد الأرض التي لم يصنعها الإيمان.." فالخليفة الذي بعثه الله، أو استخلفه الله على الأرض، له تقاليده الخاصة؛ تقاليد الخلافة. فلا يجوز أن ينسى أنه خليفة، أو أن ينسى متطلبات الخلافة.

---

١ أخرجه البخاري من حديث ابن عمر -رضي الله عنه-.

فلا شك أن تقاليد الأرض المنبثقة من الأرض تقاليد تجعل الناس حيوانات بهيمية تعيش للشهوات والغرائز، كما يعيش الحيوان ليأكل ويشرب ويمارس غريزته، ولا يدري من أمر نفسه شيئاً، ولا يغير من نفسه شيئاً، فيعيش في الأوحال.. لأنه هكذا حيوان لا يدري من أمر نفسه شيئاً.

أما الإنسان الذي أنزله الله وأراد له التكريم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] فلا بد أن يكرم نفسه، وأن يرفض هذه التقاليد المنحطة التي لا يرضاها الإيمان، ولا تنبع من أصل الإيمان، ولم يصنعها الإيمان.

"وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان.." لأن الناس حينما يكونون قد استقروا في الأرض، وظنوا أنها المطاف النهائي، فإنهم سيشرعون شرائع تحكم حياتهم، وينبني على هذا الظن كل ما ينبني على الجهل بحقيقة الهدف من وجودهم.. فيستقرون في الأرض.. ويعملون من أجل الأرض.. ويعيشون.. ليس لهم غاية إلا هذه الأرض..

"وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان.." فكل وضع في الأرض لم ينشأ على قاعدة الإيمان، وإنما نشأ على قاعدة الاستقرار في الأرض.. وعلى قاعدة الرغبة في الحياة في الأرض، هو وضع لا يقبله المؤمن، لأنه يرى أنه كائن سيعود إلى ربه مرة أخرى، ويترك هذه الأرض. ولذلك فهو لا يستنيم إلى وضع من أوضاع الأرض، وإنما كما قال رسول الله ﷺ (عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

الاستعلاء مع ضعف القوة وقلة العدد كالاستعلاء مع القوة والكثرة سواء

"الاستعلاء.. مع ضعف القوة، وقلة العدد، وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء."

لماذا؟ لأن هذه الأشياء كلها لا تساوي شيئا في حياة المؤمن.. لأن الإنسان سيترك هذه الأرض بكل ما فيها.. سيتركها ويمضي، سواء كان فقيراً أو غنياً.. وسواء كان ضعيفاً أو قوياً.. فهو ليس من هذه الأرض.. وهو يستعلي عن هذه الأرض. فالقوي سيرحل، والضعيف سيرحل. والقوي ليس له حق أن يعيش على هذه الأرض وكأنها دائمة، والضعيف كذلك. والقوي الذي يأكل حق الضعيف إنما يأكل شيئاً مؤقتاً أيضاً، سيتركه ويمضي.. وكثرة المال لا تعني شيئاً في قيمة الإنسان وقيمة وجوده، وكذلك القلة، وإنما يستمد الإنسان وجوده من الحق.. فالمؤمن إذن يستعلي في كل أوضاعه.. لا ينهزم، ولا يضعف، ولا يستخذي إن كان ضعيفاً أو فقيراً، لأن هذه القيم أصلاً لا تمثل ثقلاً حقيقياً في حياة الإنسان.. لأن الأرض كلها -حقيقة- لا تمثل ثقلاً حقيقياً في التصور الإسلامي.. والحياة الدنيا كما وصفها الله عز وجل ﴿ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف: ٤٥]، هذا الهشيم لا وزن له..

فإذا كانت الأرض بكل ما تحمل لا ثقل لها في حياة الإنسان، فلا يهمه أن يكون كثير المال أو قليله، لأن الهباء مهما كثر فهو هباء.. والهشيم مهما تضخم فهو هشيم، والقوة الظاهرة ليست قوة حقيقية، لأن القوي هو الله، ومصدر القوة هو الله، والإنسان قوي بالله، وضعيف بدون الله.. فالإنسان الذي ينتفش بصورة مزيفة ليس قوياً في حقيقة الأمر..

فنظرة المؤمن الحقيقية للقوة والضعف وللغنى والفقر وللكثرة والقلة ليست مستمدة من طبيعة الأرض ولا من موازين الأرض، ولذلك هو في حالة استعلاء دائمة. ومن هنا جاء التوجيه للمسلمين في غزوة أحد أنهم وهم منهزمون لا بد أن يوقنوا أنهم هم الأعلون ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فربط الإيمان بالاستعلاء.

"الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل، ولا وضع مقبول عند الناس ولا سند له من الإيمان." الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية.. فالمسلم لا يعرف معنى الذل إلا لله عز وجل، وبالتالي لا تخيفه ولا تذله قوى الأرض الباغية، والتي يعرف أنها فقاعات منتفشة لا جذور لها ولا قوة لها في ذاتها. وهو دائماً يرى الله، فإن كان يرى الله فهو يعرف حقيقة هذه القوة المنتفشة بصورة مزيفة غير حقيقية. فالمسلم لا يعرف الذل.

والاستعلاء يكون لأنه قوي بالله. الاستعلاء الذي لا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعي أيضاً، ولا تشريع باطل.

كثيرون يستحيون من الإسلام، يستحون من بعض شرائع الإسلام، يستحيون من بعض توجيهات الإسلام، ذلك لأن هؤلاء لم يكونوا مسلمين يوماً ما، ولم يعرفوا حقيقة الألوهية ومقامها العظيم، ولم يعرفوا حقيقة الآخرة بجانب الدنيا...، فلذلك يتهاوون أمام أية قوة باغية، أو أمام أي عرف اجتماعي.

فالمسلم لا يعرف معنى الذل، ولا يعرف معنى الهزيمة، ويعتز بهذا الدين، وبكل ما يدعو إليه هذا الدين.. وكلما كان المؤمن عميقاً في إيمانه كلما كان أقدر على رفض أي أمر يفرض عليه، ما لم يكن بخطة من عنده، وما لم يكن بقرار من عنده... قرار اجتهادي مهتدٍ بقواعد الشريعة وضوابطها.

المسلم لا يعرف الذل إلا أمام الله عز وجل، ولا يستخذي أمام عرف اجتماعي، ولا يستحيي من تشريع شرعه الله أمام تشريعات الجاهلية الضالة، ولا يخجل من وضعه الخاص وسط أوضاع الناس التي لا سند لها من الإيمان..

والإنسان الأعلى هو الإنسان المؤمن الذي لا يمكن أن يجول بخاطره أبدا أن يقارن بين دين الله ودين العبيد، ولا بين الله وبين الطواغيت، ولا بين الحق وبين الباطل.. وتأبى نفسه أن تقارن.. فيستحيي ويخجل، بل ويرفض ويحرص ويغار على دينه أن يقارنه بأديان العبيد وبأفكار العبيد، فكلما ارتفع وتعمق إيمان المؤمن كلما استقر على القمة وهو ينظر إلى بقية أحوال الجاهلية بنظرة استخفاف.. فهو لا بد أن يستعلي عليها، ولا يتهاوى أمام قوة باغية، ولا عرف اجتماعي، أو تشريع باطل، أو وضع مقبول عند الناس لا سند له من الإيمان. فهو لا يُقارِن.. فضلاً عن أن ينهزم أمام هذه الأمور..

الاستعلاء بالإيمان ليس عزمة مفردة ولا نخوة دافعة ولا حماسة فائرة

"وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد إلا حالة واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الإلهي العظيم.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة، ولا نخوة دافعة، ولا حماسة فائرة.."

فالاستعلاء -كما قلنا- هو انبثاق من حقيقة الحق، وينبت في أرض الحق، والاستعلاء ليس مجرد اختيار فردي من إنسان دون إنسان، ومن مسلم دون مسلم.. فليس الاستعلاء عزمة مفردة، ولا نخوة في لحظة ثم تخبو، ولا حماسة فائرة تنطلق وتشتعل ثم تموت.. الأمر أكبر من هذا.. فالاستعلاء انبثاق من طبيعة الإيمان..

"إنما هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في طبيعة الوجود. الحق الباقي وراء منطق القوة، وتصور البيئة، واصطلاح المجتمع، وتعارف الناس، لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت."

فالاستعلاء -كما قلنا- ليس أمرا متكلفا، أصطنعه لأتزين به لحظات، وليس أيضاً اختياراً فردياً أو عزمة فردية، ولا نخوة دافعة، ولا حماسة فائرة.. وإنما هو انبثاق من طبيعة الإيمان العميق، وهو ميزان من موازين الإيمان.. لأن الإنسان إذا لم يفرح ويعتز بالحق، ولم يحس بالأسى من بُعد الناس عن الله، فلا بد أن يكون إيمانه مدخولا وضعيفا..

هذا الاستعلاء قائم على الحق المركوز في طبيعة الوجود.. والقائم على حقيقة الوجود..

فما هي الحقيقة العظمى في هذا الوجود.. إنه الله.. وكل شيء دون الله هو من إرادة هذا الحق.. فالسموات والأرض خلقت بالحق.. والإنسان خلق بالحق.. وكل شيء في هذا الوجود خلق بالحق.

الاستعلاء المرتكز على الحق الباقي يواجه ضغط الواقع

فالاستعلاء مرتكز على طبيعة هذا الحق.. الحق الباقي.. لأن كل شيء دونه سيفنى..

"الحق الباقي وراء منطق القوة، وتصور البيئة، واصطلاح المجتمع، وتعارف الناس.." والناظر إلى التاريخ البشري يرى.. كم من أمم كانت قوية ظاهرة ثم بادت وانتهت.. كم من طاغ طغى وتجبر وفعل كل ما يريد ثم جاءه الموت.. كم من حضارة كانت لها تقاليد وزخارف وزينات وأخلاق ثم انتهت هذه الحضارة ولم يعد لها مكان.. فالاستعلاء مرتبط بالحق الذي لا يفنى.. الحق الباقي.. فكل شيء سيفنى ويبقى الله عز وجل.. ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦].. فالملك لله، والحق باق.. والاستعلاء مرتبط بهذا الحق الباقي.. فهو لا يفنى ولا يهتز ولا يبيد على الإطلاق، لأنه موصول بالله الحي الذي لا يموت..

هذا الاستعلاء لا يأتي إلا من خلال إدراك مقام الألوهية إدراكاً عميقاً، واليقين بهذا الإدراك. فليس الإيمان مجرد الاعتراف الهادئ البارد بأن الله هو الذي خلق الوجود.. ليس الإيمان اعترافاً فلسفياً.. وليس معرفة باردة.. الإيمان شيء آخر.. فالإيمان بمقام الألوهية هو أمر يضع الإنسان في مكانه الصحيح، ويجعله يحس إحساساً عميقاً بمقام الألوهية العظيم.. فاليقين بهذا المقام بعد إدراكه هو الذي يوجد في الإنسان المسلم الإحساس بالله، والإحساس بالارتكان إلى الله، والإحساس بالاستعلاء.. لأنه عبد لله، ولأنه ولي لله عز وجل.

"إن للمجتمع منطِقَه السائد وعُرفَه العام وضغطه الساحق ووزنه الثقيل.. على من ليس يحتمي منه بركن ركين، وعلى من يواجهه بلا سند متين.. وللتصورات السائدة والأفكار الشائعة إيحاؤهما الذي يصعب التخلص منه بغير

الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات والأفكار، والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها وأكبر وأقوى."

من الناحية الواقعية فإن المجتمع القائم فعلاً بسلطانه وبجيوشه وبحضارته وبقيمة وبأخلاقه وبتنظيماته وبمؤسساته وبمواده.. ثقيل.. له ثقل ضخم، لأنه واقع حقيقي موجود. والإنسان المؤمن يواجه هذا الواقع بكل ثقله وبكل ضغوطه هذه. فإذا لم يكن المؤمن مرتكناً إلى ركن ركين، وإلى قوة تسنده، فإنه لا بد أن يتهاوى أمام هذا الواقع الثقيل. فهذه التصورات وهذه الأفكار الشائعة لها ثقل يصعب على الإنسان بمفرده أن يتخلص منها.. ويصعب عليه أن يسبح ضد التيار العنيف الجارف الصاخب الذي تثيره الجاهلية. ويريد المؤمن أن يقف أمام هذا التيار الصاخب القوي المندفع الذي لا يلوي على شيء، والذي يأخذ في طريقه كل شيء يقف أمامه، فالجاهلية لا تقبل أبداً أن يقف أحد في وجه مطامعها، ولا في وجه شهواتها، ولا في وجه غرائزها، ولا في وجه طموحاتها.. فالجاهلية تمضي كالوحش الهائج الذي يريد أن يستمتع بكل ما أوتي من قوة.. وأي إنسان يريد أن يعرقل هذه العجلة فلا بد أن تسحقه وتلتهمه..

فالفرد الذي يريد أن يقف أمام هذا التيار لا بد أن يكون قوياً، وإلا فإنه سَيُسْحَق تماماً.. لا بد أن يكون مستمداً قوته من مصدر أعلى من مصدر هذا الواقع، ومن قوة أعلى وأكبر من قوة هذا الواقع. وهذا هو معنى التوكل الحقيقي على الله.. التوكل الحقيقي يأتي من خلال معرفة حقيقة الألوهية ومقامها، ومعرفة حقيقة الجاهلية ومقامها.. ومعرفة معنى القوة ومن يملكها.. من هو صاحب القوة الحقيقي: الله أم الطواغيت؟ من يملك بكلمة واحدة أن يبدل الأمر فينتهي كل شيء: الله أم الجاهلية؟ فلا بد أن يعلم المؤمن الذي يريد أن يقف أمام هذا التيار أن هذه القوة المندفعة كلها إنما تندفع بإذن من الله، وإذا أراد الله أن يوقفها فستقف عاجزة أمام قوة المؤمن الفردية وأمام وجوده الفردي. فإذا استند المؤمن إلى قوة الله فهو مستند إلى القوة التي تستطيع أن تسحق هذه القوة المندفعة مهما كانت هائلة وكبيرة..

إدراك معنى التوكل من إدراك حقيقة الألوهية

إدراك معنى التوكل وقيمته مهم جداً.. فالذي يريد أن يتوكل على شيء لا بد أن يقتنع أن هذا الوكيل يتصف بالصفات التي تصلح أن يوكل إليها أمره، وأنه يستطيع أن يحميه وأن يحقق أهدافه.. والإنسان المؤمن لا يجد من يتوكل عليه إلا الله عز وجل، لأن الذي يتوكل على الله الجدير بأن نتوكل عليه، إنسان يحتمي دائماً بالقوة التي تستطيع أن تحميه.. والمؤمن على يقين بأن الله هو صاحب القوة كلها.. وليس جزءاً من القوة، أو حتى أغلب القوة.. ﴿ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].. فليس لأحد قوة أخرى، وما من شيء في الكون يتحرك إلا بأمر الله.. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧].. فالمؤمن على يقين بأن الله بيده القوة كلها، وبيده الأمر كله، وبيده الإذن كله، وأنه لا ضار إلا الله، ولا نافع إلا الله، وأنه لو اجتمعت الأمة على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وإن اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له.. ويعلم أن الرزاق هو الله، وأنه لا أحد يستطيع أن يمنع رزقه ولو اجتمع طغاة الأرض كلهم على أن يمنعوا حبة قمح مكتوبة له فلن يستطيعوا، ويعرف أن الأجل بيد الله، هو الذي يقرره، ولو اجتمع طواغيت

الأرض ليقتلوه والله لا يريد له ذلك فلن يستطيعوا قتله.. ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].. ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].. (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[٢].. هكذا كان التوكل الحقيقي.. كانوا يعرفون أنهم متوكلون على الله، فإذا أراد الله لهم مصيراً يتفق مع ما يريده الكفار فسيمضي، لأن الله هو الذي أمضاه وليس الكفار.. أما إذا لم يرد الله فلو اجتمعت قوى الأرض جميعاً فلن تستطيع أن تغير من أمر الله شيئاً.

فالتوكل مهم جداً.. وحينما نحس بثقل المجتمع وبكل ما فيه من ضغوط.. فإلى من نلجأ؟ لا ملجأ إلا إلى الله.. ونحن على يقين أنه سينصرنا، وأنه سيعز عباده.. وأنه لا يمكن أن يترك عباده المؤمنين بلا سند حينما يكونون قد أخلصوا له وقد اختاروه على غيره.. والإنسان إذا اختار إنسانا على غيره فإنه يأبى أن يسلمه، وهذا إنسان.. فما بالنا بالله العظيم الجليل إذا اختاره الإنسان على غيره.. هل يسلمه الله؟! لا والله لن يسلمه أبداً.

فإذا اختار الإنسان المؤمن الله تعالى على غيره من القوى فسوف يختاره الله عز وجل.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦].. قرار وحكم يخبرنا به الله عز وجل.. ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]..

فإذا شك إنسان -عندما يكون جندياً في جيش الله- أنه سيهزم فليعلم أن في إيمانه دخلاً.. لا بد أن يعرف أنه سينتصر.. فإذا لم ينتصر هو بشخصه فسينتصر إخوانه المؤمنون بعد موته، والله يتخذ من المؤمنين شهداء.. والله عز وجل قادر على أن ينصر عباده المؤمنين.. ولو كان عبداً فردا واحداً.

المؤمن الذي يدعو للإسلام ويقف أمام الجاهلية يكون موقفه ووضعه أخطر من أي فكر آخر أو أي مذهب آخر في مواجهة الجاهلية، لأن أمر هذا الدين وحقيقة هذا الدين الرباني الذي جاء به الأنبياء جميعاً لا يمكن أن يُهَادَن من الجاهلية، وليست هناك أرض مشتركة أصلاً بين الإسلام وبين الجاهلية.. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: ٤٥].. "ليتني كنت حيا حين يخرجك قومك" قال (أو مخرجي هم؟).. قال "ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي"[٣].. فليست هناك فرصة للقاء بين الجاهلية والإسلام. فالذي يختار الإسلام لا بد أن يدرك أنه قد قرر أن يقف أمام قوى الأرض كلها، وأنه لن يجد أرضاً مشتركة مع الجاهلية في أي ميدان من الميادين.. بينما المذاهب الأرضية تجد تلك الأرضية المشتركة: أن أكون شيوعياً أو أكون رأسمالياً أو أكون بوذياً أو أكون اشتراكياً أو غير ذلك.. هناك أرض مشتركة بيني وبين الآخرين.. الشيوعي يستطيع أن يشرب الخمر مع الرأسمالي.. يستطيع أن يزني هو وهو.. يستطيع أن يأكل أموال

٢ متفق عليه من حديث أنس عن أبي بكر -رضي الله عنه-.

٣ متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها.

الناس هو وهو.. هناك أخلاق مشتركة وأوضاع مشتركة وصفات مشتركة.. الشيوعي لا يشعر أنه غريب في المجتمع الرأسمالي إلا غربة عقلية، لكن واقعياً ليست هناك غربة، هو يأكل ويشرب كما يأكلون، ويعمل كما يعملون، وكلاهما متفاهم مع الآخر تماماً. فليست هناك غربة، وليس هناك تيار عنيف مضاد فيما بينهما. مجرد اختلاف في المذهب.. في قضية اقتصادية بين الشيوعي والرأسمالي، ولكن كليهما لا يهمه الدين، ولا يهمه الله، ولا يهمه الغيب، ولا تهمه الأخلاق.. فيستطيعان أن يتعايشا إذا علقا الفكرة على الرف.

لكن المسلم لا يستطيع.. لا يستطيع أن يشارك الجاهلية؛ لا في سلوك، ولا في شعور، ولا في تعامل، ولا في قيمة، ولا في أخلاق، ولا في أي شيء.. كيان متميز تماماً ومتفرد تماماً.. وجهان متناقضان لا يمكن أن يلتقيا في شيء. قد نقول إنهما بشر.. هذا يأكل وهذا يأكل، لكن شتان بين ما يأكله هذا وما يأكله هذا.. كيف يجتمعان على طعام؟! كيف يجتمعان على زواج؟! لا يمكن ذلك.. لأن كل واحد منهما يحقق وجوده بطريقة تناقض وجود الآخر.. لذلك كان ضغط الواقع على الإنسان المسلم أضعاف أضعاف ضغط الواقع على أي صاحب مذهب مهما كان مخالفاً لمذهبه.. فمن يختار الشيوعية في مجتمع رأسمالي ليس عليه ضغوط كثيرة، وإذا أراد أن يغير فكرته يستطيع أن يغيرها في دقائق ويظل كما هو.. لن يحتاج انتقاله من الشيوعية إلى الرأسمالية إلى انتقال في كيانه النفسي والشعوري، وفي الأخلاقيات والسلوكيات أبداً، فكلاهما حيوان في أخلاقه وقيمه.. ولكن هذا يلبس قبعة حمراء وذلك يلبس قبعة زرقاء أو بيضاء، فإذا تبادلا القبعات انتهت المسألة، وإذا ألقيا القبعات سيكونان حيوانان متماثلان تماماً..

أما المسلم فلا يستطيع. لا يستطيع أن يتغير في لحظة، حتى لو كفر المسلم سيظل فترة طويلة غير قادر أن ينزل إلى المستنقع الذي عاش بعيداً عنه، وكان يتقزز منه قبل ذلك.. فضغط الواقع على الإنسان المسلم، وخاصة المرأة، ثقيل جداً، وضاغط جداً، ولا يستطيع المسلم أن يقف أمام هذا الضغط إلا برصيد هائل جداً من اليقين ومن الإيمان ومن التوكل ومن الاستعلاء..

الاستعلاء المرتبط بقيم الحق يعين على الثبات والتحدي أمام ضغوط الجاهلية

الاستعلاء طاقة تعطي الإنسان قدرة على اللامبالاة، وعلى الاستهانة بمن يعاديه وبمن يقف أمامه، ولذلك حينما يستعلي المرء -مثلاً- بنسبه أو بعشيرته، يستطيع أن يقتل بهذه الطاقة التي انبعثت فيه وأشعلت فيه نار الحقد والثأر، ويستطيع أن يقف أمام قبيلة بأكملها، كما كان العرب يفعلون في الجاهلية، حينما كانوا يتقاتلون بالعصبية.. فالاستعلاء طاقة تكسب الإنسان قوة هائلة.

وحينما يكون الاستعلاء هذا استعلاءً بالإيمان.. يتشكل هذا الاستعلاء بأخلاقيات الإيمان وبأهداف الإيمان وبوسائل الإيمان.. وهذا هو الفارق.. هذا استعلاء وهذا استعلاء، ولكن هذا استعلاء إيماني مرتبط بالحق وملتزم بقيم الحق وبأهداف الحق وبوسائل الحق، وذاك استعلاء باطل مرتبط بالمستنقع الجاهلي وبما يخرج من المستنقع من مباءات.

فالضغط الذي يقع على الإنسان المؤمن ضغط هائل. لذلك لا بد أن يكون المؤمن قد استند إلى قوة هائلة قبل أن يفكر في أن يعلن حربه ومبارزته لهذه الجاهلية الحمقاء المندفعة المتجبرة. فإذا لم يكن مطمئنا أنه مستند إلى ركن ركين فلن يستطيع أن يقف لحظات. وهذا ما حدث في تاريخ الدعوات، حينما كان بعض الأفراد لم يصلوا إلى مستوى الاستعلاء الحقيقي واليقين الحقيقي والإيمان الحقيقي بالله وبالآخرة وبالرسل وبالحق.. انحدروا وانهاروا أمام قوة الباطل بقليل من الضغط.. ببعض التعذيب.. ببعض السجن والحرمان.. ببعض المنع عن الزوجة والأولاد.. مصادرة المال.. مصادرة الحرية، فسقطوا.. لماذا؟ لأن ضغط الجاهلية ضخم جداً.. وطاقة الاستعلاء عندهم ضعيفة جداً.. استعلوا بقدر ما دخلوا السجن أو دخلوا المعتقل، لكن لم يعملوا حسابا لما بعد ذلك.. فقد يعيش طول حياته في هذا المكان.. فهل عنده استعداد أن يضحي بأولاده وبزوجته وبماله وبمنصبه وبحريته وبشهواته وغرائزه ويعيش لله حتى يلقاه فيدخل الجنة؟ هل عمل هذه الحسبة؟ إذا لم يكن قد عمل هذه الحسبة فلا بد أن ينهار.. ينهار مع بكاء أول طفل من أولاده يأتي إليه في السجن.. ينهار مع بكاء أول دمعة من امرأته تشكو له الحاجة.. ينهار لأن طاقة الاستعلاء وطاقة اليقين لديه ليست قادرة أن تواجه هذه الضغوط الساحقة، فضلا عن ضغوط الجاهلية من تخويف وترهيب وإغواء وإغراء.. تلوح للإنسان بمنصب.. تلوح للإنسان بنعيم.. تلوح للإنسان بمال.. فإذا لم يكن عنده طاقة استعلاء بالحق لذات الحق فسوف ينهار ويخضع تحت سياط الحرمان والخوف والطمع..

أما أصحاب المذاهب الأخرى فليسوا بحاجة إلى كل هذه الطاقة.. لأنه يمكن أن أظل شيوعيا واستمتع بكل غرائز الدنيا كما أشاء، كما يستمتع بها الرأسمالي تماماً.. إذن لماذا أترك شيوعيتي.. لا أتركها. وإذا اضطررت أن أتركها أتركها لأنها لا تمثل عندي قيمة عظيمة، ولا يترتب عليها في حياتي ولا في آخرتي شيئاً عظيماً.. هي مجرد تعصب لفكرة أو لمذهب.. فإذا كان هذا التعصب سيؤدي إلى خسائر كبيرة فليسقط هذا التعصب، وهذا ما كان يحدث.. كان يطلب من الشيوعي أن يقول أنا امرأة فيقول أنا امرأة، أحدهم قال لهم أخرجوني من السجن وأكتب على باب بيتنا أنا امرأة، وكان من أجل أعقاب السجائر يقبل أقدام المساجين لكي يعطوا له عقب سيجارة.. هذا هو الفيلسوف الكبير الذي يكتب في الصحف والمجلات الآن.. وحينما وقع لبعضهم حادث قطار لم يستغث أحدهم بالله كما استغاث بقية أصحابه الشيوعيين، فعملوا له حفلة ضخمة جداً لأنه الشيوعي الوحيد الذي ثبت على الإلحاد فلم يذكر الله، لكن بقيتهم كلهم استغاثوا بالله.. أنتم تقولون لا إله والحياة مادة.. أي رب هذا الذي تستغيثون به؟ تهاووا، لأنه ليس هناك ما يدفعهم إلى الاستمرار.. هم يستمتعون بالشيوعية حينما كانت لها قوة ودولة وأمل في أن يكونوا حكاماً، فلما انهارت روسيا انهارت الشيوعية كلها في كل مكان، ولم يعد أحد يتكلم عن الشيوعية بهذه العجرفة التي كانوا يتكلمون بها.

فالمسلم يحمل فوق ظهره ضغوطاً هائلة تنوء بها الجبال، ومن هنا كانت الأمانة ثقيلة، امتنعت عنها السماوات والأرض والجبال، وأبين أن يحملنها.. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].. كانوا أكثر إدراكا من هذا الإنسان.. كانوا خائفين ففضلوا جانب السلامة على جانب المغامرة.. فأشفقن منها، وحملها الإنسان.. هذا الإنسان الظلوم الجهول، الذي قد يذهب إلى مصير بائس إذا لم يرتفع إلى مستوى الأمانة.. ولذلك جاءت الآية بعدها ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].. هؤلاء هم الفرقاء: المنافقون والكفار والمؤمنون أمام هذه الأمانة، فلا شك أن هذه الأمانة ضخمة وثقيلة. والمؤمن الذي يريد أن يحمل راية الإيمان في مجتمع جاهلي لا بد أن يعرف ضخامة المهمة، وصعوبتها، وما قد يتعرض له من آلام ومتاعب، فكيف سيقف؟ لا بد أن يبحث له عن سند. والسند معلوم، وهو الله عز وجل. ولكن كيف سيصل إلى أن يستحق سند الله، وأن يستحق مؤازرة الله، وأن يستحق معية الله؟ إذن لا بد أن يتعمق في إيمانه، وأن يتعمق في تقواه، ويخلص لله خلوصاً تاماً لكي يستحق أن يكون في معية الله.

"والذي يقف في وجه المجتمع، ومنطقه السائد، وعرفه العام، وقيمه واعتباراته، وأفكاره وتصوراته، وانحرافاته ونزواته.. يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن، ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس، وأثبت من الأرض، وأكرم من الحياة."

الشعور اللحظي حينما يؤخذ الإنسان من بيته، وهو عزيز بين أهله وأولاده، وبين الناس، ليجر أمام الناس مقيداً، وقد يضرب على "قفاه"، وقد يشتم.. يشعر لحظتها بالوهن وبالمهانة، وأن هذا الإسلام لم يأت له إلا بهذه الإهانة وبهذا الإذلال، فإذا ذهب إلى التحقيق وإلى التعذيب، سيجد أنه مباح الدم ومباح العرض ومباح الكيان ومباح الكرامة.. فهل سيحس بالوهن ويرجع عن الحق وعن طريق الحق لأن كرامته أهينت؟ أم أنه سيأوي إلى الركن الركين؟ هذا الشعور المباغت الذي يحدث للمؤمن في لحظات هو شعور بالغربة بين هذا الجمع الغفير الذي جاء ليعذبه ويغلظ عليه أو يستهين به، ويحس بالوهن، ويحس بالإهانة، ويحس بأن كرامته قد امتهنت.. فيحس بهذا الوهن، ويحس بهذه الغربة ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس.

ولا بد أن يكون قد تدرب على هذا في لحظات العافية، فلا يبحث عن السند -فقط- في لحظة المواجهة.. لا بد أن يكون قد عرف طريقه إلى هذا السند، وعرف كيف يستدعي هذه القوة، وكيف يستند إليها، بل يجب عليه في كل وقت أن يكون مستنداً إلى هذه القوة.. فهو لا يستدعيها، بل هو مستند إليها دائماً، ومرتكن إليها دائماً، ومستعد للمعركة دائماً، لا ينتظر حتى يواجهوه فيستدعيها، لا.. هو مسلم ومزود بكل أدوات المعركة، فإذا بوغت فهو مستعد، مستعد للنزال بلا خوف.. ولن يستطيع ذلك ما لم يكن قد عاش مع الله سابقاً، وعمق اليقين في قلبه، وعمق حب الله، وعمق الإجلال لله، وعمق الخوف من الله والخشية منه، وعمق الخوف من النار وعذابها، كل هذه أسلحة يمتلكها فماذا سيفعلون به؟ هي لحظات ويذهب إلى الجنة (إنها إذن لحياة طويلة) كما قال عمير بن الحمام -رضي الله عنه- ذلك الصحابي الذي كان في يده بضع تمرات، فسمع الرسول ﷺ يقول (من قاتل مقبلاً غير مدبر دخل الجنة) فرمى هذه التمرات، ولم ينتظر حتى يأكلها، وقال (إنها إذن لحياة طويلة)، وانطلق إلى المعركة.. هكذا كان منطقيا مع نفسه.. الجنة هنا.. وبينه وبينها خطوات.. ما الذي يمنعني أن أخطو هذه الخطوات.. إذا كان ثمنها أن أموت فلأمت.. فلا تملك الجاهلية بالنسبة للإنسان المؤمن شيئاً في الحقيقة.. هي تملك أن تعجل به إلى الله، وتعجل به إلى الجنة، مشكورة من حيث لا تستحق.

فالإنسان حينما يكون قد عاش مع الله، وعاش مع هذا اليقين، لا يباغت، ولا يعتبر أنه فوجئ، فهو قد هيأ نفسه لهذا اللقاء ولهذه المبارزة.. فهكذا هو مستعد دائماً، وفي أي لحظة.

"والذي يقف في وجه المجتمع..... يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن، ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس، وأثبت من الأرض، وأكرم من الحياة."

مرة ثانية يأتي ذكر الأرض، لأن الأرض في حِسّنا هي أثبت الأشياء.. فلا بد أن تكون القوة التي يستند إليها أثبت من الأرض، لأنها قوة الله. وأيضاً أكرم من الحياة.. لأن الحياة بدون إيمان ليست حياة... إنها حياة حقيرة، فإذا كانت المساومة على أن يسلبوا إيماني، فإنما هم يسلبون أعز ما أملك... فماذا سيبقى لي من الكرامة.. ماذا سيبقى لي من القيمة إذا سُحب مني الإيمان.. سأعود حيواناً يأكل ويشرب ويرفس.. فإذا فقدت الإيمان.. سأكون كالحيوان يأكل ويشرب ويمارس الجنس ويغني ويرقص، ويعيش مهيناً.

الإنسان إذن لا يمكن أن يفرط في هذا التكريم، وفي هذه الحقيقة التي هو بها إنسان، وبها عزيز، وبها كريم، فضلاً أن فقد الإيمان يفقده الدنيا والآخرة. فلا بد لمن يقف في وجه المجتمع، ومنطقه السائد، وعرفه العام، وقيمه واعتباراته، وأفكاره وتصوراته، وانحرافاته ونزواته أن يشعر بالغربة، كما يشعر بالوهن ما لم يكن يستند إلى سند أقوى من الناس، وأثبت من الأرض، وأكرم من الحياة.

"والله لا يترك المؤمن وحيداً يواجه الضغط، وينوء به الثقل، ويهدُّه الوهن والحزن، ومن ثم يجيء هذا التوجيه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].."

وهذا أمر طبيعي.. من عرف الله لا بد أن يحسن به الظن، ولا يمكن أن يترك الله عز وجل عبدا اختاره على غيره، وأحبه وعبده، وجاهد في سبيله، وأعلن كلمته، ثم يتركه ولا ينقذه ولا يؤيده.. هذا لا يرضاه الكريم من الخلق، فكيف بأكرم الأكرمين سبحانه وتعالى.. لا بد أن يكون المؤمن على يقين بأنه إذا وقف مع الله فإن الله سيقف معه يقيناً.. ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، فهذه القضية لا بد أن تكون واضحة.. قضية أن العبد المؤمن ليس متروكاً لهذه القوة، وليس متروكاً لضعفه، ولا لإحساسه بالغربة، أو لإحساسه بالوهن.. حتى لو أحس ذلك للحظات، فعليه أن يرجع سريعاً ليتذكر أنه ليس مهيناً، وليس ضعيفاً، وليس وحيداً، وإنما هو قوي لأن معه الله، وإذا كان الله معه فلن يفقد شيئاً. فيأتي هذا التوجيه ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وهم راجعون من أحد، وقد كسرت رباعية الرسول ﷺ، وشج وجهه، وقتل أعز الناس عليه؛ حمزة -رضي الله عنه- وقتل سبعون من المؤمنين رضوان الله عليهم.. رجعوا بهزيمة.. ولكن الله يقول لهم ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

"يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن وهما الشعوران المباشران اللذان يساوران النفس في هذا المقام.. يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات، الاستعلاء الذي ينظر من علٍ إلى القوى الطاغية، والقيم السائدة، والتصورات الشائعة، والاعتبارات والأوضاع والتقاليد والعادات، والجماهير المتجمعة على الضلال."

فقد يساور الإنسان للحظات هذا الوهن وهذا الحزن، ولكن على المؤمن أن يواجههما سريعاً، لا بمجرد الصبر والثبات، لأن الصبر في بعض الأحيان يحمل في طياته معنى سلبياً؛ أن أصبر لأنني لا أستطيع أن أفعل غير ذلك.. أصبر لأني هكذا قدّر

عليّ.. أصبر لأنهم الأقوى وأنا الضعيف، أصبر لأنني الذي بدأت المعركة فعلي أن احتمل عاقبة ما فعلت. وقد يكون الصبر فيه معنى الاستخذاء في بعض الأحيان، ويكون معنى سلبياً. ولكن لا بد أن يواجه هذا الشعور بالاستعلاء..

والاستعلاء طاقة -كما قلنا- دافعة، تدفع للأمام، وتواجه القوة الطاغية، وتواجه لحظة الوهن والحزن، وتواجه هذا السخط. تواجهه بالاستعلاء الذي ينظر من علٍ إلى القوة الطاغية.. فهو يعرف قيمتها فهي ليست أكثر من عرائس المسرح التي يشغّلها أصابع من وراءها، فلا تعمل بذاتها، فهي نمور ورقية لا تحمل شيئاً من القوة.. فهكذا ينظر المسلم إلى القوى الطاغية، ويعلم أن القوة التي تحركها وتعطيها قوة الحركة يمكن أن تمنع عنها هذه القوة في لحظات، ورأينا كم من طاغية سقط في لحظات، وكم من أمم انهارت في لحظات.. لأن الله قد أراد لها ذلك، وقد عرض علينا الله سبحانه وتعالى في قصص نوح وإبراهيم وهود وثمود وغيرهم كيف أبيد الطغاة بكلمة من الله سبحانه وتعالى.. ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].. ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧].. وجاء الطوفان على قوم نوح فلم يستطيعوا أن ينجو.. فهذه القوة المنتفخة فقاعات فارغة يتلهى بها الأطفال، ويعجب بها الأطفال، لكن ليس العقلاء والمؤمنون..

الاستعلاء الذي ينظر من علٍ إلى القوة الطاغية، والقيم السائدة، والتصورات الشائعة، والاعتبارات والأوضاع، والتقاليد والعادات. وينظر أيضاً إلى الجماهير.. هذه الكثرة الهائلة التي تهتف وتؤيد، وتموت وتسحق تحت أقدام الطغاة، راضية بهذا المصير. هؤلاء جميعاً على ضلال!! هؤلاء جميعاً خاطئون.. هكذا لا بد أن يعرف المؤمن أنهم ضالون، وأن هذه جماهير متجمعة على الضلال.. سادرة في الغواية.

كيف أكون مستعليا بالإيمان؟ وما هي وعوامل الاستعلاء؟

ولكن قد يسأل سائل: هذا الاستعلاء الذي ينظر من علٍ إلى هذا الضلال.. كيف يتحقق؟

كيف استعلي؟ وكيف أكون مستعلياً؟

وهذا أمر لا يأتي بقرار.. وإنما هي قضية -كما قلت- منبثقة من الإيمان الحق. وحينما يطلب الله عز وجل من المؤمنين، ويطلب المؤمنون بعضهم من بعضهم أن يستعلوا على قوى الأرض الطاغية والقيم السائدة.. فإنه قد تأتي في حس الإنسان للحظات أن هذه كلمات جميلة وأهداف رائعة.. ولكن كيف؟ أنى لي أن أكون مستعلياً؟ كيف أكون قوياً؟ كيف أكون قادراً على الوقوف أمام هذه القوى الطاغية والقوة الباغية؟ كيف أقف أمام واقع الناس، وأستطيع أن أكون قوياً وصامداً؟ كيف؟ كلمات جميلة نعم، والمطلب رائع، وأنا مستعد، ولكن كيف؟ كيف الطريق؟

قضية مهمة.. ولا بد أن يسأل كل منا نفسه: كيف يكون مستعلياً؟ لأن كثيرا من الناس يستطيع وهو في لحظة العافية أن يتخيل إمكانية أن يفعل كل شيء في لحظات الشدة، فإذا وقع في الشدة والمحنة سيكتشف حقيقة قواه، وكثير منا مر بهذه

التجربة.. في وقت العافية وقبل الامتحان يتصور أنه سوف لا يهتز.. لكن حينما تواجه المحنة تجد نفسك أمام واقع رهيب ومخيف جداً.. وقليل من يثبت أمام هذا الواقع.. فكيف يتحقق هذا الاستعلاء؟ لا بد أن ندرك الكيفية..

قلنا في معنى الاستعلاء وحقيقته أنها طاقة تشتعل في نفس الإنسان لتدفعه إلى المواجهة، وإلى المقاومة، وإلى الإصرار على التغلب على القوى المقابلة. وتبعاً لنوع الاستعلاء يكون نوع تلك الطاقة ومداها.. فإذا كنا نتكلم عن استعلاء الإيمان فنقصد تلك الطاقة التي يولدها الإيمان واليقين بالحق في نفس المؤمن حينما يواجه العقبات الممثلة في القوى الطاغية والمجتمع والتقاليد والشرائع والعادات والكثرة والجماهير.. وهذه القوة أو هذه الطاقة التي تتفجر في نفس المؤمن ليواجه هذه الأمور هي طاقة نسبية. فبقدر عمق الإيمان يكون هذا الاستعلاء، وهذا معنى الاستعلاء.

ولكن لا بد أن ندرك أن هذا الاستعلاء الإيماني -كما قلنا قبل ذلك- يحتاج إلى استعداد من المؤمن، ويحتاج أن يغير حياته كلها لتتوافق مع متطلبات الإيمان ومتطلبات هذا الاستعلاء.

العامل الأول: المؤمن هو الأعلى سندا ومصدرا

أما عوامل وأسباب الاستعلاء، فالعامل الأول الذي يصنع الاستعلاء عند المؤمن الذي يعرف الله معرفة صحيحه، ويريد أن يكون مستعلياً.. فيقول عنه الأستاذ سيد:

"إن المؤمن هو الأعلى.. الأعلى سنداً ومصدراً.. فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس؟ وهو من الله يتلقى، وإلى الله يرجع، وعلى منهجه يسير؟"

هذا أول عامل يولد الاستعلاء.. أن يكون على يقين أنه الأعلى سنداً ومصدراً، وهو مرتبط بالله الذي خلق الأرض والسموات، وليس الأرض وحدها. فإذا وقفت أمامه الأرض، وكل قوى الأرض، فما قيمة هذه الأرض كلها أمام قوة الله؟ فإذا كنت أنا مستنداً إلى الله حقيقة، ومؤمناً به، ومؤمناً بصفاته، فما الذي يجعلني أضعف ولا أستطيع أن استعلي؟ إذا كنت أعلم يقيناً أن الله.. ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧].. إذا كان الله سبحانه وتعالى هو صاحب الأرض، وصاحب السماوات، فمن يقف أمامي هو جزء من هذه الأرض. طائفة من هؤلاء الناس.. بعض قوى الأرض، وليست قوى الأرض كلها.. وحتى لو افترضنا أن الأرض كلها بكل ما تملك من قوى وعتاد وظلم وقهر وقفت أمامك، وأنت مستند إلى الذي خلق هذه الأرض، والذي يستطيع أن يزلزلها كلها في لحظات فتميد في الفضاء الكوني ولا تكون شيئاً.. إذا كنت مستيقنا أنك الأعلى سنداً، والأعلى مصدراً، فماذا تكون الأرض كلها؟ وماذا يكون الناس؟ وماذا تكون القيم السائدة في الأرض، والاعتبارات الشائعة عند الناس، وهو من الله يتلقى، وإلى الله يرجع، وعلى منهجه يسير..

يقول الله عز وجل في سورة المائدة.. ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٧].. ودائماً يقف المرء أمام هذه الآية، لأن الله عز وجل عرّض بنبيه، وبأمه الطاهرة في هذا الموضع،

ليبرز هذا المعنى؛ أنه لا شيء يقف أمام قوة الله.. من هو المسيح؟ وما هي أمه؟ إذا أراد الله أن يهلكهما ومن في الأرض جميعاً ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ١٧]..

فإذا كان المؤمن على يقين بصفات الله وبأسمائه فإنه لا بد أن يكون مستيقناً في مواجهة الجاهلية بأنه الأعلى سنداً ومصدراً، ويحس بأن الأرض بمن عليها وبما فيها لا تساوي شيئا.

والإنسان حينما يعرف أن الله هو سنده يطمئن، كما كان الرسول ﷺ وهو في الغار، وأقدام الكافرين على باب الغار، ويقول له أبو بكر -رضي الله عنه- وهو الصديق، يقول للرسول ﷺ "والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"، فهو يخشى، وخوف أبو بكر الأكبر كان على رسول الله ﷺ وليس على نفسه.. فيقول له الرسول ﷺ (ما ظنك باثنين الله ثالثهما).. فهي الطمأنينة المطلقة لله..

وعندما تعهد الله عز وجل بعصمة رسوله ﷺ في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].. خرج الرسول ﷺ فصرف الحرس الذين كانوا يحرسونه، وبعد هذه الآية لم يقف على خيمة رسول الله ولا على بيت رسول الله حارس، وقد كان قبل ذلك يترك الصحابة يحرسونه في أثناء الغزوات وفي الأوقات العصيبة.. وهذا هو إيمان النبوة..

وكما رأينا أيضاً أصحاب موسى وهم هاربون من مصر.. ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١].. فالبحر أمامهم وجيوش فرعون وراءهم، بكل ما تملك من حنق وغضب، كما وصفهم الله.. ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦].. فينادون موسى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] وبتلقائية شديدة يجيبهم موسى -عليه السلام- ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢].. كيف؟ لا يعرف.. ولكن الله أمره أن يخرج وتعهد بالحماية، فهو يعلم أن الله بالغ أمره ﴿ فَأَوْحَيْنَا ﴾ [الشعراء: ٦٣].. فاء التعقيب ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].. عصا.. رمز فقط، لأن موسى قيل له اضرب بعصاك البحر وسترى ما سيحدث..

فحينما يكون المؤمن على علم أنه الأعلى مصدراً وسنداً.. فلن يهمه شيء.. ولا بد أن يشعر بالاستعلاء.. وهذه أحد مصادر الاستعلاء.

العامل الثاني: المؤمن هو الأعلى إدراكا وتصورا

ثم يذكر الأستاذ سيد رحمه الله العامل الثاني الذي يصنع الاستعلاء في نفس المسلم فيقول: **"وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود.. فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو أكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى. وحين تقاس هذه الصورة إلى ذلك الركام من التصورات والعقائد والمذاهب، سواء ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً، وما انتهت إليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة..**

حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة الجميلة المتناسقة، إلى ذلك الركام وهذه التعسفات، تتجلى عظمة العقيدة الإسلامية كما لم تتجل قط. وما من شك أن الذين يعرفون هذه المعرفة هم الأعلون على كل من هناك."

وكل ما تعج به البشرية من فلسفات كبرى، قديماً وحديثاً، وعقائد وثنية، وكتابية محرفة، ومذاهب مادية، وغيرها.. فإنه حينما يقارن هذا التصور الرباني بهذه التصورات كلها يطمئن المسلم أن هذا الدين من العظمة والجلال، وأن هذا الإله من العظمة والجلال بحيث تنهار أمامه كل هذه التصورات والقيم، فيعشق هذه الحقيقة.. ويعشق هذه العقيدة، فلا يتنازل عنها أبدا، ويشعر من داخله أنه عظيم.. لأنه مسلم، عزيز.. لأنه مؤمن، أعلى.. لأنه مع الله ويؤمن به، فكيف لا يكون مستعلياً.. وهذه أحد مصادر الاستعلاء.

العامل الثالث: المؤمن هو الأعلى تصورا للقيم والموازين

ويأتي بعد ذلك العامل الثالث من عوامل الاستعلاء في نفس المسلم يوضحه الأستاذ سيد رحمه الله بقوله: **"وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص. فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله، بصفاته كما جاء بها الإسلام، ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الأرض الصغير. هذه العقيدة من شأنها أن تمنح المؤمن تصوراً للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي البشر، الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم. ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد. بل في الأمة الواحدة. بل في النفس الواحدة من حين إلى حين."**

فالمؤمن يوقن أنه الأعلى تصوراً في القيم والموازين التي توزن بها الحياة والأشياء والأشخاص، لأن الله هو الذي وضع هذه العقيدة، ووضع هذه القيم والموازين، بعلمه وفضله ورحمته، وحينما يقارن المسلم حقائق العقيدة وحقائق الإسلام بما حوله في الجاهلية وبمصادر هذه الجاهلية يشعر بالعزة والاستعلاء. فهذه الجاهلية تتميز بقصر النظر، فهم لا يرون المدى البعيد، فيشرعون وينظمون لأوقات قليلة، فتتغير وتتقلب، هؤلاء الذين يتميزون بالهوى فيجنحون عن المصلحة والخير رغبة في الشهوة والرغبة، حتى ولو على حساب مصلحتهم، حينما يرى الإنسان التقلب الذي تتميز به مصادر الجاهلية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. تصبح مرة الرأسمالية هي المذهب الأعظم لأنه هو الذي يمثل حرية الإنسان وحرية الفرد، وعدم التدخل في مقدراته وسلطانه.. وبعد قليل تصبح الشيوعية هي المثل الأعلى التي تؤيد الجماعة وتمجد الجماعة، ويصبح الفرد كياناً مسحوقاً وليس له وجود.. حينما يرى الإنسان هذا التقلب فإنه يدرك إن كان عاقلاً منصفاً ما وراءه من الأهواء.. هذا التقلب بين الأطراف المتعارضة والمتناقضة إنما كان لأن الإنسان متقلب دائماً، يضيق بالوضع الذي هو عليه، كالنائم الذي ينام بعض الوقت على الجانب الأيمن، ثم يخيل إليه أنه لو انتقل إلى الجانب الأيسر سيكون في أحسن الأوضاع، فينقلب إلى الجانب الأيسر، ثم بعد قليل يرجع إلى الجانب الأيمن.. فيظل يتقلب طوال الليل لأنه متقلب. فالبشرية دائماً متقلبة، تضيق وتسأم. ولأن طبيعة ما تقرره في ذاته يحمل متاعب كثيرة، فيضيقون به، ويظنون أنه من طبيعة الأمر أن يغيروا ويبدلوا. وهناك أيضا الجهل الذي يتسم به كل إنتاج الجاهلية، فالجاهلية ليس عندها علم يقيني، وإنما كلها محاولات واجتهادات، وحتى الحقائق العلمية

هي عبارة عن احتمالات: الاحتمال الأول يكون أقوى من الاحتمال الثاني، لكن ليس هناك يقينٌ بأن الاحتمال الأول هو دائما الذي يتحقق.. فيمكن أن يتحقق الاحتمال الرابع أو الخامس، فحتى نظرية الاحتمالات هذه قد أكدت طلاقة المشيئة الإلهية، لأنه لا شيء يقبض ويمسك بالأشياء إلا إرادة الله عز وجل.. والسنن الكونية وضعت لتنظم الحياة، لا لتكبل إرادة الله الذي وضعها، فهو قادر أن يغيرها حينما يشاء، ولذلك ليس هناك دائماً سنة مطلقة، ولا يقين مطلق في أي شيء.

بينما الإنسان المسلم يعلم أن الذي وضع له نظام الحياة ومنهج الحياة هو الله الذي يعرفه جيداً؛ بعلمه المطلق، ورحمته المطلقة، وعدله المطلق، وكرمه المطلق، وتفرده المطلق بالكمال.. فحينما يقارن هذا إلى ما تضعه البشرية في أي وقت من أوقاتها لا بد أن يحس بالفخر والعزة، لأنه صاحب هذا المنهج، ولأنه تابع لهذا المنهج.. وهذا مصدر من مصادر الاستعلاء.

العامل الرابع: المؤمن هو الأعلى ضميرا وشعورا

ننتقل بعده إلى العامل الرابع من عوامل الاستعلاء في نفس المسلم: **"وهو الأعلى ضميراً وشعوراً، وخلقاً وسلوكاً.. فإن عقيدته في الله ذي الأسماء الحسنى والصفات المثلى، هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى، والعمل الصالح والخلافة الراشدة. فضلاً على إيحاء العقيدة عن الجزاء في الآخرة. الجزاء الذي تهون أمامه متاعب الدنيا وآلامها جميعاً. ويطمئن إليه ضمير المؤمن، ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب."**

حينما يعرف الإنسان المؤمن الصادق حقيقة من يعبد، ويقتبس شيئاً من موحيات اسمائه الحسنى وصفاته العلى، ويرى الإسلام وهو يدعوه إلى هذه المشاعر، وهذه النظافة، وهذه الأخلاقيات، وهذه القيم الرفيعة والمستمدة من عظمة الله.. عندها يشعر المؤمن أن هذا الدين وهذا المنهج يرفعه إلى درجة الكمال البشري المقدرة، بينما يرى المذاهب والأحزاب التي تصطنعها البشرية كلها تشد الإنسان من هذا الأفق الكريم إلى أفق يصف الله أصحابه مرة أنهم كالأنعام بل هم أضل، ومرة يمثلهم بالحمار يحمل أسفاراً، ومرة كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فالجاهلية تُنزل الإنسان من مجده هذا الرائع العظيم إلى تلك الهوة السحيقة المحتقرة التي تعيش فيها الجاهلية، فحينما يستيقن المسلم هذا لا بد أن يستعلي.. يستعلي بدينه، ويستعلي بصفات ربه وأسمائه الحسنى، ويستعلي أيضاً بصفات المجتمع المسلم، وبصفاته هو التي ذاقها حينما عاش بالإسلام، فأصبح إنساناً صادقاً عفيفاً كريماً شجاعاً.. بينما يرى أهل الجاهلية يتميزون بالحقارة والنفاق والنذالة والخسة والحيوانية والخيانة، وكل ما توصف به الجاهلية من شناعة، فيحس بالاستعلاء الذاتي.. إنه أعلى يقيناً من هذه الشراذم الحقيرة التي يراها.

العامل الخامس: المؤمن هو الأعلى شريعة ونظاما

ويأتي بعد ذلك العامل الخامس والأخير من عوامل الاستعلاء في نفس المسلم الذي يوضحه الأستاذ سيد رحمه الله فيقول: **"وهو الأولى شريعة ونظاماً، وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديماً وحديثاً، ويقيسه إلى شريعته ونظامه، فسيراه كله أشبه بمحاولات الأطفال وخبط العميان، إلى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل. وسينظر إلى**

البشرية الضالة من علٍ في عطف وإشفاق على بؤسها وشقوتها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال."

فالذي ينظر في شريعة الله، ويرى هذا الضبط التشريعي، وهذه الرحمة، وهذه الدقة، يشعر أن شريعته الأعلى، وأنه هو الأعلى بما في هذه الشريعة من ضبط وتناسق ورفعة وشمول، ويشفق على الجاهلية التي تعيش تحت شرائع البشر وشرائع الطواغيت، يشفق عليها لبؤسها وشقوتها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال.

صور مشرقة من استعلاء الإيمان

ويحكي الأستاذ سيد هنا قصتي المغيرة بن شعبة وربعي بن عامر حينما ذهبا إلى رستم. والذي يقرأ تاريخ المغيرة بن شعبة يعرف أنه كان في الجاهلية أفاقاً مغامراً قاطع طريق، وقد عيره عمه عروة بن مسعود الثقفي بذلك في صلح الحديبية، فقال له: ألم تغسل سوأتك إلا بالأمس.. ثم هو بعد ذلك لم يكن جميلاً، وكان ذا هيئة خشنة. أما رستم قائد الفرس فهو قائد جيش كسرى.. فقد كان العرب ينظرون إلى الفرس في الجاهلية نظرة التقديس والمهابة.. وكانوا إذا ذهبوا إلى كسرى في الجاهلية يسجدون بين يديه.. فهو إن لم يكن إلهاً فهو عظيم يستحق أن يعبد.. لكن حينما اتجهوا للإسلام، ذهب المغيرة هذا -الذي كان في الجاهلية نكرة وقاطع طريق- إلى رستم قائد الفرس ووقف أمامه هذا الموقف الذي يستهين فيه بكل تلك الأبهة التي قابلوه بها لكي يؤثروا فيه، لأنهم يعلمون أن الإنسان يتأثر بهذه الأبهة، ولكنه لم يتأثر بهذا، ولم يخش من رستم، ولم يقف أمامه موقف الذليل، وإنما وقف معه كما تحكي لنا القصة التي نقرأها الآن فلنعش معها لحظات:

"عن أبي عثمان النهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة، فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه، واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم في زيهم، عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غلوة (والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو أربعمائة خطوة) لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة.." لكي يحس بالهوان وهو مقبل على هذا العظيم، **"وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى يجلس على سريره ووسادته"** أي يجلس بجوار رستم الذي كان يعد نفسه ليكون ملكاً على الناس **"فوثبوا عليه"** أي الحاشية **"فترتروه وأنزلوه ومغثوه"** يعني صرعوه وأنزلوه بالقوة **"فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام"** أي كنا نسمع أنكم عقلاء **"ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً، إلا أن يكون محارباً لصاحبه؛ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى. وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم، فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني. اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول."**

شيء رائع لا يتخيله الإنسان.. كيف استطاع المغيرة أن يفعل ذلك، وهو ذاهب إليهم وحده في وسط هذا الحشد المهيب.. لا شك أن سعد بن أبي وقاص لما بعث المغيرة كان يعلم أنه قادر على هذا الموقف، والمغيرة هو أحد أربعة من دهاة العرب..

أما ربعي بن عامر فقد **"أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب."** فهم يستمدون قيمتهم من هذه الأمور.. وهذا حقيقة الجاهلية، تفعل ذلك لتبهر الناس.. فيعظموا أهلها، وهذا ما كان يعلّمه رسول الله ﷺ لصحابته حتى تعتدل مقاييسهم وموازينهم، فعن سهل بن سعد الساعدي، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم رجل. فَقَالَ النبي: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟ قَالُوا: نقول: هذا من أشرف الناس، هذا حَرِيٌّ، إِنْ خَطَبَ، أَنْ يخطب، وَإِنْ شَفَعَ، أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ: أَنْ يُسْمَعَ لقوله، فسَكَتَ النبي صلى الله عليه وسلم، وَمَرَّ رَجُلٌ آخر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَا تَقُولُونَ في هَذَا؟ قَالُوا: نقول: والله يا رسول الله، هذا من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ، إِنْ خَطَبَ، لَمْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ، لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ، أَنْ لاَ يُسْمَعَ لقوله، فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: لهَذَا وأشار إلى الفقير خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا. أخرجه البخاري ٩/٧(٥٠٩١) وابن ماجة ٤١٢٠... فحتى الصحابة، وهم في مرحلة التربية كانت بقايا مقاييس الجاهلية مازالت موجودة في نفوسهم، فكان رسول الله ﷺ يعلمهم كيف يزنون، وكان يعلمهم ذلك بالسلوك العملي. فهؤلاء الكفار دائماً يتزينون، لأنهم يأخذون قيمتهم من هذه الأمور، لأنهم -في الحقيقة- لا يملكون من الداخل شيئا، فإذا تعروا من هذه الزينات فقدوا كل شيء. ونحن قد التقينا بعظماء، أو هكذا كنا نعدهم عظماء من أباطرة القوم، ولكنهم عندما تعرضوا للمحنة ودخلوا السجون كانوا يبكون كالأطفال، ثم إذا بهم فارغون، ليس لهم أي فكر، ولا يعرفون حتى كيف يصلون أو يقرأون التحيات مع دعواهم الإسلام.. فهؤلاء يأخذون قيمتهم من هذه الأبهة المزيفة التي تغطي على فراغهم وعلى خوائهم.

أما ربعي بن عامر.. **"أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم، قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي والحرير، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة. ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد. وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها."**

هذه خطة في مواجهة خطتهم، فهم يتعاظمون بهذه الأمور، وهو يحقر هذه الأمور ويفسدها لهم، ليروا أن هذه الأمور لا تهمنا، هذه خطة مسلم مؤمن عالي الهمة في مقابل هؤلاء المنتفشين بهذه الأمور. فهو يتعمد خرقها..

وقد يقال إن هذه ليست أخلاقيات الإسلام.. لا يجوز أن يأتي رسول لقوم فيفعل هذا! ولكنه جاء إليهم بعد أن بدأوا يحسون باقتراب الهيمنة الإسلامية، فكانوا يريدون أن يتصالحوا لينجوا من الهزيمة التي كانوا عليها، فكان تصرف المغيرة وتصرف ربعي هو نوعاً من الحرب النفسية لهؤلاء القوم، ليجهزوا على البقية الباقية من المقاومة عندهم. ثم إن الفرس هم الذين طلبوا إرسال رسول من المسلمين إليهم، فالفرس في الموقف الأدنى، فأراد الفرس أن يصنعوا هذه الزينات وهذه الأبهة لكي يضعضعوا هؤلاء

الرسل ليلينوا في المساومة، فلا بد أن تكون الخطة محيِطة لهذا الترقب ولهذا التطلع. فكان هذا التصرف من ربعي ومن المغيرة يتناسب مع المهمة، ويتناسب مع الظرف.

ولكن في ظروف أخرى، ما كان يجب على الرسول المرسل أن يفعل ذلك إذا كان في زيارة لتفاهم معين، فيكون التصرف محكوماً "ببروتوكول" آخر -كما يقولون- ولكن هؤلاء الرسل كانوا ذاهبين ليلقوا درساً جديداً على الفرس، ويقيموا شهادة لهذا الدين، ويقللوا في نفوس العامة والجنود من الفرس من شأن رستم هذا الذي كانوا لا يستطيعون النظر إليه خوفاً وهيبة.. فعندما يرون هذا العربي المهلهل الثياب لا يخاف، فيتشجعون، ويعرفون أنهم إذن يعيشون في عماية وفي وهم، فيخرجون من أسر العبودية إلى وضاءة الإنسانية.. فكل هذه كانت خطة من المغيرة ومن ربعي، وربما كانت عن اتفاق مع سعد بن أبي وقاص، وحتى إن لم تكن فهم كانوا حكماء.

"فقال له رستم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام."

وهذه آخر إجابة كان يتوقعها رستم، وكان يتصور أن يقول له: جئنا لأننا فقراء، وأرضنا قاحلة، وأنتم أغنياء، جئنا لنأخذ كذا وكذا.. ككل المستعمرين وكل القبائل التي كانت تتمرد فتغير على المناطق الغنية والآمنة بغية المال والمتاع.. فهكذا كانوا يتوقعون أنهم يستطيعون أن يعطوا لهؤلاء بعض المال وبعض الثياب وبعض الطعام، فيرجع هؤلاء الصعاليك الفقراء الذين كانوا لا يلقون لهم بالاً في الجاهلية..

ولكن القضية كانت غير ذلك.. كانت قضية أخرى.. بهذه العظمة: **"الله ابتعثنا"**، ولم يقل جئنا.. لكي يحدد مصدر القوة، أننا نحن رسل الله إليكم، فاعملوا حساب أنكم تحاربون الله، ولا تحاربوننا نحن، **"الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.."** لنخرج من شاء هو سبحانه أن يخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وليس أيضاً بإرادتنا، فنحن نتحرك بإرادة الله.. **"ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والأخرة.."** فهم يرون أن كل ما فيه رستم وأصحابه إنما هو ضيق الدنيا.. كل هذه الأبهة هي في نظر المسلم حقيرة، ولو كانت الدنيا عند الله تزن جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء.. فهكذا قيمة الدنيا في حس ربعي بن عامر.. أنه جاء ليخرج هؤلاء الأغنياء من ضيق الدنيا.. فما هي إذن سعة الدنيا والأرض؟ ولا شك أن المسلمين بعد ذلك صاروا أكثر غنى وأكثر سعة من الفرس ومن الروم، ولكن لم تكن قيمة الدنيا عندهم هي القيمة العليا التي تستعبدهم.. **"ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.."** وهذا درس في التصور الإسلامي يعلمهم إياه ربعي بن عامر.

هذه هي الأسباب أو العوامل التي تصنع الاستعلاء في قلب المؤمن، فليس مطلب الاستعلاء مطلباً بلاغياً ولا مطلباً خيالياً ولا كماليا ولا مثالياً لا يمكن تحقيقه في الواقع، وإنما يتحقق إذا تحققت عوامله: أن يكون المؤمن هو الأعلى سنداً ومصدراً، ويكون هو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود، وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين، وهو الأعلى ضميراً وشعوراً، وهو الأعلى شريعة ونظاماً.. إذا كان المؤمن مؤمنا بهذا إلى درجة اليقين فإنه لا بد يكون مستعلياً، ويصبح الاستعلاء -كما قلنا- هو انبثاق

من طبيعة هذا اليقين، لا يتكلفه المؤمن.. فهو يوجد بشكل طبيعي، وكانبثاق طبيعي من هذا الإيمان. وضربنا مثلاً بموقف المغيرة وربعي.. مثل من القاعدة المسلمة حينما تلتقي بقمة الجاهلية.. قاعدة المسلمين.. أفراد بسطاء فقراء، نكرات في الواقع البشري، لم يسمع عنهم رستم.. فلو جاءهم عمر بن الخطاب أو سعد بن أبي وقاص لقالوا: هذا عمر وهذا سعد.. لكن بعث إليهم بهؤلاء البسطاء من أفراد القاعدة المسلمة، والذين ذهبوا أيضاً بشكل وبلباس يؤكد هذه البساطة في مواجهة قمة السلطة الجاهلية بكل أبهتها وزينتها، ليبدو الفارق ضخماً، ولكي يعلموا البشرية درساً؛ كيف يكون الاعتزاز، وكيف يكون الاستعلاء.. هكذا يكون الاستعلاء، ولم يحدث هذا في نفس ربعي ولا نفس المغيرة إلا من خلال يقينهم بأنهم هم الأعلى حقيقة.

الاستعلاء في واقع الدعوة المعاصر

ننتقل إلى صورة مقابلة ترتبط بواقعنا أكثر من ذلك الواقع الذي كنا نحكي عنه؛ واقع القادسية، حيث كان المؤمنون أقوياء، وقد بلغوا من القوة بحيث أنهم يهددون أكبر إمبراطوريات التاريخ، واستطاعوا سواء غرباً أو شرقاً أن يأخذوا أجمل بقاع الأرض من الروم، وينتهوا تماماً بعد ذلك من القوة الفارسية.

ولعل البعض يقول إنهم كانوا مستندين إلى هذه السلطة وهذه القوة وهذا الأمل..

لكننا نتحدث عن واقعنا نحن، حينما يكون المسلم ضعيفاً وغريباً.. فهو مطلوب منه أيضاً أن يكون هو الأعلى، وأن يكون مستعلياً هنا بالإيمان فقط، ولا يسنده شيء آخر.

"وتتبدل الأحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى. وينظر إلى غالبه من علٍ مادام مؤمناً.."

فأول مصادر القوة لدى المسلم هو الإيمان، حتى ولو كان في موقف المغلوب المجرد من القوة المادية، فلا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، فقط لأنه مؤمن.. أنا مؤمن وهؤلاء كافرون.. أنا أعلم الحق وهؤلاء يعتنقون الباطل.

"وينظر إلى غالبه من علٍ ما دام مؤمناً. ويستيقن أنها فترة وتمضي، وأن للإيمان كرة لا مفر منها، وهبها كانت القاضية فإنه لا يحني لها رأساً.."

لأنه مؤمن، والمؤمن يعرف مصيره، فإما أن يعيش عزيزاً متمكناً في الأرض، وإما أن يموت شهيداً.

حسن العاقبة مهما كانت النتائج

"إن الناس كلهم يموتون أما هو فيستشهد. وهو يغادر هذه الأرض إلى الجنة، وغالبه يغادرها إلى النار. وشتان شتان.."

وهذا عامل مهم جداً من عوامل الثبات والاستعلاء، والاستهانة بالباطل، وعدم التردد أمام عوائق الثبات. فهو في معركة إما أن ينتصر، وإما أن يستشهد.. قضية لا تحتاج إلى تفكير.. هو يبذل كل ما يستطيع، فإذا انتصر كان هذا من فضل الله، وإذا هزم واستشهد وقتل فهذا أيضاً من فضل الله، وهذا الذي يريده.. فالأمور لا تحتاج إلى حسابات كثيرة، لأن المؤمن يكون قد فرغ من هذه الحسابات، ولم يعد محتاجاً إلى مراجعتها كثيراً.

"وشتان شتان. وهو يسمع نداء ربه الكريم: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۞ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٨]..."

وواضح أن الآية الكريمة تقرر واقع الكفار والطغاة المتجبرين، وأنه متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار نزلاً من عند الله، وهذا يكفيهم؛ أن يكون نزلاً من عند الله، فأول شيء يتبادر وينبع في نفس المؤمن حينما تتبدل أحواله ويقف موقف المغلوب المجرد من كل قوة أن يتذكر أنه مؤمن، وأنه شتان بين مصيره ومصير هؤلاء الذين يحاربونه، ويكفي هذا ليجعله ثابتاً ومستعلياً وقوياً، بل ومتشوقاً إلى أن يلقى الله عز وجل، وأن يستشهد.. وليس هذا كلام بلاغي ولا إنشائي، وإنما هو حقيقة، يتعامل معها المسلم.. أنه يؤمن بأن الله هو الحق، وأنه سيبعث الناس يوم القيامة ليسألهم عن أعمالهم، وأنه كلفهم في هذه الأرض بهذا الحق، وأن من يعصه فسوف يدخل النار، ومن يطعه فسوف يدخل الجنة.. فهو يتعامل مع واقع. ثم أمامه أحد أمرين: إما أن يموت، وإما أن يمكّن.. فأمامه إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة.. وهذا أيضاً يجعله مستعلياً إذا كان يقينه كبيرا بالحق.

نعمة الهداية من الله تقتضي الاعتزاز بالحق مع الرحمة بالخلق والرغبة في هدايتهم إلى الخير

"وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه.." ولا شك أن المؤمن داخل المجتمع الجاهلي يعيش في مجتمع يناقضه في كل شيء: العقيدة.. التصور.. القيم.. الأوضاع والموازين.. فإذا كان على يقين من أنه على الحق وأن غيره على الباطل فإنه **"لا يفارقه شعوره بأنه الأعلى، وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون. وينظر إليهم من علٍ في كرامة واعتزاز، وفي رحمة كذلك وعطف، ورغبة في هدايتهم إلى الخير الذي معه، ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه."**

فالمسلم وسط الجاهلية لا بد أن يشعر بأنه اختير من الله عز وجل ليطهره وينظفه ويكرمه، فلا بد أن يشعر فعلاً بأنه الأكثر نظافة، أو الأنظف على الإطلاق، والأعلى على الإطلاق، والأكرم على الإطلاق.. ولذلك لا يشعر أبداً أن هؤلاء فوقه، حتى ولو كانوا في مقام السلطة، وهو يعلم أن هذه مواقف لا تعطي لصاحبها قيمة ولا مقام..

"وينظر إليهم من علٍ في كرامة واعتزاز، وفي رحمة كذلك وعطف، ورغبة في هدايتهم إلى الخير الذي معه، ورفعهم إلى الأفق الذي يعيش فيه."

وكما قلنا في الفصل السابق: أن المسلم الداعية يدفعه شعور الحب وشعور الحرص وشعور الشفقة وشعور الواجب إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. من الشقوة إلى السعادة.. ومن الضلال إلى الهدى. فينبغي أن يكون هذا هو شعور المسلم دائماً، ومع إحساسه بأنه الأعلى، ومع اعتزازه بالحق الذي هو عليه، فإنه ينظر إلى هذه الجموع الشقية نظرة عطف ونظرة رحمة، وهو يبذل قصارى جهده وأقصى ما يستطيع ليهديهم ويرفعهم إلى الأفق الذي منّ الله به عليه.. هذا الشعور المزدوج؛ بين الاعتزاز بالحق والمفاصلة مع الجاهلية عليه، وبين الرحمة والعطف عليهم وبذل الجهد لإخراجهم من وهدتهم إلى قمة النجاة والعزة.. هذان شعوران متكاملان، ولا بد أن يشعر بهما المؤمن وهو يقوم بحق الدعوة والبلاغ..

معالم في منهج البلاغ

وكما قلنا إن هذا يقوم عليه منهج كبير ومتكامل.. كيف يتعامل المسلم وهو في هذا الواقع الجاهلي مع بقية الناس؟ قلنا إننا لا بد أن نصنع معابراً وجسوراً بيننا وبين هؤلاء الناس، فلا يمنع -كما قلنا في فصل "نُقلة بعيدة"- كون المسلم يعرف أنه على الحق، وأن ما من دونه على الباطل، وأنه حينما يخاطبهم سيكون صريحاً جداً معهم: أنكم على خبث ونحن جئنا لنطهركم، وأننا سنبدل أوضاعكم لا يمنعه ذلك من أن يكون رفيقاً بهم متواضعاً لهم في غير ذلة ولا خضوع.. فليس معنى أنه على يقين أنه على الحق وأنهم على الباطل وأنه الأعلى تصوراً ومنهجاً وشعوراً ليس معنى هذا أن يتعالى عليهم، أو أن يحتقرهم، أو أن يعاملهم بخشونة، أو أن يقطع كل حبال الصلة بينه وبينهم، لأن هذا يتناقض تماماً مع مهمته التي دعي إليها.. فإذا كانت مهمته هي إبلاغ الحق للناس فلا بد أن يبلغه كما أمره الله عز وجل ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤].

وهذه المصارحة التي تحدثنا عنها في النقلة البعيدة لا تعني أنها تكون في كل لحظة وفي كل وقت، وإنما لها مرحلتها، ولكن حينما اختار إنساناً لكي أبلغه الحق لا بد أن أسير معه في مراحل البلاغ والدعوة من نقطة البداية وحتى آتي إلى لحظة المصارحة هذه.. وليست المصارحة هي نقطة البداية، خاصة في مرحلة الاختيار الفردي.. وهي مرحلة الكتمان ومرحلة عدم إعلان الدعوة.. فلا بد أن يبدأ الإنسان خطواته هيناً وئيداً رفيقاً، يختار من يطمئن إليه، ويتكلم معه، وينقل خطوات من يدعوه بدقة شديدة، حتى لا يفتنه، وحتى لا يضله، فلا يحمله فوق طاقته، وإنما يوصله من نقطة البداية إلى نقطة النهاية برفق وهنية.. كما يفعل الزارع البسيط الذي يحرث زرعته ويرعاها منذ أن يبذرها، وهو يعلم أنها ستنمو، وإنما يرعاها ويدرجها بتؤدة ورفق...

فالتوازن بين هذين الخطين والجمع بينهما ضروري جداً في حياة الداعية. فوضوح الحق عنده، واعتزازه بالحق، ومصارحته للجاهلية بالحق، لا يعني عدم الرفق، وإنما عليه إيصال الحق لهم بالطريقة التي تجعلهم يفهمون ويسمعون، وتيسر لهم الرؤية والفهم والدخول في هذا الحق بسهولة، دون المساس بهذا الحق وبجوهره.

وحينما تكون الدعوة سرية، فإنها تحتاج دقة في اختيار الأفراد، ثم معرفة بكيفية تبليغهم الحق، وكيف ينقلهم من نقطة إلى نقطة، ليبني بناءً متكاملاً، يأتي في نهايته الوضوح الكامل والمطلق في كل شيء.

أما حينما تكون الجماعة المسلمة قد أعلنت، كما حدث في عهد رسول الله ﷺ عندما انتقلوا من السرية إلى العلنية، فإن المصارحة تكون واجبه من أول لحظة في الإعلان، ومن أول خطوة.. لأن الإعلان معناه الصدع بالحق صدعاً كاملاً، ولأن الإعلان لا بد أن يكون واضحاً منذ اللحظة الأولى، خشية إذا لم يكن الإعلان متكاملاً أن يصل جزء منه ولا تصل الأجزاء الباقية إلى الناس.. لكن حينما يعلن الداعية عن نفسه لا بد أن يقول كل شيء منذ اللحظة الأولى، ولا يخفي إلا أسراره الحركية.. لكن القضية ذاتها ليس فيها جمجمة.

فلا يجب أن يختلط علينا الأمر؛ فالصراحة لها وقتها ولها مرحلتها، وهي ليست في كل وقت ومع كل إنسان، خاصة في المرحلة الأولى -مرحلة كتمان الدعوة وسرية الاختيار وفرديته-

هذا التوازن مهم جداً، لأنه يمثل منهج البلاغ ومنهج التعامل مع الجاهلية، والتعامل مع الجاهلية له تفاصيل كثيرة.. لكن على المسلم أن يراجع فقهه الحركي في اختيار الأحكام التي تتناسب مع المرحلة، وتتناسب مع المواقف كما شرحنا في حديثنا عن المرحلية، فلكل مرحلة أحكامها، وأحكام كل مرحلة هي التي تحقق رضوان الله عز وجل عن المسلم في هذه المرحلة، حتى ولو لم تكن هي الحكم النهائي. فكل حكم يجتهد فيه ويتوافق مع المرحلة يجب أن يكون في حس المسلم أنه هو الحكم الذي يطالَب به في هذا الوقت، كما كان المسلمون ينقّلهم الله عز وجل بالوحي من حكم إلى حكم.. وكانوا في كل مرة يتصورون أن هذا الحكم هو الحكم النهائي في حقهم، حتى يأتي حكم جديد فيغير الحكم السابق، فيعرفون أنهم انتقلوا إلى حكم جديد يصير في حقهم هو الحكم النهائي الواجب.. وهكذا في كل مرة كانوا يحققون إيمانهم وإسلامهم وطاعتهم بهذا الحكم المرحلي.

فإذا كان المسلمون في وقتنا هذا -وقد اكتملت الشريعة، وأصبحت عندهم الأحكام النهائية موجودة- فلا يعني هذا أنهم ملزمون بالأحكام النهائية حتى وهم يعيشون في المراحل الأولى. فالمسلمون في هذا الوقت مطالبون أن يتتبعوا منهج الرسول ﷺ في بناء الإسلام منذ لحظة الصفر إلى لحظة النهاية، أو من لحظة التأسيس إلى لحظة الاكتمال.

وكوننا وُجدنا في وقت معنا فيه القرآن متكاملاً، ومعنا الشريعة متكاملة، لا يعني أننا حينما نبدأ من النقطة التي بدأ بها الرسول ﷺ أن نتحرك بنفس المعدل الذي سار عليه الرسول ﷺ، مع الاختلاف في الاجتهاد بسبب التشريعات التي تحدثنا عنها، من التكاليف الفردية والتكاليف الاجتماعية.. فكل مرحلة لها ضوابطها ولها أحكامها ولها تكاليفها التي تسعها المرحلة كما قلنا حينما تحدثنا عن المرحلية، فالاعتزاز بالحق لا يعني إلقاءه إلى الناس بلا ضوابط وبلا قيود وبلا مقدمات. وإنما ينبغي أن يكون متسماً بالحكمة، ومتسماً بالضبط التشريعي الحركي الذي يقرره الفقه الحركي للمسلم في هذه الآونة. فهذه النقطة المهمة تحدد منهج التعامل مع الجاهلية؛ القائم على إقامة الجسور، وعلى اللين في الكلام، وعلى البلاغ المتأدب الهادئ،

مع الوضوح الكامل في الحقائق التي تحتاج الوضوح من خلال نقل خطوات المدعوين إلى الخط النهائي لهذه الصورة المرتبة والمتأنية.

المؤمن يرى حقيقة الجاهلية من وراء الهالات الخادعة

وهذه نقطة ثالثة **"يضج الباطل ويصخب، ويرفع صوته وينفش ريشه، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشى على الأبصار والبصائر، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم، وفجر كالح لئيم.. وينظر المؤمن من علٍ إلى الباطل المنتفش، وإلى الجموع المخدوعة، فلا يهن ولا يحزن، ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه، وثباته على النهج الذي يتبعه، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين والمخدوعين."**

فالجاهلية تعتمد اعتماداً شديداً على الدعاية وعلى التهريج السياسي والإعلامي، بحيث يحيطون الطواغيت ويحيطون الباطل بالقوى المصطنعة والدعايات المصطنعة وبالطبول.. فكل هذا يؤثر في قلوب الجاهليين، فيسيرون وراء هالات العظمة المصطنعة هذه، والتي تخفي وراءها الوجه الكالح للجاهلية، والوجه الكالح للطواغيت، والوجه الكالح والدميم للباطل، فيضحكون على الجماهير المخدوعة بفتات من الإصلاحات الاقتصادية، أو من الإنجازات التقنية والتكنولوجية، أو من الهِبات المالية، أو من تجميل المدن.. فيظن الناس أن هؤلاء يعملون لمصلحتهم.. ثم من وراء هذا يبثون فيهم الأفكار الجاهلية بطريقة منهجية من أولى سنوات دراستهم وحتى يتخرجوا من الجامعة، وتتعاون على هذا الصحف والمجلات والتلفاز والإعلام، وكل شيء يتعاون في خداع الجماهير، بحيث يحاولون أن يقنعوهم أنهم يعملون لمصلحتهم..

والمؤمن حينما يرى هذه الخدع الكثيرة مع ما يصاحبها من تخويف وترهيب لكل من يخالف عن طريق الجاهلية ويخالف عن طريق الطواغيت، فإن المسلم وسط هذه الهالات المتضخمة المنتفشة.. يجد نفسه -للحظة- أنه ضعيف وسطها.

لا ينبغي للمسلم أن يُخدع، فهو يعلم جيداً أن وراء هذه الهالات الباطل، وأن وراء هذه الهالات القبح والدمامة والظلم والانحطاط، ووراءها أيضاً أنهم يقودون هذه الجماهير إلى هاوية جهنم، وإلى هاوية الانحطاط الإنساني في الدنيا قبل الآخرة.

فالمؤمن الذي هو على يقين من الحق كأنه يلبس نظارة مكبرة وعميقة تكشف له عن الدمامة والكلاحة والانحطاط وراء هذه الهالات السطحية، ويرى الحقيقة، ولذلك لا تستهوله هذه المحاولات الخادعة التي يخدعون بها الجماهير، وكما يقول الأستاذ سيد هنا **"وينظر المؤمن من علٍ إلى الباطل المنتفش، وإلى الجموع المخدوعة، فلا يهن ولا يحزن.."** لأنه يرى الآخرة، ويرى الله من وراء ذلك، ويرى النتائج التي ينتظرها المؤمن في الدنيا وفي الآخرة، ويعلم -أيضا- أنه لا يستطيع أن ينزل إلى المستنقع مرة أخرى بعد أن طهره الله منه **"ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه، وثباته على النهج الذي يتبعه.."** وأيضاً لا يؤدي به ضيقه من الجماهير المخدوعة، ومن انحطاطاتها، ومن سفالاتها، ولا ضيقه من طغيان الطغاة إلى أن يحيد عن مهمته الأساسية؛ وهو دعوة هؤلاء جميعاً إلى الحق، مع كل ما يراه من انحطاطهم وسفالاتهم وتجبرهم وطغيانهم.. فلا يمنعه هذا في كل وقت يتاح له أن يبلغهم الحق، كما كان الرسول ﷺ يفعل حينما يأتي إليه كبراء قريش، فيدعوهم إلى

الحق، ويلين معهم، كما فعل مع عتبة حينما جاءه فكلمه وظل يسمعه حتى انتهى، فقال له (أفرغت يا أبا الوليد)[٤].. ثم بدأ يكلمه ويدعوه إلى الإسلام، وكما كان يطوف على الوفود ويكلمهم، وكما دعى قومه وعشيرته الأقربين إلى أكثر من وليمة لكي يكلمهم عن الحق.

الاستعلاء بالحق لا التعالي على الخلق

فعلى الداعية ألا يضيق بجهل الجاهلين، ولا بغفلة الغافلين، ولا بانحطاط المنحطين، لأنه أصلاً جاء لهذه المهمة.. جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويخرجهم وينقذهم من المستنقع إلى هذه القمة.. لذلك لا ينبغي أن ينسى في غمار الضيق منهم ومن واقعهم.. لا يجب أن ينسى أنه رغم ذلك مطالب أن يقودهم وأن يهديهم إلى الحق.. فيتذكر دائماً أنه كان يوماً من الأيام واحداً منهم ﴿ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء: ٩٤].. فلا يتعالى المؤمن، وإنما يستعلي.. يستعلي بالحق، ولكن لا يتعالى على الخلق.. فالاستعلاء بالحق غير التعالي على الخلق. ولا بد أن يدرك المؤمن أنه أعلى بالحق وليس متعالياً على الخلق. فإذا جاءه أي أحد يريد أن يسأله أو أن يهتدي على يديه، أو يريد أن يعلم ما عنده، فعليه أن يتواضع، وأن يقف معه ليسمعه ويبلغه الحق..

فهذا وذلك لا يتعارضان.. إحساسه بالضيق من واقعهم ومما يكيدون له، وواجبه في إبلاغهم ما معه من الحق.. وحتى حينما يتناولونه بالضرر وبالأذى، فلا يمنعه ذلك وهو في بؤرة التعب والأذى والعذاب أن يدعوهم إلى الحق لعلهم يفيئون.

الاستعلاء على الشهوات والتطلع إلى الآخرة

"ويغرق المجتمع في شهواته الهابطة، ويمضي مع نزواته الخليعة، ويلصق بالوحل والطين، حاسباً أنه يستمتع وينطلق من الأغلال والقيود. وتَعزُّ في مثل هذا المجتمع كل متعة بريئة وكل طيبة حلال، ولا يبقى إلا المشرع الآسن، وإلا الوحل والطين.. وينظر المؤمن من علٍ إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين. وهو مفرد وحيد، فلا يهن ولا يحزن، ولا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف والطاهر، وينغمس في الحمأة، وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين."

فمهما رأى المؤمنون من صور المتاع الجاهلي الفاجر، وما يعيشه الفاجرون والكافرون من تيسيرات ومن راحة ومن متعة، وأنهم ينطلقون بحرية لا يعملون حساباً لأحد، ولا يخشون شيئاً، فينطلقون يحققون لذاتهم براحة وبطمأنينة، ويجد نفسه وهو صاحب الحق خائفاً وحيداً يعمل ألف حساب لكل خطوة ولكل كلمة ولكل لفتة ولكل زيارة ولكل عمل.. فلعله في لحظة يزين له الشيطان: لماذا لا تنغمس معهم فيما ينغمسون فيه، وتعيش طليقاً حراً من كل هذه القيود، ومن كل هذه المخاوف، ومن كل هذه المتاعب؟ ساعتها يجب أن يتذكر الحقَّ الذي علِمَه وآمن به، وأن هؤلاء مهما كانوا يستمتعون فهي متعة الحيوان ومتعة الأذلاء، وهي متعة وقتية سيحاسبون عليها حساباً عسيراً حينما يكون المؤمنون سارحون في جنات النعيم وهؤلاء قابعون في نار

٤ أخرجه ابن اسحق في السيرة، ورواه ابن كثير في تفسير سورة فصلت.

جهنم والعياذ بالله.. فيحس المؤمن أنه لا يستطيع أن ينغمس مع هؤلاء في هذا المستنقع وفي هذه الوهدة، ولا يندم أبداً أنه محروم ولا أنه ممنوع عليه أن يتناول من المتع ما يتناولون. فالمؤمن يخلف الأرض كلها وراءه، وينتظر مقام الآخرة (عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، وينتظر الجزاء الوفير يوم القيامة، وهو يعلم أن الأرض وتاريخ الأرض والدنيا كلها كلحظة من لحظات الآخرة، فيصبر على هذه اللحظة وما فيها من تعب، ليتطلع إلى المتاع الذي ينتظره في الآخرة، فتهون عليه الدنيا.. ويهون عليه الوقت، ويهون عليه الزمن، ويهون عليه العذاب، ويهون عليه الحرمان.. ويتطلع إلى هذا الأفق الرائع العطر ليعيش فيه.. وهو قريب.. أقرب إلى أحدكم من شراك نعله.. فالموت أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، وهو سينتقل بالموت من هذه الدنيا إلى الآخرة.. أما إذا كانت الأخرى -والعياذ بالله- فسينتقل من الدنيا.. من النعيم إلى الجحيم، لأنه إذا كانت الدنيا بالنسبة للمؤمن سجن فهي بالنسبة للكافر أعظم نعمة وأعظم راحة، لأن ما ينتظر الكافر بعد ذلك هو أشد مما ينتظر المسلم، فالمسلم يعيش في سجن، وينطلق بعد أن يموت إلى روضات النعيم.. بينما ينطلق الكافر من النعيم إلى العذاب والعياذ بالله.

فإذا كان المؤمن موقناً بهذه الحقيقة فهو يلاقي كل ما في الأرض من عذاب وحرمان باستهانة واستعلاء، ثم إن الفارق -حقيقة- بين أغنى غني وأفقر فقير ليس فارقاً ضخماً، لأن كلاهما يعيش، وكلاهما يأكل، وكلاهما ينام.. فالفارق في الدنيا بسيط جداً، ولكن الفارق هناك هائل جداً؛ بين خلود في جنات النعيم ورؤية لوجه الله الكريم، وبين الكفار الذين يعيشون وقد أطبقت عليهم أبواب جهنم، وقيل لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].. فالفارق هائل، ولذلك فالمؤمن مهما رأى من أنواع المتاع في الجاهلية لا يجوز أن يتطلع إليها، ولا أن يشتاق إليها، ولا أن يتمناها.. فمجرد تمنيها يُعد نزول بنفسه إلى مرتبة البهائم والتي لا ينبغي أن يرضى به.. لأن الله قد أكرمه وفضله..

لكن هذا لا يمنع من طموحات المؤمن بالحلال، فيستطيع المؤمن بالطريق الحلال أن يكون من الأغنياء، وأن يستمتع بالطيبات، وأن يتمتع بكل متع الأرض في نظافة وفي طهارة. وينبغي أن يكون هذا واضحاً في حس المؤمن؛ أنه لا يمنعه هذا من الطموح في أمور الدنيا إذا جاءت له من حلال، وليست على حساب أولويات الدعوة، وأولويات الجماعة، وأولويات الحق. ونحن قد تكلمنا قبل ذلك في هذه الموازنة.. الموازنة بين رغبات الإنسان والطيبات الحلال وبين قيامه بالواجب الأساسي والأول، فلا بد أن يرتب الأولويات، ولا بد أن يطمح في نفس الوقت أن يكون هو الأعلى، حتى في أمور الدنيا إذا استطاع، فهذا لا يعيبه مادامت الدنيا خادمة للحق، ولكن لا يجوز للمؤمن أن يتبرأ من الدنيا، أو يتصوف، كما فعل المتصوفة الذين أساؤوا إساءة هائلة إلى دين الله عز وجل، فكل ما خلفه لنا التصوف من تصورات مريضة حول الدنيا والتعامل مع الطيبات هو تصورات مريضة تؤدي إلى عكس ما يريده الله عز وجل، وتؤدي إلى انتفاء الطموح الإنساني الذي يريد الله عز وجل أن يتحلى به المؤمن. فالتمتع بالطيبات لا يتناقض مع الإيمان، ولا يتناقض مع النظافة، ولكن على أن يكون من خلال الوسائل المشروعة، وعلى ألا يكون على حساب الواجبات الأسبق والأعلى.

الاستعلاء على سخرية الساخرين

"ويقف المؤمن قابضاً على دينه كالقابض على الجمر في المجتمع الشارد عن الدين، وعن الفضيلة، وعن القيم العليا، وعن الاهتمامات النبيلة، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل.. ويقف الآخرون هازئين بوقفته، ساخرين من تصوراته، ضاحكين من قيمه.. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل إلى الساخرين والهازئين والضاحكين، وهو يقول كما قال أحد من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الإيمان العريق الوضيء، في الطريق الرحب الطويل.. نوح عليه السلام.. ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨]...

وهو يرى نهاية الموكب الوضيء، ونهاية القافلة البائسة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۞ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۞ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۞ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۞ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦]..؟"

هذا بيان وإخبار من الله عز وجل، وهو الصدق. والله أصدق الصادقين سبحانه وتعالى يبلغنا: هكذا ستكون نهاية هؤلاء الضاحكين والمستنكرين، ونهاية هذه الجاهلية برمتها، ونهاية موكب المؤمنين برمته، في هذا الوصف الرائع المصور، فترى المشهد الأول.. كأنه ريشة ترسم ملامح الكفار وهم يضحكون من المؤمنين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٢٩].. ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠].. يتغامزون على المؤمنين وهم يمرون أمامهم. ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١].. ويتضاحكون.. ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۞ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين: ٣٢-٣٣]..

ثم يصور الواقع الآخر في المشهد الثاني ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤].. ومن ضحك أخيراً ضحك كثيراً كما يقولون ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٣٥].. في جنة عالية رفيعة ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين: ٣٦].. ويترك الإجابة يعلمها الناس من خلال نظرتهم إلى الأمر.

"وقديماً قص علينا القرآن الكريم قولة الكافرين للمؤمنين: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم: ٧٣].." وهي مقاييس الكفر الباطلة التي تدل على سفاهة العقل والكبر، فيظن الكفار أن الأغنى والأقوى والأكثر أتباعاً هم خير مقاماً وأحسن ندياً..

"أي الفريقين؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد؟ أم الفقراء الذين يلتفون حوله؟ أي الفريقين؟ النضر بن الحارث، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، وأبو سفيان بن حرب؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر، الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر، وهم يجتمعون في بيت متواضع كدار الأرقم، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة، والمجد والجاه والسلطان؟!

إنه منطق الأرض، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان. وإنها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الإغراء، لا قربى من حاكم، ولا اعتزاز بسلطان، ولا هتاف بلذة، ولا دغدغة لغريزة. وإنما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد.. ليقبل عليها من يقبل، وهو على يقين من نفسه أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس، ومن دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات، ولينصرف عنها من يبتغي المطامع والمنافع، ومن يشتهي الزينة والأبهة، ومن يطلب المال والمتاع، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزناً حين تخف في ميزان الله."

هذه مقاييس الإيمان، وهذه مقاييس الأرض.. مقاييس المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان.. وهذه مقاييس العارفين بالحق، العارفين بالله، الذين اختاروا الله عن علم وعن حب وعن رغبة وعن إصرار. ومن حكمة الله أن يجعل الدعاة مجردين من كل ما يغري الناس.. ولعل من الحكمة الواضحة في أن قريشاً لم تؤمن برسول الله ﷺ لأنها لو آمنت بمحمد ﷺ لقال بقية العرب: ابن من أبنائهم تعصبوا له كتعصب القبائل لأبنائها، فيمتنعون أن يؤمنوا بمحمد، لأن محمداً هو ابن قريش، وقريش ستأخذ المجد كله وتسود عليهم فيتعصبون هم أيضاً ضد قريش. ولكن شاء الله أن تقف قريش ضد أبنائها، وأن يطردوه من بلدهم، ويحاربوه، ويحاولوا قتله، لكي يظهر بجلاء لكل الناس أن هذا الحق خال تماماً من كل عصبيات الجاهلية، ومن كل زينات الجاهلية، ويقف أعداء قريش التقليديين من الأنصار من خزرج وأوس مع محمد، لكي يخلو الإيمان من كل زينة، ويكون الذين آمنوا قد آمنوا بمحمد ﷺ وهو من قريش، ولكنهم آمنوا بالحق الذي يمثله محمد ﷺ، ولم يؤمنوا بمحمد الفرد، وإنما آمنوا بمحمد الرسول الذي جاء بالحق، وتخلّوا عن عصبياتهم، وتخلّوا عن كل زينة الأرض، وبايعوه على أن يفقدوا كل شيء ولهم الجنة. فحكمة الله واضحة في تجرد العقيدة وأصحابها من كل الزينة والطلاء، ومن كل عوامل الإغراء، لكي يدخل الناس الإيمان عن رغبة في الحق ورغبة في الله عز وجل.

"إن المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس.." إنما قيمه وتصوراته وموازينه مستمدة من الله، ومتصلة بالله عز وجل. وهو يتصل بالله، ويأخذ قيمته من الله. ولذلك لا يهمه إن قدّره الناس أم لم يقدّروه. فهو عند الله كريم، ويكفيه أن يكون كريماً عند الله. ولذلك لا يضيق باستهزاء الناس به، ولا بحربهم له.. فقد حورب الرسل جميعاً، واستُهزئ بالرسل جميعاً، واتهموا بالجنون والكذب، لكن هذا لم يقلل من قيمتهم. بل كان الجاهليون يفعلون ذلك وهم يعرفون في قرارة نفوسهم أن هؤلاء الأنبياء أكرم منهم. وهكذا أتباع الحق في كل زمان.

"إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه.. إنه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق.." فمادامت مقاييسه وقيمته ليست مرتبطة بشهادات الخلق، لذلك فهو لا يجري وراء شهوات الخلق المتأرجحة.. إنه لا يستمدها من هذا **"إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل.. إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود، إنما تنبثق في ضميره من ينابيع الوجود.."** فالإنسان المؤمن أعلى لأنه ينتسب إلى الله عز وجل.. وهو أعلى دائماً، والجاهلية أدنى دائماً.. **"فأنَّى يجد في نفسه وهناً أو يجد في قلبه حزناً، وهو موصول برب**

الناس وميزان الحق وينابيع الوجود؟" لا يجد في نفسه وهنا ولا حزنا، بل يجد استمتاعا بهذا الضعف وبهذا العذاب لأنه دليل على أنه في جيش الله وفي دين الله عز وجل.

ولقد كان أحد الذين يعذبون في السجن يغمره إحساس بأنه من جند الله وكان هذا الإحساس يجعله مستهيناً جداً بكل العذاب الذي حوله.. كان يشعر أنه ما وضع في هذا المكان إلا لأنه من جند الله، وما سلط هؤلاء القوم عليه إلا لأنهم بغضاء إلى الله عز وجل. فكان يستمد من ذلك الإحساس هذا الشعور الأعلى والمستهين والراضي بكل ما يجري عليه.. ويكفيه أنه من جند الله، وهؤلاء أعداء الله.. فلم يعد يخشاهم، ولم يعد يضيق بهم، ولم يعد لتعذيبهم عليه وقع.. فكان يستعجل لحظات الموت ليصل إلى الله وإلى جنة الله. فهذا الشعور حينما يصل إلى قلب واحد من الناس لا يبقى فيه وهن ولا حزن على الإطلاق.

إنه على الحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

"إنه على الحق.. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وليكن للضلال سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، ولتكن معه جموعه وجماهيره.. إن هذا لا يغير من الحق شيئاً، إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال، ولن يختار مؤمن الضلال على الحق -وهو مؤمن- ولن يعدل بالحق الضلال كائنة ما كانت الملابسات والأحوال.."

ولا شك أن هذا لا يحدث أبداً إلا مع مؤمن مستيقن.. عاش بهذا الحق وقت الرخاء.. فلما واجه المحنة لم يكن محتاجاً إلى عمل حسابات جديدة، ولا استدعاء أسلحته، إذ كان مسلحاً وجاهزاً تماماً، فلما دهمته المحنة لم يكن ضعيفاً، فلم يهن ولم يحزن.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٨-٩].

جماعة الصادعون بالحق

الفصل الثاني عشر

شروح

كتاب

معالم في الطريق

هذا هو الطريق

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١
قصة أصحاب الأخدود: وقفات ودروس للدعاة في طريق الحق........................ ١
استعلاء الإيمان في مواجهة تجبر الطغاة.............................. ٢
الابتلاء في سبيل الحق سنة جارية ٣
عزة المؤمن في التحرر من العبودية للحياة ٣
ارتكاس فطرة الطواغيت وأتباعهم.................................. ٦
ارتقاء أرواح المؤمنين إلى قمة تُشَرِّف البشرية ٨
كيف نقيس الحقائق بعيدا عن حسابات الأرض القاصرة؟ ٨
الدرس الأول: المعنى الحقيقي للنصر.................................. ٩
الدرس الثاني: مجال المعركة ١٧
الدرس الثالث: حقيقة الدنيا والآخرة.................................. ١٨
الدرس الرابع: النهاية الحقيقية للمعركة ١٩
مقارنة بين نظرتين ١٩
طبيعة الدعوة إلى الله وموقف الداعية أمام كل احتمالاتها المختلفة.................. ٢٥
لم يكن بد من نموذج أصحاب الأخدود.................................. ٢٦
العبودية الحقة لله ٢٦
الجزاء الحقيقي للمؤمن.................................. ٢٧
التوجيهات القرآنية والتربية النبوية رفعت الجيل الأول إلى القمة السامقة، فما هو واجبنا؟........... ٢٨
الشعور بقدر الله في قلوب المؤمنين ٣٠
متى نكون أمناء على الحق؟.................................. ٣١
هنا فقط يتحقق وعد الله بنصر المؤمنين!! ٣٢
حقيقة المعركة بين المؤمنين وخصومهم: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾........ ٣٤
انتبهوا إنهم يموهون الراية.................................. ٣٥

هذا هو الطريق

مقدمة

نتحدث الآن عن الفصل الأخير في هذه المجموعة من المعالم، وفي نهايته يسدل الستار بعد أن رسمت لنا المعالم صورة واضحة للطريق كله من بدايته إلى نهايته. ويخرج الإنسان بعد هذه الرحلة الطويلة مع هذا الكتاب وهو يرى رؤية جديدة لكل شيء، تخالف تماماً كل ما كان يراه ويشعر به من قبل.

وكما قلنا في أول حديثنا مع الكتاب؛ أنه يفرض على قارئه أن يأخذ منه موقفاً، وأن يحدد منه رأياً وتصوراً.

هذا الفصل الأخير يجسد لنا ثمرة اليقين، ويوضح لنا ما تفعله العقيدة في القلوب حين ترتفع إلى مستوى، فيه من الإصرار والثبات، ومن الاستعلاء والصبر، ومن التحمل والتحرر من كل خوف ومن كل ترهيب وترغيب، ابتغاء وجه الله وحده سبحانه، تحقيقاً للعبودية له وحده سبحانه المستحق للربوبية والألوهية.

فهذا الفصل الأخير هو الملخص النهائي لكل الحقيقة التي ينبغي أن يعيش من أجلها الإنسان. ولعل العنوان: **(هذا هو الطريق)** هو مؤشر وعلامة لهذا الطريق، يشير بها رائد هذا الحق الذي نحن عليه في هذا العصر، يشير إلى الطريق بيقين وثقة وثبات؛ هذا هو الطريق، والرائد لا يكذب أهله، فهو يوجهنا إلى الطريق الحق بعد ما استيقنَّا هذه الحقيقة من خلال العرض الطويل الذي سبق في الفصول السابقة.

وكما قلنا في الفصلين السابقين أن ما يريد أن يقوله الأستاذ سيد رحمه الله واضح جداً في هذه الفصول، حتى أن الإنسان لأول وهلة يحس أنه لا يستطيع أن يضيف شيئاً ولا شرحاً لما قاله، لأن ما يريده شديد الوضوح، وقد بذل جهداً واضحاً في البيان والإنارة الشديدة للحقيقة التي يريد أن يتكلم عنها. ولكن الإنسان بعد أن يقرأ كلمات الأستاذ سيد عدة مرات يجد أنه من الممكن أن يقف أمام بعض العبارات أو بعض الحقائق ليمد إشعاعاتها إلى بعد أبعد، أو جذورها إلى عمق أعمق.

ونحن حين نعرض هذا الفصل الختامي نسأل الله أن يوفقنا إلى عرض يبين ويؤكد الحقيقة التي يريدها صاحب الكتاب إن شاء الله.

قصة أصحاب الأخدود: وقفات ودروس للدعاة في طريق الحق

يبدأ الفصل بآيات سورة البروج؛ تلك السورة التي تتحدث عن أصحاب الأخدود، وتلك النار التي أوقدوها ليحرقوا بها المؤمنين، الذين لم يكن لهم جريمة إلا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد، ويبين ما حدث لهؤلاء، وكيف ثبتوا أمام الفتنة، ويبين مآل الذين

يفتنون المؤمنين والمؤمنات، ومآل الذين آمنوا وثبتوا على الحق، ويبين أن الله سبحانه وتعالى لن يضيع إيمان هؤلاء، ولن يترك أولئك المجرمين بعيداً عن بطشه الشديد، فهو الذي يبدئ ويعيد، وهو الغفور الودود.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۞ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۞ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۞ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۞ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۞ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۞ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۞ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۞ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۞ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۞ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۞ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١-١٦]..

"إن قصة أصحاب الأخدود -كما وردت في سورة البروج- حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل، فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها.. كان يخط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع -وهو أوسع رقعة من الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا-.."

استعلاء الإيمان في مواجهة تجبر الطغاة

فالذي يقف على آيات سورة البروج، ويحاول أن يتصور ذلك المشهد الأسيف، الذي يساق فيه المؤمنون رجالاً ونساءً وأطفالاً وشباباً إلى النار لكي يحرقوا، ويقف أصحاب الأخدود الأشقياء يتلذذون بهذا المشهد، ويرى كيف صبر أولئك المؤمنون، وكيف استعلوا بإيمانهم، وكيف كانت نهايتهم، وكيف كانت نهاية هؤلاء المجرمين أيضاً، الذين لم يذكر القرآن عن مصيرهم شيئاً، وكأن المؤمنين قد سيقوا إلى حتفهم بهذه الصورة وظل المجرمون ناجين لم يحدث لهم شيء. لا شك أن الذي يقف عند هذه الصورة المؤلمة التي تفوق كل ما يمكن أن نتصوره من صور العذاب الكثيرة التي يستعملها المجرمون في إيذاء وتعذيب المؤمنين بهذا الدين، صورة الأخاديد المحفورة في الأرض، والتي تشتعل ناراً، ثم يؤتى بهؤلاء المؤمنين وقد قيدوا بالحبال ليرموا في هذه النار، فيظلون صابرين، ولا يترخصون، ولا ينهزمون، ويموت الصغير والكبير وهو مصر على هذا الحق؛ لا شك أنها صورة تبعث في قلب كل إنسان مؤمن أسى عميقاً، وعطفاً شديداً على هؤلاء، ولكنه من خلال هذا الموقف الرائع يحس بعظمة الإيمان الذي تصنعه العقيدة في قلوب الصادقين حينما يبتغون وجه الله سبحانه وتعالى وحده.

قصة أصحاب الأخدود كما أوردها القرآن في هذه السورة الكريمة **"كان يخط بها خطوطاً عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع -وهو أوسع رقعة من الأرض، وأبعد مدى من الحياة الدنيا -وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق، ويعدُّ نفوسهم لتلقي أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور."**

وكما يقول الأستاذ سيد **"إنها قصة فئة آمنت بربها، واستعلت حقيقة إيمانها. ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشين مستهترين بحق "الإنسان" في حرية الاعتقاد بالحق والإيمان بالله العزيز الحميد، وبكرامة الإنسان عند الله عن أن يكون لعبة يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها، ويتلهون بمنظرها في أثناء التعذيب بالحريق!**

وقد ارتفع الإيمان بهذه القلوب على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة، ولم تفتن عن دينها، وهي تحرق بالنار حتى تموت."

الابتلاء في سبيل الحق سنة جارية

ولا شك أن هذه هي قصة الإنسان في الأرض؛ الابتلاء في سبيل هذا الحق. وأن الله حينما خلق الإنسان قد خلقه ليكون عبداً له، وجعل الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، وأن الإنسان ينبغي أن يعلم أنه معرض للابتلاء بأي صورة من الصور، من أيسرها إلى أشقِّها، ليتبين الصادقون من الكاذبين، والمؤمنون من المنافقين، وهذا قانون سنه الله عز وجل:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

قصة أصحاب الأخدود تمثل قمة الابتلاء، وقمة الإيمان أيضاً. حيث إن هؤلاء المؤمنين، وهذه الجموع التي سيقت قد ارتفعت كلها إلى مستوى الاختبار، أو مستوى الابتلاء، وانتصرت فيها العقيدة انتصاراً صادقاً وحقيقياً على الحياة، وعلى حب الحياة، وعلى الخوف، وعلى كل ما يجعل الإنسان يضعف أمام التهديد، بل أمام التحريق. فهي لا شك تمثل قمة التعذيب والاضطهاد، كما تمثل قمة الارتفاع والانتصار..

وهذه هي قصة الإنسان. وينبغي أن يفهم الإنسان أنه لم يخلق للمتاع في هذه الأرض، ولم يخلق للاستقرار، ولم يخلق لكي يخلد في هذه الأرض، وإنما خلق ليُبتلَى. بينما الجزاء سيأتي بعد ذلك تبعاً لهذا الاختبار، ولنتائج هذا الاختبار.

عزة المؤمن في التحرر من العبودية للحياة

"لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها."

تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة.. فما هي العبودية للحياة، وما معنى ذلك؟

لا شك أن الحياة مليئة بكل ما يحبه الإنسان، وما يرغبه، وما يأمله، وما يحب أن يعيش من أجله. ليست العبودية للحياة هي فقط الخوف من الموت والرغبة في أن يظل حياً. ولكن يُقصد بالعبودية للحياة؛ العبودية لكل ما في الحياة من متع وجواذب وإغراءات وطموحات لدى الإنسان، فالإنسان محاط بشبكة هائلة جداً من الطموحات والرغبات التي تستحثه باستمرار ليجنيها ويجمعها، وهو يعمل ليل نهار لكي يحصل على هذه الرغبات وهذه الطموحات؛ سواء كانت مالاً، أو قوة، أو سلطاناً، أو

منصباً، أو شهوات وغرائز، أو أولاد وزوجات، أو أرض ومال، أو تخليد في الذكر.. وهكذا.. فالحياة مليئة بالرغبات الكثيرة التي تعبِّد الإنسان الغافل لها وتصرفه عن العبودية لسيده ومالكه الحق سبحانه.

وكما قال لنا رسول الله ﷺ (تعس عبد الدينار.. تعس عبد الدرهم.. تعس عبد القطيفة.. تعس عبد الخميصة)[١]. فالإنسان يتعبد، ويُعبِّد نفسه لأشياء كثيرة جداً في الحياة يمكن أن تصده عن سبيل الله عز وجل.. وأمر واحد فقط من هذه الأشياء يمكن أن يعبد الإنسان تماماً، ويصده ويحجزه عن أن يستجيب لأمر الله عز وجل.. فمن أجل امرأة يمكن أن يغير الإنسان دينه.. من أجل المال يمكن أن يذل نفسه ويذل كرامته.. بل قد يتنازل عن عرضه في سبيل منصب أو مال. وكثير من الطغاة كانوا يشترون كرامات الرجال ويعتدون على أعراضهم -بعلمهم- من أجل منصب أو نجاة من اضطهاد.. وهذا كله عبودية للحياة.

فلا يستعظمن أحد منا أن ينسى نفسه في لحظة من اللحظات أمام أحد الإغراءات، فيستذله ويعبده للحياة، أو لجانب من جوانب الحياة. فالإنسان يمكن أن يترك الطريق خوفاً على أولاده أو على زوجته.. كيف أدخل السجن؟! كيف أدخل المعتقل؟ كيف أموت؟ من الذي سيرزقهم؟ من الذي سيرعاهم؟ فيُفتَن، كما فُتِنَ كثيرون كانوا معنا وراء القضبان من أجل أولادهم، أو من أجل زوجاتهم، أو من أجل الحرية لذات الحرية، أو من أجل الكرامة لذات الكرامة -كما يظن- أشياء كثيرة جداً يمكن أن تسحب أحدنا إليها، ونترك الطريق، ويزين لنا الشيطان أن هذا منطقي.. وأن هذا طبيعي.. فكيف أترك أولادي يجوعون؟ وهل الإسلام يوافق على هذا؟ أستطيع أن أدعو إلى الله وأُبقي على أولادي.. لماذا لا أخرج وأؤيد؟ والتأييد مجرد كلمات لا قيمة لها، فأؤيد وأكتب للظالم والكافر ثم أخرج لأولادي، وحدث في الواقع العملي أشياء كثيرة من هذا الأمر. ويمكن أن يترك الإنسان الطريق أيضاً من أجل غضبة يغضبها.. من أجل ذاته وتضخم هذه الذات، فيرفض الجماعة ويرفض الحياة مع الجماعة من أجل غضبة لنفسه أو لكرامته! أو لرجولته! أو لزوجته!

فالعبودية للحياة معنى كبير وواسع جداً.. ويمكن للإنسان أن يستدرج إليه، وقد لا يحس بهذا الاستدراج تحت وطأة المحنة وتحت وطأة التعب، فيزين له الشيطان الأمر بتدرج بطيء، فيصل إلى نهاية المنزلق وهو لا يحس أنه قد انزلق في الهاوية.

هذه القلوب التي عاينت الحريق لم تستعبدها الحياة، وإنما طلقوا الحياة تماماً ورموها وراء ظهورهم، وكانوا ينظرون إلى شيء واحد.. إلى الله عز وجل، فهذا الحريق سيقربهم إلى الله، وهذا الحريق سينهي حياة الفتنة وحياة البلاء، وسينطلق بهم الانطلاق الحقيقي.. إلى رحابة الآخرة، وإلى رحابة رضوان الله **"فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة.."**.

كثيرون جداً يعتقدون أن البقاء والدفاع عن الحياة هدف في ذاته، وأن الإسلام قد أباح للمُكرَه وللذي يعرَّض للعذاب أن ينطق بكلمات الكفر، فيستسهل هذا، ويرجع بسرعة عن كل شيء من أجل البقاء، ويقول إن هذا إكراه.. بينما الأصل في الإسلام هو العزيمة أي أن يموت الإنسان من أجل العقيدة.. فالعقيدة وحدها هي التي يجعلها الإسلام فوق الحياة ذاتها، وفوق كل شيء، فتَرخُص الحياة، وترخص الدنيا كلها، وترخص الكرامة، ويرخص كل شيء في سبيل العقيدة. والأصل أن يموت الإنسان

١ أخرجه البخاري في الصحيح من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

في سبيل العقيدة، وليس الأصل أن يترخص في العقيدة.. فالذي يجب أن يحرص عليه المؤمن -لو استطاع- هو أن يصبر ويصابر حتى يموت في سبيل الله، دون أن ينطق كلمة الكفر، ودون أن يتلوث لسانه ولو ظاهراً للحظات بكلمة الكفر.

ولكن الشيطان يأتي في لحظات المحنة والمرء تحت لذعة التعذيب فيكبر أمامه فكرة رخصة الإكراه والنطق بكلمة الكفر، ويسهل له -تحت ضربات التعذيب- أن يقول كما يريد الطغاة من بذاءة؛ سواء في ذات الله، أو في العقيدة، أو الطريق، أو في القيادة، أو أي شيء آخر، ويرى أن هذه رخصة يترخص بها، ويستند في هذا إلى تلك الرخصة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى للمسلمين حينما يصلون إلى نقطة عدم القدرة على الاحتمال، وقلبهم مطمئن بالإيمان..

ولا شك أن هذا ليس هو الأمر الأحسن، ولكن الإنسان الذي يموت في سبيل الحق هو ذلك الذي نصر الحق نصراً حقيقياً، ونصر الله نصراً حقيقياً..

فهذه القلوب والنفوس التي عاينت الحريق ودخلته لم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة. وهناك طرق ولا شك أقل ضراوة من هذا الحريق.. الإغراق في البحر.. الخنق.. الضرب بالرصاص.. كلها أهون من الحريق.. لحظات وتنتهي... لكن الحريق بشع.. النار بشعة العذاب شكلاً وموضوعاً.. فلا شك أن الامتحان كان امتحاناً قاسياً جداً، وكان الابتلاء عنيفاً جداً. ورغم ذلك تحرر هؤلاء، وارتفعت قاماتهم، فاستهانوا بهذه النار الموقدة، وثبتوا في مواجهتها، وماتوا من أجل الله وفي سبيله وإعلاء كلمته.

"وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً.." لا شك أن (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[٢] ، وأن الإنسان المؤمن في هذه الدنيا سجين.. سجين بالنسبة لما ينتظره في الآخرة.. من رؤية وجه الله، والعيش مع النبيين والصديقين والشهداء، وأن يحيا حياة لا تعب فيها ولا نصب، أن يعيش بالحق ليل نهار، حياته كلها تسبيح، وأنفاسه كلها تسبيح، وفي الجنة..

فلا شك أنه في الأرض حبيس.. حبيس شهواته، وحبيس ضعفه، وحبيس النصب والتعب من أجل لقمة الحياة، وحبيس الخوف من الطغيان.. وهكذا. فالإنسان المؤمن حينما يحس أن هناك طريقة تطلقه من أسر الأرض ومن طغيان الأرض ومن جدران الأرض إلى رحابة البقاء الرباني.. ورحابة الحياة الحقيقية والحرية الحقيقية والعزة الحقيقية في الجنة.. ورحابة الشوق إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه سيحس أن هذا الأخدود المشتعل ناراً هو طريق إلى الحرية.. طريق إلى الانطلاق.. طريق إلى السيادة والعزة.. طريق إلى النعيم المقيم الخالد.. طريق إلى رؤية وجه ربه سبحانه وتعالى.

فلا شك أن الانطلاق من قيود الأرض وجواذبها هو الذي يدفع المؤمن إلى أن يصمد على العذاب، وكما يعبر القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠].. ولا شك أن كل هم الإنسان في الأرض أن يصل إلى هذا الملك الكبير.. ملك في جميع الاتجاهات.. طمأنينة، ونعيم مادي، ونعيم روحي، وملك ولباس وقصور، وحياة رائعة جداً.. ملك حقيقي.. فالإنسان في الأرض يتعب كثيراً ليصل إلى أشياء حقيرة يقول عنها أنها ملك؛ بناء أو ثياب أو منصب.. كلها أشياء

٢ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

حينما تقارن.. بل حين يقارن ملك الأرض كلها من أول خلقها إلى أن تنتهي بلحظة من لحظات الجنة فستبدو تافهة وحقيرة جداً، مع ما يلابسها من آلام ونصب وعذاب وخوف من الضياع...

فهؤلاء انطلقوا.. انطلقت أرواحهم من قيود الأرض وجواذبها جميعاً حينما عاشوا في هذه المشاعر.. وهذه حقيقة، وليست مجرد تصورات مؤقتة تساعدهم على التغلب على اللحظات العصيبة.. هي حقيقة يرونها بقلوبهم، ويرونها بأعينهم، كما عبّر الصحابي في غزوة أحد، والذي كان يقول: "إني لأجد ريح الجنة دون أحد".. حقيقة كان يشم ريح الجنة، فانطلق ليقاتل، لأنه أحس بالانطلاق من قيود الأرض وجواذبها جميعاً.

"وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها.." ولا شك أن الإنسان إذا أراد أن يكون أعز ما يكون فعليه أن يحافظ على عقيدته أمام من يريدون أن يعبدوه لأهوائهم. فإذا أصر الإنسان على إرضاء الله عز وجل وعلى العقيدة الحقه في قلبه، وضحى بنفسه وبالحياة كلها من أجلها.. فهذا ارتفاع على ذات نفسه، وعلى كل شيء في سبيل العقيدة.

فلا شك أن هذه القلوب التي عاينت هذا الحريق قد تحررت.. **"لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعاً، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها."** وخرجت من السجن إلى رحابة الحرية الحقيقية.. وهذا هدف رائع وغاية رائعة، لو تيقنها الإنسان ليسرت عليه كل شيء، ولجعلته ملكاً في الأرض قبل أن ينتقل إلى الجنة، ولجعلته إنساناً لا تستعبده أي قوة في الأرض، ولا أي إغواء ولا إغراء ولا إرهاب في الأرض، لأنه طليق بإصراره وبعزيمته.. وبرؤيته للنهاية المسفرة والرائعة التي يراها بعين قلبه وبصيرته.

ارتكاس فطرة الطواغيت وأتباعهم

"وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيِّرة الرفيعة الكريمة كانت هناك جبلات جاحدة شريرة مجرمة لئيمة. وجلس أصحاب هذه الجبلات على النار. يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون. جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناسي الكرام يتحولون وقوداً وتراباً. وكلما ألقي فتى أو فتاة، صبية أو عجوز، طفل أو شيخ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربدة السعار المجنون بالدماء والأشلاء!"

وكأنها وصية يتواصون بها في أجيال البشرية كلها حينما تنحرف.. هكذا كان يفعل الرومان.. يتلذذون بمنظر العبيد حينما يصارعون الوحوش المفترسة، ويصفقون ويهللون كلما تمزقت الأوصال وانبثقت الدماء وتقطعت الجلود، ويخرجون في نهاية هذا المشهد وقد أحسوا باللذة التي يجدونها وهم يشهدون هذا المنظر البشع.. ولا شك أن هذه النفوس الشريرة الجاحدة المريضة الشاذة.. لا شك أنها أشد انحطاطاً وأشد قسوة من الحيوان المفترس، لأن الوحش -كما يقول الأستاذ سيد بعد قليل- يفترس ليقتات لا ليلتذ بآلام الفريسة في لؤم وخسة.

لكن هؤلاء المجرمين، سواء في الماضي أو في الحاضر، كالذين يعذبون المؤمنين الآن في السجون بكل أنواع التعذيب، وهم يشربون الشاي، ويتضاحكون ويتبادلون النكات التي يسمعها هؤلاء المعذبون، وتقدم لهم الأطعمة الشهية وهؤلاء المعذبون في أماكنهم.. فلا شك أن هذه صورة مكررة في التاريخ كلما انحرف الإنسان بعيداً عن الله، فمسخت فطرته، ومسخت حقيقته، وأصبحت جبلات شريرة جاحدة مجرمة لئيمة خسيسة، تلتذ وتنتشي بمنظر الدماء والتعذيب، كما يعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء.

هذا في مقابل القلوب المؤمنة الخيرة الرفيعة التي صبرت وانتصرت على نفسها، وارتفعت بذاتها عن الضعف واللؤم، وعن الكفر، لكي تكون عابدة لله.

"هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبلات الطغاة وارتكست في هذه الحمأة، فراحت تلتذ مشهد التعذيب المروع العنيف، بهذه الخساسة التي لم يرتكس فيها وحش قط، فالوحش يفترس ليقتات، لا ليلتذ آلام الفريسة في لؤم وخسة!"

إنما قال: انتكست هذه الجبلات، لأن الأصل في خلق الإنسان أنه ليس كذلك.. كل مخلوق يخلق ويولد على الفطرة، ولكن الجاهلية بكل عتوها تمسخ الإنسان، فتنتكس به إلى أن يكون أقسى من الحيوان، وأبشع من الحيوان.. فهذا الحادث انتكست فيه جبلات الطغاة، وارتكست في هذه الحمأة، بفعل فاعل، وبإصرار من الجاهلية أن تحول الناس -كما نرى الآن- إلى أن يستهينوا بالأعراض.. يرى الرجل ابنته تمشي عارية فلا يتحرك فيه عرق، ويسلمها إلى أي شاب بدعوى الصداقة وبدعوى الحرية وبدعوى العلم وبدعوى التقدم ليفترسها، وهو لا يرى أن ذلك انحطاط أو أنه يؤثر في كرامته.. بهذا التصرف وحده نرى كيف استطاعت الجاهلية أن تنتكس برجولة الرجل، وبحميته على عرضه، إلى أن يقدم بنته لقمة سائغة باختياره إلى رجل لا تربطه بها أي صلة لكي يفترسها، ويرى أن ذلك هو الشيء الطبيعي، بل كما نعلم في أوربا أن البنت التي لا تلتقي بالـ (boyfriend) يعتبرونها معقدة وغير طبيعية، وأنها ليست محل رغبة من الشباب، فيعيرونها بأنها ليس لها صديق يأتي معها إلى البيت ويجلس معها وتخرج معه.. هي إذن معقدة أو غير جذابة للشباب.. هكذا تنتكس فطرة الإنسان فيجد نفسه يغير القيم، بل يقلبها رأساً على عقب لكي يصبح حيواناً حقيراً قذراً. وهذا جانب واحد فقط، ولكن جوانب الجاهلية كلها انتكاس بالإنسان؛ ابتداءً من إنكاره للألوهية وتمرده عليها، إلى تمرده على القيم. والذي يتنكر للألوهية لا يكون عجيباً أن يتنكر لكرامته ولرجولته ولكل قيم الأرض.

فلا شك أن هذه الجبلات انتكست وارتكست، لأن الأصل فيها أنها جبلات أو مخلوقات راقية، خلقها الله تعالى نظيفة على الفطرة "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه."، فلا شك أن هذا الارتكاس بفعل فاعل، وليس من قبيل المصادفة، ولا هو يأتي هكذا دون إصرار.

ارتقاء أرواح المؤمنين إلى قمة تُشَرِّف البشرية

"وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين وتحررت وانطلقت إلى ذلك الأوج السامي الرفيع، الذي تشرف به البشرية في جميع الأجيال والعصور."

ما هو هذا الأوج الذي ارتفعت إليه هذه النفوس؟ أو هذه الأرواح؟

لا شك أن هذا الأوج هو قمة التعامل مع الحقيقة الكبرى والحقائق العليا بما يكافئها من شعور اليقين والمحبة لله والخضوع له، فلا شك أن هذا هو الأوج الذي يرتفع إليه الإنسان حينما يتعامل مع هذه الحقائق، ويعيش من أجلها، ويصر على أن يتعامل معها، ويشعر بوجودها، ويحرص على أن يبقى في صفها إلى أن تنتهي هذه الحياة الأرضية. فالذي يؤمن ويستيقن بحقيقة الألوهية وبمقام الألوهية، وتشتاق نفسه وروحه إلى رؤية الله، وإلى سماع كلامه سبحانه في الجنة، وإلى الحياة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.. إذا كان يستيقن هذه الحقيقة فإن هذا الإنسان يصل إلى هذا الأوج السامي الرفيع، وإلى هذه القمة الرفيعة العالية.. فهذا الحادث الذي انتكست فيه جبلات الطغاة، هو ذاته الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين، وتحررت، وانطلقت إلى ذلك الأفق الرائع العظيم.. الأفق الذي تتحقق به كرامة الإنسان الحقيقية.

والإنسان الذي بدأ في الجنة الأولى حيث كان يعيش عبداً نظيفاً طاهراً لله عز وجل، يجب أن يرجع مرة أخرى إلى الله، فهو من حيث بدأ ينبغي أن ينتهي عبداً لله عز وجل.

فهذا الحادث.. وكذلك كل محنة تمر بالمؤمن ويثبت فيها إنما هو ارتفاع إلى تلك القمة التي تُشَرِّف البشرية في جميع الأجيال والعصور، بوصول طائفة من البشر إلى هذه القمة. لأن البشرية في عمومها يغلب عليها الانتكاس، ويغلب عليها الكفر، ويغلب عليها الفسوق والعصيان ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والقرآن تحدث كثيراً عن قلة المؤمنين الشاكرين، وقلة الصابرين.. فالفئة التي ترتفع إلى هذا المستوى لا شك أنها تُشَرِّف الجنس البشري الذي انتكس في الحمأة الوبيئة التي ترتكس إليها البشرية دائماً.

كيف نقيس الحقائق بعيدا عن حسابات الأرض القاصرة؟

"في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان. وأن هذا الإيمان الذي بلغ الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية.. لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان!"

في حساب الأرض... مرة أخرى نتحدث عن الأرض حينما تنفرد في حس الإنسان عن بقية الكون.. والإنسان لم يخلق في الأرض، فإذا حبس نفسه داخل سور الأرض وداخل قيم الأرض وداخل رغبات الأرض وداخل عمر الأرض فإنه سينتكس بالضرورة.. ففي حساب الأرض يبدو أمام الناس أن الطغيان انتصر على الإيمان.. هذه الجبلات الحائدة عن الحق، القاسية الشريرة، قد استطاعت أن تتخلص من هذه الفئة المؤمنة ولم يحدث لها أي شيء.. **"ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث، كما لا تذكر النصوص القرآنية، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة، كما**

أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط. أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر." لم تذكر الروايات؛ لا القرآن ولا الأحاديث، ما الذي حدث لأصحاب الأخدود بعد أن حرّقوا المؤمنين، ففي حساب الأرض.. يبدو أن الطغيان قد انتصر، وأن الطغاة قد انطلقوا ناجين بعد هذا الحدث، بعد أن حققوا ما يريدون من سحق هذه البذور المؤمنة وحرقها، ولم يحدث لهم شيء.

فإذا نظر الإنسان إلى حساب الأرض، فلا شك أن هذه الخاتمة ستكون أسيفة وأليمة وبشعة. لكن حينما لا تكون الأرض هي خاتمة المطاف، وتكون الأرض هي فصل صغير من القصة الكبيرة، تبدو المسألة ليست كذلك.

ففي حساب الأرض يبدو الأمر أن الطغيان قد انتصر على الإيمان. ولكن في حساب المؤمن الذي يصل الأرض بالسماء، ويصل الماضي بالحاضر وبالمستقبل، يجد أن ما حدث في الأرض هو جزء بسيط من القصة، وليست كل الحقيقة **"ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة! أفهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الإيمان؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية، التي ارتكست إلى هذه الحمأة، ناجية؟**

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة!"

هكذا تبدو الأمور في حساب الأرض أمام الناس؛ أن هذه الفئة التي قامت لتدعو إلى الله، وآمنت به، وثبتت على الحق، وتمردت على أهل الباطل، سُحقت بهذه الصورة، وظل الطغاة أحراراً، ولم يحدث لهم شيء.. لا شك أن رؤية الأمر كذلك يُحدث في نفوس الناس شيئاً يجعلهم يتصورون أن هذه نهاية كل من يدعو إلى الإيمان؛ أن يسحق، وأن ينجو الطغاة، ويمضون آمنين بعد فعلتهم المنكرة.

لذلك.. فاليقين، ورسوخ الإيمان هو الذي يحمي المؤمنين من هذا الظن، ومن هذا الإحساس المرير الذي قد يحسه الإنسان.. كما كان يقال لنا.. هكذا أنتم في السجون، وما زال عبد الناصر حراً طليقاً، ويكبر شأنه كل يوم، وأنتم ماذا فعلتم أكثر من أن أُهِنتم وعُذِّبتم وسُجِنتم، وضاع أولادكم وبيوتكم، وخربت حياتكم.. ما الذي جنيتم؟ في حساب الأرض كان الأهالي يأتون إلينا يقولون هذا.. ويقولون: ماذا فعلتم؟ لقد خدعكم قادتكم وضللوكم، وأصبحتم في السجون، ولا قيمة لكم، ورجال الثورة يزدادون عظمة وسطوة.. هذه نظرة قصيرة.. في حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة..

الدرس الأول: المعنى الحقيقي للنصر

"ولكن القرآن يعلّم المؤمنين شيئاً آخر.." وهذا أول درس من دروس الحادث.. **"يعلّم المؤمنين شيئاً آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها."**

فالدرس الأول الذي نخرج به من هذه القصة المؤلمة في ظاهرها.. هو ما يعلمه لنا القرآن: كيف نقيس الحقائق، وكيف نقيس الأحداث، وكيف نلتزم ونتمسك بالقيم الصحيحة التي تعدل لنا وزن الأمور، وتحدد لنا أيضاً المعركة ومجالاتها.

يقول الأستاذ سيد **"إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان.. ليست هي القيمة الكبرى في الميزان.. وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة. والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة. فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة."**

هذا الدرس من أدق المسائل التي حار الإنسان كيف يُفهِّمها للناس. أكثر الناس -بل قد نكون نحن معهم- يقيسون كرامتهم أو عدم كرامتهم عند الله، أو رضاء الله عنهم أو عدم رضاه على ما يقابلهم من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان.. ويقيسون على ذلك أيضا نجاحهم في الأرض أو عدم نجاحهم، أو قيمتهم عند الناس..

ففي ميزان الناس؛ عندما يحقق الإنسان ذاته وأفراحه، ويعيش في متاع من الدنيا، فهذه لها قيمة كبرى جداً في ميزانه، وتعني أشياء كثيرة له، وهي هدف في ذاتها، وهي أيضاً مقياس يقيس به سعادته في الأرض، ولذلك يحرص الناس باستمرار على مزيد من هذه اللذات، وعلى البعد والهرب من كل الآلام.

ولا شك أنه من الطبيعي والفطري أن يرتاح الإنسان لكل ما يريح، ولكل ما يُسعِد.. لكن أن يكون هذا هو المقياس، وأن تكون هذه هي القيمة الكلية العليا.. فإن ما يعلمنا إياه هذا الدرس الأول من هذه القصة التي نحن بصددها غير ذلك **"إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان.. ليست هي القيمة الكبرى في الميزان.. وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة.."**

والحقيقة أنه لو كان الأمر كذلك لبدا أن هناك ظلماً في الأرض، ولبدا كذلك أن التعاسة هي التي تسود في حياة البشرية، لأن قلة قليلة من أهل الأرض هم دائماً الذين يحوزون المتاع والراحة والمنصب والجاه والسلطان، ويبقى الكثيرون من الناس يعيشون في تعاسات من ألوان متعددة، سواء من فقر، أو من ضعف في الصحة، أو من بعد عن الجاه وعن السلطان.. ولو كان الأمر كذلك لبدت الحياة قاسية جداً وبشعة جداً.

لكن عندما يُعدَّل المقياس، ويعرف الناس أن ليست هذه هي الحياة الوحيدة، وليست هي نهاية المطاف، وليست هي في ذاتها قيمة يحرص عليها الإنسان، أو هي القيمة التي ترفع أو تخفض.. فإن الحياة تنقلب إلى صورة أخرى محتملة، وتتحول طاقة الإنسان لأملٍ كبير جداً في ألا يُظلم وألا يعيش في تعاسة باستمرار..

"إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان. وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة.. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار.."

القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، والسلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان.. والعقيدة ليست فلسفة، ولا مجرد معرفة باردة، ولا حتى مجرد اعتراف بالحقائق الكبرى.. ولكن العقيدة المقصودة هنا هي انصهار الكيان الإنساني في روح العبودية لله وحده.. وهذا الانصهار لا يأتي أبداً بسهولة.. وإنما يأتي من خلال خطوات طويلة.. بدايتها الاقتناع العقلي

والقبول القلبي لهذه الحقيقة، ونهايتها الانصهار الكامل في مجال العبودية لله الواحد الأحد سبحانه وتعالى. وهذه العقيدة -أو هذا الانصهار- حينما يصل إليه الإنسان يجد أنه ليس في حاجة إلى مقاومة لجواذب الأرض ومخاوفها، يجد أنه فوق الأرض دائماً.. فوق مغريات الأرض.. فوق عذابات الأرض.. فوق مخاوف الأرض.. فوق تهديدات الأرض.. لأنه ينظر إلى الأرض كلها، بكل ما فيها، نظرة أخرى تماماً.. نظرةً حقيقيةً وشعوراً حقيقياً يجده في أعماق قلبه وهو ينظر إلى كل ما في الأرض من عذاب، وإلى كل ما في الأرض من متاع على أنه أمر تافه جداً وحقير جداً، لا يجعله يعمل له حساباً. وبالتالي يعلو فوق الأرض كلها. ويحس أن كل ما فيها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان لا قيمة له في حقيقة الأمر أمام انصهاره في مقام العبودية الكاملة لله عز وجل، وأمام ما ينتظره من الخلود في الجنة، والحياة مع الأنبياء والصديقين، والاستمتاع الهائل والعظيم برضوان الله سبحانه وتعالى، وبرؤية وجهه الكريم، فيجد بهذا الانصهار الذي لا يصل إليه إلا من خلال المجاهدة الطويلة جداً، ومن خلال أن يكون منطقياً مع ما يعتقده وما يقوله، فلا تظل العقيدة مجرد كلمات، ولا مجرد فلسفة، ولا مجرد شعارات، ولا مجرد قدرة على الكلام والعرض لقضايا العقيدة.. فالعقيدة ليست كذلك.. العقيدة مشاعر وشعور ويقين، وأمر يغوص في قلب الإنسان ليضيء هذا القلب، ويغير كيان الإنسان حقيقة، ليكون كياناً لا صلة له بهذا الطين الذي يراه الناس سائراً على قدميه.. فهو شيء آخر تماماً لا يعرفه ولا يتذوقه إلا من دخل في هذا المجال.. مجال الانصهار في العقيدة في الله.. في اليقين بالله.. اليقين بأن الله هو الحق.. وأنه ليس كمثله شيء.. وأن الدنيا وما عليها، والكون كله هو كلمة "كن" كما أراده الله عز وجل.. فيرتبط الإنسان مباشرة بالألوهية العظيمة. ثم ينبني على هذا اليقين بالألوهية النشوة والاستئناس والحب والشوق، وما يراه الإنسان حينما يعتقد هذا من مصير أخروي.

فالقيمة الكبرى في ميزان الله هي العقيدة، والسلعة الرائجة في سوق الله هي الإيمان، والنصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة. فالمادة هي أتفه شيء في هذا الكون، والروح هي أعلى قيمة في هذا الكون أيضاً. وبالتالي حين ينصر الإنسان روحه على مادته يرتفع إلى مستوى أعلى من كل شيء. وكما قلنا إن الإنسان لم يصبح إنساناً إلا بروحه بعد أن نفخت الروح فيه، فإذا جعل الجسد هو الذي يقود الكيان الإنساني فإنه سيهبط إلى أسفل سافلين. أما حينما تصبح الروح هي القائد فيصبح الإنسان في قمة العبودية لله، وقمة إنسانيته على السواء فإنه سيحلق في آفاق عليا يرى كل ما دونها صغيراً حقيراً.

فحينما يُعلي الإنسان روحه.. حينما يثبت الإنسان في السجن على كل مغريات الأرض، يتعجب الناس: كيف يرضى الإنسان أن يعيش وراء أسوار السجن، ولماذا يصر على مقولات يستطيع أن يقولها وهو في الخارج، وبإمكانه أن يخدع الناس ويخرج.. فيتعجب الناس كما كان يتعجب أهلونا حينما يأتوننا للزيارة: يا بني لماذا تضيع حياتك في هذا المكان المظلم الذي تعيش فيه، وتضيع مستقبلك وحياتك وأولادك وكذا وكذا!! يتعجب الناس لماذا يثبت هؤلاء.. ما الذي أصابهم من الجنون والبلاهة حتى يروا أن السجن أحب إليهم من الحياة والحرية. وحينما يقيسون ما يعيشون فيه من أبهة وحرية وسعادة وكذا وكذا، ثم ينظرون إلى ولدهم أو إلى ذويهم وهم وراء القضبان في هذه الزنازين المغلقة يتعجبون لماذا؟! لكنهم لا يحسون ما يحس هؤلاء.. لا يحسون أن الإنسان في أعماق الزنزانة المظلمة يكون في رحابة وفي وضاءة وفي سعادة يعلم الله أنها كانت أجمل وألذ من سعادة الملوك على أسرَّتِهم. لكنهم ما داموا لم يذوقوا فإنهم لا يستطيعون أن يعرفوا، فحينما يصل الإنسان إلى إعلاء

حقيقة الروح على المادة يحقق النصر الحقيقي، ويحقق القيمة الكبرى في ميزان الله، ويكون هذا هو ميزان الكون وميزان الحق، الذي ينبغي أن يكون هو الميزان الوحيد الذي توزن به الأمور.. إذ لا ميزان آخر مع ميزان الله عز وجل **"انتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة.."** هذه هي حقيقة الانتصار في عالم الأنس..

ففي حادث الأخدود تحققت هذه الأمور كلها **"انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله.."** ولا شك أنه في كل جيل يحدث هذا الانتصار من فئة من الفئات التي يختارها الله عز وجل لتتحدث باسم الإيمان وتعلي راية الحق، وكما رأينا في المحن الأخيرة التي قابلتنا، كيف أن بعض المسلمين، وكانوا شباباً صغاراً، وقفوا ليقولوا كلمة الحق بلا خوف وبلا وجل، وبإصرار، وباستهانة، وبسهولة كانوا هم أنفسهم يتعجبون منها.. كيف استطاعوا أن يقولوا هذه الكلمات أمام هذه العصبة الطاغية التي تقف أمامهم، ومن ورائها كل صور العذاب وصور الألم وصور الإهانة، كيف جاءتهم الجرأة أن يقولوا لا.

ولكن حينما تنتصر العقيدة على الألم، وحينما تنتصر الروح على المادة، يجد الإنسان أنه يقول كل هذا بسهولة عجيبة، ويقف ويصمد، ويقول للطغاة: افعلوا ما شئتم فقد بعت نفسي لله. وهذه ليست مبالغة، وليست كلمات إنشائية. ولكنها حقيقة جُرِّبت وحدثت في الواقع.

"إن الناس جميعاً يموتون، وتختلف الأسباب. ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.."

لا شك أن الناس جميعاً سيموتون، لكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار.. فالناس يموتون، ثم يصبحون كالجيف المنتنة، لا ذكرى لها ولا قيمة. ولكن الإنسان الذي يموت في سبيل الله يظل حياً في الملأ الأعلى، وفي حياة الناس كذلك، ويظل كريماً كلما ذُكر. بل إنه يموت وهو كريم أيضاً حتى اللحظة الأخيرة.. فالناس جميعاً يموتون ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار ولا يرتفعون هذا الارتفاع ولا يتحررون هذا التحرر ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.

حينما تنتصر العقيدة على الألم يتحقق المجد في الدنيا والآخرة

"إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضاً، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال!"

الحقيقة أن هذه الفرصة.. فرصة هذا الانتصار لم توهب إلا للإنسان، فالكائنات الأخرى لم توهب القدرة على الاختيار. والإنسان هو الذي أُختير خليفة في الأرض، ليُختبَر هل سيختار الله، عن علم ووعي ورغبة وشوق على كل ما يجذبه في هذه الدنيا، أم لا.. فهذه الفرصة وهبت للإنسان فقط، ولم توهب لأحد في الكون غيره، ومن ثم يصبح هذا الانتصار هو أهم إنجازات الإنسان في هذا الكون، فليس هناك إنجاز أعظم منه مهما قيل من إنجازات الإنسان الحضارية أو المدنية أو التكنولوجية، فهي كلها انتصارات تافهة بالقياس إلى هذا الانتصار.. فهو لم يصنعها أصلاً.. إنما اكتشفها، واستخدمها، لكن الإنسان حينما ينتصر على نفسه، وعلى ضعفه، وعلى الإغواء، وعلى الإغراء، وعلى العذاب.. فهذا هو الانتصار الحقيقي الذي

لا يشاركه فيه عامة الناس. فالناس يشتركون معه في الموت، وينفرد هو وحده دونهم بالمجد، لأنه مجد حقيقي وتاج حقيقي على مفرق الإنسان وحده في هذا الوجود، الذي اختاره الله ليكون خليفة في هذه الأرض.

وسواءً في حساب الملأ الأعلى أو في دنيا الناس.. الشهيد له عند الله من الأجر وله من الجزاء ما ليس لغيره.

وفي دنيا الناس كذلك.. فالناس -حتى لو سبُّوا هؤلاء الشهداء- ففي أعماقهم يحسون أنهم عظماء.. وبعد أجيال أيضاً يذكرونهم بالخير، كما حدث في أصحاب الكهف مثلا.. فبعد ثلاثمائة عام رجعوا إلى الحياة ليروا أن الناس كلهم قد أصبحوا على دينهم، يتراحمون ويتنافسون عليهم بعد أن ماتوا ليقيموا لهم الذكرى الكريمة، فلا يضيع ذكرهم بعد ذلك في عالم الناس في الأرض، وكذلك الأنبياء والصالحون.. ما زال كل الناس حتى هذه اللحظة يذكرونهم بالخير، مهما قيل عنهم في أوقاتهم من أنهم مجانين وكذابين وسحرة أو غير ذلك.. لكنهم بعد قليل يذكرون دائماً بالخير. فالمجد حقيقة هو للإنسان المؤمن، في الملأ الأعلى، وفي الأرض على السواء. ففرصة هذا الانتصار لا تعطى إلا للإنسان.

وهي فرصة تعطى لنا أيضاً نحن الذين -في هذه اللحظة- نرجو أن نكون من المختارين. فالإصرار على هذا الاختيار، والإصرار على هذا المجد، والإصرار على هذا الخير، هو أهم إنجاز نستطيع أن ننجزه في حياتنا. ليس أن نزداد مالاً، ولا أن نزداد جاهاً، أو نزداد شهرةً، أو نزداد أولاداً، أو نزداد قيمةً في الأرض. كل هذا سينتهي يوم أن تخرج الروح. ويموت الإنسان ويترك ذلك كله لغيره.. أما المجد الذي تحققه لنفسك فهو أن تموت من أجل الله، وأن تصر على أن تكون العقيدة هي القيمة الكبرى والعظمى في حياتك، والتي تدوس من أجلها على كل متاع الأرض التافه الحقير.

كم هي رخيصة الحياة بلا عقيدة وكم هي بشعة بلا تحرر من الطغاة

"لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم. ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؟"

في لحظة الضعف، وفي لحظة الخوف الشديد البشع من ألسنة النيران الرهيبة، التي ترتفع لتلتقطهم، كان من الممكن أن يضعفوا، وأن يتنازلوا، وأن يترخصوا.. لكن كان الإيمان سيهزم، ويصرع تحت أقدام الطغاة، حينما يترخص هؤلاء المؤمنون نجاةً بأنفسهم، وتراجعاً عن إعلاء راية الحق...

وكم كانوا سيخسرون هم أنفسهم، كانوا سيحتقرون أنفسهم، ويشعرون أنهم ليسوا جديرين بهذا الحق، وأنهم قد باعوا شرفهم وكرامتهم، وباعوا ربهم في سبيل نجاة أنفسهم.

وكم كانت البشرية كلها أيضاً ستخسر حينما لا تستطيع طائفة من الناس أن تثبت تحت هذه الراية، وأن تنجح في الاختبار.

وكم كانوا سيخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير؛ معنى زهادة الحياة بلا عقيدة.. فالحياة ليست لها قيمة بلا عقيدة، فحينما يقتلون هذا المعنى، وتصبح العقيدة رخيصة من أجل أن يعيش الإنسان أنفاساً، ستنتهي مهما طالت. فإنهم يخسرون بل تخسر البشرية كلها ما لم تخسره بقتل الألوف بل الملايين.

وأيضاً كم ستكون الحياة بشعة بلا حرية، حين يصبح الناس عبيداً بعضهم لبعض، عبيداً للحياة، عبيداً للدنيا، يبيعون العقيدة، ويبيعون الحق من أجل اللحظات التافهة، عبودية لأنفسهم، وعبودية للطغاة.

وأيضاً كم ستكون الحياة، حقيرة حينما تكون تحت سيطرة الطغاة، بعد أن ينهزم المؤمنون، وينضووا مع الجماهير البائسة، لكي يكونوا عبيداً للطغاة.. لا شك أن الأمر الذي صنعه هؤلاء بثباتهم قد رفعهم إلى هذا المستوى. فارتفعوا وحققوا هذه الأمور كلها؛ أن تظل العقيدة هي أعلى شيء في حياة الإنسان، وأن تكون الحرية الحقيقية هي التحرر من الخوف ومن الطمع، لكي ينطلقوا إلى الله سبحانه وتعالى، وينقذوا البشرية من أن تخضع لسيطرة الطغاة المجرمين الأشرار. فلا شك أن هؤلاء المؤمنين قد حققوا هذا كله.

ولحظة الضعف والخوف والرغبة يمكن أن تسيطر على الإنسان، وتنزله في هاوية الانحطاط حينما ينسى هذه المعاني السامقة العظيمة.. ويمكن أن يخسر كل شيء؛ يخسر احترامه لنفسه، ويخسر احترام الناس له، ويخسر دينه في لحظة ضعف واحدة.

وهذا يحدث في كل لحظاتنا الصغيرة والكبيرة.. فالإنسان حينما ينطلق إلى الاستجابة للشيطان في معصية فهي لحظة ضعف يرفع فيها قيمة المعصية على رضاء الله.. حينما يرتكب شهوة من شهوات الجنس أو المال، وينسى أن الله ينظر إليه ويراه وهو يرتكب هذه الجريمة، فهي لحظة ضعف تنسيه كل هذا، لأنه يريد أن يتخلص من ضغط الرغبة وضغط الشهوة وضغط الإغراء، فينزلق في لحظة ضعف إلى هذه المعصية. وهكذا.. أمام أمور ضعفنا التي قد تمنعنا من قيام الليل.. لحظة راحة واستمتاع تحت الفراش في الدفء الذي لا يريد الإنسان أن يقوم منه ليصلي.. هي لحظة ضعف.. ولو أنه في لحظة قوة دفع الغطاء ووقف واستعاذ بالله من الشيطان وذهب ليتوضأ فستنتهي المسألة تماماً، لكن تحت خدر الراحة وخدر الشهوة وخدر النوم وخدر أشياء كثيرة يحب الإنسان أن ينام. حتى في هذه الأمور البسيطة يبدو أن الإنسان ينبغي أن يكون دائماً مستنفراً لقواه، ومستنفراً لطاقاته، لكي يقوم الليل.. لكي يتصدق من ماله.. لكي يكون صادقاً دائماً في حديثه.. لكي يكون دائماً ملتزماً بكل صغيرة وكبيرة من أمور الحق في حياته.. وأيضاً لكي يكون صادقاً مع نفسه.. كثير منا يخادع نفسه، ودائماً يغلِّب منطقه على الحق، ويزّين منطقه ليكون هو الحق ولو كان بعيداً عن الحق.. هذه المسألة ينزلق إليها الإنسان حينما تكبر ذاته وتتضخم، أو حينما تضعف نفسه جداً.. ففي كلا الأمرين يصنع لنفسه منطقاً غير منطق الحق والإيمان، ويأسر نفسه داخل هذا المنطق، ليتصور دائماً أن ما يشعر به هو الصواب، وأن ما يقوله هو الحق..

هذا من أكبر الأمور التي تأسر الإنسان وتذله، وتجعله ينطق بالباطل وهو يظن أنه ينطق بالحق، ويحيا بالزيف وهو يتصور أنه يحيا بالحق، ومهما قال الناس له يظل مصراً على عماه، لأنه صار راضياً بهذه الوهدة، ولا يريد أن يرتفع عنها.

فنحن في حاجة إلى أن نفهم أن لحظة الضعف، ولحظة الخوف، ولحظة الرغبة، ولحظة البروز وتضخم الذات، يمكن أن تسقطنا في هاوية الانحطاط، فنخسر كل شيء. ومن ثمَّ فإنه لا بد أن نكون واعين متيقظين للحظات الضعف تلك؛ ليس في الأمور الضخمة فقط، ولكن حتى في أقل الأمور.. في ظلمك لزوجتك.. في ظلمك لولدك.. في ظلمك لأي إنسان.. في بعدك عن الحقيقة في أي صورة من صور الكذب.. كل هذا انحطاط يؤدي بك في النهاية إلى انحطاط أكبر في ميدان الحق والثبات عند المحنة وعند الامتحان.

"إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبير جداً، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار، فتحترق أجسادهم الفانية، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تزكيه النار!"

ربحوه وهم يجدون مس النار.. وهذا شعور يمكن أن يصاحب الإنسان في أحلك اللحظات وأصعبها. فيمكن في أحلك اللحظات أن يتصور ما ينتظره من نعيم، وما ينتظره من تكريم، فتقل لسعات العذاب على كيانه، وينسى هذه الآلام في سبيل الكرامة.. كثير منا يدخل في عراك شخصي، ويُضرب بخنجر ولا يحس بهذا الخنجر إلا بعد فوات المعركة.. لحظات المعركة ولحظات الغضب لا تجعله يحس أنه طعن بخنجر أو طعن بسكين، ويكتشف هذا الناس وهم يرون الدماء تسيل، لكنه هو يظل يضرب ويعارك، لأن لحظات حرارة الانفعال تنسيه الآلام.

فكذلك الإنسان.. يمكن تحت لحظات التعذيب، إذا تذكر الله، وتصور أنه لو تحمل هذا الذي هو فيه من أجل أن يرى وجه الله.. من أجل أن يكون في الجنة.. من أجل أن يُعصم من عذاب النار، قد ينسى الآلام التي يعيشها.. لذلك نفهم بعض ما قيل عن بعض الصالحين أنه كان يتحمل أشد الآلام وهو يصلي.. فحينما أرادوا أن يقطعوا رجل عروة بن الزبير -رضي الله عنهم- لمرض أصابها، قال لهم: دعوني أدخل في الصلاة ثم افعلوا ما شئتم.

قد نفهم هذا المعنى حينما نعرف أن أرواحَ هؤلاء أرواحٌ من نوع خاص، استطاعت في لحظة أن تحول أنظارها لكي تلتقي بالملأ الأعلى، فتنسى الأرض، وتنسى الآلام، فتستطيع أن تتحمل أي ألم وهي سابحة غارقة في حب الله وفي مناجاة الله.

لكن هذا مقام رفيع لا يأتي أبداً بقرار. وإنما يأتي من خلال المجاهدة. ويأتي من خلال المعاناة، ويأتي من خلال المحاولة الدائمة لتذوق هذه الآفاق الرفيعة العالية، وهي ليست مستحيلة على أي إنسان لو أراد أن ينتقل إليها.

هذا الدرس الأول الذي تحدثنا عنه، والذي يحدد تصور الإنسان المسلم عن الحياة، والقيمة التي تحكمها، والمجال الذي تتحرك فيه.

صعود القمة السامقة لا يأتي بقرار وإنما بالمجاهدة

إن قيمة العقيدة، وسلعة الإيمان، وانتصار الروح على المادة، والعقيدة على الألم، والإيمان على الفتنة.. هذا المعنى الكريم جداً، والكبير جداً، لا يتحقق إلا من خلال المجاهدة، ومن خلال أن يحرص المسلم منا على أن يغير من نفسه..

كثير من الناس لا يتعبون أنفسهم في التغيير، وكثير من الناس يقفون عند المعاني الكبيرة أو المطالب الكبيرة، ولا يقفون عند مقتضيات هذه القضايا الكبيرة والمطالب الكبيرة. ويفصلون في كثير من الأحيان بين القضايا الكبيرة وبين مقتضياتها.. وبين ثمراتها في النفس، ليس هناك في الواقع وفي الحقيقة أي انفصال بين الجذور وبين الثمرة، فكما أن الشجرة وحدة واحدة؛ جذورها وسيقانها وفروعها وثمراتها.. وحدة واحدة، يتغذى بعضها على بعض، ويمتد بعضها على بعض، كذلك لا نتصور أبداً أن عملاً صغيراً أو فكرة أو خاطرة أو كلمة في حياة الإنسان تكون منقطعة عن الجذور مهما كانت قيمتها أو صغرها.. لا شيء تافه في حياة الإنسان.. فكل أمر في حياة الإنسان هو مهم.. من دخوله لقضاء حاجته برجله اليسرى ولا يدخل برجله اليمنى، فهذا أمر مهم، ولا يجوز أن يقال عنه أنه أمر تافه لا يؤبه له أو لا يهتم به، وحتى أمر العقيدة الكبير.

كثير منا يفصل بين هذه الأمور الفرعية، أو المقتضيات للحقائق الكبيرة، ويتصور أنه ما دام قد وقف على صحة الحقائق الكبيرة فإنه لا يضره شيء على الإطلاق في أمر من الأمور الصغيرة.. بينما كل شيء في الحقيقة محسوب في علم الله، وكل شيء له مردوده على نفس الإنسان. وفرق كبير بين الإنسان الذي يقف عند الأمور الكبيرة ولا يهتم بمقتضياتها وتوابعها، وبين الإنسان الذي يتحرى الصغيرة والكبيرة. حتى أننا كنا نرى صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم.. كان بعضهم يتحرى أن يجعل خف ناقته يسير على مكان خف ناقة رسول الله ﷺ، هذا الإتباع النفسي الذي كان يستشعره الصحابة ليس من باب الحب ولا الإعجاب بشخص رسول الله ﷺ فقط، ولا الوله والعشق له، بقدر ما كان عبودية لله عز وجل. لأنهم فقهوا قول الله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذا الاتباع الحرفي كان ناتجاً عن رغبة حقيقية في استكمال العبودية في حس المسلمين.. كثير منا ينسى ذلك، ولذلك نقف في مكاننا لا نتحرك ولا نتقدم، لأننا لا نحاول أن نبني صرحاً عالياً من خلال السلوك، والتحري في تحقيق كل أمر صغير أو كبير، والمواقف الكبرى التي تحتاجها المحن تكون يسيرة جداً على الإنسان الأكثر تقوى، والأكثر ورعاً، والأكثر حياةً مع الله، والأكثر حباً لله، والأكثر التجاءً إلى الله. فهذه تسهل عليه جداً تلك المواقف.

أما الذي لا يكون بهذه الصورة، ولا يحيا مع الله حياة عميقة واسعة، فإن هذه المواقف تكون قاسية وشديدة عليه، وكثيراً ما يسقط الناس نتيجة لعدم وجود رصيد يمدهم في لحظة المحن ولحظة المواجهة. فلا يستهن أحد منا بحالة الرخاء التي نحن فيها، أو حالة المهادنة، أو حالة الفسحة التي أعطاها الله لنا لنتربى فيها. فهو سبحانه لم يعطها لنا عبثاً، ولم يعطها لنا مجاملة، ولم يعطها لنا نسياناً، وإنما مد لنا في فترة الراحة هذه أو فترة الرخاء لكي نستغلها لبناء أنفسنا لمواجهة المحنة التي ستكون ضخمة وكبيرة بقدر ما ندعيه. فالذي يضيع فترة الراحة في اللعب كالتلميذ الذي يضيع فترة السنة كلها في اللعب لأن الامتحان لم يقترب، فإذا به يوم الامتحان لا يعلم شيئاً..

فلا بد أن نعلم أننا أمناء على وقتنا، وأمناء على أنفسنا، وأمناء على تركيبنا الإنساني، فكل إنسان يجب أن يحلل نفسه، ويحلل طاقاته، ويحلل نقاط ضعفه ونقاط قوته.. فيتعرف عليها بقوة ووضوح، ويبدأ في علاجها.. وأي إنسان منا يتساهل في هذا الأمر هو إنسان غير صادق، وسيكون فاشلاً في لحظات المحنة ولحظات المواجهة. فأحذِّر نفسي وإياكم من المواقف العظمى

التي نريد أن نقف فيها، أو التي ستفرض علينا، لأنها سنة من سنن الله عز وجل ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢]، فهذه المواقف لا ينجح فيها إلا من كان حريصاً على تتبع نفسه، وعلى معرفة نفسه جيداً.

الانتصار الذي يتكلم عنه الأستاذ سيد هنا لا يتحقق أبداً إلا من خلال المجاهدة الدقيقة. والتي تتابع وتتتبّع كل مسارب نفوسنا، وكل صغيرة وكبيرة في حياتنا. ونستعين على ذلك -كما قلنا مراراً- بأن يسأل بعضنا بعضاً، ويعرّف بعضنا الآخر على عيوبه، وعلى نقائصه، وعلى مثالبه. وكل واحد فينا عليه أن يسأل إخوانه: ما الذي ترونه فيّ؟ هذا أفضل جداً من أن يعيش معجباً بنفسه، أو غيوراً على نفسه، يغطي عيوبه عن الآخرين، ويظل يتآكل من الداخل بسوس المعاصي، أو دود النقص والسلبيات، وهو منتفش من الخارج، يخدع نفسه.. هكذا يجب أن يفعل الصادقون. لكن الإنسان الذي لا يسأل ابتداء فهذا ليس بصادق.

أما الإنسان الذي يُنصح فلا يقبل النصح.. فهذا إنسان لا شك أنه خاسر جداً، وسيفشل يقيناً، مهما أمهله الله ومد له من الستر، أو مد له من الراحة، إذ لا بد أن تأتي اللحظة التي سيسقط فيها سقوطاً مريعاً. فهذا هو الدرس الأول الذي تحدثنا عنه.

الدرس الثاني: مجال المعركة

وعن الدرس الثاني يقول **"ثم إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها، وليس هو الحياة الدنيا وحدها. وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال."**

فكما قلنا.. الإنسان المؤمن يرى مجال الحياة واسعا جداً، فهو لا يرى الأرض وحدها.. الأرض مساحة صغيرة جداً، ومجالها صغير جداً بالنسبة لما كان قبل وجود الأرض، وما قبل وجود الإنسان، وما بعد اختفاء هذه الأرض واختفاء هذا الإنسان. فالمجال واسع جداً منذ أن خلق الله السماوات والأرض، ومنذ أن خلق الملائكة، وخلق كل شيء، ثم خلق الإنسان، ثم بعد ذلك أنزل الإنسان على الأرض، ثم ما يعقب الأرض بعد ذلك من اليوم الآخر والحياة الآخرة.. فمجال المعركة واسع جداً جداً. وبالتالي فشهود المعركة أيضاً ليسوا هم الناس الذين في جيلنا، وليسوا هم الناس في الأجيال المختلفة **"إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها.."** فالله سبحانه وتعالى، والملائكة، بل الأموات أيضا يعلمون كثيراً مما يحدث في الأرض، ويعلمون بالذين انتقلوا إلى ربهم. فالذي يحدث في الأرض ليس شهوده هم الناس الذين يشهدون الحدث، وإنما **"الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها."** فالمسلم لا يتعامل مع ميزان الأرض، ولا يحصر تعامله مع الناس الذين هم حوله، وإنما يتعامل مع الملأ الأعلى.. مع الله سبحانه وتعالى الذي يشهد كل شيء، ومع الملائكة الذين يشهدون وينشغلون بالإنسان، والذين يزنون هذه الأحداث بميزان غير ميزان الأرض.

"والملأ الأعلى يضم من الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس.. وما من شك أن ثناء الملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الأرض وتقديرهم على الإطلاق!"

ولذلك كان الأنبياء -مهما واجهوا من الاستهزاء، ومهما واجهوا من السخرية والاتهامات- لا يتعبون، ولا يردهم هذا عما هم عليه، ولا يشعرون بالوحشة بسبب هذا، وكان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ، يذكره بهذه الحقيقة، ويملأ قلبه أمناً وطمأنينة.

فالإنسان.. وهو في المعركة، وهو يسير في هذا الطريق، يعلم أن مجال المعركة واسع جداً؛ ليس فقط هذه الأرض التي يمشي عليها، وليس هؤلاء الناس، سواء كانوا طغاة أو جماهير، هم الذين يشهدونه فقط، وإنما من في الملأ الأعلى من ذوات، ابتداءً من ذات الله الأعلى سبحانه وتعالى.

فحينما يشعر الإنسان بهذا لا شك يشعر أنه يتعامل مع أكوان أخرى، ومع شهود آخرين، وبالتالي يقل ميزان الناس في حسه، ويقل ميزان اتهامات الناس وشتم الناس، وكل ما يتصل بالناس من أذى، أو من خير على السواء، وهذا درس آخر مهم جداً، يجب أن يفهمه الإنسان، لأنه يتعامل في مجال واسع جداً، فلا يجب أن يحس أبداً أنه وحده، وإنما معه الله سبحانه وتعالى.

الدرس الثالث: حقيقة الدنيا والآخرة

الدرس الثالث أيضاً من هذه القصة يقول عنه:

"وبعد ذلك كله هناك الآخرة. وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض، ولا ينفصل عنه، لا في الحقيقة الواقعة، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة."

لا شك أن الإنسان حينما يعمل نسبة بين الأرض وزمنها، وما عليها من متاع، وبين الآخرة، وعمر الآخرة، والخلود، وما فيها من متاع، لا شك أن الميزان سيعتدل، وينفض الإنسان عن كاهله الدنيا كلها، ويلغيها من أعصابه إذا كان يريد الآخرة. فالآخرة ستضم وستحقق له كل ما يرغبه في الدنيا وأزيد، وعلى مستوى أكرم وأفضل وأدوم.

هذه هي الحقيقة التي يستشعرها الإنسان حينما يربط نفسه بالآخرة، ويعيش مع أحاديث رسول الله ﷺ، ومع الآيات القرآنية، ليتملى ويتصور صورة الآخرة، سواء كانت في مجال النعيم والحياة مع الله ومع المؤمنين، أو في مجال العذاب ومخالطة الكفار والمغضوب عليهم.. حينما يحاول أن يعيش بهذه المسألة كثيراً كما نصحنا من قبل؛ أن يكون للإنسان منا، ولو لحظات كل يوم، يتخيل فيها أن الدنيا قد انتهت، وأنه الآن على مشارف الآخرة، وأنه أمام أحد مصيرين؛ إما إلى جنة، وإما إلى نار، ويحاول أن يستعرض تفاصيل الجنة وتفاصيل النار، فلا شك أنه سيبهت عنده كثيراً كل ما يستمتع به في الدنيا، وكل ما يخشاه في الدنيا.. لا نعيم الدنيا يصبح نعيما، ولا عذاب الدنيا يصبح عذابا. فكل نعيم دون الجنة حقير، وكل عذاب دون النار عافية.

فالإنسان لو عاش حقيقة الآخرة سيعتدل الميزان تماماً في حسه، ويجد نفسه قادراً أن يثبت في الطريق، ويثبت أمام المحن، ويثبت أمام العذاب، ويثبت أمام كل أنواع الابتلاء.

فأصحاب الأخدود يبدو أن هذا الأمر كان عندهم أيضاً واضحاً، وكان عميقاً، بحيث أن النار بلهيبها لم تجعلهم يترددون، ولم تخف عنهم حقيقة الآخرة، وحقيقة الانتقالة التي سينتقلون إليها إذا هم عبروا هذا المعبر القصير، معبر السقوط في النار، والاحتراق في النار. إذ كانوا على ثقة بأنهم سيستبدلون بأجسادهم أجساداً أحسن وسيستبدلون بواقعهم واقعاً أفضل..

عاشوا هذه الحقيقة، فاستطاعوا أن يمروا من هذه المحنة بنجاح، وارتفعوا على أنفسهم، ونجحوا كما رأينا.

الدرس الرابع: النهاية الحقيقية للمعركة

ودرس رابع.. يقول عنه: **"فالمعركة إذن لم تنته، وخاتمتها الحقيقية لم تجئ بعد، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد."**

إذا كانت الأرض بما عليها أمر تافه وحقير، زمناً وقيمة، وإذا كان ما يلقاه المؤمن فيها من خير أو شر هو أيضاً زهيد وبسيط، وما يستمتع به الطغاة الذين يملي الله لهم -حتى ولو تركهم بلا قصاص في الدنيا- هو كله أمر تافه وحقير كذلك.. فعلى المؤمن أن يعلم أن هذا جزء من العرض، وليس العرض كله، وأن ما ينتظر الكافرين وينتظر الطغاة شيء سيعلمونه يوم يرونه جيداً، وحينئذ سيندمون كل الندم، ويعرفون أنهم كانوا على ضلال. وسيجد المؤمنون أن ما حرموا منه من متاع أو لذائذ نتيجة سيرهم في هذا الطريق، وما تعرضوا له من محن ومن عذاب، سيجدونه سهلاً، بسيطاً جداً، وقليلاً جداً، بالنسبة لما يجدونه من نعيم الآخرة، وملك الآخرة، وعز الآخرة، وخلود الآخرة، فالذي يحكم على الأمر كله بهذا الجزء البسيط هو جاهل أولاً، وغافل ثانياً، ويخدع نفسه ثالثاً.

لكن المؤمن إذا كانت نظرته صحيحة، وإيمانه حقيقياً، ويقينه بالآخرة يقيناً صادقاً، فإنه سوف يهزأ بهذا الجزء البسيط الذي يمر في الدنيا. وسيستطيع أن يثبت، لأنه سيهزأ بهؤلاء الذين يعذبونه، لأنه يعلم نهاية القصة التي لا يرونها هم.

مقارنة بين نظرتين

هذه دروس من خلال الأحداث التي مرت في قصة الأخدود يتبعها الأستاذ سيد رحمه الله بمقارنة بين نظرتين:

النظرة الأولى للمعركة -أو للقيم، أو لمجال المعركة، أو لحقيقة الأرض وحجمها- **"النظرة الأولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للإنسان العجول."** نظرة الجاهلية إلى الأرض، وجعلها هي النهاية والخاتمة، ورؤيتهم أن الناس يتدافعون فيها للحصول على أكبر قدر من اللذات والمتاع، وعندهم الغايات تبرر الوسائل. فنظرتهم قصيرة.. قصيرة بعمرهم، وقصيرة بعمر الأرض، وقصيرة بحجم المتاع، وقصيرة بكل شيء.

فالنظرة الأولى التي تنظر إلى الأرض على أنها كل شيء والذي يدور عليها هو كل شيء، هي نظرة قصيرة المدى، ضيقة المجال، متعجلة ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١].. وهكذا.

النظرة الثانية، وهي نظرة المؤمن الحق، وهي النظرة **"الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها، لأنها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الإيماني الصحيح."**

وإنما يروض القرآن المؤمنين على ذلك، لأن هذا الأمر يحتاج علماً، ويحتاج تدريباً. يحتاج الإنسان أن يروض على أن يفكر بطريقة صحيحة، وأن يشعر بطريقة صحيحة، وأن يحيا بطريقة صحيحة، وأن يتعامل مع الحقائق الكبرى والصغرى على السواء

بطريقة صحيحة. وكما قلنا.. لا يأتي هذا بمجرد العلم البارد، ولا بمجرد الأماني، ولكن يأتي من خلال المعاناة والمجاهدة التي أمرنا بها القرآن ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فالنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها. لأنها أولاً تمثل الحقيقة، والإنسان ينبغي أن يتعامل مع الحقيقة، وليس مع الباطل، ولا الزيف، ولا الوهم.

وثانياً هي التي تسعده في الدنيا، وتسعده في الآخرة، وتحقق له ثمرات كثيرة جداً في حياته في الدنيا وفي الآخرة.

"ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاءً على الإيمان والطاعة، والصبر على الابتلاء، والانتصار على فتن الحياة.. هو طمأنينة القلب.."

هذه أولى ثمرات هذه النظرة الشاملة البعيدة المدى التي يربي ويروض القرآن المؤمنين عليها؛ أن الله عز وجل يجزي على الإيمان والطاعة، وعلى الامتثال والصبر على الابتلاء، والانتصار على فتن الحياة.. يجزي على ذلك طمأنينة القلب في الدنيا وفي الآخرة. ولا شك أن الطمأنينة تكون نابعة من التعامل الصحيح مع الحقائق الكبرى، ومع الأفق الأعلى، وتؤدي إلى رفعة الإنسان، وإلى رقيه، فيطمئن الإنسان حينما يجد نفسه يتعامل مع الحقائق، وليس مع الزيف، يتعامل مع الله، وليس مع الآلهة الباطلة، يعرف حقيقة الدنيا وحجمها.. يعرف حقيقة مخاوف الأرض وحجمها.. يعرف حقيقة الآخرة وحجمها..

هذه الطمأنينة تأتي أولاً من خلال المعرفة والعلم، وثانياً من خلال الحياة مع مقتضيات هذه المعرفة؛ من الصبر على الابتلاء، ومن الالتزام والطاعة، ومن الانتصار على فتن الحياة..

وفتن الحياة -كما قلنا- كثيرة. في كل خطوة من خطوات الإنسان فتنة جديدة، عليه أن يعبرها، وأن يتغلب عليها.. فنحن نمر كل لحظة بفتنة، وكل لحظة عندنا أسئلة ينبغي أن نجيب عليها. فالإنسان الذي يكون واعياً ويقظاً، وعنده من الإرادة والعزم والعلم والتقوى ما يجعله باستمرار يحقق انتصارات ومكاسب على الباطل، وعلى إغواء الشيطان، هو ذلك الذي يجزيه الله سبحانه وتعالى **"طمأنينة القلب"** ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

ويجزيه أيضاً **"الرضوان والود من الرحمن"** ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦]. وهذا هو قمة الجزاء والمكافأة في الدنيا والآخرة.. فالإنسان في الدنيا عندما يعبد الله عز وجل يحس برضوان الله، يحس بحب الله، يحس بالود الذي بينه وبين الله. يحدث ذلك حينما يكون صادقاً، ويكون مخلصاً، وعندها سيجد الله سبحانه وتعالى معه، ويشعر بهذه المودة، وبهذا الرضوان من الله عز وجل. وهذا الذي يحسه المؤمن في الدنيا قبل الآخرة هو قمة الجزاء والمكافأة من الله. وهذه أعلى درجة يتحصل عليها الإنسان في حياته في هذه الأرض، وما يترتب على هذا الود وهذا الرضوان من ولاية الله له، وعنايته به، وحفظه، وتقريبه منه.. هذه كلها يحسها القلب الذي يعيش مع الله حقيقة.. الذي لا ينقسم على نفسه بين هواه وبين الله، أو بين الطاعة والمعصية، وإنما يتذوقها الإنسان الذي قد اطمأنت نفسه إلى الله، والذي استقرت نفسه على الطاعة، والذي استطاع أن يتغلب على النفس الأمارة مستعيناً بالنفس اللوامة، منتقلاً منها إلى النفس المطمئنة التي تعيش مع الله في سلام، والتي لا يستطيع الشيطان إلا أن يناوشها من بعيد، ثم ييأس منها، لأنها معصومة بقربها من الله وحبها

لله، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المقام يشعر برضوان الله، ويشعر بالود من الرحمن، ويشعر بولاية الله له، وهذا هو الذي يستحق ما جاء في الحديث (إذا تقرب إلي عبدي شبراً تقربت منه ذراعاً...)[٣].

وهذا أمر يستحق -بلا شك- أن يعيش الإنسان من أجله، كي يتحصل عليه، والناس يتنافسون على لعاعات الأرض، وعلى حقارات الأرض، وينفقون من الأوقات ومن الأموال، وحتى من كراماتهم ما يحصلون به على المناصب أو الشهادات أو الأموال أو المراكز.. ولو عقلوا لجعلوا هدفهم الذي يسعون إليه هو الحصول على ود الرحمن، وعلى رضوان الرحمن، وعلى ولاية الله وعنايته وحفظه، فلا شيء يوازي هذا الأمر، أو يعلو عليه.

وكذلك يجزيهم الله على ذلك **"الذكر في الملأ الأعلى"**. فحينما يُبتلى المؤمن ويصبر ويرضى بقضاء الله فلا شك أن الله سبحانه وتعالى سيقربه إليه ويكرمه في الملأ الأعلى...

"قال رسول الله ﷺ "إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد" أخرجه الترمذي."

فلا شك أن هذا الذكر من الله يتكرر كلما تعالى الإنسان على رغباته وطموحاته ومتاعبه وآلامه في ذات الله، فكل لذة وكل متاع يحرمه من أجل الله سيكتب له عند الله، ويبني له به بيت في الجنة، ويحمده الملائكة.. وكل خوف عاشه وكل حرمان احتمله في ذات الله وفي سبيل الله هو أيضاً محسوب له، وسيذكر له في الملأ الأعلى. ويدور هذا الحوار بين الله وملائكته بشأن هذا العبد القليل الصغير، حينما يعطي لله ويمنع لله، مع أن الله هو الذي يوفقه إلى ذلك، ويهيئه لذلك. ولكن الله يعطي، ثم يجازي على ما يعطي، وهو الكريم سبحانه وتعالى، فلا شك أن هذا الذكر في الملأ الأعلى هو ثمرة العبودية الخاشعة الراضية الواثقة، التي لا تملك في الحقيقة شيئاً في أي شيء.. فالحقيقة أننا لا نملك شيئاً في أي شيء.. لا نملك أن نتنفس.. ولا نملك أن نتحرك.. فأنت لا تملك أن تحرك أصبعاً من أصابعك إلا إذا كان الله قد أذن لك في ذلك. فحينما يستشعر الإنسان أنه مجرد من القوة، ومجرد من الحول والطول، وأن الله هو الذي يكرمه ويعطيه ويجازيه، فلا شك أن هذا يكون ثمرة الطاعة والعبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى..

"قال ﷺ: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني. فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه. فإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت منه باعاً، وإن أتاني مشياً أتيته هرولة" أخرجه الشيخان."

لا شك أن هذا يوسع معنى الذكر.. ذكر الإنسان لله، والعبد لربه.. ويجعل الإنسان يسعى إلى الذكر مشوقاً وراجياً ومتلهفاً، لأن هذا العبد القليل الصغير إذا ذكر الله ذكره الله.. (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني).. وهذا عطاء ضخم جداً لا تحسه إلا القلوب الرقيقة.. القلوب التي تعرف مقام الألوهية، وتعرف عظمة الألوهية، وتعرف ضآلتها هي وحقارتها.. (فإن

٣ أخرجه أحمد والطبراني من حديث أبي ذر وإسنادهما حسن.

ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي).. كم يحرص الواحد منا أن يتقرب إلى إنسان مثله له مكانة، ويسعد جداً أن يذكره، وإذا ناداه باسمه أو بين الناس يعتبر هذه سعادة ما بعدها سعادة.. أن يذكره ملك من الملوك، أو عظيم من العظماء، أو غني من الأغنياء، أو أي إنسان له قيمة عنده، فيسعد جداً أن يذكره هذا الإنسان، ويتساءل من له صلة بذلك الملك أو الوجيه: هل ذكرني عندك؟ هل عندما كنت تزوره جاء اسمي على لسانه؟ رغم أنه بشر لا قيمة له مهما علا قدره.. فما بالنا إذا كان الله عز وجل يذكرنا في نفسه إذا ذكرناه في أنفسنا.. ألا يكون هذا شعوراً يبعثنا ويحثنا على أن نظل ليل نهار نذكر الله عز وجل، ونتفكر فيه، ونتقرب إليه، ونتملقه سبحانه وتعالى.. ثم بعد ذلك (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه).. ملأ الملائكة والصالحين والأنبياء في الدنيا وفي الآخرة.. ثم (وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً)، لا شك أن الجزاء على هذه الطاعة هائل وكبير.

واشتغال الملأ الأعلى أيضاً بأمر المؤمنين في الأرض نتيجة لطاعة المؤمنين لله وخلوصهم له سبحانه وتعالى.. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧]. ومن هنا تزول الوحشة والشعور بعدم السند، بل يشعر المسلم والمؤمن دائماً أن له عصبة في الملأ الأعلى، وأنهم معه حتى ولو كان وحده في الأرض، وحتى لو انقلبت الأرض كلها أعداء، فهو ليس وحده.. الله والملائكة معه، والملائكة يدعون، والله يرقبه.. هذا الشعور بالائتناس يزيل تلك الوحشة التي يحسها الإنسان حينما يتعرض للأذى، ويتعرض للعذاب في الدنيا. فهو يستهين بكل ذلك، لأنه حقاً يعيش مع الله، وحقاً يصدق قول ربه أن الملائكة منشغلين به يدعون له ويستغفرون له.

ثم إن الشهداء الذين يموتون بعد هذا ليسوا أمواتاً.. ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].. فيصبح القتل في حس المؤمن أشبه بالمخدر الذي يأخذه المريض في العمليات لينقله من حال إلى حال مخدر وقتي.. ينقله من الدنيا إلى الآخرة.. ينقله من دار الفتنة إلى دار النعيم، لأن القبر بالنسبة للمؤمن روضة من رياض الجنة، ويفسح له فيه سبعين ذراعاً، وينوّر، ويرى مقعده من الجنة، وينام، ويقال له: نام نومة العروس حتى يأتي يوم البعث.. فالموت في حس المؤمن ليس شيئاً رهيباً ولا مخيفاً إلا بقدر ما ينتظره بعد الموت، فإذا كان المؤمن محسناً ومختوماً له بخاتمة السعادة فإنه يكون سعيداً بالموت ومرحباً بالموت، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، فالموت بالنسبة للمؤمن والقتل والاستشهاد هو انتقاله من حال إلى حال، أو من وضع إلى وضع أفضل منه وأحسن. فلماذا يضيق الناس بالقتل؟ ولماذا يضيقون بالموت في سبيل الله؟

وهذه المشاعر لا تأتي إلا حينما يكون هناك يقين. ولكن -كما نرى الآن- أن من يسمون أنفسهم مسلمين ومسلمات يصرخون على من يموت في المعركة وفي الحرب، ويخشون أن يذهب إلى الجهاد. وهذا كله ناتج عن عدم الإيمان وعدم اليقين. بينما كان الأطفال يتنافسون ليدخلوا الغزوات والحروب.. وكان البيت الذي لا يموت له شهيد يستحيي أصحابه أن يلقوا الناس، لأن الله لم يخصهم بكرامته، ولم يجعلهم موضع شهادة.

فالمقاييس تختلف.. والمجتمع المسلم حينما يتلقى من الله، ويتلقى من القرآن، ويتربى التربية النبوية، تتغير مقاييسه، ويصبح الناس يتنافسون على الموت ويتنافسون على الشهادة.. ويتفاخرون بعدد الشهداء الذين استشهدوا من الأسرة أو من العائلة. وكما رأينا كيف أن الخنساء مات أولادها الأربعة في معركة واحدة وهي صامدة لا تضيق ولا تغضب. ورأينا كيف كانت أسماء تشجع عبد الله بن الزبير أن يموت وأن يخلع درعه التي يتدرع بها، وتقول له: يا بني هذه ليست ملابس من يريد الشهادة.. هكذا كان الناس تتغير قيمهم وتتغير أعماقهم في إدراكهم لهذا الدين وتعاملهم معه.

فلا شك أن هذه كلها ثمرات اليقين، وثمرات الارتفاع إلى مستوى الحياة مع الله عز وجل..

"كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والإملاء لهم في الأرض والإمهال إلى حين.. وإن كان أحياناً قد أخذ بعضهم في الدنيا.. ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الأخير:

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۞ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]..

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣]..

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢].."

فكما أن الآخرة حق في حس المؤمن، فهي أيضاً حق بالنسبة لمصير الكافر، وسيجد المكذبون والطغاة مصيرهم، والمؤمن على يقين من هذا المصير. وبالتالي لا يغتر ولا يضيق ولا يتشكك حينما يرى هؤلاء الطغاة يتقلبون في العافية أو في النعيم أو في السلطان، أو مسلطين عليه، فيظن أنه على الباطل وأنهم على الحق، أو يتشكك في قول الله!

لكن اليقين يجعله مستيقناً بأن هذا متاع قليل وتافه، وأن العذاب ينتظرهم في يوم ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣] من الذل ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] من الخوف ومن الهلع، فحينما يكون عند المؤمن هذا اليقين تتحقق عنده أشياء كثيرة، ويصبح كياناً آخر.. كياناً منسجماً مع اليقين بالله، ومنسجماً مع الحقيقة التي ينبغي أن يعيشها طويلاً.

نحن في حاجة أن نصل إلى درجة أعمق من اليقين؛ اليقين بوجود الله، وبعظمة الله، وبفعل الله، وبقدر الله، وبوعد الله عز وجل ووعيده.. ولا شك أننا محتاجون أن يكون يقيننا أعمق مما نحن عليه حتى نصل إلى هذا المستوى السامق الذي وصل إليه أصحاب الأخدود.

"وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى، واتصلت الدنيا بالآخرة، ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والطغيان. ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف، ولا موعد

الفصل في هذا الصراع.. كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائذ وآلام ومتاع وحرمان، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان."

تتغير تصورات الإنسان، وتتضح الحقيقة بأبعادها الواسعة جداً، والفسيحة جداً، بحيث تبدو الدنيا، وتبدو الأرض، ويبدو كل ما عليها جزء تافه صغير جداً من حقيقة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن.

"انفسح المجال في المكان، وانفسح المجال في الزمان، وانفسح المجال في القيم والموازين، واتسعت آفاق النفس المؤمنة، وكبرت اهتماماتها، فصغرت الأرض وما عليها، والحياة الدنيا وما يتعلق بها، وكبر المؤمن بقدر ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات، وكانت قصة أصحاب الأخدود في القمة في إنشاء هذا التصور الإيماني الواسع الشامل الكبير الكريم."

اتسعت الرؤية، واتسع مجال المكان، فلم تعد هي الأرض وحدها، وإنما السماوات والأرض والملأ الأعلى والآخرة. وانفسح المجال في الزمان، فلم يعد زمن الأرض فقط، وإنما الآخرة التي لا نهاية لها. وانفسح المجال في القيم والموازين، وأصبحت القيم أعظم وأضخم وأخطر، لأنها جاءت من السماء، ولأنها واسعة سعة السماء والأرض، واتسعت آفاق النفس المؤمنة، لم تعد منحسرة ومحصورة في طموحات الأرض ولعاعات الأرض وشهوات الأرض كما يعيش الحيوان. وإنما اتسعت آفاق النفس المؤمنة، وكبرت اهتماماتها. وصغرت الأرض وما عليها.. صغرت الأرض كما هي في الحقيقة، وليست مجرد صغر نسبي أو وهم.. هي صغرت وأخذت مكانها الحقيقي، بعد أن كانت قد أخذت مكاناً أكبر من حجمها حينما كان الإنسان غافلاً، وصغرت الأرض وما عليها، والحياة الدنيا وما يتعلق بها.. الحياة الدنيا التي صورها الله كهشيم تذروه الرياح، والهشيم مهما كان ضخماً، ومهما كان هائلاً، فإنه لا وزن له على الإطلاق.. صغرت كل هذه الأمور، وتحددت النسب بصورة صحيحة، وكبر المؤمن بمقدار ما رأى.. المؤمن العارف بالله.. المؤمن العارف بالآخرة.. المؤمن الذي يتبع الأنبياء.. المؤمن الذي يشتاق إلى وجه الله.. المؤمن الذي عرف حقيقة الوجود.. لا شك أنه كبر وعظم وارتفعت قيمته الحقيقية بقدر ما عرف من الآفاق الجديدة، ومن الحيوات الجديدة، لأن الأفق أمامه قد اتسع إلى ما لا نهاية، لأن الله لا نهاية له سبحانه وتعالى.

ولا شك أن أصحاب الأخدود كانوا قد تصوروا كل هذا، وانطلقوا من قيود الأرض، ومن صغر الأرض، ومن قيم الأرض، إلى هذه الآفاق الواسعة، التي جعلتهم يتحملون بفضل الله عز وجل كل هذا العذاب، فكانوا يلقون بأنفسهم في النار. وكما جاء في الأثر: أن طفلاً رأى أمه قد ترددت فأمرها أن تلقي نفسها في النار ولا تخاف[٤].. فكأن هذه الطائفة كلها بأطفالها.. بفتيانها.. بفتياتها.. بعجائزها.. بشبابها.. كلهم قد نجحوا في الاختبار. وهذا قمة ما سجل للبشرية من رفعة ومن شرف كبير. وتصبح قصة أصحاب الأخدود مثلاً أعلى وأكبر من أي مثال آخر، لأن الأمثلة الأخرى قد شهدت ما يشفي صدورها، وأخذت جزاءً في الأرض، أو بعض الجزاء، أو بعض العوض في الأرض على ما بذلت. لكن أصحاب الأخدود هؤلاء قد ذهبوا بأجرهم

---

٤ الحديث بطوله في قصة أصحاب الأخدود وفي آخره (.. حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيه فقال لها الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق) أخرجه مسلم من حديث صهيب -رضي الله عنه-.

كاملاً، ولم يروا في الدنيا غير الموت وغير الحرق، ولكن لا شك أنهم سجلوا أعظم درجات في الأرض، ونجحوا بأكبر تقدير يمكن أن يحصل عليه إنسان في حربه مع الطغيان، وفي عبادته لله سبحانه وتعالى.

طبيعة الدعوة إلى الله وموقف الداعية أمام كل احتمالاتها المختلفة

"هنالك إشعاع آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج، حول طبيعة الدعوة إلى الله، وموقف الداعية أمام كل احتمال.

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات مختلفة للدعوات في الأرض..

شهد مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد، مجرد النجاة. ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة. وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجِّل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك."

فهذا نموذج.. ناس ينتصرون.. ينصرهم الله عز وجل، ويقضي ويسحق الطغاة، ويبقى المؤمنون.. ولكن لم يذكر لهؤلاء المؤمنين دور كبير في إقامة حياة طويلة عريضة على منهج الله في الواقع كما حدث في الرسالات الأخرى.

النموذج الثاني هو نموذج موسى -عليه السلام-:

"وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم، وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة. وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً.. وهذا نموذج غير النماذج الأولى."

نموذج ثالث هو نموذج صحابة رسول الله ﷺ:

"وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد ﷺ وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجيباً. وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط، من قبل ولا من بعد."

ونموذج رابع هو (نموذج أصحاب الأخدود).

"وشهد نماذج أخرى أقل ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث. وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون."

ولو تتبعنا تاريخ الحركات الإسلامية التي ظهرت لإقامة الحياة الإسلامية، أو لإصلاحها، سواء داخل التاريخ الإسلامي والخلافة الإسلامية، أو تلك الحركات التي حدثت في تاريخنا المعاصر، ابتداء من حركة محمد بن عبد الوهاب والحركة السنوسية

وغيرهما، أو الإخوان والجماعة الإسلامية في باكستان، أو الحركات التي تحدث في العالم الآن نجد أن لها نتائج تتفاوت كثيراً، متناسبة مع قدر استقامتها، أو قدر نقصانها في التزامها المنهج والتزامها الصدق.. فنجد نهايات كثيرة، وجماعات تأتي وتذهب، وجماعات تستمر وجماعات تنحدر وتنقلب على عقبيها.. فالنماذج كثيرة والنهايات متنوعة.

"ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود، إلى جانب النماذج الأخرى، القريب منها والبعيد.."

لم يكن بد من نموذج أصحاب الأخدود

لماذا؟

"لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين -أصحاب دعوة الله- أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم من الأمر شيء. إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله!"

وبالتالي يتجردون من كل الحظوظ، ولو كانت هي حب النصر لدين الله عز وجل على أيديهم..

"إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يَصْدقوا الله في العمل والنية.."

هذا ما يريده الله من الطائفة المؤمنة التي تريد أن تكون مصطفاة من الله عز وجل.. عليهم أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا، فليس عليهم النتيجة التي تنبني على ما يفعلون. فالنظر إلى النتيجة دائماً، وجعلها ميزاناً للنجاح والفشل يؤدي بالجماعات إلى كثير من العثرات وتغيير المناهج نتيجة للرغبة في الحصول على نتائج بأي صورة من الصور.. لكن إذا علموا أن ليس لهم أن ينتظروا نتيجة معينة، وأنهم لا بد أن يلتزموا بالمنهج، ويسمعوا ويطيعوا، ثم ليس عليهم بعد ذلك النتيجة، فإن هذا يجعلهم ملتزمين وثابتين على منهج الله.

"إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء. وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه."

وقد تكون نهاية لا نعلمها غير كل هذه النهايات التي مرت.

العبودية الحقة لله

"إنهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!"

وبهذا تتحقق فعلا حقيقية العبودية، حينما يخلو الإنسان من الرغبة، ومن الشرط، ومن انتظار الجزاء، ومن الاعتراض، ومن الاقتراح. وحينذاك يتحقق أنه عبد حقيقة للسيد الذي يستحق هذه العبودية، فبدون هذا لا تكون العبودية مكتملة، فحينما يأتي في نفس الأجراء هؤلاء أن يشترطوا شروطاً، أو حين يستأخرون نصراً أو يستعجلونه، أو يضيقون بواقع أو باضطهاد أو بطول الطريق، أو.. أو.. كل هذا نقص في الإيمان، ونقص في التجرد...

"إنهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم!.." فهم سيأخذون أجرهم بصرف النظر عن النتيجة، فلماذا يقلقون؟ ولماذا يتدخلون في أمر صاحب الأمر الذي هو أعلم؟ والذي يريد أن يكون هو الحاكم الواحد الذي يقرر، لا يشاركه أحد. فأي محاولة للتململ من هذا هو نوع من الشرك الخفي الذي لا يجب أن يقع فيه المؤمنون.

فالشعور النفسي الذي يجب أن يملأ نفوس الدعاة الذين يسيرون في طريق الله هو: أنهم أجراء عند الله، ليس لهم أي مصلحة أو اقتراح في النتائج التي تترتب على ارتباطهم والتزامهم بالمنهج القويم.

وأياً كانت العقبات، وأياً كانت النتائج، فليس لهم أن يغيروا من المنهج، ولا أن يقترحوا، وإنما يكونون أمناء جداً بصرف النظر عن النتيجة. وبذلك يكون همهم وجهدهم محصوراً في شأن واحد.. في شأن أن يخلصوا العبودية لله.. فلا يفرقون ويشتتون جهدهم في أعمال أخرى، وفي الوصول إلى أشياء أخرى.. فواجبهم أن يحسنوا الطاعة لله، ثم بعد ذلك يكون ما يكون.

الجزاء الحقيقي للمؤمن

"وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب، ورفعة في الشعور، وجمالاً في التصور، وانطلاقاً من الأوهاق والجواذب، وتحرراً من الخوف والقلق.." ولا شك أن هذه لو كانت وحدها لكانت تكفي جزاءً.. فأي جزاءٍ في الدنيا هو خير من أن يحترم الإنسان نفسه، ويشعر أنه مطمئن، وأنه غير مكبل بالأغلال وبالقيود؟

ولكن هذا ليس هو الأجر الوحيد..

"وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناءً في الملأ الأعلى وذكراً وكرامة، وهم بعد في هذه الأرض الصغيرة." سيذكرهم الملأ الأعلى، ويذكرهم الله، وتذكرهم الملائكة، ويذكرهم الأنبياء...

"ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حساباً يسيراً ونعيماً كبيراً.

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً. رضوان الله.." يكفي شعورهم أنهم يرضون الله سبحانه وتعالى، وأنهم كانوا عند حسن ظن الله سبحانه وتعالى، وعبدوه كما أراد لهم، فالله خلقهم من أجل أن يعبدوه فأحسنوا هذه العبادة. ورضي الله عنهم. وهذا أكبر أجر ينتظره المؤمن..

"ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعاً. رضوان الله، وأنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستاراً لقدرته، يفعل بهم في الأرض ما يشاء."

هذا الجزاء الرباني أو العطاء الرباني على ما يفعله المؤمن، من عبودية كاملة، وتجرد كامل، هو فوق ما يشعر به المؤمن من احترام لذاته، ورفعة لشعوره، وإحساسه بهذا التصور الرائع الجميل، وتحرره من كل القيود التي يرزح تحتها الجاهليون. فهو يقبض من الله سبحانه وتعالى أشياء كثيرة؛ ثناء في الملأ الأعلى، وجزاء في الآخرة، ورضوانا من الله سبحانه وتعالى..

التوجيهات القرآنية والتربية النبوية رفعت الجيل الأول إلى القمة السامقة، فما هو واجبنا؟

"وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من المسلمين في الصدر الأول إلى هذا التطور، الذي أطلقهم من أمر ذواتهم وشخوصهم. فأخرجوا أنفسهم من الأمر البتة، وعملوا أجراء عند صاحب الأمر ورضوا خيرة الله على أي وضع وعلى أي حال."

ورأينا أن هذا التجرد لم يكن فقط في قضية الحركة وإقامة الدولة، وإنما كان في خاصة أمورهم الشخصية، وفي مصائبهم الخاصة، فكنا نراهم شديدي الرضا بما يصيبهم من مصائب، ويرضون باختيار الله سبحانه وتعالى، ولا يجرؤون أن يطلبوا تغيير هذا القدر.

وقد ذكرنا نماذج لذلك بما أصاب سعد بن أبي وقاص من عمى، وما أصاب عمران بن حصين من مرض الاستسقاء، وما أصاب المرأة السوداء من الصرع، وكان النبي ﷺ والقرآن يربي الصحابة على الرضا بكل ما يختاره الله لهم ما دام ليس عصياناً أو كفراً.. فكانوا يرضون بقدر الله ولا يحاولون تغييره، أو لا يطلبون تغييره.

ولعل هذا الأمر يتعارض في حس الناس مع الأخذ بالأسباب، ومع التداوي.. وحقيقة الأمر أنه ليس كذلك.. وإنما كل هذا يعتبر درجات من درجات الإحسان ومن درجات الإيمان. فكما أن السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب كانوا لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون[٥].. فهذه الأمور كلها من باب التوكل، وكمال التوكل على الله عز وجل. وهذا لا يناقض من يتداوى، أو من يطلب الدواء. لكن الذي يطلب الدواء إنما يطلبه لكي ينطلق إلى طاعة الله، ولكي يشفى ليطيع الله عز وجل، وأن يعتقد أيضاً أن الشفاء بأمر الله، وليس من السبب.

ولا شك أن الصحابة كانوا قد ارتقوا إلى هذا الطور الرفيع جداً من أمر التوكل الكامل على الله، والحب لما يحبه الله عز وجل، والرضا بكل ما يختاره الله لهم. فتوكلوا على الله، ورضوا بقضائه، وتجردوا من حظوظ أنفسهم.

٥ صحيح البخاري. ج٧. ص١٢٦.

"وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية، وتوجه القلوب والأنظار إلى الجنة، وإلى الصبر على الدور المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء.

كان ﷺ يرى عماراً وأمه وأباه -رضي الله عنهم- يعذبون العذاب الشديد في مكة، فما يزيد على أن يقول: "صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة"[٦].

وعن خبّاب بن الأرتّ -رضي الله عنه- قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ أو تدعو لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه. ما يبعده ذلك عن دينه. والله ليتممن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، فلا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون".. [أخرجه البخاري].."

فلا شك أن هذه التربية القرآنية والتربية النبوية رفعت المسلمين إلى مستوى الرضا، ومستوى القدرة على الرضا، ومستوى الارتفاع على الإحساس بالألم من خلال الانصهار الكامل في مقام العبودية ومقام المحبة لله عز وجل.

وقلنا إن هذا لا يأتي إلا من خلال المجاهدة. وقلنا قبل ذلك إن الإنسان لا يضع نفسه في أي مقام بقرار.. بحيث يقرر أن يكون من المتوكلين، أو أن يكون من الصابرين، أو أن يكون من الراضين.. دون أن يكون قد حاول ليصل إلى ذلك.

فإذا لم يكن قد حاول وأخذ الخطوات التي تؤدي إلى هذا فلا بد أن يفشل في هذه المهمة. فدرجات الإيمان كثيرة، ومعارجها كثيرة، فينبغي للإنسان أن يبدأ من النقطة التي هو فيها ثم يرتقي إلى نقطة النهاية، فلا يعتسف الطريق حتى مع نفسه، لأنه قد يحملها ما لا تطيق. فليس كل ما نراه من الصحابة نستطيع أن نفعله بقرار. ولكننا نستطيع أن نفعله من خلال التربية، والمواظبة على التربية، وعلى المجاهدة. فعندما يجد بعضنا، أو يجد واحد منا أنه يفشل في بعض المواقف فذلك لأنه لم يربِّ نفسه على هذه المواقف، ولم يأخذ نفسه بالمجاهدة.. فعلى الإنسان ألا يفتعل شيئاً، لأنه قد يفشل إذا حاول اعتساف الطريق.

فهؤلاء الصحابة وصلوا إلى هذا لأنهم رُبوا وتربوا، وجاهدوا أنفسهم، وحرصوا على المجاهدة، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه. فإذا أردنا أن نكون على طريقهم وعلى مقامهم فإنه لا بد أن تكون المجاهدة على قدر الطموح الذي نريده ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فلا بد من الاتباع بإحسان.. فليس أي اتباع يصلح لكي نلحق بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. فإذا كنا نريد أن نكون مثلهم لا بد أن نصل إلى ما وصلوا إليه من خلال المجاهدة. وإلا كيف يحتمل إنسان أن يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه.. كيف يصبر على ذلك ولا يترخص فيما يبعده عن دينه. لا شك أن هذا وصل إلى درجة من اليقين، ودرجة من المحبة لله، ودرجة من اصطفاء الله، واستدعاء معية الله. وفي هذه اللحظات يريح الله سبحانه وتعالى عبده من الألم كما

٦ أخرجه ابن اسحاق في السيرة، وابن حجر في الإصابة والذهبي في سير أعلام النبلاء.

يقول الحديث (ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة)[٧].. كيف وصل إلى هذا؟ لا شك أنه استحق من الله المتفضل بالعطاء أن يخفف عنه إحساسه بالألم.. ونحن نعرف من العلم الحديث أن الإنسان مزود بأشياء تزيد شعوره بالألم، أو تنقص شعوره بالألم.. والله قادر سبحانه وتعالى إذا أراد أن يخفف عن عبد أن ينشط هذه المثبطات للألم، فيضرب ولا يحس بحجم الألم ما دام قد استسلم لله عز وجل. أما الآخر الذي لم يقدم لنفسه في أوقات الرخاء فسوف يجد أن مثبطات الألم ضعيفة جدا، فيكون إحساسه بالألم شديداً، وقد يفتن.. وقد يرجع..

ولكي نستدعي معية الله وعنايته، وتخفيف الله عن العبد وتثبيته، فإنه لا بد أن نعمل في أوقات الرخاء حتى نستحق معية الله عز وجل. فالصحابة وأصحاب الأخدود ما وصلوا إلى هذه النقطة إلا لأنهم عاشوا بلا استشراف إلى شيء من الدنيا، وكانت غايتهم أن يرضوا الله سبحانه وتعالى. وكانوا أجراء حيثما وكيفما وأينما أمروا أو أرادهم الله أن يعملوا عملوا، دون أن ينتظروا مقابل، ودون أن ينتظروا أجراً على ذلك في الدنيا، أو جزاءً عاجلاً، وإنما كانوا يعلمون أن الجزاء في الآخرة.

الشعور بقدر الله في قلوب المؤمنين

"إن لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال، ومدبر هذا الكون كله، المطّلع على أوله وآخره، المنسق لأحداثه وروابطه. هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور، الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل."

قلنا قبل هذا أن إيماننا بالقدر جزء منه بسبب أننا لا ندري ولا نعرف شيئاً عن علم الله عز وجل، فالله عز وجل يقدر قدره، لا بالنسبة لي وحدي، ولا بالنسبة لك وحدك، وإنما بالنسبة لمجموع البشر في كل الأجيال. فبالتالي قد يأتي القدر على غير ما تحب وعلى غير ما تتوقع، لأن ذلك يحقق الحكمة النهائية والقدر النهائي الذي يريده الله عز وجل. فالإنسان لا يجب أن يقيس القدر بعمله الجزئي، ولا بمصلحته الشخصية، ولا برغباته الخاصة، وإنما يترك الأمر لصاحب الأمر، فهو الأعلم، وهو الذي ينسق كل الأمور لكي تحدث ما يريده الله عز وجل من أقدار للناس، والله عز وجل ينعم على هذا، ويعاقب هذا، ويبتلي هذا، ويفتن هذا ويجعله فتنة للآخرين.. فيأتي قدر الله ليخدم أشياء كثيرة نحن لا نعلمها.

فالإنسان لا يجوز أن يعترض على حكمة الله، ولا على علم الله، ولا على قدر الله. وإنما عليه أن يلتزم هو بالمنهج الصحيح، ثم يرضى بأي قدر يقدره الله عليه، ويعتقد أن في هذا القدر الخير، ويعتقد أن هذا يسير مع الحكمة التي تنسق أمور الكون كله التي لا يعلمها إلا الله. وهذا لأننا لا نستطيع أبداً أن ندرك سر القدر. لأن الله هو وحده الذي يعلم ماذا يريد، ويعلم كل أسرار البشر، وكل أسرار الكون. وينسق بين هؤلاء جميعاً وبين الأجيال من بعدهم ومن قبلهم. فقد يحدث حدث صغير من ألف سنة ولكنه يحقق نتائجه بعد ألف سنة أخرى أو آلاف من السنين. لأن الله عز وجل يسيِّر قدره كما يشاء.

٧ أخرجه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وفي رواية (من ألم القتل..).

فعلى المؤمن -إن كان موقناً بربه ويعرف نفسه- أن يعرف النسبة بين علمه وعلم الله.. علم المخلوق وعلم الخالق.. علم المحدود وعلم المطلق.. فجزء من إيماننا بالقدر ينتج عن اقتناعنا الشديد بأننا لسنا أهلاً لكي نعرف حكمة الله ولا حكمة القدر، ولا أن نعرف أين الخير من الشر.. وكما قال الله تعالى لنا ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. فالله ربنا يوجهنا إلى الأدب معه سبحانه، لأن قدر الله مبني على العلم، وعلى التنسيق الكامل بين أفراد هذا الكون وأجزائه. فالعبد المؤمن لا بد أن يعرف هذا الأمر ويستيقنه.

"وفي بعض الأحيان يكشف لنا -بعد أجيال وقرون- عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته، ولعلهم كانوا يسألون لماذا؟ لماذا يا رب يقع هذا؟ وهذا السؤال نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن. لأنه يعرف ابتداءً أن هناك حكمة وراء كل قدر، ولأن سعة المجال في تصوره، وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازين تغنيه عن التفكير ابتداءً في مثل هذا السؤال. فيسير مع دورة القدر في استسلام واطمئنان.."

وهذه أيضاً إحدى صور العبودية لله..

جوهر العبودية في حياة الإنسان أن يسير مع قدر الله في استسلام واطمئنان، لأن ما يجريه الله من قدره هو الخير الذي لا يدركه الإنسان، لقصر مدى النظر، ولقلة العلم، ولغير ذلك من أمور..

متى نكون أمناء على الحق؟

وتقرر الفقرة التالية جوهر القضية كله، وتنبئنا بغاية التربية القرآنية، وبغاية المنهج القرآني..

"لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع -وهي تبذل كل شيء، وتحتمل كل شيء- إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت. بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فُعل بالمكذبين الأولين!"

هذه الفقرة تلخص جوهر القضية، وجوهر المطلوب. فالحق يريد قلوباً انتهت من حظوظ نفسها تماماً، ووصلت لدرجة الصلابة والقوة والتجرد، بحيث تحتمل كل شيء، دون أن تنظر إلى أي جزاء إلا رضوان الله عز وجل. وبالتالي فهي يمكن أن تقضي فترة الأرض كلها في نصب وحرمان وشقاء دون أي جزاء على الإطلاق.

فالتربية القرآنية هذا هو هدفها وهذه غايتها؛ أن تنشئ قلوباً تكون صلبة وقوية ومتجردة، تحتمل كل شيء، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ومستعدة أن تعيش حياتها في نصب وشقاء بلا جزاء في الأرض قريب، حتى ولو كان الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام أو حتى إهلاك الظالمين.

كثيراً ما يشغل الدعاة أنفسهم بالدعوة على الظالمين، وباستعجال النصر، أو استعجال الفرج، ويحسّون أن الأيام تجري بطيئة وثقيلة عليهم وهم في سجونهم وفي معتقلاتهم. ويضيقون أشد الضيق وهم يرون الطغاة يعلو شأنهم. فيتعبون أنفسهم في الدعاء عليهم، وفي الدعاء بالفرج، دون أن يعملوا على تزكية نفوسهم، وعلى تجريد نفوسهم من هذا الأمر. والكثير منهم يسقط، ضيقاً بالرحلة الطويلة، وضيقاً بطول الأمد، وضيقاً بتأخر النصر، أو إحساساً بأن الكفار والظالمين لعلهم على حق ما دام الله لم يأخذهم.

ولا شك أن كل هذا ناتج عن عدم العلم وعدم اليقين وعدم التجرد لله. وأنهم يدخلون الإسلام بشروط، ويدخلون العبودية بشروط على الله عز وجل واقتراحات.

فهذا هو جوهر القضية الذي ينبغي أن نصل إليه من خلال هذه المعالم؛ أن نربي قلوبنا وقلوب أزواجنا وأولادنا على أن تكون متجردة، وتكون قوية، وتكون مستعلية، ولا تنتظر جزاءً على ما تفعله وما تؤديه.

هنا فقط يتحقق وعد الله بنصر المؤمنين!!

"حتى إذا وُجدت هذه القلوب، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل -أي مقابل- وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، وائتمنها عليه؛ لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه."

هذه قمة العبودية، وقمة التجرد لله عز وجل. وواضح أن هذا لا يحصل إلا من خلال المجاهدة الطويلة المستمرة التي تأخذ بكل الأسباب إلى أن تصل النفوس لهذا التجرد وهذا الخلوص، وألا تنتظر مقابلاً على ما تقدم لله، ولا تكون كالذي يعامل تاجراً تدفع له وتطلب المقابل العاجل.

الله عز وجل وعدها أجراً ضخماً، ولكن ليس في هذه الدنيا.

يقول **"وكل الآيات التي ذكر فيها النصر، وذكر فيها المغانم، وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة.. بعد ذلك.. وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية، تقرره في صورة عملية محددة تراها الأجيال.. فلم يكن جزاءً على التعب والنصب والتضحية والآلام، إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن!"**

فحتى لو انتصر الإسلام وانتصر المسلمون فليس هذا جزاءً على ما قدموه، وإنما هو تحقيق لقدر شاء الله أن يقع على أيدي هؤلاء. لأن الله في قدره أن يعلو هذا الدين، وأن يطبق في الأرض. فلا يعتبر هؤلاء أن هذا جزاءً على ما قدموا. وإلا فلماذا لم

يتحقق على أيدي الآخرين الذين سبقوهم في الطريق؟ فكأن الجزاء يختلف، وكأن المكاييل الربانية تختلف -حاشا لله عز وجل- ولكن مشيئة الله أن تُمكَّن طائفة ولا تُمكَّن أخرى.. فهذا من أسرار قدر الله عز وجل التي يريدها، وليست جزاءً على التعب والنصب والتضحية والآلام.. ومن ثم تصاحب المؤمن حالة نفسية مهمة؛ ألا يشعر المؤمن بأن هذا الانتصار وهذا الكسب من عمل يده ومن تضحياته. وحينما دخل رسول الله ﷺ مكة دخلها ساجداً على ناقته، وهو يعلم أنه ليس له من الأمر شيء ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر]، فدائماً يُدعَى المؤمن للاستغفار بعد أن يقدم الطاعات، لأنه يعلم أن الله هو الذي وفقه للطاعة، وأن طاعته بالتأكيد لم تكن كاملة، ومن ثم فهي تحتاج إلى استغفار.. فلا يستكبر، ولا يحس أنها من عنده، ولا يمنّ بها على الله سبحانه وتعالى. وإنما حينما يتحقق نصر، أو تتحقق طاعة، فإنما هي بقدر من الله، وبعون من الله سبحانه وتعالى، وهذا أمر الله عز وجل.

ثم يقول رحمه الله: إن **"الآيات التي ذكر فيها النصر، وذكر فيها المغانم، وذكر فيها أخذ المشركين في الأرض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة.. بعد ذلك.. وبعد أن أصبحت هذه الأمور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه.."**

وهو يتكلم هنا عن القاعدة الصلبة التي هي من الأنصار والمهاجرين، الذين دخلوا الإيمان من بابه الصحيح، واندمجوا وامتزجوا وانصهروا بالحقيقة الإيمانية، فكانوا مثلاً من أمثلة الخلوص لله عز وجل. فلم يكن الحديث عن النصر والمغانم إلا كأحد التوقعات، أو أحد الأقدار التي قدرها الله لهذه الفئة؛ أن ينصرها، وأن يرزقها الغنائم، وأن وأن وأن..

"وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله، في كل أرض وفي كل جيل. فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش، وأن تثبِّت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته، كيفما كانت هذه النهاية. ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون. فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء، وبالعرق والدماء، إلى نصر أو غلبة، أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض.. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله.. لا جزاء على الآلام والتضحيات.. لا، فالأرض ليست دار جزاء.. وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء، وحسبهم هذا الاختيار الكريم، الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة، وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء."

ولا شك أن هذا أفق سامق جداً يدعونا إليه الإسلام؛ إلى أن نصل إلى هذا التجرد الكامل، وألا نستبطئ، أو نستعجل، أو نقترح. ولكن علينا أن نكون في حالة العبودية الدائمة. فهذا كله ضروري لتتحقق العبودية في شكلها النقي. وتبدو الألوهية في علاها وعظمتها حين يتعامل معها هذا المخلوق الإنساني العجيب. ولا شك أن هذا الإنسان بما يفعل من طاعة وتجرد يجسد معنى العبودية لله. فالملائكة وغيرهم من الخلائق مجبولون على هذا ولا يُبتلون ولا يختارون.

لكن الإنسان أمامه أن يختار الله أو يختار غيره، أمامه أن يسير في طريق الإيمان أو أن يسير في طريق غيره، أو أن يطالب بشروط ويطالب بجزاء أو لا يطالب بهذا، وأن يتجرد.. فهذا كله خاص بالإنسان. وهو أفق تفرد به الإنسان. ومن ثم فهو شيء من اصطفاء الله لهذا الإنسان، واختيار الله الكريم له. وبذلك تتحقق العبودية أبدع ما يكون في عبودية الإنسان الخالصة لله، وتبدو فعلاً الألوهية في أعظم مجالاتها حينما يكون هذا الإنسان خاضعاً مختارا محباً لله سبحانه وتعالى.

والملائكة حينما يعبدون فليس لهم فضل في هذه العبادة، والكائنات الأخرى حينما تُسَبِّح ليس لها فضل في هذا. ولكن الإنسان الذي أُعطي القدرة أن يختار بين الأمرين، فاختار الله، وعبده، وتجرد له، وأخلص له، وارتفع إلى هذا المستوى السامق، هذا الإنسان يجسد معنى العبودية الكامل، وتبدو أيضاً قضية العبودية في أوج عظمتها من خلال السلوك الإنساني.

حقيقة المعركة بين المؤمنين وخصومهم: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

تبقى وقفة أخيرة:

هي حقيقة الهدف وحقيقة المعركة بين المؤمنين وبين الكافرين..

"هنالك حقيقة أخرى يشير إليها أحد التعقيبات القرآنية على قصة الأخدود في قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]..

حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل أرض وفي كل جيل.

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق. وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة.. إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية، ولا معركة عنصرية.. ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها، وسهل حل إشكالها. ولكنها في صميمها معركة عقيدة؛ إما كفر وإما إيمان.. إما جاهلية وإما إسلام!"

وهذه قضية أيضاً ينبغي أن نصدقها ونستيقنها، وأن نعلم أن الكافرين لا يمكن أن يقبلوا منا إلا الكفر والرجوع عن هذا الدين مهما حاولوا أن يخدعونا بأي لافتات أخرى، وكما يقول الله تعالى هنا ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨].. ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩].. ويقول تعالى ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].. فمهما حاولوا أن يوهمونا بأن المعركة التي بيننا وبينهم تندرج تحت أي راية أخرى فهذا نوع من التعتيم أو الخداع الذي يوهمون به المؤمنين لكي يصرفوهم عن حقيقة المعركة.. فحينما تكون القضية قضية سياسية، أو المعركة معركة اقتصادية، فإنه يسهل المساومة عليها، ويسهل الاجتهاد في حلها، وساعتها ينسى الإنسان المسلم الهدف الحقيقي والأعظم وهو العقيدة وقد صدّقهم أن

المعركة بينه وبينهم معركة سياسية اقتصادية. وساعتها يمكن أن يترخص في أمور كثيرة لأنه لا يتنازل عن العقيدة، وإنما هو يتنازل عن اقتصاد أو سياسة أو مصلحة، فيسهل عليه المساومة، ويسهل عليه التنازل.

"ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله ﷺ المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد، أن يدع معركة العقيدة وأن يدهن في هذا الأمر! ولو أجابهم -حاشاه- إلى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق!

إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة.. وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم. فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع!"

لأن هذا هو الذي يضيق به إبليس، وهذا الذي ينفس به على آدم وبنيه؛ أنهم أطاعوا الله حين عصاه، وسجدوا لله حين امتنع، وانساقوا وخضعوا لله حين تمرد. ولذلك توعدهم أن يبعدهم عن الحق، وأن يغويهم أجمعين.

لذلك.. المعركة بيننا وبين الشيطان وأتباع الشيطان هي معركة عقيدة.. لأنهم يريدون أن يزحزحوا المؤمنين عن العقيدة، ويجروهم إلى أي معركة أخرى يسهل بعدها تذويبهم، ويسهل بعدها فتنتهم.

انتبهوا إنهم يموهون الراية

"وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية، كي يموّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة. فمن واجب المؤمنين ألا يُخدَعوا، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت. وأن الذي يغيِّر راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها، النصر في أية صورة من الصور، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود، أو في صورة الهيمنة -الناشئة من الانطلاق الروحي- كما حدث للجيل الأول من المسلمين."

فالخدعة الكبرى يمكن أن تحدث. وكثير من الحركات الإسلامية في هذا العصر بالذات خُدعوا كثيراً في هذا الأمر، وانساقوا ووضعوا أيديهم في أيدي الجاهلية، واقتسموا المكاسب والخسائر، وظنوا أنهم بهذا قد استطاعوا أن يخدعوا الجاهلية وأن يكسبوا منها مواقع. والحقيقة أنهم هم الذين خسروا مواقعهم كلها، ولم يعد عندهم أي مكاسب على الإطلاق.

"ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة، وأن تزور التاريخ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستاراً للاستعمار.. كلا.. إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخراً هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى! والتي تحطمت على صخرة العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر، وفيهم صلاح الدين الكردي، وتوران شاه المملوكي، العناصر التي نسيت قوميتها وذكرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة!

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]. وصدق الله العظيم، وكذب المموهون الخادعون!"

ولا شك أن هذه نقطة من أهم النقاط التي ينبغي أن تعيها الحركات الإسلامية وبسبب الغفلة عنها حدث ويحدث ما نراه اليوم إذ يتصور الكثيرون منهم أن المعركة معركة مصالح، ونراهم -كما هو الحال الآن- يؤيدون الدخول في الديمقراطية والدخول في الانتخابات والرضا بالرأي الآخر.. وغير ذلك من الأمور التي يتصورونها، أو نراهم يقولون إنه لم يعد هناك داع إلى الجهاد لنشر الدعوة، فالدعوة الآن -كما يظنون- يمكن أن تصل عن طريق التلفزيون والانترنت، والجهاد -كما يقولون- كان لنشر الدعوة، والدعوة الآن منتشرة، فلا داعي للجهاد، ولا داعي إلى تقسيم الأرض إلى أرض إسلام وأرض كفر، لأن هذا التقسيم كان يتمشى مع روح العصر في القرون الوسطى. أما في القرون المعاصرة التي أصبحت الدنيا كلها قرية واحدة فلا يجوز أن يكون هذا.

وهكذا نجد أن كثيرا من الحركات الإسلامية قد خدعت خداعاً شديداً من خلال هذا الاستدراج من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية. وباتت تصور المعركة، أو تصور كثيراً من مطالب الإسلام بأنها لم يعد لها دور، أو أن حرب العقائد قد انتهت، وأننا الآن في عصر المصالح. ويكتبون هذا في الجرائد الآن؛ أن القرن الحالي هو قرن المصالح، وقرن الإنجازات، ولا دخل فيها للعقائد ولا للأخلاق..

فأعداء الله يريدون أن تنتهي البشرية إلى الكفر المطلق بالله سبحانه وتعالى، وإزالة هيمنة الله على حياة الإنسان، بل على حياة الكون كله، لذا فإنه يجب على كل مسلم أن يدرك حقيقة المعركة وأنها معركة إيمان وكفر.. هدى وضلال.. جاهلية وإسلام.. ولا شيء غير ذلك.

وبهذه النقطة نكون قد انتهينا من عرض هذا الفصل الأخير من كتاب المعالم، ولعلي لست في حاجة الآن أن أقول إن هذا الكتاب يمثل كما قلنا في أول اللقاءات دليل الحركة المعاصرة. وينبغي أن ندرك أهميته، وندرك قيمته في تربية كل أفراد الجماعة المسلمة، وكل أبناء الجماعة المسلمة.

ورغم صغر حجمه، فقد رأينا كيف استطاع، وكيف استطعنا من خلاله أن نلمس كل المفاهيم؛ سواء كانت عقدية أو أخلاقية أو حركية أو تكتيكية أو غيرها.. وسواء كانت ثقافة أو حضارة.. ويصل الكتاب في وضوحه وحسمه إلى درجة هائلة من الدقة والشمول تجعل الطريق إلى الله واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

ولا شك أن هذه الصحبة الطويلة مع الكتاب تربطنا به أكثر. وتجعلنا أقدر على التعامل معه. ويعز علينا مفارقة هذا الكتاب، ولكننا نريد أن نعيش معه أيضاً في مرحلة التنفيذ، ونحن في حاجة إلى أن نقرأه مرة أخرى على ضوء هذه الشروحات التي نسأل الله أن تكون نافعة لجيلنا وللأجيال التي تأتي بعدنا. وأن يجعلها الله خالصة لوجهه، وأن يثيبنا عليها جنة عرضها السماوات والأرض، وأن يغفر بها ذنوبنا، ويجبر بها كسرنا، ويعفو بها عن زلاتنا، وأن يجزي عنا الأستاذ سيد خير الجزاء، فهو نعم المولى ونعم النصير..

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وصلى اللهم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.....